

المجلد الرابع

دار الفكر العربي







البداية والنهاية

(فى التاريخ)

للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل

ابن عمر بن كثير ، القرشى ، الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤ ﻫ

(الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ ﻫ — ١٩٣٢ م)

الجزء السابع

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

دار نهر النيل للطباعة
٤٦ شارع الماوردى بالهرم
الجيزة
سجل تجارى : ٤٥٨٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سنة ثلاث عشرة من الهجرة

استهلت هذه السنة والصديق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام ، وذلك بعد مرجعه من الحج عملا بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[1] . وبقوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)[2] .. الآية . واقتداء برسول الله ﷺ ؛ فإنه جمع المسلمين لغزو الشام ـ وذلك عام تبوك ـ حتى وصلها فى حرّ شديد وجهد ، فرجع عامه ذلك ، ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد مولاه ليغزو تخوم الشام كما تقدم . ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب بسط يمينه إلى العراق فبعث إليها خالد بن الوليد : ثم أراد أن يبعث إلى الشام كما بعث إلى العراق ، فشرع فى جمع الأمراء فى أماكن متفرقة من جزيرة العرب . وكان قد استعمل عمرو بن العاص على صدقات قضاعة[3] ومعه الوليد بن عقبة فيهم ، فكتب إليه يستنفره إلى الشام : « إنى كنت قد رددتك على العمل الذى ولاكه رسول الله ﷺ مرّة ، وسمّاه لك أخرى ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحبّ إليك » فكتب إليه عمرو بن العاص : إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها ، والجامع لها ، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم بى فيها . وكتب إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك ورد عليه مثله ، وأقبلا بعد ما استخلفا فى عملهما ـ إلى المدينة . وقدم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن فدخل المدينة وعليه جُبّة ديباج ، فلما رآها عمر عليه أمر من هناك من الناس بتحريقها عنه ، فغضب خالد بن سعيد وقال لعلى بن أبى طالب : يا أبا الحسن ! أغُلِبتم يابنى عبد مناف عن الإمرة ؟ فقال له على : أمغالبة تراها أم خلافة ؟ فقال : لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم . فقال له عمر بن الخطاب: اسكت فض الله فاك، والله لا تزال كاذباً تخوض فيما قلت ثم لا تضر إلا نفسك[4] .وأبلغها عمر أبو بكر فلم يتأثر لها أبو بكر . ولما اجتمع عند الصديق من الجيوش ما أراد، قام فى الناس خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم حث الناس على الجهاد فقال: ألا إنّ لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهى حسبه

---

(١) من الآية : ١٢٣ من سورة التوبة (٢) من الآية: ٢٩ من السورة نفسها (٣) أبو حى باليمن

(٤) فى الطبرى : والله لا تزال كاذب تخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه

ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجدّ والقصد فإن القصد أبلغ ، ألاَ إنه لا دين لأحدٍ لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حِسْبَة له ، ولا عمل لمن لا نية له . ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصّ به ؛ هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة .

ثم شرع الصديق في تولية الأمراء وعقد الألوية والرايات ، فيقال: إن أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص ، فجاء عمر بن الخطاب فثناه عنه وذكره بما قال ، فلم يتأثر به الصديق كما تأثر به عمر، بل عزله عن الشام وولاه أرض «تيماء»[1] يكون بها فيمن معه من المسلمين حتى يأتيه أمره.

ثم عقد لواء يزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور الناس ، ومعه سُهَيل بن عمرو ، وأشباهه من أهل مكة ، وخرج معه ماشياً يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين ، وجعل له دمشق .

وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر ، وخرج معه ماشياً يوصيه ، وجعل له نيابة حمص.

وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين وأمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر ، لما لحظ في ذلك من المصالح .

وكان الصديق اقتدى في ذلك بنبي الله يعقوب حين قال لبنيه :(يا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وما أغنى عنكم مِنَ اللهِ مِن شيء إنِ الْحُكْمُ إلاّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وعَليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلون)[2] . فكان سلوك يزيد بن أبي سفيان على تبوك .

قال المدائني بإسناده عن شيوخه قالوا : وكان بعث أبي بكر هذه الجيوش في أول سنة ثلاث عشرة . قال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان : خرج أبو بكر ماشياً ويزيد بن أبي سفيان راكباً، فجعل يوصيه . فلما فرغ قال : أقرئك السلام واستودعك الله ، ثم انصرف ومضى يزيد وأجد السير . ثم تبعه شرحبيل بن حَسَنة ، ثم أبو عبيدة مدداً لهما ، فسلكوا غير ذلك الطريق. وخرج عمرو بن العاص حتى نزل العَرَمات[3] من أرض الشام ويقال إن يزيد بن أبي سفيان نزل البلقاء أولا . ونزل شرحبيل بالأردنّ ، ويقال ببصرى . ونزل أبو عبيدة بالجابية . وجعل الصديق يمدهم بالجيوش ، وأمر كل واحد منهم أن ينضاف إلى من أحب من الأمراء . ويقال إن أبا عبيدة لما مر بأرض البلقاء قاتلهم حتى صالحوه ، وكان أول صلح وقع بالشام .

ويقال: إن أول حرب وقع بالشام أن الروم اجتمعوا بمكان يقال له العَرَبة من أرض فلسطين، فوجه إليهم أبا أمامة في سرية فقتلهم وغنم منهم ، وقتل منهم بطريقاً عظيما . ثم كانت بعد هذه وقعة مَرْج الصُّفَّر استشهد فيها خالد بن سعيد بنْ العاص وجماعة من المسلمين . ويقال إن الذى

---

(١) تيماء : موضع ، والتيماء: الفلاة ، وأرض تيماء: قفر مهلكة (٢) الآية: ٦٧ من سورة يوسف.

(٣) العرمة ـ بفتح العين وكسر الراء ـ سد يعترض به الوادى ، والأحباس تبنى فى الأودية .

استشهد فى مرج الصفر - ابن لخالد بن سعيد ، وأما هو ففر حتى انحاز إلى أرض الحجاز ، فالله أعلم ، حكاه ابن جرير .

قال ابن جرير : ولما انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء ، اجتمع له جنود من الروم فى جمع كثير من نصارى العرب ؛ من غيرا ، وتنوخ ، وبنى كلب ، وسليح ، ولخم وجذام ، وغسان . فتقدم إليهم خالد بن سعيد ، فلما اقترب منهم تفرقوا عنه ودخل كثير منهم فى الإسلام ، وبعث إلى الصديق يعلمه بما وقع من الفتح ، فأمره الصديق أن يتقدم ولا يحجم ؛ وأمده بالوليد بن عتبة وعكرمة بن أبى جهل وجماعة ، فسار إلى قريب من إيلياء[1] فالتقى هو وأمير من الروم يقال له ماهان[2] فكسره ، ولجأ ماهان إلى دمشق ، فلحقه خالد بن سعيد ، وبادر الجيوش إلى لحوق دمشق وطلب الحظوة ، فوصلوا إلى مَرْج الصُّفَّر فانطوت عليه مسالح ماهان وأخذوا عليهم الطريق ، وزحف ماهان ففر خالد بن سعيد ، فلم يرد إلى ذى المروة ، واستحوذ الروم على جيشهم إلا من فرّ على الخيل ، وثبت عِكرمة بن أبى جهل ، وقد تقهقر عن الشام قريباً وبقى ردءاً لمن نفر إليه ، وأقبل شرحبيل بن حَسَنة من العراق من عند خالد بن الوليد إلى الصديق ، فأمّره على جيشه وبعثه إلى الشام ، فلما مر بخالد بن سعيد بذى المروة ، أخذ جمهور أصحابه الذين هربوا معه إلى ذى المروة . ثم اجتمع عند الصديق طائفة من الناس فأمّر عليهم معاوية بن أبى سفيان ، وأرسله وراء أخيه يزيد بن أبى سفيان . ولما مر بخالد بن سعيد أخذ من كان بقى معه بذى المروة إلى الشام . ثم أذن الصديق لخالد بن سعيد فى الدخول إلى المدينة وقال : كان عمر أعلم بخالد .

وقعة اليرموك[3]

على ما ذكره سيف بن عمر فى هذه السنة قبل فتح دمشق ، وتبعه على ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله . وأما الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - فإنه نقل عن يزيد بن أبى عبيدة والوليد وابن لهيعة والليث وأبى معشر - أنها كانت فى سنة خمس عشرة بعد فتح دمشق . وقال محمد بن إسحاق : كانت فى رجب سنة خمس عشرة . وقال خليفة بن خياط قال ابن الكلبى : كانت وقعة اليرموك يوم الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة . قال ابن عساكر : وهذا هو المحفوظ وأما ما قاله سيف من أنها قبل فتح دمشق سنة ثلاث عشرة - فلم يتابع عليه .

---

(١) إيلياء : مدينة القدس . (٢) الذى فى الطبرى : باهان .

(٣) اليرموك : واد فى طريق الغور يصب فى نهر الأردن .

قلت : وهذا ذكر سياق سيف وغيره على ما أورده ابن جرير وغيره : قال : ولما توجهت هذه الجيوش نحو الشام أفزع ذلك الروم وخافوا خوفاً شديداً ، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر . فيقال إنه كان يومئذ بحمص ويقال : كان حج عامه ذلك إلى بيت المقدس . فلما انتهى إليه الخبر ، قال لهم : ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لاقبل لأحد بهم ، فأطيعونى وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم فنخروا[1] من ذلك نخرة حمر الوحش كما هى عاداتهم فى قلة المعرفة والرأى بالحرب والنصرة فى الدين والدنيا . فمنذ ذلك سار إلى حمص ، وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية صحبة الأمراء ، فى مقابلة كل أمير من المسلمين جيش كثيف ؛ فبعث إلى عمرو بن العاص أخاه لأبويه « تذارق » فى تسعين ألفاً من المقاتلة وبعث جرجة بن توذرا إلى ناحية يزيد بن أبى سفيان ، فعسكر بإزائه فى خمسين ألفاً أو ستين ألفاً . وبعث الدُّراقص إلى شرحبيل بن حسنة . وبعث الفيقار، ويقال القيقلان ـ قال ابن إسحاق وهو خِصيّ هرقل نسطورس ـ فى ستين ألفاً إلى أبى عبيدة بن الجراح . وقالت الروم : والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا. وجميع عساكر المسلمين أحد وعشرون ألفاً ـ سوى الجيش الذى مع عكرمة بن أبى جهل . وكان واقفاً فى طرف الشام رِدءاً للناس ـ فى ستة آلاف . فكتب الأمراء إلى أبى بكر وعمر يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، فكتب إليهم : أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً والقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه . وقال الصديق : والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . وبعث إليه وهو بالعراق ليقدم إلى الشام فيكون الأمير على من به ، فإذا فرغ عاد إلى عمله بالعراق ، فكان ما سنذكره .

ولما بلغ هرقل ما أمر به الصديق أمراءه من الاجتماع ، بعث إلى أمرائه أن يجتمعوا أيضاً ، وأن ينزلوا بالجيش منزلا واسع العَطَن واسع المطّرد ، ضيق المهرب، وعلى الناس أخوه « تذارق »، وعلى المقدمة جرجة ، وعلى المجنبتين باهان والدراقص ، وعلى البحر القيقار.

وقال محمد بن عائذ عن عبد الأعلى ،عن سعيد بن عبدالعزيز : إن المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفاً ، وعليهم أبو عبيدة والروم كانوا عشرين ومائة ألف عليهم ماهان وسقلاب يوم اليرموك . وكذا ذكر ابن إسحاق، أن سقلاب الخصى كان على الروم يومئذ فى مائة ألف،وعلى المقدمة جرجة ـ من أرمينية ـ فى اثنى عشر ألفاً، ومن المستعربة اثنى عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم. والمسلمون فى أربعة وعشرين ألفاً ، فقاتلوا قتالا شديداً حتى قاتلت النساء من ورائهم أشد القتال . وقال الوليد

---

(١) النخير : مد الصوت فى الخياشيم ، تقول : نخر ينخر ـ بالكسر . وينخر بالضم لغة .

عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير ، قال : بعث هرقل مائتي ألف عليهم باهان الأرمني . قال سيف : فسارت الروم فنزلوا الواقوصة[1] قريباً من اليرموك ، وصار الوادي خندقاً عليهم . وبعث الصحابة إلى الصديق يستمدونه ويُعلمونه بما اجتمع من جيش الروم باليرموك ، فكتب الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد ، أن يستنيب على العراق وأن يقفل بمن معه إلى الشام ، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم . فاستناب المثنى بن حارثة على العراق ، وسار خالد مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمائة ، ودليله رافع بن عميرة الطائي ، فأخذ به على السماق[2] حتى انتهى إلى قُراقر ، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد ، فاجتاب البراري والقفار ، وقطع الأودية ، وتصمد على الجبال ، وسار في غير مهيع[3] ، وجعل رافع يدلهم في مسيرهم على الطريق وهو في مفاوز معطشة ، وعطش النوق وسقاها الماء عللاً بعد نَهَل ، وقطع مشافرها ، وكَعَمَها[4] حتى لا تجتر وحل أدبارها واستاقها معه. فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا ما في أجوافها من الماء . ويقال بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها . ووصل ولله الحمد والمنة في خمسة أيام ، فخرج على الروم من ناحية تَدْمر فصالح أهل تدمر وأرك ، ولما مر بعذارة[5] أباحها وغنم لغسان أموالا عظيمة وخرج من شرق دمشق ، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى ، فوجد الصحابة تحاربها فصالحه صاحبها وسلمها إليه . فكانت أول مدينة فتحت من الشام ، ولله الحمد .

وبعث خالد بأخماس ماغنم من غسان مع بلال بن الحرث المزني إلى الصديق ، ثم سار خالد وأبو عبيدة ويزيد وشرحبيل إلى عمرو بن العاص — وقد قصده الروم بأرض العَرَبا من الغور — فكانت واقعة أجنادين . وقد قال رجل من المسلمين في مسيرهم هذا مع خالد :

لله عيْنا رافع أنَّى اهتدى ... فوّز من قُراقرٍ إلى سُوَى
خمساً إذا ماسارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك إنسيٌّ يُرَى

وقد كان بعض العرب قال له في هذا المسير : إن أنت أصبحت عند الشجرة الفلانية نجوت أنت ومن معك ، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معك ، فسار خالد بمن معه وسروا سروة عظيمة فأصبحوا عندها ، فقال خالد : عند الصباح يَحْمَد القوم السُّرى . فأرسلها مثلا ، وهو أول من قالها رضي الله عنه .

ويقول غير ابن إسحاق — كسيف بن عمر وأبي مخنف وغيرهما — في تكميل السياق الأول: حين اجتمعت الروم مع أمرائها بالواقوصة وانتقل الصحابة من منزلهم الذي كانوا فيه فنزلوا قريباً من الروم في طريقهم الذي ليس لهم طريق غيره ، فقال عمرو بن العاص : أبشروا أيها الناس ، فقد

(١) الواقوصة : واد في أرض حوران .
(٢) السماق : شجر يكون في الجبال . والقرار والقرارة المطمئن من الأرض والمنخفضة منها . وقراقر : اسم ماء بعينه .
(٣) طريق مهيع : بين واضح المعالم .
(٤) كعم البعير: شد فاه لئلا يأكل أو يعض
(٥) موضع قريب من دمشق قتل به معاوية بن حجر.

حصرت والله الروم ، وقلّما جاء محصور بخير . ويقال إن الصحابة لما اجتمعوا للشورة فى كيفية المسير إلى الروم جلس الأمراء لذلك فجاء أبو سفيان فقال : ما كنت أظن أنى أعمّر حتى أدرك قوماً يجتمعون لحرب ولا أحضرهم ، ثم أشار أن يتجزأ الجيش ثلاثة أجزاء ، فيسير ثلثه فينزلون تجاه الروم، ثم تسير الأثقال والذرارى فى الثلث الآخر، ويتأخر خالد بالثلث الآخر، حتى إذا وصلت الأثقال إلى أولئك سار بعدهم ونزلوا فى مكان تكون البرية من وراء ظهورهم، لتصل إليهم البرد والمدد فامتثلوا ما أشار به ونعم الرأى هو .

وذكر الوليد عن صفوان عن عبدالرحمن بن جبير ، أن الروم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك ، ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر ، وأذرعات خلفهم ليصل إليهم المدد من المدينة . ويقال إن خالداً إنما قدم عليهم بعد ما نزل الصحابة تجاه الروم ، بعد ما صابروهم وحاصروهم شهر ربيع الأول بكماله . فلما انسلخ وأمكن القتال لقلة الماء[1] بعثوا إلى الصديق يستمدونه فقال: خالد لها ، فبعث إلى خالد فقدم عليهم فى ربيع الآخر ، فعند وصول خالد إليهم أقبل ماهان مدداً للروم ومعه القساوسة، والشمامسة والرهبان يحثونهم ويحرضونهم على القتال لنصر دين النصرانية ، فتكامل جيش الروم أربعين ومائتى ألف ؛ ثمانون ألفاً مسلسل بالحديد والحبال ، وثمانون ألفا فارس ، وثمانون ألفا راجل . قال سيف : وقيل : بل كان الذين تسلسلوا كل عشرة سلسلة لئلا يفروا ثلاثين ألفاً ، فالله أعلم . قال سيف : وقدم عكرمة بن من معه من الجيوش فتكامل جيش الصحابة ستة وثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً .

وعند ابن إسحق والمدائنى أيضاً: أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك، وكانت وقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وقتل بها بشر كثير من الصحابة ، وهزم الروم وقتل أميرهم القيقلان. وكان قد بعث رجلا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة ، فلما رجع إليه قال : وجدت قوماً رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه ، أو زنى لرجموه . فقال له القيقلان : والله لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من ظهرها . وقال سيف ابن عمر فى سياقه : ووجد خالد الجيوش متفرقة ؛ فجيش أبى عبيدة وعمرو بن العاص ناحية ، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية . فقام خالد فى الناس خطيباً . فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوّهم فى أول جمادى الآخرة ، وقام خالد بن الوليد فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ؛ فإن هذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردّهم ، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً، فتعالَوْا فلنتعاور الإمارة؛ فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليوم أليكم .

---

(١) أى : بعد جفاف الأرض من الماء، وكان القتال قبل ذلك عسيرا بسبب الوحل وتدفق مياه الأنهار التى بثقها الروم ليوقفوا سير المسلمين .

فأمّروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جداً ، فخرجت الروم فى تعبية لم يُر مثلها قبلها قط ، وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك . فخرج فى ستة وثلاثين كُردوساً[١] إلى الأربعين ، كل كُردوس ألف رجل عليهم أمير ، وجعل أبا عبيدة فى القلب ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حَسَنة ، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان . وأمّر على كل كردوس أميراً ، وعلى الطلائع قَباث بن أشْيَم ، وعلى الأقباض[٢] عبدالله بن مسعود ـ والقاضى يومئذ أبو الدرداء وقاصُّهم الذى يعظهم ويحثهم على القتال ـ أبو سفيان بن حرب ، وقارئهم الذى يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد ـ المقداد بن الأسود .

وذكر إسحاق بن يسار بإسناده : أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة ؛ أبو عبيدة ، وعمرو ابن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبى سفيان . وخرج الناس على راياتهم ، وعلى الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكنانى ، وعلى الرجّالة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وعلى الخيّالة خالد بن الوليد ـ وهو المشير فى الحرب الذى يصدر الناس كلهم عن رأيه . ولما أقبلت الروم فى خيلائها وفخرها ، قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها ، كأنهم غمامة سوداء ؛ يصيحون بأصوات مرتفعة ، ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال ، وكان خالد فى الخيل بين يدى الجيش ، فساق بفرسه إلى أبى عبيدة فقال له : إنى مشير بأمر ، فقال : قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع . فقال له خالد : إن هؤلاء القوم لابد لهم من حملة عظيمة لامحيد لهم عنها ، وإنى أخشى على الميمنة والميسرة ، وقد رأيت أن أفرّق الخيل فرقتين ، وأجعلها وراء الميمنة والميسرة ، حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءاً فنأتيهم من ورائهم . فقال له : نعم ما رأيت . فكان خالد فى أحد الخيلين من وراء الميمنة ، وجعل قيس بن هبيرة فى الخيل الأخرى ، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله لكى إذا رآه المنهزم استحيى منه ورجع إلى القتال ، فجعل أبو عبيدة مكانه فى القلب ـ سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم ، وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها ، فقال لهن : من رأيتموه مولياً فاقتلنه ، ثم رجع إلى موقفه رضى الله عنه .

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان ، وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال : عباد الله ! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . يامعشر المسلمين ! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار ولا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدءوهم بالقتال ، واشرعوا الرماح واستتروا بالدّرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله فى أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى . قالوا : وخرج

---

(١) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل ، والمراد هنا : فرقة .

(٢) الأقباض : جمع قبض ـ بفتحتين ـ وهو : ما جمع من الغنائم .

معاذ بن جبل على الناس لجعل يذكرهم ويقول : يا أهل القرآن ، ومستحفظي الكتاب ، وأنصار الهدى والحق ، إن رحمة الله لا تُنال وجنته لا تدخل بالأماني ، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق ، ألم تسمعوا لقول الله (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم)[١] الآية . فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم ، وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحدٌ من دونه ، ولا عز بغيره .

وقال عمرو بن العاص : يا أيها المسلمون غضّوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانا ! لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[٢] وقصراً قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل[٣] .

وقال أبو سفيان : يا معشر المسلمين! أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رضوانُ الله غداً ـ إلاّ بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة . ألا وإنها سُنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاريَ وبراري ، ليس لأحد فيها مَعْقل ولا مَعْدل إلا الصبر ، ورجاء ما وعد الله ! فهو خير معول فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون . ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن ، ثم عاد فنادى : يا معاشر أهل الإسلام حضرَ ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم . ثم سار إلى موقفه رحمه الله .

وقد وعظ الناسَ أبو هريرة أيضاً لجعل يقول : سارعوا إلى الحُور العين وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم ، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحبَّ إليه منكم في مثل هذا الموطن ، ألا وإنّ للصابرين فضلهم . قال سيف بن عمر بإسناده عن شيوخه : إنهم قالوا : كان في ذلك الجمع ألفُ رجل من الصحابة ، منهم مائة من أهل بدر وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوس ويقول : اللهَ اللهَ ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا

---

(١) من الآية : ٥٥ من سورة النور (٢) الكفر : القرية

(٣) الحجل : الذكر من القبج ، وهو طائر معروف ، المفرد : حجلة ـ محركة ، وحجلى ـ بالكسر : اسم جمع ، ولا نظير له إلا ظربى

يومٌ من أيامك . اللهم أنزل نصرك على عبادك ! قالوا : ولما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ويلك ، أتخوفنى بالروم ؟ إنما تكثُرُ الجنود بالنّصر ، وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر براء من تَوَجِّيه(١) ، وأنهم أضعفوا فى العدد . وكان فرسه قد حَفِىَ واشتكى فى مجيئه من العراق .

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان ، ومعهما ضرار بن الأزور ، والحارث ابن هشام ، وأبو جَندل بن سهيل ، ونادوا : إنما نريد أميركم لنجتمع به . فأذن لهم فى الدخول على «تذارق» ، وإذا هو جالس فى خيمة من حرير . فقال الصحابة : لا نستحل دخولها ، فأمر لهم بفرش بُسط من حرير ، فقالوا : ولا نجلس على هذه . فجلس معهم حيث أحبوا وتراضَوا على الصلح ، ورجع عنهم الصحابة بعد ما دَعوهم إلى الله عز وجل فلم يتم ذلك .

وذكر الوليد بن مسلم : أن ما هان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا فى مصالحتهم . فقال ما هان : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلموا إلىّ أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها . فقال خالد : إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرتَ ، غيرَ أنّا قوم نشرب الدّماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيبُ من دم الروم ، فجئنا لذلك . فقال أصحاب ما هان : هذا والله ما كنا نحدّث به عن العرب . قالوا : ثم تقدم خالد إلى عكرمة بن أبى جهل والقَعقاع بن عمرو ـ وهما على مُجنّبتى القلب ـ أن ينشبا القتال ، فبدَر ابنا تجزان ودَعَوا إلى البراز ، وتنازل الأبطال ، وتجاولوا وحمى الحرب وقامت على ساق . هذا : وخالد مع كردوس من الحماة الشجعان الأبطال بين يدى الصفوف ، والأبطال يتصاولون من الفريقين بين يديه ، وهو ينظر ويبعث إلى كل قوم من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل ، ويدبّر أمر الحرب أتم تدبير .

وقال إسحاق بن بشير ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن قدماء مشايخ دمشق ، قالوا : ثم زحف ما هان فخرج أبو عبيدة ، وقد جعل على الميمنة مُعاذ بن جبل ، وعلى الميسرة قَباث بن أشيم الكنانى ، وعلى الرّجالة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وعلى الخيل خالد بن الوليد . وخرج الناس على راياتهم ، وسار أبو عبيدة بالمسلمين وهو يقول : عباد الله ! انصر الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، يا معشر المسلمين اصبروا فإنّ الصبر مَنجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومَدحضة للعار ، ولا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خُطوة ، ولا تبدءوهم بالقتال وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدّرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله .

---

(١) الأشقر : فرسه وهو من الخيل : ما حمرته صافية ، يحمر معها العرف والذنب ، وبعير أشقر : شديد الحمرة . وتوجيه : حفاه ، يقال : وجى الفرس ـ كرضى ـ وتوجى : أصيب بالوجا ، وهو ألم فى باطن حافره

وخرج معاذ بن جبل فجعل يذكرهم ، ويقول : يا أهل القرآن ، ومستحفظى الكتاب ، وأنصار الهدى والحق ؛ إن رحمة الله لا تنال ، وجنّته لا تُدخل بالأمانى ، ولا يُؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق . ألم تسمعوا لقول الله عز وجل (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وَعَملوا الصّالحات..) إلى آخر الآية؟ فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم فى قبضته ، وليس لكم مُلتحد من دونه . وسار عمرو بن العاص فى الناس وهو يقول : أيها المسلمون! غضّوا الأبصار واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزى بالإحسان إحسانا ؛ لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفراً كَفراً وقصراً قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ؛ فإنكم لو صدقتموهم الشد لتطايروا تطاير أولاد الحجَل . ثم تكلم أبو سفيان فأحسن ، وحث على القتال فأبلغ فى كلام طويل . ثم قال حين تواجه الناس : يا معشر أهل الإسلام ! حضر ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم ، وحرّض أبو سفيان النساء فقال : من رأيتنه فاراً فاضربنه بهذه الأحجار والعصى حتى يرجع .

وأشار خالد أن يقف فى القلب سعيد بن زيد ، وأن يكون أبو عبيدة من وراء الناس ليردّ المنهزم . وقسّم خالد الخيل قسمين ؛ فجعل فرقة وراء الميمنة ، وفرقة وراء المَيسرة ، لئلا يفر الناس وليكونوا ردءاً لهم من ورائهم . فقال له أصحابه : افعل ما أراك الله ، وامتثلوا ما أشار به خالد رضى الله عنه . وأقبلت الروم رافعة صُلبانهم ولهم أصوات مُزجِجة كالرّعد ، والقساوسة والبطارقة تحرضهم على القتال وهم فى عَدد وعُدد لم ير مثله ، فالله المستعان وعليه التكلان .

وقد كان فيمن شهد اليرموك : الزبير بن العوام ، وهو أفضل من هناك من الصحابة ، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا : ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال : إنكم لا تثبتون ، فقالوا : بلى ! فحمل وحملوا . فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه . ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل فى الأولى ، وجرح يومئذ جُرحين بين كتفيه ، وفى رواية جرح . وقد روى البخارى ما ذكرناه فى صحيحه . وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول : اللهم زلزل أقدامهم ، وأرعب قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ، وألزمنا كلمة التقوى، وحبّب إلينا اللقاء ، وأرضنا بالقضا . وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدريجان، وكان عدو الله متنسكا فيهم فحمل على الميمنة وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان ، فثبتوا حتى صدوا أعداء الله. ثم ركبهم

من الروم أمثال الجبال ، فزال المسلمون من الميمنة إلى ناحية القلب ، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر ، وثبت صور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم ، وانكشف زبيد . ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نَهْنَهوا[1] من أمامهم من الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس ، واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة ، وجعلت خَولة بنت ثعلبة تقول :

يا هاربا عن نسوة تقيات فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حصيات ولا رضيات .

قال : فتراجع الناس إلى مواقفهم . وقال سيف بن عمر ، عن أبي عثمان الغساني عن أبيه ، قال: قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك : قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ـ في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدّام فُسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحا ، وقُتل منهم خلق، منهم ضِرار بن الأزور ـ رضي الله عنهم . وقد ذكر الواقدي وغيره : أنهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشربة ماء ، فلما قرّبت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

ويقال: إن أول من قتل من المسلمين يومئذ شهيداً ـ رجل جاء إلى أبي عبيدة فقال : إني قد تهيأت لأمري . فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، تقرئه عني السلام وتقول : يا رسول الله! إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . قال : فتقدم هذا الرجل حتى قُتل رحمه الله. قالوا : وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا ، فلم تر يوم اليرموك « إلا » مُخا ساقطاً ، ومعصما نادراً ، وكفاً طائرة من ذلك الموطن . ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب ، فقتل من الروم في حملته هذه ستة آلاف منهم ، ثم قال : والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم ، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم ثم اعترضهم فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف ، فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فانكشفوا وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم .

قالوا : وبينما هم في جولة الحرب وحومة الوغى ، والأبطال يتصاولون من كل جانب ، إذ قدم

(١) أي : زجروا وأبعدوا .

البريد من نحو الحجاز، فدفع إلى خالد بن الوليد فقال له : ما الخبر ؟ فقال له ـ فيما بينه و بينه ـ : إن الصديق رضى الله عنه قد توفى واستخلف عمر ، واستناب على الجيوش أبا عبيدة عامر بن الجراح ، فأسرّها خالد ولم يُبد ذلك للناس لئلا يحصل ضعف ووَهَن فى تلك الحال ، وقال له ـ والناس يسمعون : أحسنت ، وأخذ منه الكتاب فوضعه فى كنانته، واشتغل بما كان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة ، وأوقف الرسول الذى جاء بالكتاب ـ وهو مَحْمِيَةُ بن زُنيم ـ إلى جانبه . كذا ذكره ابن جرير بأسانيده .

قالوا: وخرج جَرَجة ـ أحد الأمراء الكبار ـ من الصف، واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفتْ أعناق فرسيهما ، فقال جَرَجة : ياخالد أخبرنى فأصدقنى ولا تكذِّبنى ، فإن الحرّ لايكذب . ولا تخادعنى فإن الكريم لايخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه الله،فلا تسلّه على أحد إلاّ هزمتهم؟ قال: لا،قال : فبِمَ سُمّيت سيف الله ؟ قال : إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعاً . ثم إنّ بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا كذبه وباعده ، فكنت فيمن كذّبه وباعده . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به وبايعناه ، فقال لى : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر ، فسميت سَيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

فقال جَرَجة : ياخالد: إلى مَ تدْعون ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل قال: فمن لم يُجبكم ؟ قال: فالجزية ونمنعهم . قال . فإن لم يُعطها ، قال : نؤذنه بالحرب ثم نقاتله . قال : فما منزلةُ من يُجيبكم ويدخل فى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدةٌ فيما افترض الله علينا ، شريفُنا ووضيعنا وأوّلنا وآخرنا . قال جَرَجة : هل لمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذُّخر ؟ قال : نعم وأفضل قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبيّنا وهو حىّ بين أظهرنا ، تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى مارأينا وسمع ماسمعنا أن يُسْلِم ويُبايع ، وإنكم أنتم لم ترَوا مارأينا ، ولم تسمعوا ماسمعنا من العجائب والحُجَج ، فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية ـ كان أفضل منا فقال جَرَجة : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى! بالله لقد صدقتك[1] وإن الله لى ماسألتَ عنه. فعند ذلك قَلَب جَرَجة الترس ومال مع خالد وقال: علّمنى الإسلام ، فمال به خالد إلى فُسْطاطه فشَنّ عليه قربة من ماء ، ثم صلى به ركعتين . وحملت الرومُ مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حملة ، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلاّ الحامية ،

---

(١) زيادة فى الطبرى : وما بى إليك ولا إلى أحد منكم حاجة .

عليهم عكرمة بن أبي جهل والحرث بن هشام: وركب خالد وجرجة معه والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم، وزحف خالد بالمسلمين حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. وصلّى المسلمون صلاة الظهر وصلاة العصر إيماء، وأصيب جرجة ـ رحمه الله ـ ولم يصل لله إلاّ تلك الركعتين مع خالد رضي الله عنهما، وتضعضعت الروم عند ذلك.

ثم نهد[1] خالد بالقلب حتى صار في وسط خيول الروم، فعند ذلك هربت خيالتهم، واشتدت بهم في تلك الصحراء، وأفرج[2] المسلمون بخيولهم حتى ذهبوا. وأخر الناس صلاتي العشاءين حتى استقر الفتح، وعمد خالد إلى رحل الروم ـ وهم الرجالة ـ ففضوهم عن آخرهم حتى صاروا كأنهم حائط قد هدم، ثم تبعوا من فرّ من الخيالة واقتحم خالد عليهم خندقهم. وجاء الروم في ظلام الليل إلى الواقوصة، فجعل الذين تسلسلوا وقيدوا بعضهم ببعض إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه. قال ابن جرير وغيره: فسقط فيها وقتل عندها مائة ألف وعشرون ألفاً، سوى من قتل في المعركة. وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.

قال: وتجلل القيقلان وأشراف من قومه من الروم ببرانسهم قالوا: إذا لم نقدر على نصر دين النصرانية فلنمت على دينهم. فجاء المسلمون فقتلوهم عن آخرهم. قالوا: وقتل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف؛ منهم عكرمة وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وأثبت[3] خالد بن سعيد فلا يدرى أين ذهب، وضرار بن الأزور، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدّوسي، وحقق الله رؤيا أبيه يوم اليمامة. وقد أتلف في هذا اليوم جماعة من الناس، انهزم عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا إلى النساء، ثم رجعوا حين زجرهم النساء، وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه ثم تراجعوا حين وعظهم الأمير بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم....)[4] الآية.

وثبت يومئذ: يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالا شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يابني عليك بتقوى الله والصبر، فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفا بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمور المسلمين؟! أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يابني

(١) أي: نهض وصمد لعدوه

(٢) أي تركوها ولم يحرجوها، حتى ذهبت وتفرقت في البلاد.

(٣) أثبت: أي جرح جرحا عميقا، والمثبت بكسر الباء، الذي ثقل فلم يبرح الفراش، وداء ثبات: معجز عن الحركة

(٤) من الآية: ١١١ من سورة التوبة.

ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب، ولا أجرأ على عدو الإسلام منك فقال : أفعل إن شاء الله . فقاتل يومئذ قتالا شديداً، وكان من ناحية القلب رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال : هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتا يكاد يملأ العسكر يقول : يانصر الله اقترب ، الثبات الثبات يامعشر المسلمين ، قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد . وأكل خالد ليلته في خيمة «تذارق» أخي هرقل - وهو أمير الروم كلهم يومئذ - هرب فيمن هرب ، وباتت الخيول تجول نحو خيمة خالد يقتلون مَن مرّ بهم من الروم حتى أصبحوا ، وقتل «تذارق» وكان له ثلاثون سرادقا وثلاثون رواقا من ديباج بما فيها من الفرش والحرير ، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم. وما فرحوا بما وجدوا بقدر حزنهم على الصديق حين أعلمهم خالد بذلك ، ولكن عوضهم الله بالفاروق رضي الله عنه .

وقال خالد حين عزى المسلمين في الصديق : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت ، وكان أحبّ إلى من عمر ، والحمد لله الذى ولّى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر وألزمني حبّه .

وقد اتبع خالد من انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق فخرج إليه أهلها فقالوا : نحن على عهدنا وصلحنا ؟ قال : نعم . ثم اتبعهم إلى ثنية العقاب فقتل منهم خلقا كثيراً ، ثم ساق وراءهم إلى حمص فخرج إليه أهلها فصالحهم كما صالح أهل دمشق . وبعث أبو عبيدة عياض بن غنم وراءهم أيضا، فساق حتى وصل مَلَطية فصالحه أهلها ورجع فلما بلغ هرقل ذلك بعث إلى مقاتليها فحضروا بين يديه، وأمر بملطية فحرقت وانتهت الروم منهزمة إلى هرقل وهو بحمص ، والمسلمون في آثارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون . فلما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين وترس بها، وقال هرقل : أما الشأم فلا شأم ، وويل الروم من المولود المشئوم .

ومما قيل من الأشعار في يوم اليرموك قول القعقاع بن عمرو:

ألم ترنا على اليرموك فُزنا ... كما فزنا بأيام العراق
وعذراء المدائن قد فتحنا ... ومَرْج الصُّفر ... على العتاق
فتحنا قبلها بُصرى وكانت ... محرمة الجناب لدى النعاق
قتلنا من أقام لنـــــا وفينا ... نهابهم بأســـــياف رقاق
قتلنا الروم حتى ما تساوى ... على اليرموك معروق الوراق
فضضنا جمعهم لمـا استجالوا ... على الواقوص بالبتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا ... إلى أمر يعضل بالذواق

وقال الأسود بن مقرن التميمي :

وكم قد أغرنا غارة بعد غارة ... يوماً ويوماً قد كشفنا أهاوله

ولولا رجال كان عشو غنيمة لدى مأقط رجّت علينا أوائله

لقيناهم اليرموك لما تضايقت بمن حلّ باليرموك منه حمائله

فلا يعدمن منا هرقل كتائبا إذا رامها رام الذى لا يحاوله

وقال عمرو بن العاص :

القوم لخم وجذام فى الحرب ونحن والروم بمرج تضطرب

فإن يعودوا بها لا نصطحب بل نعصب الفرار بالضرب الكرب

وروى أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة : ثنا أبو إسماعيل الترمذى ، ثنا أبو معاوية بن عمرو عن أبى إسحق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء ، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم : ويلكم ؟ أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم؟ أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم . ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض . فقال : أنت صدقتنى .

وقال الوليد بن مسلم : أخبرنى من سمع يحيى بن يحيى الغسانى يحدث عن رجلين من قومه قالا : لما نزل المسلمون بناحية الأردنّ ، تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك ، فبينا نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه ، فقال : أنتما من العرب؟ قلنا : نعم ! قال : وعلى النصرانية؟ قلنا : نعم . فقال : ليذهب أحدكما فليتجسس لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم ، وليثبت الآخر على متاع صاحبه . ففعل ذلك أحدنا ، فلبث ملياً ثم جاءه فقال : جئتك من عند رجال دقاق ، يركبون خيولا عتاقاً ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك؛ لما علا من أصواتهن بالقرآن والذكر . قال : فالتفت إلى أصحابه ، وقال : أتاكم منهم مالا طاقة لكم به .

انتقال إمرة الشام من خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة فى الدولة العمرية

وذلك بعد وقعة اليرموك وصيرورة الإمرة بالشام إلى أبى عبيدة ،

فكان أبو عبيدة أول من سمى أمير الأمراء

قد تقدم أن البريد قدم بموت الصديق والمسلمون مصافو الروم يوم اليرموك ، وأن خالداً كتم

ذلك من المسلمين لئلا يقع وَهَن . فلما أصبحوا اجتلى لهم الأمر وقال ما قال ثم شرع أبو عبيدة في جمع الغنيمة وتخميسها ، وبعث بالفتح والخمس مع قباث بن أشيم إلى الحجاز ، ثم نودي بالرحيل إلى دمشق ، فساروا حتى نزلوا مرج الصُّفر ، وبعث أبو عبيدة بين يديه طليعة ـ أبا أمامة الباهلي ومعه رجلان من أصحابه . قال أبو أمامة : فسرت فلما كان ببعض الطريق أمرت الآخر[1] فكمن هناك وسرت أنا وحدي حتى جئت باب البلد ، وهو مغلق في الليل وليس هناك أحد ، فنزلت وغرزت رُمحي في الأرض ونزعت لجام فرسي ، وعلّقت عليه مخلاته ونمت ، فلما أصبح الصباح قمت فتوضأت وصليت الفجر ، فإذا باب المدينة يقعقع فلما فتح حملت على البواب فطعنته بالرمح فقتلته ، ثم رجعت والطلب ورائي فلما انتهينا إلى الرجل الذي في الطريق من أصحابي ظنوا أنه كمين فرجعوا عني ، ثم سرنا حتى أخذنا الآخر وجئت إلى أبي عبيدة فأخبرته بما رأيت ، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر فيما يعتمده من أمر دمشق ، فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها ، فساروا إليها حتى أحاطوا بها . واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك

وقعة جرت بالعراق بعد مجيء خالد إلى الشام

وذلك أن أهل فارس اجتمعوا بعد مقتل ملكهم وابنه على تمليك «شهر براز بن أردشير بن شَهْريار » واستغنموا غيبة خالد عنهم فبعثوا إلى نائبه المثنى بن حارثة جيشاً كثيفاً نحواً من عشرة آلاف عليهم هرمز بن جاذَوَيه ، وكتب شهر براز إلى المثنى : إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس إنما هم رعاة الدّجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم . فكتب إليه المثنى : من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شرٌّ لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس ـ الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي : فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رُعاة الدّجاج والخنازير . قال : فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ، ولاموا شهر براز على كتابه إليه واستهجنوا رأيه وسار المثنى من الحيرة إلى بابل ، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عُدوة الصراة الأولى ، اقتتلوا قتالا شديداً جداً ، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرّق خيول المسلمين ، فحمل عليه أمير المسلمين المثنّى بن حارثة فقتله ، وأمر المسلمين فحملوا ، فلم تكن إلا هزيمة الفرس فقتلوهم قتلا ذريعا ، وغنموا منهم مالاً عظيماً ، وفرّت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شرّ حالة ، ووجدوا الملك قد مات فملكوا عليهم ابنة كسرى : « بُوران بنت أبرويز » فأقامت العدل ، وأحسنت السيرة ،

(١) كذا بالأصول وفيه سقط يتبين من مراجعة الطبري وهو : أمرت الآخر بالوقوف حتى يصبح أو آتيه .

فأقامت سنة وسبع شهور ، ثم ماتت ، فملكوا عليهم أختها « آزرميدُخت زَنان » فلم ينتظم لهم أمر ، فملكوا عليهم « سابُور بن شَهْريار » وجعلوا امره إلى « الفَرّخزاذ بن البِنْدَوان » فزوجه سابُور بابنة كسرى « آزرميدُخت » فكرهت ذلك وقالت : إنما هذا عبد من عبيدنا . فلما كان ليلة عرسها عليه همّوا إليه فقتلوه ، ثم ساروا إلى سابور فقتلوه أيضاً ، وملكوا عليهم هذه المرأة وهي « آزرميدُخت » ابنة كسرى ولعبت فارس بملكها لعباً كثيراً ، وآخر ما استقر أمرهم عليه في هذه السنة أن ملكوا امرأةً ، وقد قال رسول الله ﷺ « لن يُفلح قوم وَلَّوا أمرهم امرأة » . وفي هذه الوقعة التي ذكرنا يقول عَبْدَة بن الطبيب[1] السعدي ، وكان قد هاجرَ لمهاجَرَة حليلة له حتى شهد وقعة بابل هذه ، فلما آيسته رجع إلى البادية وقال :

هل حَبلُ خولةَ بعد البَين مَوصول ... أم أنت عنها بَعيدُ الدارِ مشغول ؟
وللأحبّـــة أيام تذكّرها ... وللنوى قبل يوم البَيْنِ تأويل[2]
حلّت خويلة في حَيٍّ عهدتهمُ ... دون المدائن فيها الدِّيك والفيل
يقارعون رُءوس العُجم ضاحيـة ... منهم فوارس لا عُزْل ولا مِيل[3]

وقد قال الفرزدق في شعره يذكر قتل المثنى ذلك الفيل :

وبيتُ المثنّى قاتلِ الفيـلِ عَنوةً ... ببابلَ إذ في فارس مُلك بابل

ثم إن المثنى بن حارثة استبطأ أخبار الصديق لتشاغله بأهل الشام ، وما فيه من حرب اليرموك المتقدم ذكره ، فسار المثنى بنفسه إلى الصديق ، واستناب على العراق بَشير بن الخصاصيّة ، وعلى المسالح سَعيد بن مُرّة العِجْلي ، فلما انتهى المثنى إلى المدينة وجد الصديق في آخر مرض الموت ، وقد عهد إلى عمر بن الخطاب . ولما رأى الصديق المثنّى قال لعمر : إذا أنا مِتّ فلا تُمسينّ حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى ، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام فاردُد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه .

فلما مات الصديق ندب عمر المسلمين إلى الجهاد بأرض العراق ، لقلة من بقي فيه من المقاتلة بعد خالد بن الوليد ، فانتدب خلقا وأمّر عليهم أبا عبيدة بن مسعود ، وكان شاباً شجاعاً ، خبيراً بالحرب والمكيدة وهذا آخر ما يتعلق بخبر العراق إلى آخر أيام الصديق وأول دولة الفاروق .

---

(١) من قصيدة له في المفضليات .

(٢) تأويل : علامات تبين أن البين سيقع

(٣) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه ؛ والميل : جمع أميل وهو السيء الركوب

خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

كانت وفاة الصديق رضى الله عنه فى يوم الاثنين عشية ، وقيل: بعد المغرب ، ودفن من ليلته وذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، بعد مرض خمسة عشر يوما . وكان عمر بن الخطاب يصلى عنه فيها بالمسلمين ، وفى أثناء هذا المرض عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب ، وكان الذى كتب العهد عثمان بن عفّان ، وقرىء على المسلمين فأقرُّوا به وسمعوا له وأطاعوا ، فكانت خلافة الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وكان عمره يوم توفى ثلاثًا وستين سنة ، للسن الذى توفى فيه رسول الله ﷺ . وقد جمع الله بينهما فى التربة ، كما جمع بينهما فى الحياة ، فرضى الله عنه وأرضاه .

قال محمد بن سعد ، عن أبى قطن عمرو بن الهيثم عن ربيع بن حسبان الصائغ قال : كان نقش خاتم أبى بكر « نِعمَ القادر الله » . وهذا غريب ، وقد ذكرنا ترجمة الصديق رضى الله عنه ، وسيرته وأيامه وما روى من الأحاديث ، وما روى عنه من الأحكام فى مجلد ولله الحمد والمنة . فقام بالأمر من بعده أتم القيام الفاروق ـ أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وهو أول من سُمّى بأمير المؤمنين . وكان أول من حياه بها المغيرة بن شعبة ، وقيل غيره كما بسطناذلك فى ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التى أفردناها فى مجلد، ومسنده والآثار المروية، مرتبًا على الأبواب فى مجلد آخر ، ولله الحمد .

وقد كتب بوفاة الصديق إلى أمراء الشام مع شداد بن أوس ، ومحمد بن جريج ، فوصلا والناس مصافون جيوش الروم يوم اليرموك كما قدمنا . وقد أمَّر عمر على الجيوش أبا عبيدة حين ولاه وعزل خالد بن الوليد . وذكر سلمة عن محمد بن إسحاق: أن عمر إنما عزل خالداً لكلام بلغه عنه ، ولما كان من أمر مالك بن نويرة ، وما كان يعتمده فى حربه . فلما وَلِى عمر كان أول ما تكلم به، أن عزل خالداً ، وقال : لا يلى لى عملا أبداً[1] . وكتب عمرُ إلى أبى عبيدة: إن أكْذَب خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه ، وإن لم يُكذب نفسه فهو معزول ، فانزع عمامته عن رأسه وقاسِمْه ماله نصفين . فلما قال أبو عبيدة ذلك لخالد قال له خالد : أمهلنى حتى أستشير أختى ، فذهب إلى أخته فاطمة ـ وكانت تحت الحارث بن هشام ـ فاستشارها فى ذلك ، فقالت له : إنّ عمر لا يحبك أبداً ، وإنه سيعزلك ، وإن كذبت نفسك . فقال لها : صدقت والله فقاسمه أبو عبيدة حتى أخذ إحدى نعليه وترك له الآخرة، وخالد يقول : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين

---

(١) روى أن سيدنا عمر قال : إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة .

وقد روى ابن جرير عن صالح بن كيسان أنه قال : أول كتاب كتبه عمر إلى أبى عبيدة حين ولاه وعزل خالداً أن قال : « وأوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جُند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذى يحقُّ عليك ، لاتقدِّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تُنزلهم منزلا قبل أن تَستريده[١] لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سَرية إلا فى كَنف[٢] من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهَلَكة ، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك ، فغض بصيرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، وإياك أن تُهلكك كما أهلكتْ مَن كان قبلك ، فقد رأيتَ مصارعهم . وأمرهم بالمسير إلى دمشق ، وكان بعد ما بلغه الخبر بفتح اليرموك وجاءته به البشارة ، وحُمل الخمس إليه . وقد ذكر ابن اسحاق أن الصحابة قاتلوا بعد اليرموك أجنادين، ثم فِحْل من أرض الغور قريباً ـ من بَيسان بمكان يقال له الرَّدغة[٣] سمى بذلك لكثرة ما لقوا من الأوحال فيها ، فأغلقوها عليهم ، وأحاط بها الصحابة . قال : وحينئذ جاءت الإمارة لأبى عبيدة من جهة عمر وعزل خالد . وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من مجىء الإمارة لأبى عبيدة فى حصار دمشق هو المشهور .

ذكر فتح دمشق[٤]

قال سيف بن عمر : لما ارتحل أبو عبيدة من اليرموك فنزل بالجنود على مَرج الصُّفَّر وهو عازم على حصار دمشق إذ أتاه الخبر بقدوم مددِهم من حِمص ، وجاءه الخبر بأنه قد اجتمع طائفة كبيرة من الروم بفِحْل من أرض فلسطين ، وهو لا يدرى بأى الأمرين يبدأ . فكتب إلى عمر فى ذلك ، فجاء الجواب : أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، فانهَد لها[٥] واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيول تكون تلقاءهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق ، فإذا فتح الله عليكم فِحْل فسر أنت وخالد إلى حِمص ، واترك عَمراً و شَرحبيل على الأردنّ وفلسطين .

قال : فسَرَّح أبو عبيدة إلى فحل عشرة أمراء مع كل أمير خمسة أمراء وعلى الجميع عُمارة ابن مَخشى الصحابى ، فساروا من مرج الصُّفَّر إلى فحل فوجدوا الروم هنالك قريباً من ثمانين ألفاً ، وقد أرسلوا المياه حولهم حتى أردغت[٦] الأرض فسموا ذلك الموضع الرَّدغة ، وفتحها الله على المسلمين

---

(١) أى تذهب إليه وتتعرفه (٢) أى حفظ وحرز . وفى الطبرى : فى كشف ـ أى جماعة
(٣) الردغة : الوحل الشديد (٤) هى قصبة الشام وكانت حاضرة البلاد الإسلامية فى عهد الدولة الأموية
(٥) أى انهض لها واصمد (٦) أى كثر رداغها ، والرداغ : الوحل الشديد

فكانت أول حِصن فتح قبل دمشق على ما سيأتى تفصيله : وبعث أبو عبيدة جيشاً يكون بين دمشق وبين فلسطين ، وبعث ذا الكَلاع فى جيش يكون بين دمشق وبين حمص ؛ ليردّ من يرد إليهم من المَدد من جهة هرقل . ثم سار أبو عبيدة من مرج الصُّفَّر قاصداً دمشق ، وقد جعل خالد بن الوليد فى القلب ، وركب أبو عبيدة وعمرو بن العاص فى الجَنْبَتين ، وعلى الخيل عِياض ابن غنم ، وعلى الرّجالة شُرحبيل بن حَسنة ، فقدموا دمشق وعليها نِسطاس بن نُسْطُورس فنزل خالدبن الوليد على الباب الشرق وإليه باب كيسان أيضاً ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية الكبير ، ونزل يزيد بن أبى سفيان على باب الجابية الصغير ، ونزل عمرو بن العاص وشُرحبيل بن حَسنة على بقية أبواب البلد . ونصبوا المجانيق والدبابات ، وقد أرصد أبو عبيدة أبا الدرداء على جيش ببرزة يكونون ردءاً له ، وكذا الذى بينه وبين حمص ، وحاصروها حصاراً شديداً سبعين ليلة ، وقيل أربعة أشهر ، وقيل ستة أشهر ، وقيل أربعة عشر شهراً ، فالله أعلم .

وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع ، ويرسلون إلى ملكهم هرقل - وهو مقيم بحمص - يطلبون منه المدد ، فلا يمكن وصول المدد إليهم من ذى الكلاع ، الذى قد أرصده أبو عبيدة رضى الله عنه بين دمشق وبين حمص - عن دمشق[1] ليلة - فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مدد أبلسوا[2] وفشلوا وضعفوا ، وقوى المسلمون واشتد حصارهم . وجاء فصل الشتاء واشتد البرد وعسر الحال وعسر القتال ، فقدر الله الكبير المتعال ، ذو العزة والجلال ، أن وُلد لبطريق[3] دمشق مولود فى تلك الليالى ، فصنع[4] لهم طعاماً وسقاهم بعده شراباً ، وباتوا عنده فى وليمته قد أكلوا وشربوا وتعبوا فناموا عن مواقفهم ، واشتغلوا عن أماكنهم ، وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد ، فإنه كان لا ينام ولا يترك أحداً ينام ، بل مراصد لهم ليلا ونهاراً ، وله عيون وقُصّاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحاً ومساء ، فلما رأى خَمدة تلك الليلة ، وأنه لا يقاتل على السّور أحد ، كان قد أعدّ سلاليم من حبال ، فجاء هو وأصحابه من الصّناديد الأبطال ؛ مثل القَعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدى ، وقد أحضر جيشه عند الباب وقال لهم : إذا سمعتم تكبيرنا فوق السّور فارقَوْا إلينا ثم نَهَدَ[5] هو وأصحابه فقطعوا الخندق سباحة بقرب فى أعناقهم فنصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرفات وأكدوا أسافلها خارج الخندق ، وصعدوا فيها ، فلما استووا على السّور رفعوا أصواتهم بالتكبير ، وجاء المسلمون فصعدوا فى تلك السلالم وانحدر خالد وأصحابه الشجعان من السّور إلى البوابين فقتلوهم ، وقطع خالد وأصحابه أغاليق الباب بالسيوف ، وفتحوا الباب عنوة ، فدخل الجيش من الباب الشرقى .

---

(١) الذى فى الطبرى : على رأس ليلة من دمشق

(٢) أى : تحيروا

(٣) البطريق : القائد من قواد الروم

(٤) المراد : أولم وأعد لهم وليمة

(٥) أى نهض ومضى

ولما سمع أهل البلد التكبير ثاروا ، وذهب كل فريق إلى أماكنهم من السّور ، لا يدرون ما الخبر ، فجعل كلما قدم أحد من أصحاب الباب الشرقى قتله أصحاب خالد ، ودخل خالد البلد عَنوة فقتل من وجده . وذهب أهل كلّ باب فسألوا من أميرهم الذى عند الباب من خارج الصلح — وقد كان المسلمون دعوهم إلى المُشاطرة[1] فيأبون عليهم — فلما دعوهم إلى ذلك أجابوهم . ولم يعلم بقية الصحابة ما صنع خالد . ودخل المسلمون من كل جانب وباب فوجدوا خالداً وهو يقتل مَن وجده ، فقالوا له : إنا قد أمنّاهم ، فقال : إنى فتحتها عَنوة والتقت الأمراء فى وسط البلد عند كنيسة المقسلاط بالقرب من درب الريحان اليوم هكذا ذكره سيف بن عمر وغيره ، وهو المشهور أن خالداً فتح الباب قسراً .

وقال آخرون : بل الذى فتحها عَنوة أبو عبيدة ، وقيل يزيد بن أبى سفيان ، وخالد صالح أهل البلد فعكسوا المشهور المعروف ، والله أعلم .

وقد اختلف الصحابة فقال قائلون : هى صلح — يعنى على ما صالحهم الأمير فى نفس الأمر وهو أبو عبيدة — . وقال آخرون : بل هى عَنْوة ؛ لأن خالداً افتتحها بالسيف أولا كما ذكرنا ، فلما أحسوا بذلك ذهبوا إلى بقية الأمراء ومعهم أبو عبيدة فصالحوهم ، فاتفقوا فيما بينهم على أن جعلوا نصفها صلحاً ونصفها عنوة ، فملك أهلها نصف ما كان بأيديهم وأقرّوا عليه ، واستقرت يد الصحابة على النصف . ويقوى هذا ما ذكره سيف بن عمر ، من أن الصحابة كانوا يطلبون إليهم أن يصالحوهم على المشاطرة فيأبَون ، فلما أحسّوا باليأس أنابوا إلى ما كانت الصحابة دعوهم إليه فبادروا إلى إجابتهم . ولم تعلم الصحبة بما كان من خالد إليهم ، والله أعلم .

ولهذا أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التى كانت بدمشق ، وتعرف « بكنيسة يُوحَنا » فاتخذوا الجانب الشرقى منها مسجداً ، وأبقوا لهم نصفها الغربى كنيسة ، وقد أبقوا لهم مع ذلك أربع عشرة كنيسة أخرى مع نصف الكنيسة المعروفة « بيوحنا » ، وهى جامع دمشق اليوم . وقد كتب لهم بذلك خالد بن الوليد كتاباً ، وكتب فيه شهادته : أبو عبيدة، وعمرو بن العاص ويزيد، وشرحبيل .

• إحداها : كنيسة المقسلاط التى اجتمع عندها أمراء الصحابة ، وكانت مبنية على ظهر السوق الكبير ، وهذه القناطر المشاهدة فى سوق الصابونيين من بقية القناطر التى كانت تحتها ، ثم بادت فيما بعد وأخذت حجارتها فى العمارات .

• الثانية : كنيسة كانت فى رأس درب القرشيين وكانت صغيرة ، قال الحافظ ابن عساكر : وبعضها باق إلى اليوم وقد تشعثت .

---

(١) أى : المناصفة فى الأموال يقال : شاطرته مالى ـ ناصفته .

* الثالثة : كانت بدار البطيخ العتيقة . قلت : وهى داخل البلد بقرب الكوشك ، وأظنها فى المسجد الذى قبل هذا المكان المذكور ، فإنها خربت من دهر والله أعلم .

* الرابعة: كانت بدرب بنى نصر[1] ، بين درب الحبالين ودرب التيمى. قال الحافظ ابن عساكر: وقد أدركت بعض بنيانها ، وقد خرب أكثرها .

* الخامسة : كنيسة بولص ، قال ابن عساكر : وكانت غربى القيسارية الفخرية وقد أدركت من بنيانها بعض أساس الحنية .

* السادسة : كانت فى موضع دار الوكالة، وتعرف اليوم بكنيسة القلانسيين. قلت : والقلانسيين هى الخواصين اليوم .

* السابعة : التى بدرب السقيل اليوم ، وتعرف بكنيسة حميد بن دُرّة سابقا ، لأن هذا الدرب كان إقطاعاً له ـ وهو حميد بن عمرو بن مساحق القرشى العامرى ـ ودرّة أمه ـ وهى دُرة ابنة هاشم ابن عتبة بن ربيعة ، فأبوها خال معاوية وكان قد أقطع هذا الدرب فنسبت هذه الكنيسة إليه ، وكان مسلماً ، ولم يبق لهم اليوم سواها ، وقد خرب أكثرها .

واليعقوبية منهم كنيسة داخل باب توما بين رحبة خالد ـ وهو خالد بن أسيد بن أبى العيص[2] ـ وبين درب طلحة بن عمرو بن مرة الجهنى ، وهى الكنيسة الثامنة .

وكانت لليعقوبيين كنيسة أخرى فيما بين درب التنوى وسوق على . قال ابن عساكر : قد بقى من بنائها بعضه ، وقد خربت منذ دهر ، وهى الكنيسة التاسعة .

* وأما العاشرة فهى: الكنيسة المصلبة، قال الحافظ ابن عساكر: وهى باقية إلى اليوم بين الباب الشرقى وباب توما بقرب النسطس[3] عند السور . والناس اليوم يقولون النيطون. قال ابن عساكر : وقد خرب أكثرها هكذا قال وقد خربت هذه الكنيسة ، وهدمت فى أيام صلاح الدين فاتح القدس بعد الثمانين وخمسمائة بعد موت الحافظ ابن عساكر رحمه الله .

* الحادية عشرة : كنيسة مريم داخل الباب الشرقى. قال ابن عساكر: وهى من أكبر ما بقى بأيديهم. قلت : ثم خربت بعد موته بدهر فى أيام الملك الظاهر ـ ركن الدين بيبرس البندقدارى على ما سيأتى بيانه .

* الثانية عشرة : كنيسة اليهود التى بأيديهم اليوم فى حارتهم، ومحلها معروف بالقرب من الجبر وتسميه الناس اليوم: بستان القط، وكانت لهم كنيسة فى درب البلاغة لم تكن داخلة فى العهد فهدمت فيما بعد وجعل مكانها المسجد المعروف بمسجد ابن السهروردى ، والناس اليوم يقولون

---

(١) فى نسخة : بنى نصرس (٢) فى نسخة : أبى العاص (٣) فى نسخة : النيطس

درب الشاذورى . قلت : وقد أخربت لهم كنيسة كانوا قد أحدثوها لم يذكرها أحد من علماء التاريخ ، لا ابن عساكر ولا غيره ، وكان إخرابها فى حدود سنة سبع عشرة وسبعمائة ، ولم يتعرض الحافظ ابن عساكر لذكر كنيسة السامرة بمرة . ثم قال ابن عساكر : ومما أحدث ـ يعنى النصارى ـ كنيسة بناها أبو جعفر المنصور لبنى قطيطا فى الفويرق عند قناة صالح قريبا من دازيها[1] وارمن اليوم ، وقد أخربت فيما بعد ، وجعلت مسجداً يعرف بمسجد الجينيق ، وهو مسجد أبى اليمن .

قال : ومما أحدث كنيستا العباد؛ إحداهما عند دار ابن الماشلى وقد جعلت مسجداً ، والأخرى التى فى رأس درب النقاشين وقد جعلت مسجداً . انتهى ما ذكره الحافظ ابن عساكر الدمشقى رحمه الله . قلت : وظاهر سياق سيف بن عمر يقتضى أن فتح دمشق وقع فى سنة ثلاث عشرة ، ولكن نص سيف على ما نص عليه الجمهور ، من أنها فتحت فى نصف رجب سنة أربع عشرة . كذا حكاه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عائذ القرشى الدمشقى عن الوليد بن مسلم عن عثمان ابن حصين بن غلاق عن يزيد بن عبيدة ، قال : فتحت دمشق سنة أربع عشرة . ورواه دُحَيم عن الوليد . قال : سمعت أشياخاً يقولون إن دمشق فتحت سنة أربع عشرة . وهكذا قال سعيد ابن عبد العزيز وأبو معشر ومحمد بن إسحق ومعمر والأموى وحكاه عن مشايخه ، وابن الكلبى وخليفة بن خياط وأبو عبيدة القاسم بن سلام ؛ إن فتح دمشق كان فى سنة أربع عشرة . وزاد سعيد بن عبد العزيز وأبو معشر والأموى : وكانت اليرموك بعدها بسنة . وقال بعضهم : بل كان فتحها فى شوال سنة أربع عشرة . وقال خليفة : حاصرهم أبو عبيدة فى رجب وشعبان ورمضان وشوال ، وتم الصلح فى ذى القعدة . وقال الأموى فى مغازيه : كانت وقعة أجنادين فى جمادى الأولى ، ووقعة فحل فى ذى القعدة من سنة ثلاث عشرة ـ يعنى ووقعة دمشق سنة أربع عشرة ـ وقال دُحَيم عن الوليد : حدثنى الأموى أن وقعة فحل وأجنادين كانت فى خلافة أبى بكر ، ثم مضى المسلمون إلى دمشق فنزلوا عليها فى رجب سنة ثلاث عشرة ـ يعنى ففتحوها فى سنة أربع عشرة . وكانت اليرموك سنة خمس عشرة ، وقدم عمر إلى بيت المقدس سنة ست عشرة .

فصل

واختلف العلماء فى دمشق ؛ هل فتحت صلحاً أو عنوة ؟ فأكثر العلماء على أنه استقر أمرها على الصلح ، لأنهم شكّوا فى المتقدم على الآخر ؛ أفتحت عنوة ثم عدل الروم إلى المصالحة ؟ أو فتحت صلحاً ؟ أو اتفق الاستيلاء من الجانب الآخر قسراً ؟ فلما شكوا فى ذلك جعلوها صلحاً احتياطاً .

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولم نقف بعد بحث طويل على الصواب فى ذلك .

وقيل : بل جعل نصفها صلحاً ونصفها عنوة ، وهـذا القول قد يظهر من صنع الصحابة في الـكنيسة العظمى، التي كانت أكبر معابدهم حين أخذوا نصفها وتركوا لهم نصفها، والله أعلم .

ثم قيل : إن أبا عبيدة هو الذى كتب لهم كتاب الصلح ، وهذا هو الأنسب والأشهر ، فإن خالداً كان قد عزل عن الإمرة . وقيل : بل الذى كتب لهم الصلح خالد بن الوليد ، ولـكن أقره على ذلك أبو عبيدة ، فالله أعلم .

وذكر أبو حذيفة ـ إسحاق بن بشر ـ أن الصديق توفى قبل فتح دمشق ، وأن عمر كتب إلى أبى عبيدة يُعزيه والمسلمين فى الصديق ، وأنه قد استنابه على من بالشام ، وأمره أن يستشير خالداً فى الحرب ، فلما وصل الـكتاب إلى أبى عبيدة كتمهُ من خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة ، فقال له خالد : يرحمك الله ، ما منعك أن تعلمنى حين جاءك ؟ فقال : إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ، وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمـل ، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه .

ومن أعجب ما يذكر ههنا ، ما رواه يعقوب بن سفيان الفسوى : حدثنا هشام بن عمار ، ثنا عبد الملك بن محمد، ثنا راشد بن داود الصنعانى ، حدثنى أبو عثمان الصنعانى ـ شراحيل بن مرثد ، قال : بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى أهل اليمامة ، وبعث يزيد بن أبى سفيان إلى الشام ، فذكر الراوى، فقال خالد لأهل اليمامة إلى أن قال : ومات أبو بكر واستخلف عمر فبعث أبا عبيدة إلى الشام فقـدم دمشق فاستمد أبو عبيدة عمر ، فـكتب عمر إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى أبى عبيدة بالشام ، فذكر مسير خالد من العراق إلى الشام كما تقدم وهذا غريب جداً ؛ فإن الذى لا يشك فيه أن الصديق هو الذى بعث أبا عبيدة وغيره من الأمراء إلى الشام ، فهو الذى كتب إلى خالد بن الوليد أن يقدم من العراق إلى الشام؛ ليـكون مدداً لمن به وأميراً عليهم ، ففتح الله تعالى عليه ، وعلى يديه جميع الشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وقال محمد بن عائذ : قال الوليد بن مسلم: أخبرنى صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير ابن نفير ، أن المسلمين لما افتتحوا مدينة دمشق بعثوا أبا عبيدة بن الجراح وافداً إلى أبى بكر بَشيراً بالفتح،فقدم المدينة فوجد أبا بكر قد توفى واستخلف عمر بن الخطاب ، فأعظم أن يتأمر أحد من الصحابة عليه فولاه جماعة الناس فقدم عليهم فقالوا : مرحباً بمن بعثناه بريدا فقدم علينا أميرا .

وقد روى الليث وابن لهيعة وحيوة بن شريح ومفضل بن فضالة وعمر بن الحارث وغير واحد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الله بن الحـكم عن على بن رباح ، عن عقبة بن عامر أنه بعثه أبو عبيدة بريدا بفتح دمشق قال : فقدمت على عمر يوم الجمعة .فقال لى : منذ كم لم تنزع خفيك ؟ فقلت : من يوم الجمعة وهذا يوم الجمعة . فقال : أصبت السُّنة

قال الليث : وبه نأخذ ، يعني أن المسح على الخفين للمسافر لا يتأقت ، بل له أن يمسح عليهما ما شاء ، وإليه ذهب الشافعي في القديم . وقد روى أحمد وأبو داود عن أبي بن عمارة مرفوعا مثل هذا ، والجمهور على ما رواه مسلم عن علي في تأقيت المسح للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، والمقيم يوم وليلة . ومن الناس من فصل بين البريد[1] ومن في معناه وغيره ، فقال في الأول : لا يتأقت ، وفيما عداه يتأقت ، لحديث عقبة وحديث علي ، والله أعلم .

فصل

ثم إن أبا عبيدة بعث خالد بن الوليد إلى البقاع ففتحه بالسيف . وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون ، وعلى الروم رجل يقال له « سِنان » تحدر على المسلمين من عَقبة بيروت فقتل من المسلمين يومئذ جماعة من الشهداء ، فكانوا يسمون « عين ميسنون » عين الشهداء . واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان كما وعده بها الصديق وبعث يزيد دِحية بن خليفة إلى تدمر في سرية ليمهدوا أمرها . وبعث أبا الزهراء القشيري إلى البثنيّة وحوران فصالح أهلها .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله : افتتح خالد دمشق صلحاً ، وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحاً دون أراضيها . فعلى يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة . وقال الوليد بن مسلم : أخبرني غير واحد من شيوخ دمشق ، بينما على حصار دمشق إذ أقبلت خيل من عقبة السلمية مخمرة بالحرير ، فثار إليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لهيا والعقبة التي أقبلوا منها ، فهزموهم وطردوهم إلى أبواب حمص ، فلما رأى أهل حمص ذلك ظنوا أنهم قد فتحوا دمشق ، فقال لهم أهل حمص : إنا نصالحكم على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا .

وقال خليفة بن خياط : حدثني عبدالله بن المغيرة عن أبيه قال : افتتح شرحبيل بن حَسنة الأردن كلها عنوة ، ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه . وهكذا قال ابن الكلبي . وقالا : بعث أبو عبيدة خالداً فغلب على أرض البقاع وصالحه أهل بعلبك وكتب لهم كتاباً . وقال ابن المغيرة عن أبيه: وصالحهم على أنصاف منازلهم وكنائسهم ، ووضع الخراج . وقال ابن إسحاق وغيره : وفي سنة أربع عشرة فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي القعدة . قال خليفة: ويقال في سنة خمس عشرة .

---

(١) البريد : الرسول ، والرسل على دواب البريد .

وقعة فحل (١)

وقد ذكرها كثير من علماء السير قبل فتح دمشق ، وإنما ذكرها الإمام أبو جعفر بن جرير بعد فتح دمشق ، وتبع فى ذلك سياق سيف بن عمر فيما رواه عن أبى عثمان يزيد بن أسيد الغسانى وأبى حارثة القيسى قالا : خلف الناس يزيد بن أبى سفيان فى خيله فى دمشق وسار نحو فحل ، وعلى الناس الذين هم بالغور شرحبيل بن حسنة ، وسار أبو عبيدة وقد جعل على المقدمة خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة على الميمنة ، وعمرو بن العاص على الميسرة ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرجالة عياض بن غنم ، فوصلوا إلى فحل - وهى بلدة بالغور وقد انحاز الروم إلى بيسان ، وأرسلوا مياه تلك الأراضى على ما هنالك من الأراضى ، فحال بينهم وبين المسلمين ، وأرسل المسلمون إلى عمر يخبرونه بما هم فيه من مصابرة عدوهم وما صنعه الروم من تلك المكيدة ، إلا أن المسلمين فى عيش رغيد ومدد كبير ، وهم على أهبة من أمرهم وأمير هذه الحرب شرحبيل بن حسنة وهو لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة . وظن الروم أن المسلمين على غرة ، فركبوا فى بعض الليالى ليبيتوهم ، وعلى الروم سقلاب (٢) بن مخراق ، فهجموا على المسلمين فنهضوا إليهم نهضة رجل واحد لأنهم على أهبة دائماً ، فقاتلوهم حتى الصباح وذلك اليوم بكماله إلى الليل .

فلما أظلم الليل فر الروم وقتل أميرهم سقلاب ، وركب المسلمون أكتافهم وأسلمتهم هزيمتهم إلى ذلك الوحل الذى كانوا قد كادوا به المسلمين فغرقهم الله فيه ، وقتل منهم المسلمون بأطراف الرماح ما قارب الثمانين ألفاً ، لم ينج منهم إلا الشريد ، وغنموا منهم شيئا كثيراً ومالا جزيلا . وانصرف أبو عبيدة وخالد بمن معهما من الجيوش نحو حمص ، كما أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واستخلف أبو عبيدة على الأردن شرحبيل بن حسنة ، فسار شرحبيل ومعه عمرو بن العاص فحاصر بيسان ، فخرجوا إليه فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم صالحوه على مثل ما صالحت عليه دمشق ، وضرب عليهم الجزية والخراج على أراضيهم ، وكذلك فعل أبو الأعور السلمى بأهل طبرية سواء .

فصل فيما وقع بأرض العراق فى هذه المدة من القتال

وقد قدمنا أن المثنى بن حارثة لما سار خالد من العراق بمن صحبه إلى الشام - وقد قيل إنه سار بتسعة آلاف ، وقيل بثلاثة آلاف ، وقيل بسبعمائة وقيل بأقل ، إلا أنهم صناديد جيش العراق ، فأقام المثنى بمن بقى فاستقل عددهم وخاف من سطوة الفرس لولا اشتغالهم بتبديل ملوكهم وملكاتهم ، واستبطأ المثنى خبر الصديق فسار إلى المدينة فوجد الصديق فى السياق ، فأخبره

(١) عين بين فلسطين والأردن . وتسمى هذه الواقعة عند العرب : ذات الردغة ، وبيسان كذلك .

(٢) الذى فى الطبرى : سقلار

بأمر العراق ، فأوصى الصديق عمر أن يندب الناس لقتال أهل العراق . فلما مات الصديق ودفن ليلة الثلاثاء أصبح عمر فندب الناس وحثهم على قتال أهل العراق ، وحرضهم ورغبهم فى الثواب على ذلك ، فلم يقم أحد لأن الناس كانوا يكرهون قتال الفرس لقوة سطوتهم ، وشدة قتالهم . ثم ندبهم فى اليوم الثانى والثالث فلم يقم أحد ، وتكلم المثنى بن حارثة فأحسن ، وأخبرهم بما فتح الله تعالى على يدى خالد من معظم أرض العراق ، ومالهم هنالك من الأموال والأملاك والأمتعة والزاد فلم يقم أحد فى اليوم الثالث. فلما كان اليوم الرابع كان أول من انتدب من المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم تتابع الناس فى الإجابة ، وأمر عمر طائفة من أهل المدينة ، وأمّر على الجميع أبا عبيد هذا ولم يكن صحابياً فقيل لعمر : هلا أمرت عليهم رجلا من الصحابة ؟ فقال : إنما أؤمر أول من استجاب ، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين ، وإن هذا هو الذى استجاب قبلكم . ثم دعاه فوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ ، [وأن يستشير سليط بن قيس ، فإنه رجل باشر الحروب][1] فسار المسلمون إلى أرض العراق [وهم سبعة آلاف رجل][2] وكتب عمر إلى أبى عبيدة أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد إلى العراق [فجهز عشرة آلاف عليهم هاشم بن عتبة ، وأرسل عمر جرير بن عبدالله البجلى فى أربعة آلاف إلى العراق فقدم الكوفة ثم خرج منها فواقع هرقران المدار فقتله وانهزم جيشه وغرق أكثرهم فى دجلة][3] فلما وصل الناس إلى العراق وجدوا الفرس مضطربين فى ملكهم ، وآخر ما استقر عليهم أمرهم أن ملكوا عليهم « بوران » بنت كسرى بعد ما قتلوا التى كانت قبلها « أزرميدخت » وفوضت بوران أمر الملك عشر سنين إلى رجل منهم يقال له : « رستم بن فرخزاد » على أن يقوم بأمر الحرب ، ثم يصير الملك إلى آل كسرى فقبل ذلك . وكان رستم هذا منجما يعرف النجوم وعلمها جيداً ، فقيل له : ما حملك على هذا ؟ يعنون وأنت تعلم أن هذا الأمر لا يتم لك . فقال : الطمع وحب الشرف .

وقعة النمارق[4]

بعث رستم أميراً يقال له « جابان » وعلى مجنبتيه رجلان يقال لأحدهما « جشنس ماه » ويقال للآخر « مِرْدَانشاه » وهو خصى أمير حاجب الفرس ، فالتقوا مع أبى عبيد بمكان يقال له النمارق - بين الحيرة والقادسية - وعلى الخيل المثنى بن حارثة ، وعلى الميسرة عمرو بن الهيثم ، فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً وهزم الله الفرس وأسر جابان ومَردانشاه . فأما مردانشاه فإنه قتله الذى أسره ، وأما جابان فإنه خدع الذى أسره حتى أطلقه ، فأمسكه المسلمون وأبوا أن يطلقوه ،

(١ ، ٢ ، ٣) نقص فى بعض النسخ .

(٤) النمارق : موضع قرب الكوفة من أرض العراق .

وقالوا إن هذا هو الأمير وجاؤا به إلى أبى عبيد فقالوا اقتله فإنه الأمير ، فقال : وإن كان الأمير فإنى لا أقتله ، وقد أمنه رجل من المسلمين ثم ركب أبو عبيد فى آثار من انهزم منهم وقد لجأوا إلى مدينة كسكر التى لابن خالة كسرى واسمه « نرسى » فوازرهم نرسى على قتال أبى عبيد ، فقهرهم أبو عبيد وغنم منهم شيئاً كثيرا وأطعمات كثيرة جداً ، ولله الحمد . وبعث بخمس ما غنم من المال والطعام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ، وقد قال فى ذلك رجل من المسلمين .

لَعَمْرى وما عمرى عَلَى بِهين ... لقد صُبِّحت بالخِزْى أهلُ النمارق

بِأيدى رِجالٍ هاجرُوا نحو رَبِّهم ... يجُوسونهم مابين دُرْتا وبارق

قتلناهم ما بين مَرْج مُسَلَّح ... وبين الهوافِى من طريق التذارِق

فالتقوا بمكان بين كَسْكر والسَّقاطية ، وعلى ميمنة نرسى وميسرته ابنا خاله : بِندويه وتيرويه - أولاد بسطام ، وكان رستم قد جهز الجيوش مع الجالينوس ، فلما بلغ أبو عبيد ذلك أعجل نرسى بالقتال قبل وصولهم فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت الفرس ، وهرب نرسى والجالينوس إلى المدائن بعد وقعة جرت من أبى عبيد مع الجالينوس بمكان يقال له باروسما ، فبعث أبو عبيد المثنى ابن حارثة وسرايا أخر إلى متاخم تلك الناحية ، كنهر جور ونحوها ففتحها صلحاً وقهراً ، وضربوا الجزية والخراج وغنموا الأموال الجزيلة ولله الحمد والمنه ، وكسروا الجالينوس الذى جاء لنصرة جابان وغنموا جيشه وأمواله ، وكرّ هارباً إلى قومه حقيراً ذليلا .

وقعة جسر أبى عبيد التى قتل فيها أمير المسلمين وخلق كثير منهم

فإنا لله وإنا إليه راجعون

لما رجع الجالينوس هارباً مما لقى من المسلمين تذامرت الفرس بينهم واجتمعوا إلى رستم ، فأرسل جيشاً كثيفا عليهم ذا الحاجب « بَهمن جاذَوَيه » وأعطاه راية أفريدون وتسمى « دِرَفش كابيان » ، وكانت الفرس تتيمن بها . وحملوا معهم راية كسرى وكانت من جلود النمور عرضها ثمانية أذرع . فوصلوا إلى المسلمين وبينهم النهر وعليه جسر ، فأرسلوا : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم . فقال المسلمون لأميرهم أبى عبيد : أأمرهم فليعبروا هم إلينا ، فقال : ماهم بأجرأ على الموت منا . ثم اقتحم إليهم فاجتمعوا فى مكان ضيق هنالك فاقتتلوا قتالا شديداً لم يعهد مثله ، والمسلمون فى نحو من عشرة آلاف وقد جاءت الفرس معهم بأفيلة كثيرة عليها الجلاجل قائمة ، لتذعر خيول المسلمين ، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم من الفيلة ، ومما تسمع من الجلاجل التى عليها ولا يثبت منها إلا القليل على قسر . وإذا حمل المسلمون عليهم لاتقدم خيولهم على الفيلة ورشقتهم الفرس بالنبل ، فنالوا منهم خلقا كثيراً وقتل المسلمون منهم مع ذلك ستة آلاف . وأمر أبو عبيد

المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولاً ، فاحتوشوها[1] فقتلوها من آخرها ، وقد قدمت الفرس بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيض ، فتقدم إليه أبو عُبيد فضربه بالسيف فقطع ذلومه ، فحمى الفيل وصاح صيحة هائلة وحمل فتخبطه برجليه فقتله ووقف فوقه ، فحمل على الفيل خليفة أبي عُبيد الذي كان أوصى أن يكون أميراً بعده فقتل ، ثم آخر ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف ، كان قد نصّ أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحد ، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضاً .

وقد كانت دُوْمة امرأة أبي عبيد رأت مناماً يدل على ما وقع سواء بسواء . فلما رأى المسلمون ذلك وَهَنوا عند ذلك ، ولم يكن بقي إلا الظفر بالفرس ، وضعف أمرهم ، وذهب ريحهم ، وولوا مدبرين ، وساقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً ، وانكشف الناس فكان أمراً بليغاً وجاءوا إلى الجسر فمرّ بعض الناس. ثم انكسر الجسر فتحكم فيمن وراءه الفرس ، فقتلوا من المسلمين وغرق في الفرات نحوا من أربعة آلاف . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وسار المثنى بن حارثة فوقف عند الجسر الذي جاءوا منه . وكان الناس لما انهزموا جعل بعضهم يلقى بنفسه في الفرات فيغرق ، فنادى المثنى : أيها الناس على هينتكم[2] فإني واقف على فم الجسر ، لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ههنا ، فلما عدّى الناس إلى الناحية الأخرى سار المثنى فنزل بهم أول منزل ، وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين ، وقد جرح أكثرهم وأثخنوا . ومن الناس من ذهب في البرّية لا يدرى أين ذهب ، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعوراً ، وذهب بالخبر عبد الله بن زيد بن عاصم المازني إلى عمر بن الخطاب فوجده على المنبر ، فقال له عمر : ما وراءك يا عبد الله بن زيد ؟ فقال : أتاك الخبر اليقين يا أمير المؤمنين ، ثم صعد إليه المنبر فأخبره الخبر سراً ، ويقال : كان أول من قدم بخبر الناس ـ عبدالله بن يزيد بن الحصين الخطْمي ، فالله أعلم.

قال سيف بن عمر : وكانت هذه الوقعة في شعبان من سنة ثلاث عشرة ، بعد اليرموك بأربعين يوما ، فالله أعلم وتراجع المسلمون بعضهم إلى بعض ، وكان منهم من فرّ إلى المدينة فلم يؤنب عمر الناس بل قال :أنا فئتكم[3] وأشغل الله المجوس بأمر ملكهم . وذلك أن أهل المدائن عَدَوا على رُستم فخلعوه ثم ولوه وأضافوا إليه الفيرزان ، واختلفوا على فرقتين ، فركب الفرس إلى المدائن ولحقهم المثنى بن حارثة في نفر من المسلمين ، فعارضه أميران من أمرائهم في جيشهم ، فأسرهما وأسر معهما بشراً كثيرا فضرب أعناقهم ثم أرسل المثنى إلى من بالعراق من أمراء

---

(١) أى طاردوها بينهم . يقال : احتوش القوم الصيد ـ أنفره بعضهم على بعض

(٢) أى : على رسلكم متمهلين غير عجلين

(٣) أى: مرجعكم الذى ترجعون إليه، والفئة : الجماعة

المسلمين يستمدهم ، فبعثوا إليه بالإمداد ، وبعث إليه عمر بن الخطاب بمدد كثير؛ فيهم جرير بن عبد الله البجلي ، في قومه بُجيلة بكمالها ، وغيره من سادات المسلمين حتى كثر جيشه .

وقعة البويب التي اقتص فيها المسلمون من الفرس

فلما سمع بذلك أمراء الفرس ، وبكثرة جيوش المثنى ، بعثوا إليه جيشا آخر مع رجل يقال له «مِهْران » فتوافوا هم وإياهم بمكان يقال له « البُوَيب» قريب من مكان الكوفة اليوم ، وبينهما الفرات . فقالوا : إما أن تعبروا إلينا ، أو نعبر إليكم . فقال المسلمون : بل اعبروا إلينا . فعبرت الفرس إليهم فتواقفوا ، وذلك في شهر رمضان فعزم المثنى على المسلمين في الفطر فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم ، وعبّى الجيش ، وجعل يمرُّ على كل راية من رايات الأمراء على القبائل ، ويَعظهم ويحثهم على الجهاد والصبر والصمت . وفي القوم جَرير بن عبد الله البجلي في بَجيلة وجماعة من سادات المسلمين . وقال المثنى لهم : إني مكبّر ثلاثَ تكبيرات فتهيأوا ، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا . فقابلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول . فلما كبّر أول تكبيرة عاجلتهم الفرس فحملوا حتى غالقوهم[1] ، واقتتلوا قتالا شديدا ، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللا ، فبعث إليهم رجلا يقول : الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : لا تفضحوا العرب اليوم فاعتدَلوا . فلما رأى ذلك منهم ـ وهم بنو عِجل ـ أعجبه وضحك . وبعث إليهم يقول : يا معشر المسلمين عاداتكم ، انصروا الله ينصركم . وجعل المثنى والمسلمون يدعون الله بالظفر والنصر . فلما طالت مدة الحرب جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال يحمون ظهره ، وحمل على مِهْران فأزاله عن موضعه حتى دخل المَيمنة ، وحمل غلام من بني تغلب نصراني ، فقتل مِهران وركب فرسه . كذا ذكره سيف بن عمر .

وقال محمد بن إسحاق: بل حمل عليه المنذر بن حسّان بن ضِرار الضّبي فطعنه ، واحتز رأسه جَرير بن عبد الله البَجلي ، واختصما في سَلَبه ، فأخذ جرير السلاح وأخذ المنذر منطقته . وهربت المجوس وركب المسلمون أكتافهم يفصلونهم فصلا . وسبق المثنى بن حارثة إلى الجسر فوقف عليه ليمنع الفرس من الجواز عليه ليتمكن منهم المسلمون . فركبوا أكتافهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة ، ومن الغد إلى الليل ، فيقال إنه قتل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف ، ولله الحمد والمنة . وغنم المسلمون مالا جزيلا وطعاما كثيراً ، وبعثوا بالبشارة والأخماس إلى عمر رضي الله عنه . وقد قتل من سادات المسلمين في هذا اليوم بشر كثير أيضا : وذلّت لهذه الوقعة رقاب الفرس

---

(١) أي: أحدثوا بينهم اضطرابا وفي الطبري : غالطوهم

وتمكن الصحابة من الغارات فى بلادهم ، فيما بين الفرات ودجلة ، فغنموا شيئاً عظيماً لا يمكن حصره. وجرت أمور يطول ذكرها بعد يوم البُوَيب . وكانت هذه الواقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام . وقد قال الأعور الشَّنِّىُّ العَبْدى فى ذلك :

هاجَت لِأعورَ دارُ الحىِّ أحزانا ... واستَبْدَلَت بعد عبد القيس خفّانا
وقد أرانا بها والشَّملُ مُجتَمِعٌ ... إذ بالنُّخَيلةِ قَتلَى جُنـدِ مِهرانا
أزْمَانَ سـار المثنىّ بالخيول لهم ... فقتّل الزحفَ مِن فُرْسٍ وجيلانا
سَمَا لمهرانَ والجيشِ الذى معـه ... حتى أبادَهُمُ مَثْنَى وَوُحـدانا

فصل

ثم بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سَعد بن أبى وقاص الزهرى ـ أحد العشرة ـ فى ستة آلاف أميراً على العراق ، وكتب إلى جرير بن عبد الله والمثنىّ بن حارثة أن يكونا تبعاً له ، وأن يسمعا له ويطيعا ، فلما وصل إلى العراق كانا معه ، وكانا قد تنازعا الإمرة ؛ فالمثنىّ يقول لجرير : إنما بعثك أمير المؤمنين مَدَداً إلىّ . ويقول جرير : إنما بعثنى أميراً عليك . فلما قدم سعد على أمر العراق انقطع نزاعهما . قال ابن إسحاق : وتوفى المثنىّ بن حارثة فى هذه السنة ، كذا قال ابن إسحاق . والصحيح أنّ بعث عمر سعداً إنما كان فى أول سنة أربع عشرة كما سيأتى .

ذكر اجتماع الفرس على يزدجرد بعد اختلافهم واضطرابهم ثم اجتمعت كلمتهم

كان شِيرين قد جمع آل كسرى فى القصر الأبيض ، وأمر بقتل ذكرانهم كلهم ، وكانت أم يَزْدجرد فيهم ومعها ابنها وهو صغير ، فواعدت أخواله فجاءوا وأخذوه منها وذهبوا به إلى بلادهم ، فلما وقع ما وقع يوم البُوَيب ، وقتل من قتل منهم كما ذكرنا ، وركب المسلمون أكتافهم وانتصروا عليهم وعلى أخذ بلدانهم ، ومحالّهم وأقاليمهم ، ثم سمعوا بقدوم سَعد بن أبى وقاص من جهة عمر ـ اجتمعوا فيما بينهم وأحضروا الأميرين الكبيرين فيهم وهما : رُستم والفَيْرُزان فتذامروا فيما بينهم وتواصوا وقالوا لهما : لئن لم تقوما بالحرب كما ينبغى لنقتلنكما ونشتفى بكما . ثم رأوا فيما بينهم أن يبعثوا خلف نساء كسرى من كلّ فجٍّ ومن كلّ بقعة ، فمن كان لها ولد من آل كسرى ملّكوه عليهم فجعلوا إذا أتوا بالمرأة عاقبوها هل لها ولد وهى تنكر ذلك خوفاً على ولدها إن كان لها ولد ؟ فلم يزالوا حتى دلّوا على أم يَزْدَجِرد ، فأحضروها وأحضروا ولدها

فملكوه عليهم وهو ابن إحدى وعشرين سنة . وهو من ولد شَهْريار بن كسرى ، وعزلوا «بُورَان» واستوثقت الممالك له ، واجتمعوا عليه وفرحوا به ، وقاموا بين يديه بالنصر ثُمّ قيام ، واستفحل أمره فيهم وقويت شكوتهم به ؛ وبعثوا إلى الأقاليم والرساتيق[1] فخلعوا الطاعة للصحابة ونقضوا عهودهم وذممهم، وبعث الصحابة إلى عمر بالخبر، فأمرهم عمر أن يتبرزوا[2] من بين ظهرانيهم، وليكونوا على أطراف البلاد حولهم على المياه ، وأن تكون كل قبيلة تنظر إلى الأخرى بحيث إذا حدث حدثٌ على قبيلة لا يخفى أمرها على جيرانهم . وتفاقم الحال جداً ، وذلك فى ذى القعدة من سنة ثلاث عشرة ، وقد حج بالناس عمر فى هذه السنة ، وقيل :بل حج بهم عبد الرحمن بن عوف ولم يحج عمر هذه السنة ، والله أعلم .

ذكر ما وقع فى هذه السنة

أعنى سنة ثلاث عشرة من الحوادث إجمالاً ، ومن توفى من الأعيان

كانت فيها وقائع تقدم تفصيلها ببلاد العراق ، على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه ، فتحت فيها الحيرة والأنبار وغيرهما من الأمصار . وفيها سار خالد بن الوليد من العراق إلى الشام على المشهور . وفيها كانت وقعة اليرموك فى قول سيف بن عمر واختيار ابن جرير . وقتل بها من قتل من الأعيان ممن يطول ذكرهم وتراجمهم رضى الله عنهم أجمعين . وفيها توفى أبو بكر الصديق . وقد أفردنا سيرته فى مجلد ولله الحمد . وفيها ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم الثلاثاء ، لثمان بقين من جمادى الآخرة منها ، فولى قضاء المدينة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واستناب على الشام أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهرى ، وعزل عنها خالد بن الوليد المخزومى ، وَأبقاه على شورى الحرب .

وفيها فتحت بصرى صلحاً، وهى أول مدينة فتحت من الشام . وفيها فتحت دمشق فى قول سيف وغيره كما قدمنا . واستنيب فيها يزيد بن أبى سفيان ، فهو أول من وَليها من أمراء المسلمين رضى الله عنهم . وفيها كانت وقعة فحل من أرض الغَوْر وقتل بها جماة من الصحابة وغيرهم .

وفيها كانت وقعة جسر أبى عبيد، فقتل فيها أربعة آلاف من المسلمين ، منهم أميرهم أبو عبيد ابن مسعود الثقفى ، وهو والد صفية امرأة عبد الله بن عمر ـ وكانت امرأة صالحة رحمها الله ، ووالد المختار بن أبى عبيد كذاب ثقيف ،وقد كان نائباً على العراق فى بعض وقعات العراق كما سيأتى.

---

(١) الرساتيق : السواد والقرى . (٢) أى: يخرجوا من بين ظهرى الأعاجم.

وفيها توفى المثنى بن حارثة فى قول ابن إسحاق ، وقد كان نائبًا على العراق ؛ استخلفه خالد بن الوليد حين سار إلى الشام ، وقد شهد مواقف مشهورة ، وله أيام مذكورة ولا سيما يوم البوُيب بعد جلهر أبى عبيد ؛ قتل فيه من الفرس وغرق بالفرات قريب من مائة ألف . والذى عليه الجمهور أنه بقى إلى سنة أربع عشرة كما سيأتى بيانه . وفيها حج بالناس عمر بن الخطاب فى قول بعضهم ، وقيل : بل حج عبد الرحمن بن عوف . وفيها استنفر عمر قبائل العرب لغزو العراق والشام ، فأقبلوا من كل النواحى ، فرمى بهم الشام والعراق .

وفيها كانت وقعة أجنادين فى قول ابن إسحق يوم السبت لثلاث من جمادى الأولى منها . وكذا عند الواقدى فيما بين الرملة وبين جسرين وعلى الروم القيقلان وأمير المسلمين عمرو بن العاص وهو فى عشرين ألفًا فى قول فقتل القيقلان وانهزمت الروم وقتل منهم خلق كثير ، واستشهد من المسلمين أيضًا جماعة؛ منهم هشام بن العاص، والفضل بن العباس ، وأبان بن سعيد وأخواه خالد وعمرو ، ونعيم بن عبد الله بن النحام ، والطفيل بن عمرو، وعبد الله بن عمرو الدوسيان ، وضرار ابن الأزور ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمه سلمة بن هشام ، وهبار بن سفيان ، وصخر بن نصر ، وتميم وسعيد ابنا الحارث بن قيس ـ رضى الله عنهم .

وقال محمد بن سعد : قتل يومئذ طليب بن عمرو ـ وأمه أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. وممن قتل يومئذ : عبدالله بن الزبير بن عبد المطلب ، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة فيما ذكره الواقدى . قال : ولم يكن له رواية وكان ممن صبر يوم حنين. قال ابن جرير: وقتل يومئذ عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، والحارث بن أوس بن عتيك ـ رضى الله عنهم .

وفيها كانت وقعة مرج الصُّفر فى قول خليفة بن خياط وذلك لثنتى عشرة بقيت من جمادى الأولى وأمير الناس خالد بن سعيد بن العاص فقتل يومئذ، وقيل إنما قتل أخوه عمرو ، وقيل ابنه فالله أعلم .

قال ابن إسحق : وكان أمير الروم قلقط فقتل من الروم مقتلة عظيمة حتى جرت طاحون هناك من دمائهم . والصحيح أن وقعة مرج الصفر فى أول سنة أربع عشرة كما سيأتى .

ذكر المتوفين فى هذه السنة

مرتبين على الحروف كما ذكرهم شيخنا الحافظ الذهبى فى تاريخه

* أبان بن سعيد بن العاص بن أمية الأموى ، أبو الوليد المكى صحابى جليل ، وهو الذى أجار عثمان بن عفان يوم صلح الحديبية حتى دخل مكة لأداء رسالة رسول الله ﷺ ، أسلم بعد مرجع أخويه من الحبشة : خالد ، وعمرو ، فدعواه إلى الإسلام فأجابهما ، وساروا فوجدوا رسول الله

ﷺ قد فتح خَيبر ، وقد استعمله رسول الله ﷺ سنة تسع على البحرين وقتل بأجنادين .

• أَنَسَة مولى رسول الله ﷺ والمشهور أنه قتل ببدر فيما ذكره البخارى وغيره ، وزعم الواقدى فيما نقله عن أهل العلم ، أنه شهد أحداً وأنه بقى بعد ذلك زماناً قال : وحدثنى ابن أبى الزناد عن محمد بن يوسف ، أن أنسة مات فى خلافة أبى بكر الصديق وكان يكنى أبا مَسْرُوح[1] . وقال الزهرى: كان يأذن للناس على النبى ﷺ .

• تميم بن الحارث بن قيس السهمى وأخوه سعيد ، صحابيان جليلان هاجرا إلى الحبشة وقتلا بأجنادين .

• الحارث بن أوس بن عَتيك من مهاجرة الحبشة ، قتل بأجنادين.

• خالد بن سعيد بن أبى العاص الأموى ، من السابقين الأولين ، ممن هاجر إلى الحبشة وأقام بها بضع عشرة سنة ، ويقال إنه كان على صَنعاء من جهة رسول الله ﷺ . وأمَّره الصديق على بعض الفتوحات فى الشام كما تقدم. قتل يوم مرج الصفر فى قول ، وقيل : بل هرب فلم يمكنه الصديق من دخول المدينة تعزيراً له ، فأقام شهراً فى بعض ظواهرها حتى أذن له . ويقال إن الذى قتله أسلم ، وقال : رأيت له حين قتلته نوراً ساطعاً إلى السماء رضى الله عنه .

• سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبى خزيمة. ويقال : حارثة بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف ابن الخزوج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى الخزرجى — سيدهم أبو ثابت ، ويقال أبو قيس صحابى جليل ، كان أحد النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدراً فى قول عروة وموسى بن عقبة والبخارى وابن ما كولا . وروى ابن عساكر من طريق حجاج بن أرطاة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس، أن راية المهاجرين يوم بدر كانت مع على ، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة ـ رضى الله عنهما .

قلت : والمشهور أن هذا كان يوم الفتح والله أعلم . وقال الواقدى : لم يشهدها لأنه نهسته حية فشغلته عنها بعد أن تجهز لها ، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ، وشهد أحداً وما بعدها وكذا قال خليفة بن خياط . وكانت له جَفنة تدور مع النبى ﷺ حيث دار من بيوت نسائه بلحم وثَريد ، أو لبن وَخبز ، أو خبز بسمن، أو بخل وزيت ، وكان ينادى عند أطمة كلَّ ليلة لمن أراد القرى . وكان يحسن الكتابة بالعربى ، والرّمى والسباحة ، وكان يسمى من أحسن ذلك كاملا . وَقد ذكر أبو عمر بن عبد البر ما ذكره غير وَاحد من علماء التاريخ ، أنه تخلف عن بيعة الصديق حتى خرج إلى الشام فمات بقرية من حُوران سنة ثلاث عشرة فى خلافة الصديق . قاله

---

(١) وقيل : أبا سرح وكان من مولدى السراة

ابن إسحاق والمدائني وخليفة . قال : وقيل في أول خلافة عمر ، وقيل سنة أربع عشرة ، وقيل سنة خمس عشرة . وقال الفلاس وابن بكر : سنة ست عشرة.

قلت : أما بيعة الصديق، فقد روينا في مسند الإمام أحمد : أنه سلم للصديق ما قاله من أن الخلفاء من قريش . وأما موته بأرض الشام فمحقق والمشهور أنه بحوران . قال محمد بن عائذ الدمشقي عن عبد الأعلى عن سعيد بن عبد العزيز أنه قال : أول مدينة فتحت من الشام بصرى ، وبها توفي سعد بن عبادة . وعند كثير من أهل زماننا أنه دفن بقرية من غوطة دمشق ، يقال لها « المنيحة » وبها قبر مشهور به ، ولم أر الحافظ ابن عساكر تعرض لذكر هذا القبر في ترجمته بالكلية ، فالله أعلم. قال ابن عبد البر : ولم يختلفوا أنه وجد ميتاً في مغتسله ، وقد اخضر جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول :

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ‌ ‌ ‌ ‌ رميناه بسهم فلم يخطىء فؤاده

قال ابن جريج : سمعت عطاء يقول : سمعت أن الجن قالوا في سعد بن عبادة هذين البيتين . له عن النبي ﷺ أحاديث ، وكان رضي الله عنه من أشد الناس غيرة ، ما تزوج امرأة إلا بكراً ، ولا طلق امرأة فتجاسر أحد أن يخطبها بعده . وقد روى أنه لما خرج من المدينة قسم ماله بين بنيه ، فلما توفي وُلد له ولد، فجاء أبو بكر وعمر إلى ابنه قيس بن سعد فأمراه أن يدخل هذا معهم ، فقال : إني لا أغير ما صنع سعد ولكن نصيبي لهذا الولد .

● سلمة بن هشام بن المغيرة ـ أخو أبي جهل بن هشام ، أسلم سلمة قديماً وهاجر إلى الحبشة ، فلما رجع منها حبسه أخوه أبو جهل وأجاعه، فكان رسول الله ﷺ يدعو له في القنوت والجماعة معه من المستضعفين . ثم انسلّ فلحق برسول الله ﷺ بالمدينة بعد الخندق ، وكان معه بها ، وقد شهد أجنادين ، وقتل بها رضي الله عنه .

● ضرار بن الأزور الأسدي ، كان من الفرسان المشهورين ، والأبطال المذكورين ، له مواقف مشهودة ، وأحوال محمودة . ذكر عروة وموسى بن عقبة، أنه قتل بأجنادين . له حديث في استحباب إبقاء شيء من اللبن في الضرع عند الحلب[1] .

● طُليب بن عمير بن وهب بن كثير بن هند بن قصي القرشي العبدي، أمه أروى بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ . أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدراً . قاله ابن إسحاق والواقدي والزبير بن بكار . ويقال إنه أول من ضرب مُشركاً ، وذلك أنّ أبا جهل سَبّ النبي ﷺ فضربه طُليب بلَحى[2] جمل فشجّه . استشهد طُليب بأجنادين وقد شاخ رضي الله عنه .

(١) مر به النبي وهو يحلب فقال له : « دع داعي اللبن » ، أي أبق عند الحلب شيئاً من اللبن في الضرع . (٢) أي بسير من جلد الجمل .

* عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، ابن عم النبى ﷺ كان من الأبطال المذكورين والشجعان المشهورين ، قتل يوم أجنادين بعد ما قتل عشرة من الروم مبارزة كلهم بطارقة أبطال . وله من العمر يومئذ بضع وثلاثون سنة .

* عبد الله بن عَمْر والدّوسى ، قتل بأجنادين . وليس هذا الرجل معروفا .

* عثمان بن طلحة العبدرى الحَجَبى[1] . قيل : إنه قتل بأجنادين ، والصحيح أنه تأخر إلى ما بعد الأربعين .

* عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية الأموى - أبو عبد الرحمن أمير مكة نيابة عن رسول الله ﷺ استعمله عليها عام الفتح ، وله من العمر عشرون سنة ، فحج بالناس عامئذ ، واستنابه عليها أبو بكر بعده عليه السلام . وكانت وفاته بمكة ، قيل يوم توفى أبو بكر رضى الله عنهما . له حديث واحد ، رواه أهل السنن الأربعة .

* عكرمة بن أبى جهل، عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أبو عثمان القرشى المخزومى ، كان من سادات الجاهلية كأبيه ، ثم أسلم عام الفتح بعد ما فرّ ، ثم رجع إلى الحق ، واستعمله الصديق على عمان حين ارتدّوا فظفر بهم كما تقدم . ثم قدم الشام ، وكان أميراً على بعض الكراديس ، ويقال : إنه لا يعرف له ذنب بعد ما أسلم . وكان يقبل المصحف ويبكى ويقول : كلام ربّى كلام ربى . احتج بهذا الإمام أحمد على جواز تقبيل المصحف ومشروعيته . وقال الشافعى : كان عكرمة محمود البلاء فى الإسلام . قال عروة : قتل بأجنادين . وقال غيره : باليرموك بعد ما وجد به بضع وسبعون ما بين ضربة ورمية وطعنة - رضى الله عنه .

* الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، قيل إنه توفى فى هذه السنة ، والصحيح أنه تأخر إلى سنة ثمانى عشرة

* نعيم بن عبد الله النحام أحد بنى كعب بن عدى، أسلم قديماً قبل عمر، ولم يتهيأ له هجرة إلى ما بعد الحديبية ، وذلك لأنه كان فيه برّ بأقاربه ، فقالت له قريش : أقم عندنا على أى دين شئت ، فوالله لا يتعرضك أحد إلا ذهبت أنفسنا دونك. استشهد يوم أجنادين وقيل يوم اليرموك رضى الله عنه .

* هبّار بن الأسود بن أسد - أبو الأسود القرشى الأسدى ، هذا الرجل كان قد طعن راحلة زينب بنت النبى ﷺ يوم خرجت من مكة حتى أسقطت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، وقتل بأجنادين رضى الله عنه .

* هشام بن العاص بن وائل السهمى - أخو عمرو بن العاص ، روى الترمذى أن رسول الله

(١) نسبة إلى حجابة بيت الله المحرم .

ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان»، وقد أسلم هشام قبل عمرو، وهاجر إلى الحبشة، فلما رجع منها احتبس بمكة، ثم هاجر بعد الخندق. وقد أرسله الصديق إلى ملك الروم. وكان من الفرسان. وقتل بأجنادين، وقيل باليرموك، والأول أصح والله أعلم.

● أبو بكر الصديق رضى الله عنه تقدم وله ترجمة مفردة، ولله الحمد.

سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية

استهلت هذه السنة والخليفة عمر بن الخطاب يحث الناس ويحرضهم على جهاد أهل العراق، وذلك لما بلغه من قتل أبى عُبيد يوم الجسر، وانتظام شمل الفرس، واجتماع أمرهم على يزدجرد الذى أقاموه من بيت الملك، ونقض أهل الذمة بالعراق عهودهم، ونبذهم المواثيق التى كانت عليهم، وآذوا المسلمين وأخرجوا العمال من بين أظهرهم. وقد كتب عمر إلى من هنالك من الجيش أن يتبرّزوا[1] من بين أظهرهم إلى أطراف البلاد. قال ابن جرير رحمه الله: وركب عمر رضى الله عنه فى أول يوم من المحرم هذه السنة فى الجيوش من المدينة، فنزل على ماء يقال له صرار، فعسكر به عازماً على غزو العراق بنفسه، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة. ثم عقد مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه، ونودى: إن الصلاة جامعة، وقد أرسل إلى علىّ فقدم من المدينة، ثم استشارهم فكلهم وافقوه على الذهاب إلى العراق، إلاّ عبد الرحمن بن عوف، فإنه قال له: إنى أخشى إن كسرت أن يضعف المسلمون فى سائر أقطار الأرض، وإنى أرى أن تبعث رجلا وترجع أنت إلى المدينة، فأرفأ[2] عمر والناس عند ذلك واستصوبوا رأى ابن عوف فقال عمر: فمن ترى أن نبعث إلى العراق؟ فقال: قد وجدتُه. قال ومن هو؟ قال الأسد فى براثنه سعد بن مالك الزهرى.

فاستجاد قوله وأرسل إلى سعد فأمّره على العراق وأوصاه فقال: يا سَعدَ سعد بن وُهَيب لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه؛ فإن الله لا يمحو السيِّء بالسيِّء، ولكن يمحو السيء بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفُهم ووضيعُهم فى ذات الله سواء، الله ربّهُم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويُدركون عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر. هذه

---

(١) أى يخرجوا إلى البراز وهو الفضاء، ويظهروا ولا يختفوا ويبتعدوا عن الناس.

(٢) أى: جنح ومال.

عظني إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حَبِطَ عملُك وكنت من الخاسرين . ولما أراد فراقه قال له : إنك ستُقدِم على أمر شديد ، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابك ، يجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ؛ منها السر ومنها العلانية ؛ فأما العلانية فأن يكون حامده وذامّه في الحق سواء ، وأما السرّ فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبّة الناس ، ومن محبة الناس . فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبّتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبّبه ، وإذا أبغض عبداً بغّضه ، فاعتبرْ منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس .

قالوا : فسار سعد نحو العراق في أربعة آلاف ؛ ثلاثة آلاف من أهل اليمن ، وألف من سائر الناس ، وقيل في ستة آلاف . وشيعهم عمر من صِرار إلى الأعوص[1] ، وقام عمر في الناس خطيباً هنالك فقال : إن الله إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرّف لكم القول لتحيي القلوب فإن القلوب ميّتة في صدورها حتى يُحييها الله ، مَن عَلِم شيئاً فلينتفع به ، وإن للعدل أمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهَيْن واللّين ، وأما التباشير فالرحمة . وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسّر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد والاعتبار ذِكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَله حقّ ، والاكتفاء بما يكفيه من الكفاف ، فإن لم يَكفه الكفاف لم يغنه شيء . إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فانهُوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يُبلّغناها نأخذ له الحق غير متعتع . ثم سار سعد إلى العراق ، ورجع عمر بمن معه من المسلمين إلى المدينة . ولما انتهى سعد إلى نهر زَرُود ، ولم يبق بينه وبين أن يجتمع بالمثنى بن حارثة إلا اليسير ، وكل منهما مشتاق إلى صاحبه ، انتقض جرح المثنى بن حارثة الذي كان جرحه يوم الجسر فمات رحمه الله ورضي عنه ، واستخلف على الجيش بشير بن الخصاصيّة .

ولما بلغ سعداً موته ترحم عليه وتزوج زوجته سَلْمى . ولما وصل سعد إلى محلة الجيوش انتهت إليه رياستها وإمرتها ، ولم يبق بالعراق أمير من سادات العرب إلا تحت أمره . وأمدّه عمر بأمداد أخر حتى اجتمع معه يوم القادسية ثلاثون ألفاً ، وقيل ستة وثلاثون . وقال عمر : والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب . وكتب إلى سعد أن يجعل الأمراء على القبائل ، والعرفاء على كل عشرة عريف على الجيوش ، وأن يواعدهم إلى القادسيّة ، ففعل ذلك سعد ، عرّف العُرفاء ، وأمر على القبائل ، وولّى على الطلائع ، والمقدمات ، والمجنّبات والساقات ، والرّجالة ، والركبان ، كما أمر أمير المؤمنين عمر .

---

(١) صرار : موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق .

قال سيف بإسناده عن مشايخه قالوا : وجعل عمر على قضاء الناس ـ عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور ، وجعل إليه الأقباض[1] وقسمة الفيء ، وجعل داعية الناس وقاصّهم ـ سلمان الفارسي ، وجعل الكاتب ـ زياد بن أبي سفيان قالوا : وكان في هذا الجيش كله من الصحابة ثلثمائة وبضعة عشر صحابياً ؛ منهم بضعة وسبعون بدرياً ، وكان فيه سبعمائة من أبناء الصحابة رضي الله عنهم. وبعث عمر كتابه إلى سعد يأمره بالمبادرة إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وأن يكون بين الحجر والمدر ، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس ، وأن يبدروهم بالضرب والشدة ، ولا يهولنك كثرة عددهم وعُددهم ، فإنهم قوم خدعة مكرة ، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة ـ رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع لهم شملهم أبداً ـ إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن كانت الأخرى فارجعوا إلى ما وراءكم حتى تصلوا إلى الحجر فإنكم عليه أجرأ ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

وأمره بمحاسبة نفسه وموعظة جيشه ، وأمرهم بالنية الحسنة والصبر ؛ فإن النصر يأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وسلوا الله العافية ، وأكثروا من قول لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، واكتب إلىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون ؟ وأين يكون منكم عدوّكم ؟ واجعلني بكتبك إلىّ كأني أنظر إليكم ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ولا تُدل بشيء . واعلم أن الله قد توكل لهذا الأمر بما لاخُلف له ، فاحذر أن يصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم . فكتب إليه سعد يصف له كيفية تلك المنازل والأراضي بحيث كأنه يشاهدها ، وكتب إليه يخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه رُستم وأمثاله ، فهم يطلبوننا ونحن نطلبهم ، وأمرُ الله بعدُ ماض ، وقضاؤه مسلم ، إلى ما قدّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية .

وكتب إليه عمر : قد جاءني كتابك وفهمته ، فإذا لقيت عدوك ومنحك الله أدبارهم ، فإنه قد ألقي في روعي أنكم ستهزمونهم فلا تشكنّ في ذلك ، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن ؛ فإنه خرابها إن شاء الله . وجعل عمر يدعو لسعد خاصة ، وله وللمسلمين عامة .

ولما بلغ سعد العُذَيب[2] اعترض للمسلمين جيش للفرس مع شيرزاذ بن آزاذبه ، فغنموا مما معه شيئاً كثيراً ووقع منهم موقعاً كبيراً ، فخمسها سعد وقسم أربعة أخماسها في الناس، واستبشر الناس بذلك وفرحوا ، وتفاءلوا ، وأفرد سعد سرية تكون حياطة لمن معهم من الحريم ، وعلى هذه السرية ـ غالب بن عبد الله الليثي .

---

(١) الأقباض : جمع قبض ، وهو ماجمع من الغنائم . (٢) العذيب على أربعة أميال من القادسية .

فصل فى غزو القادسية[1]

ثم سار سعد فنزل القادسية ، وبث سراياه ، وأقام بها شهراً لم ير أحداً من الفرس ، فكتب إلى عمر بذلك ، والسرايا تأتى بالميرة من كل مكان . فعجّت رعايا الفرس من أطراف بلادهم إلى يَزْدَجِرد من الذين يلقون من المسلمين من النّهب والسّبى . وقالوا : إن لم تنجدونا وإلا أعطينا ما بأيدينا وسلّمنا إليهم الحصون . واجتمع رأى الفرس على إرسال « رُستم » إليهم ، فبعث إليه يَزْدَجِرد فأمّره على الجيش فاستعفى رُستم من ذلك ، وقال : إن هذا ليس برأى فى الحرب ، إن إرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشاً كثيفاً مرة واحدة . فأبى الملك إلا ذلك ، فتجهز رُستم للخروج . ثم بعث سعد كاشفاً إلى الحيرة وإلى صَلُوبا ، فأتاه الخبر بأن الملك قد أمر على الحرب رُستم بن الفرّخزاذ الأرمنى ، وأمدّه بالعساكر . فكتب سعد إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر : لا يكرُبنّك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفَلْجاً[2] عليهم ، واكتب إلىّ فى كل يوم .

ولما اقترب رُستم بجيوشه وعسكر بساباط ، كتب سعد إلى عمر يقول : إن رستم قد عسكر بساباط وجرّ الخيول والفيول وزحف علينا بها ، وليس شىء أهمّ عندى ، ولا أكثر ذكراً منّى لما أحببت أن أكون عليه من الاستعانة والتوكل . وعبّأ رستم فجعل على المقدمة ـ وهى أربعون ألفاً ـ الجالنوس ، وعلى الميمنة الهرمزان ، وعلى الميسرة مهران بن بهرام وذلك ستون ألفاً ، وعلى الساقة البيرزان فى عشرين ألفاً ، والجيش كله ثمانون ألفاً فيما ذكره سيف وغيره . وفى رواية : كان رستم فى مائة ألف وعشرين ألفاً ، يتبعها ثمانون ألفاً ، وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل أبيض كان لسابور ، فهو أعظمها وأقدمها ، وكانت الفيلة تألفه . ثم بعث سعد جماعة من السادات؛ منهم النعمان بن مُقرّن ، وفرات بن حيّان ، وحَنظلة بن الربيع التّميمى ، وعُطارد بن حاجب ، والأشعث بن قيس ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن معدى كرب ـ يدعون رُستم إلى الله عز وجل . فقال لهم رستم : ما أقدمكم ؟ فقالوا : جئنا لموعود الله إيانا ، أخذ بلادكم وسبى نسائكم وأبنائكم وأخذ أموالكم ، فنحن على يقين من ذلك . وقد رأى رستم فى منامه كأن ملكا

---

(١) القادسية : مدينة على جادة الكوفة ، بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا .

(٢) الفلج : الظفر والفوز .

نزل من السماء فختم على سلاح الفرس كله، ودفعه إلى رسول الله ﷺ فدفعه رسول الله ﷺ إلى عمر .

وذكر سيف بن عمر ، أنّ رُستم طاول سعداً فى اللقاء ، حتى كان بين خروجه من المدائن وملتقاه سعداً بالقادسية ـ أربعة أشهر ، كل ذلك لعله يُضجر سعداً ومن معه ليرجعوا ، ولولا أن الملك استعجله ما التقاه ، لما يعلم من غلبة المسلمين لهم ونصرهم عليهم ، لما رأى فى منامه ، ولما يتوسمه ، ولما سمع منهم ، ولما عنده من علم النجوم الذى يعتقد صحته فى نفسه ، لماله من الممارسة لهذا الفن .

ولما دنا جيش رستم من سعد ، أحبّ سعد أن يطلع على أخبارهم على الجلية ، فبعث رجلا سرية لتأتيه برجل من الفرس وكان فى السرية طليحة الأسدى الذى كان ادعى النبوة ثم تاب . وتقدم الحارث مع أصحابه حتى رجعوا . فلما بعث سعد السرية اخترق طليحة الجيوش والصفوف ، وتخطى الألوف ، وقتل جماعة من الأبطال حتى أسر أحدهم وجاء به لا يملك من نفسه شيئا ، فسأله سعد عن القوم فجعل يصف شجاعة طليحة ، فقال : دعنا من هذا وأخبرنا عن رستم ، فقال : هو فى مائة ألف وعشرين ألفا ، ويتبعها مثلها . وأسلم الرجل من فوره رحمه الله .

قال سيف عن شيوخه : ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه . فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضى الله عنه . فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكفّ الأذى عنكم ، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا . فقال له المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا ، وإنما همنا وطلبنا الآخرة ، وقد بعث الله إلينا رسولا قال له : إنى قد سلّطت هذه الطائفة على من لم يَدِنْ بدينى فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به . وهو دين الحق ، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ ، ولا يعتصم به إلا عزّ فقال له رستم : فما هو ؟ فقال : أما عموده الذى لا يصلح شىء منه إلا به ، فشهادة أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله . فقال : ما أحسن هذا ؟ ! وأى شىء أيضا ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : وحسن أيضاً، وأى شىء أيضاً ؟ قال : والناس بنو آدم وحواء ، فهم أخوة لأب وأم . قال : وحسن أيضا . ثم قال رستم : أرأيت إن دخلنا فى دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال : إى والله ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة . قال : وحسن أيضا . قال : ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه فى الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه ، قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل .

قالوا : ثم بعث إليه سعد رسولا آخر بطلبه ـ وهو رِبْعى بن عامر ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة . وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعى بثياب صفيقة وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك . فقال : إنى لم آتيكم فأضع سلاحى بأمركم ، وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنُخرِج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلَنا بدينه إلى خَلْقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك مِنّا قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضِي إلى موعود الله . قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال مَنْ أَبَى ، والظفر لمن بقى . فقال رستم : قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال: نعم ! كم أحبُّ إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ قال : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . فقال : ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر فى أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم . فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعزّ وأرجحَ من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شىء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب ؛ أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأى والكلام والسِّيرة إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ، ويصونون الأحساب .

ثم بعثوا يطلبون فى اليوم الثانى رجلا ، فبعث إليهم حُذيفة بن مِحْصن فتكلم نحو ما قال ربعى . وفى اليوم الثالث المغيرة بن شعبة فتكلم بكلام حسن طويل . قال فيه رستم للمغيرة : إنما مثلكم فى دخولكم أرضنا كمثل الذباب رأى العسل ، فقال : من يوصلنى إليه وله درهمان ؟ فلما سقط عليه غرق فيه ، فجعل يطلب الخلاص فلا يجده ، وجعل يقول: من يخلصنى وله أربعة دراهم ؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل جُحراً فى كَرْم ، فلما رآه صاحب الكرم ضعيفاً رحمه فتركه ، فلما سمن أفسد شيئاً كثيراً ، فجاء بجيشه واستعان عليه بغلمانه ، فذهب ليخرج فلم يستطع لسِمَنه فضربه حتى قتله ؛ فهكذا تخرجون من بلادنا . ثم استشاط غضباً ، وأقسم بالشمس لأقتلنكم غداً . فقال المغيرة : ستعلم . ثم قال رستم للمغيرة : قد أمرت لكم بكسوة ، ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا ، فقال المغيرة : أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم ، ولنا مدة

نحو بلادكم ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم ؟! فلما قال ذلك استشاط غضباً][1] .

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن صفوان الثقفي، ثنا أمية بن خالد ثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن قال: قال أبو وائل: جاء سعد حتى نزل القادسية ومعه الناس. قال: لا أدرى لعلنا لا نزيد على سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بين ذلك، والمشركون ثلاثون ألفاً ونحو ذلك، فقالوا: لا يدلكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم ؟ ارجعوا. قال: قلنا: ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نبلنا ويقولون «دوك دوك»[2] وشبهونا بالمغازل. فلما أبينا عليهم أن نرجع قالوا: ابعثوا إلينا رجلا من عقلائكم يبين لنا ما جاء بكم. فقال المغيرة بن شعبة: أنا، فعبر إليهم، فقعد مع رستم على السرير فنخروا وصاحوا، فقال: إن هذا لم يزدنى رفعة ولم ينقص صاحبكم. فقال رستم: صدق، ما جاء بكم ؟ فقال: إنا كنا قوماً فى شر وضلالة، فبعث الله إلينا نبياً فهدانا الله به ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة تنبت فى هذا البلد، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبر لنا عنها، وأنزلونا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبة. فقال رستم: إذاً نقتلكم. فقال: إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار وأديتم الجزية قال: فلما قال: وأديتم الجزية نخروا وصاحوا وقالوا: لا صلح بيننا وبينكم. فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم ؟ فقال رستم: بل نعبر إليكم. فاستأخر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم.

وذكر سيف: أن سعدا كان به عرق النسا يومئذ، وأنه خطب الناس وتلى قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[3]، وصلى بالناس الظهر، ثم كبر أربعاً وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فى طردهم إياهم، وقتلهم لهم، وقعودهم لهم كل مرصد، وحصرهم لبعضهم فى بعض الأماكن حتى أكلوا الكلاب والسنانير. وما رد شاردهم حتى وصل إلى نهاوند[4]، ولجأ أكثرهم إلى المدائن، ولحقهم المسلمون إلى أبوابها. وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل الوقعة فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم وسياطهم بأيديهم، والنعال فى أرجلهم، وخيولهم الضعيفة، وخبطها الأرض بأرجلها. وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب؛ كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها ؟ ولما استأذنوا على الملك يزدجرد، أذن لهم وأجلسهم بين يديه، وكان متكبرا قليل الأدب، ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها ؟ عن الأردية، والنعال، والسياط، ثم كلما قالوا له شيئاً من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه .

---

(١) ما بين القوسين المربعين زيادة فى بعض النسخ . (٢) دوك : كلة فارسية بمعنى «مغزل» .
(٣) الآية: ١٠٥ من سورة الأنبياء . (٤) نهاوند : أعتق مدينة فى بلاد العراق .

ثم قال لهم : ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرّن : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك قبيلةً إلا صاروا فرقتين ؛ فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمِر أن ينهد[1] إلى مَن خالفه من العرب ويبدأ بهم ، ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكروه عليه فاغتبط ، وطائع إياه فازداد فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ـ وهو دين الإسلام، دينٌ حسَّن الحسَن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر هو أهون من آخر شرٌّ منه الجزاء[2] فإن أبيتم فالمناجزة . وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم . وإن أتيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

قال : فتكلم يَزْدَجِرد فقال : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قُرى الضواحى ليكفونناكم ، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم : فإن كان عددكم كَثُر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجَهد دعاكم فرَضْنا لكم قوتاً إلى خِصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملّكنا عليكم مَلِكاً يرفُق بكم . فأسكت القوم .

فقام المغيرة بن شعبة فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوهُهم ، وهم أشراف يَستحيُون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشرافَ الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يَحسُن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبنى فأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . إنك قد وصَفتنا صفة لم تكن بها عالماً ؛ فأما ما ذكرتَ من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا . وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزَلْنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضُنا بعضاً ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليَدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه . وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك [وفى المعاد على ما ذكرت لك] فبعث الله إلينا رجلا معروفاً ، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ؛ فأرضه خير أرضنا ، وحَسَبه خير أحسابنا ، وبيتُه أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه

---

(١) أى : ينهض ويذهب (٢) المراد : الجزية

كان خيرَنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ؛ فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد . أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدَّق وكذَّبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين . فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال : لنا إن ربكم يقول : إنى أنا الله وحدى لاشريك لى ، كنت إذ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى ، وأنا خلقتُ كل شىء وإلىَّ يصير كل شىء ، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها بعد الموت من عذابى ، ولأحلكم دارى دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ، فمن قُتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك .

فقال يزدجرد : أتستقبلنى بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا مَن كلَّمنى ، ولو كلَّمنى غيرك لم أستقبلك به . فقال : لولا أن الرسلَ لا تُقتل لقتلتُكم ، لا شىء لكم عندى . وقال : ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من أبيات المدائن . ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مُرسل إليه رُستم حتى يدفنه وجنده فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعده ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور . ثم قال : من أشرفكم ؟ فسكت القوم ، فقال عاصم بن عمرو — وافتات ليأخذ التراب ، أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء فحمِّلنيه ، فقال : أكذلك ؟ قالوا : نعم . فحمَّله على عنقه فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها ثم انجذب فى السير ليأتوا به سعداً ، وسبقهم عاصم فمر بباب قُدَيس فطواه وقال : بشِّروا الأمير بالظفر ، ظفرنا إن شاء الله تعالى ، ثم مضى حتى جعل التراب فى الحجر ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر . فقال : أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم ، وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم . ثم لم يزل أمر الصحابة يزداد فى كل يوم علواً وشرفاً ورفعة ، وينحط أمر الفرس سفلا وذلا ووهناً . ولما رجع رُستم إلى الملك يسأله عن حال من رأى من المسلمين ، ذكر له عقلهم وفصاحتهم وحدة جوابهم ، وأنهم يرومون أمراً يوشك أن يدركوه . وذكر ما أمر به أشرفهم من حَمل التراب ، وأنه استحمق أشرفهم فى حمله التراب على رأسه ، ولو شاء اتقى بغَيره وأنا لا أشعر . فقال له رستم : إنه ليس أحمق ، وليس هو بأشرفهم ، إنما أراد أن يفتدى قومه بنفسه ، ولكن والله ذهبوا بمفاتيح أرضنا ، وكان رُستم منجماً . ثم أرسل رجلا وَراءهم وَقال : إن أدركَ التراب فردَّه تداركنا أمرنا ، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا .

قال : فساق وراءهم فلم يدركهم بل سبقوه إلى سعد بالتراب . وساء ذلك فارس وغضبوا من ذلك أشد الغضب، واستهجنوا رأى الملك .

فصــل

كانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها ، وذلك أنه لما تواجه الصفان كان سعد رضى الله عنه قد أصابه عِرْق النَّسا ، ودماملُ فى جسده ، فهو لا يستطيع الركوب ، وإنما هو فى قصر متكىء على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره ، وقد جعل أمر الحرب إلى خالد بن عُرْفطة ، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وعلى الميسرة قَيس ابن مكشوح ، وكان قيس والمغيرة بن شعبة قد قدما على سعد مدداً من عند أبى عبيدة من الشام بعدما شهدا وقعة اليرموك .

وزعم ابن إسحق أن المسلمين كانوا ما بين السبعة آلاف إلى الثمانية آلاف ، وأن رستماً كان فى ستين ألفاً ، فصلّى سعد بالناس الظهر، ثم خطب الناس فوعظهم وحثهم وتلا قوله تعالى: (ولَقدْ كَتَبْنا فى الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكرِ أنَّ الأرض يَرِثُها عبادِىَ الصَّالِحُون)[1] وقرأ القراء آيات الجهاد وسوره ، ثم كبر سعد أربعاً ثم حملوا بعد الرابعة فاقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا ، وقد قتل من الفريقين بشر كثير[2] ، ثم أصبحوا إلى مواقفهم فاقتتلوا يومهم ذلك وعامة ليلتهم ، ثم أصبحوا كما أمسَوا على مواقفهم ، فاقتتلوا حتى أمسوا[3] ثم اقتتلوا فى اليوم الثالث كذلك وأمست هذه الليلة وتسمى ليلة الهرير[4]، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالاً شديداً وقد قاسوا من الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية بسبب نفرتها منها أمراً بليغا ، وقد أباد الصحابة الفيلة ومَن عليها ، وقلعوا عيونها ، وأبلى جماعة من الشجعان فى هذه الأيام ، مثل طليحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب ، والقَعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله البجَلىّ ، وضرار بن الخطاب ، وخالد بن عُرْفطة ، وأشكالهم وأضرابهم .

فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم ويسمى يوم القادسية ، وكان يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة كما قاله سيف بن عمر التميمى؛ هبت ريح شديدة فرفعت خيام الفرس عن أماكنها وألقت سرير رستم الذى هو منصوب له ، فبادر فركب بغلته وهرب ، فأدركه المسلمون فقتلوه

(١) الآية : ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٢) ويسمى هذا اليوم : يوم أرماث وكان النجاح فيه أظهر فى صفوف الفرس .

(٣) وقد رجحت كفة المسلمين فى هذا اليوم ، ويسمى : يوم أغواث .

(٤) ويسمى اليوم الثالث يوم عماس . ولم يمر على المسلمين موقعة أشد هولا من هذه الموقعة.

وقتلوا الجالينوس مقدّم الطلائع القادسية ، وانهزمت الفرس – ولله الحمد والمنة – عن بكرة أبيهم ، ولحقهم المسلمون فى أقفائهم فقتل يومئذ المسلمون بكالم وكانوا ثلاثين ألفاً ، وقتل فى المعركة عشرة آلاف ، وقتلوا قبل ذلك قريباً من ذلك . وقتل من المسلمين فى هذا اليوم وما قبله من الأيام – ألفان وخمسمائة رحمهم الله . وساق المسلمون خلف المنهزمين حتى دخلوا وراءهم مدينة الملك – وهى المدائن التى فيها الإيوان الكِسْرَوِىّ ، وقد أذن لمن ذكرنا عليه ، فكان منهم إليه ماقدمنا .

وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية هذه من الأموال والسلاح مالا يُحدّ ولا يوصف كثرة ، فحصلت الغنائم بعد صرف الأسلاب وخمست وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد كان عمر رضى الله عنه يستخبر عن أمر القادسية كلّ مَن لقيه من الركبان ، ويخرج من المدينة إلى ناحية العراق يستنشق الخبر ، فبينما هو ذات يوم من الأيام إذا هو براكب يَلوح من بُعد ، فاستقبله عمر فاستخبره ، فقال له : فتح الله على المسلمين بالقادسية وغنموا غنائم كثيرة ، وجعل يحدثه وهو لا يعرف عمر ، وعمر ماش تحت راحلته ، فلما اقتربا من المدينة جعل الناس يحيون عمر بالإمارة فعرف الرجل عمر فقال : يرحمك الله ياأمير المؤمنين ، هلا أعلمتنى أنك الخليفة ؟ فقال : لا حرج عليك يا أخى .

وقد تقدم أن سعداً رضى الله عنه كان به قروح وعرق النَّسا ، فمنعه من شهود القتال ، لكنه جالس فى رأس القصر ينظر فى مصالح الجيش ، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته ، ولو فر الناس لأخذته الفُرس قبضاً باليد ، لا يمتنع منهم ، وعنده امرأته سلمى بنت خَصَفَة التى كانت قبله عند المثنى بن حارثة ، فلما فرّ بعض الخيل يومئذ فزِعت وقالت : وامثنياه ولامثنّى لى اليوم فغضب سعد من ذلك ولطم وجهها ، فقالت : أغيرةً وجبنا – يعنى أنها تعيره بجلوسه فى القصر يوم الحرب – وهذا عناد منها ، فإنها أعلم الناس بعذره ، وما هو فيه من المرض المانع من ذلك ، وكان عنده فى القصر رجل مسجون على الشراب كان قد حُدّ فيه مرات متعددة ، يقال سبع مرات ، فأمر به سعد فقيد وأودع فى القصر ، فلما رأى الخيول تجول حول حِمَى القصر وكان من الشجعان الأبطال قال :

كفى حَزَناً [أن تدحم الخيل بالفتى][1] ... وأترك مَشْـــدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمتُ عَنّانى الحديد وغُلّقت ... مصاريع من دونى تُصِمّ المناديا
وقد كنت ذا مالٍ كثير وإخوة ... وقــد تركونى مُفرداً لا أخا ليا

(١) روى : أن تردى الخيل بالقنا .

ثم سأل من زَبْراء أم ولد سعد أن تطلقه وتعيره فرس سعد ، وحلف لها أنه يرجع آخر النهار فيضع رجله فى القيد ، فأطلقته ، وركب فرس سعد وخرج فقاتل قتالا شديداً ، وجعل سعد ينظر إلى فرسه فيعرفها وينكرها ، ويشبهه بأبى مِحْجَن ولكن يشك لظنه أنه فى القصر مُوثق ، فلما كان آخر النهار رجع فوضع رجله فى قيدها ، ونزل سعد فوجد فرسه يَعرق فقال : ما هـذا ؟ فذكروا له قِصة أبى محْجَن ، فرضى عنه وأطلقه رضى الله عنهما .

وقد قال رجل من المسلمين فى سعد رضى الله عنه :

نُقاتِلُ حتى أنزلَ الله نصرَه ... وسعدٌ بباب القادسيّة مُعْصِمُ

فأُبنا وقد آمَتْ نساء كثيرة ... ونِسوةُ سعدٍ ليس فيهن أيِّمُ

فيقال : إن سعداً نزل إلى الناس فاعتذر إليهم مما فيه من القروح فى فخذيه وإليتيه ، فعذَره الناس . ويذكر أنه دعا على قائل هذين البيتين وقال : اللهم إن كان كاذباً ، أو قال الذى قال رياء وسمعة وكذبا ـ فاقطع لسانه ويده . فجاءه سهم وهو واقف بين الصفّين ، فوقع فى لسانه فبطل شقه فلم يتكلم حتى مات، رواه سيف عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر فذكره . وقال سيف عن المقدام بن شريح الحارثى عن أبيه قال : قال جرير بن عبد الله البجلى :

أنا جريرٌ كُنيتى أبو عَمْرِو ... قد فتح الله وسَعْدٌ فى القَصرِ

فأشرف سعد من قصره وقال :

وما أرجو بجيلة غيرَ أنِّى ... أؤملُ أجرهَا يوم الحساب

فقد لَقِيت خيولهم خيولاً ... وقد وقع الفوارس فى الضِّراب

وقد دَلَفت بِعَرْصتهم خيول ... كأن زهاءها إبلُ الجراب[1]

فلولا جمع قَعقاع بن عمرو ... وحَمّال لَلَجُّوا فى الركاب

ولولا ذاك ألفيتم رعاعا ... تَسيل جُموعكم مثل الذباب

وقد روى محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم البجلى ـ وكان ممن شهد القادسية ـ قال : كان معنا رجل من ثقيف فلحق بالفرس مرتداً فأخبرهم أن بأس الناس فى الجانب الذى فيه بجيلة . قال : وكنا ربع الناس ، قال : فوجهوا إلينا ستة عشر فيلا ، وجعلوا يلقون تحت أرجل خيولنا حَسَك[2] الحديد ، ويرشقوننا بالنشّاب[3] ، فكأنه المطر ، وقربوا خيولهم بعضها إلى بعض لئلا ينفروا . قال : وكان عمرو بن معد يكرب الزبيدى يمرّ بنا فيقول :

(١) يروى : إبل جراب : ويكون فى البيت إقواء .

(٢) الحسك من آلات العسكر يعمل من الحديد على مثال شوك السعدان ويلقى لمعوق سير الخيل .

(٣) النشاب : النبل والسهم ـ الواحدة بهاء .

يا معشر المهاجرين ، كونوا أسوداً فإنما الفارسي تيس . قال : وكان فيهم « إسوار » لا تكاد تسقط له نُشابة ، فقلنا له: يا أبا ثور اتق ذاك الفارس فإنه لا تسقط له نُشابة ، فوجّه إليه الفارس ورماه بنُشابة فأصاب فرسه ، وحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه، فاستلبه سوارين من ذهب، ومنطقة من ذهب ، ويَلْمَقًا[1] من ديباج . قال : وكان المسلمون ستة آلاف أو سبعة آلاف ، فقتل الله رُستما وكان الذى قتله رجل يقال له هِلال بن عُلَّفة التيمى ، رماه رُستم بنُشابة فأصاب قدمه ، وحمل عليه هلال فقتله واحتز رأسه ، وولت الفرس فاتبعهم المسلمون يقتلونهم ، فأدركوهم فى مكان قد نزلوا فيه واطمأنوا ، فبينما هم سكارى قد شربوا ولعبوا إذ هجم عليهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقتل هنالك الجالينوس ، قتله زُهرة بن حَوِيّة التميمى . ثم ساروا خلفهم فكلما تواجه الفريقان نصر الله حزب الرحمن ، وخذل حزب الشيطان وعبدة النيران : واحتاز المسلمون من الأموال ما يعجز عن حصره ميزان وقبّان[2] ، حتى إن منهم من يقول: من يقايض بيضاء بصفراء لكثرة ماغنموا من الفرسان . ولم يزالوا يتبعونهم حتى جازوا الفرات وراءهم وفتحوا المدائن وجَلولاء ، على ما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى و به الثقة.

وقال سيف بن عمر ، عن سليمان بن بشير عن أم كثير- امرأة همام بن الحارث النخعى قالت: شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس ، شددنا علينا ثيابنا وأخذنا المراوى ثم أتينا القتلى ، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه ، ومعنا الصبيان فنوليهم ذلك - تعنى استلابهم - لئلا يكشفن عن عورات الرجال :

وقال سيف بأسانيده عن شيوخه قالوا : وكتب سعد إلى عمر يخبره بالفتح ، وبعدّة من قتلوا من المشركين ، وبعدة من قتل من المسلمين ، وبعث بالكتاب مع سعد بن عُمَيلة الفزارىّ وصورته: « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحناهم سُنَن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدّة لم ير الراءون مثل زُهائها[3] ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبوه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفى الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارىء ، وفلان ، وفلان ، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله ، فإنه بهم عالم ، كانوا يدوّون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوىّ النحل ، وهم آساد فى النهار لا تشبههم الأسود ، ولم يَفضُل من مضى منهم مَنْ بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم » .

---

(١) اليلمق : القباء المحشو . (٢) القبان : القسطاس والأمين .

(٣) الزهاء : العدد أو المقدار .

فيقال إن عمر قرأ هذه البشارة على الناس فوق المنبر رضى الله عنهم . ثم قال عمر للناس : إنى حريص على أن لا أرى حاجة إلا سددتها ، ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل ، إنى والله لست بملك فأستعبدكم ، ولكنى عبد الله عرض علىّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا ـ سعدت بكم ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتى ـ شقيت بكم ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أردّ فأستعتب . . .

وقال سيف عن شيوخه : قالوا : وكانت العرب من العُذَيب إلى عَدَن أَبْيَن[1] ، يتربصون وقعة القادسية هذه ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم . فلما كان ما كان من الفتح سبقت الجن بالبشارة إلى أقصى البلاد قبل رسل الإنس ، فسمعت امرأة ليلا بصنعاء على رأس جبل وهى تقول :

حُيِّيتِ عنا عِكرمَ ابنةَ خالد ... وما خيرُ زاد بالقليل المصَرَّد
وحَيَّتك عنى الشمس عند طلوعها ... وحَيَّاك عنى كلّ نَاجٍ مُفَرَّدَ
وحَيَّتك عنى عُصبة نَخَعية ... حسانُ الوجوه آمنوا بمحمّد
أقاموا لكسرى يضربون جنودَه ... بكل رَقيق الشَّفرَتين مهنّدِ
إذا ثوّب الداعى أناخوا بكلكل ... من الموت مسود الغياطل أجردِ

قالوا : وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغنى بهذه الأبيات :

وَجَدنا الأكرمين بنى تميم ... غداة الرَّوع أكثرَهم رجالاً
همو ساروا بأرْعَن مكفهِرّ ... إلى لَجِبٍ يرونهم رِعالا
بُحورٌ للأكاسر من رجال ... كأسْد الغاب تحسَبُهم جبالا
تركنَ لهم بقادِسَ عِزَّ فخر ... وبالخَيْفَين أياماً طِوالا
مقطَّعةً أكفهم وسُوقٌ ... بمرْدَى حيث قابلت الرِّجالا

قالوا : وسمع ذلك فى سائر بلاد العرب ، وقد كانت بلاد العراق بكمالها التى فتحها خالد نقضت العهود والذمم والمواثيق التى كانوا أعطوها خالداً ، سوى أهل بانِقْيا وبَسْما ، وأهل أُلَّيس الآخرة ، ثم عاد الجميع بعد هذه الوقعة التى أوردناها ، وادعوا أن الفرس أجبروهم على نقض العهود ، وأخذوا منهم الخراج وغير ذلك . فصدقوهم فى ذلك تألفاً لقلوبهم ، وسنذكر حكم أهل

---

(١) عدن أبين : جزيرة باليمن .

السّواد فى كتابنا الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى . وقد ذهب ابن إسحاق وغيره إلى أن وقعة القادسية كانت فى سنة خمس عشرة . وزعم الواقدى أنها كانت فى سنة ست عشرة . وأما سيف بن عمر وجماعة فذكروها فى سنة أربع عشرة ، وفيها ذكرها ابن جرير . فالله أعلم.

قال ابن جرير والواقدى : فى سنة أربع عشرة ، جمع عمر بن الخطاب الناس على أبى بن كعب فى التراويح وذلك فى شهر رمضان منها ، وكتب إلى سائر الأمصار يأمرهم بالاجتماع فى قيام شهر رمضان. قال ابن جرير : وفيها بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة ، وأمره أن ينزل فيها بمن معه من المسلمين ، وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم، فى قول المدائنى وروايته . قال : وزعم سيف أن البصرة إنما مصّرت فى ربيع من سنة ست عشرة ، وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد أن فرغ سعد من جلولاء وتكريت ؛ وجهه إليها سعد بأمر عمر رضى الله عنهم .

وقال أبو مخنف عن مجالد عن الشعبى رضى الله عنهم : إن عمر بعث عتبة بن غزوان إلى أرض البصرة فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، وسار إليه من الأعراب ما كمل معه خمسمائة ، فنزلها فى ربيع الأول سنة أربع عشرة ، والبصرة يومئذ تدعى أرض الهند ، فيها حجارة بيض خشنة ، وجعل يرتاد لهم منزلا حتى جاءوا حيال الجسر الصغير ، فإذا فيه حلق وقصب نابت ، فنزلوا . فركب إليهم صاحب الفرات فى أربعة آلاف إسوار ، فالتقاه عتبة بعد ما زالت الشمس ، وأمر الصحابة فحملوا عليهم فقتلوا الفرس عن آخرهم ، وأسروا صاحب الفرات ، وقام عتبة خطيباً فقال فى خطبته : «إن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولّت حذاء[1] ، ولم يبقَ منها إلا صبابة[2] كصبابة الإناء، وإنكم منتقلون منها إلى دار القرار ، فانتقلوا بما يحضرتكم ، فقد ذكر لى لو أنّ صخرة ألقيت من شفير جهنم هوت سبعين خريفا[3] ولتملأنه ، أوعجبتم؟ ولقد ذكر لى أن ما بين مصراعين[4] من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ[5] من الزحام ، ولقد رأيتنى وأنا سابع سبعة ، وأنا مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السّمر ، حتى تقرحت أشداقنا ، والتقطت بردة فشققتها بينى و بين سعد ، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا هو أمير على مصر من الأمصار ، وستجرّبون الناس بعدنا » . وهذا الحديث فى صحيح مسلم بنحو من هذا السياق .

وروى على بن محمد المدائنى، أن عمر كتب إلى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة : يا عتبة إنى استعملتك على أرض الهند وهى حومة[6] من حومة العدو ، وأرجو أن يكفيك الله

(١) حذاء : أى مسرعة . (٢) الصبابة : البقية . (٣) الخريف : السنة والعام .
(٤) المصراعان : ما بين المصادتين ، والمصادتان : خشبتا الباب من جانبيه .
(٥) أى : ممتلىء (٦) حومة البحر والرمل والقتال وغيره ـ معظمه ، أو أشد موضع فيه

ما حولها ، وأن يُمينك عليها ، وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمي يمدك بعَرْفجة بن هرثمة . فإذا قدم عليك فاستشره وقرّبه ، وادع إلى الله ؛ فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة ، وإلا فالسيف في غير هوادة . واتق الله فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كِبْر فتفسد عليك آخرتك ، وقد صحبتَ رسول الله ﷺ فعززت بعد الذلة ، وقويتَ بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً ، وملكاً مطاعاً ؛ تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك ، فيالها نعمة إذا لم ترقيك فوق قدرك ؛ وتُبطرك على من دونك . احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ، وهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة فتصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رفعت لهم الدنيا فأرادوها ، فأرد الله ولا ترد الدنيا ، واتق مصارع الظالمين .

وقد فتح عتبة الأُبلة في رجب أو شعبان من هذه السنة . ولما مات عُتبة بن غزْوان في هذه السنة استعمل عمر على البصرة المغيرة بن شعبة سنتين ، فلما رُمِي بما رُمِي به عزله وولى عليها أبا موسى الأشعري رضي الله عنهم . وفي هذه السنة ضرب عمر بن الخطاب ابنه عبيد الله في الشراب هو وجماعة معه ، وفيها ضرب أبا مِحجن الثقفي في الشراب أيضاً سبع مرات ، وضرب معه ربيعة ابن أمية بن خلف . وفيها نزل سعد بن أبي وقاص الكوفة ، وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب . قال . وكان بمكة عتاب بن أسيد ، وبالشام أبو عبيدة ، وبالبحرين عثمان بن أبي العاص وقيل العلاء بن الحضرمي ، وعلى العراق سعد ، وعلى عمان حذيفة بن محصن .

ذكر من توفي في هذا العام من المشاهير والأعيان

ففيها: توفي سَعد بن عبادة في قول ، والصحيح في التي قبلها ، والله أعلم .

● عتبة بن غَزوان بن جابر بن هيب المازني ، حليف بني عبد شمس ـ صحابي بدري ، وأسلم قديما بعد سنة[1] وهاجر إلى أرض الحبشة، وهو أول من اختط البصرة عن أمر عمر في إمرته له على ذلك كما تقدم ، وله فضائل ومآثر ، وتوفي سنة أربع عشرة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل سنة سبع عشرة ، وقيل سنة عشرين فالله أعلم . وقد جاوز الخمسين ، وقيل بلغ ستين سنة رضي الله عنه .

● عمرو بن أم مكتوم الأعمى ، ويقال: اسمه عبد الله ، صحابي مهاجري ، هاجر بعد مصعب بن عمير ، قبل النبي ﷺ فكان يقرىء الناس القرآن ، وقد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة

(١) كذا في الأصلين قيل : ولعله يريد بعد سنة من البعثة؛ لأنه من السابقين الأولين .

غير مرة ، فيقال: ثلاث عشرة مرة ، وشهد القادسية مع سعد زمن عمر فيقال : إنه قتل بها شهيداً ، ويقال : إنه رجع إلى المدينة وتوفي بها ، والله أعلم .

● المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان الشيباني ـ نائب خالد على العراق ، وهو الذي صارت إليه الإمرة بعد أبي عبيد يوم الجسر ، فداري بالمسلمين حتى خلصهم من الفرس يومئذ ، وكان أحد الفرسان الأبطال ، وهو الذي ركب إلى الصديق فحرضه على غزو العراق ، ولما توفي تزوج سعد بن أبي وقاص بامرأته سلمى بنت حفص ـ رضي الله عنهما ـ وأرضاهما . وقد ذكره ابن الأثير في كتابه : الغابة في أسماء الصحابة .

● أبو زيد الأنصاري النجاري ـ أحد القراء الأربعة الذين حفظوا القرآن من الأنصار في عهد رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك في حديث أنس بن مالك ، وهم: معاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قال أنس أحد عمومتي . قال الكلبي: واسم أبي زيد هذا ـ قيس بن السكن بن قيس بن زعوراء بن حزم بن جندب بن غنم بن عدي بن النجار شهد بدراً . قال موسى ابن عقبة : واستشهد يوم جسر أبي عبيد ، وهي عنده في سنة أربع عشرة ، وقال بعض الناس : أبو زيد الذي يجمع القرآن ـ سعد بن عبيد ، وردوا هذا برواية قتادة عن أنس بن مالك قال : افتخرت الأوس والخزرج، فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة ـ حنظلة بن أبي عامر ، ومنا الذي حمته الدبر[1] ـ عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، ومنا الذي اهتز له عرش الرحمن ـ سعد بن معاذ، ومنا الذي جعلت شهادته شهادة رجلين ـ خزيمة بن ثابت . فقالت الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ : أبي، وزيد بن ثابت ، ومعاذ ، وأبو زيد ـ رضي الله عنهم أجمعين

● أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي ـ والد المختار بن أبي عبيد أمير العراق ، ووالد صفية امرأة عبد الله بن عمر . أسلم أبو عبيد في حياة النبي ﷺ وذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر في الصحابة . قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي : ولا يبعد أن يكون له رواية ، والله أعلم .

● أبو قحافة والد الصديق ، واسم أبي بكر الصديق ـ عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن صخر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب . أسلم أبو قحافة عام الفتح فجاء به الصديق يقوده إلى النبي ﷺ فقال : « هلا أقررتم الشيخ في بيته حتى كنا نحن نأتيه » تكرمة لأبي بكر رضي الله عنه فقال : بل هو أحق بالسعي إليك يا رسول الله . فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ورأسه كالثغامة[2] بياضا ودعا له ، وقال : « غيروا هذا الشيب بشيء وجنبوه

(١) الدبر : النحل . وكان عاصم بن ثابت من أصحاب رسول الله . وقد أصيب يوم أحد ، وأراد الكفار التمثيل به فمنعتهم النحل، حتى أخذه المسلمون ودفنوه

(٢) الثغامة : نبت من نبات الجبل أبيض الثمر والزهر ، يشبه به بياض الشيب ، يقال: رأس ثاغم ـ أي أبيض

السواد » . ولما توفى رسول الله ﷺ وصارت الخلافة إلى الصديق أخبره المسلمون بذلك وهو بمكة ، فقال : أو أقرت بذلك بنو هاشم وبنو مخزوم ؟ قالوا : نعم ! قال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ثم أصيب بابنه الصديق رضى الله عنه ، ثم توفى أبو قحافة فى محرم وقيل فى رجب سنة أربع عشرة بمكة ، عن أربع وسبعين سنة ـ رحمه الله وأكرم مثواه .

وممن ذكر شيخنا أبو عبد الله الذهبى من المستشهدين فى هذه السنة مرتبين على الحروف .

* أوس بن أوس بن عتيك قتل يوم الجسر * بشير بن عنبس بن يزيد الظفرى أحدى ، وهو ابن عم قتادة بن النعمان ؛ ويعرف بفارس الحواء ـ اسم فرسه * ثابت بن عتيك ، من بنى عمرو بن مبذول ، صحابى قتل يوم الجسر * ثعلبة بن عمرو بن محصن النجارى ـ بدرى قتل يومئذ * الحارث ابن عتيك بن النعمان النجارى ـ شهد أحداً وقتل يومئذ * الحارث بن مسعود بن عبدة صحابى أنصارى قتل يومئذ * الحارث بن عدى بن مالك أنصارى أحدى قتل يومئذ * خالد بن سعيد بن العاص قيل إنه استشهد يوم مرج الصفر ، وكان فى سنة أربع عشرة فى قول * خزيمة بن أوس الأشهلى قتل يوم الجسر * ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، أرخ وفاته فى هذه السنة ابن قانع * زين بن سراقة يوم الجسر * سعد بن سلامة بن وقش الأشهلى * سعد بن عبادة فى قول * سلمة بن أسلم ابن حريش يوم الجسر * ضمرة بن غزية يوم الجسر * عباد وعبد الله وعبد الرحمن بنو مريع بن قيظى ـ قتلوا يومئذ * عبد الله بن صعصعة بن وهب الأنصارى النجارى ، شهد أحداً وما بعدها .

قال ابن الأثير فى الغابة : وقتل يوم الجسر * عتبة بن غزوان تقدم * عقبة وأخوه عبد الله حضرا الجسر مع أبيهما قيظى بن قيس وقتلا يومئذ * العلاء بن الحضرمى ، توفى فى هذه السنة فى قول ، وقيل بعدها وسيأتى * عمرو بن أبى اليسر قتل يوم الجسر * قيس بن السكن أبو زيد الأنصارى رضى الله عنه تقدم * المثنى بن حارثة الشيبانى ، توفى فى هذه السنة رحمه الله وقد تقدم * نافع بن غيلان قتل يومئذ * نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وكان أسن من عمه العباس ، قيل إنه توفى فى هذه السنة والمشهور قبلها كما تقدم * واقد بن عبد الله قتل يوم[1] * يزيد بن قيس ابن الخطيم الأنصارى الظفرى ، شهد أحداً وما بعدها ، قتل يوم الجسر ، وقد أصابه يوم أحد جراحات كثيرة وكان أبوه شاعراً مشهوراً * أبو عبيد بن مسعود الثقفى أمير يوم الجسر وبه عرف لقتله عنده ، تخبطه الفيل حتى قتله رضى الله عنه بعد ما قطع بسيفه خرطومه كما تقدم * أبو قحافة التيمى والد أبى بكر الصديق ، وقد توفى فى هذه السنة رضى الله عنه .

* هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، بن أمية الأموية ، والدة معاوية بن أبى سفيان ، وكانت من سيدات نساء قريش ذات رأى ودهاء ورياسة فى قومها ، وقد شهدت يوم أحد مع

(١) بياض بالأصلين . وفى الإصابة : أنه توفى فى أول خلافة عمر

زوجها، وكان لها تحريض على قتل المسلمين يومئذ ، ولما قتل حمزة مثلت به وأخذت من كبده فلاكتها فلم تستطع إساغتها ؛ لأنه كان قد قتل أباها وأخاها يوم بدر ، ثم بعد ذلك كله أسلمت وحسن إسلامها عام الفتح ، بعد زوجها بليلة ولما أرادت الذهاب إلى رسول الله ﷺ لتبايعه استأذنت أبا سفيان فقال لها : قد كنت بالأمس مكذبة بهذا الأمر ، فقالت : والله ما رأيت الله عبد حق عبادته بهذا المسجد قبل هذه الليلة ، والله لقد باتوا ليلهم كلهم يصلون فيه . فقال لها : إنك قد فعلت ما فعلت فلا تذهبي وحدك . فذهبت إلى عثمان بن عفان - ويقال إلى أخيها أبي حذيفة بن عتبة فذهب معها ، فدخلت وهي متنقبة ، فلما بايعها رسول الله ﷺ مع غيرها من النساء قال : « على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين » فقالت : أو تزني الحرة ؟ « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغاراً فقتلتهم كباراً ؟ ! فتبسم رسول الله ﷺ ، « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك » فبادرت وقالت : في معروف . فقال : في معروف ، وهذا من فصاحتها وحزمها . وقد قالت لرسول الله ﷺ : والله يا محمد ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من أهل خبائك ، فقد والله أصبح اليوم وما على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من أهل خبائك . فقال : وكذلك ، والذي نفسي بيده . وشكت من شح أبي سفيان فأمرها أن تأخذ ما يكفيها ويكفي بنيها بالمعروف ، وقصتها مع الفاكه بن المغيرة مشهورة ، وقد شهدت اليرموك مع زوجها ، وماتت يوم مات أبو قحافة في سنة أربع عشرة ، وهي أم معاوية بن أبي سفيان .

ثم دخلت سنة خمس عشرة

قال ابن جرير قال بعضهم : فيها مَصَّر سعد بن أبي وقاص الكوفة ، دلهم عليها ابن بُقيلة قال لسعد: أدلك على أرض ارتفعت من البق[1] وانحدرت عن الفلاة؟ فدلهم على موضع الكوفة اليوم ، قال : وفيها كانت وقعة مَرْج الرُّوم ، وذلك لما انصرف أبو عبيدة وخالد من وقعة فِحْل قاصدين إلى حِمْص حسب ما أمر به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما تقدم في رواية سيف بن عمر ، فسارا حتى نزلا على ذي الكَلاع ، فبعث هرقل بطريقاً يقال له « تُوذَرا » في جيش معه فنزل بمَرْج دمشق وغربيها ، وقد هجم الشتاء فبدأ أبو عبيدة بمَرْج الروم ، وجاء أمير آخر من الروم يقال له «شنس» وعسكر معه كثيف ،فنازله أبو عبيدة فاشتغلوا به عن توذرا ، فسار توذرا نحو دمشق لينازلها وينتزعها من يزيد بن أبي سفيان ، فاتبعه خالد بن الوليد وبرز إليه يزيد ابن أبي سفيان من دمشق ، فاقتتلوا وجاء خالد وهم في المعركة فجعل يقتلهم من ورائهم ، ويزيد يفصل فيهم من أمامهم ، حتى أناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد ، وقتل خالد « تُوذَرا » وأخذوا

(١) البق : البعوض ، ودويبة حمراء معروفة يقال : أرض مبقة - كثيرة البق والمراد أنها نظيفة خالية من الآفات

من الروم أموالا عظيمة فاقتسماها ، ورجع يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة فوجده قد واقع شنس بمرج الروم ، فقاتلهم فيه مقاتلة عظيمة حتى أنتنت الأرض من زهمهم ، وقتل أبو عبيدة شُنُس وركبوا أكتافهم[1] إلى حمص فنزل عليها يحاصرها .

وقعة حمص[2] الأولى

لما وصل أبو عبيدة فى أتباعه الروم المنهزمين إلى حمص ، نزل حولها يحاصرها ، ولحقه خالد ابن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً ، وذلك فى زمن البرد الشديد ، وصابر أهل البلد رجاء أن يصرفهم عنهم شدة البرد ، وصبر الصحابة صبراً عظيما ؛ بحيث إنه ذكر غير واحد أن من الروم من كان يرجع ، وقد سقطت رجله وهى فى الخف ، والصحابة ليس فى أرجلهم شىء سوى النعال، ومع هذا لم يُصَب منهم قدم ولا أصبع أيضاً . ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء فاشتد الحصار ، وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة فأبوا عليه ذلك وقالوا : أنصالح والملك منا قريب ؟ فيقال إن الصحابة كبّروا فى بعض الأيام تكبيرة ارتجت منها المدينة حتى تفطرت منها بعض الجدران ، ثم تكبيرة أخرى فسقطت بعض الدُّور ، فجاءت عامتهم إلى خاصتهم فقالوا: ألا تنظرون إلى ما نزل بنا ، وما نحن فيه ؟ ألا تصالحون القوم عنا ؟ قال : فصالحوهم على ماصالحوا عليه أهل دمشق ، على نصف المنازل ، وضرب الخراج على الأراضى ، وأخذ الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقر . وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى عمر مع عبد الله بن مسعود. وأنزل أبو عبيدة بحمص جيشاً كثيفاً يكون بها مع جماعة من الأمراء ، منهم : بلال ، والمقداد . وكتب أبو عبيدة إلى عمر يخبره بأن هرقل قد قطع الماء إلى الجزيرة وأنه يظهر تارة ويخفى أخرى . فبعث إليه عمر يأمره بالمقام ببلده .

وقعة قِنسرين

لما فتح أبو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد إلى قِنسرين ، فلما جاءها ثار إليه أهلها ومن عندهم من نصارى العرب ، فقاتلهم خالد فيها قتالا شديداً ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، فأما من هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم ميناس . وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا ، فقبل منهم خالد وكفّ عنهم ثم خلص إلى البلد فتحصنوا فيه، فقال لهم خالد : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا . ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد.

---

(١) فى الطبرى : أكتادهم ، يريد أدبارهم وأنهم تتبعوهم (٢) حمص : بلد قديم فى شمال دمشق .

فلما بلغ عمر ما صنعه خالد فى هذه الوقعة قال : يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منى ، والله إنى لم أعزله عن ريبة ،ولكن خشيت أن يوكل الناس إليه . وفى هذه السنة تقهقر هرقل بجنوده ، وارتحل عن بلاد الشام إلى بلاد الروم . هكذا ذكره ابن جرير عن محمد بن إسحاق . قال :وقال سيف : كان ذلك فى سنة ست عشرة ، قالوا : وكان هرقل كلما حج إلى بيت المقدس وخرج منها يقول : عليك السلام يا سورية ، تسليم مودع لم يقض منك وطراً وهو عائد ، فلما عزم على الرحيل من الشام وبلغ الرها ، طلب من أهلها أن يصحبوه إلى الروم ، فقالوا ! إن بقاءنا هاهنا أنفع لك من رحيلنا معك ، فتركهم . فلما وصل إلى شمشاط وعلا على شرف هنالك التفت إلى نحو بيت المقدس وقال: عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ـ إلا أن أسلم عليك تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤم ، وياليته لم يولد ! ما أحلى فعله وأمرّ عاقبته على الروم ! ! ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية واستقر بها ملكه ، وقد سأل رجلا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين ، فقال : أخبرنى عن هؤلاء القوم ، فقال : أخبرك كأنك تنظر إليهم ؛ هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن،ولايدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوه حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنت صدقتنى ليملكن موضع قدمىّ هاتين .

قلت : وقد حاصر المسلمون قسطنطينية فى زمان بنى أمية فلم يملكوها ، ولكن سيملكها المسلمون فى آخر الزمان كما سنبينه فى كتاب الملاحم ، وذلك قبل خروج الدّجال بقليل على ما صحت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى صحيح مسلم وغيره من الأئمة ، ولله الحمد والمنة .

وقد حرم الله على الروم أن يملكوا بلاد الشام برُمّتها إلى آخر الدهر ، كما ثبت به الحديث فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عز وجل » وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه كما رأيت ،وسيكون ما أخبر به جزماً، لا يعود ملك القياصرة إلى الشام أبداً ، لأنّ قيصر علم جنس عند العرب، يطلق على كل من ملك الشام مع بلاد الروم . فهذا لا يعود لهم أبداً .

وقعة قيسارية[1]

قال ابن جرير : وفى هذه السنة أمّر عمر معاوية بن أبى سفيان على قيسارية وكتب إليه : أما بعد ، فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم ، وأكثروا قول : لاحول ولاقوة

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام، كانت قديما من أمهات المدن، بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة أيام.

إلا بالله العلى العظيم ، الله ربُّنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ، فنعم المولى ونعم النصـــير . فسار إليها يحاصرها ، وزاحفه أهلها مرات عديدة ، وكان آخرها وقعة ، أن قاتلوا قتالا عظيما ، وصمّم عليهم معاوية ، واجتهد فى القتال حتى فتح الله عليه ، فما انفصل الحال حتى قَتلَ منهم نحواً من ثمانين ألفاً ، وكمّل المائة الألف من الذين انهزموا عن المعركة ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه

قال ابن جرير: وفيها كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى إيلياء[1]، ومناجزة صاحبها ، فاجتاز فى طريقه عند الرملة بطائفة من الروم فكانت .

وقعة أجنادين[2]

وذلك أنه سار بجيشه وعلى مَيمنته ابنه عبد الله بن عمرو ، وعلى مَيسرته جُنادة بن تميم المالكى، من بنى مالك بن كنانة ، ومعه شرحبيل بن حَسَنة ، واستخلف على الأُردُن أبا الأعور السلمى ، فلما وصل إلى الرّملة وجد عندها جمعاً من الروم عليهم « الأرطبون » وكان أدهى الروم وأبعدها غوْرا ، وأنكاها فعلا ، وقد كان وضع بالرملة جنداً عظيما وبإيلياء جنداً عظيما ، فكتب عمرو إلى عمر بالخبر . فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رَمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج . وبعث عمرو بن العاص علقمة بن حكيم الفراسى ، ومسروق بن بلال العكى على قتال أهل إيليا . وأبا أيوب المالكى إلى الرملة ، وعليها « التّذارق » فكانوا بإزائهم ليشغلوهم عن عمرو ابن العاص وجيشه ، وجعل عمرو كلما قدم عليه أمداد من جهة عمر يبعث منهم طائفة إلى هؤلاء وطائفة إلى هؤلاء ، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سَقطة ولا تشفيه الرسل، فوليه بنفسه ، فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه ، وتأمّل حضرته حتى عرف ما أراد ، وقال الأرطبون فى نفسه : والله إن هذا لعمرو ، أو إنه الذى يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيبَ القوم بأمر هو أعظم من قتله . فدعا حرسيًا فسارّه فأمره بفتكه ، فقال : اذهب فقم فى مكان كذا وكذا ، فإذا مر بك فاقتله .

ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إنى قد سمعتُ كلامكَ وسمعتَ كلامى وإنى واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالى لنشهد أموره ، وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت . فقال الأرطبون : نعم ! فاذهب فأتنى بهم ، ودعا رجلا فسارّه فقال : اذهب إلى فلان فرُدّه ، وقام عمرو فذهب إلى جيشه . ثم تحقق الأرطبون

(١) إيلياء : هى القدس . (٢) ناحية من نواحى فلسطين من كورة بيت جبرين قريبة من الرملة .

أنه عمرو بن العاص ، فقال : خدعني الرجل ، هذا والله أدهى العرب . وبلغت عمر بن الخطاب فقال : لله دَرُّ عمرو . ثم ناهضه عمرو فاقتتلوا بأجنادين قتالا عظيما ، كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم ثم اجتمعت بقية الجيوش إلى عمرو بن العاص ، وذلك حين أعياهم صاحب إيلياء وتحصّن منهم بالبلد ، وكثر جيشه . فكتب الأرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري ، أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين ، فارجع ولا تغرّ فتلقى مثل مالقي الذين قبلك من الهزيمة ، فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فبعثه إلى أرطبون وقال ، اسمع ما يقول لك ثم ارجع فأخبرني . وكتب إليه معه : جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي ، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد ، واقرأ كتابي هذا بمحضر من أصحابك ووزرائك . فلما وصله الكتاب جمع وزراءه وقرأ عليهم الكتاب فقالوا للأرطبون : من أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد ؟ فقال : صاحبها رجل اسمه «عمر» على ثلاثة أحرف . فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال : فكتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول له : إني أعالج حرباً كئودا صدوماً ، وبلاداً أدّخرت لك ، فرأيك . فلما وصل الكتاب إلى عمر علم أن عمراً لم يقل ذلك إلا لأمر علمه ، فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس كما سنذكر تفصيله .

قال سيف بن عمر عن شيوخه : وقد دخل عمر الشام أربع مرات ؛ الأولى كان راكباً فرساً حين فتح بيت المقدس ، والثانية على بعير ، والثالثة وصل إلى سرغ[1] ثم رجع لأجل ما وقع بالشام من الوباء . والرابعة دخلها على حمار ، هكذا نقله ابن جرير عنه .

فتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ذكره أبو جعفر بن جرير في هذه السنة عن رواية سيف بن عمر ، وملخص ما ذكره هو وغيره : أن أبا عبيدة لما فرغ من دمشق ، كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام ، أو يبذلون الجزية أو يؤذنوا بحرب ، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه فركب إليهم في جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار عمر الناس في ذلك فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقرَ لهم وأرغمَ لأنوفهم . وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخفّ وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم فهوى ما قال عليّ ولم يهو ما قال عثمان .

وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب ، وسار العباس بن عبد المطلب

(١) سرغ : أول الحجاز وآخر الشام ، بين المغيثة وتبوك .

على مقدمته ، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورءوس الأمراء ، كخالد بن الوليد ، ويزيد ابن أبي سفيان ؛ فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر ، فأشار أبو عبيدة ليقبّل يدَ عمر ، فهمّ عمر بتقبيل رجلِ أبي عبيدة ، فكفّ أبو عبيدة فكفّ عمر ، ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث ، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء ، ويقال : إنه لبّى حين دخل بيت المقدس ، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود ، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد ، فقرأ في الأولى بسورة صٓ وسجد فيها والمسلمون معه ، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل[1] ، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار ، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه ، فقال: ضاهيتَ والله اليهودية . ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس ـ وهو العمرى اليوم ، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه ، ونقل المسلمون معه في ذلك ، وسخّر أهل الأردن في نقل بقيتها . وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود ، حتى إن المرأة كانت ترسل خِرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة ، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القُمامة ، وهى المكان الذى كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب ، فجعلوا يلقون على قبره القمامة[2] فلأجل ذلك سمى ذلك الموضع القُمامة وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التى بناها النصارى هنالك[3] .

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوى وهو بإيلياء ، وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكُناسة على الصخرة ، حتى وصلت إلى محراب داود، قال لهم : إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد ، كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا ، ثم أمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك ، فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون ، فأزالها عمر بن الخطاب ، وقد استقصى هذا كله بأسانيده ومتونه ـ الحافظ بهاء الدين بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر في كتابه [المستقصى في فضائل المسجد الأقصى]

وذكر سيف في سياقه : أن عمر رضى الله عنه ركب من المدينة على فرس ليسرع السير ، بعد ما استخلف عليها عليّ بن أبي طالب ، فسار حتى قدم الجابية فنزل بها ، وخطب بالجابية خطبة طويلة بليغة منها : « أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تُكفوا أمر دنياكم ، واعلموا أن رجلا ليس بينه وبين آدم أب حى ، ولا بينه وبين الله هوادة ، فمن أراد لحب (طريق) وجه الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلونّ أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما ، ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » وهى خطبة

---

(١) أى : سورة الإسراء (٢) القمامة : الكناسة. يقال : قم الشيء ـ أى كنسه والجمع قمام

(٣) الذى في القاموس : القمامة : نصرانية بنت ديرا بالقدس فسمى باسمها .

طويلة اختصرناها . ثم صالح عمر أهل الجابية ورحل إلى بيت المقدس وقد كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه فى اليوم الفلانى إلى الجابية فتوافوا أجمعون فى ذلك اليوم إلى الجابية ، فكان أول من تلقاه يزيد بن أبى سفيان ، ثم أبو عبيدة ، ثم خالد بن الوليد فى خيول المسلمين وعليهم يلامق[1] الديباج ، فسار إليهم عمر ليحصبهم فاعتذروا إليه بأن عليهم السلاح ، وأنهم يحتاجون إليه فى حروبهم . فسكت عنهم واجتمع الأمراء كلهم بعد ما استخلفوا على أعمالهم ؛ سوى عمرو ابن العاص وشرحبيل ، فإنهما مواقفان الأرطبون بأجنادين ، فبينما عمر فى الجابية إذا بكردوس من الروم بأيديهم سيوف مسللة ، فسار إليهم المسلمون بالسلاح فقال عمر : إن هؤلاء قوم يستأمنون. فساروا نحوهم فإذا هم جند من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح من أمير المؤمنين حين سمعوا بقدومه ، فأجابهم عمر رضى الله عنه إلى ما سألوا ، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة ، وضرب عليهم الجزية ، واشترط عليهم شروطاً ذكرها ابن جرير ، وشهد فى الكتاب خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان وهو كاتب الكتاب ، وذلك فى سنة خمسة عشر. ثم كتب لأهل لُدّ ومن هنالك من الناس كتاباً آخر وضرب عليهم الجزية ، ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيلياء ، وفر الأرطبون إلى بلاد مصر ، فكان بها حتى فتحها عمرو بن العاص ، ثم فر إلى البحر فكان يلى بعض السرايا الذين يقاتلون المسلمين ، فظفر به رجل من قيس فقطع يد القيسى ، وقتله القيسى وقال فى ذلك :

فإن يكن أرطبونُ الروم أفسدَها ... فإن فيها بحمـــد الله مُنْتَقَمَا
بنائتانِ وجُرموزٌ أقيم به ... صدر القناة إذا ما آنسوا فَزعا
وإن يكن أرطبونُ الروم قطّعها ... فقد تركتُ بها أو صاله قِطَعَا

ولما صالح أهل الرملة وتلك البلاد ، أقبل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حَسَنة حتى قدما الجابية ، فوجدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب راكباً ، فلما اقتربا منه أكبا على ركبتيه فقبلاها واعتنقهما عمر معاً رضى الله عنهم . قال سيف : ثم سار عمر إلى بيت المقدس من الجابية وقد تَوجّى[2] فرسه فأتوه ببرذون فركبه ، فجعل يُهَمْلج[3] به ، فنزل عنه وضرب وجهه وقال : لاعلّم الله من علمك ، هذا من الخيلاء ، ثم لم يركب برْذوناً قبله ولا بعده ، ففتحت إيلياء وأرضها على يديه ماخلا أجنادين فعلى يدى عمرو ، وقيسارية فعلى يدى معاوية . هذا سياق سيف بن عمر ، وقد خالفه غيره من أئمة السير فذهبوا إلى أن فتح بيت المقدس كان فى سنة ست عشرة .

قال محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم ، عن عثمان بن حصن بن علان . قال يزيد بن عبيدة:

(١) اليلمق : القباء المحشو .

(٢) وجى الفرس وتوجى : إذا وجد وجيا فى حافره . والوجا : الحفاء أو شدته

(٣) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة وبخترة

فتحت بيت المقدس سنة ست عشرة ، وفيها قدم عمر بن الخطاب الجابية . وقال أبو زرعة الدمشقى عن دُحيم عن الوليد بن مسلم قال : ثم عاد فى سنة سبع عشرة فرجع من سَرْغ ، ثم قدم سنة ثمانى عشرة فاجتمع إليه الأمراء وسلموا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال فقسمها وجند الأجناد ومَصَّر الأمصار ثم عاد إلى المدينة

وقال يعقوب بن سفيان : ثم كان فتح الجابية وبيت المقدس سنة ست عشرة . وقال أبو معشر : ثم كان عمواس والجابية فى سنة ست عشرة . ثم كانت سَرْغ فى سبع عشرة ، ثم كان عام الرمادة فى سنة ثمانى عشرة قال : وكان فيها طاعون عمواس - يعنى فتح البلدة المعروفة بعمواس - فأما الطاعون المنسوب إليها فكان فى سنة ثمانى عشرة كما سيأتى قريباً إن شاء الله تعالى .

قال أبو مِخْنَف : لما قدم عمر الشام فرأى غُوطة دمشق ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين ، تلا قوله تعالى : (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قوماً آخرين)[1] ثم أنشد قول النابغة .

هما فتيا دهرٍ يكرّ عليهما نهارٌ وليلٌ يلحقان التواليا

إذا ما هما مرّا بحيٍّ بغبطة أناخا بهم حتى يُلاقوا الدواهيا

وهذا يقتضى بادى الرأى أنه دخل دمشق ، وليس كذلك ؛ فإنه لم ينقل أحد أنه دخلها فى شىء من قدماته الثلاث إلى الشام ؛ أما الأولى - وهى هذه - فإنه سار من الجابية إلى بيت المقدس كما ذكر سيف وغيره والله أعلم . وقال الواقدى : أما رواية غير أهل الشام فهى : أنّ عمر دخل الشام مرتين ورجع الثالثة من سَرْغ سنة سبع عشرة ، وهم يقولون دخل فى الثالثة دمشق وحمص ، وأنكر الواقدى ذلك .

قلت : ولا يعرف أنه دخل دمشق إلا فى الجاهلية قبل إسلامه كما بسطنا ذلك فى سيرته . وقد روينا أن عمر حين دخل بيت المقدس، سأل كعب الأحبار عن مكان الصخرة فقال : يا أمير المؤمنين اذرع من وادى جهنم كذا وكذا ذراعاً فهى ثَمّ . فذرعوا فوجدوها وقد اتخذها النصارى مَزْبلة ، كما فعلت اليهود بمكان القُمامة ، وهو المكان الذى صُلب فيه المصلوب الذى شُبّه بعيسى ، فاعتقدت النصارى واليهود أنه المسيح . وقد كذبوا فى اعتقادهم هذا كما نص الله تعالى على خطئهم فى ذلك والمقصود أن النصارى لما حكموا على بيت المقدس قبل البعثة بنحو من ثلثمائة سنة ، طهّروا مكان القُمامة واتخذوه كنيسة هائلة بنتها أم الملك قسطنطين بانى المدينة المنسوبة إليه ، واسم أمه هيلانة الحرانية البندقانية . وأمرت ابنها فبنى للنصارى بيت لَحم على موضع الميلاد ، وبنت هى على موضع القبر فيما يزعمون . والغرض أنهم اتخذوا مكان قِبلة اليهود

(١) الآيات : ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان .

مَزبلة أيضاً ، في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه . فلما فتح عمر بيت المقدس وتحقق موضع الصخرة ، أمر بإزالة ما عليها من الكناسة : حتى قيل إنه كنسها بردائه ، ثم استشار كعباً أين يضع المسجد ؟ فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة ، فضربه في صدره وقال . يا ابن أم كعب ضارعتَ اليهود : وأمر ببنائه في مقدّم بيت المقدس

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، ثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان ، عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب ، أن عمر بن الخطاب كان بالجابية. فذكر فتح بيت المقدس ، قال : قال ابن سلمة : فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم ، سمعت عمر يقول لكعب : أين ترى أن أصلي ؟ قال : إن أخذت عني صليت خلف الصخرة ، وكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر : ضاهيتَ اليهودية - لا - ولكن أصلّي حيث صلّى رسول الله ﷺ ، فتقدم إلى القبلة فصلّى ، ثم جاء فبسط رداءه وكنَس الكناسة في ردائه وكنَس الناس . وهذا إسناد جيد اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه - المستخرج ، وقد تكلمنا على رجاله في كتابنا الذي أفردناه في مسند عمر ؛ ما رواه من الأحاديث المرفوعة ، وما روى عنه من الآثار الموقوفة مبوباً على أبواب الفقه ، ولله الحمد والمنة .

وقد روى سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم قال : لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق ، فقال : السلام عليك يا فاروق ، أنت صاحب إيلياء ؟ لا والله لا ترجع حتى يفتح الله عليك إيلياء . وقد روى أحمد بن مروان الدينوري ، عن محمد بن عبد العزيز عن أبيه ، عن الهيثم ابن عدي عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن جده أسلم مولى عمر بن الخطاب: أنه قدم دمشق في تجار من قريش ، فلما خرجوا تخلف عمر لبعض حاجته ، فبينما هو في البلد إذا ببطريق يأخذ بعُنُقه ، فذهب ينازعه فلم يقدر ، فأدخله دارا فيها تُراب وَفأس ومِجْرفة وزنبيل ، وقال له : حوّل هذا من ههنا إلى ههنا ، وغلّق عليه الباب وانصرف ، فلم يجيء إلى نصف النهار . قال : وجلست مفكراً ولم أفعل مما قال لي شيئاً . فلما جاء قال : مالك لم تفعل ؟ ولكمني في رأسي بيده قال : فأخذت الفأس فضربته بها فقتلته ، وخرجت على وجهي فجئت ديراً لراهب فجلست عنده من العشي ، فأشرف عليّ فنزل وأدخلني الدير فأطعمني وسقاني ، وأتحفني ، وجعل يحقق النظر فيّ ، وسألني عن أمري فقلت : إني أضللت أصحابي . فقال : إنك لتنظر بعين خائف ، وجعل يتوسمني ثم قال : لقد عَلِمَ أهل دين النصرانية أني أعلمهم بكتابهم ، وإني لأراك الذي تخرجنا من بلادنا هذه ، فهل لك أن تكتب لي كتاب أمان على ديري هذا ؟ فقلت: يا هذا، لقد ذهبت غير مذهب . فلم يزل بي حتى كتبت له صحيفة بما طلب مني ، فلما كان وقت الانصراف أعطاني أتاناً فقال لي :

اركبها ، فإذا وصلت إلى أصحابك فابعث إلىّ بها وحدها ؛ فإنها لا تمر بدير إلا أكرموها ! ففعلت ما أمرنى به .

فلما قدم عمر لفتح بيت المقدس، أتاه ذلك الراهب وهو بالجابية بتلك الصحيفة فأمضاها له عمر ، واشترط عليه ضيافة من يمر به من المسلمين ، وأن يرشدهم إلى الطريق . رواه ابن عساكر وغيره . وقد ساقه ابن عساكر من طريق أخرى فى ترجمة يحيى بن عبيد الله بن أسامة القرشى البلقاوى عن زيد بن أسلم عن أبيه ، فذكر حديثا طويلا عجيباً هذا بعضه . وقد ذكرنا الشروط العمرية على نصارى الشام مطولا فى كتابنا الأحكام ، وأفردنا له مصنفاً على حدة ، ولله الحمد والمنة .

وقد ذكرنا خطبته فى الجابية بألفاظها وأسانيدها ، فى الكتاب الذى أفردناه لمسند عمر ، وذكرنا تواضعه فى دخوله الشام فى السيرة التى أفردناها له .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى الربيع بن ثعلب ، نا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله ابن مسلم بن هرمز المكىّ ، عن أبى الغالية الشامى قال : قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء على جمل أورق[1] ، تلوح صَلعته للشمس ، ليس عليه قَلنسوة ولا عمامة ، تصطفق[2] رجلاه بين شعبتى الرّحل بلا ركاب ، وطاؤه[3] كساء انبجانى ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نَمرة أو شملة محشوة ليفاً ، هى حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه . فقال : ادعوا لى رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصى وخيطوه وأعيرونى ثوباً أو قميصاً . فأتى بقميص كتان فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان . قال : وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع ، وأتى به فنزع قميصهم ولبس قميصه . فقال له الجلومس : أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم فى أعين الروم . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلا . فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتى بجمله فركبه .

وقال إسماعيل بن محمد الصفار : حدثنا سعدان بن نصر ، حدثنا سفيان عن أيوب الطائى عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ونزع مُوقيه[4] فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعاً عظيما عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا ، قال : فصكّ فى صدره وقال : أو لو غيرك

---

(١) الأورق من الإبل: ما فى لونه بياض إلى سواد
(٢) أى : تتحرك وتهتز
(٣) الوطاء : ضد الغطاء ، ووطئه : داسه
(٤) الموق : هو ما يلبس فوق الخف

يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة ـ أعني سنة خمس عشرة ـ كانت بين المسلمين وفارس وقعات في قول سيف بن عمر . وقال ابن إسحاق والواقدي : إنما كان ذلك في سنة ست عشرة ، ثم ذكر ابن جرير وقعات كثيرة كانت بينهم ؛ وذلك حين بعث عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بالمسير إلى المدائن ، وأن يخلف النساء والعيال بالعقيق[1] في خيل كثيرة كثيفة . فلما تفرغ سعد من القادسية بعث على المقدمة زُهرة بن حوِيّة ، ثم أتبعه بالأمراء واحداً بعد واحد ، ثم سار في الجيوش وقد جعل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص على خلافته مكان خالد بن عُرفُطة ، وجعل خالداً هذا على الساقة ، فساروا في خيول عظيمة ، وسلاح كثير ، وذلك لأيام بقين من شوال من هذه السنة ، فنزلوا الكوفة وارتحل زُهرة بين أيديهم نحو المدائن ، فلقيه بها بُصْبُهرى في جيش من فارس ، فهزمهم زُهرة وذهبت الفرس في هزيمتهم إلى بابل ، وبها جمع كثير ممن انهزم يوم القادسية ، قد جعلوا عليهم الفَيرُزان .

فبعث زهُرة إلى سعد فأعلمه باجتماع المنهزمين ببابل ، فسار سعد بالجيوش إلى بابل ، فتقابل هو والفيرُزان عند بابل ، فهزمهم كأسرع من لفة الرداء ، وانهزموا بين يديه فرقتين ففرقة ذهبت إلى المدائن ، وأخرى سارت إلى نَهاوند[2] ، وأقام سعد ببابل أياما، ثم سار منها نحو المدائن فلقوا جمعاً آخر من الفرس فاقتتلوا قتالا شديداً وبارزوا أمير الفرس ، وهو شَهريار ، فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له نائل الأعرجيّ أبو نباتة ـ من شجعان بني تميم ، فتجاولا ساعة بالرماح ، ثم ألقياها فانتضيا سيفيهما وتصاولا بهما ، ثم تعانقا وسقطا عن فرسيهما إلى الأرض ، فوقع شَهريار على صدر أبي نباتة ، وأخرج خنجراً ليذبحه بها ، فوقعت أصبعه في فم أبي نباتة فقضمها حتى شغله عن نفسه ، وأخذ الخنجر فذبح شهريار بها ، وأخذ فرسه وسِوَاريه وسلَبه ، وانكشف أصحابه فهزموا ، فأقسم سعد على نائل ليلبسن سِواري شهريار وسلاحه ، وليركبن فرسه إذا كان حرب ، فكان يفعل ذلك . قالوا : وكان أول من تسوَّر بالعراق ، وذلك بمكان يقال له كُوثَى . وزار المكان الذي حبس فيه الخليل، وصلى عليه وعلى سائر الأنبياء ، وقرأ (وتلك الأيام نداولها بين النّاس)[3] الآية .

---

(١) العقيق : كذا في الاصل، وفي ابن جرير: بالعتيق ـ بالتاء المثناة فوق .

(٢) مدينة من أعظم مدن الجبل في قبلة همذان (٣) من الآية : ١٤٠ من سورة آل عمران .

وقعة نهر شير[1]

قالوا : ثم قدَّم سعد زُهرة بين يديه من كُوثَى إلى نهر شير ، فمضى إلى المقدمة وقد تلقاه شير زاذ إلى ساباط بالصلح والجزية ، فبعثه إلى سعد فأمضاه ، وَوَصل سعد بالجنود إلى مكان يقال له: مظلم ساباط ، فوجدوا هنالك كتائب كثيرة لكسرى يسمونها «بوُران» ، وهم يقسمون كل يوم : لايزول ملك فارس ماعشنا ـ ومعهم أسدٌ كبير يقال له المُقَرّط ، قد أرصدوه فى طريق المسلمين ، فتقدم إليه ابن أخى سعد ـ وهو هاشم بن عتبة ، فقتل الأسد والناس ينظرون ، وسمى يومئذ سيفه المَتن ، وقبل سعد يومئذ رأس هاشم ، وقبل هاشم قدم سعد . وحمل هاشم على الفرس فأزالهم عن أماكنهم وهزمهم وهو يتلو قوله تعالى (أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِنْ زَوَالٍ ؟)[2] فلما كان الليل ارتحل المسلمون ونزلوا نهر شير فجعلوا كلما وقفوا كبّروا ، وكذلك حتى كان آخرهم مع سعد ، فأقاموا بها شهرين ودخلوا فى الثالث وفرغت السنة .

قال ابن جرير : وفيها حج بالناس عمر ، وكان عامله فيها على مكة ـ عتاب بن أسيد ، وعلى الشام ـ أبو عبيدة ، وعلى الكوفة والعراق ـ سعد ، وعلى الطائف يَعلى بن أمية[3] وعلى البحرين واليمامة ـ عثمان بن أبى العاص ، وعلى عمان ـ حذيفة بن محصن .

قلت : وكانت وقعة اليرموك فى سنة خمس عشرة فى رجب منها ـ عند الليث بن سعد وابن لهيعة وأبى معشر والوليد بن مسلم ويزيد بن عبيدة وخليفة بن خياط وابن الكلبى ـ محمد بن عائذ وابن عساكر ، وشيخنا أبى عبد الله الذهبى الحافظ . وأما سيف بن عمر وأبو جعفر بن جرير ـ فذكروا واقعة اليرموك فى سنة ثلاث عشرة . وقد قدمنا ذكرها هنالك تبعاً لابن جرير ، وهكذا وقعة القادسية عند بعض الحفاظ ، أنها كانت فى أواخر هذه السنة ـ سنة خمس عشرة ـ وتبعهم فى ذلك شيخنا الحافظ الذهبى . والمشهور أنها كانت فى سنة أربع عشرة كما تقدم ثم ذكر شيخنا الذهبى :

من توفى فى هذه السنة مرتبين على الحروف

* سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، وهو أحد أقوال المؤرخين. وقد تقدم
* سعد بن عبيد بن النعمان أبو زيد الأنصارى الأوسى، قتل بالقادسية، ويقال إنه أبو زيد القارى أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ . وأنكر آخرون ذلك، ويقال : إنه

---

(١) فى الطبرى « بهرسير »

(٢) من الآية : ٤٤ من سورة إبراهيم .

(٣) فى الطبرى « ابن منية » .

والد عمير بن سعد الزاهد أمير حمص . وذكر محمد بن سعد وفاته بالقادسية وقال : كانت فى سنة ست عشرة والله أعلم .

● سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن حسل بن عامر بن لؤى - أبو يزيد العامرى أحد خطباء قريش وأشرافهم ، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وكان سمحاً جواداً فصيحاً كثير الصلاة والصوم والصدقة وقراءة القرآن والبكاء . ويقال إنه قام وصام حتى شحب لونه . وله سعى مشكور فى صلح الحديبية . ولما مات رسول الله ﷺ خطب الناس بمكة خطبة عظيمة ثبتت الناس على الإسلام ، وكانت خطبته بمكة قريباً من خطبة الصديق بالمدينة ، ثم خرج فى جماعة إلى الشام مجاهداً لحضر اليرموك ، وكان أميراً على بعض الكراديس ، ويقال : إنه استشهد يومئذ . وقال الواقدى والشافعى : توفى بطاعون عمواس .

● عامر بن مالك بن أهيب الزهرى - أخى سعد بن أبى وقاص ، هاجر إلى الحبشة ، وهو الذى قدم بكتاب عمر إلى أبى عبيدة بولايته على الشام وعزل خالد عنها ، استشهد يوم اليرموك .

● عبدالله بن سفيان بن عبد الأسد المخزومى ، صحابى هاجر إلى الحبشة مع عمه أبى سلمة بن عبد الأسد . روى عنه عمرو بن دينار منقطعاً ، لأنه قتل يوم اليرموك .

● عبد الرحمن بن العوام - أخو الزبير بن العوام ، حضر بدراً مشركاً ، ثم أسلم واستشهد يوم اليرموك فى قول .

● عتبة بن غزوان ، توفى فيها فى قول ● عكرمة بن أبى جهل ، استشهد باليرموك فى قول .

● عمرو بن أم مكتوم ، استشهد يوم القادسية - وقد تقدم ، ويقال : بل رجع إلى المدينة .

● عمرو بن الطفيل بن عمرو - تقدم ● عامر بن أبى ربيعة تقدم .

● فراس بن النضر بن الحارث ، يقال : إنه استشهد يوم اليرموك .

● قيس بن عدى بن سعد بن سهم من مهاجرة الحبشة - قتل باليرموك ● قيس بن أبى صعصعة .

● عمرو بن زيد بن عوف الأنصارى المازنى ، شهد العقبة وبدراً ، وكان أحد أمراء الكراديس يوم اليرموك ، وقتل يومئذ ، وله حديث قال : قلت : يارسول الله ، فى كم أقرأ القرآن ؟ قال : « فى خمس عشرة » الحديث ، قال شيخنا أبو عبدالله الذهبى : ففيه دليل على أنه ممن جمع القرآن فى عهد رسول الله ﷺ .

● نصير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى القرشى العبدرى ، أسلم عام الفتح ، وكان من علماء قريش ، وأعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين مائة من الإبل ، فتوقف فى أخذها وقال : لا أرتشى على الإسلام ، ثم قال : والله ماطلبتها ولا سألتها ، وهى

عطية من رسول الله ﷺ ، فأخـــذها وحسن إسلامه ، واستشهد يوم اليرموك .

• نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، كان أسن من أسلم من بنى عبدالمطلب ، وكان ممن أسر يوم بدر ففاداه العباس، ويقال إنه هاجر أيام الخندق، وشهد الحديبية والفتح ، وأعان رسول الله ﷺ يوم حنين بثلاثة آلاف رمح ، وثبت يومئذ ، وتوفى سنة خمس عشر ، وقيل سنة عشرين ، والله أعلم . توفى بالمدينة وصلى عليه عمر ، ومشى فى جنازته ، ودفن بالبقيع ، وخلف عدة أولاد فضلاء وأكابر .

• هشام بن العاص ـ أخو عمرو بن العاص تقدم ، وقال ابن سعد : قتل يوم اليرموك .

ثم دخلت سنة ست عشرة

استهلت هذه السنة وسعد بن أبى وقاص منازل مدينة بهرسير ، وهى إحدى مدينتى كسرى مما يلى دجلة من الغرب ، وكان قدوم سعد إليها فى ذى الحجة من سنة خمس عشرة ، واستهلت هذه السنة وهو نازل عندها وقد بعث السرايا والخيول فى كل وجه ، فلم يجدوا واحداً من الجند ، بل جمعوا من الفلاحين مائة ألف فحبسوا ، حتى كتب إلى عمر ما يفعل بهم ، فكتب إليه عمر : إن من كان من الفلاحين لم يعن عليكم وهو مقيم ببلده فهو أمانة ، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به . فأطلقهم سعد بعد مادعاهم إلى الإسلام فأبوا إلا الجزية . ولم يبق من غربى دجلة إلى أرض العرب أحد من الفلاحين إلا تحت الجزية والخراج ، وامتنعت بهرسير من سعد أشدّ الامتناع ، وقد بعث إليهم سعد ـ سلمان الفارسى ، فدعاهم إلى الله عز وجل أو الجزية أو المقاتلة ، فأبوا إلا المقاتلة والعصيان ، ونصبوا المجانيق[1] والدبابات[2] ، وأمر سعد بعمل المجانيق فعملت عشرون منجنيقاً ، ونصبت على بهرسير ، واشتد الحصار ، وكان أهل بهرسير يخرجون فيقاتلون قتالا شديداً ويحلفون أن لا يفروا أبداً ، فأكذبهم الله وهزمهم زهرة بن حوية بعد ما أصابه سهم وقتل بعد مصابه كثيراً من الفرس ، وفروا بين يديه ولجأوا إلى بلدهم ، فكانوا محاصرون فيه أشد الحصار ، وقد انحصر أهل البلد حتى أكلوا الكلاب والسنانير .

وقد أشرف رجل منهم على المسلمين فقال : يقول لكم الملك : هل لكم إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أما شبعتم ؟ لا أشبع الله

---

(١) المنجنيق : القذاف الذى ترمى به الحجارة .

(٢) فى اللسان : أن الدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم مايرمون به من فوقهم .

بطونكم . قال : فبدر الناس رجل يقال له أبو مفزّر الأسود بن قُطبة ، فأنطقه الله بكلام لم يدر ما قال لهم ، قال : فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون من نهر شير إلى المدائن . فقال الناس لأبي مُفزّر : ماذا قلت لهم ؟ فقال : والذى بعث محمداً بالحق ما أدرى ما قلت لهم ، إلا أنّ علىّ سكينة ، وأنا أرجو أن أكون قد أنطقتُ بالذى هو خير ، وجعل الناس ينتابونه يسألونه عن ذلك ، وكان فيمن سأله سعد بن أبي وقاص ، وجاءه سعد إلى منزله فقال : يا أبا مفزر ما قلت ؟ فوالله إنهم هُرّاب . فحلف له أنه لايدرى ما قال . فنادى سعد فى الناس ونهدبهم إلى البلد والمجانيق تضرب فى البلد ، فنادى رجل من البلد بالأمان فأمناه ، فقال : والله ما بالبلد أحد ، فتسور الناس السّور فما وجدنا فيها أحداً إلا قد هربوا إلى المدائن . وذلك فى شهر صفر من هذه السنة ، فسألنا ذلك الرجل وأناساً من الأسارى فيها : لأى شىء هربوا ؟ قالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح ، فأجابه ذلك الرجل ؛ بأنه لا يكون بينكم وبينه صلح أبداً حتى نأكل عسل افريدين بأترُج كوثى . فقال الملك : يا وَيلاه ، إن الملائكة لتتكلم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيبنا عن العرب. ثم أمر الناس بالرحيل من هنا إلى المدائن ، فجازوا فى السفن منها إليها وبينهما دجلة ، وهى قريبة منها جداً ، ولما دخل المسلمون نهرشير لاح لهم القصر الأبيض[1] من المدائن وهو قصر الملك الذى ذكره رسول الله ﷺ أنه سيفتحه الله على أمته ، وذلك قريب الصباح ، فكان أول من رآه من المسلمين ضرار بن الخطاب ، فقال : الله أكبر أبيضُ كسرى ، هذا ما وعدنا الله ورسوله . ونظر الناس إليه فتابعوا التكبير إلى الصبح .

ذكر فتح المدائن التى هى مستقر ملك كسرى

لما فتح سعد نهرسير واستقر بها ، وذلك فى صفر لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يغنم ، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن وركبوا السفن وضموا السفن إليهم ، ولم يجد سعد رضى الله عنه شيئاً من السفن ، وتعذر عليه تحصيل شىء منها بالكلية ، وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسودّ ماؤها ، ورمت بالزّبد من كثرة الماء بها ، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان ، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر . فخطب سعد المسلمين على شاطىء دجلة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم ، وليس

---

(١) كان هذا القصر قصر الأكاسرة بالمدائن وكان من عجائب الدنيا ، ولم يزل قائماً حتى أيام المكتفى فى حدود سنة ٢٩٠ هـ .

وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم ، فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل . فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور وهو يقول : من يبدأ فيحمى لنا الفراض - يعنى ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى ـ ليجوز الناس إليهم آمنين ، فانتدب عاصم بن عمرو وذو البأس من الناس ـ قريب من ستمائة ، فأمّر سعد عليهم عاصم بن عمرو ، فوقفوا على حافة دجلة ، فقال عاصم : من ينتدب معى لنكون قبل الناس دخولا فى هذا البحر فنحمى الفراض من الجانب الآخر ؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين ـ والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر ـ فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض فى دجلة ، فقال : أتخافون من هذه النطفة ؟ ثم تلا قوله تعالى : (وما كانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلاّ بإذنِ الله كِتاباً مُؤَجَّلاً)[1] ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس ، وقد افترق الستون فرقتين : أصحاب الخيل الذكور ، وأصحاب الخيل الاناث .

فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا : ديوانا ديوانا . يقولون : مجانين مجانين . ثم قالوا : والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً . ثم أرسلوا فرساناً منهم فى الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء ، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين ، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم ، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كفّ خيولهم ، حتى خرجوا من الماء ، واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر ، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة فى دجلة فخاضوها ، حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر ، فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب . وكانوا يسمون الكتيبة الأولى ـ كتيبة الأهوال وأميرها عاصم بن عمرو ، والكتيبة الثانية ـ الكتيبة الخرساء وأميرها القعقاع بن عمرو . وهذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس ، وسعد واقف على شاطىء دجلة .

ثم نزل سعد ببقية الجيش ، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين . وقد أمرَ سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد ، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن ، والوثوق بأمر الله

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة آل عمران .

ووعده ونصره وتأييده ، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقد توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، ودعا له فقال : « اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته » والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا فى هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم فى هذا اليم فسددهم الله وسلمهم، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد ، غير أن رجلا واحداً يقال له غرقدة البارقى، ذل عن فرس له شقراء ، فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها ، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه ، وكان من الشجعان ، فقال عجز النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو .

ولم يعدم المسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له : مالك بن عامر ، كانت علاقته رثة فأخذه الموج ، فدعا صاحبه الله عز وجل ، وقال : اللهم لا تجعلنى من بينهم يذهب متاعى ، فرده الموج إلى الجانب الذى يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه . وكان الفرس إذا أعيا وهو فى الماء ، يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح ، وحتى إن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها ، وكان يوماً عظيما وأمراً هائلا ، وخطباً جليلا ، وخارقاً باهراً ، ومعجزة لرسول الله ﷺ ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها فى تلك البلاد ، ولا فى بقعة من البقاع ، سوى قضية العلاء بن الحضرمى المتقدمة ؛ بل إن هذا أجل وأعظم ، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك .

قالوا : وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء ـ سلمان الفارسى ، فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان : إن الإسلام جديد ، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ، ليخرجن منه أفواجاً ، كما دخلوا أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان ـ لم يغرق منهم أحد ، ولم يفقدوا شيئا .

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض ، خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة ، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن ، فلم يجدوا بها أحداً ، بل قد أخذ كسرى أهله ، وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة والحواصل ، وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع والآنية والألطاف والأدهان ما لا يدرى قيمته . وكان فى خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ثلاث مرات ، فأخذوا من ذلك ما قدروا عليه وتركوا ما عجزوا عنه ـ وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه . فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال، ثم الكتيبة الخرساء ، فأخذوا فى سككها لا يلقون أحداً ولا يخشونه غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصن .

فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسى ، فلما كان

اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد ، واتخذ الإيوان مُصَلّى ، وحين دخله تلا قوله تعالى : (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)[1] ثم تقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح . وذكر سيف فى روايته أنه صلاها بتسليمة واحدة، وأنه جمع بالإيوان فى صفر من هذه السنة ، فكانت أول جمعة جمعت بالعراق ، وذلك لأن سعداً نوى الإقامة بها ، وبعث إلى العيالات فأنزلهم دون المدائن واستوطنوها ، حتى فتحوا جلولاء وتكريت والموصل ، ثم تحولوا إلى الكوفة بعد ذلك كما سنذكره . ثم أرسل السرايا فى إثر كسرى يزدجرد فلحق بهم طائفة فقتلوهم وشردوهم واستلبوا منهم أموالا عظيمة . وأكثر ما استرجعوا من ملابس كسرى وتاجه وحُليه . وشرع سعد فى تحصيل ما هنالك من الأموال والحواصل والتحف ، مما لا يُقوّم ولا يحد ولا يوصف كثرة وعظمة.

وقد روينا أنه كان هناك تماثيل من جص، فنظر سعد إلى أحدها وإذا هو يشير بأصبعه إلى مكان ، فقال سعد : إن هذا لم يوضع هكذا سُدًى، فأخذوا مايسامت أصبعه ، فوجدوا قبالتها كنزاً عظيما من كنوز الأكاسرة الأوائل ، فأخرجوا منه أموالا عظيمة جزيلة ، وحواصل باهرة ،وتحفاً فاخرة . واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع ـ مما لم ير أحد فى الدنيا أعجب منه . وكان فى جملة ذلك تاج كسرى، وهو مكلل بالجواهر النفيسة التى تحير الأبصار ، ومنطقته كذلك وسيفه وسوارُه وقباؤه، وبساط إيوانه ، وكان مربعاً ستون ذراعا فى مثلها ، من كل جانب ، والبساط مثله سواء ، وهو منسوج بالذهب واللآلىء والجواهر الثمينة ، وفيه مصور جميع ممالك كسرى ؛ بلاده بأنهارها وقلاعها ، وأقاليمها ، وكنوزها ، وصفة الزروع والأشجار التى فى بلاده . فكان إذا جلس على كرسى مملكته دخل تحت تاجه ، وتاجه معلق بسلاسل الذهب ، لأنه كان لا يستطيع أن يُقله على رأسه لثقله ، بل كان يجىء فيجلس تحته ثم يدخل رأسه تحت التاج والسلاسل الذهب تحمله عنه ،وهو يستره حال لبسه، فإذا رفع الحجاب عنه خرت له الأمراء سجوداً وعليه المنطقة والسواران ، والسيف والقباء المرصع بالجواهر، فينظر فى البلدان واحدة واحدة ،فيسأل عنها ومن فيها من النواب ، وهل حدث فيها شىء من الأحداث ؟ فيخبره بذلك ولاة الأمور بين يديه . ثم ينتقل إلى الأخرى ، وهكذا حتى يسأل عن أحوال بلاده فى كل وقت، لايهمل أمر المملكة ، وقد وضعوا هذا البساط بين يديه تذكاراً له بشأن الممالك ، وهو إصلاح جيد منهم فى أمر السياسة . فلما جاء قدر الله زالت تلك الأيدى عن تلك الممالك والأراضى، وتسلمها

---

(١) الآيات : ٢٥ ـ ٢٨ من سورة الدخان .

المسلمون من أيديهم قسراً ، وكسروا شوكتهم عنها ، وأخذوها بأمر الله صافية ضافية ، ولله الحمد والمنة.

وقد جعل سعد بن أبي وقاص على الأقباض ـ عمرو بن عمرو بن مُقرِّن ، فكان أول ما حصل ما كان في القصر الأبيض ومنازل كسرى ، وسائر دور المدائن ، وما كان بالإيوان مما ذكرنا ، وما يَفِد من السرايا الذين في صحبة زُهْرة بن حَوِيَّة ، وكان فيما ردّ زُهرة بغل كان قد أدركه وغصبه من الفرس ، وكانت تحوطه بالسيوف فاستنقذه منهم وقال : إن لهذا لشأناً ، فرده إلى الأقباض وإذا عليه سفَطان فيهما ثياب كسرى وحليّه ، ولبسه الذي كان يلبسه على السرير كما ذكرنا ، وبغل آخر عليه تاجه الذي ذكرنا في سفَطين أيضاً ـ ردّ من الطريق مما استلبه أصحاب السرايا . وكان فيما ردّت السرايا أموال عظيمة ، وفيها أكثر أثاث كسرى وأمتعته ، والأشياء النفيسة التي استصحبوها معهم ، فلحقهم المسلمون فاستلبوها منهم . ولم تقدر الفرس على حمل البساط لثقله عليهم ، ولا حمل الأموال لكثرتها ؛ فإنه كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور ، فيجدون البيت ملآناً إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة ، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً ، فيحسبونه مِلحاً ، وربما استعمله بعضهم في العَجين ، فوجدوه مراً حتى تبينوا أمره ، فتحصل الفيء على أمر عظيم من الأموال ، وشرع سعد فخمسه ، وأمر سلمان الفارسي فقسم الأربعة الأخماس بين الغانمين ، فحصل لكل واحد من الفرسان اثنا عشر ألفاً ، وكانوا كلهم فرساناً ، ومع بعضهم جنائب . واستوهب سعد أربعة أخماس البساط ولبس كسرى من المسلمين ، ليبعثه إلى عمر والمسلمين بالمدينة لينظروا إليه ويتعجبوا منه ، فطيبوا له ذلك وأذنوا فيه ، فبعثه سعد إلى عمر مع الخمس مع بشير بن الخصاصية ، وكان الذي بَشّر بالفتح قبله ـ حُليس بن فلان الأسدي ، فروينا أن عمر لما نظر إلى ذلك قال : إن قوماً أدوا هذا لأمناء ، فقال له علي بن أبي طالب : إنك عففت فعفّت رعيتك ، ولو رَتعت لرتعت . ثم قسم عمر ذلك في المسلمين ، فأصاب علياً قطعة من البساط فباعها بعشرين ألفاً .

وقد ذكر سيف بن عمر ، أن عمر بن الخطاب ألبس ثيابَ كسرى لخشَبة ونصبها أمامه ، ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب ، وما عليها من زهرة الحياة الدنيا الفانية . وقد روينا أن عمر ألبس ثياب كسرى لسراقة بن مالك بن جعشم ـ أمير بني مدلج ـ رضي الله عنه .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا عبدالله بن يوسف الأصبهاني ، ثنا أبو سعيد ابن الأعرابي قال : وجدت في كتابي بخط يدي عن أبي داود ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا حماد ثنا يونس عن الحسن ، أن عمر بن الخطاب أتى بفَرْوة كسرى فوضعت بين يديه ، وفي القوم سُراقة بن مالك بن جعشم ، قال : فألقى إليه سِوارَي كسرى بن هرمز فجعلهما في يده ، فبلغا منكبيه ، فلما رآهما في يدي سراقة قال : الحمد لله ! سِواري كسرى بن هرمز في يدي سُراقة بن

مالك بن جعشم ـ أعرابى من بنى مدلج، وذكر الحديث هكذا ساقه البيهقى ثم حكى عن الشافعى أنه قال : وإنما ألبسهما سراقة، لأن رسول الله ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : « كأنى بك وقد ألبست سوارَى كسرى »، قال الشافعى : وقد قال عمر لسراقة حين ألبسه سوارى كسرى : قل الله أكبر . فقال : الله أكبر . ثم قال : قل : الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هُرمز وألبسهما سراقة بن مالك ـ أعرابى من بنى مدلج .

وقال الهيثم بن عدى : أخبرنا أسامة بن زيد الليثى ، ثنا القاسم بن محمد بن أبى بكر ، قال : بعث سعد بن أبى وقاص أيام القادسية إلى عمر ـ بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه ، قال : فنظر عمر فى وجوه القوم، وكان أجسمهم وأبدنهم قامة ـ سُراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : ياسراق قم فالبس ، قال سراقة : فطمعت فيه فقمت فلبست ، فقال : أدبر فأدبرت ، ثم قال : أقبل فأقبلت ، ثم قال : بخ بخ ، أعرابى من بنى مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ! رب يوم ياسراق بن مالك ، لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى ، كان شرفاً لك ولقومك ، انزع ، فنزعت . فقال : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحبَّ إليك منّى وأكرم عليك منى. ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى . وأعطيتنيه ، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بى . ثم بكى حتى رحمه من كان عنده ثم قال لعبد الرحمن بن عوف : أقسمت عليك لما بعته ، ثم قسمته قبل أن تُمسى .

وذكر سيف بن عمر التميمى : أن عمر حين ملك تلك الملابس والجواهر ، جىء بسيف كسرى ومعه عدة سيوف ، منها سيف النعمان بن المنذر ـ نائب كسرى على الحيرة ، وأن عمر قال : الحمد لله الذى جعل سيف كسرى فيما يضره ولا ينفعه . ثم قال : إن قوماً أدّوا هذا لأمناء ـ أو لذوا أمانة . ثم قال: إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتى عن آخرته ، فجمع لزوج امرأته ، أو زوج ابنته ، ولم يقدم لنفسه ، ولو قدم لنفسه وَوَضع الفضول[1] فى مواضعها لحصل له وقد قال بعض المسلمين ـ وهو أبو بُجيد نافع بن الأسود فى ذلك :

وأسلنا على المدائن خيلا بَحْرُها مثل برِّهن أريضا[2]
فانتثلنا خزائن المرء كِسْرَى يوم ولَّوا وحاص منا جَرِيضا[3]

---

(١) الفضول : ما يفضل بعد القسمة . (٢) معجبة للعين
(٣) انتثلنا : استخرجنا مافيها . حاص : ولى وانهزم . جريضا : مشرفا على الهلاك .

وقعة جلولاء[1]

لما سار كسرى وهو يَزْدَجرد بن شهريار من المدائن هاربا إلى حُلوان ـ شرع فى أثناء الطريق فى جمع رجال ، وأعوان وجنود ، من البلدان التى هناك ، فاجتمع إليه خلق كثير ، وجَمّ غفير من الفرس ، وأمّر على الجميع مهران ، وسار كسرى إلى حلوان فأقام الجمع الذى جمعه بينه وبين المسلمين فى جَلولاء ، واحتفروا خندقاً عظيما حولها ، وأقاموا بها فى العدد والعُدَد وآلات الحصار ، فكتب سعد إلى عُمَر يخبره بذلك . فكتب إليه عمر : أن يقيم هو بالمدائن ويبعث ابن أخيه هاشمَ ابن عتبة أميراً على الجيش الذى يبعثه إلى كسرى ، ويكون على المقدمة القَعقاع بن عمرو ، وعلى الميمنة سِعْر بن مالك ، وعلى الميسرة أخوه عمرُ بن مالك ، وعلى الساقة عَمرو بنُ مُرّة الجُهَنى . ففعل سعد ذلك ، وبعث مع ابن أخيه جيشاً كثيفاً يقارب اثنى عشر ألفاً ، من سادات المسلمين ووجوه المهاجرين والأنصار ، ورءوس العرب . وذلك فى صفر من هذه السنة بعد فراغهم من أمر المدائن ، فساروا حتى انتهوا إلى المجوس وهم بجَلُولاء ، قد خندقوا عليهم ، فحاصرهم هاشم بن عُتبة ، وكانوا يخرجون من بلدهم للقتال فى كلّ وقت فيقاتلون قتالا لم يسمع بمثله . وجعل كسرى يبعث إليهم الأمداد ، وكذلك سَعد يبعث المَدد إلى ابن أخيه ، مرة بعد أخرى . وحَمِى القتال ، واشتد النزال ، واضطرمت نار الحرب . وقام فى الناس هاشم فخطبهم غير مرة ، فحرضهم على القتال والتوكل على الله . وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت ، وحلفوا بالنار أن لا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب .

فلما كان الموقف الأخير ـ وهو يوم الفيصل والفرقان ـ تواقفوا من أول النهار ، فاقتتلوا قتالا شديداً لم يعهد مثله ، حتى فنى النُّشاب من الطرفين ، وتقصّفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء ، وصاروا إلى السيوف والطَّبَرْزِينات[2] ، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماءً ، وذهبت فرقة المجوس وجاءت مكانها أخرى ، فقام القعقاع بن عمرو فى المسلمين فقال : أهالَكم ما رأيتم أيها المسلمون ؟ قالوا : نعم إنا مُكِلون وهم مُريحون ، فقال : بل إنا حاملون عليهم ومُجِدُّون فى طلبهم ، حتى يحكم الله بيننا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى نخالطهم . فحمل وحمل الناس ، فأما القعقاع فإنه صمّم الحملة فى جماعة من الفرسان والأبطال والشجعان ، حتى انتهى إلى باب الخندق ، وأقبل الليل بظلامه ، وجالت بقية الأبطال بمن معهم فى الناس ، وجعلوا يأخذون فى التحاجز من أجل إقبال الليل ، وفى الأبطال يومئذ طُلَيحة الأسدى ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ،

---

(١) مدينة تقع فى مفترق الطرق إلى آذربيجان والباب وإلى العراق وفارس ، وقد اجتمع فيها الفرس بعد هزائمهم ، وحصنوها وحفروا حولها الخنادق (٢) الطبرزين : آلة من السلاح تشبه الفأس

وقيس بن مكشوح ، وحُجْر بن عدى ولم يعلموا بما صنعه القعقاع فى ظلمة الليل ، ولم يشعروا بذلك ، لولا مناديه ينادى : أين أيها المسلمون ؟ هذا أميركم على باب خندقهم .

فلما سمع ذلك المجوس فروا ، وحمل المسلمون نحو القعقاع بن عمرو ، فإذا هو على باب الخندق قد ملكه عليهم ، وهربت الفرس كلَّ مهرب ، وأخذهم المسلمون من كل وَجه ، وقعدوا لهم كلَّ مَرْصَد ، فقتل منهم فى ذلك الموقف مائة ألف حتى جَلّلوا وجه الأرض بالقتلى ، فلذلك سميت جَلولاء . وغنموا من الأموال والسلاح والذهب والفضة قريباً مما غنموا من المدائن قبلها .

وبعث هاشم بن عتبة القعقاع بن عمرو فى إثر من انهزم منهم وراء كسرى ، فساق خلفهم حتى أدرك مهران منهزماً ، فقتله القعقاع بن عمرو ، وأفلتهم الفَيرُزان فاستمر منهزماً ، وأسر سبايا كثيرة بعث بها إلى هاشم بن عتبة ، وغنموا دواب كثيرة جداً . ثم بعث هاشم بالغنائم والأموال إلى عمه سعد بن أبى وقاص . فنفل[1] سعد ذوى النجدة ، ثم أمر بقسم ذلك على الغانمين.

قال الشعبى : كان المال المتحصل من قمة جَلولاء ثلاثين ألف ألف ، فكان خمسه ستة آلاف ألف . وقال غيره : كان الذى أصاب كل فارس يوم جَلولاء ـ نظير ما حصل له يوم المدائن ـ يعنى اثنى عشر ألفاً لكل فارس . وقيل : أصاب كل فارس تسعة آلاف وتسع دواب . وكان الذى وَلِى قَسْمَ ذلك بين المسلمين وتحصيله ، سَلمان الفارسى رضى الله عنه . ثم بعث سعد بالأخماس من المال والرقيق والدواب مع زياد بن أبى سفيان ، وقُضاعى بن عمرو ، وأبى مُفزّر الأسود . فلما قدموا على عمر سأل عمر زياد بن أبى سفيان عن كيفية الوقعة فذكرها له ، وكان زياد فصيحاً ، فأعجب إيراده لها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأحب أن يسمع المسلمون منه ذلك ، فقال له : أتستطيع أن تخطب الناس بما أخبرتنى به ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه ليس أحد على وَجه الأرض أهيب عندى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ فقام فى الناس فقص عليهم خبر الواقعة ، وكم قتلوا ، وكم غنموا ، بعبارة عظيمة بليغة . فقال عمر : إن هذا لهو الخطيب المِصْقع ـ يعنى الفصيح ـ فقال زياد : إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا . ثم حَلَف عُمر بن الخطاب أن لا يُجِن هذا المال الذى جاءوا به سقفٌ حتى يقسمه ، فبات عبدالله بن أرقم وعبد الرحمن بن عوف يحرسانه فى المسجد ، فلما أصبح جاء عمر فى الناس ، بعد ما صلى الغداة وطلعت الشمس ، فأمر فكشف عنه جلابيبه ، فلما نظر إلى ياقوته وزَبرجَده وذهبه الأصفر وفضته البيضاء ـ بكى عمر ، فقال له عبد الرحمن : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله إنّ هذا لموطنُ شكر ، فقال عمر : والله ما ذاك يُبكينى ، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسَدوا إلا أُلقى بأسُهم بينهم ثم قسمه كما قسم أموال القادسية .

(١) أى أعطى تطوعا . والنافلة : عطية التطوع ، والنفل ـ بفتحتين ـ الغنيمة ، والجمع أنفال .

وروى سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا : وكان فتح جلولاء فى ذى القعدة من سنة ستة عشر ، وكان بينه وبين فتح المدائن تسعة أشهر. وقد تكلم ابن جرير ههنا فيما رواه عن سيف على ما يتعلق بأرض السواد وخراجها ، وموضع تحرير ذلك كتاب الأحكام .

وقد قال هاشم ابن عتبة فى يوم جلولاء :

يومُ جَلولاء ويومُ رُستمٍ ويومُ زَحفُ الكوفة المقدَّم
ويومُ عِرض الشهر المحرَّمْ وأيام خَلَتْ من بينهن صُرَّم
شيَّبن أصداغى فهنّ هرَّم مثــل ثَغام البلد المحرَّم

وقال أبو بُجيد فى ذلك :

ويوم جلولاء الوقيعة أصبحَتْ كتائبنا تَرْدى بأسدٍ عوابسِ
فضضْت جموع الفرس ثم أنمتهم فتبًّا لأجساد المجوس النجائس
وأفلتهنّ الفيْرُزانُ بجرعةٍ ومِهْران أردَت يوم حزّ القوانس
أقاموا بدار للمنية موعدٍ وللترْب تحثوها خَجوجُ الروامِس

ذكر فتح حلوان(١)

ولما انقضت الوقعة أقام هشام بن عتبة بجلولاء عن أمر عمر بن الخطاب ـ فى كتابه إلى سعد ـ وتقدم القَعقاع بن عمرو إلى حُلوان ، عن أمر عمر أيضاً ليكون ردءاً المسلمين هنالك ، ومرابطاً لكسرى حيث هَرب وسار كما قدمنا ، وأدرك أمير الوقعة ـ وهو مِهران الرازى ، فقتله وهرب منه الفَيرزان ، فلما وصل إلى كسرى وأخبره بما كان من أمر جلولاء ، وما جرى على الفرس بعده ، وكيف قتل منهم مائة ألف ، وأدرك مِهران فقتل ـ هرب عند ذلك كسرى من حلوان إلى الرى ، واستناب على حلوان أميراً يقال له «خُسْرَ وَشنوم» فتقدم إليه القعقاع بن عمرو ، وبرز إليه خُسْرَ وَشنوم إلى مكان خاج من حلوان ، فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً . ثم فتح الله ونصر المسلمين وانهزم خُسْرَ وَشنوم ، وساق القعقاع إلى حلوان فتسلمها ، ودخلها المسلمون فغنموا وسبوا ، وأقاموا بها ، وضربوا الجزية على من حولها من الكُوَر والأقاليم ، بعد مادعوا إلى الدخول فى الإسلام فأبَوا إلا الجزية . فلم يزل القعقاع بها حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة ، فسار إليها كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) كانت مدينة كبيرة عامرة فى آخر حدود السواد مما يلى العراق من بغداد .

فتح تكريت والموصل[1]

لما افتتح سعد المدائن ، بلغه أنّ أهل الموصل قد اجتمعوا بتكريت على رجل من الكفرة يقال له: الأنطاق ، فكتب إلى عمر بأمر جلولاء واجتماع الفرس بها ، وبأمر أهل الموصل، فتقدم ماذكرناه من كتاب عُمرَ فى أهل جَلُولاء ، وما كان من أمرها. وكتب عمر فى قضية أهل الموصل الذين قد اجتمعوا بتكريت على الأنطاق ـ أن يعين جيشاً لحربهم، ويؤمّر عليه عبدالله بن المُعْتَم، وأن يجعل على مقدمته ربعىّ بن الأفكل العَنَزِىّ، وعلى الميمنة الحارث بن حسان الذّهلىّ ، وعلى الميسرة فرات بن حَيان العِجْلى ، وعلى الساقة هانىء بن قَيس ، وعلى الخيل عَرْفجة بن هَرْثمة .
فنصل عبدالله ابن المعتم فى خمسة آلاف من المدائن ، فسار فى أربع حتى نزل بتكريت على الأنطاق ، وقد اجتمع إليه جماعة من الروم ، ومن الشّهارجة ، ومن نصارى العرب ؛ من إياد وتغلب والنّمر . وقد أحدقوا بتكريت ، فحاصرهم عبد الله بن المعتم أربعين يوماً . وزاحفوه فى هذه المدة أربعة وعشرين مرة ، ما من مرّة إلا وينتصر عليهم ويفل جموعهم ، فضعف جانبهم ، وعزمت الروم على الذهاب فى السفن بأموالهم ، وراسل عبد الله بن المعتم إلى من هنالك من الأعراب ، فدعاهم إلى الدخول معه فى النصرة على أهل البلد ، فجاءت القصاد إليه عنهم بالإجابة إلى ذلك .

فأرسل إليهم : إن كنتم صادقين فيما قلتم فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقروا بما جاء من عند الله فرجعت القصاد إليه بأنهم قد أسلموا . فبعث إليهم : إن كنتم صادقين فإذا كبرنا وحملنا على البلد الليلة فأمسكوا علينا أبواب السفن ، وامنعوهم أن يركبوا فيها ، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله . ثم شد عبدالله وأصحابه ، وكبّروا تكبيرة رجل واحد ، وحملوا على البلد فكبرت الأعراب من الناحية الأخرى ، فحار أهل البلد ، وأخذوا فى الخروج من الأبواب التى تلى دِجلة ، فتلقتهم إياد والنمر وتغلب، فقتلوهم قتلا ذريعاً . وجاء عبد الله ابن المعتم بأصحابه من الأبواب الأخَر ، فقتل جميع أهل البلد عن بكرة أبيهم ، ولم يسلم إلا من أسلم من الأعراب؛ من إياد وتغلب والنمر ،وقد كان عمر عهد فى كتابه إذا نصروا على تكريت ـ أن يبعثوا ربعىّ بن الأفكل إلى الحِصْنَين ـ وهى الموصل ـ سريعاً ، فسار إليها كما أمر عمر ، ومعه سرية كثيرة ، وجماعة من الأبطال، فسار إليها حتى فجئها قبل وصول الأخبار إليها، فما كان إلا أن واقفها حتى أجابوا إلى الصلح ، فضربت عليهم الذمة عن يدوهم صاغرون . ثم قسمت الأموال التى

---

(١) الموصل : مدينة على طرف دجلة ، ويقابلها من الجانب الشرقى نينوى وهى من المدائن الإسلامية الكبرى .

محصلات من تكريت[1] ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف ، وسهم الراجل ألف درهم . وبعثوا بالأخماس مع فُرات بن حيّان ، وبالفتح مع الحارث بن حسان ، وولى إمرة حرب الموصل - ربعى ابن الأفكل ، وولى الخراج بها - عرفجة بن هرثمة .

فتح ماسبذان[2] من أرض العراق

لما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى عمر بالمدائن ، بلغ سعداً أن آذين بن الهرمزان قد جمع طائفة من الفرس ، فكتب إلى عمر فى ذلك ، فكتب إليه : أن ابعث جيشاً وأمّر عليهم ضرار بن الخطاب فخرج ضرار فى جيش من المدائن ، وعلى مقدّمته ابن الهزيل الأسدى ، فتقدم ابن الهزَيل بين يدى الجيش ، فالتقى مع آذين وأصحابه قبل وصول ضرار إليه ، فكسر ابنُ الهزَيل طائفة الفرس ، وأسرَ آذين بن الهرمزان ، وفرّ عنه أصحابه ، وأمر ابن الهزَيل فضُرب عنق آذين بين يديه ، وساق وراء المنهزمين حتى انتهى إلى ما سبذان - وهى مدينة كبيرة - فأخذها عنوة ، وهرب أهلها فى رءوس الجبال والشعاب ، فدعاهم فاستجابوا له ، وضرب على من لم يسلم الجزية ، وأقام نائباً عليها حتى تحول سعد من المدائن إلى الكوفة ، كما سيأتى .

فتح قرقيسياء[3] وهيت فى هذه السنة

قال ابن جرير وغيره : لما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن ، وكان أهل الجزيرة قد أمدّوا أهل حمص على قتال أبى عبيدة وخالد - لما كان هرقل بقنسرين - واجتمع أهل الجزيرة فى مدينة هيت ، كتب سعد إلى عمر فى ذلك ، فكتب إليه أن يبعث إليهم جيشاً ، وأن يؤمّر عليهم عُمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف ، فسار فيمن معه من المسلمين إلى هيت ، فوجدهم قد خندقوا عليهم ، فحاصرهم حيناً فلم يظفر بهم ، فسار فى طائفة من أصحابه واستخلف على محاصرة هيت - الحارث بن يزيد ، فراح عُمر بن مالك إلى قرقيسياء فأخذها عنوة ، وأنابوا إلى بذل الجزية ، وكتب إلى نائبه على هيت - إن لم يصالحوا - أن يحفر من وراء خندقهم خندقا ، ويجعل له أبوابا من ناحيته فلما بلغهم ذلك أنابوا إلى المصالحة .

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ الذهبى : وفى هذه السنة بعث أبو عبيدة عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنسرين فصالح أهل حلب ، ومَنبِج ، وأنطاكيّة - على الجزية . وفتح سائر بلاد قنسرين عنوة . قال : وفيها افتتحت سَروج والرُّها على يدى عياض بن غُنم .

(١) قلعة من أعمال العراق (٢) ماسبذان : كورة بها عدة مدن ، يمر عليها القاصد إلى همذان

(٣) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور ، وهيت : بلد على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار

قال : وفيها - فيما ذكر ابن الكلبي - سار أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد ، فحاصر إيلياء، فسألوا الصلح على أن تقدم عمر فيصالحهم على ذلك ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر فقدم حتى صالحهم وأقام أياماً ثم رجع إلى المدينة . قلت : قد تقدم هذا فيما قبل هذه السنة، والله أعلم .

قال الواقدي : وفي هذه السنة حمى عمر الربذة لخيل المسلمين ، وفيها غرّب عمر أبا محجن الثقفي إلى باضع[1] وفيها تزوج عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد قلت : الذي قتل يوم الجسر ، وكان أمير السرية ، وهي أخت المختار بن أبي عبيد أمير العراق فيما بعد ، وكانت امرأة صالحة ، وكان أخوها فاجراً وكافراً أيضاً . قال الواقدي : وفيها حج عمر بالناس ، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت . قال : وكان نائبه على مكة عتاب ، وعلى الشام أبو عبيدة ، وعلى العراق سعد ، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص ، وعلى اليمن يعلى بن أمية . وعلى اليمامة والبحرين العلاء ابن الحضرمي ، وعلى عمان حذيفة بن محصن ، وعلى البصرة المغيرة بن شعبة ، وعلى الموصل ربعي ابن الأفكل ، وعلى الجزيرة عياض بن غنم الأشعري .

قال الواقدي . وفي ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة ست عشرة - كتب عمر بن الخطاب التاريخ ، وهو أول من كتبه قلت : قد ذكرنا سببه في سيرة عمر ، وذلك أنه رفع إلى عمر صك مكتوب لرجل على آخر بدين يحل عليه في شعبان، فقال : أي شعبان ؟ أمن هذه السنة؟ أم التي قبلها ؟ أم التي بعدها ؟ ثم جمع الناس فقال : ضعوا للناس شيئاً يعرفون فيه حلول ديونهم . فيقال : إن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده ، فكرهوا ذلك ومنهم من قال : أرخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك . ولطوله أيضاً . وقال قائلون أرخوا من مولد رسول الله ﷺ ، وقال آخرون من مبعثه عليه السلام ، وأشار على بن أبي طالب وآخرون أن يؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة ، لظهوره لكل أحد ؛ فإنه أظهر من المولد والمبعث . فاستحسن ذلك عمر والصحابة ، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ ، وأرخوا من أول تلك السنة - من محرمها .

وعند مالك - رحمه الله - فيما حكاه عن السهيلي وغيره ، أن أول السنة من ربيع الأول لقدومه عليه السلام إلى المدينة والجمهور على أن أول السنة من المحرم ؛ لأنه أضبط لئلا تختلف الشهور ، فإن المحرم أول السنة الهلالية العربية .

وفي هذه السنة - أعني سنة ست عشرة - توفيت مارية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وذلك في المحرم منها، فيما ذكره الواقدي وابن جرير وغير واحد . وصلى عليها عمر بن الخطاب ، وكان يجمع الناس لشهود جنازتها ، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها ، وهي مارية القبطية ،

(١) باضع : عين أو جزيرة بساحل اليمن ، وحكاية نفيه معروفة وقد تقدمت .

أهداها صاحب اسكندرية ـ وهو جريج بن مينا ـ في جملة تحف وهدايا لرسول الله ﷺ ، فقبل ذلك منه ، وكان معها أختها شيرين التي وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان . ويقال : أهدى المقوقس معهما جاريتين أخريين ، فيحتمل أنهما كانتا خادمتين لمارية وشيرين . وأهدى معهن غلاماً خصياً اسمه « مابور » ، وأهدى مع ذلك بغلة شهباء اسمها الدُّلدُل ، وأهدى حُلّة حرير من عمل الاسكندرية . وكان قدوم هذه الهدية في سنة ثمان . فحملت مارية من رسول الله ﷺ بإبراهيم عليه السلام ، فعاش عشرين شهراً ، ومات قبل أبيه رسول الله ﷺ بسنة سواء . وقد حزن عليه رسول الله ﷺ وبكى عليه وقال : تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، وقد تقدم ذلك في سنة عشر . وكانت مارية هذه من الصالحات الخيرات الحسان . وقد حظيت عند رسول الله ﷺ وأعجب بها ، وكانت جميلة ملاحة ـ أي حلوة ، وهي تشابه هاجر سرية الخليل ؛ فإن كلا منهما من ديار مصر ، وتسراها نبي كريم ، وخليل جليل ، عليهما السلام .

ثم دخلت سنة سبع عشرة

في المحرم منها انتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن إلى الكوفة ، وذلك أن الصحابة استوخموا المدائن ، وتغيرت ألوانهم ، وضعفت أبدانهم ، لكثرة ذبابها وغبارها ، فكتب سعد إلى عمر في ذلك ، فكتب عمر : إن العرب لا تصلح إلا حيث يوافق إبلها . فبعث سعد حُذيفة وسلمان بن زياد يرتادان المسلمين منزلا مناسباً يصلح لإقامتهم . فمرا على أرض الكوفة ـ وهي حَصباء في رملة حمراء ، فأعجبتهما ووجدا هنالك ديرات ثلاث : دير حُرقة بنت النعمان ، ودير أم عمرو ، ودير سلسلة ، وبين ذلك خصاص خلال هذه الكوفة ، فنزلا فصلّيا هنالك ، وقال كل واحد منهما : اللهم ربّ السماء وما أظلّت ، وربّ الأرض وما أقلّت ، ورب الريح وما ذرت ، والنجوم وما هَوت ، والبحار وما جَرت ، والشياطين وما أضلّت ، والخصاص وما أجنّت ؛ بارك لنا في هذه الكوفة واجعلها منزل ثبات . ثم كتبا إلى سعد بالخبر ، فأمر سعد باختطاط الكوفة ، وسار إليها في أول هذه السنة في محرّمها ، فكان أول بناء وضع فيها المسجد .

وأمر سعد رجلا رامياً شديد الرمي ، فرمى من المسجد إلى الأربع جهات ، فحيث سقط سهمه بنى الناس منازلهم ، وعمّر قصراً تلقاء محراب المسجد للإمارة وبيت المال ، فكان أول ما بنوا المنازل بالقَصب ، فاحترقت في أثناء السنة ، فبنوها باللبن عن أمر عمر ، بشرط أن لا يسرفوا ولا يجاوزوا الحد . وبعث سعد إلى الأمراء والقبائل فقدموا عليه ، فأنزلهم الكوفة ، وأمر سعد أبا هَيّاج الموكل بإنزال الناس فيها ـ بأن يعمروا ويدَعوا للطريق المنهج وسْعَ أربعين ذراعاً .

والساكون ذلك ثلاثين وعشرين ذراعاً ، وللأزقة سبعة أذرع . وبنى لسعد قصر قريب من السوق ، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً من الحديث ، فكان يغلق بابه ويقول : سكّن عنى الصويت ، فلما بلغت هذه الكلمة عمر بن الخطاب بعث محمد بن مسلمة ، فأمره إذا انتهى إلى الكوفة أن يقدح زناده ويجمع حطباً ويحرق باب القصر ثم يرجع من فوره . فلما انتهى إلى الكوفة فعل ما أمره به عمر ، وأمر سعداً أن لا يغلق بابه عن الناس ، ولا يجعل على بابه أحداً يمنع الناس عنه ، فامتثل ذلك سعد وعرض على محمد بن مسلمة شيئاً من المال فامتنع من قبوله ، ورجع إلى المدينة ، واستمر سعد بعد ذلك فى الكوفة ثلاث سنين ونصف ، حتى عزله عنها عمر ، من غير عجز ولا خيانة .

قصة أبى عبيدة وحصر الروم له بحمص

وقدوم عمر إلى الشام أيضاً لينصره

وذلك أن جمعاً من الروم عزموا على حصار أبى عُبيدة بحمص ، واستجاشوا[1] بأهل الجزيرة ، وخلق ممن هنالك ، وقصدوا أبا عبيدة ، فبعث أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قنسرين ، وكتب إلى عمر بذلك ، واستشار أبو عبيدة المسلمين فى أن يناجز الروم أو يتحصن بالبلد حتى يجىء أمر عمر ؟ فكلهم أشار بالتحصن ، إلا خالداً فإنه أشار بمناجزتهم ، فعصاه وأطاعهم . وتحصّن بحمص ، وأحاط به الروم ، وكل بلد من بلدان الشام مشغول أهله عنه بأمرهم ، ولو تركوا ما هم فيه وأقبلوا إلى حمص لانخرم النظام فى الشام كله . وكتب عمر إلى سعد أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، ويسيرهم إلى حمص من يوم يقدم عليه الكتاب ؛ نجدةً لأبى عبيدة فإنه محصور ، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبى عبيدة ، ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غنم . فخرج الجيشان معاً من الكوفة ؛ القعقاع فى أربعة آلاف نحو حمص لنجدة أبى عبيدة ، وخرج عمر بنفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة ، فبلغ الجابية وقيل إنما بلغ سرغ . قاله ابن إسحاق ، وهو أشبه والله أعلم . فلما بلغ أهل الجزيرة الذين مع الروم على حمص أن الجيش قد طرق بلادهم ، انشمروا[2] إلى بلادهم ، وفارقوا الروم ، وسمعت الروم بقدوم أمير المؤمنين عمر لينصر نائبه عليهم فضعف جانبهم جداً . وأشار خالد على أبى عبيدة بأن يبرز إليهم ليقاتلهم ، ففعل ذلك أبو عبيدة ، ففتح الله عليه ونصره ، وهزمت الروم هزيمة فظيعة وذلك قبل ورود عمر عليهم ، وقبل وصول الأمداد إليهم بثلاث

---

(١) أى استعانوا . واستجاشه طلب منه جيشا (٢) أى ذهبوا . وانشمر مر جادا أو مختالا

ليال . فكتب أبو عبيدة إلى عمر وهو بالجابية يخبره بالفتح ، وأن المدد وصل إليهم بعد ثلاث ليال ، وسأله هل يدخلهم في القسم معهم مما أفاء الله عليهم ؟ فجاء الجواب ـ بأن يدخلهم معهم في الغنيمة ، فإن العدو إنما ضعف وإنما انشمر عنه المدد ـ من خوفهم منهم ، فأشركهم أبو عبيدة في الغنيمة . وقال عمر : جزى الله أهل الكوفة خيراً ، يحمون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار .

فتح الجزيرة

قال ابن جرير : وفي هذه السنة فتحت الجزائر فيما قاله سيف بن عمر ، قال ابن جرير : في ذي الحجة من سنة سبع عشرة ، فوافق سيف بن عمر في كونها في هذه السنة . وقال ابن إسحاق : كان ذلك في سنة تسع عشرة ؛ سار إليها عياض بن غنم ، وفي صحبته أبو موسى الأشعري وعمر ابن سعد بن أبي وقاص ، وهو غلام صغير السن ليس إليه من الأمر شيء ، وعثمان بن أبي العاص . فنزل الرُّها فصالحه أهلها على الجزية ، وصالحت حرّان على ذلك . ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين ، وعمر بن سعد إلى رأس العين ، وسار بنفسه إلى دارا ، فافتتحت هذه البلدان . وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية ، فكان عندها شيء من قتال ؛ قتل فيه صفوان بن المعطّل السلمي شهيداً . ثم صالحهم عثمان بن أبي العاص على الجزية ، على كل أهل بيت دينار .

وقال سيف في روايته : جاء عبد الله بن عبد الله بن غسّان، فسلك على رجليه حتى انتهى إلى الموصل، فعبر إلى بلد حتى انتهى إلى نصيبين . فلقوه بالصلح وصنعوا كما صنع أهل الرّقة . وبعث إلى عمر برءوس النصارى من عرب أهل الجزيرة ، فقال لهم عمر : أدوا الجزية . فقالوا : أبلغنا مأمننا، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم ، والله لتفضحنا من بين العرب . فقال لهم : أنتم فضحتم أنفسكم ، وخالفتم أمتكم ، ووالله لتؤدن الجزية وأنتم صَغَرة قمأة[1] ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ، ثم لأسبينكم . قالوا : فخذ منا شيئاً ولا تسميه جزية . فقال : أما نحن فنسميه جزية . وأما أنتم فسموه ما شئتم . فقال له علي بن أبي طالب : ألم يضعف عليهم سعد الصدقة ؟ قال : بلى ، وأصغى إليه ورضي به منهم

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ، فوصل إلى سَرْغ[2] في قول محمد بن إسحاق ، وقال سيف : وصل إلى الجابية . قلت : والأشهر أنه وصل سَرْغ ،

(١) قمأ ـ كجمع وكرم : ذل وصغر ، والقميء : الذليل الحقير

(٢) سرغ : بلد أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك

وقد تلقاه أمراء الأجناد : أبو عبيدة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وخالد بن الوليد[1] ، إلى سَرغ فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فمن قائل يقول : أنت قد جئت لأمر فلا ترجع عنه . ومن قائل يقول : لا نرى أن تقدم بوجوه أصحاب رسول الله ﷺ على هذ الوباء . فيقال: إنّ عمر أمر الناس بالرجوع من الغد فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ قال : نعم ! نفرُّ من قَدَر الله إلى قَدر الله ، أرأيت لو هبطت وادياً ذا عُدوَتين، إحداهما مُخصبة والأخرى مُجدبة، فإن رعَيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن أنت رعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله . ثم قال : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة .

قال ابن إسحاق فى روايته – وهو فى صحيح البخارى : وكان عبد الرحمن بن عوف متغيباً فى بعض شأنه ، فلما قدم قال : إنّ عندى من ذلك علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه فحمدالله عمر – يعنى لكونه وافق رأيه – ورجع بالناس . وقال الإمام أحمد : ثنا وكيع ثنا سفيان بن حسين ابن أبى ثابت عن ابراهيم بن سعد ، عن سعد بن مالك بن أبى وقاص ، وخزيمة بن ثابت وأسامة ابن زيد قالوا : قال رسول الله ﷺ : « إنّ هذا الطاعون رِجز وبقية عذاب عذّب بهقوم قبلكم، فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه » ورواه الإمام أحمد أيضاً من حديث سعيد بن المسيب ويحيى بن سعيد، عن سعد بن أبى وقاص به. قال سيف بن عمر : كان الوباء قد وقع بالشام فى المحرم من هذه السنة ثم ارتفع ، وكأن سيفاً يعتقد أن هذا الوباء هو طاعون عمواس ، الذى هلك فيه خلق من الأمراء ووجوه المسلمين . وليس الأمر كما زعم ، بل طاعون عمواس من السنة المستقبلة بعد هذه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى . وذكر سيف بن عمر ، أن أمير المؤمنين عمر كان قد عزم على أن يطوف البلدان ، ويزور الأمراء ، وينظر فيما اعتمدوه وما آثروا من الخير ، فاختلف عليه الصحابة ؛ فمن قائل يقول: ابدأ بالعراق، ومن قائل يقول بالشام ، فعزم عمر على قدوم الشام لأجل قسم مواريث من مات من المسلمين فى طاعون عَمواس ؛ فإنه أشكل قَسمها على المسلمين بالشام ، فعزم على ذلك وهذا يقتضى أن عمر عزم على قدوم الشام بعد طاعون عمواس ، وقد كان الطاعون فى سنة ثمانى عشرة كما سيأتى ، فهو قدوم آخر غير قدوم سرغ . والله أعلم .

قال سيف، عن أبى عثمان وأبى حارثة والربيع بن النعمان ، قالوا : قال عمر : ضاعت مواريث الناس بالشام أبدأ بها فأقسم المواريث وأقيم لهم ما فى نفسى ، ثم أرجع فأتقلّب فى البلاد وأنبذ إليهم أمرى . قالوا : فأتى عمر الشام أربعَ مرات ، مرتين فى سنة ست عشرة ، ومرتين فى سنة

(١) فى الطبرى : وشرحبيل بن حسنة – بدل خالد بن الوليد .

سبع عشرة ، ولم يدخلها فى الأولى من الآخرتين وهذا يقتضى ما ذكرناه عن سيف أنه يقول بكون طاعون عمواس فى سنة سبع عشرة . وقد خالفه محمد بن إسحاق وأبو معشر وغير واحد ، فذهبوا إلى أنه كان فى سنة ثمانى عشرة . وفيه توفى أبو عبيدة ، ومعاذ ، ويزيد بن أبى سفيان ، وغيرهم من الأعيان ، على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى .

ذكر شيء من أخبار طاعون عمواس[1]

الذى توفى فيه أبو عبيدة ، ومعاذ ، ويزيد بن أبى سفيان ، وغيرهم من أشراف الصحابة وغيرهم . أورده ابن جرير فى هذه السنة .

قال محمد بن إسحاق عن شعبة عن المختار بن عبد الله البجلى عن طارق بن شهاب البجلى . قال : أتينا أبا موسى وهو فى داره بالكوفة لنتحدث عنده ، فلما جلسنا قال : لا تخفّوا فقد أصيب فى الدار إنسان بهذا السقم ، ولا عليكم أن تتنزّهوا عن هذه القرية ، فتخرجوا فى فسيح بلادكم ونزهها ، حتى يرتفع هذا البلاء ، فإنى سأخبركم بما يكره مما يتقى من ذلك أن يظن مَنْ خرج أنه لو أقام مات ، ويظن من أقام فأصابه ذلك لو أنه خرج لم يصبه ، فإذا لم يظنّ ذلك هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج ، وأن يتنزه عنه ، إنى كنت مع أبى عبيدة بن الجراح بالشام ، عام طاعون عَمَواس ، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر ، كتب إلى أبى عبيدة ليستخرجه منه : أن سلام عليك ، أما بعد : فإنه قد عَرَضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألاّ تضعه من يدك حتى تقبل إلىّ ، قال : فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء . فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين ، ثم كتب إليه : يا أمير المؤمنين إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فخلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعنى فى جندى .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟ قال : لا ، وكأن قد . قال : ثم كتب إليه : « سلام عليك ، أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضا غميقة[2] فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » قال أبو موسى : فلما أتاه كتابه دعانى ، فقال : يا أبا موسى ،

---

(١) عَمواس ـ ضبطه ياقوت بفتحات ، ورواه الزمخشرى بفتح أوله وسكون ثانية

(٢) فى الطبرى : عمقه ـ بالغين ـ من الغمق ـ وهو فساد الريح وخمومها .

إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءنى بما ترى فاخرج فارتَدْ للناس منزلا حتى أتبعك بهم ، فرجعت إلى منزلى لأرتحل ، فوجدت صاحبتى قد أصيبت ، فرجعتُ إليه وقلتُ : والله لقد كان فى أهلى حَدَث . فقال : لعل صاحبتك قد أصيبت ! قلت : نعم ، فأمر ببعيره فرحِل له ، فلما وضع رجله فى غَرْزِه طُعن ، فقال : والله لقد أُصِبْت ، ثم سار بالناس حتى نزل الجابية ورُفع عن الناس الوباء .

وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح عن شهر بن حوشب عن رابة ـ رجل من قومه ـ وكان قد خلّف على أمه بعد أبيه ، وكان قد شهد طاعون عمواس . قال : لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة فى الناس خطيباً فقال : أيُّها الناس ، إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه ، فطُعن فمات ، واستُخلف على الناس مُعاذ بن جبل ، فقام خطيبا بعده . فقال : أيها الناس ، إنّ هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإنّ معاذا يسأل الله تعالى أن يُقسم لآل مُعاذ حظهم ، فطُعن ابنه عبد الرحمن فمات . ثم قام فدعا لنفسه فطُعن فى راحته، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقُلب[1] ظهر كفه ثم يقول : ما أُحِبُّ أنّ لى بما فيك شيئاً من الدنيا . فلما مات استُخلف على الناس عمرو بن العاص ، فقام فيهم خطيباً فقال: أيها الناس ، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار ، فتحصّنوا منه فى الجبال . فقال أبو واثلة الهُذَلى : كذبت ، والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شرٌّ من حمارى هذا ! فقال : والله ما أردّ عليك ماتقول ، وأيمُ الله لانقيم عليه . قال : ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفعه الله عنهم . قال : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأى عمرو بن العاص فوالله ما كرهه . قال ابن إسحاق : ولما انتهى إلى عمر مصاب أبى عبيدة ، ويزيد بن أبى سفيان ، أمّرَ معاوية على جند دمشق وخراجها ، وأمّر شرحبيل بن حَسَنة على جُند الأردن وخراجها.

وقال سيف بن عمر عن شيوخه، قال : لما كان طاعون عمواس وقع مرتين لم ير مثلهما وطال مكثه ، وفنى خلق كثير من الناس ، حتى طمِع العدو ،وتخوّفت قلوب المسلمين لذلك .

قلت : ولهذا قدم عمر بعد ذلك إلى الشام ، فقسم مواريث الذين ماتوا لما أشكل أمرها على الأمراء ، وطابت قلوب الناس بقدومه ، وانقمعت الأعداء من كل جانب لمجيئه إلى الشام ولله الحمد والمنة .

وقال سيف ـ بعد ذكره قدوم عمر بعد طاعون عمواس فى آخر سنة سبع عشرة ، قال : فلما أراد القفول إلى المدينة فى ذى الحجة منها . خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا إنى قد

---

(١) فى الطبرى : يقبل .

وليت عليكم وقضيت الذى علىّ فى الذى ولاّنى الله من أمركم إن شاء الله ، قسطنا بينكم فيأكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا كم ما لدينا ، فجندنا لكم الجنود ، وهيأنا لكم الفروج ، وبوأنا لكم ، ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم وما قاتلتم عليه من شأمكم ، وسمينا لكم أطماعكم ، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم[1] فمن علم شيئاً ينبغى العمل به فليعلمنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله قال : وحضرت الصلاة فقال الناس : لو أمرت بلالا فأذن ! فأمره فأذن ، فلم يبق أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بل لحيته ، وعمر أشدهم بكاء ، وبكى من لم يدركه ببكائهم ولذكره ﷺ .

وذكر ابن جرير فى هذه السنة من طريق سيف بن عمر عن أبى المجالد ، أن عمر بن الخطاب بعث يتنكر على خالد بن الوليد فى دخوله إلى الحمام ، وتدلكه بعد النورة بعصفر معجون بخمر ، فقال فى كتابه : إن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ، كما حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الخمر فلا تمسوها أجسامكم فإنها نجس ، فإن فعلتم فلا تعودوا . فكتب إليه خالد : إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر . فكتب إليه عمر : إنى أظن أن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء ، فلا أماتكم الله عليه ، فانتهى إليه لذلك .

قال سيف : وأصاب أهل البصرة تلك السنة طاعون أيضاً ، فمات بشر كثير وجم غفير ، رحمهم الله ورضى الله عنهم أجمعين قالوا : وخرج الحارث بن هشام فى سبعين من أهله إلى الشام فلم يرجع منهم إلا أربعة . فقال المهاجر بن خالد فى ذلك

من يسكن الشام يعرّس به والشام إن لم يفننا كارب
أفنى بنى ريطة فرسانهم عشرون لم يقصص لهم شارب
ومن بنى أعمامهم مثلهم لمثل هذا يعجب العاجب
طعناً وطاعوناً منايا هُمُ ذلك ما خط لنا الكاتب

كائنة غريبة فيها عزل خالد عن قنسرين أيضاً

قال ابن جرير: وفى هذه السنة أدرب خالد بن الوليد وعياض بن غنم . أى سلكا درب الروم وأغارا عليهم ، فغنموا أموالا عظيمة وسبياً كثيراً . ثم روى من طريق سيف عن أبى عثمان وأبى حارثة والربيع وأبى المجالد ، قالوا : لما رجع خالد ومعه أموال جزيلة من الصائفة[2] ، انتجعه الناس يبتغون رفده ونائله ، فكان ممن دخل عليه الأشعث بن قيس ، فأجازه بعشرة آلاف : فلما بلغ عمر كتب إلى أبى عبيدة يأمره أن يقيم خالداً ويكشف عمامته ، وينزع عنه قلنسوته ، ويقيده

(١) فى الطبرى : ومعاونكم .
(٢) الصائفة : غزوة الروم ؛ لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج .

بعمامته ويسأله عن هذه العشرة آلاف ، إن كان أجازها الأشعث من ماله فهو سَرَف ، وإن كان من مال الصائفة فهى خيانة، ثم اعزله عن عمله . فطلب أبو عبيدة خالداً وصعد أبو عبيدة المنبر ، وأقيم خالد بين يدى المنبر ، وقام إليه بلال ففعل ما أمر به عمر بن الخطاب هو والبريد الذى قدم بالكتاب . هذا وأبو عُبيدة ساكت لايتكلم، ثم نزل أبو عبيدة واعتذر إلى خالد مما كان بغير اختياره وإرادته ، فعذره خالد وعرف أنه لاقصد له فى ذلك . ثم سار خالد إلى قنسرين فخطب أهل البلد وودّعهم ، وسار بأهله إلى حمص فخطبهم أيضاً وودعهم، وسار إلى المدينة ، فلما دخل خالد على عمر أنشد عمر قول الشاعر :

صنعتَ فلم يصنعْ كصُنعِك صانعٌ   وما يَصنعُ الأقوامُ فاللهُ صانعُ

ثم سأله من أين هذا اليسار الذى تجيز منه بعشرة آلاف ؟ فقال : من الأنفال والسُّهمان . قال : فما زاد على الستين ألفاً فلك ، ثم قوّم أمواله وعُروضه وأخذ منه عشرين ألفاً ، ثم قال : يا خالد ، والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ، ولن تعمل لى بعد اليوم عَلَى شىء[1] .

وقال سيف ، عن عبدالله عن المستورد عن أبيه عن عدى بن سهل قال : كتب عمر إلى الأمصار : إنى لم أعزل خالداً عن سُخْطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع . ثم رواه سيف عن مبشر عن سالم قال : لما قدم خالد على عُمر فذكر مثله . قال الواقدى : وفى هذه السنة اعتمر عمرُ فى رجب منها ، وعَمَرَ فى المسجد الحرام ، وأمر بتجديد أنصاب الحرَم ؛ أمر بذلك مَخْرَمة بن نوفل ، وَالأزهر بن عبد عوف ، وحُوَيطب بن عبدالعزّى ، وسعيد بن يربوع . قال الواقدى : وحدثنى كثير بن عبدالله المزنى عن أبيه عن جده قال : قدم عمر مكة فى عُمرة سنة سبع عشرة ، فمرّ فى الطريق فكلمه أهل المياه أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة ـ ولم يكن قبل ذلك بناء ـ فأذن لهم وشرط عليهم أنّ ابن السبيل أحق بالظل والماء .

قال الواقدى : وفيها تزوج عمر بأم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ودخل بها فى ذى القعدة . وقد ذكرنا فى سيرة عمر ومسنده ـ صفةَ تزويجه بها ، وأنه أمهرها أربعين ألفاً ، وقال : إنما تزوجتها لقول رسول الله ﷺ : « كلُّ سبب ونَسَب فإنه ينقطع يوم القيامة إلا سَبَبى ونسبى » قال : وفى هذه السنة ولّى عمر أبا موسى الأشعرى البصرة ، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة فى ربيع الأول ، فشهد عليه ـ فيما حدثنى معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب ـ أبو بكرة ، وشِبل بن مَعْبدالبجلى ، ونافع بنعبيد[2] ، وزياد . ثم ذكر الواقدى

---

(١) فى الطبرى : ومن تعاتبنى بعد اليوم على شىء .

(٢) فى الطبرى : نافع بن كلدة .

وسيف هذه القصة وملخصها : أن امرأة كان يقال لها أم جميل بنت الأفقم ، من نساء بنى عامر بن صعصعة ، ويقال من نساء بنى هلال وكان زوجها من ثقيف قد توفى عنها . وكانت تغشى نساء الأمراء والأشراف ، وكانت تدخل على بيت المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة ، وكانت دار المغيرة تجاه دار أبى بكرة ، وكان بينهما الطريق ، وفى دار أبى بكرة كوة تشرف على كوة فى دار المغيرة ، وكان لا يزال بين المغيرة وبين أبى بكرة شنآن . فبينما أبو بكرة فى داره وعنده جماعة يتحدثون فى العلية إذ فتحت الريح باب الكوة ، فقام أبو بكرة ليغلقها ، فإذا كوة المغيرة مفتوحة ، وإذا هو على صدر امرأة وبين رجليها وهو يجامعها ، فقال أبو بكرة لأصحابه : تعالوا فانظروا إلى أميركم يزنى بأم جميل . فقاموا فنظروا إليه وهو يجامع تلك المرأة ، فقالوا لأبى بكرة : ومن أين قلت إنها أم جميل ؟ ـ وكان رأساهما من الجانب الآخر ـ فقال : انتظروا . فلما فرغا قامت المرأة ، فقال أبو بكرة : هذه أم جميل ، فعرفوها فيما يظنون .

فلما خرج المغيرة ـ وقد اغتسل ـ ليصلى بالناس منعه أبو بكرة أن يتقدم . وكتبوا إلى عمر فى ذلك ، فولى عمر أبا موسى الأشعرى أميراً على البصرة ، وعزل المغيرة ، فسار إلى البصرة فنزل المربد . فقال المغيرة : والله ما جاء أبو موسى تاجراً ولا زائراً ولا جاء إلا أميراً . ثم قدم أبو موسى على الناس وناول المغيرة كتاباً من عمر هو أوجز كتاب ، فيه « أما بعد فإنه بلغنى نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم إليه ما فى يديك والعجل » وكتب إلى أهل البصرة : إنى قد وليت عليكم أبا موسى ليأخذ من قويكم لضعيفكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن دينكم ، وليجبى لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم . وأهدى المغيرة لأبى موسى جارية من مولدات الطائف تسمى عقيلة وقال : إنى رضيتها لك ـ وكانت فارهة[1] وارتحل المغيرة والذين شهدوا عليه ، وهم : أبو بكرة ، ونافع بن كلدة ، وزياد بن أمية ، وشبل بن معبد البجلى . فلما قدموا على عمر جمع بينهم وبين المغيرة . فقال المغيرة : سل هؤلاء الأعبد كيف رأونى ؟ مستقبلهم أو مستدبرهم ؟ وكيف رأوا المرأة وعرفوها ؟ فإن كانوا مستقبلىّ فكيف لم يستتروا ؟ أو مستدبرى فكيف استحلوا النظر فى منزلى على امرأتى ؟ والله ما أتيت إلا امرأتى وكانت تشبهها .

فبدأ عمر بأبى بكرة فشهد عليه أنه رآه بين رجلى أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة ، قال . كيف رأيتهما ؟ قال : مستدبرهما . قال : فكيف استبنت رأسها ؟ قال : تحاملت ثم دعا شبل بن معبد فشهد بمثل ذلك ، فقال استقبلتهما أم استدبرتهما ؟ قال : استقبلتهما . وشهد نافع بمثل شهادة أبى بكرة ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، قال : رأيته جالساً بين رجلى امرأة

(١) الفاره من الناس : المليح الحسن الوجه . ومن الدواب الجيد السير

فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان ، وأستين مكشوفتين ، وسمعت حفزاناً شديداً . قال : هل رأيت كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا . قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها . قال : فتنح
وَروى أن عمر رضى الله عنه كبّر عند ذلك ، ثم أمر بالثلاثة فجلدوا الحدّ ، وَهو يقرأ قوله تعالى : (فإذْ لَمْ يأتوا بالشُّهَداء فأولئك عندَ الله هم الـكاذِبون)[1] فقال المغيرة : اشفنى من الأعبد ، قال : اسكت أسكت الله فاك ، والله لو تمت الشهادة لرجمناك بأحجارك .

فتح الأهواز[2] ومناذر ونهر تيرى

قال ابن جرير : كان فى هذه السنة ، وقيل : فى سنة ست عشرة . ثم روى من طريق سيف عنّ شيوخه : أن الهرمزان كان قد تغلب على هذه الأقاليم ، وكان ممن فر يوم القادسية من الفرس ، فجهز أبو موسى من البصرة ، وعتبة بن غزْوان من الـكوفة جيشين لقتاله ، فنصرهم الله عليه ، وأخذوا منه مابين دجلة إلى دجيل ، وغنموا من جيشه ما أرادوا ، وقتلوا من أرادوا ، ثم صانعهم وطلب مصالحتهم عن بقية بلاده ، فشاوروا فى ذلك عُتبة بن غزوان فصالحه ، وبعث بالأخماس والبشارة إلى عمر ، وبعث وفداً فيهم الأحنف بن قيس ، فأعجب عمر به وحظى عنده . وكتب إلى عتبة يوصيه به ، ويأمره بمشاورته والاستعانة برأيه .

ثم نقض الهرمزان العهد والصلح ، واستعان بطائفة من الأكراد ، وغرّته نفسه ، وحسن له الشيطان عمله فى ذلك . فبرز إليه المسلمون فنصروا عليه ، وقتلوا من جيشه جمّاً غفيراً ، وخلقاً كثيراً ، وجمعاً عظيما ، واستلبوا منه مابيده من الأقاليم والبلدان إلى تُستَر ، فتحصن بها ، وبعثوا إلى عمر بذلك ، وقد قال الأسود بن سريع فى ذلك — وكان صحابياً رضى الله عنه — :

لَعَمْرُكَ ما أضاع بَنُو أبينا ... ولـكن حافَظوا فيمن يُطيعُ
أطاعوا رَبَّهم وعَصاه قومٌ ... أضاعوا أمرَه فيمن يُضيع
مَجُوسٌ لا يُنَهنِهُها كتاب ... فلاقوْا كَبَّة فيها قُبُوع
وولّى الهُرْمزان على جَوادٍ ... سريع الشَّدّ يَثْفِنه الجميعُ
وخلّى سُرّة الأهواز كَرْها ... غداةَ الجسْر إذ نجم الربيع

وقال حُرْقوص بن زهير السعدى وكان صحابياً أيضاً :

غلبْنا الهُرْمُزانَ على بلادٍ ... لها فى كلِّ ناحية ذَخائِرْ

---

(١) من الآية : ١٣ من سورة النور .

(٢) الأهواز : مجموع كورعدها ياقوت عشرا ، منها تستر ومناذر ونهر تيرى ، والسوس .

سـواء بَرُّهم والبَحْرُ فيها ... إذا صارت تَواجبُها بواكِرْ
لها بحر يَمِجّ بِجانِبَيْه ... جَمافِرُ لا يزال لهـا زَواخِرْ

فتح تستر المرة الأولى صلحا

قال ابن جرير : كان ذلك فى هذه السنة فى قول سيف وروايته . وقال غيره : فى سنة ست عشرة ، وقال غيره : كانت فى سنة تسع عشرة . ثم قال ابن جرير : [ذكْر الخبر عن فتحها] ، ثم ساق من طريق سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا : ولما افتتح حُرْقُوص بن زهير سوق الأهواز ، وفر الهرْمزان بين يديه ، بعث فى إثره جَزء بن معاوية — وذلك عن كتاب عمر بذلك — فما زال جزْء يتبعه حتى انتهى إلى رامَهُرمُز ، فتحصن الهرمزان فى بلادها ، وأعجز جزءاً تطلبه ، واستحوذ جزء على تلك البلاد والأقاليم والأراضى ، فضرب الجزية على أهلها ، وعَمَر عامرها ، وشق الأنهار إلى خرابها ومواتها ، فصارت فى غاية العمارة والجودة . ولما رأى الهرمزان ضيق بلاده عليه لمجاورة المسلمين ، طلب من جَزْء بن معاوية المصالحة ، فكتب إلى حُرْقوص ، فكتب حرقوص إلى عُتبة بن غَزوان ، وكتب عُتبة إلى عمر فى ذلك . فجاء الكتاب العمرى بالمصالحة على رامهُرمُز ، وتستر ، وجندى سابور ، ومدائن أخر مع ذلك ، فوقع الصلح على ذلك كما أمر به عمر رضى الله عنه .

ذكر غزو بلاد فارس من ناحية البحرين

(فيما حكاه ابن جرير عن سيف فى هذه السنة)

وذلك أن العلاء بن الحضرمى كان على البحرين فى أيام الصديق ، فلما كان عمر عَزله عنها وولاها لقدامة بن مظعون ثم أعاد العلاء بن الحضرمى إليها . وكان العلاء بن الحضرمى يبارى سعد بن أبى وقاص . فلما افتتح سعد القادسية ، وأزاح كسرى عن داره ، وأخذ حدود ما يلى السواد ، واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء بن الحضرمى من ناحية البحرين . فأحَبّ العلاء أن يفعل فعلا فى فارس نظير مافعله سعد فيهم ، فندب الناس إلى حربهم ، فاستجاب له أهل بلاده فجزّأهم أجزاء ، فعلى فرقة الجارود بن المعلّى ، وعلى الأخرى السوّار بن همّام ، وعلى الأخرى خُلَيد بن المنذر بن ساوى ، وخُلَيد هو أمير الجماعة . فحملهم فى البحر إلى فارس ، وذلك بغير إذن عمر له فى ذلك ـ وكان عمر يكره ذلك لأن رسول الله ﷺ وأبا بكر ما أغزيا فيه المسلمين ـ فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس ، فخرجوا من عند اصطَخر ، فحالت فارس بينهم وبين سفنهم ، فقام فى الناس خُلَيد بن المنذر فقال : أيها الناس إنما أراد هؤلاء القوم بصنيعهم هذا

محاربتكم ، وأنتم جئتم لمحاربتهم ، فاستعينوا بالله وقاتلوهم ، فإنما الأرض والسفن لمن غلب ، واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر ثم ناهدوهم[1] فاقتتلوا قتالا شديداً فى مكان من الأرض يدعى «طاوُس» ، ثم أمر خليد المسلمين فترجلوا وقاتلوا فصبروا ، ثم ظفروا فقتلوا فارس مقتلة لم يُقتَلوا قبلها مثلها . ثم خرجوا يريدون البصرة فغرقت بهم سفنهم ، ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلا ، ووجدوا «شَهْرَك» فى أهل اصطخر قد أخذوا على المسلمين بالطرق ، فعسكروا وامتنعوا من العدو .

ولما بلغ عمر بما صنع العلاء بن الحضرمى ، اشتد غضبه عليه ، وبعث إليه فعزله وتوعده ، وأمره بأثقل الأشياء عليه ، وأبغض الوجوه إليه فقال : الحق بسعد بن أبى وقاص ، فخرج العلاء بمن معه إلى سعد بن أبى وقاص مضافاً إليه ، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمى خرج بجيش فأقطعهم أهل فارس وعصانى ، وأظنه لم يرد الله بذلك ، فخشيت عليهم إلا يُنصروا ، أن يُغلَبوا و يَنشبوا ، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا . فندب عُتبة المسلمين وأخبرهم بكتاب عمر إليه فى ذلك ، فانتدب جماعة من الأمراء الأبطال . منهم : هاشم بن أبى وقاص ، وعاصم بن عمرو ، وعرفجة بن هَرْثمة ، وحذيفة بن محصن ، والأحنف بن قيس ، وغيرهم ـ فى اثنى عشر ألفاً . وعلى الجميع أبو سَبْرة بن أبى رُهْم فخرجوا على البغال يجنبون الخيل سراعاً ، فساروا على الساحل لا يلقون أحداً ، حتى انتهوا إلى موضع الوقعة التى كانت بين المسلمين من أصحاب العلاء ، وبين أهل فارس بالمكان المسمى بطاوُس ، وَإذا خُليد بن المنذر وَمن معه من المسلمين محصورون قد أحاط بهم العدوّ من كل جانب ، وقد تداعت عليهم تلك الأمم من كل وجه ، وقد تكاملت أمداد المشركين ، وَلم يبق إلا القتال .

فقدم المسلمون إليهم فى أحوج ما هم فيه إليهم ، فالتقوا مع المشركين رأساً ، فكسر أبو سَبْرة المشركين كسرة عظيمة ، وَقتل منهم مقتلة عظيمة جداً ، وَأخذ منهم أموالا جزيلة باهرة وَاستنقذ خُليداً وَمن معه من المسلمين من أيديهم ، وأعزّ به الإسلام وَأهله ، وَدفع الشرك وذله ولله الحمد والمنة . ثم عادوا إلى عُتبة بن غزوان إلى البصرة .

ولما استكمل عُتبة فتح تلك الناحية ، استأذن عمر فى الحج فأذن له ، فسار إلى الحج واستخلف على البصرة أبا سَبْرة بن أبى رُهم ، واجتمع بعمر فى الموسم ، وسأله أن يقيله فلم يفعل ، وأقسم عليه لترجعنّ إلى عملك . فدعا عتبة الله عز وجل فمات ببطن نخلة ، وهو مُنصرف من الحج ، فتأثر عليه عمر وأثنى عليه خيراً ، وولّى بعده بالبصرة المغيرة بن شعبة ، فوليها بقية تلك السنة والتى

(١) الناهدة : الناهضة فى الحرب .

تليها ، لم يقع فى زمانه حدث ، وكان مرزوقَ السلامة فى عمله . ثم وقع الكلام فى تلك المرأة من أبى بَكرة فكان من أمره ما قدمنا ثم بعث إليها أبا موسى الأشعرى واليا عليها رضى الله عنهم .

ذكر فتح تستر ثانية عنوة، والسوس، ورامهرمز، وأسر الهرمزان

وبعثه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قال ابن جرير : كان ذلك فى هذه السنة فى رواية سيف بن عمر التميْمى . وكان سبب ذلك: أن يزْدَجِرد كان يحرض أهل فارس فى كل وقت ، ويؤنبهم بملك العرب بلادهم ، وقصدهم إياهم فى حصونهم . فكتب إلى أهل الأهواز وأهل فارس ، فتحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين ، وأن يقصدوا البصرة وبلغ الخبر إلى عُمر ، فكتب إلى سعد ـ وهو بالكوفة ـ أن ابعث جيشاً كثيفاً إلى الأهواز مع النعمان بن مُقرّن وعجّل ، وليكونوا بإزاء الهرمزان ، وسمى رجالا من الشجعان الأعيان الأمراء يكونون فى هذا الجيش ، منهم : جرير بن عبد الله البَجَلى ، وجرير بن عبد الله الحِميرى ، والنعمان بن مقرّن ، وسويد بن مقرّن : وعبد الله بن ذى السهمين . وكتب عمر إلى أبى موسى ـ وهو بالبصرة ـ أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمّر عليهم سهيل بن عدىّ ، وليكن معه البراء بن مالك ، وعاصم بن عمرو ، ومجزأة بن ثور ، وكعب بن سور ، وعَرفجة بن هرثمة ، وحُذيفة بن محصن ، وعبد الرحمن بن سهل ، والحصين بن معبد . وليكن على أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً . أبو سَبْرة بن أبى رُهْم ، وعلى كل من أتاه من المدد .

قالوا : فسار النعمان بن مقرّن بجيش الكوفة فسبق البصريين، فانتهى إلى رامَهُرمُز وبها الهُرمُزان ، فخرج إليه الهرمزان فى جنده وتقض العهد بينه وبين المسلمين، فبادره طمعاً أن يقتطعه قبل مجىء أصحابه من أهل البصرة رجاء أن ينصر أهل فارس ، فالتقى معه النعمان بن مقرّن بأربُك فاقتتلا قتالا شديداً ، فهزم الهرمزان وفرّ إلى تُستَر ، وترك رامَهرمز فتسلمها النعمان عنوة وأخذ ما فيها من الحواصل والذخائر والسلاح والعدد . فلما وصل الخبر إلى أهل البصرة بما صنع الكوفيون بالهرمزان ، وأنه فرّ فلجأ إلى تَسْتَر ـ ساروا إليها ولحقهم أهل الكوفة حتى أحاطوا بها فحاصروها جميعاً ، وعلى الجميع أبو سَبْرة، فوجدوا الهرمزان قد حشد بها خلقاً كثيراً ، وجماً غفيراً . وكتبوا إلى عمر فى ذلك، وسألوه أن يمدهم، فكتب إلى أبى موسى أن يسير إليهم. فسار إليهم ـ وكان أمير أهل البصرة ـ واستمر أبو سَبْرة على الإمرة على جميع أهل الكوفة والبصرة ، فحاصرهم أشهراً وكثر القتل من الفريقين ، وقتل البَراء بن مالك ـ أخو أنس بن مالك يومئذ مائة مبارز، سوى مَن قتل غير ذلك ، وكذلك فعل كعب بن سُور ، ومجزأة بن ثَور ، وأبو تميمة وغيرهم من أهل البصرة وكذلك أهل الكوفة قتل منهم جماعة مائة مبارز ، كحبيب بن قُرّة ، وربعىّ بن عامر ، وعامر بن عبد الأسود وقد تزاحفوا أياماً متعددة ، حتى إذا كان فى آخر زحف

قال المسلمون للبراء بن مالك ـ وكان مجاب الدعوة ـ : يا براء ، أقسم على ربك ليهزمنهم لنا . فقال . اللهم اهزمهم لنا ، واستشهدنى ، قال : فهزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم ، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به ، وقد ضاقت بهم البلد ، وطلب رجل من أهل البلد الأمان من أبى موسى فأمّنه ، فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد ، وهو من مدخل الماء إليها .

فندب الأمراء الناس إلى ذلك ، فانتدب رجال من الشجعان والأبطال ، وجاؤا فدخلوا مع الماء ـ كالبط ـ إلى البلد ، وذلك فى الليل، فيقال: كان أولَّ من دخلها ـ عبد الله بن مغفل المزنى ، وجاؤا إلى البوابين فأناموهم وفتحوا الأبواب ، وكبر المسلمون فدخلوا البلد ، وذلك فى وقت الفجر إلى أن تعالى النهار ، ولم يُصلوا الصبح يومئذ إلا بعد طلوع الشمس ، كما حكاه البخارى عن أنس بن مالك قال : شهدت فتح تُستَر ، وذلك عند صلاة الفجر ، فاشتغل الناس بالفتح فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس ، فما أحب أن لى بتلك الصلاة حمر النعم . احتج بذلك البخارى لمكحول والأوزاعى فى ذهابهما إلى جواز تأخير الصلاة لعذر القتال . وجنح إليه البخارى، واستدل بقصة الخندق فى قوله عليه السلام: « شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً » ، وبقوله يوم بنى قريظة : « لا يُصَلِّين أحد منكم العصرَ إلاّ فى بنى قُريظة » فأخرها فريق من الناس إلى بعد غروب الشمس ، ولم يعنفهم ، وقد تكلمنا على ذلك فى غزوة الفتح .

والمقصود : أن الهرمزان لما فتحت البلد لجأ إلى القلعة ، فتبعه جماعة من الأبطال ممن ذكرنا وغيرهم ، فلما حصروه فى مكان من القلعة ولم يبق إلا تلافه أو تلافهم ، قال لهم بعد ما قتل البراء ابن مالك ومُجزأة بن ثور رحمهما الله : إن معى جَعْبة فيها مائة سهم ، وإنه لا يتقدم إلى أحد منكم إلا رَميتُه بسهم قتلته ، ولا يسقط لى سهم إلا فى رجل منكم ، فماذا ينفعكم إن أسرتمونى بعد ما قتلت منكم مائة رجل ؟ قالوا : فماذا تريد ؟ قال : تؤمّنونى حتى أسلمكم يدى، فتذهبوا بى إلى عمر بن الخطاب فيحكم فىّ بما يشاء . فأجابوه إلى ذلك فألقى قوسه ونُشّابه وأسروه فشدّوه وثاقاً وأرصدوه ليبعثوه إلى أمير المؤمنين عمر ، ثم تسلموا ما فى البلد من الأموال والحواصل، فاقتسموا أربعة أخماسه ، فنال كل فارس ثلاثة آلاف، وكل راجل ألف درهم .

فتح السوس

ثم ركب أبو سَبرة فى طائفة من الجيش ، ومعه أبو موسى الأشعرى والنعمان بن مقرّن ، واستصحبوا معهم الهرمزان ، وساروا فى طلب المنهزمين من الفرس حتى نزلوا على السوس ، فأحاطوا بها وكتب أبو سَبرة إلى عمر ، فجاء الكتاب ، بأن يرجع أبو موسى إلى البصرة ،

وأمر عمر زِرّ بن عبد الله بن كليب الفقيمي - وهو صحابي - أن يسير إلى جند سابور ، فسار . ثم بعث أبو سَبْرة بالخمس وبالهرمزان مع وفد ؛ فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ، فلما اقتربوا من المدينة هيّؤا الهرمزان بلبسه الذي كان يلبسه؛ من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلئ . ثم دخلوا المدينة وهو كذلك، فتيمّموا به منزل أمير المؤمنين فسألوا عنه فقالوا : إنه ذهب إلى المسجد بسبب وَفْد من الكوفة . فجاؤا المسجد فلم يروا أحداً فرجعوا ، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا : إنه نائم في المسجد متوسِّداً بُرنساً له . فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسّد برنساً له كان قد لبسه للوفد ، فلما انصرفوا عنه توسّد البُرنس ونام وليس في المسجد غيره ، والدِّرة معلقة في يده . فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه ، وجعل الهرمزان يقول : وأين حُجّابه ؟ وأين حرسه ؟ فقالوا : ليس له حجاب ولا حرس ، ولا كاتب ولا ديوان . فقال : ينبغي أن يكون نبياً . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلَبَة فاستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم . فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين بالله .

ثم قال : الحمد لله الذي أذلّ بالاسلام هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدّين ، واهتدوا بهَدْي نبيكم ، ولا تبطرنّكم الدنيا فإنها غدّارة . فقال له الوفد : هذا ملك الأهواز فكلّمه . فقال : لا - حتى لا يبقى عليه من حِليته شيء . ففعلوا ذلك وألبسوه ثوباً صفيقاً ، فقال عمر : هيه يا هرمزان ؛ كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : يا عمر ، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا . ثم قال : ما عُذرك وما حجتك في إنتقاضك مرة بعد مرة ؟ فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك . واستسقى الهرمزان ماء فأتى به في قَدح غليظ ، فقال : لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا . فأتى به في قدح آخر يرضاه ، فلما أخذه جعلت يده ترعد ، وقال : إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه . فقال عمر : أعيدوه عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش . فقال : لا حاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأنس به . فقال له عمر : إني قاتلك ، فقال : إنك أمنتني ، قال : كذبت ، فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ويحك يا أنس! أنا أؤمن من قتل مَجزأة والبراء ! لتأتيني بمخرج وإلا عاقبتك، قال : قلت: لا بأس عليك حتى تخبرني . وقلت : لا بأس عليك حتى تشربه ، وقال له من حوله مثل ذلك . فأقبل على الهرمزان فقال: خدعتني والله لا أنخدع إلا أن تسلم . فأسلم، ففرض له في ألفين وأنزله المدينة . وفي رواية: أن الترجمان بين عمر وبين الهرمزان كان المُغيرة بن شعبة ، فقال له عمر : قل له من أي أرض أنت ؟ قال : مِهرجانيّ . قال : تكلم بحجّتك . فقال : أكلام حيّ أم ميت ؟ قال :

بل كلام حي . فقال : قد أمنتني ، فقال : خدعتني ولا أقبل ذلك إلا أن تسلم . فأسلم ، ففرض له في ألفين وأنزله المدينة ثم جاء زيد فترجم بينهما أيضاً .

قلت : وقد حسن إسلام الهرمزان ، وكان لايفارق عمر حتى قتل عمر ، فاتهمه بعض الناس بممالأة أبي لؤلؤة هو وجفينة ، فقتل عبيد الله بن عُمر الهرمزان وجفينة على ما سيأتي تفصيله .

وقد روينا أن الهرمزان لما علاه عبيد الله بالسيف قال : لا إله إلا الله . وأما جُفينة فصلب على وجهه .

والمقصود أن عمر كان يحجر على المسلمين أن يتوسعوا في بلاد العجم خوفاً عليهم من العجم ، حتى أشار عليه الأحنف بن قيس بأن المصلحة تقتضي توسعهم في الفتوحات ، فإن الملك يزدجرد لا يزال يستحثهم على قتال المسلمين ، وإن لم يستأصل شأو العجم طمعوا في الإسلام وأهله ، فاستحسن عمر ذلك منه وصوبه . وأذن للمسلمين في التوسع في بلاد العجم ، ففتحوا بسبب ذلك شيئاً كثيراً ، ولله الحمد . وأكثر ذلك وقع في سنة ثماني عشرة كما سيأتي بيانه فيها .

ثم نعود إلى فتح السُّوس وجندي سابور وفتح نَهاوند في قول سيف . كان قد تقدم أن أبا سَبْرة سار بمن معه من عليه الأمراء من تُستر إلى السّوس ، فنازلها حيناً وقتل من الفريقين خلق كثير ، فأشرف عليه علماء أهلهافقالوا : يامعشرالمسلمين لا تتعبوا في حصارهذا البلد ؛ فإنا نأثر فيما نرويه عن قدمائنا من أهل هذا البلد أنه لا يفتحه إلا الدّجال أو قوم معهم الدجال، واتفق أنه كان في جيش أبي موسى الأشعري صاف بن صيّاد ،فأرسله أبو موسى فيمن يحاصره ، فجاء إلى الباب فدقه برجله فتقطعت السلاسل ، وتكسرت الأغلاق ، ودخل المسلمون البلد فقتلوا من وجدوا حتى نادوا بالأمان ودَعَوا إلى الصلح فأجابوهم إلى ذلك ، وكان على السوس شَهريار أخو الهرمزان ، فاستحوذ المسلمون على السوس ، وهو بلد قديم العمارة في الأرض ، يقال إنه أول بلد وضع على وجه الأرض، والله أعلم . وذكر ابن جرير أنهم وجدوا قبر دانيال بالسوس ، وأن أبا موسى لما قدم بها بعد مضي أبي سَبرة إلى جندي سابور ، كتب إلى عمر في أمره ، فكتب إليه أن يدفنه وأن يُغيّب عن الناس موضع قبره ، ففعل ، وقد بسطنا ذلك في سيرة عمر ولله الحمد.

قال ابن جرير : وقال بعضهم:إن فتح السوس ورامهرمز، وتسيير الهرمزان من تستر إلى عمر في سنة عشرين، والله أعلم ، وكان الكتاب العمري قد ورد بأن النعمان بن مقرّن يذهب إلى أهل نهاوند، فسار إليها فمر بماه - بلدة كبيرة قبلها - فافتتحها ثم ذهب إلى نهاوند ففتحها ولله الحمد .

قلت : المشهور أن فتح نهاوند إنما وقع في سنة إحدى وعشرين ، كما سيأتي فيها بيان ذلك ، وهي وقعة عظيمة وفتح كبير ، وخبر غريب ونبأ عجيب . وفتح زِرّ بن عبد الله الفقيمي مدينة جندي سابور فاستوثقت تلك البلاد للمسلمين . هذا ، وقد تحول يزدجرد من بلد إلى بلد ، حتى

انتهى أمره إلى الاقامة بأصبهان ، وقد كان صرف طائفة من أشراف أصحابه قريباً من ثلثمائة من العظماء عليهم رجل يقال له سياه ، فكانوا يفرون من المسلمين من بلد إلى بلد، حتى فتح المسلمون تستر واصطخر ، فقال سياه لأصحابه : إن هؤلاء بعد الشقاء والقلة ملكوا أماكن الملوك الأقدمين ، ولا يلقون جنداً إلا كسروه ، والله ما هـذا عن باطل . ـ ودخل فى قلبه الإسلام وعظمته ـ فقالوا له : نحن تبع لك وبعث عمار بن ياسر فى غضون ذلك يدعوهم إلى الله ، فأرسلوا إلى أبى موسى الأشعرى بإسلامهم ، وكتب فيهم إلى عمر فى ذلك ، فأمره أن يفرض لهم فى ألفين ألفين ، وفرض لستة منهم فى ألفين وخمسمائة ، وحسن إسلامهم وكان لهم نكاية عظيمة فى قتـال قومهم حتى بلغ من أمرهم أنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم، فجاء أحدهم فرمى بنفسه فى الليل على باب الحصن وضمخ ثيابه بدم ، فلما نظروا إليه حسبوا أنه منهم ، ففتحوا إليـه باب الحصن ليأووه فسار إلى البواب فقتله ، وجاء بقية أصحابه ففتحوا ذلك الحصن ، وقتلوا من فيه من المجوس . إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وذكر ابن جرير : أن عمر بن الخطاب عقـد الألوية والرايات الكبيرة فى بلاد خراسان والعراق لغزو فارس والتوسع فى بلادهم ، كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس ، فحصل بسبب ذلك فتوحات كثيرة فى السنة المستقبلة بعدها ، كما سنبينه وننبه عليه ، ولله الحمد والمنة .

قال : وحج بالناس فى هذه السنة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ثم ذكر نوابه على البلاد ، وهم من ذكر فى السنة قبلها ، غير المغيرة فإن على البصرة بدله أبو موسى الأشعرى .

قلت : وقد توفى فى هـذه السنة أقوام؛ قيل إنهم توفوا قبلها وقد ذكرناهم ، وقيل فيما بعدها وسيأتى ذكرهم فى أماكنهم ، والله تعالى أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة

المشهور الذى عليـه الجمهور . أن طاعون عمواس كان بها ، وقد تبعنا قول سيف بن عمر وابن جرير فى إيراده ذلك فى السنة التى قبلها ، لكنا نذكر وفاة من مات فى الطاعون فى هذه السنة إن شاء الله تعالى . قال ابن إسحق ، وأبو معشر : كان فى هـذه السنة طاعون عمواس وعام الرمادة ، فتفانى فيهما الناس . قلت : كان فى عام الرمادة جدب عم أرض الحجاز ، وجاع الناس جوعاً شديداً . وقد بسطنا القول فى ذلك فى سيرة عمر . وسميت عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد . وقيل : لأنها تسفى الريح تراباً كالرماد . ويمكن أن تكون سميت لكل منهما، والله أعلم وقد أجدبت الناس فى هذه السنة بأرض الحجاز ، وجفلت الأحياء إلى المدينة ولم يبق عند أحد منهم زاد ، فلجأوا إلى أمير المؤمنين فأنفق فيهم

من حواصل بيت المال ، مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده ، وألزم نفسه أن لا يأكل سمناً ولا سميناً حتى يكشف ما بالناس ؛ فكان فى زمن الخصب يبث له الخبز باللبن والسمن ، ثم كان عام الرمادة يبث له بالزيت والخل ، وكان يستمرىء الزيت ، وكان لا يشبع مع ذلك ، فاسودّ لون عمر رضى الله عنه ، وتغيّر جسمه حتى كاد يخشى عليه من الضعف . واستمر هذا الحال فى الناس تسعة أشهر ، ثم تحول الحال إلى الخصب والدّعة وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم .

قال الشافعى : بلغنى أن رجلا من العرب قال لعمر حين ترحّلت الأحياء عن المدينة : لقد انجلت عنك وإنك لابن حرّة . أى واسيت الناس وأنصفتهم وأحسنت إليهم . وقد روينا أن عمر عسّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحداً يضحك ، ولا يتحدث الناس فى منازلهم على العادة ، ولم ير سائلا يسأل ، فسأل عن سبب ذلك فقيل له : يا أمير المؤمنين،إن السؤال سألوا فلم يُعطوا فقطعوا السؤال ، والناس فى همّ وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون . فكتب عمر إلى أبى موسى بالبصرة: أن ياغوثاه لأمة محمد. وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر: أن ياغوثاه لأمة محمد. فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البرّ وسائر الأطعمات ، ووصلت ميرة عمرو فى البحر إلى جُدّة ومن جُدّة إلى مكة . وهذا الأثر جيد الإسناد ، لكن ذكر عمرو بن العاص فى عام الرّمادة مشكل ؛ فإن مصر لم تكن فتحت فى سنة ثمانى عشرة ؛ فإما أن يكون عام الرّمادة بعد سنة ثمانى عشرة ، أو يكون ذكر عمرو بن العاص فى عام الرمادة وَهم ، والله أعلم .

وذكر سيف عن شيوخه ، أن أبا عبيدة قدم المدينة ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاماً ، فأمره عمر بتفريقها فى الأحياء حول المدينة ، فلما فرغ من ذلك أمر له بأربعة آلاف درهم فأبى أن يقبلها ، فلحّ عليه عمر حتى قبلها

وقال سيف بن عمر ، عن سهل بن يوسف السلمى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كان عام الرمادة فى آخر سنة سبع عشرة ، وأول سنة ثمانى عشرة ، أصاب أهل المدينة وما حولها جُوع فهلك كثير من الناس ، حتى جعلت الوحش تاوى إلى الإنس ، فكان الناس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار ، حتى أقبل بلال بن الحارث المزنى فاستأذن على عمر فقال : أنا رسول رسول الله إليك ، يقول لك رسول الله ﷺ : « لقد عهدتك كيّساً ، وما زلت على ذلك[1] ، فما شانك » فقال : متى رأيت هذا ؟ قال : البارحة . فخرج فنادى فى الناس : الصلاة جامعة ، فصلّى بهم ركعتين ثم قام فقال : أيها الناس أنشُدكم الله هل تعلمون منى أمراً غيرُه خير منه ؟ فقالوا : اللهم لا ، فقال : إن بلال بن الحارث يزعم ذَيْة وذَيّة[2] . قالوا :

---

(١) فى الطبرى : وما زلت على رجل

(٢) هذا التعبير مثل قولهم : كذا وكذا

صدق بلال ، فاستغيث بالله ثم بالمسلمين . فبعث إليهم ـ وكان عمر عن ذلك محصورا ـ فقال عمر : الله أكبر ، بلغ البلاءُ مدته فانكشف . ما أذِن لقوم فى الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء . وكتب إلى أمراء الأمصار : أن أغيثوا أهلَ المدينة ومن حولها ، فإنه قد بلغَ جَهْدُهم . وأخرج الناس إلى الاستسقاء ، فخرج وخرج معه العباس بن عبد المطلب ماشيا ، فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه وقال : اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارضَ عنا . ثم انصرف ، فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضُوا الغُدْران .

ثم روى سيف عن مبَشّر بن الفضيل عن جُبَير بن صخر، عن عاصم بن عمر بن الخطاب ، أن رجلا من مُزَينة عامَ الرمادة سأله أهله أن يذبح لهم شاة فقال : ليس فيهنَّ شيء . فألحوا عليه فذبح شاة فإذا عظامها حُمْر ، فقال : يا محمداه ! فلما أمسى أرى فى المنام أن رسول الله ﷺ يقول له : « أبشر بالحياة[1] ، إيت عمر فأقرِه منى السلام وقل له : إن عَهدى بك وأنت وفيّ العهد شديد العقد ، فالكَيْس الكَيْس يا عمر » فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه : استأذن لرسول رسول الله ﷺ فأتى عمر فأخبره ، ففزع ثم صعد عمر المنبر فقال للناس : أنشدكم الله الذى هداكم للإسلام ، هل رأيتم منى شيئاً تكرهونه ؟ فقالوا : اللهم لا ، ولم ذاك ؟ فأخبرهم بقول المزنى ـ وهو بلال بن الحارث ـ ففطنوا ولم يفطن . فقالوا : إنما استبطأك فى الاستسقاء فاستسق بنا . فنادى فى الناس فخطب فأوجز، ثم صلى ركعتين فأوجز. ثم قال : اللهم عجزَت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولُنا وقُوّتنا ، وعجزت عنا أنفسُنا ، ولا حول ولا قوة إلا بك. اللهم اسقنا وأحْيِ العباد والبلاد .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسى قالا : حدثنا أبو عمر بن مطر ، حدثنا إبراهيم بن على الذهلى، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن مالك قال : أصاب الناس قحط فى زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال : يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا . فأتاه رسول الله ﷺ فى المنام فقال : إيت عمر فأقرِه منى السلام وأخبرهم أنهم مُسقون ، وقل له : عليك بالكَيْس الكَيْس . فأتى الرجل فأخبر عمر فقال : يارب ما آلُوا إلا ما عجزت عنه . وهذا إسناد صحيح .

وقال الطبرانى : حدثنا أبو مسلم الكشى، حدثنا أبو محمد الأنصارى، ثنا أبى عن ثمامة بن عبد الله ابن أنس ، عن أنس ، أن عمر خرج يَستسق وخرج بالعباس معه يَستسق يقول : اللهم إنا كنا إذا قَحطنا على عهد نبينا توسّلنا إليك بنبينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ. وقد رواه البخارى عن الحسن بن محمد عن محمد بن عبد الله به، ولفظه عن أنس أن عُمر كان إذا قحطوا يستسق بالعباس

---

(١) فى الطبرى : الحياه والحيا : المطر

ابن عبد المطلب فيقول : اللهم إنا كُنّا نتوسل إليك بنبينا فتَسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا ـ فى كتاب المطر ، وفى كتاب مجابى الدعوة ـ حدثنا أبو بكر النيسابورى ، ثنا عطاء بن مسلم عن العمرى ، عن خوّات بن جبير قال : خرج عمر يستسقى بهم ، فصلىّ ركعتين فقال : اللهم إنا نَستغفرك ونستسقيك ، فما بَرِح من مكانه حتى مُطِرُوا ، فقدم أعراب فقالوا : يا أمير المؤمنين بينا نحن فى وادينا فى ساعة كذا إذ أظلّتنا غمامة فسمعنا منها صوتاً : أتاكَ الغوثُ أبا حفص ، أتاكَ الغوث أبا حفص . وقال ابن أبى الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ، ثنا سفيان عن مُطرف بن طريف عن الشعبى قال : خرج عمر يستسقى بالناس ، فما زاد على الاستغفار حتى رجع ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ما نَراك استسقيت . فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح[1] السماء التى يستنزل بها المطر ، ثم قرأ : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)[2] ثم قرأ : (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)[3] الآية .

وذكر ابن جرير فى هذه السنة ، من طريق سيف بن عمر ، عن أبى المجالد والربيع وأبى عثمان وأبى حارثة ، وعن عبد الله بن شبرمة ، عن الشعبى قالوا : كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب أنّ نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ؛ منهم ضرار ، وأبو جندل بن سهل ، فسألناهم فقالوا : خُيِّرنا فاخترنا . قال : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[4] ولم يعزم . فجمع عمر الناس فأجمعوا على خلافهم ، وأن المعنى : فهل أنتم منتهون ـ أى انتهوا . وأجمعوا على جلدهم ثمانين ثمانين . وأن من تأول هذا التأويل وأصرّ عليه يقتل . فكتب عمر إلى أبى عبيدة ، أن ادعُهم فسلهم عن الخمر فإن قالوا هى حلال فاقتلهم ، وإن قالوا هى حَرام فاجلدهم . فاعترف القوم بتحريمها ، فجُلدوا الحدّ ، ونَدِموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما تأولوه ، حتى وسْوَسَ أبو جَندل فى نفسه ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر فى ذلك ، وسأله أن يكتب إلى أبى جَندل ويذكره ، فكتب إليه عمر بن الخطاب فى ذلك : من عُمر إلى أبى جندل (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[5] فتُب وارفع رأسك ، وابرز ولا تقنط ، فإن الله تعالى يقول : (قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم)[6] وكتب عمر إلى الناس : إنّ عليكم أنفسكم ، ومن غيّر فغيّروا عليه ، ولا تعيّروا أحداً فيفشو فيكم البلاء ، وقد قال أبو الزهراء القُشيرى فى ذلك .

---

(١) مجاديح السماء : أنواؤها ـ أى نجومها . (٢) الآيتان : ١٠ ـ ١١ من سورة نوح
(٣) من الآية : ٣٠ من سورة هود . (٤) من الآية : ٩١ من سورة المائدة .
(٥) من الآية : ٤٨ من سورة النساء ، ١١٦ من السورة نفسها .
(٦) من الآية : ٥٣ من سورة الزمر .

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى ... وليس على صرف المنون بقادر
صبرتُ ولم أجزعْ وقدمات إخوتى ... ولستُ عن الصهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر

قال الواقدى وغيره : وفى هذه السنة فى ذى الحجة منها حوّل عمر المقام ـ وكان ملصقا بجدار الكعبة ـ فأخره إلى حيث هو الآن ، لئلا يشوش المصلون عنده على الطائفين . قلت : قد ذكرت أسانيد ذلك فى سيرة عمر ، ولله الحمد والمنة . قال : وفيها استقضى عمر شريحا على الكوفة ، وكعب بن سور على البصرة . قال : وفيها حج بالناس وكانت نوابه فيها الذين تقدم ذكرهم فى السنة الماضية . وفيها فتحت الرقة والرهاء وحران ـ على يدى عياض بن غنم . قال : وفتحت رأس عين الوردة على يدى عمر بن سعد بن أبى وقاص . وقال غيره : خلاف ذلك . وقال شيخنا الحافظ الذهبى فى تاريخه : وفيها ـ يعنى هذه السنة ـ افتتح أبو موسى الأشعرى الرها وشمشاط عنوة ، وفى أوائلها وجه أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة ، فوافق أبا موسى فافتتحا حران ونصيبين وطائفة من الجزيرة عنوة ، وقيل صلحا . وفيها سار عياض إلى الموصل فافتتحها وما حولها عنوة . وفيها بنى سعد جامع الكوفة . وقال الواقدى : وفيها كان طاعون عمواس فمات فيه خمسة وعشرون ألفا . قلت : هذا الطاعون منسوب إلى بلدة صغيرة يقال لها : عمواس ـ وهى بين القدس والرملة ـ لأنها كانت أول ما نجم الداء بها ، ثم انتشر فى الشام منها فنسب إليها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . قال الواقدى : توفى فى عام طاعون عمواس من المسلمين بالشام ـ خمسة وعشرون ألفا . وقال غيره : ثلاثون ألفا . وهذا ذكر طائفة من أعيانهم رضى الله عنهم .

الحارث بن هشام : أخو أبى جهل ، أسلم يوم الفتح ، وكان سيداً شريفا فى الإسلام كما كان فى الجاهلية ، استشهد بالشام فى هذه السنة فى قول ، وتزوج عمر بعده بامرأته فاطمة .

شرحبيل بن حسنة : أحد أمراء الأرباع ، وهو أمير فلسطين ، وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن قطن الكندى ـ حليف بنى زهرة ، وحسنة أمه ، نسب إليها وغلب عليه ذلك . أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة وجهزه الصديق إلى الشام فكان أميراً على ربع الجيش ، وكذلك فى الدولة العمرية ، وطعن هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعرى فى يوم واحد سنة ثمانى عشرة . له حديثان ؛ روى ابن ماجة أحدهما فى الوضوء وغيره .

عامر بن عبد الله بن الجراح : ابن هلال بن أهيب بن ضبة ، بن الحارث بن فهر القرشى ـ أبو عبيدة بن الجراح الفهرى ، أمين هذه الأمة ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الخمسة الذين أسلموا فى يوم واحد ، وهم : عثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وأبو عبيدة بن الجراح . أسلموا على يد الصديق . ولما هاجروا آخى

رسول الله ﷺ بينه و بين سعد بن معاذ ، وقيل : بين محمد بن مسلمة . وقد شهد بدراً وما بعدها ، وقال رسول الله ﷺ « إن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ثبت ذلك في الصحيحين . وثبت في الصحيحين أيضاً أن الصديق قال يوم السقيفة : وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوه - يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة ، وبعثه الصديق أميراً على ربع الجيش إلى الشام ، ثم لما انتدب خالداً من العراق كان أميراً على أبي عبيدة وغيره لعلمه بالحروب . فلما انتهت الخلافة إلى عمر عزل خالداً وولى أبا عبيدة بن الجراح ، وأمره أن يستشير خالداً ، فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد . قال ابن عساكر : وهو أول من سمي أمير الأمراء بالشام . قالوا : وكان أبو عبيدة طوالا[1] نحيفاً أقنى معروق الوجه[2] ، خفيف اللحية ، أهتم ، وذلك لأنه لما انتزع الحلقتين من وجنتي رسول الله ﷺ يوم أحد خاف أن يؤلم رسول الله ﷺ فتحامل على ثنيتيه فسقطتا ، فما رأى أحسن هتما منه . توفي بالطاعون عام عمواس ، كما تقدم سياقه في سنة ست عشرة عن سيف بن عمر . والصحيح أن عمواس كانت في هذه السنة - سنة ثماني عشرة - بقرية فحل ، وقيل بالجابية . وقد اشتهر في هذه الأعصار قبر بالقرب من عقبة ينسب إليه ، والله أعلم . وعمره يوم مات ثمان وخمسون سنة .

الفضل بن عباس بن عبد المطلب : كان حسناً وسيما جميلا ، أردفه رسول الله ﷺ وراءه يوم النحر من حجة الوداع ، وهو شاب حسن ، وقد شهد فتح الشام ، واستشهد بطاعون عمواس ، في قول محمد بن سعد والزبير بن بكار وأبي حاتم وابن البرقي - وهو الصحيح . وقيل : يوم مرج الصفر ، وقيل بأجنادين . ويقال باليرموك سنة ثمان وعشرين .

معاذ بن جبل : ابن عمرو بن أوس بن عابد بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي - أبو عبد الرحمن المدني ، صحابي جليل كبير القدر . قال الواقدي : كان طوالا حسن الشعر والثغر براق الثنايا ، لم يولد له . وقال غيره : بل ولد له ولد وهو عبد الرحمن . شهد معه اليرموك . وقد شهد معاذ العقبة . ولما هاجر الناس آخى رسول الله ﷺ بينه وبين ابن مسعود . وحكى الواقدي الإجماع على ذلك . وقد قال محمد ابن إسحق : آخى بينه وبين جعفر بن أبي طالب . وشهد بدراً وما بعدها . وكان أحد الأربعة من الخزرج ، الذين جمعوا القرآن في حياة النبي ﷺ ، وهم : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ ابن جبل ، وأبو زيد عمر بن أنس بن مالك . وصح في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من حديث حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن الصنابحي ، عن معاذ ، أن رسول الله ﷺ قال له : « يا معاذ والله إني لأحبك فلا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وفي المسند والنسائي وابن ماجة من طريق أبي

(١) يقال هو طوال - كغراب - وهي طوالة . والجمع طوال وطيال بكسرهما (٢) المعروق : القليل اللحم

قلابة، عن أنس مرفوعاً « وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ». وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له : « بِمَ تحكم » ؟ فقال : بكتاب الله وبالحديث وكذلك أقره الصديق على ذلك، يعلم الناس الخير باليمن. ثم هاجر إلى الشام فكان بها حتى مات بعد ما استخلفه أبو عبيدة حين طعن، ثم طعن بعده فى هذه السنة. وقد قال عمر بن الخطاب : إن معاذاً يبعث أمام العلماء برَبوة. ورواه محمد ابن كعب مرسلا. وقال ابن مسعود : كنا نشبهه بإبراهيم الخليل. وقال ابن مسعود : إن معاذاً كان قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. وكانت وفاته شرق غورينسان سنة ثمانى عشرة وقيل سنة تسع عشرة، وقيل سبع عشرة، عن ثمان وثلاثين سنة على المشهور، وقيل غير ذلك والله أعلم.

يزيد بن أبى سفيان : أبو خالد صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ـ أخو معاوية، وكان يزيد أكبر وأفضل. وكان يقال له : يزيد الخير، أسلم عام الفتح، وحضر حنيناً، وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل وأربعين أوقية، واستعمله الصديق على ربع الجيش إلى الشام، وهو أول أمير وصل إليها، ومشى الصديق فى ركابه يوصيه، وبعث معه أبا عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، فهؤلاء أمراء الأرباع. ولما افتتحوا دمشق دخل هو من باب الجابية الصغير عنوة، كخالد فى دخوله من الباب الشرقى عنوة، وكان الصديق قد وعده بإمرتها، فوليها عن أمر عمر، وأنفذ له ما وعده الصديق، وكان أول من وليها من المسلمين المشهور أنه مات فى طاعون عمواس كما تقدم. وزعم الوليد بن مسلم أنه توفى سنة تسع عشرة بعد ما فتح قيسارية. ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق، فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك رضى الله عنهم. وليس له فى الكتب شىء، وقد روى عنه أبو عبد الله الأشعرى، أن رسول الله ﷺ قال : « مثَلُ الذى يُصلّى ولا يتمّ ركوعه ولا سجودَه ـ مثل الجائع الذى لا يأكل إلا التمرة والتمرتين لا يُغنيان عنه شيئاً ».

أبو جَندل بن سهيل : ابن عمرو، وقيل : اسمه العاص، أسلم قديماً، وقد جاء يوم صلح الحديبية مسلما يَرسف فى قيوده لأنه كان قد استضعف، فردّه أبوه وأبى أن يصالح حتى يرد، ثم لحق أبو جندل بأبى بصير إلى سيف البحر، ثم هاجر إلى المدينة وشهد فتح الشام. وقد تقدم أنه تأول آية الخمر ثم رجع، ومات بطاعون عمواس ـ رحمه الله ورضى عنه.

أبو عبيدة بن الجراح : هو عامر بن عبد الله تقدم.

أبو مالك الأشعرى، قيل، اسمه كعب بن عاصم : قدم مهاجراً سنة خيبر مع أصحاب السفينة،

وشهد ما بعدها ، واستشهد بالطاعون عام عمواس : هو وأبو عبيدة ومعاذ فى يوم واحد رضى الله عنهم أجمعين .

ثم دخلت سنة تسع عشرة

قال الواقدى وغيره : كان فتح المدائن وجلولاء فيها . والمشهور خلاف ما قال ، كما تقدم . وقال محمد بن إسحاق : كان فتح الجزيرة والرُّهاء وحَرَّان ورأس العين ونصيبين - فى هذه السنة . وقد خالفه غيره . وقال أبو معشر وخليفة وابن الكلبى : كان فتح قَيسارِيَّة فى هذه السنة وأميرها معاوية . وقال غيره : يزيد بن أبى سفيان . وقد تقدم أن معاوية افتتحها قبل هذا بسنتين . وقال محمد بن إسحق : كان فتح قَيسارِيَّة من فلسطين ، وهرَبُ هرقل ، وفتح مصر ، فى سنة عشرين . وقال سيف بن عمر : كان فتح قَيسارِيَّة وفتح مصر فى سنة ست عشرة . قال ابن جرير : فأما فتح قيسارية فقد تقدم ، وأما فتح مصر فإنى سأذكره فى سنة عشرين إن شاء الله تعالى قال الواقدى : وفى هذه السنة ظهرت نار من حَرَّة ليلا فأراد عمر أن يخرج بالرجال إليها ، ثم أمر المسلمين بالصدقة فطفئت ، ولله الحمد .

ويقال : كان فيها وقعة أرمينية ، وأميرها عثمان بن أبى العاص ، وقد أصيب فيها صفوان ابن المعطل بن رخصة السلمى ثم الذكوانى ، وكان أحد الأمراء يومئذ . وقد قال فيه رسول الله ﷺ « ما علمت عليه إلا خيراً » ، وهو الذى ذكره المنافقون فى قصة الإفك فبرأ الله ساحته ، وجناب أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ مما قالوا . وقد كان إلى حين قالوا — لم يتزوج ، ولهذا قال : والله ما كشفت كنف[1] أنثى قط . ثم تزوج بعد ذلك ، وكان كثير النوم ، ربما غلب عليه عن صلاة الصبح فى وقتها ، كما جاء فى سنن أبى داود وغيره . وكان شاعراً ، ثم حصلت له شهادة فى سبيل الله قيل : بهذا البلد ، وقيل : بالجزيرة ، وقيل: بشِمْشاط . وقد تقدم بعض هذا فيما سلف .

وفيها فتحت تكريت فى قول ، والصحيح قبل ذلك . وفيها - فيما ذكرنا - أسرت الروم عبدالله بن حذافة . وفيها - فى ذى الحجة منها - كانت وقعة بأرض العراق قتل فيها أمير المجوس « شهرك » ، وكان أمير المسلمين يومئذ الحكم بن أبى العاص رضى الله عنه . قال ابن جرير : وفيها حج بالناس عمر ، ونوابه فى البلاد وقضاته هم المذكورون قبلها ، والله أعلم .

---

(١) أى : ستر

ذكر من توفى فيها من الأعيان

وممن توفى فيها من الأعيان : أبىّ بن كعب سيد القراء ، وهو أبى بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ـ أبو المنذر وأبو الطفيل ـ الأنصارى النجارى ، سيد القراء . شهد العقبة وبدراً وما بعدهما ، وكان سيداً جليل القدر . وهو أحد القراء الأربعة الخزرجيين الذين جمعوا القرآن فى حياة رسول الله ﷺ وقد قال لعمر يوماً : إنى تلقيت القرآن ممن تلقاه منه جبريل وهو رطب(١) . وفى المسند والنسائى وابن ماجة ، من طريق أبى قلابة عن أنس مرفوعا « أقرأ أمتى أبى ابن كعب » ، وفى الصحيح ، أن رسول الله ﷺ قال له : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن » . قال : وسمانى لك ؟ قال نعم : فذرفت عيناه وقد تكلمنا على ذلك فى التفسير عند سورة : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)(٢) قال الهيثم بن عدى: توفى أبىّ سنة تسع عشرة . وقال يحيى بن معين : سنة سبع عشرة أو عشرين وقال الواقدى عن غير واحد : توفى سنة ثنتين وعشرين . وبه قال أبو عبيد وابن نمير وجماعة . وقال الفلاس وخليفة : توفى فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وفيها مات خبّاب مولى عُتبة بن غَزْوان من المهاجرين ، شهد بدراً وما بعدها ، وهو صحابى من السابقين وصلّى عليه عمر . ومات فيها صفوان بن المعطّل فى قول كما تقدم والله أعلم .

سنة عشرين من الهجرة

قال محمد بن إسحاق : فيها كان فتح مصر وكذا قال الواقدى : إنها فتحت هى واسكندرية فى هذه السنة . وقال أبو معشر : فتحت مصر سنة عشرين ، واسكندرية فى سنة خمس وعشرين . وقال سيف : فتحت مصر واسكندرية فى سنة ست عشرة فى ربيع الأول منها . ورجح ذلك أبو الحسن بن الأثير فى الكامل ، لقصة بعث عمرو الميرة من مصر عام الرمادة ، وهو معذور فيما رجحه ، والله أعلم .

وفيها كان فتح تُستر فى قول طائفة من علماء السير بعد محاصرة سنتين ، وقيل سنة ونصف والله أعلم .

---

(١) أى : سهل التناول قريب عهد بالنزول (٢) سورة البينة

صفة فتح بلاد مصر ، مجموعا من كلام ابن إسحق وسيف وغيرهما

قالوا : لما استكمل عُمَر والمسلمون فتح الشام، بعث عَمرو بن العاص إلى مصر ، وزعم سيف أنه بعثه بعد فتح بيت المقدس ، وأردفه بالزبير بن العوّام ، وفي صحبته بشر بن أرطاة ، وخارجة بن حُذافة ، وعمير بن وهب الجمحي فاجتمعا على باب مصر فلقيهم أبو مريم جاثليق[١] مصر ، ومعه الأسقف أبو مريام في أهل الثبات : بعثه المقوقس صاحب اسكندرية لمنع بلادهم . فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نُعذر ، ليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد ، فبرزا إليه ، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا ؛ إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به ، وأمرنا به محمد ﷺ وأدّى إلينا كل الذى أُمر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة ، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عَرضنا عليه الجزية وبذلنا له المَنعة ، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرَحمنا منكم ، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذِمّة إلى ذِمّة ومما عَهد إلينا أميرنا: استوصُوا بالقبطيين خيراً ؛ فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً ؛ لأن لهم رَحِما وذِمّة . فقالوا : قَرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء معروفة شريفة ، كانت ابنة ملكنا ، وكانت من أهل مَنْف والملك فيهم ، فأديل[٢] عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم واغتربوا ، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلا . آمنّا حتى نرجع إليك ، فقال عمرو : إن مثلى لا يُخدع ، ولكنى أؤجلكما ثلاثا لتنظروا وتُناظروا قومكما ، وإلا ناجزتكم . قالا : زدنا ، فزادهم يوما ، فقالا : زدنا . فزادهم يوماً .

فرجعا إلى المقوقس فأبى أرطَبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم ، فقالا لأهل مصر : أما نحن فسنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم . وقد بقيت أربعة أيام ، فلما ، وأشار عليهم بأن يبيّتوا المسلمين ، فقال الملأ منهم : ما تقاتلون من قوم قتلوا كِسْرى وقَيصر وغلبوهم على بلادهم . فألح الأرطبون فى أن يبيّتوا المسلمين ففعلوا فلم يظفروا بشىء بل قتل منهم طائفة منهم الأرطبون . وحاصر المسلمون عين شمس من مصر فى اليوم الرابع . وارتقى الزبير عليهم سُور البلد ، فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه ، واخترق الزبير البلد حتى خرج من الباب الذى عليه عمرو ، فأمضوا الصلح وكتب لهم عمرو كتاب أمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عَمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرّهم وبَحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص

---

(١) الجاثليق : رئيس النصارى فى بلاد الإسلام (٢) الإدالة : الغلبة ، ودالت الأيام دارت

ولا يُساكنهم النوبة[1] ، وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلح ، وانتهت زيادة نَهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصُوتهم[2] ، فإن أبىَ أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذِمتنا ممن أبى بريئة . وإن نقص نَهرهم مِن غايته رُفع عنهم بقدر ذلك ، ومَن دَخل فى صلحهم من الروم والنُّوبة ، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا ، عليهم ما عليهم أثلاثاً ، فى كلّ ثلث جباية ثلث ما عليهم . على مافى هذا الكتاب عهدُ الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرساً ؛ على ألا يغزوا ولا يُمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وَرْدان وحضر »

فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح ، واجتمعت الخيول بمصر وعَمَّروا الفسطاط ، وظهر أبو مريم وأبو مريام ، فكلَّما عمراً فى السبايا التى أصيبت بعد المعركة . فأبىَ عمرو أن يردّها عليهما ، وأمر بطردهما وإخراجهما من بين يديه . فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أمر أنَّ كل سَبى أخذ فى الخمسة الأيام التى أمنوهم فيها أن يردّ عليهم ، وكل سَبى أخذ ممن لم يقاتل ، وكذلك مَن قاتل فلا يردّ عليه سباياه وقيل : إنه أمر أن يخيّروا مَن فى أيديهم من السبى بين الإسلام وبين أن يرجع إلى أهله ، فن اختار الإسلام فلا يردّوه إليهم ، ومن اختارهم ردّوه عليهم وأخذوا منه الجزية ، وأما ما تفرق من سَبيهم فى البلاد ووصل إلى الحرمين وغيرهما ـ فإنه لا يقدر على ردّهم ، ولا ينبغى أن يصالحهم على ما يتعذر الوفاء به

ففعل عمرو ما أمر به أمير المؤمنين ، وجمع السبايا وعرضوهم وخيّروهم ، فمنهم من اختار الإسلام ، ومنهم من عاد إلى دينه ، وانعقد الصلح بينهم .

ثم أرسل عمرو جيشا إلى اسكندرية ـ وكان المقوقس صاحب الاسكندرية قبل ذلك يؤدى خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم ، فلما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دَولته وقال لهم : إنّ هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن ملكهم ولا طاقة لنا بهم ، والرأى عندى أن نؤدىَ الجزية إليهم . ثم بعث إلى عمرو بن العاص يقول : إنى كنت أؤدى الخراج إلى من هو أبغض إلىّ منكم ـ يعنى فارس والروم ـ ثم صالحه على أداء الجزية ، وبعث عمرو بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وذكر سيف : أن عمرو بن العاص لما التقى مع المُقوقس جعل كثير من المسلمين يفِرّ من الزحف ، فجعل عمرو يزمّرهم[3] ويحثهم على الثبات : فقال له رجل من أهل اليمن : إنا لم نخلق من

(١) فى الطبرى : النوب (٢) اللصوت جمع لصت ـ مثلث اللام ـ وهو اللص (٣) أى يغريهم

حجارة ولا حديد ، فقال له عمرو : اسكت فإنما أنت كلب . فقال له الرجل : فأنت إذا أمير الكلاب . فأعرض عنه عمرو ونادى يطلب أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما اجتمع إليه من هناك من الصحابة قال لهم عمرو : تقدموا فبكم ينصر الله المسلمين . فنهدوا إلى القوم ففتح الله عليهم وظفروا أتم الظفر . قال سيف: ففتحت مصر في ربيع الأول من سنة ست عشرة ، وقام فيها مُلك الإسلام، ولله الحمد والمنة وقال غيره : فتحت مصر في سنة عشرين ، وفتحت اسكندرية في سنة خمس وعشرين بعد محاصرة ثلاثة أشهر عنوة ، وقيل صلحا على اثني عشر ألف دينار .

وقد ذكر أن المقوقس سأل من عمرو أن يهادنه أولا ، فلم يقبل عمرو وقال له : قد علمتم ما فعلنا بملككم الأكبر «هِرَقل» . فقال المقوقس لأصحابه : صَدَق فنحن أحقّ بالإذعان . ثم صالح على ما تقدم . وذكر غيره : أن عمراً والزبير سارا إلى عين شمس فحاصراها ، وأن عَمراً بعث إلى الفَرَما أبرهة بن الصباح ، وبعث عوف بن مالك إلى الاسكندرية ، فقال كلٌ منهما لأهل بلده : إن نزلتم فلكم الأمان ، فتربصوا ماذا يكون من أهل عين شمس ، فلما صالحوا صالح الباقون . وقد قال عوف بن مالك لأهل اسكندرية : ما أحسن بلدكم ؟ فقالوا : إن الإسكندر لما بناها قال : لأبنين مدينة فقيرة إلى الله غنية عن الناس ؛ فبقيت بهجتها . وقال أبرهة لأهل الفَرَما : ما أقبح مدينتكم ؟ فقالوا : إن الفَرَما - وهو أخو الاسكندر - لما بناها قال : لأبنين مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس ، فهي لا تزال ساقطا بناؤها فشوهت بذلك .

وذكر سيف : أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما وَلّى مصر بعد ذلك ، زاد في الخراج عليهم رءوسا من الرقيق يهدونها إلى المسلمين في كلّ سنة ، ويعوضهم المسلمون بطعام مسمّى وكسوة . وأقر ذلك عثمان بن عفان وولاة الأمور بعده ، حتى كان عمر بن عبد العزيز فأمضاه أيضا نظراً لهم ، وإبقاء لعهدهم . قلت : وإنما سميت ديار مصر بالفسطاط نسبة إلى فُسطاط عمرو ابن العاص ، وذلك أنه نصب خيمته - وهي الفسطاط - موضع مصر اليوم ، وبنى الناس حوله ، وتركت مصر القديمة من زمان عمرو بن العاص وإلى اليوم ، ثم رفع الفُسطاط وبنى موضعه جامعا وهو المنسوب إليه اليوم . وقد غزا المسلمون بعد فتح مصر النوبة ، فنالهم جراحات كثيرة ، وأصيبت أعين كثيرة ، لجودة رمي النوبة فسموهم جند الحَدَق . ثم فتحها الله بعد ذلك وله الحمد والمنة . وقد اختلف في بلاد مصر فقيل : فتحت صلحا إلا الاسكندرية ، وهو قول يزيد بن أبي حبيب . وقيل : كلها عنوة - وهو قول ابن عمر وجماعة . وعن عمرو بن العاص أنه خطب الناس فقال : ما قعدت مقعدي هذا ولأحد من القبط عندي عهد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت بعت وإن شئت خمست . إلا لأهل الطابلس فإن لهم عهداً نوفي به

قصة نيل مصر

روينا من طريق ابن لهيعة ، عن قيس بن الحجاج عن حدثه قال : لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص - حين دخل بؤنة من أشهر العجم - فقالوا : أيها الأمير ، لنيلنا هذا سُنَّة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلىّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو : إن هذا مما لا يكون فى الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما قبله قال : فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى ، والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيراً ، حتى همُّوا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبتَ بالذى فعلتَ ، وإنى قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابى ، فألقها فى النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد ، فإن كنت إنما تجرى مِنْ قِبلك ومن أمرك فلا تجْرِ ، فلا حاجة لنا فيك ، وإن كنت إنما تجرى بأمر الله الواحد القهار ، وهو الذى يُجريك ، فنسأل الله تعالى أن يجريك » قال : فألقى البطاقة فى النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السُّنة عن أهل مصر إلى اليوم .

قال سيف بن عمر : وفى ذى القعدة من هذه السنة - وهى عنده ست عشرة - جعل عمرو المسالح[1] على أرجاء مصر ، وذلك لأن هرقل أغزى الشام ومصر فى البحر . قال ابن جرير : وفى هذه السنة غزا أرض الروم أبو بَحْرِيَّة ، عبد الله بن قيس العبدى - وهو أول من دخلها فيما قيل - فسلِمَ وغنم ، وقيل : أول من دخلها ميسرة بن مسروق العبسىّ قال الواقدى : وفيها عزل عمر قُدامة بن مظعون عن البحرين ، وحدّه فى الشراب . وولىّ على البحرين واليمامة أبا هريرة الدوسى رضى الله عنه . قال : وفيها شكا أهل الكوفة سعدا فى كل شىء ، حتى قالوا : لا يُحسِنُ يصلّى ، فعزله عنها وولّى عليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان - وكان نائب سعد - وقيل : بل ولاّها عمرو بن ياسر . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عبد الملك ، سمعه من جابر ابن سمرة قال : شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر فقالوا : إنه لا يحسن يصلّى ، قال الأعاريب ؟ والله ما آلوبهم صلاة رسول الله ﷺ فى الظهر والعصر ، اردد فى الأوليين واحرف فى الأخيرين . فسمعت عمر يقول : كذا الظن بك يا أبا إسحق .

وفى صحيح مسلم ، أن عمر بعث من يسأل عنه أهل الكوفة فأثنوا خيراً ، إلا رجلا يقال له : أبو سعدة قتادة بن أسامة - قام فقال : أما إذا أنشدتنا فإن سعداً لا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية ،

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهى : قوم ذو سلاح كالثغر والمرقب .

ولا يخرج فى السرية . فقال سعد : اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة ، فأطل عُمره وأدِمْ فقره ، وعرّضه للفتن . فأصابته دعوة سعد ـ فكان شيخاً كبيراً يرفع حاجبيه عن عينيه ، ويتعرّض للجوارى فى الطرق فيغمزهنّ ، فيقال له فى ذلك ، فيقول : شيخ كبير مفتون ، أصابته دعوة سعد . وقد قال عمر فى وصيته ـ وذكره فى السنة ـ « فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ولى ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة » .

قال : وفيها أجلى عمر يهود خيبر عنها إلى أذرعات وغيرها . وفيها أجلى عمر يهود نجران منها أيضاً إلى الكوفة ، وقسم خيبر ، ووادى القرى ، ونجران ـ بين المسلمين .

قال : وفيها دوّن عمر الدّواوين ، وزعم غيره أنه دونها قبل ذلك ، فالله أعلم .

قال : وفيها بعث عمر عَلقمة بن مجزّر المدلجىّ إلى الحبشة فى البحر فأصيبوا ، فآلى عمر على نفسه ألاّ يبعث جيشاً فى البحر بعدها وقد خالف الواقدى فى هذا أبو معشر ، فزعم أن غزوة الحبشة إنما كانت فى سنة إحدى وثلاثين ـ يعنى فى خلافة عثمان بن عفان ـ والله أعلم .

قال الواقدى . وفيها تزوج عمر فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، التى مات عنها الحارث بن هشام فى الطاعون . وهى أخت خالد بن الوليد .

قال : وفيها مات هلال بدمشق ، وأسيد بن الحضير فى شعبان ، وزينب بنت جحش أم المؤمنين ـ وهى أول من مات من أمهات المؤمنين ، رضى الله عنها .

قال : وفيها مات هرقل وقام بعده ولده قسطنطين قال : وحج بالناس فى هذه السنة عُمر ، ونوابه وقضاته من تقدم فى التى قبلها ، سوى من ذكرنا أنه عزله وولى غيره .

ذكر المتوفين فى هذه السنة من الأعيان

أسيد بن الحُضَير : بن سماك الأنصارى الأشهلى من الأوس ، أبو يحيى أحد النقباء ليلة العقبة وكان أبوه رئيس الأوس يوم بعاث[1] ، وكان قبل الهجرة بست سنين ، وكان يقال له : حضير الكتائب ، يقال إنه أسلم على يدى مصعب بن عمير ، ولما هاجر الناس آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة ، ولم يشهد بدراً . وفى الحديث الذى صححه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أُسيد بن الحضير » وذكر جماعة . وقدم الشام مع عمر وأثنت عليه عائشة ، وعلى سعد بن معاذ ، وعباد بن بشر ، رضى الله عنهم . وذكر ابن بكير أنه توفى بالمدينة سنة عشرين ، وأنّ عمر حمل بين عموديه وصلّى عليه ودفن بالبقيع ، وكذا أرخ وفاته سنة عشرين الواقدى وأبو عبيد وجماعة .

أنيس بن مرثد بن أبى مرثد الغنوى : هو وأبوه وجده صحابة وكان أنيس هذا عَيْنا

(١) بعاثٌ ـ بالعين وبالغين ، وتثلث الباء ـ موضع بقرب المدينة .

لرسول الله ﷺ يوم حنين ، ويقال : إنه الذى قال له رسول الله ﷺ : « اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » والصحيح أنه غيره ؛ فإن فى الحديث « فقال لرجل من أسلم » فقيل : إنه أنيس بن الضحاك الأسلمى . وقد مال ابن الأثير إلى ترجيحه ، والله أعلم . له حديث فى الفتنة . قال إبراهيم بن المنذر : توفى فى ربيع الأول سنة عشرين .

بلال بن أبى رباح الحبشى المؤذن ، مولى أبى بكر . ويقال له : بلال بن حمامة ، وهى أمه ، أسلم قديماً ، فعذب فى الله فصبر ، فاشتراه الصديق فأعتقه . شهد بدراً وما بعدها . وكان عمر يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . رواه البخارى . ولما شرع الأذان بالمدينة كان هو الذى يؤذن بين يدى رسول الله ﷺ ، وابن أم مكتوم يتناوبان ؛ تارة هذا ، وتارة هذا ، وكان بلال ندىّ الصوت حسنه ، فصيحاً ، وما يروى : « أن سين بلال عند الله شيناً » فليس له أصل .

وقد أذّن يوم الفتح على ظهر الكعبة . ولما توفى رسول الله ﷺ ترك الأذان ، ويقال : أذّن للصدّيق أيام خلافته ، ولا يصح . ثم خرج إلى الشام مجاهداً ، ولما قدم عمر إلى الجابية أذّن بين يديه بعد الخطبة لصلاة الظهر ، فانتحب الناس بالبكاء . وقيل : إنه زار المدينة فى غضون ذلك ، فأذّن ، فبكى الناس بكاء شديداً ، ويحق لهم ذلك ـ رضى الله عنهم وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لبلال : « إنى دخلت الجنة فسمعت خشْف[1] نعليك أمامى ، فأخبرنى بأرجى عمل عملته ؟ » . فقال : ما توضأت إلا وصليت ركعتين . فقال : « بذاك » . وفى رواية : ما أحدثت إلا توضأت ، وما توضأت إلا رأيت أنّ علىّ أن أصلى ركعتين . قالوا : وكان بلال آدمَ شديد الأدمة ، طويلا ، نحيفاً ، كثير الشعر ، خفيف العارضين . قال ابن بكير : توفى بدمشق فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة وقال محمد بن إسحاق وغير واحد : توفى سنة عشرين قال الواقدى . ودفن بباب الصغير ، وله بضع وستون سنة . وقال غيره : مات بداريا ، ودفن بباب كيسان . وقيل : دفن بداريا وقيل : إنه مات بحلب . والأول أصح ، والله أعلم .

سعيد بن عامر بن خذيم : من أشراف بنى جُمح ، شهد خيبر ، وكان من الزهاد والعباد ، وكان أميراً لعمر على حمص بعد أبى عبيدة ، بلغ عمر أنه قد أصابته جراحة شديدة ، فأرسل إليه بألف دينار ، فتصدق بها جميعها ، وقال لزوجته : أعطيناها لمن يتجر لنا فيها ، رضى الله عنه . قال خليفة : فتح هو ومعاوية قيسارية ، كل منهما أمير على من معه .

عياض بن غنم : أبو سعد الفهرى ، من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً ، وما بعدها ، وكان

---

(١) أى : صوت .

سمحاً ، جواداً ، شجاعاً ، وهو الذى افتتح الجزيرة ، وهو أول من جاز درب الروم غازياً ، واستنابه أبو عبيدة بعده على الشام ، فأقرّه عمر عليها إلى أن مات سنة عشرين ، عن ستين سنة .

أبو سفيان بن الحارث ، ابن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ . قيل : اسمه المغيرة . أسلم عام الفتح ، فحسن إسلامه جداً ، وكان قبل ذلك من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، وعلى دينه ومن تبعه ، وكان شاعراً مفلقاً[1] ، يهجو الإسلام وأهله ، وهو الذى ردّ عليه حسان بن ثابت رضى الله عنه فى قوله

ألا أبلغ أبا سفيان عنّى   مُغَلْغَلَة ، فقد بَرِحَ الخَفَاء
هَجَوْتَ محمداً وأجبتَ عَنْهُ   وَعِنْدَ الله فى ذَاكَ الجَزَاء
أتَهْجُوه ولستَ لهُ بِكُفْءٍ   فَشَرُّكُمَا لخيركما الفِدَاء

ولما جاء هو وعبد الله بن أبى أمية ليسلما لم يأذن لهما عليه السلام ، حتى شفعت أم سلمة لأخيها ، فأذن له . وبلغه أن أبا سفيان هذا قال : والله لئن لم يأذن لى لآخذن بيد ابنى هذا ـ لولد معه صغير ـ فلأذهبن ، فلا يدرى أين أذهب . فرَقّ حينئذ له رسول الله ﷺ وأذن له ، ولزم رسول الله ﷺ يوم حنين ، وكان آخذاً بلجام بغلته يومئذ . وقد روى أن رسول الله ﷺ أحبه وشهد له بالجنة ، وقال : « أرجو أن تكون خلفاً من حمزة » وقد رثى رسول الله ﷺ حين توفى بقصيدة ذكرناها فيما سلف ، وهى التى يقول فيها :

أرقت فبَاتَ ليلى لا يَزُول   وَلَيل أخ المصيبة فِيهِ طُول
وأسعدنى البُكَاء وَذَاكَ فيما   أُصِيبَ المسلمونَ بِهِ قَلِيل
فقد عظمت مصيبتنا وجلّت   عَشِيَّةَ قِيل قد قُبِضَ الرَّسُول
فقدْنا الوَحْى والتنزيل فِينَا   يَرُوح به وَيَغْدُو جبرئيل

ذكروا أن أبا سفيان حجّ ، فلما حلق رأسه قطع الحالق ثُؤلُولاً[2] له فى رأسه فتمرض منه ، فلم يزل كذلك حتى مات بعد مرجعه إلى المدينة ، وصلى عليه عمر بن الخطاب . وقد قيل : إن أخاه نوفلا توفى قبله بأربعة أشهر ، والله أعلم .

أبو الهيثم بن التيهان ، هو مالك بن مالك بن عسل بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن دعورا بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس ـ الأنصارى الأوسى . شهد العقبة نقيباً ، وشهد بدراً وما بعدها ، ومات سنة عشرين ، وقيل : إحدى وعشرين ، وقيل : إنه شهد صفّين مع علىّ . قال ابن الأثير : وهو الأكثر . وقد ذكره شيخنا هنا ، فالله أعلم .

---

(١) أى قادراً بارعا   (٢) الثؤلول : بثر صغير صلب مستدير على صور شتى ، والجمع ثآليل .

زينب بنت جحش ، ابن رِئاب ، الأسدية ، من أسد خزيمة ، أول أمهات المؤمنين وفاة ، أمها أميمة بنت عبد المطلب ، وكان اسمها بَرَّة ، فسماها رسول الله ﷺ زينب ، وتكنى : أم الحكم ، وهي التي زوجه الله بها ، وكانت تفتخر بذلك على أزواج النبي ﷺ ، فتقول : زوجكن أهلوكن ، وزوجني الله من السماء . قال الله تعالى : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا)[1] الآية . وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة ، فلما طلقها تزوجها رسول الله ﷺ . قيل : كان ذلك في سنة ثلاث ، وقيل : أربع ، وهو الأشهر . وقيل : سنة خمس . وفي دخوله عليه السلام بها نزل الحجاب ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، وهي التي كانت تسامي عائشة بنت الصديق في الجمال والحظوة ، وكانت دَيِّنة وَرِعَة عابدة كثيرة الصدقة . وذاك الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « أسْرَعُكُنَّ لحاقاً بي أطْوَلُكُنَّ يداً » - أي بالصدقة . وكانت امرأة صَناعا ، تعمل بيديها ، وتتصدق على الفقراء . قالت عائشة : ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة - من زينب بنت جحش . ولم تحج بعد حجة الوداع ، لا هيَ ولا سَوْدَة ؛ لقوله عليه السلام لأزواجه : « هذه ثم ظهور الحصر » . وأما بقية أزواج النبي ﷺ فكن يخرجن إلى الحج ، وقالتا زينب وسودة : والله لا تحركنا بعده دابة . قالوا : وبعث عمر إليها فرضها اثني عشر ألفاً ، فتصدقت به في أقاربها ، ثم قالت : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد هذا فماتت في سنة عشرين ، وصلى عليها عمر . وهي أول من صُنع لها النَّعش ، ودُفنت بالبقيع .

صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﷺ ، وهي أم الزبير بن العوام ، وهي شقيقة حمزة ، والمقوم ، وحَجْل أمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة . لا خلاف في إسلامها ، وقد حضرت يوم أحد ، ووَجَدت على أخيها حمزة وَجْداً كثيراً ، وقتلت يوم الخندق رجلا من اليهود ، جاء فجعل يطوف بالحصن التي هي فيه ، وهو فارع[2] حصن حسان ، فقالت لحسان : انزل فاقتله ، فأبى ، فنزلت إليه فقتلته ، ثم قالت : انزل فاسلبه ، فلولا أنه رجل لاستَلَبْته ، فقال : لا حاجة لي فيه . وكانت أول امرأة قتلت رجلا من المشركين . وقد اختلف في إسلام من عداها من عمات النبي ﷺ ، فقيل : أسلمت أرْوَى ، وعاتكة .

قال ابن الأثير وشيخنا أبو عبد الله الذهبي الحافظ : والصحيح أنه لم يسلم منهن غيرها .

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب

(٢) فارع : اسم الحصن .

وقد تزوجت أولا بالحارث بن حرب بن أمية . ثم خلف عليها العوّام بن خويلد فولدت له الزبير عند الكعبة . وقيل : تزوج بها العوام بكراً ، والصحيح الأول . توفيت بالمدينة سنة عشرين عن ثلاث وسبعين سنة ودفنت بالبقيع رضى الله عنها ، وقد ذكر ابن إسحق من توفى غيرها .

عويم بن ساعدة الأنصارى : شهد العقبتين والمشاهد كلها ، وهو أول من استنجى بالماء ، وفيه نزل قوله تعالى : (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)[1] وله روايات توفى فى هذه السنة بالمدينة .

بشر بن عمرو بن حنش: يلقب بالجارود ، أسلم فى السنة العاشرة ، وكان شريفاً مطاعاً فى عبد القيس ، وهو الذى شهد على قدامة بن مظعون أنه شرب الخمر ، فعزله عمر عن اليمن وحدّه ، قتل الجارود شهيدا .

أبو خراشة خويلد بن مرة الهذلى : كان شاعرا مجيداً مخضرما أدرك الجاهلية والإسلام وكان إذا جرى سبق الخيل نهشته حية فمات بالمدينة .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وفيها كانت وقعة نهاوند[2]

وفتحها على المشهور

وهى وقعة عظيمة جداً ، لها شأن رفيع ونبأ عجيب ، وكان المسلمون يسمونها فتح الفتوح

قال ابن إسحق والواقدى : كانت وقعة نهاوند فى سنة إحدى وعشرين . وقال سيف : كانت فى سنة سبع عشرة . وقيل فى سنة تسع عشرة والله أعلم . وإنما ساق أبو جعفر بن جزير قصتها فى هذه السنة فتبعناه فى ذلك ، وجمعنا كلام هؤلاء الأئمة فى هذا الشأن سياقا واحداً ، حتى دخل سياق بعضهم فى بعض . قال سيف وغيره : وكان الذى هاج هذه الوقعة ـ أن المسلمين لما افتتحوا الأهواز ومنعوا جيش العلاء من أيديهم ، واستولوا على دار الملك القديم من اصطخر مع ما حازوا من دار مملكتهم حديثا ، وهى المدائن ، وأخذ تلك المدائن والأقاليم والكور والبلدان الكثيرة ـ فحموا عند ذلك واستحثهم يزدجرد الذى تقهقر من بلد إلى بلد حتى صار إلى أصبهان مبعداً طريداً ، ولكنه فى أسرة من قومه وأهله وماله ، وكتب إلى ناحية نهاوند وما والاها من الجبال والبلدان ، فتجمعوا وتراسلوا حتى كمل لهم من الجنود مالم يجتمع لهم قبل ذلك ، فبعث سعد إلى عمر يعلمه بذلك ، وثار أهل الكوفة على سعد فى غضون هذا الحال ،

---

(١) من الآية : ١٠٨ من سورة التوبة

(٢) نهاوند: ـ مثلثة النون ـ مدينة عظيمة جنوب همذان بينهما ١٤ فرسخا وهى أعتق مدينة فى العراق

فشكوه فى كل شىء حتى قالوا : لا يحسن يُصلِّى . وكان الذى نهض بهذه الشكوى رجل يقال له : الجَرّاح بن سنان الأسدى فى نفر معه ، فلما ذهبوا إلى عمر فشكوه قال لهم عمر : إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الحال عليه ، وهو مستعد لقتال أعداء الله ، وقد جمعوا لكم ، ومع هذا لا يمنعنى أن أنظر فى أمركم .

ثم بعث محمد بن مسلمة ـ وكان رسول العمال ـ فلما قدم محمد بن مسلمة الكوفة طاف على القبائل والعشائر والمساجد بالكوفة ، فكل يثنى على سعد خيراً ـ إلا ناحية الجرّاح بن سنان وأصحابه ، فإنهم سكتوا فلم يذُموا ولم يشكروا ، حتى انتهى إلى بنى عبس ، فقام رجل يقال له أبو سَعْدة أسامة ابن قتادة ، فقال : أما إذ ناشدتنا فإن سعداً لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى الرعية ، ولا يغزو فى السرية . فدعا عليه سعد فقال : اللهم إن كان قالها كذباً ورياء وسمعة ، فأعم بصره ، وكثر عياله ، وعرضه لمضلاّت الفتن . فعَمِى واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع بخبر المرأة فلا يزال حتى يأتيها فيجسّها فإذا عُثر عليه قال : دعوة سعد الرجل المبارك . ثم دعا سعد على الجرّاح وأصحابه فكل أصابته قارعة فى جسده ، ومصيبة فى ماله بعد ذلك . واستنفر محمد بن مسلمة أهل الكوفة لغزو أهل نهاوند فى غضون ذلك عن أمر عمر بن الخطاب . ثم سار سعد ومحمد بن مسلمة والجراح وأصحابه حتى جاءوا عمر ، فسأله عمر : كيف يصلّى ؟ فأخبره أنه يطوّل فى الأوليين ويخفف فى الأخريين وما آلو ما اقتديت به من صلاة رسول الله ﷺ . فقال له عمر : ذاك الظن بك يا أبا إسحق .

وقال سعد فى هذه القصة : لقد أسلمت خامس خمسة ، ولقد كنا وما لنا طعام إلا ورق الحُبلة[1] حتى تقرحت أشداقنا ، وإنى لأول رجل رمى بسهم فى سبيل الله ، ولقد جمع لى رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد قبلى ، ثم أصبحت بنو أسد يقولون : لا يحسن يُصَلّى ! وفى رواية يعزرنى على الإسلام ، لقد خبت إذاً وضَلّ عملى . ثم قال عمر لسعد : من استخلفت على الكوفة ؟ فقال : عبد الله بن عبد الله بن عتبان ، فأقره عمر على نيابته الكوفة ـ وكان شيخاً كبيراً من أشراف الصحابة حليفاً لبنى الحبلى من الأنصار ـ واستمر سعد معزولاً من غير عجز ولا خيانة ويهدد أولئك النفر ، وكاد يوقع بهم بأساً . ثم ترك ذلك خوفاً من أن لا يشكو أحد أميراً .

والمقصود أن أهل فارس اجتمعوا من كل فج عميق بأرض نهاوند ، حتى اجتمع منهم مائة ألف وخمسون ألف مقاتل ، وعليهم الفَيْرُزان ، ويقال : بُندار ، ويقال : ذوالحاجب . وتذامروا فيما بينهم ، وقالوا : إن محمداً الذى جاء العرب لم يتعرّض لبلادنا ، ولا أبو بكر الذى قام بعده تعرّض لنا فى دار ملكنا ، وإن عمر بن الخطاب هذا لما طال مُلكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا ،

---

(١) الحبلة ـ بالضم ، ويحرك : الكرم ؛ وثمر السلم ـ أو ثمر العضاة عامة

ولم يكفه ذلك حتى أغزانا فى عقر دارنا ، وأخذ بيت المملكة ، وليس بمنتهٍ حتى يخرجكم من بلادكم . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ، ثم يشغلوا عمر عن بلاده ، وتواثقوا من أنفسهم ، وكتبوا بذلك عليهم كتاباً . فلما كتب سعد بذلك إلى عمر — وكان قد عزل سعداً فى غضون ذلك — شافه سعدٌ عمر بما تمالؤا عليه وتصدّوا إليه ، وأنه قد اجتمع منهم مائة وخمسون ألفاً . وجاء كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان من الكوفة إلى عمر ، مع قَرِيب بن ظَفَر العَبْدِىّ بأنهم قد اجتمعوا ، وهم متحرقون متذامرون على الإسلام وأهله ، وأن المصلحة يا أمير المؤمنين أن نقصدهم فنعاجلهم عما همّوا به وعزموا عليه من المسير إلى بلادنا . فقال عمر لحامل الكتاب : ما اسمك ؟ قال : قَرِيب . قال : ابن من ؟ قال : ابن ظفَر . فتفاءل عمر بذلك وقال : ظَفَر قَرِيب .

ثم أمر ، فنودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، وكان أول من دخل المسجد لذلك سعد بن أبى وقاص ، فتفاءل عمر أيضاً بسعد ، فصعد عمر المنبر حتى اجتمع الناس ، فقال : إنّ هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألاَ وإنى قد هممتُ بأمر فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، إنى قد رأيت أن أسير بمَن قِبلى حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المِصْرَين فأستنفرَ الناس ، ثم أكونَ لهم رِدْءاً حتى يفتح الله عليهم فقام عثمان ، وعلىّ ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف — فى رجال من أهل الرأى ، فتكلم كل منهم بانفراده ، فأحسن وأجاد ، واتفق رأيهم على أن لا يسير من المدينة ، ولكن يبعث البعوث ، ويحوطهم برأيه ودعائه . وكان من كلام علىّ رضى الله عنه أن قال :

يا أمير المؤمنين ، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهره ، وجُنده الذى أعزّه ، وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله والله مُنجز وَعْدَه ، وناصر جنده ، ومكانك منهم يا أمير المؤمنين مكان النِّظام[1] من الخرز يجمعه ويُمسكه ، فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً . والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثير عزيز بالإسلام ، فأقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، فليذهب منهم الثلثان ويقيم الثلث واكتب إلى أهل البصرة يمدّونهم أيضاً . — وكان عثمان قد أشار فى كلامه أن يمدهم فى جيوش من أهل اليمن والشام . ووافق عمر على الذهاب إلى ما بين البصرة والكوفة — فرد علىّ على عثمان فى موافقته على الذهاب إلى ما بين البصرة والكوفة كما تقدم ،

---

(١) النظام : الخيط الذى ينظم به الخرز ، وغيره .

وردّ رأى عثمان فيما أشار به من استمداد أهل الشام خوفاً على بلادهم إذا قل جيوشها من الروم . ومن أهل اليمن خوفا على بلادهم من الحبشة . فأعجب عمر قولُ علىّ وسُرّ به ـ وكان عمر إذا استشار أحدا لا يبرم أمرا حتى يشاور العباس ـ فلما أعجبه كلام الصحابة فى هذا المقام عرضه على العباس فقال :

يا أمير المؤمنين ،خفض عليك ، فإنما اجتمع هؤلاء الفرس لنقمة تنزل عليهم . ثم قال عمر: أشيروا على بمن أوليه أمر الحرب وليكن عراقيا . فقالوا : أنت أبصر بجندك يا أمير المؤمنين . فقال : أما والله لأولينّ رجلا يكون أول الأسنّة إذا لقيها غدا . قالوا : من يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : النعمان ابن مقرّن . فقالوا : هو لها ـ وكان النعمان قد كتب إلى عمر وهو على كَسْكَر[1] وسأله أن يعزله عنها ويوليّه قتال أهل نهاوند ـ فلهذا أجابه إلى ذلك وعينه له . ثمّ كتب عمر إلى حذيفة أن يسير من الكوفة بجنود منها ، وكتب إلى أبى موسى أن يسير بجنود البصرة ، وكتب إلى النعمان ـ وكان بالبصرة ـ أن يسير بمن هناك من الجنود إلى نهاوند ، وإذا اجتمع الناس فكل أمير على جيشه ، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرّن . فإذا قتل فحذيفة بن اليمان ، فإن قتل فجرير بن عبد الله ، فإن قتل فقيس بن مكشوح ، فإن قتل قيس ففلان ثم فلان ، حتى عد سبعة أحدهم المغيرةَ بن شعبةَ ، وقيل لم يسم فيهم ، والله أعلم .

وصورة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى النعمان بن مقرّن ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو . أما بعد، فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفّروهم ، ولا تدخلهم غَيضة ، فإن رجلا من المسلمين أحبّ إلى من مائة ألف دينار ، والسلام عليك : فسر فى وجهك ذلك حتى تأتى ماه[2] فإنى كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفَيْرَزان ومَن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصروا وأكثروا من لا حَولَ ولا قوّة إلا بالله » .

وكتب عمر إلى نائب الكوفة ـ عبد الله بن عبد الله ـ أن يعين جيشا ويبعثهم إلى نهاوند ، وليكن الأمير عليهم حُذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النّعمان بن مقرّن ، فإن قتل النعمان فحُذيفة ،

---

(١) كسكر : كورة واسعة تليها نواح كثيرة لجأ إليها الفرس بعد هزيمتهم .

(٢) الماه : قصبة البلد . والماهان : ماه الكوفة وماه البصرة .

فإن قتل فنعيم بن مقرن . وولى السائب بن الأقرع قسم الغنائم . فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماه ، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق ، وقد أرصد في كل كورة ما يكفيها من المقاتلة ، وجعل الحرس في كل ناحية واحتاطوا احتياطا عظيما ، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا ، فدفع حذيفة بن اليمان إلى النعمان كتاب عمر ، وفيه الأمر له بما يعتمده في هذه الوقعة ، فكمل جيش المسلمين ثلاثين ألفاً من المقاتلة فيما رواه سيف عن الشعبي ، فنهم من سادات الصحابة ورءوس العرب خلق كثير وجم غفير ، منهم: عبد الله بن عمر أمير المؤمنين ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وحذيفة بن اليمان ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، وقيس بن مكشوح المرادي. فسار الناس نحو نهاوند ، وبعث النعمان ابن مقرن الأمير بين يديه طليعة ثلاثة وهم طليحة ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي ، وعمرو بن أبي سلمى - ويقال له عمرو بن ثبي أيضاً ، ليكشفوا له خبر القوم وما هم عليه . فسارت الطليعة يوما وليلة فرجع عمرو بن ثبي فقيل له : ما رجعك ؟ فقال : كنت في أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها . ثم رجع بعده عمرو بن معدى كرب وقال : لم نر أحداً وخفت أن يؤخذ علينا الطريق ؛ ونفذ طليحة ولم يحفل برجوعهما . فسار بعد ذلك نحواً من بضعة عشر فرسخا حتى انتهى إلى نهاوند ، ودخل في العجم وعلم من أخبارهم ما أحب .

ثم رجع إلى النعمان فأخبره بذلك ، وأنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه . فسار النعمان على تعبئته ، وعلى المقدمة نعيم بن مقرن ، وعلى المجنبتين حذيفة وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود ، حتى انتهوا إلى الفرس وعليهم الفيرزان ، ومعه من الجيش كل من غاب عن القادسية في تلك الأيام المتقدمة ، وهو في مائة وخمسين ألفا ، فلما تراءى الجمعان كبر النعمان وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، فزلزلت الأعاجم ورعبوا من ذلك رعبا شديدا. ثم أمر النعمان بحط الأثقال وهو واقف ، فحط الناس أثقالهم ، وتركوا رحالهم ، وضربوا خيامهم وقبابهم . وضربت خيمة للنعمان عظيمة ، وكان الذين ضربوا أربعة عشر من أشراف الجيش ، وهم حذيفة بن اليمان ، وعقبة بن عمرو ، والمغيرة بن شعبة ، وبشير بن الخصاصية ، وحنظلة الكاتب وابن الهوبر ، وربعي بن عامر ، وعامر بن مطر ، وجرير بن عبد الله الحميري ، وجرير بن عبدالله البجلي ، والأقرع بن عبد الله الحميري ، والأشعث بن قيس الكندي ، وسعيد بن قيس الهمداني ، ووائل بن حجر ، فلم ير بالعراق خيمة عظيمة أعظم من بناء هذه الخيمة ، وحين حطوا الأثقال أمر النعمان بالقتال - وكان يوم الأربعاء - فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده ، والحرب سجال .

فلما كان يوم الجمعة انحجروا في حصنهم ، وحاصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله ، والأعاجم يخرجون إذا أرادوا ويرجعون إلى حصونهم إذا أرادوا . وقد بعث أمير الفرس يطلب

رجلا من المسلمين ليكلمه ، فذهب إليه المغيرة بن شعبة ، فذكر من عِظم ما رأى عليه من لبسه ومجلسه ، وفيما خاطبه به من الكلام، في احتقار العرب واستهانته بهم ، وأنهم كانوا أطول الناس جوعاً ، وأقلهم داراً وقدراً . وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تَجَنُّباً[1] من جيفكم ، فإن تذهبوا نخلِّ عنكم ، وإن تأبوا نركم مصارعكم . قال : فتشهدتُ وحمدت الله وقلت : لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله ، ووعدنا النصر في الدنيا ، والخير في الآخرة ، وما زلنا نتعرّف من ربنا النصر منذ بعث الله رسوله إلينا ، وقد جئناكم في بلادكم وإنا لن نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم أو نقتل بأرضكم . فقال : أما والله إن الأعور لقد صدقكم ما في نفسه . فلما طال على المسلمين هذا الحال واستمر ، جمع النعمان ابن مقرّن أهل الرأي من الجيش وتشاوروا في ذلك ، وكيف يكون من أمرهم حتى يتوجهوا هم والمشركون في صعيد واحد ، فتكلم عَمرو بن أبي سلمى أولا - وهو أسن من كان هناك - فقال : إن بقاءهم على ما هم عليه أضرّ عليهم من الذى نطلبه منهم وأبقى على المسلمين . فرد الجميع عليه ، وقالوا : إنا لعلى يقين من إظهار ديننا ، وإنجاز موعود الله لنا .

وتكلم عمرو بن معدى كرب ، فقال : ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم . فردوا جميعاً عليه ، وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران والجدران أعوان لهم علينا . وتكلم طليحة الأسدى فقال : إنهما لم يصيبا ما أرادا ، وإني أرى أن تبعث سرية فتحدق بهم ، ويناوشوهم بالقتال ويحمشوهم ، فإذا برزوا إليهم فليفروا إلينا هراباً ، فإذا استطردوا وراءهم وانتموا إلينا - عزمنا أيضاً على الفرار كلنا ، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم ، فاذا تكامل خروجهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضى الله بيننا . فاستجاد الناس هذا الرأى ، وأمّر النعمان على المجرّدة القعقاع بن عمرو ، وأمرهم أن يذهبوا إلى البلد فيحاصروهم وحدهم ، ويهربوا بين أيديهم إذا برزوا إليهم . ففعل القعقاع ذلك ، فلما برزوا من حصونهم نكص القعقاع بمن معه ، ثم نكص ثم نكص ، فاغتنمها الأعاجم ، ففعلوا ما ظنّ طليحة ، وقالوا : هي هي ، فخرجوا بأجمعهم ولم يبق بالبلد من المقاتلة إلا من يحفظ لهم الأبواب حتى انتهوا إلى الجيش ، والنعمان بن مقرّن على تعبئته . وذلك في صَدر نهار يوم جمعة ، فعزم الناس على مصادمتهم ، فنهاهم النعمان وأمرهم أن لا يقاتلوا حتى تزول الشمس ، وتهب الأرواح ، وَينزل النصر كما كان رسول الله ﷺ يفعل . وألح الناس على النعمان في الحملة فلم يفعل - وكان رجلا ثابتاً - فلما حان الزوال صلى بالمسلمين ثم ركب برذوناً له أحوى قريباً من الأرض ، فجعل يقف على كل راية ويحثهم على الصبر ويأمرهم بالثبات ،

(١) مج الشراب من فيه : رمى به . والمجاجة : الريق الذى تمجه من فيك . وفي الطبرى : إلا تنجساً لجيفكم فإنكم أرجاس .

و يقدم إلى المسلمين أنه يكبر الأولى فيتأهب الناس للحملة ، ويُكبِّر الثانية فلا يبقى لأحد أهبة ، ثم الثالثة ومعها الحملة الصادقة ، ثم رجع إلى موقفه .

وتعبت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة ، في عَدَد وَعُدد لم ير مثله ، وقد تغلغل كثير منهم بعضهم في بعض ، وألقوا حَسَك الحديد[1] وراء ظهورهم حتى لا يمكنهم الهرب وَلا الفرار ، وَلا التحيز ثم إن النعمان بن مقرِّن ـ رضي الله عنه ـ كبر الأولى وَهز الراية فتأهب الناس للحملة ، ثم كبَّر الثانية وَهز الراية فتأهبوا أيضا ، ثم كبر الثالثة وحَمل وَحمل الناس على المشركين ، وَجعلت راية النعمان تنقض على الفرس كانقضاض العُقاب على الفريسة ، حتى تصالحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالا لم يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة ، وَلا سمع السامعون بوقعة مثلها ؛ قتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبّق وَجه الأرض دماً ، بحيث إن الدواب كانت تطبع فيه ، حتى قيل: إن الأمير النعمان بن مقرن زلق به حصانه في ذلك الدم فوقع وَجاءه سهم في خاصرته فقتله ، وَلم يشعر به أحد سوى أخيه سُوَيد ، وَقيل نُعيم ، وَقيل : غطاه بثوبه وَأخفى موته ودفع الراية إلى حُذيفة بن اليمان فأقام حُذيفة أخاه نُعيما مكانه ، وأمرَ بكتم موته حتى ينفصل الحال لئلا ينهزم الناس فلما أظلم الليل انهزم المشركون مُدبرين وتبعهم المسلمون ، وَكان الكفار قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وَحفروا حولهم خندقاً ، فلما انهزموا وقعوا في الخندق وفي تلك الأودية نحو مائة ألف ، وَجعلوا يتساقطون في أودية بلادهم فهلك منهم بَشر كثير نحو مائة ألف أو يزيدون ، سوى من قتل في المعركة ، وَلم يفلت منهم إلا الشريد .

وَكان الفيرُزان أميرهم قد صُرع في المعركة فانفلت وَانهزم ، واتبعه نُعيم بن مقرّن ، وَقدم القعقاع بين يديه وَقصد الفيرُزان همَذان فلحقه القعقاع وَأدركه عند ثَنِيَّة همَذان ، وقد أقبل منها بغال كثير وَحُمُر تحمل عسلاً ، فلم يستطع الفيرُزان صعودها منهم ، وَذلك لحينه ، فترجَّل وتعلق في الجبل فاتبعه القعقاع حتى قتله ، وَقال المسلمون يومئذ : إن لله جنوداً من عسَل ، ثم غنموا ذلك العسَل وَما خالطه من الأحمال ، وَسميت تلك الثنية ثنية العسَل.

ثم لحق القعقاع بقية المنهزمين منهم إلى همَذان وَحاصرها وَحوَى ما حولها : فنزل إليه صاحبها ـ وَهو خُسْرَوْشَنُوم ـ فصالحه عليها . ثم رجع القعقاع إلى حُذيفة وَمن معه من المسلمين ، وَقد دخلوا بعد الوقعة نهاوند عَنوة ، وَقد جمعوا الأسلاب وَالمغانم إلى صاحب الأقباض وَهو السائب ابن الأقرع ، وَلما سمع أهل ماه بخبر أهل همذان بعثوا إلى حذيفة وأخذوا لهم منه الأمان ، وَجاء رجل

---

(١) حسك الحديد : ما يعمل منه على مثال نبت السعدان ، وهو من آلات العسكر .

يقال له : الهربذ ـ وهو صاحب نارهم ـ فسأل من حذيفة الأمان، ويدفع إليهم وديعة عنده لكسرى، ادخرها لنوائب الزمان ، فأمنه حذيفة وجاء ذلك الرجل بسفطين مملوءين جوهراً ثميناً لا يقوم ، غير أن المسلمين لم يعبئوا به ، واتفق رأيهم على بعثه لعمر خاصة ، وأرسلوه صحبة الأخماس والتي صحبة السائب بن الأقرع ، وأرسله قبله بالفتح مع طريف بن سهم ، ثم قسم حذيفة بقية الغنيمة في الغانمين ، ورضخ ونفل لذوى النجدات ، وقسم لمن كان قد أرصد من الجيوش لحفظ ظهور المسلمين من ورائهم ، ومن كان ردءاً لهم ، ومنسوباً إليهم .

وأما أمير المؤمنين ، فإنه كان يدعو الله ليلا ونهاراً لهم ، دعاء الحوامل المقربات ، وابتهال ذوى الضرورات ، وقد استبطأ الخبر عنهم فبينا رجل من المسلمين ظاهر المدينة ـ إذا هو براكب فسأله: من أين أقبل ؟ فقال : من نهاوند . فقال : مافعل الناس ؟ فقال : فتح الله عليهم وقتل الأمير، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، أصاب الفارس ستة آلاف والراجل ألفان . ثم فاته وقدم ذلك الرجل المدينة فأخبر الناس ، وشاع الخبر حتى بلغ أمير المؤمنين ، فطلبه فسأله عن أخبره ، فقال:راكب ، فقال : إنه لم يجئنى ، وإنما هو رجل من الجن وهو بريدهم ، واسمه عثيم ، ثم قدم طريف بالفتح بعد ذلك بأيام ، وليس معه سوى الفتح ، فسأله عن قتل النعمان فلم يكن معه علم حتى قدم الذين معهم الأخماس فأخبروا بالأمر على جليته ، فإذا ذلك الجني قد شهد الوقعة ورجع سريعاً إلى قومه نذيراً . ولما أخبر عمر بمقتل النعمان بكى ، وسأل السائب عن قتل من المسلمين ، فقال : فلان وفلان وفلان ، لأعيان الناس وأشرافهم .

ثم قال : وآخرون من أفناد الناس[1] ممن لا يعرفهم أمير المؤمنين ، فجعل يبكى ويقول : وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين ؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة ، وما يصنعون بمعرفة عمر ؟ ثم أمر بقسمة الخمس على عادته ، وحمل ذانك السفطان إلى منزل عمر، ورجعت الرسل، فلما أصبح عمر طلبهم فلم يجدهم ، فأرسل فى إثرهم البرد فما لحقهم البريد إلا بالكوفة .

قال السائب بن الأقرع : فلما أنخت بعيرى بالكوفة ، أناخ البريد على عرقوبى بعيرى ، وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت : لماذا ؟ فقال : لا أدرى . فرجعنا على إثرنا ، حتى انتهيت إليه . قال : مالى ولك يا ابن أم السائب ؟ بل ما لابن أم السائب ومالى ؟ قال : فقلت :وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال : ويحك، والله ما هو إلا أن نمت فى الليلة التى خرجت فيها فباتت ملائكة الله تسحبنى إلى ذينك السفطين وهما يشتعلان ناراً ، يقولون : لنكوينك بهما . فأقول : إنى سأقسمهما بين المسلمين . فاذهب بهما لا أبالك فبعهما فاقسمهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم ، فإنهم لا يدرون ما وهبوا ، ولم تدر أنت معهم .

---

(١) أى: جماعتهم المجهولين ممن بهم فند ، وهو العجز والهرم والمرض ... الخ .

قال السائب : فأخذتهما حتى جئت بهما مسجد الكوفة ، وغشيني التجار فابتاعهما منى عمرو ابن حُريث المخزومى بألفى ألف . ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد ذلك قال سيف : ثم قسم غنمها بين الغانمين، فنال كل فارس أربعة آلاف درهم من ثمن السفطين قال الشعبى : وحصل للفارس من أصل الغنيمة ستة آلاف وللراجل ألفان ، وكان المسلمون ثلاثين ألفاً .

قال : وافتتحت نهاوند فى أول سنة تسع عشرة لسبع سنين من إمارة عمر . رواه سيف عن عمرو بن محمد عنه . وبه عن الشعبى قال: لما قدم سبى نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة ـ فيروز غلام المغيرة بن شعبة ـ لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال : أكل عمر كبدى ـ وكان أصل أبى لؤلؤة من نهاوند ، فأسرته الروم أيام فارس ، وأسره المسلمون بعد ، فنسب إلى حيث سبى ـ قالوا : ولم تقم للأعاجم بعد هذه الوقعة قائمة ، وأتحف عمر الذين أبلوا فيها بألفين ، تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم .

وفى هذه السنة افتتح المسلمون أيضاً بعد نهاوند مدينة جىّ ـ وهى مدينة أصبهان ـ بعد قتال كثير وأمور طويلة ، فصالحوا المسلمين وكتب لهم عبد الله بن عبد الله كتاب أمان وصلح ، وفرّ منهم ثلاثون نفراً إلى كرمان لم يصالحوا المسلمين وقيل : إن الذى فتح أصبهان ـ هو النعمان ابن مقرن وأنه قتل بها ، ووقع أمير المجوس ـ وهو ذو الحاجبين ـ عن فرسه ، فانشق بطنه ومات ، وانهزم أصحابه . والصحيح أن الذى فتح إصبهان عبد الله بن عبد الله بن عتبان ـ الذى كان نائب الكوفة ، وفيها افتتح أبو موسى: قُمّ ، وقاشان . وافتتح سهيل بن عدى مدينة كرمان .

وذكر ابن جرير عن الواقدى : أن عمرو بن العاص سار فى جيش معه إلى طرابلس قال : وهى بَرقة ، فافتتحها صلحًا على ثلاثة عشر ألف دينار فى كل سنة .

قال : وفيها بعث عمرو بن العاص عُقبة بن نافع الفهرى إلى زَويلة ، ففتحها بصلح ، وصار ما بين بَرقة إلى زَويلة سلما للمسلمين .

قال : وفيها ولى عمر عمّار بن ياسر على الكوفة بدل زياد بن حنظلة الذى ولّاه بعد عبد الله ابن عبد الله بن عتبان ، وجعل عبد الله بن مسعود على بيت المال ، فاشتكى أهل الكوفة من عمّار ، فاستعفى عمّار من عمله ، فعزله ، وولى جُبير بن مطعم ، وأمره أن لا يعلم أحداً ، وبعث المغيرة بن شعبة امرأته إلى امرأة جُبير يعرض عليها طعامًا للسفر ، فقالت : اذهبى فأتينى به . فذهب المغيرة إلى عمر ، فقال : بارك الله لك يا أمير المؤمنين فيمن وَلّيت على الكوفة . فقال : وما ذاك ؟ وبعث إلى جُبير بن مطعم فعزله ، وولى المغيرة بن شعبة ثانية ، فلم يزل عليها حتى مات عمر رضى الله عنهم .

قال : وفيها حج عمر ، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت ؛ وكان عماله على البلدان ـ المتقدمون في السنة التي قبلها ؛ سوى الكوفة .

قال الواقدي : وفيها توفي خالد بن الوليد بحمص وأوصى إلى عمر بن الخطاب . وقال غيره توفي سنة ثلاث وعشرين ، وقيل بالمدينة ، والأول أصح . وقال غيره : وفيها توفي العلاء بن الحضرمي ، فولى عمر مكانه أبا هريرة . وقد قيل : إن العلاء توفي قبل هذا كما تقدم ، والله أعلم .

وقال ابن جرير فيما حكاه عن الواقدي : وكان على دمشق في هذه السنة عمير بن سعيد ، وهو أيضاً على حمص ، وحوران ، وقنسرين والجزيرة ، وكان معاوية على البلقاء والأردن ، وفلسطين ، والسواحل وإنطاكية ، وغير ذلك .

ذكر من توفي في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وعشرين

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي ـ أبو سليمان المخزومي ، سيف الله ، وأحد الشجعان المشهورين ، لم يقهر في جاهلية ولا إسلام . وأمه عصماء بنت الحارث ، أخت لبابة[1] بنت الحارث ، وأخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين . قال الواقدي : أسلم أول يوم من صفر سنة ثمان ، وشهد مؤتة وانتهت إليه الإمارة يومئذ عن غير إمرة ، فقاتل يومئذ قتالا شديداً لم ير مثله ، اندقت في يده تسعة أسياف ، ولم تثبت في يده إلا صفيحة يمانية . وقد قال رسول الله ﷺ « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله على يده » . وقد روى أن خالداً سقطت قلنسوته يوم اليرموك وهو في الحرب فجعل يستحث في طلبها فعوتب في ذلك ، فقال : إن فيها شيئاً من شعر ناصية رسول الله ﷺ ، وإنها ما كانت معي في موقف إلا نصرت بها .

وقد روينا في مسند أحمد ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده وحشي بن حرب عن أبي بكر الصديق ، أنه لما أمر خالداً على حرب أهل الردة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فنعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ؛ خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين » وقال أحمد : حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن عبد الملك بن عمير قال : استعمل عمر بن الخطاب أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث إليكم أمين هذه الأمة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خالد سيف من سيوف الله نعم فتى

---

(١) في بعض النسخ : أمه لبابة بنت الحارث أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين

العشيرة » وقد أورده ابن عساكر من حديث عبد الله بن أبى أوفى ، وأبى هريرة ، ومن طرق مرسلة يقوى بعضها بعضاً .

وفى الصحيح : « وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً وقد احتبس أدراعه وأعبده فى سبيل الله » وشهد الفتح وشهد حنيناً ، وغزا بنى جَذيمة أميراً فى حياته عليه السلام .

واختلف فى شهوده خيبر ، وقد دخل مكة أميرا على طائفة من الجيش وقتل خلقاً كثيرا من قريش ، كما قدمنا ذلك مبسوطا فى موضعه ، ولله الحمد والمنة . وَبعثه رسول الله ﷺ إلى العُزّى ـ وكانت لهوزان ـ فكسر قتها أولا ، ثم دعثرها وجعل يقول :

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ثم حرقها . وَقد استعمله الصديق بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على قتال أهل الردة ومانعى الزكاة ، فشفى واشتفى . ثم وجهه إلى العراق، ثم أتى الشام فكانت له من المقامات ما ذكرناها مما تقرّ بها القلوب وَالعيون ، وَتتشنف بها الأسماع . ثم عزله عمر عنها وَوَلى أبا عبيدة وَأبقاه مستشاراً فى الحرب ، وَلم يزل بالشام حتى مات على فراشه رضى الله عنه .

وَقد روى الواقدى ، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه قال : لما حضرت خالداً الوفاة بكى ثم قال : لقد حضرت كذا وَكذا زحفاً ، وَما فى جسدى شبر إلا وَفيه ضربة سيف ، أوطعنة برمح ، أو رَمية بسهم ، وَها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . وَقال أبو يعلى : ثنا شريح بن يونس ثنا يحيى بن زكريا عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس قال : قال خالد بن الوليد : ما ليلة يُهدى إلى فيها عَروس ، أو أُبَشَّر فيها بغلام ـ بأحبّ إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبّح بهم العدوّ . وقال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن خيثمة قال : أتى خالد برجل معه زق خمر فقال : اللهم اجعله عسلا ، فصار عسلا وَله طرق ، وَفى بعضها : مر عليه رجل معه زق خمر فقال له خالد : ما هذا ؟ فقال : عسل فقال: اللهم اجعله خلاً ، فلما رجع إلى أصحابه قال : جئتكم بخمر لم يشرب العرب مثله ، ثم فتحه فإذا هو خل ، فقال: أصابته وَالله دعوة خالد رضى الله عنه . وَقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لقى خالد عدوا له فولىّ عنه المسلمون منهزمين وَثبت هو وَأخو البراء بن مالك ، وَكنت بينهما وَاقفاً ، قال : فنكس خالد رأسه ساعة إلى الأرض ، ثم رفع رأسه إلى السماء ساعة ـ قال : وكذلك كان يفعل إذا أصابه مثل هذا ، ثم قال لأخى البراء : قُم ، فركبا ، وَاختطب خالد من معه من المسلمين وقال : ما هو إلا الجنة وما إلى المدينة سبيل . ثم حمل بهم فهزم المشركين

وقد حكى مالك ، عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر : اكتب إلى خالد أن لا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرك . فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك ، فكتب إليه خالد : إما أن تدعني وعملي ، وإلا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا قال : فأنت فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار ، ثم جاء الصحابة فأشاروا على الصديق بإبقاء عمر بالمدينة وإبقاء خالد بالشام . فلما ولي عمر كتب إلى خالد بذلك ، فكتب إليه خالد بمثل ذلك فعزله ، وقال : ما كان الله ليراني آمر أبا بكر بشيء لا أنفذه أنا . وقد روى البخاري في التاريخ وغيره من طريق على بن رباح عن ياسر بن سمي الرني ، قال : سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد ، فقال : أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس ، وذا الشرف واللسان ، فأمرت أبا عبيدة . فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : ما اعتذرت يا عمر ، لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله ﷺ ، ووضعت لواء رفعه رسول الله ﷺ ، وأغمدت سيفاً سله الله ، ولقد قطعت الرحم ، وحسدت ابن العم فقال عمر : إنك قريب القرابة ، حديث السن مغضب في ابن عمك .

قال الواقدي رحمه الله ، ومحمد بن سعيد وغير واحد : مات سنة إحدى وعشرين بقرية على ميل من حمص ، وأوصى إلى عمر بن الخطاب . وقال دُحيم وغيره : مات بالمدينة ، والصحيح الأول.

وقدمنا فيما سلف ـ تعزير عمر له حين أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف ، وأخذه من ماله عشرين ألفاً أيضاً وقدمنا عتبه عليه لدخول الحمام وتدلكه بعد النورة بدقيق عصفر معجون بخمر ، واعتذار خالد إليه بأنه صار غسولا . وروينا عن خالد أنه طلق امرأة من نسائه وقال : إني لم أطلقها عن ريبة ، ولكنها لم تمرض عندي ولم يصبها شيء في بدنها ولا رأسها ولا في شيء من جسدها . وروى سيف وغيره : أن عمر قال حين عزل خالداً عن الشام ، والمثنى بن حارثة عن العراق : إنما عزلتهما ليعلم الناس أن الله نصر الدين لا بنصرهما وأن القوة لله جميعاً . وروى سيف أيضاً: أن عمر قال حين عزل خالداً عن قنسرين وأخذ منه ما أخذ : إنك علي لكريم ، وإنك عندي لعزيز ، ولن يصل إليك مني أمر تكرهه بعد ذلك وقد قال الأصمعي عن سلمة عن بلال عن مجالد عن الشعبي قال : اصطرع عمر وخالد وهما غلامان ـ وكان خالد ابن خال عمر ـ فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت ، وكان ذلك سبب العداوة بينهما .

وقال الأصمعي عن ابن عون عن محمد بن سيرين قال : دخل خالد على عمر وعليه قميص حرير فقال عمر: ما هذا يا خالد؟ فقال : وما بأس يا أمير المؤمنين ، أليس قد لبسه عبد الرحمن بن عوف؟ فقال: وأنت مثل ابن عوف ؟ ولك مثل ما لابن عوف؟ عزمت على من بالبيت إلا أخذ كل واحد منهم بطائفة مما يليه قال :

فرقوه حتى لم يبق منه شيء . وقال عبد الله بن المبارك عن حماد بن زيد : حدثنا عبد الله بن المختار عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي وائل - ثم شك حماد في أبي وائل - قال : ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال : لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي . وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله - من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلني تمطر إلى الصبح ، حتى نغير على الكفار ثم قال : إذا أنا مت فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله . فلما توفي خرج عمر على جنازته فذكر قوله : ما على نساء آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن، مالم يكن نقعا أو لقلقة .

قال ابن المختار : النقع - التراب على الرأس ، واللقلقة الصوت . وقد علق البخاري في صحيحه بعض هذا فقال : وقال عمر : دعهن يبكين على أبي سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة. وقال محمد بن سعد ثنا وكيع وأبو معاوية وعبد الله بن نمير قالوا : حدثنا الأعمش عن شقيق بن سلمة قال : لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكين عليه فقيل لعمر : إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه ، وهن خلقاء أن يسمعنك بعض ما تكره . فأرسل إليهن فانههن . فقال عمر : وما عليهن أن ينزفن من دموعهن على أبي سليمان ، مالم يكن نقعاً أو لقلقة . ورواه البخاري في التاريخ من حديث الأعمش بنحوه .

وقال إسحق بن بشر وقال محمد : مات خالد بن الوليد بالمدينة فخرج عمر في جنازته وإذا أمه تندبه وتقول :

أنت خير من ألف ألف من القو م إذا ما كبت وجوه الرجال

فقال : صدقت ، والله إن كان لكذلك .

وقال سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم ، قال : فأقام خالد في المدينة حتى إذا ظن عمر أنه قد زال ما كان يخشاه من افتتان الناس به ، وقد عزم على توليته بعد أن يرجع من الحج ، واشتكى خالد بعده وهو خارج من المدينة زائراً لأمه ، فقال لها : احدروني[1] إلى مهاجري ، فقدمت به المدينة ومرضته فلما ثقل وأظل قدوم عمر ، لقيه لاق على مسيرة ثلاث صادراً عن حجة فقال له عمر: مهيم[2] فقال : خالد بن الوليد ثقيل لما به فطوى عمر ثلاثاً في ليلة فأدركه حين قضى ، فرق عليه واسترجع وجلس ببابه حتى جهز ، وبكته البواكي ، فقيل لعمر : ألا تسمع ؟ ألا تنهاهن ؟ فقال : وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان ؟ مالم يكن نقع ولا لقلقة . فلما خرج لجنازته رأى عمر امرأة محرمة تبكيه وتقول :

---

(١) أي أسرعوا بي والحدر : الحط من علو الى سفل. (٢) كلمة استفهام ، أى ماشأنك؟ أو ما وراءك ؟

أنت خير من ألف ألف من النا س إذا ما كبت وجوه الرجال
أشجاع ؟ فأنت أشجع من ليث ضمر بن جهم أبى أشبال
أجواد ؟ فأنت أجود من سيل دياس يسيل بين الجبال

فقال عمر : من هذه ؟ فقيل له : أمه . فقال : أمه واهاً له - ثلاثاً . وهل قامت النساء عن مثل خالد ؟ قال : فكان عمر يتمثل فى طيه تلك الثلاث فى ليله وفى قدومه .

تبكى ما وصلت به الندامى ولا تبكى فوارس كالجبال
أولئك إن بكيت أشد فقدا من الاذهاب والعكر الجلال
تمنى بعدهم قوم مدام فلم يدنوا لأسباب الكمال

وفى رواية أن عمر قال لأم خالد : أخالداً أو أجره ترزئين ؟ عزمت عليك أن لا تبيتى حتى تسود يداك من الخضاب . وهذا كله مما يقتضى موته بالمدينة النبوية ، وإليه ذهب دُحيم عبد الرحمن ابن إبراهيم الدمشقى ، ولكن المشهور عن الجمهور - وهم: الواقدى ، وكاتبه محمد بن سعد ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وإبراهيم بن المنذر ، ومحمد بن عبد الله بن نمير ، وأبو عبد الله العصفرى ، وموسى بن أيوب ، وأبو سليمان بن أبى محمد وغيرهم - أنه مات بحمص سنة إحدى وعشرين . زاد الواقدى : وأوصى إلى عمر بن الخطاب . وقد روى محمد بن سعد عن الواقدى، عن عبد الرحمن ابن أبى الزناد وغيره قالوا : قدم خالد المدينة بعد ما عزله عمر فاعتمر، ثم رجع إلى الشام ، فلم يزل بها حتى مات فى سنة إحدى وعشرين . وروى الواقدى : أن عمر رأى حُجّاجاً يصلون بمسجد قُباء فقال : أين نزلتم بالشام ؟ قالوا : بحمص ، قال : فهل من معرفة خبر ؟ قالوا : نعم مات خالد بن الوليد . قال : فاسترجع عمر وقال : كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة . فقال له على : فلم عزلته ؟ قال : لبذله المال لذوى الشرف واللسان .

وفى رواية أن عمر قال لعلى : ندمت على ما كان منى . وقال محمد بن سعد : أخبرنا عبد الله ابن الزبير الحميدى، ثنا سفيان بن عيينة ثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمعت قيس بن أبى حازم يقول : لما مات خالد بن الوليد قال عمر : رحم الله أبا سليمان ، لقد كنا نظن به أموراً ما كانت . وقال جويرية عن نافع قال : لما مات خالد لم يوجد له إلا فرسه وغلامه وسلاحه - وقال القاضى المعافا ابن زكريا الحريرى : ثنا أحمد بن العباس العسكرى، ثنا عبد الله بن أبى سعد، حدثنى عبد الرحمن ابن حمزة اللخمى ، ثنا أبو على الحرنازى قال : دخل هشام بن البختري فى ناس من بنى مخزوم على عمر بن الخطاب ، فقال له : ياهشام ؛ أنشدنى شعرك فى خالد . فأنشده فقال : قصرت فى الثناء على أبى سليمان - رحمه الله ، إنه كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله . ثم قال عمر: قاتل الله أخا بنى تميم ما أشعره .

وقل للذى يبقى خلاف الذى مضى ‏ تهيأ لأخرى مثلها فكأن قدِى
فما عيش من قد عاش بعدى بنافعى ‏ ولا موت من قد مات يوماً بمخلدى

ثم قال عمر : رحم الله أبا سليمان : ما عند الله خير له مما كان فيه . ولقد مات سعيداً وعاش حميداً ، ولكن رأيت الدهر ليس بقائل .

طليحة بن خويلد، بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمر بن قعير ابن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد بن خزيمة الأسدى الفقعسى ، كان ممن شهد الخندق من ناحية المشركين ، ثم أسلم سنة تسع ، ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ فى أيام الصديق ، وادعى النبوة كما تقدم وروى ابن عساكر أنه ادعى النبوة فى حياة رسول الله ﷺ وأن ابنه[1] حِبَال قدم على رسول الله ﷺ فسأله : ما اسم الذى يأتى إلى أبيك ؟ فقال : ذو النون الذى لا يكذب ولا يخون ، ولا يكون كما يكون . فقال : لقد سمى ملكا عظيم الشأن ، ثم قال لابنه : قتلك الله وحرمك الشهادة . ورده كما جاء فقتل حبال فى الردة فى بعض الوقائع ، قتله عكاشة بن محصن، ثم قتل طليحة عكاشة، وله مع المسلمين وقائع. ثم خذله الله على يدى خالد بن الوليد ، وتفرق جنده فهرب حتى دخل الشام فنزل على آل جفنة ، فأقام عندهم حتى مات الصديق حياء منه . ثم رجع إلى الإسلام واعتمر ، ثم جاء يسلم على عمر فقال له : اغرب عنى فإنك قاتل الرجلين الصالحين : عُكَّاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم ، فقال : يا أمير المؤمنين، هما رجلان أكرمهما الله على يدى ولم يُهِنّى بأيديهما . فأعجب عمر كلامه ورضى عنه . وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يُشاوَر ولا يولّى شيئاً من الأمر، ثم عاد إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وبعض حروب : كالقادسية ، ونهاوند الفرس . وكان من الشجعان المذكورين ، والأبطال المشهورين ، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله . وذكره محمد بن سعد فى الطبقة الرابعة من الصحابة وقال : كان يعد بألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب . وقال أبو نصر بن ماكولا : أسلم ثم ارتد ثم أسلم وحسن إسلامه ، وكان يعدل بألف فارس . ومن شعره أيام ردته وادعائه النبوة فى قتل المسلمين أصحابه :

فما ظنكم بالقوم إذ تقتلونهم ‏ أليسوا وإن لم يسلموا برجال ؟
فإن يكن ازواداً صبن ونسوة ‏ فلم يذهبوا فرغا بقتل حبال
نصبت لهم صدر الحالة إنها ‏ معاودة قتل الكماة نزال
فيوماً تراها فى الجلال مصونة ‏ ويوماً تراها غير ذات جلال
ويوماً تضىء المشرفية نحوها ‏ ويوماً تراها فى ظلال عوالى

[1] الذى فى القاموس : حبال بن سلمة ، بن خويلد ابن أخى طليحة بن خويلد

عشية غادرت ابن أقرم ثاوياً　　وعكاشة العمى عنــد مجال

وقال سيف بن عمر، عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبد الله، قال: بالله الذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحــد من أهل القادسيــة يريد الدنيا مع الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كما هجمنا عليهم من أمانتهم وزهدهم ؛ طليحة بن خويلد الأســدى ، وعمرو بن معدى كرب ، وقيس بن المكشوح . قال ابن عساكر : ذكر أبو الحسين محمد بن أحــد بن الفراس الوراق ، أن طليحة استشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرّن ، وعمرو بن معدى كرب رضى الله عنهم .

عمرو بن معدى كرب، بن عبد الله بن عمرو بن عاصم بن عمرو بن زبيد الأصغر، بن ربيعة ابن سلمة بن مازن بن ربيعة بن شبية ـ وهو زبيد الأكبر بن الحارث بن صعب ، بن سعد العشيرة ابن مذحج الزبيدى المذحجى ـ أبو ثور　أحد الفرسان المشاهير الأبطال ، والشجعان المذاكير . قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع ، وقيل عشر ، مع وفد مراد . وقيل فى وفد زَبيد قومه . وقد ارتد مع الأسود العنسى، فسار إليه خالد بن سعيد بن العاص ، فقاتله فضربه خالد بن سعيــد بالسيف على عاتقه فهرب وقومه ، وقد استلب خالد سيفه الصمصامة ، ثم أسر ودفع إلى أبى بكر فأنبه وعاتبه واستتابه ، فتاب وحسن إسلامه بعد ذلك ، فسيره إلى الشام ، فشهد اليرموك، ثم أمره عمر بالمسير إلى سعد وكتب بالوصاة به ، وأن يشاور ولا يولّى شيئاً ، فنفع الله به الإسلام وأهله ، وأبلى بلاء حسناً يوم القادسية . وقيل إنه قتل بها ، وقيل بنهاوند ، وقيل مات عطشاً فى بعض القرى، يقال لها: روذة، فالله أعلم . وذلك كله فى إحدى وعشرين، فقال بعض من رثاه من قومه:

لقد غادر الركبان يوم تحملوا　　بروذة شخصاً لا جبانا ولا غمرا

فقل لزبيد بل لمذحج كلها　　رزئتم أبا ثور قريع الوغى عمرا

وكان عمرو بن معدى كرب ـ رضى الله عنه ـ من الشعراء المجيدين ، فمن شعره :

أعاذل ! عدتى بدنى ورمحى　　وكل مقلص سلس القيــاد

أعاذل إنمــــا أفنى شبابى　　إجابتى الصريخ إلى المنادى

مع الأبطال حتى سلّ جسمى　　وأقرع عاتقى حمـــل النجاد

ويبقى بعد حلم القوم حلمى　　ويفنى قبل زاد القوم زادى

تمنى أن يلاقينى قييس　　وددت وأينما منى ودادى

فمن ذا عاذرى من ذى سفاه　　يرود بنفسه منى المرادى

أريد حياته ويريد قتلى　　عذيرك من خليلك من مرادى

[حـ]ديث واحد فى التلبية، رواه شراحيل بن القعقاع عنه، قال: كنا نقول فى الجاهلية إذا لبينا :

لبيك تعظيما إليك عذراً ... هذى زبيد قد أتتك قسراً

يعدو بها مضمرات شزراً ... يقطعن خبتا وجبالا وعرا

قد تركوا الأوثان خلواً صفراً

قال عمرو : فنحن نقول الآن ـ ولله الحمد ـ كما علمنا رسول الله ﷺ : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

العلاء بن الحضرمى: أمير البحرين لرسول الله ﷺ وأقره عليها أبو بكر ثم عمر . تقدم أنه توفى سنة أربع عشرة. ومنهم من يقول إنه تأخر إلى سنة إحدى وعشرين ، وعزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبا هريرة . وأمره عمر على الكوفة فمات قبل أن يصل إليها منصرفه من الحج . كما قدمنا ذلك ، والله أعلم . وقد ذكرنا فى دلائل النبوة قصته فى سيره بجيشه على وجه الماء وما جرى له من خرق العادات ، ولله الحمد .

النعمان بن مقرن بن عائذ المزنى : أمير وقعة نهاوند ، صحابى جليل ، قدم مع قومه من مزينة فى أربعمائة راكب ، ثم سكن البصرة وبعثه الفاروق أميراً على الجنود إلى نهاوند ، ففتح الله على يديه فتحاً عظيما ، ومكن الله له فى تلك البلاد ، ومكنه من رقاب أولئك العباد ، ومكن به للمسلمين هنالك إلى يوم التناد ، ومنحه النصر فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأتاح له بعد ما أراه ما أحب شهادة عظيمة وذلك غاية المراد ؛ فكان ممن قال الله تعالى فى حقه فى كتابه المبين وهو صراطه المستقيم (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فى سبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بعهدِهِ مِنَ اللهِ؟ فاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الذى بايعتُم بِهِ وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ)[1] .

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين

وفيها كانت فتوحات كثيرة فيما ذكره ابن جرير وغيره من الأئمة فى هذا الشأن .

فتح همذان ثانية ، ثم الرى وما بعدها ، ثم أذربيجان

قال الواقدى وأبو معشر : كانت فى سنة ثنتين وعشرين . وقال سيف : كانت فى سنة ثمانى عشرة بعد فتح همذان والرى وجرجان . وأبو معشر يقول: بأن أذربيجان كانت بعد هذه البلدان ، ولكن عنده أن الجميع كان فى هذه السنة . وعند الواقدى أن فتح همذان والرى

---

(١) آية : ١١١ من سورة التوبة .

فى سنة ثلاث وعشرين ، فهمذان افتتحها المغيرة بعد مقتل عمر بستة أشهر ، قال : ويقال كان فتح الرّى قبل وفاة عمر بسنتين ، إلا أن الواقدى وأبا معشر متفقان على أن أذربيجان فى هذه السنة ، وتبعهما ابن جرير وغيره . وكان السبب فى ذلك ، أن المسلمين لما فرغوا من نهاوند وما وقع من الحرب المتقدم ، فتحوا حُلوان وهَمذان بعد ذلك . ثم إن أهل همذان نقضوا عهدهم الذى صالحهم عليه القعقاع بن عمرو ، فكتب عمر إلى نعيم بن مقرّن أن يسير إلى همذان ، وأن يجعل على مقدمته أخاه سُوَيد بن مقرّن ، وعلى مجنّبتيه ربعىّ بن عامر الطائى ، ومُهلهل بن زيد التميمى . فسار حتى نزل على ثنيّة العَسَل ، ثم انحدر على همذان ، واستولى على بلادها ، وحاصرها فسألوه الصلح فصالحهم ودخلها ، فبينما هو فيها ومعه اثنا عشر ألفاً من المسلمين إذ تكاتف الروم والدّيلم وأهل الرّى وأهل أذربيجان ، واجتمعوا على حرب نُعيم بن مقرّن فى جمع كثير ؛ فعلى الدّيلم ملكهم واسمه «موتا» ، وعلى أهل الرّى أبو الفرُّخان ، وعلى أذربيجان إسْفَنْدياذ أخو رُستم . فخرج إليهم بمن معه من المسلمين حتى التقوا بمكان يقال له : واج الرُّوذ ، فاقتتلوا قتالا شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند ولم تك دونها ، فقتلوا من المشركين جمعاً كثيراً ، وجمّاً غفيراً لا يحصون كثرة ، وقتل ملك الديلم «مُوتا» وتمزق شملهم ، وانهزموا بأجمعهم ، بعد من قتل بالمعركة منهم ، فكان نُعيم بن مقرّن أول من قاتل الدّيلم من المسلمين ، وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعلمه باجتماعهم فهمّه ذلك واغتم له . فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأمر بالكتاب فقرىء على الناس ، ففرحوا وحمدوا الله عز وجل . ثم قدم عليه بالأخماس ثلاثة من الأمراء ، وهم : سِماك بن خَرَشة ـ و يعرف بأبى دجانة ، وسِماك بن عُبيد ، وسِماك بن مَخرمة . فلما استسماهم عمر قال : اللهم اسْمُك[1] بهم الإسلام ، وأمدّ بهم الإسلام . ثم كتب إلى نعيم بن مقرّن بأن يستخلف على همذان ويسير إلى الرّى . فامتثل نعيم . وقد قال نعيم فى هذه الوقعة .

ولما أتانى أن مُوتا وَرهطه … بنى باسِل جرّوا جنود[2] الأعاجم
نهضتُ إليهم بالجنود مُساميا … لأمنعَ منهم ذِمّتى بالقواصم
فجئنــا إليهم بالحديد كأننا … جبال تراءى من فروع القلاسم
فلما لقيناهم بهـا مستفيضةً … وقد جعلوا يسْمون فعل المساهم
صدمناهمُ فى واج رُوذَ بجمعنا … غداةَ رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا فى حومة الموت ساعة … لحدّ الرماح والسيوف الصوارم
كأنهم عنـد انبثاث جموعهم … جدارٌ تشظّى لَبْنُهُ للهوادم
أصبنا بهـا موتاً ومن لَفّ جمعَه … وفيها نهابٌ قَسْمُه غير عاتم

(١) أى : ارفع بهم .

(٢) فى نسخة : خيول .

تبعناهم حتى أووا فى شعابهم   فنقتلهم[1] قتلَ الكلاب الجواحم
كأنهم فى واج رُوذَ وجوّه   ضئين أصابتها فروج المخارم

فتح الرى[2]

استخلف نعيم بن مقرّن على همذان يزيد بن قيس الهمدانى، وسار بالجيوش حتى لحق بالرى، فلقى هناك جمعاً كثيراً من المشركين، فاقتتلوا عند سفح جبل الرى فصبروا صبراً عظيما ثم انهزموا، فقتل منهم النعمان بن مقرّن مقتلة عظيمة بحيث عدّوا بالقصب فيها، وغنموا منهم غنيمة عظيمة قريباً مما غنم المسلمون من المدائن. وصالح أبو الفرّخان على الرى، وكتب له أماناً بذلك، ثم كتب نعيمُ إلى عمر بالفتح ثم بالأخماس، ولله الحمد والمنة.

فتح قومس

ولما ورد البشير بفتح الرى وأخماسها كتب عمر إلى نعيم بن مقرّن: أن يبعث أخاه سُوَيد ابن مقرن إلى قُومِس. فسار إليها سُويد، فلم يقم له شئ حتى أخذها سِلماً وعسكر بها وكتب لأهلها كتاب أمان وصلح.

فتح جرجان

لما عسكر سُويد بقومِس، بعث إليه أهل بلدان شتى منها جُرجان، وطبرستان، وغيرها: يسألونه الصلح على الجزية، فصالح الجميع، وكتب لأهل كلّ بلدة كتاب أمان وصلح وحكى المدائنى أن جُرجان فتحت فى سنة ثلاثين أيام عثمان، فالله أعلم.

وهذا فتح أذربيجان

لما افتتح نُعيم بن مقرّن همذان ثم الرى، وكان قد بعث بين يديه بُكير بن عبد الله من همذان إلى أذربيجان، وأردفه بسِماك بن خَرَشة، فلقى إسفنديار بن الفرّخزاذ بُكيراً وأصحابه، قبل أن يقدم عليهم سِماك، فاقتتلوا فهزم الله المشركين، وأسر بُكير إسفنديار، فقال له اسفنديار: الصلح أحبّ إليك أم الحرب؟ فقال: بل الصلح. قال: فأمسكنى عندك، فأمسكه ثم جعل يفتح بلداً بلداً وعُتبة بن فرقد أيضاً يفتح معه بلداً بلداً فى مقابلته من الجانب الآخر. ثم جاء كتاب عمر بأن يتقدم بُكير إلى الباب، وجعل سِماك موضعه نائباً لعُتبة بن فرقد،

---

(١) فى نسخة: يقتلهم

(٢) كانت مدينة عظيمة جدا تعتبر قصبة بلاد العراق، بين قزوين ونيسابور والنسبة إليها رازى.

وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد ، وسلّم إليه بكير إسفنديار ، وسار كما أمره عمر إلى الباب .
قالوا : وقد كان اعترض بهرام بن فرّخزاذ لعتبة بن فرقد فهزمه عتبة وهرب بهرام ، فلما بلغ ذلك إسفنديار وهو فى الأسر عند بكير ـ قال : الآن تم الصلح وطفئت الحرب . فصالحه فأجاب إلى ذلك كلهم . وعادت أذربيجان سلماً ، وكتب بذلك عتبة وبكير إلى عمر ، وبعثوا بالأخماس إليه ، وكتب عتبة حين انتهت إمرة أذربيجان لأهلها ـ كتاب أمان وصلح .

فتح الباب[١]

قال ابن جرير : وزعم سيف أنه كان فى هذه السنة ، كتب عمر بن الخطاب كتاباً بالإمرة على هذه الغزوة لسراقة بن عمرو ـ الملقب بذى النور ـ وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ، ويقال له ـ ذو النور أيضاً ـ وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد ، وعلى الأخرى بكير ابن عبد الله الليثى ـ وكان قد تقدمهم إلى الباب ـ وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة . فساروا كما أمرهم عمر وعلى تعبئته ، فلما انتهى مقدم العساكر ـ وهو عبد الرحمن بن ربيعة ـ إلى الملك الذى هناك عند الباب وهو شهربراز ـ ملك أرمينية ، وهو من بيت الملك الذى قتل بنى إسرائيل وغزا الشام فى قديم الزمان ـ كتب شهربراز لعبد الرحمن واستأمنه ، فأمنه عبد الرحمن بن ربيعة ، فقدم عليه الملك ، فأنهى إليه أن صغوه[٢] إلى المسلمين ، وأنه مناصح للمسلمين . فقال له : إن فوقى رجلا فاذهب اليه . فبعثه إلى سراقة بن عمرو أمير الجيش ، فسأل من سراقة الأمان ، فكتب إلى عمر فأجاز ما أعطاه من الأمان ، واستحسنه ، فكتب له سراقة كتاباً بذلك . ثم بعث سراقة بكيراً ، وحبيب بن مسلمة ، وحذيفة بن أسيد ، وسلمان بن ربيعة ـ إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية ، جبال اللان وتفليس وموقان ، فافتتح بكير موقان ، وكتب لهم كتاب أمان . ومات فى غضون ذلك أمير المسلمين هنالك ، وهو سراقة بن عمرو ، واستخلف بعده عبد الرحمن بن ربيعة ، فلما بلغ عمر ذلك أقره على ذلك وأمره بغزو الترك .

أول غزو الترك

وهو تصديق الحديث المتقدم الثابت فى الصحيح عن أبى هريرة وعمرو بن تغلب ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عراض الوجوه ، ذلف[٣] الأنوف ، حمر الوجوه ، كأن وجوههم المجان[٤] المطرقة » وفى رواية « ينتعلون الشعر » .

---

(١) الباب : مدينة عظيمة وثغر هام على بحر طبرستان وبحر الخزر . (٢) أى ميله . والصغو الميل
(٣) الذلف ـ محركة ـ : الاستواء فى طرف الأنف . وقيل الصغر ، وقيل غلظ فى الأرنبة
(٤) المجان : التراس ، والمطرقة : التى يطرق بعضها على بعض كالنعل المطرقة المخصوفة ، يريد أنهم عراض الوجوه غلاظها .

لما جاء كتاب عمر إلى عبد الرحمن بن رَبيعة يأمره بأن يغزو الترك ، سار حتى قطع الباب قاصداً لما أمره عمر ، فقال له شهر براز : أين تريد ؟ قال : أريد ملك الترك بَلَنْجر ، فقال له شهر براز : إنا لنرضى منهم بالموادعة ، ونحن من وراء الباب . فقال له عبد الرحمن : إن الله بعث إلينا رسولا ، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر ، ونحن لا نزال منصورين ، فقاتل الترك وسار فى بلاد بَلَنْجر مائتى فرسخ ، وغزا مرات متعددة ثم كانت له وقائع هائلة فى زمن عثمان . كما سنورده فى موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال سيف بن عمر ، عن الغُصن بن القاسم عن رجل عن سَلمان بن ربيعة ، قال : لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة بلادهم ، حال الله بين الترك والخروج عليه ، وقالوا : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت . فتحصنوا منه وهربوا فرجع بالغُنم والظَّفَر . ثم إنه غزاهم غزوات فى زمن عثمان فظفِر بهم ، كما كان يظفر بغيرهم . فلما ولى عثمان على الكوفة بعضَ من كان ارتد ، غزاهم فتذامرت الترك ، وقال بعضهم لبعض : إنهم لا يموتون ، قال : انظروا وفعلوا فاختفَوْا لهم فى الغياض . فرمى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين على غِرّة فقتله ، وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا على المسلمين بعد ذلك حتى عرفوا أن المسلمين يموتون ، فاقتتلوا قتالا شديداً ونادى منادٍ من الجوّ : صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة ، فقاتلَ عبدُ الرحمن حتى قُتِل وانكشف الناس ، وأخذ الراية سَلمان بن ربيعة فقاتل بها ، ونادى المنادى من الجوّ : صبراً آل سَلمان بن ربيعة ، فقاتل قتالا شديداً ، ثم تحيّز سلمان وأبو هُريرة بالمسلمين ، وفرّوا من كثرة الترك ورَمْيهم الشديد السديد على جِيلان ، فقطعوها إلى جُرْجان ، واجترأت الترك بعدها ، ومع هذا أخذت الترك عبد الرحمن بن ربيعة فدفنوه فى بلادهم ، فهم يستسقون بقبره إلى اليوم . وسيأتى تفصيل ذلك كله .

قصة السد

ذكر ابن جرير بسنده ، أن شَهْر براز قال لعبد الرحمن بن ربيعة ، لما قدم عليه حين وصل إلى الباب وأراه رجلاً ، فقال شَهْر براز : أيها الأمير ، إنّ هذا الرجل كنت بعثته نحو السُّد ، وزوّدته مالا جزيلا ، وكتبت له إلى الملوك الذين يَلُونى ، وبعثت لهم هدايا ، وسألت منهم أن يكتبوا له إلى مَن يليهم من الملوك حتى ينتهى إلى سد ذى القَرْنين ، فينظر إليه ويأتينا بخبره . فسار حتى انتهى إلى الملك الذى السُّد[1] فى أرضه ، فبعثه إلى عامله مما يلى السُّد ، فبعث معه بازياره ، ومعه عُقابه ، فلما انتهوا إلى السُّد إذا جبلان بينهما سُدّ مسدود ، حتى ارتفع على الجبلين ، وإذا دون السُّد

(١) قال صاحب القاموس: السد: الجبل والحاجز - ويضم، أو بالضم ما كان مخلوقا لله - وبالفتح ما كان من فعلنا

خندق أشدَّ سواداً من الليل لبعده، فنظر إلى ذلك كله وتفرس فيه - ثم الما همَّ بالانصراف ، قال له البازيار : على رِسلك ، ثم شرَّح بضعة لحم معه ، فألقاها فى ذلك الهواء ، وانقضت عليها العُقاب . وقال : إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء ، وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء . قال : فلم تدركها حتى وقعت فى أسفله واتبعها العُقاب فأخرجها فإذا فيها ياقوتة وهى هذه . ثم ناولها الملك شهر براز لعبد الرحمن بن ربيعة ، فنظر إليها عبد الرحمن ثم ردها إليه ، فلما ردّها إليه فَرِح وقال : والله لهذه خير من مملكة هذه المدينة - يعنى مدينة باب الأبواب التى هو فيها - ووالله لأنتم أحبّ إلى اليوم من مملكة آل كسرى ، ولو كنت فى سلطانهم ، وبلغهم خبرها لانتزعوها منى . وايمُ الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر .

ثم أقبل عبد الرحمن بن ربيعة على الرسول الذى ذهب على السد ، فقال : ما حال هذا الردم؟ - يعنى ماصفته؟ - فأشار إلى ثوب فى زُرقة وحُمرة ، فقال : مثل هذا. فقال رجل لعبد الرحمن : صدق والله لقد نفذ ورأى . فقال : أجل! وَصَف صفة الحديد والصُّفر . قال الله تعالى : (آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً)(١) وقد ذكرت صفة السد فى التفسير ، وفى أوائل هذا الكتاب . وقد ذكر البخارى فى صحيحه تعليقاً، أنّ رجلاً قال للنبى ﷺ :رأيت السد . فقال: « كيف رأيته» ؟ قال :مثل البُرد المحبّر رأيته . قالوا : ثم قال عبد الرحمن بن ربيعة لشهر براز : كم كانت هديّتك ؟ قال : قيمة مائة ألف فى بلادى ، وثلاثة آلاف ألف أو أكثر فى تلك البلدان .

بقية من خبر السد

أورد شيخنا أبو عبد الله الذهبى الحافظ فى هذه السنة ، ما ذكره صاحب كتاب مسالك الممالك مما أملاه عليه سَلام الترجمان ، حين بعثه الواثق بأمر الله بن المعتصم - وكان قد رأى فى النوم كأن السد فُتح - فأرسل سَلاماً هذا وكتب له إلى الملوك بالوصاة به ، وبعث معه ألفَيْ بغل تحمل طعاماً، فساروا بين سامرا إلى إسحق بتفليس، فكتب لهم إلى صاحب السرير ، وكتب لهم صاحب السرير إلى ملك اللان ، فكتب لهم إلى فيلان شاه ، فكتب لهم إلى ملك الخزر ، فوجه معه خمسة أولاد ، فساروا ستة وعشرين يوماً ، فانتهوا إلى أرض سوداء مُنتنة حتى جعلوا يشمُّون الخل ، فساروا فيها عشرة أيام ، فانتهوا إلى مدائن خراب مدة سبعة وعشرين يوماً ،وهى التى كانت يأجوج ومأجوج تطرقها فخربت من ذلك الحين ، وإلى الآن . ثم انتهوا إلى حصن

(١) الآية : ٩٦ من سورة الكهف .

قريب من السد فوجدوا قوماً يعرفون بالعربية وبالفارسية ، ويحفظون القرآن ، ولهم مكاتب ومساجد ، فجعلوا يعجبون منهم ويسألونهم من أين أقبلوا ؟ فذكروا لهم أنهم من جهة أمير المؤمنين الواثق فلم يعرفوه بالكلية ثم انتهوا إلى جبل أملس ليس عليه خضر ، وإذا السد هنالك من لبن حديد مغيب في نحاس ، وهو مرتفع جداً لا يكاد البصر ينتهي إليه ، وله شرفات من حديد ، وفي وسطه باب عظيم بمصراعين مغلقين ، عرضهما مائة ذراع ، في طول مائة ذراع ، في ثخانة خمسة أذرع ، وعليه قفل طوله سبعة أذرع في غلظ باع ـ وذكر أشياء كثيرة ـ وعند ذلك المكان حرس يضربون عند القفل في كل يوم ، فيسمعون بعد ذلك صوتاً عظيماً مزعجاً ، فيعلمون أن وراء هذا الباب حرس وحفظة وقريب من هذا الباب حصنان عظيمان بينهما عين ماء عذبة ، وفي إحداهما بقايا العمارة من مغارف ولبن من حديد وغير ذلك ، وإذا طول اللبنة ذراع ونصف في مثله ، في سمك شبر . وذكروا أنهم سألوا أهل تلك البلاد هل رأوا أحداً من يأجوج ومأجوج ؟ فأخبروهم أنهم رأوا منهم يوماً أشخاصاً فوق الشرفات ، فهبت الريح فألقتهم إليهم ، فإذا طول الرجل منهم شبر أو نصف شبر ، والله أعلم .

قال الواقدي : وفي هذه السنة غزا معاوية الصائفة ، من بلاد الروم ، وكان معه عبادة والصحابة فسار وغنم ورجع سالماً . وفيها ولد يزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان . وفيها حج بالناس عمر بن الخطاب ، وكان عماله فيها على البلاد ، هم الذين كانوا في السنة قبلها وذكر أن عمر عزل عماراً في هذه السنة عن الكوفة ، اشتكاه أهلها وقالوا : لا يحسن السياسة ، فعزله وولى أبا موسى الأشعري ، فقال أهل الكوفة : لا نريده ، وشكوا من غلامه ، فقال : دعوني حتى أنظر في أمري ، وذهب إلى طائفة من المسجد ليفكر من يولي . فنام من الهم ، فجاءه المغيرة فجعل يحرسه حتى استيقظ ، فقال له : إن هذا الأمر عظيم يا أمير المؤمنين ، الذي بلغ بك هذا . قال : وكيف وأهل الكوفة مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير . ثم جمع الصحابة واستشارهم هل يولي عليهم قوياً مشدداً أو ضعيفاً مسلماً ؟ فقال له المغيرة بن شعبة : يا أمير المؤمنين ، إن القوي قوته لك وللمسلمين وتشديده لنفسه . وأما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين ، وإسلامه لنفسه فقال عمر للمغيرة ـ واستحسن ما قاله ـ : اذهب فقد وليتك الكوفة فرده إليها بعدما كان عزله عنها ، بسبب ما كان شهد عليه الذين تقدم حدهم بسبب قذفه ، والعلم عند الله عز وجل . وبعث أبا موسى الأشعري إلى البصرة ، فقيل لعمار : أساءك العزل ؟ فقال والله ما سرتني الولاية ، ولقد ساءني العزل . وفي رواية أن الذي سأله عن ذلك عمر رضي الله عنه ثم أراد عمر أن يبعث سعد بن أبي وقاص على الكوفة بدل المغيرة ، فعاجلته المنية في سنة ثلاث وعشرين على ما سيأتي بيانه ، ولهذا أوصى لسعد به .

قال الواقدي : وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس بلاد خراسان ، وقصد البلدة الذي فيه

يزدجرد ملك الفرس . قال ابن جرير : وزعم سيف أن هذا كان فى سنة ثمانى عشرة . قلت : والأول هو المشهور ، والله أعلم .

قصة يزدجرد بن شهريار بن كسرى ـ الذى كان ملك الفرس

لما استلب سعد من يديه مدينة مُلكه ، ودارَ مَقرِّه ، وإيوان سلطانه ، وبساط مشورته وحواصله ، تحوّل من هناك إلى حُلوان ، ثم جاء المسلمون ليحاصروا حُلوان ، فتحول إلى الرَّى . وأخذ المسلمون حُلوان ثم أخذت الرَّى ، فتحول منها إلى أصْبهان ، فأخذت أصبهان ، فسار إلى كَرْمان فقصد المسلمون كَرْمان فافتتحوها ، فانتقل إلى خُراسان فنزلها . هذا كله والنار التى يعبدها من دون الله ، يسير بها معه من بلد إلى بلد ، ويَبنى لها فى كل بلد بيت توقد فيه على عادتهم وهو يحمل فى الليل فى مسيره إلى هذه البلدان ـ على بعير عليه هودج ينام فيه . فبينما هو ذات ليلة فى هودجه وهو نائم فيه ، إذ مرُّوا به على مخاضة ، فأرادوا أن ينبهوه قبلها لئلا يَنزعج إذا استيقظ فى المخاضة ، فلما أيقظوه غضب عليهم غضباً شديداً وشتمهم، وقال: حرمتمونى أن أعلم مدة بقاء هؤلاء فى هذه البلاد وغيرها ، إنى رأيت فى منامى هذا أنى ومحمداً عند الله ، فقال له: مُلككم مائة سنة ، فقال : زدنى . فقال : عشراً ومائة . فقال : زدنى. فقال : عشرين ومائة سنة ، فقال : زدنى فقال : لك ، وأنبهتمونى ، فلو تركتمونى لعلمت مدة هذه الأمة .

غزو المسلمين بلاد خراسان[1] مع الأحنف بن قيس

وذلك أن الأحنف بن قيس هو الذى أشار على عمر بأن يتوسع المسلمون بالفتوحات فى بلاد العجم ، ويضيقوا على كسرى يَزْدَجرد ، فإنه هو الذى يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين .

فأذن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] فى ذلك عن رأيه ، وأمّر الأحنف ، وأمره بغزو بلاد خُراسان . فركب الأحنف فى جيش كثيف إلى خراسان قاصداً حرب يَزْدَجرد ، فدخل خُراسان فافتتح هَراة عَنوة واستخلف عليها صُحار بن فلان العبدىّ ، ثم سار إلى مَرْو الشاهجان وفيها يزدجرد وبعث الأحنف بين يديه مطرّف بن عبد الله بن الشخِّير ـ إلى نيسابور ، والحارث بن حَسّان ـ إلى سَرْخس . ولما اقترب الأحنف من مَرو الشّاهجان ، ترحّل منها يَزْدَجرد إلى مَرْو الرّوذ ،

---

(١) بلاد واسعة فى شرق فارس، وقصبتها مرو ، وبها نيسابور وهراة وبلخ ... وغير ذلك من المدن التى دون نهر جيحون .

فافتتح الأحنف مَرْو الشَّاهجان فنزلها . وكتب يزدجرد حين نزل مَرْو الرُّوذ إلى خاقان ملك الترك يستمده ، وكتب إلى ملك الصُّغْد يستمده ، وكتب إلى ملك الصين يستعينه . وقصده الأحنف بن قيس إلى مَرْوَ الرّوذ، وقد استخلف على مَرْوِ الشّاهجان حارثة بن النعمان. وقد وفدت إلى الأحنف أمداد من أهل الكوفة مع أربعة أمراء ، فلما بلغ مسيره إلى يزدَجِرد ترحّل إلى بَلْخ ، فالتقى معه ببلْخ يَزْدجرد فهزمه الله عز وجل ، وهرب هو ومن بقي معه من جيشه فعبر النهر ، واستوثق ملك خُراسان على يدى الأحنف بن قيس ، واستخلف في كل بلدة أميراً ، ورجع الأحنف فنزل مَرْوَ الرّوذ ، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليه من بلاد خراسان بكمالها ، فقال عمر : وددت أنه كان بيننا وبين خراسان بحر من نار . فقال له عليّ : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن أهلها سينقضون عهدهم ثلاث مرات ، فيجتاحون في الثالثة ، فقال : يا أمير المؤمنين! لأن يكون ذلك بأهلها ، أحبّ إلىّ من أن يكون ذلك بالمسلمين .

وكتب عمر إلى الأحنف ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر ، وقال : احفظ ما بيدك من بلاد خُراسان . ولما وصل رسول يَزْدجَرد إلى اللذين استنجد بهما لم يحتفلا بأمره ، فلما عبر يزدجرد النهر ودخل في بلادهما تعين عليهما إنجاده في شرع الملوك ، فسار معه خاقان الأعظم ملك الترك ، ورجع يزدَجرد بجنود عظيمة فيهم ملك التتار خاقان ، فوصل إلى بَلخ واسترجعها ، وفرّ عمال الأحنف إليه إلى مَرْوَ الروذ ، وخرج المشركون من بَلخ حتى نزلوا على الأحنف بمروَ الرّوذ، فتبرز الأحنف بمن معه من أهل البصرة وأهل الكوفة، والجميع عشرون ألفاً، فسمع رجلا يقول لآخر: إن كان الأمير ذا رأى فإنه يقف دون هذا الجبل فيجعله وراء ظهره ، ويبقى هذا النهر خندقاً حوله، فلا يأتيه العدو إلا من جهة واحدة. فلما أصبح الأحنف أمر المسلمين فوقفوا في ذلك الموقف بعينه ، وكان أمارة النصر والرشد . وجاءت الأتراك والفرس في جمع عظيم هائل مزعج ، فقام الأحنف في الناس خطيباً فقال : إنكم قليل وعدوكم كثير ، فلا يهولنّكم ، ﴿كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مع الصَّابرين﴾[1] فكانت الترك يقاتلون بالنهار ولا يدرى الأحنف أين يذهبون في الليل . فسار ليلة مع طليعة من أصحابه نحو جيش خاقان ، فلما كان قريب الصبح خرج فارس من الترك طليعة ، وعليه طوق وضرب بطبله ، فتقدم إليه الأحنف فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز.

إنّ عَلَى كُلِّ رئيس حقّا   أن يَخضِبَ الصَّعدةَ أو يندقّا
إنّ لنــا شيخانيهــا مُلَقّى   بسَيف أبى حَفْصِ الذى تَبَقّى

---

(١) من الآية: ٢٤٩ من سورة البقرة

قال : ثم استلب التركى طوّقه ووقف موضعه، فخرج آخر عليه طوق ومعه طَبل، فجعل يضرب بطبله ، فتقدم إليه الأحنف فقتله أيضاً واستلبه طَوْقه ووقف موضعه ، فخرج ثالث فقتله وأخذ طوقه ثم أسرع الأحنف الرجوع إلى جيشه ، ولا يعلم بذلك أحد من الترك بالكلية .

وكان من عادتهم، أنهم لا يخرجون من صبيتهم، حتى تخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم، يضرب الأول بطبله ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم يخرجون بعد الثالث . فلما خرجت الترك ليلتئذ بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مقتَّلين ، تشاءم بذلك الملك خاقان وتطيّر ، وقال لعسكره : قد طال مقامنا ، وقد أصيبَ هؤلاء القوم بمكان لم نُصب بمثله ، مالنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا. فرجعوا إلى بلادهم وانتظرهم المسلمون يومهم ذلك ليخرجوا إليهم من شعبهم فلم يروا أحدا منهم ، ثم بلغهم انصرافهم إلى بلادهم راجعين عنهم ، وقد كان يزدَجرد ـ وخاقان فى مقابلة الأحنف ابن قيس ومقاتلته ـ ذهب إلى مَرْو الشاهجان فحاصرها، وحارثة بن النعمان بها ، واستخرج منها خزائنه التى كان دفنها بها ، ثم رجع وانتظره خاقان ببَلْخ حتى رجع إليه .

وقد قال المسلمون للأحنف : ما ترى فى اتباعهم؟ فقال : أقيموا بمكانكم ودَعوهم . وقد أصاب الأحنف فى ذلك ؛ فقد جاء فى الحديث: « اتركوا الترك ما تركوكم » (وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بغيْظهم لم ينالُوا خيراً وكَفَى اللهُ المُؤمنينَ القِتالَ وكانَ اللهُ قوياً عزيزاً)[1]. ورجع كسرى خاسراً الصفقة؛ لم يشف له غليل ، ولا حصل على خير ، ولا انتصر كما كان فى زعمه. بل تخلى عنه من كان يرجو النصر منه ، وتنحّى عنه وتبرأ منه أحْوجَ ما كان إليه ، وبقى مُذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء (ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلَن تجِد له سبيلاً)[2] وتحير فى أمره ماذا يصنع؟ وإلى أين يذهب؟ وقد أشار عليه بعض أولى النهى من قومه حين قال : قد عزمت أن أذهب إلى بلاد الصين أو أكون مع خاقان فى بلاده ، فقالوا : إنا نرى أن نُصانع هؤلاء القوم ، فإن لهم ذمة وديناً يرجعون إليه ، فنكون فى بعض هذه البلاد وهم يجاورينا ، فهم خير لنا من غيرهم، فأبى عليهم كسرى ذلك. ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به ويستنجده ، فجعل ملك الصين يسأل الرسول عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد ، فجعل يخبره عن صفتهم ، وكيف يركبون الخيل والإبل ؟ وماذا يصنعون ؟ وكيف يصلون ؟ فكتب معه إلى يزدجرد : إنه لم يمنعنى أن أبعث إليك بجيش أوله بمَرْو وآخره بالصين ـ الجهالةُ بما يحق لك على،

---

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الأحزاب

(٢) من الآية : ٨٨ من سورة النساء

ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لى رسولك صفتهم ، لو يحاولون الجبال لهدّوها ، ولو جئت لنصرك أزالونى ما داموا على ما وصف لى رسولك ، فسالمهم وارضَ منهم بالمسالمة . فأقام كسرى وآل كسرى فى بعض البلاد مقهورين . ولم يزل ذلك دأبه حتى قتل بعد سنتين من إمارة عثمان ، كما سنورده فى موضعه .

ولما بعث الأحنف بكتاب الفتح ، وما أفاء الله عليهم من أموال الترك ، ومن كان معهم ، وأنهم قتلوا منهم مع ذلك مقتلة عظيمة ، ثم ردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ـ قام عمر على المنبر ، وقرىء الكتاب بين يديه ، ثم قال عمر : إن الله بعث محمداً بالهدى ، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله ـ خيرى الدنيا والآخرة ، فقال : (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[1] ، فالحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر جنده . ألا وإنّ الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم ، فليسُوا يملكون من بلادهم شبراً يضير بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم ، لينظر كيف تعملون ! فقوموا فى أمره على وَجَل ، يُوفِ لكم بعهده ، ويُؤتِكم وَعْدَه ، ولا تغيّرُوا يستبدل بكم قوماً غيركم ، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتَى إلا من قِبَلكم .

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبى الحافظ ، فى تاريخ هذه السنة ـ أعنى سنة ثنتين وعشرين ـ وفيها فتحت أَذْربيجان على يدى المغيرة بن شعبة . قاله ابن إسحاق ، فقال : إنه صالحهم على ثمانمائة ألف درهم . وقال أبو عبيدة : فتحها حبيب بن مَسْلَمة الفِهرىّ بأهل الشام عَنوة ، ومعه أهل الكوفة ، فيهم حُذيفة ، فافتتحها بعد قتال شديد ، والله أعلم . وفيها افتتح حُذيفة الدينور عَنوة ـ بعد ما كان سعد افتتحها ، فانتقضوا عهدهم ـ . وفيها افتتح حُذيفة ماه سندان عَنوة ـ وكانوا نقضوا أيضاً عهد سعد ـ . وكان مع حُذيفة أهل البصرة ، فلحقهم أهل الكوفة ، فاختصموا فى الغنيمة . فكتب عمر : إن الغنيمة لمن شهد الوقعة . قال أبو عبيدة : ثم غزا حُذيفة همذان ، فافتتحها عَنوة ، ولم تكن فتحت قبل ذلك ، وإليها انتهى فتوح حُذيفة . قال : ويقال : افتتحها جرير بن عبد الله بأمر المغيرة ، ويقال : افتتحها المغيرة سنة أربع وعشرين . وفيها افتتحت جرجان . قال خليفة : وفيها افتتح عمرو بن العاص طرابلس المغرب ، ويقال : فى السنة التى بعدها .

قلت : وفى هذا كله غرابة لنسبته إلى ما سلف ، والله أعلم .

---

(١) الآية : ٣٣ من سورة التوبة .

قال شيخنا : وفيها توفى أبى بن كعب فى قول الواقدى ، وابن نمير ، والذهلى ، والترمذى ، وقد تقدم فى سنة تسع عشرة ومعضد بن يزيد الشيبانى استشهد بأذربيجان ، ولا صحبة له .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين

وفيها وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قال الواقدى وأبو معشر : فيها كان فتح اصطخر وهمذان . وقال سيف : كان فتحها بعد فتح تَوّج الآخرة . ثم ذكر أن الذى افتتح تَوّج مُجَاشع بن مسعودٍ بعد ما قتل من الفرس مقتلة عظيمة ، وغنم منهم غنائم جَمّة ، ثم ضرب الجزية على أهلها ، وعقد لهم الذِّمة . ثم بعث بالفتح وخمس الغنائم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ثم ذكر أن عثمان بن أبى العاص افتتح جُور بعد قتال شديد ، كان عندها . ثم افتتح المسلمون اصطَخْر ـ وهذه المرة الثانية ـ ، وكان أهلها قد نقضوا العهد، بعد ما كان جند العلاء بن الحَضْرَمى افتتحوها حين جاز فى البحر ـ من أرض البحرين ـ والتقوا هم والفرس فى مكان يقال له : طاوُس ، كما تقدم بسط ذلك فى موضعه . ثم صالحه الهِرْبِذ على الجزية ، وأن يضرب لهم الذِّمة . ثم بعث بالأخماس والبشارة إلى عمر . قال ابن جرير : وكانت الرسل لها جوائز ، وتقضى لهم حوائج ، كما كان رسول الله ﷺ يعاملهم بذلك . ثم إن شَهرك خلع العهد ، ونقض الذِّمة ، ونشط الفرس ، فنقضوا ، فبعث إليهم عُثمان بن أبى العاص ـ ابنه ، وأخاه الحكم ، فاقتتلوا مع الفرس ، فهزم الله جيوش المشركين ، وقتل الحكم بن أبى العاص شَهرك ، وقتل ابنه معه أيضاً . وقال أبو معشر : كانت فارس الأولى ، واصطَخْر الآخرة ـ سنة ثمان وعشرين فى إمارة عثمان ، وكانت فارس الآخرة ، ووقعة جُور ـ فى سنة تسع وعشرين .

فتح فسا ، ودارا بجرد ، وقصة سارية بن زنيم

ذكر سيف عن مشايخه ، أن سارية بن زُنَيم قصد فَسَا ودارابجرد ، فاجتمع له جموع ـ من الفرس والأكراد ـ عظيمة ، ودهم المسلمين منهم أمر عظيم وجمع كثير ، فرأى عمر فى تلك الليلة ، فيما يرى النائم ، معركتهم وعددهم فى وقت من النهار ، وأنهم فى صحراء ، وهناك جبل إن أسندوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد ، فنادى من الغد : الصَّلاة جامعة ، حتى إذا كانت الساعة التى رأى أنهم اجتمعوا فيها ، خرج إلى الناس ، وصعد المنبر ، فخطب الناس ، وأخبرهم بصفة ما رأى ، ثم قال : يا ساريةُ الجبلَ ، الجبلَ ! ثم أقبل عليهم وقال : إن لله جنوداً ، ولعلَّ بعضها

أن يبلغهم . قال : ففعلوا ما قال عمر ، فنصرهم الله على عدوهم ، وفتحوا البلد . وذكر سيف في رواية أخرى عن شيوخه : أن عمر بينما هو يخطب يوم الجمعة ، إذ قال : يا ساريةُ بن زُنَيم ، الجبلَ الجبلَ ، فلجأ المسلمون إلى جَبل هناك ، فلم يقدر العدوّ عليهم إلا من جهة واحدة ، فأظفرهم الله بهم ، وفتحوا البلد ، وغنموا شيئاً كثيراً ، فكان من جملة ذلك سَفَط من جوهر ، فاستوهبه سارية من المسلمين لعمر ، فلما وصل إليه مع الأخماس ، قَدِم الرسول بالخمس ، فوجد عمر قائماً في يده عصا ، وهو يُطْعِم المسلمين سماطهم ، فلما رآه عمر ، قال له : اجلس – ولم يعرفه – فجلس الرجل ، فأكل مع الناس ، فلما فرغوا انطلق عمر إلى منزله ، واتّبعه الرجل ، فاستأذن ، فأذن له ، وإذا هو قد وضع له خبز وزيت وملح ، فقال : ادنُ فكُل . قال : فجلست ، فجعل يقول لامرأته : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ؟ فقالت : إني أسمع حسّ رجل عندك . فقال : أجل . فقالت : لو أردتَ أن أبرز للرجال اشتريتَ لي غير هذه الكسوة . فقال : أو ما ترضَين أن يقال : أم كلثوم بنت عليّ ، وامرأة عمر ! فقالت : ما أقلّ غناء ذلك عني ! ثم قال للرجل : ادنُ فكُل ، فلو كانت راضيةً لكان أطيب مما ترَى . فأكلا ، فلما فرغا قال : أنا رسول ساريةَ بن زُنيم يا أمير المؤمنين ، فقال : مرحباً وأهلا . ثم أدناه حتى مَسَّت ركبتُه ركبته ، ثم سأله عن المسلمين ، ثم سأله عن سارية بن زُنيم ، فأخبره . ثم ذكر له شأن السَّفط من الجوهر ، فأبَى أن يقبلَه ، وأمر بردّه إلى الجند . وقد سأل أهل المدينة رسول سارية عن الفتح فأخبرهم ، فسألوه : هل سمعوا صوتاً يوم الوقعة ؟ قال : نعم ، سمعنا قائلا يقول : يا سارية الجبل ، وقد كدنا نهلِك ، فلجأنا إليه ، ففتح الله علينا . ثم رواه سيف ، عن مجالد ، عن الشعبي بنحو هذا .

وقال عبد الله بن وهب ، عن يحيى بن أيوب ، عن ابن عجلان ، عن نافع ، عن ابن عمر : أنّ عمر وَجّه جيشاً ، ورأس عليهم رجلا يقال له سارية . قال : فبينما عمر يخطب ، فجعل ينادى : يا سارى الجبل ، يا سارى الجبل – ثلاثاً – . ثم قدِم رسول الجيش ، فسأله عمر : فقال : يا أمير المؤمنين ، هزمنا ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا منادياً : يا ساريةُ الجبل ثلاثاً ، فأسندنا ظهورنا بالجبل ، فهزمهم الله . قال : فقيل لعمر : إنك كنت تصيح بذلك . وهذا إسناد جيد حسن .

وقال الواقدى : حدثنى نافع بن أبى نعيم ، عن نافع مولى ابن عمر ، أن عمر قال على المنبر : يا سارية بن زُنيم الجبل ، فلم يدر الناس ما يقول ، حتى قَدِم سارية بن زُنيم المدينة على عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كنا مُحاصِرى العدو ، فكنَّا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد ، نحن فى خَفض من الأرض ، وهم فى حِصْن عال ، فسمعت صائحاً ينادى بكذا وكذا يا سارية ابن زُنيم الجبل ، فعلوتُ بأصحابى الجبل ، فما كان إلا ساعة حتى فتح الله علينا . وقد رواه الحافظ

أبو القاسم اللالكائي من طريق مالك ، عن نافع عن ابن عمر بنحوه ، وفي صحته من حديث مالك نظر . وقال الواقدي : حدثني أسامة بن زيد عن أسلم عن أبيه ، وأبو سليمان عن يعقوب بن زيد قالا : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الجمعة إلى الصلاة ، فصعد المنبر ثم صاح : يا سارية بن زُنيم الجبل ، ظلم من استرعى الذئب الغنم . ثم خطب حتى فرغ ، فجاء كتاب سارية إلى عمر : إن الله قد فتح علينا يوم الجمعة ساعة كذا وكذا - لتلك الساعة التي خرج فيها عمر فتكلم على المنبر . قال سارية : فسمعت صوتاً ، ياسارية بن زُنيم الجبل، ياسارية بن زنيم الجبل ،ظلم من استرعى الذئب الغنم ، فعلوت بأصحابي الجبل ، ونحن قبل ذلك في بطن وادٍ ، ونحن محاصرو العدو ففتح الله علينا فقيل لعمر بن الخطاب : ما ذلك الكلام ؟ فقال : والله ما ألقيت له إلا بشيء ألقي على لساني . فهذه طرق يشد بعضها بعضاً .

ثم ذكر ابن جرير ، من طريق سيف عن شيوخه - فتح كرمان على يدي سُهَيل بن عدي وأمده عبد الله بن عبد الله بن عُتبان ، وقيل: على يدي عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي . وذكر فتح سجستان على يدي عاصم بن عمرو ، بعد قتال شديد ، وكانت ثغورها متسعة ، وبلادها متنائية ، ما بين السند إلى نهر بَلْخ ، وكانوا يقاتلون القَنْدُهار والترك من ثغورها وفروجها . وذكر فتح مُكْران على يدي الحكم بن عمرو ، وأمده بشهاب بن المخارق بن شهاب ، وسُهيل ابن عدي ، وعبد الله بن عبد الله ، واقتتلوا مع ملك السند فهزم الله جموع السند ، وغنم المسلمون منهم غنيمة كثيرة وكتب الحكم بن عمرو بالفتح وبعث بالأخماس مع صُحَار العبدي ، فلما قدم على عمر سأله عن أرض مُكْران ، فقال : يا أمير المؤمنين أرض سهلها جَبَل ، وماؤها وَشَل[1] ، وتمرها دَقَل[2] ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر[3] منها . فقال عمر : أسجّاع أنت أم مُخْبِر ؟ فقال : لا ، بل مُخبر ، فكتب عمر إلى الحكم بن عمرو أن لا يغزو بعد ذلك مُكران ، وليقتصروا على مادون النهر . وقد قال الحكم بن عمرو في ذلك :

لقد شبع الأرامل غير فخر ... بفيء جاءهم من مُكْران
أتاهم بعد مَسْغَبة وجَهْد ... وقد صفر الشتاء من الدُّخان
فإني لا يذمّ الجيش فعلي ... ولا سيفي يُذمّ ولا لساني
غداة أدافع الاوباش[4] دفعاً ... إلى السِّند العريضة والمَداني

---

(١) الوشل - بالتحريك - الماء القليل . (٢) الدقل : أردأ التمر . (٣) في نسخة : خير منها .

(٤) الأوباش من الناس : الأخلاط والسفلة منهم - مثل الأوشاب .

ومِهْرانُ لنـــا فيما أردنا مُطِيعٌ غيرَ مُسترْخِى العنان
فلولا ما نُهِى عنـه أميرى قَطَمناه إلى البُدُدِ الزوانى

غزوة الأكراد

ثم ذكر ابن جرير بسنده ، عن سيف عن شيوخه : أن جماعة من الأكراد والتفّ إليهم طائفة من الفُرس ـ اجتمعوا ، فلقيهم أبوموسى بمكان من أرض بَيْرُوذ ـ قريب من نهر تِيرى ، ثم سار عنهم أبو موسى إلى أصبهان ، وقد استخلف على حربهم الرَّبيعَ بنَ زياد بعد مقتل أخيه المهاجر ابن زياد ، فتسلم الحرب وحنق عليهم ، فهزم الله العدوّ ، وله الحمد والمنة ، كما هى عادته المستمرة وسنته المستقرة ، فى عباده المؤمنين ، وحِزبه المفلحين ، من أتباع سيد المرسلين . ثم خمست الغنيمة وبعث بالفتح والخمس إلى عمر رضى الله عنه . وقد سار ضَبَّة بن مِحْصَن العنزَى ، فاشتكى أبا موسى إلى عمر ، وذكر عنه أموراً لا ينقم عليه بسببها ، فاستدعاه عمر فسأله عنها ، فاعتذر منها بوجوه مقبولة فسمعها عمر وقَبِلها ، وردّه إلى عمله ، وعذر ضَبَّة فيما تأوله، ومات عمر ، وأبو موسى على صلاة البصرة .

خبر سلمة بن قيس الأشجعى والأكراد

بعثه عمر على سريّة، ووصّاه بوصايا كثيرة بمضمون حديث بُريدة فى صحيح مسلم : « اغزُوا بسم الله ، قاتلوا من كَفَر بالله » الحديث . إلى آخره ، فساروا فلقَوا جمعا من المشركين ، فدعَوهم إلى إحدى ثلاث خلال ، فأبوا أن يقبلوا واحدةً منها ، فقاتلوهم فقتلوا مقاتلهم ، وسَبَوا ذراريهم ، وغنموا أموالهم . ثم بعث سَلَمَةُ بن قيس رسولاً إلى عمر بالفتح وبالغنائم ، فذكروا وُرودَه على عمر وهو يطعم الناس ، وذهابه معه إلى منزله ، كنحو ما تقدم من قصة أم كلثوم بنت علىّ ، وطلبها الكسوة ، كما يُكسى طلحة وغيره أزواجهمَ ، فقال : ألا يكفيك أن يقال بنت علىّ وامرأة أمير المؤمنين ؟ ثم ذكر طعامه الخشن ، وشرابه من سُلْت[1] ، ثم شرع يستعلمه عن أخبار المهاجرين ، وكيف طعامهم وأشعارهم ، وهل يأكلون اللحم الذى هو شجرتهم ، ولا بقاء للعرب دون شجرتهم ؟ وذكر عرضه عليه ذلك السَّفَط من الجوهر ، فأبَى أن يأخذه وأقسم على ذلك ، وأمره بأن يردّه فيقسم بين الغانمين . وقد أورده ابن جرير مطولا جداً .

وقال ابن جرير : وفى هذه السنة حج عُمرَ بأزواج النبى ﷺ ، وهى آخر حَجَّة حجّها رضى

(١) السلت : شراب من سويق الشعير

الله عنه . قال : وفى هذه السنة كانت وفاته . ثم ذكر صفة قتله مطولا أيضا ، وقد ذكرت ذلك مستقصى فى آخر سيرة عمر ، فليكتب من هناك إلى هنا .

وهو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزى بن رِياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزاح بن عدى بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشى ـ أبو حفص العدوىّ ، الملقب بالفاروق ، قيل:لقبه بذلك أهل الكتاب . وأمه حَنْتَمة بنت هشام أخت أبى جهل بن هشام . أسلم عمر وعمره سبع وعشرون سنة ، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبى ﷺ ، وخرج فى عِدّة سرايا ، وكان أميراً على بعضها ، وهو أول من دُعى أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ ، وجمع الناس على التراويح ، وأول من عَسّ بالمدينة ، وحمل الدِّرّة وأدّب بها ، وجَلَد فى الخمر ثمانين ، وفتح الفتوح ، ومصر الأمصار ، وجنّد الأجناد . ووضع الخراج ، ودوّن الدواوين ، وعرض الأعطية ، واستقضى القضاة ، وكوّر الكُوَر ، مثل السواد والأهواز والجبال وفارس وغيرها .

وفتح الشام كله ، والجزيرة والموصل ، وميا فارقين ، وآمد ، وأرمينية ،ومصر واسكندرية . ومات وعساكره على بلاد الرّى فتح من الشام : اليَرموك ، وبصرى ، ودمشق ، والأردن ، وبيسان ، وطَبرية ، والجابية ، وفلسطين ، والرّملة ، وعسقلان ، وغزة والسواحل والقدس. وفتح مصر واسكندرية ، وطرابلس الغرب ، وبَرقة ومن مدن الشام : بعلبك وحمص ، وقنسرين ، وحلب ، وأنطاكية . وفتح الجزيرة ، وحَران ، والرّها ، والرقة ، ونصيبين ، ورأس عين ، وشمشاط ، وعين وردة ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، وبلاد الموصل ، وأرمينية جميعها . وبالعراق : القادسية ، والحيرة ، ونهرسير وساباط ، ومدائن كسرى ، وكورة الفرات ، ودجلة والأبلة والبصرة ، والأهواز وفارس،ونهاوند ، وهمذان ،والرى، وقومس، وخراسان واصطخر،وأصبهان،والسوس، ومرو ونيسابور ، وجرجان وأذربيجان وغير ذلك ، وقطعت جيوشه النهر مراراً .

وكان متواضعاً فى الله ، خشن العيش ، خشن المطعم ، شديداً فى ذات الله ، يُرقع الثوب بالأديم ، ويحمل القربة على كتفيه ، مع عظم هيبته ، ويركب الحمار عرياً ، والبعير مخطوماً بالليف ، وكان قليل الضحك ، لايمازح أحداً . وكان نقش خاتمه : كفى بالموت واعظاً ياعمر .

وقال النبى ﷺ : « أشدُّ أمتى فى دِين الله عمر » وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « إنّ لى وزيرَين من أهل السماء ، ووزيرَين من أهل الأرض ؛ فوزيراىَ من أهل السماء : جبريل وميكائيل ووزيراى من أهل الأرض : أبو بكر وعمر ، وإنهما السمع والبصر » . وعن عائشة أن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان يَفْرَق من عُمر » . وقال : « أرحم أمتى أبو بكر » ، وأشدّها

فى دين الله عمر » ، وقيل لعمر إنك قضاء . فقال : الحمد لله الذى ملأ قلبى لهم رحما وملأ قلوبهم لى رعباً . وقال عمر : لايحل لى من مال الله إلا حُلتان : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغنام ، ثم أنا رجل من المسلمين . وكان عمر إذا استعمل عاملا كتب له عهداً وأشهد عليه رَهطاً من المهاجرين ، واشترط عليه أن لايركب بِرْذَونا ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات . فإن فعل شيئاً من ذلك حلّت عليه العقوبة . وقيل: إنه كان إذا حدثه الرجل بالحديث فيكذب فيه الكلمة والكلمتين ، فيقول عمر : احبس هذه احبس هذه ، فيقول الرجل : والله كلما حدثتك به حق ، غير ما أمرتنى أن أحبسه .

وقال معاوية بن أبى سفيان : أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم تُرِده ، وأما عمر فأرادته فلم يُرِدْها ، وأما نحن فتمرّغنا فيها ظهراً لبطن . وعُوتب عمر فقيل له : لو أكلت طعاماً طيبا كان أقوى لك على الحق ! فقال : إنى تركت صاحبىَّ على جادّة ، فإن أدركت جادتهما فلم أدركهما فى المنزل . وكان يلبس وهو خليفة جُبة صوف مرقوعة بعضها بأدم ، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدّرة يؤدب بها الناس ، وإذا مرّ بالنوى وغيره يلتقطه ويرمى به فى منازل الناس ينتفعون به .

وقال أنس : كان بين كتفى عمر أربع رقاع ، وإزاره مرقوع بأدَم . وخطب على المنبر وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وأنفق فى حجته ستة عشر ديناراً ، وقال لابنه : قد أسرفنا ، وكان لا يستظل بشىء ، غير أنه كان يلقى كساءه على الشجر ويَستظل تحته ، وليس له خيمة ولا فسطاط . ولما قدم الشام لفتح بيت المقدس كان على جمل أوْرَق[١] تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، قد طبّق رجليه بين شعبى الرّحل بلا ركاب . ووطاؤه كيس من صوف ، وهو فراشه إذا نزل . وحقيبته محشوة ليفا ، وهى وسادته إذا نام ، وعليه قميص من كرابيس[٢] قد دسم وتخرق جيبه ، فلما نزل ، قال : ادعوا لى رأس القرية ، فدعوه . فقال : اغسلوا قميصى وخيطوه وأعيرونى قميصاً ، فأتى بقميص كتان ، فقال: ماهذا ؟ فقيل: كتان ، فقال: فما الكتان ؟ فأخبروه . فنزع قميصه فغسلوه وخاطوه ثم لبسه ، فقال له : أنت ملك العرب ، وهذه بلاد لا يصلح فيها ركوب الإبل . فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل ، فلما سار جعل البرذون يُهَمْلِج[٣] به ، فقال لمن معه : احبسوا ، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين ، هاتوا جملى . ثم نزل وركب الجمل .

وعن أنس قال : كنت مع عمر فدخل حائطا لحاجته ، فسمعته يقول : ـ وبينى وبينه جدار

---

(١) الأورق : الذى فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحما ، لاسيرا وعملا .

(٢) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض ، والنسبة إليه : كرابيسى .

(٣) أى: يسير بسرعة ، والهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة .

الحائط ـ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بَخٍ بَخٍ[1]، والله لتتقين الله بنىّ الخطاب أو ليعذبنك . وقيل: إنه حمل قربة على عاتقه، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلّها . وكان يصلى بالناس العشاء ثم يدخل بيته فلا يزال يصلّى إلى الفجر . وما مات حتى سَرِد[2] الصوم ، وكان فى عام الرّمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده ، ويقول : بئس الوالى أنا إن شبعت والناس جياع . وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء ، وكان يسمع الآية من القرآن فيغشى عليه ، فيُحمل صريعًا إلى منزله ، فيعاد أيامًا ليس به مرض إلا الخوف . وقال طليحة بن عبد الله : خرج عمر ليلة فى سواد الليل فدخل بيتًا ، فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مُقعدة ، فقلت لها : ما بال هذا الرجل يأتيكِ ؟ فقالت : إنه يتعاهدنى مدة كذا وكذا يأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى . فقلت لنفسى : ثكلتك أمك ياطليحة ! أعثرات عمر تتبع ؟

وقال أسلم مولى عمر : قدم المدينة رِفقة من تجار ، فنزلوا المصلّى ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة ؟ قال : نعم ! فباتا يحرسانهم ويصلّيان ، فسمع عمر بكاء صبى فتوجّه نحوه ، فقال لأمه : اتق الله تعالى وأحسنى إلى صبيك . ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك . ثم عاد إلى مكانه . فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبى ، فأتى إلى أمه ، فقال لها : ويحك ، إنك أم سوء ، مالى أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة من البكاء ؟ فقالت : يا عبد الله ، إنى أشغله عن الطعام فيأبى ذلك ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطوم . قال : وكم عُمر ابنك هذا ؟ قالت: كذا وكذا شهراً ، فقال: وَيحك لاتعجليه عن الفطام. فلما صلّى الصبح وهو لا يستبين للناس قراءته من البكاء ، قال : بؤسًا لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديه فنادى ، لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وقال أسلم : خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة، فلاح لنا بيت شعر فقصدناه ، فإذا فيه امرأة تمخض وتبكى ، فسألها عمر عن حالها ، فقالت : أنا امرأة عربية وليس عندى شىء . فبكى عمر وعاد يُهَروِل إلى بيته ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ وأخبرها الخبر ، فقالت : نعم ، فحمل على ظهره دقيقًا وشحمًا ، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة ، وجاءا فدخلت أم كلثوم على المرأة ، وجلس عمر مع زوجها ـ وهو لا يعرفه ـ يتحدث ، فوضعت المرأة غلامًا ، فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام . فلما سمع الرجل قولها ـ استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر . فقال عمر : لا بأس عليك ، ثم أوصلهم بنفقة وما يُصْلِحهم وانصرف .

(١) كلمة تقال عند المدح والرضا بالشىء ، وتكرر للمبالغة (٢) أى تابعه : والسرد : متابعة الصوم

وقال أسلم : خرجت ليلة مع عمر إلى حَرّة واقم ، حتى إذا كنا بصِرار ، إذا بنار ، فقال : يا أسلم! هـهنا رَكب قد قصر بهم الليل ، انطلق بنا إليهم ، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقِدْرٌ منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون[١] ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضَّوء ، قالت : وعليك السلام . قال : أدنوا ؟ قالت : ادن أو دَع . فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : من الجوع . فقال : وأى شىء على النار ؟ قالت : ماء أعللهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر . فبكى عمر ، ورجع يهرول إلى دار الدقيق، فأخرج عِدْلا[٢] من دقيق وجرابَ شحم ، وقال : يا أسلم! احمله على ظهرى ، فقلت : أنا أحمله عنك . فقال : أنت تحمل وِزْرى يوم القيامة ؟ . فحمله على ظهره ، وانطلقنا إلى المرأة . فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق فى القدر ، وألقى عليه من الشحم ، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة ، ثم أنزلها عن النار ، وقال: إيتينى بصَحفة. فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدى الصبيان ، وقال : كلوا ، فأكلوا حتى شبعوا - والمرأة تدعو له وهى لاتعرفه - فلم يزل عندهم حتى نام الصغار ، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف ، ثم أقبل علىّ فقال: يا أسلم الجوع الذى أسهرهم وأبكاهم .

وقيل : إن على بن أبى طالب رضى الله عنه رأى عمر وهو يعدو إلى ظاهر المدينة ، فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قد ندّ بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه ، فقال : قد أتعبت الخلفاء من بعدك . وقيل : إنه رأى جارية تمايل من الجوع ، فقال : من هذه ؟ فقالت ابنة عبد الله : هذه ابنتى . قال : فما بالها ؟ فقالت : إنك تحبس عنا ما فى يدك فيصيبنا ما ترى . فقال : يا عبد الله ، بينى وبينكم كتاب الله ، والله ما أعطيكم إلا ما فرض الله لكم ، أتريدون منى أن أعطيكم ما ليس لكم فأعود خائناً ؟ . روى ذلك عن الزهرى .

وقال الواقدى : حدثنا أبو حمزة يعقوب بن مجاهد ، عن محمد بن إبراهيم عن أبى عمرو ، قال : قلت لعائشة : من سمى عُمر الفاروق - أمير المؤمنين ؟ قالت: النبى ﷺ قال : « أمير المؤمنين هو » وأول من حياه بها - المغيرة بن شعبة ، وقيل غيره ، فالله أعلم.

وقال ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الصمد الأنصارى ، حدثتنى أم عمرو بنت حسّان الكوفية - وكان قد أتى عليها مائة وثلاث وثلاثون سنة - عن أبيها قال : لما ولى عُمَر قالوا : ياخليفة خليفة رسول الله . فقال عمر : هذا أمر يَطول ، كلما جاء خليفة قالوا : ياخليفة خليفة رسول الله ﷺ ، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسمّيَ أمير المؤمنين .

وملخص ذلك : أن عمر رضى الله عنه لما فرغ من الحج سنة ثلاث وعشرين ونزل بالأبطح ،

---

(١) أى : يصيحون ويبكون (٢) العدل : الحمل ، وقيل: نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير.

دعا الله عز وجل ، وشكا إليه أنه قد كبرت سنه وضعفت قوته ، وانتشرت رعيته ، وخاف من التقصير ، وسأل الله أن يقبضه إليه ، وأن يمنّ عليه بالشهادة فى بلد النبى ﷺ ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان يقول : اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك ، وموتاً فى بلد رسولك . فاستجاب له الله هذا الدعاء ، وجمع له بين هذين الأمرين : الشهادة فى المدينة النبوية وهذا عزيز جداً ، ولكن الله لطيف بما يشاء تبارك وتعالى ، فاتفق له أن ضربه أبو لُؤلُؤة ـ فيروز ـ المجوسى الأصل ، الرومى الدار ، وهو قائم يصلى فى المحراب ، صلاة الصبح من يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى الحجة من هذه السنة ، بخنجر ذات طرفين ، فضربه ثلاث ضربات ، وقيل ست ضربات ، إحداهن تحت سرته ، قطعت الصِّفاق[1] فخرّ من قامته ، واستخلف عبد الرحمن بن عوف ، ورجع العِلْج بخنجره لا يمرّ بأحد إلا ضربه ، حتى ضرب ثلاثة عشر رجلا مات منهم ستة ، فألقى عليه عبد الله ابن عوف بُرْنساً فانتحر نفسه ـ لعنه الله .

وحمل عمر إلى منزله والدم يسيل من جرحه . وذلك قبل طلوع الشمس ـ فجعل يُفيق ثم يغمى عليه ، ثم يذكرونه بالصلاة فيفيق ويقول : نعم ، ولاحظّ فى الإسلام لمن تركها . ثم صلى فى الوقت ، ثم سأل عمن قتله من هو ؟ فقالوا له : هو أبو لُؤلُؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة ، فقال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى إلا على يدى رجل يدّعى الإيمان ولم يسجد لله سجدة . ثم قال : قبّحه الله ، لقد كنا أمرنا به معروفاً ـ وكان المغيرة قد ضرب عليه فى كل يوم درهمين ، ثم سأل من عمر أن يزيد فى خَراجه فإنه نجّار نقاش حداد ، فزاد فى خراجه إلى مائة فى كل شهر ـ وقال له : لقد بلغنى أنك تحسن أن تعمل رحاً تدور بالهواء ، فقال أبو لؤلؤة : أما والله لأعملنّ لك رحاً يتحدث عنها الناس فى المشارق والمغارب ـ وكان هذا يوم الثلاثاء عشية ـ وطعنه صبيحة الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة .

وأوصى عمر أن يكون الأمر شُورى بعده فى ستة ممن توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وهم : عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، ولم يذكر سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى فيهم ، لكونه من قبيلته ، خشية أن يراعى فى الإمارة بسببه ، وأوصى من يستخلف بعده بالناس خيراً على طبقاتهم ومراتبهم ، ومات رضى الله عنه بعد ثلاث ، ودفن فى يوم الأحد مستهل المحرم من سنة أربع وعشرين ، بالحجرة النبوية ، إلى جانب الصديق ، عن إذن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى ذلك . وفى ذلك اليوم حكم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

---

(١) صفاق البطن : الجلد الأسفل تحت الجلد الذى عليه الشعر ، أو هو ما بين الجلد والمصران . وقيل : هو ما حول السرة .

قال الواقدى ـ رحمه الله : حدثنى أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيه قال : طُعِن عمر يوم الأربعاء ، لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، فكانت ولايته: عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يوماً . وبُويع لعثمان يوم الاثنين لثلاث مضين من المحرم . قال : فذكرت ذلك لعثمان الأخنس فقال : ما أراك إلا وَهِلْت[1] . توفى عمر لأربع ليال بقين من ذى الحجة، وبويع لعثمان لليلة بقيت من ذى الحجة ، فاستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين . وقال أبو معشر : قتل عمر لأربع بقين من ذى الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين ، وكانت خلافته عشرَ سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وبويع عثمان بن عفان .

وقال ابن جرير : حدثت عن هشام بن محمد قال : قتل عمر لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام . وقال سيف ، عن خليد بن وفرة ومجالد قالا : استخلف عثمان لثلاث من المحرم ، فخرج فصلى بالناس صلاة العصر . وقال على ابن محمد المدائنى عن شريك عن الأعمش ـ أو جابر الجعفى ـ عن عوف بن مالك الأشجعى ـ وعامر بن أبى محمد عن أشياخ من قومه ، وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهرى قال : طعن عمر يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة، والقول الأول هو الأشهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

صفته رضى الله عنه

كان رجلا طوالا أصلع أعسَر[2] يَسَراً أحْوَر العينين ، آدمَ اللون . وقيل كان أبيض شديد البياض ، تعلوه حُمْرة ، أشنَب[3] الأسنان ، وكان يُصفِّر لحيته ، ويرجّل رأسه بالحِنَّاء .

واختلف فى مقدار سنه يوم مات رضى الله عنه على أقوال ، عدتها ـ عشرة ـ فقال ابن جرير : حدثنا زيد بن أخزم ، ثنا أبو قتيبة عن جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قتل عمر بن الخطاب وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ورواه الدَّراوَرْدى عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر . وقاله عبد الرزاق عن ابن جريج عن الزهرى ، ورواه أحمد عن هُشيم عن على بن زيد عن سالم بن عبد الله بن عمر . وعن نافع رواية أخرى : ست وخمسون سنة . قال ابن جرير : وقال آخرون : كان عمره ثلاثا وخمسين سنة وأشهراً ، حدثت بذلك عن هشام بن محمد. ثم روى عن عامر الشعبى : أنه توفى وله ثلاث وستون سنة .

---

(١) أى: وهمت ، أو غلطت ونسيت

(٢) أى : يعمل بكلتا يديه ، ولا تقل : أعسر أيسر ، الأعسر : الذى يعمل بيساره فقط .

(٣) الشنب : الحدة فى الاسنان ، وقيل: رقة وعذوبة

قلت : وقد تقدم فى عمر الصديق مثله ، وروى عن قتادة أنه قال : توفى عمر وهو ابن إحدى وستين سنة ، وعن ابن عمر والزهرى : خمس وستون وعن ابن عباس : ست وستون ، وروى ابن جرير عن أسلم مولى عمر أنه قال : توفى وهو ابن ستين سنة . قال الواقدى : وهذا أثبت الأقاويل عندنا . وقال المدائنى : توفى عمر وهو ابن سبع وخمسين سنة .

ذكر زوجاته وأبنائه وبناته

قال الواقدى وابن الكلبى وغيرهما : تزوج عُمر فى الجاهلية : زَينب بنت مظعون ــ أخت عثمان بن مظعون ، فولدتْ له : عبدالله وعبدالرحمن الأكبر ، وحَفصة ــ رضى الله عنهم . وتزوج مليكة بنت جَرْوَل فولدت له : عبيد الله بن عمر فطلقها فى الهُدْنة ، فخلف عليها أبو الجهم بن حُذيفة . قاله المدائنى .

وقال الواقدى : هى أم كلثوم بنت جَرْول ، فولدت له عبيد الله وزيداً الأصغر . قال المدائنى وتزوج قُرَيبة بنت أبى أمية المخزومى ففارقها فى الهُدنة ، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبى بكر . قالوا : وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد زوجها ــ حين قتل فى الشام ــ فولدت له فاطمة ثم طلقها . قال المدائنى: وقيل : لم يطلقها . قالوا : وتزوج جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح من الأوس . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قبله عند عبد الله بن أبى مليكة[1] . ولما قتل عمر تزوجها بعده الزبير بن العوام رضى الله عنهم ، ويقال : هى أم ابنه عياض فالله أعلم . قال المدائنى : وكان قد خطب أم كلثوم ابنة أبى بكر الصديق وهى صغيرة وراسل فيها عائشة ، فقالت أم كلثوم : لاحاجة لى فيه ، فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنه خشِن العيش ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فصدّه عنها ودلّه على أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب ، ومن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وقال : تعلّق منها بسبب من رسول الله ﷺ ، فخطبها من علىّ فزوجه إياها ، فأصدقها عمر رضى الله عنه أربعين ألفاً ، فولدت له زيداً ورقية .

قالوا : وتزج لُهيّة ــ امرأة من اليمن ــ فولدت له عبد الرحمن الأصغر ، وقيل الأوسط . وقال الواقدى : هى أم ولد وليست بزوجة ، قالوا : وكانت عنده فُكَيْهة أم ولد ، فولدت له زينب قال الواقدى: وهى أصغر ولده . قال الواقدى : وخطب أمّ أبان بنت عُتبة بن شيبة[2] فكرهته وقالت : يُغلق بابه ويمنع خيره ، ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

قلت : فجملة أولاده رضى الله عنه وأرضاه : ثلاثة عشر ولداً ، وهم : زيد الأكبر ، وزيد الأصغر ، وعاصم ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الأكبر ، وعبد الرحمن الأوسط . قال الزبير بن بكار

(١) فى الطبرى : ابن أبى بكر (٢) فى الطبرى : ابن ربيعة

وهو أبو شحمة ، وعبد الرحمن الأصغر ، وعبيد الله ، وعياض ، وحفصة ، ورقية ، وزينب ، وفاطمة ، رضى الله عنهم . ومجموع نسائه اللاتى تزوجهن فى الجاهلية والإسلام ؛ ممن طلقهن أو مات عنهن : سبع ، وهن : جميلة بنت عاصم بن ثابت بن الأفلح ، وزينب بنت مظعون ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وقُريبة بنت أبى أمية . ومُليكة بنت جَرْوَل ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وأم كلثوم بنت على بن أبى طالب . وكانت له أمتان له منهما أولاد ، وهما : فُكَيهة ولُهيّة ، وقد اختلف فى لُهيّة هذه ، فقال بعضهم : كانت أم ولد ، وقال بعضهم : كان أصلها من اليمن ، وتزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فالله أعلم .

ذكر بعض ما رُثى به

قال على بن محمد المدائنى : عن ابن داب وسعيد بن خالد ، عن صالح بن كيسان ، عن المغيرة ابن شعبة قال : لما مات عمر بكته ابنة أبى حَثْمة فقالت : واعمراه ! أقام الأوَد وأبرأ العَمَد ، أمات الفتن ، وأحيا السُّنن ، خرج نقىّ الثوب ، بريئاً من العيب .

قال: فقال على بن أبى طالب : والله لقد صدقت ، ذهب بخيرها ، ونجا من شرّها ، أما والله ما قالت ولكن قُوّلت . قال : وقالت عاتكة بنت زيد [بن عمرو بن نفيل فى زوجها عمر] :

فجَّعنى فيروزُ لا دَرَّ درُّه ... بأبيض تالٍ للكتاب مُنيبِ
رءوفٍ على الأدنى غليظٍ على العِدَا ... أخى ثقة فى النائبات نجيبِ
متى ما يقلْ لا يَكذب القولَ فِعلُه ... سريعٍ إلى الخيرات غيرِ قَطوبِ

وقالت أيضاً :

عَينِ جُودى بعَبرةٍ ونَحيبِ ... لا تَملّىّ على الإمام النجيبِ
فجَّعتنا المنون بالفارس المُعْـ ... ـلِم يومَ الهَيـاجِ والتلبيبِ
عصمةِ الناس والمُعين على الدَّهـ ... ـرِ وغيثِ المُنتاب والمَحرُوبِ
قُل لأهل السرّاء والبؤس مُوتوا ... قد سَقتْه المنون كأسَ شَعُوبِ

وقالت امرأة من المسلمين تبكيه :

سَيبكيك نساء الحَـ ... ـىّ يَبكين شَجيّاتِ
وَيَخمِشن وجوهاً كالـ ... ـدنانيرِ نَقيَّـاتِ
ويَلْبسنَ ثيابَ الحُز ... نِ بعد القَصَبيّاتِ

وقد ذكر ابن جرير ترجمة طويلة لعمر بن الخطاب ، وكذلك أطال ابن الجوزى فى سيرته ، وشيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى تاريخه ، وقد جمعنا متفرقات كلام الناس فى مجلد مفرد ،

وأفردنا لما أسنده وروى عنه من الأحكام مجلداً آخر كبيراً مرتباً على أبواب الفقه ، ولله الحمد .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة توفي قتادة بن النعمان ، وفيها غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية ومعه من الصحابة: عُبادة بن الصامت، وأبو أيوب ، وأبو ذَر ، وشدّاد بن أوس .

وفيها فتح معاوية عَسقلان صلحاً . قال : وفيها كان على قضاء الكوفة شُرَيح ، وعلى قضاء البصرة كَعب بن سوار قال : وأما مُصعب الزبيري فإنه ذكر أن مالكا رَوى عن الزهري ، أن أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاض . وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في تاريخه في سنة ثلاث وعشرين : فيها كانت قصة سَارية بن زُنيم . وفيها فُتحت كَرمان وأميرها سُهيل بن عدي . وفيها فتحت سِجِسْتان ، وأميرها عاصم بن عمرو وفيها فتحت مَكْران ، وأميرها الحكم بن أبي العاص ـ أخو عثمان ، وهي من بلاد الجبل . وفيها رجع أبو موسى الأشعري من بلاد أصبهان وقد افتتح بلادها وفيها غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية .

ثم ذكر وفاة من مات فيها ، فمنهم :

قتادة بن النعمان الأنصاري: الأوسي الظفري ـ أخو أبي سعيد الخدري لأمه ، وقتادة أكبر منه ، شهد بدراً وأصيبت عينه في يوم أحد حتى وقعت على خده فردها رسول الله ﷺ فصارت أحسن عينيه . وكان من الرماة المذكورين ، وكان على مقدمة عمر حين قدم إلى الشام توفي في هذه السنة على المشهور عن خمس وستين سنة ، وَنزل عُمرُ في قبره ، وقيل : إنه توفي في التي قبلها ثم ذكر ترجمة عمر بن الخطاب فأطال فيها وأكثر وأطنب ، وأتى بمقاصد كثيرة مهمة ، وفوائد جمة ، وأشياء حسنة ، فأثابه الله الجنة .

ثم قال : ذكر من توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الأقرع بن حابس: بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حَنظلة ابن مالك بن زيد مَناة بن تميم التميمي المجاشعي . قال ابن دريد : واسمه فِراس بن حابس ولقب بالأقرع لقَرَع في رأسه ، وكان أحد الرؤساء . قدم على رسول الله ﷺ مع وَفد بني تَميم ، وهو الذي نادى من وراء الحجرات : يا محمد إنّ مدحي زَين ، وذمي شَين ، وهو القائل ـ وقد رأى رسول الله ﷺ يُقبّل الحسن ـ أتقبله ؟ والله إن لي عشرة من الولد ما قَبّلت واحداً منهم . فقال : « مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحم » . وفي رواية : « ما أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك » ، وكان ممن تألفه رسول الله ﷺ فأعطاه يوم حُنين مائةً من الإبل ، وكذلك لعُيينة بن حِصْن الفَزاري ، وأعطى عَباس بن مرداس خمسين[1] من الإبل فقال :

---

(١) في نسخة : خمسا من الإبل

أتجعل نَهْبِي ونَهب العُبَيـ ـد بين عُيَينة والأقرع ؟
فما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ يفـوقان مِرْدَاس فى مَجْمَع
وما كنتُ دونَ امرىءٍ منهما ومن تَخفض اليوم لا يُرْفَع

فقال له رسول الله ﷺ : أنت القائل :

أتجعل نَهْبِي ونهب العُبَيـ ـد بين عُيَينة والأقرع ؟

رواه البخارى ، قال السهيلى : إنما قدم رسول الله ﷺ ذكْرَ الأقرع قبل عُيَينة ، لأن الأقرع كان خيراً من عُيينة ولهذا لم يرتدّ بعد النبى ﷺ كما ارتد عيينة فبايع طُليحة وصدقه ثم عاد . والمقصود : أن الأقرع كان سيداً مطاعاً ، وشهد مع خالد وقائعه بأرض العراق ، وكان على مقدمته يوم الأنبار . ذكره شيخنا فيمن توفّى فى خلافة عمر بن الخطاب . والذى ذكره ابن الأثير فى الغابة، أنه استعمله عبد الله بن عامر على جيش ، وسيره إلى الجوزجان ، فقتل وقتلوا جميعاً وذلك فى خلافة عثمان كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

حباب بن المنذر : ابن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم ، بن كعب بن سلمة ـ أبو عمر ، ويقال: أبو عمرو الأنصارى الخزرجى السلمى ، ويقال له ذو الرأى لأنه أشار يوم بدر أن ينزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء يكون إلى القوم ، وأن يغور ما وراءهم من القُلُب فأصاب فى هذا الرأى ، ونزل الملك بتصديقه . وأما قوله يوم السقيفة : أنا جُذَيلها المحكَّك ، وعُذَيقها المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير ـ فقد ردّه عليه الصديق والصحابة .

ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمى ـ ابن عم رسول الله ﷺ .

عتبة بن مسعود الهذلى : هاجر مع أخيه لأبويه ـ عبد الله ـ إلى الحبشة شهد أحداً وما بعدها. قال الزهرى : ما كان عبد الله بأفقه منه ، ولكن مات عتبة قبله ، وتوفى زمن عمر على الصحيح ، ويقال فى زمن معاوية ، سنة أربع وأربعين .

علقمة بن علاثة : ابن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة العامرى الكلابى ، أسلم عام الفتح وشهد حُنيناً وأُعطى يومئذ مائة من الإبل تأليفاً لقلبه . وكان بتهامة ، وكان شريفاً مطاعاً فى قومه ، وقد ارتد أيام الصديق فبعث إليه سريّة فانهزم ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ووفد على عُمَر فى خلافته ، وقدم دمشق فى طلب ميراث له ثَمّ ، ويقال استعمله على حُوران فمات بها ، وقد كان الحطيئة قصده ليمتدحه فمات قبل مقدمه بليال فقال :

فما كان بَينِىَ لو لَقيتك سالما وبين الغِنَى إلاّ ليـال قلائل

علقمة بن مُجَزِّز : بن الأعور بن جَعدة بن معاذ بن عتوارة بن عمرو بن مدلج الكنانى المدلجى ،

أحد أمراء رسول الله ﷺ على بعض السرايا . وكانت فيه دعابة ، فأجج ناراً وأمر أصحابه أن يدخلوا فيها فامتنعوا ، فقال النبي ﷺ : « لو دخلوا فيها ما خرجوا منها » ، وقال : « إنما الطاعة في المعروف » ، وقد كان علقمة جواداً ممدحاً ، رثاه جَوّاس العذرى فقال :

إن السلام وحسن كل تحية تغدو على ابن مُجَزِّز وتروح

عويم بن ساعدة : ابن عابس أبو عبد الرحمن الأنصارى الأوسى ، أحد بنى عمرو بن عوف شهد العقبة وبدراً وما بعدها . له حديث عند أحمد وابن ماجة فى الاستنجاء بالماء . قال ابن عبد البر : توفى فى حياة النبي ﷺ وقيل فى خلافة عمر ، وقال وهو واقف على قبره : لا يستطيع أحد أن يقول أنا خير من صاحب هذا القبر ، ما نصبت راية للنبي ﷺ إلا وهو واقف تحتها . وقد روى هذا الأثر ابن أبى عاصم كما أورده ابن الأثير من طريقه .

غَيلان بن سلمة الثقفى : أسلم عام الفتح على عشر نسوة ، فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً ، وقد وفد قبل الإسلام على كسرى فأمره أن يبنى له قصراً بالطائف ، وقد سأله كسرى : أى ولدك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم ، فقال له كسرى. أنى لك هذا ؟ هذا كلام الحكماء قال : فما غذاؤك ؟ قال : البُرّ . قال : نعم هذا من البُرّ لا من التمر واللبن .

مَعْمر بن الحارث : ابن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح القرشى الجمحى - أخو حاطب وحطاب ، أمهم قَيلة بنت مظعون - أخت عثمان بن مظعون ، أسلم مَعمر قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم ، وشهد بدراً وما بعدها ، وآخى رسول ﷺ بينه وبين مُعاذ بن عفراء .

مَيْسرة بن مسروق العَبْسى : شيخ صالح ، قيل إنه صحابى . شهد اليرموك ، ودخل الروم أميراً على جيش ستة آلاف وكانت له همة عالية فقتل وسبى وغنم وذلك فى سنة عشرين ، وروى عن أبى عبيدة ؛ وعنه أسلم مولى عمر ، لم يذكره ابن الأثير فى الغابة .

وَاقِد بن عبد الله : ابن مناف بن عرين الحنظلىّ اليربوعى - حليف بنى عدى بن كعب ، أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم وشهد بدراً وما بعدها ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين بشر بن البراء بن مَعرور ، وهو أول من قتل فى سبيل الله عز وجل ببطن نخلة ، مع عبد الله بن جحش حين قتل عمرو بن الحضرمى . وتوفى فى خلافة عمر رضى الله عنه .

أبو خِراش الهذلىّ الشاعر : واسمه خُويلد بن مرة . كان يسبق الخيل على قدميه ، وكان فتاكاً فى الجاهلية ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وتوفى فى زمن عمر . أتاه حجاج فذهب يأتيهم بماء فنهشته حية ، فرجع إليهم بالماء وأعطاهم شاة وقدراً ، ولم يُعلمهم بما جرى له ، فأصبح فمات فدفنوه

ذكره ابن عبد البر وابن الأثير فى أسماء الصحابة . والظاهر أنه ليست له وفادة ، وإنما أسلم فى حياة النبى ﷺ فهو مخضرم ، والله أعلم

أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب : ابن عمرو الأنصارى . شهد أحداً وما بعدها ؛ إلا تبوك فإنه تخلف لعذر الفقر ، وهو أحد البكائين المذكورين .

سَودة بنت زمعة : القرشية العامرية ـ أم المؤمنين ، أول من دخل بها رسول الله ﷺ بعد خديجة رضى الله عنها ، وكانت صوّامة قوّامة ، ويقال: كان فى خُلقها حدّة ، وقد كبرت فأراد رسول الله ﷺ أن يفارقها ـ ويقال بل فارقها ـ فقالت : يارسول الله لاتفارقنى وأنا أجعل يومى لعائشة فتركها رسول الله ﷺ وصالحها على ذلك وفى ذلك أنزل الله عز وجل : (وَإِنِ امرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعلِها نُشُوزاً أو إعراضاً فلا جُنَاحَ عَلَيْهِما أنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلحاً والصُّلحُ خَيْرٌ)[1] الآية . قالت عائشة : نزلت فى سودة بنت زمعة ، وتوفيت فى خلافة عمر بن الخطاب .

هند بنت عُتبة : يقال : ماتت فى خلافة عمر ، وقيل توفيت قبل ذلك كما تقدم ، فالله أعلم .

خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه
ثم استهلت سنة اربع وعشرين

ففى أول يوم منها ـ دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك يوم الأحد فى قول ، وبعد ثلاثة أيام بُويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

كان عمر رضى الله عنه قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالرحمن ابن عوف رضى الله عنه . وتحرّج أن يجعلها لواحد من هؤلاء على التعيين ، وقال : لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً ، وَإنْ يُرد الله بكم خيراً يَجمعكم على خير هؤلاء ، كما جمعكم على خَيْركم بعد نبيكم ﷺ ومن تمام وَرَعه لم يذكر فى الشورى سَعيد بن زَيد بن عَمرو بن نُفَيل ؛ لأنه ابن عمه خشى أن يراعى فيولّى لكونه ابن عمه ، فلذلك تركه . وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . بل جاء فى رواية المدائنى عن شيوخه : أنه استثناه من بينهم ، وقال : لست مُدْخِله فيهم ، وقال لأهل الشورى : يحضركم عبدُ الله ـ يعنى ابنه ، وليس إليه من الأمر شىء ـ يعنى بل يحضر الشورى ويشير بالنصح ولا يولى شيئاً . وأوصى أن يصلّى بالناس صُهَيب بن سِنان الرُّومى ثلاثة أيام حتى تنقضى الشّورى ، وأن يجتمع أهل الشورى ويوكل بهم أناس حتى ينبَرِم الأمر ،

---

(١) من الآية : ٢٨ من سورة النساء

وَوَكَّل بهم خمسين رجلا من المسلمين وجعل عليهم مستحثاً : أبا طلحة الأنصارى ، والمقداد بن الأسود الكندى . وقد قال عمر بن الخطاب : ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلىّ أحداً ؛ إنهما كانا يكتبان الوحى بين يدى رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه .

قالوا : فلما مات عمر رضى الله عنه وأحضرت جنازته ، تبادر إليها علىّ وعثمان ، أيهما يصلى عليه ، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف : لستما من هذا فى شىء ، إنما هذا إلى صُهيب الذى أمره عمر أن يُصلّى بالناس . فتقدم صُهيب وصلّى عليه ، ونزل فى قبره مع ابنه عبدالله وأهل الشورى - سوى طلحة فإنه كان غائباً ، فلما فرغ من شأن عمر جمعهم المقداد بن الأسود فى بيت المِسْوَر بن مخرمة ، وقيل فى حجرة عائشة ، وقيل فى بيت المال ، وقيل فى بيت فاطمة بنت قيس - أخت الضحاك بن قيس ، والأول أشبه ، والله أعلم . فجلسوا فى البيت ، وقام أبو طلحة يحجبهم ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا من وراء الباب ، فحصبهما سعد بن أبى وقاص وطردهما ، وقال : جئتما لتقولا حضرنا أمر الشورى ؟ رواه المدائنى عن مشايخه والله أعلم بصحته .

والمقصود : أن القوم خلصوا من الناس فى بيت يتشاورون فى أمرهم ، فكَثُر القول ، وعلت الأصوات ، وقال أبو طلحة : إنى كنت أظن أن تدفعوها ولم أكن أظن أن تنافسوها ، ثم صار الأمر بعد حضور طلحة إلى أن فوّض ثلاثة منهم ما لهم فى ذلك إلى ثلاثة ، ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علىّ ، وفوض سعد ماله فى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف ، وترك طلحة حقه إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه . فقال عبد الرحمن لعلىّ وعثمان : أيكما يبرأ من هذا الأمر فنفوّض الأمر إليه ؟ والله عليه والإسلام ليولّين أفضل الرجلين الباقيين فسكت الشيخان على وعثمان ، فقال عبد الرحمن : إنى أترك حقى من ذلك ، والله على والإسلام أن أجتهد فأولى أولا كما بالحق ، فقالا : نعم ! ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل ، وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاّه ليعدلنّ ، ولئن وُلّى عليه ليسمعن وليطيعن ، فقال كل منهما : نعم ! ثم تفرقوا .

ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين فى أفضلهم ليوليه ، فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى ، وغيرهم فلا يشير إلا بعثمان بن عفان ، حتى إنه قال لعلى : أرأيت إن لم أولك بمن تشير به علىّ ؟ قال : بعثمان . وقال لعثمان : أرأيت إن لم أولك بمن تشير به ؟ قال : بعلى بن أبى طالب . والظاهر أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر فى ثلاثة ، وينخلع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل ، والله عليه والإسلام ليجتهدن فى أفضل الرجلين فيوليه . ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يستشير الناس فيهما ويجمع رأى المسلمين برأى رءوس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا ، مثنى وفرادى ، ومجتمعين ، سراً وجهراً ، حتى خلص إلى النساء

المخدرات فى حجابهن ، وحتى سأل الولدان فى المكاتب ، وحتى سأل من يَرِد من الرُّكبان والأعراب إلى المدينة ، فى مدة ثلاثة أيام بلياليها ، فلم يجد اثنين يختلفان فى تقدم عثمان بن عفان ، إلا ما يُنقل عن عمّار والمقداد أنّهما أشارا بعلى بن أبى طالب ، ثم بايعا مع الناس على ماسنذكره .

فسعى فى ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نَوم إلا صلاةً ودعاء واستخارة وسؤالا من ذوى الرأى عنهم ، فلم يجد أحداً يَعدل بعثمان بن عفان رضى الله عنه . فلما كانت الليلة يُسفِر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب ، جاء إلى منزل ابن أخته المِسْوَر ابن مَخرمة ، فقال : أنائم يامسور ؟ والله لم أغتمض بكثير نومٍ منذ ثلاث ، اذهب فادع إلىّ عليا وعثمان ، قال المسور : فقلت بأيهما أبدأ ؟ فقال : بأيهما شئت ، قال : فذهبت إلى علىّ ، فقلت : أجب خالى ، فقال : أمرك أن تدعو معى أحداً ؟ قلت : نعم ! قال : من ؟ قلت : عثمان بن عفان ، قال : بأينا بدأ ؟ قلت : لم يأمرنى بذلك ، بل قال : ادعو لى أيهما شئت أولا ، فجئت إليك ، قال : فخرج معى ، فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس علىّ حتى دخلت فوجدته يُوتر مع الفجر ، فقال لى كما قال لى علىٌّ سواء ، ثم خرج فدخلت بهما على خالى وهو قائم يصلى ، فلما انصرف أقبل على علىٍّ وعثمان فقال : إنى قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ، ثم أخذ العهد على كلّ منهما أيضاً ، لئن ولاّه ليعدلن ، ولئن ولّى عليه ليسمعن وليطيعن .

ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لَبس عبد الرحمن العمامة التى عمّمه بها رسول الله ﷺ ، وتقلد سيفاً ، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ونُودى فى الناس عامة : الصلاة جامعة ، فامتلأ المسجد بالناس حتى غصّ بالناس ، وتراصّ الناس وتراصّوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس ـ وكان رجلاً حيياً رضى الله عنه ـ ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ ، فوقف وقوفاً طويلاً ، ودعا دعاء طويلا ، لم يسمعه الناس . ثم تكلم فقال : أيها الناس ، إنى سألتكم سرًّا وجهراً عن إمامكم[1] فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين ، إما علىٌّ وإما عثمان ، فقم إلىّ ياعلى ، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده ، فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال : اللهم لا . ولكن على جَهْدى من ذلك وطاقتى ، قال : فأرسل يده وقال : قم إلىّ ياعثمان ، فأخذ بيده وقال : هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال : اللهم نعم ! قال فرفع رأسه إلى سَقف المسجد وَيدُه فى يد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد ، اللهم إنى قدجعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان .

---

(١) فى نسخة : بأمانيكم

قال : وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر ، قال : فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية ، وجاء إليه الناس يبايعونه ، وبايعه على بن أبي طالب أولا ، ويقال آخراً . وما يذكره كثير من المؤرخين ، كابن جرير وغيره عن رجال لا يعرفون ؛ أن علياً قال لعبد الرحمن خدعتني ، وإنك إنما وليته لأنه صهرك وليشاورك كل يوم في شأنه ، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن (فَمَن نَكَثَ فإنما يَنكُثُ على نَفْسِه ، وَمَنْ أَوْفَى بما عَاهَدَ عليهُ اللهَ فسيُؤتيهِ أجراً عظيما)[1] إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائليها وناقليها ، والله أعلم .

والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ، ومستقيمها وسقيمها ، ومبادها وقويمها ، والله الموفق للصواب . وقد اختلف علماء السير في اليوم الذي بويع فيه لعثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فروى الواقدي عن شيوخه ، أنه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين ، وهذا غريب جداً . وقد روى الواقدي أيضاً عن ابن جريج عن ابن أبي مُليكة قال : بُويع لعثمان بن عفان لعشر خلون من المحرم بعد مقتل عمر بثلاث ليال ، وهذا أغرب من الذي قبله . وكذا روى سيف بن عمر عن عامر الشعبي أنه قال : اجتمع أهل الشورى على عثمان لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وعشرين ، وقد دخل وقت العصر ، وقد أذن مؤذن صُهيب ، واجتمع الناس بين الأذان والإقامة فخرج ، فصلى بهم العصر . وقال سيف عن خليفة ابن زُفر ومُجالد قالا : استُخلف عثمان لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وعشرين فخرج فصلى بالناس العصر ، وزاد الناس - يعنى في أعطياتهم - مائة ، ووفّد أهل الأمصار ، وهو أول من صنع ذلك . قلت : ظاهر ما ذكرناه من سياق بيعته يقتضى أن ذلك كان قبل الزوال ، لكنه لما بايعه الناس في المسجد ذهب به إلى دار الشورى - على ما تقدم فيها من الخلاف - فبايعه بقية الناس ، وكأنه لم يتم البيعة إلا بعد الظهر وصلى صُهيب يومئذ الظهر في المسجد النبوي ، وكان أول صلاة صلاها الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالمسلمين - صلاة العصر ، كما ذكره الشعبي وغيره .

وأما أول خطبة خطبها بالمسلمين فروى سيف بن عمر عن بدر بن عثمان عن عمه قال : لما بايع أهل الشورى عثمان خرج - وهو أشدهم كآبة - فأتى منبر النبي ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وقال : إنكم في دار قُلْعَة[2] وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صُبّحتم أو مُسّيتم ، ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور (فَلاَ تَغُرَّنَّكُم

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح (٢) أى : دار تحول وارتحال ورحلة

الحياة الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرور)[1] ، واعتبروا بمن مضى ، ثم جِدُّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمّروها ، ومُتّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، بالذى هو خير ، فقال تعالى: « واضرب لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلَطَ بهِ نَباتُ الأرضِ فأصْبحَ هَشِيماً تَذرُوهُ الرِّياحُ وكانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ مُقتدِراً « المالُ والبَنُونَ زِينةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً »[2] قال : وأقبل الناس يبايعونه .

قلت : وهذه الخطبة ، إمّا بعد صلاة العصر يومئذ ، أو قبل الزوال ، وعبد الرحمن بن عوف جالس فى رأس المنبر وهو الأشبه ، والله أعلم . وما يذكره بعض الناس من أن عثمان لما خطب أول خطبة أرتج عليه فلم يدر ما يقول ، حتى قال : أيها الناس ، إن أول مَرْكب صعب ، وإن أعِش فستأتيكم الخطبة على وجهها - فهو شىء يذكره صاحب العقد وغيره ، ممن يذكر طرف الفوائد ، ولكن لم أر هذا بإسناد تسكن النفس إليه ، والله أعلم .

وأما قول الشعبى : إنه زاد الناس مائة مائة - يعنى فى عطاء كل واحد من جند المسلمين - زاده على ما فَرَض له عمر مائة درهم من بيت المال ، وكان عمر قد جعل لكل نفس من المسلمين فى كل ليلة من رمضان درهماً من بيت المال يُفطر عليه ، ولأمهات المؤمنين درهمين ، فلما ولى عثمان أقر ذلك وزاده ، واتخذ سِماطا فى المسجد أيضاً للمتعبِّدين ، والمُعتكفين ، وأبناء السبيل ، والفقراء ، والمساكين ، رضى الله عنه . وقد كان أبو بكر إذا خطب يقوم على الدرجة التى تحت الدرجة التى كان رسول الله ﷺ يقف عليها ، فلما وَلِى عمر نزلَ درجة أخرى عن درجة أبى بكر رضى الله عنهما ، فلما وَلِى عثمان قال : إن هذا يطول ، فصعِد إلى الدرجة التى كان يخطب عليها رسول الله ﷺ وزاد الأذان الأول يوم الجمعة ، قبل الأذان الذى كان يؤذن به بين يدى رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر . وأما أول حكومة حَكَمَ فيها - فقضيةُ عبيد الله بن عمر ، وذلك أنه غَدا على ابنة أبى لؤلؤة قاتل عمر فقتلها ، وضرب رجلا نصرانياً يقال له : جُفَينة بالسيف فقتله ، وضرب الهرمزان الذى كان صاحب تُستر فقتله ، وكان قد قيل إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر ، فالله أعلم .

وقد كان عمر أمر بسجنه ليحكم فيه الخليفة من بعده ؛ فلما وَلِى عثمان وجلس للناس كان أول ما تُحوكِم إليه فى شأن عبيد الله ، فقال علىّ : ما من العدل تركه ، وأمر بقتله . وقال بعض المهاجرين : أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين قد برّأك الله من ذلك ، قضية لم تكن فى أيامك فدَعها عنك ، فوَدَى عثمان رضى الله عنه أولئك القتلى من ماله ، لأن أمرهم إليه ، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال ، والإمام يرى الأصلح فى ذلك ،

---

(١) من الآية : ٥ من سورة فاطر
(٢) الآيتان : ٤٥ - ٤٦ من سورة الكهف

وخلى سبيل عبيد الله . قالوا: فكان زياد بن لبيد البياضى إذا رأى عبيد الله بن عمر ـ يقول :

ألا يا عُبيدَ الله مالَكَ مَهرَبٌ ولا ملجأً مِن ابنِ أرْوى ولا خَفَرْ

أصبتَ دماً والله فى غــير حِلِّهِ حَراماً وقتــلُ الهُرمزان له خَطَرْ

على غيرِ شىء غيرَ أنْ قال قائل أتتَّهِمُونَ الهُرْمُزان على عُمَرْ؟

فقال سفيهٌ والحوادثُ جَمّــة نَعَمْ أتَّهِمهُ ، قد أشارَ وقد أمرْ

وكان سلاحُ العبدِ فى جوفِ بيته يُقلّبها والأمرُ بالأمرِ يُعتَبر

قال : فشكا عبيد الله بن عمر زياداً إلى عثمان، فاستدعى عثمان زياد بن لبيد فأنشأ زياد يقول فى عثمان :

أبا عمرٍو عبيدُ الله رَهْنٌ فلا تَشْكُك بقتلِ الهُرْمزان

فإنّك إن غفرْتَ الجُرْمَ عنه وأسبابُ الخطا فَرَسَا رِهانِ

أتَعفو إذْ عفوتَ بغير حقٍّ فَمالَكَ بالذى يحكى يَدان !

قال : فنهاه عثمان عن ذلك وَزَبَره ، فسكت زياد بن لبيد عما يقول . ثم كتب عثمان بن عفان إلى عماله على الأمصار أمراء الحرب ، والأئمة على الصلوات ، والأمناء على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ويحرّضهم على الاتباع وترك الابتداع . قال بن جرير : وفى هذه السنة عَزلَ عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى عليها سعدَ بن أبى وقاص فكان أول عامل ولاه ؛ لأن عمر قال : فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك ؛ وإلا فليستعن به أيكم وَلِى ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة . فاستعمل سعداً عليها سنة وبعض أخرى ، ثم رواه ابن جرير من طريق سيف عن مجالد عن الشعبى . وقال الواقدى فيما ذكره عن زيد بن أسلم عن أبيه ، أن عمر أوصى أن تقرّ عماله سنة ، فلما وَلِى عثمان أقرّ المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ثم عزله ، واستعمل سعداً ثم عزله ، وولى الوليد بن عُقْبة بن أبى معيط . قال ابن جرير : فعلى ما ذكره الواقدى تكون ولاية سعد على الكوفة من قبل عثمان سنةَ خمس وعشرين .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وعشرين ـ غزا الوليد بنُ عقبة أذربيجان وأرمينية حين منع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهلَ الإسلام فى أيام عمر بن الخطاب ، وهذا فى رواية أبى مخنف ، وأما فى رواية غيره فإن ذلك كان فى سنة ست وعشرين ، ثم ذكر ابن جرير : ههنا هذه الوقعة ، وملخصها : أن الوليد بن عقبة سار بجيش الكوفة نحو أذْرَبيجان وأرمينية ، حين نقضوا العهد ، فوطئ بلادهم وأغار بأراضى تلك الناحية فغنم وسبى وأخذ أموالاً جزيلة ، فلما أيقنوا بالهلكة صالحهم أهلها على ما كانوا صالحوا عليه حُذيفة بن اليمان ، ثمانمائة ألف درهم

فى كل سنة ، فقبض منهم جزية سنة ثم رجع سالماً غانماً إلى الكوفة ، فمر بالموصل . وجاءه كتاب عثمان وهو بها يأمره أن يمدّ أهل الشام على حرب أهل الروم .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة جاشت الروم حتى خاف أهل الشام وبعثوا إلى عثمان رضى الله عنه يستمدونه ، فكتب إلى الوليد بن عقبة : أن إذا جاءك كتابى هذا فابعث رجلا أميناً كريماً شجاعاً فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف - إلى إخوانكم بالشام. فقام الوليد بن عقبة فى الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان ، فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وندب الناس وحثهم على الجهاد ومعاونة معاوية وأهل الشام ، وأمّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام ، فانتدب فى ثلاثة أيام ثمانية آلاف فبعثهم إلى الشام ، وعلى جند المسلمين حبيب ابن مسلمة الفهرى . فلما اجتمع الجيشان شنّوا الغارات على بلاد الروم فغنموا وسبوا شيئاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة ، ولله الحمد .

وزعم الواقدى: أن الذى أمدّ أهل الشام بسلمان بن ربيعة - إنما هو سعيد بن العاص ، عن كتاب عثمان رضى الله عنه ، فبعث سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة بستة آلاف فارس حتى انتهى إلى حبيب بن مسلمة ، وقد أقبل إليه المُوريان الرومى فى ثمانين ألفاً من الروم والترك ، وكان حبيب بن مسلمة شجاعاً شهماً ، فعزم على أن يبيّت جيش الروم ، فسمعته امرأته يقول للأمراء ذلك ، فقالت له : فأين موعدى معك ؟ - تعنى أين اجتمع بك غداً - فقال لها : موعدك سرادق المُوريان أو الجنة . ثم نهض إليهم فى ذلك الليل بمن معه من المسلمين ، فقتل من أشرف له ، وسبقته امرأته إلى سرادق المُوريان ، فكانت أوّل امرأة من العرب ضُرب عليها سرادق ، وقد مات عنها حبيب بن مسلمة بعد ذلك ، فخلف عليها بعده الضحّاك بن قيس الفهرى ، فهى أمّ ولده .

قال ابن جرير : واختلف فيمن حجّ بالناس فى هذه السنة ، فقال الواقدى وأبو معشر : حج بهم عبد الرحمن بن عوف بأمر عثمان . وقال آخرون : حج بالناس عثمان بن عفان رضى الله عنه . والأول هو الأشهر ، فإن عثمان لم يتمكن من الحج فى هذه السنة ، لأجل رُعاف أصابه مع الناس فى هذه السنة حتى خشى عليه ، وكان يقال لهذه السنة - سنة الرّعاف ، وفيها افتتح أبو موسى الأشعرى الرّى ، بعد ما نقضوا العهد الذى كان واثقهم عليه حُذيفة بن اليمان رضى الله عنه . وفيها توفى سُراقة بن مالك بن جعشم المدلجىّ ويكنىّ بأبى سفيان ، كان ينزل قُديداً . وهو الذى اتبع رسول الله ﷺ وأبا بكر وعامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط الديلى حين خرجوا من غار ثور قاصدين المدينة ، فأراد أن يردّهم على أهل مكة لما جعلوا فى كل واحد من النبى ﷺ

وأبي بكر مائة مائة من الإبل، فطمع أن يفوز بهذا الجُعل[1] فلم يسلطه الله عليهم ، بل لما اقترب منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ ، ساخت قوائم فرسه في الأرض حتى ناداهم بالأمان فأعطوه الأمان ، وكتب له أبو بكر كتاب أمان عن إذن رسول الله ﷺ ، ثم قدم به بعد غزوة الطائف فأسلم وأكرمه النبي ﷺ وهو القائل : يا رسول الله ، أعُمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال له : « بل لأبد الأبد ، دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين

وفيها نقض أهل الاسكندرية العهد ، وذلك أن ملك الروم بعث إليهم منويل الخصي في مراكب من البحر ، فطمعوا في النصرة ونقضوا ذمتهم ، فغزاهم عمرو بن العاص في ربيع الأول ، فافتتح الأرض عنوة وافتتح المدينة صُلحاً . وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه . وفيها - في قول سيف - عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولى الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط مكانه فكان هذا مما نقم على عثمان . وفيها وجَّه عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو بلاد المغرب ، واستأذنه ابن أبي سرح في غزو إفريقية فأذن له . ويقال : فيها أيضاً عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر ، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقيل : بل كان هذا في سنة سبع وعشرين كما سيأتي . والله أعلم .

وفيها فتح معاوية الحصون . وفيها وُلد ابنه يزيد بن معاوية .

ثم دخلت سنة ست وعشرين

قال الواقدي : فيها أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرم . وفيها وسَّع المسجد الحرام . وفيها عزل سعداً عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة ، وكان سبب عزل سعد : أنه اقترض من ابن مسعود مالاً من بيت المال ، فلما تقاضاه به ابن مسعود ولم يتيسر قضاؤه - تقاولا[2] ، وجرت بينهما خصومة شديدة ، فغضب عليهما عثمان فعزل سعداً ، واستعمل الوليد بن عقبة - وكان عاملاً لعمر على عرب الجزيرة - فلما قدمها أقبل عليه أهلها ، فأقام بها خمس سنين وليس على داره باب ، وكان فيه رفق برعيته . قال الواقدي : وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقال غيره : وفيها افتتح عثمان بن أبي العاص سابور صلحاً على ثلاثة آلاف وثلاثمائة ألف .

---

(١) الجعل : ماجعل للانسان من شيء على فعل وعمل ، وكذا الجعالة بالكسر . (٢) أي : تفاوضا

ثم دخلت سنة سبع وعشرين

قال الواقدي وأبو معشر : وفيها عَزل عثمان عَمرو بن العاص عن مِصر ، وولّى عليها عبد الله بن سَعد بن أبي سرح ـ وكان أخا عثمان لأمّه ـ وهو الذي شفع له يوم الفتح ، حين كان أهدر رسول الله ﷺ دمه .

غزوة إفريقية

أمر عثمان عبد الله بن سَعد بن أبي سَرح أن يَغزو بلاد إفريقية ، فإذا افتتحها الله عليه فله خمس الخمس من الغنيمة نَفْلا[١] ، فسار إليها في عشرة آلاف فافتتحها سَهْلها وجَبَلها ، وقتل خلقاً كثيراً من أهلها ، ثم اجتمعوا على الطاعة والإسلام ، وحسن إسلامهم . وأخذ عبد الله بن سَعد خُمس الخمس من الغنيمة ؛ وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، وقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش ، فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

قال الواقدي: وصالحه بطريقها على ألفي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، فأطلقها كلّها عثمان في يوم واحد لآل الحكم ، ويُقال : لآل مرْوان .

غزوة الأندلس

لما افتتحت إفريقية بعث عثمان إلى عبد الله بن نافع بن عبد قيس ، وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين من فَورهما ـ إلى الأندلس ، فأتياها من قِبَل البحر ، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول : إن القُسطنطينية إنما تفتح من قِبَل البحر ، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لِمَن يفتتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان والسلام، قال : فساروا فافتتحوها، ولله الحمد والمنة.

وقعة جرجير والبربر مع المسلمين

لما قصد المسلمون ـ وهم عشرون ألفا ـ إفريقية ، وعليهم عبد الله بن سَعد بن أبي سَرح ، وفي جيشه عبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن الزبير ـ صمد إليهم ملك البربر جُرْجير في عشرين ومائة ألف ، وقيل في مائتي ألف ، فلما تراءى الجمعان أمَرَ جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة ، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنعُ منه ولا أخوفُ عليهم منه ، قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جُرْجير من وراء الصفوف وهو راكب على بِرْذَون ، وجاريتان تُظلاّنه بريش الطّواويس ، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سَرح ، فسألته أن يبعث معي من يَحْمِي ظهري وأقصد

(١) النفل ـ بسكون الفاء ـ عطية التطوع .

الملك ، فجهزَّ معى جماعة من الشجعان . قال : فأمر بهم فحَمَوا ظَهْرى وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه ــ وهم يظنون أنى فى رسالة إلى الملك ــ فلما اقتربت منه أحسَّ منى الشر ففرَّ على برذونه ، فلحقته فطعنتهُ برُمحى وذَفَفتُ[1] عليه بسيفى ، وأخذت رأسه فنصبتهُ على رأس الرمح وكبَّرت ، فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفرُّوا كفِرار القَطا ، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالا كثيرة ، وسبياً عظيماً ، وذلك ببلد يقال له : سبيطلة ــ على يومين من القَيْروان ــ فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير ــ رضى الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين .

قال الواقدى : وفى هذه السنة افتتحت اصطَخْر ثانية على يدَى عثمان بن أبى العاص .

وفيها غزا معاوية قِنَّسرين . وفيها حج بالناس عثمان بن عفان .

قال ابن جرير : قال بعضهم: وفى هذه السنة غزا معاوية قُبرس . وقال الواقدى : كان ذلك فى سنة ثمان وعشرين . وقال أبو معشر : غزاها معاوية سنة ثلاث وثلاثين ، فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ــ فتح قبرس

ففيها ذكر ابن جرير فتح قُبرس تبعاً للواقدى ، وهى جزيرة غربى بلاد الشام فى البحر ، مخاصة وحدها ، ولها ذَنَب مستطيل إلى نحو الساحل مما يلى دِمَشق ، وغربيها أعرضها ، وفيها فواكه كثيرة ، ومعادن . وهى بلد جيّد ، وكان فتحها على يدى معاوية بن أبى سفيان ، وركب إليها فى جيش كثيف من المسلمين ، ومعه عُبادة بن الصَّامت وزوجته أم حرام بنت ملحان التى تقدم حديثها فى ذلك ، حين نام رسول الله ﷺ فى بيتها ثم استيقظ يضحك ، فقالت: ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « ناس من أمتى عُرضوا على يركبون ثَبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة» فقالت : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال : «أنتِ منهم» ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال : مثل ذلك . فقالت : ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال : « أنتِ من الأولين » فكانت فى هذه الغزوة وماتت بها وكانت الثانية عبارة عن غزوة قسطنطينية بعد هذا ــ كما سنذكره .

والمقصود أن معاوية ركب البحر فى مراكب فقصد الجزيرة المعروفة بقبرس ومعه جيش عظيم من المسلمين ، وذلك بأمر عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ له فى ذلك ... سؤاله إياه ، وقد كان سأل فى ذلك عمر بن الخطاب فأبى أن يمكنه من حمل المسلمين على هذا الخلق العظيم الذى لو اضطرب لهلكوا عن آخرهم ، فلما كان عثمان ألحَّ معاوية عليه فى ذلك فأذن له ، فركب فى

(١) أى : أجهزت ، والاسم الذفاف كسحاب .

المراكب فانتهى إليها ، ووافاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها من الجانب الآخر ، فالتقيا على أهلها فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا سبايا كثيرة ، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً. ولما جيء بالأسارى جعل أبو الدرداء يبكي ، فقال له جبير بن نفير : أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال : ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك ، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى ، فسلط الله عليهم السبي ، وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة ، وقال : ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره ! ثم صالحهم معاوية على سبعة آلاف دينار في كل سنة ، وهادنهم ، فلما أرادوا الخروج منها قدمت لأم حرام بغلة لتركبها ، فسقطت عنها فاندقت عنقها فماتت هناك ، فقبرها هنالك يعظمونه ويستسقون به ويقولون : قبر المرأة الصالحة .

قال الواقدي : وفي هذه السنة غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم . وتزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية ـ وكانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها . وفيها بنى عثمان داره بالمدينة الزوراء[1] . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين

ففيها عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعري عن البصرة ، بعد عمله ست سنين وقيل ثلاث ، وأمر عليها عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وهو ابن خال عثمان ابن عفان ، وجمع له بين جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص ، وله من العمر خمس وعشرون سنة ، فأقام بها ست سنين . وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن عامر فارس ، في قول الواقدي وأبي معشر . وزعم سيف أنه كان قبل هذه السنة ، فالله أعلم .

وفيها وسع عثمان بن عفان مسجد النبي ﷺ ، وبناه بالقصة ـ وهي الكلس[2] ـ كان يؤتى به من بطن نخل والحجارة المنقوشة ، وجعل عمده حجارة مرصصة ، وسقفه بالساج ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ستة ، على ما كانت عليه في زمان عمر بن الخطاب ، ابتدأ بناءه في ربيع الأول منها .

وفيها حج بالناس عثمان بن عفان ، وضرب له بمنى فسطاط[3] فكان أول فسطاط ضربه عثمان بمنى ، وأتم الصلاة عامه هذا ، فأنكر ذلك عليه غير واحد من الصحابة ؛ كعلي ،

---

(١) الزوراء : من وصف الدار وفي القاموس : الزوراء : موضع بالمدينة قرب المسجد

(٢) أي : الحجارة من الجص (٣) الفسطاط : بيت من شعر «خيمة» وفي القاموس : الفسطاط السرادق من الأبنية

وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، حتى قال ابن مسعود : ليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبّلتان ، وقد ناظره عبد الرحمن بن عوف فيما فعله ، فروى بن جرير أنه قال : تأهلت بمكة ، فقال له : ولك أهلٌ بالمدينة ، وإنك تقوم حيث أهلك بالمدينة . قال : وإن لى مالا بالطائف ، أريد أن أطلعه بعد الصّدَر ، قال : إن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ، فقال : وإنّ طائفة من أهل اليمن قالوا : إنّ الصلاة بالحضر ركعتان ، فربّما رأونى أصلى ركعتين فيحتجون بى ، فقال له : قد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل ، وكان يُصلّى هٰهنا ركعتين ، وكان أبو بكر يصلّى هٰهنا ركعتين ، وكذلك عمر بن الخطاب، وصليت أنت ركعتين صدراً من إمارتك ، قال : فسكت عثمان ثم قال : إنما هو رأىٌ رأيتُه .

سنة ثلاثين من الهجرة النبوية

فيها افتتح سعيد بن العاص طَبَرستان[1] فى قول الواقدى وأبى معشر والمدائنى ، وقال : هو أول من غزاها . وزعم سيف ، أنهم كانوا صالحوا سُوَيد بن مقرّن قبل ذلك على أن لا يغزوها ، على مال يبذله له إصْبَهْبَذها ، فالله أعلم . فذكر المدائنى : أنّ سعيد بن العاص ركب فى جيش فيه الحسَن والحُسين ، والعبادلة الأربعة ، وحُذيفة بن اليمان ، فى خلق من الصحابة ، فسار بهم فمرّ على بُلدان شتى يصالحونه على أموال جزيلة ، حتى انتهى إلى بلد معاملة جرجان ، فقاتلوه حتى احتاجوا إلى صلاة الخوف ، فسأل حذيفة : كيف صلى رسول الله ﷺ ؟ فأخبره فصلى كما أخبره . ثم سأله أهل ذلك الحصن الأمان ، فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلا واحداً ، ففتحوا الحصن فقتلهم إلا رجلا واحداً ، وحوَى ما كان فى الحصن ، فأصاب رجل من بنى نَهد سَفَطاً مقفولا ، فاستدعى به سعيد ، ففتحوه فإذا فيه خرقة سوداء مُدرجة فنشروها ، فإذا فيها خرقة حمراء فنشروها ، وإذا داخلها خرقة صفراء ، وفيها أيران : كُميت وَوَرْد . فقال شاعر يهجو بهما بنى نهد :

آبَ الكرامُ بالسَّبايا غنيمةً   وفاز بنو نَهْد بأيْرَيْنِ فى سَفَطْ
كُميتٍ وَوَرْدٍ وَافرين كِلاهُما   فظنّوهما غُنْما فناهيك من غَلَطْ

قالوا : ثم نقض أهل جُرجان ما كان صالحهم عليه سَعيد بن العاص ، وامتنعوا عن أداء المال الذى ضربَه عليهم ـ وكان مائة ألف دينار ، وقيل : مائتى ألف دينار ، وقيل : ثلثمائة ألف دينار ، ثم وَجه إليهم يزيد بن المهلّب بعد ذلك ـ كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة : عزل عُثمان بن عفان الوليدَ بن عقبة عن الكوفة ، وَولى عليها سعيد بن العاص

---

(١) طبرستان : بلاد واسعة على شاطىء بحر الخزر قصبتها آمل .

وكان سبب عزله : أنه صلّى بأهل الكوفة الصُّبح أربعاً ، ثم التفت فقال : أزيدكم ؟ فقال قائل : ما زلنا معك منذ اليوم فى زيادة . ثم إنه تصدّى له جماعة يقال كان بينهم وبينه شنآن ، فشكوه إلى عثمان ، وشهد بعضهم عليه أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقاياها ، فأمر عثمان بإحضاره وأمر بجلده ، فيقال : إن علياً نزع منه حُلّته ، وأنّ سعيد بن العاص جلده بين يدى عثمان بن عفان ، وعزله وأمّر مكانه على الكوفة سعيد بن العاص.

وفى هذه السنة ، سقط خاتم النبى ﷺ من يد عثمان فى بئر أريس ، وهى على ميلين من المدينة ، وهى من أقلّ الآبار ماء ، فلم يُدرك خبره بعد بَذل مال جزيل ، والاجتهاد فى طلبه ، حتى الساعة . فاستخلف عثمان بعده خاتماً من فضّة ، ونقش عليه « محمد رسول الله » ، فلما قتل عثمان ذهب الخاتم فلم يدر من أخذه . وقد روى ابن جرير هاهنا حديثاً طويلا فى اتخاذ النبى ﷺ خاتماً من ذهب ، ثم من فِضّة ، وبعثه عمر بن الخطاب إلى كِسرى ، ثم دِحْية إلى قيصر ، وأنه الخاتم الذى كان فى يد النبى ﷺ ثم فى يد أبى بكر ، ثم فى يد عمر ، ثم فى يد عثمان ست سنين ثم إنه وقع فى بئر أريس ، وقد تقدم بعض هذا فى الصحيح .

وفى هذه السنة وقع خلاف بين معاوية وأبى ذرّ بالشام ، وذلك أن أبا ذر أنكر على معاوية بعض الأمور ، وكان يُنكر على من يَقتنى مالاً من الأغنياء ويمنع أن يدّخر فوق القوت ، ويوجب أن يتصدق بالفضل ، ويتأول قول الله سبحانه وتعالى : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَها فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[1] فينهاه معاوية عن إشاعة ذلك فلا يمتنع ، فبعث يشكوه إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى أبى ذَرّ أن يقدم عليه المدينة ، فقدمها فلاَمه عثمان على بعض ما صَدر منه ، واسترجَعه فلم يرجع ، فأمره بالمقام بالرَّبَذة - وهى شرق المدينة - ويقال إنه سأل عثمان أن يقيم بها ، وقال : إن رسول الله ﷺ قال لى . « إذا بلغ البناء سَلْعاً[2] فاخرج منها » وقد بلغ البناء سَلْعاً ، فأذن له عثمان بالمقام بالرَّبذة ، وأمره أن يتعاهد المدينة فى بعض الأحيان ، حتى لا يرتد أعرابياً بعد هجرته ، ففعل فلم يزل مقيماً بها حتى مات على ما سنذكره رضى الله عنه .

وفى هذه السنة زاد عثمان النّداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء .

فصل

وممن ذكر شيخنا أبو عبد الله الذهبى أنه توفى فى هذه السنة - أعنى سنة ثلاثين - أبى بن كعب فيما صححه الواقدى .

---

(١) من الآية : ٣٤ من سورة التوبة (٢) سلع : جبل بالمدينة .

جبار بن صخر : ابن أمية بن خنساء ، أبو عبد الرحمن الأنصارى ، عقبى بدرى ، وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر خارصاً[1] ، وقد توفى عن ستين سنة .

حاطب بن أبى بلتعة : ابن عمرو بن عمير اللخمى ـ حليف بنى أسد بن عبد العزى ، شهد بدراً وما بعدها ، وهو الذى كان كتب إلى المشركين يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، فعذره رسول الله ﷺ بما اعتذر به ، ثم بعثه بعد ذلك برسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية .

الطفيل بن الحارث : ابن المطلب ـ أخو عبيدة ، وحصين . شهد بدراً . قال سعيد بن عفير : توفى فى هذه السنة .

عبد الله بن كعب : ابن عمرو المازنى ـ أبو الحارث ، وقيل أبو يحيى الأنصارى . شهد بدراً وكان على الخمس يومئذ .

عبد الله بن مظعون : أخو عثمان بن مظعون ـ هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً .

عياض بن زهير : ابن أبى شداد بن ربيعة بن هلال ـ أبو سعيد القرشى الفهرى ، شهد بدراً وما بعدها .

مسعود بن ربيعة : وقيل ابن الربيع ، أبو عمرو القارى ـ شهد بدراً وما بعدها توفى عن نيف وستين سنة .

معمر بن أبى سرح : ابن ربيعة بن هلال القرشى ـ أبو سعد الفهرى ، وقيل : اسمه عمرو ، بدرى قديم الصحبة .

أبو أسيد : مالك بن ربيعة . قال الفلاس : مات فى هذه السنة ، والأصح أنه مات سنة أربعين وقيل سنة ستين ، فالله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين

ففيها كانت غزوة الصوارى[2] ، وغزوة الأساودة فى البحر ، فيما ذكره الواقدى . وقال أبو معشر : كانت غزوة الصوارى سنة أربع وثلاثين .

وملخص ذلك فيما ذكره الواقدى وسيف وغيرهما : أن الشام كان قد جُمِعَ جمعها لمعاوية بن أبى سفيان لسنتين مضتا من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد أحرز غاية الحفظ وحمى حوزته

(١) الخرص الحذر ؛ وتقدير ما على النخل من الرطب تمرا ، ومن العنب زبيباً .

(٢) الصوارى : جمع صار ، وهو الخشبة المترضة وسط السفينة

ومع هذا له فى كل سنة غزوة فى بلاد الروم فى زمن الصيف – ولهذا يسمون هذه الغزوة الصائفة – فيقتلون خلقاً ، ويأسرون آخرين ، ويفتحون حصونا ويغنمون أموالا ويُرعبون الأعداء ، فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبى سَرح من أصاب من الفرنج والبربر ، ببلاد إفريقية والأندلس ، – حميت الروم ، واجتمعت على قُسطنطين بن هرقل ، وساروا إلى المسلمين فى جمع لم يُرَ مثله منذ كان الإسلام ؛ خرجوا فى خمسمائة مركب ، وقصدوا عبد الله بن أبى سَرح فى أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب ، فلما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبون ، وبات المسلمون يقرءون ويصلون ، فلما أصبحوا صفّ عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً فى المراكب ، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن . قال بعض من حضر ذلك : فأقبلوا إلينا فى أمر لم يُرَ مثله من كثرة المراكب ، وعقدوا صواريها ، وكانت الريح لهم وعلينا ، فأرسينا ثم سكنت الريح عنا ، فقلنا لهم : إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البرّ ، فمات الأعجل منا ومنكم ، قال : فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا : الماءَ الماء .

قال : فدنونا منهم وربطنا سُفننا بسفنهم ، ثم اجتلدنا[1] ، وإياهم بالسيوف ، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر ، وضربت الأمواج فى عُيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل ، حتى صارت مثل الجبل العظيم ، وغلب الدم على لون الماء ، وصَبَر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط ، وقتل منهم بشر كثير ، ومن الروم أضعاف ذلك ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه – وقد قلوا جداً – وبه جراحات شديدة مكينة ، مكث حينا يداوى منها بعد ذلك ، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصّوارى أياماً ، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً .

قال الواقدى : فحدثنى معمر عن الزهرى قال : كان فى هذه الغزوة محمد بن أبى حُذيفة ، ومحمد بن أبى بكر ، فأظهرا عَيْب عثمان ، وما غيّر وما خالَف أبا بكر وعمر ، ويقولان : دمُه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد – وكان قد ارتدّ وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله ﷺ دمه ، وأخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان ، ونزَع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سَعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فبلغ ذلك عبد الله بن سَعد فقال : لا تركبا معنا ، فركبنا فى مركب ما فيه أحد من المسلمين ، ولقوا العدو فكانا أنكل[2] المسلمين قتالا ، فقيل لهما فى ذلك فقالا : كيف نقاتل مع رجل لا ينبغى لنا أن نحكمه ؟ فأرسل إليهما عبد الله بن سعد فنهاهما أشد النهى وقال : والله لولا لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما . قال الواقدى : وفى هذه السنة فتحت أرمينية على يَدَىْ حَبيب بن مسلمة . وفى هذه السنة قُتل كسرى ملك الفرس.

(۱) أى : تضاربنا وجلده : ضربه . (۲) أى أجبن ، يقال : نكل عن العدو – جبن

كيفية قتل كسرى ملك الفرس وهو يزدجرد

قال ابن إسحاق : هرب يزدَجِرد من كَرْمان في جماعة يسيرة إلى مَرْو ، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم ، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه ، فأتوه فقتلوا أصحابه ، وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحية على شط المَرغاب ، فأوى إليه ليلا ، فلما نام قتله . وقال المدائني : لما هرب بعد قتل أصحابه ، انطلق ماشياً عليه تاجُه ومنطقته وسيفه ، فانتهى إلى منزل هذا الرجل الذي ينقر الأرحية ، فجلس عنده فاستغفله وقتله وأخذ ما كان عليه ، وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله ، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته ، وأخذوا ما كان مع كسرى ، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى اصْطَخر .

وقد كان يزدَجِرد وطِئَ امرأةً من أهل مَرْو قبل أن يقتل ، فحملت منه ووضعت بعد قتله غلاماً ذاهب الشق ـ وسمى ذلك الغلام المُخَدَّج ، وكان له نسل وعَقِب في خراسان ، وقد سبَى قتيبة بن مُسلم في بعض غزواته بتلك البلاد ـ جاريتين من نسله ؛ فبعث بإحداهما إلى الحجاج ، فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فولدت له ابنه يزيد بن الوليد الملقب بالناقص . وقال المدائني في رواية عن بعض شيوخه : إن يزدَجِرد لما انهزم عنه أصحابه عَقَر جواده ، وذهب ماشياً حتى دخل بيتاً فيه رحًى على شط نهر يقال له المَرْغاب ، فمكث فيه ليلتين والعدو في طلبه فلم يَدر أين هو ، ثم جاء صاحب الرّحى ودخل بيته ، فرأى كسرى وعليه أبهته ، فقال له : ما أنت ؟ إنْسِيّ أم جنيّ ؟ قال : إنسي ، فهل عندك طعام ؟ قال : نعم ! فأتاه بطعام فقال : إني مُزمزِم[1] فأتني بما أزمزم به ، قال : فذهب الطحان إلى إسوار من الأساورة فطلب منه ما يزمزم به ، قال : وما تصنع به ؟ قال : عندي رجل لم أرَ مثله قط ، وقد طلب مني هذا ، فذهب به الإسوار إلى ملك البلد ـ مَرْو ، واسمه ماهَوَيه بن بَاباه ـ فأخبره خبره ، فقال : هو يزدَجِرد ، اذهبوا فجيئوني برأسه ، فذهبوا مع الطحان ، فلما دنَوا من دار الرحى هابوا أن يقتلوه وتدافعوا وقالوا للطحان ادخل أنت فاقتله ، فدخل فوجده نائما فأخذ حجراً فشدَخ به رأسه ، ثم احتزه فدفعه إليهم وألقى جسده في النّهر ، فخرجت العامة إلى الطحان فقتلوه ، وخرج أسقف مَرو فأخذ جسده من النهر وحمله في تابوت ، وحمله إلى اصطَخر فوضعه في ناووس .

ويُروى أنه مكث في منزل ذلك الطحان ثلاثة أيام لا يأكل ، حتى رقّ له وقال له : وَيْحك يا مسكين ألا تأكل ؟ وأتاه بطعام فقال : إني لا أستطيع أن آكل إلا بزَمزَمة ، فقال له :

---

(١) الزمزمة ، كما في القاموس : تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لسانا ولا شفة ، لكن صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض

كل وأنا أزمزم لك ، فسأل أن يأتيه بزمزم ، فلما ذهب يطلب له من بعض الأساورة ، شموا رائحة المسك من ذلك الرجل ، فأنكروا رائحة المسك منه، فسألوه فأخبرهم فقال : إن عندى رجلا من صفته كيت وكيت ، فعرفوه وقصدوه مع الطحان ، وتقدم الطحان فدخل عليه وهمّ بالقبض عليه فعرف يزدجرد ذلك فقال له : ويحك ! خذ خاتمي وسوارى ومنطقتى ودعنى أذهب من ههنا ، فقال : لا ، أعطنى أربعة دراهم وأنا أطلقك ، فزاده إحدى قرطيه من أذنه ، فلم يقبل حتى يعطيه أربعة دراهم أخرى ، فهم فى ذلك إذ دهمهم الجند ، فلما أحاطوا به وأرادوا قتله قال : ويحكم ، لا تقتلونى فإنا نجد فى كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق فى الدنيا ، مع ما هو قادم عليه ، فلا تقتلونى واذهبوا بى إلى الملك أو إلى العرب ، فإنهم يستحيون من قتل الملوك ، فأبوا عليه ذلك ، فسلبوه ما كان عليه من الحلى ، فجعلوه فى جراب وخنقوه بوتر وألقوه فى النهر ، فتعلق بعود ، فأخذه أسقف ـ واسمه إيليا ـ فحن عليه بما كان من أسلافه من الإحسان إلى النصارى الذين كانوا ببلادهم ، فوضعه فى تابوت ودفنه فى ناووس ، ثم حمل ما كان عليه من الحلى إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، ففقد قرط من حليه ، فبعث إلى دهقان تلك البلاد فأغرمه ذلك .

وكان ملك يزدجرد عشرين سنة ، منها أربع سنين فى دعة ، وباقى ذلك هاربا من بلد إلى بلد ، خوفا من الإسلام وأهله ، وهو آخر ملوك الفرس فى الدنيا على الإطلاق ، لقول رسول الله ﷺ « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » رواه البخارى . وثبت فى الحديث الصحيح . أنه لما جاء كتاب النبى ﷺ مزقه ، فدعا عليه النبى ﷺ أن يمزق كل ممزق ، فوقع الأمر كذلك .

وفى هذه السنة فتح ابن عامر فتوحات كثيرة ، كان قد نقض أهلها ما كان لهم من الصلح ، فمن ذلك ما فتح عنوة ، ومن ذلك ما فتح صلحا ، فكان فى جملة ما صالح عليه بعض المدائن وهى : مرو ـ على ألفى ألف ومائتى ألف ، وقيل: على ستة آلاف ألف ومائتى ألف .

وفى هذه السنة حج بالناس عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين

وفيها : غزا معاوية بلاد الروم حتى بلغ المضيق ـ مضيق القسطنطينية ـ ومعه زوجته عاتكة ، ويقال : فاطمة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف . قاله أبو معشر والواقدى . وفيها استعمل سعيد بن العاص سلمان بن ربيعة على جيش وأمره أن يغزو الباب ، وكتب إلى عبد الرحمن ابن ربيعة نائب تلك الناحية بمساعدته ، فسار حتى بلغ بلنجر ، فحصروها ونصبت عليها المجانيق

والعرّادات[1] . ثم إن أهل بلَنجَر خرجوا إليهم وعاونهم الترك ، فاقتتلوا قتالا شديداً ـ وكانت الترك تهاب قتال المسلمين ، ويظنون أنهم لا يموتون ـ حتى اجترأوا عليهم بعد ذلك ، فلما كان هذا اليوم التقوا معهم فاقتتلوا ، فقتل يومئذ عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان يقال له ذو النور ـ وانهزم المسلمون فافترقوا فرقتين : ففرقة ذهبت إلى بلاد الخزَر ، وفرقة سلكوا ناحية جيلان وجُرجان ، وفى هؤلاء أبو هريرة وسلمان الفارسى وأخذت الترك جسد عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان من سادات المسلمين وشجعانهم ـ فدفنوه فى بلادهم، فهم يَستسقون عنده إلى اليوم .

ولما قُتل عبد الرحمن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرج سَلمان بن رَبيعة ، وأمدهم عثمان بأهل الشام ؛ عليهم حَبيب بن مَسلمة ، فتنازع حَبيب وَسلمان فى الإمرة حتى اختلفا ، فكان أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام ، حتى قال فى ذلك رجل من أهل الكوفة وهو أوس بن مغراء :

فإن تَضربوا سَلمان نَضرب حَبيبكم وَإن تَرحلوا نحوَ ابن عفّان نَرْحل
وإن تُقْسِطوا فالثغر ثغرُ أميرنا وهـذا أميرٌ فى الكتائب مُقبلُ
ونحن وُلاة الثغر كنا حُماته ليالِيَ نَرْمى كلَّ ثغرٍ ونُنْكِلُ

وفيها : فتح ابن عامر مَروَالرّوذ ، والطالَقان والفارياب ، والجُوزَجان وطُخَارِستان . فأما مَرو الرُّوذ، فبعث إليهم أبو عامر الأحنف بن قيس فحصَرها ، فخرجوا إليه فقاتلهم حتى كسرهم ، فاضطرهم إلى حِصنهم ، ثم صالحوه على مال جزيل ، وعلى أن يضرب على أراضى الرعية الخراج ، ويدعَ الأرض التى كان اقتطعها كِسرى لوالد المرزبان[2] ـ صاحب مَرو ، حيث قتل الحية التى كانت تقطع الطريق على الناس وتأكلهم ، فصالحهم الأحنف على ذلك ، وكتب لهم كتاب صلح بذلك . ثم بعث الأحنف الأقرع بن حابس إلى الجوزجان ففتحها بعد قتال وقع بينهم ، قتل فيه خلق من شجعان المسلمين ، ثم نصروا ، فقال فى ذلك أبو كُثيِّر النَّهشلى قصيدة طويلة فيها :

سقَى مُزْنَ السَّحاب إذا استهلّت مَصارِعَ فِتيــة بالجُوزَجانِ
إلى القَصْرين من رُستاقِ خوطٍ أبادهم[3] هنــاكَ الأقرعَانِ

ثم سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصرهم حتى صالحوه على أربعمائة ألف ، واستناب ابن عمه أُسيد بن المُتشمس على قبض المال ، ثم ارتحل يريد الجهاد ، وداهمه الشتاء فقال لأصحابه : ما تشاءون؟ فقالوا : قد قال عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فــدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

---

(١) العرادة : آلة من آلات الحرب ترمى بالحجارة من مرمى بعيد
(٢) المرزبان : الرئيس المقدم فيهم ، والمرازبة : الرياسة فى العجم (٣) فى الطبرى : أبادهم

فأمر الأحنف بالرحيل إلى بَلْخ ، فأقام بها مدة الشتاء ، ثم عاد إلى عامر ، فقيل لابن عامر : ما فتح على أحد ما فتح عليك ، فارس وكرمان وسجستان وعامة خُراسان ، فقال : لاجَرَم ، لأجعلن شُكرى لله على ذلك، أن أحرم بعمرة من موقفى هذا مشمراً ، فأحرَم بعمرة من نيسابور. فلما قدم على عثمان لامه على إحرامه من خُراسان. وفيها أقبل قارن فى أربعين ألفاً ، فالتقاه عبدالله ابن حازم فى أربعة آلاف ، وجعل لهم مقدمة ستمائة رجل ، وأمر كلاً منهم أن يحمل على رأس رُمحه ناراً ، وأقبلوا إليهم فى وسط الليل ، فبيتوهم فثاروا إليهم ، فناوشتهم المقدمة فاشتغلوا بهم ، وأقبل عبد الله بن حازم بمن معه من المسلمين ، فالتقوا هم وإياهم ، فولى المشركون مُدبرين ، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاءوا كيف شاءوا . وغنموا سبياً كثيراً وأموالاً جزيلة .

ثم بعث عبد الله بن حازم بالفتح إلى ابن عامر ، فرضى عنه وأقرّه على خراسان ـ وكان قد عزله عنها ـ فاستمرّ بها عبد الله بن حازم إلى ما بعد ذلك .

ذكر من توفى من الأعيان فى هذه السنة

العباس بن عبد المطلب : ابن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ـ أبو الفضل المكى ، عم رسول الله ﷺ ، ووالد الخلفاء العباسيين ، وكان أسن من رسول الله ﷺ بسنتين أو ثلاث، أسر يوم بدر فافتدى نفسه بمال ، وافتدى ابنى أخويه : عَقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث، وقد ذكرنا أنه لما أسِرَ وشُدّ فى الوثاق وأمسى الناس ، أرق رسول الله ﷺ فقيل : يا رسول الله مالك ؟ فقال : « إنى أسمع أنين العباس فى وثاقه فلا أنام » فقام رجل من المسلمين فحل من وثاق العباس حتى سكن أنينه ، فنام رسول الله ﷺ ، ثم أسلم عام الفتح ، وتلقى رسول الله ﷺ إلى الجحفة فرجع معه ، وشهد الفتح . ويقال إنه أسلم قبل ذلك ولكنه أقام بمكة بإذن النبى ﷺ له فى ذلك ، كما ورد به الحديث ، فالله أعلم .

وقد كان رسول الله ﷺ يجله ويعظمه وينزله منزلة الوالد من الولد ، ويقول : « هذا بقية آبائى » ، وكان من أوصل الناس لقريش وأشفقهم عليهم ، وكان ذا رَأى وعقل تام واف ، وكان طويلا جميلا أبيض بضاً ذا ضفيرتين[1] وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث، وهم: تمام ـ وكان أصغرهم ـ والحارث ، وعبدالله ، وعبيدالله ، وعبد الرحمن ، وعون، والفضل، وقثم، وكثير ، ومعبد . وأعتق سبعين مملوكاً من غلمانه . وقال الإمام أحمد : ثنا على بن عبد الله قال : حدثنى محمد بن طلحة التيمى من أهل المدينة ، حدثنى أبو سهيل نافع بن مالك عن سعيد بن المسيب

(١) الضفيرة : الذوائب المضفورة من الشعر . يقال ضفر الشعر : نسج بعضه على بعض ؛ والحبل ـ فتله

عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله ﷺ للعباس : « هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفاً وأوصلها » تفرد به أحمد وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر حين بعثه على الصدقة ، فقيل منع ابنُ جَميل وخالدُ بن الوليدَ ، والعباسُ عمّ رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ « ما ينقِم ابنُ جَميل ، إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً وقد احتبس أدراعه[١] وأعتادَهُ فى سبيل الله ، وأما العباس فهىَ علىّ ومثلُها معَها » . ثم قال : « يا عمر أما شعَرت أن عم الرجل صِنو أبيه » ؟ وثبت فى صحيح البخارى عن أنس ، أن عمر خرج يستسقى وخرج بالعباس معه يستسقى به ، وقال : اللهم إنا كنا إذا قَحِطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، قال : فيسقون . ويقال إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا إذا مرا بالعباس وهما راكبان ترجّلا إكراماً له . قال الواقدى وغير واحد : توفى العباس فى يوم الجمعة لثنتى عشرة ليلة خلت من رجب ، وقيل من رمضان سنة ثنتين وثلاثين ـ عن ثمان وثمانين سنة ، وصلّى عليه عثمان بن عفان ، ودفن بالبقيع . وقيل : توفى سنة ثلاث وثلاثين ، وقيل : سنة أربع وثلاثين ، وفضائله ومناقبه كثيرة جداً .

عبد الله بن مسعود : ابن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الهذلى ، أبو عبد الرحمن ـ حليف بنى زهرة . أسلم قديماً قبل عمر ، وكان سبب إسلامه حين مرّ به رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ، وهو يرعى غنماً ، فسألاه لبناً فقال : إنى مؤتمن ، قال : فأخذ رسول الله ﷺ عَناقاً[٢] لم يَنزُ عليها الفحل فاعتقلَها ، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر ، ثم قال للضَّرع « اقلِص » فقلَصَ ، فقلت : علّمنى من هذا الدعاء ، فقال : إنك غُلامٌ معَلّم .. الحديث . وروى محمد بن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه ، أن ابن مسعود كان أول مَن جهر بالقرآن بمكة ، بعد النبى ﷺ عند البيت ، وقريش فى أنديتها ؛ قرأ سورة (الرَّحمنُ عَلَّم القرآن) فقاموا إليه فضربوه ، ولازم رسولَ الله ﷺ ، وكان يحمل نَعلَيه وسِواكه ، وقال له : إذنُك علىّ أن تسمع سِوادِى[٣] ولهذا كان يقال له صاحب السواك والوساد[٤] ، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً . وهو الذى قتل أبا جهل بعد ما أثبته ابنا عفراء ، وشهد بقية المشاهد ، وقال له رسول الله ﷺ يوماً : « اقرأ علىّ » فقلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : « إنى أحب

(١) الأدراع : جمع درع كالدروع . والأعتاد : جمع عتد ـ بفتحتين ـ وهو ما يتأهب به العرب من سلاح وغيره . (٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .

(٣) الذى فى اللسان : أذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادى حتى أنهاك . والسواد ـ بالكسر السرار ، يقال : ساودته مساودة وسواداً ـ إذا ساررته فأدنيت سواده (أى شخصه) والسَّواد : الشخص

(٤) الوساد والوسادة : المخدة ، وكل ما يوضع تحت الرأس وإن كان من تراب أو حجارة

أن أسمعه من غيرى » فقرأ عليه من أول سورة النساء إلى قوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)[١] فبكى رسول الله ﷺ وقال « حسبك » .

وقال أبو موسى : قدمت أنا وأخى من اليمن وما كنا نظن إلا أن ابن مسعود وأمه من أهل بيت النبى ﷺ ، لكثرة دخولهم بيت النبى ﷺ . وقال حذيفة : ما رأيت أحداً أشبه برسول الله ﷺ فى هَدْيه ودَلّه[٢] وسمته من ابن مسعود ، ولقد علم المحفظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عَبْد أقربُهم إلى الله زلفى ، وفى الحديث « تمسكوا بعهد ابن أمّ عبد » وفى الحديث الآخر الذى رواه أحمد عن محمد بن فضيل عن مغيرة عن أم موسى عن على، أن ابن مسعود صعد شجرة يجتنى الكَبَاث[٣] فجعل الناس يعجبون من دِقّة ساقيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقلُ من أحد » ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ وقد نظر إلى قِصره وكان يوازى بقامته الجلوس ـ فجعل يتبعه بصره ثم قال : هو كُنَيْفٌ[٤] مُلِئَ علماً .

وقد شهد ابن مسعود بعد النبى ﷺ مواقف كثيرة ، منها : اليرموك وغيرها ، وكان قدم من العراق حاجاً فمر بالرَّبَذة فشهد وفاة أبى ذر ودفنه، ثم قدم إلى المدينة فمرض بها، فجاءه عثمان بن عفان عائداً ، فيروى أنه قال له : ما تشتكى ؟ قال : ذُنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضنى ، قال : ألا آمر لك بعطائك ؟ ـ وكان قد تركه سنتين ـ فقال : لا حاجة لى فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك ، فقال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ إنى أمرت بناتى أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً » . وأوصى عبدالله بن مسعود إلى الزبير بن العوام ، فيقال : إنه هو الذى صلى عليه ليلا ، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك ، وقيل : بل صلى عليه عثمان ، وقيل عمار ، فالله أعلم . ودفن بالبقيع عن بضع وستين سنة .

عبد الرحمن بن عوف: بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، أبو محمد القرشى الزهرى ، أسلم قديماً على يدى أبى بكر ، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ، وشهد بدراً وما بعدها ، وأمّره رسول الله ﷺ حين بعثه إلى بنى كلب ، وأرخى له عذبة بين كتفيه ، لتكون أمارة عليه للإمارة ، وهو أحد العشرة المشهود

---

(١) الآية : ٤١ من سورة النساء

(٢) أى : سيرته وهيئته وحالته « مأخوذ مما يدل ظاهره على حسن حاله » .

(٣) الكباث ـ كسحاب ـ النضيج من ثمر الأراك .

(٤) كنيف ـ تصغير ـ كنف بكسر الكاف، وهو وعاء يكون فيه أداة الراعى أو أسقاط التاجر .

لم بالجنة ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، ثم أحد الثلاثة الذين انتهت إليهم منهم ، كما ذكرنا .

ثم كان هو الذى اجتهد فى تقديم عثمان رضى الله عنه ، وقد تقاول هو وخالد بن الوليد فى بعض الغزوات فأغلظ له خالد فى المقال ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « لا تَسُبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلَغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه » وهو فى الصحيح . وقال معمر عن الزهرى: تصدق عبدالرحمن بن عوف على عهد النبى ﷺ بشَطْر ماله - أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله ، وكان عامة ماله من التجارة .

فأما الحديث الذى قال عبد بن حميد فى مسنده : ثنا يحيى بن إسحق، ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له: إن لى حائطين فاختر أيهما شئت ، فقال : بارك الله لك فى حائطيك ، ما لهذا أسلمت ، دلنى على السوق ، قال : فدله فكان يشترى السمنة والأَقِطة والإهاب ، فجمع فتزوج فأتى النبى ﷺ فقال: « بارك الله لك، أَوْلِمْ ولو بشاة » قال: فكَثُرَ ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البُر وتحمل الدقيق والطعام ، قال : فلما دخلت المدينة سُمِع لأهل المدينة رجّة ، فقالت عائشة: ما هذه الرّجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف- سبعمائة تحمل البر والدقيق والطعام فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدخل عبدالرحمن بن عوف الجنة حَبواً » : فلما بلغ عبدالرحمن ذلك قال : أشهدك يا أمه أنها بأحمالها وأحلاسها[1] وأقتابها فى سبيل الله . وقال الإمام أحمد: ثنا عبدالصمد بن حسان ثنا عمارة - هو ابن زاذان - عن ثابت عن أنس قال: بينما عائشة فى بيتها إذ سمعت صوتاً فى المدينة، قالت : ما هذا ؟ قالوا عيرٌ لعبد الرحمن بن عوف قَدِمت من الشام تحمل كلَّ شىء - قال: وكانت سبعمائة بعير - قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً » فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: لئن استطعت لأدخلها قائماً، فجعلها بأقتابها وأحمالها فى سبيل الله - فقد تفرد به عمارة ابن زاذان الصيدلانى، وهو ضعيف .

وأما قوله فى سياق عبد بن حميد : إنه آخى بينه وبين عثمان بن عفان- فغلط محض مخالف لما فى صحيح البخارى، من أن الذى آخى بينه وبينه إنما هو سعد بن الربيع الأنصارى رضى الله عنهما

---

(١) الأحلاس: جمع حلس- بكسر الحاء ،وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة، والأقتاب : جمع قتب - بالتحريك ، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

وثبت في الصحيح ، أن رسول الله ﷺ صلى وراءه الركعة الثانية من صلاة الفجر في بعض الأسفار ، وهذه منقبة عظيمة لاتبارى . ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار ـ وكانوا مائة ـ فأخذوها حتى عثمان وعليّ ، وقال عليّ : اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها ، وسبقت زيفها ، وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير ، حتى كانت عائشة تقول : سقاه الله من السلسبيل . وأعتق خلقاً من مماليكه ، ثم ترك بعد ذلك كله مالاً جزيلا ؛ من ذلك : ذهبٌ قُطِّع بالفؤس حتى مجلت[1] أيدي الرجال ، وترك ألف بعير ومائة فرس ، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع ، وكان نساؤه أربعاً ؛ فصُولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً ، ولما مات صلى عليه عثمان بن عفان ، وحمل في جنازته سعد بن أبي وقاص ، ودُفن بالبقيع عن خمس وسبعين سنة . وكان أبيض مشرباً حمرة ، حسن الوجه ، دقيق البشرة ، أعْين[2] ، أهدب الأشفار ، أقنى ، له جُمّة ، ضخم الكفين ، غليظ الأصابع ، لا يغير شيبه ـ رضي الله عنه .

أبو ذر الغفاري: واسمه جُندب بن جَنادة على المشهور ، أسلم قديماً بمكة ، فكان رابع أربعة أو خامس خمسة . وقصة إسلامه تقدمت قبل الهجرة ، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام ، ثم رجع إلى بلاده وقومه ، فكان هناك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فهاجر بعد الخندق ، ثم لزم رسول الله ﷺ حضراً وسفراً ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وجاء في فضله أحاديث كثيرة ، من أشهرها : ما رواه الأعمش عن أبي اليقظان ـ عثمان بن عمير ، عن أبي حرب بن أبي الأسود عن عبدالله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغَبراء أصدق لهجةً من أبي ذَرّ » وفيه ضعف . ثم لما مات رسول الله ﷺ ومات أبو بكر ، خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم نزل الرَّبذَة فأقام بها حتى مات في ذي الحجة من هذه السنة ، وليس عنده سوى امرأته وأولاده فبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه ، إذ قدم عبدالله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحابه ، فحضروا موته ، وأوصاهم كيف يفعلون به .

وقيل قدموا بعد وفاته فولوا غسله ودفنه ، وكان قد أمر أهله أن يطبخوا لهم شاة من غنمه ليأكلوه بعد الموت ، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى أهله ، فضمهم مع أهله .

---

(١) أي : قرحت من العمل ، والمجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء ، والمجلة : قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل .

(٢) الأعين : عظيم سواد العين في سعة . يقال : عين ـ كفرح ـ عظم سواد عينه في سعة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان فتح قبرص فى قول أبى معشر ، وخالفه الجمهور فذكروها قبل ذلك كما تقدم .
وفيها غزا عبدالله بن أبى سرح إفريقية ثانية ، حين نقض أهلها العهد . وفيها سير أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة إلى الشام ؛ وكان سبب ذلك أنهم تكلموا بكلام قبيح فى مجلس سعيد بن عامر ، فكتب إلى عثمان فى أمرهم ، فكتب إليه عثمان : أن يُجليهم عن بلده إلى الشام ، وكتب عثمان إلى معاوية أمير الشام ، أنه قد أخرج إليك قراءً من أهل الكوفة فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم . فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم ، واجتمع بهم ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد ، فأجابه متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة ، فاحتملهم معاوية لحلمه ، وأخذ فى مدح قريش – وكانوا نالوا منهم – وأخذ فى المدح لرسول الله ﷺ ، والثناء عليه ، والصلاة والتسليم . وافتخر معاوية بوالده وشرفه فى قومه ، وقال فيما قال : وأظن أبا سفيان لو ولد الناسَ كلهم لم يلد إلا حازماً ، فقال له صَعصعة بن صُوحان : كذبت ، قد ولد الناسُ كلهم لمن هو خير من أبى سفيان ؛ مَن خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ؛ فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس .
ثم بذل لهم النصح مرة أخرى فإذا هم يتمادَون فى غيِّهم ، ويستمرون على جَهالتهم وحماقتهم ، فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم عن الشام ، لئلا يشوشوا عقول الطغام ، وذلك أنه كان يشتمل مطاوى كلامهم على القدح فى قريش ؛ كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه ، من نصرة الدين وقمع المفسدين . وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب ، وكانوا يشتمون عثمان وسعيد بن العاص . وكانوا عشرة ، وقيل تسعة وهو الأشبه ، منهم : كُميل بن زياد ، والأشتر النخعى – واسمه مالك بن يزيد – وعَلْقمة بن قيس النخعيان ، وثابت بن نَهيس النَّخعى ، وجندب بن زُهير العامرى ، وجُندب بن كعب الأزدى ، وعُروة بن الجَعْد ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعى[1] . فلما خرجوا من دمشق أووا إلى الجزيرة ، فاجتمع بهم عبدالرحمن بن خالد بن

---

(١) كذا فى بعض النسخ ، وفى أخرى : كميل بن زياد ، والأشتر النخعى – واسمه مالك بن الحارث – وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد بن صوحان ، وكعب بن مالك الأوسى والأسود بن زيد بن علقمة بن قيس النخعيان ، وثابت بن قيس النخعى ، وجندب بن زهير الغامدى ، وجندب بن كعب الأزدى ، وعروة بن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعى . والذى فى الطبرى : مالك بن الحارث الأشتر ، وثابت ابن قيس النخعى ، وكميل بن زياد النخعى ، وزيد بن صوحان العبدى ، وجندب بن زهير الغامدى ، جندب بن كعب الأزدى ، وعروة بن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعى .

الوليد ـ وكان نائباً على الجزيرة . ثم ولى حمص بعد ذلك ـ فهددهم وتوعدهم ، فاعتذروا إليه وأنابوا إلى الإقلاع عما كانوا عليه ، فدعا لهم وسيّر مالكا الأشتر النخعى إلى عثمان بن عفان ليعتذر إليه عن أصحابه بين يديه ، فقبل ذلك منهم وكف عنهم، وخيرهم أن يقيموا حيث أحبوا ، فاختاروا أن يكونوا فى معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فقدموا عليه حمص ، فأمرهم بالمقام بالساحل، وأجرى عليهم الرزق . ويقال : بل لما مقتهم معاوية كتب فيهم إلى عثمان، فجاءه كتاب عثمان ، أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فردهم إليه . فلما رجعوا كانوا أزلق ألسنة ، وأكثر شراً، فضج منهم سعيد بن العاص إلى عثمان، فأمره أن يسيرهم إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بحمص ، وأن يلزموا الدروب . وفى هذه السنة سير عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشام، وإلى مصر بأسباب مسوغة لما فعله رضى الله عنه ، فكان هؤلاء ممن يؤلّب عليه ويمالىء الأعداء فى الحط والكلام فيه ، وهم الظالمون فى ذلك، وهو البارّ الراشد رضى الله عنه .

وفى هذه السنة حج بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه وتقبل الله منه .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين

قال أبو معشر : فيها كانت وقعة الصّوارى ، والصحيح فى قول غيره : أنها كانت قبل ذلك كما تقدم . وفى هذه السنة تكاتب المنحرفون عن عثمان ـ وكان جمهورهم من أهل الكوفة ـ وهم فى معاملة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بحمص ، منفيون من الكوفة ، وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة ، وتألبوا عليه ، ونالوا منه ومن عثمان ، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل ، وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتولية جماعة من بنى أمية من أقربائه ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل أئمة غيرهم ، حتى شق ذلك عليه جداً ، وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم ؛ فاجتمع إليه معاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وعمرو بن العاص أمير مصر ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير المغرب ، وسعيد بن العاص أمير الكوفة ، وعبدالله بن عامر أمير البصرة ، فاستشارهم فيما حدث من الأمر ؛ فأشار عبدُالله بنُ عامر أن يشغلهم بالغزو عما هم فيه من الشر ، فلا يكون همّ أحدهم إلاّ نفسَه ، وما هو فيه من دَبَرة[1] دابته وقمْل فروته . وأشار سعيد بن العاص بأن يستأصل شأفة المفسدين ويقطع دابرَهم . وأشار معاوية بأن يردّ عماله إلى أقاليمهم، وألا يلتفت إلى هؤلاء وما تألبوا عليه من الشر ، فإنهم أقل وأضعف جنداً . وأشار عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح بأن يتألفهم بالمال فيعطيهم منه ما يكف به شرهم ، ويأمن غائلتهم ، ويعطف به قلوبهم إليه .

وأما عمرو بن العاص فقام فقال : أما بعد ياعثمان ، فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون ،

---

(١) الدبرة ـ بالتحريك ـ قرحة الدابة ، والجمع دبر وأدبار .

فإما أن تعزل عنهم ما يكرهون ، وإما أن تقدم فتنزل عمالك على ما هم عليه ، وقال له كلاما فيه غلظة ، ثم اعتذر إليه في السّر بأنه إنما قال هذا، ليبلغ عنه من كان حاضراً من الناس إليهم ليرضوا من عثمان بهذا ، فعند ذلك قرّر عثمان عماله على ما كانوا عليه ، وتألف قلوب أولئك بالمال ، وأمر بأن يُبْعثوا إلى الغزو إلى الثغور ، فجمع بين المصالح كلها . ولما رجعت العمال إلى أقاليمها امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سَعيد بن العاص ، ولبسوا السلاح وحلفوا أن لايمكنوه من الدخول فيها حتى يعزله عثمان ، ويولي عليهم أبا موسى الأشعري ، وكان اجتماعهم بمكان يقال له الجرَعة ،[١] ـ وقد قال يومئذ الأشتر النخعي: والله لايدخلها علينا مادامت سيوفنا، وتواقف الناس بالجرعة، وأحجم سعيد عن قتالهم وصمموا على منعه . وقد اجتمع في مسجد الكوفة في هذا اليوم حذيفة، وأبو مسعود ـ عقبة بن عمرو ، فجعل أبو مسعود يقول : والله لايرجع سَعيد بن العاص حتى يكون دماء . فجعل حذيفة يقول : والله ليرجعن ولا يكون فيها مِحْجَمة[٢] من دم ، وما أعلم اليوم شيئاً إلا وقد علمتُه ومحمد ﷺ حي . والمقصود أن سعيد بن العاص كر راجعاً إلى المدينة وكسر الفتنة ، فأعجب ذلك أهل الكوفة ، وكتبوا إلى عثمان بذلك ، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا إزاحة لعذرهم ، وإزالة لشبههم ، وقطعاً لعللهم .

وذكر سيف بن عمر ، أن سبب تألب الأحزاب على عثمان : أن رجلا يقال له: عبدالله بن سَبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر ، فأوحَى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ؛ مضمونه ، أنه يقول للرجل : أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : نعم ! فيقول له: فرسول الله ﷺ أفضلُ منه، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا ، وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام ؟ ثم يقول : وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب ، فمحمد خاتم الأنبياء ، وعليّ خاتم الأوصياء . ثم يقول: فهو أحق بالإمرة من عثمان. وعثمان مُعتد في ولايته ماليس له. فأنكروا عليه، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فافتتن به بشرٌ كثير من أهل مصر ، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة ، فتمالؤا على ذلك ، وتكاتبوا فيه ، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان ، وأرسلوا إليه منْ يناظره ويذكر له ما ينقمون عليه من توليته أقرباءه وذوي رحمه، وعزله كبار الصحابة . فدخل هذا في قلوب كثير من الناس ، فجمع عثمان بن عفان نوابه من الأمصار فاستشارهم ، فأشاروا عليه بما تقدم ذكرنا له ، فالله أعلم .

---

(١) الجرعة : مكان مشرف ، قرب الكوفة ومنه : يوم الجرعة

(٢) المحجمة ـ بالكسر ـ مايحجم به، والحجام : المصاص، وحرفته : الحجامة.

وقال الواقدى فيما رواه عن عبدالله بن محمد عن أبيه قال : لما كانت سنة أربع وثلاثين، كثر الناس على عثمان بن عفان، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، فكلم الناسُ عليَّ بن أبى طالب ، أن يدخلَ على عثمان ، فدخل عليه فقال له : إن الناس ورائى وقد كلمونى فيك ، ووالله ما أدرى ما أقول لك ،وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لاتعرفه، إنك لتعلم مانعلم، ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه،ولا خلونا بشىء فنبلغكه ،وما خُصصنا بأمور عنك،وقد رأيت وسمعتَ وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ،وما ابنُ أبى قحافةَ بأولى بعمل الحق منك،ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ، ولاسبقاك إلى شىء، فاللهَ اللهَ فى نفسك،فإنك والله ماتبصَّر من عمى، ولا تعلَّم من جهل. وإن الطريق لواضح بين ، وإنَّ أعلام الدين لقائمة ، تعلم ياعثمان أنَّ أفضل عبادِ الله عند الله إمام عادل ، هُدى وهَدَى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة معلومة[1] ، فوالله إنَّ كلا لَبيِّن ، وإن السُّنن لقائمة لها أعلام ، وإن البدَع لقائمة لها أعلام ، وإنَّ شرَّ الناس عند الله إمام جائر ضل وأضلَّ به ، فأمات سنة معلومة وأحيا بدعةً متروكة ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نَصير ولا عاذر ، فيلقَى فى جهنم فيدورُ فيها كما تدور الرَّحا ، ثم يرتطِمُ فى غمرة جهنم » وإنى أحذرك اللهَ وأحذرك سَطوته ونقمته ، فإن عذابه أليم شديد ، واحذر أن تكون إمامَ هذه الأمة المقتول ، فإنه كان يقال : يقتل فى هذه الأمة إمامٌ ،فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلتبس أمورها عليها ، ويتركون شيعاً لا يبصرون الحق من الباطل ، يموجون فيها موْجاً ، ويمرجُون فيها مرجاً .

فقال عثمان : قد والله علمت ، ليقولُن الذى قلتَ ، أما والله لو كنتَ مكانى ما عنَّفتك ولا أسلمتك ، ولا عِبتُ عليك ، ولا جئتُ منكَراً ، إنى وصلتُ رحماً ، وسَددت خَلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيها بمن كانَ عمر يولى ، أنشدُك الله ياعلى ، هل تعلم أنَّ المغيرةَ بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم. قال: فتعلم أن عمر ولاَّه ؟ قال: نعم قال: فلِمَ تلومونى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ فقال علىّ : سأخبرك ! إن عمرَ كان كلُّ من ولَّى فإنما يطأ على صماخيه ، وأنه إن بلغه حرْف جاء به ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لاتفعل ؛ ضعفتَ ورفقت على أقربائك ، فقال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال على: لعمرى إن رَحِمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أنَّ عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته ، فقال على : أنشدك اللهَ ! هل تعلم أنَّ معاوية كان أخوفَ من عمر من «يرْفأ» غلام عمر ـ منه ؟ قال : نعم ! قال على :

---

(١) فى الطبرى : متروكة .

فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

ثم خرج عليّ من عنده وخرج عثمان على إثره فصعد المنبر فوعظ وحذر وأنذر ، وتهدّد وتوعّد ، وأبرق وأرعد ، فكان فيما قال : ألا فقد والله عِبتم عليّ بما أقررتم به لابن الخطاب ، ولكنه وَطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم . ولِنتُ لكم وأوطأت لكم كَتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم على . أما والله لأنا أعز نفراً ، وأقربُ ناصراً ، وأكثر عدداً ، وأقمن[1] إن قلتِ : هلمّ إلىّ إلىّ ، ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلتُ عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى ، فأخرجتم منى خُلُقاً لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به ، فكُفُّوا ألسنتكم وطَعنكم وعيبكم على وُلاتكم ، فإنى قد كففتُ عنكم مَن لو كان هو الذى يليكم لرضيتم منه بدونَ منطق هذا . ألا فما تفقدون من حَقكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ مَن كان قبلى . ثم اعتذر عما كان يعطى أقرباه بأنه من فضل ماله . فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم والله حَكَّمنا بيننا وبينكم السيف ، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرَشنا لكم أعراضنا فنَبَت بكم مَغارِسُكم تَبنون فى دِمَن الثرَى

فقال عثمان : اسكت لاسكتَّ . دَعْنى وأصحابى ، ما مَنطقك فى هذا ألم أتقدّم إليك أن لاتنطق ، فسكت مروان ونزل عثمان رضى الله عنه .

وذكر سيف بن عمر وغيره : أن معاوية لما وَدعه عثمان حين عزم على الخروج إلى الشام ، عرض عليه أن يَرحل معه إلى الشام فإنهم قوم كثيرة طاعتهم للأمراء . فقال : لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه . فقال : أجهِّز لك جيشاً من الشام يكونون عندك ينصرونك ؟ فقال : إنى أخشى أن أضَيق بهم بَلد رسول الله ﷺ على أصحابه من المهاجرين والأنصار . قال معاوية : فوالله ياأمير المؤمنين لتغتالن ـ أو قال : لتغزين ـ فقال عثمان : حسبى الله ونعم الوكيل .

ثم خرج معاوية من عنده وهو متقلد السيف وقوسُه فى يده، فمر على ملأ من المهاجرين والأنصار، فيهم على بن أبى طالب، وطلحة، والزبير، فوقف عليهم واتكأ على قوسه وتكلم بكلام بليغ، يشتمل على الوصاة بعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، والتحذير من إسلامه إلى أعدائه ، ثم انصرف ذاهباً . فقال الزبير : ما رأيته أهيبَ فى عينى من يومه هذا .

وذكر ابن جرير ، أن معاوية استشعر الأمر لنفسه من قدمته هذه إلى المدينة ، وذلك أنه سمع حادياً يرتجز فى أيام الموسم فى هذا العام وهو يقول :

(١) أقمن : أجدر ، والقميق : الخليق الجدير .

قد علمت ضوامر المطىّ * وضمرات عوج القسىّ * أن الأمير بعده علىّ *
وفى الزبير خلف رضىّ * وطلحة الحامى لها ولىّ

فلما سمعها معاوية لم يزل ذلك فى نفسه ، حتى كان ما كان ، على ما سنذكره فى موضعه إن شاء الله وبه الثقة . قال ابن جرير : وفى هذه السنة مات أبو عَبْس بن جبر بالمدينة وهو بدرى . ومات أيضاً مِسْطح بن أثاثة . وغافل بن أبى البُكير . وحج بالناس فى هذه السنة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

وفيها مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه

وكان السبب فى ذلك : أن عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن مصر، وَلّى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سَرح . وكان سبب ذلك : أنّ الخوارج من المصريين كانوا محصورين[١] من عمرو ابن العاص، فجعلوا يعملون عليه حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم، ويُولى عليهم من هو ألين منه، فلم يزل ذلك دأبهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصّلاة ، وولىّ على الحرب والخراج عبدالله بن سعد بن أبى سَرح . ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما ، حتى كان بينهما كلام قبيح . فأرسل عثمان فجمع لابن أبى سَرح جميعَ عمالة مصر : خراجها ـ وحربها ـ وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له : لاخير لك فى المقام عند من يكرهك ، فاقدم إلىّ ، فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفى نفسه من عثمان أمر كبير، فكلمه فيما كان من أمره بنفْس[٢] ، وتقاولا فى ذلك ، وافتخر عمرو بن العاص بأبيه على عثمان ، وأنه كان أعز منه . فقال له عثمان : دع هذا فإنه من أمر الجاهلية . وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان . وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان ويتكلمون فيه بكلام قبيح على ماقدمنا ، وينقمون عليه فى عزله جماعة من علية الصحابة وتوليته من دونهم ، أو من لايصلح عندهم للولاية .

وكره أهل مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، بعد عمرو بن العاص ، واشتغل عبدالله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب ، وفتحه بلاد البربر والأندلس وإفريقية . ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه ، وكان عِظم ذلك مسنداً إلى محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة ، حتى استنفرا نحواً من ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة فى صفة معتمرين

---

(١) أى ضيقة صدورهم: والحصر: التضييق والحبس عن السفر وغيره . (٢) أى بأنفة وعزة وعظمة

فى شهر رجب ، لينكروا على عثمان، فساروا إليها تحت أربع رفاق . وأمر الجميع إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وعبدالرحمن بن عُدَيس البلوى ، وكنانة بن بشر التُّجيبى ، وسودان ابن حمران السَّكونى. وأقبل معهم محمد بن أبى بكر، وأقام بمصر محمد بن أبى حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء . وكتب عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى عثمان يُعلمه قدوم هؤلاء القوم إلى المدينة مُنْكِرين عليه فى صفة معتمرين .

فلما اقتربوا من المدينـــة ، أمر عثمان على بن أبى طالب أن يخرج إليهم ليردهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة . ويقال : بل ندب الناس إليهم ، فانتدب علىّ لذلك فبعثه ، وخرج معه جماعة الأشراف، وأمره أن يأخذ معه عمّار بن ياسر . فقال علىّ لعمار، فأبى عمّار أن يخرج معه. فبعث عثمان إلى سعد بن أبى وقاص أن يذهب إلى عمّار ليحرّضه على الخروج مع علىّ إليهم ، فأبى عمار كل الإباء ، وامتنع أشدّ الامتناع ، وكان متعصباً على عثمان بسبب تأديبه له فيما تقدم على أمر وضربه إياه فى ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عُتبة بن أبى لهب، فأدبهما عثمان، فتآمر عمار عليه لذلك، وجعل يُحرِّض الناس عليه ، فنهاه سعد بن أبى وقاص عن ذلك ولامه عليه ، فلم يُقلع عنه ولم يرجع ولم ينزع . فانطلق علىٌّ بن أبى طالب إليهم وهم بالجحفة ، وكانوا يُعظّمونه ويبالغون فى أمره، فردّهم وأنّبهم وشتمهم ، فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، وقالوا: هذا الذى تحاربون الأمير بسببه ، وتحتجّون عليه به . ويقال: إنه ناظرهم فى عثمان ، وسألهم ماذا ينقمون عليه ؟ فذكروا أشياء ، منها : أنه حَمَى الحِمى ، وأنه حرّق المصاحف ، وأنه أتمّ الصلاة ، وأنه ولّى الأحداث ، وأنه أعطى بنى أمية أكثر من الناس . فأجاب علىّ عن ذلك :

أما الحِمى فإنما حَماه لإبل الصدقة لتَسمن ، ولم يَحْمِه لإبله ولا لغنمه ، وقد حَماه عُمرُ من قبله . وأما المصاحف فإنما حرّق ما وقع فيه اختلاف ، وأبقى لهم المتفق عليه ، كما ثبت فى العَرضة الأخيرة. وأما إتمامُه الصلاة بمكة ، فإنه كان قد تأهّل بها ونوى الإقامة فأتمها . وأما توليتُه الأحداث فلم يُولِّ إلاّ رجلا سوياً عدلاً ، وقد ولّى رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة ، وولّى أسامة بن زيد بن حارثة ، وطعن الناس فى إمارته . وأما إيثاره قومَه بنى أمية ، فقد كان رسول الله ﷺ يُؤثر قريشاً على الناس ، ووالله لو أنّ مفتاح الجنـــة بيدى لأدخلت بنى أمية إليها. ويقال: إنهم عتبوا عليه فى عمّار ومحمد بن أبى بكر، فذكر عثمان عُذره فى ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما . وعتبوا عليه فى إيوائه الحكم بن أبى العاص، وقد نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فذكر أن رسول الله ﷺ كان قد نفاه إلى الطائف ثم رده، ثم نفاه إليها. قال: فقد نفاه رسول الله ثم ردّه . وروى أنّ عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة ، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له فيما فيه شهادة له . ويروى أنهم بعثوا طائفة منهم فشهدوا خُطبة عثمان هذه ،

فلما تمهدت الأعذار وانزاحت عِلّـتهم ولم يبق لهم شبهة ، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم، فصفح عنهم ـ رضى الله عنه . وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا ، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا . ورجع علىٌّ إلى عثمان ، فأخبره برجوعهم عنه ، وسماعهم منه ، وأشار على عثمان أن يخطب الناس خطبة يعتذر إليهم مما كان وقع من الأثرة لبعض أقاربه ، ويشهدهم عليه ،بأنه قد تاب من ذلك ، وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله ، وأنه لا يحيد عنها ، كما كان الأمر أولا فى مدة ست سنينَ الأول ، فاستمع عثمان هذه النصيحة ، وقابلها بالسمع والطاعة .

ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس ، رفع يديه فى أثناء الخطبة ، وقال: اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنى أول تائب مما كان منى ، وأرسل عينيه بالبكاء ،فبكى المسلمون أجمعون وحصل للناس رِقة شديدة على إمامهم ، وأشهد عثمان الناس على نفسه بذلك ، وأنه قد لزم ما كان عليه الشيخان : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنه قد سَبَّل بابه لمن أراد الدخول عليه، ولايمنع أحد من ذلك . ونزل فصلى بالناس، ثم دخل منزله وجعل من أراد الدخول على أمير المؤمنين لحاجة أو مسألة أو سؤال ـ لايمنع أحد من ذلك مدة قال الواقدى : فحدثنى على بن عمر عن أبيه قال : ثم إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له : تـكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك ، ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة ، فإن البلاد قد تمخضت عليك ، ولا آمن ركبا آخرين يقدمون من قبل الـكوفة ، فتقول : يا علىّ ! اركب إليهم . ويقدم آخرون من البصرة فتقول : يا على ! اركب إليهم ، فإن لم أفعل قطعت رحمك واستخففت بحقك .

قال : فخرج عثمان فخطب الخطبة التى نَزَع فيها ، وأعلم الناس من نفسه التَّوبة ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ! أيها الناس ، فوالله ماعابَ مَن عاب منـكم شيئاً أجهله ، وما جئتُ شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولـكن ضلَّ رُشدى ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن زَلّ فليَتُب ، ومن أخطأ فليتُب ؛ ولا يتمادَى فى الهلـكة ، إنّ مَن تمادى فى الجوْر كان أبعد عن الطريق » فأنا أول من اتعظ ؛ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه ، فمثلى نَزَع وتاب ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافـكم ، فليرونى رأيهم ، فوالله لأكونَنَّ كالمرقوق ، إن مُلِكَ صَبر ، وإن عُتِق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه .

قال : فرقّ الناس له وبكى من بكى ، وقام إليه سعيد بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين ! الله الله فى نفسك ! فأتمم عَلَى ما قلتَ . فلما انصرف عثمان إلى منزله وجد به جماعة من أكابر الناس ،

وجاءه مَروان بن الحكم فقال : أتكلّم يا أمير المؤمنين أم أصمت ؟ فقالت امرأة عثمان - نائلة بنت الفَرافصة الكَلْبية - من وراء الحجاب : بل اصمت ، فوالله إنهم لقاتِلوه ، ولقد قال مقالةً لاينبغي النزوع عنها . فقال لها : وما أنت وذاك ! ؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ . فقالت له : دَع ذكر الآباء ، ونالَت من أبيه الحكم ، فأعرض عنها مروان . وقال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟ فقال له عثمان : بل تكلّم ؛ فقال مروان : بأبي أنت وأمي ! والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنتُ أوّل من رَضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلتَ حين جاوزَ الحِزام الطُّبْيَين ، وبلغ السَّيل الزُّبى ، وحين أعطى الخطة الذليلةَ الذليلُ ، والله لإقامةٌ على خطيئة يُستغفر منها - خير من توبة خوف عليها . وإنك لو شئت لعزَمت التوبة ولم تقر لنا بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس .

فقال عثمان : قم فاخرج إليهم فكلّمهم ، فإني أستحيي أن أكلمهم ، قال : فخرج مروان إلى الباب والناسُ يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ما شأنكم ! كأنكم قد جئتم لنهب . شاهت الوجوه كلّ إنسان آخذٌ بأذُن صاحبه ، إلا من أريد ! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمرٌ يسوءكم ولا تحمدوا غِبّه ، ارجعوا إلى منازلكم فوالله ما نحن بمغلوبين على ما بأيدينا .

قال : فرجع الناس ، وخرج بعضهم حتى أتى علياً فأخبره الخبر ، فجاء مُغضباً حتى دخل على عثمان . فقال : أما رضيتَ من مروان ولا رضى منك إلا بتحويلك عن دينك وعقلك ؟ ! وإن مثلك مثل جمل الظعينة سار حيث يسار به ، والله ما مروان بذى رَأى فى دينه ولا نفسه ، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبتَ شرفك ، وغُلبت على أمرك . فلما خرج عليّ دخلت نائلة على عثمان فقالت : أتكلم أو أسكت ؟ فقال : تكلمى ، فقالت : سمعتُ قول عليٍّ لك ، وأنه ليس يعاودك ، وقد أطعتَ مرْوان حيث شاء ، قال : فما أصنع ؟ قالت : تتقى الله وحده لاشريك له ، وتتّبع سنة صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعتَ مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الله قَدر ولا هَيْبَة ولا محبّة ، فأرسل إلى على فاستصلحه ، فإن له قرابة منك وهو لا يُعصَى . قال : فأرسل عثمان إلى على فأبَى أن يأتيه ، وقال : لقد أعلمته أنى لست بعائد . قال : وبلغ مروان قول نائلة فيه ، فجاء إلى عثمان . فقال : أتكلم أو أسكت ؟ فقال : تكلم ، فقال : إن نائلة بنت الفرافصة . . فقال عثمان : لا تذكرها بحرف فأسوىء لك وجهك ، فهى والله أنصح لى منك . قال : فكفّ مروان .

ذكر مجيء الأحزاب إلى عثمان المرة الثانية من مصر وغيرها في شوال من هذه السنة

وذلك أن أهل الأمصار لما بلغهم خبر مروان ، وغَضب عليٌّ على عثمان بسببه ، ووجدوا الأمر على ما كان عليه لم يتغير ـ تكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا ، وزُوِّرت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة ، وعلى لسان عليٍّ وطلحةَ والزبير ، يَدْعون الناس إلى قتال عثمان ونصر الدين ، وأنه أكبر الجهاد اليوم . وذكر سيف بن عمر التميمي عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، وقاله غيرهم أيضاً . قالوا: لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين، خرج أهل مصر في أربع رِفاق[1] على أربعة أمراء ، المقلل لهم يقول : ستمائة ، والمكثر يقول : ألف . على الرِّفاق عبد الرحمن بن عُدَيس البلَوِيّ ، وكنانة بن بشر التُّجيبي ، وسودان بن حُمران السَّكوني ، وقُتَيرة السَّكوني . وعلى القوم جميعاً ـ الغافقي بن حرب العَكِّي ؛ وخرجوا ـ فيما يظهرون للناس ـ حجاجاً ، ومعهم ابن السوداء - وكان أصله رُومياً فأظهر الإسلام وأحدث بدعاً قولية وفعلية ـ قبحه الله .

وخرج أهل الكوفة في عدتهم في أربع رفاق أيضاً ، وأمراؤهم : زَيد بن صُوحان ، والأشتَر النَّخَعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصمّ وعلى الجميع عمرو بن الأصمّ .

وخرج أهل البصرة في عدتهم أيضاً في أربع رايات ، مع حُكَيم بن جَبَلة العبدي ، وبشر بن شُرَيح بن ضُبَيعة القيسي، وذَريح بن عبّاد العبدي، وعليهم كلهم ـ حُرقوص بن زُهير السعدي. وأهل مصر مصرُّون على ولاية علي بن أبي طالب ، وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير ، وأهل البصرة مُصممون على تولية طلحة ، لاتشك كل فرقة أن أمرها سيتم، فسارت كل طائفة من بلدهم حتى توافَوا حول المدينة ، كما تواعَدوا في كتبهم ، في شهر شوال . فنزلت طائفة منهم بذي خُشُب ، وطائفة بالأعوَص ، والجمهور بذي المَرْوَة ، وهم على وَجَل من أهل المدينة . فبعثوا قصَّاداً وعيوناً بين أيديهم، ليخبروا الناس أنهم إنما جاءُوا للحج لا لغيره ، وليستعفوا هذا الوالي من بعض عماله ، وما جئنا إلا لذلك، واستأذنوا للدخول ، فكلُّ الناس أبى دخولهم ونَهى عنه ، فتجاسروا واقترَبوا من المدينة ، وجاءت طائفةٌ من المصريين إلى عليٍّ وهو في عسكرٍ عند أحجار الزيت ، عليه حُلة أفواف[2] ، معمّمٌ بشقيقة حمراء يمانية ، متقلد السيف ،فسلم عليه المصريون فصاح

---

(١) أي : جماعات . والرفقة بكسر الراء وضمها : الجماعة ترافقهم في سفرك .

(٢) الأفواف :جمع فوف، وهو القطن . وفي اللسان : الفوف : ضرب من برود اليمن . يقال: برد أفواف وحلة أفواف ـ بالإضافة .

بهم وطردهم ، وقال: لقد علم الصالحون أن جَيش ذى المروة وذى خُشب - ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لا صبّحكم الله ، قالوا : نعم ! وانصرفوا من عنده على ذلك .

وأتى البصريون طلحة وهو فى جماعة أخرى إلى جنب على - وقد أرسل ابنيه إلى عثمان - فسلموا عليه، فصاح بهم وطردهم ، وقال لهم كما قال على لأهل مصر ، وكذلك كان رد الزبير على أهل الكوفة .

فرجع كل فريق منهم إلى قومهم ، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم ، وساروا أياما راجعين ، ثم كرّوا عائدين إلى المدينة ، فما كان غير قليل حتى سمع أهل المدينة التكبير ، وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاطوا بها ، وجمهورهم عند دار عثمان بن عفان ، وقالوا للناس : مَن كفّ يده فهو آمن ، فكفّ الناس ولزموا بيوتهم ، وأقام الناس على ذلك أياماً .

هذا كله ولا يدرى الناس ما القوم صانعون، ولا على ما هم عازمون ، وفى كل ذلك وأمير المؤمنين عثمان بن عفان يخرج من داره فيصلى بالناس ، فيصلى وراءه أهل المدينة وأولئك الآخرون وذهب الصحابة إلى هؤلاء يؤنبونهم ويَعْذلونهم على رجوعهم ، حتى قال على لأهل مصر : ماردّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ فقالوا : وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا . وكذلك قال البصريون لطلحة ، والكوفيون للزبير . وقال أهلُ كل مصر : إنما جئنا لننصر أصحابنا . فقال لهم الصحابة : كيف علمتم بذلك من أصحابكم ، وقد افترقتم وصار بينكم مراحل ؟ إنما هذا أمر اتفقتم عليه ، فقالوا : ضعوه على ما أردتم ، لا حاجة لنا فى هذا الرجل ؛ ليعتزلنا ونحن نعتزل له - يعنون أنه إن نزل عن الخلافة تركوه آمنا . وكان المصريون - فيما ذكر - لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا فى الطريق بريداً يسير ، فأخذوه ففتشوه ، فإذا معه فى إداوة كتاباً على لسان عثمان، فيه الأمر بقتل طائفة منهم ، وبصلب آخرين ، وبقطع أيدى آخرين منهم وأرجلهم ، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان ، والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جَمله .

فلما رجعوا جاءوا بالكتاب ودَاروا به على الناس، فكلم الناس أمير المؤمنين فى ذلك ، فقال: بينة على بذلك، وإلا فوالله لا كتبت ولا أمليت ، ولادَريت بشىء من ذلك، والخاتم قد يزوّر على الخاتم ؛ فصدقه الصادقون فى ذلك ، وكذبه الكاذبون . ويقال : إن أهل مصر كانوا قد سألوا من عثمان أن يعزل عنهم ابن أبى سَرح ، ويولّى محمد بن أبى بكر ، فأجابهم إلى ذلك ، فلما وجدوا ذلك البريد ومعه الكتاب بقتل محمد بن أبى بكر وآخرين معه- رجعوا ، وقد حَنِقوا عليه حَنَقا شديداً ، وطافوا بالكتاب على الناس ، فدخل ذلك فى أذهان كثير من الناس .

وروى ابن جرير من طريق محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، أن الذى كان معه هذه الرسالة من جهة عثمان إلى مصر - أبو الأعور السُّلمى ، على جمل لعثمان . وذكر ابن جرير من هذه الطريق ، أن الصحابة كتبوا إلى الآفاق من المدينة يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه ، وهذا كذبٌ على الصحابة ، وإنما كُتبت كتب مزورة عليهم ، كما كتبوا من جهة على وطلحة والزبير - إلى الخوارج كتبا مزورة عليهم أنكروها ، وهكذا زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً ؛ فإنه لم يأمر به ولم يعلم به أيضاً .

واستمرّ عثمان يصلى بالناس فى تلك الأيام كلها ، وهم أحقر فى عينه من التراب . فلما كان فى بعض الجمعات وقام على المنبر ، وفى يده العصا التى كان يعتمد عليها رسول الله ﷺ فى خطبته ، وكذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما من بعده - قام إليه رجل من أولئك فسبه ونال منه ، وأنزله عن المنبر ، فطمع الناس فيه من يومئذ ؛ كما قال الواقدى : حدثنى أسامة بن زيد عن يحيى ابن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه قال : بينا أنا أنظر إلى عثمان على عصا النبى ﷺ التى كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر ، فقال له جَهْجَاه : قم يا نعثل[١] فانزل عن هذا المنبر ، وأخذ العصا فكسرها على رُكبته اليمنى ، فدخلت شظية منها فيها ، فبقى الجرح حتى أصابته الأكلة ، فرأيتها تُدوِّد[٢] ، فنزل عثمان وحملوه وأمر بالعصا فشدوها ، فكانت مضبّبة ، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خَرجة أو خَرْجتين ، حتى حُصر فقتل .

قال ابن جرير : وحدثنا أحمد بن إبراهيم ، ثنا عبدالله بن إدريس عن عبيدالله بن عمر ، عن نافع أن الجَهْجَاه الغفارى أخذ عصا كانت فى يد عثمان فكسرها على ركبته ، فرمى فى ذلك المكان بأكلة . وقال الواقدى : وحدثنى ابن أبى الزناد عن موسى بن عقبة عن ابن أبى حبيبة قال : خطب عثمان الناس فى بعض أيامه ، فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ! إنك ركبت نَهابير[٣] وركبناها معك ، فتُب نَتُب معك . فاستقبل عثمان القبلة وشمر يديه . قال ابن أبى حبيبة : فلم أر يوماً أكثر باكيا ولا باكية من يومئذ . ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام إليه جَهْجَاه الغفارى فصاح إليه : يا عثمان ! ألا إن هذه شارف[٤] قد جئنا بها ، عليها عباءة وجامعة[٥] ، فانزل فلندرجك فى العباءة ولنطرحك فى الجامعة ، ولنحملك على الشارف ، ثم نطرحك

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية . قيل : إنه كان يشبه عثمان رضى الله عنه .
(٢) أى يقع فيها الدود والسوس (٣) النهابير : المهالك ، والواحدة نهبرة .
(٤) الشارف من النوق : المسنة الهرمة . (٥) الجامعة : الغل يوضع فى العنق

فى جبل الدخان فقال عثمان : قبّحك الله وقبح ما جئت به ، ثم نزل عثمان ، قال ابن أبى حبيبة : وكان آخر يوم رأيته فيه .

وقال الواقدى : حدثنى أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه عن عامر بن سعد قال : كان أول من اجترأ على عثمان بالنطق السيّء - جَبَلة بن عمرو الساعدىّ ؛ مرّ به عثمان وهو فى نادى قومه ، وفى يد جَبَلة جامعة ، فلما مرّ عثمان سلّم فرد القوم ، فقال جبلة : لِمَ تردون عليه ؟ رجل قال كذا وكذا . ثم أقبل على عثمان فقال : والله لأطرحنّ هذه الجامعة فى عُنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه ، فقال عثمان : أىّ بطانة ؟ فوالله إنى لأتخير الناس ، فقال : مروان تخيّرته ! ومعاوية تخيّرته ! وعبد الله بن عامر بن كُرَيز تخيّرته ! وعبد الله بن سعد بن أبى سَرح تخيّرته ! منهم من نزل القرآن بذمه ، وأباح رسول الله ﷺ دمه . قال : فانصرف عثمان ، فما زال الناس مُجترئين عليه إلى هذا اليوم .

قال الواقدى : وحدثنى محمد بن صالح ، عن عبيد الله بن رافع بن نقاخة ، عن عثمان بن الشّريد ، قال : مرّ عثمان على جَبَلة بن عمرو الساعدىّ وهو بفناء داره ، ومعه جامعة ، فقال : يا نَعْثَل ! والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوص جَرباء ، ولأُخرجنّك إلى حَرّة النار . ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله عنه وذكر سيف بن عمر ، أن عثمان بعد أن صلى بالناس يوم الجمعة صعد المنبر فخطبهم أيضاً ، فقال فى خطبته : يا هؤلاء الغرباء ! الله الله ، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم مَلْعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحُوا الخطأ بالصواب ، فإن الله لا يمحو السّيء إلاّ بالحسن . فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم ابن جَبَلة فأقعده ، فقام زيد بن ثابت ، فقال : إنه فى الكتاب ، فثارَ إليه من ناحية أخرى محمد بن أبى مَرْيرة فأقعده ، وقال : يانطع ، وثار القوم بأجمعهم فحَصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحَصبوا عثمان حتى صُرِع من المنبر مغشياً عليه ، فاحتُمل وأدخل داره . وكان المصريون لا يَطمعون فى أحَدٍ من الناس أن يساعدهم ؛ إلاّ محمد بن أبى بكر ، ومُحمد ابن جعفر ، وعمّار بن ياسر . وأقبل علىّ وطلحة والزبير إلى عثمان فى أناس يعودونه ، ويشكون إليه بَثّهم وما حل بالناس ، ثم رجعوا إلى منازلهم ، واستقتل جماعة من الصحابة ؛ منهم : أبو هريرة وابن عمر ، وزيد بن ثابت فى المحاربة عن عثمان ، فبعث إليهم يُقسم عليهم لما كفّوا أيديهم وسكنوا حتى يقضى الله ما يشاء .

ذكر حصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه

لما وقع ما وقع يوم الجمعة ، وشُج أمير المؤمنين عثمان ، وهو فى رأس المنبر ، وسقط مغشياً عليه ، واحتمل إلى داره وتفاقم الأمر ، وطمع فيه أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس ، وألجأوه إلى داره وضيقوا عليه ، وأحاطوا بها محاصرين له ، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم ـ سار إليه جماعة من أبناء الصحابة ، عن أمر آبائهم ، منهم : الحسن والحسين ، وعبدالله بن الزبير ـ وكان أمير الدار ـ وعبد الله بن عمر ، وصاروا يحاجون عنه ، ويناضلون دونه أن يصل إليه أحد منهم وأسلمه بعض الناس رجاء أن يجيب أولئك إلى واحدة مما سألوا ، فإنهم كانوا قد طلبوا منه : إما أن يعزل نفسه ، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم ، ولم يقع فى خلد أحد أن القتل كان فى نفس الخارجين . وانقطع عثمان عن المسجد، فكان لا يخرج إلا قليلا فى أوائل الأمر، ثم انقطع بالكلية فى آخره . وكان يصلى بالناس فى هذه الأيام الغافقى بن حرب . وقد استمر الحصر أكثر من شهر . وقيل أربعين يوماً ، حتى كان آخر ذلك أن قتل شهيداً رضى الله عنه ، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى . والذى ذكره ابن جرير: أن الذى كان يصلى بالناس فى هذا المدة وعثمان محصور ـ طلحة بن عبيد الله . وفى صحيح البخارى عن[1] وروى الواقدى أن علياً صلى أيضاً ، وصلى أبو أيوب ، وصلى بهم سهل بن حنيف ، وكان يجمع بهم على ، وهو الذى صلى بهم بعد ، وقد خاطب الناس فى غيوب ذلك بأشياء ، وجرت أمور سنورد منها ما تيسر ، والله المستعان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز ، ثنا أبو عوانة ، ثنا حصين عن عمرو بن جاوان قال : قال الأحنف: انطلقنا حجاجا فمررنا بالمدينة ، فبينا نحن فى منزلنا إذ جاءنا آت فقال : الناس فى المسجد فانطلقت أنا وصاحبى ، فإذا الناس مجتمعون على نفر فى المسجد ، قال : فتخللتهم حتى قمت عليهم فإذا على بن أبى طالب والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص ، قال : فلم يكن ذلك بأسرع من أن جاء عثمان يمشى ، فقال : ههنا على ؟ قالوا : نعم ! قال : ههنا الزبير ؟ قالوا : نعم ! قال : ههنا طلحة ؟ قالوا : نعم ! قال : ههنا سعد بن أبى وقاص ؟ قالوا : نعم ! قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من يبتاع مربد[2] بنى فلان ـ غفر الله له ـ فابتعته ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى قد ابتعته ، فقال: « اجعله فى مسجدنا وأجره لك »؟ قالوا : نعم ! قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من

---

(١) بياض بالأصل، وفى الرياض النضرة وتاريخ الخميس : وروى عن عبد الله بن سلام أنه قال : لما حصر عثمان ولى أبا هريرة على الصلاة .

(٢) المربد : الجرين الذى يجفف فيه التمر وغيره ،والموضع الذى تحبس فيه الإبل وغيرها .

يبتاع بئر رُومة »؟ فابتعتها بكذا وكذا ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إنى قد ابتعتها - يعنى بئر رومة - قال : « اجعلها سِقايةً للمسلمين ولك أجرُها » ، قالوا : نعم ! قال : أنشُدُكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أنّ رسول الله ﷺ نظر فى وُجوه القوم يوم جَيش العُسْرة فقال : « مَن يُجَهِّز هؤلاء غفر الله له » فجهزتهم حتى ما يفقدون خِطاماً ولا عِقالاً ؟ قالوا : اللهم نعم ! فقال : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثم انصرف ، ورواه النسائى من حديث حصين، وعنده : إذ جاء رجل وعليه مُلاءة صفراء .

طريق أخرى : قال عبد الله بن أحمد : حدثنى عبد الله بن عمر القواريرى ، حدثنى القاسم بن الحكم بن أوس الأنصارى ، حدثنى أبو عبادة الزُّرَقى الأنصارى - من أهل المدينة - عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : شهدت عثمان يوم حُصِر فى موضع الجنائز ، ولو أُلقِى حَجَر لم يقع إلا على رأس رَجل ، فرأيت عثمان أشرف من الخوخة التى تَلِى مقام جبريل ، فقال: أيها الناس ! أفيكم طلحة؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس ! أفيكم طلحة؟ فسكتوا، ثم قال: أيها الناس! أفيكم طلحة؟ فقام طلحة بن عبيد الله ، فقال له عثمان : ألا أراك هٰهنا؟ ما كنت أرى أنك تكون فى جماعة قوم تسمع ندائى إلى آخر ثلاثِ مرات، ثم لا تجيبنى؟ أنشدك الله ياطلحة ! تذكر يوم كنتُ أنا وأنتَ مع رسول الله ﷺ فى موضع كذا وكذا ، ليس معه أحد من أصحابه غيرى وغيرك ؟ قال : نعم! قال : فقال لك رسول الله ﷺ : « يا طلحةُ ! إنّه ليس من نبىّ إلا ومعه من أصحابه رفيق من أمته معهُ فى الجنة ، وإن عثمان بن عفان هذا - يعنينى - رفيقى معى فى الجنة؟ » . فقال طلحة : اللهم نعم ! ثم انصرف ، لم يخرجوه .

طريق أخرى : قال عبد الله بن أحمد : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدَمىّ ، ثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، ثنا هلال بن حقٍّ الجُرَيرى، عن ثمامة بن حَزْن القشيرى ، قال : شهدت الدّار يوم أُصيب عثمان، فطلع عليه اطّلاعة ، فقال : ادعولى صاحبَيكم اللذين ألبَّاكم علىّ ، فدُعِيا له ، فقال: أنشدُكما الله : أتعلمان أنّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله ، فقال : مَنْ يشترى هذه البُقعة من خالص مالِه فيكون فيها كالمسلمين ، ولَه خير منها فى الجنة ؟ » فاشتريتها من خالص مالى فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعونى أن أصلى فيه ركعتين؟ ثم قال : أنشُدُكم الله ، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، لم يكن فيها بئر يُستعذَب منه إلا بئر رُومة؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ يشتريها من خالص ماله فيكون دَلوُه فيها كدِلاء المسلمين ، ولَه خير منها فى الجنة ؟ » فاشتريتها من خالص مالى ، وأنتم تمنعونى أن أشرب منها ؟ ثم قال : هل تعلمون أنى صاحب جَيْش العسرة؟ قالوا : اللهم نعم ! وقد رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن

الدارمى ، وعباس الدورى وغير واحد ، أخرجه النسائى عن زياد بن أيوب ـ كلهم عن سعيد ابن عامر عن يحيى بن أبى الحجاج المنقرى ، عن أبى مسعود الجريرى به ، وقال الترمذى: حسن.

طريق أخرى : قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، ثنا القاسم ـ يعنى ابن المفضل ـ ثنا عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبى الجعد قال : دعا عثمان رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيهم : عمار ابن ياسر ، فقال : إنى سائلكم وإنى أحب أن تصدقونى ، نشدتكم الله ! أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان يؤثر قريشاً على الناس ، ويؤثر بنى هاشم على سائر قريش ؟ فسكت القوم . فقال : لو أن بيدى مفاتيح الجنة لأعطيتها بنى أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم . فبعث إلى طلحة والزبير ، فقال عثمان : ألا أحدثكما عنه ـ يعنى عماراً ـ أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذا بيدى نتمشى فى البطحاء ، حتى أتى على أبيه وأمه وعليه يعذبون ، فقال أبو عمار : يا رسول الله ، الدهرَ هكذا ؟ فقال له النبى ﷺ اصبر ، ثم قال : « اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » تفرد به أحمد ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن سليمان بن مسلم ، أنا سلمة ، يذكر عن مطرف عن نافع عن ابن عمر ، أن عثمان أشرف على أصحابه وهو محصور ، فقال : علامَ تقتلونى؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دمُ امرىء إلا بإحدى ثلاث : رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم ، أو قتل عمداً فعليه القَوَد[1] ، أو ارتدّ بعد إسلامه فعليه القتل » ، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام ، ولا قتلت أحداً فأقيد نفسى منه ، ولا ارتددت منذ أسلمت ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . ورواه النسائى عن أحمد بن الأزهر عن إسحاق بن سليمان به .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، ثنا حماد بن زيد ، ثنا يحيى بن سعيد ، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : كنت مع عثمان فى الدار وهو محصور ، قال : وكنا ندخل مدخلا إذا دخلناه سمعنا كلام من على البلاط ، قال : فدخل عثمان يوماً لحاجته ، فخرج إلينا منتقعاً لونه ، فقال : إنهم ليتواعدونى بالقتل آنفاً . قال : قلنا : يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين ، قال : ولم يقتلونى؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس » فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط ، ولا تمنيت بدلاً بدينى منذ هدانى الله له ، ولا قتلت نفساً ، فيم يقتلونى ؟ .

---

(1) أى القصاص ، يقال : أقاد القاتل بالقتيل ـ قتله به .

وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد ، حدثني أبو أسامة . زاد النسائي: وعبد الله بن عامر بن ربيعة قالا : كنا مع عثمان ، فذكره . وقال الترمذي: حسن وقد رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد ، فرفعه .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو قَطَن ، ثنا يونس ـ يعنى ابن أبى إسحاق ـ عن أبيه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال : أنشُد بالله مَنْ شهد رسول الله ﷺ يوم حِراء إذ اهتز الجبل فركَلَهَ بقدمه ، ثم قال : « اسكن حِراء ليس عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد وأنا معه؟ فانتشد له رجال. ثم قال: أنشد بالله من شهد رسول الله يوم بيعة الرضوان ، إذ بعثنى إلى المشركين إلى أهل مكة قال : «هذه يَدِى وهذه يَدُ عثمان »، فبايَع لى ؟ فانتشد له رجال . ثم قال : أنشد بالله مَنْ شهد رسول الله قال : مَن يُوسع لنا بهذا البيت فى المسجد بنيتُ له بيتاً فى الجنة؟ فابتعتُه مِنْ مالى فوسّعت به المسجد ؟ فانتشد له رجال . ثم قال : أنشد بالله مَنْ شهد رسول الله يوم جَيش العسرة قال : « مَنْ يُنفق اليوم نفقة متقبَّلة » ؟ فجهزت نصف الجيش مِن مالى ؟ فانتشد له رجال . ثم قال : أنشد بالله مَنْ شهد رُومَة يباع ماؤها لابن السبيل، فابتعتها من مالى فأبحتُها لابن السبيل ؟ قال: فانتشد له رجال . ورواه النسائي عن عمران ابن بَكّار عن حطاب بن عثمان، عن عيسى بن يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه عن جده ـ أبى إسحاق السبيعى به .

وقد ذكر ابن جرير، أن عثمان رضى الله عنه، لما رأى ما فعل هؤلاء الخوارج من أهل الأمصار من مُحاصرته فى داره ، ومنعه الخروج إلى المسجد ـ كتب إلى معاوية بالشام ، وإلى ابن عامر بالبصرة، وإلى أهل الكوفة ، يستنجدهم فى بعث جيش يَطْردون هؤلاء من المدينة ؛ فبعث معاوية مَسلمة بن حبيب ، وانتدب يزيد بن أسد القشيرى فى جيش . وبعث أهل الكوفة جيشا . وأهل البصرة ، جيشا . فلما سمع أولئك بخروج الجيوش إليهم صمموا فى الحصار ، فما اقتربت الجيوش إلى المدينة، حتى جاءهم قتل عثمان رضى الله عنه كما سنذكره. وذكر ابن جرير، أنّ عثمان استدعى الأشتر النَّخَعى، ووضعت لعثمان وِسادة فى كُوّة من داره، فأشرف على الناس ، فقال له عثمان : يا أشتر ماذا يريدون ؟ فقال: إنهم يريدون منك: إما أن تَعزِل نفسك عن الإمرة،وإما أن تفتدى من نفسك من قد ضربته ـ أو جلدته ـ أو حبَسته ، وإما أن يقتلوك .

وفى رواية: أنهم طلبوا منه أن يَعزل نُوابه عن الأمصار ويُولى عليها من يريدون هم ، وإن لم يعزل نفسه ـ أن يسلم لهم مَرْوان بن الحكم فيعاقبوه ، كما زَوّر على عثمان كتابه إلى مصر . فخشى عثمان إن سلمه إليهم أن يقتلوه ، فيكون سبباً فى قتل امرىء مسلم ، وما فعل من الأمر

ما يستحق بسببه القتل . واعتذر عن الاقتصاص مما قالوا ـ بأنه رجل ضعيف البدن كبير السن . وأما ما سألوه من خلعه نفسه فإنه لا يفعل ولا ينزع قميصا قمصه الله إياه ، ويترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض، وقال لهم فيما قال : وأى شىء إلىّ من الأمر، إن كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عنه وليته ؟ وقال لهم فيما قال : والله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدا ، ولا تصلون جميعاً أبداً ، ولا تقاتلون بعدى عَدواً جميعاً أبداً ، وقد صدق رضى الله عنه فيما قال .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن بن مهدى ، ثنا معاوية بن صالح ، عن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن أبى قيس ، حدثنى النعمان بن بشير قال : كتب معى عثمان إلى عائشة كتاباً ، فدفعت إليها كتابه ، فحدثتنى أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول لعثمان : « إن الله لعله يُقمصك قميصا ، فإن أرادك أحد على خَلعه فلا تخلعه ، ثلاث مرات » قال النعمان : فقلت : يا أم المؤمنين ! فأين كنت عن هذا الحديث ؟ فقالت : يا بُنَىّ والله أنسيته . وقد رواه الترمذى من حديث الليث ، عن معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد عن عبدالله بن عامر عن النعمان عن عائشة به . ثم قال : هذا حديث حسن غريب . ورواه ابن ماجة من حديث الفرج بن فضالة عن ربيعة بن يزيد عن النعمان، فأسقط عبدالله بن عامر .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسماعيل ، ثنا قيس عن أبى سهلة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ادعو لى بعض أصحابى ، قلت: أبو بكر ؟ قال : لا ، قلت: عمر ؟ قال : لا ، قلت: ابن عمك على ؟ قال : لا ! قالت : قلت عثمان ؟ قال : نعم ! فلما جاء قال : تنحّى فجعل يُساره ولون عثمان يتغير ، فلما كان يوم الدار وحُصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟ قال : لا ! إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً وإنى صابر نفسى عليه » تفرد به أحمد . وقال محمد بن عائذ الدمشقى : حدثنا الوليد بن مسلم، ثنا عبدالله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو ، أنه سمع أبا ثور الفقيمى يقول : قدمت على عثمان ، فبينا أنا عنده فخرجت، فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا ، فدخلت على عثمان فأعلمته ، قال : فكيف رأيتهم ؟ فقلت : رأيت فى وجوههم الشر ، وعليهم ابن عُديس البلوى ، فصعد ابن عُديس منبر رسول الله ﷺ فصلى بهم الجمعة ، وتنقص عثمان فى خطبته ، فدخلت على عثمان فأخبرته بما قال فيهم ، فقال : كذب وَالله ابن عُديس ، ولو لا ما ذكر ما ذكرت ، إنى رابع أربعة فى الإسلام ، ولقد أنكحنى رسول الله ﷺ ابنته ، ثم توفيت فأنكحنى ابنته الأخرى ، ولا زنيت ولا سرقت فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت ، ولا مسست فرجى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ ولا أتت على جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت ، إلا أن لا أجدها

فى تلك الجمعة فأجمعها فى الجمعة الثانية . ورواه يعقوب بن سفيان من عبد الله بن أبى بكر ، عن ابن لهيعة ، قال : لقد اختبأت عند ربى عشراً ، فذكرهن .

فصل

كان الحصار مستمراً من أواخر ذى القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة ، فلما كان قبل ذلك بيوم ، قال عثمان للذين عنده فى الدار من المهاجرين والأنصار – وكانوا قريبا من سبعمائة ، فيهم: عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، والحسن والحسين ، ومروان ، وأبو هريرة ، وخلق من مواليه – ولو تركهم لمنعوه – فقال لهم : أقسم على مَن لى عليه حقٌ ، أن يكفَّ يده وأن ينطلق إلى منزله ، وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جم غفير ، وقال لرقيقه : من أغمد سيفه فهو حُرّ . فبرد القتال من داخل ، وحَمِى من خارج ، واشتد الأمر . وكان سبب ذلك : أن عثمان رأى فى المنام رُؤيا دلت على اقتراب أجله، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده ، وشوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليكون خير ابنى آدم، حيث قال حين أراد أخوه قتله : (إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)[1] وروى أنَّ آخِر مَن خرج من عند عثمان من الدار – بعد أن عزَم عليهم فى الخروج – الحسن بن على ، وقد خرج ، وكان أمير الحرب على أهل الدار: عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهم . وروى موسى بن عقبة عن سالم – أو نافع ، أن ابن عمر لم يلبس سلاحَه بعد رسول الله ﷺ إلا يوم الدار[2] ويوم نَجدة الحرورى[3] .

قال أبو جعفر الدارى، عن أيوب السختيانى عن نافع عن ابن عمر : إن عثمان رضى الله عنه أصبح يحدث الناس ، قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال : « يا عثمان أفطر عندنا » فأصبح صائما وقتل من يومه . وقال سيف بن عمر ، عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم ، عن رجل قال : دخل عليه كثير بن الصلت فقال : يا أمير المؤمنين! اخرج فاجلس بالفناء فيرى الناس وجهك فإنك إن فعلت ارتدعوا . فضحك وقال : يا كثير ، رأيت البارحة وكأنى دخلت على نبى الله وعنده أبو بكر وعمر ، فقال : « ارجع فإنك مُفطر عندى غدا » ثم قال عثمان : ولن تغيب الشمس والله

---

(١) الآية: ٢٩ من سورة المائدة.

(٢) الدار : اسم لمدينة الرسول عليه السلام :

(٣) نسبة إلى حروراء ، بلدة بظاهر الكوفة ونجدة هو : نجدة بن عامر الحنفى من الخوارج الذين قاتلهم سيدنا على .

غداً أو كذا وكذا ـ إلا وأنا من أهل الآخرة . قال: فوضع سعد وأبو هريرة السلاح وأقبلا حتى دَخلا على عثمان . وقال موسى بن عقبة : حدثنى أبو علقمة ـ مولى لعبدالرحمن بن عوف ـ حدثنى ابن الصلت قال : أغفى عثمان بن عفان فى اليوم الذى قتل فيه ، فاستيقظ فقال : لولا أن يقول الناس: تمنى عثمان أمنية لحدثتكم . قال : قلنا :أصلحك الله ، حدثنا ، فلسنا نقول ما يقول الناس ، فقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى منامى هذا ، فقال : « إنك شاهد معنا الجمعة » .
وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو عبدالرحمن القرشى ، ثنا خلف بن تميم ، ثنا إسماعيل بن إبراهيم ابن مهاجر البجلى ، ثنا عبدالملك بن عمير ، حدثنى كثير بن الصلت قال : دخلت على عثمان وهو محصور ، فقال لى : يا كثير ! ما أرانى إلا مقتولا يومى هذا قال : قلت : ينصرك الله على عدوك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم أعاد على فقلت : وقت لك فى هذا اليوم شىء ؟ أو قيل لك شىء ؟ قال : لا ! ولكنى سهرت فى ليلتى هذه الماضية ، فلما كان وقت السحر أغفيتُ إغفاءة فرأيت فيما يرى النائم رَسول الله ﷺ ، وأبا بكر وعمر ، ورسول الله ﷺ يقول لى : ياعثمان الحقنا لا تحبسنا ، فإنا ننتظرك » . قال : فقتل من يومه ذلك .

وقال[1] ابن أبى الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، ثنا يزيد بن هارون ، عن فرج بن فضالة عن مروان بن أبى أمية عن عبدالله بن سلام قال : أتيت عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال : مرحباً بأخى ، رأيت رسول الله ﷺ الليلة فى هذه الخوخة ـ قال : وخوخة فى البيت ـ فقال : « ياعثمان حصروك ؟ قلت : نعم ! قال : عطشوك ؟ قلت : نعم ! فأدلى دَلواً فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين ثَديى وبين كتفى ، وقال لى : إن شئت نُصرتَ عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده » ،فقتل ذلك اليوم.

وقال محمد بن سعد : أنا عفان بن مسلم، ثنا وهيب، ثنا داود عن زياد بن عبد الله، عن أم هلال بنت وكيع عن امرأة عثمان ـ قال : وأحسبها بنت الفرافصة ـ قالت : أغفى عثمان فلما استيقظ قال : إن القوم يقتلوننى ، قلت : كلا ياأمير المؤمنين . قال : إنى رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر ، فقالوا : افطر عندنا الليلة ، أو إنك مفطر عندنا الليلة . وقال الهيثم بن كليب : حدثنا عيسى بن أحمد العسقلانى، ثنا سبابة، ثنا يحيى بن أبى راشد ـ مولى عمر بن حريث ، عن محمد بن عبدالرحمن الحرشى . وعقبة بن أسد، عن النعمان بن بشير، عن نائلة بنت الفرافصة الكلبية ـ امرأة عثمان ـ قالت : لما حُصر عثمان ظل اليوم الذى كان فيه قتله صائماً ، فلما كان عند إفطاره سألهم الماء العذب فأبوا عليه ، وقالوا : دونك ذلك الرَّكِىّ[2] ورَكِىٌّ فى الدار الذى يلقى فيه النتن ـ

(١) كذا بالأصل، وفى عقد الجمان للبدر العينى. رواه ابن أبى الدنيا. وعن عبدالله ابن سلام...الخ .
(٢) الركى : جنس الركية وهى البئر .

قالت : فلم يفطر ، فرأيت جاراً على أحاجير متواصلة ـ وذلك فى السحر ـ فسألتهم الماء العذب ، فأعطونى كوزاً من ماء ، فأتيته فقلت : هذا ماء عذب أتيتك به ، قالت : فنظر فإذا الفجر قد طلع، فقال: إنى أصبحت صائماً ، قالت : فقلت: ومن أين ؟ ولم أر أحداً أتاك بطعام ولا شراب ؟ فقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ اطلع علىّ من هذا السقف ومعه دلو من ماء فقال : اشرب يا عثمان ، فشربت حتى رويت ، ثم قال : ازدد فشربت حتى نهلت ، ثم قال : أما إن القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلتهم ظفرت ، وإن تركتهم أفطرت عندنا ، قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه . . .

وقال أبو يعلى الموصلى، وعبدالله بن الإمام أحمد: حدثنى عثمان بن أبى شيبة،ثنا يونس بن أبى يعفور العبدى عن أبيه ، عن مسلم أبى سعيد ـ مولى عثمان بن عفان : أن عثمان أعتق عشرين مملوكا ودعا بسراويل فشدها ولم يلبسها فى جاهلية ولا إسلام ، وقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، وأبا بكر وعمر ، وأنهم قالوا لى : اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة ، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقتل وهو بين يديه. قلت: إنما لبس السراويل رضى الله عنه فى هذا اليوم، لئلا تبدو عورته إذا قتل، فإنه كان شديد الحياء ، كانت تستحيي منه ملائكة السماء ، كما نطق بذلك النبى ﷺ ، ورضع بين يديه المصحف يتلو فيه ، واستسلم لقضاء الله عز وجل ، وكف يده عن القتال ، وأمر الناس وعزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه ، ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه ، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً .

وقال هشام بن عروة عن أبيه : إن عثمان رضى الله عنه أوصى إلى الزبير . وقال الأصمعى عن العلاء بن الفضل عن أبيه، قال: لما قتل عثمان فتشوا خزانته فوجدوا فيها صندوقاً مقفلا ، ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : « هذه وصية عثمان . بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث من فى القبور، ليوم لاريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها يحيا وعليها يموت ، وعليها يبعث إن شاء الله تعالى » .

وروى ابن عساكر ، أن عثمان رضى الله عنه قال يوم دخلوا عليه فقتلوه :

أرى الموت لا يُبقى عزيزاً ولم يدع لعادٍ ملاذاً فى البلاد ومرتعا

وقال أيضاً :

يُبيَّت أهلُ الحصن والحصن مُغلق ويأتى الجبال الموت شمراخها العلا

صفة قتله رضي الله عنه

وقال خليفة بن خياط : حدثنا ابن علية، ثنا ابن عوف عن الحسن قال : أنبأني رباب ، قال : بعثني عثمان فدعوت له الأشتر فقال : مايريد الناس ؟ قال : ثلاث ليس من إحداهن بد ، قال : ماهنّ ؟ قال : يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختارُوا له من شئتم ، وبين أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك فقال : أما أن أخلع لهم أمرهم ، فما كنت لأخلع سربالاً سربَلَنيه الله، وأما أن اقتص لهم من نفسي، فوالله لئن قتلتموني لاتتحابون بعدي ولا تصلون بعدي جميعاً ، ولا تقاتلون بعدي جميعاً عدواً أبداً . قال : وجاء رُوَيجل كأنه ذئب ، فاطلع من باب ورجع ، وجاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلا ، فأخذ بلحيته فقال بها[1] حتى سمعت وقع أضراسه ، فقال : ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابنُ عامر ، وما أغنت عنك كتبك ! قال : أرسِل لحيتي يا ابنَ أخي ، قال : فأنا رأيته استعدَى رجلا من القوم بعينه - يعني أشار إليه - فقام إليه بمشْقَص[2] فوجأ به رأسه . قلت : ثم مه ؟ قال : ثم تماوَرُوا[3] عليه حتى قتلوه .

وقال سيف بن عمر التميمي - رحمه الله - عن العيص بن القاسم ، عن رجل عن خنساء - مولاة أسامة بن زيد - وكانت تكون مع نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان - أنها كانت في الدار ، ودخل محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته وأهوى بمشاقِصَ معه فيجأ بها في حلقه ، فقال : مهلا يا ابن أخي ، فوالله لقد أخذتَ مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به ، فتركه وانصرف مستحييا نادماً ، فاستقبله القوم على باب الصفة، فردهم طويلا حتى غلبوه فدخلوا، وخرج محمد راجعاً فأتاه رجل بيده جريدة يقدمهم حتى قام على عثمان فضرب بها رأسه فشجه، فقطر دمه على المصحف حتى لطخه ، ثم تماوروا عليه ، فأتاه رجل فضربه على الثدي بالسيف ، ووثبت نائلة بنت الفرافصة الكلبية فصاحت وألقت نفسها عليه ، وقالت : يا بنت شيبة ! أيقتل أمير المؤمنين ؟ وأخذت السيف ، فقطع الرجل يدها ، وانتهبوا متاع الدار ، ومر رجل على عثمان ورأسه مع المصحف ، فضرب رأسه برجله ونحاه عن المصحف وقال : ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن ولا مضجع كافر أكرم . قال: والله ما تركوا في داره شيئاً حتى الأقداح إلا ذهبوا به .

وروى الحافظ ابن عساكر ، أن عثمان لما عزم على أهل الدار في الانصراف ولم يبق عنده سوى

---

(١) أي مال بها وأقبل وعبر بذلك عن التهيؤ للأفعال والاستعداد لها

(٢) المشقص : نصل عريض أو طويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش ومعنى وجأ : ضرب

(٣) أي تداولوا وفي الطبري : تعاووا ، ومعناه : تعاونوا عليه .

أهله تسوّروا عليه الدار وأحرقوا الباب ودخلوا عليه ، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم ، إلا محمد بن أبي بكر ، وسبقه بعضهم فضربوه حتى غشيَ عليه ، وصاح النسوة فانزعروا وخرجوا ، ودخل محمد بن بكر ، وهو يظن أنه قد قتل ، فلما رآه قد أفاق قال : على أي دين أنت يا نعثل ؟ قال : على دين الإسلام ، ولست بنعثل ولكني أمير المؤمنين ، فقال : غيرت كتاب الله ، فقال : كتاب الله بيني وبينكم ، فتقدم إليه وأخذ بلحيته وقال : إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)[1] وشحطه بيده من البيت إلى باب الدار ، وهو يقول : يا ابن أخي ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي . وجاء رجل من كندة من أهل مصر ، يلقب حماراً ، ويكنى بأبي رومان . وقال قتادة : اسمه رومان ، وقال غيره : كان أزرق أشقر ، وقيل : كان اسمه سودان بن رومان[2] المرادي . وعن ابن عمر قال : كان اسم الذي قتل عثمان ـ أسود بن حمران، ضربه بحربة وبيده السيف صَلْتاً[3] قال : ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه[4] ، ثم وضع ذباب السيف في بطنه واتكأ عليه وتحامل حتى قتله ، وقامت نائلة دونه فقطع السيف أصابعها رضي الله عنها .

ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه . والصحيح أن الذي فعل ذلك غيره ، وأنه استحيى ، ورجع حين قال له عثمان : لقد أخذتَ بلحية كان أبوك يكرمها . فتذمّم من ذلك وغطى وجهه ورجع وحاجز دونه فلم يفد ، وكان أمرَ الله قدراً مقدوراً ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وروى ابن عساكر عن ابن عون ، أن كنانة بن بشر ضرب جبينه ومُقدّم رأسه بعمود حديد فخر لجنبيه . وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خر لجنبه فقتله ، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره ، وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منهن فلله ، وست لما كان في صدري عليه .

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي ، وإسحاق بن داود الصواف التستري قالا : ثنا محمد بن خالد بن خداش ، ثنا مسلم بن قتيبة ، ثنا مبارك عن الحسن قال : « حدثني سياف عثمان، أن رجلا من الأنصار دخل على عثمان فقال : ارجع يا ابن أخي فلستَ بقاتلي ، قال : وكيف علمت ذلك؟ قال: لأنه أتي بك النبي ﷺ يوم سابعك فحنّكك[5] ودعا لك بالبركة. ثم دخل عليه

---

(١) من الآية: ٦٧ من سورة الأحزاب (٢) في الطبري : ابن حمران .
(٣) الصلت : السيف الصقيل الماضي . (٤) أي : قتله مكانه .
(٥) حنك الصبي : مضغ تمرا أو نحوه فدلكه بحنكه .

رجل آخر من الأنصار فقال له مثل ذلك سواء . ثم دخل محمد بن أبي بكر فقال : أنت قاتلي . قال: وما يدريك يا نعثل ؟ قال : لأنه أتى بك رسول الله ﷺ يوم سابعك ليحنكك ويدعو لك بالبركة، فخرئت[1] على رسول الله ﷺ ، قال : فوثب على صدره وقبض على لحيته ، ووجأه بمشاقص كانت في يده » . هذا حديث غريب جداً وفيه نكارة . وثبت من غير وجه ، أن أول قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[2] ويروى أنه كان قد وصل إليها في التلاوة أيضاً حين دخلوا عليه ، وليس ببعيد ؛ فإنه كان قد وضع المصحف يقرأ فيه القرآن .

وروى ابن عساكر، أنه لما طعن قال : بسم الله توكلت على الله ، فلما قطر الدم قال : سبحان الله العظيم . وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده : أن المصريين وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر ، فيه الأمر بقتل بعضهم ، وصلب بعضهم ، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان ، متأولا قوله تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[3] وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ـ من جملة المفسدين في الأرض، ولاشك أنهم كذلك، ولكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزور على خطه وخاتمه ،ويبعث غلامه على بعيره ،بعد ما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين ، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر ، بخلاف ذلك كله .

ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب على خلاف ما وقع الاتفاق عليه ، وظنوا أنه من عثمان ، أعظموا ذلك ، مع ما هم مشتملون عليه من الشر ، فرجعوا إلى المدينة فطافوا به على رءوس الصحابة، وأعانهم على ذلك قوم آخرون ، حتى ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر عثمان رضي الله عنه ، فلما قيل لعثمان ـ رضي الله عنه ـ في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين ، حلف بالله العظيم ـ وهو الصادق البار الراشد ـ أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه ، ولا علم به ، فقالوا له : فإن عليه خاتمك . فقال : إن الرجل قد يزور على خطه وخاتمه . قالوا : فإنه مع غلامك وعلى جملك . فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك . فقالوا له ـ بعد كل مقالة ـ إن كنت قد كتبته فقد خنت ، وإن لم تكن قد كتبته بل كتب على لسانك وأنت لاتعلم ـ فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلافة ؛ إما لخيانتك، وإما لعجزك ، وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير ؛ فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب ـ وهو لم يكتبه في نفس الأمر ـ

(١) أي : سلحت . (٢) من الآية : ١٣٧ من سورة البقرة (٣) الآية : ٣٣ من سورة المائدة

لا يضره ذلك ، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة فى إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام . وأما إذا لم يكن قد علم به، فأى عجز ينسب إليه إذا لم يكن قد اطلع عليه وزوّر على لسانه ؟ وليس هو بمعصوم ، بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضى الله عنه .

وإنما هؤلاء الجهلةُ البغاة متعنتون خوَنة ، ظلَمة مفترون ، ولهذا صمموا بعد هذا على حصره والتضييق عليه ، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد ، وتهددوه بالقتل ، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به ؛ من توسعة المسجد وهو أول من مُنع منه ، ومن وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من مُنع ماءها ، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يحلّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث ؛ النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وذكر أنه لم يقتل نفسا ، ولا ارتدّ بعد إيمانه ، ولا زنى فى جاهلية ولا إسلام ، بل ولا مسّ فرجه بيمينه بعد أن بايع بها رسول الله ﷺ وفى رواية : بعد أن كتب بها المفصّل [1].

ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه، ما لعله ينجع فيهم بالكفّ عنه والرجوع إلى الطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منهم ، فأبوا إلا الاستمرارَ على ما هم عليه من البغى والعُدوان ، ومنعوا الناسَ من الدخول إليه والخروج من عنده ، حتى اشتدّ عليه الحال ، وضاق المجال ، ونفد ما عنده من الماء ، فاستغاث بالمسلمين فى ذلك ، فركب علىٌّ بنفسه وحَمل معه قرباً من الماء ، فبالجهد حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ ، وتنفير لدابّته ، وإخراق عظيم بليغ ، وكان قد زجرهم أتمّ الزجر ، حتى قال لهم فيما قال : والله إن فارس والرُّومَ لا يفعلون كفعلكم هذا بهذا الرجل، والله إنهم ليأسِرُون فيطعمون ويسقون ، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته فى وسط الدار . وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها ، فقالوا: ما جاء بك؟ فقالت: إنّ عنده وصايا بنى أمية ، لأيتام وأرامل ، فأحببت أن أذكره بها ، فكذبوها فى ذلك ، ونالها منهم شدة عظيمة وقطعوا حزام البغلة وندّت بها ، وكادت أو سقطت عنها ، وكادت تُقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابّتها ، ووقع أمر كبير جداً ، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم فى الخفية ليلا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً ، ولزم أكثرُ الناس بيوتهم ، وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين عائشة فى هذه السنة إلى الحج ، فقيل لها : إنك لو أقمت كان أصلح ، لعلّ هؤلاء القوم يهابونك ، فقالت : إنى أخشى أن أشيرَ عليهم برأى فينالنى منهم من الأذية ما نال أم حبيبة ، فعزمت على الخروج . واستخلف عثمان رضى الله عنه فى هذه السنة على الحج عبدَ الله بن عباس ،

(١) المفصل من القرآن : من الحجرات إلى آخره على الصحيح . وعن النواوى : من الجاثية أو القتال ــ أوقاف وقيل : من الصافات ــ أو الصف ــ أوتبارك . وقيل غير ذلك « انظر القاموس »

فقال له عبد الله بن عباس : إنّ مقامى على بابك أحاجِف⁽¹⁾ عنك أفضل من الحج ، فعزم عليه ، فخرج بالناس إلى الحج واستمرّ الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع البشير من الحج ، فأخبر بسلامة الناس ، وأخبر أولئك بأنّ أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفّوكم عن أمير المؤمنين . وبَلَغهم أيضاً أن معاوية قد بعث جيشاً مع حبيب بن مَسلمة ، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أنفذ آخر مع معاوية بن خديج ، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو ، وأن أهلَ البصرة بعثوا مُجاشعاً . فعند ذلك صمّموا على أمرهم وبالغوا فيه ، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغَيْبتهم فى الحج ، وأحاطوا بالدار ، وجَدّوا فى الحصار ، وأحرقوا الباب ، وتسوّرُوا من الدار المتاخمة للدار ، كدار عَمرو بن حزم وغيرها ، وحاجَف الناس عن عثمان أشد المحاجفة ، واقتتلوا على الباب قتالا شديداً ، وتبارَزُوا وتَراجزوا بالشعر فى مبارزتهم ، وجعل أبو هريرة يقول : هذا يوم طاب امضَرْبُ⁽²⁾ . وقتل طائفة من أهل الدار، وآخرون من أولئك الفُجّار ، وجُرح عبد الله بن الزبير جراحات كثيرة ، وكذلك جُرح الحسنُ بن علىّ ، ومروان ابن الحكم ، فقطع إحدى عِلباوَيه⁽³⁾ فعاش أوقصَ⁽⁴⁾ حتى مات .

ومن أعيان من قتل من أصحاب عثمان : زياد بن نُعيم الفهرى ، والمُغيرة بن الأخنس بن شُريق ، ونيار بن عبد الله الأسلمى ، فى أناس وقت المعركة ، ويقال إنه انهزم أصحاب عثمان ثم رجعوا .

ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم، فانصرفوا كما تقدم، فلم يبق عنده أحدٌ سوى أهله ، فدخلوا عليه من الباب ومن الجدران ، وفزع عثمان إلى الصّلاة وافتتح سورة طٰه ، وكان سريع القراءة ـ فقرأها والناس فى غلبة عظيمة ، قد احترق الباب والسقيفة التى عنده وخافوا أن يَصل الحريق إلى بيت المال . ثم فرغ عثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصحف ، وجعل يتلو هذه الآية: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)⁽⁵⁾ فكان أول من دخل عليه رجل يقال له: الموت الأسود فخنقه خنقاً شديداً حتى غشى عليه ، وجعلت نفسه تتردّد فى حلقه ، فتركه وهو يظن أنه قد قتله ، ودخل ابن أبى بكر فمسك بلحيته ثم ندّ وخرج ، ثم دخل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها ؛ فقيل : إنه أبانها ، وقيل : بل قطعها ولم يبنها ، إلا أن عثمان قال : والله إنها

---

(١) أى : أقاتل وأعارض والمحاجف :صاحب الحجفة، وهى الترس من جلد بلاخشب، والصدر .
(٢) أى : طاب الضرب والقتل ـ أى حل القتال ، فأبدلت لام التعريف ميا، وهى لغة حمير .
(٣) العلباء : عصبة صفراء فى صفحة العنق . (٤) الأوقص : القصير العنق .
(٥) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

أول يد كتبت[1] المفصّل ، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم) ثم جاء آخر شاهراً سيفه فاستقبلته نائلة بنت الفَرافِصة لتمنعه ، وأخذت السيف ، فانتزعه منها فقطعَ أصابعها .

ثم إنه تقدّم إليه فوضع السيف فى بَطنه فتحامل عليه ، رضى الله عن عثمان . وفى رواية أن الغافِقىّ بن حَرْب تقدّم إليه بعد محمد بن أبى بكر فضربه بحديدة فى فِيه ، ورَفَس المصحف الذى بين يديه برجله ، فاستدار المصحف ، ثم استقر بين يَدَى عثمان رضى الله عنه ، وسالت عليه الدماء . ثم تقدم سُودان بن حُمْرَان بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها ، فولّت فضرب عجيزتها بيده وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمانَ فقتله ، فجاء غلام عثمان فضرب سُودان فقتله ، فضرب الغلامَ رجل يقال له: قُتَيرةَ فقتله .

وذكر بن جرير : أنهم أرادوا حزّ رأسه بعد قتله ، فصاح النساء وضربْنَ وجوههن ، فيهن امرأتاه: نائلة وأم البنين ، وبناته ، فقال ابن عُديس: اتركوه ، فتركوه . ثم مال هؤلاء الفجرة على ما فى البيت فنهبوه ، وذلك أنه نادى منادٍ منهم : أيحلّ لنا دَمُه ولا يَحل لنا ماله ! فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه . فلما خرجوا إلى صحن الدار وثب غلام لعثمان على قُتيرةَ فقتله ، وجعلوا لايمرون على شىء إلا أخذوه حتى استلب رجل يقال له: كلثوم التُّجيبى[2] مُلاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فقتله ، وقتل الغلام أيضاً ، ثم تنادى القوم : أن أدركوا بيت المال لا تُسْبقوا إليه ، فسمعهم حفظة بيت المال فقالوا : يا قوم ! النَّجا النَّجا ، فإن القوم إنما يحاولون الدنيا ، فانهزموا وجاء الخوارج فأخذوا مال بيت المال ، وكان فيه شىء كثير جداً .

فصل

ولما وقع هذا الأمر العظيم ، الفظيع الشنيع ، أسقط فى أيدى الناس ، فأعظموه جداً ، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا ، وأشبهوا مَنْ تقدمهم ممن قصّ الله علينا خبرهم فى كتابه العزيز ، من الذين عبدوا العجل ، فى قوله تعالى : (وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين)[3] .

ولما بلغ الزبير مقتلَ عثمان ــ وكان قد خرج من المدينة ــ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم ترحّم على عثمان ، وبلغه أن الذين قتلوه نَدِموا ، فقال : تباً لهم ، ثم تلا قوله تعالى :

(١) فى الطبرى : خطت بدل كتبت .

(٢) فى القاموس : تجيب ــ بالضم ويفتح ــ بطن من كندة . منهم : كنانة بن بشر التجيبى قاتل عثمان رضى الله عنه

(٣) الآية : ١٤٩ من سورة الأعراف .

(مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيحةً واحدةً تأخُذُهم وهم يَخِصِّمُون • فَلاَ يَستَطِيعُون توصيةً وَلاَ إِلى أَهْلِهِم يَرْجِعُون)[1]. وبلغ علياً قتله فترحم عليه . وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى : (كَمَثَلِ الشَّيطانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسانِ اكْفُرْ فَلمّا كَفَرَ قال إِنّي بَرِىءٌ منكَ إِنّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالمين)[2] ولما بلغ سعد بن أبى وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه ، وتلا فى حق الذين قتلوه : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بالأخسَرِينَ أَعمالاً • الّذِين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدُّنيا وهُمْ يَحسَبُون أنّهم يُحسِنُونَ صُنْعاً)[3] ثم قال سعد : اللهم أندمهم ثم خذهم . وقد أقسم بعض السَّلف بالله إنه ما مات أحدٌ من قتلة عثمان إلا مقتولا . رواه ابن جرير .

وهكذا ينبغى أن يكون لوجوه ، منها : دعوة سعد المستجابة ، كما ثبت فى الحديث الصحيح وقال بعضهم : ما مات أحدٌ منهم حتّى جُنَّ . وقال الواقدى : حدثنى عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن عبد الرحمن بن الحارث قال : الذى قتل عثمان - كنانة بن بشر بن عتاب التُّجِيبىّ . وكانت امرأة منظور بن سيار الفزارى تقول : خرجنا إلى الحج وما علمنا لعثمان بقتل ، حتى إذا كنَّا بالعرج سمعنا رجلا يتغنّى تحت الليل .

ألا إنَّ خَيْرَ الناس بعد ثلاثة قتيل التُّجِيبىِّ الذى جاء من مِصْرِ

ولما رجع الحجج وجدوا عثمان رضى الله عنه قد قُتل ، وبايع الناس على بن أبى طالب رضى الله عنه . ولما بلغ أمهات المؤمنين فى أثناء الطريق أن عثمان قد قتل ، رَجَعْنَ إلى مكةَ فأقمن بها نحواً من أربعة أشهر ، كما سيأتى .

فصل

كانت مدة حصار عثمان رضى الله عنه فى داره أربعين يوماً على المشهور ، وقيل : كانت بضعاً وأربعين يومًا ، وقال الشعبى : كانت ثنتين وعشرين ليلة . ثم كان قتله رضى الله عنه فى يوم الجمعة بلا خلاف . قال سيف بن عمر عن مشايخه : فى آخر ساعة منها ، ونص عليه مصعب بن الزبير وآخرون . وقال آخرون : ضحوة نهارها ، وهذا أشبه، وكان ذلك لثمانى عشر ليلة خلت من ذى الحجة على المشهور ، وقيل: فى أيام التشريق رواه ابن جرير : حدثنى أحمد بن زهير، ثنا أبو خيثمة، ثنا وهب بن جرير ، سمعت يونس عن يزيد عن الزهرى قال : قتل عثمان ، فزعم بعض الناس أنه قتل فى أيام التشريق ، وقال بعضهم : قتل يوم الجمعة لثلاث خلت من ذى الحجة

(١) الآيتان : ٤٩ - ٥٠ من سورة يس (٢) الآية : ١٦ من سورة الحشر .
(٣) الآيتان : ١٠٣ - ١٠٤ من سورة الكهف .

وقيل قتل يوم الـ ، حكاه ابن عساكر ، ويستشهد له بقول الشاعر :

ضحّوا بأشمط عُنوان السجود به يقطّع الليــل تسبيحاً وقرآنا

قال : والأول هو الأشهر ، وقيل إنه قتل يوم الجمعة ، لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين على الصحيح المشهور ، وقيل سنة ست وثلاثين ، قال مصعب بن الزبير وطائفة : وهو غريب . فكانت خلافته ثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً ؛ لأنه بويع له فى مستهل المحرم سنة أربع وعشرين . فأما عمره رضى الله عنه فإنه جاوز ثنتين وثمانين سنة ، وقال صالح بن كيسان : توفى عن ثنتين وثمانين سنة وأشهراً ، وقيل : أربع وثمانون سنة ، وقال قتادة : توفى عن ثمان وثمانين أو تسعين سنة . وفى رواية عنه : توفى عن ست وثمانين سنة . وعن هشام بن الكلبى : توفى عن خمس وسبعين سنة ، وهذا غريب جداً . وأغرب منه ما رواه سيف بن عمر عن مشايخه ـ وهم: محمد وطلحة وأبو عثمان ، وأبو حارثة ـ أنهم قالوا : قتل عثمان رضى الله عنه عن ثلاث وستين سنة .

وأما موضع قبره فلا خلاف أنهُ دفن بحَشّ كوكب ـ شرق البقيع ـ وقد بُنى عليه زمان بنى أمية قُبةٌ عظيمة وهى باقية إلى اليوم . قال الإمام مالك رضى الله عنه : بلغنى أن عثمان رضى الله عنه كان يَمرُّ بمكان قبره من حَشّ كوكب فيقول : إنه سيدفن هٰهنا رجل صالح .

وقد ذكر ابن جرير : أن عثمان رضى الله عنه بقى بعد أن قُتل ثلاثةَ أيام لا يُدفن . قلت : وكأنه اشتغل الناس عنه بمبايعة علىّ رضى الله عنه حتى تمّت ، وقيل : إنه مكث ليلتين ، وقيل بل دفن من ليلته ، ثم كان دفنه ما بين المَغرب والعشاء خفية من الخوارج ، وقيل بل استؤذن فى ذلك بعض رؤساءهم . فخرجوا به فى نفر قليل من الصحابة ، فيهم : حَكيم بن حزام ، وحُويطب بن عبد العُزّى ، وأبو الجهم بن حُذيفة ، ونِيار بن مكرم الأسلمىّ ، وجُبير بن مطعم ، وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وطَلحة ، والزبير ، وعلىّ بن أبى طالب ، وجماعة من أصحابه ونسائه ، منهن امرأتاه : نائلة وأم البنين بنت عبد الله بن حصين ، وصبيان . ـ وهذا مجموع من كلام الواقدى وسيف بن عمر التيمى ـ وجماعة من خَدمه حملوه على باب ، بعد ما غسّلوه وكفّنوه . وزعم بعضهم : أنه لم يُغسل ولم يكفّن ، والصحيح الأول .

وصلى عليه جبير بن مطعم ، وقيل : الزُّبير بن العوام ، وقيل : حَكيم بن حِزام ، وقيل مروان ابن الحكم ، وقيل : المِسْوَر بن مخرمة ، وقد عارضه بعض الخوارج وأرادوا رَجْمه ، وإلقاءه عن سريره ، وعزموا على أن يُدفن بمقبرة اليهود بدير سَلْع ، حتى بعث علىّ رضى الله عنه إليهم مَنْ نهاهم عن ذلك . وحمل جنازته حَكيم بن حزام ، وقيل : مروان بن الحكم ، وقيل : المِسْور بن مخرمة ، وأبو جَهم بن حُذيفة ، ونيار بن مكرم ، وجُبير بن مطعم . وذكر الواقدى أنه لما وُضع ليصلّى عليه

ـ عند مُصلَّى الجنائز ـ أراد بعض الأنصار أن يمنعهم من ذلك ، فقال أبو جهم بن حذيفة : ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته ، ثم قالوا : لا يُدفن فى البقيع ولكن ادفنوه وراء الحائط ، فدفنوه شرقيّ البقيع تحت نخلات هناك .

وذكر الواقدى ، أنّ عُمير بن ضابىء نزا على سريره وهو موضوع للصلاة عليه ، فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : حبَسْت ضابئاً حتى ماتَ فى السجن . وقد قتل الحجاجُ فيما بعد عُميرَ ابن ضابىء هذا . وقال البخارى فى التاريخ : حدثنا موسى بنُ إسماعيل ، عن عيسى بن منهال ، ثنا غالب عن محمد بن سيرين قال : كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول : اللهم اغفرلى ، وما أظن أن تغفر لى ، فقلت : يا عبد الله ! ما سمعت أحداً يقول ما تقول ، قال : كنت أعطيت لله عهداً إن قدرتُ أن ألطم وَجْه عثمان إلا لَطمته ، فلما قُتِل وُضع على سريره فى البيت والناس يجيئون يُصَلُّون عليه ، فدخلتُ كأنى أصلى عليه ، فوجدت خلوة فرفعت الثوبَ عن وَجْهه ولحيته وقد يبست يمينى . قال ابن سيرين : فرأيتها يابسة كأنها عُود . ثم أخرجوا عَبدى عثمان اللذين قُتِلا يوم الدار ، وهما : صُبيح ونُجيح ـ رضى الله عنهما ـ فدفنا إلى جانبه بحَشّ كوكب ، وقيل : إن الخوارج لم يمكنوا من دفنهما ، بل جَرّوهما بأرجلهما حتى ألقوهما بالبَلاط فأكلتهما الكلاب . وقد اعتنى معاوية فى أيام إمارته بقبر عثمان ، ورفع الجدار بينه وبين البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حوله .

ذكر صفته رضى الله عنه

كان رضى الله عنه حسن الوجه ، دقيق البشرة ، كبير اللحية ، معتدل القامة ، عظيم الكراديس،[1] بعيد ما بين المنكبين ، كثير شعر الرأس ، حسن الثغر ، فيه سُمرة . وقيل كان فى وجهه شىء من آثار الجُدَرِيّ ، رضى الله عنه . وعن الزهرى : كان حسن الوجه والثغر ، مربوعاً ، أصلع ، أرْوَح[2] الرجلين . وقال الواقدى : حدثنا ابن أبى سبرة عن سعيد بن أبى يزيد عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ـ ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، ومائة ألف دينار ، فانتُهبت وذهبت . وترك ألفَ بعير بالرَّبذة ، وترك صدقات كان تصدق بها : بئر أريس ، وخيبر ، ووادى القرى ، فيه مائتا ألف دينار ، وبئر رُومة ، كان اشتراها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسبَّلها .

---

(١) الكراديس : جمع كردوس ، وهو كل عظمين التقيا فى مفصل (٢) أى : متفرج ما بينهما

فصل

قال الأعمش ، عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال : أول الفتن قتلُ عثمان ، وآخر الفتن الدّجّال . وروى الحافظ بن عساكر من طريق سياه ، عن حفص بن مورق الباهلي ، عن حجاج ابن أبي عمار الصواف ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : أول الفتَن قتل عثمان ، وآخر الفتَن خروج الدّجّال، والذى نفسى بيده لا يموت رجل وفى قلبه مثقال حَبّة من حُبّ قتل عثمان ـ إلا تبع الدّجّال إن أدركه ، وإن لم يدركه آمن به فى قبره . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا وغيره : أنا محمد ابن سعد، أنا عمرو بن عاصم الكلابي ، ثنا أبو الأشهب ، حدثنى عوف عن محمد بن سيرين ، أن حذيفة بن اليمان قال : اللهم إن كان قتل عثمان بن عفان خيراً ـ فليس لى فيه نصيب ، وإن كان قتله شراً ـ فأنا منه برىء ، والله لئن كان قَتْلُه خيراً ليحلبنّه لبناً ، وإن كان قتله شراً ليمتص به دَماً . وقد ذكره البخارى فى صحيحه .

طريق أخرى عنه : قال محمد بن عائذ : ذكر محمد بن حمزة ، حدثنى أبو عبد الله البحرانى ، أن حُذيفة بن اليمان فى مرضه الذى هلك فيه ، كان عنده رجل من إخوانه وهو يناجى امرأته ، ففتح عينيه فسألهما فقالا خيراً ، فقال : إنّ شيئاً تسرانه دُونى ما هو بخير ، قال : قُتِل الرجل ـ يعنى عثمان ـ قال : فرجّع ثم قال : اللهم إنى كنت من هذا الأمر بمَعْزل ، فإن كان خيراً فهو لمن حضره وأنا منه برىء ، وإن كان شراً فهو لمن حضره وأنا منه برىء . اليوم تغيرت القلوب يا عثمان ، الحمد لله الذى سبق بى الفتَن ، قادبها وعلوجها الخطى ، من يروى بغيره يشبع شحما وقد عله . وقال الحسن بن عرفة : ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية، عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أبى موسى الأشعرى ، قال : لو كان قتلُ عثمان هدًى لاحتلبَت به الأمة لَبنا ، ولكنه كان ضلالاً فاحتلبت به الأمة دَماً ، وهذا منقطع . وقال محمد بن سعد : أنا حازم ابن الفضل ، أنا الصّمق بن حزن ، ثنا قتادة عن زهدم الجرمى قال : خطب ابن عباس فقال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرُمُوا بالحجارة من السماء . وقد روى من غير هذا الوجه عنه .

وقال الأعمش وغيره ، عن ثابت بن عبيد عن أبى جعفر الأنصارى ، قال : لما قتل عثمان جئت علياً وهو جالس فى المسجد وعليه عمامة سوداء ، فقلت له : قُتل عثمان ، فقال : تبّاً لهم آخرَ الدّهر . وفى رواية : خيبةً لهم . وقال أبو القاسم البغوى : أنبأنا علىّ بن الجعد ، أنا شريك عن عبد الله بن عيسى ، عن ابن أبى ليلى ، قال : سمعت علياً وهو بباب المسجد ـ أو عند أحجار الزيت رافعا صوته ، يقول : اللهم إنى أبرأ إليك من دَم عثمان . وقال أبو هلال عن قتادة عن الحسن ، قال : قُتل عثمان وعلىٌّ غائب فى أرض له ، فلما بلغه قال : اللهم إنى لم أرض ولم أُمالىء .

وروى الربيع بن بدر عن سيار بن سلامة، عن أبي العالية : أنّ علياً دخل على عثمان فوقع عليه وجعل يبكي حتى ظنّوا أنه سيلحق به . وقال الثوري وغيره، عن طاووس عن ابن عباس قال : قال عليّ يوم قتل عثمان : والله ما قتلت ولا أمرتُ ولكنّي غُلِبت . ورواه غير ليث عن طاووس عن ابن عباس عن علي نحوه . وقال حبيب بن أبي العالية ، عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : قال عليّ : إن شاء الناس حلفتُ لهم عند مقام إبراهيم بالله ما قتلتُ عثمان ولا أمرتُ بقتله ، ولقد نهيتهم فعصوني - وقد روى من غير وجه عن عليّ بنحوه . وقال محمد بن يونس الكديمي : ثنا هارون بن إسماعيل، ثنا قرة بن خالد، عن الحسن عن قيس بن عباد قال : سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان ، وأنكرتُ نفسي ، وجاءوني للبيعة فقلت : والله إني لأستحيي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ : «إني لأستحيي ممن تستحي منه الملائكة»[1] وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيلٌ في الأرض لم يُدفنَ بعد ، فانصرفوا . فلما دُفن رجع الناس يسألوني البيعة فقلت : اللهم إني أشفق مما أقدم عليه ، ثم جاءت عَزْمة فبايعت . فلما قالوا : أمير المؤمنين، كان صدع قلبي واسكت.

وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر بجمع الطرق الواردة عن عليّ أنه تبرأ من دم عثمان ، وكان يقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمَرَ بقتله ، ولا مالأ ولا رضي به ، ولقد نهى عنه فلم يسمعوا منه . ثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث ولله الحمد والمنة . وثبت عنه أيضا من غير وجه أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)[2] وثبت عنه أيضاً من غير وجه أنه قال: كان من الذين (آمنوا وعَملوا الصالحات ثم اتقَوا وآمَنُوا ثم اتقَوْا وأحْسَنوا)[3] وفي روايه أنه قال : كان عثمان رضي الله عنه خيرنا وأوصلَنا للرحم ، وأشدنا حياء ، وأحسننا طهوراً ، وأتقانا للرب عز وجل . وروى يعقوب بن سفيان عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد عن مجالد عن عمير بن رودى أبي كثير قال : خطب عليّ فقطع الخوارج عليه خطبته، فنزل فقال : إن مَثَلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة ، أحمر، وأبيض، وأسود، ومعهم في أجمة أسد، فكان كلما أراد قتلَ أحدهم منعه الآخران ، فقال للأسود والأحمر : إن هذا الأبيض قد فضحنا في هذه الأجمة، فخليا عنه حتى آكله ، فخليا عنه فأكله . ثم كان كلما أراد أحدَهما منعه الآخر ، فقال للأحمر : إن هذا الأسود قد فضحنا في هذه الأجمة ، وإن لوني على لَوْنِكَ ، فلو خليت عنه أكلته ، فخلى عنه الأحمر فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلك ، فقال : دعْني حتى أصيح ثلاث طيحات ، فقال : دونك ، فقال : ألا إني إنما أكلتُ يوم أكل الأبيض ثلاثا . ثم قال علي :

---

(١) يقال : استحييت - بياءين - لغة أهل الحجاز ، واستحيت - بياء واحدة - لغة تميم .
(٢) الآية : ٤٧ من سورة الحجر . (٣) من الآية : ٩٣ من سورة المائدة .

وإنما أنا وهَنْتُ يومَ قتل عثمان ، قالها ثلاثا . وروى ابن عساكر من طريق محمد بن هارون الحضرمى ، عن سويد بن عبد الله القشيرى القاضى ، عن ابن مهدى ، عن حماد بن زيد، عن يحيى ابن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : كانت المرأة تجيء فى زمان عثمان إلى بيت المال فتحمل وَقْرها وتقول : اللهم بدّل ، اللهم غيّر ، فقال حسان بن ثابت حين قُتل عثمان رضى الله عنه :

قلتمُ بدّل فقد بدّلكم سنّة حرّى وحربا كاللهب

ما نقمتم من ثياب خلفة وعبيـــد وإماء وذهب

قال : وقال أبو حميد أخو بنى ساعدة ـ وكان ممن شهد بدراً ، وكان ممن جانب عثمان ـ فلما قتل قال : والله ما أردنا قتله ، ولا كنّا نرى أن يبلغ منه القتل ، اللهم إنّ لك علىّ أن لا أفعل كذا وكذا، ولا أضحك حتى ألقاك . وقال محمد بن سعد : أنا عبد الله بن إدريس ، أنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم ، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، قال : لقد رأيتنى وأنّ عُمر مُوثقى وأخته على الإسلام ، ولو ارفض أحـد فيما صنعتم بابن عفان لـكان حقيقاً . وهكذا رواه البخارى فى صحيحه وروى محمد بن عائذ ، عن إسماعيل بن عياش عن صفوان ابن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير ، قال : سمع عبد الله بن سَلام رجلا يقول لآخر : قتل عثمان ابن عفان فلم ينتطح فيه عَنْزان . فقال ابن سلام : أجل ! إن البَقر والمَعز لا تنتطح فى قتل الخليفة ، ولـكن ينتطح فيه الرّجال بالسلاح، والله ليقتتلن به أقوام، إنهم لفى أصلاب آبائهم ما وُلدوا بعد . وقال ليث عن طاووس ، قال ابن سلام : يحـكّم عثمان يوم القيامة فى القاتل والخاذل . وقال أبو عبد الله الحاملى: ثنا أبو الأشعث، ثنا حزم بن أبى حزم، سمعت أبا الأسود يقول: سمعت أبا بكرة يقول : لأن أخِرّ من السماء إلى الأرض، أحبّ إلىّ من أن أشرك فى قتل عثمان .

وقال أبو يعلى : ثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، ثنا محمد بن عباد الهنائى، ثنا البراء ابن أبى فضال ثنا الحضرمى عن أبى مريم رضيع الجارود ، قال : كنت بالـكوفة فقام الحسن بن على خطيباً فقال : أيها الناس ! رأيت البارحة فى منامى عجبا ، رأيت الرّب تبارك وتعالى فوق عَرْشه ، فجاء رسول الله ﷺ حتى قام عند قائمة من قوائم العرش ، فجاء أبو بكر فوضع يده على منـكب النبى ﷺ ثم جاء عمر فوضع يده على منـكب أبى بكر ، ثم جاء عثمان فـكان بيده ـ يعنى رأسه ـ فقال : ربِّ سَل عبادك فيم قتلونى ؟ فانبعث من السماء ميزابان من دَمٍ فى الأرض ، قال : فقيل لعلى : ألا ترى ما يحدث به الحسن ؟ فقال : حدّث بما رأى . ورواه أبو يعلى أيضا ، عن سفيان بن وكيع عن جميع بن عمير ، عن عبد الرحمن بن مجالد ، عن حرب العجلى : سمعت الحسن بن على يقول :

ما كنت لأماثل بعد رؤيا رأيتها ؛ رأيت العرش ورأيت رسول الله ﷺ متعلقا بالعرش ، ورأيت أبا بكر واضعا يده على منكب رسول الله ، وكان عمر واضعا يده على منكب أبي بكر ، ورأيت عثمان واضعا يده على منكب عمر ، ورأيت دماً دونهم ، فقلت : ما هذا ؟ فقيل : دم عثمان يطلب الله به . وقال مسلم بن إبراهيم : ثنا سلام بن مسكين ، عن وهب بن شبيب ، عن زيد بن صوحان أنه قال : يوم قتل عثمان نفرت القلوب منافرها ، والذي نفسي بيده لا تتألف إلى يوم القيامة . وقال محمد بن سيرين : قالت عائشة : مصصتموه[1] مصّ الإناء ثم قتلتموه . وقال خليفة بن خياط : ثنا أبو قتيبة ، ثنا يونس بن أبي إسحاق عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : قالت عائشة : غضبت لكم من السوط ولا أغضب لعثمان من السيف ، استعتبتموه حتى إذا تركتموه كالقلب المصفّى قتلتموه .

وقال أبو معاوية ، عن الأعمش عن خيثمة عن مسروق قال : قالت عائشة حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقيّ من الدنس ثم قتلتموه . وفي رواية : ثم قربتموه ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش . فقال لها مسروق : هذا عملك ، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه ، فقالت : لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ؛ ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كُتِب على لسانها . وهذا إسناد صحيح إليها . وفي هذا وأمثاله دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الخوارج ـ قبحهم الله ـ زوّروا كتبا على لسان الصحابة إلى الآفاق ، يحرضونهم على قتال عثمان ، كما قدمنا بيانه ، ولله الحمد والمنة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا حزم القطعي ، ثنا أبو الأسود بن سوادة ، أخبرني طلق بن حسان قال : قتل عثمان فتفرقنا في أصحاب محمد ﷺ نسألهم عن قتله ، فسمعت عائشة تقول : قتل مظلوماً لعن الله قتلته . وروى محمد بن عبد الله الأنصاري ، عن أبيه ، عن ثمامة عن أنس قال : قالت أم سليم لما سمعت بقتل عثمان رحمه الله : أما إنه لم يحلبوا بعده إلا دماً .

وأما كلام أئمة التابعين في هذا الفصل فكثير جداً يطول ذكرنا له ؛ فمن ذلك قول أبي مسلم الخولاني حين رأى الوفد الذين قدموا من قبله : أما مررتم ببلاد ثمود ؟ قالوا : نعم ! قال : فأشهد أنكم مثلهم ، لخليفة الله أكرمُ عليه من ناقته . وقال ابن علية ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن قال : لو كان قتل عثمان هُدًى لاحتلبت به الأمة لبناً ، ولكنه كان ضلالا فاحتلبت به الأمة دماً . وقال أبو جعفر الباقر : كان قتل عثمان على غير وجه الحق .

---

(١) في نسخة : مصصموه مص الإناء .

وهذا ذكر بعض مارثى به رضى الله عنه

قال مجالد عن الشعبي : ما سمعت من مراثى عثمان أحسن من قول كعب بن مالك :

فكفَّ يديه ثم أغلق بابَه ... وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار : لا تقتلوهم ... عفا الله عن كلِّ امرىء لم يقاتل

فكيف رأيت الله صبَّ عليهم الـ ... ـعداوة والبغضاء بعد التواصُل

وكيف رأيت الخير أدبرَ بعده ... عن الناس إدبار النعام الجوافل

وقد نسب هذه الأبيات سيف بن عمر إلى أبي المغيرة الأخنس بن شريق . وقال سيف بن عمر : وقال حسان بن ثابت :

ماذا أردتم من أخى الدين باركت ... يدُ الله فى ذاك الأديم المقدَّد

قتلتم ولىَّ الله فى جوف داره ... وجئتم بأمر جائر غير مُهتَد

فهلا رعيتم ذِمّة الله بينكم ... وَأوفيتم بالعهد عهدِ محمد

ألم يك فيكم ذا بلاء ومصدق ... وَأوفا كم عهداً لدَى كل مشهد

فلا ظفرت أيمان قوم تبايعوا ... على قتل عثمان الرشيد المسدد

وقال ابن جرير : وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

من سرّه الموت صرفاً لامزاج له ... خليأت مأسدةً فى دار عثمانا

مستحقبى حَلَق الماذىِّ قد شُفعت ... فوق الخاطم بَيضٌ زان أبدانا[1]

ضحّوا بأشمط عُنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

صبراً فدى لكم أمى وما ولدت ... قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

فقد رَضينا بأرض الشام نافرةً ... وبالأمير وبالإخوان إخوانا

إنى لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا ... ما دمتُ حيا وما سميت حسّانا

لتسمَعَنّ وشيكاً فى ديارهمُ ... اللهُ أكبر يا ثَارات عثمانا

ياليت شعرى وليت الطيرَ تخبُرنى ... ما كان شأن علىّ وابنِ عفّانا

وهو القائل أيضاً :

إن تُمس دارُ ابن أروى منه خاوية ... بابٌ صريعٌ وباب مُحرقٌ خَربُ

---

(١) استحقب السلاح : حمله . والماذى : خالص الحديد . والخاطم : الأنوف ، والأخطم : الطويل الأنف ، وخطمه : ضرب أنفه

فقد يُصادف باغى العرف حاجَتَه ... فيها ويأوى إليها المجدُ والحسَبُ
يا معشر الناس أبدوا ذاتَ أنفُسِكم ... لايَستوى الصدق عندالله والكذب

وقال الفرزدق :

إنّ الخلافة لما أظعنت ظعنت ... عن أهل يثربَ إذغيرالهدى سلكوا
صارت إلى أهلها منهم وَوَارثها ... لما رأى اللهُ فى عثمان ما انتهكوا
السافكى دمه ظلماً ومعصية ... أى دم لاهدوا من غيهم سفكوا

وقال راعى الإبل النميرى فى ذلك :

عشية يدخلون بغير إذن ... على متوكل أوفَى وطابا
خليل محمد ووزير صدق ... ورابع خير من وطىء الترابا

فصــل

إن قال قائل : كيف وقع قتل عثمان رضى الله عنه بالمدينة ، وفيها جماعة من كبار الصحابة رضى الله عنهم ؟ فجوابه من وجوه :

أحدها : أن كثيراً منهم ـ بل أكثرهم أو كلهم ـ لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله ؛ فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عيناً ، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة : إما أن يعزل نفسه ، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم ، أو يقتلوه ؛ فكانوا يرجُون أن يسلم إلى الناس مروان، أو أن يعزل نفسه ويستريح من هذه الضائقة الشديدة . وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع ، ولا أن هؤلاء يجترءون عليه إلى ما هذا حدّه ، حتى وقع ما وقع ، والله أعلم .

الثانى : أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة ، ولكن لما وقع التضييق الشديد ، عزم عثمانُ على الناس أن يَكُفّوا أيديَهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا ، فتمكن أولئك مما أرادوا ، ومع هذا ما ظنّ أحد من الناس أنه يقتل بالكلية .

الثالث : أن هؤلاء الخوارج لما اغتنموا غيبةَ كثير من أهل المدينة فى أيام الحج ، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة ، بل لما اقترب مجيئهم ، انتهزوا فرصتهم ـ قبحهم الله ـ وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم .

الرابع : أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبا من ألفى مقاتل من الأبطال ، وربما لم يكن فى أهل المدينة هذه العُدة من المقاتلة ؛ لأن الناس كانوا فى الثغور وفى الأقاليم فى كل جهة ، ومع هذا كان كثير من الصحابة اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم ، ومن كان يحضر منهم

المسجدَ لايجيء إلاّ ومعه السيف ؛ يضعه على حَبْوته إذا حتَبى ، والخوارج مُحدِقون بدار عثمان رضى الله عنه ، وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك ، ولـكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجفون[1] عن عثمان رضى الله عنه ، لكى تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته ، فما فجىء الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها ، وأحرقوا بابها ، وتسوّرُوا عليه حتى قتلوه وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلَمه ورضِىَ بقتله ـ فهذا لايصح عن أحد من الصحابة، أنه رضى بقتل عثمان رضى الله عنه ، بل كلهم كَرِهَهُ ، ومقَتَه ، وسَبَّ من فعله . ولـكن بعضهم كان يود لو خَلَع نفسه من الأمر ، كعَمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، وعمرو بن الحمِق وغيرهم .

قال أبو عمر بن عبدالبر : دفنوا عثمان رضى الله بحشّ كوكب ـ وكان قد اشتراه وزاده فى البقيع ـ ولقد أحسن بعض السلف إذ يقول وقد سئل عن عثمان : هو أمير البَرَرة ، وقتيل الفَجَرة ، مخذول مَن خذله ، مَنصور من نصره .

وقال شيخنا أبو عبدالله الذهبى فى آخر ترجمة عثمان وفضائله ـ بعد حكايته هذا الـكلام : الذين قتلوه أو ألبوا عليه ،قُتِلوا إلى عفو الله ورحمته . وَالذين خَذَلوه خُذِلوا وتنغص عيشهم ، وكان الملك بعده فى نائبه معاوية وبنيه ، ثم فى وزيره مروان وثمانية من ذريته ؛ استطالوا حياته وملّوه مع فضله وسوابقه ، فتملك عليهم من هو من بنى عمه بضعا وثمانين سنة ، فالحـكم لله العلى الـكبير . وهذا لفظه بحروفه

فصل فى الإشارة إلى شيء من الأحاديث الواردة فى فضائل

أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص، بن أمية بن عبد شمس، بن عبد مناف، بن قصى بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ أبو عمرو وأبو عبدالله ، القرشى الأموى ، أمير المؤمنين ؛ ذو النورين ، وصاحب الهجرتين ، وزوج الابنتين . وأمه أروَى بنت كُريز بن ربيعة ابن حبيب بن عبد شمس. وأمها أم حكيم ـ وهى البيضاء ـ بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله ﷺ ، هو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة ، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار ـ رضى الله عنهم ، فـكان ثالث الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، المأمور باتباعهم والاقتداء بهم .

(١) أى يقاتلون ويدافعون . والحجفة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب والجمع: حجف .

أسلم عثمان - رضي الله عنه - قديما على يدى أبى بكر الصديق، وكان سبب إسلامه عجيبا فيما ذكره الحافظ ابن عساكر . وملخص ذلك: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ زوج ابنته رقية - وكانت ذات جمال - من ابن عمها عتبة بن أبى لهب ، فأسف إذ لم يكن تزوجها ، فدخل على أهله مهموما فوجد عندهم خالته سُعدى بنت كُريز - وكانت كاهنة - فقالت له : أبشر وحُييت ثلاثا تترا ، ثم ثلاثا وثلاثا أخرى ، ثم بأخرى كى تتم عشرا ، أتاك خير ووقيت شرا ، أنكحت والله حصانا زهرا ، وأنت بكر ولقيت بكرا ، وافيتها بنت عظيم قدرا ، بنيت أمرا قد أشاد ذكرا .

قال عثمان : فعجبت من أمرها حيث تبشرنى بالمرأة قد تزوجت بغيرى ، فقلت : يا خالة ! ماتقولين ؟ فقالت : عثمان لك الجمال ، ولك اللسان ، هذا النبى معه البرهان ؛ أرسله بحقه الديان ، وجاءه التنزيل والفرقان ، فاتبعه لاتغتالك الأوثان .

قال : فقلت إنك لتذكرين أمرا ما وقع ببلدنا ، فقالت : محمد بن عبدالله ، رسول من عندالله جاءه بتنزيل الله يدعو به إلى الله . ثم قالت : مصباحه مصباح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح، ذلت له البطاح، ما ينفع الصياح، لو وقع الذباح، وسلت الصفاح ، ومدت الرماح. قال عثمان: فانطلقت مفكرا فلقينى أبو بكر فأخبرته، فقال: ويحك ياعثمان! إنك لرجل حازم ، ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ماهذه الأصنام التى يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم، لاتسمع ولا تبصر ولاتضر ولاتنفع؟ قال: قلت : بلى! قال: والله إنها لكذلك. فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله ، قد بعثه الله إلى خلقه برسالته ، هل لك أن تأتيه ؟ فاجتمعنا برسول الله فقال : ياعثمان أجب الله إلى حقه ، فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه، قال : فوالله ما تمالكت نفسى منذ سمعت رسول الله ﷺ أن أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . ثم لم ألبث أن تزوجت رُقية بنت رسول الله ﷺ فكان يقال :

أحسن زوج رآه إنسان   رقية وزوجها عثمان

فقالت فى ذلك سعدى بنت كُريز :

هدى اللهُ عثمانا بقولى إلى الهدى   وأرشده والله يهدى إلى الحق
فتابعَ بالرأى السديد محمداً   وكان برأى لايصد عن الصدق
وأنكحه المبعوث بالحق بنتَه   فكانا كبدر مازجَ الشمسَ فى الأفق
فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتى   وأنت أمين الله أرسلت للخلق

قال : ثم جاء أبو بكر من الغد بعثمان بن مظعون ، وبأبى عبيدة ، وعبدالرحمن بن عوف وأبى سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم ، فأسلموا ، وكانوا مع من اجتمع مع رسول الله ثمانية وثلاثين رجلا . وهاجر إلى الحبشة أول الناس ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة ، فلما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض ابنة رسول الله ﷺ ،

وأقام بسببها فى المدينة، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منها وأجره فيها ،فهو معدود فيمن شهدها.

فلما توفيت زوجه رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم فتوفيت أيضاً فى صحبته ، وقال رسول الله ﷺ : «لو كان عندنا أخرى لزوجناها بعثمان»، وشهد أحداً، وفر يومئذ فيمن تولى، وقد نص الله على العفو عنهم ،وشهد الخندق والحديبية، وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذ بإحدى يديه، وشهد خيبر وعمرة القضاء ، وحضر الفتح، وهوازن، والطائف، وغزوة تبوك ، وجهز جيش العسرة . وتقدم عن عبد الرحمن بن خباب؛ أنه جهزهم يومئذ بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها، وعن عبد الرحمن بن سمرة أنه جاء يومئذ بألف دينار فصبها فى حجر رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « ماضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم » ـ مرتين . وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ، وتوفى وهو عنه راض . وصحب أبا بكر فأحسن صحبته ، وتوفى وهو عنه راض. وصحب عمر فأحسن صحبته، وتوفى وهو عنه راض ونُصّ عليه فى أهل الشورى الستة ، فكان خيرهم كما سيأتى .

فولى الخلافة بعده ؛ ففتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار ، وتوسعت المملكة الإسلامية ، وامتدت الدولة المحمدية ، وبلغت الرسالة المصطفوية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وظهر للناس مصداق قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا منكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما استَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهم الذى ارْتَضَى لهم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهم أمْناً)[1]، وقوله تعالى:(هُوَ الذى أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ ولو كَرِهَ المُشْرِكون)[2] وقوله ﷺ : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد فى زمان عثمان رضى الله عنه .

وقد كان ـ رضى الله عنه ـ حسن الشكل ، مليح الوجه ، كريم الأخلاق ، ذا حياء كثير ، وكرم غزير ، يُؤثر أهله وأقاربه فى الله ؛ تأليفاً لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا الفانى ، لعله يرغبهم فى إيثار ما يبقى على ما يفنى ، كما كان النبى ﷺ يعطى أقواماً ويدع آخرين؛ يعطى أقواماً خشية أن يكبهم الله على وجوههم فى النار ، ويكل آخرين إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الهدى والإيمان وقد تعنت عليه بسبب هذه الخصلة أقوام، كما تعنت بعض الخوارج على رسول الله ﷺ فى الإيثار. وقد قدمنا ذلك فى غزوة حُنين ؛ حيث قسم غنائمها .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل عثمان رضى الله عنه ، نذكر ما تيسر منها إن شاء الله ، وبه الثقة ، وهى قسمان :

---

(١) من الآية: ٥٥ من سورة النور (٢) الآية : ٣٣ من سورة التوبة .

الأول - فيما ورد فى فضائله مع غيره

فمن ذلك: الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه : حدثنا مسدد، ثنا يحيى بن سعيد عن سعيد عن قتادة، أن أنساً حدثهم ، قال : « صعد النبى ﷺ أحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف فقال : اسكن أحُد ـ أظنه ضربه برجله ـ فليس عليك إلا نبىّ وصدّيق وشهيدان » تفرد به دون مسلم وقال الترمذى :ثنا قتيبة، ثنا عبد العزيز بن محمدعن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ، كان على حِراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ بن أبى طالب وطلحة والزبير ، فتحرّكت الصخرة ، فقال النبى ﷺ « اهدأ فما عليك إلا نبى أو صدّيق أو شهيد » . ثم قال فى الباب : عن عثمان بن سعيد بن زيد وابن عباس ، وسهيل بن سعد ، وأنس ابن مالك ، وبريدة الأسلمى ، وهذا حديث صحيح . قلت : ورواه أبو الدرداء ، ورواه الترمذى عن عثمان فى خطبته يوم الدار ، وقال : على ثَبير[1] .

حديث آخر : وهو ، عن أبى عثمان النهدى، عن أبى موسى الأشعرى قال : « كنت مع رسول الله ﷺ فى حائط[2] ، فأمرنى بحفظ الباب ، فجاء رجل يستأذن فقلت : مَن هذا ؟ قال : أبو بكر ، فقال رسول الله ﷺ : ائذن له وبَشّره بالجنة . ثم جاء عمر فقال ائذن له وبشره بالجنة ، ثم جاء عثمان فقال : ائذن له وبشّره بالجنة على بَلْوَى تُصيبه ، فدخل وهو يقول : اللهم صبراً ، وفى رواية ـ الله المستعان » . رواه عنه قتادة وأيوب السختيانى . وقال البخارى : وقال حماد بن زيد : حدثنا عاصم الأحول وعلىّ بن الحكم،سمعا أبا عثمان يحدث عن أبى موسى الأشعرى بنحوه، وزاد عاصم: أنّ رسول الله ﷺ كان قاعداً فى مكان قد انكشف عن رُكبتيه ـ أو ركبته ، فلما دخل عثمان غطاها . وهو فى الصحيحين أيضاً من حديث سعيد بن المسيب . عن أبى موسى ، وفيه : « أنّ أبا بكر وعمر دلّيا أرجلهما مع رسول الله ﷺ فى باب القف[3] وهو فى البئر ، وجاء عثمان فلم يجد له موضعاً » ، قال سعيد : فأوّلت ذلك قبورهم اجتمعت وانفرد عثمان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن مروان ، ثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة قال : قال نافع ابن الحارث : « خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل حائطاً ، فقال : امسك على الباب ، فجاء حتى جلس على القُف، ودلى رجليه ، فضُرب الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أبو بكر ، فقلت:

---

(١) ثبير : جبل قريب من مكة، على يمين الذاهب إلى عرفات . (٢) المراد بالحائط هنا : البستان
(٣) القف : حافة البئر من أعلى

يا رسول الله هذا أبو بكر ، قال : ائذن له و بَشره بالجنة ، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ على القُف ودلّى رجليه فى البئر . ثم ضُرِب الباب ، فقلت : مَن هذا ؟ قال : عمر ، قلت : يا رسول الله هذا عُمر ، قال : ائذن له و بَشره بالجنة ، ففعلت ، فجاء فجلس مع رسول الله على القُف ودلّى رجليه فى البئر . ثم ضُرِب الباب ، فقلت: من هذا ؟ قال: عثمان ، قلت : يارسول الله هذا عثمان ، قال : ائذن له و بَشره بالجنة معها بلاء ، فأذنت له وبشرته بالجنة ، فجلس مع رسول الله ﷺ على القُف ودلّى رجليه فى البئر » . هذا وقع فى هذه الرواية ، وقد أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى سلمة ، فيحتمل أن أبا موسى ونافع بن عبد الحارث كانا موكلين بالباب ، أو أنها قصة أخرى .

وقد رواه الإمام أحمد، عن عفان عن وهيب عن موسى بن عقبة ، سمعت أبا سلمة ـ ولا أعلمه إلا عن نافع بن عبد الحارث : « أن رسول الله ﷺ دخل حائطاً فجلس على قُفّ البئر ، فجاء أبو بكر فاستأذن ، فقال لأبى موسى : : ائذن له و بَشره بالجنة . ثم جاء عمر فقال : ائذن له و بشره بالجنة . ثم جاء عثمان فقال : ائذن له وبشره بالجنة وسيلقى بلاء » . وهذا السياق أشبه من الأول ، على أنه قد رواه النسائى من حديث صالح بن كيسان عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث عن أبى موسى الأشعرى، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد:حدثنا يزيد، أنا همام عن قتادة عن ابن سيرين، ومحمد بن عبيد عن عبد الله ابن عمر قال : « كنت مع رسول الله ﷺ فجاء أبو بكر فاستأذن فقال : ائذن له و بَشره بالجنة ، ثم جاء عمر فقال : ائذن له وبشره بالجنة . ثم جاء عثمان فاستأذن فقال : ائذن له وبشره بالجنة . قال : قلت: فأين أنا ؟ قال : أنت مع أبيك» ، تفرد به أحمد . وقد رواه البزار وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك بنحو ما تقدم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، ثنا ليث ، حدثنى عقيل عن ابن شهاب عن يحيى بن سعيد بن العاص ، أن سعيد بن العاص أخبره: أن عائشة زوج النبى ﷺ وعثمان حدّثاه أن أبا بكر استأذن على النبى ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مِرْط[1] عائشة ، فأذن لأبى بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، فاستأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة فقضى إليه حاجته ثم انصرف . قال عثمان : ثم استأذنت عليه فجلس وقال : اجمعى عليك ثيابك، فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت . فقالت عائشة : يا رسول الله ! مالى لا أراك فزعتَ لأبى بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن عثمان رجل حيىّ ، وإنى

(١) المرط ـ بكسر الميم ـ كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به .

خشيت إن أذنت له على تلك الحالة ـ أن لا يَبْلغ إلَيّ في حاجته » قال الليث : وَقال جماعة الناس : إن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « ألا أستحيي مِمّن تستحيي منه الملائكة ؟[1] » وَرواه مسلم من حديث محمد بن أبي حرملة عن عطاء ، وسليمان بن يسار عن أبي سلمة عن عائشة . وَرواه أبو يعلى الموصلي من حديث سهيل عن أبيه عن عائشة. وَرواه جبير بن نفير وعائشة بنت طلحة عنها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مروان ، ثنا عبدالله بن يسار ، سمعت عائشة بنت طلحة تذكر عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ « كان جالساً كاشفاً عن فخذه ،فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له وَهو على حاله ، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه . فلما قاموا قلت : يارسول الله استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك ، فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك ، فقال: ياعائشة، ألا نستحيي من رَجل والله إن الملائكة لتستحيي منه». تفرد به أحمد من هذا الوجه .

طريق أخرى عن حفصة : روَاه الحسن بن عرفة، وَأحمد بن حنبل عن روح بن عبادة، عن ابن جريج ، أخبرني أبو خالد عثمان بن خالد، عن عبدالله بن أبي سعيد المدني ، حدثني حفصة ، فذكر مثل حديث عائشة ، وفيه : فقال : « ألا نستحيي ممن تستحيي منه الملائكة ؟ » .

طريق أخرى عن ابن عباس : قال الحافظ أبو بكر البزار:حدثنا أبو كريب، ثنايونس بن بكير ثنا النضر ـ هو ابن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز الكوفي ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ألا نستحي ممن تستحي منه الملائكة عثمان بن عفان ؟ » ثم قال البزار : لانعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد على شرط الترمذي ، وَلم يخرجوه .

طريق أخرى عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال الطبراني : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، ثنا أبو معشر،حدثني إبراهيم بن عمر بن أبان،حدثني أبي عمر بن أبان،عن أبيه قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول :« بينما رسول الله ﷺ جالس وعائشة وَراءه، إذ استأذن أبو بكر فدخل ، ثم استأذن عمر فدخل ، ثم استأذن سعد بن مالك فدخل ، ثم استأذن عثمان بن عفان فدخل ـ وَرسول الله ﷺ يتحدث كاشفا عن ركبته ، فرد ثوبه على ركبته حين استأذن عثمان ، وقال لامرأته : استأخري ، فتحدثوا ساعة ثم خرجوا ، فقالت عائشة : يانبي الله ا دخل أبي وأصحابه فلم تصلح ثوبك على ركبتك ولم تؤخرني عنك ، فقال : النبي ﷺ : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ والذي نفسي بيده؛ إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من

---

(١) في نسخة : ملائكة الرحمن .

الله وَرسوله ، ولو دخل وأنت قريب مني لم يتحدث ولم يرفع رأسه حتى يَخرج » . هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وَفيه زيادة على ماقبله ، وفي سنده ضعف .

قلت : وفي الباب عن علي وعبد الله بن أبي أوفى ، وزيد بن ثابت : وَروى أبو مروان القرشي عن أبيه عن مالك ، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « عثمان حَيِي تَستحيي منه الملائكة » .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدها في دين الله عمر ، وأشدها حياء عثمان ، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرؤها لكتاب الله أبيّ ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » وهكذا روَاه الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث خالد الحذاء ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وفي صحيح البخاري ومسلم آخره « وَلكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » وقد روَى هشيم عن كوثر بن [حكيم عن نافع عن]ابن عمر مثل حديث أبي قلابة ، عن أنس أو نحوه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، ثنا محمد بن حرب ، حدثني الزبيدي عن ابن شهاب عن عمرو بن أبان بن عثمان ، عن جابر بن عبدالله ، أنه كان يحدث : أن رسول الله ﷺ قال : « أرى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط[1] برسول الله ، ونيط عمر بأبي بكر ، ونيط عثمان بعمر . فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ وَأما ما ذكره رسول الله ﷺ من نوط بعضهم ببعض ، فهؤلاء ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ » وَرواه أبو داود عن عمرو بن عثمان ، عن محمد بن حرب ، ثم قال : وَروَاه يونس وشعيب عن الزهري ، فلم يذكرا عمراً .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو داود ـ عمر بن سعد ـ ثنا بدر بن عثمان عن عبيد الله بن مروان ، عن أبي عائشة عن ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال : « رأيت قبل الفجر كأني أُعطيتُ المقاليدَ وَالموازين ، فأما المقاليد فهذه المفاتيح وَأما الموازين فهي التي يوزن بها ، فوُضعت في كِفة وَوُضعت أمتي في كِفة ، فوزنت بهم فرجحت . ثم جيء بأبي بكر فوُزِن فوزن بهم ، ثم جيء بعمر فوُزن فوُزِن بهم ، ثم جيء بعثمان فوُزِن فوزن بهم . ثم رفعت » . تفرد به أحمد . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا هشام بن عمار ، ثنا عمرو بن واقد ، ثنا يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « إني رأيت أني وَضعت في كِفة وأمتي في كِفة فعدلتها ، ثم وضع أبو بكر

(١) أي : تعلق .

فى كِفة وأمتى فى كفة فعدلها ، ثم وضع عمر فى كِفة وأمتى فى كفة فعدلها ، ثم وضع عثمان فى كفة وأمتى فى كفة فعدلها ».

حديث آخر : قال أبو يعلى : حدثنا عبد الله بن مطيع، ثنا هشيم عن العوام ، عمن حدثه عن عائشة ، قالت : لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت : فسئل رسول الله ﷺ : عن ذلك فقال : « هم أمراء الخلافة من بعدى » . وقد تقدم هذا الحديث فى بناء مَسْجده أولَ مَقْدَمه للمدينة عليه الصلاة والسلام ؛ وكذلك تقدم فى دلائل النبوة ، من حديث الزهرى عن رجل عن أبى ذر ، فى تسبيح الحصا فى يده عليه السلام ، ثم فى كفّ أبى بكر ، ثم فى كف عمر ، ثم فى كف عثمان ، رضى الله عنهم . وفى بعض الروايات : فقال رسول الله ﷺ : « هذه خلافة النبوة » وسيأتى حديث سفينة ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكا» فكانت ولاية عثمان ، ومدتها ثنتى عشرة سنة ، من جملة هذه الثلاثين بلا خلاف بين العلماء العاملين ، كما أخبر به سيد المرسلين ـ صلى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

حديث آخر : وهو ما روى من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ ، أنه شهد للعشرة بالجنة ، وهو أحدهم بنص النبى ﷺ .

حديث آخر : قال البخارى : حدثنا محمد بن حازم بن بزيع ، ثنا شاذان ، ثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون عن عبيد الله ، عن نافع عن ابن عمر ، قال : « كنا فى زمن النبى ﷺ لانعدل بأبى بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نَذَرُ أصحاب النبى ﷺ : لانفاضل بينهم » تابعه عبدالله بن صالح بن عبدالعزيز ، تفرد به البخارى . وَرَوَاه إسماعيل بن عياش ، والفرج بن فضالة ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن نافع عن ابن عمر . وَرَوَاه أبو يعلى عن أبى معشر عن يزيد ابن هارون ، عن الليث عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن عمر به .

طريق أخرى عن ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، ثنا سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن ابن عمر ، قال : « كنا نعد رسول الله ﷺ وأصحابه متوافرون ، أبو بكر ـ وعمر ـ وعثمان ـ ثم نسكت » .

طريق أخرى عن ابن عمر بلفظ آخر : قال الحافظ أبو بكر البزاز : حدثنا عمرو بن على وعقبة بن مكرم قالا : ثنا أبو عاصم عن عمر بن محمد عن سالم عن أبيه ، قال : كنا نقول فى عهد النبى ﷺ : أبو بكر وعمر وعثمان ـ يعنى فى الخلافة ـ وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجوه لكن قال البزار : وهذا الحديث قد روى عن ابن عمر من وجوه « كنا نقول : أبو بكر وعمر

وعثمان ، ثم لا نفاضل بعد » ، وعمر بن محمد لم يكن بالحافظ ، وذلك يتبين فى حديثه إذا روى عن غير سالم فلم يقل شيئاً . وقد رواه غير واحد من الضعفاء عن الزهرى عن سالم عن أبيه به . وقد اعتنى الحافظ بن عساكر بجمع طرقه عن ابن عمر فأفاد وأجاد . فأما الحديث الذى قال الطبرانى : حدثنا سعيد بن عبد ربه الصفار البغدادى، حدثنا على بن حنبل الرقى، أنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « فى الجنة شجرة ، أو ما فى الجنة شجرة ـ شك على بن حنبل ـ ماعليها ورقة إلا مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق ، عثمان ذو النورين » ـ فإنه حديث ضعيف ؛ فى إسناده من تكلم فيه ولا يخلو من نكارة ، والله أعلم .

القسم الثانى فيما ورد فى فضائله وحده

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا أبو عوانة، ثنا عثمان بن موهب قال : « جاء رجل من أهل مصر حجّ البيت ، فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القوم ؟ قالوا : قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عَبد الله بن عمر. قال : يا ابن عمر ! إنى سائلك عن شىء فحدثنى ، هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد ؟ قال : نعم ! قال : تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهدها؟ قال : نعم ! قال : تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : اللهُ أكبر . قال ابن عمر : تعال أبين لك ؛ أما فراره يوم أُحد ، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله وكانت مريضة ، فقال له رسول الله : إن لك أجرَ رَجُلٍ ممن شهد بدراً وَسَهْمَه ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ وكانت بيعة الرضوان بعد ماذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبى ﷺ بيده اليمنى : هذه يدُ عثمان فضرب بها على يدِه فقال: هذه لعثمان، فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك » تفرد به دون مسلم .

طريق أخرى : وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، ثنا زائدة ، عن عاصم عن شقيق قال : لقى عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة ، فقال له الوليد : مالى أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال له عبدالرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم حنين ـ قال عاصم : يقول يوم أحد ـ ولم أتخلف عن يوم بدر ، ولم أترك سنة عمر . قال : فانطلق فخبر بذلك عثمان فقال : أما قوله : إنى لم أفر يوم حنين ، فكيف يعيرنى بذلك وقد عفا الله عنى فقال : (إِنَّ الَّذِين تَوَلَّوْا منكم يَوْمَ الْتَقَى الْجمعانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهم الشَّيطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا ولَقَدْ عَفَا عَنهم)[1] وأما قوله : إنى تخلفت

(١) من الآية : ١٥٥ من سورة آل عمران .

يوم بدر ، فإنى كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ ، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد . وأما قوله : ولم أترك سنة عمر ، فإنى لا أطيقها ولا هو ، فإنه يحدثه بذلك .

حديث آخر : قال البخارى : حدثنا أحمد بن شبيب بن سعد، ثنا أبى عن يونس ، قال ابن شهاب : أخبرنى عروة ، أن عبيد الله بن عدى بن الخيار أخبره ، أن المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا : مايمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد ، فقد أكثر الناس فيه ؟ فقصدت لعثمان حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : إن لى إليك حاجة ، وهى نصيحة لك ، فقال : يا أيها المرء منك ـ قال أبو عبدالله قال معمر : أراه قال : أعوذ بالله منك ـ فانصرفت فرجعت إليهم ، إذ جاء رسول عثمان فأتيته، فقال: مانصيحتك ؟ فقلت : إن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ؛ فهاجرت الهجرتين ، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه[1] ، وقد أكثر الناس فى شأن الوليد فقال : أدركت رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا ! ولكن خلص إلى من علمه ماخلص إلى العذراء فى سترها ، قال . أما بعد ! فإن الله بعث محمداً بالحق فكنت ممن استجاب لله ولرسوله، وآمنت بما بعث به ، وهاجرت الهجرتين كما قلت ، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته ، فوالله ماعصيته ولا غششته ، حتى توفاه الله عز وجل ، ثم أبو بكر مثله ، ثم استخلفت . أفليس لى من الحق مثل الذى لهم ؟ قلت : بلى، قال : فما هذه الأحاديث التى تبلغنى عنكم ؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسآخذ فيه بالحق إن شاء الله . ثم دعا علياً فأمره أن يجلده ، فجلده ثمانين .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة، ثنا الوليد بن مسلم ، حدثنى ربيعة بن يزيد عن عبدالله بن عامر عن النعمان بن بشير، عن عائشة رضى الله عنها قالت : «أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ،فلما رأينا إقبال رسول الله ﷺ على عثمان أقبلت إحدانا على الأخرى ، فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه وقال : يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى ـ ثلاثا. فقلت لها: يا أم المؤمنين ! فأين كان هذا عنك ؟ قالت : نسيته والله ما ذكرته . قال: فأخبرته معاوية بن أبى سفيان فلم يرض بالذى أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين: أن اكتبى إلى به ، فكتبت إليه به كتابا » وقد رواه أبو عبدالله الجرى عن عائشة وحفصة بنحو ماتقدم. ورواه قيس بن أبى حازم وأبو سهلة عنها. ورواه أبو سهلة عن عثمان : « إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهداً فأنا صابر نفسى عليه ». ورواه فرج ابن فضالة عن محمد بن الوليد الزبيدى عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره ،

---

(١) أى طريقته .

قال الدارقطني : تفرد به الفرج بن فضالة، ورواه أبو مروان محمد عن عثمان بن خالد العثماني عن أبيه عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . ورواه ابن عساكر من طريق المنهال بن عمر عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عنها . ورواه ابن أسامة عن الجريري : حدثني أبو بكر العدوي قال : سألت عائشة ، وذكر عنها نحو ما تقدم ، تفرد به الفرج بن فضالة ، ورواه حصين عن مجاهد عن عائشة بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كناسة الأسدي - أبو يحيى ، ثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه قال : بلغني أن عائشة قالت : « ما استمعت رسول الله ﷺ إلا مرة ، فإن عثمان جاءه في نحر الظهيرة فظننت أنه جاءه في أمر النساء ، فحملتني الغَيرة على أن أصغيت إليه، فسمعته يقول : إن الله مُلبِسك قميصاً تريدك أمتي على خلعه فلا تخلعه . فلما رأيت عثمان يبذل لهم ما سألوه إلا خلعه ، علمت أنه عهد من رسول الله ﷺ الذي عهد إليه .

طريق أخرى - قال الطبراني : حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي ، ثنا عبد الله بن صالح ، ثنا الليث، عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف قال : كنا عند شُفَيّ الأصبحي فقال : حدثنا عبد الله بن عمر قال : « التفت رسول الله ﷺ فقال : يا عثمان إن الله كساك قميصا فأرادك الناس على خلعه فلا تخلعه ، فوالله لئن خلعته لا ترى الجنة حتى يلج الجملُ في سَمّ الخياط » وقد رواه أبو يعلى من طريق عبد الله بن عمر ، عن أخته حفصة أم المؤمنين . وفي سياق متنه غرابة ، والله أعلم .

حديث آخر - قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثتني فاطمة بنت عبد الرحمن قالت : حدثتني أمي، أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقال : إن أحد بنيك يقرئك السلام، ويسألك عن عثمان بن عفان ؟ فإن الناس قد شتموه ، فقالت : « لعن الله من لعنه ، فوالله لقد كان قاعداً عند رسول الله ﷺ ، وإنّ رسول الله لَمسند ظهرَه إليّ ، وإن جبريل ليوحي إليه القرآن ، وإنه ليقول له : اكتب يا عُثَيم ، قالت عائشة : فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريما على الله ورسوله » . ثم رواه الإمام أحمد عن يونس عن عمر بن إبراهيم اليشكري عن أمه عن أمها ، أنها سألت عائشة عند الكعبة عن عثمان ، فذكرت مثله .

حديث آخر - قال البزار : حدثنا عمر بن الخطاب قال : ذكر أبو المغيرة عن صفوان بن عمرو عن ماعز التميمي عن جابر، « أن رسول الله ﷺ ذكر فتنةً ، فقال أبو بكر: أنا أدركها ؟ فقال : لا ! فقال عمر: أنا يا رسول الله أدركها ؟ قال : لا ! فقال عثمان : يا رسول الله فأنا أدركها ؟ قال : بك يبتلون » ،قال البزار : وهذا لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه .

حديث آخر ـ قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عمر ، ثنا سنان بن هارون ، ثنا كليب ابن وائل عن ابن عمر ، قال : « ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال : يُقتل فيها هذا المقنّع يومئذ مظلوما ، فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان » . ورواه الترمذي عن إبراهيم بن سعيد عن شاذان به ، وقال : حسن غريب .

حديث آخر ـ قال الإمام أحمد: حدثنا عفان،ثنا وهيب، ثنا موسى بن عقبة،حدثني أبو أم حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها ، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنكم تلقَون بعدي فتنة واختلافاً ـ أو قال : اختلافا وفتنة ـ فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول الله ؟ قال : عليكم بالأمين وأصحابه ـ وهو يشير إلى عثمان بذلك » تفرد به أحمد وإسناده جيد حسن ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة، ثنا حماد بن سلمة، ثنا كَهْمَس بن الحسن عن عبد الله بن شقيق ، حدثني هرم بن الحارث وأسامة بن خزيم ـ وكانا يغازيان ـ فحدثاني حديثا ولم يشعر كلٌ واحد منهما أن صاحبه حدثنيه ، عن مرة البَهْزيّ قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة، فقال : كيف تصنعون في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صَياصِي[1] بقر ؟ قالوا : نصنع ماذا يا رسول الله ؟ قال : عليكم هذا وأصحابه ـ أو اتبعوا هذا وأصحابه ـ قال : فأسرعت حتى عييت، فأدركت الرجل فقلت : هذا يا رسول الله ؟ قال : هذا، فإذا هو عثمان ابن عفان » فقال : هذا وأصحابه ، فذكره .

طريق أخرى ـ وقال الترمذي في جامعه : حدثنا محمد بن يسار ، ثنا عبد الوهاب الثقفي ، ثنا أيوب عن أبي قِلابَة ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، أن خطبا قامت بالشام وفيهم رجال من أصحاب النبي ﷺ ؛ رجل يقال له : مُرّة بن كعب ، فقال : لولا حديث سمعتهُ من رسول الله ﷺ ما تكلمت ، وذكر الفِتن فقرّبها فمرّ رجل متقنّع في ثوب ، فقال : هذا يومئذ على الهُدَى فقمت إليه ، فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت عليه بوَجهه فقلت : هذا ؟ قال : نعم ! » . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن ابن عمر وعبد الله بن حَوالة وكعب بن عجرة . قلت : وقد رواه أسد بن موسى عن معاوية بن صالح ا حدثني سليم بن عامر عن جبير بن نفير عن مرة بن كعب البَهْزي فذكر نحوه . وقد رواه الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن مهدي

---

(١) صياصي : جمع صيصية ـ بكسرتين ـ وهي قرون البقر والظباء

عن معاوية عن صالح عن سليم بن عامر، عن جبير بن نفير عن كعب بن مرة البَهْزى ، والصحيح مرة بن كعب كما تقدم . وأما حديث ابن حَوالة ، فقال حماد بن سلمة ، عن سعيد الجريرى عن عبد الله بن سفيان، عن عبد الله بن شقيق عن عبد الله بن حوالة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنت وفتنة تكون فى أقطار الأرض ؟ قلت : ما خار[1] الله لى ورسوله ، قال : اتبع هذا الرجل ، فإنه يومئذ ومن اتبعه على الحق . قال : فاتبعته فأخذت بمنكبه ففتلته ، فقلت : هذا يا رسول الله ؟ فقال : نعم ! فإذا هو عثمان بن عفان » وقال حَرملة عن ابن وهب عن ابن لَهيعة عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ربيعة بن لقيط عن ابن حَوالة قال : قال رسول الله ﷺ . « ثلاث من نجا منهن فقد نجا ؛ موتى، وخروج الدجال، وقتل خليفة مُصطبر قوّام بالحق يعطيه» .

وأما حديث كعب بن عُجرة . فقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن سليمان الرازى ، أخبرنى مُغيرة بن مسلم عن مَطر الوراق ، عن ابن سيرين عن كعب بن عُجرة قال : « ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها وعظّمها . قال: ثم مرّ رجل مقنع فى مِلحفة فقال : هذا يومئذ على الحق ، قال : فانطلقت مسرعا أو محضرا، وأخذت بضبعَيه فقلت : هذا يارسول الله ؟ قال : هذا ، فإذا هو عثمان بن عفان » ثم رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن كعب بن عُجرة، فذكر مثله . ورواه أبو يعلى عن هُدبة عن همّام عن قتادة عن محمد بن سيرين عن كعب بن عُجرة . وكذا رواه أبو عَون عن ابن سيرين عن كعب . وقد تقدم حديث أبى ثور التميمى عنه، فى قوله فى الخطبة التى خاطب بها الناس من داره ،والله ماتغنّيت[2] ولا تمنيت، ولا زنيت فى جاهلية ولا إسلام ، ولا مسست فرجى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، وأنه كان يعتق كل يوم جمعة عتيقا ، فإن تعذر عليه أعتق فى الجمعة الأخرى عتيقين . وقال مولاه حمران : كان عثمان يغتسل كل يوم منذ أسلم ، رضى الله عنه .

حديث آخر ـ قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عباس، ثنا الوليد بن مسلم ، أنبأنا الأوزاعى عن محمد بن عبد الملك بن مروان ، أنه حدثه عن المغيرة بن شعبة ، أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال : « إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى ، وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثا. اختر إحداهن ؛ إما أن تخرج فتقاتلهم ؛ فإن معك عددا وقوة ، وأنت على الحق وهم على الباطل . وإما أن تخرق بابا سوى الباب الذى هم عليه فتقعد على رَواحلك فتلحق مكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها . وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : أما أن أخرج فأقاتل، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسَفك الدماء . وأما أن أخرج إلى مكة

(١) أى: اختار وجعل لى فيه الخير (٢) أى : ما استغنيت

فإنهم لن يستحلونى بها ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ، ولن أكون أنا . وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية ، ولن أفارق دارَ هجرتى ومُجاورةَ رسول الله ﷺ » وقال الإمام أحمد: ثنا أبو المغيرة ، ثنا أرطاة ـ يعنى ابن المنذر ـ حدثنى أبو عَون الأنصارى « أن عثمان قال لابن مسعود : «هل أنت مُنْتَهٍ عما بلغنى عنك ؟ فاعتذر بعض العذر، فقال عثمان : ويحك ! إنى قد سمعت وحفظت ـ وليس كما سمعت ـ : أنّ رسول الله ﷺ قال: سيقتل أمير، ويتبرى متبرىء ، وإنى أنا المقتول ، وليس عمر ؛ إنما قتل عُمَر واحد ، وإنه يجتمع علىّ »، وهذا الذى قاله لابن مسعود قبل مقتله بنحو من أربع سنين ، فإنه مات قبله بنحو ذلك .

حديث آخر[1] : قال عبد الله بن أحمد : ثنا عبيد الله بن عمر القواريرى : ثنا القاسم بن الحكم ابن أوس الأنصارى، حدثنى أبو عبادة الزرقى الأنصارى ـ من أهل المدينة ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « شهدت عثمان يوم حصر فى موضع الجنائز، ولو ألقى حجر لم يقع إلا على رأس رجل، فرأيت عثمان أشرف من الخوخة التى تلى باب مقام جبريل ، فقال: أيها الناس ! أفيكم طلحة ؟ فسكتوا ، ثم قال : أيها الناس ! أفيكم طلحة بن عبيد الله ؟ فسكتوا ، ثم قال : أيها الناس ! أفيكم طلحة ؟ فقام طلحة بن عبيد الله فقال له عثمان : ألا أراك ههنا ؟ ما كنت أرى أنك تكون فى جماعة قوم تسمع ندائى آخر ثلاث مرات ، ثم لا تجيبنى ؟ أنشدك الله يا طلحة! تذكر يوم كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فى موضع كذا وكذا، ليس معه أحد من أصحابه غيرى وغيرك ؟ فقال : نعم ! قال : فقال لك رسول الله ﷺ إنه ما من نبىّ إلا ومعه من أصحابه رفيق فى الجنة وإنّ عثمان بن عفان هذا ـ يعنى نفسه ـ رفيقى فى الجنة ؟ فقال طلحة : اللهم نعم ! » تفرد به أحمد.

حديث آخر عن طلحة : قال الترمذى : حدثنا أبو هشام الرفاعى ، ثنا يحيى بن اليمان عن شريح بن زهرة عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب، عن طلحة بن عبيد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان »، ثم قال : هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوى ، وإسناده منقطع . ورواه أبو مروان محمد بن عثمان عن أبيه عن أبى الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبى هريرة . وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن أبى طالب البغدادى وغير واحد قالوا: حدثنا عثمان بن زفر، حدثنا محمد بن زياد عن محمد بن عجلان عن أبى الزبير عن جابر قال: « أتى النبى ﷺ بجنازة رجل ليصلّى عليه فلم يصلّ عليه، فقيل : يا رسول الله! ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا ؟ فقال : إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل » ثم قال الترمذى : هذا

---

(١) تقدم هذا الحديث بنصه صفحة ١٩٥

حديث غريب . ومحمد بن زياد هذا صاحب ميمون بن مهران ـ ضعيف الحديث جداً . ومحمد بن زياد صاحب أبى هريرة ـ بصرى ثقة ، يكنى أبا الحارث . ومحمد بن زياد الألهانى صاحب أبى أمامة ـ ثقة شامى ، يكنى أبا سفيان .

حديث آخر : روى الحافظ بن عساكر من حديث أبى مروان العثمانى ، ثنا أبى عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبى هريرة « أن رسول الله ﷺ لقى عثمان بن عفان على باب المسجد فقال : ياعثمان ! هذا جبريل يخبرنى أن الله قد زوّجك أم كلثوم بمثل صداق رُقَيّة ، على مثل مصاحبتها »، وقد روى ابن عساكر أيضاً من حديث ابن عباس وعائشة وعمارة بن روبية وعِصمة بن مالك الخطمى ، وأنس بن مالك وابن عمر وغيرهم ، وهو غريب ومنكر من جميع طرقه . وروى بإسناد ضعيف عن على ، أن رسول الله ﷺ قال: لو كان لى أربعون ابنة لزوجتهن بعثمان ـ واحدة بعد واحدة ، حتى لا يبقى منهن واحدة »، وقال محمد بن سعيد الأموى عن يونس بن أبى إسحاق عن أبيه عن المهلب بن أبى صفرة قال : « سألت أصحاب رسول الله ﷺ لم قلتم فى عثمان : أعلانا فوقاً[1] ؟ قالوا : لأنه لم يتزوج رجل من الأولين والآخرين ابنتى نبىّ غيره » رواه ابن عساكر .

وقال إسماعيل بن عبد الملك، عن عبد الله بن أبى مليكة عن عائشة قالت . مارأيت رسول الله ﷺ رافعاً يديه حتى يبدو ضَبعيه ـ إلا لعثمان بن عفان، إذ دعا له . وقال مِسعر ، عن عطية عن أبى سعيد قال . رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه يدعو لعثمان يقول . « اللهم عُثمان رضيتُ عنه فارض عنه » وفى رواية يقول لعثمان : « غفر الله لك ما قدّمت وما أخرت وما أسررتَ وما أعلنتَ ، وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة ». ورواه الحسن بن عرفة عن محمد بن القاسم الأسدى عن الأوزاعى عن حسان بن عطية عن النبى ﷺ مرسلا . وقال ابن عدى عن أبى يعلى عن عمار بن ياسر المستملى . عن إسحاق بن إبراهيم المستملى،عن أبى إسحاق عن أبى وائل عن حذيفة : أن رسول الله ﷺ بعث إلى عثمان يستعينه فى غَزاة غزاها ، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار ،فوضعها بين يديه ، فجعل يقلّبها بين يديه ويدعو له : « غفر الله لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيتَ وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالى عثمانُ ما فعلَ بعدها » .

حديث آخر : وقال ليث بن أبى سليم : أول من خَبص[2] الخبيص عثمان، خلط بين العسل والنَّقِى[3] ثم بعث به إلى رسول الله ﷺ إلى منزل أم سلمة، فلم يصادفه، فلما جاء وضعوه بين يديه ،

(١) أى : شرفا . (٢) خبص : خلط . والخبيص : المعمول من التمر والسمن ، والمِخبصة : ملعقة يقلب بها الخبيص فى الإناء . (٣) النقى : الخبز الحوارى ، المصنوع من الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق، ومنه الحديث « ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقى من حين ابتعثه الله حتى قبضه» .

فقال : من بعث هذا ؟ قالوا : عثمان : قالت : فرفع يديه إلى السماء فقال : « اللهم إن عثمان يترضاك فارضَ عنه » .

حديث آخر : روى أبو يعلى عن سنان بن فروخ ، عن طلحة بن يزيد عن عبيدة بن حسان عن عطاء الكيخاراني[1] عن جابر ، أن رسول الله ﷺ أعتنق عثمان وقال : « أنت وليي في الدنيا ووليي في الآخرة » .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا حماد بن زيد عن الجريري ، عن عبدالله بن شقيق عن عبدالله بن حَوالة قال : قال رسول الله ﷺ : « تهجُمون على رجل مُعتجر ببردة من أهل الجنة ، يبايع الناس » قال : فهجمنا على عثمان بن عفان معتجراً يبايع الناس .

فصل في ذكر شيء من سيرته ، وهي دالة على فضيلته

قال ابن مسعود : لما توفي عمر بايعنا خيرنا ولم نألُ ، وفي رواية : بايعوا خيرهم ولم يألوا . وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن أبيه عن عمرو بن عثمان بن عفان قال : كان نقش خاتم عثمان : آمنت بالذي خلق فسّوى . وقال محمد بن المبارك : بلغني أنه كان نقش خاتم عثمان : آمن عثمان بالله العظيم. وقال البخاري في التاريخ : ثنا موسى بن إسماعيل . ثنا مبارك بن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلّ ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، يقال لهم : يامعشر المسلمين ! اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم : اغدوا على السمن والعسل ، الأعطيات جارية ، والأرزاق دارّة ، والعدو متقى ، وذات البَين حسن ، والخير كثير ، وما من مؤمن يخاف مؤمناً ، ومن لقيه فهو أخوه ، قد كان من إلفته ونصيحته ومودته . قد عهد إليهم أنها ستكون أثَرة ، فإذا كانت فاصبروا » . قال الحسن : « فلو أنهم صبروا حين رأوها لوسِعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، قالوا : لا ـ والله ما نصابرها ، فوالله ماورَدوا وما سلموا . والأخرى كان السيف مغمداً عن أهل الإسلام فسلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولا إلى يوم الناس ، هذا ! وأيم الله إني لأراه سيفاً مسلولا إلى يوم القيامة » .

وقال غير واحد ، عن الحسن البصري قال : سمعت عثمان يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب . وروى سيف بن عمر : أن أهل المدينة اتخذ بعضهم الحمام ورَمى بعضهم بالجلاهقات[2] فوكل عثمان رجلا من بني ليث يتبع ذلك ، فيقص الحمام ويكسر الجلاهقات

(١) نسبة إلى كيخاران ـ موضع باليمن . (٢) الجلاهق : البندق الذي يرمى به .

ـ وهي قسي البندق ـ وقال محمد بن سعد : « أنبأنا القعنبي وخالد بن مخلد ، ثنا محمد بن هلال عن جدته ـ وكانت تدخل على عثمان وهو محصور ـ فولدت هلالا ، ففقدها يوماً فقيل له : إنها قد ولدت هذه الليلة غلاماً ، قالت : فأرسل إلى بخمسين درهماً وشقيقة سنبلانية ، وقال : هذا عطاء ابنك وكسوته، فإذا مرت به سنه رفعناه إلى مائة»عن وروى الزبير بن أبي بكر، محمد بن سلام عن ابن بردآب [1] قال : قال ابن سعيد بن يربوع بن عنكثة المخزومي : انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طير أسله في المسجد ، والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه نائم ، تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة ، فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله، ففتح عينيه فقال : من أنت ياغلام ؟ فأخبرته ، فإذا غلام نائم قريباً منه فدعاه فلم يجبه، فقال لي: ادعُه ! فدعوته فأمره بشيء وقال لي : اقعد، فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم ، ونزع ثوبي وألبسني الحلة، وجعل الألف درهم فيها ، فرجعت إلى أبي فأخبرته ، فقال : يابني من فعل هذا بك ؟ فقلت : لاأدري إلا أنه رجل في المسجد نائم لم أرقط أحسن منه ، قال : ذاك أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .

وقال عبدالرزاق عن ابن جريج : أخبرني يزيد بن خصيف، عن أبي السائب بن يزيد « أن رجلا سأل عبدالرحمن بن عثمان التيمي، عن صلاة طلحة بن عبيدالله، عن صلاة عثمان قال: نعم! قال : قلت لأغلبن الليلة النفر على الحجر ـ يعني المقام ـ فلما قمت فإذا رجل يزحمني مقنعاً ، قال : فالتفت فإذا بعثمان ، فأخرت عنه فصلى، فإذا هو يسجد بسجود القرآن ، حتى إذا قلت : هذا هو أذان الفجر ـ أوتر بركعة لم يصل غيرها ثم انطلق» . وقد روى هذا من غير وجه، أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود ، أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه . ولهذا روينا عن ابن عمر، أنه قال في قوله تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)[2] قال : هو عثمان بن عفان . وقال ابن عباس في قوله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[3] قال : هو عثمان . وقال حسان .

ضَحَّوْا بأشمطَ عُنوان السجود به ... يُقَطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا

وقال سفيان بن عيينة : ثنا إسرائيل بن موسى، سمعت الحسن يقول: قال عثمان : لو أن قلوبنا طهرت ماشبعنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف ، وما مات عثمان حتى خَرق مصحفه من كثرة مايديم النظر فيه . وقال أنس ومحمد بن سيرين : قالت امرأة

---

(١) كذا بالأصل، ولم نقف على صوابه . (٢) من الآية : ٩ من سورة الزمر .
(٣) من الآية : ٧٦ من سورة النحل .

عثمان يوم الدار : اقتلوه أو دعوه ، فوالله لقد كان يحيى الليلَ بالقرآن فى ركعة . وقال غير واحد : إنه رضى الله عنه كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه ، إلّا أن يجده يقظانا . وكان يصوم الدهر ، وكان يعاتب فيقال : لو أيقظتَ بعض الخدم ؟ فيقول : لا ! الليل لهم يستريحون فيه وكان إذا اغتسل لا يرفع المئزر عنه ، وهو فى بيت مغلق عليه ، ولا يرفع صلبه جيداً من شدة حيائه رضى الله عنه

فصل فى ذكر شىء من خطبه

قال الواقدى : حدثنى إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى عن أبيه ، أن عثمان لما بويع خرج إلى الناس فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس أوّل كلّ مركب صعب ، وإنّ بعد اليوم أياماً ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله . وقال الحسن : خطب عثمان فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! اتقوا الله فإنّ تقوى الله غنم ، وإن أكيس الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر ، وليخشَ عبدٌ أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً ، وقد يلقى الحكيم جوامع الكلم ، والأصمُّ ينادى من مكان بعيد واعلموا أنّ من كان الله له لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده ؟ . وقال مجاهد : خطب عثمان فقال : ابن آدم ! اعلم أن ملك الموت الذى وكّل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت فى الدنيا ، وكأنه قد تخطى غيرك إليك ، وقصدك ، فخذ حذرك ، واستعدّ له ، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك . واعلم ابن آدم إن غفلت عن نفسك ولم تستعدّ لها لم يستعد لها غيرك ، ولا بدّ من لقاء الله ، فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك والسلام وقال سيف بن عمر ، عن بدر بن عثمان عن عمه قال : آخر خطبة خطبها عثمان فى جماعة : « إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها ، إنّ الدنيا تفنى وإن الآخرة تبقى . لا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإنّ المصير إلى الله . واتقوا الله فإن تقواه جُنّة من بأسه ، ووسيلة عنده . واحذروا من الله الغِيَر[1] ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابا (واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّفَ بينَ قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[2] إلى آخر الآيتين .

---

(١) الغير أحداث الدهر المغيرة . (٢) الآيتان : ١٠٣ - ١٠٤ من سورة آل عمران .

فصل

قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، ثنا محمد بن قيس الأسدى، عن موسى بن طلحة قال : سمعت عثمان بن عفان وهو على المنبر والمؤذن يقيم الصلاة ، وهو يستخبرُ الناس يسألهم عن أخبارهم وأسعارهم . وقال أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، ثنا يونس - يعنى ابن عبيد - حدثنى عطاء بن فرّوخ- مولى القرشيين ، أن عثمان اشترى من رجل أرضا فأبطأ عليه، فلقيه فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنك غبنْتَنِى ، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومنى ، قال : أذلك يمنعك؟ قال : نعم ! قال : فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخلَ اللهُ الجنّة رجلاً كان سهلا؛ مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا » . وروى ابن جرير أن طلحة لَقِىَ عثمان وهو خارج إلى المسجد، فقال له طلحة : إن الخمسين ألفًا التى لك عندى قدحصلت فأرسل من يَقْبضها ، فقال له عثمان : إنا قد وهبناكها لمرُوءتك . وقال الأصمعى : استعمل ابن عامر قَطَن بن عوف الهلالى على كَرْمان ، فأقبل جيش من المسلمين - أربعة آلاف - وجرى الوادى فقطعهم عن طريقهم وخشى قَطن الفوت فقال : مَن جازَ الوادى فله ألف درهم ، فحملوا أنفسهم على العَظْم[٢] ، فكان إذا جاز الرجل منهم قال قَطَن : أعطوه جائزته ، حتى جازوا جميعاً وأعطاهم أربعة آلاف درهم ، فأبى ابن عامر أن يحسبها له ، فكتب بذلك إلى عثمان بن عفان ، فكتب عثمان : أن احسِبها له ، فإنه إنما أعان المسلمين فى سبيل الله ، فمن ذلك اليوم سميت الجوائز؛ لإجازة الوادى، فقال الكنانى فى ذلك .

فِدًى للأكرمين بنى هلال ... على علاتهم أهلى ومالى
هُموا سَنّوا الجوائز فى مَعَدّ ... فعادت سُنّةً أخرى الليالى
رماحهم تزيد على ثمـــان ... وعشر قبل تركيب النِّصال

فصل

ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة : أنه جمع الناس على قراءة واحدة ، وكتب المصحف على العَرْضة الأخيرة ، التى دَرَسها جبريل على رسول الله ﷺ فى آخر سِنى حياته. وكان سبب ذلك: أن حُذيفة بن اليمان كان فى بعض الغزوات ، وقد اجتمع فيها خَلقٌ من أهل الشام ، ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود ، وأبى الدرداء ، وجماعة من أهل العراق ، ممن يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود ، وأبى موسى . وجَعَل مَن لا يَعلم بِسَوَغَانِ القراءة على سبعة أحرف - يفضل قراءته على قراءة غيره ، وربما خطأ الآخر أو كَفّره ، فأدّى ذلك إلى اختلاف شديد ، وانتشار

---

(١) العظم : قصب الحيوان الذى عليه اللحم . وعظم الرحل : خشبه بدون أداته .

فى الـكلام السيء بين الناس . فركب حذيفة إلى عثمانَ فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف فى كتابها ، كاختلاف اليهود والنصارى فى كُتبهم ، وذكر له ماشاهدمن اختلاف الناس فى القراءة ، فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاوَرَهم فى ذلك ، ورأى أن يكتب المصحف على حَرْف واحد ، وأن يجمع الناس فى سائر الأقاليم على القراءة به ، دون ما سواه ؛ لما رأى فى ذلك من مصلحة كفّ المنازعة ، ودَفْع الاختلاف .

فاستدعى بالصُّحف التى كان الصديق أمر زَيْد بن ثابت بجمعها ، فكانت عند الصديق أيام حياته ، ثم كانت عند عُمَر ، فلما تُوفى صارت إلى حفصة أم المؤمنين ، فاستدعى بها عثمان وأمر زَيْدَ بن ثابت الأنصارى أن يكتبَ ، وأن يُملى عليه سَعيد بن العاص الأموى ، بحضرة عبدالله ابن الزبير الأسدى ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى . وأمرَهم إذا اختلفوا فى شىء أن يكتبوه بلُغة قريش ، فكتب لأهل الشام مُصحفاً ، ولأهل مصر آخر ، وبعث إلى البصرة مُصحفاً ، وإلى الكوفة بآخر ، وأرسل إلى مكة مصحفاً ، وإلى اليمن مثله ، وأقر بالمدينة مصحفاً . ويقال لهذه المصاحف : الأئمة ، وليست كلُّها بخط عثمان ، بل ولا واحد منها ، وإنما هى بخطِّ زيدبن ثابت . وإنما يقال لها المصاحف العثمانية ، نسبة إلى أمْره ، وزمانه ، وإمارته ، كما يقال : دينار هِرَقْلىّ - أى ضرب فى زمانه ودولته .

قال الواقدى : حدثنا ابن أبى سبرة ، عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ورواه غيره من وجه آخر عن أبى هريرة قال : « لما نسخ عثمان المصاحف ، دَخَل عليه أبو هُريرة فقال : أصَبْتَ ووُفِّقت ، أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أشدَّ أمتى حُبًّا لى ، قومٌ يأتون من بَعدى يُؤمنون بى ولم يَروْنى ، يَعملون بما فى الورَق المعلّق » فقلت : أىّ ورق ؟ حتى رأيت المصاحف قال : فأعجب ذلك عثمان وأمَرَ لأبى هريرة بعشرة آلاف ، وقال : والله ماعلمت أنك لتحبس علينا حديثَ نبينا ﷺ ، ثم عَمد إلى بقية المصاحف التى بأيدى الناس مما يخالف ما كتبه فحرّقه ؛ لئلا يقع بسببه اختلاف ؛ فقال أبو بكر بن أبى داود - فى كتاب المصاحف : حدثنا محمد ابن بسار ، ثنا محمد بن جعفر وعبد الرحمن قالا : ثنا شعبة عن علقمة بن مَرْثد ، عن رجل عن سُويد بن غفلة قال : قال لى علىٌّ حين حَرق عثمان المصاحف : « لو لم يصنعه هو لصنعتهُ » وهكذا رواه أبو داود الطيالسى وعمرو بن مرزوق عن شعبة مثله . وقد رواه البيهقى وغيره من حديث محمد بن أبان - زوج أخت حسين - عن علقمة بن مرثد قال : سمعت العيزار بن جرول ، سمعت سويد بن غفلة قال : « قال علىّ : أيها الناس ! إياكم والغلوّ فى عثمان ، تقولون حَرق المصاحف ، والله ما حَرقها إلاّ عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ ، ولو وُلّيت مثلَ ما وُلّى لفعلت مثل الذى فعل » .

وقد روى عن ابن مسعود أنه تعتب لما أخذ منه مصحفه فحرق ، وتكلم فى تقدم إسلامه على زيد ابن ثابت الذى كتب المصاحف ، وأمر أصحابه أن يغلوا مصاحفهم ، وتلا قوله تعالى (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ[1])، فكتب إليه عثمان رضى الله عنه يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه ؛ لما فى ذلك من المصلحة ، وجمع الكلمة، وعدم الاختلاف ، فأناب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة ـ رضى الله عنهم أجمعين .

وقد قال أبو إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد : أن عبد الله بن مسعود دخل مسجد مِنى فقال : كم صلّى أمير المؤمنين الظهر ؟ قالوا : أربعاً ، فصلى ابن مسعود أربعاً ، فقالوا : ألم تحدثنا أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر صلّوا ركعتين ؟ فقال : نعم ! وأنا أحدثكموه الآن ، ولكنى أكره الاختلاف . وفى الصحيح ، أن ابن مسعود قال : ليت حظى من أربع ركعات ـ ركعتين متقبلتين . وقال الأعمش : حدثنى معاوية بن قرة ـ بواسط ـ عن أشياخه قالوا : صلى عثمان الظهر بمنى أربعاً ، فبلغ ذلك ابن مسعود فعاب عليه ، ثم صلى بأصحابه العصر فى رحله أربعاً ، فقيل له : عتبت على عثمان وصليت أربعاً ؟ فقال : إنى أكره الخلاف . وفى رواية : الخلاف شرّ ، فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان فى هذا الفرع ، فكيف بمتابعته إياه فى أصل القرآن ؟ والاقتداء به فى التلاوة التى عزم على الناس أن يقرءوا بها لا بغيرها ؟ وقد حكى الزهرى وغيره : أن عثمان إنما أتمّ خشيةً على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتان ، وقيل : بل قد تأهل بمكة ، فروى يعلى وغيره من حديث عكرمة بن إبراهيم ، حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحارث بن أبى ذباب عن أبيه ، أن عثمان صلى بهم بمنى أربع ركعات ، ثم أقبل عليهم فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا تزوج الرجل ببلد فهو من أهله ، وإنى أتممتُ لأنى تزوجت بها منذ قدمتُها .

وهذا الحديث لا يصح ، وقد تزوج رسول الله ﷺ فى عُمرة القضاء بميمونة بنت الحارث ولم يتم الصلاة . وقد قيل إن عثمان تأوّل أنه أمير المؤمنين حيث كان ، وهكذا تأولت عائشة فأتمت . وفى هذا التأويل نظر ؛ فإن رسول الله ﷺ هو رسول الله حيث كان ، ومع هذا ما أتمّ الصلاة فى الأسفار . ومما كان يعتمده عثمان بن عفان، أنه كان يُلزم عُمّاله بحضور الموسم كل عام، ويكتب إلى الرعايا : مَن كانت له عند أحد منهم مَظْلمة فليواف إلى الموسم ، فإنى آخذ له حقه من عامله ، وكان عثمان قد سَمَح لكثير من كبار الصحابة فى المسير حيث شاءوا من البلاد ، وكان عمر يَحجرُ عليهم فى ذلك ، حتى ولا فى الغزو ، ويقول : إنى أخاف أن ترَوا الدنيا وأن يراكم

---

(١) من الآية : ١٦١ من سورة آل عمران

أبناؤها . فلما خرجوا فى زمان عُثمان اجتمع عليهم الناس ، وصار لكل واحد أصحاب ، وطمع كلُّ قوم فى تولية صاحبهم الإمارة العامة بعد عثمان ، فاستعجلوا مَوْته ، واستطالوا حياته ، حتى وقع ما وقع من بعض أهل الأمصار ، كما تقدم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ، العلى العظيم .

ذكر زوجاته، وبنيه، وبناته، رضى الله عنهم

تزوج رُقيّةَ بنت رسول الله ﷺ ، فولد له منها عبد الله ، وبه كان يُكنى ، بعد ما كان يُكنى فى الجاهلية بأبى عمرو . ثم لما توفيت تزوج بأختها أم كلثوم ، ثم توفيت فتزوج بفاختة بنت غَزْوان بن جابر ، فولد له منها عبيد الله الأصغر . وتزوج بأمّ عمرو بنت جُنْدب بن عمرو الأزدية ، فولدت له عمراً ، وخالداً ، وأباناً ، وعمر ، ومريم . وتزوج بفاطمة بنت الوليد بن عبد شمس المخزومية ، فولدت له الوليد وسعيداً . وتزوج أم البنين بنت عُيينة بن حِصن الفزارية ، فولدت له عبد الملك ، ويقال: وعتبة . وتزوج رَملة بنت شَيبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبد مناف بن قصى ، فولدت له عائشة ، وأم أبان ، وأم عمرو ـ بنات عثمان . وتزوج نائلة بنت الفَرافِصة بن الأحوص ابن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضَمضم بن عدىّ بن جَناب بن كَليب ، فولدت له مريم ، ويقال : وعنبسة . وقتل رضى الله عنه وعنده أربع : نائلة ، ورملة ، وأم البنين ، وفاختة . ويقال: إنه طلق أم البنين وهو محصور .

فصل

تقدم فى دلائل النبوة، الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود، من حديث سفيان الثورى عن منصور عن رَبعى عن البراء بن ناجية الكاهلى ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن رَحَا الإسلام ستدور لخمس وثلاثين ـ أو ست وثلاثين ـ أو سبع وثلاثين، فإن تهلك فسبيل ما هلك، وإن يَقم لهم دينهم يَقُم لهم سبعين عاما قال: فقال عمر : يارسول الله ! أبما مضى أم بما بقى ؟ قال: بل بما بقى » وفى لفظ له ولأبى داود : «تدور رَحا الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين» الحديث . وكأن هذا الشك من الراوى، والمحفوظ فى نفس الأمر ـ خمس وثلاثون؛ فإن فيها قتل أمير المؤمنين عثمان على الصحيح ، وقيل : ست وثلاثين ، والصحيح الأول . وكانت أمور شنيعة. ولكن الله سلم ووقى بحوله وقُوته ، فلم يكن بأسرع من أن بايع الناس علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وانتظم الأمر ، واجتمع الشمل ، ولكن جرت بعد ذلك أمور فى يوم الجمل وأيام صفّين، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

فصل فى ذكر من توفى فى زمان دولة عثمان

ممن لا يعرف وقت وفاته على التعيين ، على ما ذكره شيخنا أبو عبد الله الذهبى وغيره

* أنس بن معاذ بن أنس بن قيس الأنصارى النجارى ، ويقال له : أنيس أيضاً . شهد المشاهد كلها رضى الله عنه .

* أوس بن الصامت ـ أخو عبادة بن الصامت الأنصارى ـ شهد بدراً ، وأوس هو زوج المجادلة المذكور فى قوله تعالى (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجادِلُكَ فى زَوْجِها وتَشْتَكِي الى اللهِ وَاللهُ يَسمعُ تَحاوُرَكُما إن الله سَميعٌ بَصيرٌ)[1] وامرأته : خولة بنت ثعلبة .

* أوس بن خولى الأنصارى ـ من بنى الحبلى ، شهد بدراً ، وهو المنفرد من بين الأنصار بحضور غسل النبى ﷺ ، والنزول مع أهله فى قبره ـ عليه الصلاة والسلام .

* الجد بن قيس ، كان سيداً فى الأنصار ، ولكن كان بخيلا ومتهماً بالنفاق ، يقال إنه شهد بيعة الرضوان ، فلم يبايع ، واستتر ببعير له ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : (ومِنْهُم مَنْ يَقولُ ائْذَنْ لِي ولاَ تَفْتِنِّي ألاَ فى الفِتْنةِ سَقَطُوا)[2] الآية . وقد قيل إنه تاب وأقلع ، فالله أعلم .

* الحطيئة الشاعر المشهور قيل : اسمه جرول ـ ويكنى بأبى مليكة ، من بنى عبس ، أدرك أيام الجاهلية ، وأدرك صدراً من الاسلام ، وكان يطوف فى الآفاق يمتدح الرؤساء من الناس ، ويستجديهم ، ويقال : كان بخيلا مع ذلك ، سافر مرة فودّع امرأته فقال لها :

عُدّى السنين إذا خرجت لغيبة ودعى الشهورَ فإنهن قصار

وكان مداحاً هجّاء ، وله شعر جيد ، ومن شعره ما قاله بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فاستجاد منه قوله :

من يَفعَل الخيرَ لم يعدم جوازيه لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

* خبيب بن يساف بن عتبة الأنصارى . أحد من شهد بدراً .

* سلمان بن ربيعة الباهلى يقال له صحبة ، وكان من الشجعان الأبطال المذكورين ، والفرسان المشهورين ولاه عمر قضاء الكوفة ، ثم ولى فى زمن عثمان إمرة على قتال الترك ، فقتل ببلنجر فقبره هناك فى تابوت يستسقى به الترك إذا قحطوا .

* عبد الله بن حذافة بن قيس القرشى السهمى ، هاجر هو وأخوه قيس إلى الحبشة ، وكان من سادات الصحابة ، وهو القائل : يا رسول الله !! مَن أبى ؟ ـ وكان إذا لاحى الرجال دُعى لغير أبيه ـ

---

(١) أول سورة المجادلة (٢) من الآية : ٤٩ من سورة التوبة

فقال : أبوك حذافة ، وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى فدفع كتابه إلى عظيم بصرى فبعث معه من يوصله إلى هرقل كما تقدم . وقد أسرته الروم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فى جملة ثمانين من المسلمين ، فأرادوه على الكفر فأبى عليهم ، فقال له الملك : قبل رأسى وأنا أطلقك ومن معك من المسلمين ، فقبل رأسه ، فأطلقهم ، فلما قدم على عمر قال له : حق على كل مسلم أن يقبل رأسك ، ثم قام عمر فقبل رأسه قبل الناس - رضى الله عنه .

* عبد الله بن سراقة بن المعتمر ، العدوى ، صحابى أحدى ، وزعم الزهرى أنه شهد بدراً فالله أعلم .

* عبد الله بن قيس بن خالد الأنصارى. شهد بدراً .

* عبد الرحمن بن سهل بن زيد الأنصارى الحارثى . شهد أحداً وما بعدها. وقال ابن عبد البر: شهد بدراً ، استعمله عمر على البصرة بعد موت عتبة بن غزوان ، وقد نهشته حية فرقاه عمارة بن حزم ، وهو القائل لأبى بكر - وقد جاءته جدتان فأعطى السدس أم الأم، وترك الأخرى وهى أم الأب - فقال له : أعطيت التى لو ماتت لم يرثها ، وتركت التى لو ماتت لورثها ، فشرك بينهما .

* عمرو بن سراقة بن المعتمر العدوى - أخو عبدالله بن سراقة، وهو بدرى كبير ، روى أنه جاع مرة فربط حجراً على بطنه من شدة الجوع ، ومشى يومه ذلك إلى الليل ، فأضافه قوم من العرب ومن معه ، فلما شبع قال لأصحابه : كنت أحسب الرجلين يحملان البطن ، فإذا البطن يحمل الرجلين .

* عمير[1] بن سعد الأنصارى الأوسى . صحابى جليل القدر ، كبير المحل ، كان يقال له نسيج وحده ، لكثرة زهادته وعبادته ، وشهد فتح الشام مع أبى عبيدة ، وناب بحمص وبدمشق أيضاً فى زمان عمر ، فلما كانت خلافة عثمان عزله وولى معاوية الشام بكماله، وله أخبار يطول ذكرها.

* عروة بن حزام - أبو سعيد العذرى، كان شاعراً مغرماً فى ابنة عم له، وهى: عفراء بنت مهاجر يقول فيها الشعر ، واشتهر بحبها ، فارتحل أهلها من الحجاز إلى الشام ، فتبعهم عروة فخطبها إلى عمه، فامتنع من تزويجه لفقره ، وزوجها بابن عمها الآخر ، فهلك عروة هذا فى محبتها ، وهو مذكور فى كتاب مصارع العشاق ، ومن شعره فيها قوله :

وما هى إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت حتى ما أكاد أجيب

وأصرف عن رأيى الذى كنت أرتأى ... وأنسى الذى أعددت حين تغيب

---

(١) فى نسخة : عمر بن سعد .

• قطبة بن عامر أبو زيد الأنصارى عقبى بدرى .

• قيس بن مهدى بن قيس بن ثعلبة الأنصارى النجارى، له حديث فى الركعتين قبل الفجر ، وزعم ابن ماكولا أنه شهد بدراً . قال مصعب الزبيرى : هو جد يحيى بن سعيد الأنصارى ، وقال الأكثرون : بل هو جد أبى مريم عبدالغفار ابن القاسم الكوفى ، فالله أعلم .

• لبيد بن ربيعة، أبو عقيل العامرى الشاعر المشهور ،صح أن رسول الله ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر ـ كلمة لبيد : ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطلُ» .

وتمام البيت : • وكلُّ نعيم لا محالة زائل •

فقال عثمان بن مظعون: إلا نعيم الجنة ، وقد قيل : إنه توفى سنة إحدى وأربعين، فالله أعلم

• المسيب بن حَزن بن أبى وهب المخزومى ،شهد بيعة الرضوان، وهو والد سعيد بن المسيب سيد التابعين.

• معاذ بن عمرو بن الجموح الأنصارى . شهد بدراً ، وضرب يومئذ أبا جهل بسيفه فقطع رجله ، وحمل عكرمة بن أبى جهل على مُعاذ هذا فضربه بالسيف ، فحلّ يده من كتفه ، فقاتل بقية يومه وهى معلقة يسحبها خلفه ، قال معاذ : فلما انتهيت وضعت قدمى عليها ، ثم تمطأت عليها حتى طرحتها .

• محمد بن جعفر بن أبى طالب ، القرشى الهاشمى، ولد لأبيه وهو بالحبشة ، فلما هاجر إلى المدينة سنة خيبر ، وتوفى يوم مُؤتة شهيداً ـ جاء رسول الله ﷺ إلى منزلهم ، فقال لأمهم أسماء بنت عُميس : « ايتينى ببنى أخى ، فجىء بهم كأنهم أفرخ ، فجعل يقبلهم ويشمهم ويبكى ، فبكت أمهم ، فقال : أتخافين عليهم العَيلة وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟ ثم أمر الحلاق فحلق رُءوسهم » وقد مات محمد وهو شاب فى أيام عثمان كما ذكرنا. وزعم ابن عبدالبر، أنه توفى فى تستر، فالله أعلم .

• معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، قتل شاباً بأفريقية من بلاد المغرب

• معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى ، صاحب خاتم النبى ﷺ ، قيل توفى فى أيام عثمان . وقيل قبل ذلك ، وقيل سنة أربعين ، والله أعلم .

• منقذ بن عمرو الأنصارى، أحد بنى مازن بن النجار . كان قد أصابته آمة فى رأسه فكسرت لسانه ، وضعف عقله ، وكان يكثر من البيع والشراء ، فقال له النبى ﷺ : « من بايعت فقل لاخِلابة[1] ، ثم أنت بالخيار فى كل ما تشتريه ثلاثة أيام » قال الشافعى : كان مخصصاً بإثبات الخيار ثلاثة فى كل بيع ، سواء اشترط الخيار أم لا .

---

(١) الخلابة : الخديعة باللسان، وبابه كتب .

• نعيم بن مسعود ، أبو سلمة الغطفانى ، وهو الذى خذل بين الأحزاب وبين بنى قريظة كما قدمناه ، فله بذلك اليد البيضاء ، والراية العليا .

• أبو ذؤيب - خويلد بن خالد الهذلى، الشاعر. أدرك الجاهلية ، وأسلم بعد موت النبى ﷺ ، وشهد يوم السقيفة، وصلى على النبى ﷺ ،وكان أشعر هذيل، وهذيل أشعر العرب، وهو القائل:

وإذا المنيةُ أنشبَت أظفارَها ألفَيت كلَّ تميمة لا تنفع

وتجلّدى للشامتين أُريهمُ أنى لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع

توفى غازيا بإفريقية فى خلافة عثمان .

• أبو رُهم - سَبرة بن أبى بن عبدالعزى القرشى الشاعر، ذكره فى هذا الفصل محمد بن سعد وحده.

• أبو زبيد الطائى ، الشاعر، اسمه حَرملة بن المنذر ، وكان يجالس الوليد بن عقبة ، فأدخله على عثمان فاستنشده شيئاً من شعره ، فأنشده قصيدة له فى الأسد بديعة ، فقال له عثمان : تفتأ تذكر الأسد ما حييت ؟ إنى لأحسبك جباناً نصرانياً .

• أبو سبرة بن أبى رهم العامرى ، أخو أبى سلمة بن عبد الأسد، أمهما بَرّة بنت عبدالمطلب ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا وما بعدها. قال الزبير : لا نعلم بدريا سكن مكة بعد النبى ﷺ سواه ، قال : وأهله ببدر فى ذلك .

• أبو لبابة بن عبدالمنذر ، أحد نقباء ليلة العقبة ، وقيل إنه توفى فى خلافة على ، والله أعلم .

• أبو هاشم بن عتبة ، تقدم ، وفاته فى سنة إحدى وعشرين ، وقيل فى خلافة عثمان والله أعلم.

خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

ولنذكر شيئاً من ترجمته على سبيل الاختصار قبل ذلك

هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، واسمه عبد مناف بن عبدالمطلب ، واسمه شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف ، واسمه المغيرة بن قصى ، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان - أبو الحسن والحسين . ويكنى بأبى تراب ، وأبى القسم الهاشمى ؛ ابن عم رسول الله ﷺ وختَنه على ابنته فاطمة الزهراء . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، ويقال إنها أول هاشمية ولدت هاشميا . وكان له من الإخوة : طالب ، وعقيل ، وجَعفر ، وكانوا أكبر منه ؛ بين كل واحد منهم وبين الآخر عشر سنين . وله أختان : أم هانىء ، وجمانة ، وكلهم من فاطمة بنت أسد ، وقد أسلمت وهاجرت .

كان على أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وكان ممن توفى ورسول الله ﷺ ، راض عنهم ، وكان رابع الخلفاء الرشدين ، وكان رجلا آدَم[1] شديد الأُدمة أشكل العينين عظيمهما ، ذو بطن ، أصلع ، وهو إلى القصر أقرب ، وكان عظيم اللحية ؛ قد ملأت صدره ومنكبيه ، أبيضها ، وكان كثير شعر الصدر والكتفين ، حسنَ الوجه ، ضحوك السن ، خفيف المشى على الأرض . أسلم علىّ قديما ، وهو ابن سبع ، وقيل ابن ثمان ، وقيل تسع ، وقيل عشر ، وقيل إحدى عشرة ، وقيل اثنى عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ، وقيل أربع عشرة ، وقيل ابن خمس عشرة ، أو ست عشرة سنة ، قاله عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن . ويقال إنه أول من أسلم . والصحيح أنه أول من أسلم من الغلمان ، كما أن خديجة أول من أسلمت من النساء ، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالى ، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار .

وكان سبب إسلام علىّ صغيراً ، أنه كان فى كفالة رسول الله ﷺ ؛ لأنه كان قد أصابتهم سنة مجاعة ، فأخذه من أبيه ، فكان عنده ، فلما بعثه الله بالحق آمنت خديجة وأهل البيت ومن جملتهم علىّ . وكان الإيمان النافع المتعدى نفعه إلى الناس ، إيمان الصديق رضى الله عنه .

وقد ورد عن علىّ أنه قال: أنا أول من أسلم ، ولا يصح إسناده إليه . وقد روى فى هذا المعنى أحاديث أوردها ابن عساكر كثيرة منكرة ، لا يصح شىء منها ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، سمعت أبا حمزة ـ رجلا من موالى الأنصار ـ قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أول مَن أسلم مع رسول الله ﷺ علىّ . وفى رواية : أول من صلّى . قال عمرو : فذكرت ذلك للنخعى فأنكره وقال : أبو بكر أول من أسلم . وقال محمد بن كعب القرظى : أول من آمن من النساء خديجة ، وأول رجلين آمنا : أبو بكر وعلىّ ، ولكن كان أبو بكر يظهر إيمانه وعلىٌّ يكتم إيمانه ، قلت : يعنى خوفاً من أبيه ، ثم أمره أبوه بمتابعة ابن عمه ونصرته ، وهاجر علىّ بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة، وكان أمَره بقضاء ديونه وردّ ودائعه ، ثم يلحق به ، فامتثل ما أمره به ، ثم هاجر . وآخى النبى ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف . وذكر ابن إسحاق وغيره من أهل السير والمغازى : أن رسـول الله ﷺ ، آخى بينه وبين نفسه ، وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة لا يصح شىء منها لضعف أسانيدها ، وركة بعض متونها ، فإن فى بعضها « أنت أخى ووارثى وخليفتى ، وخَير من أمر بعدى » وهذا الحديث موضوع مخالف لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، والله أعلم .

---

(١) الأدمة فى الإنسان : السمرة ، والآدم من الناس : الأسمر . والأدمة فى الإبل : لون مشرب سوادا أو بياضاً . وفى الظباء : لون مشرب بياضا .

وقد شهد علىّ بدراً ، وكانت له اليد البيضاء فيها ، بارز يومئذ فغلب وظهر ، وفيه وفى عمه حمزة ، وابن عمه عبيدة بن الحارث، وخصومهم الثلاثة ـ عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ـ نزل قوله تعالى : (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِم)[1] الآية . وقال الحكم وغيره ، عن مقسم عن ابن عباس قال : « دفع النبى ﷺ الراية يوم بدر إلى علىّ وهو ابن عشرين سنة » . وقال الحسن ابن عرفة : حدثنى عمار بن محمد عن سعيد بن محمد الحنظلى عن أبى جعفر ـ محمد بن على ، قال : نادى منادٍ فى السماء يوم بدر ـ يقال له رضوان : لا سيفَ إلا ذُ الفقار ولا فتىّ إلا علىّ . قال ابن عساكر : وهذا مرسل، وإنما تنفّل[2] رسول الله ﷺ سيفَه ذا الفقار يوم بدر، ثم وهَبه من علىّ بعد ذلك . وقال يونس بن بكير ، عن مسعر عن أبى عوف عن أبى صالح عن علىّ قال : قيل لى يوم بدر ولأبى بكر ، قيل لأحدِنا : معك جبريل ومع الآخر ميكائيل . قال : وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل ويكون فى الصَّف . وشهد علىّ أُحُداً ، وكان على الميمنة ومعه الراية بعد مصعب بن عمير . وعلى المَيْسرة المنذر بن عمرو الأنصارى . وحمزة بن عبد المطلب على القلب. وعلى الرَّجالة الزبير بن العوام ، وقيل المقداد بن الأسود .

وقد قاتل علىّ يوم أحد قتالا شديداً ، وقتل خلقًا كثيراً من المشركين ، وغَسَل عن وجه النبى ﷺ الدَّمَ الذى كان أصابه من الجراح، حين شُجَّ فى وجهه وكسرت رباعيته . وشهد يوم الخندق فقتل يومئذ فارسَ العرب ، وأحد شجعانهم المشاهير ـ عمرو بن عبدودّ العامرى ، كما قدمنا ذلك فى غزوة الخندق . وشهد الحديبية وبيعة الرضوان . وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة ؛ منها : أن رسول الله ﷺ قال : « لأعطِيَنَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ، فدعا علياً ـ وكان أرمد ـ فدعا له ، وبَصَق فى عينه فلم يرمد بعـدها ، فبرأ وأعطاه الراية ، ففتح الله على يديه ، وقتل مَرْحبًا اليهودى

وذكر محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن حسن عن بعض أهله ، عن أبى رافع ، أن يهوديًا ضرب عليًا فطرح تُرسَه ، فتناول بابًا عند الحصن فترّس[3] به ، فلم يزل فى يده حتى فتح الله على يديه ثم ألقاه من يده ، قال أبو رافع : فلقد رَأيتنى أنا وسبعة معى نجتهد أن نَقْلب ذلك الباب على ظهره يوم خَيبر فلم نستطع . وقال ليث عن أبى جعفر عن جابر : إن عليا حَمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها ، فلم يحملوه إلا أربعون رجلا .

ومنها : أنه قتل مرحبا ـ فارس يهود وشجعانهم.

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحج . (٢) تنفل : أخذ من الغنيمة أكثر مما أخذوا

(٣) أى : تحصن وجعله ترسا ، والترس : التستر بالترس

وشهد عليّ عمرة القضاء ، وفيها قال له النبي ﷺ : « أنت مني ، وأنا منك » . وما يذكره كثير من القصاص في مقاتلته الجنّ في بئر ذات العلم - وهو بئر قريب من الجحفة - فلا أصل له ، وهو من وضع الجهلة من الإخباريين فلا يغترّ به . وشهد الفتح وحُنيناً والطائف ، وقاتل في هذه المشاهد قتالاً كثيراً ، واعتمر من الجعرّانة مع رسول الله ﷺ ، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك واستخلفه على المدينة ، قال له : يا رسول الله! أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ فقال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبيّ بعدي » . وبعثه رسول الله ﷺ أميراً وحاكماً على اليمن ، ومعه خالد بن الوليد ، ثم وافى رسول الله ﷺ عام حجة الوداع إلى مكة ، وساق معه هدياً ، وأهلّ كإهلال النبي ﷺ فأشركه في هديه ، واستمر على إحرامه ، ونحرا هديهما بعد فراغ نسكهما - كما تقدم .

ولما مرض رسول الله ﷺ قال له العباس : سَلْ رسول الله ﷺ فيمن الأمر بعده ؟ فقال : والله لا أسأله ، فإنه إن منعناها لا يعطيناها الناس بعده أبداً . والأحاديث الصحيحة الصريحة دالة على أنّ رسول الله ﷺ لم يوص إليه ولا إلى غيره بالخلافة ، بل لوّح بذكر الصديق ، وأشار إشارة مفهمة ظاهرة جداً إليه ، كما قدمنا ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وأما ما يفتري به كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء من أنه أوصى إلى عليّ بالخلافة - فكذب وبهت وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير ؛ من تخوين الصحابة ، وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى مَن أوصى إليه ، وصرفهم إياها إلى غيره ، لا لمعنى ولا لسبب . وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أنّ دين الإسلام هو الحقّ - يعلم بطلان هذا الافتراء ؛ لأن الصحابة كانوا خيرَ الخلق بعد الأنبياء ، وهم خير قرون هذه الأمة ، التي هي أشرف الأمم بنص القرآن ، وإجماع السلف والخلف ، في الدنيا والآخرة ، ولله الحمد .

وما قد يقصّه بعض القصاص من العوام وغيرهم في الأسواق وغيرها ؛ من الوصية لعليّ في الآداب والأخلاق ، في المأكل والمشرب والملبس ، مثل ما يقولون : يا عليّ لا تعمّم وأنت قاعد ، يا علي لا تلبس سراويلك وأنت قائم ، يا علي لا تمسك عِضادتَي الباب ، ولا تجلس على أسكفّة الباب ، ولا تخيط ثوبك وهو عليك .. ونحو ذلك - كل ذلك من الهذيانات فلا أصل لشيء منه ، بل هو اختلاق بعض السفلة الجهلة ، ولا يُعوّل على ذلك ويغترّ به إلا غبيّ عيي .

ثم لما مات رسول الله ﷺ ، كان عليّ من جملة مَن غسّله وكفنّه وولي دفنه كما تقدم ذلك مفصلاً ، ولله الحمد والمنة .

وسيأتى فى باب فضائله : ذكر تزويج رسول الله ﷺ له من فاطمة بعد وقعة بدر ، فولد له منها: حسن، وحسين، ومحسن-كما قدمنا وقد وردت أحاديث فى ذلك لايصح شىء منها، بل أكثرها من وضع الروافض والقصاص . ولما بويع الصديق يوم السقيفة كان علىّ من جملة من بايع بالمسجد كما قدمنا . وكان بين يدى الصديق - كغيره من أمراء الصحابة - يرى طاعته فرضاً عليه ، وأحبّ الأشياء إليه . ولما توفيت فاطمة بعد ستة أشهر - وكانت قد تغضّبت بعض الشىء على أبى بكر بسبب الميراث الذى فاتها من أبيها عليه السلام ، ولم تكن اطلعت على النص المختص بالأنبياء وأنهم لا يورّثون ، فلما بلغها سألت أبا بكر أن يكون زوجها ناظراً على هذه الصدقة ، فأبى ذلك عليها ، فبقى فى نفسها شىء كما قدمنا ، واحتاج علىٌّ أن يداريها بعض المداراة - فلما توفيت جدد البيعة مع الصّديق رضى الله عنهما .

فلما توفى أبو بكر، وقام عمر فى الخلافة بوصية أبى بكر إليه بذلك - كان علىّ من جملة من بايعه ، وكان معه يشاوره فى الأمور ، ويقال : إنه استقضاه فى أيام خلافته ، وقدم معه من جملة سادات أمراء الصحابة إلى الشام ، وشهد خطبته بالجابية . فلما طُعِن عُمَرُ وجُعِل الأمر شُورى فى ستة ، أحدهم علىّ ، ثم خلص منهم بعثمان وعلىّ كما قدمنا ، فقدم عثمان على علىّ - سمع وأطاع . فلما قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمسة وثلاثين على المشهور - عدل الناس إلى علىّ فبايعوه ، قبل أن يدفن عثمان ، وقيل بعد دفنه كما تقدم . وقد امتنع علىّ من إجابتهم إلى قبول الإمارة، حتى تكرر قولهم له، وفرّ منهم إلى حائط بنى عمرو بن مَبْذول، وأغلق بابه، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه ، وجاءوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له : إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ، ولم يزالوا به حتى أجاب .

ذكر بيعة علىّ رضى الله عنه بالخلافة

يقال : إن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى، وكانت شلاّء من يوم أحد - لما وقى بها رسول الله ﷺ - فقال بعض القوم : والله إن هذا الأمر لا يتمّ ، وخرج علىّ إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وعمامة خزّ ونعلاه فى يده ، يتوكأ على قوسه ، فبايعه عامة الناس ، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ويقال: إنّ طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يُؤمّرهما على البصرة والكوفة ، فقال لهما : بل تكونان عندى أستأنس بكما .

ومن الناس من يزعم أنه لم يبايعه طائفة من الأنصار ؛ منهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وَمسلمة بن مخلّد ، وأبو سعيد الخدرىّ ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خَديج ، وفَضالة بن عُبيد ، وكعب بن عُجْرة . ذكره ابن جرير من طريق المدائنى، عن شيخ من بنى هاشم عن عبد الله بن الحسن .

قال المدائنى : حدثنى مَن سمع الزهرى يقول : هربَ قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً . ولم يبايعه قُدامة بن مَظعون ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شعبة . قلت : وهرب مَرْوان بن الحكم، والوليد بن عُقبة وآخرون إلى الشام . وقال الواقدى : بايع الناس عَلياً بالمدينة ، وتربّص سبعة نفر لم يُبايعوا ؛ منهم : ابن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ، وصُهيب ، وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، وسَلَمة بن وقش ، وأسامة بن زيد ، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم. وذكر سيف بن عمر، عن جماعة من شيوخه قالوا : بقيت المدينةُ خمسَة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقىّ بن حَرب ، يلتمسون من يُجيبهم إلى القيام بالأمر . والمصريون يُلحّون على علىّ وهو يهرب منهم إلى الحيطان ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طَلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا تُوَلّى أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فمضوا إلى سَعد بن أبى وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم ، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبىَ عليهم ، فحاروا فى أمرهم ، ثم قالوا: إن نحنُ رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة ــ اختلف الناس فى أمرهم ولم نَسلم ، فرجعوا إلى علىّ فألحّوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس ، وأهل الكوفة يقولون : أول مَن بايعه الأشتر النخعى ، وذلك يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة ، وذلك بعد مراجعة الناس لهم فى ذلك ، وكلهم يقول : لا يصلح لها إلا علىّ . فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر ، بايعه مَن لم يبايعه بالأمس .

وكان أول من بايعه ؛ طَلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم الزبير ، ثم قال الزبير : إنما بايعت علياً واللُّجُّ[1] على عنقى والسلام ، ثم راح إلى مكة فأقام أربعة أشهر . وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمسة بقين من ذى الحجة ، وكان أول خطبة خطبها ، أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر ، فخذُوا بالخير ودعوا الشّر ، إن الله حرّم حُرَمًا غير مجهولة ، وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها ، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، والمُسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحلُّ لمسلم أذى مسلم إلا بما يَجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموتُ ؛ فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعةُ تحدوكم فتخففوا تلحقوا ؛ فإنما ينتظر الناس أخرامم . اتقوا الله عبادَه فى عباده وبلاده ؛ فإنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم ، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه (واذكُروا إذ أنتُم قَليل مُستَضعَفُون فى الأرض)[2] الآية ، فلما فرغ من خطبته قال المصريون :

---

(١) اللج : السيف ، تشبيها بلجج الماء (٢) من الآية : ٢٦ من سورة الأنفال

خُذها إليك واحذَرنْ أبا الحسن ... إنا نُمِرُّ الأمرَ إمرار الرَّسَن

صَوْلة آسادٍ كآساد السُّفُن ... بمَشْرفيات كغُدران اللبن

ونَطعُن الملكَ بلِيْنٍ كالشَّطَن ... حتى يُمَرّن على غير عَنَن

فقال علىّ مجيبا لهم :

إنى عَجزتُ عَجزةً لا أعتذر ... سوفَ أَكيسُ بعدها وأستمرّ

أرفعُ من ذَيْلى ما كنتُ أجُرّ ... وأجمعُ الأمرَ الشّتيت المنتشر

إن لم يُشاغِبنى العَجول المنتصرْ ... أو يَتركونى والسِّلاحُ يُبتدَرْ

وكان على الكوفة : أبو موسى الأشعرى على الصّلاة ، وعلى الحرب القعقاع بن عمرو ، وعلى الخَراج جابر بن فلان[1] المُزنىّ ، وعلى البَصرة عبد الله بن عامر ، وعلى مِصر عبد الله بن سَعْد ابن أبى سرح ـ وقد تغلب عليه محمد بن أبى حُذيفة ، وعلى الشام معاوية بن أبى سفيان . ونوابه: على حمص ـ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قِنَّسْرين ـ حبيب بن مسلمة ، وعلى الأردن أبو الأعور بن سفيان ، وعلى فلسطين ـ علقمة بن حكيم ، وعلى أذرَبيجان ـ الأشعث بن قيس ، وعلى قَرقِيْسِياء ـ جرير بن عبد الله البجلى، وعلى حُلوان ـ عُتَيبة بن النّهاس؛ وعلى قَيسارية ـ مالك ابن حبيب ، وعلى همذان[2] ـ حُبَيش . هذا ما ذكره ابن جرير من نواب عثمان الذين توفى وهم نواب الأمصار . وكان على بيت المال ـ عُقبة بن عمرو ، وعلى قضاء المدينة ـ زيد بن ثابت .

ولما قتل عثمان بن عفان ، خرج النعمان بن بشير ومعه قيص عثمان مُضَمَّخ بدمه ، ومعه أصابع نائلة التى أصيبت حين حَاجَفت عنه بيدها ، فقطعت مع بعض الكَفّ ، فورد به على مُعاوية بالشام ، فوضعه مُعاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلّق الأصابع فى كُمّ القميص ، وَندبَ الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه . فتباكى الناس حول المنبر ، وجعل القميص يُرفع تارة ويوضع تارة ، والنّاس يتباكَوْن حوله سَنَة ، ويحثّ بعضهم بعضا على الأخذ بثأره . واعتزل أكثر الناس النساء فى هذا العام ، وقام فى الناس مُعاوية وجماعة من الصحابة معه ، يحرّضون الناس على المطالبة بدم عثمان ؛ ممن قتله من أولئك الخوارج ، منهم : عبادة بن الصامت ، وأبو الدّرداء ، وأبو أمامة ؛ وعمرو بن عَنْبسة .. وغيرهم من الصحابة . ومن التابعين : شريك بن حباشة ، وأبو مسلم الخولانى ، وعبد الرحمن بن غنم ... وغيرهم من التابعين .

ولما استقر أمر بيعة علىّ ، دخل عليه طَلحة والزبير ورءوس الصحابة ـ رضى الله عنهم ، وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان . فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مَددٌ وأعوان ، وأنه لا يُمكنه

(١) فى الطبرى : جابر بن عمرو المزنى

(٢) فى الطبرى : ماسبذان

ذلك يومه هذا . فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود . وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ؛ ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج ، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم فى قتل عثمان رضى الله عنه فقال لهما : مهلاً علىّ ، حتى أنظر فى هذا الأمر . ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له : إنى أرى أن تقر عمالك على البلاد ، فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت . ثم جاءه من الغد فقال له : إنى أرى أن تعزلهم لتعلم من يطيعك ممن يعصيك . فعرض ذلك علىّ على ابن عباس فقال : لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم ، فبلغ ذلك المغيرة فقال : نعم ! نصحته ، فلما لم يقبل غششته . ثم خرج المغيرة فلحق بمكة ، ولحقه جماعة منهم طلحة والزبير ، وكانوا قد استأذنوا عليًا فى الاعتمار فأذن لهم .

ثم إن ابن عباس أشار على علىّ باستمرار نوابه فى البلاد ، إلى أن يتمكن الأمر ، وأن يقر معاوية خصوصا على الشام ، وقال له : إنى أخشى إن عزلته عنها أن يطلبك بدم عثمان ، ولا آمن طلحة والزبير أن يتكلما عليك بسبب ذلك . فقال على : إنى لا أرى هذا ، ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها ، فقال ابن عباس لعلىّ : إنى أخشى من معاوية أن يقتلنى بعثمان ، أو يحبسنى لقرابتى منك ، ولكن اكتب معى إلى معاوية فمنّه وعِده ، فقال علىّ : والله إن هذا مالا يكون أبدا ، فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! الحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ ، فوالله لئن أطعتنى لأوردنهم بعد صدرهم[1] ونهى ابن عباس عليًا فيما أشار عليه ، أن يقبل من هؤلاء الذين يحسنون إليه الرحيل إلى العراق ، ومفارقة المدينة ، فأبى عليه ذلك كله ، وطاوع أمر أولئك الأمراء من أولئك الخوارج من أهل الأمصار .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قصد قسطنطين بن هرقل بلاد المسلمين فى ألف مركب ، فأرسل الله عليه قاصفا من الريح . ففرقه الله بحوله وقوته ، ومن معه ، ولم ينج منهم أحد إلا الملك فى شرذمة قليلة من قومه . فلما دخل صقلية عملوا له حماما فدخله فقتلوه فيه ، وقالوا : أنت قتلت رجالنا .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين من الهجرة

استهلت هذه السنة وقد تولى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الخلافة ، وولى على الأمصار نوابا ؛ فولى عبد الله بن عباس على اليمن ، وولى سمرة بن جندب[2] على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر ، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية ، فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : أمير ، قالوا : على أى شىء ؟ قال : على الشام ، فقالوا : إن كان عثمان بعثك فحيّهلاً بك ، وإن كان غيره فارجع .

(١) فى الطبرى : لأصدرن بهم بعد ورد .
(٢) الذى فى الطبرى : أنه ولى عثمان بن حنيف على البصرة ، كما سيأتى .

فقال : أو ماسمعتم بالذى كان ؟ قالوا : بلى ، فرجع إلى على . وأما قيس بن سعد فاختلف عليه أهل مصر فبايع له الجمهور ، وقالت طائفة : لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان . وكذلك أهل البصرة . وأما عُمارة بن شهاب المبعوث أميراً على الكوفة ، فصدّه طلحة بن خُويلد غضباً لعثمان ، فرجع إلى علىّ فأخبره ، وانتشرت الفتنة وتفاقم الأمر ، واختلفت الكلمة . وكتب أبو موسى إلى علىّ بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم ـ إلا القليل منهم .

وبعث على إلى معاوية كتباً كثيرة فلم يردّ عليه جوابها ، وتكرّر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان فى صفر . ثم بعث معاوية طوماراً مع رجل فدخل به على علىّ فقال : ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القوَد[1] كلهم موتور[2]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو على منبر دمشق ، فقال علىّ : اللهم إنى أبرأ إليك من دَم عثمان ، ثم خرج رسولُ معاوية بين يَدى على ـ فهمّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله ، فما أفلتَ إلا بعد جهد . وعزم علىّ ـ رضى الله عنه ـ على قتال أهل الشام ، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم ، وإلى أبى موسى بالكوفة . وبعث إلى عثمان بن حُنيف بذلك ، وخطب الناس فحثّهم على ذلك . وعزم على التجهز، وخرج من المدينة ،واستخلف عليها قُثَم بن العباس ، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه ـ مَنْ عَصاه ، وخرج عن أمره ، ولم يبايعه مع الناس . وجاء إليه ابنه الحسن بن علىّ فقال : يا أبتِ دَعْ هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ، ووقوع الاختلاف بينهم ، فلم يقبل منه ذلك ، بل صمّم على القتال ، ورتّب الجيش ؛ فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية ، وجعل ابن العباس على الميمنة ، وعمرو بن أبى سَلمة على الميسرة ـ وقيل جعل على الميسرة: عمرو بن سُفيان بن عبد الأسد ـ وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجرّاح ابن أخى أبى عبيدة . واستخلف على المدينة قُثَم بن العباس. ولم يبق شىء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً إلى الشام ، حتى جاءه ما شغله عن ذلك كله ، وهو ما سنورده .

ابتداء وقعة الجمل

لما وَقع قتل عثمان بعد أيام التشريق ، كان أزواج النبى ﷺ ـ أمهات المؤمنين ، قد خرجن إلى الحج فى هذا العام فِرارا من الفتنة ، فلما بلغ الناس أنّ عثمان قد قُتل ، أقمنَ بمكة بعد ماخرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها، وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس،ويتجسّسون الأخبار . فلما بُويع لعلىّ وصار حظ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأى ، لا عن اختيار منه لذلك ـ رؤس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن علياً فى نفس الأمر يكرَهُهم، ولكنه

(١) أى : القصاص . (٢) الوتر ـ بالفتح ـ الحقد والعداوة .

تربّص بهم الدوائر ، ويودُّ لو تمكن منهم ليأخذ حقّ الله منهم ولكن لمّا وقع الأمر هكذا واستحوذُوا عليه ، وحجَبُوا عنه عِلْيَةَ الصحابة ـ فرّ جماعة من بنى أمية وغيرهم إلى مكة ، واستأذنه طلحة والزبير فى الاعتمار ، فأذن لهما فخرجا إلى مكة، وتبعهم خلق كثير ، وجَمٌّ غفير ، وكان علىّ لما عزم على قتال أهل الشام، قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه ، فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرّضه على الخروج معه ، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة ، إن خرجوا خرجتُ على السمع والطاعة ، ولكن لا أخرج للقتال فى هذا العام .

ثم تجهز ابن عُمَر وخرج إلى مكة ، وقدم إلى مكة أيضاً فى هذا العام يَعْلَى بن أمية من اليمن ـ وكان عاملا عليها لعثمان ـ ، ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة ، وكان نائبها لعثمان ، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة ، وأمهات المؤمنين . فقامت عائشة رضى الله عنها فى الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان ، وذكرت ما افتات به أولئك مَن قَتْله فى بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جِوارَ رسول الله ﷺ ،وقد سفكوا الدماء وأخذوا الأموال . فاستجاب الناس لها ، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة ، وقالوا لها : حيثما سرت سرنا معك ، فقال قائل: نذهب إلى الشام ، فقال بعضهم : إن معاوية قد كفنا كم أمرها ولو قدموها لغلبوا ، واجتمع الأمر كله لهم؛ لأن أكابر الصحابة معهم وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من على أن يسلم إلينا قتلةَ عثمان فيقتلوا . وقال آخرون : بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال ، ونبدأ بمن هنالك مِن قَتلة عثمان فاتفق الرأى على ذلك وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقنَ عائشة على المسير إلى المدينة ، فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة ـ رجَعْن عن ذلك وقلن : لا نسير إلى غير المدينة ، وجهز الناس يَعْلى بن أمية فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وجهزهم ابن عامر أيضاً بمال كثير .

وكانت حفصة بنت عُمر أم المؤمنين، قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة ، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك ، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة ، وسار الناس صحبة عائشة فى ألف فارس ، وقيل تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة ، وتلاحق بهم آخرون ، فصاروا فى ثلاثة آلاف ، وأم المؤمنين عائشة تُحمل فى هَوْدَج على جَمل اسمه: عَسْكر ،اشتراه يَعْلى بن أمية من رجل من عرينة بمائتى دينار ، وقيل بثمانين ديناراً ، وقيل غير ذلك . وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عِرْق، ففارقنَها هنالك وبَكَيْنَ الوداع ، وتباكى الناس ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النَّحيب . وسار الناس قاصدين البَصرة ، وكان الذى يُصلّى بالناس عن أمر عائشة ـ ابنُ أختها عبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم يؤذّن للناس فى أوقات الصلوات ، وقد مروا فى مسيرهم ليلا بماء يقال له : الحَوْأَب ، فنبحتهم كِلابٌ عنده ، فلما سمعت ذلك عائشة قالت : ما اسمُ هذا

هذا المكان ؟ قالوا: الحوأب ، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أظنني إلا راجعة ، قالوا : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه : « ليت شعرى أيتكن التى تنبحها كلابُ الحوأب» ثم ضربت عَضُدَ بعيرها فأناخته ، وقالت : ردُّونى رُدُّونى ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب .

وقد أوردنا هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى دلائل النبوة كما سبق ، فأناخ الناس حولها يوما وليلة ، وقال لها عبد الله بن الزبير : إنَّ الذى أخبرك أن هذا ماء الحوأب ـ قد كذَب ، ثم قال الناس : النجاء النجاء ، هذا جيش علىّ بن أبى طالب قد أقبل ، فارتحلوا نحو البصرة ، فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رُءوس الناس ، أنها قد قدمت . فبعث عثمان بن حُنيف ـ عِمران بن حُصين وأبا الأسود الدؤلى إليها ليعلما ما جاءت له ، فلما قدما عليها سلّما عليها واستعلما منها ما جاءت له ، فذكرت لهما ما الذى جاءت له ؟ من القيام بطلب دم عثمان ، لأنه قتل مظلوماً فى شهر حَرام وبلد حرام . وتلت قوله تعالى : (لا خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ أو إصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْرًا عظيما)[1] فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له : ما أقدمك ؟ فقال : الطلب بدَم عثمان ، فقالا : أما بايعت عليا ؟ قال : بلى ـ والسَّيف على عُنق ، ولا أستقيله إن هو لم يُخَلِّ بيننا وبين قتلة عثمان . فذهبا إلى الزُّبير فقال مثل ذلك ، قال : فرجع عِمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حُنيف ، فقال أبو الأسود :

يا بنَ حُنيف قد أتيتَ فانفرِ وطاعِنِ القومَ وجالِدْ واصبرِ
واخرج لهم مُسْتَلئِماً وشَمِّرْ

فقال عثمان بن حُنيف : إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحا الإسلام وربِّ الكعبة ، فانظروا بأى زَيَفان[2] تَزيف ! فقال عمران : إى ! والله لتَعْرُكَنَّكم عرَكا طويلا ـ يشير عثمان بن حُنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعاً « تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين » الحديث كما تقدم . ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين : أشِر علىّ ، فقال اعتزل فإنى قاعد فى منزلى ـ أو قال: قاعد على بعيرى ـ فذهب ، فقال عثمان : بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين ، فنادى فى الناس يأمرهم بلبس السلاح والاجتماع فى المسجد، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز ، فقام رَجُل وعثمان على المنبر فقال : أيها الناس! إن كان هؤلاء القوم جاءوا خائفين فقد جاءوا من بلد يأمن فيه الطير ، وإن كانوا

---

(١) الآية : ١١٤ من سورة النساء .

(٢) أى بأى شر وبلاء تدور . يقال زاف الدراهم وزيفها ـ غشها .

جاءوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته ، فأطيعونى وردُّوهم من حيث جاءوا ، فقام الأسود بن سريع السعدى فقال : إنما جاءوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا ، فحصبهُ الناس ، فعلم عثمان بن حُنيف أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصاراً ، فكره ذلك .

وقدمت أم المؤمنين بمَن معها من الناس ، فنزلوا المِرْبَد من أعلاه قريباً من البصرة ، وخرج إليها من أهل البصرة مَن أراد أن يكون معها ، وخرج عثمانُ بن حُنَيف بالجيش فاجتمعوا بالمِرْبَد ، فتكلّم طلحة ـ وكان على المَيمنة ـ فندب إلى الأخذ بثأر عثمان ، والطلب بدَمه ، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته ، فرد عليهما ناس من جَيش عثمان بن حُنيف . وتكلمت أم المؤمنين فحرّضت وحثّت على القتال، فتناوَر طوائف من أطراف الجيش فتراموا بالحجارة، ثم تحاجز الناس ورجع كلُّ فريق إلى حَوْزته ، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حُنيف إلى جيش عائشة ، فكثروا ، وجاء جارية بن قدامة السعدى فقال : يا أم المؤمنين ! والله لقتلُ عُثمان أهونُ من خروجك من بيتك على هـذا الجمل عُرضةً للسلاح ؛ إن كنتِ أتيتينا طائعة فارجعى من حيث جئتِ إلى منزلك ، وإن كنت أتيتينا مُكرَهةً فاستعينى بالناس فى الرجوع . وأقبل حُكيم ابن جبلة ـ وكان على خيل عثمان بن حُنيف ـ فأنشب القتال، وجعل أصحابُ أم المؤمنين يَكُفّون أيديهم ويمتنعون من القتال ، وجعل حُكيم يقتحم عليهم، فاقتتلوا على فَم السكة ، وأمرت عائشة أصحابها فتيامَنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بن مازن ، وحَجزَ الليل بينهم .

فلما كان اليوم الثانى قصدوا للقتال ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، إلى أن زال النهار ، وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حُنيف ، وكثرت الجراح فى الفريقين ، فلما عضتهم الحرب تداعَوا إلى الصلح، على أن يكتبوا بينهم كتابا ويبعثوا رسولا إلى أهل المدينة يَسأل أهلها ؛ إن كان طلحة والزبير أُكرها على البيعة ـ خرج عثمان بن حُنيف عن البصرة وأخلاها ، وإن لم يكونا أُكرها على البيعة ـ خرج طَلحة والزبير عَنها وأخلَوْها لهم . وبعثوا بذلك كعب بن سُو[ر] قاضى ، فقدم المدينة يوم الجمعة ، فقام فى الناس ، فسألهم : هل بايع طَلحةُ والزبيرُ طائعَين أو مُكرَهين ؟ فسكت الناس ،فلم يتـكلم إلا أسامة بن زيد؛ فإنه قام فقال: بل كانا مكرهين، فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه ، فحاجف دونه صُهيب ، وأبو أيوب ، وجماعة حتى خلّصوه ، وقالوا له : أما وسِعك ما وسعنا من السكوت ؟ فقال : لا ـ والله ما كنت أرى أن الأمر ينتهى إلى هذا ، وكتب علىٌّ إلى عثمان بن حُنيف يقول له : إنهما لم يُكرها على فُرقة ، ولقد أُكرها على جماعة وفَضل ، فإن كانا يُريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نَظرا ونَظرنا . وقدم كعب بن سُور على عثمان بكتاب علىّ ، فقال عثمان : هذا أمر آخر ، غير ما كنّا فيه ،

وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حُنيف أن يخرج إليهما فأبى ، فجمعا الرجال فى ليلة مظلمة وشهدا بهم صلاةَ العشاء فى المسجد الجامع ، ولم يخرج عثمان بن حُنيف تلك الليلة ، فصلى بالناس عبدُ الرحمن بن عتّاب بن أسيد .

ووقع من رعاع الناس من أهل البصرة كلام وضَرب ، فقتل منهم نحواً من أربعين رجلا ، ودخل الناس على عثمان بن حُنيف قصره فأخرجوه إلى طلحة والزبير ، ولم يبق فى وجهه شَعْرة إلا نتفُوها ، فاستعظما ذلك وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر ، فأمرت أن تخلى سبيله ، فأطلقوه وولّوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقسّم طلحة والزبير أموالَ بيت المال فى الناس وفضّلوا أهل الطاعة ، وأكبّ عليهم الناس يأخذون أرزاقهم ، وأخذوا الحرَس ، واستبدُّوا بالأمر بالبصرة ، فحمى لذلك جماعة من قوم قَتَلة عثمان وأنصارهم . فركبوا فى جيش قريب من ثلثمائة ، ومقدمهم حُكيم بن جَبلة ـ وهو أحد مَن باشر قتل عثمان ، فبارزوا وقاتلوا ، فضرب رَجُلٌ رِجْل حُكيم بن جبلة فقطعها ، فزحف حتى أخذها وضرب بها ضاربه فقتله ، ثم اتكأ عليه وجعل يقول :

يا ساقُ لن تُراعى ◆ إن لك ذراعى ◆ أحمى بها كِراعى

وقال أيضاً :

ليس علىّ أن أموت عارُ ◆ والعارُ فى الناس هو الفرارُ ◆ والمَجدُ لا يفضَحُه الدّمار

فمر عليه رجل وهو متكىء برأسه على ذلك الرجل ، فقال له : من قتلك ؟ فقال له : وِسادَتى . ثم مات حكيم قتيلا هو ونحو من سبعين من قَتَلة عثمان وأنصارهم أهل المدينة ، فضعف جأش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة ، ويقال : إن أهل البصرة بايعوا طلحة والزبير ، وندب الزبير ألف فارس يأخذها معه ويلتقى بها عليًا قبل أن يجىء ، فلم يجبه أحد ، وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك ، وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين . وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صُوحان تدعوه إلى نصرتها والقيام معها ، فإن لم يجىء فليكفّ يده وليلزَم منزله ؛ أى لا يكون عليها ولا لها ، فقال : أنا فى نُصرتك ما دُمت فى منزلك ، وأبَى أن يطيعها فى ذلك ، وقال : رحم الله أم المؤمنين ، أمَرها الله أن تَلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل ، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا ، التى كانت هى أحقّ بذلك منّا . وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك .

ذكر مسير أمير المؤمنين على بن أبى طالب من المدينة إلى البصرة

بدلا من مسيره إلى الشام ، بعد أن كان قد تجهز قاصداً الشام ـ كما ذكرنا

لما بلغه قصد طلحة والزبير البصرة ، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البَصرة ليمنع أولئك من دخولها إن أمكن ، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها ، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة ، واستجاب له بعضهم . قال الشعبى : ما نهض معه فى هذا الأمر غيرُ ستة نفر من البدريين ، ليس لهم سابع ، وقال غيره : أربعة . وذكر ابن جرير وغيره قال : كان ممن استجاب له من كبار الصحابة : أبو الهيثم بن التيهان ، وأبو قتادة الأنصارى ، وزياد بن حَنظلة ، وخزيمة بن ثابت . قالوا : وليس بذى الشهادتين ، ذاك مات فى زمن عثمان رضى الله عنه . وسار على من المدينة نحو البصرة على تعبئته المتقدم ذكرها ، غير أنه استخلف على المدينة تمّام بن عباس ، وعلى مكة قثم بن عباس وذلك فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين . وخرج علىّ من المدينة فى نحو من تسعمائة مقاتل ، وقد لقى عبدالله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ عليا وهو بالرَّبذة ، فأخذ بعنان فرسه وقال : ياأمير المؤمنين! لاتخرج منها ، فوالله لئن خرجتَ منها لا يعود إليها سُلطان المسلمين أبداً ، فسبه بعض الناس ، فقال على : دَعُوه فنعم الرجل من أصحاب النبى ﷺ .

جاء الحسن بن على إلى أبيه فى الطريق فقال: لقد نهيتك فعصيتنى، تقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك . فقال له على : إنك لا تزال تحنّ علىّ حَنين الجارية ، وما الذى نهيتنى عنه فعصيتك[1] ؟ فقال : ألم آمرك قبل مقتل عثمان ـ أن تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها ، فيقول قائل أو يتحدث متحدث ؟ ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهلُ كل مِصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان، أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فعصيتنى فى ذلك كله ؟ .

فقال له على : أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان، فلقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما مبايعتى قبل مجىء بيعة الأمصار ، فكرهت أن يضيع هذا الأمر . وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه ـ فتريد منى أن أكون كالضبع التى يحاط بها ، ويقال ليست هاهنا ، حتى يشق عرقوبها فتخرج ! فإذا لم أنظر فيما يلزمنى فى هذا الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ فكُفّ عنى يابنى.

ولما انتهى إليه خبر ماصنع القوم بالبصرة ، من الأمر الذى قدمنا ـ كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر : إنى قد اخترتكم على أهل الأمصار ، فرغبتُ إليكم

(١) فى الطبرى : وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟

وفزعت لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فالإصلاح نريد؛ لتعودَ هذه الأمة إخوانا ، فمضيا . وأرسل إلى المدينة فأخذ ما أراد من سلاح ودواب ، وقام فى الناس خطيبا فقال : إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخوانا، بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ؛ الإسلام دينهم ، والحق قائم بينهم ، والكتاب إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة . ألا وإنّ هذه الأمة لابد مُفترِقة كما افترقت الأمم قبلها ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن .

ثم عاد ثانية فقال : إنه لابد مما هو كائن أن يكون . ألا وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تحبنى ولا تعملُ بعملى ، وقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم ، واهتدوا بهدىِ فإنه هدى نبيكم ، واتبعوا سنته ، وأعرضوا عما أشكل عليكم ، حتى تعرضوه على الكتاب فما عرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن حكما وإماما .

قال: فلما عزم على المسير من الرَّبذة، قام إليه ابن أبى رفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين ! أى شىء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال : أما الذى نريد وننوى فالإصلاح ، إن قبلوا منا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعُهم بعُذرهم ونعطيهم الحق ونصبر . قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، قال : فنعم إذاً . وَقام إليه الحجاج بن غزيّة الأنصارى فقال : لأرضينك بالفعل كما أرضيتنى بالقول والله لننصرن الله كما سمّانا أنصاراً .

قال : وأتت جماعة من طيء وعلىٌّ بالربذة ، فقيل له : هؤلاء جماعة جاءوا من طيء ؛ منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد السلام عليك ، فقال : جزى الله كلاًّ خيرا : (وفَضَّل اللهُ المجاهدِينَ عَلى القاعِدِينَ أجراً عظيما)[1] قالوا : فسار على من الربذة على تعبئته وهو راكب ناقة حمراء يقود فرسا كُمَيتا . فلما كان بِفَيْد[2] جاءه جماعة من أسد وطيء ، فعرضوا أنفسهم عليه فقال : فى مَن معى كفاية ، وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له : عامر بن مطر الشيبانى ، فقال له علىّ : ما وراءك ؟ فأخبره الخبر ، فسأله عن أبى موسى فقال : إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه ، وإن أردت القتال فليس بصاحبه ، فقال على : والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا . وسار، فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جَليّته ؛ من قتل ومن إخراج

---

(١) من الآية : ٩٥ من سورة النساء

(٢) موضع بطريق مكة .

عثمان بن حنيف من البصرة ، وأخذهم أموال بيت المال ـ جعل يقول : اللهم عافنى مما ابتليتَ به طلحة والزبير ، فلما انتهى إلى ذى قار[1] أتاه عثمان بن حنيف مهشَّما ، وليس فى وجهه شعرة فقال : يا أمير المؤمنين! بعثتنى إلى البصرة وأنا ذو لحية ، وقد جئتك أمردَ ، فقال : أصبت خيراً وأجراً . وقال عن طلحة والزبير : اللهم احلل ما عَقدا ، ولا تبرم ما أحكما فى أنفسهما ، وأرهما المساءة فيما قد عملا ـ يعنى فى هذا الأمر ، وأقام على بذى قار ينتظر جواب ما كتَب به مع محمد ابن أبى بكر وصاحبه محمد بن جعفر ـ وكانا قد قدما بكتابه على أبى موسى وقاما فى الناس بأمره ـ فلم يجابا فى شىء ، فلما أمسوا دخل أناس من ذوى الحِجَى على أبى موسى يعرضون عليه الطاعة لعلىّ ، فقال : كان هذا بالأمس ، فغضب محمدٌ ومحمد، فقالا له قولا غليظاً ، فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بُدٌّ من قتال، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومن كانوا ، فانطلقا إلى على فأخبراه الخبر ، وهو بذى قار ، فقال للأشتر : أنت صاحب أبى موسى والمعترض فى كل شىء ، فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت .

فخرجا فقدما الكوفة، وكلّما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من الكوفة ، فقام فى الناس فقال : أيها الناس ! إن أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ، وإنّ لكم علينا حقا وأنامؤدٍّ إليكم نصيحة؛ كان الرأى لاتستخِفوا بسلطان الله، وألاّ تجترئوا على أمره. وهذه فتنة النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، والراكب خير من الساعى ؛ فاغمدوا السيوف وأنصلوا[2] الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المضطهد والمظلوم؛ حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلى هذه الفتنة . فرجع ابن عباس والأشتر إلى علىّ فأخبراه الخبر ؛ فأرسل الحسن وعمار بن ياسر ، وقال لعمار : انطلق فأصلح ما أفسدت ، فانطلقا حتى دخلا المسجد، فكان أول من سلم عليهما مسروق بن الأجدع ، فقال لعمار : علام قتلتم عثمان ؟ فقال : على شتم أعراضِنا وضرب أبشارنا ، فقال : واللهِ ما عاقبتُم بمثل ما عُوقبتم به ، ولو صبرتم لكان خيراً للصابرين . قال : وخرج أبو موسى فلقى الحسن بن علىّ فضمه إليه ، وقال لعمار : يا أبا اليقظان أعَدَوْتَ على أمير المؤمنين عثمان فقتلته ؟ فقال : لم أفعل،ولم يسؤنى ذلك.

فقطع عليهما الحسن بن على، فقال لأبى موسى: لِمَ تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شىء ، فقال : صدقتَ بأبى وأمى ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت من النبى ﷺ يقول : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير

(١) ذى قار : موضع بين الكوفة وواسط، ويوم ذى قار : يوم لبنى شيبان ، أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم .
(٢) أى : انزعوا نصلها .

من الماشى ، والماشى خير من الراكب » وقد جعلنا الله إخواناً ، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا ، فغضب عمّار وسبّه ، وقال : يا أيها الناس ، إنما قال له رسول الله ﷺ : وحدة أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً ، فغضب رجل من بنى تميم لأبى موسى ونال من عمار ، وثار آخرون ، وجعل أبو موسى يُكَفْكِف الناس ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، وقال أبو موسى : أيها الناسَ ، أطيعونى وكونوا خيرَ قوم من خَير أمم العرب ، يأوى إليهم المظلوم ، ويأمن فيهم الخائف ، وإن الفتنة إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت بينت ثم أمر الناس بكف أيديهم ولزوم بيوتهم .

فقام زيد بن صُوحان فقال: أيها الناس! سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، سيروا إليه أجمعين . فقام القعقاع بن عمرو فقال : إن الحق ما قاله الأمير ، ولكن لا بد للناس من أمير يردع الظالم ، ويعز المظلوم ، وينتظم به شمل الناس ، وأمير المؤمنين علىّ يلى بما ولى ، وقد أنصف بالدعاء ، وإنما يريد الإصلاح ، فانفروا إليه . وقام عبد خير فقال : الناس أربع فرق : علىّ بمن معه فى ظاهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها . فقال أبو موسى : أولئك خيرُ الفرق ، وهذه فتنة . ثم تراسل الناس فى الكلام ، ثم قام عمار والحسن بن على فى الناس على المنبر ، يدعُوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين ، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس . وسمع عمار رجلاً يسبُّ عائشة فقال : اسكت مَقبوحا مَنبوحًا ، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلمَ أتطيعوه أو إياها ، رواه البخارى .

وقام حُجر بن عدى فقال : أيها الناس ، سيروا إلى أمير المؤمنين ، (انفِرُوا خِفَافًا وثِقالاً وجاهِدُوا بأموالِكم وأنفُسِكم فى سَبيل الله ذلكُم خيرٌ لكُم إن كُنتُم تعلَمون)[1] وجعل الناس كلما قام رجل لحرض الناس على النفير ـ يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر ، وعمار والحسنُ معه على المنبر ، حتى قال له الحسن بن على : وَيْحك ! اعتزلنا لا أم لك ، ودع منبرنا . ويقال إن عليًا بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة ، وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة ، واستجاب الناس للنفير، فخرج مع الحسن تسعةُ آلاف فى البرِّ وفى دجلة ، ويقال: سار معه اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد ، وقدموا على أمير المؤمنين فتلقاهم بذى قار إلى أثناء الطريق فى جماعة ؛ منهم : ابن عباس فرحّب بهم وقال : يا أهل الكوفة ! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الذى نُريده ، وإن أبوا داويناهم بالرِّفق حتى يبدءونا بالظلم ، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه، على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى.

---

(١) الآية : ٤١ من سورة التوبة

فاجتمعوا عنده بذى قار ، وكان من المشهورين من رؤساء من انضاف إلى على : القعقاع ابن عمرو ، وسعد بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ، وزيد بن صُوحان ، وَالأشتر ، وَعدى بن حاتم ، والمسيب بن نَجبَة ، ويزيد بن قيس ، وحُجر بن عدى وأمثالهم . وكانت عبد القيس بكمالها بين علىّ وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف . فبعث علىّ القَعقاع رسولاً إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة ، ويُعظِّم عليهما الفُرقة والاختلاف . فذهب القعقاع إلى البصرة ، فبدأ بعائشة أم المؤمنين ، فقال ، أى أمَّاه ! ما أقدمكِ هذا البلد ؟ فقالت : أى بنىّ ! الإصلاح بين الناس ، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها ، فحضرا ، فقال القعقاع : إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها ؟ فقالت : إنما جئت للإصلاح بين الناس . فقالا : ونحن كذلك . قال : فأخبرانى ما وَجْه هذا الإصلاح ؟ وعلى أى شىء يكون ؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن ، ولئن أنكرناه لا نصطلحن ، قالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن تُرِك كان تركاً للقرآن ، فقال : قتلتما قَتَلته من أهل البصرة ، وأنتما قَبل قتلهم أقربُ منكم إلى الاستقامة منكم اليوم ؛ قتلتم ستمائة رجل ، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وَطلبتم حُرقُوص ابن زهير فمنعه ستة آلاف ، فإن تركتموه وقعتم فيما تقولون ، وَإن قاتلتموهم فأُديلوا[1] عليكم ، ـ كان الذى حذِرتم، وَفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وَتجمعون منه ـ يعنى أن الذى تريدونه من قَتل قَتلة عثمان مَصلحة ، وَلكنه يترتب عليه مَفسدة هى أربى منها ـ وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حُرقوص بن زهير ، لقيام ستة آلاف فى منعه ممن يريد قتله ، فعلىٌّ أعذَرُ فى تركه الآن قتل قتلة عثمان ، وَإنما أخر قتلَ قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم ، فإن الكلمة فى جميع الأمصار مختلفة .

ثم أعلمهم أن خلقا من ربيعة وَمضر ، قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذى وَقع .

فقالت له عائشة أم المؤمنين : فماذا تقول أنت ؟ قال : أقول : إن هذا الأمر الذى وَقع دواؤه التسكين ، فإذا سكن اختُلِجُوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامةُ خير وَتباشيرُ رحمة ، وَإدراكُ للثأر . وَإن أنتم أبيتم إلامكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر وَذهاب هذا الملك ، فآثِروا العافية ترزقوها ، وَكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا ، وَلا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له فيصرعنا الله وَإياكم .. وَايم الله إنى لأقول قولى هذا وَأدعوكم إليه ، وَإنى لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ، وَنزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذى قد حدث أمر عظيم، وَليس كقتل الرجل الرجل ، وَلا النفر الرجل ، وَلا القبيلة القبيلة . فقالو : قد أصبتَ وَأحسنت فارجع ، فإن قدم علىّ وَهو على مثل رأيك صَلح الأمر ، قال : فرجع إلى علىّ فأخبره فأعجبه ذلك ، وَأشرف القوم على الصلح ، كَره ذلك مَن كرهه ، ورضيه من رضيه .

---

(١) أى غلبوكم وانتصروا عليكم ،والإدالة: الغلبة، ودالت الأيام: دارت،والله يداولها بين الناس.

وأرسلت عائشة إلى علىّ تُعلمه أنها إنما جاءت للصلح ، ففرح هؤلاء وهؤلاء ، وقام علىّ في الناس خطيبا فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها ، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة ، وأن الله جمعهم بعد نبيّه ﷺ على الخليفة أبى بكر الصديق ، ثم بعده على عمر بن الخطاب ، ثم على عثمان ، ثم حدث هذا الحدث الذى جره على الأمة أقوامٌ طلبوا الدنيا ، وحسدوا من أنعم الله عليه بها ، وعلى الفضيلة التى من الله بها ، وأرادوا رد الاسلام والأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره . ثم قال : ألا إنى مُرتحِلٌ غدا فارتحلوا ، ولا يرتحل معى أحدٌ أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس .

فلما قال هذا ، اجتمع من رءوسهم جماعة ، كالأشتر النخعى ، وشُريح بن أوفى ، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ، وسالم بن ثعلبة ، وعلباء بن الهيثم ، وغيرهم فى ألفين وخمسمائة ، وليس فيهم صحابى ولله الحمد . فقالوا : ما هذا الرأى ؟ وعلىّ والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقرب إلى العمل بذلك ، وقد قال ما سمعتم . غدا يجمع عليكم الناس ، وإنما يريد القوم كلهم أنتم ، فكيف بكم وعددكم قليل فى كثرتهم ؟ فقال الأشتر : قد عرفنا رأى طلحة والزبير فينا ، وأما رأى علىّ فلم نعرفه إلى اليوم ، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا ، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان ، فرضىَ القوم منا بالسكوت ، فقال ابن السوداء : بئس ما رأيتَ ، لو قتلناه قُتِلنا ، فإنا يا معشر قتلة عثمان فى ألفين وخمسمائة ، وطلحة والزبير وأصحابهما فى خمسة آلاف ، لا طاقةَ لكم بهم ، وهم إنما يريدونكم . فقال علباء بن الهيثم : دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها . فقال ابن السوداء : بئس ما قلت ، إذاً والله يتخطفكم الناس ، ثم قال ابن السوداء ـ قبحه الله يا قوم ، إن عِزكم فى خُلطة الناس ، فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون ، فمن أنتم معه لا يجد بُداً من أن يمتنع ، ويشغل اللهُ طلحة والزبير ومَن معهما عما يُحبون ، ويأتيهم ما يكرهون ، فأبصَروا الرأى وتفرقوا عليه . وأصبح علىٌّ مُرتحلاً ومرّ بعبد القيس فساروا ومن معه حتى نزلوا بالزاوية ، وسار منها يريد البَصرة . وسار طلحة والزبير ومَنْ معهما لِلقائه ، فاجتمعوا عند قصر عُبيد الله[1] بن زياد ، ونزل الناس كل فى ناحية . وقد سبق علىٌّ جيشه وهم يتلاحقون به ، فمكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم ، وكان ذلك للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين .

فأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة ، من قتلة عثمان ، فقالا : إن عليًّا

---

(١) وقيل : عبد الله

أشار بتسكين هذا الأمر ، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك ، وقام علىٌّ فى الناس خطيباً ، فقام إليه الأعور بن بنان المنقرى ، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة ، فقال : الإصلاح وإطفاء الثائرة ليجتمع الناس على الخير ، ويلتئم شملُ هذه الأمة ، قال : فإن لم يجيبونا ؟ قال : تركناهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : دفعناهم عن أنفسنا ، قال : فهل لهم فى هذا الأمر مثل الذى لنا ؟ قال : نعم .

وقام إليه أبو سلامة الدالانى فقال : هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم ، إن كانوا أرادوا الله فى ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فهل لك من حجة فى تأخيرك ذلك ؟ قال : نعم ! قال : فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً ؟ قال : إنى لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقّى قلبه لله إلا أدخله الله الجنة ، وقال فى خطبته: أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم ، وإياكم أن يسبقونا غداً ، فإن المخصوم غداً مخصوم اليوم .

وجاء فى غبون ذلك الأحنف بن قيس فى جماعة، فانضاف إلى علىّ -وكان قد منع حُرقوص بن زهير من طلحة والزبير ، وكان قد بايع علياً بالمدينة، وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور فسأل عائشة وطلحة والزبير: إن قتل عثمان من أبايع ؟ فقالوا:بايع علياً. فلما قتل عثمان بايع علياً. قال: ثم رجعتُ إلى قومى فجاءنى بعد ذلك ما هو أفظع ، حتى قال الناس : هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان ، فحرت فى أمرى لمن أتبع ، فنفعنى الله بحديث سمعته من أبى بكر قال: قال رسول الله ﷺ - وقد بلغه أن الفرس قد ملكوا عليهم ابنة كسرى- فقال : «لَنْ يُفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة» وأصل هذا الحديث فى صحيح البخارى .

والمقصود أن الأحنف لما انحازَ إلى علىّ ومعه ستة آلاف قوس ، فقال لعلى : إن شئتَ قاتلتُ معك ، وإن شئتَ كففتُ عنك عشرة آلاف سيف ، فقال : اكْفُفْ عنا عشرة آلاف سيف ، ثم بعث علىٌّ إلى طلحة والزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتمُ عليه القعقاع ابن عمرو ، فكفوا حتى ننزل فننظر فى هذا الأمر ، فأرسلا إليه فى جواب رسالته : إنا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس ، فاطمأنت النفوس وسكنَتْ ، واجتمع كلُّ فريق بأصحابه من الجيشين . فلما أمسوا بعث علىٌّ عبدَ الله بن عباس إليهم ، وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجاد، وبات الناس بخير ليلة ، وبات قتلةُ عثمان بشرِّ ليلة ، وباتوا يتشاورون ، وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس ، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفى رجل. فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح

فقالوا : طرقتنا أهل الكوفة ليلا ، وبيتونا وغدروا بنا ، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علىّ ، فبلغ الأمر عليا فقال : ماللناس ؟ فقالوا ، بيتنا أهل البصرة ، فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللأمة وركبوا الخيول ، ولا يشعر أحدٌ منهم بما وقع الأمر عليه فى نفس الأمر ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وقامت الحرب على ساق وقدَم ، وتبارز الفُرسان ، وَجالت الشجعان ، فنشبت الحرب ، وتواقف الفريقان ، وقد اجتمع مع علىّ عشرون ألفا ، والتف على عائشة وَمن معها نحوٌ من ثلاثين ألفا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. والسابئة أصحاب ابن السوْدا ـ قبحه الله ـ لايفترون عن القتل، ومنادى علىٍّ ينادى : ألا كُفوا ، ألاَ كُفُّو، فلا يسمع أحد . وجاء كعب بن سور قاضى البصرة فقال : يا أم المؤمنين أدركى الناسَ لعل الله أن يصلح بك بين الناس ، فجلست فى هَوْدَجها فوق بعيرها وسَتَرُوا الهودَج بالدروع ، وَجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس عند حرَكاتهم ، فتصاوَلوا وتجاوَلوا ، وكان فى جملة من تبارَزَ ـ الزبير وَعمار ، فجعل عمَّار ينخره بالرمح والزبير كافّ عنه ، ويقول له : أتقتلنى يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يا أبا عبدالله، وَإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ: « تَقْتُلك الفِئة الباغية » وَإلا فالزبير أقدرُ عليه مِنه عليه ، فلهذا كف عنه. وقد كان من سُنّتهم فى هذا اليوم أنه لا يُذفف[1] على جريح ، ولا يتبع مُدْبِر ، وقد قتل ـ مع هذا ـ خلق كثير جدا ، حتى جعل علىّ يقول لابنه الحسن : يا بنى ! ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً . فقال له : يا أبت ! قد كنت أنهاك عن هذا .

قال سعيد بن أبى عجرة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عباده قال : قال علىٌّ يوم الجمل : يا حسن ! ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له : يا أبه ! قد كنت أنهاك عن هذا ، قال : يابنى إنى لم أر أن الأمر يبلغ هذا . وقال مبارك بن فضالة عن الحسن بن أبى بكرة : لما اشتد القتال يوم الجمل ، ورأى علىٌّ الرءوس تندرُ[2] أخذ علىّ ابنه الحسن فضمه إلى صدره ثم قال: إنا لله يا حسن ! أى خير يُرجَى بعد هذا ؟ فلما ركب الجيشان وتراءى الجمعان وَطلب على طلحة والزبير ليكلمهما ، فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم ، فيقال إنه قال لهما : إنى أرا كما قد جمعتما خيلا وَرجالا وَعدداً فهل أعددتما عُذراً يوم القيامة؟ فاتقيا الله وَلا تكونا كالتى نقضَت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ألم أكن أخا كما فى دينكما؟ تحرِّمان دَمِى وَأحرّم دَمكما؟ فهل من حَدَثٍ أحل لكما دمى ؟ فقال طلحة : أَلبتَ على عُثمان . فقال على: (يومَئذ يُوَفّيهم اللهُ دِينَهم الحَقّ)[3] ، ثم قال : لعن الله

---

(١) أى: لا يجهز : يقال: ذف على الجريح ذففا ـ محركة ـ أجهز عليه ، والاسم : الذفاف كسحاب .

(٢) أى: تموت وتتساقط . (٣) من الآية : ٢٥ من سورة النور .

قتلة عثمان . ثم قال : ياطلحة ! أجئت بعرس[1] رسول الله ﷺ تقاتل بها ، وخبأت عِرْسك فى البيت ؟ أما بايعتنى ؟ قال : بايعتك والسيف على عنقى . وقال للزبير : ما أخرجك ؟ قال : أنتَ ، ولا أراك بهذا الأمر أولى به منى . فقال له على : أما تذكر يوم مررتَ مع رسول الله ﷺ فى بنى غَنم فنظر الى وضحك وضحكتَ إليه ، فقلتَ له : لايدَع ابن أبى طالب زَهْوَه ، فقال لك رسول الله ﷺ : « إنه ليس بمتمرِّد، لتقاتلنه وأنتَ ظالم له » . فقال الزبير: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرتَ مسيرى هذا ، وَوَالله لا أقاتلك أبدا .

وفى هذا السياق كله نظر . والمحفوظ منه الحديث ؛ فقد رواه أبو يعلى الموصلى فقال : حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الدورى ، حدثنا أبو عاصم عن عبدالله بن محمد بن عبدالملك بن مسلم الرقاشى ، عن جده عبد الملك ، عن أبى حزم المازنى ، قال : شهدت علياً وَالزبير حين توافقا ، فقال له علىّ : يازبير ! أنشدك الله ! أسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك تقاتلنى وَأنتَ ظالم » ؟ قال : نعم ! لم أذكره إلا فى موقفى هذا ، ثم انصرف . وقد رواه البيهقى عن الحاكم عن أبى الوليد الفقيه، عن الحسن بن سفيان عن قطَن بن بشير عن جعفر بن سليمان ، عن عبدالله بن محمد ابن عبدالملك بن مسلم الرقاشى عن جده ، عن أبى حزم المازنى عن على والزبير به . وقال عبدالرزاق أنا معمر عن قتادة قال : لما وَلّى الزبير يومَ الجمل بلغ علياً فقال : لو كان ابنُ صفية يعلم أنه على حق ما ولّى ، وَذلك أن رسول الله ﷺ لقيهما فى سقيفة بنى ساعدة فقال: « أتحبهُ يازبير ؟ فقال: وما يمنعنى ؟ قال : فكيف بك إذا قاتلته وأنت ظالم له ؟ » قال : فيرون أنه إنما ولّى لذلك .

قال البيهقى : وهذا مرسل،وقد رُوِى موصولا من وجه آخر؛ أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن القاضى ، أنا أبو عامر بن مطر ، أنا أبو العباس ـ عبدالله بن محمد بن سوار الهاشمى الكوفى ، أنا منجاب بن الحارث ، ثنا عبدالله بن الأجلح، ثنا أبى عن مرثد الفقيه عن أبيه قال : وسمعت فضل ابن فضالة يحدث عن حَرب بن أبى الأسود الدؤلى ـ دخل حديث أحدهما فى حديث صاحبه ـ قال: لما دنا على وَأصحابه من طلحة وَالزبير ، وَدَنت الصفوف بعضها من بعض ، خرج على وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى : ادعوا لى الزبير بن العوام فإنى علىّ ، فدُعِى له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال على: يازبير ! نشدتك الله، أتذكر يوم مرّ بك رسول الله ﷺ ونحن فى مكان كذا وكذا ، فقال : « يا زُبير ألا تحبّ عليا ؟ فقلت : ألا أحبّ ابن خالى وابن عمى وعَلَى دِينى؟ فقال : يازبير : أما والله لتقاتلنه وَأنت ظالم له ؟ » فقال الزبير : بلى ! وَالله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ، ثم ذكرته الآن ، والله لا أقاتلك .

فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف ، فعرض له ابنه عبدالله بن الزبير ، فقال : مالك ؟ فقال:

(١) العرس ـ بالكسر ـ امرأة الرجل ، والجمع : أعراس ، وربما سمى الرجل والأنثى ـ عرسين .

ذكّرني عليٌّ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « لتقاتلنه وأنت ظالم له » فقال : أو للقتال جئت ؟ إنما جئتَ لتصلح بين الناس ، ويصلح الله بك هذا الأمر ، قال : قد حلفت أن لا أقاتله ، قال : اعتق غلامك سَرْجَس وقف حتى تصلح بين الناس . فأعتق غلامه وَوَقف ، فلما اختلف أمرُ الناس ذهب على فرسه ، قالوا : فرجع الزبير إلى عائشة فذكر أنه آلى ألا يقاتل عليًا ، فقال له ابنه عبدالله : إنك جمّعت الناس ، فلما تراءى بعضهم لبعض خرجت من بينهم ، كفِّرْ عن يمينك واحضر ، فأعتق غلاماً ، وَقيل غلامه سَرْجَس . وقد قيل إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عماراً مع علي ، وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » فخشي أن يقتل عمار في هذا اليوم . وعندي أن الحديث الذي أوردناه ، إن كان صحيحاً عنه فما رجعه سواه ، ويبعد أن يكفر عن يمينه ثم يحضر بعد ذلك لقتال عليّ ، والله أعلم

والمقصود ، أن الزبير لما رجع يوم الجمل سار فنزل وادياً يقال له : وادي السباع ، فاتبعه رجل يقال له : عمرو بن جرْموز ، فجاءه وهو نائم فقتله غيلة كما سنذكر تفصيله . وأما طلحة فجاءه في المعركة سهم غَرْب[1] يقال رماه به مروان بن الحكم ، فالله أعلم ، فانتظم رجله مع فرسه ، فجمحت به الفرس فجعل يقول : إليّ عباد الله إليّ عباد الله ، فاتبعه مولى له فأمسكها ، فقال له : وَيحك ! اعدل بي إلى البيوت ، وامتلأْ خفّه دماً فقال لغلامه : اردفني ، وذلك أنه نزفه الدم وضعف ، فركب وَراءه وجاء به إلى بيت في البصرة فمات فيه ، رضي الله عنه .

وتقدمت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في هَوْدَجها ، وناولت كعب بن سُور قاضي البصرة مصحفاً وَقالت : ادعهم إليه ـ وذلك حين اشتد الحرب وحمي القتال ، وَرجع الزبير ، وقتل طلحة رضي الله عنهما ـ فلما تقدم كعب بن سُور بالمصحف يدعو إليه ، استقبله مقدمة جيش الكوفيين ، وكان عبدالله بن سبأ ـ وهو ابن السوداء ـ وأتباعه بين يدي الجيش ، يقتلون من قَدَروا عليه من أهل البصرة ، لايتوقفون في أحد ، فلما رأوا كعب بن سُور رافعاً المصحفَ رشقوه بنبالهمَ رشقة رجل واحد فقتلوه ، وَوَصلت النبال إلى هَودج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فجعلت تنادي : الله الله يابني اذكروا يوم الحساب وَرفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان ، فضج الناس معها بالدعاء ، حتى بلغت الضجة إلى علي فقال : ماهذا ؟ فقالوا : أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم فقال : اللهم العن قَتلة عثمان :

وجعل أولئك النفر لايقلعون عن رَشق هَوْدجها بالنبال حتى بقي مثل القنفذ ، وجعلت

(١) سهم غرب : لايدري راميه

تحرض الناس على منعهم وكفهم، فحملت معه الحفيظة فطردوهم، حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذى فيه علىّ بن أبى طالب، فقال لابنه محمد بن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية، فلم يستطع، فأخذها علىّ من يده فتقدم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطى، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة وقتل خلق كثير، وجمّ غفير، ولم تر وقعة أكثر من قطع الأيدى والأرجل فيها من هذه الوقعة، وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: مَن هؤلاء القوم؟ فقالوا: نحن بكر بن وائل، فقالت: لكم يقول القائل:

وجاءوا إلينا بالحديد كأنهم من العزّة القعساء بكرُ بنُ وائل

ثم لجأ إليها بنو ناجية، ثم بنو ضبة، فقتل عنده منهم خلق كثير، ويقال إنه قطعت يد سبعين رجلا وهى آخذة بخطام الجمل، فلما أثخنوا تقدم بنو عدىّ بن عبد مناف فقاتلوا قتالا شديداً، ورفعوا رأسَ الجمل، وجعل أولئك يقصدون الجمل وقالوا: لا يزال الحرب قائماً مادام هذا الجمل واقفاً، ورأس الجمل فى يد عمرة بن يثربىّ، وقيل: أخوه عمرو بن يثربى، ثم صمد عليه علباء بن الهيثم، وكان من الشجعان المذكورين، فتقدم إليه عمرو الجملى فقتله ابن يثربىّ: وقتل زيد بن صوحان، وارتُثّ[1] صعصعة بن صوحان، فدعاه عمار إلى البراز فبرز له، فتجاولا بين الصفين- وعمار ابن تسعين سنة عليه فروة قد ربط وسطه بحبل ليف- فقال الناس: إنا لله وإنا إليه راجعون الآن يلحق عمار بأصحابه، فضربه ابن يثربى بالسيف فاتقاه عمار بدرقته فغص فيها السيف ونشب[2]، وضربه عمار فقطع رجليه، وأخذ أسيراً إلى بين يدى على فقال: استبقنى يا أمير المؤمنين، فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ ثم أمر به فقتل واستمر زمام الجمل بعده بيد رجل كان قد استنابه فيه من بنى عدى، فبرز إليه ربيعة العُقَيلى فتجاولا حتى قتل كل واحد صاحبه، وأخذ الزمام الحارث الضبى فما رأى أشد منه، وجعل يقول:

نحن بنى ضبةَ أصحابُ الجملْ نبارز القِرن إذا القرن نزل[3]
ننعى ابن عفانَ بأطراف الأسَل الموتُ أحلى عندنا من العسَل
رُدّوا علينا شيخنا ثم بَجَل[4]

وقيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عمرو الضبى. فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره. حتى قتل منهم أربعون رجلا، قالت عائشة: مازال جملى معتدلاً حتى فقدت أصوات بنى ضبّة،

---

(١) أى: حمل من المعركة رثيثا - أى جريحا وبه رمق (٢) أى: لم ينفذ.
(٣) فى بعض النسخ اختلاف فى بعض الكلمات، ووضع شطر مكان الآخر.
(٤) أى، حسبك حيث انتهيت.

ثم أخذ الخطامَ سبعون رجلا من قُريش ، وكل واحد يُقتل بعد صاحبه ، فكان منهم: محمد بن طلحة ـ المعروف بالسَّجَّاد، فقال لعائشة، مُريني بأمرك يا أمه. فقالت: آمرك أن تكون كخير بنى آدم ، فامتنع أن ينصرف وثبت فى مكانه وجعل يقول : حَم لاينصرون ، فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه ، وصار كل واحد منهم بعد ذلك يَدَّعى قتله ، وقد طعنه بعضهم بحربة فأنفذه وقال :

وأشعثَ قوّام بآيات ربه قليلِ الأذى فيما ترى العينُ مسلمِ
هتكتُ له بالرمح جَيْبَ قميصه فخرَّ صريعاً لليدَيْنِ وللفم
يناشدنى حَم والرمحُ شاجرٌ فهلا تلاحَم قبل التقدُّمِ[1]
على غير شيء غيرأن ليس تابعاً عليًّا ومن لايتبع الحق يندمِ

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لايدنو منه أحدٌ إلاخبطه بالسيف، فأقبل إليه الحارث ابن زُهير الأزدى وهو يقول :

يا أمَّنا ياخيرَ أمٍّ نعلمُ * أما ترينَ كم شجاعٍ يُكلمُ ! * وتختلى هامتُه والمِعْصَمُ!

واختلفا ضربتين فقتل كلّ واحد صاحبه ، وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف ، فيقتل من قصده ثم يُقتل بعد ذلك ، وقد فقأ بعضهم عين عدىّ بن حاتم ذلك اليوم ، ثم تقدم عبدالله بن الزبير فأخذ بخطام الجمل وهو لايتكلم، فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك فقالت: واثكل أسماء ! وجاء مالك بن الحارث الأشتر النخعى فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً ، وضربه عبدالله ضربةً خفيفة ، ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان ، فجعل عبدالله بن الزبير يقول :

اقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

فجعل الناس لايعرفون مالكاً من هو ، وإنما هو معروف بالأشتر ، فحمل أصحاب على وعائشة فخلصوهما ، وقد جرح عبدالله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعاً وثلاثين جراحة ، وجرحَ مروان بن الحكم أيضاً ، ثم جاء رجل فضرب الجملَ على قوائمه فعقره وسقط إلى الأرض ، فسمع له عجيج ما سمع أشد ولا أنفذ منه. وآخرُ من كان الزمام بيده ـ زُفَر بن الحارث، فعُقِر الجمل وهو فى يده . ويقال: إنه اتفق هو وبجير بن دُلجة على عقره ، ويقال : إن الذى أشار بعقر الجمل على ، وقيل القعقاع بن عمرو لئلاتصاب أم المؤمنين، فإنها بقيت غرضاً للرماة،ومن يمسك بالزمام بُرجاساً[2] للرماح ، ولينفصل هذا الموقف الذى قد تفانى فيه الناس .

ولما سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله من الناس، وحُمِل هودج عائشة، وإنه لكالقنفذ من السهام

---

(١) فى رواية : يذكرنى حاميم والرمح شارع . (٢) البرجاس : غرض فى الهواء يرمى فيه .

ونادى منادي علىّ في الناس : إنه لا يُتبع مدبر ولا يُذفف[1] على جريح ، ولا يدخلوا الدور ، وأمر علىّ نفراً أن يحملوا الهودج من بين القتلى ، وأمر محمدَ بن أبي بكر وعماراً أن يضربا عليها قُبة . وجاء إليها أخوها محمد فسألها ، هل وصل إليك شيء من الجراح ؟ فقالت : لا ! وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية؟ . وسلم عليها عمار فقال : كيف أنت يا أم ؟ فقالت : لست لك بأم ، قال : بلى ! وإن كرهتِ . وجاء إليها علىّ بن أبي طالب أمير المؤمنين مُسلماً فقال : كيف أنت يا أمه؟ قالت : بخير ، فقال : يغفر الله لك . وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان يسلمون على أم المؤمنين رضى الله عنها ، ويقال: إن أعين بن ضُبيعة المجاشعيّ اطلع في الهودج فقالت : إليك لعنك الله ! فقال : والله ما أرى إلا حُميراء ، فقالت : هتك الله سِترك ، وقطع يدَك ، وأبدى عورتك . فقُتل بالبصرة وسُلب وقطعت يده ، ورُمى عُرياناً في خَربة من خَربات الأزد .

فلما كان الليل ، دخلت أم المؤمنين البصرة ـ ومعها أخوها محمد بن أبي بكر ـ فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعيّ ـ وهي أعظم دار بالبصرة ـ على صَفيّة بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبدالدار ، وهي أم طلحة الطَّلحات بن عبد الله بن خلف وتسلّل الجرحىَ من بين القتلى فدخلوا البصرة ، وقد طاف علىّ بين القتلى ، فجعل كلما مرّ برجل يعرفه ترحّم عليه ويقول : يَعزُّ علىّ أن أرى قريشاً صَرْعى . وقد مرّ ـ على ماذكر ـ على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول فقال : لهفي عليك يا أبا محمد ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لقد كنت كما قال الشاعر :

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويُبعده الفقر

وأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثاً ، ثم صلى على القتلى من الفريقين ، وخصّ قريشاً بصلاة من بينهم ، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر ، وأمَر به أن يُحمل إلى مسجد البصرة ، فمن عرف شيئاً هو لأهلهم فليأخذه ، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سِمَة السلطان . وكان مجموع من قُتل يوم الجمل من الفريقين ـ عشرة آلاف ؛ خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء ، رحمهم الله ورضى عن الصحابة منهم . وقد سأل بعض أصحاب علىّ علياً ، أن يُقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير ، فأبى عليهم ، فطعن فيه السبئية وقالوا : كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟ فبلغ ذلك علياً فقال : أيّكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سَهمه ؟ فسكت القوم ، ولهذا لما دخل البصرة فضّ[2] في أصحابه أموال بيت المال ، فنال كل رجل منهم خمسمائة ، وقال: لكم مثلها من الشام ، فتكلم فيه السبئية أيضاً ونالوا منه من وراء وراء[3] .

---

(١) أي لا يجهز . (٢) أي : فرق .

(٣) أي من خلفه، ودون أن يشعر ويعلم

فصل

ولما فرغ علىّ من أمر الجمل أتاه وجوه الناس يسلّمون عليه. فكان ممن جاءه: الأحنف بن قيس فى بنى سعد ـ وكانوا قد اعتزلوا القتال ـ فقال له على : تربّعت[1] ـ يعنى بنا ـ فقال : ما كنت أرانى إلا قد أحسنت ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين ، فارفق فإن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلىّ غداً أحوجُ منك أمس ، فاعرف إحسانى ، واستبق مودّتى لغد ، ولا تقل مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحًا . قالوا : ثم دخل علىٌّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم، حتى الجرحى والمستأمنة . وجاءه عبد الرحمن بن أبى بَكرة الثقفى فبايعه ، فقال له على : أينَ المريض ؟ ـ يعنى أباه ـ فقال : إنه والله مَريض يا أمير المؤمنين ، وإنه على مَسرّتك لحريص . فقال : امش أمامى ، فمضى إليه فعاده ، واعتذر إليه أبو بَكرة فعذره ، وعَرض عليه البصرة فامتنع وقال : رجل من أهلك يَسكُن إليه الناس . وأشار عليه بابن عباس ، فولاه على البَصرة ، وجعل معه زيادَ بن أبيه على الخراج وبيت المال ، وأمر ابن عباس أن يَسْمَعَ من زياد ـ وكان زياد معتزلا .

ثم جاء علىّ إلى الدار التى فيها أم المؤمنين عائشة ، فاستأذن ودخل فسلم عليها ورحّبت به ، وإذا النساء فى دار بنى خَلَف يَبكين على من قُتل ، منهم: عبد الله وعثمان ابنا خَلَف ، فعبد الله قُتِل مع عائشة ، وعثمان قُتل مع على . فلما دخل علىّ قالت له صفية امرأة عبد الله ـ أم طلحة الطلحات : أيْتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى ، فلم يرد عليها علىّ شيئًا ، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضا فسكتَ ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ! أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ فقال : وَيْحك ! إنا أُمرنا أن نكف عن النساء وهنّ مُشركات ، أفلا نكف عنهن وهُن مسلمات ؟ فقال له رجل : يا أمير المؤمنين! إن على الباب رجلين يَنالانِ من عائشة ، فأمرَ علىّ القعقاع بن عَمرو أن يَجلِد كل واحد منهما مائة ، وأن يُخرجهما من ثيابهما ، وقد سألت عائشة عمن قُتل معها من المسلمين ، ومَن قُتل من عسكر علىّ ، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحمت عليه ودعت له .

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة ، بعث إليها على رضى الله عنه بكل ماينبغى من مَرْكب وزَاد ومتاع وغير ذلك ، وأذِن لمن نجا ممن جاء فى الجيش معها ـ أن يرجع ، إلا أن يُحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وسير معها أخاها محمد ابن أبى بكر ، فلما كان اليوم الذى ارتحلت فيه، جاء على فوقف على الباب وحضر الناس، وخرجت

---

(١) التربع فى الجلوس : جلسة معرفة ، وتربعت : أصبت ربيعاً فأقمت فيه ، والتربع : المكان الذى ينزل فيه أيام الربيع ، يريد أنه ابتعد عنه فلم يقف بجنبه ولزم بيته .

من الدار فى الهودج، فودّعت الناس ودّعت لهم ، وقالت : يا بنىّ لا يعتب بعضنا على بعض ، إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على معتبتى لمن الأخيار . فقال على : صدقت ، والله ما كان بينى وبينها إلا ذاك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة . وسار على معها مودعاً ومشيعاً أميالا ، وسرّح بنيه معها بقية ذلك اليوم - وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين - وقصدت فى مسيرها ذلك إلى مكة ، فأقامت بها إلى أن حجّت عامها ذلك ، ثم رجعت إلى المدينة رضى الله عنها .

وأما مروان بن الحكم، فإنه لما فرّ استجار بمالك بن مسمع، فأجاره ووفى له ، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكاً ويشرفونه. ويقال إنه نزل دار بنى خلف، فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هى إلى مكة سار إلى المدينة ، قالوا : وقد علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة ، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدى والأقدام فيسقط منها هنالك ، حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس، وذلك أن نسراً مرّ بهم ومعه شىء فسقط، فإذا هو كف فيه خاتم ، نقشه: عبد الرحمن بن عتّاب .

هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن أئمة هذا الشأن ، وليس فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم ؛ من الأحاديث المختلقة على الصحابة ، والأخبار الموضوعة التى ينقلونها بما فيها ، وإذا دُعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أخبارنا ولكم أخباركم ، فنحن حينئذ نقول لهم : سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين .

فصل

فى ذكر أعيان من قُتل يوم الجمل من السادة النجباء ؛ من الصحابة وغيرهم من الفريقين رضى الله عنهم أجمعين . وقد قدّمنا أن عدة القتلى نحوٌ من عشرة آلاف ، وأما الجرحى فلا يُحصون كثرة . فمن قتل يوم الجمل فى المعركة :

طلحة بن عبيد الله : ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة - أبو محمد القرشى التيمى ، ويعرف بطلحة الخير ، وطلحة الفياض لكرمه ولكثرة جوده . أسلم قديماً على يدى أبى بكر الصديق ، فكان نوفل بن خويلد بن العدوية يشدّهما فى حبل واحد ، ولا تستطيع بنو تيم أن تمنعهما منه ، فلذلك كان يقال لطلحة وأبى بكر - القرينان ، وقد هاجر وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى أيوب الأنصارى، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدراً ، فإنه كان بالشام لتجارة - وقيل فى رسالة ،

ولهذا ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره من بدر وكانت له يوم أحد اليد البيضاء وشلّت يده يوم أُحُد ، وقى بها رسول الله ﷺ ، واستمرت كذلك إلى أن مات وكان الصديق إذا حدّث عن يوم أحد يقول : ذاك يوم كان كلّه لطلحة ، وقد قال له رسول الله ﷺ يومئذ : « أوجبَ[1] طلحة » وذلك أنه كان على رسول الله ﷺ درعان ، فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هنالك فما استطاع ، فطأطأ له طلحة فصعد على ظهره حتى استوى عليها ، وقال : « أوجَب طلحة » . وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وقد صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته حتى توفى وهو عنه راض ، وكذلك أبو بكر وعمر ، فلما كانت قضية عثمان اعتزل عنه فنسبه بعض الناس إلى تحامل فيه ، فلهذا لما حضر يوم الجمل ، واجتمع به علىّ فوعظه ، تأخّر فوقف فى بعض الصفوف ، فجاءه سَهم غَرْب فوقع فى ركبته وقيل فى رقبته ، والأول أشهر ، وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس ، فجمح به حتى كاد يلقيه ، وجعل يقول : إلىّ عباد الله ، فأدركه مولى له فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بدار منها . ويقال إنه مات بالمعركة ، وإن علياً لما دار بين القتلى رآه ، فجعل يمسح عن وجهه التراب وقال : رحمة الله عليك أبا محمد ، يعز علىّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء ، ثم قال : إلى الله أشكو عُجَرى[2] وبُجَرى ، والله لوددت أنى كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . ويقال إن الذى رماه بهذا السهم مروان ابن الحكم ، وقال لأبان بن عثمان : قد كفيتك رجالا من قَتلة عثمان وقد قيل : إن الذى رماه غيره ، وهذا عندى أقرب ، وإن كان الأول مشهوراً ، والله أعلم .

وكان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ودفن طلحة إلى جانب الكلاّء ، وكان عمره ستين سنة ، وقيل بضعاً وستين سنة ، وكان آدم ، وقيل أبيض ، حسن الوجه ، كثير الشعر ، إلى القصر أقرب ، وكانت غلّته فى كل يوم ألف درهم .

وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أبيه ، أن رجلا رأى طلحة فى منامه وهو يقول : حوّلونى عن قبرى فقد أذانى الماء ، ثلاث ليال . فأتى ابن عباس فأخبره ـ وكان نائبا على البصرة ـ فاشتروا له داراً بالبصرة بعشرة آلاف درهم فحولوه من قبره إليها ، فإذا قد اخضر من جسده ما يلى الماء ، وإذا هو كهيئته يوم أصيب . وقد وردت له فضائل كثيرة ، فمن ذلك : مارواه أبو بكر بن أبى عاصم : حدثنا الحسن بن على بن عيسى بن موسى بن طلحة

---

(١) الموجبة : الكبيرة من الذنوب ، ومن الحسنات التى توجب النار أو الجنة . وأوجب : أتى بها ، أى : أن طلحة أتى عملا يوجب له الجنة (٢) أى همومى وأحزانى وأمرى كله ، وما أبدى وما أخفى . والعجرة : العقدة فى الظهر والبجرة : السرة من الإنسان والبعير ، والأبجر : العظيم البطن .

ابن عبيدالله ، حدثنى أبى عن جده عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : سمانى رسول الله ﷺ ، يوم أحد ـ طلحة الخير ، ويوم العسرة ـ طلحة الفياض ، ويوم حنين ـ طلحة الجود وقال أبو يعلى الموصلى : ثنا أبو كريب ، ثنا يونس عن ابن بكر عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابنى طلحة عن أبيهما ، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاء يسأل عمن قضى نحبه فقالوا : سَلْ رسول الله ﷺ ، فسأله فى المسجد فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم اطلعت من باب المسجد وعلى ثياب خضر فقال رسول الله ﷺ : « أين السائل » قال : ها أنا ذا . فقال : « هذا ممن قضى نحبه » .

وقال أبو القاسم البغوى : ثنا داود بن رشيد ، ثنا مكى ، ثنا على بن إبراهيم ، ثنا الصلت بن دينار عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على رجليه فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله » ، وقال الترمذى : حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا أبو عبدالرحمن ابن منصور العنزى ـ اسمه النضر ـ ثنا عقبة بن علقمة اليشكرى ، سمعت على بن أبى طالب يقول : سمعت أذناى رسول الله ﷺ يقول : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » . وقد روى من غير وجه عن علىّ أنه قال : إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله : (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين)[1] وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب ، أنّ رجلا كان يقع فى طلحة والزبير وعثمان وعلى ـ رضى الله عنهم ـ فجعل سعد ينهاه ويقول : لاتقع فى إخوانى فأبى ، فقام فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إن كان سخطاً لك فيما يقول ، فأرنى فيه اليوم آية واجعله للناس عبرة . فخرج الرجل فإذا ببختى يشق الناس فأخذه بالبلاط فوضعه بين كركرته[2] والبلاط فسحقه حتى قتله . قال سعيد بن المسيب : فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً ويقولون : هنيئاً لك أبا إسحاق ! أجيبت دعوتك .

والزبير بن العوام بن خويلد : ابن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ـ أبو عبدالله القرشى الأسدى ، وأمه صفية بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ . أسلم قديماً وعمره خمس عشرة سنة ، وقيل : أقل ، وقيل أكثر . هاجر إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمة بن سلامة بن وقش وقد شهد المشاهد كلها ، وقد قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال : أنا » ، ثم ندب الناس فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال رسول الله ﷺ : إنّ لكل نبىّ حوارياً وحوارىّ الزبير » . ثبت ذلك من رواية زرّ عن على . وثبت عن الزبير أنه قال : « جمع لى

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الحجر (٢) الكركرة ـ بالكسر ـ صدر كل ذى خف

رسول الله ﷺ أبويه يوم بنى قريظة ». وَروى أنه أول من سل سيفاً فى سبيل الله، وذلك بمكة حين بلغ الصحابة أن رسول الله قد قتل ، فجاء شاهراً سيفه حتى رأى رسول الله ﷺ فشام[1] سيفه ، وَهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وَهو عنهم راض. وصحب الصديق فأحسن صحبته، وكان خَتَنه[2] على ابنته أسماء بنت الصديق ، وابنه عبدالله منها ـ أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة .

وخرج مع الناس إلى الشام مجاهداً، فشهد اليرموك فتشرفوا بحضوره ، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء ، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين من أولهم إلى آخرهم ، وكان من جملة من دافع عن عثمان وحاجف عنه ، فلما كان يوم الجمل ذكّره علىّ بما ذكّره به فرجع عن القتال وكر راجعاً إلى المدينة ، فمر بقوم الأحنف بن قيس ـ وكانوا قد انعزلوا عن الفريقين ـ فقال قائل يقال له الأحنف : مابال هذا جمع بين الناس، حتى إذا التقوا كر راجعاً إلى بيته ؟ من رجل يكشف لنا خبره ؟ فاتبعه عمرو بن جُرمُوز وفضالة بن حابس ونفيع ـ فى طائفة من غواة بنى تميم ، فيقال : إنهم لما أدركوه تعاونوا عليه حتى قتلوه ، ويقال: بل أدركه عمرو بن جُرموز، فقال له عمرو : إنّ لى إليك حاجة، فقال : ادنُ ! فقال مولى الزبير ـ واسمه عطية ـ إن معه سلاحاً، فقال : وإن ! فتقدم إليه فجعل يحدثه وكان وَقت الصلاة ، فقال له الزبير : الصلاة ، فقال : الصلاة ، فتقدم الزبير ليصلى بهما فطعنه عمرو بن جرموز فقتله ويقال : بل أدركه عمر بوادٍ يقال له وادى السباع، وهو نائم فى القائلة، فهجم عليه فقتله ، وهذا القول هو الأشهر، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نُفَيل ، وكانت قبله تحت عمر بن الخطاب فقتل عنها ، وكانت قبله تحت عبدالله بن أبى بكر الصديق فقتل عنها ، فلما قتل الزبير رثته بقصيدة محكمة المعنى فقالت :

غَدَر ابن جُرموز بفارس بُهمة	يوم اللقاء وكان غرٌّ معرّد
يا عمرو لو نبّهته لوجدته	لاطائشاً رَعش الجنَان ولا اليد
ثكلتك أمك أن ظفرت بمثله	ممّن بقى ممن يروح ويَغتدى
كم غمرة قد خاضها لم يُثنه	عنها طِرادك يا ابن فقع القردد
والله ربى إن قتلت لمسلما	حلّت عليك عقوبة المتعمِّد

ولما قتله عمرو بن جرموز احتز رأسه وذهب به إلى على، ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده، فاستأذن فقال على : لا تأذنوا له وبَشروه بالنار ، وفى رواية : أن عليا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بشر قاتل ابن صفية بالنار »، وَدخل ابن جُرموز ومعه سيف الزبير، فقال علىّ :

---

(١) أى : غمد ـ ومعناه أيضا : استل ، فهو ضد . (٢) أى : صهره .

إن هذا السيف طال ما فرج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ، فيقال : إن عمرو بن جُرموز لما سمع ذلك قتل نفسه ، وقيل: بل عاش إلى أن تأمر مصعب بن الزبير على العراق فاختفى منه ، فقيل لمصعب: إن عمرو بن جرموز هاهنا وهو مختف ، فهل لك فيه ؟ فقال : مُروه فليظهر فهو آمن ، والله ما كنت لأقيد للزبير منه ، فهو أحقر من أن أجعله عدلاً للزبير .

وقد كان الزبير ذا مال جزيل وصدقات كثيرة جداً ، لما كان يوم الجمل أوصى إلى ابنه عبدالله، فلما قتل وَجدوا عليه من الدين ألفي ألف ومائتا ألف فوفوها عنه ، وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذى أوصى به ، ثم قسمت التركة بعد ذلك ، فأصاب كل واحدة من الزوجات الأربع من ربع الثُّمن ألف ألف ومائتا ألف درهم ، فعلى هذا يكون مجموع ماقسم بين الورثة ـ ثمانية وثلاثين ألف ألف وأربعمائة ألف، والثلث الموصى بهـ تسعة عشر ألف ألف ومائتا ألف فتلك الجلة : سبعة وخمسون ألف ألف وستمائة ألف. والدين المخرج قبل ذلك ـ ألفا ألف ومائتا ألف ، فعلى هذا يكون جميع ماتركه من الدين وَالوصية والميراث ـ تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف ، وإنما نبهنا على هذا ، لأنه وقع فى صحيح البخارى ما فيه نظر ينبغى أن ينبه له ، والله أعلم .

وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة والمآثر الغزيرة ؛ مما أفاء الله عليه من الجهاد ،ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه ، ومن التجارة المبرورة من الخلال المشكورة . وقد قيل: إنه كان له ألف مملوك يؤدُّون إليه الخراج ، فربما تصدق فى بعض الأيام بخراجهم كلهم ـ رضى الله عنه وَأرضاه . وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، وَقد نيف على الستين بست أو سبع . وكان أسمر رَبعة من الرجال ، معتدل اللحم ، خفيف اللحية ، رضى الله عنه .

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة ست وثلاثين

ولّى على بن أبى طالب نيابة الديار المصرية لقيس بن سعد بن عُبادة ، وكان على نيابتها فى أيام عثمان ـ عبدالله بن سَعد بن أبى سَرح ، فلما توجه أولئك الأحزاب من خوارج المصريين إلى عثمان ، كان الذى جهزهم إليه مع عبدالله بن سَبأ المعروف بابن السوداء ـ محمد بن أبى حُذيفة بن عتبة، وكان لما قتل أبوه باليمامة أوصى به إلى عثمان ، فكفله ورباه فى حجره ومنزله ، وأحسن إليه إحسانا كثيراً، ونشأ فى عبادة وزهادة ، وسأل من عثمان أن يوليه عملا فقال له : متى ما صرتَ أهلاً لذلك وليتك ، فتعتّب فى نفسه على عثمان ، فسأل من عثمان أن يخرج إلى الغزو فأذن له ، فقصد الديار المصرية وحضر مع أميرها عبدالله بن سعد بن أبى سَرح غزوة الصّوارى كما قدمنا ، وجعل ينتقص عثمان رضى الله عنه ، وساعده على ذلك محمد بن أبى بكر ، فكتب بذلك ابن أبى سَرح إلى عثمان يشكوهما إليه ، فلم يعبأ بهما عثمان . ولم يزل ذلك دأب محمد بن أبى حُذيفة حتى

استنفر أولئك إلى عثمان . فلما بلغه أنهم قد حصروا عثمان تغلب على الديار المصرية وأخرج منها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وصلى بالناس فيها ـ فلما كان ابن أبى سرح ببعض الطريق جاءه الخبر بقتل أمير المؤمنين عثمان، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون

وبلغه أنّ عليا قد بعث على إمرة مصر قيس بن سعد بن عبادة ، فشمت بمحمد بن أبى حذيفة ، إذ لم يتمتع بتلك الديار المصرية سنة ، وسار عبد الله بن سعد إلى الشام إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره بديار مصر ، وأنّ محمد بن أبى حُذيفة قد استحْوذ عليها ، فسار معاوية وعمرو ابن العاص ليخرجاه منها ، لأنه من أكبر الأعوان على قتل عثمان ، مع أنه كان قد ربّاه وكفله وأحسن إليه ، فعالجا دخول مصر فلم يقدرا ، فلم يزالا يخدعانه حتى خرج إلى العريش فى ألف رجل فتحصن بها ، وجاء عمرو بن العاص فنصب عليه المنجنيق حتى نزل فى ثلاثين من أصحابه فقتلوا ذكره محمد بن جرير .

ثم سار إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بولاية من علىّ ، فدخل مصر فى سبعة نفر ، فرقى المنبر وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإنى أحمد الله كثيراً الذى لا إله إلا هو أما بعد ، فإن الله بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله به هذه الأمة ، وخصّهم به من الفضيلة ـ أن بعث محمداً ﷺ يعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة ، لكيما يهتدوا ، وجمّعهم لكيما لايتفرّقوا ، وزكاهم لكى يتطهروا ، ورفّهم[1] لكيلا يجوروا . فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله إليه ، صلوات الله وسلامه عليه وبركاته ورحمته .

ثم إن المسلمين استخلفوا بعده أميرَين صالحين ، عملا بالكتاب والسنة ، وأحسنا السّيرة ولم يعدُوا السنة . ثم توفاهما الله فرحمهما الله ، ثم ولى بعدهما والٍ أحدث أحداثا ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيّروا ، ثم جاءونى فبايعونى ، فأستهدى الله بهداه ، وأستعينه على التقوى . ألاَ وإنّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً ، فوازروه وكانفوه[2] وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مُريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته، أسأل الله لنا ولكم عملا زاكيا، وثوابا جزيلا ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) فى نسخة : ورفقهم .
(٢) كنفه : حاطه وصانه ، وبابه نصر .

وكتب عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين قال: ثم قام قيس بن سعد فخطب الناس ودعاهم إلى البيعة لعلي، فقام الناس فبايعوه، واستقامت له طاعة بلاد مصر، سوى قرية منها يقال لها « خربتا »، فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان - وكانوا سادة الناس ووجوههم، وكانوا في نحو من عشرة آلاف، وعليهم رجل يقال له: يزيد بن الحارث المُدْلجي - وبعثوا إلى قيس بن سعد فوادعهم. وكذلك مسلمة بن مدلج[1] الأنصاري، تأخر عن البيعة فتركه قيس بن سعد ووادعه.

ثم كتب معاوية بن أبي سفيان - وقد استوثق له أمر الشام بحذافيره - إلى أقصى بلاد الروم والسواحل، وجزيرة قبرص أيضاً تحت حكمه، وبعض بلاد الجزيرة كالرّها وحرّان وقرقيسياء، وغيرها. وقد ضوى إليها الذين هربوا يوم الجمل من العثمانية، وقد أراد الأشتر انتزاع هذه البلاد من يد نواب معاوية، فبعث إليه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ففر منه الأشتر، واستقر أمر معاوية على تلك البلاد، فكتب إلى قيس بن سعد يدعوه إلى القيام بطلب دم عثمان، وأن يكون مؤازراً له على ما هو بصدده من القيام في ذلك، ووعده أن يكون نائبه على العراقين إذا تم له الأمر مادام سلطاناً.

فلما بلغه الكتاب - وكان قيس رجلا حازماً - لم يخالفه ولم يوافقه، بل بعث يلاطف معه الأمر، وذلك لبعده عن عليّ وقربه من بلاد الشام وما مع معاوية من الجنود، فسالمه قيس وتاركه ولم يواقعه[2] على ما دعاه إليه ولا وافقه عليه. فكتب إليه معاوية: إنه لا يسعك معي تسويفك بي وخديعتك لي، ولا بد أن أعلم أنك سِلم أو عدو - وكان معاوية حازماً أيضاً - فكتب إليه بما صمم عليه: إني مع عليّ، إذ هو أحق بالأمر منك. فلما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان يئس منه ورجع، ثم أشاع بعض أهل الشام أنّ قيس بن سعد يكاتبهم في الباطن ويمالئهم على أهل العراق. وروى ابن جرير، أنه جاء من جهته كتاب مزوّر بمبايعته معاوية، والله أعلم بصحته. ولما بلغ ذلك علياً اتهمه، وكتب له أن يغزو أهل « خربتا » الذين تخلفوا عن البيعة، فبعث إليه يعتذر إليه بأنهم عدد كثير، وهم وجوه الناس وكتب إليه. إن كنت إنما أمرتني بهذا لتختبرني لأنك اتهمتني، فابعث على عملك بمصر غيري، فبعث عليّ على إمرة مصر الأشتر النخعي، فسار إليها الأشتر النخعي، فلما بلغ القلزم شرب شربة من عسل فكان فيها حتفُه، فبلغ ذلك أهل الشام فقالوا: إن لله جُنداً من عسل. فلما بلغ علياً مَهلك الأشتر، بعث محمد بن أبي بكر على إمرة مصر، وقد قيل - وهو الأصح - إن علياً ولّى محمد بن أبي بكر بعد قيس بن سعد، فارتحل قيس إلى المدينة، ثم ركب هو وسهل بن حنيف إلى عليّ فاعتذر إليه قيس بن سعد فعذره عليّ، وشهدا معه صفين كما سنذكره.

---

(١) في الطبري: ابن مخلد.

(٢) أي: يخالفه ويحاربه.

فلم يزل محمد بن أبي بكر بمصر قائما بالأمر مهيبا بالديار المصرية ، حتى كانت وقعة صفين ، وبلغ أهل مصر خبر معاوية ومن معه من أهل الشام على قتال أهل العراق ، وصاروا إلى التحكيم ، فطمع أهل مصر في محمد بن أبي بكر ، واجترءوا عليه وبارزوه بالعداوة فكان من أمره ما سنذكره. وكان عمرو بن العاص قد بايع معاوية على القيام بطلب دم عثمان ، وكان قد خرج من المدينة حين أرادوا حصره لئلا يشهد مهلكه ، مع أنه كان متعتبا عليه بسبب عزله له عن ديار مصر ، وتوليته بدله عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فتسرح عن المدينة على تغضب ، فنزل قريبا من الأردن ، فلما قتل عثمان صار إلى معاوية فبايعه على ما ذكرنا .

فصل في وقعة صفين

﴿ بين أهل العراق من أصحاب علي ، وبين أهل الشام من أصحاب معاوية ﴾

قد تقدم ما رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين ، أنه قال : « هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف فلم يحضرها منهم مائة ، بل لم يبلغوا ثلاثين » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال لشعبة : إن أبا شيبة روى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : « شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلا ، فقال : كذب أبو شيبة والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك ، فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت» . وقد قيل إنه شهدها من أهل بدر سهل بن حنيف ، وكذا أبو أيوب الأنصاري . قاله شيخنا العلامة ابن تيمية في كتاب الرد على الرافضة . وروى ابن بطة بإسناده عن بكير بن الأشج أنه قال : أما إن رجالا من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتـــل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم .

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه لما فرغ من وقعة الجمل ودخل البصرة وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة ـ سار من البصرة إلى الكوفة . قال أبو الكنود ـ عبد الرحمن بن عبيد : فدخلها علي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين ، فقيل له : انزل بالقصر الأبيض ، فقال : لا ! إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله ، فأنا أكرهه لذلك ، فنزل في الرحبة وصلى في الجامع الأعظم ركعتين ، ثم خطب الناس فحثهم على الخير ونهاهم عن الشر ، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه . ثم بعث إلى جرير ابن عبد الله ـــ وكان على همذان من زمان عثمان ، وإلى الأشعث بن قيس ـ وهو على نيابة أذربيجان من زمان عثمان ـ أن يأخذا البيعة على من هنالك من الرعايا ثم يقبلا إليه ، ففعلا ذلك .

فلما أراد علىّ رضى الله عنه أن يبعث إلى معاوية رضى الله عنه يدعوه إلى بيعته ، قال جرير ابن عبد الله : أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين ؟ فإن بينى وبينه وِدّاً ، فآخذ لك منه البيعة ، فقال الأشتر : لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإنى أخشى أن يكون هواه معه. فقال على : دعه ، وبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية، يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ويخبره بما كان فى وقعة الجمل ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس . فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله أعطاه الكتاب ، فطلب معاوية عمرو بن العاص ورءوس أهل الشام فاستشارهم ، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان ، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان ، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتل قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه فرجع جرير إلى علىّ فأخبره بما قالوا ، فقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ! ألم أنهك أن تبعث جريراً ؟ فلو كنت بعثتنى لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته . فقال له جرير : لو كنت ثَمّ لقتلوك بدم عثمان فقال الأشتر : والله لو بعثنى لم يعيينى جواب معاوية ولأعجلته عن الفكرة ، ولو أطاعنى فيك لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة ، فقام جرير مغضباً وأقام بقرقيسياء ، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له ، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه .

وخرج أمير المؤمنين على بن أبى طالب من الكوفة عازماً على الدخول إلى الشام ، فعسكر بالنخيلة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدرى الأنصارى ، وكان قد أشار عليه جماعة بأن يقيم بالكوفة ويبعث الجنود ، وأشار آخرون أن يخرج فيهم بنفسه ، وبلغ معاوية أن علياً قد خرج بنفسه ، فاستشار عمرو بن العاص فقال له : اخرج أنت أيضاً بنفسك ، وقام عمرو ابن العاص فى الناس فقال : إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل ، ولم يبق مع علىّ إلا شرذمة قليلة من الناس ، ومنهم من قد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فالله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تُطلوه . وكتب إلى أجناد الشام فحضروا ، وعقدت الألوية والرايات للأمراء ، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا ، وخرجوا أيضاً إلى نحو الفرات من ناحية صفين ـ حيث يكون مقدم على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ وسار علىّ رضى الله عنه بمن معه من الجنود من النخيلة قاصداً أرض الشام .

قال أبو إسرائيل عن الحكم بن عُيينة : وكان فى جيشه ثمانون بدرياً ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة . رواه ابن ديزيل . وقد اجتاز فى طريقه براهب ، فكان من أمره ما ذكره الحسين بن ديزيل فى كتابه، فيما رواه عن يحيى بن عبد الله الكرابيسى، عن نصر بن مزاحم عن عمر ابن سعد : حدثنى مسلم الأعور عن حبة العرنى قال : لما أتى على الرَّقّة نزل بمكان يقال له البُليخ على جانب الفرات، فنزل إليه راهب من صومعته فقال لعلى : إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا

كتبه أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام ، أعرضه عليك ؟ فقال على : نعم ! فقرأ الراهب الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الذى قضى فيما قضى ، وسطر فيما سطر ، وكتب فيما كتب ، أنه باعث فى الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل الله ، لا فظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل شرف ، وفى كل صعود وهبوط ، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير ، وينصره الله على كل من ناوأه ، فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت ، فلبثت بذلك ما شاء الله ، ثم اختلفت . ثم يمرّ رجل من أمته بشاطىء هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضى بالحق ولا ينكس الحكم . الدنيا أهون عليه من الرماد - أو قال التراب - فى يوم عصفت فيه الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء . يخاف الله فى السر ، وينصح فى العلانية ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، فمن أدرك ذلك النبى من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره ، فإن القتل معه شهادة » .

ثم قال لعلىّ : فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبنى ما أصابك . فبكى علىّ ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعلنى عنده نسياً منسياً ، والحمد لله الذى ذكرنى عنده فى كتب الأبرار . فمضى الراهب معه وأسلم ، فكان مع علىّ حتى أصيب يوم صفين ، فلما خرج الناس يطلبون قتلاهم ، قال على : اطلبوا الراهب ، فوجدوه قتيلا ، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه واستغفر له .

وقد بعث علىّ بين يديه زياد بن النضر الحارثى - طليعة فى ثمانية آلاف ، ومعه شريح بن هانىء ، فى أربعة آلاف ، فساروا فى طريق بين يديه غير طريقه ، وجاء علىّ فقطع دجلة من جسر منبج وسارت المقدمتان ، فبلغهم أن معاوية قد ركب فى أهل الشام ليلقى أمير المؤمنين علياً ، فهموا بلقياه فخافوا من قلة عددهم بالنسبة إليه ، فعدلوا عن طريقهم ، وجاءوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهل عانات ، فساروا فعبروا من هيت ، ثم لحقوا علياً - وقد سبقهم - فقال على : مقدمتى تأتى من ورائى ؟ فاعتذروا إليه بما جرى لهم ، فعذرهم ثم قدمهم أمامه إلى معاوية بعد أن عبر الفرات ، فتلقاهم أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمى فى مقدمة أهل الشام فتواقفوا ، ودعاهم زياد بن النضر أمير مقدمة أهل العراق - إلى البيعة فلم يجيبوه بشىء ، فكتب إلى علىّ بذلك ، فبعث إليهم علىّ الأشتر النخعى أميراً ، وعلى ميمنته زياد ، وعلى ميسرته شريح ، وأمره أن لا يتقدم إليهم بقتال حتى يبدءوه بالقتال ، ولكن ليدعهم إلى البيعة مرة بعد مرة ، فإن امتنعوا فلا يقاتلهم حتى يقاتلوه ، ولا يقرب منهم قرب من يريد الحرب ، ولا يبتعد منهم ابتعاد من يهاب الرجال ، ولكن صابرهم حتى آتيك ، فأنا حثيث السير وراءك إن شاء الله ، فتحاجزوا يومهم ذلك .

فلما كان آخر النهار حمل عليهم أبو الأعور السلمي، وبعث معه بكتاب الإمارة على المقدمة مع الحارث بن جُهمان الجعفي، فلما قدم الأشتر على المقدمة امتثل ما أمره به عليّ، فتواقف هو ومقدمة معاوية وعليها أبو الأعور السلمي، فثبتوا له واصطبروا لهم ساعة، ثم انصرف أهل الشام عند المساء. فلما كان الغد تواقفوا أيضاً وتصابروا، لحمل الأشتر فقتل عبدالله بن المنذر التنوخي - وكان من فرسان أهل الشام - قتله رجل من أهل العراق يقال له: ظبيان بن عمّار التميمي، فعند ذلك حمل عليهم أبو الأعور بمن معه، فتقدموا إليهم وطلب الأشتر من أبي الأعور أن يبارزه فلم يجبه أبو الأعور إلى ذلك، وكأنه رآه غير كفء له في ذلك، والله أعلم.

وتحاجز القوم عن القتال عند إقبال الليل من اليوم الثاني. فلما كان صباح اليوم الثالث، أقبل عليّ رضي الله عنه في جيوشه، وجاء معاوية رضي الله عنه في جنوده، فتواجه الفريقان وتقابل الطائفتان فرقة المسلمان. فتواقفوا طويلا. وذلك بمكان يقال له: صِفِّين، وذلك في أوائل ذي الحجة. ثم عدل علي رضي الله عنه فارتاد لجيشه منزلا، وقد كان معاوية سبق بجيشه فنزلوا عَلَى مَشْرَعة[1] الماء في أسهل موضع وأفسحه، فلما نزل عليّ نزل بعيداً من الماء، وجاء سَرَعان[2] أهل العراق ليردوا من الماء فمنعهم أهل الشام، فوقع بينهم مقاتلة بسبب ذلك، وقد كان معاوية وكل على الشريعة أبا الأعور السلمي، وليس هناك مشرعة سواها، فعطش أصحاب عليّ عطشاً شديداً، فبعث عليّ الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء، فمنعهم أولئك وقالوا: موتوا عطشا كما منعتم عثمان الماء، فتراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمدّ كل طائفة أهلها، حتى جاء الأشتر النخعي من ناحية العراقيين، وعمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت. وقد قال رجل من أهل العراق - وهو عبدالله بن عوف بن الأحمر الأزدي - وهو يقاتل:

خلُّوا لنا ماءَ الفرات الجاري   أو اثبتُوا لجحفل جرار
لكلّ قَرم مشربٍ تيار[3]   مطاعن برمحه كرّار

ضراب هامات العدا مغوار

ثم مازال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه، وخلوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة، لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذى

---

(١) المشرعة والشريعة: مورد الشاربة (٢) سرعان الناس - محركة - أوائل المستبقين إلى الأمر
(٣) الذي في الطبري: مستميت شاري

إنسان إنساناً . وفي رواية : أن معاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة، وقف دونها برماح مشرعة وسيوف مسلّة ، وسهام مفوّقة ، وقسي موترة ، فجاء أصحاب عليّ علياً فشكوا إليه ذلك ، فبعث صعصعة بن صُوحان إلى معاوية يقول له : إنا جئنا كافين عن قتالكم حتى نقيم عليكم الحجة ، فبعثت إلينا مقدمتك فقاتلتنا قبل أن نبدأكم ، ثم هذه أخرى قد منعونا الماء . فلما بلغه ذلك قال معاوية للقوم : ماذا يريدون ؟ فقال عمرو: خلِّ بينهم وبينه ، فليس من النَّصف أن نكون رِيانين وَهم عطاش . وقال الوليد : دعهم يذوقوا من العطش ما أذاقوا أمير المؤمنين عثمان حين حصروه في داره ، ومنعوه طيب الماء والطعام أربعين صباحاً . وقال عبدالله بن سَعد بن أبي سَرح : امنعهم الماء إلى الليل فلعلهم يرجعون إلى بلادهم . فسكت معاوية ، فقال له صعصعة بن صُوحان : ماذا جوابك ؟ فقال: سيأتيكم رأيي بعد هذا. فلما رجع صعصعة فأخبر الخبر ركب الخيل والرجال، فما زالوا حتى أزاحوهم عن الماء وَوردوه قهراً ، ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء ، ولا يمنع أحد أحداً منه .

وأقام عليّ يومين لا يكاتب معاوية ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا عليّ بشير بن عمرو الأنصاري- وسعيد بن قيس الهمداني - وشَبَث بن رِبعيّ التميمي فقال : ايتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة، واسمعوا ما يقول لكم. فلما دخلوا على معاوية قال له بشير بن عمرو: يا معاوية ! إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، والله محاسبك بعملك ، ومجازيك بما قدمت يداك ، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . فقال له معاوية : هلا أوصيت بذلك صاحبكم ؟ فقال له : إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر ، في فضله ودينه وسابقته وقرابته ، وإنه يدعوك إلى مبايعته، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في آخرتك . فقال معاوية . ويُطلّ دم عثمان؟ لا - والله لا أفعل ذلك أبداً ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم ، فبدره شَبَث بن رِبْعيّ فتكلم قبله بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية ، فزجره معاوية وزبره في افتياته على من هو أشرف منه ، وكلامه بما لا علم له به ، ثم أمر بهم فأخرجوا من بين يديه ، وصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً .

فمنذ ذلك نشبت الحرب بينهم ، وأمر عليّ بالطلائع والأمراء أن تتقدم للحرب ، وجعل عليّ يؤمّر على كل قوم من الحرب أميراً ؛ فمن أمرائه على الحرب : الأشتر النخعي - وهو أكبر من كان يخرج للحرب - وحُجر بن عدي وشَبث بن رِبعي ، وخالد بن المعمّر، وزياد بن النضر ، وزياد ابن خَصَفة ، وسعيد بن قيس ، ومعقل بن قيس ، وقيس بن سعد .

وكذلك كان معاوية يبعث على الحرب كل يوم أميراً ؛ فمن أمرائه : عبدالرحمن بن خالد

ابن الوليد ، وأبو الأعور السلمى ، وحبيب بن مسلمة ، وذو الكلاع الحميرى ، وعبيد الله ابن عمر بن الخطاب ، وشرحبيل بن السمط ، وحمزة بن مالك الهمدانى ، وربما اقتتل الناس فى اليوم مرتين ، وذلك فى شهر ذى الحجة بكماله . وحج بالناس فى هذه السنة عبدالله بن عباس عن أمر على له بذلك ، فلما انسلخ ذو الحجة ودخل المحرم تداعى الناس للمتاركة ، لعل الله أن يصلح بينهم على أمر يكون فيه حقن دمائهم ، فكان ما سنذكره .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

استهلت هذه السنة وأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه متواقف هو ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، كل منهما فى جنوده بمكان يقال له : صِفِّين ـ بالقرب من الفرات شرقىّ بلاد الشام ، وقد اقتتلوا فى مدة شهر ذى الحجة كل يوم ، وفى بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين ، وجرت بينهم حروب يطول ذكرها . والمقصود أنه لما دخل شهر المحرم تحاجز القوم ، رجاء أن تقوم بينهم مهادنة وموادعة ، يؤول أمرها إلى الصلح بين الناس وحقن دمائهم . فذكر ابن جرير من طريق هشام عن أبى مخنف ـ مالك ، حدثنى سعيد بن المجاهد الطائى ، عن محل بن خليفة ، أن عليًّا بعث عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبى وشبث بن ربعى ، وزياد بن خصفة إلى معاوية ، فلما دخلوا عليه ـ وعمرو بن العاص إلى جانبه ـ قال عدىّ بعد حمد الله والثناء عليه : أما بعد ! يامعاوية فإنا جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمرنا ، وتحقن به الدماء ، ويأمن به السبل ، ويصلح ذات البين ؛ إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك من شيعتك ، فانته يا معاوية لا يصيبك الله وأصحابك مثل يوم الجمل ، فقال له معاوية : كأنك إنما جئت مُهَدداً ولم تأت مصلحاً ، هيهات والله يا عدى : كلا والله إنى لابن حرب ، لا يُقعقع لى بالشنان[1] ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ؟ وإنك لمن قتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به .

وتكلم شبث بن ربعى وزياد بن حفصة ، فذكرا من فضل علىّ وقالا : اتق الله يا معاوية ولا تخالفه فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه .

فتكلم معاوية ، فحمد وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ! فإنكم دعوتمونى إلى الجماعة والطاعة ، فأما الجماعة فمعنا هى ، وأما الطاعة فكيف أطيع رجلا أعان على قتل عثمان وهو يزعم أنه لم يقتله؟ ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به ، ولكنه آوى قتلته ، فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم ، ثم نحن

(١) القعقعة : حكاية صوت السلاح ، والشنان : جمع شن أو شنة ـ القربة الخلق الصغيرة وقوله : ما يقعقع لى بالشنان ، يضرب لمن لا يتضع لحوادث الدهر ولا يروعه مالا حقيقة له .

يجيبكم إلى الطاعة والجماعة . فقال له شبث بن ربعي : أنشدك الله يا معاوية . لو تمكنت من عمار أكنت قاتله بعثمان ؟ قال معاوية : لو تمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان ، ولكني كنت قتلته بغلام عثمان . فقال له شبث بن ربعيّ : وإله الأرض والسماء لا تصل إلى قتل عمار حتى تندُر[1] الرءوس عن كواهلها ، ويضيق فضاء الأرض ورحبها عليك . فقال معاوية : لو قد كان ذلك كانت عليك أضيق . وخرج القوم من بين يديه فذهبوا إلى عليّ فأخبروه بما قال .

وبعث معاوية حبيب بن مَسلمة الفهرْي ، وشرحبيل بن السِّمط ، ومعن بن يزيد بن الأخنس إلى عليّ ، فدخلوا عليه ، فبدأ حبيب فحمدالله وأثنى عليه ، ثم قال: أمابعد: فإن عثمان بن عفان كان خليفة مَهْدِيًّا ، عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع إلينا قتلته ـ إن زعمت أنك لم تقتله ـ ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم ، فيولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . فقال له عليّ : وما أنت لا أم لك ! وهذا الأمر وهذا العزل ! فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك . فقال له حبيب : أما والله لترَيَنِّي حيث تكره ، فقال له عليّ : وما أنت ولو أجلبتَ بخيلك ورجلك ! لا أبقى الله عليك إن أبقيت عَلَيَّ ، اذهب فصعِّد وصوِّب ما بدا لك .

ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلا جرى بينهم وبين عليّ ، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر ؛ فإن في مطاوي ذلك الكلام من عليّ ماينتقص فيه معاوية وأباه ، وإنهم إنما دخلوا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه وغير ذلك. وإنه قال في غبون ذلك : لا أقول إن عثمان قتل مظلوماً ولاظالماً فقالوا : نحن نبرأ ممن لم يقل إن عثمان قتل مظلوماً ، وخرجوا من عنده ، فقال عليّ : (إِنَّكَ لاتُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاتُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين•وما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُون)[2] ثم قال لأصحابه : لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم .وهذا عندى لايصح عن علي رضي الله عنه .

وروى ابن ديزيل من طريق عمر بن سعد بإسناده ، أن قراء أهل العراق وقراء أهل الشام عسكروا ناحية ، وكانوا قريباً من ثلاثين ألفاً ، وأن جماعة من قراء العراق منهم: عبيدة السلماني ، وعلقمة بن قيس ، وعامر بن عبد قيس ، وعبدالله بن عتبة بن مسعود ، وغيرهم ـ جاءوا معاوية فقالوا له : ما تطلب ؟ قال : أطلب بدم عثمان، قالوا : فمن تطلب به ؟ قال : عليا ، قالوا : أهو قتله ؟ قال : نعم ! وآوى قتلته . فانصرفوا إلى عليّ فذكروا له ما قال ، فقال : كذب ! لم أقتله ، وأنتم

---

(١) أي : تسقط (٢) الآيتان : ٨٠ – ٨١ من سورة النمل .

تعلمون أنى لم أقتله. فرجعوا إلى معاوية فقال: إن لم يكن قتله بيده فقد أمَر رجالا. فرجعوا إلى على فقال: والله لاقتلت ولا أمرت ولا مالأت[1]. فرجعوا فقال معاوية: فإن كان صادقا فليقدنا من قتلة عثمان فإنهم فى عسكره وجنده. فرجعوا فقال علىّ: تأول القوم عليه القرآن فى فتنة وَوَقعت الفرقة لأجلها وقتلوه فى سلطانه، وليس لى عليهم من سبيل. فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال: إن كان الأمر على مايقول فالَه أنفذ الأمر دوننا من غير مشورة متاولا بمن هاهنا؟ فرجعوا إلى على فقال على: إنما الناس مع المهاجرين والأنصار، فهم شهود الناس على ولا يتهم وأمر دينهم، ورضوا وبايعونى ولست أستحل أن أدع مثل معاوية يحكم على الأمة ويشق عصاها. فرجعوا إلى معاوية فقال: ما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر؟ فرجعوا فقال على: إنما هذا للبدريين دون غيرهم، وليس على وجه الأرض بدرىّ إلا وهو معى، وقد رضى، فلا يغرنكم من دينكم وأنفسكم.

قال: فأقاموا يتراسلون فى ذلك شهر ربيع الآخر وجماديين، ويفرعون فى غبون ذلك القرعة بعد القرعة، ويزحف بعضهم على بعض، ويحجز بينهم القراء، فلا يكون قتال. قال: ففزعوا فى ثلاثة أشهر خمسة وثمانين قرعة. قال: وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية فقالا له: يا معاوية، على م تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ، وأحق بهذا الأمر منك. فقال. أقاتله على دَم عثمان وإنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له: فليقدنا من قتلة عثمان، ثم أنا أوّل من بايعه من أهل الشام. فذهبا إلى علىّ فقالا له ذلك فقال: هؤلاء الذين تريان، فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا. قال: فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حربا.

قال عمرو بن سعد بإسناده: حتى إذا كان رجب وخشى معاوية أن يتابع القراء كلهم عليا، كتب فى سهم من عبد الله الناصح: يامعشر أهل العراق! إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليغرقكم فخذوا حذركم، ورمى به فى جيش أهل العراق. فأخذه الناس فقرءوه وتحدثوا به، وذكروه لعلى فقال: إن هذا مالا يكون ولا يقع وشاع ذلك، وبعث معاوية مائتى فاعل يحفرون فى جنب الفرات، وبلغ الناس ذلك فتشوش[2] أهل العراق من ذلك، وفزعوا إلى على فقال: ويحكم! إنه يريد خديعتكم ليزيلكم عن مكانكم هذا وينزل فيه، لأنه خير من مكانه. فقالوا: لابد من أن نخلى عن هذا الموضع فارتحلوا منه، وجاء معاوية فنزل بجيشه، وكان علىّ آخر من ارتحل، فنزل بهم وهو يقول:

فلو أنى أطعت عصبت قومى … إلى ركن اليمامة أوشآم
ولكنى إذا أبرمت أمراً … يخالفه الطغام بنو الطغام

(١) أى: ما ساعدت ولا عاونت.
(٢) أى: اختلف قال فى القاموس التشوش لحن، ووهم الجوهرى، والصواب التهوش.

قال : فأقاموا إلى شهر ذى الحجة، ثم شرعوا فى المقاتلة ، فجعل على يؤمّر على الحرب كل يوم رجلا، وأكثر من كان يؤمر ـ الأشتر. وكذلك معاوية يؤمّر كل يوم أميراً ، فاقتتلوا شهر ذى الحجة بكماله ، وربما اقتتلوا فى بعض الأيام مرتين . قال ابن جرير رحمه الله: ثم لم تزل الرسل تتردد بين علىّ ومعاوية ، والناس كافون عن القتال حتى انسلخ المحرم من هذه السنة ولم يقع بينهم صلح . فأمر على بن أبى طالب يزيد بن الحارث الجشمى ، فنادى أهل الشام عند غروب الشمس : ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استأنيتكم لتراجعوا الحق ، وأقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

ففزع أهل الشام إلى أمرائهم فأعلموهم بما سمعوا المنادى ينادى ، فنهض عندذلك معاوية وعمر فعبيا الجيش ميمنة وميسرة ، وبات علىٌّ يعبى جيشه من ليلته ؛ فجعل على خيل أهل الكوفة الأشتر النخعى ، وعلى رجالتهم عمار بن ياسر . وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حُنَيف ، وعلى رجالتهم قيس بن سعد وهاشم بن عتبة .وعلى قرائهم مِسْعَر بن فدكىّ التميمى . وتقدم علىّ إلى الناس أن لا يبدءوا واحداً بالقتال حتى يبدأ أهل الشام ، وأنه لا يذفف على جريح ولا يُتبع مدبر ، ولا يكشف ستر امرأة ولا تهان ، وإن شتمت أمراء الناس وصلحاءهم . وبرز معاوية صبح تلك الليلة وقد جعل على الميمنة ابن ذى الكَلاَع الحِميرى ، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهرى ، وعلى المقدمة أبا الأعور السُّلمى ، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص ، وعلى رجالتهم الضحاك بن قيس . ذكره ابن جرير .

وروى ابن ديزيل من طريق جابر الجعفى، عن أبى جعفر الباقر ويزيد بن الحسن بن على وغيرهما قالوا : لما بلغ معاوية سير علىّ، سار معاوية نحو علىّ، واستعمل على مقدمته سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمى، وعلى الساقة بُسر بن أبى أرطاة حتى توافوا جميعاً سائرين إلى جانب صفين . وزاد ابن الكلبى فقال : جعل على المقدمة أبا الأعور السلمى ، وعلى الساقة بُسراً ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر، ودفع اللواء إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على الميمنة حبيب بن مسلمة ، وعلى رجالتها يزيد بن زَحْر العنسى ، وعلى الميسرة عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعلى رجالتها حابس ابن سعد الطائى . وعلى خيل دمشق الضحاك بن قيس ، وعلى رجالتهم يزيد بن لبيد بن كرز البجلى . وجعل على أهل حمص ذا الكَلاَع ، وعلى أهل فلسطين مسلمة بن مخلد . وقام معاوية فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس! والله ما أصبت الشام إلا بالطاعة ، ولا أضبط حرب أهل العراق إلا بالصبر ، ولا أكابد أهل الحجاز إلا باللطف ، وقد تهيأتم وسرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق ، وسار

القوم ليغنموا العراق و يأخذوا الشام. ولعمرى ما للشام رجال العراق ولا أموالها ، ولا للعراق خبرة أهل الشام ولا بصائرها ، مع أن القوم وبعدهم أعدادهم ، وليس بعدكم غيركم ، فإن غلبتموهم لم تغلبوا إلا من أناتكم ، وإن غلبوكم غلبوا من بعدكم، والقوم لا قوكم بكيد أهل العراق ، ورقة أهل اليمن ، وبصائر أهل الحجاز ، وقسوة أهل مصر ، وإنما ينصر غداً من ينصر اليوم واستعينوا بالله (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[1] .

وقد بلغ عليا خطبة معاوية ، فقام فى أصحابه فحرضهم على الجهاد ومدحهم بالصبر وشجعهم بكثرتهم بالنسبة إلى أهل الشام . قال جابر الجعفى عن أبى جعفر الباقر وزيد بن أنس وغيرهما قالوا: سار علىّ فى مائة وخمسين ألفا من أهل العراق،وأقبل معاوية فى نحو منهم من أهل الشام وقال غيرهم : أقبل على فى مائة ألف أو يزيدون ، وأقبل معاوية فى نحو منهم من أهل الشام. وقال غيرهم: أقبل على فى مائة ألف أو يزيدون ، وأقبل معاوية فى مائه ألف وثلاثين ألفاً ـ رواها ابن ديزيل فى كتابه ـ وقد تعاقد جماعة من أهل الشام على أن لا يفروا، فعقلوا أنفسهم بالعمائم ، وكان هؤلاء خمسة صفوف، ومعهم ستة صفوف آخرين . وكذلك أهل العراق كانوا أحد عشر صفا أيضاً ، فتواقفوا على هذه الصفة أول يوم من صفر ، وكان ذلك يوم الأربعاء . وكان أمير الحرب يومئذ للعراقيين الأشتر النخعى ، وأمير الحرب يومئذ للشاميين حبيب بن مسلمة ، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالا شديداً ثم تراجعوا من آخر يومهم ، وقد انتصف بعضهم من بعض وتكافئوا فى القتال ، ثم أصبحوا من الغد يوم الخميس، وأمير حرب أهل العراق هاشم بن عتبة ، وأمير الشاميين يومئذ أبا الأعور السلمى ، فاقتتلوا قتالا شديداً . تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ، ثم تراجعوا من آخر يومهم ، وقد صبر كل من الفريقين للآخر وتكافئوا .

ثم خرج فى اليوم الثالث ـ وهو يوم الجمعة ـ عمار بن ياسر من ناحية أهل العراق ، وخرج إليه عمرو بن العاص فى الشاميين، فاقتتل الناس قتالاشديداً ،وحمل عمار على عمرو بن العاص فأزاله عن موقفه، وبارز زياد بن النضر الحارثى ـ وكان على الخيالة ـ رجلا،فلما تواقفا تعارفا فإذا هما أخوان من أم ، فانصرف كل واحد منهما إلى قومه وترك صاحبه ، وتراجع الناس من المشى وقد صبر كل فريق لصاحبه .

وخرج فى اليوم الرابع ـ وهو يوم السبت ـ محمد بن على « وهو ابن الحنفية » ـ ومعه جمع عظيم، فخرج إليه فى كثير من جهة الشاميين عبيدالله بن عمر ، فاقتتل الناس قتالا شديداً، وبرز عبيدالله بن عمر ، فطلب من ابن الحنفية أن يبرز إليه فبرز إليه . فلما كادا أن يقتربا قال علىّ :

(١) من الآيه : ٤٦ من سورة الأنفال

من المبارز ؟ قالوا. محمد ابنك وعبيد الله ، فيقال إن علياً حرك دابته وأمر ابنه أن يتوقف وتقدم إلى عبيد الله فقال له : تقدم إليّ ، قال له : لا حاجة لى فى مبارزتك ، فقال : بلى، فقال : لا ! فرجع عنه علىّ وتحاجز الناس يومهم ذلك .

ثم خرج فى اليوم الخامس ـ وهو يوم الأحد ـ فى العراقيين عبد الله بن عباس ، وفى الشاميين الوليد بن عقبة ، واقتتل الناس قتالا شديداً ، وجعل الوليد ينال من ابن عباس ، فيما ذكره أبو مخنف ويقول : قتلتم خليفتكم ولم تنالوا ما طلبتم ، ووالله إن الله ناصرنا عليكم . فقال له ابن عباس : فابرز إلىّ فأبى عليه ، ويقال إن ابن عباس قاتل يومئذ قتالا شديداً بنفسه رضى الله عنه .

ثم خرج فى اليوم السادس ـ وهو يوم الاثنين ـ وعلى الناس من جهة العراقيين قيس بن سعد ، ومن جهة أهل الشام ابن ذى الكلاع ، فاقتتلوا قتالا شديداً أيضاً وتصابروا ثم تراجعوا .

ثم خرج الأشتر النخعى فى اليوم السابع ـ وهو يوم الثلاثاء ـ وخرج إليه قرنه حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالا شديداً أيضاً ، ولم يغلب أحد أحداً فى هذه الأيام كلها .

قال أبو مخنف : حدثنى مالك بن أعين الجهنى ، عن زيد بن وهب ، أن علياً قال : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟ ثم قام فى الناس عشية الثلاثاء ـ ليلة الأربعاء بعد العصر ـ فقال الحمد لله الذى لا يُبرَم ما نقض، وما أبرَم لا ينقضه الناقضون ، لو شاء ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا تنازعت الأمة فى شىء من أمره ، ولا جحد المفضولُ ذا الفضل فضلَه ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، وألفت بيننا فى هذا المكان ، فنحن مِن ربّنا بمرأى ومسمع، فلو شاء لعجّل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم الحقّ أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده هى دار القرار (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)[1] ألا وإنكم لاقوا القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين . قال: فوثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها ، قال : ومرّ بالناس ـ وهم كذلك ـ كعب بن جُعَيل التغلبى فرأى ما يصنعون فجعل يقول :

أصبحت الأمة فى أمرٍ عجبْ ... والملك مجموع غداً لمن غلَب
فقلت قولا صادقاً غير كَذِبْ ... إنّ غداً تهلك أعلام العرب

(١) من الآية : ٣١ من سورة النجم

قال : ثم أصبح علىّ فى جنوده قد عبأهم كما أراد ، وركب معاوية فى جيشه قد عبأهم كما أراد ، وقد أمر علىّ كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام ، فتقاتل الناس قتالا عظيما لا يفر أحد من أحد ولا يغلب أحد أحداً ، ثم تحاجزوا عند المشى ، وأصبح علىّ فصلى الفجر بغلس وباكر القتال ، ثم استقبل أهل الشام فاستقبلوه بوجوههم ، فقال علىّ فيما رواه ابن مخنف عن مالك بن أعين عن زيد بن وهب :

اللهم ربّ السقف المرفوع ، المحفوظ المكفوف ، الذى جعلته مغيضاً لليل والنهار ، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم ، وجعلت فيه سبطاً[1] من الملائكة لا يسأمون العبادة . ورب هذه الأرض التى جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام ، ومالا يحصى مما نرى ومالا نرى من خلقك العظيم ، ورب الفُلْك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، ورب السحاب المسخّر بين السماء والأرض ، ورب البحر المسجور المحيط بالعالم ، ورب الجبال الرواسى التى جعلتها للأرض أوتاداً ، وللخلق متاعاً . إن أظهرتنا على عدونا فجنّبنا البغى والفساد وسدّدنا للحق ، وإن أظهرتهم علينا فارزقنى الشهادة وجنّب[2] بقية أصحابى من الفتنة .

ثم تقدم علىّ وهو فى القلب فى أهل المدينة ، وعلى ميمنته يومئذ عبد الله بن بُدَيل ، وعلى الميسرة عبد الله بن عباس ، وعلى القُرّاء عمار بن ياسر وقيس بن سعد ، والناس على راياتهم ، فزحف بهم إلى القوم . وأقبل معاوية ـ وقد بايعه أهل الشام على الموت ـ فتواقف الناس فى موطن مَهُول وأمر عظيم ، وحمل عبد الله بن بديل ـ أمير ميمنة علىّ ـ على ميسرة أهل الشام وعليها حبيب ابن مسلمة ، فاضطره حتى ألجأه إلى القلب ، وفيه معاوية . وقام عبد الله بن بديل خطيباً فى الناس يحرّضهم على القتال ويحثهم على الصبر والجهاد . وحرض أمير المؤمنين علىّ الناس على الصبر والثبات والجهاد ، وحثهم على قتال أهل الشام ، وقام كل أمير فى أصحابه يحرضهم ، وتلا عليهم آيات القتال من أماكن متفرقة من القرآن ؛ فمن ذلك قوله تعالى: (إنّ اللهَ يُحبّ الذين يُقاتِلونَ فى سَبيله صَفًّا كأنهم بُنيانٌ مَرْصُوص)[3] ثم قال : قدموا الدّارع وأخّروا الحاسر[4] وعضّوا على الأضراس ، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام والتوُوا فى أطراف الرماح فإنه أفوق للأسنة ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلب ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، راياتكم لا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم .

---

(١) السبط هنا : الأمة والجماعة

(٢) فى الطبرى : واعصم

(٣) الآية : ٤ من سورة الصف

(٤) الحاسر : من لا مغفر له ولا درع ، أو من لا جنة له

(٥) أى أبعد

وقد ذكر علماء التاريخ وغيرهم، أن عليًا رضي الله عنه بارز في أيام صفين ، وقاتل وقتل خلقًا حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة ؛ فمن ذلك أن كريب بن الصباح قتل أربعة من أهل العراق ثم وضعهم تحت قدميه، ثم نادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه علي فتجاولا ساعة ثم ضربه على فقتله، ثم قال علي : هل من مبارز ؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله ، ثم برز إليه داود بن الحارث الكلاعي فقتله ، ثم برز إليه المطاع بن المطلب القيسي فقتله . فتلا علي قوله تعالى : (وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ)[1] ثم نادى : ويحك يا معاوية ! ابرز إلي ولا تفني العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن عليًا لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي ، اذهب إليك ! فليس مثلي يُخدع .

وذكروا أن عليًا حمل على عمرو بن العاص يومًا فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض ، فبدت سوءته فرجع عنه ، فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا ! قال : هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته ، فذكرني بالرحم فرجعت عنه . فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك . وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل : ثنا يحيى ثنا نصر، ثنا عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن تميم الأنصاري قال : والله لكأني أسمع عليًا وهو يقول لأصحابه يوم صفين : أما تخافون مقت الله حتى متى؟ ثم انفتل إلى القبلة يدعو، ثم قال : والله ما سمعنا برئيس أصاب بيده ما أصاب علي يومئذ ؛ إنه قتل فيما ذكر العادون ــ زيادة على خمسمائة رجل ، يخرج فيضرب بالسيف حتى ينحني ، ثم يجيء فيقول : معذرة إلى الله وإليكم ، والله لقد هممت أن أفلقه، ولكن يحجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا سَيفَ إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي » قال : فيأخذه فيصلحه ثم يرجع به وهذا إسناد ضعيف، وحديث منكر .

وحدثنا يحيى، ثنا ابن وهب، أخبرني الليث عن يزيد بن حبيب ، أنه أخبره من حضر صفين مع علي ومعاوية، قال ابن وهب : وأخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط قال : شهدنا صفين مع علي ومعاوية، قال : فمطرت السماء علينا دمًا عبيطًا ، قال الليث في حديثه : حتى إن كانوا ليأخذونه بالصحاف والآنية ، قال ابن لهيعة : فتمتلىء ونهريقها . وقد ذكرنا أن عبد الله بن بديل كسر الميسرة التي فيها حبيب بن مسلمة حتى أضافها إلى القلب ، فأمر معاوية الشجعان أن يعاونوا حبيبًا على الكرة ، وبعث إليه معاوية يأمره بالحملة والكرة على ابن بديل ، فحمل حبيب بمن معه من الشجعان على ميمنة أهل العراق ، فأزالوهم من أماكنهم وانكشفوا عن

---

(١) من الآية : ١٩٣ من سورة البقرة .

أميرهم ، حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلثمائة ، وانجفل بقية أهل العراق ، ولم يبق مع على من تلك القبائل إلا أهل مكة وعليهم سهل بن حنيف ، وثبت ربيعة مع على رضى الله عنه ، واقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه ، وتقدم إليه مَولى لبنى أمية فاعترضه مولى لعلى فقتله الأموى ، وأقبل يريد علياً وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، فلما وصل إلى علىّ أخذه على بيده فرفعه ثم ألقاه على الأرض فكسر عضده ومنكبه ، وابتدره الحسين ومحمد بأسيافهما فقتلاه ، فقال على للحسن ابنه وهو واقف معه : مامنعك أن تصنع كما صنعا ؟ فقال : كفيانى أمره يا أمير المؤمنين وأسرع إلى علىّ أهل الشام، فجعل على لايزيده قربهم منه سرعة فى مشيته ، بل هو سائر على هينته ، فقال له ابنه الحسن : يا أبت! لو سعيت أكثر من مشيتك هذه ! فقال : يابنى إنّ لأبيك يوماً لن يعدوه، ولا يبطىء به عنه السعى، ولا يعجل به إليه المشى ، إن أباك والله ما يُبالى وقع عَلَى الموت أو وقع عليه .

ثم إن علياً أمر الأشتر النخعى أن يَلحق المنهزمين فيردهم، فسار فأسرع حتى استقبل المنهزمين من العراق ، فجعل يؤنبهم ويوبخهم، ويحرض القبائل والشجعان منهم على الكرة ، فجعل طائفة تتابعه وآخرون يستمرون فى هزيمتهم، فلم يزل ذلك دأبه حتى اجتمع عليه خلق عظيم من الناس، فجعل لا يَلق قبيلة إلا كشفها ، ولا طائفة إلا ردها ، حتى انتهى إلى أمير الميمنة ـ وهو عبدالله بن بديل ـ ومعه نحو من ثلثمائة قد ثبتوا فى مكانهم، فسألوا عن أمير المؤمنين، فقالوا : حىّ صالح، فالتفوا إليه ، فتقدم بهم حتى تراجع كثير من الناس ـ وذلك مابين صلاة العصر إلى الغروب ـ وأراد ابن بديل أن يتقدم إلى أهل الشام ، فأمره الأشتر أن يثبت مكانه ، فإنه خير له ، فأبى عليه ابن بديل ، وحمل نحو معاوية ، فلما انتهى إليه وجده واقفاً أمام أصحابه وفى يده سيفان ، وحوله كتائب أمثال الجبال . فلما اقترب ابن بديل تقدم إليه جماعة منهم فقتلوه وألقوه إلى الأرض قتيلا ، وفر أصحابه منهزمين وأكثرهم مجروح . فلما انهزم أصحابه قال معاوية لأصحابه : انظروا إلى أميرهم ، فجاءوا إليه فلم يعرفوه ، فتقدم معاوية إليه فإذا هو عبد الله بن بُدَيل ، فقال معاوية : هذا والله كما قال الشاعر ـ وهو حاتم الطائى :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت يوماً به الحرب شمّرا

ويحمى إذا ما الموت كان لقاؤه ... كذلك ذو الأشبال يحمى إذا ما تأمرا

كليث هزبر كان يحمى ذماره ... رمته المنايا سَهمها فتقطرا

ثم حمل الأشتر النخعى بمن رجع معه من المنهزمين ، فصدق الحملة حتى خالط الصفوف الخمسة الذين تعاقدوا أن لايفروا وهم حول معاوية ، فخرق منهم أربعة ، وبقى بينه وبين معاوية صف ،

قال الأشتر : فرأيت هولاً عظيما ، وكدت أن أفر، فما ثبتنى إلا قول ابن الإطنابة- وهى أمه من بلقين، وكان هو من الأنصار، وهو جاهلى:

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى ... وضربى هامة الرجل السميح
وقولى كلما جشأت[1] وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

قال : فهذا الذى ثبتنى فى ذلك الموقف . والعجب أن ابن ديزيل روى فى كتابه ، أن أهل العراق حملوا حملة واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أزالوه ، حتى أفضوا إلى معاوية ، فدعا بفرسه لينجو عليه ، قال معاوية : فلما وضعت رجلى فى الركاب تمثلت بأبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمـــد بالثمن الربيح
وإعطائى على المكروه مالى ... وضربى هامة البطل المشيح[2]
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

قال : فثبت ، ونظر معاوية إلى عمرو بن العاص فقال : اليوم صبر وغداً فخر ، فقال له عمرو: صدقت. قال معاوية : فأصبت خير الدنيا ، وأنا أرجو أن أصيب خير الآخرة .

ورواه محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب عن معاوية . وبعث معاوية إلى خالد بن المعتمر- وهو أمير الخيالة لعلى- فقال له : اتبعنى على ما أنت عليه ولك إمرة العراق ، فطمع فيه ، فلما ولى معاوية ولاه العراق فلم يصل إليها خالد رحمه الله ثم إن علياً لما رأى الميمنة قد اجتمعت رجع إلى الناس ، فأنب بعضهم وعذر بعضهم ،وحرض الناس وثبتهم ، ثم تراجع أهل العراق فاجتمع شملهم، ودارت رحى الحرب بينهم ، وجالوا فى الشاميين وصالوا ، وتبارز الشجعان فقتل خلق كثير من الأعيان من الفريقين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقيل: ممن قتل فى هذا اليوم : عُبيد الله بن عمر بن الخطاب من الشاميين ، واختلفوا فيمن قتله من العراقيين . وقد ذكر إبراهيم بن الحسين بن ديزيل : أن عبيد الله لما خرج يومئذ أميراً على الحرب أحضر امرأتيه : أسماء بنت عطارد بن حاجب التميمى ، وبَحرية بنت هانىء بن قبيصة الشيبانى - فوقفتا وراءه فى راحلتين ؛ لينظرا إلى قتاله وشجاعته وقوته ، فواجهته من جيش العراقيين رَبيعة الكوفة وعليهم زياد بن حَفصة التميمى ، فشدوا عليه شدة رجل واحد فقتلوه بعد ما انهزم عنه أصحابه ، ونزلت رَبيعة فضربوا لأميرهم خَيمة فبقى طُنب منها لم يجدوا له وتدا

(١) جشأت النفس : نهضت، وجاشت : غثت وارتفعت من حزن أو فزع وثارت للقىء .
(٢) المشيح : المقبل عليك ،المانع لما وراء ظهره .

فشدّوه برجل عبيد الله ، وجاءت امرأتاه يُوَلْولان حتى وقفتا عليه وبكتا عنده ، وشفعت امرأته بحرية إلى الأمير فأطلقه لها ، فاحتملتاه معهما فى هودجهما ، وقتل معه أيضاً ذو الكلاع . قال الشعبى : ففى مقتل عبيد الله بن عمر يقول كعب بن جُعَيل التغلبى :

ألا إنما تبكى العيون لفارس ... بصفّين ولّتْ[1] خيله وهو واقف

يُبدّل من أسماء أسيافَ وائل ... وكان فتىً لو أخطأته المتالفُ

تَركن عُبَيد الله بالقاع ثاويا ... « تسيل دماه والعروق نوازف »[2]

ينوء ويغشاه شآبيب من دم ... كالاح من جيب القميص الكفائف

وقد صبرت حول ابن عم محمد ... لدى الموت أرباب المناقب شارف

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتى رقت فوق الأكف المصاحف

وزاد غيره فيها :

معاوى لا تنهض بغير وثيقة ... فإنك بعد اليوم بالذل عارف

وقد أجابه أبو جهم الأسدى بقصيدة فيها أنواع من الهجاء تركناها قصداً .

وهذا مقتل عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، قتله أهل الشام

ومان وظهر بذلك سرُّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ، وبانَ بذلك أنّ علياً مُحِق ، وأن معاوية باغ ، وما فى ذلك من دلائل النبوة . ذكر ابن جرير من طريق أبى مخنف ، حدثنى مالك بن أعين الجُهنى عن زيد بن وهب الجهنى ، أن عماراً قال يومئذ : من يبتغى رضوان ربّه ولا يَلوى إلى مال ولا ولد ؟ قال : فأتته عصابة من الناس فقال : أيها الناس ! اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان ، ويزعمون أنه قتل مظلوماً ، والله ما قصدُهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها ، واستمرءوا الآخرة فقلَوها[3] وعلموا أنّ الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم ، ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم ، ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التى تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات ، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها ، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله ، فخدعوا أتباعهم بقولهم إمامنا قتل مظلوماً ؛ ليكونوا بذلك جبابرةً ملوكا ، وتلك مكيدة بلغوا بها ما تَرَوْن ، ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان ،

(١) فى الطبرى : أجلت .
(٢) فى الطبرى : تمج دم الخرق العروق الذوارف .
(٣) الذى فى الطبرى : ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها .

ولكانوا أذل وأخس وأقل ، ولكن قول الباطل له حلاوة فى أسماع الغافلين ، فسيروا إلى الله سيراً جميلا ، واذكروا الله ذكراً كثيراً. ثم تقدم فلقيه عمرو بن العاص وعُبيد الله بن عمر، فلامهما وأنبهما ووعظهما ، وذكروا من كلامه لهما ما فيه غلظة ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، سمعت عبد الله بن سلمة يقول : رأيتَ عماراً يوم صفّين شيخاً كبيراً آدم طوالا ، أخذ الحربة بيده ويده ترعد ، فقال : والذى نفسى بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة ، والذى نفسى بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات[1] هَجَر لعرفت أنّ مصلحينا على الحق ، وأنهم على الضلالة . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة وحجاج ، حدثنى شعبة . سمعت قتادة يحدث عن أبى نضرة ، قال حجاج : سمعت أبا نضرة عن قيس بن عباد قال : قلت لعمار بن ياسر : أرأيت قتالكم مع على رأيا رأيتموه ؟ فإن الرأى يخطىء ويصيب ، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟ فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة . وقد رواه مسلم من حديث شعبة ، وله تمام عن عمار عن حذيفة فى المنافقين . وهذا كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، عن جماعة من التابعين ؛ منهم: الحارث بن سويد ، وقيس بن عبادة ، وأبو جحيفة ـ وهب بن عبد الله السوائى ، ويزيد بن شريك ، وأبو حسان الأجرد وغيرهم ، أن كلا منهم قال: قلت لعلى : هل عندكم شىء عهده إليكم رسول الله ﷺ لم يعهده إلى الناس ؟ فقال : لا ـ والذى فلق الحبّة وبرأ النسمة[2] ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة قلت: وما فى هذه الصحيفة ؟ فإذا فيها العقل وفكاك الأسير ، وأن لا يقتلَ مسلم بكافر ، وأن المدينة حرم ما بين ثبير إلى ثور .

وثبت فى الصحيحين أيضاً من حديث الأعمش عن أبى وائل ، عن سفيان بن مسلم عن سهل ابن حنيف ، أنه قال يوم صفّين : يا أيها الناس ! اتهموا الرأى على الدين ، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ـ ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ أمره ، ووالله ما حملنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يقطعنا ، إلا أسهل بنا إلى أمر نعرفه ، غير أمرنا هذا ؛ فإنا لا نسد منه خصما إلا انفتح لنا غيره لا ندرى كيف نبالى له ! .

وقال أحمد : حدثنا وكيع، ثنا سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى البختري قال: قام عمار يوم صفين فقال : إيتونى بشربة لبن ، فإن رسول الله ﷺ قال : « آخر شربة تشربها من الدنيا تشربها يوم تُقتل ». وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن سفيان، عن حبيب عن أبى البخترى، أن عماراً أتى بشربة لبن فضحك وقال : إن رسول الله قال لى : « آخر شراب أشربه

(١) سعفات : جمع سعفة ـ وهى النخلة ـ أو ورق الأغصان، وخص هجر لبعدها ، أولأنها موصوفة بكثرة النخيل . (٢) النسمة : الإنسان .

لبن حين أموت » . وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل : ثنا يحيى بن نصر، ثنا عمرو بن شمر عن جابر الجعفي قال : سمعت الشعبي عن الأحنف بن قيس قال : ثم حمل عمار بن ياسر عليهم ، فحمل عليه حَبّة بن جوين السكسكي وأبو الغادية الفزاري ؛ فأما أبو الغادية فطعنه ، وأما ابن جوين فاحتز رأسه . وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ لعمار ابن ياسر « تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها صاع لبن »، فكان ذو الكلاع يقول لعمرو ويحك ! ما هذا ياعمرو ؟ فيقول له عمرو : إنه سيرجع إلينا . قال : فلما أصيب عمار بعد ذو الكلاع ، قال عمرو لمعاوية : ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحا ؛ بقتل عمار ، أو ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام ولأفسد علينا جندنا . قال : وكان لا يزال يجيء رجل فيقول لمعاوية وعمرو : أنا قتلت عماراً، فيقول له عمرو : فما سمعته يقول؟ فيخلطون ، حتى جاء جوين فقال: أنا سمعته يقول :

اليوم ألقى الأحبه محمداً وحزبه

فقال له عمرو : صدقت، أنت إنك لصاحبه ، ثم قال له : رويداً ، أما والله ما ظفرت يداك ولقد أسخطت ربك [وقد روى ابن ديزيل من طريق أبي يوسف ، عن محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر ، عن عبدالرحمن الكندي ، عن أبيه عن عمرو بن العاص ؛ أن رسول الله ﷺ ، قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغة »، ورواه أيضاً من حديث جماعة من التابعين أرسلوه ؛ منهم: عبدالله ابن أبي الهذيل ، ومجاهد وحبيب بن أبي ثابت ، وَحبة العرني . وساقه من طريق إبان عن أنس مرفوعا . ومن حديث عمرو بن شمر عن جابر الجعفي ، عن أبي الزبير عن حذيفة مرفوعا : «ماخير عمار بين شيئين إلا اختار أرشدهما »][1] وبه عن عمرو بن شمر عن السري عن يعقوب بن رافط قال : اختصم رجلان في سلب عمار وفي قتله ، فأتيا عبدالله بن عمرو بن العاص ليتحاكما إليه ، فقال لهما: ويحكما ! أخرجا عني ، فإن رسول الله ﷺ قال ـ ولعبت قريش بعمار ـ : « مالهم ولعمار ؟ عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، قاتله وسالبه في النار » . قال : فبلغني أنّ معاوية قال : إنما قتله من أخرجه، يخدع بذلك أهل الشام .

وقال إبراهيم بن الحسين : حدثنا يحيى، ثنا عدي بن عمر، ثنا هشيم ، ثنا العوام بن حوشب بن الأسود بن مسعود ، عن حنظلة بن خويلد ـ وكان ناس عند عليّ ومعاوية ـ قال : بينا هو عند معاوية، إذ جاءه رجلان يختصمان في قتل عمار ، فقال لهما عبدالله بن عمرو : ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقتله الفئة الباغية » فقال معاوية لعمرو : ألا تثني عنا مجنونك هذا ؟! ثم أقبل معاوية على عبد الله فقال له : لم تقاتل معنا ؟

(١) ما بين القوسين لم يذكر في بعض النسخ .

فقال له : إن رسول الله ﷺ أمرنى بطاعة والدى ما كان حيا، وأنا معكم ولست أقاتل . وحدثنا يحيى بن نصر، ثنا حفص بن عمران البرجمى ، حدثنى نافع بن عمر الجمحى ، عن ابن أبى مليكة ؛ أن عبدالله بن عمرو قال لأبيه : لولا أن رسول الله ﷺ أمرنى بطاعتك ماسرت معك هذا المسير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية »؟ وحدثنا يحيى، ثنا عبدالرحمن ابن زياد ، ثنا هشيم عن مجالد عن الشعبى قال : جاء قاتل عمار يستأذن على معاوية وعنده عمرو فقال : ائذن له وبشره بالنار . فقال الرجل : أو ماتسمع ما يقول عمرو ؟ قال : صدق ، إنما قتله الذين جاءوا به .

وهذا كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من التابعين، منهم: الحارث بن سويد، وقيس عباد، وأبو جحيفة - وهب بن عبدالله السوائى، ويزيد بن شريك، وأبو حسان الأجرد وغيرهم- أن كلا منهم قال : قلت لعلى: هل عندكم شىء عهده إليكم رسول الله ﷺ لم يعهده إلى الناس ؟ فقال : لا ! والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى القرآن وما فى هذه الصحيفة ، قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ فإذا فيها : العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر ، وأن المدينة حرام مابين عَير إلى ثور[1] .

وثبت فى الصحيحين أيضاً من حديث الأعمش عن أبى وائل - شقيق بن سلمة ، عن سهل ابن حنيف أنه قال يوم صفين : أيها الناس ! اتهموا الرأى على الدين، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته ، والله ماحملنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يقطعنا، إلا أسهل بنا إلى أمر نعرفه غير أمرنا هذا وقال ابن جرير : وحدثنا أحمد بن محمد ، ثنا الوليد بن صالح، ثنا عطاء بن مسلم عن الأعمش قال : قال أبو عبدالرحمن السلمى : قال كنا مع على بصفين، وكنا قد وكلنا بفرسه نفسين يحفظانه يمنعانه أن يَحمل[2] ، فكان إذا حانت منهما غفلة َحمل، فلا يرجع حتى يخضب سيفه ، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه ، فألقاه إليهم وقال : لولا أنه انثنى مارجعت . قال : وَرأيت عماراً لايأخذ وادياً من أودية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأيته جاء إلى هاشم بن عتبة - وهو صاحب راية على- فقال : ياهاشم تقدم ! الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت فى أطراف الأسنة ، وقد فتحت أبواب الجنة وتزينت الحور العين .

اليوم ألقى الأحبه محمداً وحزبه

ثم حملا هو وهاشم فقتلا رحمهما الله تعالى ، قال : وحمل حينئذ علىّ وأصحابه على أهل الشام

(١) عير وثور : جبلان بالمدينة . (٢) الحملة : الكرة فى الحرب !

حمله رجل واحد ، كأنهما - يعني عماراً وهاشما - كانا علما .

قال : فلما كان الليل قلت: لأدخلن الليلة إلى العسكر الشاميين حتى أعلم ، هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا ؟ - وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم - فركبت فرسي وقد هدأت الرجل ، ثم دخلت عسكرهم ، فإذا أنا بأربعة يتسامرون ؟ معاوية ، وأبو الأعور السلمي ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبدالله بن عمرو - وهو خير الأربعة . قال : فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني مايقول بعضهم لبعض،فقال عبدالله لأبيه: يا أبت! قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا ،وقد قال فيه رسول الله ما قال! قال : وما قال؟ قال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً،ولبنة لبنة،وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب من وجهه ويقول: « ويحك يابن سمية ! الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة ،وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر! وأنت مع ذلك ويحك تقتلك الفئة الباغية» قال : فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال : يامعاوية ! أما تسمع ما يقول عبدالله ! قال : وما يقول ؟ قال : يقول ، وأخبره الخبر . فقال معاوية : إنك شيخ أخرق ، ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك[1] ! أو نحن قتلنا عماراً ! إنما قتل عماراً من جاء به ؟ قال : فخرج الناس من عند فساطيطهم وأخبيتهم وهم يقولون : إنما قتل عمارا من جاء به ، فلا أدري من كان أعجب ؟ هوا أو هم ! .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، ثنا الأعمش عن عبدالرحمن بن أبي زياد قال : إني لأسير مع معاوية -مُنصرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص، فقال عبدالله بن عمرو : يا أبت أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : « ويحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية قال : فقال عمرو لمعاوية : ألا تسمع مايقول عبدالله هذا ؟ فقال معاوية : لا تزال تأتينا بهنة[2] بعد هنة ، أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاءوا به . ثم رواه أحمد عن أبي نعيم عن سفيان الثوري عن الأعمش به نحوه ، تفرد به أحمد بهذا السياق من هذا الوجه . وهذا التأويل الذي سلكه معاوية رضي الله عنه بعيد ، ثم لم ينفرد عبدالله بن عمرو بهذا الحديث، بل قد روي من وجوه أخر . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن خالد عن عكرمة عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ ، قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » . وقد روى البخاري في صحيحه، من حديث عبدالعزيز بن المختار وعبدالوهاب الثقفي ، عن خالد الحذاء عن أبي سعيد في قصة بناء المسجد ، أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) في اللسان : لا تزال تأتينا بهنة تدحض بها في بولك - أي تزلق .

(٢) أي بخبر بعد خبر : والهنة : الشيء اليسير .

لعمار : « ياويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » قال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن وفي بعض نسخ البخاري: «ياويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». وقال أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، ثنا شعبة ، ثنا عمرو بن دينار عن أبي هشام عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » وروى مسلم من حديث شعبة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : حدثني من هو خير مني- يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: « تقتلك الفئة الباغية »، وروى مسلم أيضاً من حديث شعبة عن خالد الحذاء عن الحسن وسعيد ابني أبي الحسن ، عن أمهما خيرة من أم سلمة ، أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أبيه عن أم سلمة به .

وفي رواية : وقاتله في النار .

وروى البيهقي عن الحاكم وغيره، عن الأصم عن أبي بكر محمد بن إسحاق الصنعاني، عن أبي الجواب، عن عمار بن زريق ، عن عمار الدهني عن سالم بن أبي الجعد ، عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : « إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق » . وقال إبراهيم ابن الحسين بن ديزيل - في سيرة علي - ، ثنا يحيى بن عبيد الله الكرابيسي ، ثنا أبو كريب ، ثنا أبو معاوية عن عمار بن زريق ، عن عمار الدهني ، عن سالم بن أبي الجعد قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال : إن الله قد أمننا أن يظلمنا ولم يؤمنا أن يفتننا ، أرأيت إذا نزلت فتنة كيف أصنع ؟ قال : عليك بكتاب الله ، قلت : أرأيت إن جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق » . وروى ابن ديزيل عن عمرو بن العاص نفسه حديثا في ذكر عمار ، وأنه مع فرقة الحق ، وإسناده غريب . وقال البيهقي : أنا علي بن أحمد بن عبدان ، أنا أحمد بن عبيدالله الصفار ، ثنا الأسقاطي، ثنا أبو مصعب ، ثنا يوسف بن الماجشون عن أبيه عن أبي عبيدة عن محمد ابن عمار بن ياسر عن مولاة لعمار قالت : « اشتكى عمار شكوى أرق منها فغشي عليه ، فأفاق ونحن نبكي حوله ، فقال: ما تبكون ؟ أتخشون أن أموت على فراشي ؟ أخبرني حبيبي ﷺ ، أنه تقتلني الفئة الباغية ، وأن آخر زادي من الدنيا مذقة[1] من لبن .

وقال أحمد: ثنا ابن أبي عدي عن داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: «أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فتترب رأسه ، قال: فحدثني أصحابي - ولم أسمعه من رسول الله - أنه جعل ينفض رأسه ويقول: « ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية» تفرد به أحمد، وما زاده الرفض في هذا الحديث بعد قوله الباغية « لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة».

---

(١) أي : شربة من لبن ممزوق - وهو الممزوج بالماء .

فهو كذب وبهت على رسول الله ﷺ ؛ فإنه قد ثبتت الأحاديث عنه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بتسمية الفريقين مسلمين ، كما سنورده قريباً إن شاء الله . قال ابن جرير : وقد ذكر أن عماراً لما قتل قال عليّ لربيعة وهمذان : أنتم درعي ورمحي ، فانتدب له نحو من اثنى عشر ألفاً ، وتقدمهم عليّ ببغلته فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض ، وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية ، وعلى يقاتل ويقول :

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الحاويه[1]

قال : ثم دعى عليّ معاوية إلى أن يبارزه ، فأشار عليه بالخروج إليه عمرو بن العاص ، فقال له معاوية : إنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله ، ولكنك طمعت فيها بعدى ، ثم قدم على ابنه محمد فى عصابة كثيرة من الناس ، فقاتلوه قتالا شديداً ، ثم تبعه عليّ فى عصابة أخرى ، فحمل بهم فقتل فى هذا الموطن خلق كثير من الفريقين لا يعلمهم إلا الله ، وقتل من العراقيين خلق كثير أيضا ، وطارت أكف ومعاصم ورءوس عن كواهلها ، رحمهم الله .

ثم حانت صلاة المغرب ، فما صلى بالناس إلا إيماء صلاتى العشاء ، واستمر القتال فى هذه الليلة كلها ، وهى من أعظم الليالى شراً بين المسلمين ، وتسمى هذه الليلة : ليلة الهرير ـ وكانت ليلة الجمعة ـ تقصفت الرماح ونفدت النبال ، وصار الناس إلى السيوف ، وعليّ رضى الله عنه يحرض القبائل ، ويتقدم إليهم يأمر بالصبر والثبات وهو أمام الناس فى قلب الجيش ، وعلى الميمنة الأشتر ، تولاها بعد قتل عبد الله بن بديل ـ عشية الخميس ليلة الجمعة ، وعلى الميسرة ابن عباس ، والناس يقتتلون من كل جانب ، فذكر غير واحد من علمائنا ـ علماء السير ـ أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت ، وبالنبال حتى فنيت ، وبالسيوف حتى تحطمت . ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدى والرمى بالحجارة والتراب فى الوجوه ، وتعاضوا بالأسنان ؛ يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان ، وكل واحد منهما يهمز[2] على الآخر ويهمر عليه ، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك ، وصلى الناس الصبح إيماء وهم فى القتال حتى تضاحى النهار ، وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام ؛ وذلك أن الاشتر النخعى صارت إليه إمرة الميمنة ، فحمل بمن فيها على أهل الشام ، وتبعه عليّ فتنقضت غالب صفوفهم وكادوا ينهزمون ، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح وقالوا : هذا بيننا وبينكم ، قد فنى الناس فمن للثغور ؟ ومن لجهاد المشركين والكفار ؟ .

وذكر ابن جرير وغيره من أهل التاريخ ، أن الذى أشار بهذا هو عمرو بن العاص ،

---

(١) الحاوية : ما تحوى من الأمعاء (٢) أى : يندفع إليه ويصرعه ويقع فوقه

وذلك لما رأى أن أهل العراق قد استظهروا فى ذلك الموقف ، أحبّ أن ينفصل الحال وأن يتأخر الأمر ؛ فإن كلا من الفريقين صابر للآخر ، والناس يتفانون . فقال لمعاوية : إنى قد رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ، أرى أن ترفع المصاحف وندعوهم إليها ، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك بَرِدَ القتال ، وإن اختلفوا فيما بينهم ؛ فمن قائل نجيبهم، وقائل لا نجيبهم ـ فشلوا وذهب ريحهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : أتيت أبا وائل فى مسجد أهله ، أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علىّ بالنهروان ، فيما استجابوا له؟ وفيما فارقوه ؟ وفيما استحل قتالهم؟ فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتال بأهل الشام اعتصموا بتل[1]، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علىّ بمصحف فادعه إلى كتاب الله ، فإنه لن يأبى عليك ، فجاء به رجل فقال : بيننا وبينكم كتاب الله (ألم ترَ إلى الذين أوتُوا نَصيباً من الكتابِ يُدْعَونَ إلى كتابِ اللهِ ليحكُمَ بينهم ثم يتولّى فريقٌ منهم وهم مُعرضون)[2] فقال علىّ: نعم ! أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله ، قال : فجاءته الخوارج ـ ونحن ندعوهم يومئذ القُرّاء وسيوفهم على عواتقهم ـ فقالوا : يا أمير المؤمنين ما ينتظر هؤلاء القوم الذين على التل ؟ ألا نمشى إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فتكلم سهل بن حنيف فقال : يا أيها الناس اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى الصلح الذى كان بين رسول الله وبين المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ وذكر تمام الحديث ... كما تقدم فى موضعه .

رفع أهل الشام المصاحف

فلما رفعت المصاحف قال أهل العراق : نجيب إلى كتاب الله ، وننيب إليه . قال أبو مخنف : حدثنى عبد الرحمن بن جندب الأزدى عن أبيه ، أن علياً قال : عباد الله امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرو بن العاص، وابن أبى مُعيط ، وحبيب بن مَسلمة، وابن أبى سَرح، والضحاك بن قيس ـ ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ، فكانوا شرّ أطفال وشر رجال ، ويحكم ! والله إنهم ما رفعوها ، إنهم يقرءونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة . فقالوا له : ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبىَ أن نقبله . فقال لهم : إنى إنما أقاتلهم ليَدينوا بحكم الكتاب ، فإنهم قد عصَوا الله فيما أمرهم به ، وتركوا عهده ، ونبذوا كتابه . فقال له مِسْعر بن فَدَكىّ التميمى وزيد ابن حصين الطائى ثم السِّنْبِسىّ ـ فى عصابة معهما من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : يا على

(١) التل من التراب ـ معروف ، والكومة من الرمل (٢) الآية : ٢٣ من سورة آل عمران

أجب إلى كتاب الله إذ دُعيت إليه وإلا دفعنك برُمّتك إلى القوم ، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بكتاب الله فقبلناه ، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك قال : فاحفظوا عنى نَهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، أما أنا فإن تطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم ، قالوا : فابعث إلى الأشتر فليأتك وليكف عن القتال ، فبعث إليه علىّ ليكف عن القتال .

وقد ذكر الهيثم بن عدى فى كتابه الذى صنفه فى الخوارج فقال : قال ابن عباس : فحدثنى محمد بن المنتشر الهمدانى ، عن من شهد صفين ، وعن ناس من رُءوس الخوارج ممن لايتهم على كذب : أن عمار بن ياسر كره ذلك وأبى ، وقال فى علىّ بعض ما أكره ذكره . ثم قال : مَن رائح إلى الله قبل أن يبتغى غير الله حكما ؟ فحمَل فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه . وكان ممن دعا إلى ذلك سادات الشاميين ـ عبدالله بن عمرو بن العاص ؛ قام فى أهل العراق فدعاهم إلى الموادعة والكف وترك القتال والائتمار بما فى القرآن ، وذلك عن أمر معاوية له بذلك رضى الله عنهما . وكان ممن أشار على علىّ بالقبول والدخول فى ذلك ـ الأشعث بن قيس الكندى رضى الله عنه ؛ فروى أبو مخنف من وجه آخر ، أن علياً لما بعث إلى الأشتر قال : قل له : ليست هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى عن موقفى فيها ، إنى قد رجوت أن يَفتح الله علىّ ، فلا تعجلنى . فرجع الرسول ـ وهو يزيد بن هانىء ـ إلى علىّ فأخبره عن الأشتر بما قال ، وصمم الأشتر على القتال لينتهز الفرصة ، فارتفع المرَج[1] وعلت الأصوات ، فقال أولئك القوم لعلى : والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ، فقال : أرأيتمونى ساررته ؟ ألم أبعث إليه جهرة وأنتم تسمعون ؟ فقالوا : فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك . فقال علىّ ليزيد بن هانىء : ويحك ! قل له : أقبل إلىّ فإن الفتنة قد وقعت . فلما رجع إليه يزيد بن هانىء فأبلغه عن أمير المؤمنين أنه ينصرف عن القتال ويقبل إليه ، جعل يتململ ويقول : ويحك ! ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر ولم يبق إلا القليل ؟ فقلت : أيهما أحب إليك ! أن تقبل ؟ أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان ؟ ثم ماذا يغنى عنك نصرتك هاهنا ؟

قال : فأقبل الأشتر إلى علىّ وترك القتال ، فقال : يا أهل العراق ! يا أهل الذل والوهَن ! أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنّة من أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ، أمهلونى ، فإنى قد أحسست بالفتح ، قالوا : لا ! قال : أمهلونى عَدْوَ الفرس فإنى قد طمعت فى النصر ، قالوا : إذا ندخل معك فى خطيئتك ثم أخذ الأشتر يناظر أولئك القراء الداعين إلى إجابة أهل الشام بما حاصله : إن كان أول قتالكم

---

(١) فى الطبرى : الرهج ، وهو الشغب

هؤلاء حقاً فاستمروا عليه ، وإن كان باطلا فاشهدوا لقتلا كم بالنار . فقالوا : دعنا منك فإنا لا نطيعك ولا صاحبك أبداً ، ونحن قاتلنا هؤلاء فى الله ، وتركنا قتالهم لله . فقال لهم الأشتر : خُدعتم و الله فانخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب السوء[1] كنا نظن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت . يا أشباه النيب الجلالة ! ما أنتم بربانيين بعدها . فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . فسبوه وسبهم ، فضربوا وجه دابته بسياطهم ، وجرت بينهم أمور طويلة ، ورغب أكثر الناس من العراقيين وأهل الشام بكمالهم إلى المصالحة والمسالمة مدة ؛ لعله يتفق أمر يكون فيه حقن لدماء المسلمين ، فإن الناس تفانوا فى هذه المدة ، ولا سيما فى هذه الثلاثة الأيام المتأخرة التى آخر أمرها ليلة الجمعة ـ وهى ليلة الهرير .

كل من الجيشين فيه من الشجاعة والصبر ماليس يوجد فى الدنيا مثله ، ولهذا لم يفر أحد عن أحد ، بل صبروا حتى قتل من الفريقين ـ فيما ذكره غير واحد ـ سبعون ألفاً ؛ خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام ، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق قاله غير واحد ؛ منهم: ابن سيرين ، وسيف وغيره . وزاد أبو الحسن بن البراء ـ وكان فى أهل العراق ـ خمسة وعشرون بدريا ، قال : وكان بينهم فى هذه المدة تسعون زحفاً . واختلفوا فى مدة المقام بصفين ، فقال سيف: سبعة أشهر أو تسعة أشهر ، وقال أبو الحسن بن البراء: مائة وعشرة أيام . قلت: ومقتضى كلام أبى مخنف ، أنه كان من مستهل ذى الحجة فى يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من صفر ، وذلك سبعة وسبعون يوما ، فالله أعلم . وقال الزهرى: بلغنى أنه كان يدفن فى القبر الواحد خمسون نفساً . هذا كله ملخص من كلام ابن جرير وابن الجوزى فى المنتظم .

وقد روى البيهقى من طريق يعقوب بن سفيان ، عن أبى اليمان عن صفوان بن عمرو ، كان أهل الشام ستين ألفاً فقتل منهم عشرون ألفاً ، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً فقتل منهم أربعون ألفاً وحمل البيهقى هذه الوقعة على الحديث الذى أخرجاه فى الصحيحين ، من طريق عبدالرزاق عن معمر ، عن همام بن منبه عن أبى هريرة . ورواه البخارى من حديث شعيب عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، ومن حديث شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ؛ يكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة » . ورواه مجالد عن أبى الحوارى عن أبى سعيد مرفوعاً مثله ورواه الثورى عن ابن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، دعوتهما واحدة ، فبينماهم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم

---

(١) فى الطبرى : يا أصحاب الجباه السود .

أولى الطائفتين بالحق »، وقد تقدم ما رواه الإمام أحمد عن مهدى، وإسحاق عن سفيان عن منصور عن ربعى بن خراش عن البراء بن ناجية الكاهلى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رَحَى الإسلام ستزول لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين ،فإن يهلكوا فسبيل من هلك ،وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً، فقال عمر: يارسول الله أمما مضى؟ أم مما بقى ؟ قال: بل مما بقى».

وقد رواه إبراهيم بن الحسين بن ديزيل، فى كتاب جمعه فى سيرة على، عن أبى نعيم الفضل بن دكين عن شريك عن منصور به مثله . وقال أيضاً : حدثنا أبو نعيم ثنا شريك عبدالله النخعى عن مجالد عن عامر الشعبى عن مسروق عن عبد الله قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « إنّ رحَى الإسلام ستزول بعد خمس وثلاثين سنة فإن يصطلحوا فيما بينهم يأكلوا الدنيا سبعين عاماً رغداً، وإن يقتتلوا يركبوا سَنَن من كان قبلهم» وقال ابن ديزيل: حدثنا عبدالله بن عمر، ثنا عبدالله بن خراش الشيبانى ، عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمى قال : قال رسول الله ﷺ : «تدور رَحَى الإسلام عند قتل رجل من بنى أمية » - يعنى عثمان رضى الله عنه . وقال أيضاً : حدثنا الحكم عن نافع عن صفوان بن عمرو عن الأشياخ ، أن رسول الله ﷺ دعى إلى جنازة رجل من الأنصار، فقال - وهو قاعد ينتظرها - « كيف أنتم إذا رأيتم حَبْلين[1] فى الإسلام ؟ قال أبو بكر: أو يكون ذلك فى أمة إلهها واحد ونبيها واحد ؟ قال : نعم . قال : أفأدرك ذلك يارسول الله ؟ قال : لا . قال عمر : أفأدرك ذلك يارسول الله ؟ قال : لا . قال عثمان : أفأدرك ذلك يارسول الله؟ قال : نعم . بك يفتنون » . وقال أيضاً عمر لابن عباس : كيف يختلفون وإلههم واحد وكتابهم واحد وملتهم واحدة ؟ فقال : إنه سيجىء قوم لايفهمون القرآن كما نفهمه ، فيختلفون فيه فإذا اختلفوا فيه اقتتلوا ، فأقر عمر بن الخطاب بذلك . وقال أيضاً : حدثنا أبو نعيم ، ثنا سعيد بن عبدالرحمن - أخو أبى حمزة - ثنا محمد بن سيرين قال : لما قتل عثمان قال عدى بن حاتم : لاينتطح فى قتله عنزان . فلما كان يوم صفّين فقئت عينه فقيل: لاينتطح فى قتله عنزان ، فقال : بلى وتفقأ عيون كثيرة . وروى عن كعب الأحبار أنه مرّ بصفين فرأى حجارتها فقال : لقد اقتتل فى هذا الموضع بنو إسرائيل تسع مرات، وإن العرب ستقتتل فيها العاشرة .حتى يتقاذفوا بالحجارة التى تقاذف بها بنو إسرائيل ويتفانوا كما تفانوا . وقد ثبت فى الحديث ، أن رسول الله ﷺ قال : « سألت ربى أن لايهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من سواهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها ، وسألته أن لايسلط بعضهم على بعض فمنعنيها »، ذكرنا ذلك عند تفسير قوله تعالى (أو يَلْبِسَكُم شِيَعًا ويُذيقَ بعضكم بَأْسَ بَعْض)[2] قال رسول الله: هذا أهون.

---

(١) الحبل : العهد والذمة والأمان . (٢) من الآية : ٦٥ من سورة الأنعام .

قصة التحكيم

ثم تراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات يطول ذكرها على التحكيم ، وهو: أن يُحكِّم كل واحد من الأميرين - عليّ ومعاوية - رجلا من جهته . ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين . فوكّل معاوية عمرو بن العاص ، وأراد عليّ أن يوكل عبد الله بن عباس - وليته فعل - ولكن منعه القراء ممن ذكرنا وقالوا : لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري . وذكر الهيثم بن عديّ في كتاب الخوارج له ، أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري - الأشعث بن قيس ، وتابعه أهل اليمن ، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال ، وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز. قال عليّ : فإني أجعل الأشتر حكمًا ، فقالوا : وهل سعّر[1] الحرب وشغر[2] الأرض إلا الأشتر ؟ قال : فاصنعوا ما شئتم ، فقال الأحنف لعلي : والله لقد رميت بحجر ، إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم ، يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ، ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم ، فإن أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانيًا وثالثًا ، فإنه لن يعقد عقدة إلا أحلها ، ولا يحل عُقدة عقدتها إلا عقدت له أخرى مثلها أو أحكم منها : قال : فأبوا إلا أبا موسى الأشعري ، فذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري - وكان قد اعتزل - فلما قيل له إن الناس قد اصطلحوا قال : الحمد لله ، قيل له : وقد جعلت حكمًا ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم أخذوه حتى أحضروه إلى عليّ رضي الله عنه وكتبوا بينهم كتابًا هذه صورته .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قاضى عليه عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقال عمرو بن العاص : اكتب اسمه واسم أبيه ، هوَ أميركم وليس بأميرنا . فقال الأحنف : لا تكتب إلا أمير المؤمنين ، فقال علي : امحُ أمير المؤمنين واكتب : هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ، ثم استشهد على بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فامتنع المشركون من ذلك وقالوا : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فكتب الكاتب : هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ؛ قاضى عليّ على أهل العراق ومَن معهم من شيعتهم والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين. إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونُحيي ما أحيى الله، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله - وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص - عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة .

ثم أخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين - العهود والمواثيق ، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين - كليهما - عهد الله وميثاقه ، أنهما على ما في هذه الصحيفة ، وأجّلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبا

(١) سعر الحرب والنار - بفتح العين وتشديدها - أوقدها وهيجها (٢) لم يبق فيها أحدا يحميها ويضبطها

أن يُؤخرا ذلك على تراض منهما . وكتب فى يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين ، على أن يوافى على ومعاوية موضع الحكمين بدُومة الجندل فى رمضان ، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه ، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذْرُح[1] .

وقد ذكر الهيثم فى كتابه فى الخوارج ، أن الأشعث بن قيس لما ذهب إلى معاوية بالكتاب وفيه : « هذا ما قاضى عبد الله علىّ أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان » قال معاوية : لو كان أمير المؤمنين لم أقاتله ، ولكن ليكتب اسمه وليبدأ به قبل اسمى لفضله وسابقته ، فرجع إلى على فكتب كما قال معاوية . وذكر الهيثم أن أهل الشام أبوا أن يبدأ باسم علّى قبل معاوية ، وباسم أهل العراق قبلهم ، حتى كتب كتابان: كتاب لهؤلاء فيه تقديم معاوية على علىّ ، وكتاب آخر لأهل العراق بتقديم اسم علىّ وأهل العراق على معاوية وأهل الشام . وهذه تسمية من شهد على هذا التحكيم من جيش علىّ : عبد الله بن عباس ، والأشعث بن قيس الكندى ، وسعيد بن قيس الهمدانى ، وعبد الله بن الطفيل العامرى ، وحجر بن يزيد الكندى ، وورقاء بن سمى العجلى ، وعبد الله بن بلال العجلى ، وعقبة بن زياد الأنصارى ، ويزيد بن جحفة التيمى ، ومالك بن كعب الهمدانى ، فهؤلاء عشرة وأما من الشاميين فعشرة آخرون، وهم : أبو الأعور السلمى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ومخارق بن الحارث الزبيدى ، ووائل بن علقمة العدوى ، وعلقمة بن يزيد الحضرمى ، وحمزة بن مالك الهمدانى ، وسبيع بن يزيد الحضرمى ، وعتبة بن أبى سفيان ـ أخو معاوية ، ويزيد بن الحر العبسى .

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب ؛ يقرؤه على الناس ويعرضه على الطائفتين . ثم شرع الناس فى دفن قتلاهم ، قال الزهرى : بلغنى أنه دفن فى كل قبر خمسون نفساً ، وكان علىّ قد أسر جماعة من أهل الشام ، فلما أراد الانصراف أطلقهم ، وكان مثلهم أو قريب منهم فى يد معاوية ، وكان قد عزم على قتلهم لظنه أنه قد قتل أسراهم ، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم على أطلق معاوية الذين فى يده . ويقال إن رجلا يقال له عمرو بن أوس ـ من الأزد ـ كان من الأسارى ، فأراد معاوية قتله فقال : امنن علىّ فإنك خالى ، فقال ويحك ! من أين أنا خالك ؟ فقال : إن أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ وهى أم المؤمنين وأنا ابنها وأنت أخوها وأنت خالى ، فأعجب ذلك معاوية وأطلقه . وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ـ وذكر أهل صفين ـ فقال: كانوا عربا يعرف بعضهم بعضاً فى الجاهلية ، فالتقوا فى الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام ، فتصابروا واستحيوا من الفرار ، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء فى عسكر هؤلاء ، وهؤلاء فى عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم . قال الشعبى : هم أهل الجنة ، لقى بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد .

(١) أذرح : بلد بالشام

خروج الخوارج

وذلك أن الأشعث بن قيس، مرّ على ملأ من بنى تميم فقرأ عليهم الكتاب، فقام إليه عروة ابن أذينة ـ وهى أمه، وهو عروة بن حرير من بنى ربيعة بن حنظلة ـ وهو أخو أبى بلال بن مرداس بن حرير فقال: أتحكمون فى دين الله الرجال؟ ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث بن قيس، فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤسائهم يعتذرون إلى الأشعث بن قيس من ذلك، قال الهيثم بن عدى: والخوارج يزعمون أن أول من حكم عبد الله ابن وهب الراسبى. قلت: والصحيح الأول، وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علىّ من القراء، وقالوا: لا حكم إلا لله، فسُمّوا المُحَكِّمية وتفرق الناس إلى بلادهم من صفين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه، ورجع على إلى الكوفة على طريق هيت[1] فلما دخل الكوفة سمع رجلا يقول: ذهب علىّ ورجع فى غير شىء. فقال علىّ: لَلّذين فارقناهم خير من هؤلاء، وأنشأ يقول:

أخوك الذى إن أحرجتك مُلِمّة ... من الدهر لم يبرح لبثّك راحما

وليس أخوك بالذى إن تشعّبت ... عليك أمور ظلّ يَلحاك لائما

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة من الكوفة. ولما كان قد قارب دخول الكوفة، اعتزل من جيشه قريب من ـ اثنى عشر ألفاً ـ وهم الخوارج، وأبوا أن يساكنوه فى بلده، ونزلوا بمكان يقال له: حَرُوراء، وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها، فبعث إليهم علىّ رضى الله عنه عبد الله بن عباس، فناظرهم فرجع أكثرهم وبقى بقيتهم، فقاتلهم على ابن أبى طالب وأصحابه، كما سيأتى بيانه وتفصيله قريباً إن شاء الله تعالى. والمقصود أن هؤلاء الخوارج هم المشار إليهم فى الحديث المتفق على صحته، أن رسول الله ﷺ قال: «تمرُق مارِقة على حين فرقة من الناس ـ وفى رواية من المسلمين، وفى رواية من أمتى ـ فيقتلها أولى الطائفتين» وهذا الحديث له طرق متعددة وألفاظ كثيرة.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعفان بن القاسم بن الفضل، عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» رواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن القاسم بن محمد به. وقال أحمد: حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ «تكون أمتى فرقتين تخرج بينهما مارِقة تلى قتلها أولاهما» ـ ورواه مسلم من حديث قتادة وداود بن أبى هند عن أبى نضرة به.

(١) هيت ـ بكسر الهاء ـ بلد بالعراق.

وقال أحمد : حدثنا ابن أبي عدى عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد ، أن رسول الله ﷺ « ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس ، سيماهم التحليق ، هم شر الخلق - أو من شر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق » قال أبو سعيد : فأنتم قتلتموهم يا أهل العراق . وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « تفترق أمتي فرقتين فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق » ورواه عن يحيى القطان عن عوف - وهو الأعرابي به مثله . فهذه طرق متعددة عن أبي نضرة - المنذر بن مالك بن قطعة العبدي ، وهو أحد الثقات الرفعاء . ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد بنحوه .

فهذا الحديث من دلائل النبوة ، إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام . وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام ، من تكفيرهم أهل الشام . وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب ، وإن كان معاوية مجتهداً ، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علي هو الإمام فله أجران ؛ كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وسيأتي بيان كيفية قتال علي رضي الله عنه للخوارج ، وصفة المخدج الذي أخبر عنه عليه السلام فوجد كما أخبر ففرح بذلك علي رضي الله عنه ، وسجد لله شكراً .

فصل

قد تقدم أن علياً رضي الله عنه لما رجع من الشام بعد وقعة صفين ، ذهب إلى الكوفة ، فلما دخلها انعزل عنه طائفة من جيشه ، قيل ستة عشر ألفاً، وقيل اثنا عشر ألفاً ، وقيل أقل من ذلك ، فباينوه وخرجوا عليه وأنكروا أشياء . فبعث إليهم عبدالله بن عباس فناظرهم فيها ورد عليهم ما توهموه شبهة ، ولم يكن له حقيقة في نفس الأمر ، فرجع بعضهم واستمر بعضهم على ضلاله حتى كان منهم ما سنورده قريباً . ويقال إن علياً رضي الله عنه ذهب إليهم فناظرهم فيما نقموا عليه حتى استرجعهم عما كانوا عليه ، ودخلوا معه الكوفة . ثم إنهم عاهدوا فنكثوا ما عاهدوا عليه ، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام على الناس في ذلك ، ثم تحيزوا إلى موضع يقال له: النهروان ، وهناك قاتلهم علي كما سيأتي .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع، حدثني يحيى بن سليم ، عن عبدالله بن عثمان

ابن خثيم ، عن عبد الله بن عياض بن عمرو القارى ، قال : جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة ونحن عندها ـ مرجعه من العراق ليالى قتل علىّ ، فقالت له : يا عبد الله بن شداد ! هل أنت صادق عما أسألك عنه ؟ تحدثنى عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علىّ ، فقال : ومالى لا أصدقك ؟ قالت : فحدثنى عن قصتهم ، قال : فإنّ عليا لما كاتب معاوية وحكم الحكمين ، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس ، فنزلوا بأرض يقال لها : حَرُوراء ـ من جانب الكوفة ، وأنهم عتبوا عليه فقالوا : انسلخت من قميص ألبسكه الله ، واسم سمّاك به الله ، ثم انطلقت فحكمت فى دين الله ـ ولا حكم إلا لله . فلما أن بلغ عليًا ما عتبوا عليه وفارقوه عليه ، أمر فأذّن مؤذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجلا قد حمل القرآن ، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم ، فوضعه بين يديه فجعل يصكّه بيده ويقول : أيها المصحف ! حدث الناس ، فناداه الناس فقالوا : يا أمير المؤمنين ! ما تسأل عنه إنما هو مداد فى ورق ، ونحن نتكلم بما روينا منه ، فماذا تريد ؟

قال : أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بينى وبينهم كتاب الله ، يقول الله تعالى فى كتابه فى امرأة ورجل : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)[1] فأمة محمد ﷺ أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل ، ونقموا علىّ أن كاتبت معاوية ـ كتب علىّ بن أبى طالب ، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشًا ، فكتب رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، قال : كيف تكتب ؟ قال : أكتب باسمك اللهم ! فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتبت هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله قريشًا . يقول الله تعالى فى كتابه : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)[2] فبعث إليهم عبد الله بن عباس ، فخرجت معه حتى إذا توسطت عسكرهم قام ابن الكوّاء فخطب الناس فقال : يا حملة القرآن ! هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ، ممن يخاصم فى كتاب الله بما لا يعرفه ، هذا ممن نزل فيه وفى قومه : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)[3] فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه[4] كتاب الله ، فقال بعضهم : والله لنواضعنه ، فإن جاء بحق نعرفه لنتبعه ، وإن جاء بباطل لنكبتنه بباطله ، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام ، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب ، فيهم ابن الكوّاء ، حتى أدخلهم على علىّ الكوفة ، فبعث علىّ إلى بقيتهم فقال : قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم ، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ بيننا

(١) الآية : ٣٥ من سورة النساء . (٢) الآية : ٢١ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية : ٥٨ من سورة الزخرف .

(٤) واضعه الرأى : أطلعه على رأيه وطلب منه الاطلاع على رأيه ، والمراد : لا تناقشوه .

وبينكم أن لاتسفكوا دماً حراماً ، أو تقطعوا سبيلا ، أو تظلموا ذمة ؛ فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِين)[1] .

فقالت له عائشة : يا ابن شداد فقتلهم ! فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبل وسفكوا الدماء واستحلوا أهل الذمة ، فقالت : الله ، قال : الله لا إله إلا هو قد كان ذلك ! قالت : فما شيء بلغنى عن أهل العراق، يقولون ذو الثدى وذو الثُّدَيَّة[2] ؟ قال : قد رأيته وكنت مع علىّ فى القتلى فدعا الناس فقال : أتعرفون هذا ؟ فما أكثر من جاء يقول : قد رأيته فى مسجد بنى فلان ، ورأيته فى مسجد بنى فلان يصلى، ولم يأتوا فيه بثَبت يعرف إلا ذلك. قالت : فما قول علىّ حيث قام عليه كما يزعم أهل العراق ؟ قال: سمعته يقول : صدق الله ورسوله ، قالت : هل سمعت منه أنه قال غير ذلك ؟ قال : اللهم لا ! قالت: أجل ! صدق الله ورسوله ، يرحم الله عليًا ؛ إنه كان لا يرى شيئا يعجبه إلا قال : صدق الله ورسوله ، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه فى الحديث . تفرد به أحمد وإسناده صحيح ، واختاره الضياء . ففى هذا السياق ما يقتضى أن عدّتهم كانوا ثمانية آلاف ، لكن من القراء ، وقد يكون واطأهم على مذهبهم آخرون من غيرهم ، حتى بلغوا اثنى عشر ألفا ، أو ستة عشر ألفا . ولما ناظرهم ابن عباس رجع منهم أربعة آلاف وبقى بقيتهم على ما هم عليه . وقد رواه يعقوب بن سفيان عن موسى بن مسعود عن عكرمة بن عمار عن سماك أبى زميل عن ابن عباس، فذكر القصة وأنهم عتبوا عليه فى كونه حكّم الرجال ، وأنه محى اسمه من الإمرة ، وأنه غزا يوم الجمل فقتل الأنفس الحرام ولم يقسم الأموال والسبى . فأجاب عن الأولين بما تقدم ، وعن الثالث بما قال : قد كان فى السبى أم المؤمنين ؛ فإن قلتم ليست لكم بأم فقد كفرتم، وإن استحللتم سبى أمهاتكم فقد كفرتم. قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فقتلوا.

وذكر غيره: أن ابن عباس لبس حلة لما دخل عليهم، فناظروه فى لبسه إياها ، فاحتج بقوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لعبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ[3]) الآية. وذكر ابن جرير أنّ عليا خرج بنفسه إلى بقيتهم، فلم يزل يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة، وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى- شك الراوى فى ذلك ، ثم جعلوا يعرضون له فى الكلام ويسمعونه شتما ويتأولون بتأويل فى قوله : قال الشافعى رحمه الله : قال رجل من الخوارج لعلىّ وهو فى الصلاة : (لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسِرين)[4] فقرأ علىّ : «فاصبر إنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لا يُوقِنُون »[5] .

---

(١) من الآية : ٥٨ من سورة الأنفال . (٢) ذو الثدية: لقب حرقوص بن زهير كبير الخوارج.

(٣) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف . (٤) من الآية : ٦٥ من سورة الزمر .

(٥) آخر سورة الروم .

وَقد ذكر ابن جرير، أن هذا كان وعلى فى الخطبة . وذكر ابن جرير أيضاً، أن علياً بينا هو يخطب يوماً إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال : ياعلى! أشركت فى دين الله الرجال ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب : لاحُكم إلا لله ، لاحُكم إلا لله ، فجعل علىّ يقول : هذه كلمة حق يراد بها باطل ، ثم قال : إن لكم علينا أن لانمنعكم فيئنا ما دامت أيديكم معنا ، وأن لانمنعكم مساجد الله ، وَأن لانبدأكم بالقتال حتى تبدءونا . ثم إنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة وتحيزوا إلى النهروان، على ماسنذكره بعد حكم الحكمين .

صفة اجتماع الحكمين : أبى موسى، وعمرو بن العاص

رضى الله عنهما بدومة الجندل

وذلك فى شهر رمضان كما تشارطوا عليه وَقت التحكيم بصفين . وَقال الواقدى : اجتمعوا فى شعبان ؛ وَذلك أن علياً،رضى الله عنه لما كان مجىء رمضان، بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانىء وَمعهم أبو موسى ، وعبدالله بن عباس وإليه الصلاة . وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة فارس من أهل الشام ومعهم عبد الله بن عمر ، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح – وهى نصف المسافة بين الكوفة والشام، بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل – وشهد معهم جماعة من رءوس الناس كعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، وعبدالله الرحمن بن عبد يغوث الزهرى ، وأبى جهم بن حذيفة . وزعم بعض الناس أن سعد بن أبى وقاص شهدهم أيضاً ، وأنكر حضوره آخرون . وقد ذكر ابن جرير ، أن عمر بن سعد خرج إلى أبيه وهو على ماء لبنى سليم بالبادية معتزل ، فقال : يا أبت ! قد بلغك ما كان من الناس بصفين ، وقد حكّم الناس أباموسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش، فاشهدهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة ، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة . فقال : لا أفعل ! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه ستكون فتنة ، خير الناس فيها الخفِىّ التّقى» والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفى – عبد الكبير بن عبد الحميد ، ثنا بكر بن سمار عن عامر بن سعد ، أن أخاه عمر انطلق إلى سعد فى غنم له خارجاً من المدينة ، فلما رآه سعد قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال : يا أبت! أرضيت أن تكون أعرابياً فى غنمك ، والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة ؟ فضرب سعد صدر عمر وقال : اسكت؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » ، وهكذا رواه مسلم فى صحيحه . وقال أحمد

أيضاً : حدثنا عبدالملك بن عمرو ، ثنا كثير بن زيد الأسلمي عن المطلب عن عمر بن سعد عن أبيه ، أنه جاءه ابنه عامر فقال: ياأبت! الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ههنا ؟ فقال: يابني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً ؟ لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنه ، وإن ضربت به كافراً قتلته ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب الغنى الخفي التقى » وهذا السياق كان عكس الأول. والظاهر أن عمر بن سعد استماز بأخيه عامر على أبيه، ليشير عليه أن يحضر أمر التحكيم، لعلهم يعدلون عن معاوية وعلي ويولونه ، فامتنع سعد من ذلك وأباه أشد الأباء وقنع بما هو فيه من الكفاية والخفاء ؛ كما ثبت في صحيح مسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » . وكان عمر بن سعد هذا يحب الإمارة ، فلم يزل ذلك دأبه حتى كان هو أمير السرية التي قتلت الحسين بن علي رضي الله عنه كما سيأتي بيانه في موضعه ، ولو قنع بما كان أبوه عليه لم يكن شيء من ذلك . والمقصود أن سعداً لم يحضر أمر التحكيم ولا أراد ذلك ولا هم به ، وإنما حضره من ذكرنا. فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور ، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما ، وقد أشار أبو موسى بتولية عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فقال له عمرو : فول ابني عبدالله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد . فقال له أبو موسى : إنك قد غمست ابنك في الفتن معك ، وهو مع ذلك رجل صدق .

قال أبو مخنف: فحدثني محمد بن إسحاق عن نافع، عن ابن عمر قال: قال عمرو بن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس[1] يأكل ويطعم . وكان ابن عمر فيه غفلة ، فقال له ابن الزبير: افطن وانتبه ، فقال ابن عمر : لا والله لا أرشوا عليها شيئاً أبداً، ثم قال: يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتشاكت بالرماح ، فلا تردنهم في فتنة مثلها أو أشد منها . ثم إن عمرو بن العاص حاول أبا موسى على أن يقر معاوية وحده على الناس فأبى عليه ، ثم حاوله ليكون ابنه عبدالله بن عمرو هو الخليفة ، فأبى أيضاً . وطلب أبو موسى من عمرو أن يوليا عبدالله بن عمر فامتنع عمرو أيضاً ، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعلياً ويتركا الأمر شورى بين الناس، ليتفقوا على من يختارونه لأنفسهم .

ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس ـ وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى بل يقدمه في كل الأمور أدباً وإجلالا ـ ، فقال له : يا أبا موسى اقم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه ، فخطب

(١) الضرس: السن وهو معروف ، والجمع ضروس وأضراس . والضرس أيضا . الرجل المجرب .

أبو موسى الناس ، فحمدالله وأثنى عليه، ثم صلى على رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألم لِشعثها من رأى اتفقت أنا وعمرو عليه ، وهو: أن نخلع عليا ومعاوية ونترك الأمر شورى ، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولّوا عليهم من أحبوه ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية . ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ماسمعتم ، وإنه قدخلع صاحبه ، وإنى قدخلعته كما خلعه وأثبتُ صاحبى معاوية ؛ فإنه وَلِىّ عثمان بن عفان ، والطالب بدمه ، وهو أحق الناس بمقامه ـ وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام وَالحالةهذه يؤدى إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيهمن الاختلاف ، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة ، والاجتهاد يخطىء ويصيب . ويقال : إن أباموسى تكلم معه بكلام فيه غِلظة ، وَرد عليه عمرو بن العاص مثله .

وذكر ابن جرير: أن شُريح بن هانىء ـ مقدم جيش علىّ ـ وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط ، وقام إليه ابن لعمرو فضربه بالسوط ، وتفرق الناس فى كل وجه إلى بلادهم فأما عمرو وَأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بتحية الخلافة ، وأما أبو موسى فاستحيا من على فذهب إلى مكة ، وَرجع ابن عباس وشريح بن هانىء إلى علىّ فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو ، فاستضعفوا رأى أبى موسى، وَعرفوا أنه لايوازن عَمرو بن العاص . فذكر أبو مخنف عن أبى حباب الكلبى، أن علياً لما بلغه مافعل عمرو ، كان يلعن فى قنوته معاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبا الأعور السُّلمى ، وَحبيب بن مسلمة ، والضحاك بن قيس ، وَعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وَالوليد بن عقبة فلما بلغ ذلك معاوية كان يلعن فى قنوته : عليا ، وحسناً ، وحُسينا ، وابن عباس وَالأشتر النخعى ، وَلا يصح هذا والله أعلم .

فأما الحديث الذى قال البيهقى فى الدلائل : أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، أنا أحمد بن عبيد الصفار ، ثنا إسماعيل بن الفضل ، ثنا قتيبة بن سعيد عن جرير عن زكريا بن يحيى عن عبدالله بن يزيد وحبيب بن يسار ، عن سويد بن غفلة قال : إنى لأمشى مع على بشط الفرات فقال : قال رسول الله ﷺ : « إن بنى إسرائيل اختلفوا ، فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين فضلاً وأضلاً ، وإن هذه الأمة ستختلف، فلايزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين فيَضلاّن ويُضلاّن من اتبعهما » ـ فإنه حديث منكر ورفعه موضوع ، والله أعلم ؛ إذ لو كان هذا معلوماً عند على لم يوافق على تحكيم الحكمين ، حتى لا يكون سبباً لإضلال الناس ، كما نطق به هذا الحديث . وآفة هذا الحديث ـ هو زكريا بن يحيى وهو الكندى الحيرى الأعمى ، قال ابن معين : ليس بشىء .

ذكر خروج الخوارج من الكوفة ومبارزتهم عليا رضي الله عنه

بالمعاداة والمخالفة ، وقتال عليّ إيام ، وما ورد فيهم من الأحاديث

لما بعث على أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل ، اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على علىّ وصرحوا بكفره، فجاء إليه رجلان منهم، وهما: زرعة بن البرج الطائى ،وحُرقوص ابن زهير السعدى فقالا : لا حكم إلا لله ، فقال على : لا حكم إلا لله ، فقال له حُرقوص : تب من خطيئتك ، واذهب بنا إلى عدونا حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا - فقال على : قد أردتكم على ذلك فأبيتم ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً، وقد قال الله تعالى: (وأوفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدْتُم)[1] الآية، فقال له حُرقوص : ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه ، فقال على: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأى ، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه ، فقال له زرعة بن البرج : أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله لأقاتلنك ، أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه . فقال على : تباً لك ما أشقاك ! كأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح ، فقال : وددت أن قد كان ذلك ، فقال له على : إنك لو كنت محقاً كان فى الموت تعزية عن الدنيا ، ولكن الشيطان قد استهواكم .

فخرجا من عنده يحكمان،وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس،وتعرضوا لعلى فى خطبه، وأسمعوه السب والشتم والتعريض بآيات من القرآن ؛ وذلك أن علياً قام خطيباً فى بعض الجمع فذكر أمر الخوارج فذمه وعابه . فقام جماعة منهم كل يقول: لا حُكم إلا لله ، وقام رجل منهم وهو واضع إصبعه فى أذنيه يقول . (ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لئِنْ أشرَكْتَ لَيحْبَطَنّ عَمَلُكَ ولتَكُونَنّ من الخاسِرِين)[2] فجعل عليّ يقلب يديه هكذا وهكذا وهو على المنبر ويقول : حُكم الله ننتظر فيكم . ثم قال : إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا مالم تخرجوا علينا ، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا .

وقال أبو مخنف ، عن عبدالملك عن أبى حرة ، أن علياً لما بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة، اجتمع الخوارج فى منزل عبدالله بن وهب الراسبىّ، فخطبهم خطبة بليغة زهدهم فى الدنيا ورغبهم فى الآخرة والجنة ، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم قال : فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى جانب هذا السواد، إلى بعض كور الجبال ، أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة. ثم قام حُرقوص بن زهير فقال ـ بعد حمدالله والثناء عليه ـ :

(١) من الآية : ٩١ من سورة النحل . (٢) الآية : ٦٥ من سورة الزمر .

إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، و إن الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها ، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم (إنَّ اللهَ مع الذين اتقوا والذين هُمْ مُحْسِنُون)[١]

فقال سنان بن حمزة الأسدى : يا قوم إن الرأى ما رأيتم ، وإن الحق ما ذكرتم ، فولوا أمركم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد ، ومن راية تحفون بها وترجعون إليها ، فبعثوا إلى زَيد بن حِصن الطائى - وكان من رءوسهم - فعرضوا عليه الإمارة فأبى ، ثم عرضوها على حُرقوص ابن زهير فأبى ، وعرضوها على حمزة بن سنانَ فأبى ، وعرضوها على شريح بن أبى أوفى العبسى فأبى ، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبى فقبلها وقال : أما والله لا أقبلها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت .

واجتمعوا أيضاً فى بيت زيد بن حصن الطائى السنبسى ، فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتلا عليهم آيات من القرآن ؛ منها قوله تعالى : (يادَاوُد إنَّا جَعلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأرض فاحكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبعِ الهَوَى فيُضلَّكَ عن سبيلِ الله)[٢] الآية ، وقوله تعالى : (ومَن لَمْ يَحكُم بما أَنْزَلَ اللهُ فأولئكَ هُم الكَافِرُون)[٣] وكذا التى بعدها ، وبعدها : الظالمون[٤] الفاسقون[٥] ، ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا فى القول والأعمال ، وأن جهادهم حق على المؤمنين . فبكى رجل منهم يقال له: عبد الله بن شجرة السلمى ، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس ، وقال فى كلامه : اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم ، فإن أنتم ظفرتم ، وأطيع الله كما أردتم - أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره ، وإن قتلتم فأى شىء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ .

قلت: وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بنى آدم ، فسبحان من نوع خلقه كما أراد ، وسبق فى قدره العظيم . وما أحسن ما قال بعض السلف فى الخوارج : إنهم المذكورون فى قوله تعالى: (قُلْ هل نُنَبِّئُكُم بالأخسَرين أعمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدنيا وهُم يَحْسَبُون أنهمْ يُحسِنُون صُنعاً * أولئكَ الذين كَفَروا بآياتِ رَبِّهم ولِقائه فحَبِطَتْ أعمالُهم فلا نُقيمُ لهم يوْمَ القِيامة وَزْناً)[٦] والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال ، والأشقياء فى الأقوال والأفعال ، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين ، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ، ويتحصنوا بها ، ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم - ممن هم على رأيهم ومذهبهم ،

---

(١) آخر سورة النحل (٢) من الآية: ٢٦ من سورة ص (٣) من الآية: ٤٤ من سورة المائدة
(٤) الآية: ٤٥ (٥) الآية: ٤٧ (٦) الآيات: ١٠٣-١٠٥ من سورة الكهف

من أهل البصرة وغيرها - فيوافوهم إليها ، ويكون اجتماعهم عليها . فقال لهم زيد بن حصن الطائى : إن المدائن لا تقدرون عليها ، فإن بها جيشاً لا تطيقونه وسيمنعونها منكم ، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جَوْخَى ، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات ، ولكن اخرجوا وحداناً لئلا يفطن بكم . فكتبوا كتاباً عاماً إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها ، وبعثوا به إليهم ليوافوهم إلى النهر ؛ ليكونوا يداً واحدة على الناس ، ثم خرجوا يتسللون وحداناً لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج ، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات ، وفارقوا سائر القرابات ، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، أن هذا الأمر يرضى رب الأرض والسموات ، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر الموبقات ، والمظالم والخطيئات ، وأنه مما زينه لهم إبليس الشيطان الرجيم، المطرود عن السموات، الذى نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم فى أجسادهم مترددات ، والله المسئول أن يعصمنا منه بحوله وقوته إنه مجيب الدعوات .

وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وإخوانهم، فردوهم وأنبوهم ووبخوهم ؛ فمنهم من استمر على الاستقامة ، ومنهم من فرّ بعد ذلك فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة ، وذهب الباقون إلى ذلك الموضع، ووافى إليهم من كانوا كتبوا إليه من أهل البصرة وغيرها ، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شَوكة ومَنَعة ، وهم جند مستقلون وفيهم شجاعة وعندهم أنهم متقربون بذلك . فهم لا يصطلى لهم بنار ، ولا يطمع فى أن يؤخذ منهم بثأر ، وبالله المستعان .

وقال أبو مخنف ، عن أبى روق عن الشعبى أن علياً لما خرجت الخوارج إلى النهروان وهرب أبو موسى إلى مكة ، ورد ابن عباس إلى البصرة ، قام فى الناس بالكوفة خطيباً فقال : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدثان الجليل الكادح ، وأشهد أن لا إله غيره وأن محمداً رسول الله ، أما بعد فإن المعصية تشين تسوء وتورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة بأمرى ، ونحلتكم رأيى ، فأبيتم إلا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

بذلتُ لهم نُصحى بمُنعرَج اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشد إلا ضُحى الغد

ثم تكلم فيما فعله الحكمان، فرد عليهما ما حكما به وأنبهما ، وقال ما فيه حط عليهما ، ثم ندب الناس إلى الخروج إلى الجهاد فى أهل الشام ، وعين لهم يوم الاثنين يخرجون فيه ، وكتب إلى ابن عباس والى البصرة يستنفر له الناس إلى الخروج إلى أهل الشام ، وكتب إلى الخوارج يعلمهم أن الذى حكم به الحكمان مردود عليهما ، وأنه قد عزم على الذهاب إلى الشام ، فهلمُّوا حتى نجتمع على قتالهم . فكتبوا إليه : أما بعد فإنك لم تغضب لربك ، وإنما غضبت لنفسك وإن شهدت على

نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء (إنّ الله لا يُحب الخائنين)[1] .

فلما قرأ عليّ كتابهم يئس منهم وعزم على الذهاب إلى أهل الشام ليناجزهم ، وخرج من الكوفة إلى النخيلة فى عسكر كثيف - خمسة وستين ألفا - وبعث إليه ابن عباس بثلاثة آلاف ومائتى فارس من أهل البصرة ؛ مع جارية بن قدامة ألف وخمسمائة، ومع أبى الأسود الدؤلى ألف وسبعمائة ، فكمل جيش على ثمانية وستين ألف فارس ومائتى فارس . وقام عليّ أمير المؤمنين خطيباً فحثهم على الجهاد والصبر عند لقاء العدو ، وهو عازم على الشام ، فبينما هو كذلك إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا فى الأرض فساداً وسفكوا الدماء ، وقطعوا السبل واستحلوا المحارم ، وكان من جملة من قتلوه - عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ ، أسروه وامرأته معه وهى حامل فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا عبدالله بن خبّاب صاحبُ رسول الله ﷺ ، وإنكم قد روعتمونى فقالوا : لا بأس عليك ، حدثنا ما سمعت من أبيك ، فقال : سمعت أبى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعى» ، فاقتادوه بيده ، فبينما هو يسير معهم إذ لقى بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة ، فضربه بعضهم فشق جلده ، فقال له آخر : لم فعلت هذا وهو لذمى ؟ فذهب إلى ذلك الذمى فاستحله وأرضاه ، وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها فى فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولا ثمن ؟ فألقاها ذاك من فمه ، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه ، وجاءوا إلى امرأته فقالوا : إنك امرأة حبلى ، [فقالت] : ألا تتقون الله ! فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها .

فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم، خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهله - أن يخلفهم هؤلاء فى ذراريهم وديارهم بهذا الصنع ، فخافوا غائلتهم ، وأشاروا على عليّ بأن يبدأ بهؤلاء ، ثم إذا فرغ منهم ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك ، والناس آمنون من شر هؤلاء ، فاجتمع الرأى على هذا ، وفيه خيرة عظيمة لهم ولأهل الشام أيضاً . فأرسل على إلى الخوارج رسولا من جهته وهو الحارث بن مرة العبدى ، فقال : اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم واكتب إلى به على الجلية ، فلما قدم عليهم قتلوه ولم يُنظروه ، فلما بلغ ذلك عليا عزم على الذهاب إليهم أولا قبل أهل الشام .

ذكر مسير أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - إلى الخوارج

لما عزم على ومن معه من الجيش على البداءة بالخوارج ، نادى مناديه فى الناس بالرحيل ،

---

(١) من الآية : ٥٨ من سورة الأنفال

فعبر الجسر فصلى ركعتين عنده، ثم سلك على دير عبدالرحمن ، ثم دير أبي موسى ، ثم على شاطىء الفرات ، فلقيه هنالك منجم ، فأشار عليه بوقت من النهار يسير فيه ، ولا يسير في غيره ؛ فإنه يخشى عليه ، فخالفه عليّ فسار على خلاف ما قال فأظفره الله . وقال علي : إنما أردت أن أبين للناس خطأه[1] وخشيت أن يقول جاهل: إنما ظفر لكونه وافقه. وسلك عليّ ناحية الأنبار، وبعث بين يديه قيس بن سعد ، وأمره أن يأتي المدائن وأن يتلقاه بنائبها سعد بن مسعود ـ وهو أخو عبدالله ابن مسعود الثقفي ـ في جيش المدائن ، فاجتمع الناس هنالك على عليّ ، وبعث إلى الخوارج : أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم ، ثم أنا تارككم وذاهب إلى العرب ـ يعني أهل الشام ـ ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم[2] ويردكم إلى خير مما أنتم عليه . فبعثوا إلى علي يقولون : كلنا قتل إخوانكم ، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم .

فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة ، فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم ، والخطب الجسيم فلم ينفع . وكذلك أبو أيوب الأنصاري، أنبهم ووبخهم فلم ينجع ، وتقدم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب إليهم، فوعظهم وخوفهم وحذرهم وأنذرهم وتوعدهم وقال : إنكم أنكرتم عليّ أمراً أنتم دعوتموني إليه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا ، وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ماخرجتم منه ، ولا ترتكبوا محارم الله ، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين ، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيما عند الله ، فكيف بدماء المسلمين ؟ فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادَوا فيما بينهم: أن لاتخاطبوهم ولا تكلموهم ، وتهيؤا للقاء الرب عز وجل ، الرَّوَاح الرَّوَاح إلى الجنة . وتقدموا فاصطفوا للقتال وتأهبوا للنزال ؛ فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حُصَين الطائي السُّنْبِسي ، وعلى الميسرة شُرَيح بن أوفى ، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان ، وعلى الرجالة حُرقوص بن زهير السعدي ووقفوا مقاتلين لعليّ وأصحابه . وجعل عليّ على ميمنته حُجر بن عدى ، وعلى الميسرة شَبث بن ربعيّ ـ أو معقل بن قيس الرياحي ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري ، وعلى أهل المدينة ـ وكانوا في سبعمائة ـ قيس بن سعد بن عُبادة . وأمر عليّ أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم : من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن ، إنه لاحاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا. فانصرف منهم طوائف كثيرون ـ وكانوا في أربعة آلاف ـ فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبدالله بن وهب الراسبي، فزحفوا إلى عليّ، فقدم عليّ بين يديه الخيل ، وقدم منهم الرماة وصف الرجالة وراء الخيالة ، وقال لأصحابه : كفوا عنهم حتى يبدءوكم ، وأقبلت الخوارج يقولون : لاحكم إلا لله ،

---

(١) أي خطأ المنجم (٢) في الطبري : لعل الله يقلب قلوبكم .

الرّواح الرّواح إلى الجنة ، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم على ، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة ، وأخرى إلى الميسرة ، فاستقبلتهم الرماة بالنبل ، فرموا وجوههم ، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة ، ونهض إليهم الرجال بالرماح السيوف ، فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول ، وقتل أمراؤهم : عبدالله بن وهب ، وحرقوص بن زهير ، وشريح ابن أوفى ، وعبدالله بن شجَرة السُّلَمى ، قبحهم الله .

قال أبو أيوب : وطعنت رجلا من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره وقلت له : أبشر ياعدو الله بالنار ، فقال : ستعلم أينا أولى بها صِلياً . قالوا : ولم يقتل من أصحاب على إلا سبعة نفر ، وجعل على يمشى بين القتلى منهم ويقول : بؤساً لكم ! لقد ضركم من غرّكم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ومن غرّهم ؟ قال : الشيطان وأنفسٌ بالسوء أمّارة ، غرتهم بالأمانى وزينت لهم المعاصى ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة ، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم ، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم .

وقال الهيثم بن عدى فى كتاب الخوارج : وحدثنا محمد بن قيس الأسدى ومنصور بن دينار عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سَبرة ، أن علياً لم يخمس ما أصاب من الخوارج يوم النهروان ، ولكن ردّه إلى أهله كله ، حتى كان آخر ذلك مرجل أتى به فرده . وقال أبو مخنف : حدثنى عبدالملك بن أبى حرّة أن علياً خرج فى طلب ذى الثُّدَية ومعه سليمان[1] بن ثمامة الحنفى - أبو جبْرة ، والريان بن صبرة بن هَوذة ، فوجده الريان فى حُفرة على جانب النهر فى أربعين أو خمسين قتيلا ، قال : فلما استُخرج نظر إلى عَضُده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثَدى المرأة ، له حَلَمة عليها شَعَرات سُود ، فإذا مُدّت امتدت حتى تحاذى طول يده الأخرى ، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدى المرأة . فلما رآه على قال : الله أكبر ، والله ما كذبت أما والله لولا أن تتكلوا على العمل لأخبرتكم بما قضى الله فى قتالهم ، عارفاً للحق .

وقال الهيثم بن عدى فى كتابه فى الخوارج : وحدثنى محمد بن ربيعة الأخنسى ، عن نافع بن مسلمة الأخنسى قال : كان ذو الثدية رجلا من عُرنة من بَجيلة ، وكان أسود شديد السواد ، له ريح منتنة معروف فى العسكر ، وكان يرافقنا قبل ذلك وينازلنا و نازله . وحدثنى أبو إسماعيل الحنفى عن الريان بن صبره الحنفى قال : شهدنا النهروان مع علىّ ، فلما وجد المُخدَج سجد سجدة طويلة . وحدثنى سفيان الثورى عن محمد بن قيس الهمدانى عن رجل من قومه يكنى أباموسى ، أن علياً لما وجد المخدج سجد سجدة طويلة . وحدثنى يونس بن أبى إسحاق ، حدثنى إسماعيل عن حبة العرنى قال : لما

(١) فى نسخة : سليم

أقبل أهل النهروان جعل الناس يقولون : الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى قطع دابرهم ، فقال على : كلا- والله إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فإذا خرجوا من بين الشرايين، فقلّ ما يلقون أحداً إلا ألبوا أن يظهروا عليه، قال : وكان عبدالله بن وهب الراسبى قد قحلت مواضع السجود منه من شدة اجتهاده وكثرة السجود ، وكان يقال له : ذو الثفنات وروى الهيثم عن بعض الخوارج أنه قال : ما كان عبدالله بن وهب من بغضه عليا يسميه إلا الجاحد . وقال الهيثم بن عدى : ثنا إسماعيل عن خالد عن علقمة بن عامر قال: سئل علىّ عن أهل النهروان، أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فروا ، قيل: أفمنافقون ؟ قال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . فقيل : فما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إخواننا بغوا علينا ، فقاتلناهم ببغيهم علينا . فهذ ما أورده ابن جرير وغيره فى هذا المقام .

ولنذكر الآن ما ورد فيهم من الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ

الحديث الأول

عن على رضى الله عنه ، ورواه عنه زيد بن وهب ، وسويد بن غفلة ، وطارق بن زياد ، وعبدالله بن شداد ، وعبيد الله بن أبى رافع ، وعبيدة بن عمرو السلمانى ، وكليب أبو عاصم ، وأبو كثير وأبو مريم ، وأبو موسى ، وأبو وائل الوضىء . فهذه اثنتا عشرة طريقا إليه ، ستراها بأسانيدها وألفاظها ، ومثل هذا يبلغ حد التواتر .

الطريق الأولى : قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا عبد بن حميد ، ثنا عبدالرزاق عن همام ، ثنا عبدالملك بن أبى سليمان، ثنا سلمة بن كهيل حدثنى زيدبن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش الذين كانوا مع الذين ساروا إلى الخوارج، فقال على : يا أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء ، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضِى لهم على لسان نبيهم ﷺ - لاتكلوا على العمل . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض ، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم ، والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا فى سَرْح[1] الناس ، فسيروا على اسم الله. قال سلمة : فذكر زيد بن وهب منزلا منزلا حتى مررنا على قنطرة. فلما التقينا

---

(١) السرح : الماشية والمال السائم - أى أغاروا على مواشيهم السائمة .

ـ وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي ـ قال لهم : القوا الرماح وسُلوا سيوفكم وكسّرو جفونها ، فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء ؛ فرجعوا فوحّشوا[1] برماحهم ، وسلّوا السيوف فشجرهم[2] الناس برماحهم. قال : وقُتِل بعضهم على بعض ، وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . قال عليّ : التمسوا فيهم المُخدَج[3] ، فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام عليّ بنفسه حتى أتى ناساً قد قُتِلَ بعضهم إلى بعض ، فقال : أخّروهم فوجدوه مما يلي الأرض ، فكبّر ثم قال : صدق الله وبلّغ رسوله . قال : فقام إليه عبيدة السلماني فقال : يا أمير المؤمنين ! والله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ فقال : إي والله الذي لا إله إلا هو ، حتى استحلفه ثلاثا وهو يحلف له أنه سمعه من رسول الله ﷺ » ، هذا لفظ مسلم . وقد رواه أبو داود عن الحسن بن علي الخلال عن عبد الرزاق بنحوه .

طريق أخرى عن علي ـ قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ثنا الأعمش وعبد الرحمن، عن سفيان عن الأعمش عن خيثمة عن سُويد بن غَفَلة قال : قال عليّ : إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فَلأن أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذب عليه ، وإذا حدّثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خُدعة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون مِنْ قول خيرِ البرية ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال عبد الرحمن : لا يجاوز إيمانُهم حناجرهم ـ يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمِيّة ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة » وأخرجاه في الصحيحين من طرق عن الأعمش به .

طريق أخرى ـ قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم، ثنا الوليد بن القاسم الهمداني ، ثنا إسرائيل عن إبراهيم بن عبد الأعلى عن طارق بن زياد قال : سار عليّ إلى النهروان، قال الوليد في روايته : وخرجنا معه فقتل الخوارج فقال : اطلبوا المُخدَج فإن رسول الله ﷺ قال : « سيجيء قوم يتكلمون بكلمة الحق لا تجاوز حُلوقَهم ، يمرقون من الإسلام كما يَمْرق السهم من الرمِيّة ، سيماهم ـ أو فيهم ـ رجل أسود مُخدَجَ اليد ، في يده شعرات سُود ، إن كان فيهم فقد قتلتم شرّ الناس ، وإن لم يكن فيهم فقد قتلتم خير الناس . قال الوليد ، في روايته : فبكينا ، قال : إنا وجدنا المُخدَج ، فخررنا سجوداً وخرّ عليّ ساجداً معنا » ، تفرد به أحمد من هذا الوجه .

طريق أخرى : رواه عبد الله بن شداد عن علي ، كما تقدم قريباً إيراده بطوله .

---

(١) أي : رموا بها عن بعد مخافة أن يلحقوا (٢) أي داخلوهم بها وطاعنوهم
(٣) المخدج: الناقص اليد أو الخلق ـ من الخداج وهو النقصان

طريق أخرى عن عليّ رضي الله عنه ـ قال مسلم : حدثني أبو الطاهر ويونس بن عبد الأعلى ثنا عبدالله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث عن بُكير بن الأشج عن بسر بن سعيد، عن عبيدالله ابن أبي رافع ـ مولى رسول الله ، أن الحرورية لما خرجت ـ وهو مع علي بن أبي طالب ـ قالوا : لاحكم إلا الله ، قال عليّ : كلمة حق أريد بها باطل ، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً إني لأعرف صفتهم في هؤلاء ، يقولون الحق بألسنتهم لايجاوز هذا منهم ـ وأشار إلى حلقه ـ من أبغض خلق الله إليه ، منهم أسود إحدى يديه طُبي[1] شاة أو حلمة ثدي» فلما قتلهم علي بن أبي طالب قال : انظروا، فنظروا فلم يجدوا شيئاً ، فقال : ارجعوا فانظروا ، فوالله ما كَذبتُ ولا كُذِبت ـ مرتين أو ثلاثاً ـ فوجدوه في خربة ، فأتوا به علياً حتى وضعوه بين يديه ، قال عبيد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم ، وقول عليّ فيهم . زاد يونس في روايته ـ قال بكير : وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال : رأيت ذلك الأسود . تفرد به مسلم .

طريق أخرى ـ قال أحمد : حدثنا إسماعيل ، ثنا أيوب عن محمد عن عَبيدة عن عليّ قال : ذكرت الخوارج عند علي فقال : فيهم مُخْدَج اليد أو مثدُون[2] اليد ؟ ـ أو قال: مُودَنُ اليد ـ ولولا أن تَبطَروا[3] لحدثتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ ، قال : قلت: آنت سمعته من محمد ؟ قال : إي ورب الكعبة ـ إي ورب الكعبة ، وقال أحمد : ثنا وكيع، ثنا جرير بن حازم وأبو عمرو بن العلاء عن ابن سيرين، سمعناه عن عبيدة عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ : «يخرج قوم فيهم رجل مُودَنُ اليد ـ أو مَثدون اليد ـ أو مخدَج اليد ، ولولا أن تبطروا لأنبأتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان نبيه ﷺ ، قال عبيدة : قلت لعليّ : آنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : إي ورب الكعبة ، إي ورب الكعبة ، إي ورب الكعبة .

وقال أحمد : ثنا يزيد، ثنا هشام عن محمد عن عبيدة قال : قال علي لأهل النهروان : فيهم رجل مثدون اليد ـ أو مخدوج اليد ، ولولا أن تبطروا لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قتلهم ، قال عبيدة : فقلت لعليّ : أنت سمعته ؟ قال : إي ورب الكعبة ، يحلف عليها ثلاثاً . وقال أحمد : ثنا ابن أبي عدي عن أبي عون عن محمد قال ، قال عبيدة : لا أحدثك إلا ما سمعت منه ، قال محمد : فحلف لنا عبيدة ثلاث مرات ، وحلف له عليّ قال: قال: لولا أن تبطروا لأنبأتكم ما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ قال : قلت: آنت سمعته ؟ قال : إي ورب الكعبة ، إي ورب الكعبة ، إي ورب الكعبة . فيهم رجل مُخدَج اليد أو مَثدُون اليد ، أحسبه قال :

---

(١) الطبي : بالكسر والضم ـ حلمات الضرع التي من خف وظلف وحافر وسبع ـ والجمع أطباء

(٢) أي صغيرها، والمثدون : الناقص الخلق .   (٣) البطر هنا : التحير وشدة النشاط .

أو مودن اليد . وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن علية وحماد بن زيد ـ كلاهما عن أيوب، وعن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدى عن ابن عون ـ كلاهما عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علىّ . وقد ذكرناه من طرق متعددة تفيد القطع عند كثيرين عن محمد بن سيرين . وقد حلف علىّ أنه سمعه من عبيدة، وحلف عبيدة أنه سمعه من على أنه سمعه من رسول الله ﷺ، وقد قال علىّ : لأن أخرّ من السماء إلى الأرض، أحبّ إلىّ من أن أكذب على رسول الله ﷺ .

طريق أخرى ـ قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : حدثنى إسماعيل أبو معمر ، ثنا عبد الله بن إدريس، ثنا عاصم بن كليب عن أبيه قال: كنت جالسا عند علىّ ، إذ دخل رجل عليه ثياب السفر ، فاستأذن على علىّ وهو يكلم الناس فشغل عنه، فقال على : إنى دخلت على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فقال : يابن أبى طالب « كيف أنت ويوم كذا وكذا ؟ فقلت: الله ورسوله أعلم . فقال : قوم يخرجون من قبل المشرق، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فيهم رجل مخدج اليد كأن يديه ثدى حبشية ، أنشدكم بالله هل أخبرتكم أنه فيهم ؟ » فذكر الحديث بطوله . ثم رواه عبد الله بن أحمد عن أبى خيثمة ـ زهير بن حرب ، عن القاسم بن مالك عن عاصم بن كليب عن أبيه عن علىّ ، فذكر نحوه إسناده جيد .

طريق أخرى ـ قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى : أخبرنا أبو القاسم الأزهرى ، أنا على بن عبد الرحمن الكتانى ، أنا محمد بن عبد الله بن عطاء عن سليمان الحضرمى ، أنا يحيى ابن عبد الحميد الحمانى ، أنا خالد بن عبيد الله عن عطاء بن السائب عن ميسرة قال: قال أبو جحيفة : قال علىّ حين فرغنا من الحرورية[1] : إن فيهم رجلا ليس فى عضده عظم ، ثم عضده كحلمة الثدى عليها شعرات طوال عقف[2] ، فالتمسوه فلم يجدوه قال : فما رأيت عليا جزع جزعاً أشد من جزعه يومئذ ، فقالوا : ما نجده يا أمير المؤمنين ، فقال : ويلكم ما اسم هذا المكان ؟ قالوا : النهروان قال : كذبتم ، إنه لفيهم ، فثورنا[3] القتلى فلم نجده ، فعدنا إليه فقلنا : يا أمير المؤمنين ما نجده ، قال : ما اسم هذا المكان ؟ قلنا : النهروان ، قال : صدق الله ورسوله وكذبتم ، إنه لفيهم فالتمسوه فالتمسناه فوجدناه فى ساقية ، فجئنا به ، فنظرت إلى عضده ليس فيها عظم وعليها كحلمة ثدى المرأة عليها شعرات طوال عقف .

---

(١) الحرورية . فرقة من الخوارج سميت بذلك لاجتماعهم فى قرية حروراء ـ إحدى القرى القريبة من الكوفة وتعاقدهم عندها على قتال أهل العدل (٢) أى ملتوية معوجة

(٣) أى أثرناهم وهيجناهم

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ثنا إسماعيل بن مسلم العبدى، ثنا أبو كثير مولى الأنصار قال: كنت مع سيدى مع علىّ بن أبى طالب حيث قتل أهل النهروان، فكأنّ الناس وجدوا فى أنفسهم من قتلهم، فقال علىّ: يا أيها الناس! إن رسول الله ﷺ «قد حدثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يرجعون فيه أبداً حتى يرجع السهم على فُوقه[1]، وإنّ آية ذلك أن فيهم رجلا أسود مُخدَج اليد، إحدى يديه كثدى المرأة، لها حَلَمة كحلمة ثدى المرأة، حوله سبع هُلَبات[2] فالتمسوه فإنى أراه فيهم، فالتمسوه فوجدوه إلى شفير النهر تحت القتلى، فأخرجوه فكبّر علىّ، فقال: الله أكبر! صدق الله ورسوله، وإنه لمتقلد قوساً له عربية، فأخذها بيده فجعل يطعَنُ بها فى مُخدَجَته ويقول: صدق الله ورسوله. وكبر الناس حين رأوه واستبشروا، وذهب عنهم ما كانوا يجدون» تفرد به أحمد.

طريق أخرى: قال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو خيثمة، ثنا شبابة بن سوار، حدثنى نعيم بن حكيم، حدثنى أبو مريم، ثنا على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «إن قوما يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، علامتهم رجل مُخدَج». وقال أبو داود فى سننه: حدثنا بشر بن خالد، ثنا شبابة بن سوار عن نعيم بن حكيم عن أبى مريم قال: إن كان ذلك المخدج لمعنا يومئذ فى المسجد نجالسه الليل والنهار، وكان فقيراً، ورأيته مع المساكين يشهد طعام علىّ مع الناس، وقد كسوته بُرنسا لى، قال أبو مريم: وكان المخدج يسمى: نافعا ذا الثُديَة، وكان فى يده مثل ثدى المرأة، على رأسه حلمة مثل حلمة الثدى، عليه شعرات مثل سَبَلة[3] السنور.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى الدلائل: أخبرنا أبو على الروزبارى، أنا أبو محمد عبد الله بن عمرو بن شوذب المقرى الواسطى بها، ثنا شعيب بن أيوب، ثنا أبو الفضل بن دكين عن سفيان ـ هو الثورى ـ عن محمد بن قيس عن أبى موسى رجل من قومه قال: كنت مع على فجعل يقول: التمسوا المُخدَج فالتمسوا فلم يجدوه، قال: فأخذ يعرق ويقول: والله ما كَذبت ولا كُذبت، فوجدوه فى نهر أو دالية فسجد.

طريق أخرى: قال أبو بكر البزار: حدثنى محمد بن مثنى ومحمد بن معمر ثنا عبد الصمد، ثنا سويد بن عبيد العجلى ثنا أبو موسى قال: شهدت علىّ بن أبى طالب يوم قتل الحرورية وأنا مع مولاى فقال: انظروا فإن فيهم رجلا إحدى يديه مثل ثدى المرأة، وأخبرنى النبى ﷺ أنى

(١) الفوق: مكان الوتر من السهم. (٢) أى شعرات، أو خصلات من الشعر.

(٣) السبلة: ما على الشارب من الشعر ـ أو طرفه ـ أو مجتمع الشاربين

صاحبه ، فقلبوا القتلى فلم يجدوه ، وقالوا : سبعة نفر تحت النخلة لم نقلبهم بعد ، قال : ويلكم ! انظروا ، قال أبو موسى : فرأيت فى رجليه حبلين يجرونه بهما حتى ألقوه بين يديه ، فخر على ساجداً وقال : أبشروا ! قتلاكم فى الجنة وقتلاهم فى النار ، ثم قال البزار : لا نعلم روى أبو موسى عن على غير هذا الحديث .

طريق أخرى : قال البزار : حدثنا يوسف بن موسى ثنا إسحاق بن سليمان الرازى سمعت أبا سفيان عن حبيب بن أبى ثابت قال : قلت لشقيق بن سلمة ـ يعنى أبا وائل ـ حدثنى عن ذى الثدية ، قال : لما قاتلناهم قال على : اطلبوا رجلا علامته كذا وكذا ، فطلبناه فلم نجده ، فبكى وقال : اطلبوه ، فوالله ما كَذبت وَلا كُذبت ، قال : فطلبناه فلم نجده ، فبكى وقال : اطلبوه فوالله ما كَذبت وَلا كُذبت ، قال: فطلبناه فلم نجده. قال : وَركب بغلته الشهباء فطلبناه فوجدناه تحت بردى ، فلما رآه سجد. ثم قال البزار: لا نعلم روى حبيب عن شقيق عن على إلا هذا الحديث.

طريق أخرى : قال عبدالله بن أحمد : حدثنى عبيدالله بن عمر القواريرى ، ثنا حماد بن زيد ، ثنا جميل بن مرة عن أبى الوضيء قال : شهدت علياً حين قتل أهل النهروان قال : التمسوا المخدج فطلبوه فى القتلى فقالوا : ليس نجده ، فقال : ارجعوا فالتمسوه فوالله ما كَذبتُ وَلا كُذِبت ، فرجعوا فطلبوه ، فردّد ذلك مراراً ، كل ذلك يحلف بالله ما كَذبتُ وَلا كُذبتُ ، فانطلقوا فوجدوه تحت القتلى فى طين فاستخرجوه فجىء به ، قال أبو الوضيء : فكأنى أنظر إليه ، حبشى عليه ثدى قد طبق إحدى يديه مثل ثدى المرأة ، عليها شعرات مثل شعرات تكون على ذنب اليربوع . وقد رواه أبو داود عن محمد بن عبيد بن حساب عن حماد بن زيد ، ثنا جميل بن مرة ثنا أبو الوضيء ـ واسمه عباد بن نُسيب ـ ولكنه اختصره . وقال عبدالله بن أحمد أيضاً : حدثنا حجاج بن يوسف الشاعر ، حدثنى عبدالصمد بن عبدالوارث ثنا يزيد بن أبى صالح أن أبا الوضيء ـ عباداً ـ حدثه أنه قال : كنا عائدين إلى الكوفة مع على بن أبى طالب ، فلما بلغنامسيرة ليلتين أو ثلاثاً من حروراء ، شذ منا ناس كثيرون ، فذكرنا ذلك لعلى فقال : لايهولنكم أمرهم فإنهم سيرجعون ، فذكر الحديث بطوله . قال : فحمد الله على بن أبى طالب وقال : إن خليلى أخبرنى أن قائد هؤلاء رجل مُخدج اليد ، على حلمة ثديه شعرات كأنهن ذنب اليربوع ، فالتمسوه فلم يجدوه، فأتيناه فقلنا : إنا لم نجده ، فجعل يقول : اقلبوا ذا ، حتى جاء رجل من أهل الكوفة فقال : هو هذا ؟ فقال على : الله أكبر ، ألا يأتيكم أحد يُخبركم من أبوه ؟ فجعل الناس يقولون : هذا ملك هذا ملك ، فقال على : ابن من هو ؟ .

وقال عبدالله بن أحمد أيضاً : حدثنى حجاج بن الشاعر ، حدثنى عبد الصمد بن عبدالوارث

ثنا يزيد بن أبي صالح ، أن أبا الوضىء – عباداً – حدثه قال : كنا عائدين إلى الكوفة مع على ، فذكر حديث المخدَج ، قال على : «فوالله ما كذبتُ ولا كُذبت» ثلاثا ، ثم قال على : «أما إن خليلى أخبرنى بثلاثة إخوة من الجن ، هذا أكبرهم ، والثانى له جمع كثير ، والثالث فيه ضعف» وهذا السياق فيه غرابة جداً . وقد يمكن أن يكون ذو الثدية من الجن ! بل هو من الشياطين ؛ إما شياطين الإنس أو شياطين الجن ، إن صح هذا السياق ، والله تعالى أعلم .

والمقصود : أن هذه طرق متواترة عن على ، إذ قد روى من طرق متعددة عن جماعة متباينة لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، فأصل القصة محفوظ ، وإن كان بعض الألفاظ وقع فيها اختلاف بين الرواة ، ولكن معناها وأصلها الذى تواطأت الروايات عليه صحيح لايشك فيه عن على أنه رواه عن رسول الله ﷺ أنه أخبر عن صفة الخوارج وذى الثدية الذى هو علامة عليهم . وقد روى ذلك من طريق جماعة من الصحابة غير على كما تراها بأسانيدها وألفاظها ، وبالله المستعان

وقد رواه جماعة من الصحابة، منهم: أنس بن مالك ، وجابر بن عبدالله ، ورافع بن عمر الغفارى، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الأنصارى ، وسهل بن حنيف ، وعبد الله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عمرو ، وعبدالله بن مسعود ، وعلى ، وأبو ذر ، وعائشة أم المؤمنين – رضى الله عنهم أجمعين .

وَقد قدمنا حديث علىّ بطرقه ، لأنه أحد الخلفاء الأربعة ، وأحد العشرة ، وَصاحب القصة . ولنذكر بعده حديث ابن مسعود لتقدم وفاته على وقعة الخوارج

الحديث الثانى عن ابن مسعود رضى الله عنه

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أبى بكير ، ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «يخرج قوم فى آخر الزمان سفهاء الأحلام[1] ، أحداث – أو حدثاء – الأسنان ، يقولون من خير قول الناس ، يقرءون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، فمن أدركهم فليقتلهم ، فإن فى قتلهم أجراً عظيما عندالله لمن قتلهم» . وَقد رواه الترمذى عن أبى كريب وأخرجه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة وعبد الله بن عامر بن زرارة ثلاثتهم عن أبى بكر بن عياش به . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ابن مسعود مات قبل ظهور الخوارج بنحو من خمس سنين ، فخبره فى ذلك من أقوى الأسانيد .

(١) سفهاء الأحلام : أى خفاف العقول .

(٢) أى حديثو السن ، جمع حدث – بفتحتين – بمعنى حديث .

الحديث الثالث عن أنس بن مالك رضي الله عنه

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ثنا سليمان التيمي ثنا أنس قال: ذكر لي أن نبي الله ﷺ قال ـ ولم أسمعه منه ـ : «إن فيكم فرقة يتعبدون ويدينون، حتى يعجبوا الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ثنا الأوزاعي حدثني قتادة عن أنس بن مالك وأبي سعيد قال أحمد : وقد حدثنا أبو المغيرة فقال : عن أنس عن أبي سعيد ، ثم رجع ـ أن النبي ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل ، يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لايرجعون حتى يرتد السهم على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم» . قالوا : يارسول الله ماسيماهم ؟ قال: «التحليق». وقد رواه أبو داود في سننه عن نصر ابن عاصم الأنطاكي ، عن الوليد بن مسلم وقيس بن إسماعيل الحلبي ـ كلاهما عن الأوزاعي ، عن قتادة وأبي سعيد عن أنس به . وأخرجه أبو داود وابن ماجة من حديث عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس وحده وقد روى البزار من طريق أبي سفيان وأبو يعلى من طريق يزيد الرقاشي ـ كلاهما عن أنس بن مالك حديثاً في الخوارج قريباً من حديث أبي سعيد ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

الحديث الرابع عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، ثنا ابن شهاب عن يحيى بن سعيد ، عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله قال : كنت مع رسول الله ﷺ عام الجعرانة[1] وهو يقسم فضة في ثوب بلال للناس ، فقال رجل: يا رسول الله! اعدل ، فقال : «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ لقد خبت إن لم أكن أعدل . فقال عمر : يا رسول الله دعني أقتل هذا المنافق ، فقال : «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ـ أو تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية »[2] وقال أحمد : حدثنا علي بن عياش ، ثنا إسماعيل

---

(١) الجعرانة : موضع قريب من مكة ، وينطق بتسكين العين ، وبكسرها مع تشديد الراء . وقد حدث هذا عند منصرف الرسول من حنين

(٢) الرمية : هي الصيد المرمي ـ أي كما يخرج السهم من الدابة المرمية خارقا لها .

ابن عياش ، حدثني يحيى بن سعيد ، أخبرني أبو الزبير قال : سمعت جابراً يقول : بصر عيني وسمع أذني رسول الله ﷺ بالجعرانة ، وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبضها للناس يعطيهم ، فقال رجل : اعدل ! فقال : « ويلك من يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : دعني أقتل هذا المنافق الخبيث ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، هذا وأصحابه يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .
ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة عن معاذ بن رفاعة ، ثنا أبو الزبير عن جابر بن عبدالله قال : لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بالجعرانة، قام رجل من بني تميم فقال : اعدل يامحمد،فقال : « ويلك ومن يعدل إن لم أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل» قال: فقال عمر : يارسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق ؟ قال : معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه ، ثم قال رسول الله ﷺ : إن هذا وأصحاباً له يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ، قال معاذ : فقال لي أبو الزبير : فعرضت هذا الحديث على الزهري فما خالفني فيه ، إلا أنه قال : النضو ـ وقلت : القدح، قال : ألست رجلاعربياً ؟ . وقد رواه مسلم عن محمد بن رمح عن الليث ، وعن محمد بن مثنى عن عبد الوهاب الثقفي. وأخرجه النسائي من حديث الليث ومالك ابن أنس ـ كلهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري به بنحوه . حديث رافع بن عمرو الأنصاري مع حديث أبي ذر رضي الله عنهما .

الحديث الخامس عن سعد بن مالك بن أهيب الزهري

وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

قال يعقوب بن سفيان : حدثنا الحميدي ، ثنا سفيان ـ هو ابن عيينة ـ حدثني العلاء بن أبي عياش ، أنه سمع أبا الطفيل يحدث عن بكر بن قرواش عن سعد بن أبي وقاص قال : « ذكر رسول الله ﷺ ذا الثدية فقال : شيطان الردهة[1] راعي الخيل يحتدره[2] رجل من بجيلة يقال له الأشهب أو ابن الأشهب علامة في قوم ظلمة » قال سفيان : فأخبرني عمار الدهني أنه جاء رجل يقال له : الأشهب وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة به مختصراً ولفظه « شيطان الردهة يحتدره رجل من بجيلة » تفرد به أحمد وحكى البخاري عن علي بن المديني قال : لم أسمع بذكر بكر بن قرواش إلا في هذا الحديث .وروى يعقوب بن سفيان عن عبدالله بن معاذ

---

(١) الردهة : النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء .　　(٢) يحتدره : أي يسقطه .

عن أبيه عن شعبة عن أبي إسحاق عن حامد الهمداني قال : سمعت سعيد بن أبي وقاص يقول : « قتل عليّ شيطان الردهة » قال الحافظ أبو بكر البيهقي : يريد ـ والله أعلم ـ قتله أصحاب عليّ بأمره وقال الهيثم بن عدي : حدثنا إسرائيل بن يونس عن جده أبي إسحاق السبيعي ، عن رجل قال : بلغ سعد بن أبي وقاص أن علياً بن أبي طالب قتل الخوارج ، فقال : قتل عليّ بن أبي طالب شيطان الردهة .

الحديث السادس عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الأنصاري

رضي الله عنه ، وله طرق عنه

الأولى منها : قال الإمام أحمد : حدثنا بكر بن عيسى ثنا جامع بن قطر الحبطي ، ثنا أبو روبة شداد بن عمر القشيري عن أبي سعيد الخدري ، أن أبا بكر جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إني مررت بوادي كذا وكذا ، فإذا رجل متخشع حسن الهيئة يصلي ، فقال له رسول الله ﷺ : « اذهب إليه فاقتله » قال فذهب إليه أبو بكر ، فلما رآه على تلك الحالة كره أنّ يقتله . فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لعمر : « اذهب إليه فاقتله » ، قال : فذهب عمر فرآه على الحال التي رآه أبو بكر فكره أن يقتله ، فرجع فقال : يارسول الله إني رأيته متخشعاً فكرهت أن أقتله . قال : « يا عليّ اذهب فاقتله » فذهب عليّ فلم يره فرجع . فقال : يارسول الله إني لم أره ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا وأصحابه يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لايعودون فيه حتى يعود السهم في فوقه فاقتلوهم هم شر البرية » تفرد به أحمد وقد روى البزار في مسنده من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك وأبو يعلى ، عن أبي خيثمة عن عمر بن يونس عن عكرمة بن عمار ، وعن يزيد الرقاشي عن أنس من هذه القصة وأطول منها ، وفيها زيادات أخرى .

الطريق الثاني : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، ثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث « ذكر قوماً يخرجون على فرقة من الناس مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق » أخرجاه في الصحيحين كما سيأتي في ترجمة أبي سلمة عن أبي سعيد .

الطريق الثالث : قال الإمام أحمد : ثنا وكيع ثنا عكرمة بن عمار ، ثنا عاصم بن شميخ عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا حلف فاجتهد في اليمين قال : « والذي نفس أبي القاسم بيده ، ليخرجن قوم من أمتي تحقرون أعمالكم عند أعمالهم ، يقرءون القرآن

لا يجاوز تراقيهم؛ يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » قالوا : فهل من علامة يعرفون بها؟ قال: «فيهم رجل ذو يدية أو ثدية محلقي رءوسهم» قال أبو سعيد: فحدثني عشرون أو بضع وعشرون من أصحاب النبي ﷺ أن عليا ولي قتلهم. قال: فرأيت أبا سعيد بعد ما كبر ويديه ترتعش يقول: قتالهم عندي أحل من قتال عدتهم من الترك وقد رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به.

الطريق الرابع : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنا سفيان عن أبيه عن ابن أبي نعيم عن أبي سعيد الخدري قال : « بعث علي وهو باليمن إلى رسول الله ﷺ بذهيبة[1] في تربتها ، فقسمها رسول الله ﷺ بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع ، وبين عيينة بن بدر الفزاري ، وبين علقمة بن علاثة أو عامر بن الطفيل - أحد بني كلاب ، وبين زيد الخيل الطائي ، ثم أحد بني نبهان . قال : فغضبت قريش والأنصار ، وقالوا : تعطي صناديد[2] أهل نجد وتدعنا ؟ قال : إنما أتألفهم . قال: فأقبل رجل غائر العينين ناتيء الجبين كث[3] اللحية مشرف الوجنتين محلوق الرأس فقال : يا محمد اتق الله، فقال: فمن يطع الله إذا عصيته ؟ أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ قال : فسأل رجل من القوم النبي ﷺ قتله - أراه خالد بن الوليد - فمنعه ، فلما ولى قال : إن من ضئضيء[4] هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد[5] .

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به ، ثم رواه أحمد عن محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن عبد الرحمن بن أبي نعم ، عن أبي سعيد . وفيه الجزم بأن خالداً سأل أن يقتل ذلك الرجل ، ولا ينافي سؤال عمر بن الخطاب . وهو في الصحيحين من حديث عمارة بن القعقاع من سيرته وقال فيه : إنه سيخرج من صلبه ونسله ؛ لأن الخوارج الذين ذكرنا لم يكونوا من سلالة هذا ، بل ولا أعلم أحداً منهم من نسله ، وإنما أراد من ضئضيء هذا - أي من شكله وعلى صفته ، فالله أعلم . وهذا الرجل هو ذو الخويصرة التميمي، وسماه بعضهم حرقوصا ، فالله أعلم .

الطريق الخامس : قال الإمام أحمد : ثنا عفان ثنا مهدي بن ميمون ثنا محمد بن سيرين عن معبد بن سيرين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : يخرج أناس من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه حتى يعود

---

(١) ذهيبة - بالتصغير - أي بقطعة صغيرة من الذهب ، وفي رواية بذهبة . وقوله في تربتها - صفة لذهيبة - أي أنها غير مسبوكة لم تخلص من ترابها (٢) أي: سادة أهل نجد الواحد صنديد

(٣) الكثاثة في اللحية . أن تكون غير دقيقة ولا طويلة ، وفيها كثافة

(٤) الضئضيء : الأصل والمعدن والجنس .

(٥) أي قتلا عاماً مستأصلا ، كما قال تعالى : (فهل ترى لهم من باقية)

السهم على فوقه ، قيل : ما سيماهم ؟ قال : سيماهم التحليق أو التسبيد[1] » ورواه البخارى عن أبى النعمان محمد بن الفضل عن مهدى بن ميمون به .

الطريق السادس : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ثنا سويد بن نجيح عن يزيد الفقير قال : قلت لأبى سعيد : إن منا رجالا هم أقرؤنا للقرآن ، وأكثرنا صلاة ، وأوصلنا للرحم ، وأكثرنا صوما ، خرجوا علينا بأسيافهم . فقال أبو سعيد : سمعت النبى ﷺ يقول : « يخرج قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » تفرد به أحمد ولم يخرجوه فى الكتب الستة ولا واحد منهم ، وإسناده لا بأس به ، رجاله كلهم ثقات ، وسويد ابن نجيح هذا ـ مستور .

الطريق السابع : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن أبى سعيد قال : بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله! أتأذن لى فيه فأضرب عنقه ؟ فقال : دعه . فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فينظر فى قذذه[2] فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى نضيه[3] ، فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى رصافه[4] فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء ، قد سبق الفرث والدم ، آيتهم : رجل أسود إحدى يديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر[5] ، ويخرجون على حين فترة من الناس ، فنزلت فيه : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات)[6] الآية » ، قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ . وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه ـ جىء بالرجل على النعت الذى نعت رسول الله ﷺ . ورواه البخارى من أبى بكر بن أبى شيبة ، عن هشام بن يوسف عن معمر ورواه البخارى من حديث شعبة ، ومسلم من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى به ، لكن فى رواية مسلم عن حرملة وأحمد ابن عبد الرحمن ـ كلاهما عن ابن وهب ، عن يونس عن الزهرى عن أبى سلمة ، والضحاك الهمدانى عن أبى سعيد به . ثم رواه أحمد عن محمد بن مصعب عن الأوزاعى عن الزهرى ، عن أبى

---

(١) التسبيد حلق الشعر ، لأن العرب كانوا لا يحلقون رءوسهم ، وكانوا يفرقون شعورهم .

(٢) القذذ : ريش السهم ـ واحدتها قذة . وقوله : فلا يوجد فيه شىء ـ أى من دم الصيد أو فرثه

(٣) النضى ـ كغنى ـ : السهم بلا نصل ولا ريش ، وقيل : هو القدح الذى كانوا يستقسمون به .

(٤) الرصاف : مدخل النصل من السهم ، والنصل حديدة السهم .

(٥) البضعة : القطعة من اللحم ومعنى تدردر ـ تضطرب وتذهب وتجىء ، وأصله : تتدردر

(٦) من الآية ٥٨ من سورة التوبة

سلمة والضحاك المشرقي عن أبي سعيد ، فذكر نحو ما تقدم من هذا السياق . وفيه أن عمر هو الذي استأذن في قتله ، وفيه « يخرجون على حين فُرقة من الناس ، يقتلهم أولَى الطائفتين بالله » قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأني شهدت علياً حين قتلهم ، فالتمس في القتلى فوجد على النعت الذي نعته رسول الله ﷺ .

ورواه البخاري عن دُحَيم عن الوليد عن الأوزاعي كذلك . وقال أحمد : قرأت على عبد الرحمن بن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي ، عن أبي سلمة ابن عبدالرحمن ، عن أبي سعيد أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر في النصل فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر في القدح فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر في الريش فلا يرى شيئاً و يتمارى[1] في الفُوق ». قال عبدالرحمن: حدثنا به مالك — يعني هذا الحديث — ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف عن مالك به .

ورواه البخاري ومسلم عن محمد بن المثنى ، عن عبد الوهاب ، عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة وعطاء بن يسار عن أبي سعيد به . وقال أحمد : حدثنا يزيد أنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال : جاء رجل إلى أبي سعيد فقال : هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر في الحرورية شيئاً ؟ فقال: سمعته يذكر قوماً يتعمقون في الدين ، يحقر أحدكم صلاته عند صلاتهم ، وصومه عند صومهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، أخذ سهمه فينظر في نَصله فلم ير شيئاً ، ثم ينظر في رِصَافه فلم ير شيئاً . ثم ينظر في القُذذ فيتمارى، هل يرى شيئاً أم لا ؟» ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون به .

الطريق الثامن : قال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبي عدى عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد ، أن رسول الله ﷺ « ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فُرقة[2] من الناس ، سيماهم التحليق ، ثم هم شر الخلق ، ومن شر الخلق ، يقتلهم أولَى الطائفتين بالحق ، قال : فضرب النبي ﷺ لهم مثلا — أو قال قولا ، الرجل يرمى الرمية — أو قال الغرضَ — فينظر في النصل فلا يرى بَصيرة[3] ، وينظر في النَّضِيِّ فلا يرى بصيرة ، وينظر في الفوق فلا يرى بصيرة » فقال أبو سعيد : وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق . وقد رواه عن محمد بن المثنى عن محمد بن أبي عدى عن سليمان — وهو ابن طرخان التيمي عن أبي نضرة واسمه المنذر بن مالك بن قطعة عن أبي سعيد الخدري بنحوه .

---

(١) أي يشك في الفوق ، وهو الحز الذي يجعل فيه الوتر

(٢) أي في زمن افتراق الناس، وكان ذلك بعد وقعة صفين

(٣) أي حجة — يعني شيئا من الدم يستدل به على إصابة الرمية

الحديث الثامن عن سلمان الفارسي رضي الله عنه

قال الهيثم بن عدى : ثنا سلمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال : جاء رجل إلى قوم فقال : لمن هذه الخباء ؟ قالوا : لسلمان الفارسي ، قال : أفلا تنطلقون معي فيحدثنا ونسمع منه ؟ فانطلق معه بعض القوم فقال : يا أبا عبد الله ! لو أدنيت خباءك وكنت منا قريباً ، فحدثتنا وسمعنا منك ؟ فقال : ومن أنت ؟ قال : فلان بن فلان قال سلمان : قد بلغني عنك معروف ؛ بلغني أنك تخفّ في سبيل الله ، وتقاتل العدو ، وتخدم أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن أخطأتك واحدة ـ أن تكون من هؤلاء القوم الذين ذكرهم لنا رسول الله ﷺ. قالوا : فوجد ذلك الرجل قتيلا في أصحاب النهروان .

الحديث التاسع عن سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، ثنا حزام بن إسماعيل العامري ، عن أبي إسحاق الشيباني ، عن بسر بن عمرو قال : دخلت على سَهْل بن حنيف فقلت : حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ قال في الحرورية ؟ قال : أحدّثك ما سمعت من النبي ﷺ لا أزيدك عليه شيئاً ؛ سمعت رسول الله ﷺ « يذكر قوما يخرجون من هاهنا ـ وأشار بيده نحو العراق ـ يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » . قال : قلت : هل ذكر لهم علامة ؟ قال : هذا ما سمعت لا أزيدك عليه . وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الواحد بن زياد ، ومسلم من حديث عليّ ابن مسهر ، والعوام بن حوشب والنسائي من حديث محمد بن فضيل ـ كلهم عن أبي إسحاق الشيباني به وقد رواه مسلم ، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا عليّ بن مسهر ، عن الشيباني ، عن بسر بن عمرو قال : سألت سَهل بن حنيف ، سمعتَ رسول الله ﷺ يذكر الخوارج ؟ فقال : سمعته ـ وأشار بيده نحو المشرق ـ قوم يقرءون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيَهم ، يمرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، حدثناه أبو كامل ، ثنا عبد الواحد ، ثنا سليمان الشيباني بهذا الإسناد وقال : « يخرج منه أقوام » ، حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وإسحاق جميعاً ، عن يزيد ، قال أبو بكر : حدثنا يزيد بن هارون عن العوّام ابن حَوْشَب ، ثنا أبو إسحاق الشيباني ، عن أُسَيْر بن عمرو ، عن سهل بن حُنيف ، عن النبي ﷺ قال : يتيه[1] قوم قبل المشرق مُحلقة رءوسهم .

الحديث العاشر عن ابن عباس رضي الله عنه

قال الحافظ أبو بكر البزار : ثنا يوسف بن موسى ، ثنا الحسن بن الربيع ، ثنا أبو الأحوص

(١) يتيه قوم : أي يذهبون عن الصواب وعن طريق الحق ، يقال : تاه إذا ذهب ولم يهتد لطريق الحق .

عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يقرأ القرآن أقوام من أمتى يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » . ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة ، وسويد ابن سعيد ـ كلاهما عن أبى الأحوص بإسناده مثله .

الحديث الحادى عشر عن ابن عمر رضى الله عنه

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، ثنا أبو حساب يحيى بن أبى حية عن شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم » قال يزيد : لا أعلمه إلا قال : « يحقر أحدكم عمله مع عملهم يقتلون أهل الإسلام فإذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله ـ كلما طلع منهم قرن قطعه الله ـ كلما طلع منهم قرن قطعه الله » فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع . تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد ثبت من حديث سالم ونافع عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان ـ وأشار بيده نحو المشرق ـ » .

الحديث الثانى عشر عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنا معمر عن قتادة شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالى[1] ، فجئته ، فجاء رجل فانتبذ الناس، عليه خميصة فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، تلفظهم أرضهم ، تقذرهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلف ـ » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج ناس من أمتى قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ـ حتى عدها زيادة على عشر مرات ـ كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم » . وقد روى أبو داود أوله فى كتاب الجهاد من سننه ، عن القواريرى عن معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة . وقد تقدم حديث عبد الله بن مسعود وحديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما .

---

(١) هو نوف بن فضالة البكالى التابعى ـ إمام دمشق .

الحديث الثالث عشر عن أبي ذر رضى الله عنه

قال مسلم بن الحجاج : حدثنا شيبان بن فروخ ، ثنا سليمان بن المغيرة ، ثنا حميد بن هلال ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بعدى من أمتى ـ أو سيكون بعدى من أمتى ـ قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم[1] ، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، ثمّ لا يعودون فيه ، هم شرّ الخَلْق والخليقة » ، قال ابن الصامت : فلقيت رافع بن عمرو الغفارى ـ أخا الحكم الغفارى ، قلت : ما حديثٌ سمعتُه من أبى ذرّ كذا كذا ؟ فقال : وأنا سمعته من رسول الله ﷺ . لم يروه البخارى .

الحديث الرابع عشر عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها

قال الحافظ البيهقى : أنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو سعيد بن أبى عمرو ، ثنا أبو العباس الأصم ، ثنا السرى عن يحيى ، ثنا أحمد بن يونس ، ثنا على بن عياش ، عن حبيب بن مسلمة قال: قال على : « لقد علمت عائشة أن جيش المَرْدة وأهل النهروان ملعونون على لسان محمد ﷺ » . قال ابن عياش : جيش المشرق قتلة عثمان رضى الله عنه وقال الهيثم بن عدى : حدثنى إسرائيل ، عن يونس ، عن جده أبى إسحاق السبيعى ، عن رجل من عائشة قال : بلغها قتل علىّ الخوارج فقالت : قتل علىّ بن أبى طالب شيطان الرّدْهة ـ تعنى المُخدَج . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح ، ثنا سهل بن عامر البجلى ، ثنا أبو خالد ، عن مجالد عن الشعبى عن مسروق ، عن عائشة قالت : ذكر رسول الله ﷺ الخوارج فقال : « شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى » قال : وحدثناه إبراهيم بن سعيد ، ثنا حسين بن محمد ، ثنا سليمان بن قرم ، ثنا عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى عن مسروق عن عائشة ، عن النبى ﷺ ، فذكر نحوه . قال: فرأيت علياً قتلهم ـ وهم أصحاب النهروان ثم قال البزار : لا نعلم روى عن عطاء ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ـ إلا هذا الحديث . ولا نعلم رواه عن عطاء ـ إلا سليمان بن قرم ، وسليمان بن قرم قد تكلموا فيه ، لكن الإسناد الأول يشهد لهذا ، كما أن هذا يشهد للأول فهما متعاضدان ، وهو غريب من حديث أم المؤمنين .

وقد تقدم فى حديث عبد الله بن شداد عن علىّ ، ما يدل على أن عائشة استغربت حديث الخوارج ، ولا سيما خبر ذى الثّدية كما تقدم . وإنما أوردنا هذه الطرق كلها ليعلم الواقف عليها أن ذلك حق وصدق ، وهو من أكبر دلالات النبوة ، كما ذكره غير واحد من الأئمة فيها .

---

(١) حلاقيمهم : جمع حلقوم ـ بضم الحاء ـ وهو مجرى النفس .

والله تعالى أعلم . وقال : سألت عائشة رضى الله عنها ، بعد ذلك عن خبر ذى الثدية . فتيقنته من طرق متعددة . وقال الحافظ أبو بكر البيهقى فى الدلائل : أنا أبو عبد الله ، أنا الحسين بن الحسن ابن عامر الـكندى بالـكوفة من أصل سماعه ، ثنا محمد بن صدقة الكاتب ، حدثنى أحمد بن أبان فقرأت فيه ، حدثنى الحسن بن عيينة ، وعبد الله بن أبى السفر بن عامر الشعبى ، عن مسروق قالت عائشة : عندك عِلم عن ذى الثدية الذى أصابه علىّ فى الحرورية ؟ قلت : لا ، قالت : فا كتب لى بشهادة من شهده ، فرجعت إلى الـكوفة ، وبها يومئذ أسباع ، فـكتبت شهادة عشرة من كل سبع ، ثم أتيتها بشهادتهم فقرأتها عليها ، قالت : أ كل هؤلاء عاينوه ؟ قلت : لقد سألتهم ، فأخبرونى بأنّ كلهم قد عاينوه ، فقالت : لعن الله فلانا ، فإنه كتب إلىّ أنه أصابهم بنيل مصر ، ثم أرخت عينيها فبكت ، فلما سكنت عبرتها قالت : رحم الله عليًّا ، لقد كان على الحق ، وما كان بينى وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمائها .

حديث آخر عن رجلين مبهمين من الصحابة فى ذلك

قال الهيثم بن عدى فى كتاب الخوارج : حدثنى سليمان بن المغيرة ، عن حبيب بن هلال قال : أقبل رجلان من أهل الحجاز حتى قدما العراق، فقيل لهما : ما أقدمكما العراق ؟ قالا : رجونا أن ندرك هؤلاء القوم الذين ذكرهم لنا رسول الله ﷺ ، فوجدنا علىّ بن أبى طالب قد سبقنا إليهم — يعنيان أهل النهروان — .

حديث فى مدح على رضى الله عنه على قتال الخوارج ، قبحهم الله

قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، ثنا مطر عن إسماعيل بن رجاء بن ربيعة الزبيدى ، عن أبيه قال : سمعت أبا سعيد يقول : « كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ ، فخرج علينا من بيوت بعض نسائه ، قال : فقمنا معه ، فانقطعت نعله ، فتخلف عليها علىّ يخصفها ، فمضى رسول الله ﷺ ، ومضينا معه ، ثم قام ينتظره وقمنا معه ، فقال : إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، فاستشرف لها ، وفيهم أبو بكر وعمر ، فقال : لا ـ ولـكنه خاصف النعل ، قال: فجئنا نبشّره قال : فـكأنه قد سمعه » ، ورواه أحمد عن وكيع ، وأبى أسامة عن قطر بن خليفة . فأما الحديث الذى قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسماعيل بن موسى ، ثنا الربيع بن سهل ، عن سعيد بن عبيد ، عن علىّ بن ربيعة قال : سمعت عليًّا على منبركم هذا يقول : « عهد إلىّ النبى ﷺ أن أقاتل النا كثين والقاسطين والمارقين » ، وقد رواه أبو بكر بن المقرىء عن الجد ابن عبادة البصرى ، عن يعقوب بن عباد ، عن الربيع بن سهل الفزارى به ـ فإنه حديث غريب ومنكر ، على أنه قد روى من طرق ، عن علىّ وعن غيره ، ولا تخلو واحدة منها عن ضعف .

والمراد بالناكثين ـ يعنى أهل الجمل ، وبالقاسطين ـ أهل الشام ، وأما المارقون فالخوارج لأنهم مَرقوا من الدِّين . وقد رواه الحافظ أبو أحمد بن عدى فى كامله ، عن أحمد بن حفص البغدادى ، عن سليمان بن يوسف ، عن عبيد الله بن موسى ، عن فطر عن حكيم بن جبير ، عن إبراهيم عن علقمة عن علىّ قال : أمرت بقتال الناكثين ، والقاسطين ، والمارقين . وقال الحافظ ـ أبو بكر الخطيب البغدادى : أخبرنى الأزهرى ، ثنا محمد بن المظفر ، ثنا محمد بن أحمد بن ثابت قال: وجدت فى كتاب جدى محمد بن ثابت: ثنا شعيب بن الحسين السلمى، عن جعفر الأحمر، عن يونس بن الأرقم عن أبان عن خليد المصرى قال :سمعت عليًا أمير المؤمنين يقول يوم النهروان : « أمرنى رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين » . وقد رواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر من حديث محمد بن فرج الجنديسابورى ، أنا هارون بن إسحاق ، ثنا أبو غسان عن جعفر ـ أحسبه الأحمر ـ عن عبد الجبار الهمدانى ، عن أنس بن عمرو ، عن أبيه عن علىّ قال : « أمرت بقتال ثلاثة المارقين والقاسطين والناكثين » . وقال الحاكم أبو عبد الله: أنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن غنم الحنظلى بقنطرة بردان، ثنا محمد بن الحسن بن عطية بن سعد العوفى، حدثنى أبى حدثنى عمى عن عمرو بن عطية ابن سعد ، عن أخيه الحسن بن عطية ، حدثنى جدى سعد بن جنادة عن علىّ رضى الله عنه قال : أمرت بقتال ثلاثة : القاسطين، والناكثين، والمارقين. فأما القاسطون فأهل الشام، وأما الناكثون فذكرهم ، وأما المارقون فأهل النهروان ـ يعنى الحرورية وقال الحافظ ابن عساكر: أنا أبو القسم زاهر بن طاهر، أنا أبو سعد الأديب، أنا السيد أبو الحسن محمد بن على بن الحسين، ثنا محمد بن أحمد الصوفى ، ثنا محمد بن عمرو الباهلى ، ثنا كثير بن يحيى ، ثنا أبو عوانة ، عن أبى الجارود عن زيد ابن على بن الحسين بن علىّ ، عن أبيه عن جده عن علىّ قال : أمرنى رسول الله ﷺ بقتال الناكثين ، والمارقين ، والقاسطين .

حديث ابن مسعود فى ذلك ، قال الحافظ : حدثنا الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن الفقيه ، أنا الحسن بن علىّ ، ثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقرىء ، ثنا إسماعيل بن عباد المقرىء ، ثنا شريك عن منصور عن إبراهيم ، عن علقمة عن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ فأتى منزل أمّ سلمة فجاء علىّ فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة ! هذا والله قاتل الناكثين ، والقاسطين ، والمارقين من بعدى » .

حديث أبى سعيد فى ذلك ، قال الحاكم : حدثنا أبو جعفر محمد بن على بن دحيم الشيبانى، ثنا الحسين ابن الحكم الحِيرى ، ثنا إسماعيل بن أبان ، ثنا إسحاق بن إبراهيم الأزدى عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى قال : « أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلت: يا رسول الله! أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من ؟ فقال : مع علىّ بن أبى طالب ، معه يقتل عمار بن ياسر »

حديث أبي أيوب في ذلك : قال الحاكم : أنا أبو الحسن على بن حماد العدل ، ثنا إبراهيم بن الحسين بن ديزيل ، ثنا عبدالعزيز بن الخطاب ، ثنا محمد بن كثير عن الحرث بن حضيرة عن أبي صادق عن مخنف بن سليمان قال : أتينا أبا أيوب فقلنا : قاتلت بسيفك المشركين مع رسول الله ﷺ ، ثم جئت تقاتل المسلمين ؟ فقال : « أمرني رسول الله ﷺ : بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين » . قال الحاكم : وحدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن مالويه ، ثنا الحسن بن على بن شبيب المعمرى ثنا محمد بن حميد ، ثنا سلمة بن الفضل حدثني أبو زيد الأموى عن عتاب بن ثعلبة في خلافة عمر بن الخطاب قال : « أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين مع على بن أبي طالب . وقال الخطيب البغدادى : حدثنا الحسن بن على بن عبدالله المقرىء ، ثنا أحمد ابن محمد بن يوسف ثنا محمد بن جعفر المطيرى ، ثنا أحمد بن عبدالله المؤدب بسر من رأى ، ثنا المعلى بن عبدالرحمن ببغداد ، ثنا شريك عن سليمان بن مهران عن الأعمش عن علقمة والأسود قالا : أتينا أبا أيوب الأنصارى عند منصرفه من صفين فقلنا له : ياأبا أيوب إن الله أكرمك بنزول محمد ﷺ وبمجيء ناقته تفضلا من الله وإكراماً لك حين أناخت ببابك دون الناس ، ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله ؟ فقال : يا هذا إن الرائد لا يكذبُ أهله ، وإن رسول الله ﷺ أمرنا بقتال ثلاثة مع على ، بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين . فأما الناكثون فقد قاتلناهم وهم أهل الجمل ؛ طلحة والزبير ، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم ـ يعنى معاوية وعمراً وأما المارقون فهم أهل الطرَفات[1] وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهروانى ، والله ما أدرى أين هم ؟ ولكن لابد من قتالهم إن شاء الله قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية وأنت مذ ذاك مع الحق والحق معك ، ياعمار بن ياسر إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس غيره فاسلك مع على فإنه لن يدليك في ردى ولن يخرجك من هدى ، ياعمار من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من در ، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو على عليه قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار ، فقلنا : يا هذا ! حسبك رحمك الله » . هذا السياق الظاهر أنه موضوع وآفته من جهة المعلى بن عبدالرحمن فإنه متروك الحديث .

فصل

قال الهيثم بن عدى في كتابه الذى جمعه في الخوارج ـ وهو من أحسن ما صنف في ذلك ـ قال وذكر عيسى بن دأب قال : لما انصرف على رضي الله عنه من النهروان قام في الناس خطيباً فقال : بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ : أما بعد فإن الله قد أعز نصركم

(١) الطرفات ـ محركة ـ بنو عدى بن حاتم وهم : طريف ، وطرفة ، ومطرف ـ قتلوا بصفين .

فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام ، فقاموا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين ! نفذت نبالنا وكلّت سيوفنا ونصلت أسنتنا ، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عُدّتنا ، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عُدتنا عُدّة من فارقنا وهلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . وكان الذى تكلم بهذا الأشعث بن قيس الكندى ، فبايعهم وأقبل بالناس حتى نزل بالنخيلة ، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا أنفسهم على جهاد عدوهم ، ويقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم . فأقاموا معه أياما متمسكين برأيه وقوله ، ثم تسللوا حتى لم يبق منهم أحد إلا رءوس أصحابه ، فقام علىّ فيهم خطيباً فقال :

الحمد لله فاطر الخلق وفالق الإصباح وناشر الموتى وباعث من فى القبور ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأوصيكم بتقوى الله فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان والجهاد فى سبيله ، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها الملة ، وإيتاء الزكاة فإنها من فريضته ، وصوم شهر رمضان فإنه جنّة من عذابه ، وحج البيت فإنه منفاة للفقر مدحضة للذنب ، وصلة الرحم فإنها مثراة فى المال ، منسأة فى الأجل . محبة فى الأهل . وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة وتطفىء غضب الرب . وصنع المعروف ، فإنه يدفع ميتة السوء ويقى مصارع الهول ،أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقون فإن وعد الله أصدق الوعد واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فإنه أفضل الهدى،واستنوا بسنته فإنها أفضل السنن وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث وتفقهوا فى الدين فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما فى الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص وإذا قرىء عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فإن العالم العامل بغير علمه ، كالجاهل الجائر الذى لا يستقيم عن جهله ، بل قد رأيت أن الحجة أعظم ، والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه على هذا الجاهل المتحير فى جهله ، وكلاهما مضلل مثبور . لا ترتابوا فتشكوا ، ولا تشكوا فتكفروا ، ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهلوا ، ولا تذهلوا فى الحق فتخسروا : ألا وإن من الحزم أن تثقوا ، ومن الثقة أن لا تغتروا ، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه،وإن أغشكم لنفسه أعصاكم لربه. من يطع الله يأمن ويستبشر ومن يعص الله يخف ويندم ، ثم سلوا الله اليقين وارغبوا إليه فى العافية ، وخير ما دام فى القلب اليقين ، إن عوازم الأمور أفضلها ،وإن محدثاتها شرارها وكلّ مُحدَث بدعة وكل محدث مبتدع ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة ، المغبون من غبن دينه ، والمغبون من خسر نفسه ، وإن الرياء من الشرك ، وإن الإخلاص من العمل والإيمان ، ومجالس اللهو تنسى القرآن ويحضرها الشيطان ، وتدعو إلى كل غى ، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح

إليه الأبصار ، وهى مصائد الشيطان ، فاصدقوا الله فإن الله مع من صدق ، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للايمان ألا إن الصدق على شرف منجاة وكرامة ، وإن الكذب على شرف ردىء وهلكة . ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضل على من حرَمكم ، وإذا عاهدتم فأوفوا ، وإذا حكمتم فاعدلوا . ولا تفاخروا بالآباء ، ولا تنابزوا بالألقاب ، ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضاً ، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وافشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها (وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ)[1] . وأكرموا الضيف ، وأحسنوا إلى الجار ، وعودوا المرضى ، وشيعوا الجنائز ، وكونوا عباد الله إخوانا .

أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أظلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم وغدا السباق ، وإن السبقة الجنة والغاية النار . ألا وإنكم فى أيام مَهَل[2] من ورائها أجل يحثه عجل ، فمن أخلص لله عمله فى أيام مَهَله قبل حضور أجله فقد أحسن عمله ونال أمله ، ومن قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمله ، وضره أمله ، فاعملوا فى الرغبة والرهبة فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رَهبة ، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة ، فإن الله قد تأذن المسلمين بالحسنى ، ولمن شكر بالزيادة ، وإنى لم أر مثل الجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ، ولا أكثر مكتسباً من شىء كسبه ليوم تدخر فيه الذخائر ، وتبلى فيه السرائر ، وتجتمع فيه الكبائر ، وإنه من لاينفعه الحق يضره الباطل . ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال ، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ومن لاينفعه حاضره فعازبه عنه أعوز ، وغائبه عنه أعجز . وإنكم قد أمرتم بالظعن ودُللتم على الزاد . ألا وإنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل ، وَاتباع الهوى ؛ فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وَأما اتباع الهوى فيبعد عن الحق ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وَإن الاخرة قد ترحلت مقبلة ، ولها بنون فكونوا من أبناء الآخرة إن استطعتم ، وَلا تكونوا من بنى الدنيا ، فإن اليوم عمل وَلا حساب ، وغدا حساب وَلا عمل وَهذه خطبة بليغة نافعة جامعة للخير ناهية عن الشر . وقد روى لها شواهد من وجوه أخر متصلة ، ولله الحمد والمنة . وقد ذكر ابن جرير : أن عليًا ـ رضى الله عنه ـ لما نكل أهل العراق عن الذهاب

---

(١) الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) المهل ـ محركة ـ التقدم فى الخير .

إلى الشام، خطبهم فوبخهم وأنبهم وتوعدهم وهددهم ، وتلا عليهم آيات فى الجهاد من سور متفرقة، وحث على المسير إلى عدوهم، فأبوا من ذلك وخالفوه ولم يوافقوه ، واستمروا فى بلادهم ، وتفرقوا عنه هاهنا وهاهنا ، فدخل علىّ الكوفة

فصل

وقد ذكر الهيثم بن عدى ، أنه خرج على علىّ بعد النهروان رجل يقال له : الحارث بن راشد الناجى ، قدم مع أهل البصرة ، فقال لعلى : إنك قد قاتلت أهل النهروان فى كونهم أنكروا عليك قصة التحكيم . وتزعم أنك قد أعطيت أهل الشام عهودك ومواثيقك ، وأنك لست بناقضها ، وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعك ، ثم اختلفا فى ولاية معاوية فولاه عمرو وامتنع أبو موسى من ذلك ، فأنت مخلوع باتفاقهما ، وأنا قد خلعتك وخلعت معاوية معك . وتبع الحارث هذا بشر كثير من قومه ـ بنى ناجية وغيرهم ـ وتحيزوا ناحية ، فبعث إليهم علىّ معقل بن قيس الرياحى فى جيش كثيف فقتلهم معقل قتلا ذريعاً ، وسبى من بنى ناجية خمسمائة أهل بيت ، فقدم بهم ليقدم بهم على علىّ ، فتلقاه رجل يقال له : مَصْقَلة بن هبيرة أبو المغلس ـ وكان عاملا لعلىّ على بعض الأقاليم ـ فتضرروا إليه وشكوا ماهم فيه من السبى ، فاشتراهم مَصْقَلة من معقل بخمسمائة ألف درهم وأعتقهم فطالبه بالثمن فهرب منه إلى ابن عباس بالبصرة ، فكتب معقل إلى ابن عباس ، فقال له مصقلة : إنى إنما جئت لأدفع ثمنهم إليك ، ثم هرب منه إلى علىّ ، فكتب ابن عباس ومعقل إلى علىّ فطالبه علىّ ، فدفع من الثمن مائتى ألف ثم انشمر هارباً فلحق بمعاوية بن أبى سفيان بالشام ، فأمضى على عتقهم وقال : مابقى من المال فى ذمة مَصقلة ؟ وأمر بداره فى الكوفة فهدمت .

وقد روى الهيثم عن سفيان الثورى وإسرائيل عن عمار الذهبى عن أبى الطفيل أن بنى ناجية ارتدوا فبعث إليهم معقل بن قيس فسباهم ، فاشتراهم مصقلة من على بثلثمائة ألف فأعتقهم ثم هرب إلى معاوية . قال الهيثم : وهذا قول الشيعة ولم يسمع بحىّ من العرب ارتدوا بعد الردة التى كانت فى أيام الصديق . وقال الهيثم : حدثنى عبدالله[1] بن تميم بن طرفة الطائى ، حدثنى أبى أن عدى بن حاتم قال مرة لعلى بن أبى طالب وهو يخطب : قتلت أهل النهروان على إنكار الحكومة ، وقتلت الحريث بن راشد على مسألتهم إياك أيضاً الحكومة ، والله ما بينهما موضع قدم . فقال له على : اسكت إنمـا كنت أعرابياً تأكل الضبع بجبل طىء بالأمس فقال له عدى : وأنت والله قد رأيناك بالأمس تأكل البلح بالمدينة . قال الهيثم : ثم خرج على علىّ رجل من أهل البصرة فقتل ، فأمّر أصحابه عليهم الأشرس بن عوف الشيبانى ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى نسخة : عبيدة بن تميم .

فقتل هو وأصحابه ، قال : ثم خرج على علىّ الأشهب بن بِشر البَجَلى ثم أحد عُرَينة من أهل الكوفة فقتل هو وأصحابه . قال : ثم خرج على علىّ سعيد بن نفد التيمى ثم من بنى ثعلبة من أهل الكوفة فقتل بقنطرة دربجان فوق المدائن . قال الهيثم : أخبرنى بذلك عبد الله بن عياش عن مشيخته .

فصـــل

ذكر ابن جرير عن أبى مخنف - لوط بن يحيى ، وهو أحد أئمة هذا الشأن - أن قتال علىّ للخوارج يوم النهروان ، كان فى هذه السنة - أعنى سنة سبع وثلاثين - قال ابن جرير : وأكثر أهل السير على أن ذلك كان فى سنة ثمان وثلاثين وصححه ابن جرير ، قلت : وهو الأشبه كما سننبه عليه فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى . قال ابن جرير : وحج بالناس فى هذه السنة - يعنى سنة سبع وثلاثين - عبيد الله بن عباس نائب علىّ على اليمن ومخاليفها . وكان نائب مكة قُثَم بن العباس . وعلى المدينة تمام بن عباس ، وقيل سهل بن حنيف . وعلى البصرة عبد الله بن عباس . وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلى . وعلى مصر محمد بن أبى بكر . وعلى بن أبى طالب أمير المؤمنين مقيم بالكوفة ، ومعاوية بن أبى سفيان مستحوذ على الشام . قلت : ومن نيته أن يأخذ مصر من محمد بن أبى بكر .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

خَبّاب بن الأرت : بن جندلة بن سعد بن خزيمة ، كان قد أصابه سبى فى الجاهلية فاشترته أنمار الخزاعية التى كانت تختن النساء ، وهى أم سباع بن عبد العزّى الذى قتله حمزة يوم أحد وحالف بنى زهرة . أسلم خباب قديماً قبل دار الأرقم ، وكان ممن يؤذى فى الله فيصبر ويحتسب ، وهاجر وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد . قال الشعبى : دخل يوماً على عمر فأكرم مجلسه وقال : ما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا بلال . فقال : يا أمير المؤمنين إن بلالا كان يُؤذَى وكان له من يمنعه وإنى كنت لا ناصر لى ، والله لقد سلقونى يوماً فى نار أجّجوها ووضع رَجُلٌ رِجله على صدرى فما اتقيت الأرض إلا بظهرى ، ثم كشف عن ظهره فإذا هو برص - رضى الله عنه . ولما مرض دخل عليه أناس من الصحابة يعودونه فقالوا : أبشر غداً تلقى الأحبة محمداً وحزبه ، فقال : والله إن إخوانى مضوا ولم يأكلوا من دنياهم شيئاً ، وإنا قد أينعت لنا ثمرتها فنحن نهديها ، فهذا الذى يهمنى . قال : وتوفى بالكوفة فى هذه السنة عن ثلاث وستين سنة وهو أول من دفن بظاهر الكوفة .

خزيمة بن ثابت : ابن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الأنصارى ذو الشهادتين ، وكانت راية بنى خطمة معه يوم الفتح ، وشهد صفين مع على ، وقتل يومئذ - رضى الله عنه .

سفينة مولى رسول الله ﷺ :قد قدمنا ترجمته فى الموالى المنسوبين إليه صلوات الله وسلامه عليه

عبد الله بن الأرقم بن أبى الأرقم : أسلم عام الفتح ، وكتب بين يدى رسول الله ﷺ . وقد تقدم مع كتاب الوحى .

عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعى : قتل يوم صفين وكان أمير الميمنة لعلى نصارت إمرتها للأشتر النخعى

عبد الله بن خباب بن الأرت ولد فى حياة النبى ﷺ وكان موصوفاً بالخير ،قتله الخوارج كما قدمنا بالنهروان فى هذه السنة ، فلما جاء علىّ قال لهم : أعطونا قتلته ثم أنتم آمنون فقالوا : كلنا قتله فقاتلهم .

عبد الله بن سعد بن أبى سرح : أحد كتاب الوحى أيضا ، أسلم قديما وكتب الوحى ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام عام الفتح ، واستأمن له عثمان ـ وكان أخاه لأمه ـ وحسن إسلامه ، وقد ولاه عثمان نيابة مصر بعد موت عمرو بن العاص ، فغزا إفريقية وبلاد النوبة ، وفتح الأندلس وغزا ذات الصوارى مع الروم فى البحر ، فقتل منهم ما صبغ وجه الماء من الدماء ، ثم لما حُصر عثمان تغلب عليه محمد بن أبى حذيفة ، وأخرجه من مصر فمات فى هذه السنة ، وهو معتزل عليا ومعاوية ، فى صلاة الفجر بين التسليمتين ـ رضى الله عنه .

عمار بن ياسر أبو اليقظان العبسى : من عبس اليمن ، وهو حليف بنى مخزوم ، أسلم قديما وكان ممن يعذب فى الله هو وأبوه وأمه سُمَية ، ويقال إنه أول من اتخذ مسجداً فى بيته يتعبد فيه وقد شهد بدراً وما بعدها ، وقد قدمنا كيفية مقتله يوم صفين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [له] : « تقتلك الفئة الباغية » . وروى الترمذى من حديث الحسن عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : علىّ ـ وعمار ـ وسلمان » . وفى الحديث الآخر الذى رواه الثورى وقيس بن الربيع وشريك القاضى وغيرهم ، عن أبى إسحاق عن هانىء بن هانىء ، عن علىّ أن عماراً استأذن على رسول الله ﷺ فقال : « مرحبا بالطيب المطيب » . وقال إبراهيم بن الحسين : حدثنا يحيى ، حدثنى نصر ، ثنا سفيان الثورى عن أبى الأعمش عن أبى عمار عن عمرو بن شرحبيل عن رجل من أصحاب رسول الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « لقد ملىء عمار إيمانا من قدمه إلى مُشَاشه »[1] وحدثنا يحيى بن معلى عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت : « ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلا عمار بن ياسر ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن عمار بن ياسر حشى ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنه إيمانا » وحدثنا يحيى ثنا عمرو بن عون، أنا هشيم عن العوام

(١) المشاش : جمع مشاشة وهى رأس العظم اللين الممكن مضغه، والمشاشة أيضا : ما أشرف من عظم المنكب

ابن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة قال : أتيت أهل الشام فلقيت خالد بن الوليد ، فحدثنى قال : كان بينى وبين عمار بن ياسر كلام فى شىء ، فشكانى إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا خالد ! لا تُؤذ عماراً فإنه من يبغض عماراً يبغضه الله ، ومن يعاد عماراً يعاده الله » ، قال : فعرضت له بعد ذلك فسللت ما فى نفسه . وله أحاديث كثيرة فى فضائله رضى الله عنه . قتل بصفين عن إحدى ـ وقيل ثلاث ـ وقيل أربع وتسعين سنة ، طعنه أبو الغادية فسقط ، ثم أكب عليه رجل فاحتز رأسه ، ثم اختصما إلى معاوية أيهما قتله ، فقال لهما عمرو بن العاص : اندرا فوالله إنكما لتختصمان فى النار ، فسمعها منه معاوية فلامه على تسميعه إياهما ذلك ، فقال له عمرو : والله إنك لتعلم ذلك ، ولوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . قال الواقدى : حدثنى الحسن بن الحسين بن عمارة عن أبى إسحاق عن عاصم ، أن علياً صلى عليه ولم يغسله ، وصلى معه هاشم بن عتبة ، فكان عمار مما يلى عليا ، وهاشم إلى نحو القبلة . قالوا ، وقبره هنالك ، وكان آدم اللون ، طويلا بعيداً ما بين المنكبين : أشهل[1] العينين ، رجلا لا يغير شيبه رضى الله عنه .

الربيع بنت معوذ بن عفراء : أسلمت قديماً ، وكانت تخرج مع رسول الله ﷺ إلى الغزوات فتداوى الجرحى ، وتسقى الماء للكلمى ، وروت أحاديث كثيرة .

وقد قتل فى هذه السنة ـ فى أيام صفين ـ خلق كثير وجم غفير ، فقيل : قتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً . وقيل: قتل من أهل العراق أربعون ألفاً ـ من مائة وعشرين ألفاً ، وقتل من أهل الشام عشرون ألفاً ـ من ستين ألفاً : وبالجملة فقد كان فيهم أعيان ومشاهير يطول استقصاؤهم ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله تعالى أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها : بعث معاوية عمرو بن العاص إلى ديار مصر ، فأخذها من محمد بن أبى بكر ، واستناب معاوية عمراً عليها ، وذلك كما سنبينه . وقد كان علىّ ـ رضى الله عنه ـ استناب عليها قيس بن سعد ابن عبادة وانتزعها من يد محمد بن أبى حذيفة ، حين كان استحوذ عليها ، ومنع عبد الله بن سعد ابن أبى سرح من التصرف فيها ، حين حصر عثمان ـ وقد كان عثمان استخلفه عليها وعزل عنها عمرو بن العاص ـ وكان عمرو هو الذى افتتحها كما قدمنا ذكر ذلك . ثم إن عليا عزل قيس بن سعد عنها ، وولى عليها محمد بن أبى بكر ، وقد ندم علىّ على عزل قيس بن سعد عنها ، وذلك أنه كان كفوا لمعاوية وعمرو . ولما ولى محمد بن أبى بكر لم يكن فيه قوة تعادل معاوية وعمراً ، وحين

---

(١) الشهل : أقل من الزرق فى الحدقة وأحسن منه ، أو أن تشرب الحدقة حمرة ويقل سوادها

عزل قيس بن سعد عنها رجع إلى المدينة ، ثم سار إلى علىّ بالعراق فكان معه ، وكان معاوية يقول : والله لقيس بن سعد عند علىّ ـ أبغض إلىّ من مائة ألف مقاتل بدله عنده ، فشهد معه صفّين ، فلما فرغ علىّ من صفين ، وبلغه أن أهل مصر قد استخفّوا بمحمد بن أبى بكر لكونه شابا ابن ست وعشرين سنة أو نحو ذلك ـ عزم على ردّ مصر إلى قيس بن سعد ـ وكان قد جعله على شرطته ، أو إلى الأشتر النخعى ـ وقد كان نائبه على الموصل ونصيبين .

فكتب إليه بعد صفّين فاستقدمه عليه ثم ولاه مصر . فلما بلغ معاوية تولية علىّ الأشتر النخعى ديار مصر بدل محمد بن أبى بكر ـ عظم ذلك عليه ، وذلك أنه كان قد طمع فى مصر واستنزاعها من يد محمد بن أبى بكر ، وعلم أن الأشتر سيمنعها منه لحزمه وشجاعته ، فلما سار الأشتر إليها وانتهى إلى القلزم ، استقبله « الخانسار » وهو مقدم على الخراج ، فقدم إليه طعاماً وسقاه شرابا من عسل فمات منه ، فلما بلغ ذلك معاوية وعمراً وأهل الشام قالوا : إن لله جنوداً من عسل .

وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه ، أن معاوية كان قد تقدم إلى هذا الرجل فى أن يحتال على الأشتر ليقتله ، ووعده على ذلك بأمور ففعل ذلك ، وفى هذا نظر . وبتقدير صحته فمعاوية يستجيز قتل الأشتر ، لأنه من قتلة عثمان رضى الله عنه . والمقصود أن معاوية وأهل الشام فرحوا فرحاً شديداً بموت الأشتر النخعى . ولما بلغ ذلك علياً تأسف على شجاعته وغنائه ، وكتب إلى محمد ابن أبى بكر باستقراره واستمراره بديار مصر ، غير أنه ضعف جأشه مع ما كان فيه من الخلاف عليه من العثمانية الذين ببلد خربتا ، وقد كان أمرهم استفحل حين انصرف علىّ من صفين ، وحين كان من أمر التحكيم ما كان ، وحين نكل أهل العراق عن قتال أهل الشام ، وقد كان أهل الشام حين انقضت الحكومة بدومة الجندل ـ سلّموا على معاوية بالخلافة وقوى أمرهم جداً ، فعند ذلك جمع معاوية أمراءه : عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن السمط ، وعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، والضحاك بن قيس ، وبُسر بن أبى أرطاة ، وأبا الأعور السلمى ، وحمزة بن سنان الهمدانى وغيرهم ، فاستشارهم فى المسير إلى ديار مصر فاستجابوا له وقالوا : سر حيث شئت فنحن معك . وعيّن معاوية نيابتها لعمرو بن العاص إذا فتحها ، ففرح بذلك عمرو بن العاص .

ثم قال عمرو لمعاوية : أرى أن تبعث إليهم رجالا مع رجل مأمون عارف بالحرب ، فإن بها جماعة ممن توالى عثمان فيساعدونه على حرب من خالفهم ، فقال معاوية : لكن أرى أن أبعث إلى شيعتنا ممن هنالك كتابا يعلمهم بقدومهم عليهم ، وتبعث إلى مخالفينا كتابا ندعوهم فيه إلى الصلح . وقال معاوية : إنك يا عمر رجل بُورك لك فى العجلة ، وإنى امرؤ بُورك لى فى التُّؤَدة ، فقال عمرو : افعل ما أراك الله ، فوالله ما أمرك وأمرهم إلا سيصير إلى الحرب العوان . فكتب عند ذلك معاوية إلى مسلمة بن مخلّد الأنصارى ، وإلى معاوية بن حُديج السَّكُونى ـ وهما رئيسا العثمانية ببلاد مصر

ممن لم يبايع عليا ، ولم يأتمر بأمر نوابه بمصر فى نحو من عشرة آلاف - يخبرهم بقدوم الجيش عليهم سريعاً ، وبعث به مع مَولى له يقال له : سُبَيع ، فلما وصل الكتاب إلى مسلمة ومعاوية بن خديج فرحا به ، وَردا جوابه بالاستبشار والمعاونة والمناصرة له ، ولمن يبعثه من الجيوش والجند والمدد إن شاء الله تعالى . فعند ذلك جهز معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف ، وخرج معاوية مودعاً ، وأوصاه بتقوى الله والرفق والمهل والتؤدة ، وأن يقتل من قاتل ويعفو عمن أدبر ، وأن يدعو الناس إلى الصلح والجماعة ، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك .

فسار عمرو بن العاص إلى مصر ، فلما قدمها اجتمعت عليه العثمانية فقادهم ، وكتب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبى بكر : أما بعدا فتنح فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ، فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك لو قد التقت حَلقتا البطان[1] ، فاخرج منها فإنى لك لمن الناصحين ، والسلام .

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه : أما بعد فإن غب البغى والظلم عظيم الوَبال ، وَإنّ سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا والتبعة الموبقة فى الآخرة ، وإنا لا نعلم أحداً كان أشدّ خلافًا على عثمان منك حين يطعن بمشاقصك[2] بين خُشَشائه[3] وأوداجه ، ثم إنك تظن أنى عنك نائم أو ناس ذلك لك ، حتى تأتى فتأمّر على بلاد أنت بها جارى ، وجُل أهلها أنصارى . وقد بعثت إليك بجيوش يتقربون إلى الله بجهادك وان يسلمك الله من القصاص أبدا كنت والسلام . قال : فطوى محمد بن أبى بكر الكتابين وبعث بهما إلى علىّ وأعلمه بقدوم عمرو إلى مصر فى جيش من قبل معاوية ، فإن كانت لك بأرض مصر حاجة فابعث إلى بأموال ورجال والسلام . فكتب إليه يأمره بالصبر وبمجاهدة العدو ، وأنه سيبعث إليه الرجال والأموال ، وعده بما أمكنه من الجيوش .

وكتب محمد بن أبى بكر كتابا إلى معاوية فى جواب ما قال وفيه غلظة ، وكذلك كتب إلى عمرو بن العاص وفيه كلام غليظ ، وقام محمد بن أبى بكر فى الناس فخطبهم وحثهم على الجهاد ومناجزة من قصدهم من أهل الشام ، وتقدم عمرو بن العاص إلى مصر فى جيوشه ، ومَن لحق به من العثمانية المصريين ، والجميع فى قريب من ستة عشر ألفًا ، وركب محمد بن أبى بكر فى ألفى فارس الذين انتدبوا معه من المصريين ، وقدّم على جيشه بين يديه كنانة بن بشر ، فجعل لا يلقاه أحد

(١) يقال : التقت حلقتا البطان - للأمر إذا اشتد . والبطان والقتب : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير .

(٢) المشقص : نصل عريض .

(٣) الخششاء : العظم الناتىء خلف الأذن ، والأوداج : عروق العنق .

من الشاميين إلا قاتلهم ، حتى يلحقهم مغلوبين إلى عمرو بن العاص . فبعث عمرو بن العاص إليه معاوية بن حُدَيج ، فجاءه من ورائه وأقبل إليه الشاميون حتى أحاطوا به من كل جانب ، فترجل عند ذلك كنانة وهو يتلو: (وما كانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلاّ بإذن الله كتاباً مُؤَجَّلا)[1] الآية ، ثم قاتل حتى قتل ، وتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه ، ورجع يمشي فرأى خَرِبة فآوى إليها ، ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر ، وذهب معاوية بن حُدَيج في طلب محمد ابن أبي بكر ، فمر بعلوج في الطريق فقال لهم : هل مر بكم أحد تستنكرونه ؟ قالوا : لا ! فقال رجل منهم : إني رأيت رجلا جالساً في هذه الخربة ، فقال : هُوَ هُوَ ورب الكعبة ، فدخلوا عليه فاستخرجوه منها ـ وقد كاد يموت عطشا ، فانطلق أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص ـ وكان قد قدم معه إلى مصر ـ فقال : أيقتل أخي صبراً ؟ فبعث عمرو بن العاص إلى معاوية بن حُدَيج أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر ولا يقتله ، فقال معاوية : كلا والله ، أيقتلون كنانة ابن بشر وأترك محمد بن أبي بكر ؟ وقد كان ممن قتل عثمان وقد سألهم عثمان الماء . وقد سألهم محمد ابن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء فقال معاوية : لاسقاني الله إن سقيتك قطرة من الماء أبداً ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فتلقاه الله بالرحيق المختوم .

وقد ذكر ابن جرير وغيره ، أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن حُدَيج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً ، فعند ذلك غضب معاوية بن حُديج فقدمه فقتله ، ثم جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار ، فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعا شديداً وضمت عياله إليها ، وكان فيهم ابنه القاسم ، وجعلت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص دُبرَ الصلوات .

وذكر الواقدي: أن عمرو بن العاص قدم مصر في أربعة آلاف ، فيهم أبو الأعور السلمي ، فالتقوا مع المصريين بالمُسنّاة ، فاقتتلوا قتالا شديداً حتى قتل كنانة بن بشر بن عتاب التُّجيبي ، فهرب عند ذلك محمد بن أبي بكر فاختبأ عند رجل يقال له جَبلة بن مسروق ، فَدُلّ عليه ، فجاء معاوية بن حُدَيج وأصحابه فأحاطوا به ، فخرج إليهم محمد بن أبي بكر فقاتل حتى قتل . قال الواقدي : وكان ذلك في صفر من هذه السنة . قال الواقدي : ولما قتل محمد بن أبي بكر بعث علي الأشتر النخعي إلى مصر فمات في الطريق فالله أعلم . قال : وكانت أَذْرُح[2] في شعبان في هذه السنة أيضاً ، وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر ، وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر ، ورجعوا إلى السمع والطاعة واجتماع الجماعة ، وبما عهد لهم من الأمر . وقد زعم هشام بن

---

(١) الآية : ١٤٥ من سورة آل عمران (٢) اسم بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء

محمد الكلبي ، أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة مسك بعد مقتل محمد بن أبي بكر — وكان من جملة المحرضين على قتل عثمان — فبعثه عمرو بن العاص إلى معاوية ، ولم يبادر إلى قتله لأنه ابن خال معاوية ، فحبسه معاوية بفلسطين فهرب من السجن ، فلحقه رجل يقال له عبدالله بن عمرو بن ظلام بأرض البلقاء ، فاختفى محمد بغار ، فجاءت حمر وحش لتأوى إليه ، فلما رأته فيه نفرت فتعجب من نفرها جماعة من الحصادين هنالك ، فذهبوا إلى الغار فوجدوه فيه ، فجاء أولئك إليه فخشى عبدالله بن عمرو بن ظلام أن يرده إلى معاوية فيعفو عنه ، ، فضرب عنقه ، هكذا ذكر ذلك ابن الكلبي . وقد ذكر الواقدى وغيره أن محمد بن أبى حذيفة قتل فى سنة ست وثلاثين كما قدمنا ، فالله أعلم .

وقال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل فى كتابه : ثنا عبدالله بن صالح ، حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب ، أن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر ؛ لأنه استقر عنده أنه كان يظهر الروم على عورات المسلمين — يكتب إليهم بذلك — فاستخرج منه بضعاً وخمسين إردبا دنانير ، قال أبو صالح : والإردب : ست وَيبات ، والوَيبة مثل القفيز واعتبرنا الويبة فوجدناها تسعا[1] وثلاثين ألف دينار ، قلت : فعلى هذا يكون مبلغ ما كان أخذ من القبطى ما يقارب ثلاثة عشر ألف ألف دينار . قال أبو مخنف بإسناده : ولما بلغ على بن أبى طالب مقتل محمد بن أبى بكر وما كان بمصر من الأمر ، وتملك عمرو لها ، واجتماع الناس عليه وعلى معاوية — قام فى الناس خطيباً فحثهم على الجهاد والصبر والمسير إلى أعدائهم من الشاميين والمصريين ، وَوَاعدهم الجرَعة بين الكوفة والحيرة ، فلما كان الغد خرج يمشى إليها حتى نزلها فلم يخرج إليه أحد من الجيش . فلما كانَ العشى بعث إلى أشراف الناس فدخلوا عليه وهو حزين كئيب ، فقام فيهم خطيباً فقال : الحمد لله على ماقضى من أمر ، وقَدّر من فعل ، وابتلانى بكم ، وبمن لايطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ، أو ليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه فى السنة مرتين والثلاث إلى أى وجه شاء ؟ وأنا أدعوكم وأنتم أولوا النهى وبقية الناس على المعونة وطائفة من العطاء ، فتفرقون عنى وتعصوننى وتختلفون علىّ ؟ فقام إليه مالك بن كعب الأوسى ، فندب الناس إلى امتثال أمر على وَالسمع والطاعة له .

فانتدب ألفان فأمّر عليهم مالك بن كعب هذا فسار بهم خمساً ، ثم قدم على علىّ جماعة ممن كان مع محمد بن أبى بكر بمصر ، فأخبروه كيف وقع الأمر ، وكيف قتل محمد بن أبى بكر وكيف استقر أمر عمرو بها ، فبعث إلى مالك بن كعب فرده من الطريق ، وذلك أنه خشى عليهم من أهل الشام قبل وصولهم إلى مصر واستقر أمر العراقيين على مخالفة علىّ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه

---

(١) فى نسخة : سبعا .

والخروج عليه وَالبعد عن أحكامه وأقواله وأفعاله ، لجهلهم وقلة عقلهم وجفائهم وغلظتهم وفجور كثير منهم . فكتب عليّ عند ذلك إلى ابن عباس ـ وهو نائبه على البصرة ـ يشكو إليه مايلقاه من الناس من المخالفة والمعاندة ، فرد عليه ابن عباس يسليه فى ذلك ، ويعزيه فى محمد بن أبى بكر ويحثه على تلافى الناس والصبر على مُسيئهم ، فإن ثواب الله خير من الدنيا .

ثم ركب ابن عباس من البصرة إلى علىّ وهو بالكوفة ، واستخلف ابن عباس على البصرة زياداً . وفى هذا الحين بعث معاوية بن أبى سفيان كتابا مع عبدالله بن عمرو الحضرمى إلى أهل البصرة يدعوهم إلى الإقرار بما حكم له عمرو بن العاص ، فلما قدمها نزل على بنى تميم فأجاروه ، فنهض إليه زياد وبعث إليه أعين بن ضبيعة فى جماعة من الناس ، فساروا إليهم فاقتتلوا فقتل أعين ابن ضبيعة . فكتب زياد إلى علىّ يعلمه بما وقع بالبصرة بعد خروج ابن عباس منها ، فبعث عند ذلك علىٌّ جارية بن قدامة التميمى فى خمسين رجلا إلى قومه بنى تميم ، وكتب معه كتابا إليهم فرجع أكثرهم عن ابن الحضرمى ، وقصده جارية فحصره فى دار هو وجماعة معه ، قيل : كان عددهم أربعين ، وقيل سبعين، فحرقهم بالنار بعد أن أعذر إليهم وأنذرهم فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما جاؤا له.

فصل

وقد صحح ابن جرير أن قتال على لأهل النهروان كان فى هذه السنة ، وكذلك خروج الخريت ابن راشد الناجى كان فى هذه السنة أيضاً ، وكان مع الخريت ثلثمائة رجل من قومه بنى ناجية ـ وكان مع على بالكوفة ـ فجاء إلى على فقام بين يديه وقال : والله يا على لا أطيع أمرك ولا أصلى خلفك ، وإنى لك غدا لمفارق . فقال له على : ثكلتك أمك إذاً ، تعصى ربك وتنقض عهدك ولا تضرُّ إلا نفسك ، ولم تفعل ذلك ؟ قال : لأنك حكمت فى الكتاب وضعفت عن قيام الحق إذ جَدَّ الجد ، وركنت إلى القوم الظالمين ، فأنا عليك زارى وعليك ناقم ، وإنا لكم جميعاً مباينون . ثم رجع إلى أصحابه فسار بهم نحو بلاد البصرة فبعث إليهم معقل بن قيس ، ثم أردفه بخالد بن معدان الطائى ـ وكان من أهل الصلاح والدين والبأس والنجدة ـ وأمره أن يسمع له ويطيع ، فلما اجتمعوا صاروا جيشاً واحداً ، ثم خرجوا فى آثار الخريت وأصحابه فلحقوهم ـ وقد أخذوا فى جبال رامهرمز ـ قال : فصففنا لهم ثم أقبلنا إليهم ، فجعل معقل على ميمنته يزيد بن معقل ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبى ، ووقف الخريت فيمن معه من العرب فكانوا ميمنة ، وجعل من اتبعه من الأكراد والعلوج ميسرة ، قال: وسارفينا مَعقل بن قيس فقال : عباد الله لاتبدءوا القوم وغضوا أبصاركم ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب ، وأبشروا فى قتالكم بالأجر ، إنما تقاتلون مارقة مرقت من الدين ، وعلوجاً كسروا الخراج ، ولصوصاً وأكراداً ، فإذا حملت فشدوا شدة رجل واحد .

ثم تقدم فحرك دابته تحريكتين، ثم حمل عليهم فى الثالثة وحملنا معه جميعا ، فوالله ماصبروا لنا ساعة واحدة حتى ولوا منهزمين ، وقتلنا من العلوج والأكراد نحواً من ثلثمائة ، وفر الخرّيت منهزما حتى لحق بإسياف - وبها جماعة من قومه كثيرة - فاتبعوه فقتلوه مع جماعة من أصحابه بسيف البحر ؛ قتله النعمان بن صُهْبان ، وقتل معه فى المعركة مائة وسبعون رجلا . ثم ذكر ابن جرير وقعات كثيرة كانت بين أصحاب علىّ والخوارج فيها أيضاً ، ثم قال : حدثنى عمر بن شبة ، ثنا أبو الحسن - يعنى المدائنى - على بن محمد بن على بن مجاهد قال : قال الشعبى : لما قتل علىّ أهل النهر خالفه قوم كثير ، وانتقضت أطرافه وخالفه بنو ناجية ، وقدم ابن الحَضرمى إلى البصرة ، وانتقض أهل الجبال ، وطمع أهل الخراج فى كسره ، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس - وكان عاملا عليها - فأشار عليه ابن عباس بزياد بن أبيه أن يوليه إياها ، فولاه إياها ، فسار إليها فى السنة الآتية فى جمع كثير ، فوطئهم حتى أدّوا الخراج .

قال ابن جرير وغيره : وحج بالناس فى هذه السنة - قُثم بن العباس - نائب علىّ على مكة ، وأخوه عبيد الله ابن عباس نائب اليمن ، وأخوهما عبد الله نائب البصرة ، وأخوهم تمام بن عباس نائب المدينة . وعلى خراسان خالد بن قُرّة اليربوعى ، وقيل ابن أبزَى . وأما مصر فقد استقرت بيد معاوية ، فاستناب عليها عمر بن العاص.

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

سهل بن حنيف - بن واهب بن العليم بن ثعلبة الأنصارى الأوسى ، شهد بدراً ، وثبت يوم أحد ، وحضر بقية المشاهد ، وكان صاحباً لعلىّ بن أبى طالب ، وقد شهد معه مشاهده كلها أيضاً ، غير الجمل فإنه كان قد استخلفه على المدينة ، ومات سهل بن حنيف فى سنة ثمان وثلاثين بالكوفة ، وصلى عليه علىّ ، فكبر خمساً وقيل ستا ، وقال : إنه من أهل بدر - رضى الله عنه .

صفوان بن بيضاء - أخو سهيل بن بيضاء ، شهد المشاهد كلها ، وتوفى فى هذه السنة فى رمضانها وليس له عقب .

صهيب بن سنان - بن مالك الرومى ، وأصله من اليمن ، أبو يحيى بن قاسط ، وكان أبوه أو عمه عاملا لكسرى على الأُبلّة ، وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل ، وقيل على الفرات ، فأغارت على بلادهم الروم فأسرته وهو صغير ، فأقام عندهم حينا ، ثم اشترته بنو كلب فحملوه إلى مكة ، فابتاعه عبد الله بن جدعان فأعتقه وأقام بمكة حينا ، فلما بعث رسول الله ﷺ آمن به .

وكان ممن أسلم قديماً هو وعمار فى يوم واحد بعد بضعة وثلاثين رجلا ، وكان من المستضعفين الذين يُعَذَّبون فى الله عز وجل . ولما هاجر رسول الله ﷺ هاجر صُهيب بعده بأيام ، فلحقه قوم من المشركين يريدون أن يصدوه عن الهجرة ، فلما أحس بهم نثل كنانته فوضعها بين يديه وقال : والله لقد علمتم أنى من أرماكم ، ووالله لا تصلون إلىّ حتى أقتل بكل سهم من هذه رجلا منكم ، ثم أقاتلكم بسيفى حتى أقتل . وإن كنتم تريدون المال فأنا أدلكم على مالى ، هو مدفون فى مكان كذا وكذا ، فانصرفوا عنه فأخذوا ماله . فلما قدم قال له رسول الله ﷺ : « ربح البيع أبا يحيى » وأنزل الله (ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَه ابْتِغاء مَرْضاتِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بالعباد)[1] ورواه حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن سعيد بن المسيب ، وشهد بدراً وأحداً وما بعدها . ولما جعل عمر الأمر شورى كان هو الذى يصلّى بالناس حتى تعين عثمان ، وهو الذى ولِى الصلاة على عُمر — وكان له صاحباً ، وكان أحمر شديد الحمرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، أقرن الحاجبين كثير الشعر ، وكان لسانه فيه عجمة شديدة ، وكان مع فضله ودينه فيه دُعابة وفكاهة وانشراح ، روى أن رسول الله ﷺ رآه يأكل بقثاء رطباً وهو أرمد إحدى العينين ، فقال : « أتأكل رطبا وأنت أرمد » ؟ فقال : إنما آكل من ناحية عينى الصحيحة ، فضحك رسول الله ﷺ . وكانت وفاته بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ؛ وقيل سنة تسع وثلاثين ، وقد نيف على السبعين .

محمد بن أبى بكر الصديق — ولد فى حياة النبى ﷺ فى حجة الوداع تحت الشجرة عند الحرم ، وأمه أسماء بنت عُمَيْس ، ولما احتضر الصديق أوصى أن تغسله فغسلته ، ثم لما انقضت عِدّتها تزوجها علىّ فنشأ فى حجره ، فلما صارت إليه الخلافة استنابه على بلاد مصر ، بعد قيس بن سعد ابن عبادة كما قدمنا . فلما كانت هذه السنة بعث معاوية عمرو بن العاص فاستلب منه بلاد مصر ، وقتل محمد بن أبى بكر كما تقدم ، وله من العمر دون الثلاثين ، رحمه الله ورضى عنه .

أسماء بنت عميس — بن معبد بن الحارث الخثعمية ، أسلمت بمكة وهاجرت مع زوجها جعفر ابن أبى طالب إلى الحبشة وقدمت معه إلى خيبر ، ولها منه عبد الله ، ومحمد ، وعون . ولما قتل جعفر بمؤتة تزوجها بعده أبو بكر الصديق ، فولدت منه محمد بن أبى بكر أمير مصر ، ثم لما مات الصديق تزوجها بعده على بن أبى طالب فولدت له يحيى وعونا . وهى أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين لأمها . وكذلك هى أخت أم الفضل امرأة العباس لأمها ، وكان لها من الأخوات لأمها تسع أخوات ، وهى أخت سلمى بنت عميس امرأة العباس ، التى له منها بنت اسمها : عمارة .

---

(١) الآية : ٢٠٧ من سورة البقرة

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين

فيها جَهَّزَ معاوية بن أبي سفيان جيوشاً كثيرة، ففرقها في أطراف معاملات علىّ بن أبي طالب، وذلك أن معاوية رأى بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبي موسى على عزل علىّ، أنّ ولايته وقعت الموقع، فهو الذى يجب طاعته فيما يعتقده، ولأن جيوش علىّ من أهل العراق لاتطيعه فى كثير من الأمر ولا يأتمرون بأمره، فلا يحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه، فهو يزعم أنه أولى منه إذا كان الأمر كذلك.

وكان ممن بعث فى هذه السنة، النعمان بن بشير فى ألفى[1] فارس إلى عين التمر، وعليها مالك ابن كعب الأرحبى فى ألف فارس مَسْلَحَة[2] لعلىّ، فلما سمعوا بقدوم الشاميين ارفضوا عنه، فلم يبق مع مالك بن كعب إلا مائة رجل، فكتب عند ذلك إلى علىّ يعلمه بما كان من الأمر، فندب على الناس إلى مالك بن كعب فتثاقلوا ونكلوا عنه ولم يجيبوا إلى الخروج، فخطبهم على عند ذلك فقال فى خطبته: «يا أهل الكوفة! كلما سمعتم بمَنْسِر[3] من مناسر أهل الشام انجحر كل منكم فى بيته، وغلق عليه بابه، انجحار الضب فى جُحره، والضبع فى وِجاره، والمغرور والله من غررتموه، ولمن فازبكم فاز بالسهم الأخيب، لا أحرارٌ عند النداء، ولا إخوانُ ثقة عند النجاء، إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا مُنيت به منكم، عُمْىٌ لا تبصرون، وبُكم لاتنطقون، وصُمّ لاتسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون». ودهمهم النعمان بن بشير فاقتتلوا قتالا شديداً، وليس مع مالك بن كعب إلا مائة رجل قد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا، فبينا هم كذلك إذ جاءهم نجدة من جهة مِخْنَف بن سليم مع ابنه عبد الرحمن بن مخنف فى خمسين رجلا، فلما رآهم الشاميون ظنوا أنهم مددعظيم ففرّوا هراباً، فاتبعهم مالك بن كعب، فقتل منهم ثلاثة أنفس، وذهب الباقون على وجوههم، ولم يتم لهم أمر من هذا الوجه.

وفيها: بعث معاوية سفيان بن عوف فى ستة آلاف، وأمره بأن يأتى هِيت فيغير عليها، ثم يأتى الأنبار والمدائن. فسار حتى انتهى إلى هِيت فلم يجد بها أحداً، ثم إلى الأنبار وفيها مَسْلَحة لعلىّ نحو من خمسمائة، فتفرقوا ولم يبق منهم إلا مائة رجل، فقاتلوا مع قلتهم وصبروا حتى قتل أميرهم ــ وهو أشرس بن حسان البَكرىّ ــ فى ثلاثين رجلا من أصحابه، واحتملوا ما كان بالأنبار من الأموال وكرّوا راجعين إلى الشام. فلما بلغ الخبر علياً رضى الله عنه ركب بنفسه فنزل بالنُّخَيْلة، فقال له الناس: نحن نكفيك ذلك يا أمير المؤمنين. فقال: والله ما تكفوننى ولا أنفسكم، وسرح سعد بن قيس فى أثر القوم، فسار وراءهم حتى بلغ هِيت فلم يلحقهم فرجع.

---

(١) فى ابن الأثير: «ألف». (٢) المسلحة: قوم ذو سلاح. (٣) المنسر: قطعة من الجيش تمر قدامه، ومن الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو من الأربعين إلى الخمسين أو إلى الستين.

وفيها : بعث معاوية عبد الله بن مسعدة الفزارى فى ألف وسبعمائة إلى تَيماء ، وأمره أن يُصَدِّق[1] أهل البوادى ، ومن امتنع من إعطائه فليقتله ثم يأتى المدينة ومكة والحجاز . فسار إلى تيماء واجتمع عليه بشر كثير ، فلما بلغ علياً بعث المسيّب بن نَجَبة الفزارىّ فى ألفى رجل ، فالتقوا بتيماء ، فاقتتلوا قتالا شديداً عند زوال الشمس ، وحمل المسَيّب بن نجبة على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات وهو لا يريد قتله ، بل يقول له : النجاء النجاء . فانحاز ابن مسعدة فى طائفة من قومه إلى حِصن هناك فتحصنوا به وهرب بقيتهم إلى الشام ، وانتهبت الأعراب ما كان جمعه ابن نَجبة من إبل الصدقة ، وحاصرهم المسيب بن نجبة ثلاثة أيام ثم ألقى الحطب على الباب وألهب فيه النار ، فلما أحسوا بالهلاك أشرفوا من الحصن ، ومَتُّوا[2] إليه بأنهم من قومه ، فرق لهم وأطفأ النار . فلما كان الليل فتح باب الحصن وخرجوا هراباً إلى الشام ، فقال عبد الرحمن بن شبيب للمسيّب بن نجبة : سر حتى ألحقهم ! فقال : لا ! فقال : غششت أمير المؤمنين وداهنت فى أمرهم .

وفيها : وجه معاوية الضحاك بن قَيس فى ثلاثة آلاف ، وأمره أن يغير على أطراف جيش على ، فجهز علىّ حجر بن عدى فى أربعة آلاف وأنفق فيهم خمسين درهما ، فالتقوا بتَدمُر ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، ومن أصحاب حجر بن عدى رجلان ، وغشيهم الليل فتفرقوا ، واستمر الضحاك بأصحابه فاراً إلى الشام . وسار معاوية بنفسه فى جيش كثيف حتى بلغ دِجْلة ، ثم كرّ راجعاً . ذكره محمد بن سعد عن الواقدى بإسناده وأبو معشر أيضاً .

وفى هذه السنة ، ولّى علىّ بن أبى طالب زياد بن أبيه على أرض فارس ، وكانوا قد منعوا الخراج والطاعة . وسبب ذلك حين قتل ابن الحَضرمى وأصحابه بالنار حين حرقهم جارية بن قدامة فى تلك الدار كما قدمنا ، فلما اشتهر هذا الصنيع فى البلاد تشوش قلوب كثير من الناس على علىّ واختلفوا على علىّ ، ومنع أكثر أهل تلك النواحى خراجهم ، وَلا سيما أهل فارس ، فإنهم تمردوا وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف ــ كما تقدم فى العام الماضى ــ من بين أظهرهم ، فاستشار علىّ الناس فيمن يوليه عليهم ، فأشار ابن عباس وجارية بن قدامة أن يُولّىَ عليهم زياد بن أبيه ، فإنه صَليب الرأى ، عالم بالسياسة فقال على : هو لها ، فولاه فارس وكَرْمان وجهزه إليهما فى أربعة آلاف فارس ، فسار إليها فى هذه السنة فدوّخ أهلها وقهرهم حتى استقاموا وأدوا الخراج وما كان عليهم من الحقوق ، ورجعوا إلى السمع والطاعة ، وسار فيهم بالعدلة والأمانة ، حتى كان أهل تلك البلاد يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كِسرى أنو شروان ــ من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى ، وصفت له تلك البلاد بعدله وعلمه وصرامته ،

(١) المصدق : هو الذى يجمع الصدقات . (٢) أى توسلوا . والمت : التوسل بقرابة .

واتخذ للمال قلعة حصينة ، فكانت تعرف بقلعة زياد . ثم لما تحصن فيها منصور اليشكرىّ فيما بعد ذلك ـ عرفت به ، فكان يقال لها: قلعة منصور .

قال الواقدى : وَفى هذه السنة بعث على بن أبى طالب ـ عبيدالله بن عباس على الموسم ، وبعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوى ليقيم للناس الحج ، فلما اجتمعا بمكة تنازعا وأبى كل واحد منهما أن يسلم لصاحبه ، فاصطلحا على شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الحجبى ، فحج بالناس وصلى بهم فى أيام الموسم . قال أبو الحسن المدائنى : لم يشهد عبدالله بن عباس الموسم فى أيام علىّ حتى قتل ، والذى نازعه يزيد بن شجرة ـ إنما هو قثم بن العباس حتى اصطلحا على شيبة بن عثمان . قال ابن جرير : وكما قال أبو الحسن المدائنى قال أبو مصعب . قال ابن جرير : وَأما عمال علىّ على الأمصار فهم الذين ذكرنا فى السنة الماضية ، غير أن ابن عباس كان قد سار من البصرة إلى الكوفة واستخلف على البصرة زياد بن أبيه ، ثم سار زياد فى هذه السنة إلى فارس وكرمان كما ذكرنا .

ذكر من توفى من الأعيان فى هذه السنة

سعد القرظى : مؤذن مسجد قُباء[1] فى زمان رسول الله ﷺ ، فلما وَلى عمر الخلافة ولاه أذان المسجد النبوى ، وكان أصله مولى لعمار بن ياسر ، وهو الذى كان يحمل العَنزة[2] بين يدى أبى بكر وعمر وعلى إلى المصلى يوم العيد ، وبقى الأذان فى ذريته مدة طويلة .

عقبة بن عمرو بن ثعلبة : أبو مسعود البدرى سكن ماء بدر ولم يشهد الوقعة بها على الصحيح وقد شهد العقبة ، وهو من سادات الصحابة ، وكان ينوب لعلى بالكوفة إذا خرج لصفين وغيرها.

سنة أربعين من الهجرة النبوية

فيها كان مقتل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على ما سنذكره مفصلا

قال ابن جرير : فما كان فى هذه السنة من الأمور الجليلة : توجيه معاوية بسر بن أبى أرطاة فى ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز ، فذكر عن زياد بن عبدالله البكائى عن عَوانة قال: أرسل معاوية بعد تحكيم الحكمين بُسر بن أبى أرطاة ـ وَهو رجل من بنى عامر بن لؤى ـ فى جيش ، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ـ وعامل علىّ عليها يومئذ أبو أيوب الأنصارى ـ ففر منهم أبو أيوب فأتى عليا بالكوفة ، ودخل بسر المدينة ولم يقاتله أحد ، فصعد منبرها فنادى على المنبر:

(١) قباء ـ بالضم ـ ويذكر ويقصر ـ موضع قرب المدينة .

(٢) العنزة : عصا أطول من العصا وأقصر من الرمح ، فى طرفها الأسفل سنان ، كزج الرمح ، يتوكأ عليها الشيخ الكبير .

يادينار ، ويانجار ، ويارزيق؛ شَيْخي شيخي ! عهدي به هاهنا بالأمس فأين هو ؟ - يعني عثمان بن عفان - ثم قال : يا أهل المدينة والله لولا ماعهد إلى معاوية ماتركت بها محتلما إلا قتلته . ثم بايع أهل المدينة ، وأرسل إلى بني سلمة فقال : والله مالكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر ابن عبدالله - يعني حتى يبايعه - فانطلق جابر إلى أم سلمة فقال لها : ماذا ترين ؟ إني خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة ، فقالت : أرى أن تبايع فإني قد أمرت ابني عمر ، وخَتَني عبدالله بن زمعة - وهو زوج ابنتها زينب - أن يبايعا ، فأتاه جابر فبايعه . قال : وهدَّم بسر دوراً بالمدينة ، ثم مضى حتى أتى مكة فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله فقال له بسر : ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك، فخلى عنه . وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى أهل اليمن ، إنّ خيلا مبعوثة من عند معاوية تقتلُ من أبى أن يقر بالحكومة ، ثم مضى بسر إلى اليمن وعليها عبيدالله بن عباس ، ففر إلى الكوفة حتى لحق بعلي ، واستخلف على اليمن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي . فلما دخل بسر اليمن قتله وقتل ابنه ، ولقي بُسر ثَقَل[1] عبيدالله بن عباس وفيه ابنان صغيران له فقتلهما ، وهما عبدالرحمن وقثم ، ويقال إن بسراً قتل خلقا من شيعة عليّ في مسيره هذا . وهذا الخبر مشهور عند أصحاب المغازي والسير ، وفي صحته عندي نظر ، والله تعالى أعلم .

ولما بلغ عليا خبر بسر وجه جارية بن قدامة في ألفين ، ووهب بن مسعود في ألفين ، فسار جارية حتى بلغ نجران فحرق بها وقتل ناساً من شيعة عثمان ، وهرب بسر وأصحابه فأتبعهم حتى بلغ مكة ، فقال لهم جارية : بايعوا ، فقالوا : لمن نبايع وقد هلك أمير المؤمنين فلمن نبايع ؟ فقال : بايعوا لمن بايع له أصحاب عليّ ، فتثاقلوا ثم بايعوا من خوف ، ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي بهم فهرب منه ، فقال جارية : والله لو أخذتُ أبا سِنّور لضربت عنقه ، ثم قال لأهل المدينة : بايعوا للحسن بن عليّ . فبايعوا وأقام عندهم ، ثم خرج منصرفا إلى الكوفة وعاد أبو هريرة يصلي بهم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة جرت بين علي ومعاوية المهادنة - بعد مكاتبات يطول ذكرها - على وضع الحرب بينهما ، وأن يكون ملك العراق لعلي ولمعاوية الشام ، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزوة . ثم ذكر عن زياد عن ابن إسحاق ما هذا مضمونه : أن معاوية كتب إلى علي: أما بعد، فإن الأمة قد قتل بعضها بعضاً يعني فلك العراق ولي الشام. فأقر بذلك علي رضي الله عنه . وأمسك كل واحد منهما عن قتال الآخر ، وبعث الجيوش إلى بلاده ، واستقر الأمر على ذلك.

قال ابن جرير : وفي هذه السنة خرج ابن عباس من البصرة إلى مكة ، وترك

---

(١) الثقل - محركة - متاع المسافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون .

الجمل - في قول عامة أهل السير ، وقد أنكر ذلك بعضهم ، وزعم أنه لم يزل عاملا على البصرة حتى صالح عليّ معاوية ، وأنه كان شاهداً للصلح ، وممن نص على ذلك أبو عبيدة كما سيأتي.

ثم ذكر ابن جرير سبب خروج ابن عباس عن البصرة ، وذلك أنه كلم أبا الأسود الدؤلي القاضي بكلام فيه غض من أبي الأسود ، فكتب أبو الأسود إلى ابن عباس ، فعاتبه في ذلك وحرر عليه التبعة ، فغضب ابن عباس من ذلك وكتب إلى مكة مع أخواله بني هلال وتبعهم قيس كلها ، وقد أخذ شيئاً من بيت المال مما كان اجتمع له من العمالة والفيء ، ولما سار تبعته أقوام أخر فلحقهم بنو غنم ، وأرادوا منعهم من المسير فكان بينهم قتال ، ثم تحاجزوا ودخل ابن عباس مكة .

ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وما ورد فيه من الأحاديث النبوية من الإخبار بمقتله وكيفيته

وما في ذلك من دلائل النبوة وآيات المعجزة

كان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تنغصت عليه الأمور ، واضطرب عليه جيشه ، وخالفه أهل العراق ، ونكلوا عن القيام معه ، واستفحل أمر أهل الشام ، وصالوا وجالوا يميناً وشمالا ، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين ، في خلعهما علياً وتولية عمرو بن العاص معاوية عند خلو الإمرة عن أحد . وقد كان أهل الشام بعد التحكيم يسمُّون معاوية الأمير ، وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق ، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان ، أعبدهم وأزهدهم ، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل ، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت ، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن ، فكان يكثر أن يقول : ما يحبس أشقاها ؟ أي ما ينتظر ؟ ماله لا يقتل ؟ ثم يقول : والله لتخضبن هذه - ويشير إلى لحيته ، من هذه - ويشير إلى هامته ، كما قال البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعاني ، ثنا أبو الجواب الأحوص بن جواب ، ثنا عمار بن زريق عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن ثعلبة ابن يزيد قال : قال علي : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتخضبن هذه من هذه للحيته من رأسه فما يحبس أشقاها » ؟ فقال عبدالله بن سبع : والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلا فعل ذلك لأبدنا عترته ، فقال : أنشدكم بالله أن يقتل غير قاتلي . فقالوا : يا أمير المؤمنين ألا تستخلف ؟ فقال : لا. ولكن أترككم كما ترككم رسول الله . قالوا : فما تقول لربك إذا لقيته وقد تركتنا هَملاً ؟ قال : أقول : اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم .

طريق أخرى ـ قال أبو داود الطيالسي في مسنده : ثنا شريك عن عثمان بن المغيرة عن زيد ابن وهب قال : جاءت الخوارج إلى علي فقالوا له : اتق الله فإنك ميت . قال : لا ! وَالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ولكني مقتول من ضربة عَلَى هذه تخضب هذه ـ وأشار بيده إلى لحيته ـ عهد معهود ، وقضاء مقضيّ ، وَقد خاب من افترى .

طريق أخرى عنه ـ قال الحافظ أبو يعلى : ثنا سويد بن سعيد ، ثنا رشدين بن سعد عن يزيد ابن عبدالله بن أسامة عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال : قال علي : قال لي رسول الله ﷺ : « من أشقى الأولين ؟ قلت : عاقر الناقة ، قال : صدقت . فمن أشقى الآخرين ؟ قلت : لا علم لي يارسول الله ، قال : الذي يضربك على هذه ـ وأشار بيده على يافوخه ، فيخضب هذه ـ يعني لحيته من دم رأسه . قال : « فكان يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم » .

طريق أخرى عن علي رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ثنا الأعمش عن سالم ابن أبي الجعد عن عبدالله بن سبع قال : سمعت عليا يقول : لتُخضَبَنّ هذه من هذه ، فما ينتظر بي الأشقى ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، فأخبرنا به نبير عِترته ! قال : إذاً تالله تقتلون بي غيرَ قاتلي ، قالوا : فاستخلف علينا ، قال : لا ! وَلكن أتركـكم إلى ما تركـكم إليه رسول الله ﷺ ، قالوا : فما تقول لربك إذا أتيته ؟ قال : أقول : اللهم تركتني فيهم ما بدالك ، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم ، فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ثنا أبو بكر عن الأعمش عن سلمة بن كهيل عن عبدالله بن سبع قال : خطبنا علي فقال : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتخضبن هذه من هذه ، قال: فقال الناس : فأعلمنا من هو ؟ والله لنبيدنه أو لنبيدن عترته . قال : أنشدكم بالله أن يقتل غير قاتلي ، قالوا : إن كنت علمت ذلك فاستخلف، قال : لا ـ ولكن أكلكم إلى ما وكلكم إليه رسول الله ﷺ » ، تفرد به أحمد .

طريق أخرى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ثنا محمد ـ يعني ابن راشد ، عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن فضالة بن أبي فضالة الأنصاري ، وكان أبو فضالة من أهل بدر . قال: « خرجت مع أبي عائداً لعليّ بن أبي طالب من مرض أصابه ثقُل منه ، قال : فقال له أبي : ما يقيمك بمنزلك هذا ؟ لو أصابك أجلك لم يلك إلا أعراب جهينة. تحُمل إلى المدينة ، فإن أصابك أجلك وليك أصحابك وَصلوا عليك ، فقال عليّ : إن رسول الله ﷺ عهد إلي أنْ لاأموت حتى أؤمر ثم تخضب هذه ـ يعني لحيته ـ من دم هذه ـ يعني هامته . قال : فقتِل وقتِل أبو فضالة يوم صفين » تفرد به أحمد أيضاً . وقد رواه البيهقي في الدلائل عن الحاكم عن الأصم عن الحسن بن مكرم عن أبي النضر هاشم بن القاسم به .

طريق أخرى عنه ـ قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا أحمد بن أبان القرشى ، ثنا سفيان بن عيينة ، ثنا كوفى ـ يقال له عبد الملك بن أعين، عن أبى حرب بن أبى الأسود عن أبيه قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : « قال لى عبد الله بن سلام ـ وقد وضعت رجلى فى غرز الركاب ـ : لا تأت العراق ، فإنك إن أتيتها أصابك بها ذباب السيف ، قال : وأيم الله لقد قالها ، ولقد قالها النبى ﷺ لى قبله . قال أبو الأسود فقلت : تالله ما رأيت رجلا محاربا يحدث بهذا قبلك غيرك » . ثم قال البزار : ولا نعلم رواه إلا على بن أبى طالب بهذا الإسناد ، ولا نعلم رواه إلا عبد الملك بن أعين عن أبى حرب ، ولا رواه عنه إلا ابن عيينة . هكذا قال ، وقد رأيت من الطرق المتعددة خلاف ذلك. وقال البيهقى ـ بعد ذكره طرفاً من هذه الطرق ـ: وقد روينا فى كتاب السنن بإسناد صحيح عن زيد بن أسلم عن أبى سنان الدؤلى عن علىّ فى إخبار النبى ﷺ بقتله .

حديث آخر فى ذلك ـ قال الخطيب البغدادى : أخبرنى على بن القاسم البصرى ، ثنا على بن إسحاق الماردانى ، أنا محمد بن إسحاق الصنعانى ، ثنا إسماعيل بن أبان الوراق ، ثنا ناصح بن عبد الله المحلمى عن سماك عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « من أشقى الأولين ؟ قال : عاقر الناقة ، قال : فمن أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : قاتلك » .

حديث آخر فى معنى ذلك ـ وروى البيهقى من طريق فطر بن خليفة وعبد العزيز بن سياه ـ كلاهما عن حبيب بن أبى ثابت عن ثعلبة الحمانى قال : سمعت عليا على المنبر وهو يقول : « والله إنه لعهد النبى الأمى إلىّ ، إن الأمة ستغدر بك بعدى » . قال البخارى : ثعلبة بن زيد الحمانى فى حديثه هذا نظر . قال البيهقى : وقد رويناه بإسناد آخر عن علىّ إن كان محفوظا : أخبرنا أبو على الروذبارى ، أنا أبو محمد بن شوذب الواسطى بها ، ثنا شعيب بن أيوب ، ثنا عمرو بن عون عن هشيم عن إسماعيل بن سالم عن أبى إدريس الأزدى عن علىّ قال : « إن مما عهد إلىّ رسول الله ﷺ أن الأمة ستغدر بك بعدى » قال البيهقى : فإن صح فيحتمل أن يكون المراد به ـ والله أعلم ـ فى خروج من خرج عليه ثم فى قتله . وقال الأعمش عن عمرو بن مرة بن عبد الله ابن الحارث ، عن زهير بن الأرقم قال : خطبنا علىّ يوم جمعة فقال : « نبئت أن بسراً قد طلع اليمن ، وإنى والله لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم ، وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم ، وخيانتكم وأمانتهم ، وإفسادكم فى أرضكم وإصلاحهم ، فقد بعثت فلاناً فخان وغدر ، وبعثت فلانا فخان وغدر ، وبعث المال إلى معاوية لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ علاقته ، اللهم سئمتهم وسئمونى ، وكرهتهم وكرهونى ، اللهم فأرحهم منى وأرحنى منهم » . قال : فما صلى الجمعة الأخرى حتى قتل. رضى الله عنه وأرضاه .

صفة مقتله ـ رضى الله عنه

ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس : أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو ـ المعروف بابن مُلْجَم الحيرى ثم الكندى ، حليف بنى حنيفة من كندة المصرى، وكان أسمر حسن الوجه أبلج شعره مع شحمة أذنيه ، وفى وجهه أثر السجود . والبُرَك ابن عبد الله التميمى . وعمرو بن بكر التميمى[1] أيضاً ـ اجتمعوا فتذاكروا قتل علىّ إخوانهم من أهل النهروان ، فترحموا عليهم وقالوا : ماذا نصنع بالبقاء بعدهم ! كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم ، فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا ! فقال ابن مُلْجَم : أما أنا فأكفيكم علىّ بن أبى طالب . وقال البُرَك : وأنا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم فسمُّوها ، واتَّعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يثب كلٌّ واحد منهم على صاحبه فى بلده الذى هو فيه .

فأما ابن مُلجم فسار إلى الكوفة فدخلها ، وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها ، فبينما هو جالس فى قوم من بنى تَيم الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان ـ إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها: قَطام بنت الشِّجْنة[2] ، قد قتل علىّ يوم النهروان أباها وأخاها ، وكانت فائقة الجمال مشهورة به ، وكانت قد انقطعت فى المسجد الجامع تتعبّد فيه . فلما رآها ابن مُلجم سلبت عقله ونسى حاجته التى جاء لها ، وخطبها إلى نفسها ، فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم ، وخادما وقينة ، وأن يقتل لها علىّ بن أبى طالب . قال : فهو لك ، ووالله ما جاء بى إلى هذه البلدة إلا قتل علىّ ، فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرّضه على ذلك ، وندبت له رجلا من قومها ، من تَيم الرباب يقال له : وَرْدان ، ليكون معه ردءا ، واستمال عبد الرحمن بن مُلجم رجلا آخر يقال له: شَبيب بن بَجرة الأشجعى الحرورى . قال له ابن ملجم : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : قتل علىّ ، فقال : ثَكِلتك أمُّك ، لقد جئتَ شيئاً إدًّا كيف تقدر عليه ؟ قال : أكمُن له فى المسجد ، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فإن نجونا شفَينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . فقال : ويحك ! لو غير علىّ كان أهون علىّ ! قد عرفتَ سابقته فى الإسلام وقرابته من رسول الله ﷺ فما أجدنى أنشرح صدراً لقتله . فقال : أما تعلم أنه قتل أهل النهروان ؟ فقال : بلى ، قال : فنقتله بمن قتل من إخواننا .

(١) فى مروج الذهب للمسعودى ـ أن الثالث هو : ذادويه ـ مولى بنى العنبر

(٢) فى مروج الذهب للمسعودى : أنها بنت عمه .

فأجابه إلى ذلك بعد لأْيٍ ، ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن مُلجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت ، وقال : هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية ، وعمرو بن العاص . فجاء هؤلاء الثلاثة ـ وهم : ابن مُلجم ، ووَرْدان ، وشبيب ـ وهم مشتملون على سيوفهم ، فجلسوا مقابل السُّدّة[1] التي يخرج منها عليّ ، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة ، ويقول : الصلاة الصلاة فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع سيفه في الطّاق ، فضربه ابن ملجم بالسيف على قَرنه فسال دمه على لحيته ، رضي الله عنه.

ولما ضربه ابن ملجم قال : لا حُكم إلا لله ، ليس لك يا عليّ ولا لأصحابك ، وجعل يتلو قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)[2] ونادى عليّ : عليكم به ، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله ، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس ، ومسك ابن ملجم وقدم عليّ جَعدة بن هبيرة بن أبي وهب فصلّى بالناس صلاة الفجر ، وحمل عليّ إلى منزله . وحُمل إليه عبد الرحمن بن مُلجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف ـ قبحه الله ـ فقال له : أي عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى : قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شحذْته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه ، فقال له عليّ : لا أراك إلاّ مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلق الله ، ثم قال : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به . فقال جُندب بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر . ولما احتضر عليّ جعل يكثر من قول لا إله إلا الله ، لا يتلفظ بغيرها وقد قيل إن آخر ما تكلم به : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[3] . وقد أوصى ولديه : الحسن والحسين ـ بتقوى الله والصلاة والزكاة ، وكظم الغيظ وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش ، ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية . ووصاه بما وصاهما به ، وأن يعظمهما ولا يقطع أمراً دونهما . وكتب ذلك كلّه في كتاب وصيته ـ رضي الله عنه وأرضاه .

وصورة الوصية : « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب ، أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

---

(١) السدة : باب الدار ـ والجمع سدد ، وقيل : هي الظلة على الباب تقيه للمطر .

(٢) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة (٣) الآيتان : من آخر سورة الزلزلة .

على الدين كله ولو كره المشركون (إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[١] أوصيك يا حسن وجميع ولدى ومن بلغه كتابى ـ بتقوى الله ربكم . ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا)[٢] فإنى سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوها يهون الله عليكم الحساب ، الله الله فى الأيتام فلا تُعنوا أفواههم ، ولا يضيعُنّ بحضرتكم ، والله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ، ما زال يوصى بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ، والله الله فى القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم ، والله الله فى الصلاة فإنها عمود دينكم ، والله الله فى بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم ؛ فإنه إن تُرك لم تناظروا ، والله الله فى شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار ، والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والله الله فى الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب ، والله الله فى ذمة نبيكم فلا يُظلمنّ بين ظهرانيكم ، والله الله فى أصحاب نبيكم فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم ، والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معاشكم ، والله الله فيما ملكت أيمانكم فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال : « أوصيكم بالضعيفين : نسائكم ، وما ملكت أيمانكم » . الصلاة الصلاة لا تخافُنّ فى الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم . وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٣] حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ عليكم نبيكم ، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله » . ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قُبض فى شهر رمضان سنة أربعين .

وقد غسله ابناه : الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن فكبّر عليه تسع تكبيرات . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ثنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبى يحيى قال : لما ضرب ابن مُلجم عليا قال لهم : « افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله ، فقال : اقتلوه ثم حرّقوه » . وقد روى أنّ أم كلثوم قالت لابن مُلجم وهو واقف : ويحك ! لم ضربت أمير المؤمنين ؟ قال : إنما ضربت أباك ، فقالت : إنه لا بأس عليه ، فقال : لم تبكين ؟ والله لقد ضربته ضربة لو أصابت أهل المصر لماتوا أجمعين ، والله لقد سمعت

(١) الآيتان : ١٦٢ ــ ١٦٣ من آخر سورة الأنعام . (٢) الآية : ١٠٣ من سورة آل عمران
(٣) من الآية : ٢ من أول سورة المائدة .

هذا السيف شهراً ، ولقد اشتريته بألف، وسممته بألف .

قال الهيثم بن عدى : حدثنى رجل من بَجيلة من مشيخة قومه ، أن عبد الرحمن بن مُلْجَم رأى امرأة من تيم الرباب يقال لها: قَطامِ ، كانت من أجمل النساء ترى رأى الخوارج ، قد قتل علىٌّ قومها على هذا الرأى ، فلما أبصرها عشقها فخطبها فقالت : لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة ، فتزوجها على ذلك ، فلما بنى بها قالت له : ياهذا ! قد فرَغت[1] فافرَغ ، فخرج ملبساً سلاحه وخرجت معه ، فضربت له قبة فى المسجد ، وخرج علىٌّ يقول : الصلاة الصلاة ، فاتبعه عبد الرحمن فضربه بالسيف على قَرن رأسه ، فقال الشاعر:ـ قال ابن جرير : هو ابن ميّاس المرادى.

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة　　　كمهر قَطامِ بيِّناً غير معجم

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقَينة　　　وقتل علىٍّ بالحسام المصمَّم

فلا مهرَ أغلا من علىٍّ وإن غلا　　　ولافَتكَ إلا دون فتك ابن مُلجم[2]

وقد عزى ابن جرير هذه الأبيات إلى ابن أبى مياس المرادى ، وأنشد له ابن جرير فى قتلهم عليّاً :

ونحن ضربنا يالك الخيرُ حَيدراً　　　أبا حســن مأمومة[3] فتفطرا

ونحن خلعنا مُلكه من نظامه　　　بضربة ســيف إذْ علا وتجبَّرا

ونحن كرام فى الهِياج أعزةٌ　　　إذا الموت بالموت ارتدى وتأزّرا

وقد امتدح ابنَ مُلجم بعضُ الخوارج المتأخرين فى زمن التابعين ـ وهو عمران بن حِطّان ، وكان أحد العباد ممن يروى عن عائشة فى صحيح البخارى ، فقال فيه :

يا ضربة من تقىٍّ ما أراد بها　　　إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوماً فأحســبه　　　أوفى البرية عنـد الله ميزانا

وأما صاحب معاوية ـ وهو البُرَك ـ فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر فى هذا اليوم فضربه بالسيف ، وقيل بخنجر مسموم ـ فجاءت الضربة فى ورِكه فجرحت إليته ومسك الخارجى فقُتِل ، وقد قال معاوية : اتركـنى فإنى أبشرك ببشارة ، فقال : وما هى ؟ فقال : إن أخى قد قتل فى هذا اليوم علىّ بن أبى طالب ، قال : فلعله لم يقدر عليه ، قال : بلى ! إنه لا حرَس معه ، فأمر به فقُتل . وَجاء الطبيب فقال لمعاوَية : إن جُرحك مسموم ، فإما أن أكويك وَإما أن أسقيك شربة فيذهب السُّم ولـكن ينقطع نَسلك ، فقال معاوَية : أما النار فلا

---

(١) فرع البكر : افتضها ، وفرع كمنع : صعد ونزل ـ ضد وفرع رأسه بالعصا : علاه بها . وفرع القوم ـ علاهم بالشرف .

(٢) فى نسخة : ولا قتل إلا دون قتل .　　　(٣) المأمومة : الشجة التى تبلغ أم الرأس .

طاقة لى بها ، وأما النسل فنى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى . فسقاه شربة فبرأ من المه وجراحه واستقل وسَلِم رضى الله عنه . ومِنْ حينئذ عملت المقصورة فى المسجد الجامع وجُعل الحرَس حولها فى حال السجود ، فكان أول من اتخذها معاوية لهذه الحادثة .

وأما صاحب عمرو بن العاص ـ وهو عَمرو بن بَكر ـ فإنه كَمَن له ليخرج إلى الصلاة ، فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مَغَص شديد فى ذلك اليوم ، فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة ـ وهو خارجة بن أبى حبيبة من بنى عامر بن لؤى ، وكان على شرطة عمرو بن العاص ـ فحمل عليه الخارجى فقتله ، وهو يعتقده عمرو بن العاص ، فلما أخذ الخارجىّ قال : أردتُ عَمراً وأراد الله خارجة ، فأرسلها مثلا ، وقتل قبحه الله . وقد قيل : إن الذى قالها عمرو بن العاص ، وذلك حين جىء بالخارجى فقال : ما هذا ؟ قالوا قتل نائبك خارجة ، ثم أمر به فضُربت عنقه .

والمقصود أن علياً ـ رضى الله عنه ـ لما مات صلّى عليه ابنه الحسن فكبّر عليه تسع تكبيرات ، ودُفن بدار الإمارة بالكوفة ، خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته ، هذا هو المشهور ، ومن قال : إنه حمل على راحلته فذهبت به فلا يدرى أين ذهب ـ فقد أخطأ وتكلّف مالا علم له به ، ولا يسيغه عقل ولا شرع . وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره بمشهد النجف ـ فلا دليل على ذلك ولا أصل له . ويقال : إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة ، حكاه الخطيب البغدادى عن أبى نعيم الحافظ عن أبى بكر الطلحى ، عن محمد بن عبد الله الحضرمى الحافظ ، عن مطر أنه قال : لو علمت الشيعة قبر هذا الذى يعظمونه بالنجف لرجموه بالحجارة ، هذا قبر المغيرة بن شعبة .

قال الواقدى : حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سَبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة قال : سألت أبا جعفر محمد بن على الباقر : كم كان سن علىّ يوم قتل ؟ قال : ثلاثا وستين سنة . قلت : أين دفن ؟ قال : دفن بالكوفة ليلا وقد غَبِيَ[1] عن دفنه ، وفى رواية عن جعفر الصادق أنه كان عمره ثمانية وخمسين سنة ، وقد قيل إن علياً دفن قِبلى المسجد الجامع من الكوفة . قاله الواقدى ، والمشهور بدار الإمارة .

وقد حكى الخطيب البغدادى عن أبى نعيم الفضل بن دكين ، أن الحسن والحسين حولاه فنقلاه إلى المدينة ، فدفناه بالبقيع عند قبر فاطمة ، وقيل : إنهم لما حملوه على البعير ضلّ منهم فأخذته طىء يظنونه مالاً ، فلما رأوا أن الذى فى الصندوق ميّت ولم يعرفوه ، دفنوا الصندوق بما فيه ، فلا يعلم أحد أين قبره ، حكاه الخطيب أيضاً . وروى الحافظ ابن عساكر عن الحسن قال : دفنت علياً فى حجرة من دور آل جعدة . وعن عبد الملك بن عمير قال ، لما حفر خالد بن عبد الله أساس دار ابنه يزيد ، استخرجوا شيخاً مدفونا ، أبيض الرأس واللحية كأنما دفن بالأمس ، فهمّ

(١) غبا عن الشىء ـ أخفاه فلم يفطن له ، وفى نسخة : عمى .

بإحراقه ثم صرفه الله عن ذلك ، فاستدعى بقباطى فلفه فيها وطيبه وتركه مكانه . قالوا : وذلك المكان بحذاء باب الوراقين مما يلى قبلة المسجد فى بيت إسكاف ، وما يكاد يقر فى ذلك الموضع أحد إلا انتقل منه . وعن جعفر بن محمد الصادق قال : صُلِّى على علىّ ليلا ودفن بالكوفة ، وعمى موضع قبره ولكنه عند قصر الإمارة . وقال ابن الكلبى : شهد دفنه فى الليل الحسن والحسين وابن الحنفية وعبد الله بن جعفر ، وغيرهم من أهل بيتهم ، فدفنوه فى ظاهر الكوفة وعموا قبره خيفة عليه من الخوارج وغيرهم .

وحاصل الأمر ، أن علياً قتل يوم الجمعة سحراً ، وذلك لسبع عشرة خلت من رمضان من سنة أربعين ، وقيل إنه قتل فى ربيع الأول ؛ والأول هو الأصح الأشهر والله أعلم . ودفن بالكوفة عن ثلاث وستين سنة ، وصححه الواقدى وابن جرير وغير واحد ، وقيل عن خمس وستين ، وقيل عن ثمان وستين سنة رضى الله عنه . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر . فلما مات علىّ رضى الله عنه استدعى الحسن ابن مُلجم فقال له ابن ملجم : إنى أعرض عليك خصلة قال : وما هى ؟ قال : إنى كنت عاهدت الله عند الحَطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن خليتنى ذهبت إلى معاوية ، على أنى إن لم أقتله أو قتلته وبقيتُ فلله على أن أرجع إليك حتى أضع يدى فى يدك . فقال له الحسن : كلاً والله حتى تعاين النار ، ثم قدمه فقتله ، ثم أخذه الناس فأدرجوه فى بَوارِى[1] ثم أحرقوه بالنار ، وقد قيل إن عبد الله بن جعفر قطع يديه ورجليه وكحلت عيناه ، وهو مع ذلك يقرأ سورة (اقرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذِى خَلَقَ * إلى آخرها) ثم جاءوا ليقطعوا لسانه فجزع وقال : إنى أخشى أن تمر علىّ ساعة لا أذكر الله فيها ، ثم قطعوا لسانه ثم قتلوه ثم حرقوه فى قوصرة ، والله أعلم . وروى ابن جرير قال : حدثنى الحارث ثنا ابن سعد عن محمد بن عمر قال : ضرب علىّ يوم الجمعة فمكث يوم الجمعة ، وليلة السبت وتوفى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين ـ عن ثلاث وستين سنة . قال الواقدى : وهو الثبت عندنا ، والله أعلم بالصواب .

فصل فى ذكر زوجاته ، وبنيه ، وبناته ـ رضى الله عنهم أجمعين

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق ، عن هانىء بن هانىء عن على قال: « لما وُلِد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال : أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ فقلت : سميته حَرْبا ، فقال : بل هو حَسن. فلما ولد الحسين قال : أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ فقلت : سميته حَرْبا ، قال :

---

(١) البورياء والبارى والبارياء : الحصير المنسوج ، وجمعه البوارى .

بل هو حُسين. فلما ولد الثالث جاء النبي ﷺ فقال: أروني ابني، ماسميتموه ؟ فقلت: حَرْباً ، فقال: بل هو مُحَسِّن ، ثم قال : إني سميتهم بأسماء ولد هارون : شَبَّر وشَبِير ومُشَبِّر » . وقد رواه محمد بن سعد عن يحيى بن عيسى التيمى عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال : قال على : كنت رجلا أحبّ الحرب ، فلما ولد الحسن هممت أن أسميه حَربا ، فذكر الحديث بنحو ماتقدم لكن لم يذكر الثالث وقد ورد في بعض الأحاديث أن عليا سمى الحسن أولا بحمزة وحسينا بجعفر ، فغير اسميهما رسول الله ﷺ .

فأول زوجة تزوجها على -رضى الله عنه- فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، بنى بها بعد وَقعة بدر ، فولدت له الحسن وحسينا ، ويقال: ومُحسنا ، ومات وهو صغير ، وولدت له زينب الكبرى ، وأم كلثوم- وهذه تزوج بها عمر بن الخطاب كما تقدم. ولم يتزوج علىّ على فاطمة حتى توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر ، فلما ماتت تزوج بعدها بزوجات كثيرة ؛ منهن من توفيت في حياته ، ومنهن من طلقها . وتوفى عن أربع كما سيأتى .

• فمن زوجاته : أم البنين بنت حرام وهو أبو المجل بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر ابن كلاب ، فولدت له العباس ، وجعفراً ، وعبدالله ، وعثمان . وقد قتل هؤلاء مع أخيهم الحسين بكربلاء، ولا عقب لهم سوى العباس .

• ومنهن : ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك من بنى تميم ، فولدت له عبيدالله ، وأبا بكر . قال هشام بن الكلبي : وقد قتلا بكربلاء أيضاً . وزعم الواقدى أن عبيدالله قتله المختار بن أبي عُبيد بالمذار يوم الدار .

• ومنهن : أسماء بنت عُميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر . قاله الكلبي . وقال الواقدى : ولدت له يحيى وعَونا . قال الواقدى : فأما محمد الأصغر فمن أم ولد .

• ومنهن : أم حبيب بنت ربيعة بن بجير بن العبد بن علقمة ، وهى أم ولد من السبى الذين سباهم خالد من بنى تغلب حين أغار على عين التمر ، فولدت له عمر ، وقد عُمّر حتى بلغ خمسا وثمانين سنة - ورقية .

• ومنهن : أم سعيد بنت عروة بن مسعود بن مُعَتِّب بن مالك الثقفى ، فولدت له أم الحسن ، ورملة الكبرى .

• ومنهن: ابنة امرىء القيس بن عدى بن جابر بن كعب بن عُلَيم بن كلب الكلبية ، فولدت له جارية ، فكانت تخرج مع على إلى المسجد وهى صغيرة فيقال لها : من أخوالك؟ فتقول : وهوه- تعنى بنى كلب .

• ومنهن: أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبدشمس بن عبد مناف بن قصى ، وأمها زينب

بنت رسول الله ﷺ ، وهى التى كان رسول الله ﷺ يحملها وهو فى الصلاة ؛ إذا قام حملها وإذا سجد وضعها ، فولدت له محمداً الأوسط ، وأما ابنه محمد الأكبر فهو ابن الحنفية ، وهى خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، سباها خالد أيام الصديق أيام الردة من بنى حنيفة ، فصارت لعلى ابن أبى طالب فولدت له محمداً هذا. ومن الشيعة من يدعى فيه الإمامة والعصمة ، وقد كان من سادات المسلمين ، ولكن ليس بمعصوم ولا أبوه معصوم ، بل ولا من هو أفضل من أبيه من الخلفاء الراشدين قبله - ليسوا بواجبى العصمة ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

وقد كان لعلى أولاد كثيرة آخرون من أمهات أولاد شتى ، فإنه مات عن أربع نسوة وتسع عشرة سرية - رضى الله عنه ، فمن أولاده رضى الله عنهم ممن لا يعرف أسماء أمهاتهم : أم هانىء ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة وخديجة ، وأم الكرام ، وأم جعفر ، وأم سلمة ، وجمانة .

قال ابن جرير : فجميع ولد على أربعة عشر ذكرا وسبع عشرة أنثى . قال الواقدى : وإنما كان النسل من خمسة وهم : الحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس بن الكلابية ، وعمر بن التغلبية ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقد قال ابن جرير : حدثنى ابن سنان القزاز ، ثنا أبو عاصم ثنا مسكين بن عبدالعزيز . أنا حفص بن خالد حدثنى أبى خالد بن جابر قال : « سمعت الحسن لما قتل علىّ قام خطيباً فقال : لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة نزل فيها القرآن ، ورفع فيها عيسى بن مريم ، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى ، والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه فى السرية جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو تسعمائة أرصدها لخادمة » وهذا غريب جداً وفيه نكارة والله أعلم . وهكذا رواه أبو يعلى عن إبراهيم بن الحجاج عن مسكين به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن شريك عن أبى إسحاق عن هبيرة قال : خطبنا الحسن ابن على قال : « لقد فارقكم رجل بالأمس ، لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون ، كان رسول الله ﷺ يبعثه بالراية ؛ جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله لاينصرف حتى يفتح له » . ورواه زيد العمى وشعيب بن خالد عن أبى إسحاق به وقال « ما ترك إلا سبعمائة كان أرصدها يشترى بها خادماً » . وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ثنا شريك عن عاصم بن كريب عن محمد بن كعب القرظى ، أن عليا قال : « لقد رأيتنى مع رسول الله وإنى لأربط الحجر على بطنى من

الجوع ، وإن صدقتى اليوم لتبلغ أربعين ألفاً » ، ورواه من أسود عن شريك به ، وقال : « إن صدقتى لتبلغ أربعين ألف دينار » .

باب ذكر شيء من فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

من ذلك : أنه أقربُ العشرة المشهود لهم بالجنة نسباً من رسول الله ﷺ ، فإنه على بن أبى طالب بن عبدالمطلب ، واسمه شيبة بن هاشم ، واسمه عمرو بن عبد مناف ، واسمه المغيرة بن قصى ، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ـ أبو الحسن القرشى الهاشمى فهو ابن عم رسول الله ﷺ ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . قال الزبير بن بكار : وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً . وقد أسلمت وهاجرت ، وأبوه هو العم الشقيق الرفيق أبو طالب ، واسمه عبد مناف ، كذا نص على ذلك الإمام أحمد بن حنبل هو وغير واحد من علماء النسب وأيام الناس .

وزعمت الروافض أن اسم أبى طالب : عمران ، وأنه المراد من قوله تعالى (إنّ الله اصطَفَى آدمَ ونُوحًا وآلَ إبراهيم وآلَ عمرانَ على العالَمين)[1] وقد أخطأوا فى ذلك خطأً كثيراً ، ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان ، من القول فى تفسيرهم له على غير مراد الله تعالى ، فإنه قد ذكر بعد هذه قوله تعالى : (إذْ قالت امرأةُ عِمْران ربِّ إنى نَذَرْتُ لك ما فى بَطْنِى مُحَرَّراً)[2] فذكر ميلاد مَرْيم بنت عمران عليها السلام ، وهذا ظاهر ولله الحمد . وقد كان أبو طالب كثير المحبة الطبيعية لرسول الله ﷺ ولم يُؤمن به إلى أن مات على دينه كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى ، من رواية سعيد بن المسيب عن أبيه ، فى عرضه عليه السلام على عمه أبى طالب وهو فى السياق ـ أن يقول لا إله إلا الله ، فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فقال : كان آخر ما قال هوَ على مِلة عبدالمطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فخرج رسول الله وهو يقول: « أما لأستغفرنّ لك مالم أنهَ عنك » فنزل فى ذلك قوله تعالى : (إنكَ لاتَهدِى مَن أحبَبْتَ ولَكِنّ اللهَ يَهدِى من يَشَاء وهو أعْلَمُ بالمُهتَدين)[3] ثم نزل بالمدينة قوله تعالى : (ما كانَ للنبىِّ والّذينَ آمَنُوا أن يَستَغفِرُوا لِلمُشرِكينَ ولَوْ كانُوا

---

(١) الآية : ٣٣ من سورة آل عمران . (٢) من: الآية ٣٥ من السورة نفسها .

(٣) الآية : ٥٦ من سورة القصص .

أولى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أنهم أَصْحَابُ الجَحِيم • وما كَانَ استِغفارُ إبراهِيمَ لِأبيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وعدَها إياه فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنه عَدُوٌّ لِلهِ تبرَّأَ مِنه إنَّ إبْرَاهِيم لأوّاهٌ حَلِيم)[1] .

وقد قررنا ذلك فى أوائل المبعث ، ونبهنا على خطأ الرافضة فى دعواهم أنه أسلم ، وافترائهم ذلك بلا دليل على مخالفة النصوص الصريحة .

وأما على ـ رضى الله عنه ـ فإنه أسلم قديمًا وهو دون البلوغ على المشهور ، ويقال إنه أول من أسلم من الغلمان ، كما أن خديجة أولُ مَن أسلم من النساء ، وأبو بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار ، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالى .

وقد روى الترمذى وأبو يعلى عن إسماعيل بن السدى ، عن على بن عياش عن مسلم اللائى عن حبة بن جوين عن على ـ وحبة لا يساوى حبة ـ عن أنس بن مالك قال : « بعث رسول الله يوم الاثنين وصلى على يوم الثلاثاء » ورواه بعضهم عن مسلم اللائى عن حبة بن جوين عن على ـ وحبة لايساوى حبة ـ وقد روى سلمة بن كهيل عن حَبة عن على قال : «عبدت الله مع رسول الله سبع سنين قبل أن يعبده أحد » وهذا لايصح أبداً وهو كذب . وروى سفيان الثورى وشعبة عن حَبة عن على قال : « أنا أول من أسلم » وهذا لايصح أيضاً ، وحبة ضعيف . وقال سويد بن سعيد : ثنا نوح بن قيس بن سليمان بن عبدالله عن معاذة العدوية قالت : سمعت علىّ بن أبى طالب على منبر البصرة يقول : « أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم » وهذا لا يصح قاله البخارى ، وقد ثبت عنه بالتواتر أنه قال على منبر الكوفة : « أيها الناس ! إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ،ولو شئت أن أسمى الثالث لسميت » وقد تقدم ذلك فى فضائل الشيخين ، رضى الله عنهما وأرضاهما .

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ثنا أبو عوانة من أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال : « أول من صلى ـ وفى رواية أسلم ـ مع رسول الله بعد خديجة على بن أبى طالب » ورواه الترمذى من حديث شعبة عن أبى بَلج به . وقد روى عن زيد بن أرقم وأبى أيوب الأنصارى ، أنه صلّى قبل الناس بسبع سنين، وهذا لايصح من أى وجه كان روى عنه . وقد ورد فى أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شىء ، وأجود ما فى ذلك ما ذكرنا . على أنه قد خولف فيه . وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر فى تاريخه بتطريق هذه الروايات ، فمن أراد كشف ذلك فعليه بكتابه التاريخ ، والله الموفق للصواب .

---

(١) الآيتان : ١١٣ ـ ١١٤ من سورة التوبة .

وقد روى الترمذى والنسائى عن عمرو بن مرة عن طلحة بن زيد عن زيد بن أرقم قال : « أول من أسلم علىّ » قال الترمذى : حسن صحيح . وصحب على رسول الله ﷺ مدة مقامه بمكة ، وكان عنده فى المنزل ، وفى كفالته فى حياة أبيه لفقر حصل لأبيه فى بعض السنين مع كثرة العيال ، ثم استمر فى نفقة رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى زمن الهجرة ، وقد خلفه رسول الله ﷺ ليؤدى ما كان عنده عليه السلام من ودائع الناس ، فإنه كان يُعرف فى قومه بالأمين ، فكانوا يودعونه الأموال والأشياء النفيسة ، ثم هاجر علىّ بعد رسول الله ﷺ ، وصحب رسول الله ﷺ إلى أن توفى وهو راض عنه ، وحضر معه مشاهده كلها ، وجرت له مواقف شريفة بين يديه فى مواطن الحرب كما بينا ذلك فى السيرة بما أغنى عن إعادته هاهنا ؛ كيوم بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وخيبر ، وغيرها ؛ ولما استخلفه عام تبوك على أهله بالمدينة قال : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبىّ بعدى » وقد ذكرنا تزويجه فاطمة بنت رسول الله ، ودخوله بها بعد وقعة بدر بما أغنى عن إعادته .

ولما رجع عليه السلام من حجة الوداع ـ فكان بين مكة والمدينة بمكان يقال له : غَدير خُم ـ خطب الناس هنالك فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة فقال فى خطبته : « مَن كنت مولاه فعلىّ مولاه » وفى بعض الروايات : « اللهم وَالِ من والاه وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » والمحفوظ الأول . وإنما كان سبب هذه الخطبة والتنبيه على فضله ، ماذكره ابن إسحاق من أن عليًا لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أميراً هو وخالد بن الوليد ، ورجع علىّ ، فوافى رسول الله ﷺ بمكة فى حجة الوداع وقد كثرت فيه القالة ، وتكلم فيه بعض من كان معه بسبب استرجاعه منهم خِلعاً كان خلعها نائبه عليهم لما تعجّل السير إلى رسول الله ﷺ ، فلما تفرغ رسول الله من حَجة الوداع أحب أن يُبرِّىء ساحة علىّ مما نسب إليه من القول الذى لا أصل له .

وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيداً ، فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد فى أيام بنى بُوَيه فى حدود الأربعمائة . كما سننبه عليه إذا انتهينا إليه إن شاء الله . ثم بعد ذلك بنحو من عشرين يوماً تُعلّق المسوح على أبواب الدكاكين ويُذَرّ التبن والرماد ، وتدور الدرارى والنساء فى سكك البلد تنوح على الحسين بن علىّ يوم عاشوراء صبيحة قراءتهم المصرع المكذوب فى قتله . وسنبين الحق فى صفة قتله كيف وقع الأمر على الجلية إن شاء الله تعالى . وقد كان بعض بنى أمة يعيب عليا بتسميته أبا تُراب ، وهذا الاسم إنما سماه به رسول الله ﷺ كما ثبت فى الصحيحين عن سهل ابن سعد أن عليا غاضَب فاطمة فراح إلى المسجد فجاءه رسول الله فوجده نائما وقد لصق التراب بجلده ، فجعل ينفض عنه التراب ويقول : « اجلس أبا تراب » .

حديث المؤاخاة

قال الحاكم : حدثنا أبو بكر محمد بن عبدالله الجنيد ، ثنا الحسين بن جعفر القرشى ، ثنا العلاء ابن عمرو الحنفى ، ثنا أيوب بن مدرك عن مكحول عن أبى أمامة قال : « لما آخى رسول الله ﷺ بين الناس آخى بينه وبين على » . ثم قال الحاكم : لم نكتبه من حديث مكحول إلا من هذا الوجه ، وكان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام . قلت : وفى صحة هذا الحديث نظر وورد من طريق أنس وعمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » ، وكذلك من طريق زيد بن أبى أوفى وابن عباس ومحدوج بن زيد الذهلى وجابر بن عبدالله وعامر بن ربيعة وأبى ذر وعلى نفسه ـ نحو ذلك ، وأسانيدها كلها ضعيفة لايقوم بشىء منها حجة ، والله أعلم . وقد جاء من غير وجه أنه قال : « أنا عبدالله وأخو رسوله لايقولها بعدى إلا كذاب » وقال الترمذى : ثنا يوسف بن موسى القطان البغدادى ، ثنا على بن قادم ، ثنا على بن صالح بن حى عن حكيم بن جبير عن جميع بن عمير التيمى عن ابن عمر قال : « آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه ، فقال : يارسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد ، فقال رسول الله ﷺ :أنت أخى فى الدنيا والآخرة » . ثم قال : هذا حديث حسن غريب . وفيه عن زيد بن أبى أوفى ، وقد شهد بدرا ، وقد قال رسول الله لعمر : « وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ؟ وبارز يومئذ كما تقدم وكانت له اليد البيضاء ودفع إليه رسول الله ﷺ الراية يومئذ وهو ابن عشرين سنة قاله الحكم عن مقسم عن ابن عباس ، قال : وكانت تكون معه راية المهاجرين فى المواقف كلها ، وكذلك قال سعيد بن المسيب وقتادة .

وقال خيثمة بن سليمان الأطرابلسى الحافظ : حدثنا أحمد بن حازم عن ابن أبى عرزة ثنا إسماعيل ابن أبان ، ثنا ناصح بن عبدالله المحلمى عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : قالوا يارسول الله من يحمل رايتك يوم القيامة ؟ قال : « ومَنْ عسى أن يحملها يوم القيامة إلا من كان يحملها فى الدنيا ـ على بن أبى طالب» ؟ وهذا إسناد ضعيف . ورواه ابن عساكر عن أنس بن مالك ولا يصح أيضاً . وقال الحسن بن عرفة : حدثنى عمار بن محمد عن سعيد بن محمد الحنظلى عن أبى جعفر محمد ابن على قال : نادى مناد فى السماء يوم بدر : « لاسيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » ، قال الحافظ ابنْ عساكر وهذا مرسل ، وإنما تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ، ثم وهبه لعلى بعد ذلك ، وقال الزبير بن بكار : حدثنى على بن المغيرة عن معمر بن المثنى قال : كان

لواء المشركين يوم بدر مع طلحة بن أبي طلحة فقتله على بن أبي طالب ، ففي ذلك يقول الحجاج ابن علاط السلمي ،

لله أي مذبب عن حربه ... أعنى ابن فاطمة المُعِمّ المُخوَلا

جادت يداك له بعاجل طعنة ... تركت طليحة للجبين مُجَندلا

وشددت شدة باسل فكشفتهم ... بالحق إذ يهوون أخول أخولا

وعللت سيفك بالدماء ولم تكن ... لترده حران حتى يَنْهلا

وشهد بيعة الرضوان ، وقد قال الله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)[1] وقال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد بايع تحت الشجرة النار » وقد ثبت في الصحاح وغيرها ، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، ليس بفرار يفتح الله على يديه » فبات الناس يَدُوكون[2] أيهم يعطاها ؟ حتى قال عمر : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ، فلما أصبح أعطاها عليا ففتح الله على يديه ، ورواه جماعة منهم : مالك والحسن ، ويعقوب بن عبد الرحمن ، وجرير بن عبد الحميد ، وحماد بن سلمة ، وعبد العزيز بن المختار وخالد بن عبد الله بن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أخرجه مسلم .

ورواه ابن أبي حازم عن سهل بن سعد أخرجاه في الصحيحين وقال في حديثه : « فدعا به رسول الله وهو أرْمَد فبصق في عينيه فبرأ » ورواه إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ويزيد بن أبي عبيد عن مولاه سلمة أيضاً ، وحديثه عنه في الصحيحين .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى بريدة عن سفيان عن أبي فروة الأسلمي عن أبيه عن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بكر الصديق برايته إلى بعض حصون خيبر ، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جَهِد ، ثم بعث عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد ، فقال رسول الله ﷺ لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار ، قال سلمة : فدعا رسول الله علياً وهو أرْمَد فتفل في عينيه ثم قال : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ، قال سلمة فخرج والله بها يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رَجْم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : على بن أبي طالب ، قال اليهودى : غلبتم ومن أنزل التوراة على موسى قال : فما رجع حتى فتح الله على يديه » وقد رواه عكرمة بن عمار عن عطاء مولى السائب عن سلمة بن الأكوع ، وفيه : أنه هو الذى جاء به يقوده وهو أرمد ، حتى بصق رسول الله في عينيه فبرأ .

---

(١) من الآية : ١٨ من سورة الفتح . (٢) أى : يخوضون ويتحدثون .

رواية بريدة بن الحصيب : وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، ثنا الحسين بن واقد ، حدثنى عبدالله بن بريدة ، حدثنى بريدة بن الحصيب قال : حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له ، ثم أخذه من الغد عمر فخرج فرجع ولم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجَهد ، فقال رسول الله : « إنى دافع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له » ـ وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ـ قال : فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ، ثم قام قائماً فدعا باللواء والناس على مصافهم ، فدعا علياً وهو أرْمَد فتفل فى عينيه ودفع إليه اللواء ففتح له ، قال بريدة : وأنا فيمن تطاول لها . ورواه النسائى من حديث الحسين بن واقد به أطول منه . ثم رواه أحمد عن محمد بن جعفر ، وروح ـ كلاهما عن عوف عن ميمون أبى عبدالله الـكردى ، عن عبدالله بن بريدة عن أبيه به نحوه . وأخرجه النسائى عن بندار وغندر به وفيه الشعر .

رواية عبدالله بن عمر : ورواه هشيم عن العوام بن حوشب ، عن حبيب بن أبى ثابت عن ابن عمر ، فذكر سياق حديث بريدة . ورواه كثير النواء عن جميع بن عمير عن ابن عمير نحوه وفيه: «قال على: فما رمدت بعد يومئذ». ورواه أحمد عن وكيع عن هشام بن سعيد عن عمر بن أسيد عن ابن عمر ـ كما سيأتى .

رواية ابن عباس : وقال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن حماد ، ثنا أبو عوانة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فقال : أين على ؟ قالوا : يطحن ، قال : وما أحد منهم يرضى أن يطحن ، فأتى به فدفع إليه الراية ، فجاء بصفية بنت حُيَىّ بن أخطب » وهذا غريب من هذا الوجه وهو مختصر من حديث طويل . ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس فذكره بتمامه ، فقال الإمام أحمد ، عن يحيى بن حماد : ثنا أبو عوانة ، ثنا أبو بلج ، ثنا عمرو بن ميمون قال : إنى لجالس إلى ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا : يا ابن عباس ! إما أن تقوم معنا وإما أن يخلونا هؤلاء ؟ فقال : بل أقوم معكم ـ وهو يومئذ صحيح قبل أن يَعْمَى ـ قال : فابتدأوا فتحدثوا فلا ندرى ماقالوا ، قال : فجاء ينفض ثوبه ويقول : أف وتُف ! وقعوا فى رجل له عَشْرٌ ، وقعوا فى رجل قال له النبى ﷺ : « لأبعثن رجلا لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال: فاستشرف لها من استشرف ، قال: أين على ؟ قالوا: هو فى الرحل يطحن قال: وما كان أحدكم ليطحن ! قال: فجاء وهو أرمد لا يكاد يُبصر ، فنفث فى عينيه ثم هز الراية ثلاثا فأعطاها إياه ، فجاء بصفية بنت حُيى بن أخطب قال : ثم بعث فلانا بسورة التوبة ،

فبعث علياً خلفه فأخذها منه ثم قال : لا يذهب بها إلا رجل منى وأنا منه . قال : وقال لبنى عمه : أيكم يواليني فى الدنيا والآخرة ؟ قال : وعلى معه جالس فأبوْا ، فقال على : أنا أواليك فى الدنيا والآخرة ، قال: فتركه ، ثم أقبل على رجال منهم فقال: أيكم يواليني فى الدنيا والآخرة ؟ فأبوا . فقال على : أنا أواليك فى الدنيا والآخرة ، فقال : أنت وليِّ فى الدنيا والآخرة » .

قال : وكان أول من أسلم من الناس بعد خديجة ، قال : وأخذ رسول الله ثوبه فوضعه على علىّ وفاطمة وحسن وحسين فقال : (إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)(١) . قال: وشَرَى علىٌّ نفسه ، لبس ثوب النبى ﷺ ثم نام مكانه ، قال : وكان المشركون يرومون رسول الله ﷺ فجاء أبو بكر وعلى نائم ، وأبو بكر يحسب أنه نبى الله فقال : يا نبى الله! فقال له على : إن نبى الله قد انطلق نحو بئر ميمونة فأدركه ، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار ، قال: وجعل على يُرْمى بالحجارة كما كان يُرْمى رسول الله ﷺ وهو يتضوّر(٢) ، وقد لف رأسه فى الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشف عن رأسه فقالوا : إنك للئيم ! كان صاحبك نرميه فلا يتضور وأنت تتضوّر ، وقد استنكرنا ذلك . قال : خرج ـ يعنى رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ـ فقال له على: أخرج معك ؟ فقال له النبى ﷺ: لا ! فبكى على فقال : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنك لست بنبى ، إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى » . قال : وقال له رسول الله ﷺ : « أنت وَلِيِّى فى كل مؤمن بعدى » . قال : سدوا أبواب المسجد غير باب على ، قال : فيدخل المسجد جُنُباً وهو طريقه ليس له طريق غيره . قال : وقال : « من كنت مولاه فإن عليا مولاه » قال : وأخبرنا الله فى القرآن أنه قد رضى عن أصحاب الشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فهل حدثنا أنه سخط عليهم بعد ؟ قال : وقال نبى الله ﷺ لعمر حين قال ائذن لى أن ضرب عنق هذا المنافق ـ يعنى حاطب بن أبى بلتعة ـ قال : « ومايدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقد روى الترمذى بعضه من طريق شعبة عن أبى بَلج يحيى بن أبى سليم واستغربه ، وأخرج النسائى بعضه أيضاً عن محمد بن المثنى عن يحيى بن حماد به . وقال البخارى فى التاريخ : ثنا عمر بن عبدالوهاب الرياحى ثنا معمر بن سليمان عن أبيه عن منصور عن ربعى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبعث إلى على وهو أرمد فتفل فى عينيه وأعطاه الراية فما رد وجهه وما اشتكاها بعد » . ورواه أبو القاسم البغوى عن إسحاق بن إبراهيم عن أبى موسى الهروى عن على بن هاشم عن محمد بن على عن منصور عن ربعى عن عمران فذكره . وأخرجه النسائى عن عباس العنبرى عن عمر بن عبد الوهاب به .

---

(١) الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب . (٢) أى : يتلوى .

رواية أبي سعيد في ذلك : قال الإمام أحمد : حدثنا مصعب بن المقدام وحجين بن المثنى قالا : ثنا إسرائيل ، ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزها ثم قال : « من يأخذها بحقها ؟ فجاء فلان فقال أنا . فقال : امض . ثم جاء رجل آخر فقال أنا ، فقال : امض . ثم قال النبي ﷺ : وَالذى أكرم وجه محمد لأعطينها رجلا لا يفرّ ، فجاء علىّ فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَكَ وَجاء بعجوتهما وقديدهما » . وَرَوَاه أبو يعلى عن حسين بن محمد عن إسرائيل ، وقال في سياقه : « فجاء الزبير فقال أنا ، فقال : امض . ثم جاء آخر فقال : امض » وذكره ، تفرد به أحمد .

رواية على بن أبي طالب في ذلك : وَقال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع عن ابن أبي ليلى ، عن المنهال عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان أبي يسير مع علىّ ، وكان علىّ يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف ، فقيل له : لو سألته ! فسأله فقال : « إن رسول الله ﷺ بعث إلىّ وأنا أرمد العين يوم خيبر ، فقلت : يا رسول الله إنى أرمد العين ، فتفل في عينى فقال : اللهم أذهب عنه الحرّ والبرد ، فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ . وقال لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، ليس بفرّار ، فاستشرف لها أصحاب النبي ﷺ فأعطانيها » . تفرد به أحمد ، وقد رواه غير واحد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن علىّ به مطولا .
وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، ثنا جرير عن مغيرة عن أم موسى قالت : سمعت عليًا يقول : « ما رَمِدَت ولا صُدِّعت منذ مسح رسول الله وجهى وتفل في عينى يوم خيبر وَأعطانى الراية » .

رواية سعد بن أبي وقاص في ذلك : ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم ابن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص ، أن رسول الله ﷺ قال لعلى : « أما ترضى أن تكون مِنّى بمنزلة هارون من موسى ! غيرَ أنه لانبي بعدى » ؟ قال أحمد ومسلم والترمذى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، ثنا حاتم بن إسماعيل عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال له : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: مايمنعك أن تسبّ أبا تراب ؟ فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثا قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه ! لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلىّ من حُمر النعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وخلفه في بعض مغازيه ـ فقال له علىّ : يارسول الله : أتخلفنى مع النساء والصبيان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى » ؟ وسمعته يقول يوم خيبر : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال فتطاولنا لها ، قال : ادعوا لى عليا ، فأتى به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه » . ولما نزلت هذه الآية : (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا

وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم)[1] ـ «دعا رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة، وحسنًا وحسينًا، ثم قال: اللهم هؤلاء أهلي».

وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سعيد بن المسيب، عن سعد، أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». وقال الترمذي: ويستغرب من رواية سعيد عن سعد. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد الزبيري، ثنا عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت عن حمزة بن عبد الله عن أبيه ـ يعني عبد الله بن عمر ـ عن سعد قال: لما خرج رسول الله إلى تبوك خلف عليًّا، فقال: أتخلفني؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»؟ وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه. وقال الحسن بن عرفة العبدي: ثنا محمد بن حازم أبو معاوية الضرير عن موسى بن مسلم الشيباني عن عبد الرحمن بن سابط عن سعد بن أبي وقاص قال: قدم معاوية في بعض حجاته، فأتاه سعد بن أبي وقاص فذكروا عليًا، فقال سعد: له ثلاث خصال، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من الدنيا وما فيها. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه، وسمعته يقول: لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وسمعته يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» لم يخرجوه، وإسناده حسن.

وقال أبو زرعة الدمشقي: ثنا أحمد بن خالد الذهبي ـ أبو سعيد، ثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله ابن أبي نجيح عن أبيه قال: «لما حج معاوية أخذ بيد سعد بن أبي وقاص فقال: يا أبا إسحق، إنا قوم قد أجفانا هذا الغزو عن الحج، حتى كدنا أن ننسى بعض سننه، فطف نطف بطوافك قال: فلما فرغ أدخله دار الندوة فأجلسه معه على سريره، ثم ذكر علي بن أبي طالب فوقع فيه فقال: أدخلتني دارك وأجلستني على سريرك ثم وقعت في علي تشتمه! والله لأن يكون في إحدى خلاله الثلاث ـ أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، ولأن يكون لي ما قال له حين غزا تبوكا: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» ـ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن يكون لي ما قال له يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه ليس بفرار» ـ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن أكون صهره على ابنته ولي منها من الولد ماله ـ أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس. لا أدخل عليك داراً بعد هذا اليوم، ثم نفض رداءه ثم خرج.

(١) من الآية: ٦١ من سورة آل عمران.

وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبي وقاص قال : خلّف رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال : يا رسول الله ! تخلفني في النساء والصبيان ؟ قال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي » ؟ إسناده على شرطهما ولم يخرجاه . وهكذا رواه أبو عوانة عن الأعمش عن الحكم بن مصعب عن أبيه . ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن عاصم عن مصعب عن أبيه ، فالله أعلم . وقال أحمد : ثنا أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ، ثنا سليمان بن بلال ، حدثنا الجعد بن عبد الرحمن الجعفي عن عائشة بنت سعد عن أبيها : أن عليا خرج مع رسول الله ﷺ حتى جاء ثنيّة الوداع وعليّ يبكي يقول : تخلفني مع الخوالف ؟ فقال : « أو ما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة »؟ وهذا إسناد صحيح أيضاً ولم يخرجوه . وقد رواه غير واحد عن عائشة بنت سعد عن أبيها .

قال الحافظ ابن عساكر : وقد روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة ، منهم: عمر، وعلي ، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، ومعاوية، وجابر بن عبد الله، وجابر بن سمرة، وأبو سعيد ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن أبي أوفى، ونبيط بن شريط، وحبشي بن جنادة ، ومالك بن الحويرث ، وأنس بن مالك ، وأبو الفضل ، وأم سلمة ، وأسماء بنت عُميس ، وفاطمة بنت حمزة . وقد تقصى الحافظ بن عساكر هذه الأحاديث في ترجمة عليّ في تاريخه ، فأجاد وأفاد ، وبرز على النظراء والأشباه والأنداد ـ رحمه رب العباد يوم التناد .

رواية عمر رضي الله عنه في ذلك : قال أبو يعلى : حدثنا عبد الله بن عمر ، ثنا عبد الله بن جعفر أخبرني سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال عمر : لقد أعطي عليّ بن أبي طالب ثلاث خصال ، لأن تكون لي خصلة منها أحبّ إليّ من حمر النعم ، قيل : وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال : تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ لا يحلّ لي فيه ما يحل له ، والراية يوم خيبر . وقد روى عن عمر من غير وجه .

رواية ابن عمر رضي الله عنهما : وقد رواه الإمام أحمد عن وكيع عن هشام بن سعد ، عن عمر ابن أسيد عن ابن عمر قال : « كنا نقول في زمان رسول الله ﷺ: خير الناس أبو بكر ، ثم عمر ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاثا لأن أكون أعطيتهن أحب إلي من حمر النعم » . فذكر هذه الثلاث وقد روى أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي » ؟ ورواه أحمد من حديث عطية عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي » . ورواه الطبراني من طريق عبد العزيز بن حكيم عن

ابن عمر مرفوعاً ، ورواه سلمة بن كهيل عن عامر بن سعد عن أبيه عن أم سلمة ، أن رسول الله قال لعلى : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » ؟ قال سلمة : وسمعت مولى لبنى موهب يقول : سمعت ابن عباس يقول : قال النبى ﷺ مثله .

تزويجه فاطمة الزهراء رضى الله عنها

قال سفيان الثورى ، عن ابن أبى نجيح عن أبيه ، سمع رجل علياً على منبر الكوفة يقول : « أردت أن أخطب إلى رسول الله ابنته ، ثم ذكرت أن لاشىء لى ، ثم ذكرت عائدته[1] وصلته فخطبتها ، فقال : هل عندك شىء ؟ قلت : لا ! قال : فأين درعك الحُطَمية[2] التى أعطيتك يوم كذا وكذا ؟ قلت : عندى ، قال : فأعطها ، فأعطيتها فزوجنى . فلما كان ليلة دخلت عليها قال : لاتحدثا شيئاً حتى آتيكما ، قال : فأتانا وعلينا قطيفة أو كساء فتحثثنا ، فقال : مكانكما ، ثم دعا بقدح من ماء فدعا فيه ثم رشه علىّ وعليها ، فقلت : يارسول الله أنا أحبّ إليك أم هى ؟ قال : هى أحبُّ إلىّ ،وأنت أعزّ علىّ منها » .

وقد روى النسائى من طريق عبد الكريم بن سليط عن ابن بريدة عن أبيه فذكره بأبسط من هذا السياق ، وفيه : أنه أولم عليها بكبش من عند سعد ، وأصوع من الذرة من عند جماعة من الأنصار ، وأنه دعا لهما بعد ما صبّ عليهما الماء ، فقال : « اللهم بارك لهما فى شَملهما » ــ يعنى الجماع ــ وقال محمد بن كثير ، عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : لما خطب على فاطمة دخل عليها رسول الله فقال لها : « أى بُنَيَّة ! إنّ ابن عمك علياً قد خطبك فماذا تقولين ؟ فبكت ثم قالت : كأنك يا أبتِ إنما ذخرتنى لفقير قريش ؟ فقال : والذى بعثنى بالحق ما تكلمت فيه حتى أذن الله لى فيه من السموات ، فقالت فاطمة : رضيتُ بما رضى الله ورسوله . فخرج من عندها واجتمع المسلمون إليه ، ثم قال : ياعلىّ اخطب لنفسك ، فقال على : الحمد لله الذى لايموت،وهذا محمد رسول الله زَوّجنى ابنته علَى صداق مبلغه أربعمائة درهم ،فاسمعوا ما يقول واشهدوا ، قالوا : ماتقول يارسول الله ؟ قال : أشهدكم أنى قد زَوّجته » رواه ابن عساكر وهو مُنكر ، وقد ورد فى هذا الفصل أحاديث كثيرة منكرة وموضوعة ، ضربنا عنها لئلا يطول الكتاب بها . وقد أورد منها طرفا جيداً الحافظ ابن عساكر فى تاريخه وقال وكيع عن أبى خالد عن الشعبى قال : قال على : « ما كان لنا إلا إهاب كبش ننام على ناحيته وتعجن فاطمة على ناحيته» وفى رواية مجالد عن الشعبى : «ونعلف عليه الناضح بالنهار ، وما لى خادمٌ عليها غيرها» .

---

(١) العائدة : المعروف والعطف (٢) نسبة إلى حطمة بن محارب كان يعمل الدروع

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا عوف عن ميمون أبي عبد الله عن زيد ابن أرقم قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد ، قال : فقال يوما: « سُدُّوا هذه الأبواب إلا بابَ عليّ » ، قال: فتكلم في ذلك أناس ، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإني أمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب عليّ ، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئا ولا فتحته ، ولكن أُمرت بشيء فاتّبعته » . وقد رواه أبو الأشهب عن عوف عن ميمون عن البراء بن عازب فذكره . وقد تقدم ما رواه أحمد والنسائي من حديث أبي عَوانة عن أبي بَلْج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس... الحديث الطويل، وفيه سدّ الأبواب غير باب علي ، وكذا رواه شعبة عن أبي بَلْج ورواه سعد بن أبي وقاص ، قال أبو يعلى : ثنا موسى بن محمد بن حسان ، ثنا محمد بن إسماعيل بن جعفر الطحان ، ثنا غسان بن بسر الكاهلي عن مسلم عن خيثمة عن سعد : « أن رسول الله ﷺ سدّ أبواب المسجد وفتح باب عليّ ، فقال الناس في ذلك فقال : ما أنا فتحتُه ولكن اللهَ فتحَه » . وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه السلام في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر الصديق ، لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته ، لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها ، فجعل هذا رفقًا بها . وأما بَعد وفاته فزالت هذه العِلّة فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس ، إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه السلام ، وفيه إشارة إلى خلافته .

وقال الترمذي : ثنا علي بن المنذر ، ثنا ابن فضيل عن سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « يا علي لا يحل لأحد يَجْنَب في المسجد غيري وغيرك » قال علي بن المنذر : قلت لضرار بن صرد : ما معنى هذا الحديث ؟ قال : لا يحل لأحد يستطرقه جُنُبا غيري وغيرك . ثم قال الترمذي : وهذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . وقد سمع محمد بن إسماعيل هذا الحديث وقد رواه ابن عساكر من طريق كثير النواء ، عن عطية عن أبي سعيد به . ثم أورده من طريق أبي نعيم ، ثنا عبد الملك بن أبي عيينة عن أبي الخطاب عمر الهروي عن محدوج ، عن جسرة بنت دجاجة ، أخبرتني أم سلمة قالت : خرج النبي ﷺ في مرضه حتى انتهى إلى صَرحة المسجد فنادى بأعلى صوته : « إنه لايحل المسجد لجنُب ولا لحائض إلا لمحمد وأزواجه وعلي وفاطمة بنت محمد . ألا هل بيّنت لكم الأسماء أن تضلوا » ؛ وهذا إسناد غريب وفيه ضعف ، ثم ساقه من حديث أبي رافع بنحوه ، وفي إسناده غرابة أيضا.

حديث آخر : قال الحاكم وغير واحد، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن بُرَيدة بن الحصَيب

قال : غزوت مع عليّ إلى اليمن فرأيت منه جفوة ، فقدمت على رسول الله ﷺ فذكرت علياً فتنقصته ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير فقال : « يا بُرَيدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، فقال : « مَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه » . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، ثنا الأجلح الكندى عن عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه بُريدة قال : بعث رسول الله ﷺ بعثتين إلى اليمن ، على إحداهما عليّ بن أبي طالب ، وعلى الأخرى خالد بن الوليد ، وقال إذا التقيتما فعليٌّ على الناس ، وإذا افترقتما فكل واحد منكما على جنده . قال : فلقينا بنى زيد من أهل اليمن فاقتتلنا فظهر المسلمون على المشركين ، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية ، فاصطفى عليٌّ امرأة من السبى لنفسه ، قال بريدة : فكتب معى خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يُخبره بذلك ، فلما أتيت رسول الله دفعتُ إليه الكتاب فقرىء عليه ، فرأيت الغضب فى وجه رسول الله ، فقلت : يا رسول الله هذا مكان العائذ ، بعثتنى مع رجل وأمرتنى أن أطيعه فبلّغت ما أرسلت به ، فقال رسول الله ﷺ « لا تقع فى عليّ فإنه منى وأنا منه ؛ وهو وليّكم بعدى » . هذه لفظة منكرة والأجلح شيعى ومثله لا يقبل إذا تفرد بمثلها ، وقد تابعه فيها من هو أضعف منه والله أعلم .

والمحفوظ فى هذا رواية أحمد ، عن وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : « مَن كنتُ مولاه فعليّ وليّه » ورواه أحمد أيضاً والحسن بن عرفة عن الأعمش به . ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية به .

وقال أحمد : حدثنا روح بن على بن سويد بن منجوف ، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : « بعث رسول الله علياً إلى خالد بن الوليد ليقبض الخُمسَ قال : فأصبح ورأسه تقطر ، فقال خالد لبريدة : ألا ترى ما يصنع هذا ؟ قال : فلما رجعت إلى رسول الله أخبرته بما صنع عليّ ، قال : ـ وكنت أبغض علياً ـ فقال : يا بريدة أتبغض علياً ؟ فقلت : نعم ! قال : لا تبغضه وأحِبّه فإن له فى الخمس أكثر من ذلك » . وقد رواه البخارى فى الصحيح عن بندار عن رُوح به مطولا . وقال أحمد : حدثنا يحيى بن سعد ، ثنا عبد الجليل قال : انتهيت إلى حَلقة فيها أبو مجلَز وابنا بريدة ، فقال عبد الله بن بريدة : حدثنى أبى بُريدة قال : أبغضت علياً بغضاً لم أبغضه أحداً ، قال : وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا على بغضه عليا ، قال : فبعث ذلك الرجل على خيل : قال : فصحبته ما أصحبه إلا على بغضه علياً ، فأصبنا سبياً فكتبنا إلى رسول الله أن ابعث إلينا مَن يُخمسه ، فبعث إلينا علياً ، قال : وفى السبى وصيفة هى من أفضل السبى ـ فخمس وقسّم فخرج ورأسه يقطر ، فقلنا : يا أبا الحسن ما هذا ؟ قال : ألم ترَو إلى الوصيفة التى كانت فى السبى ؟ فإنى قسمت وخمّست فصارت فى الخمس ، ثم صارت فى أهل بيت النبى ﷺ ، ثم صارت فى آل عليّ فوقعتُ بها ، قال : وكتب الرجل إلى نبيّ الله ﷺ فقلت : ابعثنى ، فبعثنى مصدقاً ، قال : فجعلت أقرأ الكتاب ، وأقول صدق ، قال : فأمسك

النبي ﷺ بيدي والكتاب وقال : « أتبغض علياً ؟ قال : قلت نعم ! قال : فلا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً ، فوالذي نفسي بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة ، قال : فما كان في الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحب إلىّ من علىّ . قال عبد الله : فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي ﷺ في هذا الحديث غير أبي بريدة » تفرد به أحمد .

وقد روى غير واحد هذا الحديث من أبي الجواب عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن البراء بن عازب - نحو رواية بريدة بن الحصيب وهذا غريب . وقد رواه الترمذي عن عبد الله ابن أبي زياد عن أبي الجواب الأحوص بن جواب به ، وقال حسن غريب لانعرفه إلا من حديثه . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، ثنا جعفر بن سليمان ، حدثني يزيد الرشك[1] ، عن مطرف ابن عبد الله عن عمران بن حصين قال : « بعث رسول الله سرية وأمّر عليها علي بن أبي طالب فأحدث شيئاً في سفره ، فتعاقد أربعة من أصحاب محمد أن يذكروا أمره إلى رسول الله ﷺ ، قال عمران : وكنا إذا قدمنا من سفر بدأنا برسول الله فسلمنا عليه ، قال فدخلوا عليه فقام رجل منهم فقال : يا رسول الله ! إن عليا فعل كذا وكذا ، فأعرض عنه . ثم قام الثاني فقال يا رسول الله إن علياً فعل كذا وكذا ، فأعرض عنه . ثم قام الثالث فقال : يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا ثم قام الرابع فقال : يا رسول الله إن عليا فعل كذا وكذا ، قال : فأقبل رسول الله على الرابع وقد تغير وجهه وقال : دعوا عليا ، دعوا عليا ، دعوا عليا ، إن عليا مني وأنا منه وهو ولىّ كلّ مؤمن بعدي » .

وقد رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة عن جعفر بن سليمان . وسياق الترمذي مطوّل وفيه : « أنه أصاب جارية من السّبي » ثم قال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان . ورواه أبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن عمر القواريري ، والحسن بن عمر بن شقيق الحرمي ، والمعلى بن مهدي - كلهم عن جعفر بن سليمان به .

وقال خيثمة بن سليمان : حدثنا أحمد بن حازم ، أخبرنا عبيد الله بن موسى بن يوسف بن صهيب عن دكين عن وهب بن حمزة قال : « سافرت مع علىّ بن أبي طالب من المدينة إلى مكة ، فرأيت منه جفوة فقلت : لئن رجعتُ فلقيت رسول الله لأنالنّ منه ، قال : فرجعت فلقيت رسول رسول الله فذكرت عليا فنلت منه ، فقال لي رسول الله ﷺ : لا تقولن هذا لعلي ، فإن عليا وليكم بعدي » : وقال أبو داود الطيالسي : عن شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي : « أنت ولىّ كل مؤمن بعدي » . وقال الإمام أحمد :

(١) الرشك - بالكسر - الكبير اللحية ، والذي يعد على الرماة في السبق ، وهو لقب يزيد الضبعي أحسب أهل زمانه .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، ثنا أبي عن أبي إسحاق ، حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم ، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة ، عن عمته زينب بنت كعب ـ وكانت عند أبي سعيد الخدري ـ عن أبي سعيد قالت : اشتكى عليا الناس ، فقام رسول الله فينا خطيباً فسمعته يقول : «أيها الناس لا تشكوا علياً فو الله إنه لأخيش[1] في ذات الله ـ أو في سبيل الله» . تفرد به أحمد .

وقال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان ، أنا أبو سهل بن زياد القطان ، ثنا أبو إسحاق القاضي ، ثنا إسماعيل بن أبي إدريس ، حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن سعد ابن إسحاق بن كعب بن عجرة عن عمته ـ زينب بنت كعب ـ بن عجرة عن أبي سعيد قال : « بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن ، قال أبو سعيد : فكنت فيمن خرج معه فلما أحضر إبل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح إبلنا ـ وكنا قد رأينا في إبلنا خللا ـ فأبى علينا وقال : إنما لكم منها سهم كما للمسلمين ، قال : فلما فرغ علي وانصرف من اليمن راجعاً ، أمّر علينا إنسانا فأسرع هو فأدرك الحج ، فلما قضى حجته قال له النبي ﷺ : ارجع إلى أصحابك حتى تقدم عليهم . قال أبو سعيد : وقد كنا سألنا الذي استخلفه ما كان علي منعنا إياه ففعل ، فلما جاء علي عرف في إبل الصدقة أنها قد ركبت ـ رأى أثر المراكب ـ فذم الذي أمّره ولامه ، فقلت : أمَا إنّ لله عليَّ إن قدمت المدينة وغدوت إلى رسول الله ﷺ ـ لأذكرنّ لرسول الله ﷺ ولأخبرنّه ما لقينا من الغلظة والتضييق ، قال : فلما قدمنا المدينة ، غدوت إلى رسول الله ﷺ أريد أن أذكر له ما كنت حلفت عليه ، فلقيت أبابكر خارجاً من عند رسول الله ﷺ ، فلما رآني وقف معي ورحّب بي وسائلني وسائلته ، وقال : متى قدمت ؟ قلت : قدمت البارحة ، فرجع معي إلى رسول الله ﷺ وقال : هذا سعد بن مالك بن الشهيد ، قال : ائذن له ، فدخلت فحييت رسول الله ﷺ وحياني وسلمت عليه وسألني عن نفسي وعن أهلي فأحفى المسألة ، فقلت : يارسول الله لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق ، فابتدر رسول الله ، وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه ، حتى إذا كنت في وسط كلامي ضرب رسول الله ﷺ على فخذي ـ وكنت منه قريباً ـ وقال : سعد بن مالك بن الشهيد ، مَهْ بعضَ قولك لأخيك علي ، فوالله لقد علمت أنه أخيش في سبيل الله ، قال : فقلت في نفسي : ثكلتك أمك سعد بن مالك ، ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدري لاجرم ، والله لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية » .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : حدثني أبان بن صالح عن عبد الله بن دينار الأسلمي ، عن خاله عمرو بن شاش الأسلمي ـ وكان من أصحاب الحديبية ـ قال : « كنت مع علي

(١) جاشت النفس : غثت أو دارت للغثيان وارتفعت من حزن أو فزع .

فى خَيله التى بعثه فيها رسول الله إلى اليمن ، فجفانى علىّ بعض الجفاء ، فوجدت عليه فى نفسى ، فلما قدمت المدينة اشتكيته فى مجالس المدينة وعند من لقيته ، فأقبلت يوماً ورسول الله جالس فى المسجد ، فلما رآنى أنظر إلى عينيه نظر إلىّ حتى جلست إليه ، فلما جلست إليه قال : أما إنه والله يا عمرو لقد آذيتنى ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أعوذ بالله والإسلام أن أوذى رسول الله ﷺ فقال : مَن آذى علياً فقد آذانى » . وقد رواه الإمام أحمد عن يعقوب عن أبيه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح عن الفضل بن معقل عن عبد الله بن دينار ، عن خاله عمرو بن شاش فذكره . وكذا رواه غير واحد عن محمد بن إسحاق عن أبان بن الفضل . وكذلك رواه سيف بن عمر عن عبد الله بن سعيد عن أبان بن صالح به ، ولفظه : « فقال رسول الله من آذى مسلما فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله» وروى عباد بن يعقوب الرواجنى عن موسى بن عمير عن عقيل بن نجدة بن هبيرة ، عن عمرو بن شاش قال : قال رسول الله : « يا عمرو إن من آذى علياً فقد آذانى » وقال أبو يعلى : ثنا محمود بن خداش ، ثنا مروان بن معاوية ، ثنا فنان ابن عبد الله النهمى ، ثنا مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : كنت جالساً فى المسجد أنا ورجلان معى فنلنا من علىّ ، فأقبل رسول الله يعرف فى وجهه الغضب ، فتعوذت بالله من غضبه فقال : « مالكم ومالى ؟ من آذى علياً فقد آذانى » .

حديث غدير خم[1]

قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد وأبو نعيم المعنى قالا : ثنا فطير عن أبى الطفيل قال : جمع علىّ الناس فى الرحبة ثم قال لهم : أنشُدُ الله كلّ امرىء مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع ـ لما قام ، فقام كثير من الناس ، قال أبو نعيم : ـ فقام ناس كثير ـ فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس : « أتعلمون أنى أولىّ بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : من كنت مولاه فهذا مولاه ، اللهم وَالِ منَ والاه وعاد من عاداه » . قال فخرجت كأنّ فى نفسى شيئا ، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له : إنى سمعت علياً يقول كذا وكذا ، قال : فما تنكر ؟ قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له . ورواه النسائى من حديث حبيب بن أبى ثابت عن أبى الطفيل عنه أتم من ذلك . وقال أبو بكر الشافعى : ثنا محمد بن الحارث ، ثنا عبيد الله

(١) خم ـ بفتح الخاء وقيل ضمها ـ وهو غدير بالجحفة على ثلاثة أميال بين مكة والمدينة نصب فيه عين هناك .

ابن موسى ، ثنا أبو إسرائيل الملائى عن الحكم عن أبى سليمان المؤذن ، عن زيد بن أرقم ، أن علياً انتشد الناس : من سمع رسول الله يقول : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال مَن والاه وعاد من عاداه » ، فقام ستة عشر رجلا فشهدوا بذلك وكنت فيهم .

وقال أبو يعلى وعبد الله بن أحمد فى مسند أبيه : حدثنا القواريرى ، ثنا يونس بن أرقم ، ثنا يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال :

« شهدتُ عليّاً فى الرَّحبة[1] يناشد الناس : أنشد بالله من سمع رسول الله يقول يوم غدير خم : من كنت مولاه فعلىّ مولاه لما قام ، فشهد . قال عبد الرحمن : فقام اثنا عشر بدرياً كأنى أنظر إلى أحدهم عليه سراويل فقالوا نشهد أنّا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم : « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجى أمهاتهم ؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : فمن كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال مَن والاه ، وعاد من عاداه » . ثم رواه عبد الله بن أحمد عن أحمد بن عمر الوكيعى ، عن زيد بن الحباب عن الوليد بن عقبة بن نيار ، عن سماك بن عبيد بن الوليد العبسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى فذكره . قال : « فقام اثنا عشر رجلا فقالوا : قد رأيناه وسمعناه حين أخذ بيدك يقول : اللهم وَالِ من والاه ، وعادِ مَن عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » . وهكذا رواه أبو داود الطهوى — واسمه عيسى بن مسلم — عن عمرو بن عبد الله بن هند الجملى وعبدالأعلى بن عامر الثعلبى — كلاهما عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، فذكره بنحوه . قال الدارقطنى غريب تفرد به عنهما أبو داود الطُّهوى . وقال الطبرانى : ثنا أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن كيسان المدينى سنة تسعين ومائتين ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، ثنا مسعر عن طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال : شهدت عليا على المنبر يناشد أصحاب رسول الله : من سمع رسول الله يوم غدير خم يقول ما قال ؟ فقام اثنا عشر رجلا منهم : أبو هريرة ، وأبو سعيد ، وأنس بن مالك فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله يقول : « من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

ورواه أبو العباس بن عقدة الحافظ الشيعى عن الحسن بن على بن عفان العامرى عن عبد الله ابن موسى عن قطن عن عمرو بن مرة وسعيد بن وهب ، وعن زيد بن نقيع قالوا : سمعنا عليا يقول فى الرَّحَبة فذكر نحوه ، فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا أن رسول الله قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأحبّ من أحبه وأبغض من أبغضه ، وانصر من

---

(١) الرحبة: ساحة المكان ومتسعه والمراد هنا محلة بالكوفة كما سيأتى بعد .

نصره، واخذل من خذله » قال أبو إسحاق حين فرغ من هذا الحديث : يا أبا بكر ، أى أشياخ هم ؟ وكذلك رواه عبد الله بن أحمد عن علىّ بن حكيم الأودى عن إسرائيل عن أبى إسحاق فذكر نحوه وقال عبد الرزاق عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن سعيد بن وهب وعبد خير قالا : سمعنا عليا برحَبة الكوفة يقول : أنشد الله رجلا سمع رسول الله ﷺ يقول : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه » ، فقام عدة من أصحاب رسول الله فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله يقول ذلك .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة عن أبى إسحاق سمعت سعيد بن وهب قال : نشد علىّ الناس فقام خمسة أو ستة من أصحاب رسول الله فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وقال أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، ثنا حسين بن الحرث بن لقيط الأشجعى عن رياح بن الحرث قال : جاء رهط إلى علىّ بالرحَبة فقالوا : السلام عليك يامولانا ، فقال : كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرَب ؟ قالوا : سمعنا رسول الله يوم غدير خم يقول : « من كنت مولاه فإن هذا علىّ مولاه »، قال رَباح : فلما مضوا اتبعتهم ، فسألت من هؤلاء ؟ قالوا : نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : ثنا شريك عن حنش عن رَباح بن الحرث قال : بينا نحن جلوس فى الرحبة مع على ، إذ جاء رجل عليه أثر السفر فقال : السلام عليك يامولاى ، قالوا : من هذا ؟ فقال أبو أيوب : سمعت رسول الله يقول : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . وقال أحمد : ثنا محمد بن عبد الله ، ثنا الربيع — يعنى ابن أبى صالح الأسلمى — حدثنى زياد بن أبى زياد الأسلمى سمعت على بن أبى طالب ينشد الناس فقال : أنشد الله رجلا مسلما سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما قال ، فقام اثنا عشر رجلا بدرياً فشهدوا . وقال أحمد : حدثنا ابن نمير، ثنا عبد الملك عن أبى عبد الرحمن الكندى عن زاذان ، أن ابن عمر قال : سمعت عليا فى الرحبة وهو ينشد الناس : من شهد رسول الله يوم غدير خم وهو يقول ما قال ؟ فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله يقول : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . وقال أحمد : ثنا حجاج بن الشاعر ثنا شبابة ثنا نعيم بن حكيم ، حدثنى أبو مريم ورجل من جلساء على ، عن على ، أن رسول الله ﷺ قال يوم غدير خم : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . قال : فزاد الناس بعد « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . وقد روى هذا من طرق متعددة عن على رضى الله عنه ، وله طرق متعددة عن زيد بن أرقم .

وقال غندر عن شعبة عن سلمة بن كهيل ، سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبى مريم أو زيد بن أرقم — شعبة الشاك — قال : قال رسول الله ﷺ : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . قال سعيد بن جبير : وأنا قد سمعته قبل هذا من ابن عباس . رواه الترمذى عن بندار عن غندر وقال

حسن غريب . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان، ثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي عبيد عن ميمون ، ابن أبي عبد الله قال : قال زيد بن أرقم وأنا أسمع : نزلنا مع رسول الله بواد يقال له: وادي خم ، فأمر بالصلاة فصلاها بهجير ، قال : فخطبنا وظلل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سَمُر من الشمس فقال : « ألستم تعلمون – أو ألستم تشهدون – أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ! قال : فمن كنت مولاه فإن عليا مولاه ، اللهم عاد من عاداه ووال من والاه » . وكذا رواه أحمد عن غندر عن شعبة عن ميمون بن أبي عبد الله عن زيد بن أرقم . وقد رواه عن زيد بن أرقم جماعة ، منهم : أبو إسحاق السبيعي ، وحبيب الأساف ، وعطية العوفي ، وأبو عبد الله الشامي ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وقد رواه معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال: لما قفل رسول الله من حجة الوداع نهى أصحابه عن شجرات بالبطحاء متقاربات أن ينزلوا حولهن ثم بعث إليهن فصلى تحتهن ثم قام فقال : « أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله ، وإني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وإني مسئول وأنتم مسئولون فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً ، قال : ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؟ وأن جنته حق ، وأن ناره حق ، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك ، قال : اللهم اشهد. ثم قال: يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم من كنت مولاه فهذا مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. ثم قال: أيها الناس إني فرطكم[1] وإنكم واردون على الحوض – حوض أعرض مما بين بصرى وصنعاء ، فيه آنية عدد النجوم ، قد حان من فضة ، وإني سائلكم حين تردون علي ، عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ؟ الثقل الأكبر ، كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا ، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » . رواه ابن عساكر بطوله من طريق معروف كما ذكرنا .

وقال عبد الرزاق : أنا معمر عن علي بن زيد بن جدعان ، عن عدي بن ثابت ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله حتى نزلنا غدير خم فبعث منادياً ينادي ، فلما اجتمعنا قال : « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ! قال : ألست أولى بكم من أمهاتكم ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ! قال : ألست أولى بكم من آبائكم ؟ قلنا بلى يا رسول الله ! قال : ألست ألست ألست ؟ قلنا : بلى يارسول الله ! قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد

---

(١) الفرط – بفتحتين – الذي يتقدم الواردة فيهيىء لهم الأرسان والدلاء ويستقي لهم .

من عاداه » فقال عمر بن الخطاب : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت اليوم وليّ كلّ مؤمن .
وكذا رواه ابن ماجة من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد وأبي هارون العبدي عن عدي بن ثابت عن البراء به . وهكذا رواه موسى بن عثمان الحضرمي عن أبي إسحاق عن البراء به .

وقد روي هذا الحديث عن سعد وطلحة بن عبيد الله وجابر بن عبد الله وله طرق عنه ، وأبي سعيد الخدري وحبشي بن جنادة وجرير بن عبد الله وعمر بن الخطاب وأبي هريرة ، وله عنه طرق منها ـ وهي أغربها ـ الطريق الذي قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي : ثنا عبد الله بن علي بن محمد ابن بشران ، أنا علي بن عمر الحافظ ، أنا أبو نصر حبشون بن موسى بن أيوب الخلال ، ثنا علي بن سعيد الرملي ، ثنا ضمرة بن ربيعة القرشي عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : « من صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً وهو يوم غدير خم ـ لما أخذ النبي ﷺ بيد عليّ بن أبي طالب فقال : « ألست وليّ المؤمنين ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ». فقال عمر بن الخطاب: بَخٍ بَخٍ[1] لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مسلم، فأنزل الله عز وجل (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم)[2] ومن صام يوم سبعة وعشرين[3] من رجب كتب له صيام ستين شهراً ، وهو أول يوم نزل جبريل بالرسالة . قال الخطيب : اشتهر هذا الحديث برواية حبشون ، وكان يقال إنه تفرد به . وقد تابعه عليه أحمد بن عبيد الله بن العباس بن سالم بن مهران ـ المعروف بابن النيري ، عن علي بن سعيد الشامي ، قلت : وفيه نكارة من وجوه ، منها قوله نزل فيه (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم) وقد ورد مثله من طريق ابن هارون العبديّ عن أبي سعيد الخدري ولا يصح أيضاً ، وإنما نزل ذلك يوم عرفة كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب وقد تقدم . وقد روي عن جماعة من الصحابة غير من ذكرنا في قوله عليه السلام « من كنت مولاه » والأسانيد إليهم ضعيفة .

حديث الطير

وهذا الحديث قد صنف الناس فيه ، وله طرق متعددة ، وفي كل منها نظر ، ونحن نشير إلى شيء من ذلك قال الترمذي : حدثنا سفيان بن وكيع ثنا عبد الله بن موسى عن عيسى بن عمر عن السدي عن أنس قال : « كان عند النبي ﷺ طير فقال : اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير » فجاء عليّ فأكل معه ، ثم قال الترمذي : غريب لا نعرفه من حديث السدي

---

(١) بخ بخ : كلمة تقال عند المدح والرضاء بالشيء وتكرر للمبالغة .
(٢) من الآية : ٣ من سورة المائدة .
(٣) في نسخة : ستة وعشرين .

إلا من هذا الوجه ، قال : وقد روى من غير وجه عن أنس . وقد رواه أبو يعلى عن الحسين بن حماد عن شهر بن عبد الملك عن عيسى بن عمر به وقال أبو يعلى : ثنا قطن بن بشير ، ثنا جعفر بن سليمان الضبعيّ ثنا عبد الله بن مثنى ، ثنا عبد الله بن أنس عن أنس بن مالك قال : أهدى لرسول الله ﷺ حجل[1] مشوى بخبزه وضيافه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطعام » ، فقالت عائشة : اللهم اجعله أبى ، وقالت حفصة : اللهم اجعله أبى ، وقال أنس : وقلت : اللهم اجعله سعدَ بن عبادة ، قال أنس : فسمعت حركة بالباب فقلت : إن رسول الله ﷺ على حاجة فانصرف ، ثم سمعت حركة بالباب فخرجت فإذا علىّ بالباب ، فقلت : إن رسول الله ﷺ على حاجة فانصرف ، ثم سمعت حركة بالباب فسلم علىّ فسمع رسول الله ﷺ صوته فقال : انظر من هذا ؟ فخرجت فإذا هو علىّ فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال « ائذن له يدخل علىّ فأذنت له فدخل ، فقال رسول الله ﷺ اللهم وال من والاه » .

ورواه الحاكم فى مستدركه عن أبى على الحافظ عن محمد بن أحمد الصفار ، وحميد بن يونس الزيات ـ كلاهما عن محمد بن أحمد بن عياض عن أبى غسان أحمد بن عياض عن أبى ظبية عن يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن أنس فذكره ، وهذا إسناد غريب . ثم قال الحاكم : هذا الحديث على شرط البخارى ومسلم وهذا فيه نظر ، فإن أبا علاثة محمد بن أحمد بن عياض هذا غير معروف ، لكن روى هذا الحديث عنه جماعة عن أبيه ، وممن رواه عنه أبو القاسم الطبرانى ثم قال : تفرد به عن أبيه ، والله أعلم .

قال الحاكم : وقد رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً ، قال شيخنا الحافظ الكبير أبو عبد الله الذهبى فصلهم بثقة يصح الإسناد إليه ثم قال الحاكم ، وصحت الرواية عن على وأبى سعيد وسفينة . قال شيخنا أبو عبد الله : لا والله ما صح شىء من ذلك ، ورواه الحاكم من طريق إبراهيم بن ثابت القصار ـ وهو مجهول ـ عن ثابت البنانى عن أنس قال : دخل محمد بن الحجاج فجعل يسب علياً ، فقال أنس : اسكت عن سب على فذكر الحديث مطولا ، وهو منكر سنداً ومتناً ، لم يورد الحاكم فى مستدركه غير هذين الحديثين وقد رواه ابن أبى حاتم عن عمار بن خالد الواسطى عن إسحاق الأزرق عن عبد الملك بن أبى سليمان عن أنس ، وهذا أجود من إسناد الحاكم . ورواه عبد الله بن زياد أبو العلاء عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أنس بن

---

(١) الحجل : الذكر من القبج : وهو طائر معروف لا يجد فى الأكل بل يأكل حبة حبة ، وقيل هو الكروان .

مالك فقال : أهدى لرسول الله ﷺ طائر مشوىّ فقال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطير » فذكر نحوه . ورواه محمد بن مصفى عن حفص بن عمر عن موسى ابن سعد عن الحسن عن أنس فذكره ورواه على بن الحسن الشامى عن خليل بن دَعْلَج عن قتادة عن أنس بنحوه . ورواه أحمد بن يزيد الورتنيس عن زهير عن عثمان الطويل عن أنس فذكره . ورواه عبيد الله بن موسى عن مسكين بن عبد العزيز عن ميمون أبى خلف ، حدثنى أنس بن مالك فذكره . قال الدارقطنى : من حديث ميمون أبى خلف ، تفرد به مسكين بن عبد العزيز . ورواه الحجاج بن يوسف بن قتيبة عن بشر بن الحسين عن الزبير بن عدى عن أنس .

ورواه ابن يعقوب ـ إسحاق بن الفيض ، ثنا المضاء بن الجارود عن عبد العزيز بن زياد ، أن الحجاج بن يوسف دعا أنس بن مالك من البصرة ، فسأله عن علىّ بن أبى طالب فقال : أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم طائر فأمر به فَطُبِخ وصُنِع ، فقال : « اللهم ائتنى بأحب الخلق إلىّ يأكل معى » . فذكره .

وقال الخطيب البغدادى : أنا الحسن بن أبى بكر ، أنا أبو بكر محمد بن العباس بن نجيح ، ثنا محمد بن القاسم النحوى ـ أبو عبدالله ، ثنا أبو عاصم عن أبى الهندى عن أنس فذكره ورواه الحاكم بن محمد عن محمد بن سليم عن أنس بن مالك فذكره . وقال أبو يعلى : حدثنا الحسن بن حماد الورّاق ، ثنا مُسْهِر بن عبد الملك بن سلْع ثقة ، ثنا عيسى بن عمر عن إسماعيل السدى ، أن رسول الله ﷺ كان عنده طائر فقال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطير ، فجاء أبو بكر فردّه ، ثم جاء عمر فردّه ، ثم جاء عثمان فردّه ، ثم جاء علىّ فأذن له » .

وقال أبو القاسم بن عقدة : ثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، ثنا يوسف بن عدى ، ثنا حماد بن المختار الكوفى ، ثنا عبد الملك بن عمير عن أنس بن مالك قال : أهدى لرسول الله ﷺ طائر فوُضِع بين يديه فقال : « اللهم ائتنى بأحبّ خلقك إليك يأكل معى » ، قال : فجاء علىّ فدقّ الباب ، فقلت : مَن ذا ؟ فقال : أنا علىّ ، فقلت : إنّ رسول الله على حاجة ، حتى فعل ذلك ثلاثاً ، فجاء الرابعة فضرب الباب برجله فدخل ، فقال النبى ﷺ : ما حبسك ؟ فقال : قد جئت ثلاث مرات فيحبسنى أنس ، فقال النبى ﷺ : ما حملك على ذلك ؟ قال : قلت : كنت أحبُّ أن يكون رجلا من قومى » .

وقد رواه الحاكم النيسابورى عن عبدان بن يزيد عن يعقوب الدقاق عن إبراهيم بن الحسين الشامى عن أبى توبة الربيع بن نافع عن حسين بن سليمان بن عبد الملك بن عمير عن أنس فذكره ثم قال الحاكم : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد ، وساقه ابن عساكر من حديث الحرث بن نبهان عن إسماعيل ـ رجل من أهل الكوفة ـ عن أنس بن مالك فذكره .

ومن حديث حفص بن عمر المهرقاني عن الحكم بن شبير بن إسماعيل أبي سليمان أخي إسحاق بن سليمان الرازي عن عبد الملك بن أبي سليمان عن أنس فذكره . ومن حديث سليمان بن قرم عن محمد بن علي السلمي عن أبي حذيفة العقيلي عن أنس فذكره . وقال أبو يعلى : ثنا أبو هشام ثنا ابن فضيل ، ثنا مسلم الملائي عن أنس قال : أهدت أم أيمن إلى رسول الله ﷺ طيراً مشوياً فقال : « اللهم ائتني بمن تحبه يأكل معي من هذا الطير ، قال أنس : فجاء علي فاستأذن فقلت : هو على حاجته فرجع ، ثم عاد فاستأذن فقلت : هو على حاجته فرجع ، ثم عاد فاستأذن فسمع النبي ﷺ صوته فقال : ائذن له فدخل وهو موضوع بين يديه ، فأكل منه وحمد الله » . فهذه طرق متعددة عن أنس بن مالك وكل منها فيه ضعف ومقال .

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي - في جزء جمعه في هذا الحديث بعد ما أورد طرقاً متعددة نحواً مما ذكرنا - ويروى هذا الحديث من وجوه باطلة أو مظلمة ، عن حجاج بن يوسف وأبي عصام خالد بن عبيد ، ودينار أبي كيسان ، وزياد بن محمد الثقفي ، وزياد العبسي ، وزياد بن المنذر وسعد بن ميسرة البكري ، وسليمان التيمي ، وسليمان بن علي الأمير ، وسلمة بن وردان ، وصباح بن محارب وطلحة بن مصرف وأبي الزناد ، وعبد الأعلى بن عامر وعمر بن راشد وعمر بن أبي حفص الثقفي الضرير وعمر بن سليم البجلي وعمر بن يحيي وعثمان الطويل وعلي بن أبي رافع ، وعيسى بن طهمان وعطية العوفي وعباد بن عبد الصمد وعمار الذهبي وعباس بن علي وفضيل بن غزوان وقاسم بن جندب وكلثوم بن جبر ومحمد بن علي الباقر والزهري ومحمد بن عمرو بن علقمة ، ومحمد بن مالك الثقفي ومحمد بن جحادة وميمون بن مهران وموسى الطويل وميمون بن جابر السلمي ومنصور بن عبد الحميد ومعلى بن أنس وميمون أبي خلف الجراف وقيل أبو خالد ومطر ابن خالد ومعاوية بن عبد الله بن جعفر وموسى بن عبد الله الجهني ونافع مولى ابن عمر والنضر ابن أنس بن مالك ويوسف بن إبراهيم ويونس بن حيان ويزيد بن سفيان ويزيد بن أبي حبيب وأبي المليح وأبي الحكم وأبي داود السبيعي وأبي حمزة الواسطي وأبي حذيفة العقيلي وإبراهيم ابن هدبة ، ثم قال - بعد أن ذكر الجميع - الجميع بضعة وتسعون نفساً أقربها غرائب ضعيفة وأردؤها طرق مختلفة مفتعلة ، وغالبها طرق واهية .

وقد روى من حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ فقال أبو القاسم البغوي وأبو يعلى الموصلي : قالا : حدثنا القواريري ثنا يونس بن أرقم ، ثنا مطير بن أبي خالد عن ثابت البجلي عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : أهدت امرأة من الأنصار طائرين بين رغيفين - ولم يكن في البيت غيري وغير أنس - فجاء رسول الله ﷺ فدعا بغدائه ، فقلت : يا رسول الله : قد أهدت لك امرأة

من الأنصار هدية ، فقدمت الطائر إليه فقال رسول الله ﷺ : اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك وإلى رسولك ، فجاء علىّ بن أبى طالب فضرب الباب خفيا فقلت : من هذا ؟ قال : أبو الحسن ، ثم ضرب الباب ورفع صوته فقال رسول الله من هذا : قلت علىّ بن أبى طالب ، قال : افتح له ، ففتحت له فأكل معه رسول الله ﷺ من الطيرين حتى فنيا » . وروى عن ابن عباس ، فقال أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد : ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، ثنا حسين بن محمد ، ثنا سليمان ابن قرم عن محمد بن شعيب عن داود بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس قال : إن النبى ﷺ أتى بطائر فقال : « اللهم ائتنى برجل يحبه الله ورسوله ، فجاء علىّ فقال : اللهم والى » وروى عن علىّ نفسه ، فقال عباد بن يعقوب : ثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على ، حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن علىّ قال : أهدى لرسول الله ﷺ طير يقال له الحُبارَى[1] فوضعت بين يديه - وكان أنس بن مالك يحجبه - فرفع النبى ﷺ يده إلى الله ثم قال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير ، قال: فجاء علىّ فاستأذن فقال له أنس : إن رسول الله يعنى على حاجته ، فرجع . ثم أعاد رسول الله ﷺ الدعاء فرجع ، ثم دعا الثالثة فجاء علىّ فأدخله ، فلما رآه رسول الله قال : اللهم والى ، فأكل معه ، فلما أكل رسول الله وخرج علىّ قال أنس : سمعت عليا فقلت : يا أبا الحسن استغفر لى فإن لى إليك ذنب ، وإن عندى بشارة ، فأخبرته بما كان من النبى ﷺ ، فحمد الله واستغفر لى ورَضى عنى ، أذهب ذنبى عنده بشارتى إياه ».

ومن حديث جابر بن عبد الله الأنصارى ، أورده ابن عساكر من طريق عبد الله بن صالح - كاتب الليث ، عن ابن لهيعة عن محمد بن المنكدر عن جابر فذكره بطوله . وقد روى أيضاً من حديث أبى سعيد الخدرى ، وصححه الحاكم ولكن إسناده مظلم وفيه ضعفاء . وروى من حديث حبشى بن جنادة ولا يصح أيضاً ، ومن حديث يعلى بن مرة والإسناد إليه مظلم ، ومن حديث أبى رافع نحوه وليس بصحيح . وقد جمع الناس فى هذا الحديث مصنفات مفردة ، منهم : أبو بكر ابن مردويه ، والحافظ أبو طاهر محمد بن أ... بن حمدان فيما رواه شيخنا أبو عبد الله الذهبى ، ورأيت فيه مجلداً فى جمع طرقه وألفاظه لأبى جعفر بن جرير الطبرى المفسر صاحب التاريخ ، ثم وقفت عَلَى مجلد كبير فى رده وتضعيفه سنداً ومتنا للقاضى أبى بكر الباقلانى المتكلم . وبالجملة ففى القلب من صحة هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقه ، والله أعلم .

حديث آخر فى فضل على رضى الله عنه

قال أبو بكر الشافعى : ثنا بشر بن موسى الأسدى ، ثنا زكريا بن عدى ثنا عبد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى امرأة

(١) الحبارى : طائر معروف - للذكر والأنثى والواحد والجمع - وألفه للتأنيث

من الأنصار فى نخل لها يقال له : الأسراف ، ففرشت لرسول الله ﷺ تحت صور لها مرشوش ، فقال رسول الله ﷺ : « الآن يأتيكم رجل من أهل الجنة ، فجاء أبو بكر ، ثم قال : الآن يأتيكم رجل من أهل الجنة ، قال : فلقد رأيته مطاطياً رأسه تحت الصور ثم يقول : اللهم إن شئت جعلته علياً ، فجاء على ، ثم إن الأنصارية ذبحت لرسول الله ﷺ شاة وصنعتها ، فأكل وأكلنا ، فلما حضرت الظهر قام يصلى وصلينا ما توضأ ولا توضأنا ، فلما حضرت العصر صلى وما توضأ ولا توضأنا» .

حديث آخر : قال أبو يعلى : حدثنا الحسن بن حماد الكوفى ، ثنا ابن أبى عتبة عن أبيه عن الشيبانى ، عن جميع بن عمير قال : دخلت مع أبى على عائشة فسألتها عن على فقالت : ما رأيت رجلا كان أحب إلى رسول الله ﷺ منه ، ولا امرأة كانت أحب إلى رسول الله ﷺ من امرأته» وقد رواه غير واحد من الشيعة عن جميع بن عمير به .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : ثنا يحيى بن أبى بكير ، ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى عبد الله الجدلى البجلى قال : دخلت على أم سلمة فقالت لى : أيسب رسول الله ﷺ فيكم ؟ فقلت : معاذ الله ـ أو سبحان الله ـ أو كلمة نحوها ـ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سبّ علياً فقد سبّنى » . وقد رواه أبو يعلى عن عبيد الله بن موسى عن عيسى بن عبد الرحمن البَجَلى ـ من بَجيلة من سليم عن السدى ، عن أبى عبد الله البجلى قال : قالت لى أم سلمة: أيسب رسول الله فيكم على المنابر ؟ قال : قلت : وأنى ذلك ؟ قالت : أليس يسب على ومن أحبه ؟ فأشهد أن رسول الله ﷺ كان يحبه» . وقد روى من غير هذا الوجه عن أم سلمة . وقد ورد من حديثها وحديث جابر وأبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ قال لعلى : « كذب من زعم أنه يُحبّنى ويبغضك » ولكن أسانيدها كلها ضعيفة لا يحتج بها .

حديث آخر : قال عبد الرزاق : أنا الثورى عن الأعمش عن عدى بن ثابت عن زرّ بن حُبَيش قال : سمعت عليا يقول : والذى فلق الحبة وبَرَأ النَسَمَة[1] إنه لعهد النبى ﷺ إلىّ أنه لايحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » ، ورواه أحمد عن ابن عمير ، ووكيع عن الأعمش . وكذلك رواه أبو معاوية ومحمد بن فضيل وعبد الله بن داود الحرثى وعبيد الله بن موسى ، ومُحاضِر المُوَرِّع ، ويحيى بن عيسى الرملى عن الأعمش به . وأخرجه مسلم فى صحيحه عن سعد ورواه غسان بن حسان عن شعبة عن عدى بن ثابت عن على فذكره . وقد روى من غير وجه عن على . وهذا الذى أوردناه هو الصحيح من ذلك ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : ثنا عثمان بن أبى شيبة ، ثنا محمد بن فضيل ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن

(١) برأ : خلق ، والنسمة ـ بفتح النون والسين ـ كل ذى روح .

أبى نصر ، حدثنى مساور الحميرى عن أبيه قال : سمعت أم سلمة تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى : « لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق » وقد روى من غير هـذا الوجه عن أم سلمة بلفظ آخر ولا يصح . وروى ابن عقدة عن الحسن بن على بن بَزِيع ، ثنا عمرو بن إبراهيم ، ثنا سوار بن مصعب عن الحـكم عن يحيى الخراز عن عبد الله بن مسعود ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من زعم أنه آمن بى وبما جئت به وهو يبغض علياً فهو كاذب ليس بمؤمن » . وهذا بهذا الإسناد مُختلق لا يثبت ، والله أعلم . وقال الحسن بن عرفة : حدثنى سعيد بن محمد الوراق عن علىّ بن الخزاز ، سمعت أبا مريم الثقفى ، سمعت عمار بن ياسر يقول : سمعت النبى ﷺ يقول لعلى: « طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب فيك » . وقد روى فى هذا المعنى أحاديث كثيرة موضوعة لا أصل لها . وقال غير واحد ـــ عن أبى الأزهر أحمد بن الأزهر : ثنا عبد الرزاق ، أنا معمر عن الزهرى عن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ نظر إلى على فقال : « أنت سيد فى الدنيا سيد فى الآخرة ، من أحبك فقد أحبنى وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك فقد أبغضنى وبغيضك بغيض الله ، وويل لمن أبغضك من بعدى » .

وروى غير واحد أيضاً عن الحارث بن حصيرة عن أبى صادق عن ربيعة بن ناجد عن علىّ قال : دعانى رسول الله فقال : « إن فيك من عيسى ابن مريم مثلا ، أبغضته يهود حتى بَهتوا أمه ، وأحبوه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس هو له » ، قال علىّ : ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محب مُطرىّ مُفرط يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يَبهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا يوحى إلى ، ولـكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله حَقٌّ عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم » لفظ عبد الله بن أحمد . قال يعقوب بن سفيان : ثنا يحيى ابن عبد الحميد ، ثنا على بن مسهر عن الأعمش عن موسى بن طريف عن عَبَاية عن علىّ قال : أنا قسيم النار ، إذا كان يوم القيامة قلت : هذا لك وهذا لى . قال يعقوب : وموسى بن طريف ضعيف يحتاج إلى من يعدله ، وعَبَاية أقل منه ليس بشىء حديثه . وذكر أن أبا معاوية لام الأعمش على تحديثه بهذا ، فقال له الأعمش : إذا نسيت فذكرونى . ويقال : إن الأعمش إنما رواه على سبيل الاستهزاء بالروافض والتنقيص لهم فى تصديقهم ذلك . قلت : وما يتوهمه بعض العوام بل هو مشهور بين كثير منهم ، أن عليا هو الساقى على الحوض ـ فليس له أصل ، ولم يجىء من طريق مرضى يعتمد عليه . والذى ثبت أن رسول الله ﷺ هو الذى يَسقى الناس . وهكذا الحديث الوارد فى أنه ليس أحد يأتى يوم القيامة راكباً إلا أربعة : رسول الله على البراق ، وصالح على ناقته ، وحمزة على العَضباء ، وعلىّ على ناقة من نوق الجنة رافعاً صوته بالتهليل . وكذلك

مافى أفواه الناس من اليمين بعلى ، يقول أحدهم : خذ بعلى ، اعطنى بعلى ، ونحو ذلك ـ كل ذلك لا أصل له ، بل ذلك من نزعات الروافض ومقالاتهم ولا يصح من شىء من الوجوه ، وهو من وضع الرافضة ويخشى على من اعتاد ذلك سلب الإيمان عند الموت ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنى يحيى عن شعبة ، ثنا عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على قال : مر بى رسول الله ﷺ وأنا وجع وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى ، وإن كان آجلا فارفع عنى ، وإن كان بلاء فصبرنى . قال : ما قلت ؟ « فأعدت عليه فضربنى برجله وقال : ما قلت ؟ فأعدت عليه فقال ؟ اللهم عافه أو اشفه » فما اشتكيت ذلك الوجع بعد .

حديث آخر : قال محمد بن مسلم بن داره : ثنا عبيد الله بن موسى ، ثنا أبو عمر الأزدى عن أبى راشد الحرانى عن أبى الحمراء قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى آدم فى علمه ، وإلى نوح فى فهمه ، وإلى إبراهيم فى حلمه ، وإلى يحيى بن زكريا فى زهده ، وإلى موسى فى بطشه فلينظر إلى على بن أبى طالب » . وهذا منكر جداً ، ولا يصح إسناده.

حديث آخر فى رد الشمس : قد ذكرناه فى دلائل النبوة بأسانيده وألفاظه فأغنى له عن إعادته .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا على بن المنذر الكوفى ثنا محمد بن فضيل عن الأجلح عن أبى الزبير عن جابر قال : « دعا رسول الله ﷺ عليًا يوم الطائف فانتجاه ، فقال الناس : لقد طال نجواه مع ابن عمه ، فقال رسول ﷺ : ما انتجيته ولكن الله انتجاه » ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأجلح ، وقد رواه غير ابن فضيل عن الأجلح ، ومعنى قوله : « ولكن الله انتجاه » ـ أن الله أمرنى أن أنتجى معه .

حديث آخر : قال الترمذى : ثنا محمد بن بشار ويعقوب بن إبراهيم وغير واحد ، ثنا أبو عاصم عن أبى الجراح عن جابر بن صبح ، حدثتنى أمى أم شراحيل ، حدثتنى أم عطية قالت : بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم على ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ رافعاً يديه يقول : « اللهم لا تمتنى حتى ترينى عليًا » ، ثم قال : هذا حديث حسن .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم قال حصين : أنا على عن هلال بن يساف عن عبد الله بن ظالم المازنى قال : لما خرج معاوية من الكوفة استعمل المغيرة بن شعبة ، قال : فأقام خطباء يقعون فى على ، قال : وأنا إلى جنب سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل قال : فغضب فقام وأخذ بيدى وتبعته ، فقال : ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه الذى يأمر بلعن رجل من أهل الكوفة ، وأشهد على التسعة أنهم من أهل الجنة ، ولو شهدت على العاشر لم آثم ، قال : قلت : وما ذاك ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « اثبت حراء فليس عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد »

قال : قلت : من هم ؟ فقال : رسول الله ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن مالك . قال قلت : ومن العاشر ؟ قال : قال أنا . وينبغى أن يكتب هاهنا حديث أم سلمة المتقدم قريبًا ، أنها قالت لأبى عبد الله الجدلى : «أيسب رسول الله فيكم على المنابر » ؟ . . . الحديث ، رواه أحمد .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وابن أبى بكير قالا : ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن حبشى بن جنادة السلولى ـ وكان قد شهد حجة الوداع ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « علىّ منى وأنا منه ولا يؤدّى عنى إلا أنا أو علىّ » . ثم رواه أحمد عن أبى أحمد الزبيرى عن إسرائيل .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا وكيع ، قال : قال إسرائيل : قال أبو إسحاق عن زيد بن يثيع[1] عن أبى بكر « أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة إلى أهل مكة : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، من كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدّته ، والله برىء من المشركين ورسوله » . قال : فسار بها ثلاثًا ثم قال لعلىّ : « الحقه وردّ علىّ أبا بكر وبلغها أنت » . قال : فلما قدم أبو بكر على رسول الله بكى وقال : يا رسول الله حدث فىّ شىء ؟ قال : ما حدث فيك إلا خير ، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل من أهل بيتى » . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنى محمد بن سليمان لوين ، ثنا محمد بن جابر عن سماك عن حبشى عن علىّ قال : « لما نزلت عشر آيات من براءة ، دعا رسول الله أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال لى : أدرك أبا بكر فحيث لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم ، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر فقال : يا رسول الله نزل فىّ شىء ؟ قال : لا ـ ولكن جبريل جاءنى فقال : لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل من بيتك » . وقد رواه كثير النواء عن جميع بن عمير عن ابن عمر بنحوه . وفيه نكارة من جهة أمره برد الصديق ، فإن الصديق لم يرجع ، بل كان هو أمير الحج فى سنة تسع ، وكان علىّ هو وجماعة معه بعثهم الصديق يطوف برحاب منى فى يوم النحر وأيام التشريق ينادون ببراءة . وقد قررنا ذلك فى حجة الصديق ، وفى أول تفسير سورة براءة .

حديث آخر : روى من حديث أبى بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل ، وعمران بن حصين ، وأنس ، وثوبان ، وعائشة ، وأبى ذرّ ، وجابر ، أن رسول الله

---

(١) ذكر فى التفسير : أنه رجل من همدان .

ﷺ قال : « النظر إلى وجه على عبادة » . وفى حديث عن عائشة : « ذكر على عبادة » ولكن لا يصح شىء منها فإنه لا يخلو كل سند منها ، عن كذاب أو مجهول لا يعرف حاله وهو شيعى .

حديث الصدقة بالخاتم وهو راكع

قال الطبرانى : ثنا عبد الرحمن بن مسلم الرازى ثنا محمد بن يحيى عن ضريس العبدى ، ثنا عيسى بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن على بن أبى طالب ، حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن على قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)(١) فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد والناس يصلون بين راكع وقائم وإذا سائل فقال : ياسائل ! هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال : لا ! إلا هاذاك الراكع - لعلى - أعطانى خاتمه . وقال الحافظ ابن عساكر : أنا خالى أبو المعالى القاضى ، أنا أبو الحسن الخلعى ، أنا أبو العباس أحمد بن محمد الشاهد ، ثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحارث الرملى ، ثنا القاضى جملة بن محمد ، ثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أبو نعيم الأحول عن موسى بن قيس عن سلمة قال : تصدق على بخاتمه وهو راكع فنزلت : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ، وهذا لا يصح بوجه من الوجوه لضعف أسانيده ولم ينزل فى على شىء من القرآن بخصوصيته وكل ما يريدونه فى قوله تعالى : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)(٢) وقوله : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)(٣) وقوله : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)(٤) وغير ذلك من الايات والأحاديث الواردة فى أنها نزلت فى على - لا يصح شىء منها . وأما قوله تعالى : (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)(٥) فثبت فى الصحيح أنه نزل فى على وحمزة وعبيدة من المؤمنين ، وفى عتبة وشيبة والوليد بن عتبة من الكافرين . وما روى عن ابن عباس أنه قال : ما نزل فى أحد من الناس ما نزل فى على ، وفى رواية عنه أنه قال : نزل فيه ثلثمائة آية - فلا يصح ذلك عنه ، لاهذا ولا هذا .

حديث آخر : قال أبو سعيد بن الأعرابى : ثنا محمد بن زكريا الغلابى ، ثنا العباس بن بكار أبو الوليد ، ثنا عبد الله بن المثنى الأنصارى عن عمه ثمامة بن عبد الله بن أنس عن أنس قال : « كان رسول الله ﷺ جالسا بالمسجد وقد أطاف به أصحابه إذ أقبل على فسلم ثم وقف ، فنظر

---

(١) الآية : ٥٥ من سورة المائدة . (٢) الآية : ٧ من سورة الرعد .

(٣) الآية : ٨ من سورة الإنسان (٤) من الآية : ١٩ من سورة التوبة .

(٥) من الآية : ١٩ من سورة الحج .

مكانا يجلس فيه ، فنظر رسول الله ﷺ إلى وجوه أصحابه أيهم يوسع له - وكان أبو بكر عن يمين رسول الله ﷺ جالسا - فتزحزح أبو بكر عن مجلسه وقال : هاهنا يا أبا الحسن ، فجلس بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر ، فرأينا السرور في وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل على أبي بكر فقال . يا أبا بكر إنما يعرف الفضل لأهل الفضل » .

فأما الحديث الوارد عن علي وحذيفة مرفوعا « عليّ خير البشر ، من أبى فقد كفر ، ومن رضي فقد شكر » - فهو موضوع من الطريقين معا ، قبح الله من وضعه واختلقه .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذي : ثنا إسماعيل بن موسى بن عمر الرومي ، ثنا شريك عن كهيل عن سويد بن غفلة عن الصنابحي عن عليّ قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا دار الحكمة وعليّ بابها » ، ثم قال : هذا الحديث غريب قال : وروى بعضهم هذا الحديث عن ابن عباس قلت : رواه سويد بن سعيد عن شريك عن سلمة عن الصنابحي عن عليّ مرفوعا : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت باب المدينة » وأما حديث ابن عباس فرواه ابن عدي من طريق أحمد ابن سلمة أبي عمر والجرجاني ، ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأتها من قبل بابها » . ثم قال ابن عدي : وهذا الحديث يعرف بأبي الصلت الهروي عن أبي معاوية ، سرقه منه أحمد بن سلمة هذا ، ومعه جماعة من الضعفاء ، هكذا قال رحمه الله . وقد روى أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز عن ابن معين أنه قال : أخبرني ابن أيمن ، أن أبا معاوية حدث بهذا الحديث قديماً ثم كفّ عنه ، قال : وكان أبو الصلت رجلا موسراً يكرم المشايخ ويحدثونه بهذه الأحاديث . وساقه ابن عساكر بإسناد مظلم عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده عن جابر بن عبد الله فذكره مرفوعاً ، ومن طريق أخرى عن جابر ، قال ابن عدي وهو موضوع أيضاً . وقال أبو الفتح الأودي : لا يصح في هذا الباب شيء .

حديث آخر يقرب مما قبله : قال ابن عدي : ثنا أحمد بن حبرون النيسابوري ، ثنا ابن أيوب أبو أسامة - هو جعفر بن هذيل - ثنا ضرار بن صرد ، ثنا يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش عن ابن عباية عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « علي عيبة[1] علي »

حديث آخر في معنى ما تقدم : قال ابن عدي : ثنا أبو يعلى ، ثنا كامل بن طلحة ، ثنا ابن لهيعة ثنا يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال في مرضه . « ادعوا لي أخي ، فدعوا له أبا بكر فأعرض عنه . ثم قال : ادعوا لي أخي ، فدعوا له عمر فأعرض عنه . ثم قال : ادعوا لي أخي ، فدعوا له عثمان فأعرض عنه . ثم قال : ادعوا لي أخي ،

(١) عيبة : تصغير عين . والعين : الرقيب والحافظ .

فدعى له عليّ بن أبي طالب فستره بثوب وأكبّ عليه . فلما خرج من عنده قيل له : ما قال ؟ قال : علّمني ألف باب ، يفتح كل باب إلى ألف باب » قال ابن عدى هذا حديث منكر ولعل البلاء فيه من ابن لهيعة ، فإنه شديد الإفراط فى التشيع ، وقد تكلم فيه الأئمة ونسبوه إلى الضعف .

حديث آخر : قال ابن عساكر : أنبأنا أبو يعلى ، ثنا المقرى ، أنا أبو نعيم الحافظ ، أنا أبو الفطريفى ثنا أبو الحسين بن أبي مقاتل ثنا محمد بن عبيد بن عتبة ثنا محمد بن على الوهبى الكوفى ، ثنا أحمد بن عمران بن سلمة ـ وكان ثقة عدلا مرضيا ـ ثنا سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كنت عند النبى ﷺ فسئل عن عليّ فقال : « قُسِّمت الحكمة عشرة أجزاء ، أعطى عليٌّ تسعة والناس جزءاً واحداً » . وسكت الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث ولم ينبه على أمره ، وهو منكر بل موضوع مركب على سفيان الثورى بإسناده ، قبح الله واضعه ومن افتراه واختلقه .

حديث آخر : قال أبو يعلى : ثنا عبيد الله بن عمر القواريرى ثنا يحيى عن سعيد عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن على قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لى علم بالقضاء ، قال : فضرب فى صدرى وقال : إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك ، قال : فما شككت فى قضاء بين اثنين بعد » وقد ثبت عن عمر أنه كان يقول : عليّ أقضانا ، وأُبيّ أقرؤنا للقرآن وكان عمر يقول : أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد ، ثنا جرير بن عبد الحميد عن مغيرة عن أم موسى عن أم سلمة قالت : والذى أحلف به ، إن كان عليّ بن أبي طالب لأقرب الناس عهداً برسول الله ، عدنا رسول الله غداة بعد غداة يقول : « جاء علي ؟ مراراً ـ وأظنه كان بعثه فى حاجة ـ قالت : فجاء بعد فظننت أن له إليه حاجة ، فخرجنا من البيت عند الباب فقعدنا عند الباب ، فكنت من أدناهم إلى الباب ، فأكب عليه عليّ فجعل يساره ويناجيه ، ثم قبض من يومه ذلك ، فكان أقرب الناس به عهداً » ، وهكذا رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن أبي بكر بن أبي شيبة به .

حديث آخر فى معناه : قال أبو يعلى : ثنا عبد الرحمن بن صالح ، ثنا أبو بكر بن عياش عن صدقة عن جميع بن عمير ، أن أمه وخالته دخلتا على عائشة فقالتا : يا أم المؤمنين أخبرينا عن عليّ ، قالت : أيّ شيء تسألان ؟ عن رجل وضع يده من رسول الله موضعا فسالت نفسه فى يده فمسح بها وجهه . ثم اختلفوا فى دفنه فقال : إن أحبّ الأماكن إلى الله مكان قبض فيه نبيه ﷺ ، قالتا : فلم

خرجت عليه ؟ قالت: أمر قضى لوددت أني أفديه بما على الأرض». وهذا منكر جداً؛ وفي الصحيح ما يرد هذا، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: ثنا أسود بن عامر حدثني عبد الحميد بن أبي جعفر - يعني الفراء - عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن علي قال: قيل: يارسول الله من نؤمّر بعدك؟ قال: إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن تؤمّروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمّروا علياً - ولا أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الطريق المستقيم». وقد روى هذا الحديث من طريق عبد الرزاق عن النعمان بن أبي شيبة، وعن يحيى بن العلاء عن الثوري عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه أبو الصلت الهروي - عبد السلام بن صالح - عن ابن نمير عن الثوري عن شريك عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن حذيفة به. وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: أنا أبو عبد الله محمد بن علي الآدمي بمكة، ثنا إسحاق بن إبراهيم الصنعاني أنا عبد الرزاق بن همام عن أبيه عن ابن ميناء عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ ليلة وفد الجن، قال: فتنفس فقلت: ما شأنك يارسول الله؟ قال: «نُعيت إليّ نفسي، قلت: فاستخلف، قال مَن؟ قلت: أبا بكر قال: فسكت، ثم مضى ثم تنفس، قلت: ما شأنك يارسول الله؟ قال: نُعيت إليّ نفسي يا ابن مسعود، قلت: فاستخلف، قال: مَن؟ قلت: عمر، قال: فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس، قال: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: نعيت إلي نفسي يا ابن مسعود، قلت: فاستخلف، قال: من؟ قلت: علي بن أبي طالب قال: أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلنّ الجنة أجمعين أكتعين». قال ابن عساكر: همام وابن ميناء - مجهولان.

حديث آخر: قال أبو يعلى: ثنا أبو موسى - يعني محمد بن المثنى - ثنا سهيل بن حماد أبو غياث الدلال، ثنا مختار بن نافع الفهمي، ثنا أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالا من ماله. رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرًّا، تركه الحق وماله من صديق. رحم الله عثمان تستحييه الملائكة. رحم الله علياً دار الحق معه حيث دار». وقد ورد عن أبي سعيد وأم سلمة، أن الحق مع علي رضي الله عنه، وفي كل منهما نظر، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو يعلى: ثنا عثمان بن جرير عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ منكم مَن يقاتل على تأويل

القرآن كما قاتلتُ على تنزيله ، فقال أبو بكر : أنا هو يا رسول الله ، قال : لا ! فقال عمر : أنا هو يا رسول الله ، قال : لا ! ولكنه خاصف النعل - وكان قد أعطى علياً نعله يخصفه » - ورواه الإمام البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبى معاوية عن الأعمش به . ورواه الإمام أحمد عن وكيع وحسين بن محمد عن فطر بن خليفة ، عن إسماعيل بن رجاء به ورواه البيهقى أيضاً من حديث أبى نعيم عن فطر بن خليفة عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبى سعيد به ورواه فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد . وروى من حديث على نفسه . وقد قدمنا هذا الحديث فى موضعه فى قتال علىّ أهل البغى والخوارج ، ولله الحمد. وقدمنا أيضاً حديث علىّ للزبير ، أن رسول الله ﷺ قال لك : إنك تقاتلنى وأنت ظالم . فرجع الزبير وذلك يوم الجمل ، ثم قتل بعد مرجعه فى وادى السباع . وقدمنا صبره وصرامته وشجاعته فى يومى الجمل وصفين ، وبسالته وفضله فى يوم النهروان ، وما ورد فى فضل طائفته الذين قتلوا الخوارج - من الأحاديث ، وذكرنا الحديث الوارد من غير طريق ، عن على وأبى سعيد وأبى أيوب ، أن رسول الله ﷺ أمره بقتال المارقين والقاسطين والناكثين ، وفسروا الناكثين بأصحاب الجمل ، والقاسطين بأهل الشام ، والمارقين بالخوارج ، والحديث ضعيف .

(تم الجزء السابع من كتاب « البداية والنهاية » ويليه الجزء الثامن وأوله فصل فى ذكر شىء من سيرته العادلة ، وسريرته الفاضلة ، ومواعظه ، وقضاياه الفاصلة ، وخطبه الكاملة ، وحكمه التى هى إلى القلوب واصلة)

تنبيه هام واستدراك

ذكر مصححو الطبعة الأولى — أنهم عثروا أثناء طبع هذا الجزء على مخطوط أصح مما كانوا ينقلون عنه . وأوردوا بعض كلمات وعبارات تركت من الأصل الذى نقلوا عنه . ونحن من باب الأمانة نسجل هنا ما أوردوه ، وقد اعتبروا الأول خطأ والثانى صواباً مع أن أكثر ما ترك لم يغير شيئاً من المعنى ، وقد حدث هذا ابتداء من صفحة ١٨٢ .

أولا — فى صفحة ٢١٧ بعد سطر ٨ ما يأتى :

« وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة سهم بن خنش أو خنيش أو خنش الأزدى - وكان قد شهد الدار - ورواه محمد بن عائذ عن إسماعيل بن عياش عن محمد بن يزيد الرجبى عنه وكان قد استعاده عمر بن عبد العزيز إلى دير سمعان فسأله عن مقتل عثمان فذكر ما ملخصه أن وفد السبائية - وفد مصر - كانوا قد قدموا على عثمان فأجازهم وأرضاهم فانصرفوا راجعين ثم كروا إلى المدينة فوافقوا عثمان قد خرج لصلاة الغداة أو

الظهر فحصبوه بالحصا والنعال والخفاف ، فانصرف إلى الدار ومعه أبو هريرة وَالزبير وابنه عبدالله وطلحة ومروان والمغيرة بن الأخنس فى أناس ، وأطاف وفد مصر بداره ، فاستشار الناس ، فقال عبدالله بن الزبير : يا أمير المؤمنين إنى أشير باحدى ثلاث خصال : إما أن تحرم بعمرة فيحرم عليهم دماؤنا ، وإما أن نركب معك إلى معاوية بالشام ، وإما أن نخرج فنضرب بالسيف إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم فإنا على الحق وهم على الباطل. فقال عثمان : أما ماذكرت من الإحرام بعمرة فتحرم دماؤنا فإنهم يرونا ضُلّالا الآن وحال الإحرام وبعد الإحرام ، وأما الذهاب إلى الشام فإنى أستحيي أن أخرج من بينهم خائفا فيرانى أهل الشام وتسمع الأعداء من الكفار ذلك ، وأما القتال فإنى أرجو أن ألقى الله وليس يهراق بسببى مِحْجَمة دم . قال : ثم صلينا معه صلاة الصبح ذات يوم فلما فرغ أقبل على الناس فقال : إنى رأيت أبا بكر وعمر أتيانى الليلة فقالا لى : صم يا عثمان فإنك تفطر عندنا ، وإنى أشهدكم أنى قد أصبحت صائما وإنى أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخرج من الدار سالما مسلوما منه . فقلنا : يا أمير المؤمنين إن خرجنا لم نأمن منهم علينا ، فأذن لنا أن نكون معه فى بيت من الدار تكون لنا فيه جماعة ومنعة . ثم أمر بباب الدار ففتح ودعا بالمصحف فأكب عليه وعنده امرأتاه: بنت الفرافصة وابنة شيبة ، فكان أول من دخل عليه محمد بن أبى بكر فأخذ بلحيته ، فقال : دعها يا ابن أخى فوالله لقد كان أبوك يتلهف لها بأدنى من هذا ، فاستحيي فخرج فقال للقوم : قد أشعرته لكم، وأخذ عثمان ماامتعط من لحيته فأعطاه إحدى امرأتيه ثم دخل رومان بن سودان ـ رجل أزرق قصير محدد عداده من مراد معه جرف من حديد ـ فاستقبله فقال : على أى ملة أنت يا نعثل ؟ فقال عثمان : لست بنعثل ولكنى عثمان بن عفان ، وأنا على ملة إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين . فقال : كذبت ، وضربه بالجرف على صدغه الأيسر فقتله فخر ، فأدخلته نائلة بينها وبين ثيابها ـ وكانت جسيمة ضليمة ـ فألقت نفسها عليه ، وألقت بنت شيبة نفسها على مابقى من جسده ، ودخل رجل من أهل مصر بالسيف مصلتا فقال : والله لأقطعن أنفه فعالج المرأة عنه فغلبته فكشف عنها درعها من خلفها حتى نظر إلى متنها فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها فقبضت على السيف فقطع أناملها ، فقالت : يارباح ـ لغلام عثمان أسود ـ ياغلام ادفع عنى هذا الرجل ، فمشى إليه الغلام فضربه فقتله وخرج أهل البيت يقاتلون عن أنفسهم، فقتل المغيرة بن الأخنس، وجرح مروان، قال : فلما أمسينا قلنا: إن تركتم صاحبكم حتى يصبح مثلوا به فاحتملنا إلى بقيع الغرقد فى جوف الليل وغشينا سواد من خلفنا فهبناهم وكدنا أن نتفرق عنه فنادى مناديهم : أن لا روع عليكم اثبتوا إنما جئنا لنشهده معكم ـ وكان أبو حبيش يقول : هم ملائكة الله ـ فدفناه ثم هربنا إلى الشام من ليلتنا فلقينا الجيش بوادى القرى عليه حبيب بن مسلمة قد أتوا فى نصرة عثمان فأخبرناهم بقتله ودفنه .

ثانيا — ما ترك من الكلمات وبعض العبارات ، واعتبروه خطأ :

ص	س	خطأ	صواب
١٨٢	٢	غيرهم حتى من الأمر وأشار	غيرهم من السابقين ومن الصحابة حتى من الأمر وافتراق الكلمة
	٢٣	وقل فروته وأشار	وقل فروته فإن غوغاء الناس إذا تفرغوا وبطلوا اشتغلوا بما لا يعنى وتكلموا بما لا يرضى وإذا تفرقوا نفسوا أنفسهم وغيرهم وأشار
١٨٣	١٢	وكتبوا إلى عثمان بذلك	وكتبوا إلى عثمان أن يولى عليهم أبا موسى الأشعرى
١٨٤	٥	بأمور عنك	بأمور خفى عنك إدراكها
	٢٢	كان كل من ولى	كان كلما ولى أميرا
	٢٣	أقصى الغاية وأنت	أقصى الغاية فى العقوبة
١٨٥	١	فيبلغك ولا تغير	فيبلغك فلا تنكر ولا تغير
١٨٦	١٠	محصورين من عمرو بن العاص فجعلوا يعملون عليه حتى شكوه	محصورين من عمرو بن العاص مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء فى خليفة ولا أمير فما زالوا حتى شكوه
١٨٦	١٦	أمر كبير	أمر عظيم وشر كبير
١٨٧	١٦	وأنه ولى الأحداث وأنه أعطى	وأنه ولى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى
١٨٧	٢٢	فى إمارته	وأما فى إمارته فقال إنه لخليق بالإمارة
١٩٠	٤	لم يتغير كاتب	لم يتغير ولم يسلك سيرة صاحبيه كاتب
١٩٠	١١	روميا	ذميا
١٩٠	٢٤	متقلدا السيف فسلم	متقلدا السيف وليس عليه قميص وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه
١٩١	١٣	يقتلنا وكذلك	يقتلنا إذا دخلنا مصر وكذلك
١٩١	١٧	يمنون أنه	يريدون عثمان ويمنون
١٩٤	٦	وعبدالله بن عمر	وعبدالله بن عمرو ابن العاص
١٩٤	١٤	سهل بن حبيب	سهل بن حنيف
١٩٥	١٩	هلال بن حق	هلال بن إسحاق
١٩٦	٢	حسن .	حسن صحيح .
١٩٦	٩	وعليه	وهم
١٩٦	١٢	سليمان بن مسلم	سليمان سمعت معاوية بن سلم

ص	س	خطأ	صواب
١٩٧	٨	يد عثمان فبايع	يد عثمان ووضع يديه إحداهما على الأخرى
١٩٨	٣	على بعض وقال	على بعض ويولى السفهاء من الناس من يختارونه هم فيقع الهرج ويفسد الأمر بسبب ذلك ووقع الأمر كاظنه فقسدت الأمة ووقع الهرج
٢٠٠	٢٣	سبابة	شبابة
	٢٤	الحرشى	الجرشى
٢٠١	٣	ومن أين .	ومن أين أكلت
٢٠٦	٦	ابن عمرو . مجاشما	ابن عمروفي جيش مجاشما في جيش
٢٠٧	١٧	فان القوم إنما يحاولون الدنيا	فإن هؤلاء القوم لم يصدقوا فيما قالوا من أن قصدهم قيام الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك مما ادعوا أنهم إنما قاموا لأجله وكذبوا إنما قصدهم الدنيا
٢٠٩	١٦	خفية	خيفة
٢٠٩	٢٠	عبدالله بن حصين	عتبة بن حصين
٢١٠	١١	وسحيته وقد	ولحيته ولطمته وقد

ص	س	خطأ	صواب
٢١٠	١٥	حوله	حوله حتى اتصلت بمقابر المسلمين
٢١٠	٢٠	أروح الرجلين	أزوج الرجلين يخضب بالصفرة وقد كان شد أسنانه بالذهب وقد كسى ذراعيه الشعر
٢١٠	٢٠	ابن أبي يزيد	ابن أبي زيد
٢١١	٣	من طريق سياه	من طريق شبابة
٢١١	١١	البحرانى	الحرانى
٢١١	١٤	قال فرجع	قال فاسترجع
٢١١	١٦	فادبها	فادتها
٢١١	١٩	من يروى بغيره بشبع شحماوقد عله	من تردى بغيره فشبع شحماوقبل عله
٢١٢	٣	وغيره من طاوس	وغيره عن ليث عن طاوس
٢١٢	١٢	واسكت	وأسكت نفرتم من ذلك
٢١٢	٢٧	ثلاثا . ثم	ثلاثا فلو أنى نصرته لما أكلت
٢١٣	١	قتل عثمان .	قتل عثمان ولو أنى نصرته لما هنت
٢١٣	١٩	عياد المنائى	عباد المبانى
٢١٤	١	لأماثل	لأقاتل
٢١٤	٨	كالقلب	كالقصب
١١٤	٢٣	من قبله .	من قتله أنفسكم مثلهم أو أعظم جرماً
٢٢٠	٧	اهدأ	اهدئى
٢٢٢	٣	ورواه مسلم من حديث محمد	ورواه مسلم من حديث الليث بن سعد

ص	س	خطأ	صواب
			وبه ومن حديث صالح ابن كيسان عن الزهرى به ورواه مسلم الخ
٢٢٢	١٧	الاسناد على شرط	الاسناد قلت هو على شرط
٢٢٥	٦	ابن حنبل	ابن جميل
٢٢٥	٢١	عن شقيق	عن سفيان
	٢٦	عفا عنهم	عفا الله عنهم
٢٢٦	٢٥	الحرى	الجيرى
٢٢٦	٢٦	وأبو سهلة	وأبو سلمة
٢٢٧	٧	فى بحر الظهيرة	فى حر الظهيرة
٢٢٧	١١	مطلب بن شعيب	مطلب بن سعيد
٢٢٧	١٨	فقال : ان أحمد	فقال: قولى إن أحمد
٢٢٨	٥	أبو أم حبيبة	أبو أبى أبو حنيفة
٢٢٨	١٠	ابن سلمة	ابن أسامة
٢٢٨	١٨	محمد بن يسار	محمد بن بشار
٢٢٩	١٠	مغيرة بن مسلم	معاوية بن سلم
٢٣٠	٢٢	أبو مروان	أبو عثمان
٢٣٢	٨	ابن عفان معتجرا	ابن عفان فرأيناه معتجراً
٢٣٢	٢٠	قالوا	بل قالوا
٢٣٣	٥	ابن بردآب	ابن بكار
		ابن عنكثة	ابن عتكة
٢٣٣	١٣	عن صلاة عثمان	أهى صلاة عثمان؟
٢٣٣	١٥	بعثمان فأخرت	بعثمان بزعمى فتأخرت
٢٣٦	٢٢	محمد بن يسار	محمد بن بشار
٢٣٨	١٣	ابن جناب	ابن حيان
٢٣٩	٢٢	بملنجر	ببلنجر
٢٤٠	٢٠	المذرى	العنوى
٢٤١	١٣	طرحتها	طرحتها رضى الله عنه . وعاش بعد ذلك إلى هذه السنة سنة خمس وثلاثين
٢٤٢	٩	ابن المنذر وكان	ابن المنذر كان نصرانيا وكان
٢٤٥	١٤	وأما مايغتربه	وأما مايفتريه
٢٥٠	٨	ستين ألف	سبعين ألف

فهرس المجلد السابع من البداية والنهاية

صحيفة



البداية والنهاية

﴿ في التاريخ ﴾

للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن عمر بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م ﴾

الجزء الثامن

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار نهر النيل

طباعة • نشر • توزيع

٤ ش عبد المجيد بدوي - العمرانية الغربية

ت ٨٥١٦٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

(في ذكر شيء من سيرته العادلة ، وسريرته الفاضلة ، ومواعظه وقضاياه الفاصلة وخطبه الكاملة، وحكمه التي هي إلى القلوب واصلة)

قال عبد الوارث عن أبي عمرو بن العلاء عن أبيه قال : خطب عليّ الناس فقال : أيها الناس ! والله الذي لا إله إلا هو ما رزأت[1] من مالكم قليلا وكثيراً إلا هذه ـ وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب ـ فقال : أهداها إلى الدُّهقان[2] ـ وفي رواية بضم الدال ـ ، وقال : ثم أتى بيت المال فقال : خذوا ، وأنشأ يقول :

أفلح من كانت له قَوْصرة[3] يأكل منها كلّ يوم تمرة

وفي رواية : مرة ، وفي رواية طوبى لمن كانت له قوصرة ، وقال حرملة عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن عبد الله بن أبي رزين الغافقي قال : دخلنا مع علي يوم الأضحى فقرب إلينا خزيرة[4] فقلنا : أصلحك الله ، لو قدمت إلينا هذا البط والأوز ، فإن الله قد أكثر الخير فقال : يا ابن رَزين إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان : قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يطعمها بين الناس » : وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن وأبو سعيد ـ مولى بني هاشم قالا : ثنا عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن رَزين أنه قال : دخلت على عليّ بن أبي طالب ـ قال حسن يوم الأضحى ـ فقرب إلينا خَزيرة ، فقلنا : أصلحك الله لو أطعمتنا هذا البط ؟ ـ يعني الأوز ـ فإن الله قد أكثر الخير ، قال : يابن رَزين إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان : قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يضعها بين يدي الناس » وقال أبو عبيد : ثنا عباد بن العوام عن مروان بن عنترة عن أبيه قال : دخلت على عليّ بن أبي طالب بالخوَرْنق وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد فقلت : يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال وأنت ترعد من البرد ؟ فقال : إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً

---

(1) أي ما أصبت ولا أخذت (2) الدهقان : زعيم فلاحي العجم ورئيس الإقليم

(3) القوصرة بتشديد الراء وتخفف وعاء التمر (4) الخزيرة : شبه عصيدة بلحم أو مرقة من بلالة النخالة وقيل: الحسا من الدسم والدقيق

وهذه القطيفة هى التى خرجت بها من بيتى - أو قال من المدينة ، وقال أبو نعيم : سمعت سفيان الثورى يقول : ما بنى علىّ لبنة ولا قصبة على لبنة ، وإن كان ليؤتى بحُبوبه[1] من المدينة فى جراب .

وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أبو بكر الحيدى : ثنا سفيان أبو حسان عن مجمع بن سمعان التيمى قال : خرج على بن أبى طالب بسيفه إلى السوق فقال : من يشترى منى سيفى هذا ؟ فلو كان عندى أربعة دراهم أشترى بها إزاراً ما بعته . وقال الزبير بن بكار : حدثنى سفيان عن جعفر قال - أظنه عن أبيه - إن علياً كان إذا لبس قيصاً مد يدمق كمه ، فما فضل من الكم عن أصابعه قطعه وقال : ليس للكم فضل عن الأصابع . وقال أبو بكر بن عياش عن يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس قال : اشترى على قيصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة وقطع كمه من موضع الرسغين ، وقال : الحمد لله الذى هذا من رياشه . وروى الإمام أحمد فى الزهد عن عباد بن العوام عن هلال بن حبان عن مولى لأبى غصين قال : رأيت علياً خرج فأتى رجلا من أصحاب الكرابيس[2] فقال له : عندك قيص سنبلانى ؟ قال : فأخرج إليه قيصاً فلبسه فإذا هو إلى نصف ساقيه ، فنظر عن يمينه وعن شماله فقال : ما أرى إلا قدراً حسناً ، بكم هذا ؟ قال : بأربعة دراهم يا أمير المؤمنين ، قال : فحلّها من إزاره فدفعها إليه ثم انطلق . وقال محمد بن سعد : أنا الفضل بن دكين ، أنا الحسن بن جرموز عن أبيه قال : رأيت علياً وهو يخرج من القصر وعليه قبطيتان: إزار إلى نصف الساق ورداء مشمر قريب منه ، ومعه درّة له يمشى بها فى الاسواق ويأمر الناس بتقوى الله وحسن البيع ويقول : أوفوا الكيل والميزان ، ويقول . لا تنفخوا اللحم .

وقال عبد الله بن المبارك فى الزهد : أنا رجل حدثنى صالح بن ميثم ، ثنا يزيد بن وهب الجهنى قال : خرج علينا على بن أبى طالب ذات يوم وعليه بردان : متزر بأحدهما مرتد بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانباً ، قد رفع إزاره بخرقة فمر به أعرابى فقال : أيها الإنسان البس من هذه الثياب فإنك ميت أو مقتول . فقال : أيها الأعرابى إنما ألبس هذين الثوبين ليكونا أبعد لى من الزهو ، وخيراً لى فى صلاتى ، وسنة للمؤمن . وقال عبد بن حميد : ثنا محمد بن عبيد ثنا المختار بن نافع أعن أبى مطر قال : خرجت من المسجد فإذا رجل ينادى من خلفى : ارفع إزارك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لك ، وخذ من رأسك إن كنت مسلماً ، فمشيت خلفه وهو مؤتزر بإزار ومرتد برداء ومعه الدرة كأنه أعرابى بدوى فقلت : من هذا ؟ فقال لى رجل : أراك غريباً بهذا البلد ، فقلت : أجل أنا رجل من أهل البصرة ، فقال : هذا على بن أبى طالب أمير المؤمنين حتى انتهى

---

(١) أى حاجاته (٢) الكرابيس : جمع كرباس والكرباس : ثوب من القطن الأبيض .

إلى دار بنى أبى معيط وهو بسوق الإبل ، فقال : بيعوا ولا تحلفوا فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة . ثم أتى أصحاب التمر فإذا خادم تبكى فقال : مايبكيك ؟ فقالت : باعنى هذا الرجل تمراً بدرهم فرده موالى فأبى أن يقبله ، فقال له على : خذ تمرك وأعطها درهمها فإنه ليس لها أمر ، فدفعه ، فقلت : أتدرى من هذا ؟ فقال : لا ، فقلت : هذا على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فصبت تمره وأعطاها درهمها . ثم قال الرجل : أحب أن ترضى عنى يا أمير المؤمنين ، قال : ماأرضانى عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم . ثم مر مجتازاً بأصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يَرْبُ كسبكم .

ثم مر مجتازاً ومعه المسلمون حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال : لا يباع فى سوقنا طافى[1] .
ثم أتى دار فرات ــ وهى سوق الكرابيس ــ فأتى شيخاً فقال : يا شيخ أحسن بيعى فى قميص بثلاثة دراهم ، فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً ، ثم آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئاً ، فأتى غلاماً حدثا فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم وكمه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول فى لبسه : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل له: يا أمير المؤمنين هذا شىء ترويه عن نفسك أو شىء سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا ! بل شىء سمعته من رسول الله ﷺ يقوله عند الكسوة . فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل له : يا فلان قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين قميصاً بثلاثة دراهم ، قال : أفلا أخذت منه درهمين ؟ فأخذ منه أبوه درهما ثم جاء به إلى أمير المؤمنين وهو جالس مع المسلمين على باب الرحبة فقال : أمسك هذا الدرهم ، فقال : ما شأن هذا الدرهم ؟ فقال : إنما ثمن القميص درهمين ، فقال : باعنى رضاى وأخذ رضاه .

وقال عمرو بن شمر عن جابر الجعفى عن الشعبى قال : وجد على بن أبى طالب درعه عند رجل نصرانى فأقبل به إلى شريح يخاصمه ، قال: فجاء علىّ حتى جلس جنب شريح وقال: يا شريح لو كان خصمى مسلماً ما جلست إلا معه ، ولكنه نصرانى وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم وإياهم فى طريق فاضطروهم إلى مضايقه ، وصغروا بهم كما صغر الله بهم من غير أن تطغوا » ثم قال : هذا الدرع درعى ولم أبع ولم أهب ، فقال شريح للنصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ، فالتفت شريح إلى على فقال : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال ، أصاب شريح ، مالى بينة ، فقضى بها شريح للنصرانى ، قال : فأخذه النصرانى ومشى خطا ثم رجع فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين يدنينى إلى قاضيه يقضى عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجتْ من بعيرك

(١) الطافى من السمك : الذى يعلو ويظهر على رأس الماء.

الأورق[١] . فقال : أما إذا أسلمت فهى لك ، وحمله على فرس . قال الشعبى : فأخبرنى من رآه يقاتل الخوارج يوم النهروان . وقال سعيد بن عبيد عن علىّ بن ربيعة : جاء جعدة بن هبيرة إلى على فقال : يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله ، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ، فتقضى لهذا على هذا . قال : فلهزه على وقال : إن هذا شىء لو كان لى فعلت ، ولكن إنما ذا شىء لله . وقال أبو القاسم البغوى : حدثنى جدى ثنا على بن هاشم عن صالح بياع الأكسية عن جدته قالت : رأيت علياً اشترى تمراً بدرهم فحمله فى ملحفته ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ فقال : أبو العيال أحق بحمله . وعن أبى هاشم عن زاذان قال : كان على يمشى فى الأسواق وحده وهو خليفة يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ (تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلُها للذينَ لا يُريدُونَ عُلواً فى الأرضِ ولا فساداً)[٢] ثم يقول : نزلت هذه الآية فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وعن عبادة بن زياد عن صالح بن أبى الأسود عن حدثه أنه رأى علياً قد ركب حمارا ودلى رجليه إلى موضع واحد ثم قال : أنا الذى أهنت الدنيا . وقال يحيى بن معين عن على بن الجعد عن الحسن بن صالح قال : تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون : فلان ، وقال قائلون : فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب . وقال هشام ابن حسان : بينا نحن عند الحسن البصرى إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال : يا أبا سعيد ماتقول فى على بن أبى طالب ؟ قال : فاحمرت وجنتا الحسن وقال : رحم الله علياً ، إن علياً كان سهماً لله صائباً فى أعدائه ، وكان فى محلة العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ ، وكان رهبانىّ هذه الأمة ، لم يكن لمال الله بالسُّرُوقة ، ولا فى أمر الله بالنُّوَمة ، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه ، فكان منه فى رياض مؤنقة[٣] ، وأعلام بينة ، ذاك على بن أبى طالب يالُكَع . وقال هشيم عن يسار عن عمار . قال : حدث رجل على بن أبى طالب بحديث فيكذبه فما قام حتى عمى . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى شريح بن يونس ثنا هشيم عن إسماعيل بن سالم عن عمار الحضرمى عن زاذان أبى عمر أن رجلا حدث علياً بحديث فقال : ما أراك إلا قد كذبتنى ، قال : لم أفعل ، قال : أدعو عليك إن كنت كذبت ، قال : ادع ! فدعا فما برح حتى عمى .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا خلف بن سالم ثنا محمد بن بشر عن أبى مكين قال : مررت أنا وخالى أبو أمية على دار فى محل حىّ من مراد ، قال : ترى هذه الدار ؟ قلت : نعم ! قال : فإن علياً مر عليها وهم يبنونها فسقطت عليه قطعة فشجته ، فدعا الله أن لا يكمل بناؤها ، قال : فما

---

(١) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد وهو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً وعملا

(٢) من الآية ٨٣ من سورة القصص (٣) أى حسنة معجبة .

وضعت عليها لبنة ، قال : فكنت فين يمرّ عليها لا تشبه الدور . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى عبد الله بن يونس بن بكير الشيبانى ، عن أبيه عن عبد الغفار بن القاسم الأنصارى ، عن أبى بشير الشيبانى قال : شهدت الجمل مع مولاى ، فما رأيت يوماً قط أكثر ساعداً نادراً وقدماً نادرة من يومئذ ، ولا مررت بدار الوليد قط إلا ذكرت يوم الجمل ، قال : فحدثنى الحكم بن عيينة أن علياً دعا يوم الجمل فقال : اللهم خذ أيديهم وأقدامهم .

ومن كلامه الحسن رضى الله عنه ، قال ابن أبى الدنيا : حدثنا على بن الجعد، أنا عمرو بن شمر حدثنى إسماعيل السدى ، سمعت أبا أراكة يقول : صليت مع علىّ صلاة الفجر فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة ، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح ، صلى ركعتين ثم قلب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون صُفراً شُعْثا غُبراً ، بين أعينهم كأمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادُوا كما يميدُ الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبتلّ ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين ، ثم نهض فما رؤى بعد ذلك مفتراً يضحك حتى قتله ابن ملجم عدوّ الله الفاسق . وقال وكيع عن عمرو بن منبه عن أوفى بن دَلْهَم عن على بن أبى طالب أنه قال : تعلموا العلم تُعرفوا به ، واعملوا تكونوا من أهله ، فإنه يأتى من بعدكم زمان ينكر فيه من الحق تسعةُ أعشاره ، وإنه لا ينجو منه إلا كل أوّاب منيب ، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم ، ليسوا بالعُجُل المذاييع[1] البُذُر ، ثم قال : ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد أتت مقبلة ، ولكل واحدة بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وإن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب فراشاً ، والماء طيباً . ألا من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصائب .

ألا إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين ، وأهل النار فى النار معذبين ، شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة ؛ أما الليل فصافّون أقدامهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى الله فى فكاك رقابهم . وأما النهار فعلماء حلماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح[2] ينظر إليهم الناظر فيقول مَرْضى، وما بالقوم من مرض ، وخولطوا ولقد خالط القوم أمر عظيم .

(١) المذاييع : جمع مذياع ، من أذاع الشىء إذا أفشاه ، وقيل المراد : الذين يشيعون الفواحش والبذر : جمع بذور وهو الذى يذيع الأسرار ويفشيها .

(٢) القداح : جمع قدح بالكسر وهو السهم قبل أن يراش وينصل .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : صعد عليّ ذات يوم المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الموت فقال : عباد الله الموت ليس منه فوت ، إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، فالنجا النجا ، والوحا[١] الوحا ، إن وراءكم طالب حثيث ، القبر فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته ، ألا وإن القبر حفرة من حُفَر النار ، أو روضة من رياض الجنة . ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث مرات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الدود ، أنا بيت الوحشة ألا وإنّ وراء ذلك يوم يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير ، (وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَما هُمْ بِسُكَارَى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ)[٢] . ألا وإنّ وراء ذلك ما هو أشد منه ؛ نار حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها ومقامعها من حديد ، وماؤها صديد ، وخازنها مالك ليس لله فيه رحمة . قال : ثم بكى وبكى المسلمون حوله ، ثم قال : ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جعلنا الله وإياكم من المتقين ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم .

ورواه ليث بن أبي سليم عن مجاهد ، حدثنى من سمع عليا فذكر نحوه . وقال وكيع عن عمرو ابن منبه عن أوفى بن دلهم قال : خطب عليّ فقال : أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم وغداً السباق ، ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن قصّر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله . ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرّهبة . ألا وإنه لم أر كالجنة نام طالبها ، ولم أر كالنار نام هاربها ، وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى حاد به الضلال . ألا وإنكم قد أمرتم بالظّعن ، ودللتم على الزاد . ألا أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البرّ والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر . ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، (واللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيم)[٣] أيها الناس ! أحسنوا فى أعماركم تحفظوا فى أعقابكم ، فإن الله وعد جنته من أطاعه ، وأوعد ناره من عصاه ، إنها نار لا يهدأ زفيرها ، ولا يُفَكّ أسيرها ، ولا يجبر كسيرها ، حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، وماؤها صديد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، وفى رواية : فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وإن طول الأمل ينسى الآخرة .

وعن عاصم بن ضمرة قال : ذم رجل الدنيا عند عليّ فقال علي : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غناء وزاد لمن تزوّد منها ، ومهبط وحى الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمّها

(١) أى : الإسراع والعجلة (٢) من الآية ٢ من أول سورة الحج

(٣) من الآية ٢٦٨ من سورة البقرة

وَقدآذنت بنَيلها[1] ، وَبادت بفراقها ، وشابت بشرورها السرور ، وَبيلائها الرغبة فيها وَالحرص عليها ترغيباً وترهيباً ، فيا أيها الذام للدنيا المعلّل نفسه بالأمانى : متى خدعتك الدنيا ، أو متى اسدمت[2] إليك ؟ أبمصارع آبائك فى البلا ؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم مرضت بيديك ، وعللت بكفيك ، من تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ؟ لا يغنى عنه دواؤك ، ولا ينفعه بكاؤك . وقال سفيان الثورى والأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى قال : جاء رجل إلى على فأطراه ـ وكان يبغض علياً ـ فقال له : لست كما تقول ، وأنا فوق مافى نفسك . وروى ابن عساكر أن رجلا قال لعلى : ثبتك الله ، قال : على صدرك . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا إسحاق بن إسماعيل ثنا سفيان بن عيينة عن أبى حمزة عن يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر قال : قال على : إن الأمر ينزل إلى السماء كقطر المطر ، لكل نفس ما كتب الله لها من زيادة أو نقصان فى نفس أو أهل أو مال ، فمن رأى نقصاً فى نفسه أو أهله أو ماله ، ورأى لغيره عثرة ، فلا يكونن ذلك له فتنة ؛ فإن المسلم مالم يغش دناءة يظهر تخشعاً لها إذا ذكرت ، ويغرى به لئام الناس ، كالياسر الفالج ينتظر أول فوزة من قداحه توجب له المغنم ، وتدفع عنه المغرم ، فكذلك المسلم البرىء من الخيانة بين إحدى الحسنيين ، إذا ما دعا الله ، فما عند الله خير له ، وإما أن يرزقه الله مالا فإذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه ، وإما أن يعطيه الله فى الآخرة فالآخرة خير وأبقى . الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والتقوى ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام . قال سفيان الثورى : ومن يحسن أن يتكلم بهذا الكلام إلا علىّ ؟ وقال عن زبيد اليامى عن مهاجر العامرى قال : كتب علىّ بن أبى طالب عهداً لبعض أصحابه على بلد فيه : أما بعد فلا يطولن احتجابك عن رعيتك ، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة الضيق ، وقلة علم بالأمور . والاحتجاب يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيضعف عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل . وإنما الوالى بشر لا يعرف ما يوارى عنه الناس به من الأمور ، وليس على القوم سمات يعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، فتحصن من الادخال فى الحقوق بلين الحجاب ، فإنما أنت أحد الرجلين ؛ إما امرؤ شحّت نفسك بالبذل فى الحق ففيم احتجابك من حق واجب عليك أن تعطيه ؟ وخلق كريم تسدى به ؟ وإما مبتلى بالمنع والشح فما أسرع زوال نعمتك ، وما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مالا مؤنة فيه عليك ، من شكاية مظلمة أو طلب انصاف ، فانتفع بما وصفت لك ، واقتصر على حظك ورشدك إن شاء الله .

---

(١) النيل : الماء الذى يجرى على وجه الأرض والذى تراه قريبا وهو بعيد .

(٢) السدم « بالتحريك » الندم والحزن وقيل : هم مع ندم أو غيظ مع حزن.

وقال المدائني : كتب عليّ إلى بعض عماله : رويداً فكأن قد بلغت المدى ، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادى المغتر بالحسرة ، ويتمنى المضيع التوبة ، والظالم الرجعة . وقال هشيم : أنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي قال : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عليّ يقول الشعر ، وكان عليّ أشعر الثلاثة . ورواه هشام بن عمار عن إبراهيم بن أعين عن عمر بن أبي زائدة عن عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي فذكره . وقال أبو بكر بن دريد قال : وأخبرنا عن دماد عن أبي عبيدة قال : كتب معاوية إلى عليّ : يا أبا الحسن ! إن لي فضائل كثيرة ، وكان أبي سيداً في الجاهلية ، وصرت ملكا في الإسلام ، وأنا صهر رسول الله ﷺ ، وخال المؤمنين ، وكاتب الوحي . فقال علي : أبالفضائل يفخر عليّ ابن آكلة الأكباد ؟ ثم قال : اكتب يا غلام

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي

وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي ... مَسُوط[1] لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي

سبقتكم إلى الإسلام طرا ... صغيرا ما بلغت أوان حلمي

قال : فقال معاوية : اخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلون إلى ابن أبي طالب . وهذا منقطع بين أبي عبيدة وزمان علي ومعاوية . وقال الزبير بن بكار وغيره : حدثني بكر بن حارثة عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن جابر بن عبد الله قال : سمعت علياً ينشد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع :

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي ... معه ربيت وسبطاه هما ولدي

جدي وجد رسول الله منفرد ... وفاطم زوجتي لا قول ذي فَنَد

صدقته وجميع الناس في بُهم ... من الضلالة والإشراك والنكد

فالحمد لله شكراً لا شريك له ... البَرّ بالعبد والباقي بلا أمد

قال : فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « صدقت يا علي » ، وهذا بهذا الإسناد منكر والشعر فيه ركاكة ، وبكر هذا لا يقبل منه تفرده بهذا السند والمتن والله أعلم . وروى الحافظ ابن عساكر من طريق أبي زكريا الرملي : ثنا يزيد بن هارون عن نوح بن قيس عن سلامة الكندي عن الأصبغ ابن نباته عن عليّ أنه جاءه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة ، رفعتها

---

(١) مسوط : أي ممزوج ومخلوط . والسوط خلط الشيء بعضه ببعض

إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك . فقال عليّ : اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك ، فكتب : إني محتاج ، فقال عليّ : عليّ بحلة ، فأتى بها فأخذها الرجل فلبسها ، ثم أنشأ يقول :

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ولست أبغي بما قد قلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في خير تواقعه فكل عبد سيجزى بالذي عملا

فقال علي : علي بالدنانير ، فأتى بمائة دينار فدفعها إليه ، قال الأصبغ : فقلت : يا أمير المؤمنين حلة ومائة دينار ؟ قال : نعم ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنزلوا الناس منازلهم » وهذه منزلة هذا الرجل عندي . وروى الخطيب البغدادي من طريق أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن نبيط شريط ، عن أبيه عن جده قال : قال علي بن أبي طالب :

إذا اشتملت على الناس القلوب وضاق بما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به القريب المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بهـا الفرج القريب

ومما أنشده أبو بكر محمد بن يحيى الصولي لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

ألا فاصبر على الحدث الجليل وداو جواك بالصبر الجميل
ولا تجزع فإن أعسرت يوماً فقد أيسرت في الدهر الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميـل
فإن العسر يتبعـه يسار وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تجر رزقا لكان الرزق عند ذوي العقول
فكم من مؤمن قد جاع يوماً سيروى من رحيق السلسبيل

فمن هوان الدنيا على الله أنه سبحانه يجيع المؤمن مع نفاسته ، ويشبع الكلب مع خساسته ، والكافر يأكل ويشرب ، ويلبس ويتمتع ، والمؤمن يجوع ويعرى ، وذلك لحكمة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين ومما أنشده علي بن جعفر الوراق لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب

أجد الثياب إذا اكتسيتَ فإنها زين الرجال بها تُعزّ وتكرم
ودع التواضع فى الثياب تخشعا فالله يعلم ما تجنّ وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زُلفة عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرّك بعد أن تخشى الإله وتتقى ما يحرم

وهذا كما جاء فى الحديث : « إن الله لا ينظر إلى صُورِكُمْ ولا إلى ثيابكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال الثورى : ليس الزُّهد فى الدنيا بلبس العَبا ولا بأكل الخشن ، إنما الزهد فى الدنيا قصر الأمل وقال أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد : كان مكتوبا على سيف علىّ :

للناس حرص على الدنيا وتدبير وفى مراد الهوى عقل وتشمير
وإن أتوا طاعة لله ربهم فالعقل منهم عن الطاعات مأسور
لأجل هذا وذاك الحرص قد مزجت صفاء عيشاتها هم وتكدير
لم يرزقوها بعقل عندما قسمت لكنهم رزقوها بالمقادير
كم من أديب لبيب لا تساعده ومائق[1] نال دنياه بتقصير
لو كان عن قوة أو عن مغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وقال الأصمعى : ثنا سلمة بن بلال ، عن مجالد عن الشعبى قال : قال على بن أبى طالب لرجل كره له صحبة رجل :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل جاهل أودى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه وللشىء على الشىء مقاييس وأشباه
والقلب على القلب دليل حين يلقاه

وعن عمرو بن العلاء، عن أبيه قال : وقف علىّ على قبر فاطمة وأنشأ يقول :

ذكرت أبا أروى فبت كأننى برد الهموم الماضيات وكيل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذى قبل الممات قليل
وإن افتقادى واحداً بعد واحد دليل على أن لا يدوم خليل
سيعرض عن ذكرى وتُنسى مودّتى ويحدث بعدى للخليل خليل
إذا انقطعت يوماً من العيش مدتى فإن غناء الباكيات قليل

وأنشد بعضهم لعلى رضى الله عنه :

حقيق بالتواضع من يموت ويكفى المرء من دنياه قوت

---

(١) المائق : الأحمق فى غباء ، وقيل : القليل الحزم والثبات

فيا للمرء يصبح ذا هموم   وحرص ليس تدركه النعوت
صنيع مليكنا حسن جميل   وما أرزاقــــه عنا تفوت
فيا هذا سترحل عن قليل   إلى قوم كلامهم السكوت

وهذا الفصل يطول استقصاؤه ، وقد ذكرنا منه ما فيه مقنع لمن أراده ، ولله الحمد والمنة

وقال حماد بن سلمة عن أيوب السختياني أنه قال : من أحب أبا بكر فقد أقام الدين ، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحبّ عثمان فقد استنار بنور الله ، ومن أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن قال الحسنى فى أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق .

غريبة من الغرائب وآبدة من الأوابد

قال ابن أبى خيثمة : ثنا أحمد بن منصور ، ثنا سيار ثنا عبد الرزاق قال : قال معمر وأنا مستقبله وتبسم وليس معنا أحد ، فقلت له : ما شأنك ؟ قال: عجبت من أهل الكوفة كأن الكوفة إنما بنيت على حبّ على ، ما كلمت أحداً منهم إلا وجدت المقتصد منهم الذى يفضّل علياً على أبى بكر وعمر ؛ منهم سفيان الثورى ، قال : فقلت لمعمر ورأيته ؟ ـ كأنى أعظمت ذاك ـ فقال معمر : وما ذاك ؟ لو أن رجلا قال علىّ أفضل عندى منهما ما عبته إذا ذكر فضلهما ، ولو أن رجلا قال : عمر عندى أفضل من علىّ وأبى بكر ما عنفته قال عبد الرزاق : فذكرت ذلك لوكيع بن الجراح ونحن خاليين فاستهالها[1] من سفيان وضحك وقال : لم يكن سفيان يبلغ بنا هذا الحد ، ولكنه أفضى إلى معمر بما لم يفض إلينا ، وكنت أقول لسفيان : يا أبا عبد الله ، أرأيت إن فضّلنا علياً على أبى بكر وعمر ما تقول فى ذلك ؟ فيسكت ساعة ثم يقول : أخشى أن يكون ذلك طعنا على أبى بكر وعمر ولكنا نقف . قال عبد الرزاق : وأما ابن التيمى ـ يعنى معتمراً ـ فقال : سمعت أبى يقول : فضل علىّ بن أبى طالب بمائة منقبة وشاركهم فى مناقبهم ، وعثمان أحبّ إليه منه . هكذا رواه ابن عساكر فى تاريخه بسنده عن ابن أبى خيثمة به . وهذا الكلام فيه تخبيط كثير ولعله اشتبه على معمر فإن المشهور عن بعض الكوفيين تقديم علىّ على عثمان ، فأما على الشيخين فلا ، ولا يخفى فضل الشيخين على سائر الصحابة إلا على غبىّ ، فكيف يخفى على هؤلاء الأئمة ؟ بل قد قال غير واحد من العلماء ـ كأيوب والدارقطنى ـ من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار . وهذا الكلام حق وصدق وصحيح ومليح .

وقال يعقوب بن أبى سفيان : ثنا عبد العزيز بن عبد الله الأريسى ثنا إبراهيم بن سعد عن شعبة عن أبى عون ـ محمد بن عبد الله الثقفى ـ عن أبى صالح الحنفى قال : رأيت علىّ بن

(١) أى أفزعته هذه المقالة ، يقال : استهال فلان كذا يستهيله ـ أى أفزعه فزع

أبي طالب أخـذ المصحف فوضعه على رأسه حتى إني لأرى ورقه يتقعقع ، قال : ثم قال: اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه ، فأعطنى ثواب ما فيه . ثم قال : اللهم إنى قد مللتهم وملونى وأبغضتهم وأبغضونى ، وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تعرف لى . اللهم فأبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى شراً منى . اللهم أمِت قلوبهم مَوت الملح فى الماء . قال إبراهيم : ـ يعنى أهل الكوفة . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى عبد الرحمن بن صالح ، ثنا عمرو بن هشام الجنبى عن أبى خباب عن أبى عوف الثقفى ، عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال لى الحسن بن علىّ قال لى على : « إنّ رسول الله ﷺ سنَح لى[1] الليلة فى منامى فقلت : يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الأوَد[2] واللَّدَد ؟ قال : ادعُ عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى ، فخرج فضربه الرجل . وقد قدمنا الحديث الوارد بالإخبار بقتله ، وأنه يخضب لحيته من قرن رأسه ، فوقع كما أخبر ـ صلوات الله وسلامه على رسوله .

وروى أبو داود فى كتاب القدر : أنه لما كان أيام الخوارج ، كان أصحاب على يحرسونه كل ليلة عشرة ـ يبيتون فى المسجد بالسلاح ـ فرآهم علىّ فقال : ما يجلسكم ؟ فقالوا : نحرسك ، فقال : من أهل السماء ؟ ثم قال : إنه لا يكون فى الأرض شىء حتى يقضى فى السماء ، وإن علىّ من الله جنة حصينة . وفى رواية : وإن الرجل جنة محصونة ، وإنه ليس من الناس أحد إلا وقد وكل به ملك فلا تريده دابة ولا شىء إلا قال : اتقِه اتقِه فإذا جاء القدر خلا عنه ، وفى رواية : ملكان يدفعان عنه ، فإذا جاء القدر خليا عنه ، وإنه لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وكان علىّ يدخل المسجد كل ليلة فيصلى فيه ، فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها قلق تلك الليلة وجمع أهله ، فلما خرج إلى المسجد صرخ الأوز فى وجهه فسكتوهن عنه ، فقال : ذروهنّ فإنهن نوائح ، فلما خرج إلى المسجد ضربه ابن مُلْجَم فكان ما ذكرنا قبل . فقال الناس : يا أمير المؤمنين ألا نقتل مراداً كلها ؟ فقال : لا ـ ولكن احبسوه وأحسنوا إساره ، فإن مت فاقتلوه وإن عشت فالجروح قصاص . وجعلت أم كلثوم بنت علىّ تقول: مالى ولصلاة الغداة، قتل زوجى عمر أمير المؤمنين صلاة الغداة، وقتل أبى أمير المؤمنين صلاة الغداة ، رضى الله عنهما . وقيل لعلى: ألا تستخلف ؟ فقال : لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ، فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ ، فهذا اعتراف منه فى آخر وقت الدنيا بفضل الصديق . وقد ثبت عنه بالتواتر أنه خطب بالكوفة فى أيام خلافته ودار إمارته ، فقال : أيها الناس إن خير

(١) أى مرّ بى (٢) الأود : العوج ، واللدد الخصومة

هذه الأمة بعد نبيها ـ أبو بكر ، ثم عمر ، ولو شئت أن أسمى الثالث اسميت وعنه أنه قال وهو نازل من المنبر : ثم عثمان ثم عثمان . ولما مات على ولى غسله ودفنه أهله ، وصلى عليه ابنه الحسن وكبر أربعاً ، وقيل أكثر من ذلك . ودفن على بدار الخلافة بالكوفة ، وقيل تجاه الجامع من القبلة فى حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة ، بحذاء باب الورّاقين ، وقيل بظاهر الكوفة ، وقيل بالكناسة ، وقيل دفن بالبرية . وقال شريك القاضى وأبو نعيم الفضل بن دُكين : نقله الحسن ابن علىّ بعد صلحه مع معاوية من الكوفة ، فدفنه بالمدينة بالبقيع إلى جانب فاطمة بنت رسول الله ﷺ . وقال عيسى بن دأب : بل لما تحملوا به حملوه فى صندوق على بعير ، فلما مروا به ببلاد طىء أضلوا ذلك البعير فأخذته طىء تحسب فيه مالا ، فلما وجدوا بالصندوق ميتا دفنوه فى بلادهم فلا يعرف قبره إلى الآن .

والمشهور أن قبره إلى الآن بالكوفة ، كما ذكر عبد الملك بن عمران : أن خالد بن عبد الله القسرى ـ نائب بنى أمية فى زمان هشام ـ لما هدم دوراً ايبنيها وجد قبراً فيه شيخ أبيض الرأس واللحية ، فإذا هو علىّ ، فأراد أن يحرقه بالنار فقيل له : أيها الأمير إن بنى أمية لا يريدون منك هذا كله ، فلفّه فى قباطى ودفنه هناك قالوا : فلا يقدر أحد أن يسكن تلك الدار التى هو فيها إلا ارتحل منها . رواه ابن عساكر . ثم إن الحسن بن على استحضر عبد الرحمن بن ملجم من السجن ، فأحضر الناس النّفط والبوارى[1] ليحرقوه ، فقالوا لهم أولاد علىّ : دعونا نشتفى منه ، فقطعت يداه ورجلاه فلم يجزع ولا فتر عن الذّكر ، ثم كحلت عيناه وهو فى ذلك يذكر الله وقرأ سورة : (اقرأ باسم ربّك ـ إلى آخرها) وإن عينيه لتسيلان على خديه ، ثم حاولوا لسانه ليقطعوه فجزع من ذلك جزعاً شديداً ، فقيل له فى ذلك فقال : إنى أخاف أن أمكث فى الدنيا فواقاً[2] لا أذكر الله . فقتل عند ذلك وحرق بالنار ، قبحه الله .

قال محمد بن سعد : كان ابن مُلجم رجلا أسمر حسن الوجه أبلج ، شعره مع شحمة أذنه ، فى جبهته أثر السجود . قال العلماء : ولم ينتظر بقتله بلوغ العباس بن على فإنه كان صغيراً يوم قتل أبوه ، قالوا : لأنه كان قُتلَ محاربة لا قصاصاً ، والله أعلم . وكان طعن على يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين بلا خلاف ، فقيل: مات من يومه ، وقيل: يوم الأحد التاسع عشر منه ، قال الفلاس : وقيل: ضرب ليلة إحدى وعشرين ومات ليلة أربع وعشرين عن بضع أو ثمان وخمسين سنة ، وقيل عن ثلاث وستين سنة وهو المشهور ، قاله محمد بن الحنيفة ، وأبو جعفر الباقر وأبو إسحاق السبيعى ، وأبو بكر بن عياش . وقال بعضهم : عن ثلاث أو أربع وسبعين

---

(١) البوارى : الحصير المصنوع من القصب. (٢) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت .

سنة . وعن أبي جعفر الباقر خمس وستين سنة . وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، وقيل : أربع سنين وثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ، رضي الله عنه .

وقال جرير عن مغيرة قال : لما جاء نعي عليّ بن أبي طالب إلى معاوية وهو نائم مع امرأته فاختة بنت قرظة في يوم صائف ، جلس وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وجعل يبكي فقالت له فاختة : أنت بالأمس تطعن عليه واليوم تبكي عليه ، فقال : ويحك إنما أبكي لما فقد الناس من حلمه وعلمه وفضله وسوابقه وخيره . وذكر ابن أبي الدنيا - في كتاب مكائد الشيطان - أن رجلا من أهل الشام من أمراء معاوية ، غضب ذات ليلة على ابنه فأخرجه من منزله ، فخرج الغلام لا يدري أين يذهب ، فجلس وراء الباب من خارج ، فنام ساعة ثم استيقظ وبابه يخمشه هرّ أسود برى ، فخرج إليه الهرّ الذي في منزلهم فقال له البرى : ويحك ! افتح فقال : لا أستطيع ، فقال ويحك ائتني بشيء أتبلغ به فإني جائع وأنا تعبان ، هذا أوان مجيئي من الكوفة ، وقد حدث الليلة حدث عظيم ، قتل عليّ بن أبي طالب ، قال : فقال له الهر الأهلي : والله إنه ليس ها هنا شيء إلا وقد ذكروا اسم الله عليه ، غير سفّود كانوا يشوون عليه اللحم ، فقال : ائتني به ، فجاء به فجعل يلحسه حتى أخذ حاجته وانصرف ، وذلك بمرأى من الغلام ومسمع ، فقام إلى الباب فطرقه فخرج إليه أبوه فقال له : ويحك من ؟ فقال له : افتح ، فقال : ويحك مالك ؟ فقال : افتح ، ففتح فقص عليه خبر ما رأى . فقال له : أمنام هذا ؟ قال : لا والله ، قال : ويحك ! أفأصابك جنون بعدي ؟ قال : لا والله ، ولكن الأمر كما وصفت لك ، فاذهب إلى معاوية الآن فاتخذ عنده يدا بما قلت لك ، فذهب الرجل فاستأذن على معاوية فأخبره خبر ما ذكر له ولده فأرّخوا ذلك عندهم قبل مجيء البُرُد[1] ، ولما جاءت البُرُد وجدوا ما أخبروهم به مطابقا لما كان أخبر به أبو الغلام ، هذا ملخص ما ذكره .

وقال أبو القاسم : ثنا علي بن الجعد ثنا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عمرو بن الأصم قال : قلت للحسين بن علي : إن هذه الشيعة يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : كذبوا والله ما هؤلاء بالشيعة ، لو علمنا أنه مبعوث ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله . ورواه أسباط بن محمد عن مطرف عن إسحاق عن عمرو بن الأصم عن الحسن بن علي بنحوه .

خلافة الحسن بن علي رضي الله عنه ، وعن أبيه وأمه

قد ذكرنا أن عليا رضي الله عنه لما ضربه ابن ملجم قالوا له : استخلف يا أمير المؤمنين فقال : لا - ولكن أدعكم كما تركـكم رسول الله ﷺ - يعني بغير استخلاف - فإن يرد الله بكم

---

(١) البرد : جمع بريد والبريد الرسول على دواب البريد وإبراده إرساله وبرد بريداً - أرسله

خيرا بجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ ، فلما توفى صلى عليه ابنه الحسن - لأنه أكبر بنيه رضى الله عنهم - ودفن كما ذكرنا بدار الإمارة على الصحيح من أقوال الناس ، فلما فرغ من شأنه كان أول من تقدم إلى الحسن بن على - رضى الله عنه - قيس بن سعد بن عبادة فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ، فسكت الحسن فبايعه ، ثم بايعه الناس بعده ، وكان ذلك يوم مات على ، وكان موته يوم ضُرب - على قول - وهو يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين ، وقيل : إنما مات بعد الطعنة بيومين ، وقيل : مات فى العشر الأخير من رمضان ، ومن يومئذ ولى الحسن بن على . وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان ، تحت يده أربعون ألف مقاتل ، قد بايعوا علياً على الموت . فلما مات على ألح قيس ابن سعد على الحسن فى النفير لقتال أهل الشام ، فعزل قيساً عن إمرة أذربيجان ، وولى عبد الله ابن عباس عليها ، ولم يكن فى نية الحسن أن يقاتل أحداً ، ولكن غلبوه على رأيه ، فاجتمعوا اجتماعا عظيما لم يسمع بمثله ، فأمّر الحسن بن على - قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة فى اثنى عشر ألفاً بين يديه ، وسار هو بالجيوش فى أثره قاصداً بلاد الشام ، ليقاتل معاوية وأهل الشام ، فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدم المقدمة بين يديه ، فبينما هو فى المدائن معسكراً بظاهرها ، إذ صرخ فى الناس صارخ : ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قُتل ، فثار الناس فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً حتى انتهبوا سرادق الحسن ، حتى نازعوه بساطا كان جالساً عليه ، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتوه وأشوته[1] فكرههم الحسن كراهية شديدة ، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن فنزله وهو جريح ، وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفى - أخو أبى عبيد صاحب يوم الجسر - فلما استقر الجيش بالقصر ، قال المختار بن أبى عبيد - قبحه الله - لعمه سعد ابن مسعود : هل لك فى الشرف والغنى ؟ قال : وماذا ؟ قال : تأخذ الحسن بن على فتقيده وتبعثه إلى معاوية ، فقال له عمه : قبحك الله وقبح ما جئت به ، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ ؟

ولما رأى الحسن بن على تفرق جيشه عليه مقتهم ، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان - وكان قد ركب فى أهل الشام فنزل مَسْكِن[2] - يراوضه على الصلح بينهما ، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة ، فقدما عليه الكوفة فبذلا له ما أراد من الأموال ، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم ، وأن يكون خراج دارابجرد[3] له ، وأن لا يسب على وهو يسمع . فإذا فعل ذلك نزل عن الإمرة لمعاوية . ويحقن الدماء بين المسلمين . فاصطلحوا على ذلك واجتمعت الكلمة على معاوية على ما سيأتى بيانه وتفصيله ، وقد لام الحسين

---

(١) أشوته : أى نالت منه ولم تصب مقتله (٢) موضع بالكوفة (٣) بلد من بلاد فارس

لأخيه الحسن على هذا الرأى فلم يقبل منه، والصواب مع الحسن رضى الله عنه كما سنذكر دليله قريباً . وبعث الحسن بن على إلى أمير المقدّمة قيس بن سعد أن يَسمع ويطيع ، فأبى قيس بن سعد من قبول ذلك ، وخرج عن طاعتهما جميعاً ، واعتزل بمن أطاعه ، ثم راجع الأمر فبايع معاوية بعد قريب كما سنذكره . ثم المشهور أن مبايعة الحسن لمعاوية كانت فى سنة أربعين ، ولهذا يقال له : عام الجماعة ؛ لاجتماع الكلمة فيه على معاوية ، والمشهور عند ابن جرير وغيره من علماء السير ، أن ذلك كان فى أوائل سنة إحدى وأربعين كما سنذكره إن شاء الله . وحج بالناس فى هذه السنة ــ أعنى سنة أربعين ــ المغيرةُ بن شُعبة ، وزعم ابن جرير فيما رواه عن إسماعيل بن راشد ، أن المغيرة بن شعبة افتَعل كتاباً على لسان معاوية لِيلِىَ إمرة الحج عامئذ ، وبادر إلى ذلك عتبة بن أبى سفيان ، وكان معه كتاب من أخيه بإمرة الحج ، فتعجل المغيرة ، فوقف بالناس يوم الثامن ليسبق عُتبة إلى الإمرة . وهذا الذى نقله ابن جرير لا يقبل ، ولا يظن بالمغيرة رضى الله عنه ذلك ، وإنما نبهنا على ذلك ليعلم أنه باطل ، فإن الصحابة أجلّ قدراً من هذا ، ولكن هذه نزعة شيعية .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة بويع لمعاوية بإيلياء ، يعنى لما مات علىّ ــ قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع ، فعند ذلك أقام أهل العراق الحسن بن على رضى الله عنه ليمانعوا به أهل الشام ، فلم يتم لهم ما أرادوه وما حاولوه ، وإنما كان خذلانهم من قبل تدبيرهم وآرائهم المختلفة المخالفة لأمرائهم ، ولو كانوا يعلمون لعظّموا ما أنعم الله به عليهم؛ من مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ ، وسيد المسلمين ، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوى آرائهم . والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين ــ الحديث الذى أوردناه فى دلائل النبوة من طريق سفينة مَوْلَى رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلكا » وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على ؛ فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ ، فإنه تُوفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليما . وقد مدحه رسول الله ﷺ على صنيعه هذا ؛ وهو تركه الدنيا الفانية ، ورغبته فى الآخرة الباقية ، وحقنه دماء هذه الأمة ، فنزل عن الخلافة وجعل الملك بيد معاوية حتى تجتمع الكلمة على أمير واحد . وهذا المدح قد ذكرناه ، وسنورده فى حديث أبى بكرة الثقفى أن رسول الله ﷺ صعد المنبر يوماً وأجلس الحسن بن على إلى جانبه ، فجعل ينظر إلى الناس مرة وإليه أخرى ثم قال : « أيها الناس إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » رواه البخارى .

سنة إحدى وأربعين

قال ابن جرير : فيها سلّم الحسن بن علي الأمر لمعاوية بن أبي سفيان . ثم روى عن الزهري أنه قال : لما بايع أهل العراق الحسن بن علي طفق يشترط عليهم أنهم سامعون مطيعون يسالمون من سالمت، يحاربون من حاربت . فارتاب به أهل العراق وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ؟ فما كان عن قريب حتى طعنوه فأشووه ، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً، فعند ذلك عرف تفرقهم واختلافهم عليه وكتب إلى معاوية يسالمه ويراسله في الصلح بينه وبينه على ما يختاران وقال البخاري في كتاب الصلح : حدثنا عبد الله بن محمد، ثنا سفيان عن أبي موسى قال : سمعت الحسن يقول : « استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص : إني لأرى كتائب لا تولّي حتى تقتل أقرانها ، فقال معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ : إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس ؟ من لي بضعفتهم ؟ من لي بنسائهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس ـ عبدالرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر ـ فقال : اذهبا إلى هذا الرجل فأعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه ، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه ، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها ، قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك، قال : فمن لي بهذا ؟ قالا: نحن لك به ،فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به ، فصالحه». قال الحسن[1] : ولقد سمعت أبا بكرة يقول:رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

قال البخاري : قال لي علي بن المديني : إنما ثبت عندنا سماع الحسن بن أبي بكرة بهذا الحديث، قلت : وقد روى هذا الحديث البخاري في كتاب الفتن، عن علي بن عبد الله ـ وهو ابن المديني ، وفي فضائل الحسن عن صدقة بن الفضل ـ ثلاثتهم عن سفيان . ورواه أحمد عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ عن إسرائيل بن موسى البصري به . ورواه أيضاً في دلائل النبوة عن عبد الله بن محمد ـ وهو ابن أبي شيبة ـ ويحيى بن آدم ، كلاهما عن حسين بن الجعفي عن إسرائيل عن الحسن ـ وهو البصري به . وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائي،من حديث حماد بن زيد عن علي بن زيد عن الحسن البصري به . ورواه أبو داود أيضاً والترمذي من طريق أشعث عن الحسن به . وقال الترمذي : حسن صحيح. وقد رواه النسائي من طريق عوف الأعرابي وغيره ،عن الحسن البصري مرسلا .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنا معمر أخبرني من سمع الحسن يحدث عن أبي بكرة قال : « كان النبي ﷺ يحدثنا يوماً والحسن بن علي في حجره فيقبل على أصحابه فيحدثهم ثم يقبل على الحسن

(١) الحسن هو أبو سعيد البصري . رضي الله عنه

فقبله ثم قال : « إن ابنى هذا سيد إن يعيش يصلح بين طائفتين من المسلمين » . قال الحافظ ابن عساكر : كذا رواه معمر، ولم يسم الذى حدثه به عن الحسن . وقد رواه جماعة عن الحسن منهم: أبو موسى إسرائيل، ويونس بن عبيد ، ومنصور بن زاذان ، وعلى بن زيد ، وهشام بن حسان ، وأشعث بن سوّار ، والمبارك بن فضالة ، وعمرو بن عبيد القدرى. ثم شرع ابن عساكر فى تطريق[1] هذه الروايات كلها فأفاد وأجاد . قلت: والظاهر أن معمراً رواه عن عمرو بن عبيد فلم يفصح باسمه. وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار عنه وسماه ، ورواه أحمد بن هاشم عن مبارك بن فضالة عن الحسن بن أبى بكرة، فذكر الحديث. قال الحسن: فوالله والله بعد أن ولى لم يهراق فى خلافته ملء محجمة بدم ، قال شيخنا أبو الحجاج المزى فى أطرافه : وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أم سلمة . وقد روى هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ للحسن : « إن ابنى هذا سيد يصلح الله به بين فئتين من المسلمين » . وكذا رواه عبد الرحمن بن معمر عن الأعمش به . وقال أبو يعلى: ثنا أبو بكر، ثنا زيد بن الحباب، ثنا محمد بن صالح التمار المدنى ، ثنا محمد بن مسلم بن أبى مريم عن سعيد بن أبى سعيد المدنى قال : كنا مع أبى هريرة إذ جاء الحسن بن على قد سلّم علينا قال: فتبعه [فلحقه] وقال : وعليك السلام يا سيدى ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيد » .

وقال أبو الحسن على بن المدينى : كان تسليم الحسن الأمر لمعاوية فى الخامس من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، وقال غيره : فى ربيع الآخر ، ويقال فى غرة جمادى الأولى فالله أعلم . قال : وحينئذ دخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها بعد البيعة وذكر ابن جرير، أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن على أن يخطب الناس ويعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية ، فأمر معاوية الحسن، فقام فى الناس خطيباً فقال فى خطبته ـ بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ : أما بعد: أيها الناس! فإن الله قد هدا كم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُوَل ، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[2] فلما قالها غضب معاوية وأمره بالجلوس ، وعتب على عمرو بن العاص فى إشارته بذلك ، ولم يزل فى نفسه لذلك والله أعلم. فأما الحديث الذى قال أبو عيسى الترمذى فى جامعه: حدثنا محمود بن غيلان ثنا أبو دواد الطيالسى، ثنا القاسم بن الفضل الحدانى، عن يوسف بن سعد قال: قام رجل إلى الحسن ابن على بعد ما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين – أو يامسوّد وجوه المؤمنين — فقال :

---

(١) أى فى تمحيصها والكشف عنها لبيان وجه الصواب فيها

(٢) من الآية: ١١١ من سورة الأنبياء .

لاتؤنِّبنى رحمك الله ، فإن النبى ﷺ أُرِى بنى أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) يا محمد ـ يعنى نهراً فى الجنة ـ ونزلت (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)[1] يملكها بعدك بنو أمية يا محمد، قال الفضل: فعددنا فإذا هى ألف شهر لاتزيد يوماً ولا تنقص . ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث القاسم ابن الفضل ،وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدى ، قال: وشيخه يوسف بن سعد ، ويقال: يوسف ابن مازن - رجل مجهول - قال: ولا يعرف هذا الحديث على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه ، فإنه حديث غريب بل منكر جداً ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب التفسير بما فيه كفاية، وبينا وجه نكارته ، وناقشنا القاسم بن الفضل فيما ذكره ، فمن أراد ذلك فليراجع التفسير ، والله أعلم

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى : ثنا إبراهيم بن مخلد بن جعفر، ثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الحكمى، ثنا عباس بن محمد، ثنا أسود بن عامر، ثنا زهير بن معاويه، ثنا أبو روق الهمدانى ثنا أبو العريف قال : كنا فى مقدمة الحسن بن على اثنا عشر ألفاً بمسكِن مستميتين من الجد على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمر طه ، فلما جاءنا بصلح الحسن بن على كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ ، فلما قدم الحسن بن على الكوفة، قال له رجل منا ـ يقال له أبو عامر سعيد بن النتل: السلام عليك يامذل المؤمنين ، فقال : لاتقل هذا ياعامر ا لست بمذل المؤمنين ، ولكنى كرهت أن أقتلهم على الملك . ولما تسلم معاوية البلاد ودخل الكوفة وخطب بها واجتمعت عليه الكلمة فى سائر الأقاليم والآفاق ، ورجع إليه قيس بن سعد أحد دهاة العرب ـ وقد كان عزم على الشقاق ـ وحصل على بيعة معاوية عامئذ الإجماع والاتفاق ، ترحل الحسن بن على ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم، وابن عمهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وجعل كلما مر بحى من شيعتهم يبكتونه على ما صنع ، من نزوله عن الأمر لمعاوية ، وهو فى ذلك هو ـ البار الراشد الممدوح ، وليس يجد فى صدره حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً ، بل هو راض بذلك مستبشر به . وإن كان قد ساء هذا خلقاً من ذويه وأهله وشيعتهم، ولا سيما بعد ذلك بمدد، وهلم جرا إلى يومنا هذا . والحق فى ذلك اتباع السنة ومدحه فيما حقن به دماء الأمة ، كما مدحه على ذلك رسول الله ﷺ كما تقدم فى الحديث الصحيح والله الحمد والمنة. وسيأتى فضائل الحسن عند ذكر وفاته ـ رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنات الفردوس متقلبه ومثواه ، وقد فعل . وقال محمد بن سعد : أنا أبو نعيم، ثنا شريك عن عاصم عن أبى رزين . قال: خطبنا الحسن بن على يوم جمعة فقرأ سورة إبراهيم على المنبر حتى ختمها . وروى ابن عساكر عن

---

(١) الآيات : من أول سورة القدر

الحسن ، أنه كان يقرأ كل ليلة سورة الكهف في لوح مكتوب ، يدور معه حيث دار من بيوت أزواجه قبل أن ينام وهو في الفراش - رضى الله عنه .

ذكر أيام معاوية بن أبي سفيان وملكه

قد تقدم في الحديث أن الخلافة بعده عليه السلام ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا ،وقد انقضت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي ؛ فأيام معاوية أول الملك ، فهو أول ملوك الإسلام وخيارهم . قال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، ثنا أحمد بن يونس ، ثنا الفضيل بن عياض عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة قالوا: قال رسول الله ﷺ: « إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضا ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض، يستحلون الحرير والفروج والخمور، ويرزقون على ذلك وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل[(1)] » إسناده جيد. وقد ذكرنا في دلائل النبوة الحديث الوارد من طريق إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر وفيه ضعف، عن عبد الملك بن عمير قال: قال معاوية : والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ لي : « يا معاوية إن ملكت فأحسن » . رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم ، عن العباس بن محمد عن محمد بن سابق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن إسماعيل ، ثم قال البيهقي : وله شواهد من وجوه أخر ، منها : حديث عمرو بن يحيى بن سعيد بن العاص عن جده سعيد : أن معاوية أخذ الإداوة فتبع رسول الله فنظر إليه فقال له : « يامعاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » قال معاوية : فما زلت أظن أني مُبتلىً بعمل لقول رسول الله ﷺ. ومنها: حديث راشد بن سعد عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ». قال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ فنفعه الله بها .

ثم روى البيهقي من طريق هشيم عن العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « الخلافة بالمدينة ، والملك بالشام » غريب جداً . وروى من طريق أبي إدريس عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم رأيت الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به ، فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام ،وإن الإيمان حين تقع الفتنة بالشام ». وقد رواه سعيد عن عبد العزيز عن عطية بن قيس، عن يونس ابن ميسرة عن عبد الله بن عمرو . ورواه الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان، عن سليمان، عن عامر عن أبي أمامة. وروى يعقوب بن سفيان عن نصر بن محمد بن سليمان السلمي الحمصي، عن أبيه عن عبد الله بن قيس ، سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عموداً من نور خرج من تحت رأسي ساطعاً حتى استقر بالشام » . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري، عن عبد الله

(١) هذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي فذكر نحوه .

ابن صفوان قال : قال رجل يوم صفين : اللهم العن أهل الشام ، فقال له على : لا تسب أهل الشام ، فإن بها الأبدال[1] — فإن بها الأبدال — فإن بها الأبدال . وقد روى هذا الحديث من وجه آخر مرفوعا .

فضل معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

هو معاوية بن أبى سفيان صخرُ بن حَرْب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى أبو عبد الرحمن القرشى الأموى، خال المؤمنين، وكاتب وحى رب العالمين. أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يوم الفتح . وقد روى عن معاوية أنه قال : أسلمت يوم عمرة القضاء، ولكنى كتمت إسلامى من أبى إلى يوم الفتح . وقد كان أبوه من سادات قريش فى الجاهلية ، وآلت إليه رياسة قريش بعد يوم بدر ، فكان هو أمير الحروب من ذلك الجانب ، وكان رئيساً مطاعا ذا مال جزيل، ولما أسلم قال: يارسول الله، مُرْنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » ، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال : نعم، ثم سأل أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته ، وهى عزة بنت أبى سفيان، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فلم يقع ذلك. وبين رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له . وقد تكلمنا على هذا الحديث فى غير موضع ، وأفردنا له مصنفا على حدة ، ولله الحمد والمنة .

والمقصود: أن معاوية كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ مع غيره من كتاب الوحى رضى عنهم . ولما فتحت الشام ولاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبى سفيان ، وأقره على ذلك عثمان ابن عفان وزاده بلاداً أخرى . وهو الذى بنى القبة الخضراء بدمشق وسكنها أربعين سنة ، قاله الحافظ ابن عساكر . ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ـ ممن باشر قتل عثمان ـ أن يعزل معاوية عن الشام ويولى عليها سهل بن حنيف، فعزله فلم ينتظم عزله، والتف عليه جماعة من أهل الشام ومانع عليا عنها وقد قال: لا أبايعه حتى يسلمنى قتلة عثمان فإنه قتل مظلوماً . وقد قال الله تعالى : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانا)[2] . وروى الطبرانى عن ابن عباس أنه قال : مازلت موقنا أن معاوية يلى الملك من هذه الآية . أوردنا سنده ومتنه عند تفسير هذه الآية. فلما امتنع معاوية من البيعة لعلى حتى يسلمه القتلة ، كان من صفين ما قدمنا ذكره ، ثم آل الأمر إلى التحكيم، فكان من أمر عمرو بن العاص وأبى موسى ما أسلفناه من قوة جانب أهل الشام فى الصورة الظاهرة ، واستفحل أمر معاوية ، ولم يزل أمر علىٍّ فى اختلاف مع أصحابه، حتى قتله

---

(١) الأبدال : جمع بدل ـ محركة وبالكسر ـ وقيل : جمع بديل ، ومعناه الخلف منه ، وقال فى اللسان : هم قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض ، أربعون بالشام وثلاثون فى سائر البلاد لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر من سائر الناس ، فلذلك سموا أبدالا .

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الإسراء .

ابن ملجم كما تقدم ، فعند ذلك بايع أهل العراق الحسن بن على ، وبايع أهل الشام معاوية بن أبى سفيان . ثم ركب الحسن فى جنود العراق عن غير إرادة منه ، وركب معاوية فى أهل الشام فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان سعى الناس بينهما فى الصلح فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة، وسلم الملك إلى معاوية بن أبى سفيان ، وكان ذلك فى ربيع الأول من هذه السنة ـ أعنى سنة إحدى وأربعين ـ ودخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها خطبة بليغة بعد ما بايعه الناس ، واستوثقت له الممالك شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وسمى هذا العام عام الجماعة، لاجتماع الكلمة فيه على أمير واحد بعد الفُرقة ، فولى معاوية قضاء الشام لفضالة بن عبيد ، ثم بعده لأبى إدريس الخولانى. وكان على شرطته قيس بن حمزة،وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومى ويقال إنه أول من اتخذ الحرس ، وأول من حزم الكتب وختمها وكان أول الأحداث فى دولته ـ رضى الله عنه .

خروج طائفة من الخوارج عليه

وكان سبب ذلك، أن معاوية لما دخل الكوفة وخرج الحسن وأهله منها قاصدين إلى الحجاز، قالت فرقة من الخوارج ـــ نحو من خمسمائة ـ : جاء مالا يشك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فساروا حتى قربوا من الكوفة، وعليهم فَرْوة بن نوفل ، فبعث إليهم معاوية خيلا من أهل الشام فطردوا الشاميين ، فقال معاوية : لا أمان لكم عندى حتى تكفوا بوائقكم[1] ، فخرجوا إلى الخوارج فقالت لهم الخوارج : ويلكم! ماتبغون منا ؟ أليس معاوية عدوكم وعدونا؟ فدعونا حتى نقاتله ؛ فإن أصبناه كنا قد كفينا كموه ، وإن أصبنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا: لا ـ والله حتى نقاتلكم ، فقالت الخوارج : يرحم الله إخواننا من أهل النهروان ، كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة ، فاقتتلوا فهزمهم أهل الكوفة وطردوهم . ثم إن معاوية أراد أن يستخلف على الكوفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال له المغيرة بن شعبة : أتوليه الكوفة وأباه مصر وتبقى أنت بين لَحْيَىِ الأسد ؟ فثناه عن ذلك وولى عليها المغيرة بن شعبة . فاجتمع عمرو بن العاص بمعاوية فقال : أتجعل المغيرة على الخراج ؟ هلا وليت الخراج رجلا آخر ! فعزله عن الخراج وولاه على الصلاة ، فقال المغيرة لعمرو فى ذلك ، فقال له : ألست المشير على أمير المؤمنين فى عبد الله بن عمرو ؟ قال : بلى ! قال : فهذه بتلك.

وفى هذه السنة وثب حُمْران بن أبان على البصرة فأخذها وتغلب عليها ، فبعث معاوية جيشاً ليقتلوه ومن معه ، فجاء أبو بكرة الثقفى إلى معاوية فسأله فى الصفح والعفو ، فعفى عنهم وأطلقهم، وولى على البصرة بُسر بن أبى أرطاة، فتسلط على أولاد زياد يريد قتلهم،وذلك أن معاوية كتب إلى أبيهم ليحضر إليه فلبث ، فكتب إليه بسر : لئن لم تسرع إلى أمير المؤمنين وإلاقتلت بنيك

[1] البوائق : جمع بائقة ، والبائقة الداهية .

فبعث أبو بكرة إلى معاوية فى ذلك . وقد قال معاوية لأبى بكرة: هل من عهد تعهده إلينا ؟ قال: نعم ! أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً فإنك تقلدت عظيما ؛ خلافة الله فى خلقه ـ فاتق الله فإن لك غاية لاتعدوها ، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشك أن يبلغ المدى فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه وهو أعلم بمنك ، وإنما هى محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرن على رضا الله شيئاً . ثم ولى معاوية فى آخر هذه السنة البصرة لعبد الله بن عامر، وذلك أن معاوية أراد أن يوليها لعتبة بن أبى سفيان فقال له ابن عامر: إن لى بها أموالا وودائع ، وإن لم توليها هلكت ، فولاه إياها وأجابه إلى سؤاله فى ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فى هذه السنة : عتبة بن أبى سفيان ، وقال الواقدى . إنما حج بهم عَنْبَسَة بن أبى سفيان ، فالله أعلم .

ومن أعيان من توفى فى هذا العام :

رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان ، شهد العقبة وبدراً وما بعد ذلك .

رُكانة بن عبد يزيد بن هشام بن عبد المطلب القرشى ، وهو الذى صارعه النبى ﷺ فصرعه، وكان هذا من أشد الرجال ، وكان غلبُ رسول الله ﷺ له من المعجزات ، كما قدمنا فى دلائل النبوة ، أسلم عام الفتح ، وقيل: قبل ذلك بمكة ، فالله أعلم .

صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن وهب القرشى ، أحد الرؤساء . تقدم أنه هرب من رسول الله ﷺ عام الفتح ، ثم جاء فأسلم وحسن إسلامه ، وكان الذى استأمن له عُمير ابن وهب الجمحى ، وكان صاحبه وصديقه فى الجاهلية كما تقدم ، وقدم به فى وقت صلاة العصر فاستأمن له فأمنه رسول الله ﷺ أربعة أشهر ، واستعار منه أدرعاً وسلاحاً ومالا وحضر صفوان حُنيناً مشركاً ، ثم أسلم ودخل الإيمان قلبه ، فكان من سادات المسلمين كما كان من سادات الجاهلية قال الواقدى : ثم لم يزل مقيما بمكة حتى توفى بها فى أول خلافة معاوية .

عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار العبدرى الحجبى ، أسلم هو وخالد ابن الوليد، وعمرو بن العاص ـ فى أول سنة ثمان قبل الفتح وقد روى الواقدى حديثاً طويلا عنه فى صفة إسلامه، وهو الذى أخذ منه رسول الله مفتاح الكعبة عام الفتح ثم رده إليه وهو يتلو قوله تعالى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)[1] وقال له : « خذها ياعثمان خالدة تالدة لاينتزعها منكم إلا ظالم » وكان علىّ قد طلبها فمنعه من ذلك . قال الواقدى : نزل المدينة حياة

(١) من الآية ٥٨ من سورة النساء .

رسول الله ، فلما مات نزل بمكة ، فلم يزل بها حتى مات فى أول خلافة معاوية .

عمرو بن الأسود السكونى ، كان من العباد الزهاد ، وكانت له حلة بمائتى درهم يلبسها إذا قام إلى صلاة الليل ، وكان إذا خرج إلى المسجد وضع يمينه على شماله مخافة الخيلاء . روى عن معاذ ، وعبادة بن الصامت ، والعرباض بن سارية وغيرهم . وقال أحمد فى الزهد: ثنا أبو اليمان، ثنا ابن بكر عن حكيم بن عُمير وضمرة بن حبيب قالا : قال عمر بن الخطاب : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود .

عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وهى أخت سعيد بن زيد أحد العشرة : أسلمت وهاجرت، وكانت من حسان النساء وعبادهن، تزوجها عبيد الله بن أبى بكر فتتيم بها ، فلما قتل فى غزوة الطائف آلت أن لاتزوج بعده ، فبعث إليها عمر بن الخطاب ـ وهو ابن عمها ـ فتزوجها ، فلما قتل عنها خلف بعده عليها الزبير بن العوام ، فقتل بوادى السباع ، فبعث إليها على ابن أبى طالب يخطبها فقالت : إنى أخشى عليك أن تقتل ، فأبت أن تتزوجه، ولو تزوجته لقتل عنها أيضاً ، فإنها لم تزل حتى ماتت فى أول خلافة معاوية فى هذه السنة ـ رحمها الله .

ثم دخلت سنة ثلاثين وأربعين

فيها : غزا المسلمون اللان[1] ، والروم ، فقتلوا من أمرائهم وبطارقتهم خلقاً كثيراً ،وغنموا وسلموا، وفيها ولى معاوية مروان بن الحكم نيابة المدينة ، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى قضائها شريح القاضى ، وعلى البصرة عبد الله بن عامر ، وعلى خراسان قيس بن الهيثم ـ من قبل عبد الله بن عامر .

وفى هذه السنة ، تحركت الخوارج الذين كانوا قد عفى عنهم علىٌ يوم النهروان ، وقد عوفوا بجراحهم وثابت إليهم قواهم ، فلما بلغهم مقتل على ترحموا على [illegible] ابن ملجم وقال قائلهم : لايقطع الله يداً علت قذال على بالسيف ، وجعلوا يحمدون الله على قتل على ، ثم عزموا على الخروج على الناس، وتوافقوا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما يزعمون .

وفى هذه السنة ، قدم زياد بن أبيه على معاوية ــ وكان قد امتنع عليه قريباً من سنة فى قلعة عرفت به، يقال لها: قلعة زياد ــ فكتب إليه معاوية : ما يحملك على أن تُهلك نفسك ؟ أقدم على فأخبرنى بما صار إليك من أموال فارس ، وما صرفت منها ، وما بقى عندك فائتنى به وأنت آمن ، فإن شئت أن تقيم عندنا فعلت، وإلا ذهبت حيث ما شئت من الأرض فأنت آمن فعند ذلك أزمع زياد السير إلى معاوية ، فبلغ المغيرة قدومه فخشى أن يجتمع بمعاوية قبله ، فسار نحو دمشق إلى معاوية

(١) اللان قال فى القاموس : هى بلاد دوامة فى طرف أرمينية ، منها أبو عبد الله اللانى معلم الأمراء

فسبقه زياد إلى معاوية بشهر، فقال معاوية للمغيرة: ماهذا؟ وهو أبعد منك وأنت جئت بعده بشهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه ينتظر الزيادة وأنا أنتظر النقصان، فأكرم معاوية زياداً، وقبض ما كان معه من الأموال، وصدقه فيا صرفه وما بقي عنده.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

فيها: غزا بسر بن أبي أرطاة بلاد الروم، فوغل فيها حتى بلغ القسطنطينية، وشتى ببلادهم فيما زعمه الواقدي، وأنكر غيره ذلك وقالوا: لم يكن بها مشتى لأحد قط، فالله أعلم. قال ابن جرير: وفيها مات عمرو بن العاص بمصر، ومحمد بن مسلمة، قلت: وسنذكر ترجمة كل منهما في آخرها، فولى معاوية بعد عمرو بن العاص على ديار مصر ولده عبد الله بن عمرو، قال الواقدي: فعمل له عليها سنتين.

وقد كانت في هذه السنة - أعني سنة ثلاث وأربعين - وقعة عظيمة بين الخوارج وجند الكوفة، وذلك أنهم صمموا - كما قدمنا - على الخروج على الناس في هذا الحين، فاجتمعوا في قريب من ثلثمائة، عليهم المستورد بن عُلَّفة، فجهز عليهم المغيرة بن شعبة جنداً عليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، فسار إليهم وقدم بين يديه أبا الرواغ في طليعة هي ثلثمائة على عدة الخوارج، فلقيهم أبو الرواغ بمكان يقال له المذار[1]: فاقتتلوا معهم فهزمهم الخوارج، ثم كروا عليهم فهزمتهم الخوارج، ولكن لم يقتل أحد منهم، فلزموا مكانهم في مقاتلتهم ينتظرون قدوم أمير الجيش معقل بن قيس عليهم، فما قدم عليهم إلا في آخر نهار غربت فيه الشمس، فنزل وصلى بأصحابه، ثم شرع في مدح أبي الرواغ فقال له: أيها الأمير إن لهم شدات منكرة، فكن أنت ردء الناس، ومر الفرسان فليقاتلوا بين يديك، فقال معقل بن قيس: نعم ما رأيت، فما كان إلا ريثما قال له ذلك، حتى حملت الخوارج على معقل وأصحابه، فانجفل عنه عامة أصحابه، فترجل عند ذلك معقل بن قيس وقال: يامعشر المسلمين! الأرض الأرض، فترجل معه جماعة من الفرسان [illegible] قريب من مائتي فارس، منهم أبو الرواغ الشاكري، فحمل عليهم المستورد بن علفة [illegible]، فاستقبلوهم بالرماح والسيوف، ولحق بقية الجيش بعض الفرسان، فذمهم وعيرهم وأنبهم على الفرار، فرجع الناس إلى معقل وهو يقاتل الخوارج بمن معه من الأنصار قتالا شديداً. والناس يتراجعون في أثناء الليل، فصفهم معقل ابن قيس ميمنة وميسرة ورتبهم وقال: لاتبرحوا على مصافكم حتى نصبح فنحمل عليهم، فما أصبحوا حتى هربت الخوارج فرجعوا من حيث أتوا، فسار معقل في طلبهم وقدم بين يديه أبا الرواغ في ستمائة، فالتقوا بهم عند طلوع الشمس، فثار إليهم الخوارج فتبارزوا ساعة، ثم حملوا حملة رجل واحد، فصبر لهم أبو الرواغ بمن معه، وجعل يذمرهم ويعيرهم ويؤنبهم على الفرار، ويحثهم على الصبر فصبروا وصدقوا في الثبات حتى ردوا الخوارج إلى أماكنهم. فلما رأت الخوارج ذلك خافوا من هجوم معقل عليهم فما يكون دون قتلهم شيء. فهربوا بين أيديهم حتى قطعوا دجلة

(١) المذار: بلد بين واسط والبصرة

ووقعوا فى أرض بهرسير ، وتبعهم أبو الرواغ ولحقه معقل بن قيس ، ووصلت الخوارج إلى المدينة العتيقة، فركب إليهم سماك بن عبيد- نائب المدائن- ولحقهم أبو الرواغ بن معه من المقدمة.
وحج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة.

ومن توفى بها : عمر بن العاص، ومحمد بن مسلمة - رضى الله عنهما

أما عمرو بن العاص فهو : عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى السهمى - أبو عبد الله، ويقال: أبو محمد. أحد رؤساء قريش فى الجاهلية ، وهو الذى أرسلوه إلى النجاشى ليرد عليهم من هاجر من المسلمين إلى بلاده فلم يجبهم إلى ذلك لعدله ، ووعظ عمرو بن العاص فى ذلك ، فيقال: إنه أسلم على يديه ، والصحيح أنه إنما أسلم قبل الفتح بستة أشهر، هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة العبدرى وكان أحد أمراء الإسلام ، وهو أمير ذات السلاسل[1] ، وأمده رسول الله ﷺ بمدد ، عليهم أبو عبيدة ، ومعه الصديق ، وعمر الفاروق . واستعمله رسول الله ﷺ على عمان ، فلم يزل عليها مدة حياة رسول الله ﷺ ، وأقره عليها الصديق . وقد قال الترمذى : ثنا قتيبة ثنا ابن لهيعة ، ثنا مشرح ابن عاهان عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ». وقال أيضاً : ثنا إسحاق بن منصور ، ثنا أبو أسامة عن نافع عن عمر الجمحى عن ابن أبى مليكة ، قال : قال طلحة بن عبيد الله : سمعت رسول الله يقول : إن عمرو بن العاص من صالحى قريش ». وفى الحديث الآخر : « ابنا العاص مؤمنان » ، وفى الحديث الآخر : « نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله » . رووه فى فضائل عمرو بن العاص .

ثم إن الصديق بعثه فى جملة من بعث من أمراء الجيش إلى الشام ، فكان ممن شهد تلك الحروب ، وكانت له الآراء السديدة، والمواقف الحميدة ، والأحوال السعيدة . ثم بعثه عمر إلى مصر فافتتحها واستنابه عليها ، وأقره فيها عثمان بن عفان أربع سنين، ثم عزله كما قدمنا ، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فاعتزل عمرو بفلسطين ، وبقى فى نفسه من عثمان رضى الله عنهما . فلما قتل سار إلى معاوية فشهد مواقفه كلها بصفين وغيرها ، وكان هو أحد الحكمين . ثم لما أن استرجع معاوية مصر وانتزعها من يد محمد بن أبى بكر، استعمل عمرو بن العاص عليها فلم يزل نائبها إلى أن مات فى هذه السنة على المشهور ، وقيل: إنه توفى سنة سبع وأربعين، وقيل: سنة ثمان وأربعين. وقيل: سنة إحدى وخمسين رحمه الله. وقد كان معدوداً من دهاة العرب وشجعانهم وذوى آرائهم وله أمثال حسنة وأشعار جيدة. وقد روى عنه أنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل، ومن شعره :

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ... ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمما
قضى وطراً منـه وغادر سبة ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

(١) ذات السلاسل : موضع بأطراف الشام وراء وادى القرى من المدينة ، غزاها عمرو بن العاص فى سرية سنة ثمان من الهجرة

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، ثنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أنا ابن لهيعة حدثنى يزيد بن أبى حبيب، أن عبد الرحمن بن شُماسة حدثه قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله : لم تبكى ؟ أجزعاً من الموت ؟ فقال : لا والله ، ولكن مما بعد الموت ، فقال له : قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبة رسول الله وفتوحه الشام ، فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، إنى كنت على ثلاثة أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسى فيه ؛ كنت أول قرشى كافراً ، فكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ، فلومت حينئذ وجبت لى النار . فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياء منه ، فما ملأت عينى من رسول الله ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله حياء منه، فلو مُت يومئذ قال الناس: هنيئاً لعمرو، أسلم وكان على خير حياة فمات عليه نرجو له الجنة. ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء ، فلا أدرى علىّ أم لى، فإذا مت فلا تبكين على باكية ، ولا يتبعنى مادح ولا نار[1] ، وشدوا على إزارى فإنى مخاصم ، وشنوا على التراب شنا[2] ، فإن جنبى الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبى الأيسر ، ولا تجعلن فى قبرى خشبة ولا حجراً[3] ، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جزور أستأنس بكم.
وقد روى مسلم هذا الحديث فى صحيحه من حديث يزيد بن أبى حبيب بإسناده نحوه ، وفيه زيادات على هذا السياق ، فمنها قوله : كى أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع رسل ربى عز وجل . وفى رواية : أنه بعد هذا حول وجهه إلى الجدار وجعل يقول : اللهم أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فلا انتهينا ، ولا يسعنا إلا عفوك . وفى رواية : أنه وضع يده على موضع الغل من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم لا قوى فانتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت ، فلم يزل يرددها حتى مات رضى الله عنه

وأما محمد بن مسلمة الأنصارى، فقد أسلم على يدى مصعب بن عمير، قبل أسيد بن حُضير وسعد ابن معاذ . شهد بدراً وما بعدها ، إلا تبوك فإنه استخلفه رسول الله على المدينة فى قول ، وقيل استخلفه فى قرقرة الكدر[4] . وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف اليهودى . وقيل : إنه الذى قتل مرحباً اليهودى يوم خيبر أيضاً . وقد أمّره رسول الله ﷺ على نحو من خمس عشرة سرية ، وكان ممن اعتزل تلك الحروب بالجمل وصفين ونحو ذلك ، واتخذ سيفاً من خشب . وقد ورد فى حديث قدمناه ، أنه أمره رسول الله ﷺ بذلك وخرج إلى الرّبذة . وكان من سادات الصحابة ، وكان هو رسول عمر إلى عمّاله ، وهو الذى شاطرهم عن أمره ، وله وقائع عظيمة وصيانة وأمانة بليغة ، رضى الله عنه . واستعمله على صدقات جهينة ، وقيل : إنه توفى سنة ست أو سبع وأربعين ، وقيل : غير ذلك . وقد جاوز السبعين ، وترك بعده عشرة ذكور وست بنات ، وكان أسمر شديد السمرة ، طويلا أصلع ـ رضى الله عنه .

(١) أى لا تصحب جنازته نار (٢) أى صبوه على صبا
(٣) المراد لا تجعلوا فوق قبرى علامة أعرف بها (٤) موضع قريب للمدينة

ومن توفى فيها: عبد الله بن سلام ـ أبو سيف الاسرائيلى ، أحد أحبار اليهود، أسلم حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قال : لما قدم رسول الله المدينة انجفل الناس إليه. فكنت فيمن انجفل إليه ، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول : « أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام تدخلوا الجنة بسلام » . وقد ذكرنا صفة إسلامه أول الهجرة ، وماذا سأل عنه رسول الله ﷺ من الأسئلة النافعة الحسنة ، رضى الله عنه . وهو ممن شهد له رسول الله بالجنة ، وهو ممن يقطع له بدخولها .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين

فيها: غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومعه المسلمون وشتوا هنالك ،وفيها غزا بُسر ابن أبى أرطاة فى البحر ، وفيها عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة ؛ وذلك أنه ظهر فيها الفساد، وكان لَيِّنَ العريكة سهلا، يقال: إنه كان لايقطع لصاً ويريد أن يتألف الناس ،فذهب عبد الله بن أبى أوفى ـ المعروف بابن الكوّاء ـ فشكاه إلى معاوية ، فعزل معاوية ابن عامر عن البصرة وبعث إليها الحرث بن عبد الله الأزدى ، ويقال: إن معاوية استدعاه إليه ليزوره فقدم ابن عامر على معاوية دمشق فأكرمه ورده على عمله، فلما ودعه قال له معاوية : ثلاث أسألكهن فقل: هن لك،قال هُنَّ لك وأنا ابن أم حكيم ، قال : تردُّ على عملى ولا تغضب ، قال ابن عامر : قد فعلت . قال معاوية : وتهبُ لى مالك بعرفة، قال : قد فعلت . قال : وتهب لى دُورَك بمكة ، قال : قد فعلت . فقال له معاوية : وصلتك رحم ، فقال ابن عامر : يا أمير المؤمنين وإنى سائلك ثلاثا فقل : هن لك فقال : هُنَّ لك وأنا ابن هند، قال : تردُّ على مالى بعرفة ، قال : قد فعلت . قال : ولاتحاسب لى عاملا ولا أميراً ، قال : قد فعلت ، قال : وتنكحنى ابنتك هنداً ، قال : قد فعلت . ويقال إن معاوية خيره بين هذه الثلاث وبين الولاية على البصرة. فاختار هذه الثلاث واعتزل عن البصرة .

قال ابن جرير: وفى هذه السنة استلحق معاوية زياد ابن أبيه فألحقه بأبى سفيان ، وذلك أن رجلا شهد على إقرار أبى سفيان أنه عاهر بسمَيَّة أم زياد فى الجاهلية ، وأنها حملت بزياد هذا منه ، فلما استلحقه معاوية قيل له : زياد بن أبى سفيان وقد كان الحسن البصرى ينكرهذا الاستلحاق ويقول : قال رسول الله ﷺ « الولد للفراش وللعاهر الحجر » .

وقال أحمد : ثنا هشيم ، ثنا خالد عن أبى عثمان قال : لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت : ما هذا الذى صنعتم؟ سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت أذنى رسول الله ﷺ يقول « من ادعى أباً فى الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام» فقال أبو بكرة : وأنا سمعته من رسول الله ﷺ ، أخرجاه من حديث أبى عثمان عنهما. قلت:أبو بكرة واسمه نفيع، وأمه سمية أيضا

(١) العاهر: الزانى . يقال : عهرَ إليها ، أى أتاها ليلا للفجور ، ومعنى الحديث أن الزانى لا حق له فى النسب ولا حظ له فى الولد وإنما هو لصاحب الفراش وهو الزوج .

وحج بالناس في هذه السنة : معاوية . وفيها عمل معـــاوية المقصورة بالشام ، ومروان مثلها بالمدينة .

وفي هذه السنة : توفيت أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين ، واسمها رملة ـ أخت معاوية ، أسلمت قديماً وهاجرت هي زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة فتنصر هناك زوجها ، وثبتت على دينها رضي الله عنها . وحبيبة هي أكبر أولادها منه؛ ولدتها بالحبشة وقيل: بمكة قبل الهجرة ، ومات زوجها هنالك ـ لعنه الله وقبحه . ولما تأيمت من زوجها بعث رسول الله ﷺ عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجها منه ، وولي العقد خالد بن سعيد بن العاص ، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار ، وحملها إليه في سنة سبع ، ولما جاء أبوها عام الفتح ليشهد العقد دخل عليها فثنت عنه فراش رسول الله فقال لها : والله يابنية ما أدري ! أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك ، فقال لها : والله يابنية لقد لقيت بعدي شراً . وقد كانت من سيدات أمهات المؤمنين، ومن العابدات الورعات ـ رضي الله عنها ـ قال محمد بن عمر الواقدي : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن عبد المجيد بن سهيل عن عوف بن الحارث قال : سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة عند موتها فقالت : قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فقلت : يغفر الله لي ولك ما كان من ذلك كله ، وتجاوزت وحالتك ، فقالت : سررتيني سرك الله . وأرسلت إلى أم سلمة فقالت له مثل ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين

فيها: ولى معاوية البصرة للحارث بن عبد الله الأزدي ، ثم عزله بعد أربعة أشهر ، وولى زياداً فقدم زياد الكوفة ، وعليها المغيرة فأقام بها ليأتيه رسول معاوية بولاية البصرة ، فظن المغيرة أنه قد جاء على إمرة الكوفة، فبعث إليه وائل بن حُجر ليعلم خبره ، فاجتمع به فلم يقدر منه على شيء ، فجاء البريد إلى زياد أن يسير إلى البصرة ، واستعمله على خراسان وسجستان، ثم جمع له الهند والبحرين رعمان . ودخل زياد البصرة في مستهل جمادى الأول فقام في أول خطبة خطبها ـ وقد وجد الفسق ظاهراً ـ فقال فيها : أيها الناس ! كأنكم لم تسمعوا ما أعد الله من الثواب لأهل الطاعة ، والعذاب لأهل المعصية ، تكونون كمن طرفت جبينه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات ، فاختار الفانية على الباقية ؟ ثم مازال يقيم أمر السلطان ويجرد السيف حتى خافه الناس خوفاً عظيماً ، وتركوا ما كانوا فيه من المعاصي الظاهرة ، واستعان بجماعة من الصحابة ، وولى عمران بن الحصين القضاء بالبصرة ، وولى الحكم بن عمرو الغفاري نيابة خراسان ، وولى سَمُرة بن جُندب وعبد الرحمن بن سمرة وأنس ابن مالك . وكان حازم الرأي ذا هيبة داهية ، وكان مفوهاً فصيحاً بليغاً .

(١) أي مكثت أياماً لا تتزوج ، يقال : آمت المرأة من زوجها وتأيمت ، والأيم من النساء : التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيباً ، ومن الرجال : الذي لا امرأة له .

قال الشعبي : ما سمعت متكلما قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء، إلا زياداً فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً . وقد كانت له وجاهة عند عمر بن الخطاب .

وفي هذه السنة غزا الحكم بن عمرو نائب زياد على خراسان جبل الأسل عن أمر زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم أموالا جمة ، فكتب إليه زياد : إن أمير المؤمنين قدجاء كتابه أن يصطفى له كل صفراء وبيضاء - يعني الذهب والفضة - يجمع كله من هذه الغنيمة لبيت المال . فكتب الحكم بن عمرو : إن كتاب الله مقدم على كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو كانت السموات والأرض على عدو فاتقى الله يجعل له مخرجاً ، ثم نادى في الناس : أن اغدوا على قسم غنيمتكم ، فقسمها بينهم ، وخالف زياداً فيما كتب إليه عن معاوية ، وعزل الخمس كما أمر الله ورسوله ، ثم قال الحكم : إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك ، فمات بمرو من خراسان رضي الله عنه .

قال ابن جرير : وحج بالناس في هذه السنة: مروان الحكم وكان نائب المدينة .

وفي هذه السنة، توفي زيد بن ثابت الأنصاري أحد كتاب الوحي ، وقد ذكرنا ترجمته فيهم في أواخر السيرة . وهو الذي كتب هذا المصحف الإمام الذي بالشام عن أمر عثمان بن عفان،وهو خط جيد قوي جداً فيما رأيته ، وقد كان زيدبن ثابت من أشد الناس ذكاء ، تعلم لسان يهود و كتابهم في خمسة عشر يوماً ، قال أبو الحسن بن البراء: وتعلم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خُدّام رسول الله ﷺ ، قال الواقدي. وأول مشاهده الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة وفي الحديث الذي رواه أحمد والنسائي : « وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت » . وقد استعمله عمر بن الخطاب على القضاء. وقال مسروق : كان زيد بن ثابت من الراسخين، وقال محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن ابن عباس: أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب فقال له : تنح يا ابن عم رسول الله ، فقال : لا ! هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا وقال الأعمش عن ثابت عن عبيد قال : كان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته، ومن أذمتها إذا خرج إلى الرجال وقال محمد بن سيرين: خرج زيد بن ثابت إلى الصلاة فوجد الناس راجعين منها فتوارى عنهم ، وقال : من لا يستحيي من الناس لا يستحيي من الله . مات في هذه السنة وقيل: في سنة خمس وخمسين ، والصحيح الأول ، وقد قارب الستين وصلى عليه مروان . وقال ابن عباس : لقد مات اليوم علم كبير . وقال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة .

وفيها: مات سلمة بن سلامة بن وقش عن سبعين ، وقد شهد بدراً وما بعدها ولا عقب له

وعاصم بن عدي ، وقد استخلفه رسول الله حين خرج إلى بدر على قباء وأهل العالية . وشهد أحداً وما بعدها وتوفي عن خمس وعشرين ومائة ، وقد بعثه رسول الله هو ومالك بن الدخشم إلى مسجد الضرار فحرقاه .

وفيها توفيت حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين ، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت حنيس بن حذافة السهمي، وهاجرت معه إلى المدينة فتوفى عنها بعد بدر، فلما انقضت عدتها عرضها أبوها على عثمان بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، فأبى أن يتزوجها ، فعرضها على أبي بكر فلم يرد عليه شيئاً ، فما كان عن قريب حتى خطبها رسول الله ﷺ فتزوجها ،فعاتب عمر أبا بكر بعد ذلك في ذلك ، فقال له أبو بكر : إن رسول الله كان قد ذكرها فما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها. وقد روينا في الحديث، أن رسول الله ﷺ ، طلق حفصة ثم راجعها . وفي رواية: أن جبريل أمره بمراجعتها، وقال: إنها صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة. وقد أجمع الجمهور على أنها توفيت في شعبان من هذه السنة عن ستين سنة ، وقيل : إنها توفيت أيام عثمان ، والأول أصح .

ثم دخلت سنة ست وأربعين

فيها: شتى المسلمون ببلاد الروم مع أميرهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وقيل : كان أميرهم غيره والله أعلم . وحج بالناس فيها ـ عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية ، والعمال على البلاد هم المتقدم ذكرهم .

وممن توفي في هذه السنة: سالم بن عمير أحد البكائين المذكورين في القرآن ، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد كلها . سُرَاقة بن كعب . شهد بدراً وما بعدها .

عبدالرحمن بن خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، وكان من الشجعان المعروفين والأبطال المشهورين كأبيه،وكان قد عظم ببلاد الشام لذلك حتى خاف منه معاوية،ومات وهو مسموم ـ رحمه الله وأكرم مثواه ، وقال ابن منده وأبو نعيم الأصبهاني : أدرك النبي ﷺ . وقد روى ابن عساكر من طريق أبي عمير، أن عمرو بن قيس روى عنه عن النبي ﷺ في الحجامة بين الكتفين ، قال البخاري : وهو منقطع ـ يعني مرسلا . وكان كعب بن جعيل مداحاً له ولأخويه: مهاجر، وعبدالله . وقال الزبير بن بكار : كان عظيم القدر في أهل الشام ، شهد صفين مع معاوية . وقال ابن سميع : كان يلي الصوائف زمن معاوية ، وقد حفظ عن معاوية . وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن رجلا يقال له ابن أثال ـ وكان رئيس الذمة بأرض حمص ـ سقاه شربة فيها سم فمات . وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح . ورثاه بعضهم فقال :

أبوك الذي قاد الجيوش مغرّباً ... إلى الروم لما أعطت الخَرْجَ فارس

وكم من فتى نبهته بعد هجعة ... بقرع لجام وهو أكتع ناعس

وما يستوى الصفان؛ صف لخالد   وصف عليه من دمشق البرانس

وقد ذكروا أن خالد بن عبد الرحمن بن خالد قدم المدينة، فقال له عروة بن الزبير : مافعل ابن أثال؟ فسكت، ثم رجع إلى حمص فثار على ابن أثال فقتله ، فقال : قد كفيتك إياه ، ولكن مافعل ابن جُرموز؟ فسكت عروة ومحمد بن مسلمة فى قول ، وقد تقدم .

هرِم بن حيان العبدى : وهو أحد عمال عمر بن الخطاب ، والتى أويساً القرنى ، وكان من عقلاء الناس وعلمائهم ، ويقال : إنه لما دفن جاءت سحابة فروت قبره وحده ، ونبت العشب عليه من وقته ، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين

فيها: شتى المسلمون ببلاد الروم . وفيها عزل معاويةُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص عن ديار مصر وولى عليها معاوية بن حُدَيج . وحج بالناس عتبة ، وقيل: أخوه عنبسة بن أبى سفيان، فالله أعلم.

وممن توفى فيها : قيس بن عاصم المنقرى كان من سادات الناس فى الجاهلية والإسلام، وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية والإسلام ، وذلك أنه سكر يوماً فعبث بذات محرم منه فهربت منه ، فلما أصبح قيل له فى ذلك ، فقال فى ذلك :

رأيت الخمر منقصة وفيها   مقابح تفضح الرجل الكريما

فلا والله أشربها حياتى   ولا أشفى بها أبداً سقيما

وكان إسلامه مع وفد بنى تميم ، وفى بعض الأحاديث أن رسول الله قال : « هذا سيد أهل الوبر » . وكان جواداً ممدحاً كريماً، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

وقال الأصمعى : سمعت أبا عمرو بن العلاء وأبا سفيان بن العلاء يقولان : قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال : من قيس بن عاصم المنقرى ، لقد اختلفنا إليه فى الحكم كما يختلف إلى الفقهاء ، فبينا نحن عنده يوماً وهو قاعد بفنائه محتب بكسائه، أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف، فقالوا: هذا ابنك قتله ابن أخيك ، قال : فوالله ماحلّ حبوته حتى فرغ من كلامه ، ثم التفت إلى ابن له فى المسجد فقال : أطلق عن ابن عمك ، ووار أخاك ، واحمل إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة . ويقال: إنه لما حضرته الوفاة جلس حوله بنوه ـ وكانوا اثنين وثلاثين ذكراً ـ فقال لهم : يا بنى سوّدوا عليكم أكبركم تخلفوا أباكم ، ولا تسوّدوا أصغركم فيزدرى بكم أكفاؤكم وعليكم بالمال واصطناعه ، فإنه نعم ماينبه الكريم، ويستغنى به عن اللئيم. وإياكم ومسألة الناس فإنها من

أخس مكسبة الرجل. ولا تنوحوا علىّ فإن رسول الله لم ينح عليه ، ولا تدفنونى حيث يشعر بكر ابن وائل ، فإنى كنت أعاديهم فى الجاهلية . وفيه يقول الشاعر :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من أوليته منك منة إذا ذكرت مثالتها تملأ الفما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين

فيها: شتى أبو عبدالرحمن القينى بالمسلمين ببلاد أنطاكية ، وفيها غزا عقبة بن عامر بأهل مصر البحر ، وحج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فيها: غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه جماعات من سادات الصحابة منهم : ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصارى . وقد ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » فكان هذا الجيش أول من غزاها ، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد .

وفيها: توفى أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، وقيل: لم يمت فى هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو ثنتين أو ثلاث وخمسين كما سيأتى .

وفيها عزل معاوية مروان عن المدينة وولى عليها سعيد بن العاص ، فاستقضى سعيد عليها أبا سلمة بن عبدالرحمن. وفيها: شتى مالك بن هبيرة الفزارى بأرض الروم . وفيها : كانت غزوة فضالة بن عبيد جربة ، وشتى هنالك ، ففتح البلد وغنم شيئاً كثيراً . وفيها : كانت صائفة عبدالله بن كرز . وفيها: وقع الطاعون بالكوفة فخرج منها المغيرة فاراً ، فلما ارتفع الطاعون رجع إليها فأصابه الطاعون فمات ، والصحيح أنه مات سنة خمسين كما سيأتى ، فجمع معاوية لزياد الكوفة إلى البصرة ، فكان أول من جمع له بينهما ، فكان يقيم فى هذه ستة أشهر وهذه ستة أشهر ، وكان يستخلف على البصرة سمرة بن جندب .

وحج بالناس فى هذه السنة سعيدُ بن العاص .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

الحسن بن على بن أبى طالب أبو محمد القرشى الهاشمى ، سبط رسول الله ﷺ ، ابن ابنته فاطمة الزهراء ، وريحانته ، وأشبه خلق الله به فى وجهه. ولد النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة فحنكه رسول الله بريقه وسماه حسناً . وهو أكبر ولد أبويه ، وقد كان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً حتى كان يقبل زبيبته[١] وهو صغير ، وربما مص لسانه ، واعتنقه وداعبه ، وربما جاء ورسول الله ﷺ ، ساجد فى الصلاة فيركب على ظهره ، فيقره على ذلك ويطيل السجود من أجله ، وربما صعد معه إلى المنبر . وقد ثبت فى الحديث أنه عليه السلام بيناهو يخطب إذ رأى الحسن والحسين مُقبلين ، فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر وقال: «صدق الله (إِنَّمَا أموالُكم وَأولادُكم فِتْنَة)[٢] إنى رأيت هذين يمشيان ويعثران ، فلم أملك أن نزلت إليهما » ، ثم قال : «إنكم لمن روح الله وإنكم لتبجلون وتحببون» . وقد ثبت فى صحيح البخارى عن أبى عاصم عن عمر بن سعيد بن أبى حسين ، عن ابن أبى مليكة عن عقبة بن الحارث ، أن أبا بكر صلى بهم العصر بعد وفاة رسول الله بليال ، ثم خرج هو وعلى يمشيان ، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان فاحتمله على عنقه وجعل يقول: « يا بأبى شبه النبى ، ليس شبيهاً بعلى » . قال : وعلى يضحك . وروى سفيان الثورى وغير واحد قالوا : ثنا وكيع . ثنا إسماعيل بن أبى خالد ، سمعت أباجحيفة يقول : « رأيت النبى ﷺ وكان الحسن بن على يشبهه » ورواه البخارى ومسلم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، قال وكيع : لم يسمع إسماعيل من أبى جحيفة إلا هذا الحديث .

وقال أحمد : ثنا أبو داود الطيالسى ، ثنا زمعة عن ابن أبى مليكة قال : كانت فاطمة تنقز الحسن بن على وتقول : يا بأبى شبه النبى ليس شبيهاً بعلى . وقال عبدالرزاق وغيره عن معمر عن الزهرى عن أنس قال : كان الحسن بن على أشبههم وجهاً برسول الله ﷺ . ورواه أحمد عن عبدالرزاق بنحوه ، وقال أحمد : ثنا حجاج ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن هانىء عن على قال : « الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه برسول الله ما أسفل من ذلك » . ورواه الترمذى من حديث إسرائيل وقال: حسن غريب. وقال أبو داود الطيالسى: ثنا قيس عن أبى إسحاق عن هانىء بن هانىء عن على قال : كان الحسن أشبه برسول الله ، من وجهه إلى سرته ، وكان الحسين أشبه الناس به ، ما أسفل من ذلك . وقد روى عن ابن عباس وابن الزبير ، أن الحسن بن على كان يشبه النبى ﷺ . وقال أحمد: ثنا حازم بن الفضيل ، ثنا معتمر عن

---

(١) الزبيبة : زبدة ترى فى شدق الإنسان إذا أكثر الكلام، وقيل : قرحة سوداء تظهر على الجبين

(٢) من الآية : ١٥ من سورة التغابن .

أبيه قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن أبى عثمان النهدى ، يحدثه أبو عثمان عن أسامة بن زيد قال : « كان النبى ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمنا ثم يقول: اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما » : وكذا رواه البخارى عن النهدى عن محمد بن الفضيل أخو حازم به. وعن على بن المدينى عن يحيى القطان عن سليمان التيمى عن أبى تميمة عن أبى عثمان عن أسامة ، وليخرجه أيضاً عن موسى بن إسماعيل ومسدد عن معتمر عن أبيه ، عن أبى عثمان عن أسامة فلم يذكر أبا تميمة والله أعلم . وفى رواية : « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » . وقال شعبة عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : رأيت النبى ﷺ والحسن بن علىّ على عاتقه وهو يقول : « اللهم إنى أحبه فأحبه » أخرجاه من حديث شعبة ورواه على بن الجعد عن فضيل بن مرزوق عن عدى عن البراء ، فزاد « وأحب من أحبه » ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال أحمد : ثنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد ، عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال للحسن بن على : « اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه » . ورواه مسلم عن أحمد وأخرجاه من حديث شعبة . وقال أحمد : ثنا أبو النضر ثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبى يزيد عن نافع بن جبير عن أبى هريرة قال : « كنت مع النبى ﷺ فى سوق من أسواق المدينة فانصرف وانصرفت معه ، فجاء إلى فناء فاطمة فقال : أى لكع ، أى لكع ، أى لكع ، فلم يجبه أحد ، فانصرف وانصرفت معه إلى فناء فقعد ، قال : فجاء الحسن بن على — قال أبو هريرة : ظننا أن أمه حبسته لتجعل فى عنقه السخاب[1] — فلما دخل التزمه رسول الله ، والتزم هو رسول الله ثم قال : « إنى أحبه وأحب من يحبه » — ثلاث مرات. وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة عن عبيد الله به . وقال أحمد : ثنا حماد الخياط ثنا هشام بن سعد عن نعيم بن عبد الله المجمر ، عن أبى هريرة قال : « خرج رسول الله إلى سوق بنى قينقاع متكئاً على يدى فطاف فيها ، ثم رجع فاحتبى فى المسجد وقال : أين لكاع ؟ ادعوا لى لكاع ، فجاء الحسن فاشتد حتى وثب فى حبوته فأدخل فمه فى فمه ثم قال : اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه » — ثلاثاً ، قال أبو هريرة : ما رأيت الحسن إلا فاضت عينىّ ، أو قال : دمعت عينى أو بكيت — وهذا على شرط مسلم ولم يخرجوه . وقد رواه الثورى عن نعيم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة فذكر مثله أو نحوه ، ورواه معاوية ابن أبى برود عن أبيه عن أبى هريرة بنحوه ، وفيه زيادة . وروى أبو إسحاق عن الحارث عن على نحواً من هذا . ورواه عثمان بن أبى اللباب عن ابن أبى مليكة عن عائشة بنحوه وفيه زيادة . وروى أبو إسحاق عن الحارث عن على نحواً من هذا السياق .

---

(١) السخاب : قلادة الصبيان والجوارى ، تتخذ من قرنفل وعلب ونوع من العطر مجفف ، يسمى « سك » ، وليس فيها شىء من اللؤلؤ والجوهر .

وقال سفيان الثورى وغيره، عن سالم بن أبى حفصة عن أبى حازم عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « من أحب الحسن والحسين فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى » غريب من هذا الوجه . وقال أحمد : ثنا ابن نمير ثنا الحجاج ـ يعنى ابن دينار ـ عن جعفر بن إياس عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبى هريرة قال : « خرج علينا رسول الله ومعه حسن وحسين ، هذا على عاتقه ـ وهذا على عاتقه ، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا ، فقال له رجل : يا رسول الله! إنك لتحبهما فقال:من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى».تفرد به أحمد. وقال أبو بكر بن عياش ، عن عاصم عن زر عن عبد الله قال : « كان رسول الله ﷺ يصلى فجاء الحسن والحسين فجعلا يتوثبان على ظهره إذا سجد ، فأراد الناس زجرهما فلما سلم قال للناس : هذان ابناى ، من أحبهما فقد أحبنى » . ورواه النسائى من حديث عبيد الله بن موسى عن على بن صالح عن عاصم به . وقد ورد عن عائشة وأم سلمة أمى المؤمنين، أن رسول الله اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ». وقال محمد بن سعد : ثنا محمد بن عبد الله الأسدى ، ثنا شريك عن جابر عن عبد الرحمن ابن سابط عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن على »، وقد رواه وكيع عن الربيع بن سعد عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر فذكر مثله ، وإسناده لا بأس به ، ولم يخرجوه . وجاء من حديث على وأبى سعيد وبريدة ، أن رسول الله قال : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما » .

قال أبو القاسم البغوى : ثنا داود بن عمرو، ثنا إسماعيل ابن عياش حدثنى عبد الله بن عثمان ابن خيثم عن سعد بن راشد عن يعلى بن مرة قال : « جاء الحسن والحسين يسعيان إلى رسول الله فجاء أحدهما قبل الآخر فجعل يده تحت رقبته ثم ضمه إلى إبطه ، ثم جاء الآخر فجعل يده الأخرى فى رقبته ثم ضمه إلى إبطه ، وقبّل هذا ثم قبّل هذا ثم قال: «اللهم إنى أحبهما فأحبهما » ، ثم قال: «أيها الناس إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة »، وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى خيثم عن محمد ابن الأسود بن خلف عن أبيه « أن رسول الله أخذ حسنا فقبله، ثم أقبل عليهم فقال : إن الولد مبخلة مجبنة ». وقال ابن خزيمة: ثنا عبدة بن عبد الله الخزاعى، ثنا زيد بن الحباب ح وقال أبو يعلى أبو خيثمة : ثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : « كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما فى حجره على المنبر ، ثم قال صدق الله ا(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ، رأيت هذين الصبيين فلم أصبر ، ثم أخذ فى خطبته » . وقد رواه أبو داود

والترمذى وابن ماجة من حديث الحسين بن واقد ، وقال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وقد رواه محمد الضمرى عن زيد بن أرقم ، فذكر القصة للحسن وحده ، وفى حديث عبد الله بن شداد عن أبيه « أن رسول الله صلى بهم إحدى صلاتى العشى فسجد سجدة أطال فيها السجود ، فلما سلم قال الناس له فى ذلك ، فقال : إن ابنى هذا - يعنى الحسن - ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

وقال الترمذى : عن أبى الزبير عن جابر قال : « دخلت على رسول الله وهو حامل الحسن والحسين على ظهره وهو يمشى بهما على أربع ، فقلت : نعم الجمل جملكما، فقال : ونعم العدلان هما» على شرط مسلم ولم يخرجوه . وقال أبو يعلى: ثنا أبو هاشم ثنا أبو عامر، ثنا زمعة بن صالح عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : «خرج رسول الله وهو حامل الحسن على عاتقه، فقال له رجل : يا غلام نعم المركبُ ركبت ، فقال رسول الله : ونعم الراكبُ هُوَ » . وقال أحمد : حدثنا تليد بن سليمان، ثنا أبو الجحاف عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : « نظر رسول الله إلى على وحسن وحسين وفاطمة فقال : أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم » . وقد رواه النسائى من حديث أبى نعيم ، وابن ماجة من حديث وكيع - كلاهما عن سفيان الثورى عن أبى الجحاف داود بن عوف ، قال وكيع : وكان مرضيا - عن أبى حازم عن أبى هريرة، أن رسول الله قال عن الحسن والحسين : « من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى »، وقد رواه أسباط عن السدى عن صبيح - مولى أم سلمة - عن زيد بن أرقم فذكره وقال بقية عن بجير بن سعيد عن خالد ابن معدان عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله يقول : « الحسن منى والحسين من على » فيه نكارة لفظاً ومعنى . وقال أحمد : ثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال : « كنت مع الحسن بن على فلقينا أبو هريرة فقال : أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبل ، فقال : بقميصه ، قال : فقبل سرته » ، تفرد به أحمد ، ثم رواه عن إسماعيل بن علية عن ابن عوف . وقال أحمد : ثنا هاشم بن القاسم عن جرير عن عبد الرحمن أبى عوف الجرشى عن معاوية قال : « رأيت رسول الله يمص لسانه ، أو قال شفته - يعنى الحسن بن على - وإنه لن يعذبَ لسان أو شفتان يمصهما رسول الله ﷺ » . تفرد به أحمد ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى بكرة . وروى أحمد عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال : «إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . وقد تقدم هذا الحديث فى دلائل النبوة ، وتقدم قريباً عند نزول الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ووقع ذلك تصديقا لقوله ﷺ هذا ، وكذلك ذكرناه فى كتاب دلائل النبوة ، ولله الحمد والمنة .

وقد كان الصديق يجله ويعظمه ويكرمه ويحبه ويتفداه ، وكذلك عمر بن الخطاب ، فروى الواقدى عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى عن أبيه: أن عمر لما عمل الديوان، فرض للحسن والحسين مع أهل بدر فى خمسة آلاف ، وكذلك كان عثمان بن عفان يكرم الحسن والحسين ويحبهما . وقد كان الحسن بن على يوم الدار - وعثمان بن عفان محصور - عنده، ومعه السيف متقلداً به يحاجف عن عثمان، فخشى عثمان عليه فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلهم تطييباً لقلب على ، وخوفاً عليه رضى الله عنهم . وكان على يكرم الحسن إكراماً زائداً ، ويعظمه ويبجله، وقد قال له يوماً : يابنى ! ألا تخطب حتى أسمعك ؟ فقال : إنى أستحيى أن أخطب وأنا أراك ، فذهب على فجلس حيث لايراه الحسن، ثم قام الحسن فى الناس خطيباً وعلى يسمع ،فأدى خطبة بليغة فصيحة، فلما انصرف جعل على يقول: (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1]. وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه . وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما ، رضى الله عنهما وأرضاهما. وكان ابن الزبير يقول : والله ماقامت النساء عن مثل الحسن بن على . وقال غيره : كان الحسن إذا صلى الغداة فى مسجد رسول الله يجلس فى مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده ، ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن وربما أتحفنه ، ثم ينصرف إلى منزله .

ولما نزل لمعاوية عن الخلافة من ورعه صيانة لدماء المسلمين ، كان له على معاوية فى كل عام جائزة ، وكان يفد إليه ، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم ، وراتبه فى كل سنة مائة ألف ، فانقطع سنة عن الذهاب وجاء وقت الجائزة فاحتاج الحسن إليها - وكان من أكرم الناس - فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه. فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله فى المنام فقال له: يا بنى! أتكتب إلى مخلوق بحاجتك ؟ وعلمه دعاء يدعو به ، فترك الحسن ما كان هم به من الكتابة ، فذكره معاوية وافتقده ، وقال : ابعثوا إليه بمائتى ألف، فلعل له ضرورة فى تركه القدوم علينا ، فحملت إليه من غير سؤال . قال صالح بن أحمد : سمعت أبى يقول : الحسن بن على مدنى ثقة حكاه ابن عساكر فى تاريخه ، قالوا : وقاسم الله ماله ثلاث مرات ، وخرج من ماله مرتين ، وحج خمساً وعشرين مرة ماشياً، وإن النجائب لتقاد بين يديه . وروى ذلك البيهقى من طريق عبيد الله بن عمير عن ابن عباس . وقال على بن زيد بن جدعان : وقد علق البخارى فى صحيحه أنه حج ماشياً والنجائب تقاد بين يديه ، وروى داود بن رشيد عن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : حج الحسن بن على ماشياً والنجائب تقاد بين يديه، ونجائبه تقاد إلى جنبه. وقال العباس بن الفضل

(١) من الآية : ٣٤ من سورة آل عمران .

عن القاسم عن محمد بن على: قال: قال الحسن بن على : إنى لأستحيى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته ، فمشى عشرين مرة إلى المدينة على رجليه ، قالوا : وكان يقرأ فى بعض خطبة سورة إبراهيم ، وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف قبل أن ينام ؛ يقرؤها من لوح كان يدور معه حيث كان من بيوت نسائه ، فيقرؤه بعد مايدخل فى الفرش قبل أن ينام ـ رضى الله عنه

وقد كان من الكرم على جانب عظيم ، قال محمد بن سيرين : ربما أجاز الحسن بن على الرجل الواحد بمائة ألف . وقال سعيد بن عبدالعزيز : سمع الحسن رجلا إلى جانبه يدعو الله أن يملكه عشرة آلاف درهم ، فقام إلى منزله فبعث بها إليه . وذكروا أن الحسن رأى غلاماً أسود يأكل من رغيف لقمة، ويطعم كلباً هناك لقمة ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : إنى أستحى منه أن آكل ولا أطعمه ، فقال له الحسن : لا تبرح من مكانك حتى آتيك . فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذى هو فيه ، فأعتقه وملكه الحائط ، فقال الغلام : يامولاى ! قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له . قالوا : وكان كثير التزوج ، وكان لايفارقه أربع حرائر ، وكان مطلاقاً مصداقا يقال: إنه أحصن سبعين امرأة ، وذكروا أنه طلق امرأتين فى يوم ؛ واحدة من بنى أسد ، وأخرى من بنى فزارة ـ فزارية ـ وبعث إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف وبزقاق[1] من عسل ، وقال للغلام : اسمع ماتقول كل واحدة منهما ؛ فأما الفزارية فقالت : جزاه الله خيراً ، ودعت له ، وأما الأسدية فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق . فرجع الغلام إليه بذلك ، فارتجع الأسدية وترك الفزارية .

وقد كان علىّ يقول لأهل الكوفة: لاتزوجوه فإنه مطلاق ، فيقولون :والله يا أمير المؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوجناه منامن شاء ابتغاء فى صهر رسول الله ﷺ . وذكروا أنه نام مع امرأته خولة بنت منظور الفزارى ـ وقيل هند بنت سهيل ـ فوق إجَّار[2] فعمدت المرأة فربطت رجله بخمارها إلى خلخالها ، فلما استيقظ قال لها : ماهذا ؟ فقالت : خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط، فأكون أشأم سخلة على العرب فأعجبه ذلك منها ، واستمر بها سبعة أيام بعد ذلك . وقال أبو جعفر الباقر : جاء رجل إلى الحسين بن على فاستعان به فى حاجة، فوجده معتكفاً فاعتذر إليه فذهب إلى الحسن فاستعان به فقضى حاجته ، وقال : لقضاء حاجة أخ لى فى الله ـ أحب إلى من

---

(١) الزقاق : جمع زق وهو السقاء . قال فى الصحاح: السقاء: يكون اللبن والماء ، والقربة تكون للماء خاصة .

(٢) الإجار : السطح

اعتكاف شهر . وقال هشيم عن منصور عن ابن سيرين قال : كان الحسن بن على لايدعو إلى طعامه أحداً يقول : هو أهون من أن يدعى إليه أحد وقال أبو جعفر : قال على : يا أهل الكوفة! لاتزوجوا الحسن بن على فإنه مطلاق ، فقال رجل من همدان : والله لنزوجنه ، فما رضى أمسك وما كره طلق . وقال أبو بكر الخرائطى - فى كتاب مكارم الأخلاق - : ثنا ابن المنذر - هو إبراهيم - ثنا القواريرى، ثنا عبد الأعلى عن هشام عن محمد بن سيرين قال : تزوج الحسن ابن على امرأة فبعث إليها بمائة جارية ، مع كل جارية ألف درهم . وقال عبدالرزاق عن الثورى عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن الحسن بن سعد عن أبيه قال : متع الحسن بن على امرأتين بعشرين ألفا وزِقاق من عسل، فقالت إحداهما - وأراها الحنفية- متاع قليل من حبيب مفارق وقال الواقدى : حدثنى على بن عمر عن أبيه عن على بن الحسين قال : كان الحسن بن على مطلاقا للنساء ، وكان لايفارق امرأة إلا وهى تحبه

وقال جُويرية بن أسماء : لما مات الحسن بكى عليه مروان فى جنازته ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تجرّعه ما تجرعه ؟ فقال : إنى كنت أفعل إلى أحلم من هذا - وأشار هو إلى الجبل . وقال محمد بن سعد : أنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدى عن ابن عون عن محمد بن إسحاق قال : ما تكلم عندى أحد كان أحب إلى إذا تكلم ألا يسكت - من الحسن بن على ، وماسمعت منه كلمةَ فُحش قط إلا مرة ؛ فإنه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومة فقال : ليس له عندنا إلا مارَغِم أنفه ، فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه قط قال محمد بن سعد: وأنا الفضل بن دكين أنا مساور الجصاص ، عن زريق بن سوار قال : كان بين الحسن ومروان خصومة ، فجعل مروان يغلظ للحسن والحسن ساكت، فامتخط[1] مروان بيمينه ، فقال له الحسن : ويحك ! أما علمت أن اليمنى للوجه ، والشمال للفرج ؟ أفّ لك، فسكت مروان. وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : قيل للحسن بن على : إن أباذرّ يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب إلىّ من الصحة ، فقال : رحم الله أباذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له ، لم يتمن أن يكون فى غير الحالة التى اختار الله له . وهذا أحد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء . وقال أبو بكر محمد بن كيسان الأصم : قال الحسن ذات يوم لأصحابه : إنى أخبركم عن أخ لى كان من أعظم الناس فى عينى ، وكان أعظم ما عظمه فى عينى - صغر الدنيا فى عينه ؛ كان خارجاً عن سلطان بطنه فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً عن سلطان فرجه ، فلا يستخف له

---

(١) امتخط : استنثر مافى الأنف من المخاط .

عقله ولا رأيه : وكان خارجاً عن سلطان جهله، فلا يمد يداً إلا على ثقة المنفعة، ولا يخطو خطوة إلا لحسنة وكان لا يسخط ولا يتبرم ، وكان إذا جامع العلماء يكون على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم . وكان إذا غُلب على الكلام لم يُغلب على الصمت . كان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال : يذر القائلين ، وكان لايشارك فى دعوى ، ولا يدخل فى مراء ، ولا يُدلى بحجة ، حتى يرى قاضياً يقول مالا يفعل ، ويفعل مالا يقول ، تفضلا وتكرماً . كان لا يغفل عن إخوانه ، ولا يستخص بشىء دونهم . كان لا يكرم أحداً فيما يقع العذر بمثله كان إذا ابتدأه أمران - لا يرى أيهما أقرب إلى الحق - نظر فيما هو أقرب إلى هواه فخالفه . رواه ابن عساكر والخطيب .

وقال أبو الفرج المعافى بن زكريا الحرير : ثنا بدر بن الهيثم الحضرمى ، ثنا على بن المنذر الطريقى : ثنا عثمان بن سعيد الدارمى، ثنا محمد بن عبدالله أبو رجاء - من أهل تستر ، ثنا شعبة بن الحجاج الواسطى، عن أبى إسحاق الهمدانى عن الحارث الأعور، أن علياً سأل ابنه - يعنى الحسن - عن أشياء من المروءة فقال : يابنى! ما السداد؟ قال: يا أبت! السداد دفع المنكر بالمعروف، قال : فما الشرف ؟ قال : اصطناع العشيرة وحمل الجريرة ، قال : فما المروءة ؟ قال: العفاف وإصلاح المرء ماله . قال : فما الدنيئة ؟ قال : النظر فى اليسر ومنع الحقير قال : فما اللؤم ؟ قال : احتراز المرء لنفسه . وبذله عرسه : قال : فما السماحة ؟ قال : البذل فى العسر واليسر . قال : فما الشح ؟ قال : أن ترى مافى يديك سرفاً وما أنفقته تلفاً . قال : فما الإخاء ؟ قال : الوفاء فى الشدة والرخاء قال : فما الجبن ؟ قال : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو . قال : فما الغنيمة ؟ قال : الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا . قال : فما الحلم ؟ قال كظم الغيظ وملك النفس . قال : فما الغنى ؟ قال : رضى النفس بما قسم الله لها وإن قل ، فإنما الغنى غنى النفس . قال : فما الفقر ؟ قال : شره النفس فى كل شىء . قال : فما المنعة ؟ قال : شدة البأس ومقارعة أشد الناس . قال : فما الذل ؟ قال : الفزع عند الصدوقة[1] قال : فما الجرأة ؟ قال : موافقة الأقران . قال : فما الكلفة[2] قال : كلامك فيما لا يعنيك . قال : فما المجد ؟ قال : أن تعطى فى الغرم وأن تعفو عن الجرم . قال : فما العقل ؟ قال : حفظ القلب كل ما استرعيته . قال : فما الخرق ؟ قال : معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك قال فما الثناء ؟ قال : إتيان الجميل وترك القبيح قال : فما الحزم ؟ قال : طول الأناة ، والرفق بالولاة ، والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم . قال : فما الشرف ؟ قال : موافقة الإخوان ، وحفظ الجيران . قال : فما السفه ؟ قال : اتباع الدناة ، ومصاحبة الغواة . قال : فما الغفلة ؟ قال : تركك المسجد وطاعتك المفسد . قال : فما الحرمان ؟ قال تركك حظك وقد

(١) فى نسخة : المصدوقة (٢) الكلفة ، ما يتكلفه الإنسان من نائبة أو حق

عرض عليك . قال : فمن السيد ؟ قال : الأحمق في المال : المتهاون بعرضه ، يُشتم فلا يجيب ، المتحزن[1] بأمر العشيرة هو السيد .

قال : ثم قال علي : يابني ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لافقر أشد من الجهل ، ولا مال أفضل من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة ، ولا عقل كالتدبير ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا ورع كالكف ، ولاعبادة كالتفكر ، ولا إيمان كالحياء ، ورأس الإيمان الصبر ، وآفة الحديث الكذب ، وآفة العلم النسيان ، وآفة الحلم السفه ، وآفة العبادة الفترة[2] ، وآفة الظرف الصلف[3] ، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المن ، وآفة الجمال الخيلاء . وآفة الحب الفخر » . ثم قال علي : يابني لاتستخفن برجل تراه أبداً ، فإن كان أكبر منك فعده أباك ، وإن كان مثلك فهو أخوك ، وإن كان أصغر منك فاحسب أنه ابنك .
فهذا ما سأل عليّ ابنه عن أشياء من المروءة. قال القاضي أبو الفرج: ففي هذا الخبر من الحكمة وجزيل الفائدة ما ينتفع به من راعاه ، وحفظه ووعاه، وعمل به وأدّب نفسه بالعمل عليه ، وهذبها بالرجوع إليه ، وتتوفر فائدته بالوقوف عنده .

وفيما رواه أمير المؤمنين وأضافه عن النبي ﷺ ما لا غنى لكل لبيب عليم ، وقدرة حكيم ، عن حفظه وتأمله ، والمسعود من هدى لتلقيه ، والمجدود من وفق لامتثاله وتقبله .

قلت : ولكن إسناد هذا الأثر وما فيه من الحديث المرفوع ـ ضعيف ، ومثل هذه الألفاظ في عباراتها ما يدل ما في بعضها من النكارة ، على أنه ليس بمحفوظ ، والله أعلم .

وقد ذكر الأصمعي والعتبي والمدائني وغيرهم : أن معاوية سأل الحسن عن أشياء تشبه هذا، فأجابه بنحو ما تقدم ، لكن هذا السياق أطول بكثير مما تقدم ، فالله أعلم . وقال علي بن العباس الطبراني : كان على خاتم الحسن بن علي مكتوبا :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى ... إن المنية نازلٌ بك يافتى
أصبحت ذا فرح كأنك لاترى ... أحباب قلبك في المقابر والبلى

قال الإمام أحمد : حدثنا مطلب بن زياد بن محمد ، ثنا محمد بن أبان قال : قال الحسن بن علي

---

(١) أي: الذي يحزن ويهتم .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف .

(٣) الظرف : الكياسة ، والصلف : مجاوزة قدر الظرف، والادعاء فوق ذلك تكبر . أو الصلف: التمدح بما ليس عندك والتكلم بما يكره صاحبك .

لبنيه وبنى أخيه : « تعلموا فإنكم صغار قوم اليوم، وتكونون كبارهم غداً ، فمن لم يحفظ منكم فليكتب » رواه البيهقى عن الحاكم عن عبدالله بن أحمد عن أبيه . وقال محمد بن سعد : ثنا الحسن بن موسى وأحمد بن يونس قالا : ثنا زهير بن معاوية ، ثنا أبو إسحاق عن عمرو الأصم قال : قلت للحسن بن على : إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة ، قال : كذبوا والله ! ما هؤلاء بالشيعة ، لو علمنا أنه مبعوث ما زوجنا نساءه ولا اقتسمنا ماله وقال عبد الله بن أحمد : حدثنى أبو على سويد الطحان، ثنا على بن عاصم، ثنا أبو ريحانة عن سفينة عن النبى ﷺ قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة » ، فقال رجل كان حاضراً فى المجلس : قد دخلت من هذه الثلاثين ستة شهور فى خلافة معاوية . فقال : من هاهنا أتيت تلك الشهور - كانت البيعة للحسن ابن على ، بايعه أربعون ألفاً أو اثنان وأربعون ألفاً . وقال صالح بن أحمد : سمعت أبى يقول : بايع الحسنَ تسعون ألفاً ، فزهد فى الخلافة وصالح معاوية ولم يُسل فى أيامه مِحْجَمة من دم .

وقال ابن أبى خيثمة : وحدثنا أبى ، ثنا وهب بن جرير قال : قال أبى : فلما قتل على بايع أهل الكوفة الحسن بن على، وأطاعوه وأحبوه أشد من حبهم لأبيه وقال ابن أبى خيثمة : ثنا هارون بن معروف . ثنا ضمرة عن ابن شوذب قال : لما قتل على ، سار الحسن فى أهل العراق وسار معاوية فى أهل الشام ، فالتقوا ، فكره الحسن القتال وبايع معاوية على أن جعل العهد للحسن من بعده . قال : فكان أصحاب الحسن يقولون : ياعار المؤمنين ، قال : فيقول لهم : العارُ خير من النار ، وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا العباس بن هشام عن أبيه قال : لما قتل علىّ بايع الناس الحسن بن على، فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً وقال غير العباس : بايع الحسن أهل الكوفة ، وبايع أهل الشام معاوية بإيلياء بعد قتل علىّ ، وبويع بيعة العامة ببيت المقدس يوم الجمعة من آخر سنة أربعين ، ثم لقى الحسن معاوية بمَسْكِن - من سواد الكوفة - فى سنة إحدى وأربعين فاصطلحا ، وبايع الحسن معاوية . وقال غيره ، كان صلحهما ودخول معاوية الكوفة - فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين . وقد تكلمنا على تفصيل ذلك فيما تقدم بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وحاصل ذلك : أنه اصطلح مع معاوية على أن يأخذ ما فى بيت المال الذى بالكوفة ، فوفى له معاوية بذلك ، فإذا فيه خمسة آلاف ألف ، وقيل: سبعة آلاف ألف . وعلى أن يكون خراج ، وقيل: دارابجَرْد - له فى كل عام، فامتنع أهل تلك الناحية من أداء الخراج إليه ، فعوضه معاوية عن كل سنة آلاف ألف درهم فى كل عام ، فلم يزل يتناولها مع ماله فى كل زيارة ، من الجوائز والتحف والهدايا ، إلى أن توفى فى هذا العام . وقال محمد بن سعد عن هوذة بن خليفة عن عوف عن محمد ابن سيرين قال : لما دخل معاوية الكوفة وبايعه الحسن بن على ، قال أصحاب معاوية لمعاوية : مر

الحسن بن على أن يخطب ، فإنه حديث السن عَيٌّ ، فلعله يتلعثم فيتضع فى قلوب الناس . فأمره فقام فاختطب فقال فى خطبته: « أيها الناس : لو ابتغيتم بين جابلق وجابرس رجلا جده نبى غيرى وغير أخى لم تجدوه ، وإنا قد أعطينا بيعتنا معاوية ، ورأينا أنّ حقن دماء المسلمين خير من إهراقها ، والله ما أدرى (لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[1] ـ وأشار إلى معاوية ـ فغضب من ذلك وقال : ما أردتَ من هذه ؟ قال : أردت منها ما أراد الله منها فصعد معاوية وخطب بعده . وقد رواه غير واحد ، وقدمنا أن معاوية عتب على أصحابه

وقال محمد بن سعد . ثنا أبو داود الطيالسى : ثنا شعبة عن يزيد قال « سمعت جُبيرَ بن نفير الحضرمى يحدث عن أبيه قال : قلت للحسن بن على : إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة ،فقال: كانت جماجمُ العرب بيدى ، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت ، فتركتها ابتغاء وجه الله ، ثم أثيرها ثانيا من أهل الحجاز ؟ وقال محمد بن سعد : أنا على بن محمد عن إبراهيم بن محمد عن زيد بن أسلم قال : دخل رجل على الحسن بن على وهو بالمدينة وفى يده صحيفة فقال : ما هذه ؟ فقال: ابن معاوية يعدنيها ويتوعد ، قال : كنت على النّصف منه ، قال : أجل ، ولكن خشيت أن يجىء يوم القيامة سبعون ألفاً ، أو ثمانون ألفاً أو أكثر أو أقل ، تنضح أوداجهم دماً ، كلهم يستعدى الله فيم هريق دمه ؟ وقال الأصمعى عن سلام بن مسكين عن عمران بن عبد الله قال : رأى الحسن بن على فى منامه ، أنه مكتوب بين عينيه ، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ففرح بذلك ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : إن كان رأى هذه الرؤيا فقلّ ما بقى من أجله . قال : فلم يلبث الحسن بن على بعد ذلك إلا أياما حتى مات . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عبدالرحمن بن صالح العتكى ومحمد بن عثمان العجلى قالا : ثنا أبو أسامة عن ابن عون عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا ورجل آخر من قريش على الحسن بن على ، فقام فدخل المخرج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدى أقلبها بهذا العود ، ولقد سقيت السم مراراً وما سقيت مرة هى أشد من هذه . قال : وجعل يقول لذلك الرجل : سَلْنى قبل أن لا تسألنى ، فقال : ما أسألك شيئاً ! يعافيك الله ، قال : فخرجنا من عنده ثم عدنا إليه من الغد وقد أخذ فى السوق ، فجاء حسين حتى قعد عند رأسه ، فقال : أى أخى ! من صاحبك ؟ قال : تريد قتله ؟ قال : نعم ! قال : لئن كان صاحبى الذى أظن ، لله أشد نقمة وفى رواية : فالله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلا ، وإن لم يكنه ما أحب أن تقتل بى بريئا .

ورواه محمد بن سعد عن ابن علية عن ابن عون . وقال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى عبد الله ابن جعفر عن أم بكر بنت المسور قالت : الحسن سقى مراراً كل ذلك يفلت منه ، حتى كانت المرة الأخيرة التى مات فيها ، فإنه كان يختلف كبده ، فلما مات أقام نساء بنى هاشم عليه النوح

(١) الآية : ١١١ من سورة الأنبياء .

شهراً . وقال الواقدي : وحدثتنا عبدة بنت نائل عن عائشة قالت : حدّ نساء بني هاشم على الحسن ابن على سنة . قال الواقدي وحدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن حسن قال : كان الحسن ابن على كثير نكاح النساء ، وكان قل ما يحظين عنده ، وكان قلّ امرأة تزوجها إلا أحبته وضنّت به ، فيقال : إنه كان سُقِيَ سُمّاً ثم أفلت ، ثم سقى فأفلت . ثم كانت الآخرة توفي فيها ، فلما حضرته الوفاة قال الطبيب وهو يختلف إليه : هذا رجل قطع السم أمعاءه ، فقال الحسين : يا أبا محمد ! أخبرني من سقاك ؟ قال : ولم يا أخي؟ قال : أقتله والله قبل أن أدفنك ولا أقدر عليه ، أو يكون بأرض أتكلف الشخوص إليه . فقال : يا أخي إنما هذه الدنيا ليال فانية ، دعه حتى ألتقي أنا وهو عند الله ، وأبى أن يُسَمِّيه . وقد سمعت بعض من يقول : كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه أن يسقيه سمّاً . قال محمد بن سعد : أنا يحيى بن حماد ، أنا أبو عوانة عن المغيرة عن أم موسى ، أن جعدة بنت الأشعث بن قيس سقت الحسن السمّ فاشتكى منه شكاة ، قال : فكان يوضع تحته طشت ويرفع آخر نحواً من أربعين يوماً . وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث ، أن سمّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال : إنا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا ؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح ، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال كثير عزّة في ذلك :

يا جعد بَكِّيه ولا تسأمى   بكاء حق ليس بالباطل
لن تسترى البيت على مثله   في الناس من حاف ولا ناعل
أعنى الذى أسلمه أهله   للزمن المستخرج الماحل
كان إذا شبت له ناره   يرفعها بالنسب الماثل
كيما يراها بائس مُرْمِل   أو فرد قوم ليس بالآهل
تغلى بنئّ اللحم حتى إذا   أنضج لم تغل على آكل

قال سفيان بن عيينة عن رقبة بن مصقلة قال : لما احتضر الحسن بن على قال : أخرجوني إلى الصحن أنظر في ملكوت السموات ، فأخرجوا فراشه فرفع رأسه فنظر فقال : اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس عليّ ، قال : فكان مما صنع الله له أنه احتسب نفسه عنده . وقال عبد الرحمن بن مهدي : لما اشتد بسفيان الثوري المرض جزع جزعاً شديداً ، فدخل عليه مرحوم بن عبد العزيز فقال : ماهذا الجزع يا أبا عبد الله ! تقدم على ربّ عبدته ستين سنة ؟ صُمت له ، صليت له ، حججت له . قال : فسرى عن الثوري . وقال أبو نعيم : لما اشتد بالحسن ابن على الوجع جزع ، فدخل رجل فقال له : يا أبا محمد! ما هذا الجزع ؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك : عليّ وفاطمة ، وعلى جدّيك : النبي ﷺ وخديجة ، وعلى عميك : حمزة

وجعفر ، وعلى أخوالك: القاسم والطيب ومطهر وإبراهيم ، وعلى خالاتك: رقية وأم كلثوم وزينب ، قال : فسرى عنه . وفى رواية ، أن القائل ذلك الحسين ، وأن الحسن قال له : يا أخى إنى داخل فى أمر من أمر الله لم أدخل فى مثله ، وأرى خلقاً من خلق الله لم أر مثله قط ، قال : فبكى الحسين رضى الله عنهما . رواه عباس الدورى عن ابن معين ، ورواه بعضهم عن جعفر بن محمد عن أبيه فذكر نحوها .

وقال الواقدى : ثنا إبراهيم بن الفضل عن أبى عتيق قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : شهدنا الحسن بن على يوم مات وكادت الفتنة تقع بين الحسين بن على ومروان بن الحكم ، وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يدفن مع رسول الله ، فإن خاف أن يكون فى ذلك قتال أو شرّ فليدفن بالبقيع ، فأبى مروان أن يدعه ـ ومروان يومئذ معزول يريد أن يرضى معاوية ـ ولم يزل مروان عدواً لبنى هاشم حتى مات. قال جابر : فكلمت يومئذ حسين بن على فقلت : يا أبا عبد الله! اتق الله ولا تثر فتنة ، فإن أخاك كان لا يحب ما ترى ، فادفنه بالبقيع مع أمه ـ ففعل . ثم روى الواقدى : حدثنى عبد الله بن نافع عن أبيه عن عمر قال : حضرت موت الحسن بن على ، فقلت للحسين بن على : اتق الله ولا تثر فتنة ولا تسفك الدماء ، وادفن أخاك إلى جانب أمه ، فإن أخاك قد عهد بذلك إليك ، قال : ففعل الحسين . وقد روى الواقدى عن أبى هريرة نحواً من هـذا . وفى رواية : أن الحسن بعث يستأذن عائشة فى ذلك فأذنت له ، فلما مات لبس الحسين السلاح وتسلح بنو أمية وقالوا : لا ندعه يدفن مع رسول الله ﷺ ، أيدفن عثمان بالبقيع ويدفن الحسن بن على فى الحجرة ؟ فلما خاف الناس وقوع الفتنة أشار سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر ـ على الحسين أن لا يقاتل، فامتثل ودفن أخاه قريباً من قبر أمه بالبقيع ـ رضى الله عنه.

وقال سفيان الثورى عن سالم بن أبى حفصة عن أبى حازم قال : رأيت الحسين بن علىّ قدّم يومئذ سعيد بن العاص فصلّى على الحسن وقال : لولا أنها سنة ما قدمته . وقال محمد بن إسحاق: حدثنى مساور مولى بنى سعد بن بكر قال : رأيت أبا هريرة قائماً على مسجد رسول الله يوم مات الحسن بن على ، وهو ينادى بأعلا صوته : يا أيها الناس مات اليوم حِبّ رسول الله فابكوا . وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام . وقد بكاه الرجال والنساء سبعاً ، واستمر نساء بنى هاشم ينحن عليه شهراً ، وحدّت نساء بنى هاشم عليه سنة . قال يعقوب ابن سفيان : حدثنا محمد بن يحيى، ثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قتل على وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ومات لها حسن ، وقتل لها الحسين رضى الله عنهم وقال شعبة عن أبى بكر ابن حفص قال : توفى سعد والحسن بن على فى أيام، بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين .

وقال علية عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : توفى الحسن وهو ابن سبع وأربعين ، وكذا قال غير واحد وهو أصح . والمشهور أنه مات سنة تسع وأربعين كما ذكرنا . وقال آخرون : مات سنة خمسين، وقيل : سنة إحدى وخمسين ـ أو ثمان وخمسين

سنة خمسين من الهجرة

ففي هذه السنة : توفى أبو موسى الأشعري في قول ، والصحيح سنة ثنتين وخمسين كما سيأتي. وفيها حج بالناس معاوية ، وقيل: ابنه يزيد ، وكان نائب المدينة في هذه السنة ـ سعيد بن العاص ، وعلى الكوفة والبصرة والمشرق وسجستان وفارس والسند والهند ـ زياد . وفي هذه السنة اشتكى بنو نَهْشَل الفرزدق إلى زياد فهرب منه إلى المدينة ، وكان سبب ذلك أنه عرض بمعاوية في قصيدة له، فتطلبه زياد أشد الطلب ففر منه إلى المدينة، فاستجار بسعيد بن العاص ، وقال في ذلك أشعاراً، ولم يزل فيما بين مكة والمدينة حتى توفى زياد فرجع إلى بلاده ، وقد طول ابن جرير هذه القصة .

وقد ذكر ابن جرير في هذه السنة من الحوادث ما رواه من طريق الواقدي : حدثني يحيى بن سعيد بن دينار عن أبيه ، أن معاوية كان قد عزم على تحويل[1] المنبر النبوي من المدينة إلى دمشق ، وأن يأخذ العصاة التي كان النبي ﷺ يمسكها في يده إذا خطب، فيقف على المنبر وهو يمسكها ، حتى قال أبو هريرة وجابر بن عبدالله : يا أمير المؤمنين! نذكرك الله أن تفعل هذا ؛ فإن هذا لا يصلح أن يخرج المنبر من موضع وضعه فيه رسول الله ﷺ ، وأن تخرج عصاه من المدينة ، فترك ذلك معاوية ، ولكن زاد في المنبر ست درجات واعتذر إلى الناس . ثم روى الواقدي أن عبدالملك بن مروان في أيامه عزم على ذلك أيضاً فقيل له : إن معاوية كان قد عزم على هذا ثم تركه وأنه لما حرك المنبر كسفت الشمس فترك . ثم لما حج الوليد بن عبدالملك أراد ذلك أيضاً فقيل له : إن معاوية وأباك أرادا ذلك ثم تركاه . وكان السبب في تركه ، أن سعيد بن المسيب كلم عمر بن عبدالعزيز أن يكلمه في ذلك ويعظه فترك . ثم لما حج سليمان أخبره عمر بن عبد العزيز بما كان عزم عليه الوليد ، وأن سعيد بن المسيب نهاه عن ذلك ، فقال : ما أحب أن يذكر هذا عن عبدالملك ولا عن الوليد ، وما يكون لنا أن نفعل هـــذا ، مالنا وله ؟ وقد أخذنا الدنيا فهي في أيدينا فتريد أن نعمد إلى عَلَم من أعلام الإسلام يفد إليه الناس فنحمله إلى قِبلنا . هذا مالا يصلح ـ رحمه الله .

وفي هذه السنة : عزل معاوية عن مصر معاوية بن حُديج ، وولّى عليها من إفريقية مسلمة بن

(١) أي نقله وحمله إلى الشام

مخلد ، وفيها افتتح عقبة بن نافع الفهرى عن أمر معاوية - بلاد إفريقية ، واختط القيروان - وكان موضعه غيضة تأوى إليها السباع والوحوش والحيات العظام ، فدعا الله تعالى فلم يبق فيها شيء من ذلك ، حتى إن السباع صارت تخرج منها تحمل أولادها ، والحيات يخرجن من أجحارهن هوارب فأسلم خلق كثير من البربر ، فبنى فى مكانها القيراون . وفيها غزا بُسر بن أبى أرطاة وسفيان بن عوف - أرض الروم وفيها غزا فضَالة بن عبيد البحر . وفيها توفى مدلاج بن عمرو السلمى - صحابى جليل ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم أر له ذكراً فى الصحابة .

صفية بنت حيي بن أخطب

ابن شعبة بن ثعلبة بن عبد بن كعب بن الخزرج بن أبى حبيب بن النضير بن النحام بن نحوم - أم المؤمنين النضرية ، من سلالة هارون عليه السلام ، وكانت مع أبيها وابن عمها أخطب بالمدينة ، فلما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وقتل أبوها مع بنى قريظة صبراً كما قدمنا فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر كانت فى جملة السبى ، فوقعت فى سهم دِحية بن خليفة الكلبى ، فذكر له جمالها وأنها بنت ملكهم ، فاصطفاها لنفسه وعوضه منها وأسلمت وأعتقها وتزوجها . فلما حلت بالصهباء بنى بها ، وكانت ماشطتها أم سليم ، وقد كانت تحت ابن عمها كنانة بن أبى الحقيق فقتل فى المعركة ، ووجد رسول الله بخدها لطمة فقال : ما هذه ؟ فقالت : إنى رأيت كأن القمر أقبل من يثرب فسقط فى حجرى ، فقصيت المنام على ابن عمى فلطمنى وقال : تتمنين أن يتزوجك ملك يثرب ؟ فهذه من لطمته . وكانت من سيدات النساء عبادة وورعاً وزهادة وبراً وصدقة - رضى الله عنها وأرضاها . قال الواقدى : توفيت سنة خمسين ، وقال غيره : سنة ست وثلاثين ، والأول أصح ، والله أعلم .

وأما أم شريك الأنصارية : ويقال العامرية ، فهى التى وهبت نفسها النبى ﷺ فقيل : قبلها وقيل : لم يقبلها ، ولم تتزوج حتى ماتت - رضى الله عنها ، وهى التى سقيت بدلو من السماء لما منعها المشركون الماء ، فأسلموا عند ذلك ، واسمها غزية ، وقيل : عزيلة بنت عامر على الصحيح . قال ابن الجوزى : ماتت سنة خمسين ، ولم أره لغيره .

وأما عمرو بن أمية الضمرى : فصحابى جليل ، أسلم بعد أحد ، وأول مشاهده بئر معونة ، وكان ساعى رسول الله ﷺ بعثه إلى النجاشى فى تزويج أم حبيبة ، وأن يأتى بمن بقى من المسلمين ، وله أفعال حسنة ، وآثار محمودة ، رضى الله عنه . توفى فى خلافة معاوية .

وذكر أبو الفرج ابن الجوزى - فى كتابه المنتظم - أن فى هذه السنة توفى جبير بن مطعم وحسان بن ثابت ، والحكم بن عمرو الغفارى ، ودحية بن خليفة الكلبى ، وعقيل بن أبى طالب ،

وعمرو بن أمية الضمري ـ بدري، وكعب بن مالك ، والمغيرة بن شعبة ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيي ، وأم شريك الأنصارية ـ رضي الله عنهم أجمعين .

أما جبير بن مطعم : بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي ـ أبو محمد، وقيل أبو عدي المدني ـ فإنه قدم وهو مشرك في فداء أسارى بدر ، فلما سمع قراءة رسول الله ﷺ في سورة الطور ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1] ـ دخل في قلبه الإسلام، ثم أسلم عام خيبر، وقيل: زمن الفتح ،والأول أصح . وكان من سادات قريش وأعلمها بالأنساب ، أخذ ذلك عن الصديق ، والمشهور أنه توفي سنة ثمان وخمسين ، وقيل : سنة تسع وخمسين .

وأما حسان بن ثابت : شاعر الإسلام ، فالصحيح أنه توفي سنة أربع وخمسين كما سيأتي .

وأما الحكم بن عمرو بن مجدع الغفاري : أخو رافع بن عمرو ، ويقال له : الحكم بن الأقرع ، فصحابي جليل ، له عند البخاري حديث واحد في النهي عن لحوم الحمر الإنسية . استنابه زياد بن أبيه على غزو جبل الأشل، فغنم شيئاً كثيراً ، فجاء كتاب زياد إليه على لسان معاوية : أن يصطفي من الغنيمة لمعاوية ما فيها من الذهب والفضة لبيت ماله ، فرد عليه: إن كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، أو لم يسمع لقوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الله »، وقسم في الناس غنائمهم ، فيقال: إنه حبس إلى أن مات بمرو في هذه السنة ، وقيل في سنة إحدى وخمسين ـ رحمه الله .

وأما دحية بن خليفة الكلبي : فصحابي جليل ، كان جميل الصورة ، فلهذا كان جبريل يأتي كثيراً في صورته ، وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى قيصر ، أسلم قديماً ولكن لم يشهد بدراً ، وشهد ما بعدها. ثم شهد اليرموك وأقام بالمزة ـ غربي دمشق ـ إلى أن مات في خلافة معاوية .

وفيها: توفي عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي ـ أبو سعيد العبشمي. أسلم يوم الفتح ، وقيل: شهد مُوتة ، وغزا خراسان ، وافتتح سجستان وكابل وغيرها ، وكانت له دار بدمشق. وأقام بالبصرة ، وقيل بمرو . قال محمد بن سعد وغير واحد: مات بالبصرة سنة خمسين ، وقيل: سنة إحدى وخمسين ، وصلى عليه زياد ، وترك عدة من الذكور ، وكان اسمه في الجاهلية : عبدكلال، وقيل:عبد كلوب،وقيل: عبد الكعبة ، فسماه رسول ﷺ عبد الرحمن. وهو كان أحد السفيرين بين معاوية والحسن ـ رضي الله عنهما .

وفيها توفي عثمان بن أبي العاص الثقفي ـ أبو عبدالله الطائفي ، له ولأخيه الحكم صحبة . قدم على رسول الله ﷺ ، في وفد ثقيف ، فاستعمله رسول الله على الطائف ، وأمره عليها

---

(١) من الآية : ٣٥ من السورة .

أبو بكر وعمر ، فكان أميرهم وإمامهم مدة طويلة، حتى مات سنة خمسين ، وقيل: سنة إحدى وخمسين ـ رضى الله عنه .

وأما عقيل بن أبى طالب : أخو على ، فكان أكبر من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أكبر من على بعشر سنين ، كما أن طالب أكبر من عقيل بعشر ، وكلهم أسلم إلا طالباً . أسلم عقيل قبل الحديبية وشهد مُؤتة، وكان من أنسب قريش ، وكان قد وورث أقرباءه الذين هاجروا وتركوا أموالهم بمكة ، ومات فى خلافة معاوية .

وفيها : كانت وفاة عمرو بن الحق بن الكاهن الخزاعى ، أسلم قبل الفتح ، وهاجر ، وقيل: إنه إنما أسلم عام حجة الوداع . وورد فى حديث : أن رسول الله دعا له أن يمتعه الله بشبابه ،فبقى ثمانين سنة لا يرى فى لحيته شعرة بيضاء ، ومع هذا كان أحد الأربعة الذين دخلوا على عثمان . ثم صار بعد ذلك من شيعة علىّ ، فشهد معه الجمل وصفين . وكان من جملة من أعان حجر بن عدى فطلبه زياد فهرب إلى الموصل ، فبعث معاوية إلى نائبها فوجدوه قد اختفى فى غار فنهشته حية فمات ،فقطع رأسه فبعث به إلى معاوية ، فطيف به فى الشام وغيرها ، فكان أول رأس طيف به. ثم بعث معاوية برأسه إلى زوجته آمنة بنت الشريد ـ وكانت فى سجنه ـ فألقى فى حجرها ، فوضعت كفها على جبينه ولثمت فمه وقالت : غيبتموه عنى طويلا ، ثم أهديتموه إلى قتيلا ، فأهلا بها من هدية ، غير قالية ولا مقليه .

وأما كعب بن مالك الأنصارى السلمى : شاعر الإسلام ، فأسلم قديماً وشهد العقبة ، ولم يشهد بدراً كما ثبت فى الصحيحين فى سياق توبة الله عليه ؛ فإنه كان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم مِنْ تخلفهم عن غزوة تبوك ؛ كما ذكرنا ذلك مفصلا فى التفسير، وكما تقدم فى غزوة تبوك. وغلط ابن الكلبى فى قوله إنه شهد بدراً ، وفى قوله : إنه توفى قبل إحدى وأربعين ؛ فإن الواقدى ـ وهو أعلم منه ـ قال: توفى سنة خمسين . وقال القاسم بن عدى سنة إحدى وخمسين رضى الله عنه .

المغيرة بن شعبة : بن أبى عامر بن مسعود ـ أبو عيسى ، ويقال أبو عبدالله الثقفى ، وعروة ابن مسعود الثقفى عم أبيه . كان المغيرة من دهاة العرب ، وذوى آرائها ، أسلم عام الخندق بعد ماقتل ثلاثة عشر من ثقيف ، رجعهم من عند المقوقس وأخذ أموالهم ، فغرم دياتهم عروة بن مسعود . وشهد الحديبية ، وكان واقفا يوم الصلح على رأس رسول الله ﷺ ، بالسيف صلتا ، وبعثه رسول الله ﷺ بعد إسلام أهل الطائف هو وأبو سفيان بن حرب ـ فهدما اللات . وقدمنا كيفية هدمهما إياها ، وبعثه الصديق إلى البحرين . وشهد اليمامة واليرموك فأصيبت عينه يومئذ،

وقيل : بل نظر إلى الشمس وهى كاسفة فذهب ضوء عينه ، وشهد القادسية . وولاه عمر فتوحاً كثيرة ، منها : همذان وميسان ، وهو الذى كان رسول سعد إلى رُستم ، فكلمه بذلك الكلام البليغ فاستنابه عمر على البصرة ، فلما شهد عليه بالزنا ولم يثبت عزله عنها وولاه الكوفة واستمر به عثمان حيناً ثم عزله ، فبقى معتزلا حتى كان أمر الحكمين فلحق بمعاوية ، فلما قتل على وصالح معاوية الحسن ، ودخل الكوفة ولاه عليها ، فلم يزل أميرها حتى مات فى هذه السنة على المشهور . قاله محمد بن سعد وغيره . وقال الخطيب : أجمع الناس على ذلك ، وذلك فى رمضان منها عن سبعين سنة ، وقال أبو عبيد : مات سنة تسع وأربعين ، وقال ابن عبد البر : سنة إحدى وخمسين ، وقيل : سنة ثمان وخمسين ، وقيل : سنة ست وثلاثين ، وهو غلط .

قال محمد بن سعد : وكان أصهب الشعر جدا ، أكشف ، مقلص الشفتين ، أهتم ، ضخم الهامة ، عبل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين ، وكان يفرق رأسه أربعة قرون . وقال الشعبى : القضاة أربعة : أبو بكر ، وعمر ، وابن مسعود ، وأبو موسى . والدهاة أربعة : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة ، وزياد . وقال الزهرى : الدهاة فى الفتنة خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ـ وكان معتزلا ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعبد الله بن بديل بن ورقاء ـ وكانا مع على . قلت : والشيعة يقولون : الأشباح خمسة : رسول الله ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . والأضداد خمسة : أبو بكر ، وعمر ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . وقال الشعبى : سمعت المغيرة يقول : ما غلبنى أحد إلا فتى مرة ؛ أردت أن أتزوج امرأة فاستشرته فيها فقال : أيها الأمير ! لا أرى لك أن تتزوجها ، فقلت له : لم ؟ فقال : إنى رأيت رجلا يقبلها . ثم بلغنى عنه أنه تزوجها ، فقلت له : ألم تزعم أنك رأيت رجلا يقبلها ؟ فقال : نعم ! رأيت أباها يقبلها وهى صغيرة . وقال أيضاً : سمعت قبيصة بن جابر يقول : صحبت المغيرة بن شعبة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لايخرج من باب منها إلا بمكر ـ لخرج المغيرة من أبوابها كلها . وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : كان المغيرة بن شعبة يقول : صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها ، وصاحب المرأتين بين نارين يشتعلان ، وصاحب الأربعة قرير العين . وكان يتزوج أربعة معاً ويطلقهن معاً . وقال عبد الله بن نافع الصائغ : أحصن المغيرة ثلثمائة امرأة . وقال غيره : ألف امرأة ، وقيل : مائة امرأة . وقيل : ثمانون امرأة .

جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية المصطلقية : وكان سباها رسول ﷺ فى غزوة المريسيع ـ وهى غزوة المصطلق ، وكان أبوها ملكهم ، فأسلمت فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها ، وكانت قد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس وكاتبها ، فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها

فقال : « أو خير من ذلك » ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : « أشتريك وأعتقك وأتزوجك » فأعتقها ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، فاعتقوا مابأيديهم من سبي بني المصطلق نحواً من مائة أهل بيت ، فقالت عائشة : لا أعلم امرأة أعظم بركة على أهلها منها . وكان اسمها بَرّة ، فسماها رسول الله ﷺ جُوَيرِيَة وكانت امرأة ملاحة ـ أي حلوة الكلام ، توفيت في هذا العام سنة خمسين ـ كما ذكره ابن الجوزي وغيره عن خمس وستين سنة ، وقال الواقدي : سنة ست وخمسين ـ رضي الله عنها وأرضاها ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين

فيها : كان مقتل حُجر بن عدي بن جبل بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكبر ، بن الحارث ابن معاوية بن ثورة بن بزيغ بن كندي الكوفي ، ويقال له : حُجر الخير ، ويقال له : حُجر بن الأدبر ، لأن أباه عدياً طُعِن مَولياً فسمى الأدبر ، وهو من كندة من رؤساء أهل الكوفة ، قال ابن عساكر : وفد إلى النبي ﷺ وسمع علياً ، وعماراً ، وشراحيل بن مرة ـ ويقال شرحبيل بن مرة . وروى عنه أبو ليلى مولاه ، وعبد الرحمن بن عباس ، وأبو البختري الطائي . وغزا الشام في الجيش الذين افتتحوا عذراء ، وشهد صفين مع علي أميراً ، وقتل بعذراء من قرى دمشق ، ومسجد قبره بها معروف . ثم ساق ابن عساكر بأسانيده إلى حُجر ، يذكر طرفاً صالحاً من روايته عن علي وغيره . وقد ذكره محمد بن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة ، وذكر له وفادة ، ثم ذكره في الأول من تابعي أهل الكوفة . قال : وكان ثقة معروفاً ، ولم يرو عن غير علي شيئاً قال ابن عساكر : بل قد روى عن عمار وشراحيل بن مرة ، وقال أبو أحمد العسكري : أكثر المحدثين لايصححون له صحبة . شهد القادسية وافتتح بُرج عذراء ، وشهد الجمل وصفين ، وكان مع علي حُجر الخير ـ وهو حُجر ابن عدي هذا ، وحُجر الشرف وهو حجر بن يزيد بن سلمة بن مرة . وقال المرزباني : قد روى أن حجر بن عدي وفد إلى رسول الله ﷺ مع أخيه هانيء بن عدي ، وكان هذا الرجل من عباد الناس وزهادهم ، وكان باراً بأمه ، وكان كثير الصلاة والصيام . قال أبو معشر : ما أحدث قط إلا توضأ ، ولا توضأ إلا صلى ركعتين . هكذا قال غير واحد من الناس .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثني الأعمش عن أبي إسحاق قال : قال سلمان لحجر : يا ابن أم حجر ! لو تقطعت أعضاؤك مابلغت الإيمان ، وكان ـ إذ كان المغيرة بن شعبة على الكوفة ـ إذا ذكر علياً في خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان وشيعته ، فيغضب حجر هذا ويظهر الإنكار عليه ، ولكن كان المغيرة فيه حلم وأناة ، فكان يصفح عنه ويعظه فيما بينه وبينه ويحذره غِبَّ هذا الصنيع ؛ فإن معارضة السلطان شديد وَبالها ، فلم يرجع حجر عن ذلك . فلما كان

فى آخر أيام المغيرة ـ قام حجر يوماً ، فأنكر عليه فى الخطبة وصاح به وذمه بتأخيره العطاء عن الناس، وقام معه فئام[1] الناس لقيامه ، يصدقونه ، ويشيمون على المغيرة . ودخل المغيرة بعد الصلاة قصر الإمارة ودخل معه جمهور الأمراء ، فأشاروا عليه بردع حُجر هذا عما تعاطاه من شق العصى والقيام على الأمير ، وذمروه وحثوه على التنكيل، فصفح عنه وحلم به .

وذكر يونس بن عبيد ، أن معاوية كتب إلى المغيرة يستمده بمال يبعثه من بيت المال ، فبعث عيراً تحمل مالاً فاعترض لها حُجر ، فأمسك بزمام أولها وقال : لا والله حتى يوفى كل ذى حق حقه ، فقال شباب ثقيف للمغيرة : ألا نأتيك برأسه ؟ فقال : ما كنت لأفعلن ذلك بحُجر ، فتركه . فلما بلغ معاوية ذلك عزل المغيرة وولى زياداً ، والصحيح أنه لم يعزل المغيرة حتى مات ، فلما توفى المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ، وجمعت الكوفة مع البصرة لزياد، دخلها وقد التف على حُجر جماعات من شيعة علىّ يقوون أمره ويشدون على يده ، ويسبون معاوية ويتبرءون منه ، فلما كان أول خطبة خطبها زياد بالكوفة ، ذكر فى آخرها فضل عثمان وذم من قتله أو أعان على قتله ، فقام حجر كما كان يقوم فى أيام المغيرة ، وتكلم بنحو مما قال للمغيرة ، فلم يعرض له زياد ، ثم ركب زياد إلى البصرة ، وأراد أن يأخذ حُجراً معه إلى البصرة لئلا يحدث حدثا ، فقال : إنى مريض ، فقال : والله إنك لمريض الدّين والقلب والعقل ، والله لئن أحدثت شيئاً لأسعين فى قتلك . ثم سار زياد إلى البصرة فبلغه أن حجراً وأصحابه أنكروا على نائبه بالكوفة ـ وهو عمرو ابن حريث ـ وحصبوه وهو على المنبر يوم الجمعة ، فركب زياد إلى الكوفة فنزل فى القصر، ثم خرج إلى المنبر وعليه قَباء سندس ، ومُطْرَف خز أخضر ، قد فرق شعره ، وحُجر جالس وحوله أصحابه أكثر ما كانوا يومئذ ، وكان من لبس من أصحابه يومئذ نحو من ثلاثة آلاف ، وجلسوا حوله فى المسجد فى الحديد والسلاح ، فخطب زياد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن غِبَّ البَغى والغىّ وخيم ، وإن هؤلاء أمنونى فاجترأوا علىّ ، وايمُ الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، ثم قال : ما أنا بشىء إن لم أمنع ساحة الكوفة من حُجر وأصحابه ، وأدَعْه نكالا لمن بعده ، ويلُ أمّك يا حُجر ، سقط بك العشاء على سِرحان . ثم قال :

أبلغ نُصَيحةَ أن راعِى إبْلها سَقَطَ العَشاء به على سِرحان[2]

وجعل زياد يقول فى خطبته : إن من حق أمير المؤمنين ـ يعنى كذا وكذا ـ فأخذ حُجر

(١) الفئام ـ ككتاب ـ الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه

(٢) هذا مثل يضرب فى أن طلب الحاجة قد يودى بصاحبها ، وأصله : أن رجلا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله

كفا من حَصباء فحصَبه وقال : كذبت ! عليك لعنة الله . فانحدر زياد فصلّى ، ثم دخل القصر واستحضر حُجراً ، ويقال: إن زياداً لما خطب طوّل الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال له حجر : الصلاة ، فمضى فى خطبته ، فلما خشى فوت الصلاة عمد إلى كف من حَصباء ونادى : الصلاة ، وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس .

فلما انصرف من صلاته كتب إلى معاوية فى أمره وكثّر عليه ، فكتب إليه معاوية : أن شدّه فى الحديد واحمله إلىّ ، فبعث إليه زياد وَالى الشُرطة - وهو شدّاد بن الهيثم - ومعه أعوانه فقال له : إن الأمير يطلبك ، فامتنع من الحضور إلى زياد ، وقام دونه أصحابه ، فرجع الوالى إلى زياد فأعلمه ، فاستنهض زياد جماعات من القبائل فركبوا مع الوالى إلى حُجر وأصحابه فكان بينهم قتال بالحجارة والعصى ، فعجزوا عنه ، فندب محمد بن الأشعث وأمهله ثلاثا وجهز معه جيشاً ، فركبوا فى طلبه ، ولم يزالوا حتى أحضروه إلى زياد ، وما أغنى عنه قومه ، ولا من كان يظن أن ينصره ، فعند ذلك قيّده زياد وسجنه عشرة أيام وبعث به إلى معاوية ، وبعث معه جماعة يشهدون عليه أنه سبّ الخليفة ، وأنه حارب الأمير ، وأنه يقول : إن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل علىّ بن أبى طالب . وكان من جملة الشهود عليه : أبو بُردة بن أبى موسى ، ووائل ابن حُجر ، وعمر بن سعد بن أبى وقاص ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وموسى - بنو طلحة بن عبيد الله ، والمنذر بن الزبير ، وكثير بن شهاب ، وشَبَث بن ربعى - فى سبعين . ويقال : إنه كتبت شهادة شريح القاضى فيهم ، وإنه أنكر ذلك وقال : إنما قلت لزياد : إنه كان صوّاماً قواماً .

ثم بعث زياد حُجراً وأصحابه مع وائل بن حجر ، وكثير بن شهاب - إلى الشام . وكان مع حُجر بن عدى بن جبَلة الكندى ، من أصحابه جماعة ، قيل . عشرون وقيل : أربعة عشر رجلا ، منهم : الأرقم بن عبد الله الكندىّ ، وشريك بن شداد الحضرمى ، وصيفىّ بن فسيل ، وقَبيصة ابن ضبيعة بن حرملة العبسى ، وكريم بن عفيف الخثعمى ، وعاصم بن عوف البجَلى ، وورقاء بن سُمَىّ البجلى ، وكدام بن حيّان ، وعبد الرحمن بن حسان العَنَزيّان - من بنى هُمَيم - ومحرز ابن شهاب التميمى ، وعبد الله بن حَويّة السعدى التميمى أيضاً . فهؤلاء أصحابه الذين وصلوا معه ، فساروا بهم إلى الشام . ثم إن زياداً أتبعهم برجلين آخرين ، عُتبة بن الأخنس من بنى سعد ، وسعيد بن نمران الهمدانى ، فكملوا أربعة عشر رجلا ، فيقال : إن حجراً لما دخل على معاوية قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فغضب معاوية غضباً شديداً وأمر بضرب عنقه هو ومن معه ، ويقال: إن معاوية ركب فتلقاهم فى مَرْج عذراء ، ويقال : بل بعث إليهم من تلقاهم إلى عذراء تحت

الثنية ـ ثنية العقاب ـ فقتلوا هناك . وكان الذين بعث إليهم ثلاثة وهم : هدبة بن فياض القضاعى ، وحضير بن عبد الله الكلابى ، وأبو شريف البدوى ، فجاؤا إليهم فبات حجر وأصحابه يصلون طول الليل ، فلما صلوا الصبح قتلوهم ، وهذا هو الأشهر ، والله أعلم.

وذكر محمد بن سعد: أنهم دخلوا عليه ثم ردّهم فقتلوا بعذراء ، وكان معاوية قد استشار الناس فيهم، حتى وصل بهم إلى مَرج عذراء ، فمن مشير بقتلهم ومن مشير بتفريقهم فى البلاد فكتب معاوية إلى زياد كتابا آخر فى أمرهم فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة فى ملك العراق ، فعند ذلك أمر بقتلهم، فاستوهب منه الأمراء واحداً بعد واحد حتى استوهبوا منه ستة ، وقتل منهم ستة ، أولهم حجر بن عدى ، ورجع آخر فعفى عنه معاوية ، وبعث بآخر نال من عثمان ، وزعم أنه أول من جار فى الحكم ومدح علياً ، فبعث به معاوية إلى زياد وقال له : لم تبعث إلى فيهم أردى من هذا . فلما وصل إلى زياد ألقاه فى الناطف[1] حيا ـ وهو عبدالرحمن بن حسان القرى .

وهذه تسمية الذين قتلوا بعذراء : حُجر بن عدى ، وشريك بن شداد ، وصيفى بن فسيل ، وقبيصة بن ضبيعة ، ومحرز بن شهاب المنقرى ، وكدام بن حيان . ومن الناس من يزعم أنهم مدفونون بمسجد القصب فى عرفة ، والصحيح بعذراء ، ويذكر أنّ حُجراً لما أرادوا قتله قال : دعونى حتى أتوضأ ، فقالوا له : توضأ ، فقال : دعونى حتى أصلى ركعتين فصلاهما وخفف فيهما ، ثم قال : لولا أن يقولوا مابى جزع من الموت لطولتهما ، ثم قال : قد تقدم لهما صلوات كثيرة ثم قدموه للقتل وقد حفرت قبورهم ونشرت أكفانهم ، فلما تقدم إليه السياف ارتعدت فرائصه فقيل له : إنك قلت لست بجازع ، فقال : ومالى لا أجزع ! وأنا أرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً ـ فأرسلها مثلا . ثم تقدم إليه السياف ـ وهو أبو شريف البدوى ـ وقيل تقدم إليه رجل أعور فقال له : امدد عنقك ، فقال : لا أعين على قتل نفسى ، فضربه فقتله . وكان قد أوصى أن يدفن فى قيوده ، ففعل به ذلك ، وقيل : بل صلوا عليه وغسلوه . وروى أن الحسن بن على قال : أصلوا عليه ودفنوه فى قيوده ؟ قالوا : نعم ! قال : حجوه والله .

والظاهر أن الحسين قائل هذا ؛ فان حجراً قتل فى سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة ثلاث وخمسين ، وعلى كل تقدير فالحسن قد مات قبله ـ والله أعلم ، فقتلوه رحمه الله وسامحه . وروينا أن معاوية لما دخل على أم المؤمنين عائشة فسلم عليها من وراء الحجاب ـ وذلك بعد مقتله حجراً وأصحابه ـ قالت له : أين ذهب عنك حلمك يامعاوية حين قتلت حجراً وأصحابه ؟ فقال لها : فقدته حين غاب عنى من قومى مثلك ياأماه ثم قال لها : فكيف برى بك يا أمه ؟ فقالت : إنك بى لبار ، فقال : يكفينى هذا عند الله ، وغداً لى ولحجر موقف بين يدى الله عز وجل . وفى رواية أنه قال : إنما قتله الذين شهدوا عليه . وروى ابن جرير أن معاوية جعل

(١) الناطف : نوع من الحلوى يسمى القبيط لأنه ينطف ـ أى يقطر ـ قبل خثورته

يفر غر بالصوت وهو يقول : إن يوى بك ياحجر بن عدى لطويل ، قالها ثلاثا ، فالله أعلم .

وقال محمد بن سعد فى الطبقات : ذكر بعض أهل العلم أن حجراً وفد إلى رسول الله ﷺ مع أخيه هانىء بن عدى ، ـ وكان من أصحاب على ـ فلما قدم زياد بن أبى سفيان والياً على الكوفة، دعا بحجر بن عدى فقال : تعلم أنى أعرفك وقد كنت أنا وأباك على أمر قد علمت ـ يعنى من حب على ـ وأنه قد جاء غير ذلك ، وإنى أنشدك الله أن تقطر لى من دمك قطرة فأستفرغه كله ، املك عليك لسانك ، وليسعك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك ، وحوائجك مقضية لدى ، فاكفنى نفسك فإنى أعرف عجلتك ، فأنشدك الله فى نفسك ، وإياك وهذه السقطة وهؤلاء السفهاء أن يستنزلوك عن رأيك . فقال حجر : قد فهمت ، ثم انصرف إلى منزله فأتاه الشيعة فقالوا : ماقال لك ؟ قال : قال لى كذا وكذا وسار زياد إلى البصرة ثم جعلوا يترددون إليه يقولون له : أنت شيخنا ، وإذا جاء المسجد مشوا معه، فأرسل إليه عمرو بن حريث ـ نائب زياد على الكوفة ـ يقول : ما هذه الجماعة وقد أعطيت الأمير ما قد علمت ؟ فقال للرسول : إنهم ينكرون ما أنتم عليه ، إليك وراءك أوسع لك .

فكتب عمرو بن حُرَيث إلى زياد : إن كان لك حاجة بالكوفة فالعجل العجل ، فأعجل زياد السير إلى الكوفة ، فلما وصل بعث إليه عدى بن حاتم ، وجرير بن عبدالله البجلى ، وخالد بن عرفطة ، فى جماعة من أشراف الكوفة لينهوه عن هذه الجماعة ، فأتوه فجعلوا يحدثونه ولا يرد عليهم شيئاً ، بل جعل يقول: ياغلام أعلفت البكر ؟ ـ لبكر مربوط فى الدار ـ فقال له عدى بن حاتم : أمجنون أنت ؟ نكلمك وأنت تقول : أعلفت البكر ؟ ـ ثم قال عدى لأصحابه : ما كنت أظن هذا البائس بلغ به الضعف كل ما أرى . ثم نهضوا فأخبروا زياداً ببعض الخبر وكتموه بعضاً ، وحسنوا أمره وسألوه الرفق به فلم يقبل ، بل بعث إليه الشرط والمحاربة فأتى به وبأصحابه ، فقال له: مالك ويلك ! قال : إنى على بيعتى لمعاوية ، فجمع زياد سبعين من أهل الكوفة فقال : اكتبوا شهادتكم على حجر وأصحابه ، ففعلوا . ثم أوفدهم إلى معاوية ، وبلغ الخبر عائشة فأرسلت عبدالرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية تسأله أن يخلى سبيلهم ، فلما دخلوا على معاوية قرأ كتاب زياد، فقال معاوية: اخرجوا بهم إلى عذراء فاقتلوهم هناك، فذهبوا بهم ثم قتلوا منهم سبعة ثم جاء رسول معاوية بالتخلية عنهم، وأن يطلقوهم كلهم، فوجدوا قد قتلوا منهم سبعة وأطلقوا السبعة الباقين ، ولكن كان حجر فيمن قتل فى السبعة الأولى، وكان قد سألهم أن يصلى ركعتين قبل أن يقتلوه، فصلى ركعتين فطول فيهما، وقال : إنهما لأخف صلاة صليتها . وجاء رسول عائشة بعد ما فرغ من شأنهم . فلما حج معاوية قالت له عائشة : أين عزب عنك حلمك حين قتلت حجراً ؟ قال : حين غاب عنى مثلك من قومى . ويروى أن عبد الرحمن بن الحارث قال لمعاوية : أقتلت

حجر بن الأدبر ؟ فقال معاوية : قتله أحبُّ إلى من أن أقتل معه مائة ألف : وقد ذكر ابن جرير وغيره ـ عن حجر بن عدى وأصحابه ـ أنهم كانوا ينالون من عثمان ويطلقون فيه مقالة الجور ، وينتقدون على الأمراء، ويسارعون فى الإنكار عليهم ، ويبالغون فى ذلك ، ويتولون شيعة على، ويتشددون فى الدين .

ويروى أنه لما أخذ فى قيوده سائراً من الكوفة إلى الشام، تلقته بناته فى الطريق وهن يبكين، فال نحوهن فقال : إن الذى يطعمكم ويكسوكم هو الله ، وهو باق لكنَّ بعدى ، فعليكن بتقوى الله وعبادته ، وإنى إما أن أقتل فى وجهى وهى شهادة ، أو أن أرجع إليكن مكرماً ، والله خليفتى عليكم . ثم انصرف مع أصحابه فى قيوده : ويقال إنه أوصى أن يدفن فى قيوده ففعل ذلك به ، ولكن صلوا عليهم ودفنوهم مستقبلى القبلة ـ رحمهم الله وسامحهم. وقد قالت امرأة من المتشيعات ترثى حجراً ـ وهى هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية ـ ويقال : إنها لهند أخت حجر . فالله أعلم :

ترفّع أيها القمر المنير تبصّر هل ترى حُجْراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
يرى قتل الخيار عليه حقا له من شرّ أمته وزير
ألا ياليت حُجراً مات موْتاً ولم ينحر كما نحر البعير ا
تجبّرت الجبابر بعد حُجر وطاب لها الخورنق والسّدير
وأصبحت البلاد له مُحُولا كأن لم يُحيها مُزن مطير
ألا يا حُجر حجر بنى عدى تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً[1] وشيخاً فى دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هُلك يصير

وذكر ابن عساكر له مراثى كثيرة . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى حرملة ، أنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى الأسود قال : دخل معاوية على عائشة فقالت : ماحملك على قتل أهل عذراء ؛ حُجراً وأصحابه ؟ فقال : يا أم المؤمنين إنى رأيت فى قتلهم صلاحا للأمة ، وفى مقامهم فساداً للأمة ، فقالت : سمعت رسول الله يقول : « سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم

(١) فى الأغانى : أخاف عليك سطوة آل حرب

وأهل السماء » . وهذ إسناد ضعيف منقطع . وقد رواه عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة عن أبى الأسود، أن عائشة قالت : بلغنى أنه سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء : وقال يعقوب : حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى الحارث بن يزيد عن عبد الله بن رزين الغافقى قال : سمعت علياً يقول : يا أهل العراق ! سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء ، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود ، قال : يقتل حجر وأصحابه ـ ابن لهيعة ضعيف .

وروى الإمام أحمد عن ابن علية عن ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر فى السوق فنُعى له حُجر ، فأطلق حَبوته وقام وغلب عليه النحيب . وروى أحمد عن عفان عن ابن علية عن أيوب عن عبدالله بن أبى مليكة ـ أو غيره ـ قال : لما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة فقالت : أقتلت حجراً ؟ فقال : يا أم المؤمنين! إنى وجدت قتل رجل فى صلاح الناس خير من استحيائه فى فسادهم وقال حماد بن سلمة: عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن مروان قال : دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة فقالت : يامعاوية ! أقتلت حجراً وأصحابه وفعلت الذى فعلت ؟ أما خشيت أن أخبأ لك رجلا يقتلك ؟ فقال : لا ! إنى فى بيت الأمان ، سمعت رسول الله يقول : « الإيمان قيد الفتك لايفتك مؤمن » . يا أم المؤمنين ! كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك وأمرك ؟ قالت : صالح ، قال : فدعينى وحجراً حتى نلتقى عند ربنا عز وجل . وفى رواية : أنها حجبته وقالت : لايدخل على أبداً ، فلم يزل يتلطف حتى دخل فلامته فى قتله حجراً ، فلم يزل يعتذر حتى عذرته . وفى رواية : أنها كانت تتوعده وتقول : لولا يغلبنا سفهاؤنا لكان لى ولمعاوية فى قتله حجراً شأن ، فلما اعتذر إليها عذرته .

وذكر ابن الجوزى فى المنتظم ، أنه توفى فى هذه السنة من الأكابر : جرير بن عبد الله البجلى ، وجعفر بن أبى سفيان بن الحارث ، وحارثة بن النعمان ، وحجر بن عدى ، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفى ـ رضى الله عنهم .

فأما جرير بن عبدالله البجلى : فأسلم بعد نزول المائدة، وكان إسلامه فى رمضان سنة عشر، وكان قدومه ورسول الله يخطب ، وكان قد قال فى خطبته : « إنه يقدم عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، وإن على وجهه مسحة ملك » ، فلما دخل نظر الناس إليه ، فكان كما وصف رسول ﷺ ، وأخبروه بذلك فحمد الله تعالى . ويروى أن رسول الله ﷺ لما جالسه بسط له رداءه وقال : « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » قال ابن جرير : وفى هذه السنة ولى زياد على خراسان بعد موت الحكم بن عمرو ـ الربيع بن زياد الحارثى ، ففتح بلخ

صلحاً ، وكانوا قد غلقوها بعد ما صالحهم الأحنف وفتح قوهستان عنوة . وكان عندها أتراك فقتلهم ولم يبق منهم إلا ترك طرخان ، فقتله قتيبة بن مسلم بعد ذلك ، كما سيأتى .

وفى هذه السنة: غزا الربيع ماوراء النهر فغنم وسلم ، وكان قد قطع ما وراء النهر قبله الحكم ابن عمرو ، وكان أول من شرب من النهر غلام للحكم ، فسقى سيده وتوضأ الحكم، وصلى وراء النهر ركعتين ثم رجع ، فلما كان الربيع هذا ـ غزا ما وراء النهر فغنم وسلم .

وفى هذه السنة: حج بالناس يزيد بن معاوية فيما قاله أبو معشر والواقدى ، وبعثه رسول الله إلى ذى الخلصة ـ وكان بيتاً تعظمه دوس فى الجاهلية ـ فذكر أنه لايثبت على الخيل ، فضرب فى صدره وقال: « اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً »، فذهب فهدمه . وفى الصحيحين أنه قال : ماحجبنى رسول الله منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسم . وكان عمر بن الخطاب يقول : جرير يوسف هذه الأمة . وقال عبدالملك بن عمير : رأيت جريراً كأن وجهه شقة قمر . وقال الشعبى : كان جرير هو وجماعة مع عمر فى بيت ، فاشتم عمر من بعضهم ريحا ، فقال : عزمت على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ ، فقال جرير : أو نقوم كلنا فنتوضأ يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : نعم السيد كنت فى الجاهلية ، ونعم السيد أنت فى الإسلام. وقد كان عاملا لعثمان على همدان ، يقال : إنه أصيبت عينه هناك ، فلما قتل عثمان اعتزل عليا ومعاوية ، ولم يزل مقيما بالجزيرة حتى توفى بالسراة ، سنة إحدى وخمسين ، قاله الواقدى ، وقيل: سنة أربع ، وقيل : سنة ست وخمسين .

وأما جعفر بن أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب : فأسلم مع أبيه حين تلقياه بين مكة والمدينة عام الفتح ، فلما ردهما قال أبو سفيان : والله لئن لم يأذن لى عليه لآخذن بيد هذا فأذهبن فى الأرض فلا يدرى أين أذهب ، فلما بلغ ذلك رسول الله رق له وأذن له: وقبل إسلامهما فأسلما إسلاماً حسنا ، بعد ما كان أبوسفيان يؤذى رسول الله أذى كثيراً ، وشهد حنينا ، وكان ممن ثبت يومئذ ـ رضى الله عنهما .

وأما حارثة بن النعمان الأنصارى النجارى، فشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد ؛ وكان من فضلاء الصحابة ، وروى أنه رأى جبريل مع رسول الله بالمقاعد يتحدثان بعد خيبر ، وأنه رآه يوم بنى قريظة فى صورة دحية . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع قراءته فى الجنة. قال محمد بن سعد: حدثنا عبدالرحمن بن يونس ، ثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك ، ثنا محمد بن عثمان عن أبيه ، أن حارثة بن النعمان كان قد كف بصره فجعل خيطا من مصلاه إلى باب حجرته ، فإذا جاءه المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ يمسك بذلك الخيط حتى يضع ذلك فى يد المسكين . وكان أهله يقولون له: نحن نكفيك ذلك ، فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مناولة المسكين تقى ميتة السوء»

وأما حجر بن عدى فقد تقدمت قصته مبسوطة .

وأما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، أبو الأعور العدوي: فهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وأخته عاتكة زوجة عمر، وأخت عمر فاطمة زوجة سعيد. أسلم قبل عمر هو وزوجته فاطمة، وهاجرا، وكان من سادات الصحابة. قال عروة والزهري وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق والواقدي وغير واحد: لم يشهد بدراً، لأنه قد كان بعثه رسول الله هو وطلحة بن عبيدالله بين يديه يتجسسان أخبار قريش، فلم يرجعا حتى فرغ من بدر، فضرب لهما رسول الله بسهمهما وأجرهما، ولم يذكره عمر في أهل الشورى لئلا يحابى بسبب قرابته من عمر فيولى فتركه لذلك، وإلا فهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة في جملة العشرة، كما صحت بذلك الأحاديث المتعددة الصحيحة، ولم يتول بعده ولاية، وما زال كذلك حتى مات بالكوفة وقيل بالمدينة وهو الأصح. قال الفلاس وغيره: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة ثنتين وخمسين والله أعلم. وكان رجلا طوالا أشعر، وقد غسله سعد، وحمل من العقيق على رقاب الرجال إلى المدينة، وكان عمره يومئذ بضعاً وسبعين سنة.

وأما عبدالله أنيس بن الجهني أبو يحيى المدني: فصحابي جليل، شهد العقبة ولم يشهد بدراً، وشهد مابعدها، وكان هو ومعاذ يكسران أصنام الأنصار، له في الصحيح حديث: أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين، وهو الذي بعثه رسول الله إلى خالد بن سفيان الهذلي فقتله بعرفة، وأعطاه رسول الله مخصرة وقال: «هذه آية ما بيني وبينك يوم القيامة» فأمر بها فدفنت معه في أكفانه. وقد ذكر ابن الجوزي أنه توفي سنة إحدى وخمسين، وقال غيره: سنة أربع وخمسين، وقيل سنة ثمانين.

وأما أبو بكرة نفيع بن الحارث، بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة الثقفي: فصحابي جليل كبير القدر، ويقال: كان اسمه مسروح، وإنما قيل له أبو بكرة، لأنه تدلى في بكرة يوم الطائف فأعتقه رسول الله وكل مولى فر إليهم يومئذ. وأمه سمية هي أم زياد، وكانا ممن شهد على المغيرة بالزنا هو وأخوه زياد، ومعهما سهل بن معبد، ونافع بن الحارث، فلما تلكأ زياد في الشهادة جلد عمر الثلاثة الباقين، ثم استتابهم فتابوا إلا أبا بكرة فإنه صمم على الشهادة، وقال المغيرة: يا أمير المؤمنين اشفني من هذا العبد، فنهره عمر وقال له: اسكت! لو كملت الشهادة لرجمتك بأحجارك، وكان أبو بكرة خير هؤلاء الشهود، وكان ممن اعتزل الفتن فلم يكن في خيرها. ومات في هذه السنة، وقيل قبلها بسنة، وقيل بعدها بسنة، وصلى عليه أبو برزة الأسلمي، وكان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ.

وفيها: توفيت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء سنة سبع ، قال ابن عباس ـ وكان ابن أختها أم الفضل لبابة بنت الحارث ـ : تزوجها رسول الله ﷺ وهو محرم : وثبت في صحيح مسلم عنها أنهما كانا حلالين ، وقولها مقدم عند الأكثرين على قوله وروى الترمذي عن أبي رافع ـ وكان السفير بينهما ـ أنهما كانا حلالين ويقال كان اسمها بَرّة، فسماها رسول الله مَيمونة ، وتوفيت بِسَرِف بين مكة والمدينة ، حيث بنى بها رسول الله ﷺ في هذه السنة ، وقيل : في سنة ثلاث وستين ، وقيل : سنة ست وستين ، والمشهور الأول، وصلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما .

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين

فيها : غزا بلاد الروم ، وشتى بها سُفيان بن عوف الأزدي فمات هنالك ، واستخلف على الجند بعده عبد الله بن مَسعدة الفزاري ، وقيل : إن الذي كان أمير الغزو ببلاد الروم هذه السنة ـ بُسر بن أبي أرطاة ومعه سُفيان بن عوف . وحج بالناس في هذه السنة ـ سعيد بن العاص نائب المدينة ، قاله أبو معشر والواقدي وغيرهما وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي . وعمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة الماضية .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب الأنصاري الخزرجي ، شهد بدراً والعقبة والمشاهد كلها ، وشهد مع علي قتال الحرورية ، وفي داره كان نزول رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله ، ثم تحول إليها . وقد كان أبو أيوب أنزل رسول الله في أسفل داره ، ثم تحرج من أن يعلو فوقه ، فسأل من رسول الله ﷺ أن يصعد إلى العلو ويكون هو وأم أيوب في السفل فأجابه وقد روينا عن ابن عباس أنه قدم عليه أبو أيوب البصرة ـ وهو نائبها ـ فخرج له عن داره وأنزله بها ، فلما أراد الانصراف خرج له عن كل شيء بها ، وزاده تحفاً وخدماً كثيراً ؛ أربعين ألفاً ، وأربعين عبداً إكراماً له ، لما كان أنزل رسول الله ﷺ في داره ، وقد كان من أكبر الشرف له . وهو القائل لزوجته أم أيوب ـ حين قالت له : أما تسمع مايقول الناس في عائشة ـ ؟ فقال : أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ فقالت : لا والله ، فقال : والله لهي خير منك ، فأنزل الله (لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيراً)(١) الآية .

---

(١) من الآية : ١٢ من سورة النور

وكانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور قسطنطينية من هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . وكان في جيش يزيد بن معاوية ، وإليه أوصى ، وهو الذي صلى عليه .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان ، ثنا همام ، ثنا أبو عاصم عن رجل من أهل مكة أن يزيد ابن معاوية كان أميراً على الجيش الذي غزا فيه أبو أيوب ، فدخل عليه عند الموت فقال له : إذا أنا مت فاقرأوا على الناس مني السلام ، وأخبروهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئاً جعله الله في الجنة » . ولينطلقوا فيبعدوا بي في أرض الروم ما استطاعوا. قال : فحدث الناس لما مات أبو أيوب، فأسلم الناس وانطلقوا بجنازته وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر ، ثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي ظبيان قال : غزا أبو أيوب مع يزيد بن معاوية قال : فقال : إذا مت فأدخلوني في أرض العدو فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو ، قال : ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » . ورواه أحمد عن ابن نمير ويعلى بن عبيد عن الأعمش ، سمعت أبا ظبيان فذكره ، وقال فيه : سأحدثكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لولا حالي هذا ما حدثتكموه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » : وقال أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني محمد ابن قيس ـ قاضي عمر بن عبد العزيز ـ عن أبي صرمة عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال حين حضرته الوفاة : قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « لولا أنكم تُذْنبون لخلق الله قوماً يذنبون فيغفر لهم » . وعندي أن هذا الحديث والذي قبله هو الذي حمل يزيد بن معاوية على طرف من الأرجاء[1]، وركب بسببه أفعالا كثيرة أنكرت عليه كما سنذكره في ترجمته ، والله تعالى أعلم .

قال الواقدي : مات أبو أيوب بأرض الروم سنة ثنتين وخمسين، ودفن عند القسطنطينية وقبره هنالك يستسقي به الروم إذا قحطوا ، وقيل : إنه مدفون في حائط القسطنطينية ، وعلى قبره مزار ومسجد وهم يعظمونه ، وقال أبو زرعة الدمشقي : توفي سنة خمس وخمسين ، والأول أثبت والله أعلم . وقال أبو بكر بن خلاد : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، ثنا داود بن المحبر ، ثنا ميسرة بن عبد ربه عن موسى بن عبيدة عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال: « إن الرجلين ليتوجهان إلى المسجد فيصليان، فينصرف أحدهما وصلاته أوزن من صلاة الآخر، وينصرف الآخر وما تعدل صلاته مثقال ذرة ، إذا كان أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على المسارعة إلى الخير » وعن أبي أيوب قال : قال رسول الله ﷺ لرجل سأله أن يعلمه ويوجز فقال له : « إذا صليت صلاة فصلِّ صلاة مودّع ، ولا تكلمن بكلام تعتذر منه ، واجمع اليأس عما في أيدي الناس » .

---

(١) في نسخة : على طرف من الرجاء .

وفيها كانت وفاة أبي موسى عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غز ابن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن جماهر بن الأشعر الأشعرى . أسلم ببلاده وقدم مع جعفر وأصحابه عام خيبر . وذكر محمد بن إسحاق أنه هاجر أولا إلى مكة ثم هاجر إلى اليمن ، وليس هذا بالمشهور . وقد استعمله رسول الله ﷺ مع معاذ على اليمن ، واستنابه عمر على البصرة ، وفتح تستر ، وشهد خطبة عمر بالجابية ، وولاه عثمان الكوفة . وكان أحد الحكمين بين على ومعاوية ، فلما اجتمعا خدع عمرو أبا موسى . وكان من قراء الصحابة وفقهائهم ، وكان أحسن الصحابة صوتا فى زمانه ، قال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنجٍ ولا بَرْبط[1] ولا مزمار أطيب من صوت أبى موسى ، وثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » . وكان عمر يقول له : ذكرنا ربنا يا أبا موسى ، فيقرأ وهم يسمعون . وقال الشعبى : كتب عمر فى وصيته : أن لا يقرّ لى عامل أكثر من سنة ، إلا أبا موسى فليقرّ أربع سنين . وذكر ابن الجوزى فى المنتظم أنه توفى فى هذه السنة ، وهو قول بعضهم ، وقيل إنه توفى قبلها بسنة ، وقيل فى سنة ثنتين وأربعين ، وقيل غير ذلك والله أعلم . وكانت وفاته بمكة لما اعتزل الناس بعد التحكيم ، وقيل بمكان يقال له : الثوية ـ على ميلين من الكوفة . وكان قصيراً نحيف الجسم أسبط ـ أى لا لحية له ، رضى الله عنه .

وذكر ابن الجوزى أنه توفى فى هذه السنة أيضاً من الصحابة .

عبد الله بن المغفل المزنى : وكان أحد البكائين ، وأحد العشرة الذين بعثهم عمر إلى البصرة ليفقهوا الناس ، وهو أول من دخل تستر من المسلمين حين فتحها . لكن الصحيح ما حكاه البخارى عن مسدد أنه توفى سنة سبع وخمسين . وقال ابن عبد البر : توفى سنة ستين ، وقال غيره : سنة إحدى وستين ، فالله أعلم . ويروى عنه أنه رأى فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وكان هناك مكانٌ مَن وصل إليه نجا ، فجعل يحاول الوصول إليه فقيل له : أتريد أن تصل إليه وعندك ما عندك من الدنيا ؟ فاستيقظ فعمد إلى عيبة عنده فيها ذهب كثير ، فلم يصبح عليه الصباح إلا وقد فرقها فى المساكين والمحاويج والأقارب ، رضى الله عنه .

وفيها توفى عمران بن حصين بن عبيد بن خلف ـ أبو نجيد الخزاعى ، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر وشهد غزوات . وكان من سادات الصحابة ، استقضاه عبد الله بن عامر على البصرة فحكم له بها ، ثم استعفاه فأعفاه ، ولم يزل بها حتى مات فى هذه السنة . قال الحسن وابن سيرين البصرى : ما قدم البصرة راكب خير منه ، وقد كانت الملائكة تسلم عليه فلما اكتوى انقطع عنه سلامهم ثم عادوا قبل موته بقليل فكانوا يسلمون عليه ، رضى الله عنه وعن أبيه .

(١) الصنج : معروف ، ويتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، والربط : العود ، وهو أعجمى وليس من ملاهى العرب .

كعب بن عجرة الأنصارى أبو محمد المدنى. صحابى جليل، وهو الذى نزلت فيه آية الفدية فى الحج. مات فى هذه السنة، وقيل قبلها بسنة - عن خمس أو سبع وسبعين سنة.

معاوية بن خديج بن جفنة بن قتير الكندى الخولانى المصرى، صحابى على قول الأكثرين، وذكره ابن حبان فى التابعين من الثقاة، والصحيح الأول. شهد فتح مصر، وهو الذى وفد إلى عمر بفتح الاسكندرية، وشهد مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح قتال البربر، وذهبت عينه يومئذ، وولى حروباً كثيرة فى بلاد المغرب، وكان عثمانياً فى أيام على ببلاد مصر، ولم يبايع علياً بالكلية، فلما أخذ معاوية بن أبى سفيان مصر أكرمه، ثم استقاله بها بعد عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه ناب بها بعد أبيه سنتين، ثم عزله معاوية وولى معاوية بن خديج هذا، فلم يزل بمصر حتى مات بها فى هذه السنة

هانىء بن نيار أبو بردة البلوى خال البراء بن عازب: المخصوص بذبح العناق وإجزائها عن غيرها من الأضاحى، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، وكانت راية بنى حارثة معه يوم الفتح رضى الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين

ففيها: غزا عبد الرحمن بن أم الحكم بلاد الروم وشتى بها، وفيها افتتح المسلمون - وعليهم جُنادة بن أبى أمية - جزيرة رُودُس، فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شىء على الكفار، يعترضون لهم فى البحر، ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدرّ عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون فى حصن عظيم عنده، فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير[1] على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد، ومازالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه. فحولهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة وحج بالناس فى هذه السنة سعيد بن العاص والى المدينة أيضاً، قاله أبو معشر والواقدى وفى هذه السنة توفى جبلة بن الأيهم الغسانى كما سيأتى ترجمته فى آخر هذه التراجم.

وفيها: توفى الربيع بن زياد الحارثى، اختلف فى صحبته، وكان نائب زياد على خراسان، وكان قد ذكر حجر بن عدى فأسف عليه، وقال: والله لو ثارت العرب له لما قتل صبراً، ولكن أقرت العرب فذلت. ثم لما كان يوم الجمعة دعا الله على المنبر أن يقبضه إليه فما عاش إلى الجمعة الأخرى، واستخلف على عمله ابنه عبد الله بن الربيع فأقره زياد على ذلك، فمات بعد ذلك بشهرين، واستخلف على عملهم بخراسان - خليد بن عبد الله الحنفى فأقره زياد.

رويفع بن ثابت: صحابى جليل، شهد فتح مصر، وله آثار جيدة فى فتح بلاد المغرب، ومات ببرقة والياً من جهة مسلمة بن مخلد نائب مصر.

(١) نواطير - جمع ناطور، وهو حافظ الزرع والتمر والكرم، قيل: أخذ من الأعجمية وليس بعربى.

وفي هذه السنة أيضاً: توفي زياد بن أبي سفيان، ويقال له: زياد بن أبيه، وزياد بن سمية - وهي أمه - في رمضان من هذه السنة مطعوناً. وكان سبب ذلك: أنه كتب إلى معاوية يقول له: إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة، فارغ لي ذلك، وهو يعرض له أن يستنيبه على بلاد الحجاز أيضاً، فلما بلغ أهل الحجاز، جاءوا إلى عبد الله بن عمر، فشكوا إليه ذلك، وخافوا أن يلي عليهم زياد، فيعسفهم كما عسف أهل العراق، فقام ابن عمر، فاستقبل القبلة، فدعا على زياد والناس يؤمنون، فطعن زياد بالعراق في يده، فضاق ذرعاً بذلك، واستشار شريحاً القاضي في قطع يده، فقال له شريح: إني لا أرى ذلك، فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفاً من لقائه، وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم، فيعير ولدك بذلك، فصرفه عن ذلك. فلما خرج شريح من عنده عاتبه بعض الناس وقالوا: هلا تركته فقطع يده؟! فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». ويقال: إن زياداً جعل يقول: أأنام أنا والطاعون في فراش واحد؟ فعزم على قطع يده، فلما جيء بالمكاوي والحديد خاف من ذلك، فترك ذلك. وذكر أنه جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه مما يجد من الحر في باطنه؛ منهم ثلاثة ممن كان يطب كسرى بن هرمز، فعجزوا عن رد القدر المحتوم والأمر المحموم، فمات في ثالث شهر رمضان في هذه السنة، وقد قام في إمرة العراق خمس سنين. ودفن بالثوية خارج الكوفة، وقد كان برز منها قاصداً إلى الحجاز أميراً عليها، فلما بلغ خبر موته عبد الله بن عمر قال: اذهب إليك يا ابن سمية، فلا الدنيا بقيت لك، ولا الآخرة أدركت.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني أبي، عن هشام بن محمد، حدثني يحيى بن ثعلبة - أبو المقدم الأنصاري، عن أمه، عن عائشة، عن أبيها عبد الرحمن بن السائب الأنصاري قال: جمع زياد أهل الكوفة، فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر، ليعرض عليهم البراءة من علي بن أبي طالب، قال عبد الرحمن: فإني لمع نفر من أصحابي من الأنصار، والناس في أمر عظيم من ذلك وفي حصر، قال: فهومت تهويمة - أي نعست نعسة - فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق، له عنق مثل عنق البعير، أهدب[1] أهدل، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظت فزعاً، فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: لا! فأخبرتهم، وخرج علينا خارج من القصر فقال: إن الأمير يقول لكم: انصرفوا عني، فإني عنكم مشغول، وإذا الطاعون قد أصابه. وروى ابن أبي الدنيا: أن زياداً لما ولي الكوفة سأل عن أعبدها، فدل على رجل يقال له: أبو المغيرة الحميري، فجاء به، فقال له: الزم بيتك ولا تخرج منه وأنا أعطيك من المال ما شئت، فقال: لو أعطيتني ملك الأرض ما تركت خروجي لصلاة الجماعة،

(١) الأهدب: طويل الشعر النابت على حروف الأجفان، والأهدل: المسترخي الشفة السفلى غليظها

فقال : الزم الجماعة ، ولا تتكلم بشيء ، فقال : لا أستطيع ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأمر به ، فضربت عنقه . ولما احتضر قال له ابنه : يا أبت : قد هيأت لك ستين ثوباً أكفنك فيها ، فقال : يا بنى ، قد دنا من أبيك أمر : إما لباس خير من لباسه ، وإما سلب سريع وهذا غريب جداً .

صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، كان سيداً فى الجاهلية وفى الإسلام ، يقال : إنه أحيى فى الجاهلية ثلثمائة وستين موءودة ، وقيل : أربعمائة ، وقيل : ستا وتسعين موءودة . فلما أسلم قال له رسول الله ﷺ : «لك أجر ذلك إذ منّ الله عليك بالإسلام». ويروى عنه أنه أول ما أحيى الموءودة أنه ذهب فى طلب ناقتين شردتا له ، قال : فبينما أنا فى الليل أسير ، إذ أنا بنار تضىء مرة وتخبو أخرى فجعلت لا أهتدى إليها ، فقلت اللهم لك علىّ إن أوصلتنى إليها أن أدفع عن أهلها ضيما إن وجدته بهم ، قال : فوصلت إليها ، وإذا شيخ كبير يوقد ناراً وعنده نسوة مجتمعات ، فقلت : ما أنتن ؟ فقلن : إن هذه امرأة قد حبستنا منذ ثلاث ، تطلق ولم تخلص ، فقال الشيخ صاحب المنزل : وما خبرك ؟ فقلت : إنى فى طلب ناقتين ندّتا لى ، فقال : قد وجدتهما ، إنهما فى إبلنا ، قال : فنزلت عنده ، قال : فما هو إلا أن نزلت إذ قلن : وضعت ، فقال الشيخ : إن كان ذكراً فارتحلوا ، وإن كان أنثى فلا تسمعنى صوتها ، فقلت : علام تقتل ولدك ورزقه على الله ؟ فقال : لا حاجة لى بها ، فقلت : أنا أفتديها منك وأتركها عندك حتى تبين عنك أو تموت ، قال : بكم ؟ قلت : بإحدى ناقتىّ ، قال : لا ! قلت : فبهما ، قال : لا ، إلا أن تزيدنى بعيرك هذا ، فإنى أراه شاباً حسن اللون ، قلت : نعم ، على أن تردنى إلى أهلى ، قال : نعم . فلما خرجت من عندهم رأيت أن الذى صنعته نعمة من الله منّ بها علىّ هدانى إليها ، فجعلت لله علىّ أن لا أجد موءودة إلا افتديتها كما افتديت هذه . قال : فما جاء الإسلام حتى أحييت مائة موءودة إلا أربعة ، ونزل القرآن بتحريم ذلك على المسلمين .

وممن توفى فى هذه السنة من المشاهير المذكورين :

جبلة بن الأيهم الغسانى ، ملك نصارى العرب ، وهو جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث ابن أبى شمر ، واسمه المنذر بن الحارث ، وهو ابن مارية ، ذات القرطين ، وهو ابن ثعلبة بن عمرو ابن جفنة ، واسمه كعب ، أبو عامر بن حارثة بن امرىء القيس ، ومارية بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، ويقال غير ذلك فى نسبه . وكنيته جبلة أبو المنذر الغسانى الجفنى ، وكان ملك غسان ، وهم نصارى العرب أيام هرقل ، وغسان أولاد عم الأنصار أوسها وخزرجها ، وكان جبلة آخر ملوك غسان ، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً مع شجاع بن وهب يدعوه إلى

الإسلام ، فأسلم ، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ . وقال ابن عساكر : إنه لم يسلم قط ، وهكذا صرح به الواحدى ، وسعيد بن عبد العزيز . وقال الواقدى : شهد اليرموك مع الروم أيام عمر بن الخطاب ، ثم أسلم بعد ذلك فى أيام عمر ، فاتفق أنه وطىء رداء رجل من مُزينة بدمشق ، فلطمه ذلك المُزنى ، فدفعه أصحاب جبلة إلى أبى عبيدة فقالوا : هذا لطم جَبلة ، قال أبو عبيدة : فيلطمه جبلة ، فقالوا : أو ما يقتل ؟ قال : لا ، قالوا : فما تقطع يده ؟ قال : لا ، إنما أمر الله بالقَود ، فقال جبلة : أترون أنى جاعل وجهى بدلاً لوجه مازنى جاء من ناحية المدينة ؟ بئس الدين هذا . ثم ارتد نصرانياً ، وترحّل بأهله حتى دخل أرض الروم ، فبلغ ذلك عمر ، فشق عليه وقال لحسان : إن صديقك جبلة ارتدّ عن الإسلام ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قال : وَلِمَ ؟ قال : لطمه رجل من مُزينة ، فقال : وحق له ، فقام إليه عُمَر بالدرة فضربه . ورواه الواقدى ، عن معمر وغيره ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، وساق ذلك بأسانيده إلى جماعة من الصحابة . وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقد روى ابن الكلبى وغيره : أن عمر لما بلغه إسلام جَبلة فرح بإسلامه ، ثم بعث يستدعيه ليراه بالمدينة ، وقيل : بل استأذنه جبلة فى القدوم عليه ، فأذن له ، فركب فى خلق كثير من قومه ، قيل : مائة وخمسين راكباً ، وقيل : خمسمائة ، وتلقته هدايا عمر ونزله قبل أن يصل إلى المدينة بمراحل ، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً ؛ دخلها وقد ألبس خيوله قلائد الذهب والفضة ، ولبس تاجاً على رأسه مُرَصّعاً باللآلىء والجواهر ، وفيه قرطا مارية جدته ، وخرج أهل المدينة رجالهم ونساؤهم ينظرون إليه ، فلما سلّم على عمر رحّب به عمر وأدنى مجلسه ، وشهد الحجّ مع عمر فى هذه السنة ، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطىء إزاره رجل من بنى فَزارة فانحلّ ، فرفع جبلة يده فهَشَم[1] أنف ذلك الرجل ، ومن الناس من يقول : إنه قلع عينه ، فاستعدى عليه الفزارى إلى عمر ، ومعه خلق كثير من بنى فزارة ، فاستحضره عمر ، فاعترف جَبلة ، فقال له عمر : أَقِدْه منك ؟ فقال : كيف وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقوى ، فقال جبلة : قد كنت أظنُّ أن أكون فى الإسلام أعزّ منى فى الجاهلية ، فقال عمر : دع ذَا عنك ، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أقدْته منك ، فقال : إذاً أتنصّر ، فقال : إن تنصّرت ضربتُ عنقك ، فلما رأى الجِدّ ، قال : سأنظر فى أمرى هذه الليلة ، فانصرف من عند عمر ، فلما ادلهَمّ الليل ركب فى قومه ومن أطاعه ، فسار إلى الشام ، ثم دخل بلاد الروم ، ودخل على هِرقل

---

(١) أى : كسر ، والهشم : كسر الشىء اليابس أو الأجوف ، أو كسر الوجه أو الأنف ، أو كل شىء .

فى مدينة القُسْطنطينية ، فرحّب به هِرَقل ، وأقطعه بلاداً كثيرة ، وأجرى عليه أرزاقاً جزيلة ، وأهدى إليه هدايا جميلة ، وجعله من سُمّاره ، فمكث عنده دهراً .

ثم إن عمر كتب كتاباً إلى هرقل مع رجل يقال له : جُثَامة بن مساحق الكنانى ، فلما بلغ هرقل كتاب عمر بن الخطاب ، قال له هرقل : هل لقيت ابن عمك جبلة ؟ قال : لا ، قال : فالقَه ، فذكر اجتماعه به ، وما هو فيه من النعمة والسرور والحبور الدنيوى ؛ فى لباسه وفرشه ومجلسه وطيبه وجواريه ؛ حَواليه الحسان من الخدم والقِيان ، ومطعمه وشرابه ، وسروره وداره التى تعوّض بها عن دار الإسلام . وذكر أنه دعاه إلى الإسلام والعودة إلى الشام ، فقال : أبَعْدَ ما كان منّى من الارتداد ؟ فقال : نعم ، إن الأشعث بن قيس ارتدّ وقاتلهم بالسيوف ، ثم لما رجع إلى الحق قبله منه ، وزوّجه الصديق بأخته أم فَروة ، قال : فالتهى عنه بالطعام والشراب ؛ وعرض عليه الخمر ، فأبى عليه ، وشرب جَبلة من الخمر شيئاً كثيراً حتى سكر ، ثم أمر جواريه المغنيات ، فغنينه بالعيدان من قول حسّان يمدح بنى عمه من غسان ، والشعر فى وَالِد جَبلة ، هذا الحيوان :

لله دَرُّ عصــابة نادمتُهم ... يوماً بجِلّق[1] فى الزّمان الأول

أولاد جَفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من وَرَد البريص عليهم[2] ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السلسل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

يغشون حتى ما تهِرّ كلابهم ... لا يسألونَ عن السوَاد المقبل

قال : فأعجبه قولهن ذلك ، ثم قال : هذا شعر حسان بن ثابت الأنصارى فينا وفى ملكنا ، ثم قال لى : كيف حاله ؟ قلت : تركته ضريراً شيخاً كبيراً ، ثم قال لهن : أطربننى ، فاندفعن يغنين لحسان أيضاً :

لمن الديار أوحشت بمعــان ... بين أعلا اليرموك فالصمّان

فالقريّات من بلاس فدار ... يا فسكاء فالقصور الدوانى

فقفــا جاسم فأودية الصـ ... فر مغنى قبــائل وهجان

تلك دار العزيز بعــد أنيس ... وحــلول عظيمة الأركان

صلوات المسيح فى ذلك الد ... ر دعاء القسيس والرهبان

ذاك مَغنى لآل جَفنة فى الدهـ ... ـر محــاه تعاقب الأزمان

قد أرانى هناك حق مكين ... عند ذى التاج مجلسى ومكانى

---

(١) جلق : موضع بالشام (٢) فى نسخة : من برد البريض عليهم صهباء وتصفيق

ثكلت أمهم وقد ثكلتهم يوم حلوا بحارث الجولانى
وقد دنا الفصح فالولائد ينظمـ ن سراعاً أكلة المرجان

ثم قال : هذا لابن الفُريعة حسّان بن ثابت فينا وفى ملكنا وفى منازلنا بأكناف غوطة دمشق ، قال : ثم سكت طويلا ، ثم قال لهن : بكينى ، فوضعن عيدانهن ونكسن رءوسهن وقلن :

تنصرت الأشراف من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها اللجاج ونخوة وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى رجعت إلى القول الذى قاله عمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة وقد يصبر العود الكبير على الدبر

قال : فوضع يده على وجهه ، فبكى حتى بلّ لحيته بدموعه ، وبكيت معه ، ثم استدعى بخمسمائة دينار هرقلية ، فقال : خذ هذه فأوصلها إلى حسّان بن ثابت . وجاء بأخرى فقال : خذ هذه لك ، فقلت : لا حاجة لى فيها ، ولا أقبل منك شيئاً وقد ارتددت عن الإسلام ، فيقال : إنه أضافها إلى التى لحسان ، فبعث بألف دينار هرقلية ، ثم قال له : أبلغ عمر بن الخطاب منّى السلام وسائر المسلمين ، فلما قدمت على عُمَر أخبرته خبره ، فقال : ورأيته يشرب الخمر ؟ قلت : نعم ، قال : أبعده الله ، تعجل فانية بباقية ، فما رَبحت تجارته . ثم قال : وما الذى وَجّه لحسان ؟ قلت : خمسمائة دينار هرقلية ، فدعا حسّاناً ، فدفعها إليه ، فأخذها وهو يقول :

إن ابن جَفنة من بقية معشر لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسنى بالشام إذ هو ربها كلا ولا متنصراً بالرُّوم
يعطى الجزيل ولا يراهُ عنده إلا كبعض عطيّة المحرُوم
وأتيته يوماً فقربَ مجلسى وسقا فروانى من الخرطوم

ثم لما كان فى هذه السنة من أيام معاوية ، بعث معاوية عبد الله بن مسعدة الفزارى رسولا إلى ملك الروم ، فاجتمع بجبَلة بن الأيهم ، فرأى ما هو فيه من السعادة الدنيوية والأموال ، من الخدم والحشم والذهب والخيول ، فقال له جَبلة : لو أعلم أنّ معاوية يقطعنى أرض البثنية فإنها منازلنا ، وعشرين قرية من غَوطة دمشق ويفرض لجماعتنا ، ويحسن جوائزنا ــ لرجعت إلى الشام فأخبر عبد الله بن مسعدة معاوية بقوله ، فقال معاوية : أنا أعطيه ذلك ، وكتب إليه كتاباً مع البريد بذلك ، فما أدركه البريد إلا وقد مات فى هذه السنة ــ قبحه الله . وذكر أكثر هذه

الأخبار الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى فى المنتظم ، وأرّخ وفاته هذه السنة ــ أعنى سنة ثلاث وخمسين ــ وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، فأطال الترجمة وأفاد ، ثم قال فى آخرها : بلغنى أن جَبلة توفى فى خلافة معاوية بأرض الروم بعد سنة أربعين من الهجرة .

سنة أربع وخمسين

ففيها : كان مَشتى محمد بن مالك بأرض الروم ، وغزا الصائفة مَعن بن يزيد السُّلَمى ، وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن إمرة المدينة ، وردّ إليها مَروان بن الحكم ، وكتب إليه أن يهدم دار سعيد بن العاص ، ويصطفى أمواله التى بأرض الحجاز ، فجاء مروان إلى دار سعيد ليهدمها ، فقال سعيد : ما كنت لتفعل ذلك ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلىّ بذلك ، ولو كتب إليك فى دارى لفعلته . فقام سعيد فأخرج إليه كتاب معاوية إليه حين وَلاَّه المدينة أن يهدم دارَ مروان ، ويصطفى ماله ، وذكر أنه لم يزل يُحاجِف[1] دونه حتى صرف ذلك عنه . فلما رأى مروان الكتاب إلى سعيد بذلك ، ثناه ذلك عن سعيد ، ولم يدافع عنه حتى تركه معاوية فى داره ، وأقرّ عليه أمواله . وفيها عزل معاوية سَمُرة بن جندب عن البصرة ، وكان زياد استخلفه عليها ، فأقرّه معاوية ستة أشهر ، وولّى عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان .

وروى ابن جرير وغيره ، عن سمرة : أنه قال لما عزله معاوية: لعن الله معاوية، لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذّبنى أبداً ، وهذا لا يصح عنه . وأقرّ عبد الله بن خالد بن أسيد على نيابة الكوفة ، وكان زياد قد استخلفه عليها ، فأبقاه معاوية . وقدم فى هذه السنة عبيد الله بن زياد على معاوية ، فأكرمه وسأله عن نواب أبيه على البلاد فأخبره عنهم ، ثم وَلاَّه إمرة خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فسار إلى مقاطعته ، وتجهز من فَوْره غادياً إليها ، فقطع النهر إلى جبال بُخارى ، ففتح رامِسْيِتَن ونصف بَيْكَند ــ وهما من مملكة بُخارى ــ ولقى الترك هناك ، فقاتلهم قتالا شديداً ، وهزمهم هزيمة فظيعة ، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خُفَّيها ، فلبست واحدة وتركت أخرى ، فأخذها المسلمون فقوموا جواهرها بمائتى ألف درهم ، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة ، وأقام عُبيد الله بخُرَاسان سنتين .

وفى هذه السنة حج بالناس مروان بن الحكم نائب المدينة ، وكان على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، وقيل : بل كان عليها الضحاك بن قيس ، وكان على البصرة عبد الله بن غَيْلان .

---

(١) أى : يمانع ويعارض .

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي : أبو محمد المدنى - مولى رسول الله ﷺ ، وابن مولاه ، وحبه وابن حبه ، وأمه بركة أم أيمن ، مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته ، وَلاّه رسول الله ﷺ الإمرة بعد مقتل أبيه ، فطعن بعض الناس فى إمرته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمرة أبيه من قبله ، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ بعده » . وثبت فى صحيح البخارى عنه : « أن رسول الله ﷺ كان يجلس الحسن على فخذه ، ويجلس أسامة على فخذه الأخرى ويقول: « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » ، وفضائله كثيرة . توفى رسول الله ﷺ وعمره تسع عشرة سنة ، وكان عُمَر إذا لقيه يقول : السلام عليك أيها الأمير . وصحح أبو عمر بن عبد البر : أنه توفى فى هذه السنة ، وقال غيره : سنة ثمان أو تسع وخمسين ، وقيل : توفى بعد مقتل عثمان ، فالله أعلم .

ثوبان بن بجدد - مولى رسول الله ﷺ تقدمت ترجمته فى مواليه ، ومن كان يخدمه عليه السلام . أصله من العرب ، فأصابه سبي ، فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه ، فلزم رسول الله ﷺ سفراً وحضراً ، فلما مات أقام بالرّملة ، ثم انتقل إلى حمص ، فابتنى بها داراً ، ولم يزل بها حتى مات فى هذه السنة على الصحيح ، وقيل : سنة أربع وأربعين ، وهو غلط . ويقال: إنه توفى بمصر ، والصحيح بحمص .

جبير بن مطعم - تقدم أنه توفى سنة خمسين .

الحارث بن ربعى ، أبو قتادة الأنصارى ، وقال الواقدى : اسمه النعمان بن ربعى ، وقال غيره : عمرو بن ربعى ، وهو أبو قتادة الأنصارى السلمى المدنى فارس الإسلام ، شهد أحداً وما بعدها ، وكان له يوم ذى قَرَد سعى مشكور ، كما قدمنا هناك ، قال رسول الله ﷺ : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع » وزعم أبو أحمد الحاكم : أنه شهد بدراً ، وليس بمعروف . وقال أبو سعيد الخدرى : أخبرنى من هو خير منى - أبو قتادة الأنصاريّ : أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » قال الواقدى وغير واحد : توفى فى هذه السنة - يعنى سنة أربع وخمسين - بالمدينة عن سبعين سنة ، وزعم الهيثم بن عدى وغيره ، أنه توفى بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه علىّ بن أبى طالب ، وهذا غريب .

حكيم بن حزام، بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشى الأسدى - أبو خالد المكى ، أمه فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى ، وعمته خديجة

بنت خويلد ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم أولاده ـ سوى إبراهيم ولدته أمه في جوف الكعبة قبل الفيل بثلاث عشر سنة ، وذلك أنها دخلت تزور فضربها الطلق وهى في الكعبة فوضعته على نِطع ، وكان شديد المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما كان بنو هاشم وبنو المطلب في الشعب لا يبايعوا ولا يناكحوا ، كان حكيم يُقبل بالعير يقدم من الشام فيشتريها بكمالها ، ثم يذهب بها فيضرب أدبارها حتى يلج الشِّعب يحمل الطعام والكسوة ، تكرمة لرسول الله ﷺ ، ولعمته خديجة بنت خويلد . وهو الذى اشترى زيد بن حارثة فابتاعته منه عمته خديجة فوهبته لرسول الله فأعتقه ، وكان اشترى حُلّة ذى يزن فأهداها لرسول الله ﷺ فلبسها ، قال : فما رأيت شيئا أحسن منه فيها . ومع هذا ما أسلمَ إلا يوم الفتح هو وأولاده كلهم . قال البخارى وغيره : عاش في الجاهلية ستين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، وكان من سادات قريش وكرمائهم وأعلمهم بالنسب ، وكان كثير الصدقة والبر والعتاقة ، فلما أسلم سأل عن ذلك رسول الله فقال : « أسلمت على ما أسلفت من خير » .

وقد كان حكيم شهد مع المشركين بدرا ، وتقدم إلى الحوض فكاد حمزة أن يقتله ، فما سحب إلا سحبا بين يديه ، فلهذا كان إذا اجتهد في اليمين يقول : لا والذى نجانى يوم بدر .

ولمّا ركب رسول الله إلى فتح مكة ومعه الجنود بمر الظهران ، خرج حكيم وأبو سفيان يتجسسان الأخبار ، فلقيهما العباس ، فأخذ أبا سفيان فأجاره وأخذ له أمانا من رسول الله ﷺ ، وأسلم أبو سفيان ليلتئذ كرها ، ومن صبيحة ذلك اليوم أسلم حكيم ، وشهد مع رسول الله ﷺ حُنينا ، وأعطاه مائة من الإبل ، ثم سأله فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ، ثم قال : « يا حكيم إن هذا المال حلوة خضرة ، وإنه من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإسراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع » . فقال حكيم : والذى بعثك بالحق لا أرزأ بعدك أبدا ، فلم يرزأ أحدا بعده . وكان أبو بكر يعرض عليه العطاء فيأبى ، وكان عمر يعرض عليه العطاء فيأبى فيشهد عليه المسلمين ، ومع هذا كان من أغنى الناس . مات الزبير يوم مات ولحكيم عليه مائة ألف ، وقد كان بيده حين أسلم الرِّفادة ودار الندوة ، فباعها بعد من معاوية بمائة ألف ، وفي رواية بأربعين ألف دينار ، فقال له ابن الزبير : بعت مكرمة قريش ؟ فقال له حكيم : ابن أخى : ذهبت المكارم فلا كرمَ إلا التقوى ، يا ابن أخى إنى اشتريتها في الجاهلية بزقّ خمر ، ولأشترين بها دارا في الجنة ، أشهدك أنى قد جعلتها في سبيل الله . وهذه الدار كانت لقريش بمنزلة دار العدل ، وكان لا يدخلها أحد إلا وقد صار سنه أربعين سنة ، إلا حكيم بن حزام فإنه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة ، ذكره الزبير بن بكار . وذكر الزبير أن حكيما حج عاما فأهدى مائة بدنة مُجلّلة ، وألف شاة ، وأوقف معه بعرفات مائة وصيف في أعناقهم أطوقة الفضة ، وقد نقش فيها : هؤلاء

عتقاء الله عن حكيم بن حزام ، فأعتقهم وأهدى جميع تلك الأنعام ـ رضى الله عنه . توفى حكيم فى هذه السنة على الصحيح ، وقيل غير ذلك وله مائة وعشرون سنة .

حويطب بن عبد العزى العامرى : صحابى جليل ، أسلم عام الفتح ، وكان قد عمر دهرا طويلا ، ولهذا جعله عمر فى النفر الذين جددوا أنصاب الحرم ، وقد شهد بدرا مع المشركين ، ورأى الملائكة يومئذ بين السماء والأرض ، وشهد الحديبية وسعى فى الصلح ، فلما كان عمرة القضاء ، كان هو وسهيل هما اللذان أمرا رسول الله ﷺ بالخروج من مكة ، فأمر بلالا أن لا تغرب الشمس وبمكة أحد من أصحابه ، قال : وفى كل هذه المواطن أهم بالإسلام ويأبى الله إلا ما يريد . فلما كان زمن الفتح خفت خوفا شديدا وهربت ، فلحقنى أبو ذر ـ وكان لى خليلا فى الجاهلية ـ فقال : ياحويطب مالك ؟ فقلت : خائف ، فقال : لا تخف فإنه أبر الناس ، وأوصل الناس ، وأنا لك جار فاقدم معى ، فرجعت معه فوقف بى على رسول الله وهو بالبطحاء ومعه أبو بكر وعمر ، وقد علمنى أبو ذر أن أقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فلما قلت ذلك قال : «حويطب» ؟ قلت : نعم ! أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : « الحمد لله الذى هداك » وسر بذلك واستقرضنى مالا فأقرضته أربعين ألفا ، وشهدت معه حنينا والطائف ، وأعطانى من غنائم حنين مائة بعير .

ثم قدم حويطب بعد ذلك المدينة فنزلها وله بها دار ، ولما ولى عليها مروان بن الحكم جاءه حويطب وحكيم بن حزام ، ومخرمة بن نوفل ، فسلموا عليه وجعلوا يتحدثون عنده ثم تفرقوا ، ثم اجتمع حويطب بمروان يوما آخر ، فسأله مروان عن عمره فأخبره ، فقال له : تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث . فقال حويطب : الله المستعان ، والله لقد هممت بالاسلام غير مرة كل ذلك يعوقنى أبوك ، يقول : تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث ؟ وتصير تابعاً ؟ قال : فأسكت مروان وندم على ما كان قال له ، ثم قال حويطب : أما كان أخبرك عثمان ما كان لقى من أبيك حين أسلم ؟ قال : فازداد مروان غما . وكان حويطب ممن شهد دفن عثمان ، واشترى منه معاوية داره بمكة بأربعين ألف دينار فاستكثرها الناس ، فقال : وما هى فى رجل له خمسة من العيال ؟ قال الشافعى : كان حويطب جيد الاسلام ، وكان أكثر قريش ربعا جاهليا . وقال الواقدى : عاش حويطب فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الاسلام ستين سنة ، ومات حويطب فى هذه السنة بالمدينة وله مائة وعشرون سنة . وقال غيره : توفى بالشام . له حديث واحد رواه البخارى ومسلم والنسائى ، من حديث السائب بن يزيد عنه عن عبد الله بن السعدى عن عمر فى العمالة ، وهو من عزيز الحديث ، لأنه اجتمع فيه أربعة من الصحابة ، رضى الله عنهم .

معبد بن يربوع بن عنكثة : ابن عامر بن مخزوم ، أسلم عام الفتح ، وشهد حنينا ، وأعطاه رسول الله خمسين من الإبل ، وكان اسمه صِرْما ، وفي رواية أصرم ، فسماه مَعْبدا ، وكان في جملة النفر الذين أمرهم عمر بتجديد أنصاب الحرم ، وقد أصيب بصره بعد ذلك ، فأتاه عمر يعزيه فيه ، رواه البخارى . قال الواقدى وخليفة وغير واحد : مات في هذه السنة بالمدينة ، وقيل بمكة وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وقيل أكثر من ذلك .

مرة بن شراحيل الهمدانى : يقال له مرة الطيب ، ومرة الخير روى عن أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وغيرهم ، كان يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ، فلما كبر صلى أربعمائة ركعة ، ويقال إنه سجد حتى أكل التراب جبهته ، فلما مات رؤى في المنام ـ وقد صار ذلك المكان نوراً ـ فقيل له : أين منزلك ؟ فقال : بدار لا يظعن أهلها ولا يموتون .

النُّعيمان بن عمرو : بن رفاعة بن الحارث ، شهد بدرا وما بعدها ، ويقال : إنه الذى كان يؤتى به في الشراب ، فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » .

سودة بنت زمعة : القرشية العامرية أم المؤمنين ، تزوجها رسول الله بعد خديجة ، وكانت قبله عند السكران بن عمرو ـ أخى سهيل بن عمرو ، فلما كبرت همّ رسول الله بطلاقها ، ويقال إنه طلقها ، فسألته أن يبقيها في نسائه وتهب يومها لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزل الله : (وإن امرأةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أو إعْرَاضاً .)[1] الآية ، وكانت ذات عبادة وورع وزهادة ، قالت عائشة : ما من امرأة أحبّ إلى أن أكون في صلاحها غير أن فيها حِدّة تسرع منها الفَيْئة[2] . ذكر ابن الجوزى وفاتها في هذه السنة ، وقال ابن أبى خيثمة : توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب فالله أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

فيها : عزل معاوية عبد الله بن غَيلان عن البصرة وولى عليها عبيد الله بن زياد . وكان سبب عزل معاوية بن غيلان عن البصرة ، أنه كان يخطب الناس فحصبه رجل من بنى ضبّة فأمر بقطع يده ، فجاء قومه إليه فقالوا له : إنه متى بلغ أمير المؤمنين أنك قطعت يده في هذا الصنع ، فعل به وبقومه نظير ما فعل بحجر بن عدى ، فاكتب لنا كتابا أنك قطعت يده في شُبهة ، فكتب لهم فتركوه عندهم حينا ، ثم جاءوا معاوية فقالوا له : إن نائبك قطع يد صاحبنا في شُبهة فأقِدنا منه ، قال : لا سبيل

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النساء (٢) الفيئة : الرجوع والتحول

إلى القَوَد من نوابى ولكن الدّية ، فأعطاهم الدّية وعزل ابن غيلان ، وقال لهم : اختاروا من تريدون ، فذكروا رجالا ، فقال : لا ، ولكن أولى عليكم ابن أخى عُبيد الله بن زياد ، فولاّه فاستخلف ابن زياد على خُراسان ـ أسلم بن زُرعة ، فلم يَغزُ ولم يفتح شيئاً . وولى قضاء البصرة لزُرارة بن أوفى ، ثم عزله وولّى ابن أذينة ، وولى شرطتها عبد الله بن حِصن . وحج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة . وفيها : عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة ، وولى عليها الضحاك بن قيس ، رضى الله عنه .

ذكرُ من توفى من الأعيان فى هذه السنة .

أرقم بن أبى الأرقم ، عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أسلم قديماً ، يقال : سابع سبعة ، وكانت داره كهفاً المسلمين يأوى إليها رسول الله ﷺ ، ومن أسلم من قريش ، وكانت عند الصفا ، وقد صارت فيما بعد ذلك للمهدى ، فوهبها لامرأته الخيزران ـ أم موسى الهادى وهارون الرشيد ، فبنتها وجدّدتها ، فعرفت بها ، ثم صارت لغيرها . وقد شهد الأرقم بدراً ، وما بعدها من المشاهد ، ومات بالمدينة فى هذه السنة ، وصلى عليه سعد بن أبى وقاص ، أوصى به رضى الله عنهما ، وله بضع وثمانون سنة .

سحبان بن زفر بن إياس ، بن عبد شمس بن الأجب الباهلى الوائلى ، الذى يضرب بفصاحته المثل ، فيقال : أفصح من سحبان وائل ، ووائل هو ابن معد بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار ، وباهلة امرأة مالك بن أعصر ، ينسب إليها ولدها ، وهى باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة . قال ابن عساكر : سحبان المعروف بسحبان وائل ، بلغنى أنه وفد إلى معاوية ، فتكلم ، فقال معاوية : أنت الشيخ ؟ فقال : إى والله وغير ذلك ، ولم يزد ابن عساكر على هذا . وقد نسبه ابن الجوزى فى كتابه المنتظم ، كما ذكرنا ، ثم قال : وكان بليغاً يضرب المثل بفصاحته ، دخل يوماً على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال سحبان :

لقد علم الحى اليمانون أننى　　إذا قلت «أما بعد» أنى خطيبها

فقال له معاوية : اخطب ، فقال : انظروا لى عصا تقيم من أودى ، فقالوا : وماذا تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ فقال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فأخذها وتكلم من الظهر إلى أن قاربت العصر ، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج عنه وقد بقيت عليه بقية فيه ، فقال معاوية : الصلاة ، فقال : الصلاة أمامك ، ألسنا فى تحميد وتمجيد

وعظة وتنبيه ، وتذكير ووعيد ؟ فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، قال : العرب وحدها ؟ بل أخطب الجن والإنس ، قال : كذلك أنت .

سعد بن أبى وقاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، أبو إسحاق القرشى الزهرى ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، أسلم قديماً ، قالوا : وكان يوم أسلم عمره سبع عشرة سنة . وثبت عنه فى الصحيح أنه قال : ما أسلم أحد فى اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وإنى لثلث الإسلام سابع سبعة ، وهو الذى كوّف[1] الكوفة ونفى عنها الأعاجم ، وكان مجاب الدعوة ، وهاجر وشهد بدراً وما بعدها وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وكان فارساً شجاعاً من أمراء رسول الله ﷺ ، وكان فى أيام الصديق معظماً جليل المقدار ، وكذلك فى أيام عمر ، وقد استنابه على الكوفة . وهو الذى فتح المدائن ، وكانت بين يديه وقعة جلولاء . وكان سيداً مطاعاً ، وعزله عن الكوفة عن غير عجز ولا خيانة ، ولكن لمصلحة ظهرت لعمر فى ذلك . وقد ذكره فى الستة أصحاب الشورى ، ثم ولاّه عثمان بعدها ، ثم عزله عنها .

وقال الحميدى ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار قال : شهد سعد بن أبى وقاص ، وابن عمر دومة الجندل يوم الحكمين . وثبت فى صحيح مسلم ، أن ابنه عمر جاء إليه وهو معتزل فى إبله فقال : الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا ؟ فقال : يابنى ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد الغنىّ الخفىّ التقىّ » . قال ابن عساكر : ذكر بعض أهل العلم أن ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص جاءه فقال له : يا عم ، هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر ، فقال : أريد من مائة ألف سيفاً واحداً ، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع .

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج : حدثنى زكريا بن عمرو ، أن سعد بن أبى وقاص وفد على معاوية ، فأقام عنده شهر رمضان يقصر الصلاة ويفطر ، وقال غيره : فبايعه ، وما سأله سعد شيئاً إلا أعطاه إياه . قال أبو يعلى : حدثنا زهير ، ثنا إسماعيل بن علية ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم قال : قال سعد : إنى لأول رجل رمى بسهم فى المشركين ، وما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد قبلى ، ولقد سمعته يقول : « ارم فداك أبى وأمى » . وقال أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، ثنا إسماعيل ، عن قيس : سمعت سعد بن مالك يقول : والله إنى لأول

(١) أى : مصرها وجعلها فى عز ومنعة ، يقال : كوف الشىء : جمعه ، قال صاحب اللسان : سميت الكوفة لأن سعداً لما أراد بناءها ارتادها وقال : تكوفوا فى هذا المكان ، أى اجتمعوا فيه .

العرب رمى بسهم فى سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحَبَلة[1] وهذا السَّمُرُ[2] ، حتى أن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خِلط[3] ، ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى على الدين ، لقد خبت إذاً وضلّ عملى وقد رواه شعبة ووكيع وغير واحد عن اسماعيل ابن أبى خالد به .

وقال أحمد : حدثنا ابن سعيد عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن سعد ، قال : « جمع لى رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد » ورواه أحمد أيضاً عن غندر عن شعبة عن يحيى بن سعيد الأنصارى . وقد رواه الليث وغير واحد عن يحيى الأنصارى . ورواه غير واحد عن سعيد بن المسيب عن سعد . ورواه الناس من حديث عامر بن سعد عن أبيه . وفى بعض الروايات : « فداك أبى وأمى » ، وفى رواية : « فقال ارم وأنت الغلام الحزَوَّر »[4] قال سعيد : وكان سعد جيد الرمى . وقال الأعمش عن أبى خالد عن جابر بن سمرة قال : أول الناس رمى بسهم فى سبيل الله ـ سعد رضى الله عنه . وقال أحمد : حدثنا وكيع ، ثنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الله بن شداد ، سمعت عليا يقول : « ما سمعت رسول الله يفدى أحداً بأبويه إلا سعد ابن مالك ، وإنى سمعته يقول له يوم أحد : ارم سعد فداك أبى وأمى » . ورواه البخارى عن أبى نعيم عن مسعر عن سعد بن إبراهيم به . ورواه شعبة عن سعد بن إبراهيم ، ورواه سفيان ابن عيينة وغير واحد عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب فذكره . وقال عبد الرزاق : أنا معمر عن أيوب أنه سمع عائشة بنت سعد تقول : أنا بنت المهاجر الذى فداه رسول الله ﷺ بالأبوين . وقال الواقدى : حدثنى عبيدة بن نابل عن عائشة بنت سعد عن أبيها قال : « لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد، فيرده على رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد ذلك فظننت أنه ملك » . وقال أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى ، ثنا إبراهيم عن سعد عن أبيه عن سعد بن أبى وقاص قال : « لقد رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أحد، رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد » .

ورواه الواقدى : حدثنى إسحاق بن أبى عبد الله عن عبد العزيز ـ جد ابن أبى عون ـ عن زياد مولى سعد ، عن سعد قال : « رأيت رجلين يوم بدر يقاتلان عن رسول الله، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وإنى لأراه ينظر إلى ذا مرة وإلى ذا مرة مسرورا بما ظفره الله عز وجل » . وقال سفيان عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : اشتركت أنا

---

(١) الحبَلة : الكرم (٢) السمر : اسم جمع واحدته سمرة، ويجمع على سمرات وهو شجر الطلح ويسمى: أم غيلان . (٣) أى لا يختلط نجوهم بعضه ببعض لجفافه ويبسه ، فإنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وورق الشجر لا غير (٤) أى الذى قد شب وقوى

وسعد وعمار يوم بدر فيما أصبنا من الغنيمة ، فجاء سعد بأسيرين ولم أجىء أنا وعمار بشىء .
وقال الأعمش عن إبراهيم بن علقمة عن ابن مسعود قال : لقد رأيت سعد بن أبى وقاص يوم بدر يقاتل قتال الفارس الراجل وقال مالك عن يحيى بن سعيد ، أنه سمع عبد الله بن عامر يقول : قالت عائشة : بات رسول الله أرقا ذات ليلة ثم قال : « ليت رجلا صالحا يحرسنى الليلة ! قالت : إذ سمعنا صوت السلاح ، فقال : من هذا ؟ قال . أنا سعد بن أبى وقاص ، أنا أحرسك يا رسول الله ، قالت : فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه » . أخرجاه من حديث يحيى بن سعيد ، وفى رواية : « فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام »

وقال أحمد : حدثنا قتيبة ، ثنا رشدين بن سعد عن يحيى بن الحجاج بن شداد عن أبى صالح عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله قال : « أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل سعد بن أبى وقاص » . وقال أبو يعلى : حدثنا محمد بن المثنى ، ثنا عبد الله ابن قيس الرقاشى الخراز ـ بصرى ، ثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : « يدخل عليكم من ذا الباب رجل من أهل الجنة ، قال : فليس منا أحد إلا وهو يتمنى أن يكون من أهل بيته ، فإذا سعد بن أبى وقاص قد طلع » . وقال حرملة عن ابن وهب أخبرنى حيوة أخبرنى عقيل عن ابن شهاب ، حدثنى من لا أتهم عن أنس بن مالك قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة ، فاطلع سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا كان الغد قال رسول الله مثل ذلك ، قال : فاطلع سعد بن أبى وقاص على ترتيب الأول . حتى إذا كان الغد قال رسول الله مثل ذلك ، قال : فطلع على ترتيبه ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثار عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى غاضبت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تنحل يمينى فعلت ، قال أنس : فزعم عبد الله بن عمرو ، أنه بات معه ليلة ، حتى إذا كان الفجر فلم يقم تلك الليلة شيئا ، غير أنه كان إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبره حتى يقوم مع الفجر ، فإذا صلى المكتوبة أسبغ الوضوء وأتمه ثم يصبح مفطرا . قال عبد الله بن عمرو : فرمقته ثلاث ليال وأيامهن لا يزيد على ذلك ، غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيرا فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أحتقر عمله ، قلت : إنه لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ، ولكنى سمعت رسول الله قال ذلك ثلاث مرات فى ثلاث مجالس: « يطلع عليكم رجل من أهل الجنة » فاطلعت أنت أولئك المرات الثلاث ، فأردت أن آوى إليك حتى أنظر ما عملك فأقتدى بك لأنال ما نلت ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، ما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ؟ فقال : ما هو إلا الذى رأيت . قال : فلما رأيت ذلك انصرفت فدعا بى حين وليت ، فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى سوءاً لأحد من المسلمين ، ولا أنوى له شراً

ولا أقوله . قال : قلت : هذه التي بلغت بك وهي التي لا أطيق . وهكذا رواه صالح المزي عن عمرو بن دينار - مولى الزبير - عن سالم عن أبيه ، فذكر مثل رواية أنس بن مالك .

وثبت في صحيح مسلم من طريق سفيان الثوري عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد في قوله تعالى (ولا تَطْرُدِ الذين يدعُون رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيّ يُريدون وَجْهَه)[1] نزلت في ستة ، أنا وابن مسعود منهم ، وفي رواية : أنزل الله فيّ (وَإنْ جاهَداكَ لتُشرِكَ بي ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطعْهما)[2] وذلك أنه لما أسلم امتنعت أمه من الطعام والشراب أياما ، فقال لها : تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، إن شئت فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي . فنزلت هذه الآية . وأما حديث الشهادة للعشرة بالجنة فثبت في الصحيح عن سعيد بن زيد . وجاء من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة في قصة حراء ذكر سعد بن أبي وقاص منهم . وقال هشيم وغير واحد ، عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال : كنا مع رسول الله فأقبل سعد فقال رسول الله ﷺ : « هذا خالي فليرني امرؤ خاله » ، رواه الترمذي . وقال الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، ثنا عبد الوهاب بن الضحاك ، ثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان ابن عمرو عن ماعز التميمي ، عن جابر قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل سعد فقال : « هذا خالي » . وثبت في الصحيح من حديث مالك وغيره عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه ، « أن رسول الله جاءه يعوده عام حجة الوداع من وجع اشتد به ، فقلت : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ! قلت : فالشطر يا رسول الله ؟ قال : لا ! قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر[3] ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك . قلت : يا رسول الله ! أخلف بعد أصحابي ؟ فقال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون ، ثم قال : اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله أن مات بمكة » .

ورواه أحمد عن يحيى بن سعيد عن الجعد بن أوس ، عن عائشة بنت سعد عن أبيها فذكر نحوه ، وفيه قال : « فوضع يده على جبهته فمسح وجهه وصدره وبطنه وقال : اللهم اشف سعداً وأتمّ له هجرته » . قال سعد : فما زلت يخيل إلي أني أجد برده على كبدي حتى الساعة . وقال ابن وهب : حدثني موسى بن علي بن رباح عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ عاد سعداً فقال :

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة الأنعام (٢) من الآية ٩ من سورة العنكبوت (٣) أي تترك

« اللهم أذهب عنه الباس ، إله الناس ، ملك الناس ، أنت الشافي لا شافي له إلا أنت ، بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من حسد وعين ، اللهم أصح قلبه وجسمه ، واكشف سقمه وأجب دعوته » .

وقال ابن وهب : أخبرني عمر وعن بكر بن الأشج قال : سألت عامر بن سعد عن قول رسول الله لسعد : « وعسى أن تبقى حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون » . فقال : أمر سعد على العراق فقتل قوما على الردة فضرهم ، واستتاب قوماً كانوا سجعوا سجع مسيلمة الكذاب فتابوا فانتفعوا به . وقال الامام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ثنا معاذ بن رفاعة حدثني على بن زيد عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله فذكرنا ورققنا ، فبكى سعد ابن ابي وقاص فأكثر البكاء ، وقال : يا ليتني مت ، فقال رسول الله ﷺ : « يا سعد إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » . وقال موسى بن عقبة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم سدد رميته وأجب دعوته » . ورواه سيار بن بشير عن قيس عن أبي بكر الصديق قال : سمعت رسول الله يقول لسعد : « اللهم سدد سهمه وأجب دعوته ، وحببه إلى عبادك » . وروى من حديث ابن عباس ، وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره ، أن سعدا قال : يا رسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي ، فقال : « إنه لا يستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه ، فقال : يارسول الله ادع الله أن يطيب مطعمي ، فدعا له » . قالوا : فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أخذت .

وقد كان كذلك مجاب الدعوة ، لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجيب له ، فمن أشهر ذلك : ما روى في الصحيحين من طريق عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة أن أهل الكوفة شكوا سعداً إلى عمر في كل شيء حتى قالوا : لا يحسن يصلي ، فقال سعد : أما إني لا آلو أن أصلي بهم صلاة رسول الله ، أطيل الأوليين وأحذف الأخريين ، فقال : الظن بك يا أبا إسحاق ، وكان قد بعث من يسأل عنه بمحال الكوفة ، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيراً ، حتى مرّوا بمسجد لبني عبس فقام رجل منهم يقال له : أبو سعدة أسامة بن قتادة فقال : إن سعداً كان لا يسير في السرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في الرعية القضية ، فبلغ سعداً فقال : اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطل عمره وأدم فقره ، وأعم بصره وعرضه للفتن ، قال : فأنا رأيته بعد ذلك شيخا كبيراً قد سقطت حاجباه على عينيه يقف في الطريق فيغمز الجواري فيقال له، فيقول: شيخ مفتون أصابته دعوة سعد . وفي رواية غريبة أنه أدرك فتنة المختار بن أبي عبيد فقتل فيها .

قال الطبرانى : ثنا يوسف القاضى ، ثنا عمرو بن مرزوق ثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم عن سعيد بن المسيب قال : خرجت جارية لسعد يقال لها زبراء ، وعليها قميص جديد ، فكشفتها الريح فشدّ عليها عمر بالدرة ، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة ، فذهب سعد يدعو على عمر ، فناوله الدرة وقال : اقتص منى ، فعفا عن عمر . وروى أيضا أنه كان بين سعد وابن مسعود كلام فهمّ سعد أن يدعو عليه فخاف ابن مسعود وجعل يشتد فى الهرب . وقال سفيان بن عيينة : لما كان يوم القادسية كان سعد على الناس وقد أصابته جراح فلم يشهد يوم الفتح ، فقال رجل من بجيلة :

ألم ترَ أنَّ الله أظهر دينه وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيّم

فقال سعد : اللهم اكفنا يده ولسانه ، فجاءه سهم غرب فأصابه فخرس ويبست يداه جميعا . وقد أسند زياد البكائى وسيف بن عمر عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر عن ابن عمر فذكر مثله ، وفيه : ثم خرج سعد فأرى الناس ما به من القروح فى ظهره ليعتذر إليهم .

وقال هشيم : عن أبى بلج عن مصعب بن سعد ، أن رجلا نال من علىّ فنهاه سعد فلم ينته ، فقال سعد : أدعو عليك ، فلم ينته ، فدعا الله عليه حتى جاء بعير ناد فتخبطه . وجاء من وجه آخر عن عامر بن سعد ، أن سعداً رأى جماعة عكوفاً على رجل فأدخل رأسه من بين اثنين فإذا هو يسب عليا وطلحة والزبير ، فنهاه عن ذلك فلم ينته ، فقال : أدعو عليك ، فقال الرجل : تتهددنى كأنك نبى ؟ فانصرف سعد فدخل دار آل فلان فتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه فقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواماً قد سبق لهم منك سابقة الحسنى ، وأنه قد أسخطك سبّه إياهم ، فاجعله اليوم آية وعبرة . قال : فخرجت بُختية نادّة من دار آل فلان لا يردها شىء حتى دخلت بين أضعاف الناس ، فافترق الناس فأخذته بين قوائمها ، فلم يزل تتخبطه حتى مات . قال : فلقد رأيت الناس يشتدون وراء سعد يقولون : استجاب الله دعاءك يا أبا إسحاق . ورواه حماد ابن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب فذكر نحوه . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى الحسن بن داود بن محمد بن المنكدر القرشى ، ثنا عبد الرزاق عن أبيه عن ميناء مولى عبد الرحمن ابن عوف ، أن امرأة كانت تطلع على سعد فنهاها فلم تنته ، فاطلعت يوما وهو يتوضأ فقال : شاهَ وجهك ، فعاد وجهها فى قفاها .

وقال كثير النوى : عن عبد الله بن بديل قال : دخل سعد على معاوية فقال له : مالك لم تقاتل معنا ؟ فقال : إنى مرت بى ريح مظلمة فقلت : اخ اخ . فأنخت راحلتى حتى انجلت عنى ، ثم عرفت الطريق فسرت ، فقال معاوية : ليس فى كتاب الله : اخ اخ . ولكن قال الله تعالى (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)[1]

(١) من الآية : ٩ من سورة الحجرات

فوالله ما كنت مع الباغية على العادلة ، ولا مع العادلة على الباغية . فقال سعد : ما كنت لأقاتل رجلا قال له رسول الله ﷺ ، « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبى بعدى » . فقال معاوية : من سمع هذا معك ؟ فقال : فلان وفلان وأم سلمة . فقال معاوية : أما إنى لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت عليا . وفى رواية من وجه آخر ، أن هذا الكلام كان بينهما وهما بالمدينة فى حجة حجها معاوية ، وأنهما قاما إلى أم سلمة فسألاها فحدثتهما بما حدث به سعد ، فقال معاويه : لو سمعت هذا قبل هذا اليوم لكنت خادما لعلى حتى يموت أو أموت . وفى إسناد هذا ضعف والله أعلم . وقد روى عن سعد أنه سمع رجلا يتكلم فى علىّ وفى خالد فقال : إنه لم يبلغ ما بيننا إلى ديننا . قال محمد بن سيرين : طاف سعد على تسع جوار فى ليلة فلما انتهى إلى العاشرة أخذه النوم فاستحيى أن توقظه .

ومن كلامه الحسن ، أنه قال لابنه مصعب : يابنى إذا طلبت شيئاً فاطلبه بالقناعة ، فإنه من لاقناعة له لم يغنه المال . وقال حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد قال : كان رأس أبى فى حجرى وهو يقضى فبكيت ، فقال : ما يبكيك يابنى ؟ والله إن الله لا يعذبنى أبداً، وإنى من أهل الجنة . إن الله يدين المؤمنين بحسناتهم فاعملوا لله ، وأما الكفار فيخفف عنهم بحسناتهم ، فإذا نفدت قال : ليطلب كل عامل ثواب عمله ممن عمل له . وقال الزهرى : لما حضرت سعداً الوفاة دعا بخلق جبة فقال : كفنونى فى هذه فإنى لقيت فيها المشركين يوم بدر ، وإنما خبأتها لهذا اليوم .

وكانت وفاة سعد بالعقيق خارج المدينة ، فحمل إلى المدينة على أعناق الرجال فصلى عليه مروان ، وصلى بصلاته أمهات المؤمنين الباقيات الصالحات ، ودفن بالبقيع . وكان ذلك فى هذه السنة - سنة خمس وخمسين - على المشهور الذى عليه الأكثرون ، وقد جاوز الثمانين على الصحيح . قال على بن المدينى : وهو آخر العشرة وفاة . وقال غيره : كان آخر المهاجرين وفاة ، رضى الله عنه وعنهم أجمعين وقال الهيثم بن عدى : سنة خمسين ، وقال أبو معشر وأبو نعيم مغيث بن المحرر : توفى سعد سنة ثمان وخمسين ، زاد مغيث : وفيها توفى الحسن بن على وعائشة وأم سلمة ، والصحيح الأول - خمس وخمسين - قالوا وكان قصيراً غليظاً شثن الكفين أفطس أشعر الجسد ، يخضب بالسواد ، وكان ميراثه مائتى ألف وخمسين ألفاً .

فضالة بن عبيد الأنصارى الأوسى : أول مشاهده أحد ، وشهد بيعة الرضوان ، ودخل الشام ، وولى القضاء بدمشق فى أيام معاوية بعد أبى الدرداء . قال أبو عبيد : مات سنة ثلاث وخمسين . وقال غيره : سنة سبع وستين ، وقال ابن الجوزى فى المنتظم : توفى فى هذه السنة والله أعلم .

قثم بن العباس بن عبد المطلب : كان أشبه الناس برسول الله ﷺ ، تولى نيابة المدينة فى أيام على ، وشهد فتح سَمَرقند فاستشهد بها .

كعب بن عمرو أبو اليسر : الأنصارى السلمى . شهد العقبة وبدراً ، وأسر يومئذ العباس بن عبد المطلب ، وشهد ما بعد ذلك من المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . قال أبو حاتم وغيره : مات سنة خمس وخمسين ، زاد غيره : وهو آخر من مات من أهل بدر

ثم دخلت سنة ست وخمسين

وذلك فى أيام معاوية، ففيها مَشتى جُنادة بن أبى أمية بأرض الروم ، وقيل : عبد الرحمن بن مسعود ، ويقال فيها غزا فى البحر يزيد بن شجَرة ، وفى البر عياض بن الحارث . وفيها اعتمر معاوية فى رجب ، وحج بالناس فيها الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان . وفيها ولّى معاوية سعيد بن عثمان بلاد خراسان ، وعزل عنها عبيد الله بن زياد ، فسار سعيد إلى خراسان والتقى مع الترك عند صُغْد سمرقند ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، واستشهد معه جماعة منهم ـ فيما قيل ـ قثم بن العباس بن عبد المطلب . قال ابن جرير : سأل سعيد بن عثمان بن عفان معاوية أن يوليه خراسان فقال : إن بها عبيد الله بن زياد ، فقال : أما لقد اصطنعك أبى ورقّاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذى لا يُجارَى إليه ولا يُسامَى ، فما شكرت بلاءه ولا جازيته بآلائه ، وقدمت على هذا ـ يعنى يزيد ابن معاوية ـ وبايعتَ له ، ووالله لأنا خير منه أبا وأمّا ونفساً . فقال له معاوية : أما بلاء أبيك عندى فقد يحقّ على الجزاء به ، وقد كان من شكرى لذلك أنى طلبت بدمه حتى تكشفت الأمور ، ولست بلائم لنفسى فى التشمير[1] . وأما فضل أبيك على أبيه ، فأبوك والله خير منى وأقرب برسول الله ﷺ . وأما فضل أمك على أمه فما لا ينكر ، فإن امرأة من قريش خير من امرأة من كلب . وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة دُحِسَت[2] ليزيد رجالا مثلك ـ يعنى أن الغوطة لو ملئت رجالا مثل سعيد بن عثمان كان يزيد خيراً وأحب إلىّ منهم . فقال له يزيد : يا أمير المؤمنين ! ابن عمك وأنت أحق من نظر فى أمره، وقد عتب عليك فىّ فأعتبه[3] . فولاّه حرب خُراسان ، فأتى سمرقند فخرج إليه أهل الصُّغْد من الترك فقاتلهم وهزمهم وحصرهم فى مدينتهم ، فصالحوه وأعطوه رهنا خمسين غلاما يكونون فى يده من أبناء عظمائهم ، فأقام بالترمذ ولم يف لهم ، وجاء بالغلمان الرهن معه إلى المدينة .

---

(١) أى التهيؤ والإرسال للقتال

(٢) أى : ملئت ، وكل شىء ملأته فقد دحسته . والغوطة : اسم مكان واسع فى فضاء دمشق ، وهى إحدى متنزهات الدنيا الأربع .

(٣) أى : أرضه .

وفيها : دعا معاوية الناس إلى البيعة ليزيد ولده أن يكون ولي عهده من بعده – وكان قد عزم قبل ذلك على هذا في حياة المغيرة بن شعبة – فروى ابن جرير من طريق الشعبي ، أن المغيرة كان قد قدم على معاوية وأعفاه من إمرة الكوفة فأعفاه لكبره وضعفه ، وعزم على توليتها سعيد ابن العاص ، فلما بلغ ذلك المغيرة كأنه ندم ، فجاء إلى يزيد بن معاوية فأشار عليه بأن يسأل من أبيه أن يكون ولي العهد ، فسأل ذلك من أبيه فقال : من أمرك بهذا؟ قال: المغيرة ، فأعجب ذلك معاوية من المغيرة ورده إلى عمل الكوفة ، وأمره أن يسعى في ذلك ، فعند ذلك سعى المغيرة في توطيد ذلك ، وكتب معاوية إلى زياد يستشيره في ذلك ، فكره زياد ذلك ، لما يعلم من لعب يزيد وإقباله على اللعب والصيد ، فبعث إليه من يثني رأيه عن ذلك ، وهو عبيد بن كعب بن النميري – وكان صاحباً أكيداً لزياد – فسار إلى دمشق فاجتمع بيزيد أولا ، فكلمه عن زياد وأشار عليه بأن لا يطلب ذلك ، فإن تركه خير له من السعي فيه ، فانزجر يزيد عما يريد من ذلك واجتمع بأبيه واتفقا على ترك ذلك في هذا الوقت .

فلما مات زياد – وكانت هذه السنة – شرع معاوية في نظم ذلك والدعاء إليه ، وعقد البيعة لولده يزيد ، وكتب إلى الآفاق بذلك ، فبايع له الناس في سائر الأقاليم ، إلا عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وابن عباس . فركب معاوية إلى مكة معتمراً ، فلما اجتاز بالمدينة – مرجعه من مكة – استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة فأوعده وتهدده بانفراده ، فكان من أشدهم عليه رداً وأجلدهم في الكلام – عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وكان ألينهم كلاماً عبد الله بن عمر بن الخطاب . ثم خطب معاوية وهؤلاء حضور تحت منبره ، وبايع الناس ليزيد وهم قعود ولم يوافقوا ولم يظهروا خلافاً ، لما تهددهم وتوعدهم . فاتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد ، ووفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد ، فكان فيمن قدم الأحنف بن قيس ، فأمره معاوية أن يحادث يزيد ، فجلسا ، ثم خرج الأحنف فقال له معاوية : ماذا رأيت من ابن أخيك ؟ فقال : إنا نخاف الله إن كذبنا ونخافكم إن صدقنا ، وأنت أعلم به في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، وأنت أعلم به بما أردت ، وإنما علينا أن نسمع ونطيع ، وعليك أن تنصح للأمة .

وقد كان معاوية – لما صالح الحسن – عهد للحسن بالأمر من بعده ، فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية ، ورأى أنه لذلك أهلا ؛ وذلك من شدة محبة الوالد لولده ، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية ، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته ، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى ، ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خطبه به :

إنى خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة ليس لها راع ، فقال له ابن عمر : إذا بايعه الناس كلهم بايعته ولو كان عبداً مجدع الأطراف . وقد عاتب معاوية فى ولايته يزيد ـ سعيد بن عثمان ابن عفان ، وطلب منه أن يوليه مكانه ، وقال له سعيد فيما قال : إن أبى لم يزل معتنياً بك حتى بلغت ذروة المجد والشرف ، وقد قدمت ولدك علىّ وأنا خير منه ـ أبا وأما ونفسا . فقال له : أما ما ذكرت من إحسان أبيك إلىّ فإنه أمر لا ينكر ، وأما كون أبيك خير من أبيه فحق ، وأمك قرشية وأمه كلبية فهى خير منها . وأما كونك خيرا منه فوالله لو مُلئت إلى الغوطة رجالا مثلك لكان يزيد أحبّ إلى منكم كلكم . وروينا عن معاوية أنه قال يوما فى خطبته : اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه ـ فيما أراه ـ أهل لذلك فأتمم له ما وليته ، وإن كنت وليته لأنى أحبه فلا تتمم له ما وليته .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، أن معاوية كان قد سمر ليلة فتكلم أصحابه فى المرأة التى يكون ولدها نجيبا ، فذكروا صفة المرأة التى يكون ولدها نجيباً ، فقال معاوية : وددت لو عرفت بامرأة تكون بهذه المثابة ! فقال أحد جلسائه : قد وجدت ذلك يا أمير المؤمنين ، قال : ومن ؟ قال : ابنتى يا أمير المؤمنين . فتزوجها معاوية فولدت له يزيد بن معاوية فجاء نجيباً ذكيا حاذقا . ثم خطب امرأة أخرى فحظيت عنده وولدت له غلاما آخر ، وهجر أم يزيد فكانت عنده فى جنب داره ، فبينما هو فى النظارة ومعه امرأته الأخرى ، إذ نظر إلى أم يزيد وهى تسرحه ، فقالت امرأته : قبحها الله وقبح ما تسرح ، فقال : ولم ؟ فوالله إن ولدها أنجب من ولدك ، وإن أحببت بينت لك ذلك ، ثم استدعى ولدها فقال له : إن أمير المؤمنين قد عنّ له أن يطلق لك ما تتمناه عليه فاطلب منى ما شئت ، فقال أسأل من أمير المؤمنين أن يطلق لى كلابا للصيد وخيلا ورجالا يكونون معى فى الصيد ، فقال : قد أمرنا لك بذلك . ثم استدعى يزيد فقال له كما قال لأخيه ، فقال يزيد : أو يعفينى أمير المؤمنين فى هذا الوقت عن هذا ؟ فقال : لابد لك أن تسأل حاجتك ، قال : أسأل ـ وأطال الله عمر أمير المؤمنين ـ أن أكون ولى عهده من بعده ، فإنه بلغنى أن عدل يوم فى الرعية كعبادة خمسمائة عام . فقال : قد أجبتك إلى ذلك ، ثم قال لامرأته : كيف رأيت ؟ فعلمت وتحققت فضل يزيد على ولدها .

وقد ذكر ابن الجوزى فى هذه السنة : وفاة أم حرام بنت ملحان الأنصارية امرأة عبادة بن عبادة بن الصامت ، والصحيح الذى لم يذكر العلماء غيره ـ أنها توفيت سنة سبع وعشرين ، فى خلافة عثمان ، وكانت هى وزوجها مع معاوية حين دخل قبرص ، ورقصتها بغلتها فماتت هناك وقبرها بقبرص . والعجب أن ابن الجوزى أورد فى ترجمتها حديثها المخرج فى الصحيحين فى قيلولة النبى ﷺ فى بيتها ، ورؤياه فى منامه قوماً من أمته يركبون ثبج[1] البحر مثل الملوك على الأسرة

(١) أى وسطه . والثبج : ما بين الكاهل إلى الظهر ، وثبج كل شىء وسطه .

غزاة فى سبيل الله ، وأنها سألته أن يدعو لها أن تكون منهم فدعا لها ، ثم نام فرأى كذلك ، فقالت : ادعو الله أن يجعلنى منهم ، فقال : « لا أنت من الأولين » ، وهم الذين فتحوا قبرص فكانت معهم ، وذلك فى سنة سبع وعشرين ، ولم تكن من الآخرين الذين غزوا بلاد الروم سنة إحدى وخمسين مع يزيد بن معاوية ومعهم أبو أيوب ، وقد توفى هناك فقبره قريب من سور قسطنطينية ، وقد ذكرنا هذا مقرراً فى دلائل النبوة .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين

فيها : كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض الروم . قال الواقدى : وفى شوالها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة ، وولى عليها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، وهو الذى حج بالناس فى هذه السنة ، لأنه صارت إليه إمرة المدينة . وكان على الكوفة الضحاك بن قيس ، وعلى البصرة عُبيد الله بن زياد ، وعلى خُراسان سعيد بن عثمان . قال ابن الجوزى : وفيها توفى عثمان بن حنيف الأنصارى الأوسى ، وهو أخو عبادة وسهل ابنى حنيف ، بعثه عمر لمساحة خراج السواد بالعراق ، واستنابه عمر على الكوفة ، فلما قدم طلحة والزبير صحبة عائشة ، وامتنع من تسليم دار الإمارة ـ نتفت لحيته وحواجبه وأشفار عينيه ومثّل به ، فلما جاء علىّ وسلمه البلد قال له : يا أمير المؤمنين فارقتك ذا لحية واجتمعت بك أمرد ، فتبسم على رضى الله عنه وقال : لك أجر ذلك عند الله . وله فى المسند والسنن حديث الأعمى الذى سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له ليرد الله عليه ضوء بصره فرد الله عليه . وله حديث آخر عند النسائى ، ولم أر أحداً أرّخ وفاته بهذه السنة ، سوى ابن الجوزى ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين

فيها : غزا مالك بن عبد الله الخَثعمى أرض الروم ، قال الواقدى : وفيها قُتِل يزيد بن شجرة فى البحر ، وقيل : بل غزا البحر وبلاد الروم جنادة بن أبى أمية ، وقيل : إنما شتى بأرض الروم عمرو بن يزيد الجُهَنى . قال أبو معشر والواقدى : وحج بالناس فيها الوليدُ بن عتبة بن أبى سفيان. وفيها : ولى معاوية الكوفة لعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى ـ ابن أمّ الحكم ، وأم الحكم هى أخت معاوية ، وعزل عنها الضحاك بن قيس ، فولى ابن أمّ الحكم على شرطته زائدة بن قُدامة ، وخرجت الخوارج فى أيام ابن أم الحكم ، وكان رئيسهم فى هذه الوقعة حيّان ابن ظَبْيان السُّلَمى ، فبعث إليهم جيشاً فقتلوا الخوارج جميعاً . ثم إن ابن أم الحكم أساء السيرة فى أهل الكوفة فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً ، فرجع إلى خاله معاوية فذكر له ذلك ، فقال : لأولينّك مصراً هو خير لك ، فولاه مصرَ ، فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حُديج على مرحلتين من مصر ،

فقال له : ارجع إلى خالك معاوية ، فلعمرى لاندعك تدخلها فتسير فينا سيرتك فى إخواننا أهل الكوفة، فرجع ابن أم الحكم إلى معاوية ولحقه معاوية بن حُدَيج وافداً على معاوية، فلما دخل عليه وجد عنده أخته أمّ الحكم ـ وهى أم عبد الرحمن الذى طرده أهل الكوفة وأهل مصر ، فلما رآه معاوية قال : بَخٍ بَخٍ ، هذا معاوية بن حدَيج ، فقالت أم الحكم : لامر حبابه ، تَسمعَ بالمُعَيدِيّ خير من أن تراه ، فقال معاوية بن حديج : على رِسلِكِ يا أمّ الحكم ، أما والله لقد تزوجتِ فما أكرمتِ ، وولدتِ فما أنجبت ، أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى إخواننا أهل الكوفة فما كان الله ليريه ذلك ، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يُطأطيء منه رأسه ، وإن كره ذلك الجالس ـ يعنى معاوية ـ فالتفت إليها معاوية فقال ، كُفّى .

قصة غريبة

ذكرها ابن الجوزى فى كتابه المنتظم بسنده ، وهو أن شابا من بنى عذرة جرت له قصة مع ابن أم الحكم ، وملخصها : أن معاوية بينما هو يوماً على السِّماط إذا شاب من بنى عُذرة قد تمثل بين يديه فأنشده شعراً مضمونه التشوق إلى زوجته سعاد ، فاستدناه معاوية واستحكاه عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى كنت متزوجاً بابنة عمّ لى ، وكان لى إبل وغنم ، وأنفقت ذلك عليها ، فلما قلّ مابيدى رغب عنى أبوها وشكانى إلى عاملك بالكوفة ـ ابن أم الحكم ، وبلغه جمالها فحبسنى فى الحديد وحملنى على أن أطلقها ، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم فزوجه إياها ، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين ، وأنت غياث المحزون الملهوف المكروب ، وسند المسلوب ، فهل من فرج ؟ ثم بكى وأنشأ يقول :

فى القلب منّى نار والنار فيها شرار
والجسم منى نحيل واللون فيه اصفرار
والعين تبكى بشجو فدمعها مــدرار
والحب داء عسير فيه الطبيب يحار
حملت فيه عظيما فما عليه اصطبار
فليس ليلى بليل ولا نهارى نهار

قال : فرق له معاوية وكتب إلى ابن أم الحكم يؤنبه على ذلك ويعيبه عليه ، ويأمره بطلاقها قولا واحداً . فلما جاءه كتاب معاوية تنفس الصعداء ، وقال : وددت أن أمير المؤمنين خلّى بينى وبينها سنة ثم عرّضنى على السيف ، وجعل يؤامر نفسه على طلاقها فلا يقدر على ذلك ولا تجيبه

نفسه ، وجعل البريد الذى ورد عليه بالكتاب يستحثه ، فطلقها وأخرجها عنه وسيّرها مع الوفد إلى معاوية . فلما وقفت بين يديه رأى منظراً جميلا ، فلما استنطقها فإذا أفصح الناس وأحلاهم كلاماً ، وأكملهم جمالا ودلالا ، فقال لابن عمها : يا أعرابى ! هل من سلوٍ عنها بأفضل الرغبة ؟ قال : نعم، إذا فرقت بين رأسى وجسدى ، ثم أنشأ يقول :

لاتجعلني والأمثال تُضرب بى كالمستغيث من الرمضاء بالنار

اردد سعاد على حيران مكتئب يمسى ويصبح فى همّ وتذكار

قد شفه قلق ما مثـــله قلق وأسعر القلب منه أىّ إسعار

والله والله لا أنسى محبتها حتى أغيّب فى رمسى وأحجارى

كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبّار

فقال معاوية : فإنا نخيرها بينى وبينك وبين ابن أم الحكم ، فأنشأت تقول :

هذا وإن أصـــبح فى إطار وكان فى نقص من اليسار

أحبُّ عندىَ من أبى وجارى وصـــاحب الدرهم والدينار

أخشى إذا غدرت حر النار

قال : فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ومركب ووطاء ، ولما انقضت عدتها زوجه بها وسلمها إليه . حذفنا منها أشعاراً كثيرة مطولة .

وجرت فى هذه السنة فصول طويلة بين عبيد الله بن زياد والخوارج ، فقتل منهم خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، وحبس منهم آخرين ، وكان صارماً كأبيه مقداماً فى أمرهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم

ذكر من توفى فيها من الأعيان

توفى فى هذا العام : سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، القرشى الأموى، قتل أبوه يوم بدر كافراً ، قتله علىّ بن أبى طالب ، ونشأ سعيد فى حجر عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان عمر سعيد يوم مات رسول الله ﷺ ـ تسع سنين ، وكان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين . وكان جد سعيد بن العاص ـ ويكنى بأبى أجنحة ـ رئيساً فى قريش ، يقال له ذو التاج ، لأنه كان إذا اعتمّ لايعتم أحد يومئذ إعظاماً له ، وكان سعيد هذا من عمال عمر على السواد ، وجعله عثمان فيمن يكتب المصاحف لفصاحته ، وكان أشبه الناس لحية برسول الله ﷺ ، وكان فى جملة الاثنى عشر رجلا ، الذين يستخرجون القرآن ويعلمونه ويكتبونه ؛ منهم: أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت . واستنابه عثمان على الكوفة بعد عزله الوليد بن عُقبة ، فافتتح

طَبرستان وجُرجان ، ونقض العهدَ أهل أذربيجان فغزاهم ففتحها ، فلما مات عثمان اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صِفّين ، فلما استقرّ الأمر لماوية وفد إليه فعتب عليه فاعتذرَ إليه فعذره في كلام طويل جداً ، وولاّه المدينة مرتين ، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم ، وكان سعيد هذا لا يسبُّ عليا ، ومروان يسبُّه ، وروى عن النبي ﷺ ، وعن عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعائشة، وعنه : ابناه عمرو بن سعيد الأشدق وأبو سعيد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، وغيرهم ، وليس له في المسند ولا في الكتب الستة شيء .

وقد كان حسن السيرة ، جيد السريرة ، وكان كثيراً ما يجمع أصحابه في كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحلل ، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير ، وكان يَصر الصُّرَر فيضعها بين يدى المصلين من ذوى الحاجات في المسجد . قال ابن عساكر : وقد كانت له دار بدمشق تعرف بعده بدار نعيم ، وحمام نعيم بنواحى الديماس . ثم رجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات . وكان كريماً جواداً مُمَدَّحاً . ثم أورد شيئاً من حديثه من طريق يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو سعيد الجعفى ثنا عبد الله بن الأجلح ، ثنا هشام بن عروة عن أبيه ، أن سعيد بن العاص قال : إن رسول الله ﷺ قال : « خِيارُكم في الإسلام خيارُكم في الجاهلية » وفي طريق الزبير بن بكار : حدثنى رجل عن عبد العزيز بن أبان ، حدثنى خالد بن سعيد عن أبيه عن ابن عمر قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببُرد فقالت : إنى نذرت أن أعطى هذا الثوب أكرم العرب ، فقال : « أعطه هذا الغلام » ـ يعنى سعيد بن العاص ـ وهو واقف ، فلذلك سميت الثياب السعيدية ، وأنشد الفرزدق قوله فيه :

ترى الغُرّ الجحاجح من قريش إذا ما الخطب في الحدثان عالا
قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالا

وذكر أن عثمان عزل عن الكوفة المغيرة وولاها سعد بن أبي وقاص ، ثم عزله وولاها الوليد بن عتبة ، ثم عزله وولى سعيد بن العاص ، فأقام بها حينا ، ولم تحمد سيرته فيهم ولم يحبوه ، ثم ركب مالك بن الحارث ـ وهو الأشتر النخعي ـ في جماعة إلى عثمان وسألوه أن يعزل عنهم سعيداً فلم يعزله ، وكان عنده بالمدينة فبعثه إليهم ، وسبق الأشتر إلى الكوفة فخطب الناس وحثهم على منعه من الدخول إليهم ؛ وركب الأشتر في جيش يمنعونه من الدخول ، قيل تلقوه إلى العُذَيب ، ـ وقد نزل سعيد بالرعثة ـ فمنعوه من الدخول إليهم ، ولم يزالوا به حتى ردّوه إلى عثمان ، وولى الأشتر أبا موسى الأشعرى على الصلاة والثغر ، وحذيفة بن اليمان على الفَىء ، فأجاز ذلك أهل الكوفة وبعثوا إلى عثمان في ذلك فأمضاه وسره ذلك فيما أظهره ، ولكن هذا كان أول وهَن دخل على عثمان .

وأقام سعيد بن العاص بالمدينة ، حتى كان زمن حصر عثمان فكان عنده بالدار . ثم لما ركب طلحة والزبير مع عائشة من مكة يريدون قتلة عثمان ركب معهم ، ثم انفرد عنهم هو والمغيرة بن شعبة وغيرهما ، فأقام بالطائف حتى انقضت تلك الحروب كلها . ثم ولاه معاوية إمرة المدينة سنة تسع وأربعين ، وعزل مروان ، فأقام سبعاً ثم رد مروان .

وقال عبد الملك بن عُمير عن قبيصة بن جابر قال : بعثني زياد فى شغل إلى معاوية ، فلما فرغت من أمورى قلت : يا أمير المؤمنين ! لمن يكون الأمر منْ بعدك ؟ فسكت ساعة ثم قال : يكون بين جماعة ؛ إما كريم قريش ـ سعيد بن العاص ، وإما فتى قريش حياء ودهاء وسخاء ـ عبد الله بن عامر ، وإما الحسن بن على فرجل سيد كريم ، وإما القارىء لكتاب الله الفقيه فى دين الله ، الشديد فى حدود الله ـ مروان بن الحكم ، وإما رجل ثقة فعبد الله بن عمر ، وإما رجل يتردد الشريعة مع دواهى السباع ويروغ روغان الثعلب ، فعبد الله بن الزبير .

وروينا أنه استسقى يوما فى بعض طرق المدينة ، فأخرج له رجل من دار ماء فشرب ، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع فسأل عنه لم يبيع داره ؟ فقالوا : عليه دين أربعة آلاف دينار ، فبعث إلى غريمه فقال : هى لك علىّ ، وأرسل إلى صاحب الدار فقال : استمتع بدارك .

وكان رجل من القرّاء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة ، فقالت له امرأته : إن أميرنا هـذا يوصف بكرم ، فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشىء ! فقال : ويحك ! لا تحلق وجهى ، فألحت عليه فى ذلك ، فجاء فجلس إليه ، فلما انصرف الناس عنه مكث الرجل جالساً فى مكانه ، فقال له سعيد : أظن جلوسك لحاجة ؟ فسكت الرجل ، فقال سعيد لغلمانه : انصرفوا ، ثم قال له سعيد : لم يبق غيرى وغيرك ، فسكت ، فأطفأ المصباح ثم قال له : رحمك الله لست ترى وجهى فاذكر حاجتك ، فقال : أصلح الله الأمير ، أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت ، فقال له : إذا أصبحت فأتِ وكيلى فلانا ، فلما أصبح الرجل اتى الوكيل فقال له الوكيل : إن الأمير قد أمر لك بشىء فأت بمن يحمله معك ، فقال : ما عندى من يحمله ، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال : حملتينى على بذل وجهى للأمير ، فقد أمر لى بشىء يحتاج إلى من يحمله ، وما أراه أمر لى إلا بدقيق أو طعام ، ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله ، ولأعطانيه . فقالت له المرأة : فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذه ، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل : إنى أخبرت الأمير أنه ليس لك أحـد يحمله ، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك . فذهب الرجل ، فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فقال للغلمان : ضعـوا ما معكم وانصرفوا ، فقالوا : إن الأمير قد أطلقنا لك ، فإنه ما بعث مع خادم هدية إلى أحـد إلا كان الخادم الذى يحملها من جملتها ، قال : فحسن حال ذلك الرجل .

وذكر ابن عساكر أن زياد بن أبى سفيان بعث إلى سعيد بن العاص هدايا وأموالا ، وكتابا ذكر فيه ، أنه يخطب إليه ابنته أم عثمان من آمنة بنت جرير بن عبد الله البجلى ، فلما وصلت الهدايا والأموال والكتاب قرأه ، ثم فرق الهدايا فى جلسائه ، ثم كتب إليه كتابا لطيفا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ! قال الله تعالى (كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى • أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)[1] والسلام.

وروينا أن سعيدا خطب أم كلثوم بنت علىّ ؛ من فاطمة التى كانت تحت عمر بن الخطاب ، فأجابت إلى ذلك وشاورت أخويها فكرها ذلك ، وفى رواية: إنما كره ذلك الحسين وأجاب الحسن ، فهيأت دارها ونصبت سريراً وتواعدوا للكتاب ، وأمرت ابنها زيد بن عمر أن يزوجها منه ، فبعث إليها بمائة ألف ، وفى رواية بمائتى ألف مهراً ، واجتمع عنده أصحابه ليذهبوا معه ، فقال : إنى أكره أن أحرج أبى فاطمة ، فترك التزويج وأطلق جميع ذلك المال لها .

وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد : سأل أعرابى سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة ، فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار ؟ فقال : إنما أمرتك بخمسمائة درهم ، وإذ قد جاش فى نفسك أنها دنانير ، فادفع إليه خمسمائة دينار ، فلما قبضها الأعرابى جلس يبكى ، فقال له : مالك ؟ ألم تقبض نوالك ؟ قال : بلى والله ! ولكن أبكى على الأرض كيف تأكل مثلك .

وقال عبد الحميد بن جعفر : جاء رجل فى حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة ، فقيل له : عليك بالحسن بن على ، أو عبد الله بن جعفر ، أو سعيد بن العاص ، أو عبد الله بن عباس ، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه ، فقال : من هذا ؟ فقيل : سعيد بن العاص ، فقصده فذكر له ما أقدمه ، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابى : ائت بمن يحمل معك ، فقال: رحمك الله ! إنما سألتك مالا لا تمراً ، فقال : أعرف ، ائت بمن يحمل معك . فأعطاه أربعين ألفاً ، فأخذها الأعرابى وانصرف ولم يسأل غيره . وقال سعيد بن العاص لابنه : يا بنى! أخزى لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة ، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه فى وجهه ، أو جاءك مخاطراً لا يدرى أتعطيه أم تمنعه ؟ فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته . وقال سعيد : لجليسى علىّ ثلاث ؛ إذا دنا رحبت به ، وإذا جلس أوسعت له ، وإذا حدث أقبلت عليه. وقال أيضاً : يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فتهون عليه ، وفى رواية: فيجترىء عليك .

وخطب يوما فقال : من رزقه الله رزقا حسنا فليكن أسعد الناس به ، إنما يتركه لأحد رجلين ؛ إما مُصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب أنت ، والمصلح لا يقل عليه شىء . وإما مفسد فلا يبقى له شىء . فقال أبو معاوية : جمع أبو عثمان طرف الكلام .

---

(١) الآيتان : ٧ – ٨ من سورة العلق .

وروى الأصمعى عن حكيم بن قيس قال : قال سعيد بن العاص : موطنان لا أستحيي من رفق فيهما والتأنى عندهما ، مخاطبتى جاهلا أو سفيها ، وعند مسألتى حاجة لنفسى . ودخلت عليه امرأة من العابدات وهو أمير الكوفة فأكرمها وأحسن إليها ، فقالت : لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة ، ولا زالت المنّة لك فى أعناق الكرام ، وإذا أزال عن كريم نعمة جعلك سبباً لردها عليه .

وقد كان له عشرة من الولد ذكوراً وإناثا ، وكانت إحدى زوجاته أم البنين بنت الحكم ابن أبى العاص ـ أخت مروان بن الحكم ، ولما حضرت سعيداً الوفاة جمع بنيه وقال لهم : لا يفقدن أصحابى غير وجهى ، وصلوهم بما كنت أصِلُهم به ، وأجْروا عليهم ما كنت أجْرى عليهم ، واكفوهم مؤنة الطلب ، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه ، مخافة أن يُرَدّ . فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته ـ أعظم منة عليكم مما تعطونه . ثم أوصاهم بوصايا كثيرة ؛ منها : أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود ، وأن لا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء ، وأن يسودوا أكبرهم . فتكفل بذلك كله ابنه عمرو ابن سعيد الأشدق ، فلما مات دفنه بالبقيع ، ثم ركب عمرو إلى معاوية فعزاه فيه واسترجع معاوية وحزن عليه وقال : هل ترك من دَين عليه ؟ قال : نعم ! قال : وكم هو ؟ قال : ثلثمائة ألف درهم ، وفى رواية ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال معاوية : هى علىّ ! فقال ابنه : يا أمير المؤمنين ، إنه أوصانى أن لا أقضى دينه إلا من ثمن أراضيه ، فاشترى منه معاوية أراضى بمبلغ الدين ، وسأل منه عمرو أن يحملها إلى المدينة فحملها له ، ثم شرع عمرو يقضى ما على أبيه من الدين حتى لم يبق أحد ، فكان من جملة من طالبه شاب معه رُقعة من أديم فيها عشرون ألفا ، فقال له عمرو : كيف استحققت هذه على أبى ؟ فقال الشاب : إنه كان يوما يمشى وحده فأحببت أن أكون معه حتى يصل إلى منزله ، فقال : ابغنى رقعة من أدم ، فذهبت إلى الجزارين ، فأتيته بهذه فكتب لى فيها هذا المبلغ ، واعتذر بأنه ليس عنده اليوم شىء فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئا كثيراً . ويروى أن معاوية قال لعمرو بن سعيد : من ترك مثلك لم يمت ، ثم قال : رحم الله أبا عثمان ، ثم قال : قد مات من هو أكبر منى ، ومن هو أصغر منى ، وأنشد قول الشاعر :

إذا سار من دون امرىء وأمامه　　وأوحش من إخوانه فهو سائر

وكانت وفاة سعيد بن العاص فى هذه السنة ، وقيل : فى التى قبلها ، وقيل : فى التى بعدها . وقال بعضهم : كانت وفاته قبل عبد الله بن عامر بجمعة .

شداد بن أوس بن ثابت : ابن المنذر بن حرام ، أبو يعلى الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل ، وهو ابن أخى حسان بن ثابت . وحكى ابن منده عن موسى بن عقبة أنه قال : شهد بدراً .

قال ابن منده : وهو وَهم ، وكان من الاجتهاد فى العبادة على جانب عظيم ، كان إذا أخذ مضجعه تعلق على فراشه ويتقلب عليه ويتلوّى كما تتلوى الحية ويقول : اللهم إن خوف النار قد أقلقنى ، ثم يقوم إلى صلاته . قال عبادة بن الصامت : كان شداد من الذين أوتوا العلم والحلم : نزل شداد فلسطين وبيت المقدس ، ومات فى هذه السنة عن خمس وسبعين سنة ، وقيل : مات سنة أربع وستين ، وقيل : سنة إحد وأربعين ، فالله أعلم .

عبد الله بن عامر : ابن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، ابن خال عثمان بن عفان ولد فى حياة رسول الله ﷺ ، وتَفَل فى فيه ، فجعل يبتلع ريق رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه لَمسْقاء » ، فكان لا يعالج أرضا إلا ظهر له الماء ، وكان كريما ممدّحاً ميمون النقيبة[1] ، استنابه عثمان على البصرة بعد أبى موسى ، وولاه بلاد فارس بعد عثمان بن أبى العاص ، وعمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة ، ففتح خراسان كلها ، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وبلاد غزنة ، وقتل كسرى ملك الملوك فى أيامه — وهو يزد جرد — ثم أحرم عبد الله بن عامر بحجة ، وقيل بعمرة من تلك البلاد شكراً لله عز وجل ، وفرق فى أهل المدينة أموالا كثيرة جزيلة ، وهو أول من لبس الخز بالبصرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها الماء المعين والعين ، ولم يزل على البصرة حتى قتل عثمان ، فأخذ أموال بيت المال وتلق بها طلحة والزبير وحضر معهم الجمل . ثم سار إلى دمشق ، ولم يسمع له بذكر فى صفين ، ولكن ولاه معاوية البصرة بعد صلحه مع الحسن . وتوفى فى هذه السنة بأرضه بعرفات ، وأوصى إلى عبد الله بن الزبير . له حديث واحد ، وليس له فى الكتب شىء ، روى مصعب الزبيرى عن أبيه عن حنظلة بن قيس عن عبد الله بن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قُتِل دُونَ ماله فهو شهيد » . وقد زوجه معاوية بابنته هند ، وكانت جميلة ، فكانت تلى خدمته بنفسها من محبتها له ، فنظر يوما فى المرآة فرأى صباحة وجهها وشيبة فى لحيته فطلقها ، وبعث إلى أبيها أن يزوجها بشاب كأن وجهه ورقة مصحف . توفى فى هذه السنة ، وقيل بعدها بسنة .

عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما : وهو أكبر ولد أبى بكر الصديق ، قاله الزبير بن بكار ، قال : وكانت فيه دعابة ، وأمه أم رومان ، وأم عائشة فهو شقيقها . بارز يوم بدر وأخذ مع المشركين ، وأراد قتل أبيه أبى بكر ، فتقدم إليه أبوه أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ : « أمتعنا بنفسك » . ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك فى الهدنة ، وهاجر قبل الفتح ، ورزقه رسول الله ﷺ من خيبر كل سنة أربعين وَسْقاً[2] ، وكان من سادات المسلمين ، وهو الذى

(١) أى مبارك النفس وقيل : ميمون المشورة

(٢) الوسق : ستون صاعا ، أو حمل بعير ، وأوسق البعير حمله حملة .

دخل على رسول الله ﷺ يوم مات وعائشة مسندته إلى صدرها ، ومع عبد الرحمن سواك رطب فأخذه بصره ، فأخذت عائشة ذلك السواك فقضمته وطيبته ، ثم دفعته إلى رسول الله ﷺ فاستن به أحسن استنان ثم قال : « اللهم في الرفيق الأعلى » . ثم قضى . قالت : فجمع الله بين ريقي وريقه ، ومات بين سَحرى ونَحرى في بيتي ، ويومى لم أظلم فيه أحداً .

وقد شهد عبد الرحمن فتح اليمامة وقتل يومئذ سبعة ، وهو الذى قتل مُحكم بن الطفيل - صديق مسيلمة على باطله ، كان مُحكم واقفاً فى ثُلمة حائط فرماه عبد الرحمن فسقط مُحكم ، فدخل المسلمون من الثُلمة فخلصوا إلى مسيلمة فقتلوه وقد شَهِد فتح الشام ، وكان معظماً بين أهل الإسلام ونُفِل ليلى بنت الجودى ملك عرب الشام ، نفّله إياها خالد بن الوليد عن أمر عمر بن الخطاب كما سنذكره مفصلا وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال : حدثنى عبد الرحمن بن أبى بكر - ولم يجرب عليه كذبة قط - ذكر عنه حكاية أنه لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة ، قال عبد الرحمن لمروان : جعلتموها والله هِرَقلية وكِسْرَوية - يعنى جعلتم ملك الملك لمن بعده من ولده - فقال له مروان : اسكت فإنك أنت الذى أنزل الله فيك (والّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أتَعِدَانِنِى أنْ أُخْرَجَ)[1] فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أنه أنزل عذرى ، ويروى أنها بعثت إلى مروان تعتبه وتؤنبه وتخبره بخبر فيه ذمّ له ولأبيه لا يصح عنها ، قال الزبير بن بكار : حدثنى إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهرى عن أبيه ، عن جده قال : بعث معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر بمائة ألف درهم بعد أن أبَى البيعة ليزيد بن معاوية ، فردها عبد الرحمن وأبى أن يأخذها ، وقال : أبيع دينى بدنياى ! وخرج إلى مكة فمات بها .

وقال أبو زرعة الدمشقى : ثنا أبو مسهر ، ثنا مالك قال : توفى عبد الرحمن بن أبى بكر فى نومة نامها ورواه أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد فذكره وزاد : فأعتقت عنه عائشة رقابا . ورواه الثورى عن يحيى بن سعيد عن القاسم فذكره . ولما توفى كانت وفاته بمكان يقال له الحبشى - على ستة أميال من مكة ، وقيل: اثنى عشر ميلا - فحمله الرجال على أعناقهم حتى دفن بأعلا مكة ، فلما قدمت عائشة مكة زارته وقالت : أما والله لو شهدتك لم أبك عليك ، ولو كنت عندك لم أنقلك من موضعك الذى مت فيه ، ثم تمثلت بشعر متمم بن نويرة فى أخيه مالك :

وكُنّا كَنَدْمانى جَذِيمة بُرهةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرقنا كأنى ومالك ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

---

(١) من الآية : ١٧ من سورة الأحقاف

رواه الترمذى وغيره . وروى ابن سعد أن ابن عمر رأى مرة فسطاطا مضروباً على قبر عبد الرحمن - ضربته عائشة بعد ما ارتحلت - فأمر ابن عمر بنزعه وقال : إنما يُظلّهُ عمله . وكانت وفاته فى هذا العام فى قول كثير من علماء التاريخ ،ويقال: إن عبد الرحمن توفى سنة ثلاث وخمسين قاله الواقدى وكاتبه محمد بن سعد وأبو عبيد وغير واحد ، وقيل : سنة أربع وخمسين ، فالله أعلم .

قصته مع ليلى بنت الجودى ملك عرب الشام

قال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الضحاك الحزامى عن أبيه، أن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق رضىالله عنهما، قدم الشام فى تجارة - يعنى فى زمان جاهليته - فرأى امرأة يقال لها: ليلى ابنة الجودى على طَنْفسة لها، وحولها ولائدها فأعجبته ، قال ابن عساكر : رآها بأرض بُصرى فقال فيها:

تذكرت ليلى والسماوات دونها ... فما لابنة الجوديّ ليلى وماليا

وأنى تعاطى قلبه حارثية ... تؤمن بصرى أو تحل الجوابيا

وأنى تلاقيها بلى ولعلها ... إن الناس حجوا قابلا أن توافيا

قال : فلما بعث عمر بن الخطاب جيشه إلى الشام ، قال للأمير على الجيش : إن ظفرت بليلى بنت الجودى عنوة فادفعها إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، فظفر بها فدفعها إليه فأعجب بها وآثرها على نسائه حتى جعلن يشكونها إلى عائشة ، فعاتبته عائشة على ذلك ، فقال : والله كأنى أرشف بأنيابها حبّ الرمان ، فأصابها وجع سقط له فوها فجفاها حتى شكته إلى عائشة ، فقالت له عائشة : يا عبد الرحمن لقد أحببت ليلى فأفرطت ، وأبغضتها فأفرطت ، فإما أن تنصفها وإما أن تجهزها إلى أهلها . قال الزبيرى : وحدثنى عبد الله بن نافع عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال : إن عمر بن الخطاب نَفَّل عبد الرحمن بن أبى بكر ليلى بنت الجودى حين فتح دمشق ، وكانت ابنة ملك دمشق - يعنى ابنة ملك العرب الذين حول دمشق - والله أعلم .

عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب: القرشى الهاشمى، ابن عم النبى ﷺ ، وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة، وأمهما أم الفضل- لبابة بنت الحارث الهلالية ، وكان عبيد الله كريماً جميلاً وسيماً يشبه أباه فى الجمال ، وروينا أن رسول الله ﷺ « كان يَصُفّ عبد الله وعبيد الله وكثيراً - صفاً ويقول: من سبق إلىّ فله كذا ،فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم » وقد استنابه على بن أبى طالب فى أيام خلافته على اليمن . وحج بالناس سنة ست وثلاثين . وسنةسبع وثلاثين ، فلما كان سنة ثمان وثلاثين- اختلف هو ويزيد بن شَجَرة الرهاوى الذى قدم على الحج من جهة معاوية ، ثم اصطلحا على شيبة بن عثمان الحجبى ، فأقام للناس الحج عامئذ ، ثم لما صارت الشوكة لمعاوية تسلط

على عبيد الله ـ بُسر بن أبى أرطاه ، فقتل له ولدين ، وجرت أمور باليمن قد ذكرنا بعضها . وكان يقدم هو وأخوه عبد الله المدينة فيوسعهم عبد الله علماً ، ويوسعهم عبيد الله كرماً .

وقد روى أنه نزل فى مسير له مع مولى له على خيمة رجل من الأعراب ، فلما رآه الأعرابى أعظمه وأجلّه ، ورأى حسنه وشكله ، فقال لامرأته : ويحك ! ماذا عندك لضيفنا هذا ؟ فقالت : ليس عندنا إلا هذه الشُّويهة التى حياة ابنتك من لبنها ، فقال : إنه لا بد من ذبحها ، فقالت : أتقتل ابنتك ؟ فقال : وإن ، فأخذ الشفرة والشاة وجعل يذبحها ويسلخها وهو يقول مرتجزاً :

يا جارتى لا توقظى البنيّة إن توقظيها تنتحب عليّه
وتنزع الشفرة من يديّه

ثم هيأها طعاماً فوضعها بين يدى عبيد الله ومولاه فعشاهما ، وكان عبيد الله قد سمع محاورته لامرأته فى الشاة ، فلما أراد الارتحال قال لمولاه : ويلك ! ماذا معك من المال ؟ فقال : معى خمسمائة دينار فضلت من نفقتك ، فقال : ادفعها إلى الأعرابى ، فقال : سبحان الله ! تعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة واحدة تساوى خمسة دراهم ؟ فقال : ويحك ! والله لهو أسخى منا وأجود ، لأنا إنما أعطيناه بعض ما نملك ، وجاد هو علينا بجميع ما يملك ، وآثرنا على مهجة نفسه وولده . فبلغ ذلك معاوية فقال : لله در عبيد الله ! من أى بيضة خرج ؟ . ومن أى شىء درّج ؟ (١)

قال خليفة بن خياط : توفى سنة ثمان وخمسين ، وقال غيره : توفى فى أيام يزيد بن معاوية ، قال أبو عبيد القاسم بن سلام : توفى فى سنة سبع وثمانين ، وكانت وفاته بالمدينة ، وقيل باليمن ، وله حديث واحد ، قال أحمد : ثنا هشيم ثنا يحيى بن إسحاق عن سليمان بن يسار عن عبيد الله ابن عباس قال : جاءت الغُميصا — أو الرُّميصا — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها ، تزعم أنه لا يصل إليها ، فما كان إلا يسيراً حتى جاء زوجها فزعم أنها كاذبة ، وأنها تريد أن ترجع إلى زوجها الأول ، فقال رسول الله ﷺ : «ليس لك ذلك حتى يذوق عسيلتك (٢) رجل غيره » وأخرجه النسائى عن على بن حجرة عن هشيم به .

وممن توفى فيها :

أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق وزوجة رسول الله ﷺ ، وأحب أزواجه إليه ، المبرأة من فوق سبع سموات ـ رضى الله عنها ، وعن أبيها . وأمها هى أم رُومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وتكنى عائشة بأم عبد الله ، قيل : كناها رسول الله ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير ،

(١) أى رقى وبلغ هذه الدرجة والمنزلة . (٢) العسيلة : ماء الرجل ، أو حلاوة الجماع شبه بالعسل للذته .

وقيل: إنها أسقطت من رسول الله ﷺ سقطا فسماه عبد الله ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها ، ولم ينزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها ، ولم يكن في أزواجه أحب إليه منها . تزوجها بمكة بعد وفاة خديجة ، وقد أتاه الملك بها في المنام في سَرَقة[1] من حرير ، مرتين أو ثلاثاً ، فيقول: هذه زوجتك . قال : « فأكشف عنك فإذا هي أنت ، فأقول : إن يكن هذا من عند الله يمضه ، فخطبها من أبيها فقال : يارسول الله أوتحل لك ؟ قال : نعم ! قال : أولست أخوك ؟[2] قال : بل في الإسلام ، وهي لي حلال ، فتزوجها رسول الله ﷺ فحظيت عنده » . وقد قدمنا ذلك في أول السيرة ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنتين ، وقيل: بسنة ونصف ، وقيل: بثلاث سنين ، وكان عمرها إذ ذاك ست سنين ، ثم دخل بها وهي بنت تسع سنين بعد بدر ، في شوال من سنة سنتين من الهجرة فأحبها .

ولما تكلم فيها أهل الإفك بالزور والبهتان ، غار الله لها فأنزل براءتها في عشر آيات من القرآن تتلى على تعاقب الزمان . وقد ذكرنا ذلك مفصلا فيما سلف ، وشرحنا الآيات والأحاديث الواردة في ذلك في غزوة المُرَيسيع ، وبسطنا ذلك أيضاً في كتاب التفسير بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمنة .

وقد أجمع العلماء على تكفير من قذفها بعد براءتها ، واختلفوا في بقية أمهات المؤمنين ، هل يكفر من قذفهن أم لا ؟ ـ على قولين ؛ وأصحهما أنه يكفر ، لأن المقذوفة زوجة رسول الله ﷺ ، والله تعالى إنما غضب لها لأنها زوجة رسول الله ﷺ ، فهي وغيرها منهن سواء .

ومن خصائصها رضي الله عنها: أنها لها في القَسم يومان : يومها ، ويوم سودة حين وهبتها ذلك تقرباً إلى رسول الله ﷺ . وأنه مات في يومها وفي بيتها وبين سَحرها ونحرها ، وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعاته في الدنيا ، وأول ساعة من الآخرة ، ودفن في بيتها .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن إسماعيل عن مصعب بن إسحاق بن طلحة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إنه ليهون علي أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة » تفرد به أحمد . وهذا في غاية ما يكون من المحبة العظيمة ، أنه يرتاح لأنه رأى بياض كفها أمامه في الجنة .

ومن خصائصها : أنها أعلم نساء النبي ﷺ ، بل هي أعلم النساء على الإطلاق قال الزهري :

---

(١) السرقة : القطعة من الحرير الأبيض ، أو الحرير عامة ، والجمع : سرق محركة .
(٢) هكذا بالأصول ، والصواب : أخاك .

لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواجه ، وعلم جميع النساء ـ لكان علم عائشة أفضل . وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة . وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة ، ولم ترو امرأة ولا رجل ـ غير أبي هريرة ـ عن رسول الله ﷺ ـ من الأحاديث بقدر روايتها رضي الله عنها ، وقال أبو موسى الأشعري: «ما أشكل علينا ـ أصحاب محمد ـ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً »، رواه الترمذي وقال أبو الضحى عن مسروق : رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض . فأما ما يلهج به كثير من الفقهاء وعلماء الأصول من إيراد حديث : « خذوا شَطْر[1] دينكم عن هذه الحميراء » ـ فإنه ليس له أصل ولا هو مثبت في شيء من أصول الإسلام ، وسألت عنه شيخنا أبا الحجاج المزي فقال : لا أصل له . ثم لم يكن في النساء أعلم من تلميذاتها : عمرة بنت عبد الرحمن ، وحفصة بنت سيرين ، وعائشة بنت طلحة .

وقد تفردت أم المؤمنين عائشة بمسائل عن الصحابة لم توجد إلا عندها ، وانفردت باختيارات أيضاً وردت أخبار بخلافها بنوع من التأويل . وقد جمع ذلك غير واحد من الأئمة ، فمن ذلك قال الشعبي : كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله المبرأة من فوق سبع سموات . وثبت في صحيح البخاري من حديث أبي عثمان النهدي عن عمرو بن العاص قال : «قلت : يا رسول الله أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، قلت : ومن الرجال ؟ قال : أبوها » .

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . وقد استدل كثير من العلماء ممن ذهب إلى تفضيل عائشة على خديجة بهذا الحديث ، قال : فإنه دخل فيه سائر النساء الثلاث المذكورات وغيرهن . ويعضد ذلك أيضاً الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا إسماعيل بن خليل ثنا علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : « استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك ، فقال : اللهم هالة ، قالت عائشة : فغرت وقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر الأول ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ » : هكذا رواه البخاري ، فأما ما يروى فيه من الزيادة : « والله ما أبدلني خيراً

---

(١) الشطر : نصف الشيء وجزؤه . وشطر ماله ـ أي جعل ماله شطرين .

منها» - فليس يصح سندها. وقد ذكرنا ذلك مطولا عند وفاة خديجة ، وذكرنا حجة من ذهب إلى تفضيلها على عائشة - بما أغنى عن إعادته ههنا .

وروى البخاري عن عائشة، أن النبي ﷺ قال يوماً : «ياعائش! هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى مالا أرى » . وثبت في صحيح البخاري، أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، فاجتمع أزواجه إلى أم سلمة وقلن لها : قولي له يأمر الناس أن يهدوا له حيث كان ، فقالت أم سلمة : فلما دخل علي قلت له ذلك، فأعرض عني ، ثم قلن لها ذلك فقالت له فأعرض عنها، ثم لما دار إليها قالت له فقال : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي في بيت وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» . وذكر أنهن بعثن فاطمة ابنته إليه فقالت: « إن نساءك ينشدونك العدل في ابنة أبي بكر بن أبي قحافة ، فقال : يا بنية! ألا تحبين من أحب ؟ قالت : قلت: بلى ! قال : فأحبي هذه » . ثم بعثن زينب بنت جحش فدخلت على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فتكلمت زينب ونالت من عائشة ، فانتصرت عائشة منها وكلمتها حتى أفحمتها ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر إلى عائشة ويقول : « إنها ابنة أبي بكر » . وذكرنا أن عماراً لما جاء يستصرخ الناس ويستنفرهم إلى قتال طلحة والزبير أيام الجمل ، صعد هو والحسن بن علي على منبر الكوفة ، فسمع عمار رجلا ينال من عائشة فقال له : اسكت مقبوحا منبوذا ، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا وفي الآخرة ، ولكن الله ابتلاكم ليعلم: إياه تطيعون، أو إياها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، ثنا زائدة ثنا عبد الله بن خثيم حدثني عبد الله ابن أبي مليكة، أنه حدثه ذكوان- حاجب عائشة - أنه جاء عبد الله بن عباس يستأذن على عائشة فجئت - وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبد الرحمن - فقلت : هذا ابن عباس يستأذن ، فأكب عليها ابن أخيها عبد الله فقال : هذا عبد الله بن عباس يستأذن - وهي تموت - فقالت : دعني من ابن عباس ، فقال : يا أماه ! إن ابن عباس من صالح بنيك يسلم عليك ويودعك ، فقالت : ائذن له إن شئت ، قال: فأدخلته ، فلما جلس قال : أبشري، فقالت: ماذا ؟ فقال : ما بينك وبين أن تلقي محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، وكنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ وأصبح الناس وليس معهم ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فكان ذلك في سببك . وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار ، فقالت : دعني منك يا ابن عباس ، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً . والأحاديث في فضائلها ومناقبها كثيرة جداً . وقد كانت وفاتها في هذا العام سنة ثمان وخمسين ، وقيل قبله بسنة ، وقيل بعده بسنة . والمشهور

فى رمضان منه ، وقيل فى شوال ، والأشهر ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان ، وأوصت أن تدفن بالبقيع ليلاً ، وصلى عليها أبو هريرة بعد صلاة الوتر ، ونزل فى قبرها خمسة ، وهم : عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام - من أختها أسماء بنت أبى بكر ، والقاسم وعبد الله - ابنا أخيها محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وكان عمرها يومئذ سبعاً وستين سنة ، لأنه توفى رسول الله ﷺ وعمرها ثمان عشرة سنة ، وكان عمرها عام الهجرة ثمان سنين أو تسع سنين ، فالله أعلم ، ورضى الله تعالى عن أبيها وعن الصحابة أجمعين .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

فيها : كان مشتى عمرو بن مرة الجهنى فى أرض الروم فى البر ، قال الواقدى ، ولم يكن فيها غزو فى البحر . وقال غيره : بل غزا فى البحر عامئذ جُنادة بن أبى أمية . وفيها : عَزل معاوية ابن أمّ الحكم عن الكوفة لسوء سيرته فيهم ، وولّى عليهم النعمان بن بشير . وفيها: ولّى معاوية عبد الرحمن ابن زياد ولاية خُراسان ، وعزل عنها سعيد بن عثمان بن عفان ، فصار عبيد الله على البصرة ، وأخوه عبد الرحمن هذا على خُراسان ، وعباد بن زياد على سِجستان ، ولم يزل عبد الرحمن عليها والياً إلى زمن يزيد ، فقدم عليه بعد مقتل الحسين فقال له : كم قدمت به من هذا المال ؟ قال : عشرون ألف ألف ، فقال له : إن شئت حاسبناك ، وإن شئت سَوّغنا كها وعَزلناك عنها ، على أن تعطى عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم ، قال : بل سوغنها ، وأما عبد الله بن جعفر فأعطيه ما قلت ومثلها معها ، فعزله وولى غيره ، وبعث عبد الرحمن بن زياد إلى عبد الله ابن جعفر بألف ألف درهم ، وقال : خمسمائة ألف من جهة أمير المؤمنين ، وخمسمائة ألف من قبلى .

وفى هذه السنة : وفد عُبيد الله بن زياد على معاوية ومعه أشراف أهل البصرة والعراق ، فاستأذن لهم عبيد الله عليه على منازلهم منه ، وكان آخر من أدخله على معاوية الأحنف بن قيس ، - ولم يكن عبيد الله يُجله - فلما رأى معاوية الأحنف رحّب به وعظّمه وأجله وأجلسه معه على السرير ، ورفع منزلته ، ثم تكلم القوم فأثنوا على عبيد الله والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : مالك يا أبا بَحر لا تتكلم ؟ فقال له : إن تكلمت خالفتُ القوم ، فقال معاوية : انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا والياً ترضَونه ، فمكثوا أياماً يترددون إلى أشراف بنى أمية ، يسألون كل واحد أن يتولى عليهم فلم يقبل أحدٌ منهم ذلك ، ثم جمعهم معاوية فقال : من اخترتم ؟ فاختلفوا عليه ، والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : مالك لا تتكلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين! إن كنت تريد غير أهل بيتك فرأيك ، فقال معاوية : قد أعدتهُ إليكم . وقال ابن جرير : قال الأحنف :

يا أمير المؤمنين إن وليت علينا من أهل بيتك فإنا لا نعدل بعُبيد الله بن زياد أحداً ، وإن وليت علينا من غيرهم فانظر لنا في ذلك . فقال معاوية : قد أعدته إليكم . ثم إن معاوية أوصى عبيد الله ابن زياد بالأحنف خيراً ، وقبح رأيه فيه وفي مباعدته ، فكان الأحنف بعد ذلك أخص أصحاب عبيد الله . ولما وقعت الفتنة لم يف لعبيد الله غير الأحنف بن قيس ، والله أعلم .

قصة يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ، مع ابني زياد: عبيد الله ، وعباد

ذكر ابن جرير عن أبي عُبيدة معمر بن المثنى وغيره ، أن هذا الرجل كان شاعراً ، وكان مع عبّاد بن زياد بسجستانَ ، فاشتغل عنه بحرب الترك ، وضاق على الناس علف الدواب ، فقال ابن مفرّغ شعراً يهجو به ابن زياد على ما كان منه ، فقال :

ألا ليت اللحَى كانت حشيشاً فنعلفها خيــول المسلمينا

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية كبيرها جـداً ، فبلغه ذلك فغضب وتطلبه فهرب منه وقال فيه قصائد يهجوه بها كثيرة ؛ فمن ذلك قوله :

إذا أودى معاويةُ بن حرب فبشِّر شَعب قَعْبِك بانصداع
فاشهدُ أنّ أمك لم تُباشِر أبا سفيان واضعةَ القنــاع
ولكن كان أمراً فيـه لَبسٌ على خوفٍ شديد وارتياع

وقال أيضاً :

الا أبلغ معـاويةَ بن حَرب مُغلغَلةً من الرَّجُـلُ اليمانى
أتغضبُ أن يقال أبوك عفٌ وترضى أن يقال أبوك زانى !
فاشـهد أن رحْمَك[1] من زياد كرِحْمِ الفيل من ولد الأتان

فكتب عباد بن زياد إلى أخيه عبيد الله ـ وهو وافد على معاوية ـ بهذه الأبيات ، فقرأها عبيد الله على معاوية واستأذنه في قتله ، فقال : لا تقتله ، ولكن أدِّبه ولا تبلغ به القتل ، فلما رجع عبيد الله إلى البصرة استحضره وكان قد استجار بوالد زوجة عبيد الله بن زياد ـ وهو المنذر بن الجارود ، وكانت ابنته بَحْرِيةَ عنـد عبيد الله ، فأجاره وآواه إلى داره ، وجاء الجارود مسلّما على عبيد الله ، وبعث عبيد الله الشُرط إلى دار المنذر فجاءوا بابن مُفَرَّغ فأوقف بين يديه ، فقال المنذر : إني قد أجرته ، فقال : يمدحك ويمدح أباك فترضى عنه ، ويهجوني ويهجو أبي ثم تجيره عليّ ! ثم أمر عبيد الله بابن مُفرّغ فسقى دواءً مُسهلا ، وحملوه على حمار عليه إكاف ، وجعلوا يطوفون به

(١) الرحم ـ بالكسر ـ وككتف ـ بيت منبت الولد ووعاؤه ، والقرابة وأسبابها .

فى الأسواق وهو يسْلَح والناس ينظرون إليه ، ثم أمر به فنفى إلى سجستان عند أخيه عباد ، فقال ابن مفرِّغ لعبيد الله بن زياد :

يَغْسِلُ الماء ما صنعتَ وقولى راسخٌ منك فى العظام البَوالى

فلما أمر عبيد الله بنفى ابن مفرِّغ إلى سجستان ، كلّم اليمانيون معاوية فى أمر ابن مفرِّغ ، وأنه إنما بعثه إلى أخيه ليقتله ، فبعث معاوية إلى ابن مفرِّغ وأحضره ، فلما وقف بين يديه بكى وشكى إلى معاوية ما فعل به ابن زياد ، فقال له معاوية : إنك هجوته ، ألست القائل كذا ؟ ألست القائل كذا ؟ فأنكر أن يكون قال من ذلك شيئاً ، وذكر أن القائل ذلك ـ هو عبد الرحمن ابن الحكم أخو مَرْوان ، وأحبّ أن يسندها إلى ، فغضب معاوية على عبد الرحمن بن الحكم ومنعه العطاء حتى يرضى عنه عبيد الله بن زياد ، وأنشد ابن مفرِّغ ما قاله فى الطريق فى معاوية يخاطب راحلته :

عَدَسْ ما لعبادٍ عليكِ إمارة نجوتِ وهـذا تحملين طليق
لَعَمرى لقد نجاكِ مِن هُوَّة الرَّدَى إمامٌ وحبلٌ للأنام وثيق
سأشكرُ ما أوليتَ مِن حسن نعمة ومثلى بشكر المُنعمين حقيق

فقال له معاوية : أما لو كنا نحن الذين هجوتنا ، لم يكن من أذانا شىء يصل إليك ، ولم نتعرض لذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه ارتكب فىّ ما لم يرتكب مُسْلِمٌ من مسلم ، على غير حَدَث ولا جرم ، قال : ألست القائل كذا ؟ ألست القائل كذا ؟ فقد عفونا عن جرمك ، أما إنك لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شىء ، فانظر الآن مَن تخاطب ومَن تشاكل ، فليس كلُّ أحد يحتمل الهجاء ، ولا تعامل أحداً إلا بالحسنى ، وانظر لنفسك أىّ البلاد أحب إليك تقيم بها حتى نبعثك إليها ، فاختار الموصل فأرسله إليها . ثم استأذن عبيد الله فى القدوم إلى البصرة والمقام بها فأذن له . ثم إن عبد الرحمن ركب إلى عُبيد الله فاسترضاه فرضى عنه وأنشده عبد الرحمن :

لأنتَ زيادةٌ فى آلِ حربٍ أحبُّ إلىّ من إحدى بنانى
أراك أخاً وعمّاً وابنَ عمٍّ فلا أدرى بغيبٍ ما تَرانى

فقال له عبيد الله : أراك والله شاعر سَوْء ، ثم رضى عنه وأعاد إليه ما كان منعه من العطاء . قال أبو معشر والواقدى : وحج بالناس فى هذه السنة عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وكان نائب المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان . وعلى الكوفة النعمان بن بشير ، وقاضيها شريح . وعلى البصرة عبيد الله بن زياد . وعلى سجستان عبّاد بن زياد . وعلى كرْمان شريك بن الأعور الحارثى ، من قبل عبيد الله بن زياد .

ذكر من توفى فى هذه السنة من المشاهير والأعيان

قال ابن الجوزى : توفى فيها : أسامة بن زيد ، والصحيح قبلها كما تقدم .

الحطيئة الشاعر : واسمه جَرْوَل بن مالك بن جرول بن مالك بن جُؤَيَّة بن مخزوم بن مالك بن قُطيعة بن عَبْس بن مايكة ـ الشاعر الملقب بالحطيئة لقصره ، أدرك الجاهلية وأسلم فى زمن الصديق ، وكان كثير الهجاء ، حتى يقال : إنه هجا أباه وأمه ، وخاله وعمه ، ونفسه وعرسه ، فما قال فى أمه قوله :

تَنَحَّى فاقْعُدِى منى بعيدا ... أراح الله منكِ العالمينا

أغِرْبالاً[1] إذا استُودعت سراً ... وكانوناً[2] على المتحدِّثينا

جزاكِ الله شراً من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا

وقال فى أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ثم لحاك حقـــاً ... أباً ، ولحاك مِن عَمٍّ وخال

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالى

ومما قال فى نفسه يذمها :

أبت شفتاى اليوم إلا تَكَلُّماً ... بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائله ؟

أرى لى وجهاً شَوَّه الله خلقه ... فَقُبِّح من وجه وقُبِّح حامله

وقد شكاه الناس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأحضره وحبسه ، وكان سبب ذلك أن الزبرقان بن بدر شكاه لعمر أنه قال له يهجوه :

دع المكارم لا تَرْحل لبغيتها ... واقْعُد فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسى

فقال له عمر : ما أراه هجاك ، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه لا يكون هجاء أشد من هـذا ، فبعث عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ما هجاه ولكن سَلَح عليه ، فعند ذلك حبسه عمر وقال : يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين ، ثم شفع فيه عمرو بن العاص فأخرجه وأخذ عليه العهد أن لا يهجو الناس واستتابه ، ويقال إنه أراد أن يقطع لسانه فشفعوا فيه حتى أطلقه . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن الضحاك بن عثمان الحزامى عن عبد الله بن مصعب ، حدثنى عن ربيعة بن عثمان عن زيد بن أسلم

---

(١) الغربال : الرجل النمام

(٢) الكانون : الثقيل الوخم

عن أبيه قال : أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره ، فأخرج وأنا حاضر فأنشأ يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ[١] زُغب الحواصل لا ماء ولا شجر
غادَرتَ كاسِبَهم فى قعرِ مظلمة فارحم هداك مليكُ الناس يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النُهى البشر
لم يُؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثَر[٢]
فامننْ على صبية بالرمل مسكنهم بينَ الأباطح تغشاهم بها القِرَر[٣]
نفسى فداؤك كم بينى وبينهم من عَرض دَاوِيَة[٤] تعمى بها الخبر

قال : فلما قال الحطيئة : ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ــ بكى عمر ، فقال عمرو بن العاص : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه الحطيئة . ثم ذكروا أنه أراد قطع لسان الحطيئة لئلا يهجو به الناس ، فأجلسه على كرسى وجىء بالموسى ، فقال الناس : لا يعود يا أمير المؤمنين،وأشاروا إليه قل : لاأعود ، فقال له عمر : النجا ، فلما ولى قال له عمر : ارجع ياحطيئة ، فرجع فقال له : كأنى بك عند شاب من قريش قد كسر لك نمرقة[٥] ، وبسط لك أخرى ، وقال : ياحطيئة غننا ، فاندفعت تغنيه بأعراض الناس ، قال أسلم : فرأيت الحطيئة بعد ذلك عند عبيد الله ابن عمر وقد كسر له نمرقة وبسط له أخرى ، وقال : يا حطيئة غننا، فاندفع حطيئة يغنى ، فقلت له : يا حطيئة أتذكر يوم عمر حين قال لك ما قال ؟ ففزع وقال: رحم الله ذلك المرء ، لو كان حياً مافعلنا هذا . فقلت لعبيد الله : إنى سمعت أباك يقول كذا وكذا فكنت أنت ذلك الرجل . وقال الزبير : حدثنى محمد بن الضحاك عن أبيه قال : قال عمر للحطيئة : دع قول الشعر ، قال: لا أستطيع ، قال : لم ؟ قال : هو مأكلة عيالى ، وعلة لسانى ، قال : فدع المِدحة المجحفة ، قال : وما هى ياأمير المؤمنين ؟ قال : تقول بنوفلان أفضل مَن بنى فلان ، امدح ولاتفضل ، فقال : أنت أشعر منى ياأمير المؤمنين . ومن مديحه الجيد المشهور قوله :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدّوا المكان الذى سدّوا

---

(١) ذو مرخ:واد بين فدك والوابشية ، وفى رواية: ذو أمر ، وهو موضع بنجد من ديار غطفان .
(٢) الأثر :المكرمات ، واحدتها أثرة
(٣) القرر: جمع قرة بالكسرة ، وهى البرد
(٤) الداوية : الفلاة الواسعة
(٥) النمرقة ــ مثلثة ــ الوسادة الصغيرة ، وقيل ، الوسادة مطلقاً ، والجمع نمارق

أولئك قومٌ إن بَنَوا أحسنوا البِنا ... وإن عاهدوا أوفَوا وإن عقدوا شَدُّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوا بهـا ... وإن أنعمـوا لا كدّروها ولا كَدُّوا

قالوا : ولما احتضر الحطيئة قيل له : أوص ، قال : أوصيكمْ بالشعر ، ثم قال :

الشعر صعب وطويل سلمه ... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه ... والشعر لا يسطيعه من يظلمه
يريد أن يعربه فأعجمه [1]

قال أبو الفرج ابن الجوزي في المنتظم : توفى الحطيئة في هذه السنة ، وذكر أيضاً فيها وفاة عبد الله بن عامر بن كريز ، وقد تقدم في التي قبلها

عبد الله بن مالك بن القشب : واسمه جندب بن نضلة بن عبد الله بن رافع الأزدي ، أبو محمد حليف بني عبد المطلب ، المعروف بابن بُحَينة ، وهي أمه بُحَينة بنت الأرت ، واسمه الحارث بن المطلب ابن عبد مناف . أسلم قديماً ، وصحب رسول الله ﷺ ، وكان ناسكا قواماً صواماً ، وكان ممن يسرد صوم الدهر كله ، قال ابن سعد : كان ينزل بطن ريم على ثلاثين ميلا من المدينة ، ومات في عمل مروان في المرة الثانية ، ما بين سنة أربع وخمسين إلى ثمان وخمسين . والعجب أن ابن الجوزي نقل من كلام محمد بن سعد ، ثم إنه ذكر وفاته في هذه السنة — يعني سنة تسع وخمسين — فالله أعلم .

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي : صحابي جليل كأبيه . له في الصحيحين حديث ، وهو القيام للجنازة ، وله في المسند حديث في صوم عاشوراء ، وحديث غسل رسول الله ﷺ في دارهم وغير ذلك ، وخدم رسول الله ﷺ عشر سنين . وثبت في صحيح البخاري عن أنس قال : كان قيس بن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير . وحمل لواء رسول الله ﷺ في بعض الغزوات ، واستعمله على الصدقة ، ولما بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ومعه ثلثمائة من المهاجرين والأنصار ، فأصابهم ذلك الجهد الكثير فنحر لهم قيس بن سعد تسع جزائر ، حتى وجدوا تلك الدابة على سيف البحر فأكلوا منها ، وأقاموا عليها شهراً حتى سمنوا ، وكان قيس سيداً مطاعاً كريماً ممدحاً شجاعاً ، ولاه علي نيابة مصر ، وكان يقاوم بدهائه وخديعته وسياسته معاوية وعمرو بن العاص ، ولم يزل معاوية يعمل عليه حتى عزله علي عن مصر وولى عليها محمد بن أبي بكر الصديق ، فاستخفه معاوية ، ولم يزل حتى أخذ منه مصر كما قدمنا .

وأقام قيس عند عليّ فشهد معه صفين والنهروان ولزمه حتى قتل ثم صار إلى المدينة ، فلما

(١) هكذا بالاصل ، ولعله : فيعجمه

اجتمعت الكلمة على معاوية جاءه ليبايعه كما بايعه أصحابه . قال عبد الرزاق عن ابن عيينة قال : قدم قيس بن سعد على معاوية فقال له معاوية : وأنت ياقيس تلجم عليّ مع من ألجم ؟ أما والله لقد كنت أحب أن لا تأتيني هذا اليوم إلا وقد ظفر بك ظفر من أظافري موجع ، فقال له قيس : وأنا والله قد كنت كارهاً أن أقوم في هذا المقام فأحييك بهذه التحية ، فقال له معاوية : ولم ؟ وهل أنت إلا حبر من أحبار اليهود ؟ فقال له قيس : وأنت يامعاوية كنت صنما من أصنام الجاهلية ، دخلت في الإسلام كارهاً ، وخرجت منه طائعاً ، فقال معاوية : اللهم غفراً ، مُدّ يدك ، فقال له قيس ابن سعد : إن شئت زدتَ وزدتُ .

وقال موسى بن عقبة : قالت عجوز لقيس : أشكو إليك قلة فأر بيتي ، فقال قيس : ما أحسن هذه الكناية ! املأوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً . وقال غيره : كانت له صحفة يدار بها حيث دار ، وكان ينادي له مناد : هلموا إلى اللحم والثريد . وكان أبوه وجده من قبله يفعلان كفعله ، وقال عروة بن الزبير : باع قيس بن سعد من معاوية أرضاً بتسعين ألفاً ، فقدم المدينة فنادى مناديه : من أراد القرض فليأت ، فأقرض منها خمسين ألفاً وأطلق الباقي ، ثم مرض بعد ذلك فقل عواده ، فقال لزوجته ـ قريبة بنت أبي عتيق أخت أبي بكر الصديق ـ إني أرى قلة من عادني في مرضي هذا ، وإني لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض ، فبعث إلى كل رجل ممن كان له عليه دين بصكه المكتوب عليه ، فوهبهم ماله عليهم . وقيل : إنه أمر مناديه فنادى : من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه في حل ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد ، وكان يقول : اللهم ارزقني مالا وفعالا ، فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال . وقال سفيان الثوري : اقترض رجل من قيس بن سعد ثلاثين ألفاً ، فلما جاء ليوفيه إياها قال له قيس : إنا قوم ما أعطينا أحداً شيئاً فنرجع فيه .

وقال الهيثم بن عدي : اختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم ، فقال أحدهم : عبد الله ابن جعفر ، وقال الآخر : قيس بن سعد ، وقال الآخر : عرابة الأوسي ، فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة ، فقال لهم رجل : فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره ، فلينظر ما يعطيه وليحكم على العيان . فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه فوجده قد وضع رجله في الغرز ليذهب إلى ضيعة له ، فقال له : يا ابن عم رسول الله ! ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فأخرج رجله من الغرز وقال : ضع رجلك واستو عليها فهي لك بما عليها ، وخذ ما في الحقيبة ولا تخدعن السيف فإنه من سيوف عليّ ، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة وإذا في الحقيبة أربعة آلاف دينار ، ومطارف من خز وغير ذلك ، وأجلّ ذلك سيف علي بن أبي طالب .

ومضى صاحب قيس بن سعد إليه فوجده نائماً ، فقالت له الجارية : ما حاجتك إليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به ، قالت : فحاجتك أيسر من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس مال غيره اليوم ، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل فخذ لك ناقة وعبداً ، واذهب راشداً . فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت ، فأعتقها شكراً على صنيعها ذلك ، وقال : هلا أيقظتيني حتى أعطيه ما يكفيه أبداً ، فلعل الذي أعطيتيه لا يقع منه موقع حاجته .

وذهب صاحب عَرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة ، وهو يتوكأ على عبدين له ـ وكان قد كف بصره ـ فقال له : يا عرابة ! فقال : قل ، فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فخلّ عن العبدين ثم صفق بيديه ، باليمنى على اليسرى ، ثم قال: أوّه أوّه ، والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئاً ، ولكن خذ هذين العبدين ، قال: ما كنت لأفعل ، فقال : إن لم تأخذهما فهما حرّان ، فإن شئت فأعتق ، وإن شئت فخذ . وأقبل يلتمس الحائط بيده ، قال : فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه ، قال : فحكم الناس على أن ابن جعفر قد جاد بمال عظيم ، وأن ذلك ليس بمستنكر له ، إلا أن السيف أجلها . وأن قيساً أحد الأجواد ، حكم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكراً لها على ما فعلت . وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي ؛ لأنه جاد بجميع ما يملكه ، وذلك جهد من مقل .

وقال سفيان الثوري عن عمر وعن أبي صالح قال : قسم سعد بن عبادة ماله بين أولاده وخرج إلى الشام فمات بها ، فولد له ولد بعد وفاته ، فجاء أبو بكر وعمر إلى قيس بن سعد فقالا : إن أباك قسم ماله ولم يعلم بحال هذا الولد إذ كان حملا ، فاقسموا له معكم ، فقال قيس : إني لا أغير ما فعله سعد ولكن نصيبي له . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين فذكره . ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرني عطاء فذكره . وقال ابن أبي خيثمة : ثنا أبو نعيم ثنا مسعر عن معبد بن خالد قال : كان قيس بن سعد لا يزال هكذا رافعاً أصبعه المسبحة ـ يعني يدعو ـ وقال هشام بن عمار : ثنا الجراح بن مليح ثنا أبو رافع عن قيس بن سعد قال : لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المكر والخديعة في النار » ـ لكنت من أمكر هذه الأمة .

وقال الزهري : دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ، وعبد الله بن بديل ، وكانا مع علي . وكان المغيرة معتزلا بالطائف حتى حكم الحكمان فصار إلى معاوية . وقد تقدم أن محمد بن أبي حذيفة كان قد تغلب على مصر وأخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، نائب عثمان بعد عمرو بن العاص ، فأقره عليها علي مدة يسيرة ثم

عزله بقيس بن سعد ، فلما دخلها سار فيها سيرة حسنة وضبطها ، وذلك سنة ست وثلاثين ، فثقل أمره على معاوية وعمرو بن العاص ، فكاتباه ليكون معهما على على فامتنع ، وأظهر للناس مناصحته لهما ، وفى الباطن هو مع على . فبلغ ذلك عليا فعزله وبعث إلى مصر الأشتر النخعى ، فمات الأشتر فى الرملة قبل أن يصل إليها ، فبعث على محمد بن أبى بكر فخف أمره على معاوية وعمرو ، فلم يزالا حتى أخذا منه الديار المصرية ، وقتل محمد بن أبى بكر هذا وأحرق فى جيفة[1] حمار . ثم سار قيس إلى المدينة ، ثم سار إلى على بن أبى طالب فى العراق ، فكان معه فى حروبه حتى قتل على . ثم كان مع الحسن بن على حين سار إلى معاوية ليقاتله ، فكان قيس على مقدمة الجيش ، فلما بايع الحسن معاوية ساء قيساً ذلك وما أحبه ، وامتنع من طاعة معاوية ، ثم ارتحل إلى المدينة ، ثم قدم على معاوية فى وفد من الأنصار فبايع معاوية بعد معاتبة شديدة وقعت بينهما ، وكلام فيه غلظة .

ثم أكرمه معاوية وقدمه وحظى عنده ، فبينما هو مع الوفود عند معاوية إذ قدم كتاب ملك الروم على معاوية وفيه : أن ابعث إلى بسراويل أطول رجل فى العرب ، فقال معاوية : ما أرانا إلا قد احتجنا إلا سراويلك ؟ - وكان قيس مديد القامة جداً لا يصل أطول الرجال إلى صدره - فقام قيس فتنحى ثم خلع سراويله فألقاها إلى معاوية ، فقال له معاوية : لو ذهبت إلى منزلك ثم أرسلت بها إلينا ، فأنشأ قيس يقول عند ذلك :

أردت بها كى يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عادى نمته ثمود
وإنى من الحى اليمانى لسيد ... وما الناس إلا سيد ومسود
فكدهم بمثلى إن مثلى عليهم ... شديد وخلقى فى الرجال مديد
وفضلى فى الناس أصل ووالد ... وباع به أعلو الرجال مديد

قال : فأمر معاوية أطول رجل فى الوفد فوضعها على أنفه فوقعت بالأرض . وفى رواية : أن ملك الروم بعث إلى معاوية برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم ، والآخر أطول الروم ، فانظر هل فى قومك من يفوقهما فى قوة هذا وطول هذا ؟ فإن كان فى قومك من يفوقهما بعثت إليك من الأسارى كذا وكذا ، ومن التحف كذا وكذا . وإن لم يكن فى جيشك من هو أقوى وأطول منهما فهادنى ثلاث سنين . فلما حضرا عند معاوية قال : من لهذا القوى ؟ فقالوا : ما له إلا أحد رجلين

(١) الجيفة - بالكسر - جثة الميت

إما محمد بن الحنفية ، أو عبد الله بن الزبير . فجيء بمحمد بن الحنفية - وهو ابن علي بن أبي طالب ، فلما اجتمع الناس عند معاوية قال له معاوية : أتعلم فيم أرسلت إليك ؟ قال : لا ! فذكر له أمر الرومي وشدة بأسه ، فقال للرومي : إما أن تجلس لي أو أجلس إليك، وتناولني يدك أو أناولك يدي ، فأينا قدر على أن يقيم الآخر من مكانه ، غلبه ، وإلا فقد غلب . فقال له : ماذا تريد ؟ تجلس أو أجلس ؟ فقال له الرومي : بل اجلس أنت ، فجلس محمد بن الحنفية وأعطى الرومي يده فاجتهد الرومي بكل ما يقدر عليه من القوة أن يزيله من مكانه أو يحركه ليقيمه فلم يقدر على ذلك ، ولا وجد إليه سبيلا ، فغلب الرومي . عند ذلك ظهر لمن معه من الوفود من بلاد الروم أنه قد غلب .

ثم قام محمد بن الحنفية فقال للرومي : اجلس لي، فجلس وأعطى محمداً يده فما أمهله أن أقامه سريعاً، ورفعه في الهواء ثم ألقاه على الأرض فسر بذلك معاوية سروراً عظيماً، ونهض قيس بن سعد فتنحى عن الناس ، ثم خلع سراويله وأعطاها لذلك الرومي الطويل فلبسها ، فبلغت إلى ثدييه وأطرافها تخط بالأرض ، فاعترف الرومي بالغلب ، وبعث ملكهم ما كان التزمه لمعاوية ، وعاتب الأنصار قيس ابن سعد في خلعه سراويله بحضرة الناس ، فقال : ذلك الشعر المتقدم معتذراً به إليهم ، وليكون ذلك ألزم للحجة التي تقوم على الروم ، وأقطع لما حاولوه . ورواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال . كان قيس بن سعد رجلا ضخما جسيما صغير الرأس له لحية في ذقنه ، وكان إذا ركب الحمار العالي خطت رجلاه بالأرض . وقال الواقدي وخليفة بن خياط وغير واحد : توفي بالمدينة في آخر خلافة معاوية . وذكر ابن الجوزي وفاته في هذه السنة فتبعناه في ذلك .

معقل بن يسار المزني : صحابي جليل ، شهد الحديبية ، وكان هو الذي كان يرفع أغصان الشجرة من وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس تحتها ، وكانت من السَّمُر ، وهي المذكورة في القرآن في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[1] وقد ولاه عمر إمرة البصرة فحفر بها النهر المنسوب إليه ، فيقال نهر مَعقل ، وله بها دار . قال الحسن البصري : دخل عبيد الله بن زياد على مَعقل بن يَسار يعوده في مرضه الذي مات فيه ، فقال له معقل : إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ، لولم أكن على حالتي هذه لم أحدثك به ، سمعته يقول : « من استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام » . وممن توفي في هذه السنة .

أبو هريرة الدوسي - رضي الله عنه : وقد اختلف في اسمه في الجاهلية والإسلام ، واسم أبيه على أقوال متعددة ، وقد بسطنا أكثرها في كتابنا التكميل ، وقد بسط ذلك ابن عساكر في تاريخه ، والأشهر أن اسمه عبد الرحمن بن صخر وهو من الأزد ، ثم من دوس . ويقال : كان اسمه

---

(١) من الآية : ١٨ من سورة الفتح

في الجاهلية عبد شمس ، وقيل: عبد نهم ، وقيل: عبد غنم ، ويكنى بأبي الأسود ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وقيل: عبدالرحمن . وكناه بأبي هريرة . وروى عنه أنه قال : وجدت هريرة وحشية فأخذت أولادها ، فقال لي أبي : ما هذه في حجرك ؟ فأخبرته ، فقال : أنت أبو هريرة .
وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له : « أبا هر » وثبت أنه قال له : « يا أبا هريرة » ، قال محمد بن سعد وابن الكلبي والطبراني: اسم أمه ـ ميمونة بنت صخر بن الحارث بن أبي مصعب ابن هبة بن سعد بن ثعلبة ، أسلمت وماتت مسلمة . وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ الكثير الطيب ، وكان من حفاظ الصحابة ، وروى عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب ، وأسامة بن زيد ، ونضرة بن أبي نضرة ، والفضل بن العباس ، وكعب الأحبار ، وعائشة أم المؤمنين .

وحدث عنه خلائق من أهل العلم قد ذكرناهم مرتبين على حروف المعجم في التكميل ، كما ذكره شيخنا في تهذيبه . قال البخاري : روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم ، من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال عمرو بن علي الفلاس : كان ينزل المدينة وكان إسلامه سنة خيبر . قال الواقدي : وكان بذي الحليفة له دار ، وقال غيره : كان آدم اللون ، بعيد ما بين المنكبين ، ذا ظفرتين[1] أفرق الثنيتين . وقال أبو داود الطيالسي وغير واحد عن أبي خلدة ، خالد بن دينار عن أبي العالية عن أبي هريرة قال : لما أسلمت قال رسول الله ﷺ : « ممن أنت ؟ فقلت : من دوس ، فوضع يده على جبهته وقال : ما كنت أرى أن في دوس رجلا فيه خير » .
وقال الزهري عن سعيد عن أبي هريرة قال : شهدت مع رسول الله ﷺ خيبر ، وروى عبد الرزاق عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس قال : قال أبو هريرة : جئت يوم خيبر بعد ما فرغوا من القتال . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا سعيد بن أبي مريم ثنا الدراوردي قال : حدثني خيثم عن عراك بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة قال : « خرج رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة ، قال أبو هريرة : وقدمت المدينة فهاجروا فصليت الصبح وراء سباع فقرأ في السجدة الأولى سورة مريم ، وفي الثانية ويل للمطففين ، قال أبو هريرة : فقلت في نفسي : ويل لأبي فلان ، لرجل كان بأرض الأزد ـ وكان له مكيالان مكيال يكيل به لنفسه ، ومكيال يبخس به الناس » . وقد ثبت في صحيح البخاري أنه ضل غلام له في الليلة التي اجتمع في صبيحتها برسول الله ﷺ وأنه جعل ينشد :

يا ليلة من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نجت

فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له : « هذا غلامك » ؟ فقال هو حر لوجه الله عز وجل .
وقد لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ بعد إسلامه ، فلم يفارقه في حضر ولا سفر ، وكان أحرص

---

(١) الظفرة : جليدة تغشي العين تنبت من جانب الأنف وقد تصل إلى سواد العين فتغشيه .

شيء على سماع الحديث منه ، وتفقهه عنه ، وكان يلزمه على شبع بطنه . وقال أبو هريرة ـ وقد تمخط يوماً في قميص له كتان ـ بخ بخ ، أبو هريرة يتمخط في الكتان ، لقد رأيتني أخر فيما بين المنبر والحجر من الجوع ، فيمر المار فيقول : به جنون ، وما بي إلا الجوع ، والله الذي لا إله إلا هو لقد كنت أعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد كنت أستقرىء أحدهم الآية وأنا أعلم بها منه ، وما بي إلا أن يستتبعني إلى منزله فيطعمني شيئاً ، وذكر حديث اللبن مع أهل الصفة ، كما قدمناه في دلائل النبوة.

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، ثنا عكرمة بن عمار حدثني أبو كثير ـ وهو يزيد بن عبد الرحمن بن أذينة السحيمي الأعمى ـ حدثني أبو هريرة قال : والله ما خلق الله مؤمناً يسمع بي ولا يراني إلا أحبني، قلت : وما علمك بذلك يا أبا هريرة ؟ قال : إن أمي كانت امرأة مشركة ، وإني كنت أدعوها إلى الإسلام وكانت تأبى عليّ ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، فقلت : يا رسول الله ! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فكانت تأبى علي ، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة ، فقال : « اللهم اهد أمّ أبي هريرة » فخرجت أعدو أبشرها بدعاء رسول الله ﷺ لها ، فلما أتيت الباب إذا هو مُجاف ، وسمعت خضخضة (خشخشة) وسمعت خَشْف رِجْل ـ يعني وقعها ـ فقالت : يا أبا هريرة ! كما أنت ، ثم فتحت الباب وقد لبست دِرعها وعجلت عن خمارها أن تلبسه ، وقالت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقلت : يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعاءك ، قد هدى الله أم أبي هريرة ، وقلت : يا رسول الله ! ادع الله أن يحبّبني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين ، فقال : « اللهم حبب عُبَيْدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحببهم إليهما » ، قال أبو هريرة : فما خلق الله من مؤمن يسمع بي ولا يراني أو يرى أمي إلا وهو يحبني . وقد رواه مسلم من حديث عكرمة عن عمار نحوه .

وهذا الحديث من دلائل النبوة ؛ فإن أبا هريرة محبب إلى جميع الناس ، وقد شهر الله ذكره بما قدره أن يكون من روايته ، من إيراد هذا الخبر عنه على رءوس الناس في الجوامع المتعددة في سائر الأقاليم ؛ في الإنصات يوم الجمعة بين يدي الخطبة ، والإمام على المنبر ، وهذا من تقدير الله العزيز العليم ، ومحبة الناس له ـ رضي الله عنه . وقال هشام بن عمار : حدثنا سعيد ثنا عبد الحميد ابن جعفر عن المقبري عن سالم مولى النصريين ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما محمد بشر أغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه ، فأيما

رجل من المسلمين آذيته أو شتمته أو جلدته - فاجعلها له قربة بها عندك يوم القيامة » . قال أبو هريرة : لقد رفع على رسول الله ﷺ يوماً الدرة ليضربني بها، فلأن يكون ضربني بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأني أرجو أن أكون مؤمناً ، وأن يستجاب لرسول الله ﷺ دعوته . وقال ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه ، فقال : « أبسط رداءك ، فبسطته ، ثم قال : ضمه فضممته ، فما نسيت حديثاً بعد » . رواه البخاري . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الزهري عن عبد الرحمن الأعرج قال : سمعت أبا هريرة يقول : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يُكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، والله المَوعِدُ، إني كنت امرأ مسكيناً أصحب رسول الله ﷺ على مِلء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفْق في الأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، فحضرت من رسول الله ﷺ يوماً مجلساً فقال : « من يَبْسُط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني ، فبَسطت بُردة عليّ حتى قضى مقالته، ثم قبضتها إليّ، فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعتهُ منه بعد ذلك » . وقد رواه ابن وهب عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وله طرق أخر عنه .

وقد قيل: إن هذا كان خاصاً بتلك المقالة لم ينس منها شيئاً ، بدليل أنه نسي بعض الأحاديث كما هو مصرح به في الصحيح ، حيث نسي حديث «لا عَدْوى ولا طِيَرة » مع حديثه «لا يورد مُمرض على مصح » . وقيل : إن هذا كان عاماً في تلك المقالة وغيرها والله أعلم وقال الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه قال: «يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : لقد ظننت يا أبا هريرة أن أحداً لا يسألني عن هذا الحديث أولى منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث . إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة ، من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه » ، ورواه البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو به . وقال ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه قال : « حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين : فأما أحدهما فبثثته في الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم » ، ورواه البخاري من حديث ابن أبي ذئب ، ورواه غير واحد عن أبي هريرة ، وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به ، هو الفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال ، وما سيقع- التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه ، وردوا ما أخبر به من الحق ؛ كما قال : لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتتلون فيما بينكم بالسيوف - لما صدقتموني . وقد يتمسك بهذا الحديث طوائف من أهل الأهواء والبدع الباطلة ، والأعمال الفاسدة، ويسندون ذلك إلى هذا الجراب الذي لم يقله أبو هريرة ،

ويعتقدون أن ما هم عليه كان في هذا الجراب الذي لم يخبر به أبو هريرة ، وما من مبطل مع تضاد أقوالهم إلا وهو يدعى هذا وكلهم يكذبون ؛ فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به ، فمن علمه بعده ؟ وإنما كان الذي فيه شيء من الفتن والملاحم ، كما أخبر بها هو وغيره من الصحابة ، مما ذكرناه ، ومما سنذكره في كتاب الفتن والملاحم .

وقال حماد بن زيد: حدثنا عمرو بن عبيد الأنصاري ثنا أبو الزعيزعة - كاتب مروان بن الحكم - أن مروان دعا أبا هريرة وأقعده خلف السرير ، وجعل مروان يسأل وجعلت أكتب عنه ، حتى إذا كان عند رأس الحول دعا به وأقعده من وراء الحجاب ، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب ، فما زاد ولا نقص ، ولا قدم ولا أخر . وروى أبو بكر بن عياش وغيره عن الأعمش عن أبي صالح قال : كان أبو هريرة من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ ولم يكن بأفضلهم . وقال الربيع قال الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره . وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا أبو خيثمة ثنا الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال : تواعد الناس ليلة من الليالي إلى قبة من قباب معاوية فاجتمعوا فيها ، فقام أبو هريرة فحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح .

وقال سفيان بن عيينة عن معمر عن وهب بن منبه عن أخيه همام بن منبه قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال أبو زرعة الدمشقي : حدثني محمد بن زرعة الرعيني ثنا مروان بن محمد ثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن إسماعيل بن عبد الله عن السائب بن يزيد قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة : لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس . وقال لكعب الأحبار : لتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة قال أبو زرعة ، وسمعت أبا مسهر يذكره عن سعيد بن عبد العزيز نحوا منه ولم يسنده ، وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها ، وأنهم يتكلمون على ما فيها من أحاديث الرخص ، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ ، فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك وقد جاء أن عمر أذن له بعد ذلك في التحديث ، فقال مسدد : حدثنا خالد الطحان ، ثنا يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال : بلغ عمر حديثي فأرسل إلي فقال : كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان ؟ قال : قلت : نعم ! وقد علمت لم تسألني عن ذلك ؟ قال : ولم سألتك ؟ قلت ؟ إن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » قال : أما إذاً فاذهب فحدث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، ثنا عبد الواحد ـ يعني ابن زياد ـ ثنا عاصم بن كليب حدثني أبي ، قال : سمعت أبا هريرة يقول ـ وكان يبتدىء حديثه بأن يقول : قال رسول الله ﷺ الصادق المصدوق ـ : « من كذب عليّ عامداً فليتبوأ مقعده من النار » . وروى مثله من وجه آخر عنه . وقال ابن وهب : حدثني يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان، أن أبا هريرة كان يقول : إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر، لشج رأسي وقال صالح بن أبي الأخضر ، عن الزهري عن أبي سلمة : سمعت أبا هريرة يقول : ما كنا نستطيع أن نقول : قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر . وقال محمد بن يحيى الذهلي : ثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : قال عمر : أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به قال : ثم يقول أبو هريرة : أفكنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي ؟ أما والله إذا لأيقنت أن المخفقة[1] ستباشر ظهري ، [فإن عمر كان يقول : اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله ، ولهذا لما بعث أبا موسى إلى العراق قال له : إنك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دوي بالقرآن كدوي النحل ، فدعهم على ما هم عليه ، ولا تشغلهم بالأحاديث ، وأنا شريكك في ذلك . هذا معروف عن عمر رضي الله عنه][2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء ، عن الوليد بن عبد الرحمن عن ابن عمر، أنه مر بأبي هريرة وهو يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط ، فإن شهد دفنها فله قيراطان ، القيراط أعظم من أحد » . فقال له ابن عمر : أبا هر ! انظر ما تحدث عن رسول الله ﷺ ، فقام إليه أبو هريرة حتى انطلق به إلى عائشة فقال لها : يا أم المؤمنين؟ أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تبع جنازة فصلى عليها فله قيراط فإن شهد دفنها فله قيراطان» ؟ فقالت : اللهم نعم . فقال أبو هريرة : إنه لم يكن يشغلني عن رسول الله ﷺ غرس بالوادي وصفق بالأسواق ، إني إنما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كلمة يعلمنيها ، أو أكلة يطعمنيها ، فقال له ابن عمر : أنت يا أبا هر كنت ألزمنا رسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه .

وقال الواقدي : حدثني عبد الله بن نافع عن أبيه قال : كنت مع ابن عمر في جنازة أبي هريرة وهو يمشي أمامها ويكثر الترحم عليه ، ويقول : كان ممن يحفظ حديث رسول الله ﷺ على المسلمين. وقد روى أن عائشة تأولت أحاديث كثيرة من أبي هريرة ووهمته في بعضها ، وفي الصحيح أنها عابت عليه سرد الحديث ـ أي الإكثار منه في الساعة الواحدة . وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا بشر بن الوليد الكندي ، ثنا إسحاق بن سعد عن سعيد أن عائشة قالت لأبي هريرة : أكثرت الحديث عن رسول الله ﷺ يا أبا هريرة ، قال : إني والله ما كانت تشغلني عنه المكحلة والخضاب ،

(١) المخفقة : الدرة أو سوط من خشب (٢) ما بين القوسين غير وارد في بعض النسخ

ولكن أرى ذلك شغلك عما استكثرت من حديثي . قالت : لعله . وقال أبو يعلى : حدثنا إبراهيم الشامي ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع، أن رجلا من قريش أتى أبا هريرة في حُلَّة وهو يتبختر فيها ، فقال : يا أبا هريرة إنك تكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، فهل سمعته يقول في حلتي هذه شيئاً ؟ قال: والله إنكم لتؤذوننا ، ولولا ما أخذ الله على أهل الكتاب (لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه)[1] ـ ما حدثتكم بشيء، سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: « إن رجلا ممن كان قبلكم بينما هو يتبختر في حلة إذ خسف الله به الأرض،فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة » ، فوالله ما أدري لعله كان من قومك أو من رهطك ـ شك أبو يعلى .

وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر ، حدثني كثير بن زيد عن الوليد بن رباح قال : سمعت أبا هريرة يقول لمروان : والله ما أنت بوال ، وإن الوالي لغيرك فدعه ـ يعني حين أرادوا يدفنون الحسن مع رسول الله ﷺ ـ ولكنك تدخل فيما لا يعنيك ، إنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك ـ يعني معاوية ـ قال : فأقبل عليه مروان مغضباً فقال : يا أبا هريرة! إن الناس قد قالوا إنك أكثرت على رسول الله ﷺ الحديث ، وإنما قدمت قبل وفاة النبي ﷺ بيسير ، فقال أبو هريرة : نعم ! قدمت ورسول الله ﷺ بخيبر سنة سبع ، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين سنة ـ سنوات ، وأقمت معه حتى توفي ، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه ، وأنا والله يومئذ مقل ، وأصلي خلفه وأحج وأغزو معه ، فكنت والله أعلم الناس بحديثه ، قد والله سبقني قوم بصحبته والهجرة إليه؛ من قريش والأنصار، وكانوا يعرفون لزومي له فيسألوني عن حديثه، منهم: عمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير فلا والله مايخفي علي كل حديث كان بالمدينة، وكل من أحب الله ورسوله، وكل من كانت له عند رسول الله ﷺ منزلة ، وكل صاحب له ، وكان أبو بكر صاحبه في الغار وغيره ، وقد أخرجه رسول الله ﷺ من المدينة أن يساكنه ـ يعرض بأبي مروان الحكم بن العاص ـ . ثم قال أبو هريرة : ليسألني أبو عبد الملك عن هذا وأشباهه، فإنه يجد عندي منه علماً جماً ومقالا ، قال : فوالله ما زال مروان يقصر عن أبي هريرة ويتقيه بعد ذلك، ويخافه ويخاف جوابه [وفي رواية، أن أبا هريرة قال لمروان : إني أسلمت وهاجرت اختياراً وطوعاً، وأحببت رسول الله ﷺ حباً شديداً ، وأنتم أهل الدار وموضع الدعوة ، أخرجتم الداعي من أرضه ، وآذيتموه وأصحابه ، وتأخر إسلامكم من إسلامي إلى الوقت المكروه إليكم ، فندم مروان على كلامه له واتقاه][2] وقال ابن أبي خيثمة . حدثنا هارون بن معروف ثنا محمد بن سلمة ، ثنا محمد بن إسحاق

(١) من الآية : ١٨٧ من سورة آل عمران . (٢) ما بين القوسين غير مثبت في بعض النسخ

عن عمر أو عثمان بن عروة عن أبيه - يعني عروة بن الزبير بن العوام - قال : قال لي أبي الزبير : ادنني من هذا اليماني - يعني أبي هريرة - فإنه يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال : فأدنيته منه ، فجعل أبو هريرة يحدث ، وجعل الزبير يقول : صدق ، كذب ، صدق ، كذب . قال : قلت: يا أبت! ما قولك: صدق كذب ؟ قال : يابني أما أن يكون سمع هذه الأحاديث من رسول الله ﷺ فلا أشك ، ولكن منها ما يضعه على مواضعه ، ومنها ما وضعه على غير مواضعه .

وقال علي بن المديني، عن وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن إسحاق عن محمد بن ابراهيم عن أبي اليسر بن أبي عامر قال : كنت عند طلحة بن عبيد الله ، إذ دخل رجل فقال : يا أبا محمد والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ منكم ، أم يقول على رسول الله ﷺ مالم يسمع ، أو ما لم يقل ؟ فقال طلحة : والله ما نشك أنه قد سمع من رسول ﷺ مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ؛ إنا كنا قوما أغنياء ، لنا بيوتات وأهلون ، وكنا نأتي رسول الله ﷺ طرف النهار ثم نرجع ، وكان هو مسكينا لا مال له ولا أهل ، وإنما كانت يده مع رسول الله ﷺ ، وكان يدور معه حيث ما دار ، فما نشك أنه قد علم مالم نعلم وسمع مالم نسمع . وقد رواه الترمذي بنحوه . وقال شعبة عن أشعث بن سليم عن أبيه قال : سمعت أبا أيوب يحدث عن أبي هريرة، فقيل له : أنت صاحب رسول الله ﷺ وتحدث عن أبي هريرة ؟ فقال : إن أبا هريرة قد سمع مالم نسمع ، وإني إن أحدث عنه أحبّ إلي من أن أحدث عن رسول الله ﷺ - يعني مالم أسمعه منه ، وقال مسلم بن الحجاج : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ثنا مروان الدمشقي عن الليث بن سعد، حدثني بكر بن الأشج قال: قال لنا بشر بن سعيد : اتقوا الله وتحفظوا من الحديث ، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول ﷺ ، ويحدثنا عن كعب الأحبار. ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله ﷺ عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله ﷺ ، وفي رواية، يجعل ما قاله كعب عن رسول الله ، وما قاله رسول الله عن كعب ، فاتقوا الله وتحفظوا في الحديث .

وقال يزيد بن هارون : سمعت شعبة يقول : أبو هريرة كان يدلس - أي يروي ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله ﷺ ولا يميز هذا من هذا - ذكره ابن عساكر . وكان شعبة يشير بهذا إلى حديثه «من أصبح جنبا فلا صيام له» فإنه لما حُقق[1] عليه قال : أخبرنيه مخبر ولم أسمعه من رسول الله ﷺ . وقال شريك عن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يدعون من حديث أبي هريرة ، وروى الأعمش عن إبراهيم قال : ما كانوا يأخذون بكل حديث أبي هريرة

(١) في نسخة : حوق وفي القاموس : حوق عليه تحويقا - عوج عليه الكلام وروجع فيه أو خوصم

إلا ما كان من حديث صفة جنة أو نار ، أو حث على عمل صالح ، أو نهى عن شر جاء القرآن به ؛ وقد انتصر ابن عساكر لأبى هريرة ، وردّ هذا الذى قاله إبراهيم النخعى . وقد قال ما قاله إبراهيم طائفة من الكوفيين ، والجمهور على خلافهم

وقد كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم . قال حماد بن زيد، عن عباس الجريرى عن أبى عثمان النهدى ، قال : كان أبو هريرة يقوم ثلث الليل ، وامرأته ثلثه ، وابنته ثلثه ، يقوم هذا ثم يوقظ هـذا ، ثم يوقظ هذا هذا . وفى الصحيحين عنه أنه قال : « أوصانى خليلى ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام » : وقال ابن جريج عمن حدثه ، قال : قال أبو هريرة : إنى أجزىء الليل ثلاثة أجزاء ، فجزءاً لقراءة القرآن ، وجزءاً أنام فيه ، وجزءاً أتذكر فيه حديث رسول الله ﷺ وقال محمد بن سعد : ثنا مسلم بن إبراهيم ، ثنا إسحاق بن عثمان القرشى ، ثنا أبو أيوب قال : كان لأبى هريرة مسجد فى مخدعه ، ومسجد فى بيته ، ومسجد فى حجرته ، ومسجد على باب داره ، إذا خرج صلى فيها جميعها ، وإذا دخل صلى فيها جميعاً . وقال عكرمة : كان أبو هريرة يسبح كل ليلة ثنتى عشرة ألف تسبيحة ، يقول : أسبح على قدر ديتى . وقال هشيم عن يعلى بن عطاء عن ميمون بن أبى ميسرة ، قال : كانت لأبى هريرة صيحتان فى كل يوم ؛ أول النهار صيحة يقول: ذهب الليل وجاء النهار وعرض آل فرعون على النار ، وإذا كان العشى يقول : ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار ، فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله من النار .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة ، عن زياد بن ثوبان عن أبى هريرة قال : لا تغبطن فاجراً بنعمة، فإن من ورائه طالبا حثيثاً طلبه ؛ (جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا)[1] وقال ابن لهيعة عن أبى يونس عن أبى هريرة ، أنه صلى بالناس يوما ، فلما سلم رفع صوته فقال : الحمد لله الذى جعل الدين قواما ، وجعل أبا هريرة إماماً ، بعد ما كان أجيراً لابنة غزوان على شبع بطنه وحمولة رجله ، [وقال إبراهيم بن إسحاق الحربى : ثنا عفان ثنا سليم بن حيان قال : سمعت أبى يحدث عن أبى هريرة قال : نشأت يتيما ، وهاجرت مسكيناً ، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطنى وحَقَب رحلى[2] أحدو بهم إذا ركبوا ، وأحتطب إذا نزلوا ، فالحمد لله الذى جعل الدين قواما وجعل أبا هريرة إماما ،][3] ثم يقول : والله يا أهل الإسلام إن كانت إجارتى معهم إلا على كسرة يابسة ، وعُقْبة[4] فى ليلة غبراء مظلمة ، ثم زوجنيها الله فكنت أركب إذا ركبوا ، وأخدم إذا

---

(١) من الآية : ٩٧ من سورة الإسراء .

(٢) الحقب ـ محركة الحزام ـ يلى حقو البعير ، أو حبل يشد به الرحل فى بطنه.

(٣) ما بين القوس غير مثبت فى بعض النسخ

(٤) العقبة : شىء من المرق يرده مستعير القدر عند ردها

خدموا، وأنزل إذا نزلوا . وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : حدثنا الحجاج بن نصر ، ثنا هلال بن عبد الرحمن الحنفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي سلمة قال : قال أبو هريرة وأبو ذر : باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً ، وباب نعلمه عملنا به أو لم نعمل به أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً ، وقالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول « إذا جاء طالب العلم الموت وهو على هذه الحال، مات وهو شهيد » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه وروى غير واحد عن أبي هريرة ، أنه كان يتعوذ في سجوده أن يزني أو يسرق ، أو يكفر أو يعمل كبيرة ، فقيل له : أتخاف ذلك ؟ فقال : ما يؤمنني وإبليس حي ، ومصرف القلوب يصرفها كيف يشاء ؟ . وقالت له ابنته : يا أبت إن البنات يعيرنني يقلن: لم لا يحليك أبوك بالذهب؟ فقال: يا بنية اقولي لهن: إن أبي يخشى علي حر اللهب وقال أبو هريرة : أتيت عمر بن الخطاب فقمت له وهو يسبح بعد الصلاة فانتظرته ، فلما انصرف دنوت منه فقلت : أقرئني آيات من كتاب الله ، قال : وما أريد إلا الطعام ، قال: فأقرأني آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركني على الباب ، فقلت : ينزع ثيابه ثم يأمر لي بطعام ، فلم أر شيئاً ، فلما طال علي قمت فمشيت فاستقبلني رسول الله ﷺ فكلمني فقال : « يا أبا هريرة إن خلوف[1] فمك الليلة لشديد ! فقلت : أجل يا رسول الله ، لقد ظللت صائماً وما أفطرت بعد ، وما أجد ما أفطر عليه ، قال : فانطلق ، فانطلقت معه حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال : ايتنا بتلك القصعة ، فأتينا بقصعة فيها وَضَر[2] من طعام أراه شعيراً ، قد أكل وبقي في جوانبها بعضه وهو يسير ، فسميت وجعلت أتتبعه فأكلت حتى شبعت » . وقال الطبراني : ثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين ، أن أبا هريرة قال لابنته : لا تلبسي الذهب فإني أخشى عليك حر اللهب . وقد روى هذا عن أبي هريرة من طرق . وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ثنا شعبة عن سماك بن حرب عن أبي الربيع عن أبي هريرة أنه قال : إن هذه الكناسة مهلكة دنياكم وآخرتكم - يعني الشهوات وما يأكلونه - وروى الطبراني عن ابن سيرين عن أبي هريرة « أن عمر بن الخطاب دعاه ليستعمله فأبى أن يعمل له ، فقال : أتكره العمل وقد عمل من هو خير منك ؟ - أو قال : قد طلبه من هو خير منك - ؟ قال : من ؟ قال : يوسف عليه السلام ، فقال أبو هريرة : يوسف نبي ابن نبي ، وأنا أبو هريرة بن أميمة ، فأخشى ثلاثاً أو اثنتين. فقال عمر : أفلا قلت خمساً ؟ قال : أخشى أن أقول بغير علم ، وأقضي بغير حلم ، وأن يضرب ظهري، وينتزع مالي ، ويشتم عرضي . وقال سعيد بن أبي هند ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال له :

(١) الخلوف : تغير رائحة فم الصائم ، يقال : خلف فم الصائم خلوفاً تغيرت رائحته كأخلف .
(٢) الوضر: بقية من طعام

« ألا تسألنى من هذه الغنائم التى سألنى أصحابك؟ فقلت : أسألك أن تعلمنى مما علمك الله ، قال : فنزع نمرة[١] على ظهرى فبسطها بينى وبينه حتى كأنى أنظر إلى القمل يدب عليها ، فحدثنى حتى إذا استوعب حديثه قال : اجمعها إليك فصرها ، فأصبحت لا أسقط حرفا مما حدثنى » .

وقال أبو عثمان النهدى : قلت لأبى هريرة : كيف تصوم ؟ قال : أصوم أول الشهر ثلاثا فإن حدث بى حدث كان لى أجر شهرى . وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبى عثمان النهدى، أن هريرة كان فى سفر ومعه قوم، فلما نزلوا وضعوا السفرة وبعثوا إليه ليأكل معهم فقال : إنى صائم ، فلما كادوا أن يفرغوا من أكلهم جاء فجعل يأكل ، فجعل القوم ينظرون إلى رسولهم الذى أرسلوه إليه ، فقال لهم : أراكم تنظرون إلىّ ، قد والله أخبرنى أنه صائم ، فقال أبو هريرة : صدق ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «صوم شهر صوم الصبر ، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر » . وقد صمت ثلاثة أيام من أول الشهر فأنا مفطر فى تخفيف الله ، صائم فى تضعيف الله عز وجل .

وروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، ثنا إسماعيل عن أبى المتوكل عن أبى هريرة، أنه كان هو وأصحاب له إذا صاموا يجلسون فى المسجد وقالوا: نطهر صيامنا . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا عثمان الشحام- أبو سلمة ، ثنا فرقد السبخى قال : كان أبو هريرة، يطوف بالبيت وهو يقول : ويل لى من بطنى ، إن أشبعته كظّنى[٢] وإن أجعته أضعفنى . وروى الإمام أحمد عن عكرمة قال : قال أبو هريرة : إنى لأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه كل يوم اثنتى عشرة ألف مرة ، وذلك على قدر دينى . وروى عبد الله بن أحمد عن أبى هريرة أنه كان له خيط فيه اثنا عشر ألف عقدة يسبح به قبل أن ينام . وفى رواية: ألفا عقدة ، فلا ينام حتى يسبح به ، وهو أصح من الذى قبله . ولما حضره الموت بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ما أبكى على دنياكم هذه ، ولكن أبكى على بعد سفرى وقلة زادى ، وإنى أصبحت فى صعود ومهبط على جنة ونار ، لا أدرى إلى أيهما يؤخذ بى . وروى قتيبة بن سعيد ، ثنا الفرج بن فضالة عن أبى سعيد عن أبى هريرة قال : « إذا زوقتم[٣] مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم » وروى الطبرانى عن معمر قال : بلغنى عن أبى هريرة أنه كان إذا مرت به جنازة قال : روحوا فإنا غادون ، أو أغدوا فإنا رائحون – موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ويبقى الآخر

---

(١) النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود، وبردة من صوف تلبسها الأعراب

(٢) أى: آلمنى وغمنى حتى لا أطيق على النفس. والكظة: البطنة والحم وغلظة فى البطن تعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام (٣) أى زينتموها وحسنتموها وطليتموها بالذهب مع الزلووق وهو الزئبق

لا عقل له . وقال الحافظ أبو بكر بن مالك : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبو بكر ليث بن خالد البجلي، ثنا عبد المؤمن بن عبد الله السدوسي قال : سمعت أبا يزيد المديني يقول : قام أبو هريرة على منبر رسول الله ﷺ دون مقام رسول الله ﷺ بعتبة ، فقال : ويل للعرب من شر قد اقترب ، ويل لهم من إمارة الصبيان ، يحكمون فيهم بالهوى ويقتلون بالغضب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن ثابت عن أسامة بن زيد عن أبي زياد - مولى ابن عباس - عن أبي هريرة قال : كانت لي خمس عشرة تمرة ، فأفطرت على خمس، وتسحرت ، بخمس وأبقيت خمساً لفطري . وقال أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا إسماعيل - يعني العبدي - عن أبي المتوكل ، أن أبا هريرة كانت لهم زنجية قد غمتهم بعملها ، فرفع عليها يوما السوط ثم قال لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به ، ولكن سأبيعك عمن يوفيني ثمنك ، أحوج ما أكون إليه ، اذهبي فأنت حرة لله عز وجل . وروى حماد بن سلمة عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة ، أن أبا هريرة مرض فدخلت عليه أعوده فقلت : اللهم اشف أبا هريرة ، فقال : اللهم لا ترجعها ، ثم قال : يا أبا سلمة ! يوشك أن يأتي على الناس زمان يكون الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر . وروى عطاء عن أبي هريرة قال : إذا رأيتم ستا فإن كانت نفس أحدكم في يده فليرسلها ، فلذلك أتمنى الموت أخاف أن تدركني : إذا أمرت السفهاء ، وبيع الحكم ، وتهون بالدم ، وقطعت الأرحام ، وكثرت الجلاوزة[1] ، ونشأ نشو يتخذون القرآن مزامير . وقال ابن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث عن يزيد بن زياد القرظي ، أن ثعلبة بن أبي مالك القرظي حدثه، أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب - وهو يومئذ أمير لمروان ابن الحكم - فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ، [فقلت : يرحمك الله ! يكفي هذا ! فقال : اوسع الطريق للأمير والحزمة عليه][2] .

وله فضائل ومناقب كثيرة، وكلام حسن ومواعظ جمة ، أسلم كما قدمنا عام خيبر ، فلزم رسول الله ﷺ ولم يفارقه إلا حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ، ووصاه به، فجعله العلاء مؤذنا بين يديه ، وقال له أبو هريرة : لا تسبقني بآمين أيها الأمير . وقد استعمله عمر بن الخطاب عليها في أيام إمارته ، وقاسمه مع جملة العمال . قال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف ، فقال له عمر : استأثرت بهذه الأموال أي عدو الله وعدو كتابه ؟ فقال أبو هريرة : لست بعدو الله ولا عدو كتابه ، ولكن عدو من عاداهما. فقال : فمن أين هي لك ؟ قال : خيل نتجت، وغلة ورقيق لي ، وأعطية تتابعت علي. فنظروا فوجدوه

---

(١) الجلاوزة : جمع جلواز وهو الثؤرور - أي الثائر الذي يطالب بالدم ويقتل القاتل ، والجلواز أيضا الشرطي (٢) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ

كما قال . فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله فأبى أن يعمل له ، فقال له : تكره العمل وقد طلبه من كان خيراً منك ؟ طلبه يوسف عليه السلام، فقال : إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أمية وأخشى ثلاثا واثنين ، قال عمر : فهلا قلت خمسا ؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم ، أو يضرب ظهري ، وينزع مالي ، ويشتم عرضي . وذكر غيره أن عمر غرمه في العمالة الأولى اثني عشر ألفا، فلهذا امتنع في الثانية .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن محمد بن زياد قال : كان معاوية يبعث أبا هريرة على المدينة فإذا غضب عليه عزله وولى مروان بن الحكم فإذا جاء أبو هريرة إلى مروان حجبه عنه ، فعزل مروان ورجع أبو هريرة ، فقال لمولاه : من جاءك فلا ترده واحجب مروان ، فلما جاء مروان دفع الغلام في صدره فما دخل إلا بعد جهد جهيد ، فلما دخل قال : إن الغلام حجبنا عنك ، فقال له أبو هريرة : إنك أحق الناس أن لا تغضب من ذلك . والمعروف أن مروان هو الذي كان يستنيب أبا هريرة في إمرة المدينة ، ولكن كان يكون عن إذن معاوية في ذلك ، والله أعلم . وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع : كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة فيركب الحمار ويلقى الرجل فيقول : الطريق قد جاء الأمير — يعني نفسه ، وكان يمر بالصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب ، وهو أمير ، فلا يشعرون إلا وقد ألقى نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون — يريد بذلك أن يضحكهم ، فيفزع الصبيان منه ويفرون عنه ههنا وههنا يتضاحكون . قال أبو رافع: وربما دعاني أبو هريرة إلى عشائه بالليل فيقول : دع العُرَاق[1] للأمير — يعني قطع اللحم — قال: فأنظر فإذا هو ثريد بالزيت . وقال ابن وهب : حدثني عمرو بن الحارث عن يزيد بن زياد القرظي أن ثعلبة بن أبي مالك ، حدثه أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ، فقلت : أصلحك الله تكفي هذا ، فقال : أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه ، وقد تقدم هذا . وروى نحوه من غير وجه .

وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان : بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار ، فلما كان الغد بعث إليه : إني غلطت ولم أردك بها ، وإني إنما أردت غيرك ، فقال أبو هريرة : قد أخرجتها فإذا خرج عطائي فخذها منه — وكان قد تصدق بها، وإنما أراد مروان اختباره . وقال الامام أحمد : حدثنا العلاء بن عبد الجبار ، ثنا حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان معاوية إذا أعطى أبا هريرة سكت ، وإذا أمسك عنه تكلم . وروى غير واحد عن أبي هريرة أنه جاءه شاب فقال : يا أبا هريرة ! إني أصبحت صائما فدخلت على أبي فجاءني بخبز ولحم فأكلت ناسياً ، فقال : طعمة أطعمكها الله لا عليك ، قال : ثم دخلت داراً لأهل

(١) الذي في كتب اللغة: العراق : العظم أكل لحمه، فإن كان عليه لحم فهو عرق

يجيء بابن لقحة فشربته ناسيا ، قال : لا عليك ، قال: ثم نمت فاستيقظت فشربت ماء ، وفي رواية وجامعت ناسياً ، فقال أبو هريرة : إنك يا ابن أخي لم تعتد الصيام . [وقال غير واحد : كان أبو هريرة إذا رأى الجنازة قال: روحوا فإنا غادون ، أو اغدوا فإنا رائحون. وروى غير واحد أنه لما حضرته الوفاة بكى، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال: على قلة الزاد وشدة المفازة ، وأنا على عقبة هبوط إما إلى جنة أو إلى نار، فما أدرى إلى أيهما أصير][1] وقال مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : دخل مروان على أبي هريرة في مرضه الذي مات فيه فقال : شفاك الله يا أبا هريرة ، فقال أبو هريرة : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . قال : فما بلغ مروان أصحاب القطن[2] حتى مات أبو هريرة .

وقال يعقوب بن سفيان عن دحيم عن الوليد بن جابر عن عمير بن هانئ قال : قال أبو هريرة : اللهم لا تدركني سنة ستين ، فتوفي فيها أو قبلها بسنة ، وهكذا قال الواقدي : إنه توفي سنة تسع وخمسين ، عن ثمان وسبعين سنة ، قال الواقدي : وهو الذي صلى على عائشة في رمضان ، وعلى أم سلمة في شوال سنة تسع وخمسين ، ثم توفي أبو هريرة بعدهما فيها ، كذا قال . والصواب أن أم سلمة تأخرت بعد أبي هريرة وقد قال غير واحد : إنه توفي سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان ، وقيل سبع وخمسين ، والمشهور تسع وخمسين . قالوا : وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان نائب المدينة ، وفي القوم ابن عمر وأبو سعيد وخلق من الصحابة وغيرهم ، وكان ذلك عند صلاة العصر ، وكانت وفاته في داره بالعقيق ، فحمل إلى المدينة فصلى عليه ، ثم دفن بالبقيع رحمه الله ورضى عنه ..وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبي هريره ، فكتب إليه معاوية : أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم ، وأحسن جوارهم ، واعمل إليهم معروفا ، فانه كان ممن نصر عثمان ، وكان معه في الدار رحمهما الله تعالى .

سنة ستين من الهجرة النبوية

فيها: كانت غزوة مالك بن عبد الله مدينة سورية ، قال الواقدي :وفيها دخل جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس ، وفيها أخذ معاوية البيعة ليزيد من الوفد الذين قدموا صحبة عُبيد الله بن زياد إلى دمشق ، وفيها مرض معاوية مرضه الذي توفي فيه في رجب منها كما سنبينه . فروى ابن جرير من طريق أبي مخنف: حدثني عبد الملك بن نوفل ابن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، أن معاوية لما

(١) مابين القوسين سقط من بعض النسخ

(٢) العطن بالعين ـ وطن الابل ومبركها حول الحوض ، ومربض الغنم حول الماء . والقطن ـ بالقاف كمكتب جمع قطينة ، والقطينة الإماء والحشم والخدم وأهل الدار

مرض مرضته التي هلك فيها ، دعا ابنه يزيد فقال : يا بنيّ ! إني قد كفيتك الرحلة والرجال[١] . ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعزاء[٢] ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي أسسته لك[٣] إلا أربعة نفر ؛ الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . كذا قال ، والصحيح أن عبد الرحمن كان قد توفي قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا ، فأما ابن عمر فهو رجل ثقة قد وقذته[٤] العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق خلفه لن يدعوه حتى يخرجوه عليك ، فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فهو رجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، ليست له همة إلا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك روغان الثعلب ، وإذا أمكنته فرصة وثب ـ فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً .

قال غير واحد : فحين حضرت معاوية الوفاة كان يزيد في الصيد ، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري ـ وكان على شرطة دمشق ـ ومسلم بن عقبة فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام ، ويقولان له : يتوصى بأهل الحجاز ، وإن سأله أهل العراق في كل يوم أن يعزل عنهم عاملا ويولي عليهم عاملا فليفعل ؛ فعزل واحد أحب إليك من أن يسل عليك مائة ألف سيف . وأن يتوصى بأهل الشام ، وأن يجعلهم أنصاره ، وأن يعرف لهم حقهم ، ولست أخاف عليه من قريش سوى ثلاثة : الحسين ، وابن عمر ، وابن الزبير ـ ولم يذكر عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهذا أصح . فأما ابن عمر فقد وقذته العبادة ، وأما الحسين فرجل ضعيف وأرجو أن يكفيكه الله تعالى بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وإن له رحما ماسة وحقاً عظيما ، وقرابة من محمد ﷺ ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو صاحبته عفوت عنه . وأما ابن الزبير فإنه خب[٥] ضب ، فإن شخص لك فانبذ إليه إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه ، واصفح عن دماء قومك ما استطعت . وكان موت معاوية لاستهلال رجب من هذه السنة ، قاله هشام بن الكلبي . وقيل للنصف منه ، قاله الواقدي . وقيل يوم الخميس لثمان بقين منه ، قاله المدائني . قال ابن جرير : وأجمعوا على أنه هلك في رجب منها ، وكان مدة ملكه استقلالا من جمادى سنة إحدى وأربعين حين بايعه الحسن بن علي بأذرح ، فذلك تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر . وكان نائباً في الشام عشرين سنة تقريباً ، وقيل غير ذلك . وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة ، وقيل خمساً وسبعين سنة ، وقيل ثمانيا وسبعين سنة ، وقيل خمساً وثمانين سنة ، وسيأتي بقية الكلام في آخر ترجمته .

---

(١) في الطبري ، والترحال (٢) في الطبري ، الأعداء (٣) في نسخة : استتب

(٤) أي غلبته وتركته عليلا . والوقذ شدة الضرب (٥) الخب ـ بفتح الخاء وتكسر ـ الخداع

وقال أبو السكن زكريا بن يحيى : حدثنى عم أبى زحر بن حصن من جده حميد بن وهب . قال : كانت هند بنت عتبة عند الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذلك البيت يوماً فاضطجع الفاكه وهند فيه فى وقت القائلة ، ثم خرج الفاكه لبعض شأنه ، وأقبل رجل ممن كان يغشاه فولج البيت ، فلما رأى المرأة فيه ولى هارباً ، ورآه الفاكه وهو خارج من البيت ، فأقبل إلى هند وهى مضطجعة فضربها برجله وقال : من هذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتنى أنت ، فقال لها : الحقى بأبيك ، وتكلم فيها الناس ، فقال لها أبوها : يابنية! إن الناس قد أكثروا فيك المقالة ، فأنبئنى نبأك ، فإن يكن الرجل عليك صادقاً دسست إليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فعند ذلك حلفت هند لأبيها بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية إنه لكاذب عليها ، فقال عتبة بن ربيعة للفاكه : ياهذا ! إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، [وعار كبير ، لايغسله الماء ، وقد جعلتنا فى العرب بمكان ذلة ومنقصة ، ولولا أنك منى ذو قرابة لقتلتك ، ولكن سأحاكمك إلى كاهن اليمن][1] فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه فى بعض جماعة من بنى مخزوم - أقاربه ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وخرجوا بهند ونسوة معها من أقاربهم ، ثم ساروا قاصدين بلاد اليمن ، فلما شارفوا بلاد الكاهن قالوا : غداً نأتى الكاهن فلما سمعت هند ذلك تنكرت حالها وتغير وجهها ، وأخذت فى البكاء ، فقال لها أبوها : يابنية! إنى قد أرى ما بك من تنكر الحال ، وكثرة البكاء ، وماذاك أراه عندك إلا لمكروه أحدثتيه ، وعمل اقترفتيه ، فهلا كان هذا قبل أن يشيع فى الناس ويشتهر مسيرنا ؟ فقالت : والله ياأبتاه ما هذا الذى تراه منى لمكروه وقع منى ، وإنى لبريئة ، ولكن هذا الذى تراه من الحزن وتغير الحال - هو أنى أعلم أنكم تأتون هذا الكاهن وهو بشر يخطىء ويصيب ، وأخاف أن يخطىء فى أمرى بشىء يكون عاره على إلى آخر الدهر ، ولا آمنه أن يسمنى بسيماء تكون على سبة فى العرب . فقال لها أبوها : لا تخافى ، فإنى سوف أختبره وأمتحنه قبل أن يتكلم فى شأنك وأمرك ؛ فإن أخطأ فيما أمتحنه به لم أدعه يتكلم فى أمرك .

ثم إنه انفرد عن القوم - وكان راكباً مهراً - حتى توارى عنهم خلف رابية، فنزل عن فرسه ثم صفر له حتى أدلى ، ثم أخذ حبة بر فأدخلها فى إحليل المهر ، وأوكأ عليها بسير حتى أحكم ربطها، ثم صفر له حتى اجتمع إحليله، ثم أتى القوم، فظنوا أنه ذهب ليقضى حاجة له، ثم أتى الكاهن، فلما قدموا عليه أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا قد جئناك فى أمر ، ولكن لا أدعك تتكلم فيه

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

حتى تبين لنا ماخبأت لك ، فإنى قد خبأت لك خبيئاً فانظر ماهو؟ فاخبرنا به قال الكاهن : بُرة فى كمرة ، قال : أريد أبين من هذا ، قال : خبأت بُراً فى إحليل مهر ، قال : صدقت لخذ لما جئناك له ، انظر فى أمر هؤلاء النسوة ، فأجلس النساء خلفه وهند معهم لا يعرفها ، ثم جعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ويبريها ويقول: انهضى، حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال: انهضى حَصان رزان[1] ، غير رسحاء[2] ولا زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية . فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فنثرت يدها من يده وقالت له : إليك عنى ، والله لا يجمع رأسى ورأسك وسادة ، والله لأحرصن أن يكون هذا الملك من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان بن حرب لجاءت منه بمعاوية هذا. وفى رواية أن أباها هو الذى قال للفاكه ذلك ، والله سبحانة أعلم

ترجمة معاوية رضى الله عنه

وذكر شىء من أيامه ودولته، وما ورد فى مناقبه وفضائله ـ رحمه الله

وهو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، القرشى الأموى ، أبو عبد الرحمن ، خال المؤمنين ، وكاتب وحى رسول رب العالمين . وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. أسلم معاوية عام الفتح ، وروى عنه أنه قال : أسلمت يوم القضية ولكن كتمت إسلامى من أبى ، ثم علم بذلك فقال لى : هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه ، فقلت له : لم آل نفسى جهداً . قال معاوية : ولقد دخل علىّ رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء وإنى لمصدّق به ، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامى لجئته فرَحب بى ، وكتبت بين يديه . قال الواقدى: وشهد معه حنيناً ، وأعطاه مائة من الأبل ، وأربعين أوقية من ذهب ، وزنها بلال ، وشهد اليمامة وزعم بعضهم أنه هو الذى قتل مُسيلمة ، حكاه ابن عساكر ، وقد يكون له شرك فى قتله ، وإنما الذى طعنه وحشى ، وجلله أبو دجانة سماك بن خرشة بالسيف ، وكان أبوه من سادات قريش ، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر ، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه ، وكان له مواقف شريفة ، وآثار محمودة فى يوم اليرموك وما قبله ومابعده ، وصحب معاوية رسول الله ﷺ ، وكتب الوحى بين يديه مع الكتاب ، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : كان معاوية طويلا أبيض جميلا ، إذا ضحك انقلبت شفته العليا ، وكان يخضب . حدثنى محمد بن يزيد الأزدى، ثنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن أبى عبد رب

---

(١) حصان : عفيفة . رزان : وقورة (٢) الرسحاء : القبيحة

قال : رأيت معاوية يصفر لحيته كأنها الذهب . وقال غيره : كان أبيض طويلا أجلح[١] أبيض الرأس واللحية، يخضبهما بالحناء والـكتم[٢] .وقد أصابته لقوة[٣] فى آخر عمره ، فكان يستر وجهه ويقول : رحم الله عبـداً دعا لى بالعافية ، فقد رميت فى أحسنى وما يبدو منى ، ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى . وكان حليما وقوراً رئيساً سيداً فى الناس ، كريما عادلا شهماً .

وقال المدائنى عن صالح بن كيسان قال : رأى بعض متفرسى العرب معاوية وهو صبى صغير ، فقال : إنى لأظن هذا الغلام سيسود قومه ، فقالت هند : ثـكلته إن كان لا يسود إلا قومه .

وقال الشافعى: قال أبو هريرة : رأيت هنـدا بمكة كأن وجهها فلقة قمر ، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبىّ يلعب ، فمر رجل فنظر إليـه فقال : إنى لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه ، فقالت هند : إن لم يسد إلا قومه فأماته الله ، وهو معاوية بن أبى سفيان وقال محمد بن سعد : أنبأنا على بن محمد بن عبـد الله بن أبى سيف قال : نظر أبو سفيان يوما إلى معاوية وهو غلام فقال لهند: إن ابنى هذا لعظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه ، فقالت هند : قومه فقط ! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة . وكانت هند تحمله وهو صغير وتقول :

إن بنىّ معرق كريم محبّب فى أهله حليم
ليس بفحاش ولا لئيم ولا بطخرور ولا سؤوم
صخر بنى فهر به زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم

قال : فلما ولى عمر يزيد بن أبى سفيان ما ولاه من الشام، خرج إليه معاوية، فقال أبو سفيان لهند : كيف رأيت! صار ابنك تابعا لابنى ؟ فقالت: إن اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابنى ، فلما مات يزيد بن أبى سفيان سنة بضع عشرة ، وجاء البريد إلى عمر بموته ، ردّ عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيـه يزيد ، ثم عزى أبا سفيان فى ابنه يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين مَنْ وليت مكانه ؟ قال : أخوه معاوية ، قال : وصلَت رحماً يا أمير المؤمنين .

وقالت هند لمعاوية فيما كتبت به إليه : والله يا بنى، إنه قلّ أن تلد حرة مثلك ، وإن هـذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر ، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت وقال له أبوه : يا بنىّ إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سَبْقُهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ،

---

(١) الجلح ـ محركة ـ انحسار الشعر عن جانبى الرأس

(٢) الـكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه وأصله ، وإذا طبخ بالماء كان منه مداد للكتابة

(٣) اللقوة : داء يعرض للوجه فيعوج منه الشدق

وقصّر بنا تأخيرنا فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعا ، وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم ، فإنك تجرى إلى أمد ، فنافس فإن بلغته أورثته عقبك . فلم يزل معاوية نائبا على الشام فى الدولة العمرية والعثمانية مدة خلافة عثمان . وافتتح فى سنة سبع وعشرين جزيرة قبرص ، وسكنها المسلمون قريباً من ستين سنة فى أيامه ومن بعده ، ولم تزل الفتوحات والجهاد قائما على ساقه فى أيامه فى بلاد الروم والفرنج وغيرها ، فلما كان أمره وأمر أمير المؤمنين على ما كان ، لم يقع فى تلك الأيام فتح بالكلية ، لا على يديه ولا على يدَى علىّ ، وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله ، وقهر جنده ودحاهم ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علىّ تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين - لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت . فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفّ ، وبعث يطلب الهدنة . ثم كان من أمر التحكيم ما كان ، وكذلك ما بعده إلى وقت اصطلاحه مع الحسن بن على كما تقدم ، فانعقدت الكلمة على معاوية ، وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين كما قدمنا ، فلم يزل مستقلا بالأمر فى هذه المدة إلى هذه السنة التى كانت فيها وفاته ، والجهاد فى بلاد العدو قائم ، وكلمة الله عالية . والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض ، والمسلمون معه فى راحة وعدل ، وصفح وعفو .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، من طريق عكرمة بن عمار ، عن أبى زميل - سماك بن الوليد عن ابن عباس قال : قال أبو سفيان : يا رسول الله ! ثلاثا أعطنيهن ، قال : نعم ، قال : تؤمّرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : نعم ! قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : نعم . وذكر الثالثة وهى : أنه أراد أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى - عزة بنت أبى سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة ، فقال : « إن ذلك لا يحلّ لى » ، وقد تكلمنا على ذلك فى جزء مفرد ، وذكرنا أقوال الأئمة واعتذارهم عنه ، ولله الحمد .

والمقصود منه : أن معاوية كان من جملة الكتاب بين يدى رسول الله ﷺ الذين يكتبون الوحى . وروى الإمام أحمد ومسلم والحاكم فى مستدركه ، من طريق أبى عوانة - الوضاح بن عبد الله اليشكرى - عن أبى حمزة عمران بن أبى عطاء عن ابن عباس قال : كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله ﷺ قد جاء فقلت : ما جاء إلا إلىّ ، فاختبأت على باب فجاء فى فحطانى حطأة أو حطأتين ، ثم قال : « اذهب فادع لى معاوية - وكان يكتب الوحى - قال : فذهبت فدعوته له فقيل : إنه يأكل ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنه يأكل ، فقال : اذهب فادعه ، فأتيته الثانية فقيل : إنه يأكل ، فأخبرته ؛ فقال فى الثالثة : لا أشبع الله بطنه » قال : فما شبع بعدها ؛

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة فى دنياه وأخراه ؛ أما فى دنياه : فإنه لما صار إلى الشام أميراً ، كان يأكل فى اليوم سبع مرات ، يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها ، ويأكل فى اليوم سبع أكلات بلحم ، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا ويقول : والله ما أشبع وإنما أعيا ، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك . وأما فى الآخرة : فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذى رواه البخارى وغيرهما من غير وجه ، عن جماعة من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا ـ فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة » . فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث ـ فضيلة لمعاوية ، ولم يورد له غير ذلك .

وقال المسيب بن واضح عن أبى إسحاق الفزارى ، عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : « أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اقرىء معاوية السلام واستوص به خيراً ، فإنه أمين الله على كتابه ووحيه ونعم الأمين » . ثم أورده ابن عساكر من وجه آخر عن عبد الملك بن أبى سليمان ، ثم أورده أيضا من رواية على وجابر بن عبد الله ، « أن رسول الله ﷺ استشار جبريل فى استكتابه معاوية ، فقال : استكتبه فإنه أمين » ، ولكن فى الأسانيد إليهما غرابة . ثم أورد عن على فى ذلك غرائب كثير ـ عن غيره أيضا . وقال أبو عوانة عن سليمان عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر الزبيدى عن عبد الله بن عمرو قال : كان معاوية يكتب للنبى ﷺ . وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن محمد الصيدلانى ، ثنا السرى عن عاصم ثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير عن أبيه هشام ـ بن عروة عن عائشة قالت : « لما كان يوم أم حبيبة من النبى ﷺ ، دق الباب داق ، فقال النبى ﷺ : انظروا من هذا ؟ قالوا : معاوية ، قال : ائذنوا له ، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به ، فقال : ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟ قال : قلم أعددته لله ولرسوله ، فقال له : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا بوحى من الله ، وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحى من الله ، كيف بك لو قمصك الله قميصا ـ يعنى الخلافة ـ ؟ فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت : يا رسول الله! وإن الله مقمصه قميصاً ؟ قال : نعم ! ولكن فيه هنات وهنات . فقالت : يا رسول الله فادع الله له ، فقال : اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له فى الآخرة والأولى » . قال الطبرانى : تفرد به السرى عن عاصم عن عبد الله بن يحيى بن أبى كثير عن هشام .

وقد أورد ابن عساكر بعد هذا ـ أحاديث كثيرة موضوعة ، والعجب منه ـ مع حفظه واطلاعه ـ كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها ، والله الموفق للصواب .

وقد أوردنا من طريق أبي هريرة وأنس وواثلة بن الأسقع مرفوعا : « الأمناء ثلاثة ، جبريل ، وأنا ، ومعاوية » ولا يصح من جميع وجوهه . ومن رواية ابن عباس : « الأمناء سبعة ، القلم ، واللوح ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وجبريل ، وأنا ، ومعاوية » وهذا أنكر من الأحاديث التي قبله ، وأضعف إسناداً وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية ـ يعني ابن صالح ـ عن يونس بن سيف عن الحارث بن زياد عن أبي رُهم عن العرباض بن سارية السلمي قال : « سمعت رسول الله ﷺ يدعونا إلى السحور في شهر رمضان : هلم إلى الغداء المبارك ، ثم سمعته يقول : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » . تفرد به أحمد . ورواه ابن جرير من حديث ابن مهدي ، وكذلك رواه أسد بن موسى ، وبشر بن السري ، وعبد الله بن صالح ، عن معاوية ابن صالح بإسناده مثله . وفي رواية بشر بن السري « وأدخله الجنة » ورواه ابن عدي وغيره من حديث عثمان بن عبد الرحمن الجمحي عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » . وقال محمد بن سعد : ثنا سليمان بن حرب والحسين ابن موسى الأشيب قال : ثنا أبو هلال ـ محمد بن سليم ، ثنا جبلة بن عطية عن مسلمة بن مخلد ، وقال الأشهب : قال أبو هلال ـ أو عن رجل ، عن مسلمة بن مخلد ، وقال سليمان بن حرب ـ أو حدثه مسلمة عن رجل ، أنه رأى معاوية يأكل ، فقال لعمرو بن العاص : إن ابن عمك هذا لمخضد[1] ، قال : أما إني أقول لك هذا ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب » . وقد أرسله غير واحد من التابعين ، منهم : الزهري ، وعروة بن رويم ، وجرير بن عثمان الرحبي الحمصي ، ويونس بن ميسرة بن حلبس .

وقال الطبراني : ثنا أبو زرعة وأحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الدمشقيان قالا : ثنا أبو مسهر ثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » قال ابن عساكر : وهذا غريب ، والمحفوظ بهذا الاسناد حديث العرباض الذي تقدم . ثم روى من طريق الطبراني عن أبي زرعة عن أبي مسهر عن سعيد عن ربيعة عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لمعاوية : « اللهم اجعله هادياً مهديا واهده واهد به » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن بحر ، ثنا الوليد بن مسلم ، ثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة عن النبي ﷺ أنه ذكر معاوية فقال : « اللهم اجعله هادياً مهديا واهد به » ، وهكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز به ، وقال حسن غريب . وقد رواه عمر بن عبد الواحد ومحمد بن سليمان الحراني ،

(١) خضد الرجل : أكل أكلا شديدا

كما رواه الوليد بن مسلم وأبو مسهر عن سعيد عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة . ورواه محمد بن المصفى عن مروان بن محمد الطاطرى عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس عن ابن أبي عميرة أن رسول الله ﷺ دعا لمعاوية فقال : « اللهم علمه العلم ، واجعله هاديا مَهْدِيًّا ، واهده واهد به » وقد رواه سلمة بن شبيب وصفوان بن صالح وعيسى بن هلال وأبو الأزهر عن مروان الطاطرى ، ولم يذكروا أبا إدريس فى إسناده . ورواه الطبرانى عن عبدان ابن أحمد عن على بن سهل الرملى عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز عن يونس بن ميسرة بن حَلبس عن عبد الرحمن بن أبى عميرة المزنى . أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر معاوية فقال : « اللهم اجعله هاديا مهديًّا واهده » ، قال ابن عساكر : وقول الجماعة هو الصواب .

وقد اعتنى ابن عساكر بهذا الحديث وأطنب فيه وأطيب وأطرب ، وأفاد وأجاد ، وأحسن الانتقاد ، فرحمه الله ، كم له من موطن قد تبرز فيه على غيره من الحفاظ والنقاد . وقال الترمذى : حدثنا محمد بن يحيى ، ثنا عبد الله بن محمد النفيلى ، ثنا عمرو بن واقد عن يونس بن حَلْبس عن أبى إدريس الخولانى قال : لما عزل عمر بن الخطاب عُمير بن سعد عن الشام وولّى معاوية قال الناس : عزل عمر عميرا وولّى معاوية ، فقال عمر : لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اهد به » ، تفرد به الترمذى وقال : غريب . وعمرو بن واقد ضعيف ، هكذا ذكره أصحاب الأطراف فى مسند عمير بن سعد الأنصارى . وعندى أنه ينبغى أن يكون من رواية عمر بن الخطاب ، ويكون الصواب فقال عمر : لا تذكروا معاوية إلا بخير ، ليكون عذراً له فى توليته له . ومما يقوى هذا أن هشام بن عمار قال : حدثنا ابن أبى السائب وهو عبد العزيز بن الوليد بن سليمان ـ قال : وسمعت أبى يذكر أن عمر بن الخطاب ولى معاوية ابن أبى سفيان فقالوا : ولّى حَدث السن ، فقال : تلوموننى فى ولايته ، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اجعله هاديا مَهْدِيًّا واهد به » وهذا منقطع يقويه ما قبله .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ثنا نعيم بن حماد ، ثنا محمد بن شعيب ابن سابور ثنا مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن عبد الله بن بسر ، أن رسول الله ﷺ « استشار أبا بكر وعمر فى أمر ، فقال : أشيروا علىّ ، فقالا : الله ورسوله أعلم . فقال : ادعو معاوية ، فقال أبو بكر وعمر : أما فى رسول الله ﷺ ورجلين من رجال قريش ما يتقنون أمرهم ، حتى يبعث رسول الله ﷺ إلى غلام من غلمان قريش ؟ فقال : ادعولى معاوية فدعى له ، فلما وقف بين يديه قال رسول الله ﷺ : أحضروه أمركم وأشهدوه أمركم ، فإنه قوى أمين » . ورواه بعضهم عن نعيم وزاد « وحملوه أمركم » . ثم ساق ابن عساكر أحاديث كثيرة

موضوعة - بلا شك - فى فضل معاوية، أضربنا عنها صفحا، واكتفينا بما أوردناه من الأحاديث الصحاح والحسان، والمستجادات عما سواها من الموضوعات والمنكرات.

ثم قال ابن عساكر : وأصح ما روى فى فضل معاوية ، حديث أبى جمرة عن ابن عباس « أنه كان كاتب النبى ﷺ منذ أسلم » ، أخرجه مسلم فى صحيحه ، وبعده حديث العرباض : « اللهم علّم معاوية الكتاب » . وبعده حديث ابن أبى عميرة : « اللهم اجعله هادياً مهدياً ». قلت : وقد قال البخارى فى كتاب المناقب : [ذكر معاوية بن أبى سفيان] حدثنا الحسن بن بشر ، ثنا المعافى عن عثمان ابن الأسود عن ابن أبى مليكة قال : أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : أوتر معاوية بركعة بعد العشاء ، فقال : دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ . حدثنا ابن أبى مريم ، ثنا نافع بن عمر ، ثنا ابن أبى مليكة قال : قيل لابن عباس : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية ؟ ما أوتر إلا بواحدة ! قال : أصاب ، إنه فقيه ، ثنا عمرو ابن عباس ، ثنا جعفر ثنا شعبة عن أبى التياح قال : سمعت حمدان عن أبان عن معاوية قال : إنكم لتصلون صلاة ، لقد صحبنا رسول الله ﷺ فما رأيناه يصليهما ، ولقد نهى عنهما - يعنى الركعتين بعد العصر . ثم قال البخارى بعد ذلك : [ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة] حدثنا عبدان ، ثنا عبد الله ، ثنا يونس عن الزهرى حدثنى عروة ، أن عائشة قالت : « جاءت هندٌ بنت عتبة امرأة أبى سفيان إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحبُ إلىّ أن يذلوا - من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خباء أحبُّ إلىّ أن يعزوا - من أهل خبائك . فقال : وأيضا ، والذى نفسى بيده . فقالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل مَسِيك[1] ، فهل علىّ من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟ قال : لا - إلا بالمعروف » . فالمدحة فى قوله : « وأيضا والذى نفسى بيده » ، وهو أنه كان يودّ أن هندا وأهلها وكل كافر - يذلوا فى حال كفرهم ، فلما أسلموا كان يحب أن يعزوا ، فأعزهم الله - يعنى أهل خبائها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، ثنا أبو أمية عمرو بن يحيى بن سعيد قال : « سمعت جدى يحدث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبى هريرة ، فتبع رسول الله ﷺ بها - وكان أبو هريرة قد اشتكى - فبيناهو يوضىء رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ ، فقال : يا معاوية إن وُليت أمراً

---

(١) مسيك : صيغة مبالغة من المسك - أى البخل

فاتق الله واعدل . قال معاوية : فما زلت أظن أنى سأبتلى بعمل لقول النبى ﷺ حتى ابتليت » . تفرد به أحمد . ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن أبى إسحاق الهمذانى ـ سعيد بن زنبور بن ثابت، عن عمرو بن يحيى بن سعيد . ورواه ابن منده من حديث بشر بن الحكم عن عمرو بن يحيى به . وقال أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، ثنا عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده عن معاوية قال : « اتبعت رسول الله ﷺ بوضوء ، فلما توضأ نظر إلىّ فقال : يا معاوية ! إن وُليت أمراً فاتق واعدل ، فما زلت أظن أنى مُبتلى بعمل حتى وليت » . ورواه غالب القطان عن الحسن قال : سمعت معاوية يخطب وهو يقول : « صببت يوما على رسول الله ﷺ وضوءه فرفع رأسه إلىّ فقال : أما إنك ستلى أمر أمتى بعدى ، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وقال : فما زلت أرجو حتى قمت مقامى هذا » .

وروى البيهقى عن الحاكم بسنده إلى إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عبد الملك بن عمير قال : قال معاوية : والله ما حملنى على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ : « إن مَلكتَ فأحسن » قال البيهقى : إسماعيل بن إبراهيم هذا ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد . وروى ابن عساكر بإسناده عن نعيم بن حماد : ثنا محمد بن حرب عن أبى بكر بن أبى مريم ، ثنا محمد بن زياد عن عوف ابن مالك الأشجعى قال : « بينما أنا راقد فى كنيسة يوحنا ـ وهى يومئذ مسجد يصلّى فيها ـ إذ انتبهت من نومى ، فإذا أنا بأسد يمشى بين يدى ، فوثبت إلى سلاحى ، فقال الأسد : مه ! إنما أرسلت إليك برسالة لتبلغها ، قلت . ومن أرسلك ؟ قال : الله أرسلنى إليك لتبلغ معاوية السلام ، وتعلمه أنه من أهل الجنة ، فقلت له : ومن معاوية؟ قال: معاوية بن أبى سفيان » ، ورواه الطبرانى عن أبى يزيد القراطيسى عن المعلى بن الوليد القعقاعى عن محمد بن حبيب الخولانى ، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى ، وفيه ضعف . وهذا غريب جداً ، ولعل الجميع مناما . ويكون قوله : إذ انتبهت من نومى ـ مدرجا لم يضبطه ابن أبى مريم ، والله أعلم .

وقال محمد بن عائذ عن الوليد عن ابن لهيعة عن يونس عن الزهرى قال : قدم عمر الجابية فنزع شرحبيلَ وأمر عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر ، وبقى الشام على أميرين : أبى عبيدة ، ويزيد ، ثم توفى أبو عبيدة فاستخلف عياض بن غنم ، ثم توفى يزيد فأمّر معاوية مكانه ، ثم نعاه عمر لأبى سفيان ، فقال لأبى سفيان : احتسب يزيد بن أبى سفيان ، قال : من أمّرت مكانه ؟ قال : معاوية ، فقال : وصلت رحما يا أمير المؤمنين ، فكان معاوية على الشام ، وعمير بن سعد حتى قتل عمر ، رضى الله عنهم . وقال محمد بن إسحاق : مات أبو عبيدة فى طاعون عمواس[1] واستخلف معاذاً ، فمات معاذ واستخلف يزيد بن أبى سفيان ، فمات واستخلف أخاه معاوية فأقره عمر ، وولى

(١) طاعون عمواس : كان أول طاعون فى الإسلام بالشام .

عمرو بن العاص فلسطين والأردن ، ومعاوية دمشق وبعلبك والبلقاء ، وولى سعد بن عامر بن جذيم حمص ، ثم جمع الشام كلها لمعاوية بن أبى سفيان ، ثم أمّر عثمان بن عفان على الشام . وقال إسماعيل بن أمية : أفرد عمر معاوية بإمرة الشام ، وجعل له فى كل شهر ثمانين ديناراً . والصواب أن الذى جمع لمعاوية الشام كلها ـ عثمان بن عفان ، وأما عمر فإنه إنما ولاه بعض أعمالها .

وقال بعضهم : لما عزيت هند فى يزيد بن أبى سفيان ـ ولم يكن منها ـ قيل لها : إنه قد جعل معاوية أميراً مكانه ، فقالت : أوَ مثل معاوية يجعل خلفا من أحد ؟ فوالله لو أن العرب اجتمعت متوافرة، ثم رمى به فيها لخرج من أى أعراضها ـ نواحيها ـ شاء . وقال آخرون : ذكر معاوية عند عمر فقال : دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك فى الغضب ولا ينال منه إلا على الرضا ، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن قدامة الجوهرى ، حدثنى عبد العزيز بن يحيى عن شيخ له قال : لما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقاه معاوية فى موكب عظيم ، فلما دنا من عمر قال له : أنت صاحب الموكب ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال . هذا حالك مع ما بلغنى من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال : هو ما بلغك من ذلك قال: ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عزّ للاسلام وأهله ويرهبهم به ، فإن أمرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت . فقال له عمر : يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتنى فى مثل رواجب[1] الفرس ، لئن كان ما قلت حقاً ، إنه لرأى أريب ، ولئن كان باطلا إنه لخديعة أديب . قال : فمرنى يا أمير المؤمنين بما شئت ، قال: لا آمرك ولا أنهاك فقال رجل : يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ؟ ! فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشّمناه ما جشمناه . وفى رواية ، أن معاوية تلقى عمر حين قدم الشام ، ومعاوية فى موكب كثيف ، فاجتاز بعمر، وهو وعبد الرحمن بن عوف راكبان على حمار ، ولم يشعر بهما فقيل له : إنك جاوزت أمير المؤمنين ، فرجع ، فلما رأى عُمَر ترجّل وجعل يقول له ما ذكرناه فقال عبد الرحمن بن عوف : ما أحسن ما صدر عما أوردته فيه يا أمير المؤمنين ! ؟ فقال : من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه .

وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد : أخبرنا محمد بن ذئب عن مسلم بن جندب عن

---

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع التى تلى الأنامل ـ أوقصب الأصابع ، وفى نسخة: الضرس بكسر الراء ـ بدل الفرس والضرس : الصعب العريكة القوى نافذ العزمة : والداهية ، يريد : متحيرا قلقا

أسلم مولى عمر قال : قدم علينا معاوية وهو أبيض بَض وَبّاص[1] ؛ أبض الناس وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه ، ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك ، فيقول : بخ بخ ، نحن إذاً خير الناس ، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة . فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ! سأحدثك أنا بأرض الحمامات والريف والشهوات ، فقال عمر : سأحدثك ، مابك إلا إلطافك نفسك بأطيب الطعام ، وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك ، وذوو الحاجات وراء الباب . فقال : يا أمير المؤمنين علمني أمتثل ، قال : فلما جئنا ذا طُوًى أخرج معاوية حُلة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلاً ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة ـ أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما ! فقال معاوية : إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي وقومي ، والله لقد بلغني أذاك ههنا وبالشام ، فالله يعلم أني لقد عرفت الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني أبي عن هشام بن محمد عن أبي عبد الرحمن المدني . قال: كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال : هذا كسرى العرب وهكذا حكى المدائني عن عمر أنه قال ذلك . وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال : دخل معاوية على عمر وعليه حُلة خضراء ؛ فنظر إليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ! الله الله في ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين ؟ وما في قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم ، ولكن رأيته ـ وأشار بيده ـ فأحببت أن أضع منه ماشمخ.

وقد قال أبو داود : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، ثنا يحيى بن حمزة ، ثنا ابن أبي مريم أن القاسم بن مخيمرة أخبره أن أبا مريم الأزدي أخبره قال : دخلت على معاوية فقال : ما أنعمنا بك أبا فلان ـ وهي كلمة تقولها العرب ـ فقلت : حديث سمعته أخبرك به ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره » . قال : فجعل معاوية ـ حين سمع هذا الحديث ـ رجلا على حوائج الناس . ورواه الترمذي وغيره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، ثنا حبيب بن الشهيد عن أبي مجلز قال : خرج معاوية على الناس فقاموا له ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن

---

(١) الوباص : البراق اللون ووبص الشيء : برق ولمع . وهذه العبارة ساقطة في بعض النسخ

يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . وفي رواية قال : خرج معاوية على ابن عامر وابن الزبير فقام له ابن عامر ولم يقم له ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يتمثل له العباد قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . ورواه أبو داود والترمذي من حديث حبيب بن الشهيد ، وقال الترمذي : حديث حسن . وروى أبو داود من حديث الثوري عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد المقرئ الحمصي عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » . قال : كلمة سمعها معاوية نفعه الله بها . تفرد به أحمد ـ يعني أنه كان جيد السيرة ، حسن التجاوز ، جميل العفو ، كثير الستر رحمه الله تعالى ـ وثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن معاوية أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن يُرد الله به خيراً يُفقّهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي ، [ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون][1] . وفي رواية « وهم على ذلك » . وقد خطب معاوية بهذا الحديث مرة ثم قال : وهذا مالك بن يخامر يخبر عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال وهم بالشام ـ يحث بهذا أهل الشام على مناجزة أهل العراق : « وإن أهل الشام هم الطائفة المنصورة على من خالفها » ، وهذا مما كان يحتج به معاوية لأهل الشام في قتالهم أهل العراق .

وقال الليث بن سعد : فتح معاوية قيسارية سنة تسع عشرة في دولة عمر بن الخطاب . وقال غيره : وفتح قبرص سنة خمس وقيل سبع ، وقيل ثمان وعشرين في أيام عثمان . قالوا : وكان عام غزوة المضيق ـ يعني مضيق القسطنطينية ـ في سنة ثنتين وثلاثين في أيامه ، وكان هو الأمير على الناس عامئذ . وجمع عثمان لمعاوية جميع الشام ، وقيل : إن عمر هو الذي جمعها له ، والصحيح عثمان. واستقضى معاوية فضالة بن عبيد بعد أبي الدرداء ، ثم كان ما كان بينه وبين علي بعد قتل عثمان، على سبيل الاجتهاد والرأي ، فجرى بينهما قتال عظيم كما قدمنا ، وكان الحق والصواب مع عليّ ، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين من الطرفين ـ أهل العراق وأهل الشام ـ كما ثبت في الحديث الصحيح « تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين ، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» ، فكانت المارقة الخوارج ، وقتلهم علي وأصحابه ثم قُتِل علي فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين ، وكان يغزو الروم في كل سنة مرتين ؛ مرة في الصيف ومرة في الشتاء ، ويأمر رجلا من قومه فيحج بالناس ، وحج هو سنة خمسين ، وحج ابنه يزيد سنة إحدى وخمسين . وفيها ـ أو في التي بعدها ـ أغزاه بلاد الروم فسار معه خلق

(١) الذي في البخاري : ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله .

كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر القسطنطينية ، وقد ثبت فى الصحيح : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم » . وقال وكيع عن الأعمش عن أبى صالح قال : كان الحادى يحدو بعثمان فيقول :

إن الأمير بعده على ّ وفى الزبير خلف مرضىّ

فقال كعب : بل هو صاحب البغلة الشهباء ـ يعنى معاوية ـ فقال : يا أبا إسحاق ! تقول هذا وهـهنا على والزبير وأصحاب محمد ﷺ ؟ فقال : أنت صاحبها . ورواه سيف عن بدر بن الخليل عن عثمان بن عطية الأسدى عن رجل من بنى أسد قال : ما زال معاوية يطمع فيها منذ سمع الحادى فى أيام عثمان يقول :

إن الأمير بعــده علىّ وفى الزبير خلف مرضىّ

فقال كعب : كذبت ! بل صاحب البغلة الشهباء بعده ـ يعنى معاوية ـ فقال له معاوية فى ذلك، فقال : نعم ! أنت الأمير بعده ، ولـكنها والله لا تصل إليك حتى تكذب بحديثى هذا ، فوقعت فى نفس معاوية .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا محمد بن عباد المكى ، ثنا سفيان بن عيينة عن أبى هارون قال : قال عمر : إياكم والفرقة بعدى، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام، وستعلمون ـ إذا وكلتم إلى رأيكم ـ كيف يستبزها دونـكم . ورواه الواقدى من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه . وقد روى ابن عساكر عن عامر الشعبى ، أن عليا حين بعث جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية قبل وقعة صفين ـ وذلك حين عزم علىّ على قصد الشام ، وجمع الجيوش لذلك ـ وكتب معه كتاباً إلى معاوية يذكر له فيه: أنه قد لزمته بيعته ، لأنه قد بايعه المهاجرون والأنصار ، فإن لم تبايع استعنت بالله عليك وقاتلتك ، وقد أكثرت القول فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فى كلام طويل ـ وقد قدمنا أكثره . فقرأه معاوية على الناس ، وقام جرير فخطب الناس ، وأمر فى خطبته معاوية بالسمع والطاعة ، وحذره من المخالفة والمعاندة ، ونهاه عن إيقاع الفتنة بين الناس، وأن يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف . فقال معاوية : انتظر حتى آخذ رأى أهل الشام .

فلما كان بعد ذلك أمر معاوية منادياً فنادى فى الناس : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فخطب فقال : « الحمد لله الذى جعل الدعائم للاسلام أركانا ، والشرائع للايمان برهانا ، يتوقد مصباحه بالسنة فى الأرض المقدسة التى جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ، فأحلها أهل الشام ورضيهم لها ، ورضيها لهم ؛ لما سبق فى مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم أولياءه فيها

والقوام بأمره ، القابين عن دينه وحرماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً ، وفى أعلام الخير عظاماً ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم الألفة بين المؤمنين ، والله نستعين على إصلاح ما تشعث من أمور المسلمين ، وتباعد بينهم بعد القرب والألفة ، اللهم انصرنا على قوم يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون هراقة دمائنا ، وإخافة سبلنا ، وقد يعلم الله أنا لا نريد لهم عقاباً ، ولا نهتك لهم حجاباً ، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعا ماجاوب الصدَى ، وسقط الندى ، وعرف الهدى ، وقد علمنا أن الذى حملهم على خلافنا البغى والحسد لنا ، فالله نستعين عليهم . أيها الناس ! قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأنى خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم ، وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاته قط ، وأنى ولى عثمان وابن عمه ، قال تعالى فى كتابه : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)[١] وقد علمتم أنه قتل مظلوما ، وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان .

فقال أهل الشام بأجمعهم : بل نطلب بدمه ، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه ، ووثقوا له أن يبذلوا فى ذلك أنفسهم وأموالهم ، أو يدركوا بثأره ، أو يفنى الله أرواحهم قبل ذلك فلما رأى جرير من طاعة أهل الشام لماوية ما رأى ، أفزعه ذلك ، وعجب منه . وقال معاوية لجرير : إن ولانى على الشام ومصر بايعته،على أن لا يكون لأحد بعده على بيعة ، فقال : اكتب إلى على بما شئت ، وأنا أكتب معك ، فلما بلغ عليّاً الكتاب قال : هذه خديعة ، وقد سألنى المغيرة بن شعبة أن أولى معاوية الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)[٢] ثم كتب إلى جرير بالقدوم عليه ، فما قدم إلا وقد اجتمعت العساكر إلى على ، وكتب معاوية إلى عمرو ابن العاص ـ وكان معتزلا بفلسطين حين قتل عثمان ـ وكان عثمان قد عزله عن مصر فاعتزل بفلسطين ، فكتب إليه معاوية يستدعيه ليستشيره فى أموره، فركب إليه فاجتمعا على حزب على .

وقد قال عقبة بن أبى معيط فى كتاب معاوية إلى على حين سأله نيابة الشام ومصر ـ فكتب إلى معاوية يؤنبه ويلومه على ذلك ويعرض بأشياء فيه .

معاوى إن الشام شامك فاعتصم ... بشامك لا تدخل عليك الأفاعيا
وحام عليها بالقتال وبالقنا ... ولاتك مخشوش الذراعين وانيا
فإن عليـــا ناظر ما تجيبه ... فأهد له حربا يشيب النواصيا
وإلا فسلم إن فى الأمن راحة ... لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتابا يا ابن حرب كتبته ... على طمع جان عليك الدواهيا

---

(١) من الآية: ٣٣ من سورة الإسراء . (٢) من الآية : ٥١ من سورة الكهف .

سألت علياً فيه مالا تناله ولو نلته لم يبق إلا لياليا

إلى أن ترى منه التي ليس بعدها بقاء فلا تكثر عليك الأمانيا

ومثل على تعتريه بخدعة وقد كان ما جربت من قبل بانيا

ولو نشبت أظفاره فيك مرة «فراك ابن هند بعدما كنت فاريا»[1]

وقد ورد من غير وجه ، أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له : أنت تنازع عليا أم أنت مثله ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل ، وأحق بالأمر مني ، ولكن ، ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه وأمره إلي ؟ فقولوا له : فليسلم إلى قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره . فأتوا علياً فكلموه في ذلك فلم يدفع إليهم أحداً ، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية . وعن عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي وأبي جعفر الباقر قال : بعث علي رجلا إلى دمشق ينذرهم أن عليا قد نهد[2] في أهل العراق إليكم ليستعلم طاعتكم لمعاوية ، فلما قدم أمر معاوية فنودي في الناس : الصلاة جامعة ، فملأوا المسجد ، ثم صعد المنبر فقال في خطبته : إن عليا قد نهد إليكم في أهل العراق فما الرأي ؟ فضرب كل منهم على صدره ، ولم يتكلم أحد منهم ، ولا رفعوا إليه أبصارهم ، وقام ذو الكلاع[3] فقال : يا أمير المؤمنين ! عليك الرأي وعلينا الفعال ، ثم نادى معاوية في الناس : أن اخرجوا إلى معسكركم في ثلاث ، فمن تخلف بعدها فقد أحل بنفسه ، فاجتمعوا كلهم ، فركب ذلك الرجل إلى علي فأخبره ، فأمر علي مناديا فنادى : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا فصعد المنبر فقال : إن معاوية قد جمع الناس لحربكم ، فما الرأي ؟ فقال كل فريق منهم مقالة ، واختلط كلام بعضهم في بعض فلم يدر علياً مما قالوا شيئا ، فنزل عن المنبر وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب والله بها ابن آكلة الأكباد . ثم كان من أمر الفريقين بصفين ما كان ، كما ذكرناه مبسوطا في سنة ست وثلاثين . وقد قال أبو بكر بن دريد : أنبأنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال : قال معاوية : لقد وضعت رجلي في الركاب وهممت يوم صفين بالهزيمة ، فما منعني إلا قول ابن الإطنابة حيث يقول :

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

---

(١) في رواية : حذاك ابن هند بعد ما كنت حاذيا . (٢) أي نهض وتقدم

(٣) ذو الكلاع الأكبر هو يزيد بن النعمان من أذواء اليمن .

وروى البيهقى عن الإمام أحمد أنه قال : الخلفاء : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . فقيل له : فمعاوية ؟ قال : لم يكن أحد أحق بالخلافة فى زمان علىّ من علىّ ، ورحم الله معاوية . وقال على بن المدينى : سمعت سفيان بن عيينة يقول : ما كانت فى علىّ خصلة تقصر به عن الخلافة ، ولم يكن فى معاوية خصلة ينازع بها علياً . وقيل لشريك القاضى : كان معاوية حليما ؟ فقال: ليس بحليم من سفّه الحق وقاتل عليا ، رواه ابن عساكر . وقال سفيان الثورى : عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه ذكر معاوية وأنه أبى عشية عرفة ، فقال فيه قولا شديداً ، ثم بلغه أن علياً أبى عشية عرفة فتركه . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى عباد بن موسى، ثنا على بن ثابت الجزرى عن سعيد بن أبى عروبة عن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده ، فسلمت عليه وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية ، فأدخلا بيتا وأجيف [1] الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج على وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة ، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة . وروى ابن عساكر عن أبى زرعة الرازى أنه قال له رجل : إنى أبغض معاوية ، فقال له : ولم ؟ قال : لأنه قاتل علياً، فقال له أبو زرعة : ويحك! إن ربّ معاوية رحيم ، وخصم معاوية خصم كريم، فإيش دخولك أنت بينهما ؟ رضى الله عنهما . وسئل الإمام أحمد عما جرى بين على ومعاوية فقرأ (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2] وكذا قال غير واحد من السلف .

وقال الأوزاعى : سئل الحسن عما جرى بين على وعثمان فقال : كانت لهذا سابقة ولهذا سابقة ، ولهذا قرابة ولهذا قرابة ، فابتلى هذا وعوفى هذا ، وسئل عما جرى بين على ومعاوية فقال : كانت لهذا قرابة ولهذا قرابة ، ولهذا سابقة ولم يكن لهذا سابقة ، فابتليا جميعاً . وقال كلثوم بن جوشن: سأل النضر أبو عمر الحسن البصرى فقال : أبو بكر أفضل أم على ؟ فقال : سبحان الله ولا سواء ، سبقت لعلى سوابق يشركه فيها أبو بكر ، وأحدث على حوادث لم يشركه فيها أبو بكر أبو بكر أفضل. قال : فعمر أفضل أم على ؟ فقال : مثل قوله فى أبى بكر ، ثم قال : عمر أفضل . ثم قال: عثمان أفضل أم على ؟ فقال مثل قوله الأول ، ثم قال : عثمان أفضل . قال : فعلى أفضل أم معاوية ؟ فقال : سبحان الله ولا سواء : سبقت لعلى سوابق لم يشركه فيها معاوية ، وأحدث على أحداثا شركه فيها معاوية ، على أفضل من معاوية . وقد روى عن الحسن البصرى أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء : قتاله عليا ، وقتله حُجر بن عدى ، واستلحاقه زياد بن أبيه ، ومبايعته ليزيد ابنه .

(١) أى : رد ، يقال أجفت الباب ـ أى رددته . (٢) الآية : ١٤ من سورة البقرة .

وقال جرير بن عبد الحميد عن مغيرة قال : لما جاء خبر قتل علىّ إلى معاوية جعل يبكى ، فقالت له امرأته : أتبكيه وقد قاتلته ؟ فقال : ويحك! إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم ، وفى رواية أنها قالت له : بالأمس تقاتله واليوم تبكينه ؟

قلت : وقد كان مقتل على فى رمضان سنة أربعين ، ولهذا قال الليث بن سعد : إن معاوية بويع له بإيليا ، بيعة الجماعة ، ودخل الكوفة سنة أربعين . والصحيح الذى قاله ابن إسحاق والجمهور، أنه بويع له بإيليا ، فى رمضان سنة أربعين ، حين بلغ أهل الشام مقتل على ، ولكنه إنما دخل الكوفة بعد مصالحة الحسن له فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين - وهو عام الجماعة ، وذلك بمكان يقال له : أذرُح[1] ، وقيل بمسكن من أرض سواد العراق من ناحية الأنبار، فاستقل معاوية بالأمر إلى أن مات سنة ستين .

قال بعضهم : كان نقش خاتم معاوية «لكل عمل ثواب» وقيل بل كان : لا قوة إلا بالله . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وسعيد بن منصور قالا : ثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن سويد قال : صلى بنا معاوية بالنخيلة - يعنى خارج الكوفة - الجمعة فى الضحى ثم خطبنا فقال : « ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم ، فقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون » . رواه محمد بن سعد عن يعلى بن عبيد عن الأعمش به . وقال بن سعد : حدثنا عارم ثنا حماد بن يزيد عن معمر الزهرى ، أن معاوية عمل سنتين عمل عمر ما يخرم فيه ، ثم إنه بعُدَ عن ذلك وقال نعيم بن حماد : حدثنا ابن فضيل عن السرى بن إسماعيل عن الشعبى حدثنى سفيان بن الليل قال : قلت للحسن بن علىّ - لما قدم من الكوفة إلى المدينة : يا مُذِل المؤمنين ، قال : لا تقل ذلك، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تذهب الأيام والليالى حتى يملك معاوية » . فعلمت أن أمر الله واقع ، فكرهت أن تُهراق بينى وبينه دماء المسلمين .

وقال مجالد عَن الشعبى عن الحارث الأعور ، قال: قال على بعد ما رجع من صفين: أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرءوس تندُر[2] عن كواهلها كأنها الحنظل . وقال ابن عساكر بإسناده عن أبى داود الطيالسى : ثنا أيوب بن جابر عن أبى إسحاق عن الأسود ابن يزيد قال : قلت لعائشة : ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله ﷺ فى الخلافة ؟ فقالت : وما تعجب من ذلك ؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر ، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة ، وكذلك غيره من الكفار .

---

(١) أذرح : بضم الراء - بلد بالشام (٢) تندر: أى تسقط وتطيح

وقال الزهرى : حدثنى القاسم بن محمد ، أن معاوية حين قدم المدينة يريد الحج دخل على عائشة فكلمها خاليين لم يشهد كلامهما أحد إلا ذكوان أبو عمرو ـ مولى عائشة ، فقالت : أمنت أن أخبأ لك رجلاً يقتلك بقتلك أخى محمداً ؟ فقال : صدقت ، فلما قضى معاوية كلامه معها تشهدت عائشة ثم ذكرت ما بعث الله به نبيه ﷺ من الهدى ودين الحق ، والذى سن الخلفاء بعده ، وحضّت معاوية على العدل واتباع أثرهم ، فقالت فى ذلك فلم تترك له عذراً ، فلما قضت مقالتها قال لها معاوية : أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله ﷺ ، الناصحة المشفقة البليغة الموعظة ، حضضت على الخير ، وأمرت به ، ولم تأمرينا إلا بالذى هو لنا مصلحة ، وأنت أهل أن تطاعى . وتكلمت هى ومعاوية كلاماً كثيراً . فلما قام معاوية اتكأ على ذكوان وقال : والله ما سمعت خطيباً ـ ليس رسول الله ﷺ ـ أبلغ من عائشة . وقال محمد بن سعد : حدثنا خالد بن مخلد البجلى ، ثنا سليمان بن بلال ، حدثنى علقمة بن أبى علقمة عن أمه قالت : قدم معاوية بن أبى سفيان المدينة فأرسل إلى عائشة : أن أرسلى بأنبجانية[1] رسول الله ﷺ وشعره ، فأرسلت به معى أحمله ، حتى دخلت به عليه ، فأخذ الأنبجانية فلبسها ، وأخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده .

وقال الأصمعى عن الهذلى عن الشعبى قال : لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا : الحمد لله الذى أعز نصرك ، وأعلا أمرك . فما ردّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة ، فقصد المسجد وعلا المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ! فإنى والله ما وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتى ولا تحبونها ، وإنى لعالم بما فى نفوسكم من ذلك ، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مُخالسة ، ولقد رُمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه ، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك ، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت على ، وأين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على أعمالهم ؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحدمن بعدهم ! رحمة الله ورضوانه عليهم ، غير أنى سلكت بها طريقالى فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك . ولكل فيه مواكلة حسنة ومشاربة جميلة ، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة ، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، ومهما تقدم ـ مما قد علمتموه ـ فقد جعلته دَبْرَ أذنى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه ، فإنها ليست بقائبة قُوبها ، وإن السيل إذا جاء يبرى[2] ، وإن قل أغنى ، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ،

(١) الأنبجانية : كساء يتخذ من الصوف له خمل ولا علم له ، منسوب إلى موضع : اسمه أنبجان وقيل إلى منبج كمجلس ـ على غير قياس ، والميم فيه زائدة بمنزلة الألف

(٢) أى يبرى الأرض ويكتسح التراب ويقشرها والبرى : التراب

فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستيصال ، أستغفر الله لى ولكم ، أستغفر الله ثم نزل . ـ قال أهل اللغة : القائبة : البيضة ، والقوب . الفرخ ، قابت البيضة تقوب إذا انفلقت عن الفرخ[1] .

والظاهر أن هذه الخطبة كانت عام حَجّ فى سنة أربع وأربعين ، أو فى سنة خمسين ، لافى عام الجماعة . وقال الليث : حدثنى علوان بن صالح بن كيسان ، أن معاوية قدم المدينة أول حجة حجها بعد اجتماع الناس عليه ، فلقيه الحسن والحسين ورجال من قريش ، فتوجه إلى دار عثمان بن عفان ، فلما دنا إلى باب الدار صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها ، فقال معاوية لمن معه : انصرفوا إلى منازلكم فإن لى حاجة فى هذه الدار ، فانصرفوا ودخل ، فسكن عائشة بنت عثمان ، وأمرها بالكف وقال لها : يا بنت أخى إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، فبعناهم هذا بهذا ، وباعونا هذا بهذا ، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا ـ شحّوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم ، ومع كل إنسان منهم شيعته ، وهو يرى مكان شيعته ؛ فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ثم لا ندرى أتكون لنا الدائرة أم علينا ؟ وأن تكونى ابنة عثمان أمير المؤمنين ـ أحبّ إلى من أن تكونى أمة من إماء المسلمين ، ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك .

وقد روى ابن عدى من طريق على بن زيد ـ وهو ضعيف ـ عن أبى نضرة عن أبى سعيد ، ومن حديث مجالد ـ وهو ضعيف أيضا ـ عن أبى الوداك عن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه » . وأسنده أيضا من طريق الحكم بن ظهير ـ وهو متروك ـ عن عاصم عن زر عن ابن مسعود مرفوعاً . وهذا الحديث كذب بلا شك ، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك ؛ لأنهم كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم . وأرسله عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى ، قال أيوب : وهو كذب . ورواه الخطيب البغدادى بإسناد مجهول عن أبى الزبير عن جابر مرفوعاً : « إذا رأيتم معاوية يخطب على منبرى فاقبلوه فإنه أمين مأمون » .

وقد قال أبو زرعة الدمشقى عن دُحيم عن الوليد عن الأوزاعى قال : أدركت خلافة معاوية عدة من الصحابة ، منهم : أسامة ـ وسعد ـ وجابر ـ وابن عمر ـ وزيد بن ثابت ـ ومسلمة بن مخلد ـ وأبو سعيد ورافع بن خديج ـ وأبو أمامة ـ وأنس بن مالك ، ورجال أكثر وأطيب ممن سمينا بأضعاف مضاعفة ، كانوا مصابيح الهدى ، وأوعية العلم ، حضروا من الكتاب تنزيله ، ومن الدّين جديده ، وعرفوا من الإسلام مالم يعرفه غيرهم ، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويل القرآن .

---

(١) قال فى اللسان : وفى المثل : تخلصت قائبة من قوب ، يضرب مثلا للرجل إذ انفصل عن صاحبه .

ومن التابعين لهم بإحسان ما شاء الله ، منهم : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود ابن عبد يغوث ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن محيريز ، وفى أشباه لهم لم ينزعوا يدا من جماعة فى أمة محمد ﷺ .

وقال أبو زرعة ، عن دحيم عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال : لما قتل عثمان لم يكن الناس غازية تغزو ، حتى كان عام الجماعة فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية فى الصيف ويُشَتّوا بأرض الروم ، ثم تقفل وتعقبها أخرى ، وكان فى جملة من أغزى ـ ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة ، فجازبهم الخليج ، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ، ثم قفل بهم راجعاً إلى الشام ، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال : شد خناق الروم . وقال ابن وهب عن يونس عن الزهرى قال : حج معاوية بالناس فى أيام خلافته مرتين ، وكانت أيامه عشرين سنة إلا شهراً . وقال أبو بكر بن عياش : حج بالناس معاوية سنة أربع وأربعين، وسنة خمسين . وقال غيره : سنة إحدى وخمسين، فالله أعلم . وقال الليث بن سعد : حدثنا بكير عن بشر بن سعيد ، أن سعد بن أبى وقاص قال : ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب ـ يعنى معاوية ـ وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن ، ثنا المِسْوَر بن مَخْرَمة، أنه وفد على معاوية قال : فلما دخلت عليه ـ حسبت أنه قال سلمت عليه ـ فقال : ما فعل طعنك على الأئمة يا مِسْوَر ؟ قال: قلت : ارفضنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له ، فقال : لتكلمنى بذات نفسك ، قال: فلم أدع شيئا أعيبه عليه إلا أخبرته به ، فقال: لا تبرأ من الذنوب ، فهل لك من ذنوب تخاف أن تهلكك إن لم يغفرها الله لك ؟ قال : قلت : نعم ! إن لى ذنوبا إن لم تغفرها هلكت بسببها ، قال : فما الذى يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة منى ؟ فو الله لما إلى من إصلاح الرعايا وإقامة الحدود والإصلاح بين الناس والجهاد فى سبيل الله والأمور العظام التى لا يحصيها إلا الله ولا تحصيها ـ أكثر مما تذكر من العيوب والذنوب ، وإنى لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات ، والله على ذلك ما كنت لأخيّر بين الله وغيره إلا اخترت الله على غيره مما سواه ، قال : ففكرت حين قال لى ما قال ، فعرفت أنه قد خصمنى . قال : فكان المسور إذا ذكره بعد ذلك ـ دعا له بخير . وقد رواه شعيب عن الزهرى عن عروة عن المسور بنحوه .

وقال ابن دريد ، عن أبى حاتم عن العتبى قال : قال معاوية : يأيها الناس ! ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير منى ، عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل ، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم[1] فى عدوكم ، وأدرّكم حلبا . وقد رواه

(١) أى أشدكم فتكا به . يقال : نكى فى العدو ـ قتل فيهم وجرح .

أصحاب محمد عن ابن سعد عن محمد بن مصعب، عن أبى بكر بن أبى مريم عن ثابت ـ مولى معاوية ، أنه سمع معاوية يقول نحو ذلك . وقال هشام بن عمار خطيب دمشق : حدثنا عمرو بن واقد ، ثنا يونس بن حَلْبَس قال : سمعت معاوية على منبر دمشق يوم جمعة يقول : أيها الناس اعقلوا قولى ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى، أقيموا وجوهكم وصفوفكم فى الصلاة، أو ليخالفن الله بين قلوبكم ، خذوا على أيدى سفهائكم أو ليسلطن الله عليكم عدوكم فليسومنكم سوء العذاب . تصدقوا ولا يقولن الرجل إنى مُقِل ، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الغنىّ . إياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول الرجل : سمعت وبلغنى ، فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة . وقال أبو داود الطيالسىّ : حدثنا يزيد بن طهمان الرقاشى ، ثنا محمد بن سيرين قال : كان معاوية إذا حدث عن رسول الله ﷺ لم يتهم . ورواه أبو القاسم البغوى عن سويد بن سعيد عن همام ابن إسماعيل عن أبى قبيل قال: كان معاوية يبعث رجلا يقال له أبو الجيش فى كل يوم ، فيدور على المجالس يسأل : هل ولد لأحد مولود ؟ أو قدم أحد من الوفود ؟ فإذا أخبر بذلك أثبت فى الديوان ـ يعنى ليجرى عليه الرزق .

وقال غيره : كان معاوية متواضعاً ، ليس له مجالد إلا كمجالد الصبيان التى يسمونها الخاريق فيضرب بها الناس . وقال هشام بن عمار، عن عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال : رأيت معاوية فى سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفا[1] عليه قميص مرقوع الجيب، وهو يسير فى أسواق دمشق. وقال الأعمش عن مجاهد ، إنه قال : لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدى . وقال هشيم عن العوام عن جبلة بن سحيم عن ابن عمرو قال : ما رأيت أحداً أسود من معاوية ، قال: قلت : ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية أسود منه . ورواه أبو سفيان الحميرى عن العوام بن حوشب به. وقال: ما رأيت أحداً ـ بعد رسول الله ﷺ ـ أسود من معاوية ، قيل : ولا أبو بكر ؟ قال : كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه ، وهو أسود . وروى من طرق عن ابن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : عن معمر عن همام، سمعت ابن عباس يقول : ما رأيت رجلا كان أخلق بالملك من معاوية . وقال حنبل بن إسحاق : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ابن أبى عتيبة عن شيخ من أهل المدينة قال : قال معاوية : أنا أول الملوك . وقال ابن أبى خيثمة : حدثنا هارون ابن معروف ، حدثنا حمزة عن ابن شوذب قال : كان معاوية يقول أنا أول الملوك وآخر خليفة ، قلت : والسنة أن يقال لمعاوية ـ ملك ، ولا يقال له خليفة ، لحديث « سفينة الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » .

---

(١) الوصيف : الخادم والخادمة ـ والجمع وصفاء . والوصيفة كذلك ـ والجمع وصائف

وقال عبد الملك بن مروان يوماً وذكر معاوية فقال : ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه . وقال قبيصة بن جابر : ما رأيت أحداً أعظم حلما ولا أكثر سؤددا ولا أبعد أناة ولا ألين مخرجا ، ولا أرحب باعاً بالمعروف ـ من معاوية . وقال بعضهم : أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً ، فقيل له : و سطوت عليه ! فقال : إنى لأستحيي من الله أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى . وفى رواية ، قال له رجل : يا أمير المؤمنين ما أحلمك ! فقال : إنى لأستحيي أن يكون جُرم أحد أعظمَ من حِلمى .

وقال الأصمعى عن الثورى قال : قال معاوية : إنى لأستحيي أن يكوّن ذنب أعظم من عفوى ، أو جهل أكبر من حلمى ، أو تكون عورة لا أواريها بسترى . وقال الشعبى والأصمعى عن أبيه قالا : جرى بين رجل يقال له أبو الجهم ، وبين معاوية كلام ، فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غَمزٌ لمعاوية ، فأطرق معاوية ، ثم رفع رأسه فقال : يا أبا الجهم ! إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ، ويأخذ أخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس . ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال ، فقال أبو الجهم فى ذلك يمدح معاوية :

نميل على جوانبه كأنا نميل - إذا نميل - على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا

وقال الأعمش : طاف الحسن بن على مع معاوية ، فكان معاوية يمشى بين يديه ، فقال الحسن : ما أشبه أليتيه بأليتى هند ؟ ! فالتفت إليه معاوية فقال : أما إن ذلك كان يعجب أبا سفيان . وقال ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم لمعاوية : إن فلانا يشتمنى ، فقال له : طأطىء لها تمر فتجاوزك . وقال ابن الأعرابى : قال رجل لمعاوية : ما رأيت أبذل منك ، فقال معاوية : بلى من واجه الرجال بمثل هذا . وقال أبو عمرو بن العلاء : قال معاوية : ما يسرنى بذل الكرم حمر النعم . وقال : ما يسرنى بذل الحلم عز النصر . وقال بعضهم : قال معاوية : يابنى أمية فارقوا قريشا بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما ، فأرجع وهو لى صديق ، إن استنجدته أنجدنى ، وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرما . وقال : آفة الحلم الذل . وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم . وقال عبد الله بن الزبير : لله در ابن هند ! إن كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا . وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا متعنا به ما دام فى هذا الجبل حجر ـ وأشار إلى أبى قبيس . وقال رجل لمعاوية : من أسود الناس ؟ فقال : أسخاهم نفسا حين يسأل ، وأحسنهم فى المجالس

خلقا ، وأحلمهم حين يستجهل . وقال أبو عبيدة ـ معمر بن المثنى : كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً .

فما قتلَ السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن ملئت غيظاً ... على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم

[وقال القاضي الماوردي في الأحكام السلطانية : وحكى أن معاوية أتى بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد من بينهم ، فقال :

يميني أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مكانا يشينها
يدي كانت الحسناء لو تم سترها ... ولا تعدم الحسناء عيباً يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية : كيف أصنع بك ؟ قد قطعنا أصحابك ؟ فقالت أم السارق : يا أمير المؤمنين ! اجعلها في ذنوبك التي تتوب منها ، فخلى سبيله فكان أول حد ترك في الإسلام][1] . وعن ابن عباس أنه قال : قد علمت بم غلب معاوية الناس ؟ كانوا إذا طاروا وقع ، وإذا وقع طاروا . وقال غيره : كتب معاوية إلى نائبه زياد : إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدةً باللين فيمرحوا ، ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك ، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه . وقال أبو مسهر عن سعيد ابن عبد العزيز قال : قضى معاوية عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار ، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه الناس . وقال هشام بن عروة عن أبيه قال : بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها فلم يبق منها درهم ، فقالت لها خادمتها : هلا أبقيت لنا درهما نشترى به لحماً تفطرى عليه ؟ فقالت : لو ذكرتيني قبل أن تفرغ لفعلت . وقال عطاء : بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة . بطوق قيمته مائة ألف فقبلته .

وقال زيد بن الحباب عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال : قدم الحسن ابن علي على معاوية فقال له : لأجيزنك بجائزة لم يجزها أحد كان قبلي ، فأعطاه أربعمائة ألف ألف . ووفد إليه مرة الحسن والحسين فأجازهما على الفور بمائتي ألف ، وقال لهما : ما أجاز بهما أحد قبلي ، فقال له الحسين : ولم تعط أحداً أفضل منا . وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا يوسف

---

(١) ما بين القوسين غير وارد في بعض النسخ .

ابن موسى ، ثنا جرير عن مغيرة قال : أرسل الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر إلى معاوية يسألانه المال ، فبعث إليهما - أو إلى كل منهما - بمائة ألف ، فبلغ ذلك علياً فقال لهما : ألا تستحيان ؟ رجل نطعن في عينه غدوةً وعشيةً تسألانه المال ؟ فقالا : بل حرمتنا أنتَ وجاد هُوَ لنا .
وروى الأصمعي قال : وفد الحسن وعبد الله بن الزبير على معاوية ، فقال للحسن : مرحباً وأهلا بابن رسول الله ، وأمر له بثلاثمائة ألف ، وقال لابن الزبير : مرحباً وأهلا بابن عمة رسول الله ، وأمر له بمائة ألف . وقال أبو مروان المرواني : بعث معاوية إلى الحسن بن علي بمائة ألف فقسمها على جلسائه ، وكانوا عشرة ، فأصاب كل واحد عشرة آلاف . وبعث إلى عبد الله بن جعفر بمائة ألف فاستوهبتها منه امرأته فاطمة فأطلقها لها ، وبعث إلى مروان بن الحكم بمائة ألف فقسم منها خمسين ألفاً وحبس خمسين ألفاً . وبعث إلى ابن عمر بمائة ألف ففرق منها تسعين واستبقى عشرة آلاف ، فقال معاوية : إنه لمقتصد يحب الاقتصاد . وبعث إلى عبد الله بن الزبير بمائة ألف فقال للرسول : لم جئت بها بالنهار ؟ هلا جئت بها بالليل ! ثم حبسها عنده ولم يعط منها أحداً شيئاً ، فقال معاوية : إنه لخِبٌ ضَبٌّ ، كأنك به قد رفع ذنبه وقطع حبله (١) .

وقال ابن دأب : كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف ، ويقضي له معها مائة حاجة ، فقدم عليه عاماً فأعطاه المال وقضى له الحاجات ، وبقيت منها واحدة ، فبينما هو عنده إذ قدم أصبهبذ سجستان يطلب من معاوية أن يملكه على تلك البلاد ، ووعد من قضى له هذه الحاجة من ماله ألف ألف ، فطاف على رءوس الأشهاد والأمراء من أهل الشام وأمراء العراق - ممن قدم مع الأحنف بن قيس ، فكلهم يقولون : عليك بعبد الله بن جعفر ، فقصده الدهقان فكلم فيه ابن جعفر معاوية فقضى حاجته تكملة المائة حاجة ، وأمر الكاتب فكتب له عهده ، وخرج به ابن جعفر إلى الدهقان فسجد له وحمل إليه ألف ألف درهم ، فقال له ابن جعفر : اسجد لله واحمل مالك إلى منزلك ، فإنا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن ، فبلغ ذلك معاوية فقال : لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق ، أبت بنو هاشم إلا كرماً . وقال غيره : كان لعبد الله بن جعفر على معاوية في كل سنة ألف ألف ، فاجتمع عليه في بعض الأوقات دين خمسمائة ألف ، فألح عليه غرماؤه فاستنظرهم حتى يقدم على معاوية فيسأله أن يسلفه شيئاً من العطاء ، فركب إليه فقال له : ما أقدمك يا ابن جعفر ؟ فقال : دين ألح علي غرماؤه ، فقال : وكم هو ؟ قال : خمسمائة ألف . فقضاها عنه وقال له : إن الألف ألف ستأتيك في وقتها .

وقال ابن سعيد : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا ابن هلال عن قتادة قال : قال معاوية : يا عجبا للحسن بن علي ! ! شرب شربة عسل يمانية بماء رومة فقضى نحبه ، ثم قال لابن عباس :

---

(١) الخب - بالفتح والكسر - الرجل الخداع ، والضب : المملوء حقداً وضغناً ومرارة .

لا يسوؤك الله ولا يحزنك فى الحسين بن على ، فقال ابن عباس لمعاوية : لا يحزننى الله ولا يسوءنى ما أبقى الله أمير المؤمنين ، قال : فأعطاه ألف ألف درهم وعروضا وأشياء ، وقال : خذها فاقسمها فى أهلك .

وقال أبو الحسن المدائنى. عن سلمة بن محارب قال : قيل لمعاوية: أيكم كان أشرف؟ أنتم أو بنو هاشم ؟ قال : كنا أكثر أشرافا وكانوا هم أشرف ، فيهم واحد لم يكن فى بنى عبد مناف مثل هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عدداً وأكثر أشرافا ، وكان فيهم عبد المطلب لم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافا ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبى ، فجاء نبى لم يسمع الأولون والآخرون بمثله ــ محمد ﷺ ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف ؟ . وروى ابن أبى خيثمة عن موسى بن إسماعيل عن حماد ابن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ، أن عمرو بن العاص قص على معاوية مناماً رأى فيه أبا بكر وعمر وعثمان وهم يحاسبون على ما ولوه فى أيامهم ، ورأى معاوية وهو موكل به رجلان يحاسبانه على ما عمل فى أيامه ، فقال له معاوية : وما رأيت ثم دنانير مصر ؟. وقال ابن دريد عن أبى حاتم عن العتبى قال : دخل عمرو على معاوية وقد ورد عليه كتاب فيه تعزية له فى بعض الصحابة ، فاسترجع معاوية ، فقال عمرو بن العاص :

يموت الصالحون وأنت حىٌّ ... تخطاك المنايا لا تموت[1]

فقال له معاوية :

أترجو أن أموت وأنت حى ... فلست بميت حتى تموت[1]

وقال ابن السماك: قال معاوية : كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها . وقال الزهرى عن عبد الملك عن أبى بحرية قال: قال معاوية : المروءة فى أربع ؛ العفاف فى الإسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الإخوان ، وحفظ الجار . وقال أبو بكر الهذلى : كان معاوية يقول الشعر، فلما ولى الخلافة قال له أهله: قد بلغت الغاية فماذا تصنع بالشعر؟ فارتاح يوما فقال:

صرمت سفاهتى وأرحت حلمى ... وفىَّ على تحملى اعتراض

على أنى أجيب إذا دعتنى ... إلى حاجاتها الحدق المراض

وقال مغيرة عن الشعبى : أول من خطب جالساً معاوية حين كثر شحمه وعظم بطنه . وكذا روى عن مغيرة عن إبراهيم أنه قال : أول من خطب جالساً يوم الجمعة معاوية . وقال أبو المليح عن ميمون . أول من جلس على المنبر معاوية واستأذن الناس فى الجلوس . وقال قتادة، عن سعيد

(١) الذى فى مروج الذهب : أن قائل البيت الأول معاوية، وقائل الثانى عمرو بن العاص

ابن المسيب : أول من أذن وأقام يوم الفطر والنحر معاوية . وقال أبو جعفر الباقر : كانت أبواب مكة لا أغلاق لهـا ، وأول من اتخذ لها الأبواب معاوية . وقال أبو اليمان عن شعيب عن الزهري : مضت السنة أن لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر ، وأول من ورث المسلم من الكافر معاوية ، وقضى بذلك بنو أمية بعـده ، حتى كان عمر بن عبد العزيز فراجع السنة ، وأعاد هشام ما قضى به معاوية وبنو أميـة من بعـده ، وبه قال الزهري . ومضت السنة أن دية المعاهد كدية المسلم ، وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف ، وأخذ النصف لنفسه .

وقال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال : سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي : اسمع يا زهري ، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحّم على معاوية ـ كان حقاً على الله أن لا يناقشه الحساب . وقال سعيد بن يعقوب الطالقاني : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : تراب في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز . وقال محمد بن يحيى بن سعيد : سئل ابن المبارك عن معاوية فقال : ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ : سمع الله لمن حمده ، فقال خلفه : ربنا ولك الحمد . فقيل له : أيهما أفضل ؟ هو أو عمر ابن عبد العزيز ؟ فقال : لتراب في منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر ابن عبد العزيز . وقال غيره عن ابن المبارك قال معاوية : عندنا محنة ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم ـ يعني الصحابة . وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره : سئل المعافى بن عمران ، أيهما أفضل ؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فغضب وقال للسائل : أتجعل رجلا من الصحابة مثل رجل من التابعين ؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله ، وقد قال رسول الله ﷺ : « دعوا لي أصحابي وأصهاري ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وكذا قال الفضل بن عتيبة .

وقال أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي : معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه . وقال الميموني : قال لي أحمد بن حنبل : يا أبا الحسن ! إذا رأيت رجلا يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام . وقال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله يسأل عن رجل تنقص معاوية وعمرو بن العاص ، أيقال له رافضي ؟ فقال : إنه لم يجترىء عليهما إلا وله خبيئة سوء ، وما انتقص أحد أحداً من الصحابة إلا وله داخلة سوء . وقال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال : ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية ، فإنه ضربه أسواطاً . وقال بعض السلف : بينا أنا على جبل بالشام إذ سمعت هاتفاً يقول : من أبغض الصديق فذاك زنديق ، ومن أبغض عمر فإلى جهنم زمر ،

ومن أبغض عثمان فذاك خصمه الرحمن . ومن أبغض على ، فذاك خصمه النبى ، ومن أبغض معاوية سحبته الزبانية ، إلى جهنم الحامية ، يرمى به فى الحامية الهاوية .

قال بعضهم : رأيت رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ، إذ جاء رجل فقال عمر : يا رسول الله ! هذا يتنقصنا، فكأنه انتهره رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنى لا أتنقص هؤلاء ، ولكن هذا ــ يعنى معاوية ــ فقال : « ويلك ! أوليس هو من أصحابى ؟ قالها ثلاثا ، ثم أخذ رسول الله ﷺ حربة فناولها معاوية فقال : جؤبها فى لبته » فضربه بها وانتبهت فبكرت إلى منزلى فإذا ذلك الرجل قد أصابته الذبحة من الليل ومات ــ وهو راشد الكندى .

وروى ابن عساكر عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول : معاوية من الصحابة ، من العلماء الكبار ، ولكن ابتلى بحب الدنيا . وقال العتبى : قيل لمعاوية : أسرع إليك الشيب ؟ فقال : كيف لا ولا أزال أرى رجلا من العرب قائما على رأسى يلقح لى كلاماً يلزمنى جوابه ؟ فإن أصبت لم أحمد ، وإن أخطأت سارت بها البرد . وقال الشعبى وغيره : أصابت معاوية فى آخر عمره اللَّقوة [وروى ابن عساكر فى ترجمة خديج الخصى مولى معاوية قال : اشترى معاوية جارية بيضاء جميلة فأدخلتها عليه مجردة ، وبيده قضيب ، فجعل يهوى به إلى متاعها ــ يعنى فرجها ــ ويقول : هذا المتاع لو كان لى متاع ، اذهب بها إلى يزيد بن معاوية ، ثم قال: لا ــ ! ادع لى ربيعة ابن عمر الجرشى ــ وكان فقيها ــ فلما دخل عليه قال : إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك ، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد ، قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فإنها لا تصلح له ، فقال : نعم ما رأيت ، قال : ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزارى ــ مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وكان أسود، فقال له : بيض بها ولدك ، وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر إليها بشهوة ، ولكنه استضعف نفسه عنها ، فتحرج أن يهبها من ولده يزيد، لقوله تعالى (ولا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّساء)[1] وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمرو الجرشى الدمشقى][2] .

[وذكر ابن جرير ، أن عمرو بن العاص قدم فى وفد أهل مصر إلى معاوية ، فقال لهم فى الطريق : إذا دخلتم على معاوية فلا تسلموا عليه بالخلافة فإنه لا يحب ذلك ، فلما دخل عليه عمرو قبلهم ، قال معاوية لحاجبه : أدخلهم ، وأوعز إليه أن يخوفهم فى الدخول ويرعبهم ، وقال : إنى لأظن عمراً قد تقدم إليهم فى شىء . فلما أدخلوهم عليه ــ وقد أهانوهم ــ جعل أحدهم إذا دخل يقول : السلام عليك يا رسول الله ، فلما نهض عمرو من عنده قال : قبحكم الله ! نهيتكم عن أن تسلموا عليه بالخلافة فسلمتم عليه بالنبوة .

(١) من الآية : ٢٢ من سورة النساء (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

وذكر أن رجلاً سأل من معاوية أن يساعده فى بناء داره باثنى عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية : أين دارك ؟ قال : بالبصرة ، قال : وكم اتساعها ؟ قال : فرسخان فى فرسخين ، قال : لا تقل دارى بالبصرة ، ولكن قل : البصرة فى دارى . وذكر أن رجلا دخل بابن معه فجلسا على سماط معاوية، فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعاً ، فجعل معاوية يلاحظه ، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن ، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدخول ، فقال له معاوية : أين ابنك التِّلْقامة⁽¹⁾ ؟ قال : اشتكى . قال : قد علمت أن أكله سيورثه داء . قال : ونظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة ، فجعل يزدريه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك لا تخاطب العباءة ، إنما يخاطبك من فيها . وقال معاوية : أفضل الناس من إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر غفر ، وإذا وعد أنجز ، وإذا أساء استغفر . وكتب رجل من أهل المدينة إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه : إذا الرجال ولدت أولادها ، واضطربت من كبر أعضادها، وجعلت أسقامها تعتادها ـ فهى زروع قد دنا حصادها. فقال معاوية: نعى إلى نفسى[2]].

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى هارون بن سفيان عن عبد الله السهمى . حدثنى ثمامة بن كلثوم، أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ! إن من زرع قد استحصد ، وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى خير منى ، وإنما يليكم من هو شر منى ، كما كان من وليكم قبلى خيراً منى.

ويا يزيد ! إذا دنا أجلى فولِّ غسلى رجلا لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ ، وقراضة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفى وفمى، وأذنى وعينى، واجعل ذلك الثوب مما يلى جلدى دون لفافى.

ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال بعضهم : لما احتضر معاوية جعل يقول :

لعمرى لقد عمرت فى الدهر برهةً ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر

وأعطيت حر المال والحكم والنهى ... ولى سلمت كل الملوك الجبابر

فأضحى الذى قد كان مما يسرُّنى ... كحكم مضى فى المزمنات الغوابر

فياليتنى لم أعن فى الملك ساعة ... « ولم أسع فى لذات عيش نواضر »[3]

وكنت كذى طمرين عاش ببُلغة ... « فلم يك حتى زار ضيق المقابر »[4]

وقال محمد بن سعد . أنبأنا على بن محمد عن محمد بن الحكم عمن حدثه ، أن معاوية لما احتضر

---

(١) التلقام والتلقامة ـ وتشدد قافهما ـ العظيم اللقم . (٢) مابين القوسين سقط من بعض النسخ

(٣) ويروى : « ولم أك فى اللذات أعشى النواظر »

(٤) ويروى : من الدهر حتى زار أهل المقابر .

أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال ـ كأنه أراد أن يطيب له ـ لأن عمر بن الخطاب قاسم عماله.

وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البرد ، فكان إذا لبس أو تغطى بشىء ثقيل يغمه ، فاتخذ له ثوباً من حواصل الطير ، ثم ثقل عليه بعد ذلك ، فقال : تباً لك من دار ، ملكتك أربعين سنة ، عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هذا حالى فيك ، ومصيرى منك ، تباً للدنيا ولمحبيها . وقال محمد بن سعد : أنبأنا أبو عبيدة عن أبى يعقوب الثقفى عن عبد الملك بن عمير قال : لما ثقل معاوية وتحدث الناس بموته قال لأهله : احشوا عينى إثمداً ، وأوسعوا رأسى دهناً ، ففعلوا وغرقوا وجهه بالدهن ، ثم مهد له مجلس وقال : اسندونى ، ثم قال : ايذنوا للناس فليسلموا على قياما ولا يجلس أحد ، فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً فيراه مكتحلا متدهناً فيقول متقول الناس : ان أمير المؤمنين لما به وهو أصح الناس ، فلما خرجوا من عنده قال معاوية فى ذلك:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

قال : وكان به النفاثة[1] ـ يعنى اللقوة ـ فمات من يومه ذلك رحمه الله . وقال موسى بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : ـ ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى ، ولم أل من هذا الأمر شيئاً . وقال أبو السائب المخزومى : لما حضرت معاوية الوفاة تمثل بقول الشاعر :

ان تناقش يكن نقاشك يارب عذابا لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوز تجاوز العفو واصفح عن مسىء ذنوبه كالتراب

وقال بعضهم : لما احتضر معاوية جعل أهله يقلبونه فقال لهم : أى شيخ تقلبون إن نجاه الله من عذاب النار غداً ؟

وقال محمد بن سيرين : جعل معاوية لما احتضر يضع خداً على الأرض، ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ، ويبكى ويقول : اللهم إنك قلت فى كتابك (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء)[2] اللهم فاجعلنى فيمن تشاء أن تغفر له. وقال العتبى عن أبيه : تمثل معاوية عند موته بقول بعضهم وهو فى السياق :

هو الموت لا منجى من الموت والذى نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك . ورواه ابن دريد عن أبى

(١) النفاثة : ما ينفثه المصدور من فيه، وهو شبيه بالنفخ. وفى نسخة: النقابة وهى داء يصيب الإنسان من طول الضجعة

(٢) من الآية: ٤٨ من سورة النساء

حاتم عن أبى عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء فذكر مثله ، وزاد : ثم مات . وقال غيره : أغمى عليه ثم أفاق فقال لأهله : اتقوا الله فإن الله تعالى يقى من اتقاه ، ولا يقى من لا يتقى، ثم مات رحمه الله.
وقد روى أبو مخنف عن عبد الملك بن نوفل قال : لما مات معاوية صعد الضحاك بن قيس المنبر فخطب الناس ـ وأكفانُ معاوية على يديه ـ فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إن معاوية الذى كان سُور العرب و ونهم وجدهم ، قطع الله به الفتنة ، وملَّكه على العباد ، وفتح به البلاد . ألا إنه قد مات وهذه أكفانه ، فنحن مُدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومُخلّون بينه وبين عمله ، ثم هول البرزخ إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى . ثم نزل وبعث البريد إلى يزيد بن معاوية يعلمه ويستحثه على المجىء .

ولا خلاف أنه توفى بدمشق فى رجب سنة ستين . فقال جماعة : ليلة الخميس للنصف من رجب سنة ستين ، وقيل ليلة الخميس لثمان بقين من رجب سنة ستين . قاله ابن إسحاق وغير واحد . وقيل لأربع خلت من رجب ، قاله الليث . وقال سعد بن إبراهيم لمستهل رجب ، قال محمد ابن إسحاق والشافعى : صلى عليه ابنه يزيد . وقد ورد من غير وجه أنه أوصى إليه أن يكفن فى ثوب رسول الله ﷺ الذى كساه إياه ، وكان مُدّخراً عنده لهذا اليوم ، وأن يجعل ما عنده من شعره وقلامة أظفاره فى فمه وأنفه وعينيه وأذنيه . وقال آخرون : بل كان ابنه يزيد غائباً فصلى عليه الضحاك بن قيس بعد صلاة الظهر بمسجد دمشق ، ثم دفن ، فقيل بدار الإمارة ـ وهى الخضراء ، وقيل بمقابر باب الصغير ، وعليه الجمهور، فالله أعلم . وكان عمره إذ ذاك ثمانياً وسبعين سنة ، وقيل جاوز الثمانين وهو الأشهر، والله أعلم . ثم ركب الضحاك بن قيس فى جيش وخرج ليتلقى يزيد بن معاوية ـ وكان يزيد بحوارين ـ فلما وصلوا إلى ثَنِية العُقاب تلقتهم أثقال يزيد ، وإذا يزيد راكب على بختى وعليه الحزن ظاهر ، فسلم عليه الناس بالإمارة وعزّوه فى أبيه ، وهو يخفض صوته فى رده عليهم ، والناس صامتون لا يتكلم معه إلا الضحاك بن قيس ، فانتهى إلى باب توما ، فظن الناس أنه يدخل منه إلى المدينة ، فأجازه مع السور حتى انتهى إلى الباب الشرقى ، فقيل : يدخل منه لأنه باب خالد ، فجازه حتى أتى الباب الصغير فعرف الناس أنه قاصد قبرَ أبيه ، فلما وصل إلى باب الصغير ترجل عند القبر ثم دخل فصلى على أبيه بعد مادفن ثم انفتل، فلما خرج من المقبرة أتى بمراكب الخلافة فركب .

ثم دخل البلد وأمر فنودى فى الناس : إن الصلاة جامعة ، ودخل الخضراء فاغتسل ولبس ثياباً حسنة، ثم خرج فخطب الناس أول خطبة خطبها وهو أمير المؤمنين ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ! إن معاوية كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه إليه ، وهو خير

ممن بعده ودون من قبله ، ولا أزكيه على الله عز وجل فإنه أعلم به، إن عفى عنه فبرحمته ، وإن عاقبه فبذنبه ، وقد وليت الأمر من بعده ، ولست آسى على طلب ، ولا أعتذر من تفريط ، وإذا أراد الله شيئاً كان . وقال لهم فى خطبته هذه : وإن معاوية كان يغزيكم فى البحر ، وإنى لست حاملا أحداً من المسلمين فى البحر ، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً أحداً بأرض الروم ، وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثا وأنا أجمعه لكم كله . قال : فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً . وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت الشافعى يقول : بعث معاوية وهو مريض إلى ابنه يزيد فلما جاءه البريد ركب وهو يقول :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا فى صحيفتكم ... قال : الخليفة أمسى مثقلا وجعا

فادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقلعا

ثم انبعثنا إلى حوض مضمرة ... نرمى الفجاج بها ما نأتلى سرعا

فما نبالى إذا بلغن أرحلنا ... ما مات منهن بالمرمات أو ظلعا

وزاد غيره :

لما انتهينا وباب الدار منصفق ... بصوت رملة ريع القلب فانصدعا

من لا تزل نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعا خليطا سالمين معا

أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا

لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا ... أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا

وقال الشافعى : سرق يزيد هذين البيتين من الأعشى ، ثم ذكر أنه دخل قبل موت أبيه دمشق وأنه أوصى إليه ، وهذا قد قاله ابن إسحاق وغير واحد ، ولكن الجمهور على أن يزيد لم يدخل دمشق إلا بعد موت أبيه ، وأنه صلى على قبره بالناس كما قدمناه ، والله أعلم .

وقال أبو الورد العنبرى يرثى معاوية رضى الله عنه :

ألا أنعى معاوية بن حرب ... نعاة الحل للشهر الحرام

نعاه الناعيات بكل فج ... خواضع فى الأزمة كالسهام

فهاتيك النجوم وهن خرس ... ينحن على معاوية الهمام

وقال أيمن بن خريم يرثيه أيضا :

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا

فإنك لو شهدت بكاء هند ورملة إذ يصفقن الخـــدودا
بكيت بكاء مُعـــولة قريح أصاب الدهر واحدها الفريدا

ذكر من تزوج من النساء، ومن ولد له من الأولاد. الذكور والأناث

كان له عبد الرحمن وبه كان يكنى ، وعبد الله وكان ضعيف العقل ، وأمهما فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، وقد تزوج بأختها منفردة عنها بعدها ، وهى كنود بنت قرظة وهى التى كانت معه حين افتتح قبرص . وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية فأعجبته وقال لميسون بنت بحدل : ادخلى فانظرى إلى ابنة عمك ، فدخلت فسألها عنها فقالت : إنها لكاملة الجمال ، ولكن رأيت تحت سرتها خالا ، وإنى لأرى هذه يقتل زوجها ويوضع رأسه فى حجرها ، فطلقها معاوية فتزوجها بعده حبيب بن سلمة الفهرى ، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشير ، فقتل ووضع رأسه فى حجرها .

ومن أشهر أولاده : يزيد وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة الكلبى ، وهى التى دخلت على نائلة فأخبرت معاوية عنها بما أخبرته ، وكانت حازمة عظيمة الشأن جمالا ورياسة وعقلا وديناً ، دخل عليها معاوية يوماً ومعه خادم خصى فاستترت منه وقالت : ما هذا الرجل معك ؟ فقال : إنه خصى فاظهرى عليه ، فقالت : ما كانت المثلة لتحل له ما حرم الله عليه ، وحجبته عنها . وفى رواية أنها قالت له : إن مجرد مثلتك له لن تحل ما حرمه الله عليه ، فلهذا أولى الله إبنها يزيد الخلافة بعد أبيه . وذكر ابن جرير أن ميسون هذه ولدت لمعاوية بنتا أخرى يقال لها : أمة رب المشارق ، ماتت صغيرة .

ـ ورملة تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان، كانت دارها بدمشق عند عقبة السمك ـ تجاه زقاق الرمان ، قاله ابن عساكر . قال : ولها طاحون معروفة إلى الآن .

ـ وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر ، فلما أدخلت عليه بالخضراء جوار الجامع، أرادها على نفسها فتمنعت عليه وأبت أشد الإباء ، فضربها فصرخت ، فلما سمع الجوارى صوتها صرخن وعلت أصواتهن ، فسمع معاوية فنهض إليهن فاستعلمهن ما الخبر ؟ فقلن : سمعنا صوت سيدتنا فصحنا ، فدخل فإذا بها تبكى من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك ! ! مثل هذه تضرب فى مثل هذه الليلة ؟ اخرج من ههنا ، فخرج ابن عامر وخلا بها معاوية فقال لها : يا بنية إنه زوجك الذى أحله الله لك ، أو ما سمعت قول الشاعر :

من الخفرات البيض أما حرامها فصعب وأما حلها فذلول ؟

ثم خرج معاوية من عندها وقال لزوجها : ادخل فقد مهدت لك خلقها ووطأته . فدخل ابن عامر فوجدها قد طابت أخلاقها ، فقضى حاجته منها ، رحمهم الله تعالى .

فصل

[وكان على قضاء معاوية أبو الدرداء بولاية عمر بن الخطاب ؛ فلما حضره الموت أشار على معاوية بتولية فضالة بن عبيد ، ثم مات فضالة فولى أبا إدريس الخولانى . وكان على حرسه رجل من الموالى يقال له: المختار، وقيل مالك ، ويكنى أبا المخارق ـ مولى لحمير . وكان معاوية أول من اتخذ الحرس وعلى حجابته سعد مولاه . وعلى الشرطة قيس بن حمزة ، ثم زميل بن عمرو العذرى ، ثم الضحاك بن قيس الفهرى . وكان صاحب أمره سرجون بن منصور الرومى . وكان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم وختم الكتب][1] .

فصل

وممن ذكر أنه توفى فى هذه السنة ـ أعنى سنة ستين من الهجرة النبوية :

صفوان بن المعطل بن رحضة بن المؤمل بن خزاعى ـ أبو عمرو ، وأول مشاهده المريسيع ، وكان فى الساقة يومئذ ، وهو الذى رماه أهل الإفك بأم المؤمنين فبرأه الله وإياها مما قالوا ، وكان من سادات المسلمين ، وكان ينام نوما شديداً ، حتى كان ربما طلعت عليه الشمس وهو نائم لا يستيقظ ، فقال له رسول الله ﷺ : « إذا استيقظت فصلِّ » وقد قتل صفوان شهيداً .

أبو مسلم الخولانى عبد بن ثوب الخولانى ـ من خولان ببلاد اليمن . دعاه الأسود العنسى إلى أن يشهد أنه رسول الله فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا أسمع ، أشهد أن محمداً رسول الله ، فأجج له ناراً وألقاه فيها فلم تضره ، وأنجاه الله منها فكان يشبه بإبراهيم الخليل ، ثم هاجر فوجد رسول الله ﷺ قد مات ، فقدم على الصديق فأجلسه بينه وبين عمر وقال له عمر : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى فى أمة محمد من فُعل به كما فُعل بإبراهيم الخليل ، وقبَّله بين عينيه ، وكانت له أحوال ومكاشفات ، والله سبحانه أعلم .

ويقال إنه توفى فيها النعمان بن بشير ، والأظهر أنه مات بعد ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

(١) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ

إمارة يزيد بن معاوية، وما جرى فى أيامه من الحوادث والفتن

بويع له الخلافة بعد أبيه فى رجب سنة ستين ، وكان مولده سنة ست وعشرين ، فكان يوم بويع ـ ابن أربع وثلاثين سنة ، فأقر نواب أبيه على الأقاليم ، لم يعزل أحداً منهم ، وهذا من ذكائه .

قال هشام بن محمد الكلبي، عن أبى مخنف لوط بن يحيى الكوفى الأخبارى: ولى يزيد فى هلال رجب سنة ستين ، وأمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، وأمير الكوفة النعمان بن بشير ، وأمير البصرة عُبَيد الله بن زياد ، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يكن ليزيد همة حين ولى ـ إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية البيعة ليزيد ، فكتب إلى نائب المدينة الوليد بن عتبة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد ، فإن معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه ، وخوّله ومكّن له ، فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمه الله ، فقد عاش محموداً ومات بَرًّا تقيا ، والسلام .

وكتب إليه فى صحيفة كأنها أذن الفأرة : أما بعد فخُذْ حُسينا وعبد الله بنَ عمر وعبد الله ابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخصة حتى يبايعوا والسلام .

فلما أتاه نعى معاوية فَظِعَ به وكَبُر عليه ، فبعث إلى مروان فقرأ عليه الكتاب واستشاره فى أمر هؤلاء النفر ، فقال : أرى أن تدعُوهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ـ إلى البيعة ، فإن أبَوا ضربت أعناقهم . فأرسل من فوره عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إلى الحسين وابن الزبير ـ وهما فى المسجد ـ فقال لهما : أجيبا الأمير ، فقالا : انصرف الآن نأتيه ، فلما انصرف عنهما قال الحسين لابن الزبير : إنى أرى طاغيتهم قد هلك ، قال ابن الزبير : وأنا ما أظن غيره . قال : ثم نهض حسين فأخذ معه مواليه وجاء باب الأمير فاستأذن فأذن له ، فدخل وحده ، وأجلس مواليه على الباب ، وقال : إن سمعتم أمراً يُريبُكم فادخلوا ، فسلّم وجلس ومروان عنده ، فناوله الوليد بن عتبة الكتاب ونعى إليه معاوية ، فاسترجع وقال : رحم الله معاوية ، وعظّم لك الأجر ، فدعاه الأمير إلى البيعة فقال له الحسين : إن مثلى لا يبايع سِرًّا ، وما أراك تجتزىء منى بهذا ، ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً ، فقال له الوليد ـ وكان يحب العافية : فانصرف على اسم الله حتى تأتينا فى جماعة الناس . فقال مروان للوليد : والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه ، فاحبسه ولا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربت عنقه ، فنهض الحسين وقال : يا ابنَ الزرقاء أنت تقتلنى ! كذبت والله وأثمت . ثم انصرف إلى داره ، فقال مروان للوليد : والله لا تراه بعدها أبداً ، فقال الوليد : والله يا مروان ما أحبّ أن لى الدنيا

وما فيها وأنى قتلتُ الحسين ، سبحان الله ! أقتل حسينا أن قال : لا أبايع ؟ والله إنى لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة .

وبعث الوليد إلى عبد الله بن الزبير فامتنع عليه وماطله يوما وليلة ، ثم إن ابن الزبير ركب فى مواليه واستصحب معه أخاه جعفرا ، وسار إلى مكة على طريق الفُرع ، وبعث الوليد خلف ابن الزبير الرجال والفرسان فلم يقدروا على ردّه ، وقد قال جعفر لأخيه عبد الله وهما سائران متمثلا بقول صَبِرة الحنظلىّ :

وكلّ بنى أمٍّ سيُمْسُون ليلة ولم يبقَ من أعقابهم غيرُ واحد

فقال : سبحان الله ! ما أردت إلى هذا ؟ فقال : والله ما أردت به شيئا يسوءك ، فقال : إن كان إنما جرى على لسانك فهو أكره إلىّ ، قالوا وتطير به .

وأما الحسين بن على ، فإن الوليد تشاغل عنه بابن الزبير ، وجعل كلما بعث إليه يقول : حتى تنظر وننظر ، ثم جمع أهله وبنيه وركب ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب من هذه السنة ، بعد خروج ابن الزبير بليلة ، ولم يتخلف عنه أحد من أهله سوى محمد بن الحنفية ؛ فإنه قال له : والله يا أخى لأنت أعزّ أهل الأرض علىّ ، وإنى ناصح لك لا تدخلن مصراً من هذه الأمصار ، ولكن اسكن البوادى والرمال ، وابعث إلى الناس ، فإذا بايعوك واجتمعوا عليك فادخل المصر ، وإن أبيت إلا سكنى المصر فاذهب إلى مكة ، فإن رأيت ما تحبّ وإلا ترفعت إلى الرمال والجبال فقال له : جزاك الله خيراً فقد نصحت وأشفقت ، وسار الحسين إلى مكة فاجتمع هو وابن الزبير بها.

وبعث الوليد إلى عبد الله بن عمر فقال : بايع ليزيد ، فقال : إذا بايع الناس بايعت ، فقال رجل : إنما تريد أن يختلف الناس ويقتتلوا حتى يتفانوا ، فإذا لم يبق غيرك بايعوك ! فقال ابن عمر : لا أحب شيئا مما قلت ، ولكن إذا بايع الناس فلم يبق غيرى بايعت ، وكانوا لا يتخوّفونه . وقال الواقدى : لم يكن ابن عمر بالمدينة حين قدم نعى معاوية ، وإنما كان هو وابن عباس بمكة ، فلقيهما ـ وهما مقبلان منها ـ الحسين وابن الزبير ، فقال : ما وراءكما ؟ قالا : موت معاوية والبيعة ليزيد بن معاوية ، فقال لهما ابن عمر : اتقيا الله ولا تفرّقا بين جماعة المسلمين . وقدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة ، فلما جاءت البيعة من الأمصار بايع ابن عمر مع الناس ، وأما الحسين وابن الزبير فإنهما قدما مكة فوجدا بها عمرو بن سعيد بن العاص فخافاه وقالا : إنا جئنا عُوّاذاً بهذا البيت .

وفى هذه السنة ـ فى رمضان منها ـ عَزل يزيدُ بن معاوية ـ الوليد بن عتبة عن إمرة المدينة لتفريطه ، وأضافها إلى عَمْرو بن سعيد بن العاص نائب مكة ، فقدم المدينة فى رمضان ، وقيل فى ذى القعدة ،

وكان متألهاً متكبراً ، وسلط عمرو بن الزبير ـ وكان عدواً لأخيه عبد الله ـ على حربه وجرده له ، وجعل عمرو بن سعيد يبعث البعوث إلى مكة لحرب ابن الزبير . وقد ثبت في الصحيحين أن أبا شُريح الخزاعي قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : إيذن لي أيها الأمير أن أحدثك حديثاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي حين تكلم به ؛ إنه حمد الله وأثنى عليه وقال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، ثم قد صارت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب » . وفي رواية : « فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » فقيل لأبي شريح : ما قال لك ؟ فقال : قال لي: نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخَرَبة[1] .

قال الواقدي : ولّى عَمرو بن سعيد شرطة المدينة ـ عَمرو بن الزبير ، فتتبع أصحاب أخيه ومن يهوى هواه ، فضربهم ضرباً شديداً ، حتى ضرب من جملة من ضربَ ـ أخاه المنذر بن الزبير ، وأنه لا بد أن يأخذ أخاه عبد الله في جامعة من فضة حتى يقدم به على الخليفة ؛ فضرب المنذر بن الزبير ، وابنه محمد بن المنذر ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وعثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام ، وخبيب بن عبد الله بن الزبير ، ومحمد بن عمار بن ياسر وغيرهم ، ضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين جلدة ، وفر منه عبد الرحمن بن عثمان التيمي ، وعبد الرحمن بن عمرو بن سهل في أناس من مكة . ثم جاء العزم من يزيد إلى عمرو بن سعيد في تطلب ابن الزبير ، وأنه لا يقبل منه وإن بايع ، حتى يؤتى به إلي في جامعة[2] من ذهب أو من فضة تحت بُرنُسه ، فلا تُرى إلا أنه يسمع صوتها ، وكان ابن الزبير قد منع الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلي بأهل مكة ، وكان نائب عمرو بن سعيد عليها ، فحينئذ صمم عمرو على تجهيز سرية إلى مكة بسبب ابن الزبير ، فاستشار عمرو بن سعيد ـ عمرو بن الزبير : من يصلح أن نبعثه إلى مكة لأجل قتاله ؟ فقال له عمرو بن الزبير: إنك لا تبعث إليه من هو أنكى[3] له مني، فعينه على تلك السرية، وجعل على مقدمته أُنَيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مقاتل .

وقال الواقدي : إنما عينهما يزيد بن معاوية نفسه ، وبعث بذلك إلى عمرو بن سعيد ، فعسكر أُنَيس بالجرف ، وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد أن لا يغزو مكة وأن يترك ابن الزبير بها ، فإنه عما قليل إن لم يقتل يمت ، فقال أخوه عمرو بن الزبير : والله لنغزونه ولو في جوف

---

(١) الخربة : أصلها العيب ، والمراد الذي يفر بشيء يريد الانفراد به ، مما لا يفعله الشريف .
(٢) الجامعة : الغل ـ بضم الغين ـ وهو ما يوضع في اليد أو العنق .
(٣) أي أشد نكاً ؛ يقال : نكى في العدو ـ قتل فيهم وجرح .

الكعبة على رغم أنف من رغم . فقال مروان : والله إن ذلك ليسرني . فسار أنيس واتبعه عمرو بن الزبير في بقية الجيش ـ وكانوا ألفين ـ حتى نزل بالأبطح ، وقيل بداره عند الصفا ، ونزل أنيس بذي طوى ، فكان عمرو بن الزبير يصلي بالناس ، ويصلي وراءه أخوه عبد الله ابن الزبير . وأرسل عمرو إلى أخيه يقول له : برّ يمين الخليفة ، وأته وفي عنقك جامعة من ذهب أو فضة ، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضا ، واتق الله فإنك في بلد حرام . فأرسل عبد الله يقول لأخيه : موعدك المسجد . وبعث عبد الله بن الزبير ـ عبد الله بن صفوان بن أمية في سرية فاقتتلوا مع عمرو بن أنيس الأسلمي فهزموا أنيسا هزيمة قبيحة ، وتفرق عن عمرو بن الزبير أصحابه وهرب عمرو إلى دار ابن علقمة ، فأجاره أخوه عبيدة بن الزبير ، فلامه أخوه عبد الله بن الزبير وقال: تجير من في عنقه حقوق الناس ؟ ثم ضربه بكل من ضربه بالمدينة ـ إلا المنذر بن الزبير وابنه ، فإنهما أبيا أن يستقيدا من عمرو ، وسجنه ومعه عارم[1] ؛ فسمي سجن عارم ، وقد قيل إن عمرو ابن الزبير مات تحت السياط ، والله أعلم .

قصة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

وسبب خروجه بأهله من مكة إلى العراق في طلب الإمارة ، كيفية مقتله رضي الله عنه

ولنبدأ قبل ذلك بشيء من ترجمته ، ثم نتبع الجميع بذكر مناقبه وفضائله .

هو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ـ أبو عبد الله القرشي الهاشمي ، السبط الشهيد بكربلاء ، ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء ، وريحانته من الدنيا . وُلد بعد أخيه الحسن ، وكان مولد الحسن في سنة ثلاث من الهجرة ، وقال بعضهم : إنما كان بينهما طهر واحد ومدة الحمل ، وولد لخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع . وقال قتادة : وُلد الحسين لست سنين وخمسة أشهر ونصف من التاريخ ، وقتل يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين ، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف ، رضي الله عنه . ورُوي عن النبي ﷺ أنه حنكه وتفل في فيه ودعا له وسماه حسينا ، وقد كان سماه أبوه قبل ذلك حربا ، وقيل جعفرا ، وقيل : إنما سماه يوم سابعه وعق عنه . وقال جماعة عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانىء ابن هانىء عن علي رضي الله عنه قال: الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه به ما بين أسفل من ذلك . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن الضحاك الحزامي ، قال : كان وجه الحسن يشبه وجه رسول الله ﷺ ، وكان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله ﷺ . وروى محمد بن سيرين وأخته حفصة ، عن أنس ، قال : كنت عند ابن زياد فجيء برأس الحسين ، فجعل يقول بقضيب في أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسنا ، فقلت له : إنه كان من

(١) عارم : اسم فرس للمنذر .

أشبههم برسول الله ﷺ . وقال سفيان : قلت لعبيد الله بن أبي زياد : رأيت الحسين ؟ قال : نعم أسود الرأس واللحية إلا شعرات ههنا في مقدم لحيته ، فلا أدري أخضب وترك ذلك المكان تشبها برسول الله ﷺ ولم يكن شاب منه غير ذلك ؟ وقال ابن جريج : سمعت عمر بن عطاء قال : رأيت الحسين بن علي يصبغ بالوسمة[1] ، أما هو فكان ابن ستين سنة ، وكان رأسه ولحيته شديدي السواد . فأما الحديث الذي روى من طريقين ضعيفين ، أن فاطمة سألت رسول الله ﷺ في مرض الموت : أن يَنْحَل وَلَدَيها شيئاً فقال : « أما الحسن فله هيبتي وسؤددي ، وأما الحسين فله جُرأتي وجودي » ـ فليس بصحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب المعتبرة ، وقد أدرك الحسين من حياة النبي ﷺ خمس سنين أو نحوها ، وروى عنه أحاديث . وقال مسلم بن الحجاج له رؤية من النبي ﷺ ، وقد روى صالح بن أحمد بن حنبل عن أبيه ، أنه قال في الحسن بن علي : إنه تابعي ثقة ، وهذا غريب ، فلأن يقول في الحسين إنه تابعي بطريق الأولى .

وسنذكر ما كان رسول الله ﷺ يكرمهما به ، وما كان يظهر من محبتهما والحنو عليهما . والمقصود أن الحسين عاصر رسول الله ﷺ وصحبه إلى أن توفى وهو عنه راض ، ولكنه كان صغيراً . ثم كان الصديق يكرمه ويعظمه ، وكذلك عمر وعثمان ، وصحب أباه وروى عنه ، وكان معه في مغازيه كلها : في الجمل وصفين ، وكان معظما موقراً ، ولم يزل في طاعة أبيه حتى قتل ، فلما آلت الخلافة إلى أخيه وأراد أن يصالح ـ شق ذلك عليه ولم يسدد رأى أخيه في ذلك ، بل حثه على قتال أهل الشام ، فقال له أخوه : والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطبق عليك بابه حتى أفرغ من هذا الشأن ثم أخرجك . فلما رأى الحسين ذلك سكت وسلم ، فلما استقرت الخلافة لمعاوية ، كان الحسين يتردد إليه مع أخيه الحسن فيكرمهما معاوية إكراماً زائداً ، ويقول لهما : مرحبا وأهلا ، ويعطيهما عطاء جزيلا ، وقد أطلق لهما في يوم واحد مائتي ألف ، وقال : خذاها وأنا ابن هند ، والله لا يعطيكاها أحد قبلي ولا بعدي ، فقال الحسين : والله لن تعطى أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلا أفضل منا .

ولما توفى الحسن كان الحسين يفد إلى معاوية في كل عام فيعطيه ويكرمه ، وقد كان في الجيش الذين غزوا القسطنطينية مع ابن معاوية يزيد ـ في سنة إحدى وخمسين . ولما أخذت البيعة ليزيد في حياة معاوية ، كان الحسين ممن امتنع من مبايعته هو ، وابن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وابن عمر وابن عباس ، ثم مات ابن أبي بكر وهو مصمم على ذلك ، فلما مات معاوية سنة ستين وبويع ليزيد ، بايع ابن عمر وابن عباس ، وصمم على المخالفة الحسين وابن الزبير ، وخرجا من المدينة فارين إلى مكة فأقاما بها ، فعكف الناس على الحسين يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ، ويستمعون كلامه ، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد .

(١) الوسمة : نبت ؛ وقيل شجر باليمن له ورق يختضب به الشعر أسود

وأما ابن الزبير فإنه لزم مصلاه عند الكعبة ، وجعل يتردد فى غبون ذلك إلى الحسين فى جملة الناس ، ولا يمكنه أن يتحرك بشىء مما فى نفسه مع وجود الحسين ؛ لما يعلم من تعظيم الناس له وتقديمهم إياه عليه ، غير أنه قد تعينت السرايا والبعوث إلى مكة بسببه ، ولكن أظفره الله بهم كما تقدم ذلك آنفاً ، فانقشعت السرايا عن مكة مفلولين، وانتصر عبد الله بن الزبير على من أراد هلاكه من اليزيديين ، وضرب أخاه عمراً وسجنه واقتص منه وأهانه ، وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز ، واشتهر أمره وبعُد صيته ، ومع هذا كله ليس هو معظماً عند الناس مثل الحسين ، بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين؛ لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله ﷺ ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه.

وقد كثر ورود الكتب عليه من بلاد العراق يدعونه إليهم - وذلك حين بلغهم موت معاوية وولاية يزيد ، ومصير الحسين إلى مكة فراراً من بيعة يزيد - فكان أول من قدم عليه : عبد الله بن سَبُع الهمداني ، وعبد الله بن وال ، ومعهما كتاب فيه السلام والتهنئة بموت معاوية ، فقدما على الحسين لعشر مضين من رمضان من هذه السنة ، ثم بعثوا بعدهما نفراً ، منهم : قيس بن مُسْهِر الصَّيداوى ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكدنى[1] الأرحبى، وعُمارة بن عبيد الله السلولى ومعهم نحو من مائة وخمسين كتاباً إلى الحسين . ثم بعثوا هانىء بن هانىء السَّبيعى ، وسعيد بن عبد الله الحنفى ، ومعهما كتاب فيه الاستعجال فى السير إليهم . وكتب إليه شَبث بن رِبعىّ ، وحجَّار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث بن رُوَيم ، وعمرو بن الحجاج الزُّبيدى ، ومحمد بن عُمير بن يحيى التيمى : أما بعد فقد اخضرت الجنان وأينعت الثمار وطَمت الجمام ، فإذا شئت فأقدم على جندلك مجندة والسلام عليك . فاجتمعت الرسل كلها بكتبها عند الحسين ، وجعلوا يستحثونه ويستقدمونه عليهم ليبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية ، ويذكرون فى كتبهم : أنهم فرحوا بموت معاوية ، وينالون منه ويتكلمون فى دولته ، وأنهم لما يبايعوا أحداً إلى الآن ، وأنهم ينتظرون قدومك إليهم ليقدموك عليهم .

فعند ذلك بعث ابن عمه - مسلم بن عقيل بن أبى طالب - إلى العراق ، ليكشف له حقيقة هذا الأمر والاتفاق ، فإن كان متحتماً وأمراً حازماً محكماً - بعث إليه ليركب فى أهله وذويه ، ويأتى الكوفة ليظفر بمن يعاديه ، وكتب معه كتاباً إلى أهل العراق بذلك ، فلما سار مسلم من مكة اجتاز بالمدينة فأخذ منها دليلين ، فسارا به على برارى مهجورة المسالك ، فكان أحد الدليلين منهما

---

(١) الذى فى ابن جرير : الكدنى .

أول هالك، وذلك من شدة العطش، وقد أضلوا الطريق فهلك الدليل الواحد بمكان يقال له: المضيق، من بطن[1] الخُرْبُت ، فتطير به مسلم بن عقيل ، فتلبث مسلم على ما هنالك ومات الدليل الآخر ، فكتب إلى الحسين يستشيره في أمره ، فكتب إلية يعزم عليه أن يدخل العراق ، وأن يجتمع بأهل الكوفة ليستعلم أمرهم ويستخبر خبرهم .

فلما دخل الكوفة نزل على رجل يقال له : مُسلم بن عَوْسجة الأسدي ، وقيل نزل في دار المختار بن أبي عبيد الثقفي فالله أعلم فتسامع أهل الكوفة بقدومه فجاؤا إليه فبايعوه على إمرة الحسين ، وحلفوا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم ، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً ، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً ، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليها ، فقد تمهدت له البيعة والأمور ، فتجهز الحسين من مكة قاصداً الكوفة كما ستذكره . وانتشر خبرهم حتى بلغ أمير الكوفة النعمان بن بشير ، خبَّره رجل بذلك ، فجعل يضرب عن ذلك صفحاً ولا يعبأ به ، ولكنه خطب الناس ونهاهم عن الاختلاف والفتنة ، وأمرهم بالائتلاف والسنة ، وقال : إني لا أقاتل من لا يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب عليّ ، ولا آخذكم بالظِّنَّة ، ولكن والله الذي لا إله إلا هو لئن فارقتم إمامكم ونكثتم بيعته ، لأقاتلنكم ما دام في يدي من سيفي قائمته .

فقام إليه رجل يقال له : عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي فقال له : إن هذا الأمر لا يصلح إلا الغَشْم[2] ، وإن الذي سلكته أيها الأمير مسلك المستضعفين . فقال له النعمان : لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأقوياء الأعزين في معصية الله . ثم نزل فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يعلمه بذلك ، وكتب إلى يزيد عمارة بن عقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص ، فبعث يزيد فعزل النعمان عن الكوفة وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، وذلك بإشارة سَرْجُون مولى معاوية ، وكان يزيد يستشيره ، فقال سرجون : أكنت قابلاً من معاوية ما أشار به لو كان حياً ؟ قال : نعم ! قال : فاقبل مني فإنه ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد ، فولِّه إياها . وكان يزيد يبغض عبيد الله بن زياد ، وكان يريد أن يعزله عن البصرة ، فولاه البصرة والكوفة معاً لما يريده الله به وبغيره .

ثم كتب يزيد إلى بن زياد : إذا قدمت الكوفة فاطلب مسلم بن عقيل ، فإن قدرت عليه فاقتله أو انفه ، وبعث الكتاب مع العهد مع مُسلم بن عمرو الباهلي ، فسار ابن زياد من البصرة إلى

---

(١) البطن للوضع الغامض من الوادي ، والخرنب : بلث من أطيب المراعي .

(٢) الغشم : الظلم : والغشمشم ــ من يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء .

الكوفة ، فلما دخلها دخلها متلثما بعمامة سوداء ، فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا قال: سلام عليكم، فيقولون : وعليكم السلام مرحباً بابن رسول الله - يظنون أنه الحسين وقد كانوا ينتظرون قدومه - وتكاثر الناس عليه، ودخلها في سبعة عشر راكباً ، فقال لهم مسلم بن عمرو من جهة يزيد: تأخروا ، هذا الأمير عبيد الله بن زياد. فلما علموا ذلك علتهم كآبة وحزن شديد ، فتحقق عبيد الله الخبر ونزل قصر الإمارة من الكوفة ، فلما استقر أمره أرسل مولى أبي رهم - وقيل كان مولى له يقال له معقل - ومعه ثلاثة آلاف درهم في صورة قاصد من بلاد حمص ، وأنه إنما جاء لهذه البيعة ؛ فذهب ذلك المولى فلم يزل يتلطف ويستدل على الدار التي يبايعون بها مسلم بن عقيل حتى دخلها - وهي دار هانىء بن عروة التي تحول إليها من الدار الأولى - فبايع ، وأدخلوه على مسلم بن عقيل ، فلزمهم أياماً حتى اطلع على جلية أمرهم ، فدفع المال إلى أبي ثمامة العامري بأمر مسلم بن عقيل - وكان هو الذي يقبض ما يؤتى به من الأموال ويشتري السلاح - وكان من فرسان العرب ، فرجع ذلك المولى وأعلم عبيد الله بالدار وصاحبها ، وقد تحول مسلم بن عقيل إلى دار هانىء بن حميد بن عروة المرادي ، ثم إلى دار شريك بن الأعور، وكان من الأمراء الأكابر .

وبلغه أن عبيد الله يريد عيادته ، فبعث إلى هانىء يقول له : ابعث مسلم بن عقيل حتى يكون في داري ليقتل عبيد الله إذا جاء يعودني ، فبعثه إليه فقال له شريك : كن أنت في الخباء ، فإذا جلس عبيد الله فإني أطلب الماء وهي إشارتي إليك ، فاخرج فاقتله ، فلما جاء عبيد الله جلس على فراش شريك وعنده هانىء بن عروة ، وقام من بين يديه غلام يقال له مِهران ، فتحدث عنده ساعة ثم قال شريك : اسقوني ، فتجبّن مسلم عن قتله ، وخرجت جارية بكوز من ماء فوجدت مسلماً في الخباء فاستحيت ورجعت بالماء ثلاثاً ، ثم قال : اسقوني ولو كان فيه ذهاب نفسي أتحمونني من الماء ؟ ففهم مِهران الغدر، فغمز مولاه فنهض سريعاً وخرج ، فقال شريك : أيها الأمير ، إني أريد أن أوصي إليك ، فقال : سأعود إليك ! فخرج به مولاه فأركبه وطرّد به - أي ساق به - رجعل يقول له مولاه : إن القوم أرادوا قتلك، فقال : ويحك! إني بهم لرفيق فما بالهم؟ وقال شريك لمسلم : ما منعك أن تخرج فتقتله ؟ قال : حديث بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الإيمان ضد الفتك ، لا يفتك مؤمن »، وكرهت أن أقتله في بيتك ، فقال : أما لو قتلته لجلست في القصر لم يستعد منه أحد وليكفينك أمر البصرة ، ولو قتلته لقتلت ظالما فاجرا ، ومات شريك بعد ثلاث .

ولما انتهى ابن زياد إلى باب القصر - وهو متلثم - ظنه النعمان بن بشير الحسين قد قدم ، فأغلق باب القصر وقال : ما أنا بمسلم إليك أمانتي ، فقال له عبيد الله : افتح لا فتحته ، ففتح وهو يظنه الحسين ، فلما تحقق أنه عبيد الله أسقط في يده ، فدخل عبيد الله إلى قصر الإمارة وأمر

منادياً فنادى : إن الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإن أمير المؤمنين قد ولانى أمركم ، وثغركم(١) وفيأكم ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، والشدة على مريبكم وعاصيكم ، وإنما أنا ممتثل فيكم أمره ومنفذ عهده . ثم نزل وأمر العُرفاء أن يكتبوا مَن عندهم من الزَّورية(٢) وأهل الريب والخلاف والشقاق ، وأيما عريف لم يطالعنا على ذلك صلب أو نفى وأسقطت عرافته من الديوان ـ وكان هانىء أحد الأمراء الكبار ـ ولم يسلم على عبيد الله منذ قدم وتمارض ؛ فذكره عبيد الله وقال : ما بال هانىء لم يأتنى مع الأمراء ؟ فقالوا : أيها الأمير ! إنه يشتكى ، فقال : إنه بلغنى أنه يجلس على باب داره وزعم بعضهم أنه عاده قبل شريك بن الأعور ومسلم بن عقيل عنده ، وقد هموا بقتله فلم يمكنهم هانىء لكونه فى داره ، فجاء الأمراء إلى هانىء بن عروة ، فلم يزالوا به حتى أدخلوه على عبيد الله بن زياد ، فالتفت عبيد الله إلى القاضى شريح فقال متمثلا بقول الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

فلما سلم هانىء على عبيد الله قال : يا هانىء ! أين مسلم بن عقيل ؟ قال : لا أدرى ، فقام ذلك المولى التيمى الذى دخل دار هانىء فى صورة قاصد من حمص فبايع فى داره ودفع الدراهم بحضرة هانىء إلى مسلم ، فقال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ! فلما رآه هانىء قَطِع(٣) يرد به وأسقط فى يده ، فقال : أصلح الله الأمير ، والله ما دعوتُه إلى منزلى ، ولكنه جاء فطرح نفسه علىّ ، فقال عبيد الله : فأتنى به ، فقال : والله لو كان تحت قدمىّ ما رفعتهما عنه ، فقال : ادنوه منى ، فأدنوه فضربه بحربة على وجهه فشجه على حاجبه وكسر أنفه ، وتناول هانىء سيف شُرَطى ليسلّه فدُفع عن ذلك ، وقال عبيد الله : قد أحل الله لى دمك ، لأنك حرورى ، ثم أمر به فحبسه فى جانب الدار وجاء قومه من بنى مَذْحِج مع عمرو بن الحجاج ، فوقفوا على باب القصر يظنون أنه قد قتل ، فسمع عبيد الله لهم جلبة ، فقال لشريح القاضى وهو عنده : اخرج إليهم فقل لهم : إن الأمير لم يحبسه إلا ليسأله عن مسلم بن عقيل ، فقال لهم : إنّ صاحبكم حىّ وقد ضربه سلطاننا ضربا لم يبلغ نفسه ، فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم فتفرقوا إلى منازلهم .

وسمع مسلم بن عقيل الخبر فركب ونادى بشعاره « يا منصور أمت » . فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، وكان معه المختار بن أبى عبيد ـ ومعه راية خضراء ، وعبد الله بن نوفل بن الحارث براية حمراء ، فرتبهم ميمنة وميسرة وسار هو فى القلب إلى عبيد الله ، وهو

(١) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان
(٢) قال فى القاموس : زورة ـ ويفتح ـ موضع قرب الكوفة
(٣) قطع ـ كفرح وكرم ـ لم يقدر على الكلام.

يخطب الناس فى أمر هانىء ويحذرهم من الاختلاف ، وأشراف الناس وأمراؤهم تحت منبره ، فبينما هو كذلك إذ جاءت النظارة يقولون : جاء مسلم بن عقيل ، فبادر عبيد الله فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب ، فلما انتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك ، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد الله فى القصر ، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف ، وتهددوهم وتوعدوهم ، وأخرج عبيد الله بعض الأمراء وأمرهم أن يركبوا فى الكوفة يخذلون الناس عن مسلم بن عقيل ، ففعلوا ذلك ، فجعلت المرأة تجىء إلى ابنها وأخيها وتقول له : ارجع إلى البيت ، الناس يكفونك. ويقول الرجل لابنه وأخيه : كأنك غداً بجنود الشام قد أقبلت فماذا تصنع معهم ؟ فتخاذل الناس وقصّروا وتصرموا وانصرفوا عن مسلم بن عقيل،حتى لم يبق إلا فى خمسمائة نفس، ثم تقالُّوا حتى بقى فى ثلاثمائة، ثم تقالُّوا حتى بقى معه ثلاثون رجلاً ، فصلى بهم المغرب وقصد أبواب كندة فخرج منها فى عشرة ، ثم انصرفوا عنه فبقى وحده ليس معه من يدله على الطريق ، ولا من يؤانسه بنفسه ، ولا من يأويه إلى منزله ، فذهب على وجهه ، واختلط الظلام وهو وحده يتردد فى الطريق لا يدرى أين يذهب .

فأتى باباً فنزل عنده وطرقه، فخرجت منه امرأة يقال لها طَوْعة ـ كانت أم ولد للأشعث بن قيس ، وقد كان لها ابن من غيره يقال له: بلال بن أسيد، خرج مع الناس وأمه قائمة بالباب تنتظره ـ فقال لها مسلم بن عقيل : اسقنى ماء فسقته ، ثم دخلت وخرجت فوجدته ، فقالت : ألم تشرب ؟ قال : بلى ! قالت : فاذهب إلى أهلك عافاك الله ، فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابى ولا أحله لك ، فقام فقال : يا أمة الله! ليس لى فى هذا البلد منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم ؟ فقالت : يا عبد الله وما هو ؟ قال: أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وغرّونى به فقالت : أنت مسلم ؟ قال: نعم ! قالت: ادخل، فأدخلته بيتاً من دارها غير البيت الذى تكون فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعشّ ، فلم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج ، فسألها عن شأنها فقالت : يابنى ! الْهُ عن هذا ، فألح عليها فأخذت عليه أن لا يحدث أحداً ، فأخبرته خبر مسلم ، فاضطجع إلى الصباح ساكتاً لا يتكلم .

وأما عبيد الله بن زياد، فإنه نزل من القصر بمن معه من الأمراء والأشراف بعد العشاء الآخرة فصلى بهم العشاء فى المسجد الجامع ، ثم خطبهم وطلب منهم مسلم بن عقيل وحث على طلبه ، ومن وجد عنده ولم يعلم به فدمه هدر ، ومن جاء به فله ديته ، وطلب الشرط وحثهم على ذلك وتهددهم . فلما أصبح ابن تلك العجوز ذهب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأعلمه بأن مسلم ابن عقيل فى دارهم ، فجاء عبد الرحمن فسارّ أباه بذلك وهو عند ابن زياد ، فقال ابن زياد : ما الذى

سارك به ؟ فأخبره الخبر ، فنخس بقضيب فى جنبه وقال . قم فأتنى به الساعة وبعث ابن زياد عمرو ابن حُرَيث المخزومى ـ وكان صاحب شرطته ـ ومعه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فى سبعين أو ثمانين فارساً ، فلم يشعر مسلم إلا وقد أحيط بالدار التى هو فيها ، فدخلوا عليه ، فقام إليهم بالسيف فأخرجهم من الدار ثلاث مرات ، وأصيبت شفته العليا والسفلى ، ثم جعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى أطنان القصب ، فضاق بهم ذرعاً ، فخرج إليهم بسيفه فقاتلهم ، فأعطاه عبدالرحمن الأمان فأمكنه من يده ، وجاءوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا عنه سيفه فلم يبق يملك من نفسه شيئاً ، فبكى عند ذلك وعرف أنه مقتول ، فيئس من نفسه ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون فقال بعض من حوله : إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا ، فقال : أما والله لست أبكى على نفسى ، ولكن أبكى على الحسين . وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة ، ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال : إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لسانى تأمره بالرجوع فافعل ، فبعث محمد بن الأشعث إلى الحسين يأمره بالرجوع فلم يصدق الرسول فى ذلك ، وقال : كلُّ ما حمّ[1] الإله واقع .

قالوا : ولما انتهى مسلم بن عقيل إلى باب القصر ، إذا على بابه جماعة من الأمراء من أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه ، ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد ، ومسلم مخضب بالدماء فى وجهه وثيابه ، وهو مثخن بالجراح ، وهو فى غاية العطش ، وإذا قُلّة من ماء بارد هنالك فأراد أن يتناولها ليشربَ منها فقال له رجل من أولئك : والله لا تشرب منها حتى تشربَ من الحميم ، فقال له : ويلك يا ابن باهلة ! أنت أولى بالحميم والخلود فى نار الجحيم منى ، ثم جلس فتساند إلى الحائط من التعب والكلال والعطش ، فبعث عمارة بن عقبة بن أبى معيط ـ مولى له إلى داره ، فجاء بقلة عليها منديل ومعه قدح ، فجعل يفرغ له فى القدح ويعطيه فيشرب ، فلا يستطيع أن يسيغه من كثرة الدماء التى تعلو على الماء مرتين أو ثلاثاً ، فلما شرب سقطت ثنيتاه مع الماء فقال : الحمد لله ، لقد كان بقى لى من الرزق المقسوم شربة ماء ، ثم أدخل على ابن زياد ، فلما وقف بين يديه لم يسلم عليه ، فقال له الحرسى : ألا تسلم على الأمير ؟ فقال : لا ! إنْ كان يريد قتلى فلا حاجة لى بالسلام عليه ، وإن لم يرد قتلى فسأسلم عليه كثيراً ، فأقبل ابن زياد عليه فقال : إيه يا ابن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة ؛ لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض ؟ قال : كلا لست لذلك أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب .

---

(١) أى : ماقدره وقضى به .

قال : وما أنت وذاك يافاسق ؟ أو لم نكن نعمل بذلك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر ؟ . فقال : أنا أشرب الخمر ! والله إن الله ليعلم أنك غير صادق ، وأنك قلت بغير علم ، وأنت أحق بذلك مني ، [فإني لست كما ذكرت ، وإن أولى بها مني من يلغ في دماء المسلمين ولغاً ، ويقتل النفس التي حرم الله بغير نفس ، ويقتل على الغضب والظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً . فقال له ابن زياد : يافاسق ! إن نفسك تمنيك ما حال الله دونك ودونه ، ولم يَرَك أهله ، قال : فمن أهله يا ابن زياد ؟ قال : أمير المؤمنين يزيد . قال : الحمد لله على كل حال ، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم . قال : كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئاً ؟ قال: لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين . قال له : قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس . قال : أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه ، أما إنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة المكتسبة عن كتابكم وجهالكم[1]] وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسيناً وعلياً ، ومسلم ساكت لا يكلمه ، رواه ابن جرير عن أبي مخنف وغيره من رواة الشيعة . ثم قال له ابن زياد : إني قاتلك . قال : كذلك ؟ قال : نعم ؛ قال:فدعني أوصي إلى بعض قومي ، قال : أوص. فنظر في جلسائه ، وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال : يا عمر إن بيني وبينك قرابة ، ولي إليك حاجة ، وهي سر، فقم معي إلى ناحية القصر حتى أقولها لك ، فأبى أن يقوم معه ، حتى أذن له ابن زياد ، فقام فتنحى قريبا من ابن زياد ، فقال له مسلم : إنّ عليّ ديناً في الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عني ، واستوهب جثتي من ابن زياد فوارها ، وابعث إلى الحسين ، فإني كنت قد كتبت إليه أن الناس معه ، ولا أراه إلا مقبلا . فقام عمر فعرض على ابن زياد ما قال له ، فأجاز ذلك له كله، وقال : أما الحسين فإنه إن لم يردنا لا نرده ، وإن أرادنا لم نكف عنه ، ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل فأصعد إلى أعلا القصر وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول : اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا ، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران ، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر ، وأتبع رأسه بجسده . ثم أمر بهانىء بن عروة المذحجي فضربت عنقه بسوق الغنم ، وصلب بمكان من الكوفة يقال له : الكناسة ، فقال رجل شاعر في ذلك قصيدة :

فإن كنت لا تدرين ما الموتُ فانظري ... إلى هانىء في السُّوق وابن عقيل

أصابهمـــا أمر الإمام فأصبحا ... أحاديث منَ يمشي بكل سبيل

[إلى بطل قـــد هشم السيف وجهه ... وآخر يهـــوى في طمار قتيـــل

---

(١) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ .

ترى جسداً قد غير الموتُ لونه ونضحَ دم قد سال كل مسيل
فإن أنتمُ لم تثأروا بأخيكمُ فكونوا بغايا أرضيت بقليل

ثم إن ابن زياد قتل معهما أناسا آخرين ،](١) ثم بعث برءوسهما إلى يزيد بن معاوية إلى الشام ، وكتب له كتابا صورة ما وقع من أمرهما .

وقد كان عبيد الله قبل أن يخرج من البصرة بيوم خطب أهلها خطبة بليغة ووعظهم فيها وحذرهم وأنذرهم من الاختلاف والفتنة والتفرق ، وذلك لما رواه هشام بن الكلبي وأبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن أبي عثمان النهدي قال : بعث الحسين مع مولى له يقال له : سلمان ـ كتابا إلى أشراف أهل البصرة فيه : أما بعد فإن الله اصطفى محمداً على خلقه وأكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به ، وكنا أهله وأولياءه وورثته وأحق الناس به وبمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم ، وقد بعثت إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فإن السنة قد أميتت ، وإن البدعة قد أحييت ، فتسمعوا قولي وأطيعوا أمري ، فإن فعلتم أهدكم سبيل الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وعندي في صحة هذا عن الحسين نظر ، والظاهر أنه مطرز بكلام مزيد من بعض رواة الشيعة . قال : فكل من قرأ ذلك من الأشراف كتمه؛ إلا المنذر بن الجارود ، فإنه ظن أنه دسيسة من ابن زياد فجاء به إليه ، فبعث خلف الرسول الذي جاء به من حسين فضرب عنقه ، وصعد عبيد الله بن زياد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فوالله ما بي تقرن الصعبة ، وما يُقعقع لي بالشنان ، وإني لنكل(٢) لمن عاداني ، وسهام لمن حاربني ، أنصف « القارة(٣) » من راماها ، يا أهل البصرة! إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة وأنا غاد إليها الغداة ، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد ابن أبي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فو الذي لا إله غيره ، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى ، حتى يستقيم لي الأمر ، ولا يكن فيكم مخالف ولا مشاق، أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطىء الحصى،ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم. ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي ، فكان من أمره ما تقدم .

---

(١) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ .
(٢) أي أنكل بأعدائي . يقال فلان نكل شر أي ينكل بأعدائه .
(٣) القارة : قبيلة معروفة بإصابة الرمي .

قال أبو مخنف ، عن الصقعب بن زهير عن عون بن أبي جحيفة قال : كان مخرج مسلم بن عقيل بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة ، وقيل يوم الأربعاء لتسع مضين من ذي الحجة ، وذلك يوم عرفة سنة ستين ، وكان ذلك بعد مخرج الحسين من مكة قاصداً أرض العراق بيوم واحد ، وكان خروج الحسين من المدينة إلى مكة يوم الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة ستين ، ودخل مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان ، فأقام بمكة بقية شعبان ورمضان وشوال والقعدة . وخرج من مكة لثمان مضين من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التروية [وفي رواية ذكرها ابن جرير ، أن مسلم بن عقيل لما بكى قال له عبيد الله بن عباس السلمي : إن من يطلب مثل ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل الذي نزل بك ، قال : إني والله ما لنفسي أبكي ، وما لها من القتل أرثي ، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً ولكنني أبكي لأهلي المقبلين إلى الكوفة ، أبكي الحسين وآل حسين . ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال : ياعبد الله ! إني والله أراك ستعجز عن أماني ، فهل عندك خير تستطيع أن تبعث رجلا على لساني يبلغ حسيناً عني رسالتي ؟ فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غداً هو وأهل بيته — وإن ما تراه من جزعي لذلك — فتقول له : إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير لا يدري أيصبح أم يمسي حتى يقتل ، وهو يقول لك : ارجع بأهلك ولا يغرنك أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل . إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي ، فقال ابن الأشعث : والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد أني قد أمنتك . قال أبو مخنف : فدعا محمد بن الأشعث إياس بن العباس الطائي من بني مالك بن ثمامة — وكان شاعراً — فقال له : اذهب فالق حسينا فأبلغه هذا الكتاب — وكتب فيه الذي أمره به ابن عقيل — ثم أعطاه راحلة وتكفل له بالقيام بأهله وداره ، فخرج حتى لقي الحسين بزبالة ، لأربع ليال من الكوفة ، فأخبره الخبر وأبلغه الرسالة ، فقال الحسين : كل ما حُمّ نازل ، عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا . ولما انتهى مسلم إلى باب القصر — وأراد شرب الماء — قال له مسلم بن عمرو الباهلي : أتراها ما أبردها؟ والله لا تذوقها أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم . فقال له ابن عقيل : ويحك من أنت ؟ قال : أنا من عرف الحق إذ أنكرته ، ونصح لإمامه إذ غششته ، وسمع وأطاع إذ عصيت ، أنا مسلم بن عمرو الباهلي . فقال له مسلم : لأمك الويل ! ما أجفاك وأفظك ، وأغلظك يا ابن باهلة ! ! أنت والله أولى بالحميم ونار الجحيم[1]] .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

صفة مخرج الحسين إلى العراق ، وما جرى له بعد ذلك

لما تواترت الكتب إلى الحسين من جهة أهل العراق، وتكررت الرسل بينهم وبينه ، وجاءه كتاب مسلم بن عقيل بالقدوم عليه بأهله ، ثم وقع فى غبون ذلك ما وقع من قتل مسلم بن عقيل ، والحسين لا يعلم بشىء من ذلك ، بل قد عزم على المسير إليهم والقدوم عليهم ، فاتفق خروجه من مكة أيام التروية قبل مقتل مسلم بيوم واحد - فإن مسلماً قتل يوم عرفة - ولما استشعر الناس خروجه أشفقوا عليه من ذلك ، وحذروه منه ، وأشار عليه ذوو الرأى منهم والمحبة له بعدم الخروج إلى العراق ، وأمروه بالمقام بمكة ، وذكروه ما جرى لأبيه وأخيه معهم . قال سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاووس عن ابن عباس قال : استشارنى الحسين بن على فى الخروج فقلت : لولا أن يزرى بى وبك الناس لشبثت يدى فى رأسك فلم أتركك تذهب ، فكان الذى ردّ على أن قال : لأن أقتل فى مكان كذا وكذا - أحب إلى من أن أقتل بمكة . قال : فكان هذا الذى سلّى نفسى عنه .

وروى أبو مخنف عن الحارث بن كعب الوالبى عن عقبة بن سمعان ، أن حسيناً لما أجمع المسير إلى الكوفة - أتاه ابن عباس فقال: يابن عم! إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لى ما أنت صانع ؟ فقال : إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومىّ هذين إن شاء الله تعالى ، فقال له ابن عباس: أخبرنى! إن كان قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم - فسر إليهم ، وإن كان أميرهم حى وهو مقيم ، قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم - فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال ، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك ، فيكون الذى دعوك أشد الناس عليك . فقال الحسين : إنى أستخير الله وأنظر ما يكون . فخرج ابن عباس عنه ، ودخل ابن الزبير فقال له : ما أدرى ما تركنا لهؤلاء القوم ونحن أبناء المهاجرين ، وولاة هذا الأمر دونهم ، أخبرنى ما تريد أن تصنع ؟ . فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة ، ولقد كتب إلى شيعتى بها وأشرافها بالقدوم عليهم ، وأستخير الله . فقال له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت عنها. فلما خرج من عنده قال الحسين: قد علم ابن الزبير أنه ليس له من الأمر معى شىء ، وأن الناس لم يعدلوا بى غيرى ، فود أنى خرجت لتخلو له . فلما كان من العشى أو من الغد ، جاء ابن عباس إلى الحسين فقال له : يابن عم ! إنى أتصبر ولا أصبر إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم ، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصونا وشعابا ، ولأبيك به شيعة ، وكن عن الناس فى معزل ، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم ، فإنى أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون

ما تحب . فقال الحسين : يابن عم ! والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق ، ولكني قد أزمعت المسير . فقال له ابن عباس : فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه . ثم قال ابن عباس : أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعتني وأقمت لفعلت ذلك . قال : ثم خرج من عنده فلقى ابن الزبير فقال : قرت عينك يابن الزبير ؟ ثم قال :

يالكِ من قبرة بمعمَرِ ... خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفري
وَنقرِّى ما شئتِ أن تُنقّرى ... صيادك اليوم قتيل فابشري[1]

ثم قال ابن عباس : هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز .

وقال غير واحد عن شبابة بن سوار قال : حدثنا يحيى بن إسماعيل بن سالم الأسدي قال : سمعت الشعبي يحدث عن ابن عمر ، أنه كان بمكة فبلغه أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق فلحقه على مسيرة ثلاث ليال ، فقال: أين تريد ؟ قال : العراق ، وإذا معه طوامير[2] وكتب ، فقال : هذه كتبهم وبيعتهم ، فقال : لا تأتهم ؟ فأبى . فقال ابن عمر : إني محدثك حديثاً ، إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله ؛ والله ما يليها أحد منكم أبداً ؛ وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم ، فأبى أن يرجع قال : فاعتنقه ابن عمر وبكى ، وقال : أستودعك الله من قتيل .

وقال يحيى بن معين : حدثنا أبو عبيدة ثنا سليم بن حيان عن سعيد بن مينا قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : عجل حسين قدره ، والله لو أدركته ما تركته يخرج إلا أن يغلبني ؛ ببني هاشم فتح هذا الأمر ، وببني هاشم يختم ، فإذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان . قلت : وهذا مع حديث ابن عمر يدل على أن الفاطميين أدعياء كذبة، لم يكونوا من سلالة فاطمة كما نص عليه غير واحد من الأئمة، على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو بكر الحميدي ، ثنا سفيان ثنا عبد الله بن شريك عن بشر ابن غالب قال : قال ابن الزبير للحسين : أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك ؟ فقال : لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل بي - يعني مكة . وقال الزبير بن بكار : حدثني عمي مصعب بن عبدالله ، أخبرني من سمع هشام بن يوسف يقول عن معمر قال : سمعت رجلا

---

(١) هذا الرجز لطرفة بن العبد . (٢) طوامير : جمع طومار ، وهو الصحيفة .

يحدّث عن الحسين أنه قال لعبد الله بن الزبير : أتتني بيعة أربعين ألفاً يحلفون بالطلاق والعتاق أنهم معي ، فقال له ابن الزبير : أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك ؟ قال هشام : فسألت معمراً عن الرجل فقال : هو ثقة . قال الزبير : وقال عمّي : وزعم بعض الناس أن ابن عباس هو الذى قال هذا . وقد ساق محمد بن سعد ـ كاتب الواقدى هذا ـ سياقاً حسناً مبسوطاً ، فقال : أنبأنا على بن محمد عن يحيى بن إسماعيل بن أبى المهاجر عن أبيه ، وعن لوط بن يحيى العامرى عن محمد بن بشير الهمدانى وغيره ، وعن محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن هارون بن عيسى عن يونس بن إسحاق عن أبيه ، وعن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن مجالد عن الشعبى ، قال محمد بن سعد : وغير هؤلاء قد حدثنى أيضاً فى هذا الحديث بطائفة ، فكتبت جوامع حديثهم فى مقتل الحسين رضى الله عنه وأرضاه :

قالوا : لما بايع الناس معاوية ليزيد كان حسين ممّن لم يبايع له . وكان أهل الكوفة يكتبون إليه يدعونه إلى الخروج إليهم فى خلافة معاوية ، كل ذلك يأبى عليهم . فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية يطلبون إليه أن يخرج معهم فأبى، وجاء إلى الحسين يعرض عليه أمرهم، فقال له الحسين: إن القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا، ويستطيلوا بنا ويستنبطوا دماء الناس ودماءنا، فأقام حسين على ما هو عليه من الهموم ؛ مرة يُريد أن يسير إليهم ، ومرة يجمع الإقامة عنهم فجاءه أبو سعيد الخدرى فقال : يا أبا عبد الله ! إنى لكم ناصح، وإنى عليكم مشفق ، وقد بلغنى أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم ، فلا تخرج إليهم ، فإنى سمعت أباك يقول بالكوفة : والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملونى وأبغضونى ، وما يكون منهم وفاء قط ، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم نيات ولا عزم على أمر ، ولا صبر على السيف .

قال : وقدم المسيب بن عتبة الفزارى فى عدة معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن ، فدعوه إلى خلع معاوية وقالوا : قد علمنا رأيك ورأى أخيك ، فقال : إنى لأرجو أن يعطى الله أخى على نيته فى حُبه الكف ، وأن يعطينى على نيتى فى حُبى جهاد الظالمين . وكتب مروان إلى معاوية : إنى لست آمن أن يكون حسين مرصداً للفتنة ، وأظن يومكم من حسين طويلا . فكتب معاوية إلى الحسين : إن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء ، وقد أنبئت أن قوما من أهل الكوفة قد دَعوك إلى الشقاق ، وأهل العراق من قد جرّبت ، قد أفسدوا على أبيك وأخيك ، فاتق الله واذكر الميثاق ، فإنك متى تكدنى أكدك .

فكتب إليه الحسين : أتانى كتابك وأنا بغير الذى بلغك عنى جدير ، والحسنات لا يهدى لها إلا الله ، وما أردت لك محاربة ولا عليك خلافاً ، وما أظن لى عند الله عذراً فى ترك جهادك ، وما أعلم فتنة أعظم من ولايتك أمر هذه الأمة .

فقال معاوية : إن آترنا بأبى عبد الله إلا شراً وكتب إليه معاوية أيضاً فى بعض ما بلغه عنه: إنى لأظن أن فى رأسك نزوة فوددت أنى أدركها فأغفرها لك . قالوا : فلما احتضر معاوية دعا يزيد فأوصاه بما أوصاه به ، وقال له : انظر حسين بن على بن فاطمة بنت رسول الله ، فإنه أحب الناس إلى الناس ، فصل رحمه ، وارفق به ، يصلح لك أمره ، فإن يكن منه شىء فإنى أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وتوفى معاوية ليلة النصف من رجب سنة ستين وبايع الناس يزيد ، فكتب يزيد مع عبد الله بن عمرو بن عمرو بن أويس العامرى ـ عامر بن لؤى ، إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وهو على المدينة : أن ادع الناس فبايعهم ، وابدأ بوجوه قريش ، وليكن أول من تبدأ به الحسين بن على، فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ فى أمره الرفق به واستصلاحه . فبعث الوليد من ساعته نصف الليل إلى الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير فأخبرهما بوفاة معاوية، ودعاهما إلى البيعة ليزيد بن معاوية فقالا : إلى أن نصبح وننظر ما يصنع الناس ، ووثب الحسين فخرج وخرج معه ابن الزبير وقالا : هو يزيد الذى نعرف ، والله ما حدث له عزم ولا مروءة . وقد كان الوليد أغلظ للحسين فشتمه الحسين وأخذ بعمامته فنزعها من رأسه ، فقال الوليد : إن هجنا بأبى عبد الله إلا شرا . فقال له مروان ـ أو بعض جلسائه ـ اقتله ، فقال : إن ذلك لدم مضنون به، مصون فى بنى عبد مناف .

قالوا : وخرج الحسين وابن الزبير من ليلتهما إلى مكة ، وأصبح الناس فغدوا على البيعة ليزيد ، وطلب الحسين وابن الزبير فلم يوجدا ، فقال المسور بن مخرمة : عجل الحسين، وابن الزبير يلفته ويزجيه إلى العراق ليخلو بمكة ، فقدما مكة فنزل الحسين دار العباس ، ولزم ابن الزبير الحجر ، ولبس المعافرى[1] وجعل يحرض الناس على بنى أمية ، وكان يغدو ويروح إلى الحسين ويشير عليه أن يقدم العراق ، ويقول : هم شيعتك وشيعة أبيك ، وكان ابن عباس ينهاه عن ذلك ، وقال له عبد الله بن مطيع . إنى فداؤك وأبى وأمى ، فأمتعنا بنفسك ولا تسر إلى العراق ، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذونا عبيداً وخولا . قالوا : ولقيهما عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس وابن أبى ربيعة ـ بالأبواء منصرفين من العمرة فقال لهما ابن عمر : أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما فى صالح ما يدخل فيه الناس ، وتنظرا، فإن اجتمع الناس عليه فلم تشذا ، وإن افترقوا عليه كان الذى تريدان . وقال ابن عمر للحسين : لا تخرج فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ، وإنك بضعة منه ولا تنالها ـ يعنى الدنيا ـ واعتنقه وبكى وودعه ، فكان ابن عمر يقول : غلبنا حسين بن على بالخروج ، ولعمرى لقد رأى فى أبيه وأخيه عبرة ، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغى له أن لا يتحرك ما عاش ، وأن يدخل

(١) المعافرى : نوع من البرود اليمنية تنسب إلى « معافر » وهى قبيلة باليمن أو حى من همدان .

في صالح ما دخل فيه الناس ، فإن الجماعة خير . وقال له ابن عباس : وأين تريد يا ابن فاطمة ؟ فقال: العراق وشيعتي ، فقال : إني لكاره لوجهك هذا ، تخرج إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك حتى تركهم سخطة وملالة لهم ؟ أذكرك الله أن تغرر بنفسك .

وقال أبو سعيد الخدري : غلبني الحسين على الخروج ، وقلت له : اتق الله في نفسك والزم بيتك ولا تخرج على إمامك وقال أبو واقد الليثي : بلغني خروج الحسين بن علي فأدركته بملل[1] فناشدته الله أن لا يخرج فإنه يخرج في غير وجه خروج ، إنما خرج يقتل نفسه ، فقال : لا أرجع . وقال جابر بن عبد الله : كلمت حسيناً فقلت : اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض ، فوالله ما حمدتم ما صنعتم ـ فعصاني . وقال سعيد بن المسيب : لو أن حسينا لم يخرج لكان خيراً له . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : وقد كان ينبغي لحسين أن يعرف أهل العراق ولا يخرج إليهم ، ولكن شجعه على ذلك ابن الزبير . وكتب إليه المسور بن مخرمة : إياك أن تغتر بكتب أهل العراق ويقول ابن الزبير : الحق بهم فإنهم ناصروك . وقال له ابن عباس : لا تبرح الحرم فإنهم إن كانت بهم إليك حاجة فسيضربون إليك آباط الإبل حتى يوافوك فتخرج في قوة وعدة . فجزاه خيراً وقال : أستخير الله في ذلك . وكتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن تعظم عليه ما يريد أن يصنع ، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة ، وتخبره أنه إن لم يفعل إنما يساق إلى مصرعه . وتقول : أشهد لسمعت عائشة تقول : إنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقتل الحسين بأرض بابل » فلما قرأ كتابها قال : فلا بد لي إذا من مصرعي ومضى . وأتاه بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فقال له : يابن عم قد رأيت ماصنع أهل العراق بأبيك وأخيك ، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فأذكرك الله في نفسك . فقال : جزاك الله يابن عم خيراً ، مهما يقضي الله من أمر يكن . فقال أبو بكر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، نحتسب أبا عبد الله عند الله .

وكتب إليه عبد الله بن جعفر كتابا يحذره أهل العراق ويناشده الله إن شخص إليهم . فكتب إليه الحسين : إني رأيت رؤيا ، ورأيت رسول الله ﷺ أمرني بأمر وأنا ماض له ، ولست بمخبر بها أحداً حتى ألاقي عملي . وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص نائب الحرمين : إني أسأل الله أن يلهمك رشدك ، وأن يصرفك عما يرديك ، بلغني أنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق ، وإني أعيذك الله من الشقاق ، فإنك إن كنت خائفا فأقبل إلي ، فلك عندي الأمان والبر والصلة . فكتب إليه الحسين : إن كنت أردت بكتابك بري وصلتي فجزيت خيراً في الدنيا

---

(١) ملل : اسم واد ينحدر من جبل مزينة ويستمر إلى البحر قرب المدينة .

والآخرة ، وإنه لم يشاقق من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ، وخير الأمانى أمان الله ، ولم يؤمن بالله من لم يخفه فى الدنيا ، فنسأل الله مخافة فى الدنيا توجب لنا أماناً يوم القيامة عنده . قالوا : وكتب يزيد بن معاوية إلى ابن عباس يخبره بخروج الحسين إلى مكة ، وأحسبه قد جاءه رجال من أهل المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبر وتجربة ، فإن كان قد فعل فقد قطع راسخ القرابة ، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى فى الفرقة، وكتب بهذه الأبيات إليه ، وإلى من بمكة والمدينة من قريش :

يا أيها الراكب الغادى مطيته ... على عُذَافِرة[1] فى سيرها قحم

أبلغ قريشاً على نأى المزار بها ... بينى وبين حسين الله والرحم

وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الإله وما توفى به الذمم

عنيتم قومكم فخراً بأمكم ... أمٌّ لعمرى حَصان بَرّة كرم

هى التى لا يدانى فضلها أحد ... بنت الرسول وخير الناس قد علموا

وفضلها لكم فضل وغيرُكم ... من قومكم لهم فى فضلها قسم

إنى لأعلم أو ظنا كعالمه ... والظن يصدق أحيانا فينتظم

أنْ سوف يترككم ماتدعون بها ... قتلى تَهاداكم العقبان والرَّخم

يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ مسكت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

قد جرب الحرب من قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم

فأنصفوا قومكم لاتهلكوا برحاً ... فرب ذى برح زلت به القدم

قال : فكتب إليه ابن عباس : إنى لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له فى كل ما تجتمع به الألفة وتطفى به النائرة . ودخل ابن عباس على الحسين فكلمه طويلا وقال له : أنشدك أن تهلك غداً بحال مَضيعة[2] لا تأتى العراق ، وإن كنت لابد فاعلا فأقم حتى ينقضى الموسم وتلقى الناس وتعلم ما يصدرون ، ثم ترى رأيك ، وذلك فى عشر ذى الحجة فأبى الحسين إلا أن يمضى إلى العراق ، فقال له ابن عباس : والله إنى لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك ، كما قتل عثمان بين نسائه وبناته ، والله إنى لأخاف أن تكون أنت الذى يقاد به عثمان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فقال له الحسين: أبا العباس إنك شيخ قد كبرت ، فقال له ابن عباس : لولا أن يزرى ذلك بى وبك لنشبت يدى فى رأسك ، ولو أعلم أنا إذا تناشبنا[3] أقمت لفعلت ، ولكن لا أخال ذلك مانعك . فقال الحسين : لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى

(١) العذافرة : الناقة الشديدة الوثيقة الظهر . (٢) أى بحالة ضياع وهوان وهلاك .

(٣) تناشب القوم تضاموا وتعلق بعضهم ببعض ، وفى نسخة تباصينا . والبيص : الشدة والضيق .

من أن أقتل بمكة وتستحل بى ، قال : فبكى ابن عباس وقال : أقررت عين ابن الزبير بذلك ، وذلك الذى سلى نفسى عنه ، قال : ثم خرج ابن عباس عنه وهو مغضب وابن الزبير على الباب ، فلما رآه قال : يا ابن الزبير قد أتى ما أحببت ، قرت عينك ، هذا أبو عبد الله خارج ويتركك والحجاز ، ثم قال :

يا لك من قُبَّرة بمعمَرِ ... خلا لك الجوُّ فبيضى واصفرى
ونقِّرى ما شئت أن تنقِّرى ... صيادك اليوم قتيل فابشرى

قال : وبعث الحسين إلى المدينة يقدم عليه من خفّ من بنى عبد المطّلب ، وهم تسعة عشر رجلا ونساء وصبيان من إخوته وبناته ونسائه . وتبعهم محمد بن الحنفية ، فأدرك حسينا بمكة ، فأعلمه أن الخروج ليس له برأى يومه هذا ، فأبى الحسين أن يقبل ، فحبس محمد بن الحنفية ولده فلم يبعث أحداً منهم حتى وجد الحسين فى نفسه على محمد ، وقال : ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه ؟ فقال : وما حاجتى إلى أن تصاب ويصابون معك ؟ وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم؟ قالوا : وبعث أهل العراق إلى الحسين الرسل والكتب يدعونه إليهم فخرج متوجها إليهم فى أهل بيته وستين شخصا من أهل الكوفة صحبته ، وذلك يوم الاثنين فى عشر ذى الحجة ، فكتب مروان إلى ابن زياد : أما بعد فإن الحسن بن علىّ قد توجه إليك ، وهو الحسين بن فاطمة . وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتالله ما أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين ، فإياك أن تهيج على نفسك مالا يسده شىء ، ولا تنساه العامة ، ولا تدع ذكره آخر الدهر والسلام وكتب إليه عمرو بن سعيد بن العاص : أما بعد فقد توجه إليك الحسين ، وفى مثلها تعتق أو تكون عبداً تسترق كما يسترق العبيد . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن الضحاك عن أبيه قال : كتب يزيد إلى ابن زياد : إنه قد بلغنى أن حسينا سار إلى الكوفة ، وقد ابتلى به زمانك من بين الأزمان ، وبلدك من بين البلدان ، وابتليت أنت به من بين العمال ، وعندها تعتق أو تعود عبدا كما ترق العبيد وتعبّد ، فقتله ابن زياد وبعث برأسه إليه .

قلت : والصحيح أنه لم يبعث برأس الحسين إلى الشام كما سيأتى [وفى رواية: أن يزيد كتب إلى ابن زياد : قد بلغنى أن الحسين قد توجه إلى نحو العراق ، فضع المناظر والمسالح[١] ، واحترس واحبس على الظنة وخذ على التهمة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلىّ فى كل ما يحدُث من خبر ، والسلام][٢] .

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهم قوم ذوو سلاح . (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

قال الزبير بن بكار : وحدثنى محمد بن الضحاك قال : لما أراد الحسين الخروج من مكة إلى الكوفة مر بباب المسجد الحرام وقال :

لاذَعَرْتُ السوام فى فلق الصبـــح مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيما . والمنايا ترصدنَنى أن أحيدا

وقال أبو مخنف : قال أبو جناب ـ يحيى بن أبى خيثمة، عن عدى بن حرملة الأسدىّ عن عبدالله ابن سليم والمذرى بن المشمعل الأسديّين قالا : خرجنا حاجّين من الكوفة فقدمنا مكة فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين وابن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب ، فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين : إن شئت أن تقيم أقمت فوَلّيت هذا الأمر فآزرناك وساعدناك ، ونصحنا لك وبايعناك ؟ . فقال الحسين : إن أبى حدثنى أن بها كبشاً يستحل حُرمتها يقتل ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش فقال له ابن الزبير : فأقم إن شئتَ ، وولّنى أنا الأمر فتطاع ولا تُعصى ، فقال : وما أريد هذا أيضاً . ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا ، فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دُعاةَ الناس متوجهين إلى مِنًى عند الظهيرة ، قالا : فطاف الحسين بالبيت وبين الصفا والمروة ، وقَصّرَ من شعره ، وحلّ من عُمرته ، ثم توجه نحو الكوفة وتوجهنا نحن مع الناس إلى منى .

وقال أبو مخنف : حدثنى الحارث بن كعب الوالبيّ عن عقبة بن سمعان قال : لما خرج الحسين من مكة اعترضه رُسُل عمرو بن سعيد ـ يعنى نائب مكة ـ عليهم أخوه يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرف أين تريد ؟ فأبى عليهم ومضى ، وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط والعصىّ ، ثم إن حسيناً وأصحابه امتنعوا منهم امتناعاً قويا ، ومضى الحسين على وجهه ذلك ، فنادوه : ياحسين ألا تتقى الله ! تخرج من الجماعة وتفرق بين الأمة بعد اجتماع الكلمة ! قال : فتأول الحسين هذه الآية : (لى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)[1] .

قال : ثم إن الحسين مر بالتنعيم فلقى بها عيراً قد بعث بها بَحير بن رَيسان الحميرى ـ نائب اليمن ـ قد أرسلها من اليمن إلى يزيد بن معاوية ، عليها وَرْس[2] وحُلَل كثيرة ، فأخذها الحسين وانطلق بها ، واستأجر أصحاب الجمال عليها إلى الكوفة ، ودفع إليهم أجرتهم ، ثم ساق أبو مخنف بإسناده الأول ، أن الفرزدق لقى الحسين فى الطريق فسلم عليه وقال له : أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب . فسأله الحسين عن أمر الناس وما وراءه فقال له . قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء . فقال له : صدقت ، لله الأمر من قبل

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة يونس . (٢) الورس : نبت أصفر باليمن تتخذ منه الغمرة للوجه .

ومن بعد ، يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا فى شأن ، إن نزل القضاء بما نحب ، فنحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر . وإن حال القضاء دون الرّجاء ، فلم يتعدّ من كان الحق نيته ، والتقوى سريرته . ثم حرك الحسين راحلته وقال : السلام عليكم ثم افترقا . وقال هشام بن الكلبى عن عوانة بن الحكم، عن لَبَطة بن غالب بن الفرزدق عن أبيه قال : حججت بأمى فبينما أنا أسوق بها بعيرها حين دخلت الحرم فى أيام الحج ، وذلك فى سنة ستين ـ إذ لقيت الحسين خارجاً من مكة معه أسيافه وتراسه ، فقلت له : بأبى وأمى يا ابن رسول الله ، ما أعجلك عن الحج؟ فقال : لو لم أعجل لأخذتُ ، ثم سألنى : ممن أنت ؟ فقلت : امرؤ من العراق ، فسألنى عن الناس فقلت له : القلوب معك والسيوف معْ بنى أمية ، وذكر نحو ما تقدم .

[قال الفرزدق : وسألت الحسين عن أشياء وعن المناسك ، فأخبرنى بها قال : وإذا هو ثقيل اللسان من برسام[1] كان أصابه بالعراق][2] قال : ثم مضيتُ فإذا فُسطاط مضروب فى الحرم وهيئة حسنة ، فأتيته فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فسألنى فأخبرته أنى لقيت الحسين ، فقال : فهلا اتبعته ! فإن الحسين لا يحيك[3] فيه السلاح ولا يجوز فيه ولا فى أصحابه. فندم الفرزدق وهمّ أن يلحق به ، ووقع فى قلبه مقالة ابن عمرو ، ثم ذكرت الأنبياء وقتلهم ، فصدّنى ذلك عن اللحاق به ، فلما بلغه أنه قتل لعن ابن عمرو ، وكان ابن عمرو يقول : والله لا تبلغ الشجرة ولا النخلة ولا الصغير حتى يبلغ هذا الأمر ويظهر ، وإنما أراد ابن عمرو بقوله : لا يحيك فيه السلاح ـ أى السلاح الذى لم يقدر أن يقتل به ، وقيل غير ذلك ، وقيل أراد الهزل بالفرزدق . قالوا : ثم سار الحسين لا يلوى على شىء حتى نزل ذات عرق .

قال أبو مخنف : فحدثنى الحارث بن كعب الوالبى عن على بن الحسين بن على قال : لما خرجنا من مكة كتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين مع ابنيه عون ومحمد : أما بعد، فإنى أسألك بالله لما انصرفت حتى تنظر فى كتابى هذا ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طفىء نور الإسلام ، فإنك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجّل بالسير فإنى فى أثر كتابى والسلام .

ثم نهض عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد نائب مكة فقال له : اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع . فقال له عمرو : اكتب عنى ما شئت وأتنى به حتى أختمه . فكتب ابن جعفر

---

(١) البرسام : علة يهذى فيها .
(٢) مابين القوسين ساقط من بعض النسخ .
(٣) أى : لايؤثر .

على لسان عمرو بن سعيد ـ ما أراد عبد الله ، ثم جاء بالكتاب إلى عمرو فختمه بخاتمه ، وقال عبدالله لعمرو بن سعيد : ابعث معي أمانك ، فبعث معه أخاه يحيى ، فانصرفا حتى لحقا الحسين فقرأ عليه الكتاب فأبى أن يرجع وقال : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد أمرني فيها بأمر وأنا ماض له ، فقالا : وما تلك الرؤيا ؟ فقال : لا أحدث بها أحداً حتى ألقى ربي عز وجل .

قال أبو مخنف : وحدثني محمد بن قيس أن الحسين أقبل حتى إذا بلغ الحاجر من بطن الرُّمّة [1] ، بعث قيس بن مُسْهِر الصيداوي إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي فاكتموا أمركم وجدّوا ، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قال : وكان كتاب مسلم قد وصل إليه قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة ، ومضمونه : أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله ، وإنّ جميع أهل الكوفة معك ، فأقبل حين تقرأ كتابي هذا ، والسلام عليكم .

قال : وأقبل قيس بن مُسْهِر الصيداوي بكتاب الحسين إلى الكوفة ، حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى عبيدالله بن زياد ، فقال له ابن زياد : اصعد إلى أعلا القصر فسُبَّ الكذاب ابن الكذاب علي بن أبي طالب وابنه الحسين ، فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن هذا الحسين بن عليّ خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر من بطن الرُّمة ، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا . ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعليّ والحسين . فأمر به ابن زياد فألقي من رأس القصر فتقطع ، ويقال : بل تكسرت عظامه وبقي فيه بقية رمق ، فقام إليه عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه ، وقال : إنما أردت إراحته من الألم وقيل : إنه رجل يشبه عبد الملك بن عمير وليس به . وفي رواية أن الذي قدم بكتاب الحسين ـ إنما هو عبد الله بن بقطر أخو الحسين من الرضاعة ، فألقي من أعلى القصر ، والله أعلم .

ثم أقبل الحسين نحو الكوفة ولا يعلم بشيء مما وقع من الأخبار . قال أبو مخنف عن أبي علي الأنصاري عن بكر بن مصعب المزني قال : وكان الحسين لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتبعوه ، قال : قال أبو مخنف عن أبي جناب عن عدي بن حرملة عن عبد الله بن سُليم والمذريّ بن المشمعل

(١) الرمة : قاع عظيم بنجد تصب فيه أودية كثيرة

الأسديين قالا : لما قضينا حجّنا لم يكن لنا همة إلا اللحاق بالحسين ، فأدركناه ، وقد مر برجل من بني أسد ، فهم الحسين أن يكلمه ويسأله ثم ترك ، فجئنا ذلك الرجل ، فسألناه عن أخبار الناس فقال: والله لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مُسلم بن عَقيل ، وهانىء بن عروة ، ورأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق . قالا : فلحقنا الحسين ، فأخبرناه فجعل يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون مراراً . فقلنا له: الله الله في نفسك . فقال : لاخير في العيش بعدهما . قلنا : خار الله لك . وقال له بعض أصحابه : والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قد قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع . وقال غيرهما : لما سمع أصحاب الحسين بمقتل مسلم بن عقيل - وثب عند ذلك بنو عقيل بن أبي طالب وقالوا : لا والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا ، أو نذوقَ ما ذاق أخونا . فسار الحسين حتى إذا كان بزرود ، بلغه أيضاً مقتل الذي بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة بعد أن خرج من مكة ، ووصل إلى حاجر ، فقال : خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج عليه ، وليس عليه منا ذمام ، قال : فتفرق الناس عنه أيادي سبأ يميناً وشمالا ، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من مكة ، [وإنما فعل ذلك لأنه ظن أن من اتبعه من الأعراب ، إنما اتبعوه لأنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهلها ، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على مَ يقدمون ، وقد علم أنه إذا بيّن لهم الأمر لم يصحبه إلا من يريد مواساته في الموت معه][1] ، قال : فلما كان السحر أمر فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ، ثم سار حتى مر ببطن العقبة فنزل بها .

وقال محمد بن سعد : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا جعفر بن سليمان ، عن يزيد الرشك قال : حدثني من شافه الحسين قال : رأيت أخبية مضروبة بفلاة من الأرض ، فقلت : لمن هذه ؟ قالوا : هذه لحسين ، قال : فأتيته ، فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته ، قال : قلت : بأبي وأمي يا ابن بنت رسول الله ، ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التي ليس بها أحد ؟ فقال : هذه كتب أهل الكوفة إليّ ، ولا أراهم إلا قاتلي ، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها ، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قِرام[2] الأمة - يعني مِقنعتها . وأخبرنا عليّ بن محمد عن الحسن بن دينار عن معاوية بن قرة قال : قال الحسين : والله لتعتدنّ عليّ كما اعتدت بنو إسرائيل في السبت . وحدثنا علي بن محمد عن جعفر بن سليمان الضبعي قال : قال الحسين : والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة ، فقتل بنينوى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو بكر الحيدي ، ثنا سفيان ، ثنا شهاب بن حراش عن رجل

(١) مابين القوسين ساقط من بعض النسخ. (٢) القرام : ستر فيه رقم ونقوش تغطى به المرأة وجهها.

من قومه قال : كنت في الجيش الذين بعثهم ابن زياد إلى الحسين ، وكانوا أربعة آلاف يريدون قتال الديلم ، فعينهم ابن زياد وصرفهم إلى قتال الحسين ، فلقيت حسيناً فرأيته أسود الرأس واللحية فقلت له : السلام عليك أبا عبد الله ، فقال : وعليك السلام - وكانت فيه غُنة[١] - فقال : لقد باتت فيكم منا سَلّة[٢] منذ الليلة - يعني سراقا . قال شهاب : فحدثت به زيد بن علي فأعجبه وكانت فيه غنة ، قال سفيان بن عيينة : وهي في الحسينيين .

قال أبو مخنف عن أبي خالد الكاهلي ، قال : لما صبحت الخيل الحسين بن عليّ رفع يديه فقال : اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعُدّة ، فكم من هَمّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو ، فأنزلته بك وشكوته إليك ، رغبة فيه إليك عن سواك ، ففرجته وكشفته وكفيتنيه ، فأنت لي وليّ كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل غاية . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثني حجاج بن محمد عن أبي معشر عن بعض مشيخته قال : قال الحسين حين نزلوا كربلاء : ما اسم هذه الأرض ؟ قالوا : كربلاء ، قال : كرب وبلاء . وبعث عبيد الله بن زياد عُمَر بن سعد لقتالهم ، فقال له الحسين : يا عُمَر اختر مني إحدى ثلاث خصال ، إما أن تتركني أرجع كما جئت ، فإن أبيت هذه فسيرني إلى يزيد ، فأضع يدي في يده فيحكم فيّ ما رأى ، فإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت . فأرسل إلى ابن زياد بذلك ، فهمّ أن يسيره إلى يزيد ، فقال شمر بن ذي الجوشن : لا ! إلا أن ينزل على حكمك ، فأرسل إلى الحسين بذلك فقال الحسين : والله لا أفعل ، وأبطأ عمر عن قتاله فأرسل ابن زياد شمر بن ذي الجوشن وقال له : إن تقدم عمر فقاتل ، وإلا فاقتله وكن مكانه ، فقد وليتك الإمرة . وكان مع عمر قريب من ثلاثين رجلا من أعيان أهل الكوفة ، فقالوا له : يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال : فلا تقبلوا منها شيئاً ؟ فتحولوا مع الحسين يقاتلون معه .

وقال أبو زرعة : حدثنا سعيد بن سليمان ، ثنا عباد بن العوام عن حصين قال : أدركت من مقتل الحسين قال : فحدثني سعد بن عبيدة قال : فرأيت الحسين وعليه جبة برود ورماه رجل يقال له عمرو بن خالد الطّهوي بسهم ، فنظرت إلى السهم معلقاً بجبته . وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عمار الرازي ، حدثني سعيد بن سليمان ثنا عباد بن العوام ثنا حصين أن الحسين بعث إليه أهل الكوفة : إن معك مائة ألف . فبعث إليهم مسلم بن عقيل ، فذكر قصة مقتل مسلم كما تقدم .

---

(١) الغنة : جريان الكلام في اللهاة ، وظبي أغن : يخرج صوته من خياشيمه .

(٢) السلة : قرحة تحدث في الرئة يتبعها سعال طويل .

قال حصين : فحدثني هلال بن يساف أن ابن زياد أمر الناس أن يأخذوا ما بين وَاقصة[1] إلى طريق الشام إلى طريق البصرة حفظاً ، فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج ، وأقبل الحسين ولا يشعر بشيء حتى أتى الأعراب فسألهم عن الناس فقالوا : والله لا ندري ، غير أنك لا تستطيع أن تلج ولا تخرج ، قال : فانطلق يسير نحو يزيد بن معاوية ، فتلقته الخيول بكربلاء ، فنزل يناشدهم الله والإسلام ، قال : وكان بعث إليه ابن زياد عُمَر بن سعد و شمر بن ذي الجَوْشن وحُصين بن تميم ، فناشدهم الله والإسلام أن يسيروه إلى أمير المؤمنين يزيد ، فيضع يده في يده ، فقالوا له : لا ، إلا أن تنزل على حكم ابن زياد ، وكان في جملة من معهم الحرّ بن يزيد الحنظليّ ، ثم النهشليّ على خيل ، فلما سمع ما يقول الحسين قال لهم : ألا تتقون الله ؟ ألا تقبلون من هؤلاء ما يعرضون عليكم ؟ والله لو سألتكم هذا التُّرك والدَّيلم ما حلّ لكم أن تردوهم فأبوا إلا على حكم ابن زياد ! فضرب الحر وجه فرسه وانطلق إلى الحسين ، فظنوا أنه إنما جاء ليقاتلهم ، فلما دنا منهم قلب تُرسه وسلّم عليهم ، ثم كرّ على أصحاب ابن زياد فقتل منهم رجلين ، ثم قتل رحمه الله .

وذكر أن زهير بن القَين البجلي لقي الحسين ، وكان حاجاً فأقبل معه ، وخرج إليه ابن أبي بحرّية المرادي ورجلان آخران ، وهما : عمرو بن الحجاج ومعن السُّلمي ، وأقبل الحسين يكلم من بعث إليه ابن زياد وعليه جبة من بُرُود ، فلما كلمهم انصرف فرماه رجل من بني تميم يقال له عمرو الطَّهوي بسهم بين كتفيه ، فإني لأنظر إلى السهم بين كتفيه متعلقاً بجبّته ، فلما أبوا عليه رجع إلى مصافّه ، وإني لأنظر إليهم وهم قريب من مائة رجل ، فيهم لِصُلب عليّ خمسة ، ومن بني هاشم ستة عشر ، ورجل من بني سُليم حليف لهم ، ورجل من بني كنانة حليف لهم ، وابن عمر بن زياد .

وقال حصين : حدثني سعد بن عبيدة قال : إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجل فسارّه فقال له : قد بعث إليك ابن زياد جُوَيرية بن بدر التميمي وأمَره إن لم تقاتل القوم أن يضرب عنقك ، قال : فوثب إلى فرسه فركبها ، ثم دعا بسلاحه فلبسه وإنه لعلى فرسه ، ونهض بالناس إليهم فقاتلوهم فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد ، فوضع بين يديه فجعل ينكتُ بقضيبه في أنفه ويقول : إن أبا عبد الله كان قد شمط . قال : وجيء بنسائه وبناته وأهله قال : وكان أحسن شيء صنعه أن أمر لهم بمنزل في مكان معتزل وأجرى عليهم رزقاً ، وأمر لهم بنفقة وكسوة . قال : وانطلق غلامان منهم من أولاد عبد الله بن جعفر — أو ابن أبي جعفر — فأتيا رجلا من طيء فلجأ إليه يستجيران به ، فضرب أعناقهما وجاء برأسيهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد ، قال : فهم ابن زياد بضرب عنقه وأمر بداره فهدمت .

---

(١) واقصة : موضع بطريق الكوفة .

قال : وحدثني مولى لمعاوية بن أبي سفيان قال : لما أتي يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه رأيته يبكي ويقول : لو كان بين ابن زياد وبينه رحم ما فعل هذا – يعني ابن زياد ، قال الحصين : ولما قتل الحسين لبثوا شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلعُ الشمس حتى ترتفع .

[قال أبو مخنف : حدثني لوذان حدثني عكرمة ، أن أحد عمومته سأل الحسين : أين تريد ؟ فحدثه ، فقال له : أنشدك الله لما انصرفت راجعاً ، فوالله ما بين يديك من القوم أحد يذب عنك ولا يقاتل معك ، وإنما والله أنت قادم على الأسنة والسيوف ، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطأوا لك الأشياء ، ثم قدمت عليهم بعد ذلك – كان ذلك رأيا ، فأما على هذه الصفة فإني لا أرى لك أن تفعل . فقال له الحسين : إنه ليس يخفى عليّ ما قلت وما رأيت ، ولكن الله لا يغلب على أمره ، ثم ارتحل قاصداً الكوفة . وقال خالد بن العاص :

رُبَّ مستنصح يغش ويُردى وظنين بالغيب يلفى نصيحا][1]

وقد حج بالناس في هذه السنة عمرو بن سعيد بن العاص – وكان عامل المدينة ومكة ليزيد ، وقد عزل يزيد عن إمرة المدينة الوليد بن عتبة ، وولاها عمرو بن سعيد بن العاص في شهر رمضان منها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وستين

استهلت هذه السنة والحسين بن علي سائر إلى الكوفة فيما بين مكة والعراق ومعه أصحابه وقراباته ، فقتل في يوم عاشوراء من شهر المحرم من هذه السنة على المشهور صححه الواقدي وغير واحد ، وزعم بعضهم أنه قتل في صفر منها والأول أصح .

صفة مقتله رضي الله عنه

مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب الصريح والبهتان

قال أبو مخنف عن أبي جناب عن عدي بن حرملة عن عبد الله بن حرملة عن عبد الله بن سليم والمذرى بن المشمعل الأسديين قالا : أقبل الحسين فلما نزل شرَف قال لفتيانه وقت السَّحَر : استقوا من الماء فأكثروا ، ثم ساروا إلى صدر النهار فسمع الحسين رجلا يكبّر فقال له : مم كبرت ؟ فقال : رأيت النخيل ، فقال له الأسديان : إن هذا المكان لم ير أحد منه نخيلة ، فقال الحسين : فماذا ترَيانه رأى ؟ فقالا : هذه الخيل قد أقبلت ، فقال الحسين : أما لنا ملجأ نجعله في ظهورنا ونستقبل

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

القوم من وجه واحد ؟ فقالا : بلى ، ذو حُسُم فأخذ ذات اليسار إليها فنزل ، وأمر بأبنيته فضربت ، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمى ، وهم مقدمة الجيش الذين بعثهم ابن زياد ، حتى وقفوا فى مقابلته فى حرّ الظهيرة ، والحسين وأصحابه معتمون متقلدون سيوفهم ، فأمر الحسين أصحابه أن يترَوَّوا من الماء ويسقوا خيولهم ، وأن يسقوا خيول أعدائهم أيضا . وروى هو وغيره قالوا . لما دخل وقت الظهر أمر الحسين الحجاج بن مَسروق الجعفى فأذّن ثم خرج الحسين فى إزار ورداء ونعلين، فخطب الناس من أصحابه وأعدائه ، واعتذر إليهم فى مجيئه هذا إلى ههنا ، بأنه قد كتب إليه أهل الكوفة أنهم ليس لهم إمام ، وإن أنت قدمت علينا بايعناك وقاتلنا معك ، ثم أقيمت الصلاة فقال الحسين للحر : تريد أن تصلى بأصحابك ؟ قال: لا ! ولكن صلّ أنت ونحن نُصلى وراءك ، فصلى بهم الحسين ، ثم دخل إلى خيمته واجتمع به أصحابه ، وانصرف الحر إلى جيشه وكلٌّ على أهُبته ، فلما كان وقت العصر صلى بهم الحسين ، ثم انصرف فخطبهم وحثهم على السمع والطاعة له ، وخلع من عاداهم من الأدعياء السائرين فيكم بالجور .

فقال له الحر : إنا لا ندرى ما هذه الكتب ! ولا من كتبها ! فأحضر الحسين خُرْجين مملوءين كتبا فنثرها بين يديه وقرأ منها طائفة ، فقال الحر : لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك فى شىء ، وقد أُمِرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد ، فقال الحسين : الموت أدنى من ذلك ، ثم قال الحسين لأصحابه . اركبوا ، فركبوا وركب النساء ، فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف ، فقال الحسين للحر : ثَكِلَتك أُمّك ، ماذا تريد ؟ فقال له الحر : أما والله لو غيرك يقولها لى من العرب وهو على مثل الحال التى أنت عليها ـ لأقتصّن منه ، ولما تركت أمه ، ولكن لا سبيل إلى ذكر أمك إلا بأحسن ما نقدر عليه وتقاول القوم وتراجعوا فقال له الحر : إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد ، فإذا أبيت فخذ طريقا لا تُقدمك الكوفة ولا تردّك إلى المدينة ، واكتب أنت إلى يزيد ، واكتب أنا إلى ابن زياد إن شئت ، فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك .

قال : فأخذ الحسين يساراً عن طريق العُذَيب والقادسية ، والحر بن يزيد يسايره وهو يقول له : يا حسين إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكنّ فيما أرى . فقال له الحسين : أفبالموت تخوفنى ؟ ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ـ وقد لقيه وهو يريد نُصرة رسول الله ﷺ فقال له : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال:

سأمضى وما بالموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مُسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه　　وفارق خوفاً أن يعيش ويُرغما

ويروى على صفة أخرى :

سأمضى وما بالموت عارٌ على امرىء　　إذا ما نوى حقاً ولم يلف مُجرما

فإن مت لم أندم وإن عشت لم أُلَم　　كفى بك موتاً أن تذل وتُرغما

فلما سمع ذلك الحر منه تنحّى عنه وجعل يسير بأصحابه ناحيةً عنه . فانتهوا إلى عُذيب الهجانات[1] وإذا نفرٌ أربعة ـ أى أربعة نفر ـ قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يخبّون ، ويجنبُون فرسا لنافع بن هلال يقال له : الكامل [قد أقبلوا من الكوفة يقصدون الحسين ودليلهم رجل يقال له : الطِّرِمّاح بن عدى راكب على فرس][2] وهو يقول :

يا ناقتى لا تُذْعرى من زَجْرى　　وشَمّرى قبل طلوع الفَجْر

بخيرِ رُكْبان وخيرِ سَفْر　　حتى تحلّى بكريم النجر

الماجدِ الحُرِّ رحيب الصدر　　أتى به اللهُ لخير أمْرِ

ثُمّت أبقاه بقاء الدهرِ

فأراد الحر أن يحول بينهم وبين الحسين فمنعه الحسين من ذلك ، فلما خلصوا إليه قال لهم : أخبرونى عن الناس وراءكم ، فقال له مُجَمّع بن عبد الله العائذى أحد النفر الأربعة : أما أشراف الناس فهم ألبٌ عليك[3] ، لأنهم قد عظمت رِشوتهم وملئت غرائرهم ، يستميل بذلك وُدّهم ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألب واحد عليك . وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك . قال لهم : فهل لكم برسولى علم ؟ قالوا : ومن رسولك ؟ قال : قيس بن مُسهِر الصَّيداوى . قالوا : نعم أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك ، فصلى عليك وعلى أبيك ولعن ابن زياد وأباه ، ودعا الناس إلى نصرتك وأخبرهم بقدومك فأمر به فألقى من رأس القصر فمات ، فترقرقت عينا الحسين وقرأ قوله تعالى (فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنهُم مَن يَنْتَظِر)[4] الآية :

ثم قال : اللهم اجعل منازلهم الجنة نُزُلاً ، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر من رحمتك ، ورغائب مذخور ثوابك . ثم إن الطرمّاح بن عدى قال للحسين : انظر فما معك ؟ لا أرى معك أحداً إلا هذه الشرذمة اليسيرة ، وإنى لا أرى هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك ،

---

(١) كان بها هجائن النعمان ترعى هنالك　　(٢) مابين القوسين سقط من بعض النسخ

(٣) الألب : الجمع الكثير من الناس ، وألبهم جمعهم . (٤) من الآية : ٢٣ من سورة الأحزاب

فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيول والجيوش يعرضون ليقصدونك ، فأنشدك الله ، إن قدرت ألا تقدم إليهم شبرا فافعل ، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به من ملوك غسان وحمير ، ومن النعمان بن المنذر ، ومن الأسود والأحمر ، والله إن دخل علينا ذل قط فأسير معك حتى أنزلك القُرَيّة ، ثم تبعث إلى الرجال ممن بأجأ وسلمى من طيء ، ثم أقم معنا ما بدالك ، فأنا زعيم بعشرة آلاف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم ، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف . فقال له الحسين : جزاك الله خيراً ، فلم يرجع عما هو بصدده ، فودعه الطرماح ، ومضى الحسين .

فلما كان من الليل أمر فتيانه أن يستقوا من الماء كفايتهم ، ثم سرى فنعس في مسيره حتى خفق برأسه ، واستيقظ وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين . ثم قال : رأيت فارساً على فرس وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم ، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا ، فلما طلع الفجر صلى بأصحابه وعجّل الركوب ثم تياسر في مسيره حتى انتهى إلى نِينَوَى ، فإذا راكب متنكب قوساً قد قدم من الكوفة ، فسلّم على الحرّ بن يزيد ولم يسلّم على الحسين ، ودفع إلى الحرّ كتابا من ابن زياد ومضمونه : أن يعدل بالحسين في السير إلى العراق في غير قرية ولا حصن ، حتى تأتيه رسله وجنوده ، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين ، فلما كان من الغد قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، وكان قد جهزه ابن زياد في هؤلاء إلى الديلم ، وخيم بظاهر الكوفة ، فلما قدم عليهم أمر الحسين قال له: سر إليه فإذا فرغت منه فسر إلى الديلم، فاستعفاه عمر بن سعد من ذلك . فقال له ابن زياد : إن شئت عفيتك وعزلتك عن ولاية هذه البلاد التي قد استنبتك عليها ، فقال : حتى أنظر في أمرى ، فجعل لا يستشير أحدا إلا نهاه عن المسير إلى الحسين ، حتى قال له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة : إياك أن تسير إلى الحسين فتعصى ربك وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من سلطان الأرض كلها أحب إليك من أن تلقى الله بدم الحسين ، فقال : إني أفعل إن شاء الله تعالى .

ثم إن عبيد الله بن زياد تهدده وتوعده بالعزل والقتل ، فسار إلى الحسين فنازله في المكان الذي ذكرناه ، ثم بعث إلى الحسين الرسل : ما الذي أقدمك ؟ فقال : كتب إلى أهل الكوفة أن أقدم عليهم ، فإذ قد كرهوني فأنا راجع إلى مكة وأذركم . فلما بلغ عمر بن سعد هذا قال : أرجو أن يعافيني الله من حربه ، وكتب إلى ابن زياد بذلك ، فردّ عليه ابن زياد : أن حُلّ بينهم وبين الماء كما فعل بالتقى الزكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، واعرض على الحسين أن يبايع هو ومن معه لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، فإذا فعلوا ذلك رأينا رأينا ، وجعل أصحاب عمر بن سعد يمنعون أصحاب الحسين من الماء ، وعلى سرية منهم عمرو بن الحجاج ، فدعا عليهم بالعطش فمات هذا الرجل من شدة العطش .

ثم إن الحسين طلب من عُمر بن سعد أن يجتمع به بين العسكرين ، فجاء كل واحد منهما فى نحو من عشرين فارساً ، فتكلما طويلا حتى ذهب هزيع من الليل ، ولم يدر أحد ما قالا ، ولكن ظن بعض الناس أنه سأله أن يذهب معه إلى يزيد بن معاوية إلى الشام ويتركا العسكرين متوافقين فقال عمر : إذاً يهدم ابن زياد دارى ، فقال الحسين : أنا أبنيها لك أحسن مما كانت ، قال : إذا يأخذ ضياعى ، قال : أنا أعطيك خيراً منها من مالى بالحجاز ، قال : فتكرّه عمر بن سعد من ذلك وقال بعضهم : بل سأل منه إما أن يذهبا إلى يزيد ، أو يتركه يرجع إلى الحجاز ، أو يذهب إلى بعض الثغور فيقاتل الترك . فكتب عمر إلى عبيد الله بذلك ، فقال : نعم ! قد قبلت . فقام شمر ابن ذى الجَوْشَن فقال: لا ـ والله حتى ينزل على حكمك هو وأصحابه ، ثم قال : والله لقد بلغنى أن حسينا وابن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل ، فقال له ابن زياد : فنعم ما رأيت .

وقد روى أبو مخنف ، حدثنى عبد الرحمن بن جُندُب عن عقبة بن سمعان قال : لقد صحبت الحسين من مكة إلى حين قُتل ، والله ما من كلمة قالها فى موطن إلا وقد سمعتها ، وإنه لم يسأل أن يذهب إلى يزيد فيضع يده إلى يده ، ولا أن يذهب إلى ثغر من الثغور ، ولكن طلب منهم أحد أمرين : إما أن يرجع من حيث جاء ، وإما أن يدَعُوه يذهب فى الأرض العريضة حتى ينظر ما يصير أمر الناس إليه . ثم إن عبيد الله بعث شمر بن ذى الجوْشن فقال: اذهب فإن جاء حسين وأصحابه على حكمى ، وإلا فمر عمر بن سعد أن يقاتلهم ، فإن تباطأ عن ذلك فاضرب عنقه ، ثم أنت الأمير على الناس .

وكتب إلى عمر بن سعد يتهدده على توانيه فى قتال الحسين ، وأمره إن لم يجىء الحسين إليه أن يقاتله ومن معه ، فإنهم مشاقون . فاستأمن عبيد الله بن أبى المحلّ لبنى عمته أم البنين بنت حِرام من علىّ ، وهم : العباس وعبد الله وجعفر وعثمان . فكتب لهم ابن زياد كتاب أمان وبعثه عبيد الله بن المحلّ مع مولى له يقال له كُزْمَان ، فلما بلغهم ذلك قالوا : أما أمان ابن سمية فلا نريده ، وإنا لنرجوا أمانا خيراً من أمان ابن سمية . ولما قدم شمر بن ذى الجوشن على عمر ابن سعد بكتاب عبيد الله بن زياد ، قال عمر : أبعد الله دارك ، وقبح ما جئت به ، والله إنى لأظنك الذى صرفته عن الذى عرضت عليه من الأمور الثلاثة التى طلبها الحسين ، فقال له شمر : فأخبرنى ما أنت صانع ؟ أتقاتلهم أنت أوتاركى وإياهم ؟ فقال له عمر : لا ولا كرامة لك ! أنا أتولى ذلك ، وجعله على الرجالة ونهضوا إليهم عشية يوم الخميس التاسع من المحرم ، فقام شمر بن ذى الجوشن فقال: أين بنو أختنا ؟ فقام إليه العباس وعبد الله ، وجعفر وعثمان بنو على بن أبى طالب ، فقال : أنتم آمنون . فقالوا : إن أمّنتنا وابن رسول الله ﷺ ، وإلا فلا حاجة لنا بأمانك .

قال : ثم نادى عمر بن سعد فى الجيش : يا خيلَ الله اركبى وأبشرى ، فركبوا وزحفوا إليهم بعد صلاة العصر من يومئذ ، هذا وحسين جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه ، ونعس تخفق برأسه وسمعت أخته الضجة فدنت منه فأيقظته ، فرجع برأسه كما هو وقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى : « إنك تروح إلينا » فلطمت وجهها وقالت : يا ويلتنا . فقال : ليس لك الويل يا أخية ! اسكنى رحمك الرحمن ، وقال له أخوه العباس بن على : يا أخى جاءك القوم ، فقال : اذهب إليهم فسلهم ما بدا لهم ، فذهب إليهم فى نحو من عشرين فارساً فقال : ما لكم ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير إما أن تأتوا على حكمه ، وإما أن نقاتلكم ! فقال : مكانكم حتى أذهب إلى أبى عبد الله فأعلمه ، فرجع ووقف أصحابه فجعلوا يتراجعون القول ، ويؤنب بعضهم بعضاً ، يقول أصحاب الحسين : بئس القوم ، أنتم تريدون قتل ذرية نبيكم ، وخيار الناس فى زمانهم ! ثم رجع العباس ابن على من عند الحسين إليهم فقال لهم : يقول لكم أبو عبد الله : انصرفوا عشيتكم هذه حتى ينظر فى أمره الليلة ، فقال عمر بن سعد لشمر بن ذى الجوشن : ما تقول ؟ فقال : أنت الأمير والرأى رأيك ، فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزُّبيدى : سبحان الله ! والله لو سألكم ذلك رجل من الديلم لكان ينبغى إجابته . وقال قيس بن الأشعث : أجبهم إلى ما سألوك ، فلعمرى ليصبحنَّك بالقتال غُدوة . وهكذا جرى الأمر، فإن الحسين لما رجع العباس قال له : ارجع فارددهم هذه العشية لعلنا نصلى لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه ، فقد علم الله منى أنى أحب الصلاة له ، وتلاوة كتابه ، والاستغفار والدعاء .

وأوصى الحسين فى هذه الليلة إلى أهله ، وخطب أصحابه فى أول الليل فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسوله بعبارة فصيحة بليغة ، وقال لأصحابه : من أحب أن ينصرف إلى أهله فى ليلته هذه فقد أذنت له . فإن القوم إنما يريدوننى ! فقال مالك بن النضر : على دين ولى عيال ، فقال: هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جَملا[1] ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتى ، ثم اذهبوا فى بسيط الأرض فى سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم ، فإن القوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابونى لَهوا عن طلب غيرى ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل . فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه : لا بقاء لنا بعدك ، ولا أرانا الله فيك ما نكره ، فقال الحسين : يا بنى عقيل حسبكم بمسلم أخيكم ، اذهبوا فقد أذنت لكم ، قالوا : فما تقول الناس ! إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، لم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، رغبة فى الحياة الدنيا ، لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا ، وأهلينا ، ونقاتل معك

---

(١) أى ستراً . والجملة ــ محركة ــ كالقبة ، موضع يزين بالثياب والستور للعروس .

حتى ترد موردك ، فقبح الله العيش بعدك . وقال نحو ذلك مسلم بن عَوْسجة الأسدى ، وكذلك قال سعيد بن عبد الله الحنفى : والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك ، ، الله لو علمت أنى أقتل دونك ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن انفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببت ذلك ، وإنما هى قتلة واحدة

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً من وجه واحد ، فقالوا : والله لا نفارقك ، وأنفسنا الفداء لك ، نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحن قتلنا وَفَّينا وقضينا ما علينا . وقال أخوة العباس : لا أرانا الله يوم فقدك ولا حاجة لنا فى الحياة بعدك . وتتابع أصحابه على ذلك][1] .

وقال أبو مخنف : حدثنى الحارث بن كعب وأبو الضحّاك عن على بن الحسين زين العابدين قال : إنى لجالس تلك العشية التى قتل أبى فى صبيحتها ، وعمتى زينب تمرّضنى إذ اعتزل أبى فى خبائه ومعه أصحابه ، وعنده حُوَىٌّ مولى أبى ذرّ الغِفارى ، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول :

يا دهر أفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالبٍ قتيل ... والدهرُ لا يقنعُ بالبــديل

وإنمـا الأمرُ إلى الجليــل ... وكلُّ حىٍّ سالكُ السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى حفظتها وفهمت ما أراد ، فخنقتنى العبرة فرددتها ، ولزمت السكوت ، وعلمت أن البلاء قد نزل . وأما عمتى فقامت حاسرة حتى انتهت إليه فقالت : واثُكلاه ! ! ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ، ماتت أمى فاطمة ، ، علىّ أبى ، وحسن أخى ، يا خليفة الماضى ، وثِمال الباقى . فنظر إليها وقال : يا أُخيّة ، [لا يُذهِبنّ حلمك الشيطان ، فقالت : بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ، استقتلت ؟ ولَطَمت وجهها وشقّت جَيبها وخرّت مغشياً عليها ، فقام إليها فصبّ على وجهها الماء وقال : يا أخية][2] اتقى الله واصبرى وتعزّى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شىء هالك إلا وجه الله الذى خلق الخلق بقدرته ، ويميتهم بقهره وعزته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وهو فرد وحده ، واعلمى أنّ أبى خيرٌ منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ . (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

أسوة حسنة ، ثم حرّج عليها أن لا تفعل شيئاً من هذا بعد مهلكه ، ثم أخذ بيدها فردّها إلى عندى ، ثم خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يدنوا بيوتهم بعضاً من بعض حتى تدخل الأطناب بعضها فى بعض ، وأن لا يجعلوا للعدو مخلصاً إليهم إلا من جهة واحدة ، وتكون البيوت عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن ورائهم .

وبات الحسين وأصحابه طول ليلهم يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، وخيول حرس عدوّهم تدور من ورائهم ، عليها عَزْرة بن قيس الأحمسى [والحسين يقرأ (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)[1] الآية ، فسمعها رجل من تلك الخيل التى كانت تحرس من أصحاب ابن زياد فقال : نحن وربّ الكعبة الطيبون ميزنا الله منكم . قال : فعرفته فقلت لزيد[2] بن حضير : أتدرى من هذا ؟ قال : لا ! فقلت : هذا أبو حَرْب السَّبيعى عبيد الله بن شهر ـ وكان مضحاكا بطّالا ـ وكان شريفاً شجاعا فاتكا ، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه فى خيانه . فقال له يزيد بن حصين : يا فاسق ، متى كنت من الطيبين ؟ فقال : من أنت ويلك ؟ قال : أنا يزيد بن حصين . قال : إنا لله ! هلكت والله عدوّ الله ! على م يريد قتلك ؟ قال : فقلت له : يا أبا حرب هل لك أن تتوب من ذنوبك العظام ؟ فوالله إنا لنحن الطيبون وإنكم لأنتم الخبيثون . قال : نعم وأنا على ذلك من الشاهدين . قال : ويحك ! أفلا ينفعك معرفتك ؟ قال : فانتهره عَزْرة بن قيس أمير السرية التى تحرسنا فانصرف عنا][3] .

قالوا : فلما صلى عمر بن سعد الصبح بأصحابه يوم الجمعة ، وقيل يوم السبت ـ وكان يوم عاشوراء ـ انتصب للقتال ، وصلى الحسين أيضاً بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلا ، ثم انصرف فصفّهم فجعل على ميمنته زهير بن القَين ، وعلى الميسرة حبيب بن المطهر[4] ، وأعطى رايته العباس بن علىّ أخاه ، وجعلوا البيوت بما فيها من الحرم وراء ظهورهم ، وقد أمر الحسين من الليل ، فحفروا وراء بيوتهم خندقاً وقذفوا فيه حطباً وخشباً وقصباً ، ثم أُضرمت فيه النار لئلا يخلص أحد إلى بيوتهم من ورائها. وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزُّبيدى وعلى الميسرة شمر بن ذى الجوشن ـ واسم ذى الجوشن شُرَحبيل بن الأعور بن عمر بن معاوية

---

(١) الآيتان : ١٧٨ — ١٧٩ من سورة آل عمران .
(٢) الذى فى الطبرى : برير بن حضير .
(٣) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .
(٤) فى الطبرى : مظاهر .

من بنى الضِّباب بن كلاب - وعلى الخيل عَرْوة بن قيس الأحمسىّ ، وعلى الرَّجالة شَبث بن ربعى، وأعطى الراية دُوَيدًا[١] مولاه ، وتواقف الناس فى ذلك الموضع ، فعدل الحسين إلى خيمة قد نصبت فاغتسل فيها وتَطَلَّى بالنُّورة ، وتطيب بمسك كثير ، ودخل بعده بعض الأمراء ففعلوا كما فعل ، فقال بعضهم لبعض : ما هذا فى هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : دعنا منك ، والله ما هذه بساعة باطل ، فقال يزيد بن حصين : والله لقد علم قومى أنى ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلا ، ولكن والله إنى لمستبشر بما نحن لاقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم فيقتلوننا .

ثم ركب الحسين على فرسه وأخذ مصحفاً فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعاً يديه يدعو بما تقدم ذكره : اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدّة .. إلى آخره . وركب ابنه على بن الحسين - وكان ضعيفاً مريضاً - فرساً يقال له الأحق ، ونادى الحسين : أيها الناس ! اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم ، فأنصت الناس كلهم ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس إن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم علىّ سبيل ، وإن لم تقبلوا منى (فأجمِعُوا أمْرَكُم وشُرَكَاءَكُم ثم لا يَكُن أمْرُكُم عَلَيكُم غُمَّةً ثم اقْضُوا إلىَّ ولا تُنْظِرُون)[٢] (إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين)[٣] .

فلما سمع ذلك أخواته وبناته ارتفعت أصواتهن بالبكاء ، فقال عند ذلك : لا يبعد الله ابن عباس - يعنى حين أشار عليه أن لا يخرج بالنساء معه ، ويدعهن بمكة إلى أن ينتظم الأمر - ثم بعث أخاه العباس فسكتهن ، ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، ويقول : راجعوا أنفسكم وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتال مثلى ، وأنا ابن بنت نبيكم ، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبى غيرى ؟ وعلىّ أبى ، وجعفر ذو الجناحين عمى ، وحمزة سيد الشهداء عمّ أبى ؟ وقال لى رسول الله ﷺ ولأخى : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » ، فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدت كذبةً منذ علمت أن الله يمقت على الكذب وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك : جابر بن عبد الله ، وأبا سَعيد ، وسَهل بن سعد ، وزَيد بن أرقم ، وأنس بن مالك ، يخبروكم بذلك ، ويحكم ! أما تتقون الله ؟ أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى ؟

فقال عند ذلك شمر بن ذى الجوشن : هو يعبد الله على حرف : « إن كان يدرى ما يقول »[٤]

---

(١) فى ابن الأثير : دريدا .

(٢) من الآية : ٧١ من سورة يونس .

(٣) الآية ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٤) فى نسخة : إن كنت أدرى ما يقول .

وأنه قد طبع على قلبك . ثم قال : أيها الناس ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض ، فقالوا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك ؟ فقال : معاذ الله (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ)[1] ، ثم أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، [ثم قال : أخبرونى أتقتلونى بقتيل لكم قتلته ؟ أو مال لكم أكلته ؟ أو بقصاص من جراحة ؟ قال : فأخذوا لا يكلمونه . قال : فنادى يا شبث بن ربعى ، يا حجّار بن أبجر ، يا قيس بن الأشعث ، يا زيد ابن الحارث ، ألم تكتبوا إلىّ أنه قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب ، فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة ؟ فقالوا له : لم نفعل ، فقال : سبحان الله ! والله لقد فعلتم ، ثم قال : يا أيها الناس ! إذ قد كرهتمونى فدعونى أنصرف منكم ، فقال له قيس بن الأشعث : ألا تنزل على حكم بنى عمك فإنهم لن يؤذوك ، ولا ترى منهم إلا ما تحب ؟ فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطالبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ، ولا أقرّ لهم إقرار العبيد][2] .

قال : وأقبلوا يزحفون نحوه ، وقد تحيز إلى جيش الحسين من أولئك طائفة قريب من ثلاثين فارسا فيما قيل ، منهم : الحر بن يزيد أمير مقدمة جيش ابن زياد ، فاعتذر إلى الحسين مما كان منهم ، قال : ولو أعلم أنهم على هذه النية لسرت معك إلى يزيد ، فقبل منه الحسين . ثم تقدم بين يدى أصحاب الحسين ، فخاطب عمر بن سعد فقال : ويحكم ! ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله ﷺ ما يعرض عليكم من الخصال الثلاث واحدة منها ؟ فقال : لو كان ذلك إلىّ قبلت .

[قال : وخرج من أصحاب الحسين زُهير بن قَين على فرس له شاكٍ فى السلاح ، فقال: يا أهل الكوفة ، نذار لكم من عذاب الله نذار ، إنّ حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنا أمّة وأنتم أمة . إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرّية نبيّه لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية ابن الطاغية ، عبيد الله بن زياد ، فإنكم لم تدركوا منهما إلا سوء عموم سلطانهما ، يَسْمِلان[3] أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويُمَثِّلان بكم ، ويقتّلان أماثلكم وقراءكم ، أمثال حُجر بن عدى وأصحابه ، وهانىء بن عروة وأشباهه .

---

(١) من الآية : ٢٧ من سورة غافر .
(٢) ما بين القوسين ساقط فى بعض النسخ .
(٣) سمل العين فقأها كاستملها .

قال : فسبُّوه وأثنوا على ابن زياد ودعوا له ، وقالوا : لا ننزع حتى نقتل صاحبك ومن معه . فقال لهم : إن ولد فاطمة أحق بالودّ والنّصر من ابن سُمَيّة ، فإن أنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، تذهب حيث شاء ، فلعمرى إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . قال : فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم ، وقال له : اسكت أسكت الله نأمتك[1] ، أبرمتنا بكثرة كلامك ، فقال له زهير : يا ابن البوّال على عقبيه ، ما إياك أخاطب ؟ إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم . فقال له شمر : إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة ، فقال له زهير : أبالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحب إلىّ من الخلد معكم . ثم إن زهيراً أقبل على الناس رافعاً صوته يقول : عباد الله ! لا يغرنكم عن دينكم هذا الجِلْف الجافى وأشباهه ، فوالله لا ينال شفاعة محمد ﷺ قوم أهرقوا دماء ذريته ، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم .

وقال الحُرّ بن يزيد لعمر بن سعد : أصلحك الله ! أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : إى والله قتالا أيسرُه أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى ، وكان الحُرّ من أشجع أهل الكوفة ، فلامه بعض أصحابه على الذهاب إلى الحسين ، فقال له : والله إنى أخيِّر نفسى بين الجنة والنار ، ووالله لا أختار على الجنة غيرها ولو قُطِّعت وحرقت . ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين فاعتذر إليه بما تقدم ثم قال : يا أهل الكوفة لأمكم الهَبَل[2] ، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتوه وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير ، وحُلْتم بينه وبين الماء الفرات الجارى الذى يشرب منه الكلب والخنزير ، وقد صرعهم العطش ؟ بئس ما خلفتم محمداً فى ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه . فحملت عليه رَجَّالة لهم ترميه بالنبل ، فأقبل حتى وقف أمام الحسين][3] ، وقال لهم عمر بن سعد : لو كان الأمر لى لأجبت الحسين إلى ما طلب ، ولكن أبى على عبيد الله بن زياد ، وقد خاطب أهل الكوفة وأنبهم ووبخهم وسبهم ، فقال لهم الحر بن يزيد : ويحكم ! منعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذى يشرب منه اليهود والنصارى ، ويتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه ، فهو كالأسير فى أيديكم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .

---

(١) النأمة : النغمة والصوت . يريد : أماتك الله .

(٢) الهبل : الثكل وفقدان الولد . يقال : هبلته أمه — أى ثكلته وفقدته .

(٣) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

قال : فتقدم عُمر بن سعد وقال لمولاه : يا دُوَيْد ! أدن رايتك ، فأدناها ، ثم شمّر عمر عن ساعده ورمى بسهم وقال : إشهدوا أنى أول من رمى القوم ، قال : فترامى الناس بالنبال ، وخرج يسار مولى زياد ، وسالم مَولى عبيد الله ، فقالا : من يبارز ؟ فبرز لهما عبد الله بن عُمَير الكلبى بعد استئذانه الحسين ، فقتل يساراً أولا ، ثم قتل سالماً بعده ، وقد ضربه سالم ضربة أطار أصابع يده اليسرى . وحمل رجل يقال له عبد الله بن حَوْزة حتى وقف بين يدى الحسين فقال له : يا حسين أبشر بالنار ! فقال له الحسين : كلاّ ويحك إنى أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع ، بل أنت أولى بالنار . قالوا : فانصرف فوقصته فرسه ، فسقط وتعلقت قدمه بالركاب ، وكان الحسينَ قد سأل عنه فقال : أنا ابن حَوْزة ، فرفع الحسين يده وقال : اللهم حُزْه إلى النار ، فغضب ابن حَوْزة ، وأراد أن يُقحم عليه الفرس وبينه وبينه نهر ، فجالت به الفرس فانقطعت قدمه وساقه وفخذه ، وبقى جانبه الآخر متعلقاً بالركاب ، وشدّ عليه مُسلم بن عَوْسَجة ، فضربه فأطار رجله اليمنى ، وغارت به فرسه فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه فى رأسه حتى مات .

[وروى أبو مخنف عن أبى جناب قال : كان منا رجل يدعى عبد الله بن عُمَير من بنى عُلَيم ، كان قد نزل الكوفة واتخذ داراً عند بئر الجَعْد من هَمْدان ، وكانت معه امرأة له من النمر ابن قاسط ، فرأى الناس يتهيئون للخروج إلى قتال الحسين ، فقال : والله لقد كنت على قتال أهل الشرك حريصاً ، وإنى لأرجو أن يكون جهادى مع ابن بنت رسول الله ﷺ لهؤلاء أفضل من جهاد المشركين ، وأيسر ثوابا عند الله . فدخل إلى امرأته ، فأخبرها بما هو عازم عليه ، فقالت : أصبت أصاب الله بك أرشدَ أمورك ، افعل وأخرجنى معك . قال : فخرج بها ليلا حتى أتى الحسين ، ثم ذكر قصة رمى عُمر بن سعد بالسهم ، وقصة قتله يَسار مولى زياد ، وسالم مولى ابن زياد وأن عبد الله بن عُمَير استأذن الحسين فى الخروج إليهما فنظر إليه الحسين ، فرأى رجلا آدم طويلا شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين ، فقال الحسين : إنى لأحسبه للأقران قتّالا ، اخرج إن شئت ، فخرج فقالا له : من أنت ؟ فانتسب لهما ، فقالا : لا نعرفك ليخرج إلينا من هو خير منك ، ثم شد على يسار فكان كأمس الذاهب ، فإنه لمشتغل به إذ حمل عليه سالم مولى ابن زياد فصاح به صائح : قد رهقك العبد ، قال : فلم ينتبه حتى غشيه فضربه على يده اليسرى فأطار أصابعه ، ثم مال عليه الكلبى فضربه حتى قتله وأقبل يرتجز ويقول :

إن تُنكرونى فأنا ابن كلب نسبى ... بيتى فى عُلَيم حَسَبى

إنى امرؤ ذُو مِرّة وعَصَب ... ولست بالخَوّار عند الكَرب

إنى زعيم لكِ أمّ وهب ... بالطعن فيهم مُقدِما والضرب

* ضرب غلام مؤمن بالرب *

فأخذت أم وهب عموداً ثم أقبلت نحو زوجها تقول له : فداؤك أبى وأمى ، قاتل دُون الطيبين ، ذرية محمد عليه السلام ، فأقبل إليها يردّها نحو النساء فأقبلت تجاذبه ثوبه ، قالت : دعنى أكون معك ، فناداها الحسين : انصرفى إلى النساء فاجلسى معهن فإنه ليس على النساء قتال ، فانصرفت إليهن][1] .

قال : وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين ، والنصر فى ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم ، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم ، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة ، وحمل عمْرو بن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد ، وجعل يقول : قاتلوا من مَرق من الدين وفارق الجماعة . فقال له الحسين : ويحك يا بن حجاج ! أعلىّ تحرض الناس ؟ أنحن مَرقنا من الدين وأنت تقيم عليه ؟ ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا مَن أولى بصلى النار . وقد قتل فى هذه الحملة مسلم بن عَوسجة ، وكان أول مَن قتل من أصحاب الحسين ، فمشى إليه الحسين فترحم عليه ، وهو على آخر رمق ، وقال له حبيب بن مُظاهر : أبشر بالجنة ، فقال له بصوت ضعيف : بشرك الله بالخير . ثم قال له حبيب : لولا أنى أعلم أنى على أثرك لاحقك لكنت أقضى ما توصى به ، فقال له مسلم بن عَوْسجة : أوصيك بهذا ـ وأشار إلى الحسين ـ إلى أن تموت دُونه . قالوا. ثم حمل شمر بن ذى الجَوْشن بالميسرة وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعاً عظيما ، وكافحوا دونه مكافحة بليغة ، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرّجالة ، فبعث إليهم نحوا من خمسمائة ، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها حتى بقى جميعهم رجّالة ، ولما عقروا جواد الحر بن يزيد نزل عنه وفى يده السيف كأنه ليث وهو يقول :

إن تَعقروا بى فأنا ابن الحرِّ   أشجع من ذى لِبَدٍ هِزَبْرِ

ويقال إن عمر بن سعد أمر بتقويض تلك الأبنية التى تمنع من القتال مَن أتى ناحيتها ، فجعل أصحاب الحسين يقتلون من يتعاطى ذلك ، فأمر بتحريقها ، فقال الحسين : دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت وجاء شمر بن ذى الجوشن ـ قبحه الله ـ إلى فسطاط الحسين فطعنه برمحه ـ يعنى الفسطاط ـ وقال : ابتونى بالنار لأحرقه على من فيه ، فصاحت النسوة وخرجن منه ، فقال له الحسين : أحرقك الله بالنار ، وجاء شبث بن ربعى إلى شمر ـ قبحه الله ـ فقال له : ما رأيت أقبح من قولك ولا من فعلك وموقفك هذا ، أتريد أن ترعب النساء ؟ فاستحيى وهم بالرجوع . وقال حُميد بن مسلم : قلت لشمر : سبحان الله ! إن هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين ؟ تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء ؟ والله إن فى قتلك

---

(١) ما بين القوسين ساقط فى بعض النسخ .

الرجال لما ترضى به أميرك . قال : فقال لى : من أنت ؟ قلت : لا أخبرك من أنا ـ وخشيت أنى إن أخبرته فعرفنى أن يسوءنى عند السلطان .

وشد زهير بن القين فى رجال من أصحاب الحسين على شمر بن ذى الجوشن فأزالوه من موقفه ، وقتلوا أبا عزة الضبابى ـ وكان من أصحاب شمر . وكان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل ، وإذا قتل من أصحاب ابن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم ، ودخل عليهم وقت الظهر فقال الحسين : مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلى ، فقال رجل من أهل الكوفة : إنها لا تقبل منكم ، فقال له حبيب بن مظاهر : ويحك !! أتقبل منكم ولا تقبل من آل رسول الله ﷺ ؟! وقاتل حبيب قتالا شديدا حتى قتل رجلا يقال له : بديل بن صريم من بنى عقفان وجعل يقول :

أنا حبيب وأبى مظاهرُ فارسُ هيجاء وحرب تُسعَر
أنتم أوفر عــدة وأكثر ونحن أوفى منكمُ وأصبر
ونحن أعلى حجةً وأظهرُ حقا وأبقى منكم وأطهر

ثم حمل على حبيب هذا رجل من بنى تميم فطعنه فوقع ، ثم ذهب ليقوم فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف فوقع ، ونزل إليه التميمى فاحتز رأسه وحمله إلى ابن زياد ، فرأى ابن حبيب رأس أبيه فعرفه،فقال لحامله : أعطنى رأس أبى حتى أدفنه ، ثم بكى . قال : فمكث الغلام إلى أن بلغ أشده ، ثم لم تكن له همة إلا قتل قاتل أبيه ، قال : فلما كان زمن مصعب بن عمير دخل الغلام عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه فى فسطاطه ، فدخل عليه وهو قائل فضربه بسيفه حتى برد .

وقال أبو مخنف : حدثنى محمد بن قيس قال : لما قتل حبيب بن مظاهر هد ذلك الحسين ، وقال عند ذلك : أحتسب نفسى ، وأخذ الحر يرتجز ويقول للحسين :

آليتُ لا أُقتل حتى أقتُلا ولن أصابَ اليوم إلا مُقبلا
أضربهم بالسيف ضربا مِقصلا لا ناكلاً عنهم ولا مُهللا[١]

ثم قاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً فكان إذا شد أحدهما حتى استُلحم[٢] شد الآخر حتى يخلصه ، فعلا ذلك ساعة ، ثم إن رجالاً شدوا على الحر بن يزيد فقتلوه ، وقتل أبو ثمامة الصائدى ابن عم له كان عدواً له ، ثم صلى الحسين بأصحابه الظهر صلاة الخوف ، ثم اقتتلوا بعدها قتالاً شديداً ودافع عن الحسين صناديد أصحابه ، وقاتل زهير بن القين بين يدى الحسين قتالاً شديداً ، ورمى بعض أصحابه بالنبل حتى سقط بين يدى الحسين ، وجعل زهير يرتجز ويقول :

---

(١) الذى فى الطبرى : ولامهللا (٢) أى روهق فى القتال

أنا زُهير وأنا ابن القَين … أذودُكم بالسيف عن حُسَين

قال : وأخذ يضرب على منكب الحسين ويقول :

أقدِم هُديت هادياً مهديّاً … فاليوم تلقى جدّك النبيّا
وحَسَناً والمرتضى عليّا … وذا الجناحين الفتى الكميّا
وأسَدَ الله الشهيد الحيّا

قال : فشد عليه كثيرُ بن عبد الله الشعبي ، ومُهاجر بن أوس ، فقتلاه .

قال : وكان من أصحاب الحسين : نافع بن هلال الجمليّ ، وكان قد كتب اسمه على أفواق نَبْله ، فجعل يرمى بها مسمومة وهو يقول :

أرمى بها معلما أفواقها … والنفس لا ينفعها شفاقها
أنا الجملى أنا على دين على

فقتل اثنى عشر من أصحاب عُمر بن سعد ، سوى من جرح ، ثم ضرب حتى كُسِرت عضداه ، ثم أسروه فأتوا به عمر بن سعد فقال له : ويحك يا نافع ! ما حملك على ما صنعت بنفسك ؟ فقال : إنّ ربى يعلم ما أردت ، والدماء تسيل عليه وعلى لحيته ، ثم قال : والله لقد قتلت من جندكم اثنى عشر سوى مَن جرحت ، وما ألوم نفسى على الجهد ، ولو بقيت لى عضد وساعد ما أسرتمونى . فقال شمر لعمر : أقتله ؟ قال : أنت جئت به ، فإن شئت فاقتله . فقام شمر فانتضى سيفه ، فقال له نافع : أما والله يا شمر لو كنت من المسلمين لعظُم عليك أن تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذى جعل منايانا على يدى شرار خلقه ، ثم قتله . ثم أقبل شمر فحمل على أصحاب الحسين وتكاثر معه الناس حتى كادوا أن يصلوا إلى الحسين ، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا عليهم ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا الحسين ولا أنفسهم ، تنافسوا أن يُقتَلوا بين يديه ، فجاء عبد الرحمن وعبد الله ابنا عَزْرة الغفاريان ، فقالا : يا أبا عبد الله عليك السلام ، حازَنا العدو إليك فأحببنا أن نُقتل بين يديك وندفع عنك . فقال : مرحباً بكما ، ادنوا منى ، فدنوا منه فجعلا يقاتلان قريباً منه وهما يقولان :

قد علمت حقًّا بنو غفار … وخِندِفٌ بعد بنى نزار
لنضرِبَنّ معشرَ الفُجّار … بكل عَضْبٍ قاطع بتّار
يا قوم ذُودوا عن بنى الأخيار … بالمشرَفىّ والقَنا الخطّار

ثم أتاه أصحابه مثنى وفرادى يقاتلون بين يديه وهو يدعو لهم ويقول : جزاكم الله أحسن جزاء المتقين ، فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يُقتلوا ، ثم جاء عابس بن أبى شبيب فقال : يا أبا عبد الله ! أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ علىّ منك ، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشىء أعزّ على من نفسى ودمى لفعلته . السلام عليك يا أبا عبد الله

اشهد لى أنى على هديك ، ثم مشى بسيفه صَلْتا وبه ضربة على جبينه ـ وكان أشجع الناس ـ فنادى : ألا رجل لرجل ؟ ألا ابرزوا إلىّ . فعرفوه فتنكاوا عنه . ثم قال عمر بن سعد : ارضخوه بالحجارة ، فرمى بالحجارة من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقى دِرعه ومِغفره ، ثم شد على الناس ، والله لقد رأيته يَكْرُد[1] أكثر من مائتين من الناس بين يديه ، ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه الله ، فرأيت رأسه فى أيدى رجال ذوى عدد ، كل يدعى قتله ، فأتوا به عُمر بن سعد فقال لهم : لا تختصموا فيه ، فإنه لم يقتله إنسان واحد ، ففرق بينهم بهذا القول][2]

ثم قاتل أصحاب الحسين بين يديه حتى تفانوا ، ولم يبق أحد إلا سُوَيد بن عمرو بن أبى المطاع الخثعمى . وكان أول قتيل قتل من أهل الحسين من بنى أبى طالب علىٌّ الأكبر بن الحسين بن علىّ ، وأمه ليلى بنت أبى مُرّة بن عروة بن مسعود الثقفى ، طعنه مرة بن منقذ بن النعمان العبدى فقتله لأنه جعل يحمى أباه ، وجعل يقصد أباه ، فقال على بن الحسين :

أنا علىّ بن الحسين بن على   نحن وبيتِ اللهِ أولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدَّعِى   كيف ترون اليوم سترى عن أبى

فلما طعنه مُرّة احتوشته الرجال فقطعوه بأسيافهم ، فقال الحسين : قتل الله قوماً قتلوك يا بنى ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك محارمه ! ! فعلى الدنيا بعدك العفاء . قال : وخرجت جارية كأنها الشمس حسنا ، فقالت : يا أخَيّاه ويا ابن أخَيّاه فإذا هى زينب بنت على من فاطمة ، فأكبت عليه وهو صريع ، قال : فجاء الحسين فأخذ بيدها فأدخلها الفسطاط ، وأمر به الحسين فحُوِّلَ من هنالك إلى بين يديه عند فسطاطه ثم قتل عبد الله بن مُسلم بن عقيل ، ثم قتل عون ومحمد ـ ابنا عبد الله بن جعفر ، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ـ ابنا عقيل بن أبى طالب ، ثم قتل القاسم بن الحسن ابن على بن أبى طالب .

[قال أبو مخنف : وحدثنى فُضَيل بن خُديج الكندى أن يزيد بن زياد ـ وكان رامياً ـ وهو أبو الشعثاء الكندى من بنى بَهدلة جثا على ركبتيه بين يدى الحسين فرمى بمائة سهم ما سقط منها على الأرض خمسة أسهم ، فلما فرغ من الرمى قال : قد تبين لى أنى قتلت خمسة نفر :

أنا يزيدُ وأنا المهاجر[3]   أشجع من لَيثٍ قوىّ حادر
يا ربّ إنى للحسين ناصر   ولابن سعد تارك وهاجر][4]

---

(١) الكرد : السوق وطرد العدو .
(٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .
(٣) الذى فى الطبرى : وأبى مهاصر .
(٤) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

قالوا : ومكث الحسين نهاراً طويلا وحده لا يأتى أحد إليه إلا رجع عنه ، لايحب أن يلى قتله ، حتى جاءه رجل من بنى بَدَّاء ، يقال له : مالك بن البشير ، فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه ، وكان على الحسين برنس فقطعه وجرح رأسه فامتلأ البرنس دماً ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربت ، وحشرك الله مع الظالمين . ثم ألقى الحسين ذلك البرنس ودعا بعمامة فلبسها .

[وقال أبو مخنف : حدثنى سليمان بن أبى راشد عن حُميد قال : خرج إلينا غلام كأن وجهه فلقة قمر ، فى يده السيف وعليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شِسْع أحدهما ، ما أنسى أنها اليسرى ، فقال لنا عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدى : والله لأشدن عليه . فقلت له : سبحان الله ! ! وما تريد إلى ذلك ؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم(١) . فقال : والله لأشدّن عليه ، فشدّ عليه عمر بن سعد أمير الجيش ، فضربه وصاح الغلام : يا عمّاه ، قال : فشد الحسين على عُمر بن سعد شدة ليث أغضب ، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنّها من لدن المرفق فصاح ثم تنحّى عنه ، وحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوا عمر من الحسين ، فاستقبلت عمر بصدورها وحركت حوافرها ، وجالت بفرسانها عليه ، ثم انجابت الغَبَرة فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام ، والغلام يفحص برجله والحسين يقول : بُعداً لقوم قتلوك ، ومن خَصمهم يوم القيامة فيك جدك ! ثم قال : عز والله على عمك أن تدعوَه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك ، صوت والله كَثُر واتِره وَقَلّ ناصره . ثم احتمله فكأنى أنظر إلى رِجْلَى الغلام يخطّان فى الأرض ، وقد وضع الحسين صَدره على صدره ، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه على الأكبر ، ومَع من قُتِل من أهل بيته ، فسألت عن الغلام فقيل لى : هو القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب .

وقال هانىء بن ثبيت الحضرمىّ : إنى لواقف يوم مقتل الحسين عاشر عشرة ، ليس منا رجل إلا على فرس ، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية ، وعليه إزار وقميص ، وهو مذعور يلتفت يمينا وشمالا ، فكأنى أنظر إلى درّتين فى أذنيه تذبذبان كلما التفت ، إذ أقبل رجل يركض فرسه حتى إذا دنا من الغلام مال عن فرسه ، ثم أخذ الغلام فقطعه بالسيف . قال هشام السكونى : هانىء بن ثبيت هو الذى قتل الغلام ، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه](٢)

قال : ثم إن الحسين أعيا فقعد على باب فسطاطه وأتى بصبى صغير من أولاده اسمه عبد الله ، فأجلسه فى حجره ، ثم جعل يقبله ويشمه ويودعه ويوصى أهله ، فرماه رجل من بنى أسد يقال له «ابن موقد النار» بسهم فذبح ذلك الغلام ، فتلقى حسين دمه فى يده وألقاه نحو السماء وقال : رب

(١) أى احتاشوا عليهم وأحاطوا بهم (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

إن تلكَ قد حبَست عنا النصر من السماء فاجعله لما هو خير ، وانتقم لنا من الظالمين. ورمى عبدُ الله ابن عُقبة الغَنوىّ أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله أيضا ، ثم قتل عبد الله والعباس وعثمان وجعفر ومحمد ـ بنو على بن أبى طالب ، إخوة الحسين . وقد اشتد عطش الحسين فحاول أن يصل إلى أن يشرب من ماء الفرات فما قدر ، بل مانعوه عنه ، فخلص إلى شربة منه ، فرماه رجل يقال له حُصَين ابن تميم ـ بسهم فى حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم فتلقاه بيديه ثم رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دماً ، ثم رمى به إلى السماء وقال : اللهم احصِهم عدداً واقتلهم بَدَداً ، ولا تذَرْ على الأرض منهم أحداً . ودعا عليهم دعاء بليغا

[قال : فوالله إن مكث الرجل الرامى له إلا يسيراً حتى صب الله عليه الظمأ ، فجعل لا يروى ويُسقى الماء مبرداً ، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعاً ، ويسقى فلا يروى ، بل يقول: ويلكم ! اسقونى قتلنى الظمأ . قال : فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى انقَد بطنه انقداد بطن البعير . ثم إن شمر بن ذى الجوش أقبل فى نحو من عشرة من رجالة الكوفة قبل منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله ، فمشى نحوهم فحالوا بينه وبين رَحله ، فقال لهم الحسين : ويلكم !! إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المَعاد ، فكونوا فى دنياكم أحراراً وذوى أحساب ، امنعُوا رحلى وأهلى من طغامكم وجهّالكم ، فقال ابن ذى الجوشن: ذلك لك يا ابن فاطمة ، ثم أحاطوا به فجعل شمر يحرضهُم على قتله ، فقال له أبو الجنوب[1] : وما يمنعك أنت من قتله ؟ فقال له شمر : إلىّ تقول ذا ؟ فقال أبو الجنوب : إلى تقول ذا ؟ فاستبّا ساعة ، فقال له أبو الجنوب ـ وكان شجاعاً ـ : والله لقد هممت أن أخضخض هذا السنان فى عينك ، فانصرف عنه شمر][2] .

ثم جاء شمر ومعه جماعة من الشجعان حتى أحاطوا بالحسين وهو عند فسطاطه ، ولم يبق معه أحد يحول بينهم وبينه ، فجاء غلام يشتد من الخيام كأنه البدر ، وفى أذنيه درّتان ، فخرجت زينب بنت علىّ لترده فامتنع عليها ، وجاء يحاجف عن عمه فضربه رجل منهم بالسيف فاتقاه بيده فأطنها سوى جلده ، فقال : يا أبتاه . فقال له الحسين : يا بنى احتسب أجرك عند الله ، فإنك تلحق بآبائك الصالحين . ثم حمل على الحسين الرجال من كل جانب وهو يجول فيهم بالسيف يميناً وشمالا ، فيتنافرون عنه كتنافر المِعْزى عن السبع ، وخرجت أخته زينب بنت فاطمة إليه فجعلت تقول: ليت السماء تقع على الأرض . وجاءت عمر بن سعد فقالت : يا عمر ! أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟ فتحادرت الدموع على لحيته وصرف وجهه عنها ، ثم جعل لا يتقدم أحد على قتله ، حتى نادى شمر بن ذى الجوشن: ويحكم ! ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم.

---

(١) اسمه عبد الرحمن الجعفى (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

فحملت الرجال من كل جانب على الحسين، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ، ثم نزل فذبحه وحز رأسه ثم دفع رأسه إلى خولي بن يزيد وقيل : إن الذي قتله شمر بن ذي الجوشن ، وقيل رجل من مذحج ، وقيل عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وليس بشيء ، وإنما كان عمر أمير السرية التي قتلت الحسين فقط ، والأول أشهر .

وقال عبد الله بن عمار : رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه يحمل على من على يمينه حتى انذعروا عنه ، فوالله ما رأيت مكثوراً[1] قط قد قتل أولاده وأصحابه ـ أربط جأشاً منه ، ولا أمضى جناناً منه ، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله . وقال : ودنا عمر بن سعد من الحسين فقالت له زينب : يا عمر أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟ فبكى وصرف وجهه عنها .

وقال أبو مخنف : حدثني الصقعب بن زهير عن حميد بن مسلم قال : جعل الحسين يشد على الرجال وهو يقول : أعلى قتلي تحاثون[2] ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني ، وأيم الله إني أرجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم الله لي منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم . قال : ولقد مكث طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض دمه ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء مؤنة قتله ، حتى نادى شمر بن ذي الجوشن ، ماذا تنتظرون بقتله ؟ فتقدم إليه زرعة بن شريك التميمي فضربه بالسيف على عاتقه ، ثم طعنه سنان بن أنس بن عمرو النخعي بالرمح ، ثم نزل فاحتز رأسه ودفعه إلى خولي . وقد روى ابن عساكر في ترجمة شمر بن ذي الجوشن ، وذو الجوشن صحابي جليل ، قيل اسمه شرحبيل ، وقيل عثمان بن نوفل ، ويقال ابن أوس بن الأعور العامري الضبابي ، بطن من كلاب ، ويكنى شمر بأبي السابغة . ثم روى من طريق عمر بن شبة : ثنا أبو أحمد حدثني عمي فضيل بن الزبير عن عبد الرحيم بن ميمون عن محمد بن عمرو بن حسن قال : كنا مع الحسين بنهري كربلاء ، فنظر إلى شمر بن ذي الجوشن فقال : صدق الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ : « كأني أنظر إلى كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي » وكان شمر ـ قبحه الله ـ أبرص][3] . وأخذ سنان وغيره سلبه ، وتقاسم الناس ما كان من أمواله وحواصله ، وما في خبائه حتى ما على النساء من الثياب الطاهرة .

---

(١) المكثور : المغلوب الذي تكاثر عليه الناس فقهروه

(٢) أي تحاضون ، والحث : الحض (٣) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

وقال أبو مخنف عن جعفر بن محمد قال : وجدنا بالحسين حين قتل ثلاثا وثلاثين طعنة ، وأربعا وثلاثين ضربة ، وهمّ شمر بن ذى الجوشن بقتل على بن الحسين الأصغر « زين العابدين » وهو صغير مريض حتى صرفه عن ذلك حميد بن مسلم أحد أصحابه . وجاء عمر بن سعد فقال : ألا لا يدخلن على هذه النسوة أحد ، ولا يقتل هذا الغلام أحد ، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليرده عليهم ، قال : فوالله ما ردّ أحد شيئا . فقال له على بن الحسين : جزيت خيراً فقد دفع الله عنى بمقالتك شراً ، قالوا : ثم جاء سنان بن أنس إلى باب فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلا صوته:

أوْقِرْ ركابى فِضّةً وذهبا أنا قتلتُ الملِكَ المحجّبا

قتلتُ خيرَ الناس أمّا وأبا وخيرَهم إذْ يُنسبون نَسبا

فقال عمر بن سعد : ادخلوه علىّ ، فلما دخل رماه بالسوط وقال : ويحك ! أنت مجنون ، والله لو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك . ومنّ عمر بن سعد على عقبة بن سِمْعان حين أخبره أنه مولى ، فلم ينج منهم غيره . والمرقع بن ثمامة أسر فمنّ عليه ابن زياد ، وقتل من أصحاب الحسين اثنان وسبعون نفسا ، فدفنهم أهل الغاضِريّة من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم واحد ، قال : ثم أمر عمر بن سعد أن يوطأ الحسين بالخيل ، ولا يصح ذلك ، والله أعلم . وقتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون نفسا . وروى عن محمد بن الحنفية أنه قال : قتل مع الحسين سبعة عشر رجلا كلهم من أولاد فاطمة . وعن الحسن البصرى أنه قال : قتل مع الحسين ستة عشر رجلا كلهم من أهل بيته ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه . وقال غيره : قتل معه من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلا ؛ فمن أولاد على رضى الله عنه : جعفر ، والحسين ، والعباس ، ومحمد ، وعثمان ، وأبو بكر ومن أولاد الحسين : على الأكبر ، وعبد الله . ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة : عبد الله ، والقاسم ، وأبو بكر بنو الحسن بن على بن أبى طالب . ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان : عون ، ومحمد . ومن أولاد عقيل : جعفر ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، ومسلم قتل قبل ذلك كما قدمنا . فهؤلاء أربعة لصُلبه ، واثنان آخران هما : عبد الله ابن مسلم بن عقيل ومحمد بن أبى سعيد بن عقيل ، فكملوا ستة من ولد عقيل، وفيهم يقول الشاعر:

واندبى تسعة لصلب علىّ قد أصيبوا وستة لعقيل

وسَمِىّ النبى غودر فيهم قد علوه بصارم مصقول

وممن قتل مع الحسين بكربلاء : أخوه من الرضاعة عبد الله بن يقطر ، وقد قيل إنه قتل قبل ذلك حيث بعث معه كتابا إلى أهل الكوفة فحمل إلى ابن زياد فقتله . وقتل من أهل الكوفة من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلا سوى الجرحى ، فصلى عليهم عمر بن سعد ودفنهم . ويقالُ إن عمر بن سعد أمر عشرة فرسان فداسوا الحسين بحوافر خيولهم حتى ألصقوه بالأرض

يوم المعركة ، وأمر برأسه أن يحمل من يومه إلى ابن زياد مع خَوَلِيّ بن يزيد الأصبحيّ ، فلما انتهى به إلى القصر وجده مغلقا ، فرجع به إلى منزله فوضعه تحت إجّانة وقال لامرأته النَّوار بنت مالك : جئتك بعز[1] الدهر ، فقالت : وما هو ؟ فقال : برأس الحسين . فقالت : جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت أنت برأس ابن بنت رسول الله ﷺ ؟ والله لا يجمعني وإياك فراش أبداً ثم نهضت عنه من الفراش ، واستدعى بامرأة له أخرى من بنى أسد فنامت عنده . قالت المرأة الثانية الأسدية : والله ما زلت أرى النور ساطعاً من تلك الإجانة إلى السماء ، وطيوراً بيضاً ترفرف حولها ، فلما أصبح غدا به إلى ابن زياد فأحضره بين يديه ، ويقال إنه كان معه رءوس بقية أصحابه ـ وهو المشهور ـ ومجموعها اثنان وسبعون رأساً ، وذلك أنه ما قتل قتيل إلا احتزوا رأسه وحملوه إلى ابن زياد ، ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسين ، ثنا جرير عن محمد عن أنس قال : أُتِيَ عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعل فى طست فجعل ينكت عليه وقال فى حسنه شيئاً ، فقال أنس : إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ ، وكان مخضوباً بالوسمة ورواه البخارى فى المناقب عن محمد بن الحسن ابن إبراهيم ـ هو ابن إشكاب ـ عن حسين بن محمد عن جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أنس فذكره . وقد رواه الترمذى من حديث حفصة بنت سيرين عن أنس ، وقال : حسن صحيح ، وفيه « فجعل ينكت بقضيب فى أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسناً » . وقال البزار : حدثنا مفرّج بن شجاع بن عبيد الله الموصلى ، ثنا غسان بن الربيع ثنا يونس بن عبيدة عن ثابت وحميد عن أنس قال : لما أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين جعل ينكت بالقضيب ثناياه ويقول : لقد كان ـ أحسبه قال جميلا ـ فقلت : والله لأسوءنك « إنى رأيت رسول الله ﷺ يلثم حيث يقع قضيبك » . قال : فانقبض . تفرد به البزار من هذا الوجه وقال : لا نعلم رواه عن حميد غير يونس بن عبدة وهو رجل من أهل البصرة مشهور وليس به بأس . ورواه أبو يعلى الموصلى عن إبراهيم بن الحجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس فذكره . ورواه قرة بن خالد عن الحسن عن أنس فذكره .

وقال أبو مخنف عن سليمان بن أبى راشد عن حميد بن مسلم قال : « دعانى عمر بن سعد فسرّحنى إلى أهله لأبشرهم بما فتح الله عليه وبعافيته ، فأجد ابن زياد قد جلس للناس ، وقد دخل عليه الوفد الذين قدموا عليه ، فدخلت فيمن دخل . فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه ، وإذا هو ينكت فيه بقضيب بين ثَنِيّتيه ساعة ، فقال له زيد بن أرقم : ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الثنتين يقبلهما »

---

(١) فى الطبرى : بغنى الدهر .

ثم انفضح[1] الشيخ يبكي ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينك ! فوالله لولا أنك شيخ قد خرِفتَ وذهب عقلك لضربتُ عنقك ، قال : فنهض فخرج ، فلما خرج قال الناس : والله لقد قال زيد بن أرقم كلاماً لو سمعه ابن زياد لقتله ، قال : فقلت ما قال ؟ قالوا : مر بنا وهو يقول :

مَلَّكَ عبدٌ عَبْداً فاتخذهم تَلَداً[2]

أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمَّرتم ابن مُرْجانة ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم ، فبعداً لمن رضى بالذّل . وقد روى من طريق أبى داود بإسناده عن زيد بن أرقم بنحوه . ورواه الطبرانى من طريق ثابت عن زيد .

وقد قال الترمذى : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة ابن عمير قال : لما جيء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه فنصبت فى المسجد فى الرحبة فانتهيت إليهم وهم يقولون : قد جاءت قد جاءت ، فإذا حيّةٌ قد جاءت تتخلل الرءوس حتى دخلت فى منخرى عبيد الله بن زياد ، فمكثت هنيهة ثم خرجت ، فذهبت حتى تغيب ، ثم قالوا : قد جاءت قد جاءت ، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . ثم قال الترمذى : حسن صحيح .

وأمر ابن زياد فنودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فصعد المنبر ، فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذى أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم ، فقام إليه عبد الله بن عَفيف الأزدىّ ، فقال : ويحك يا ابن زياد ! ! تقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصّديقين ! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب . ثم أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة وطيف به فى أزقتها ، ثم سيره مع زَحْر بن قيس ومعه رءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية بالشام ، وكان مع زَحْر جماعة من الفرسان ، منهم أبو بُردة بن عوف الأزدى ، وطارق بن أبى ظَبيان الأزدى ، فخرجوا حتى قدموا بالرءوس كلها على يزيد بن معاوية .

قال هشام : فحدثنى عبد الله بن يزيد بن رَوْح بن زِنباع الجُذامىّ عن أبيه عن الغاز بن ربيعة الجُرَشىّ من حمير ، قال : والله إنى لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زَحْر بن قيس فدخل على يزيد ، فقال له يزيد : ويلك ! ما وراءك ؟ ! فقال أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره ، وَرَدَ علينا الحسين بن على بن أبى طالب وثمانية عشر من أهل بيته ، وستون رجلا من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال ، فاختاروا القتال ، فعَدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وَزَر ، ويلوذون منا بالآكام والحُفَر ،

---

(١) أى أخذ يبكى بكاءاً شديد . (٢) التلد : ما ولد عندك من مالك أو نتج ــ يريد : أرقاء .

لواذاً كما لاذ الحمام من صقر ، فوالله ما كانوا إلا جزرَ جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مُجردة ، وثيابهم مُرَمَّلة[1] ، وخدودهم مُعفَّرة ، تصهرهم الشمس وتسفى عليهم الريح ، زُوَّارهم العقبان والرَّخم][2] .

قال : فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابنَ سُميّة ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، ورحم الله الحسين ولم يصل الذى جاء برأسه بشىء . ولما وضع رأس الحسين بين يدى يزيد قال : أما والله لو أنى صاحبك ما قتلتك ، ثم أنشد قول الحسين بن الحمام المرى الشاعر :

يُفَلِّقن هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ   علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

قال أبو مخنف : فحدثنى أبو جعفر العبسى قال : وقام يحيىَ بن الحكم - أخو مروان بن الحكم - فقال :

لهامٌ بجنب الطَّفِّ أدنى قرابةً   من ابن زيادِ العبد ذى الحسب الوَغْل
سُمَيَّةُ أضحى نسلها عدد الحصى   « وليس لآل المصطفى اليوم من نسل »

قال فضرب يزيد فى صدر يحيى بن الحكم وقال له : اسكت ، وقال محمد بن حميد الرازى - وهو شيعى - : ثنا محمد بن يحيى الأحرى ، ثنا ليث عن مجاهد قال : لما جىء برأس الحسين فوضع بين يدى يزيد تمثل بهذه الأبيات :

ليت أشياخى ببدر شهدوا   جَزع الخزرج فى وَقع الأسَل
فأهلوا واستهلوا فرحا   ثم قالوا لى هنياً لا تَسَل
حين حكت بفناء بركها   واستَحرَّ القتل فى عبد الأسل
قد قتلنا الضعف من أشرافكم   وعدلنا ميل بدر فاعتدل[3]

قال مجاهد : نافق فيها ، والله ما بقى فى جيشه أحد إلا تركه - أى ذمه وعابه .

وقد اختلف العلماء بعدها فى رأس الحسين ، هل سيَّره ابن زياد إلى الشام إلى يزيد؟ أم لا ؟ على قولين ؛ الأظهر منهما أنه سيره إليه وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة ، فالله أعلم .

وقال أبو مخنف عن أبى حمزة الثمالى عن عبد الله اليمانى عن القاسم بن بخيت ، قال : لما وضع رأس الحسين بين يدى يزيد بن معاوية جعل ينكت بقضيب كان فى يده فى ثغره ، ثم قال : إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المُرّى :

---

(١) مرملة : أى ملطخة بالدم .   (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

(٣) يرى المؤرخون أن يزيد تمثل بهذه الأبيات حين جاءه خبر واقعة الحرة وقتل الأنصار بعد ولم يتمثل بها هنا ولا سيما أنه لم يكن أحد من الخزرج حاضراً قضية الحسين .

يفلّقن هاماً من رجالٍ أعزة   علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو بَرزة الأسلمي : أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذا لقد رأيت رسول الله ﷺ يَرشفه ، ثم قال : ألا إن هذا سيجيء يوم القيامة وشفيعه محمد ، وتجيء وشفيعك ابن زياد ، ثم قام فولّى . وقد رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الوليد عن خالد بن يزيد بن أسد عن عمار الدُّهني عن جعفر ، قال : لما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد وعنده أبو بَرْزة وجعل ينكت بالقضيب فقال له : « ارفع قضيبك فلقد رأيت رسول الله ﷺ يلثمه » . قال ابن أبي الدنيا : وحدثني مسلمة بن شبيب عن الحميدي عن سفيان ، سمعت سالم بن أبي حفصة قال : قال الحسن : لما جيء برأس الحسين جعل يزيد يطعن بالقضيب ، قال سفيان : وأخبرت أن الحصين كان ينشد على إثر هذا :

سُمَيّة أمسى نسلُها عددَ الحصى   وبنتُ رسول الله ليس لها نسل

وأما بقية أهله ونسائه فإن عُمر بن سعد وكّل بهم من يحرسهم ويكلؤهم ، ثم أركبوهم على الرواحل في الهوادج ، فلما مرّوا بمكان المعركة ورأوا الحسين وأصحابه مطرّحين هنالك ـ بكته النساء وصرخن ، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها ، فقالت وهي تبكي :

يا محمداه ، يا محمداه * صلى عليك الله * وملكُ السماء * هذا حسين بالعراء * مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء يا محمداه * وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، تسفي عليها الصبا . قال : فأبكت والله كل عدوّ وصديق .

[قال قرة بن قيس : لما مرّت النسوة بالقتلى صحن ولطمن خدودهن ، قال : فما رأيت منظرا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيته منهن ذلك اليوم ، والله إنهن لأحسنُ من مَها يَبرين[1] وذكر الحديث كما تقدم][2] . ثم قال : ثم ساروا بهم من كربلاء حتى دخلوا الكوفة فأكرمهم ابن زياد ، وأجرى عليهم النفقات والكساوى وغيرها ، [قال : ودخلت زينب ابنة فاطمة في أرذل[3] ثيابها قد تنكرت وحفّت بها إماؤها ، فلما دخلت على عبيد الله بن زياد قال: من هذه ؟ فلم تكلمه ، فقال بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة ، فقال : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وكذّب أحدُوثتكم ! فقالت : بل الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً لا كما تقول ، وإنما يفتضح الفاسق ويُكذّب الفاجر . قال : كيف رأيت صنع الله بأهل بيتكم ! فقالت : كتب عليهم القتل

(١) يبرين : موضع بحذاء الأحساء .   (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .
(٣) أرذل الثياب : الرديء منها .

فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فيحاجونك إلى الله. فغضب ابن زياد واستشاط[1]، فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها! إنها لا تؤاخذ بما تقول، ولا تُلام على خَطَل.

وقال أبو مخنف عن الحالد عن سعيد: إن ابن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين «زين العابدين» قال لشرطيّ: انظر أأدرك هذا الغلام؟ فإن كان أدرك فانطلقوا به فاضربوا عنقه، فكشف إزاره عنه فقال: نعم! فقال: اذهب به فاضرب عنقه، فقال له عليّ بن الحسين: إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلا يحافظ عليهن، فقال له ابن زياد: تعال أنت! فبعثه معهن. قال أبو مخنف: وأما سليمان بن أبي راشد فحدثني عن حُميد بن مسلم قال: إني لقائم عند ابن زياد حين عُرض عليه علي بن الحسين، فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أو لم يَقتُل اللهُ علي بن الحسين؟ فسكت، فقال له ابن زياد. مالك لا تتكلم؟ قال: كان لي أخ يقال له علي أيضا؛ قتله الناس قال: إن الله قد قتله، فسكت، فقال: مالك لا تتكلم؟ فقال (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)[2] (وما كانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله)[3] قال: أنت والله منهم، ويحك!! انظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً، فكشف عنه مُرِيّ بن معاذ الأحمري فقال: نعم قد أدرك، فقال: اقتله، فقال علي بن الحسين: من تُوَكِّل بهذه النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته فقالت: يا ابن زياد حسبك منا ما فعلت بنا، أما رَوِيت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟ قال: واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتني معه، وناداه عليّ فقال: يا بن زياد!! إن كان بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام. قال: فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم!! والله إني لأظن أنها ودّت لو أني قتلته أن أقتلها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك. قال: ثم إن ابن زياد أمر بنساء الحسين وصبيانه وبناته فجهزن إلى يزيد، وأمر بعلي بن الحسين فغُلّ بغُل إلى عنقه، وأرسلهم مع مُحَفِّز بن ثعلبة العائذي ـ من عائذة قريش ـ ومع شمر بن ذي الجوشن قبحه الله، فلما بلغوا باب يزيد بن معاوية رفع مُحَفِّز بن ثعلبة صوته فقال: هذا محفز بن ثعلبة، أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه يزيد بن معاوية: ما ولدت أم مُحفز شرّ وألأم][4].

فلما دخلت الرءوس والنساء على يزيد دعا أشراف الشام فأجلسهم حوله، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه، فأدخلن عليه والناس ينظرون، فقال لعلي بن الحسين: يا عليّ! أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت! فقال علي:

(١) أي: التهب غضبا

(٢) من الآية: ٤٢ من سورة الزمر

(٣) من الآية: ١٤٥ من سورة آل عمران

(٤) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

(ما أصابَ مِنْ مُصِيبةٍ فى الأرضِ وَلاَ فى أنفُسِكم إلاّ فى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرأَهَا)[1] فقال يزيد لابنه خالد : أجبه . قال : فما درى خالد ما يرد عليه ، فقال له يزيد : قل (وَمَا أصابَكُمْ مِنْ مُصِيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)[2] فسكت عنه ساعة ، ثم دعا بالنساء والصبيان فرأى هيئة قبيحة ، فقال : قبح الله ابنَ مرجانة ، لو كانت بينهم وبينه قرابة ورَحِم ما فعل هذا بهم ، ولا بعث بكم هكذا .

وروى أبو مخنف عن الحارث بن كعب عن فاطمة بنت علىّ قالت : لما أجلسنا بين يدى يزيد رقّ لنا وأمر لنا بشىء وألطفنا ، ثم إن رجلا من أهل الشام أزرق أحمر قام إلى يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ! هب لى هذه ـ يعنينى ـ وكنتُ جارية وضيئة ، فارتعدتُ فَزِعة من قوله ، وظننت أن ذلك جائز لهم ، فأخذت بثياب أختى زينب ـ وكانت أكبرَ منى وأعقل ، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون ـ فقالت لذلك الرجل : كذبتَ والله ولَؤُمتَ ، ما ذلك لك ولا له .

فغضب يزيد فقال لها : كذبتِ ـ والله إن ذلك لى ، ولو شئتُ أن أفعله لفعلت قالت : كلاّ ! والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتَدينَ بغير ديننا قالت : فغضب يزيد واستطار ثم قال : إياى تستقبلين بهذا ؟ إنما خرجَ من الدين أبوكِ وأخوكِ ، فقالت زينب : بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى ـ اهتديت أنت وأبوك وجدك . قال : كذبتِ يا عدوةَ الله . قالت : أنت أمير المؤمنين مُسَلّط تشتم ظالما وتقهر بسلطانك . قالت : فوالله لكأنه استحيا فسكت ، ثم قام ذلك الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ! هَب لى هذه الجارية ، فقال له يزيد : اعزُب وهَب لله لك حتفاً قاضياً . ثم أمر يزيدُ النعمان بن بشير أن يبعث معهم إلى المدينة رجلا أميناً معه رجال وخيل ، ويكون على بن الحسين معهن ، ثم أنزل النساء عند حريمه فى دار الخلافة فاستقبلهن نساء آل معاوية يبكين وينُحْن على الحسين ، ثم أقمن المناحة ثلاثة أيام ، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا ومعه على بن الحسين وأخوه عمر بن الحسن ، فقال يزيد يوما لعمر بن الحسن ـ وكان صغيرا جدا ـ أتقاتل هذا الفتى ؟ ـ يعنى ابنه خالد بن يزيد ـ يريد بذلك ممازحته وملاعبته ، فقال : أعطنى سكينا وأعطه سكينا حتى نتقاتل ، فأخذه يزيد فضمه إليه وقال : شِنْشِنةٌ[3] أعرفها من أخزم ، هل تَلِد الحيّة إلا حية !

ولما ودّعهم يزيد قال لعلى بن الحسين : قبح الله ابنَ سُميّة ، أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن الله قضى ما رأيت ، ثم جهّزه وأعطاه مالا كثيراً وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول ،

---

(١) من الآية : ٢٢ من سورة الحديد .   (٢) من الآية ٣٠ من سورة الشورى

(٣) الشنشنة : الطبيعة والسجية : وأخزم رجل طائى كان عاقا لأبيه فمات وترك بنين عقوا جدهم وضربوه وأدموه ـ أى أنهم أشبهوا أباهم فى طبيعته وخلقه .

وقال له : كاتبنى بكل حاجة تـكون لك ، فكان ذلك الرسول الذى أرسله معهن ، يسير عنهن بمعزل من الطريق ، ويبعد عنهن بحيث يدركن طرفه وهو فى خدمتهم حتى وصلوا المدينة ، فقالت فاطمة بنت على : قلت لأختى زينب : إن هذا الرجل الذى أرسل معنا قد أحسن صحبتنا فهل لك أن نصله ؟ فقالت: والله ما معناشىء نصله به إلاحُلِيّنا، قالت وقلت لها: نعطيه حلينا ،قالت :فأخذت سوارى ودُملجى[1] ، وأخذت أختى سوارها ودُملجها وبعثنا به إليه واعتذرنا إليه وقلنا : هـذا جزاؤك بحسن صحبتك لنا، فقال: لو كان الذى صنعتُ معكم إنما هو للدنيا ـ كان فى هذا الذى أرسلتموه ما يرضينى وزيادة ، ولـكن والله ما فعلتُ ذلك إلا لله تعالى، ولقرابتـكم من رسول الله ﷺ .

[وقيل إن يزيد لما رأى رأس الحسين قال : أتدرون من أين أتى ابن فاطمة ؟ وما الحامل له على ما فعل ؟ وما الذى أوقعه فيما وقع فيـه ؟ قالوا : لا ! قال : يزعم أن أباه خير من أبى ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمى ، وجده رسول الله خير من جدى ، وأنه خير منى وأحقُّ بهذا الأمر منى ؛ فأما قوله : أبوه خير من أبى ، فقد حاجّ أبى أباه إلى الله عز وجل ، وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله : أمه خير من أمى ، فلعمرى إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمى وأما قوله : جده رسول الله خير من جدى ، فلعمرى ما أحدٌ يؤمن بالله واليوم الآخر يرى أن لرسول الله فينا عِـدْلاً ولا ندًّا ، ولـكنه إنما أتى من قِبَل فقهه ولم يقرأ (قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تشاء وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ من تَشَاءُ)[2] الآية ، وقوله تعالى (واللهُ يُؤْتِى مُلْـكَهُ مَنْ يشاء)[3] . فلما دخلت النساء على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين ـ وكانت أكبر من سكينة ـ يا يزيد ! بنات رسول الله ﷺ سبايا ؛ فقال يزيد : يا بنت أخى ، أنا لهذا كنت أكره . قالت : قلتُ : والله ما تركوا لنا خُرصاً[4] فقال : وابنة أخى ! ما أتى إليك أعظم مما ذهب لك . ثم أدخلهن داره ثم أرسل إلى كل امرأة منهن ماذا أخذ لك ؟ فليس منهن امرأة تدّعى شيئا بالغاً ما بلغ إلا أضعفه لها .

وقال هشام عن أبى مخنف: حدثنى أبو حمزة الثُّمالى عن القاسم بن بخيت قال : لما أقبل وفد الـكوفة برأس الحسين دخلوا به مسجد دمشق ، فقال لهم مروان بن الحـكم: كيف صنعتم ؟ قالوا : ورد علينا منهم ثمانية عشر رجـلا فأتينا والله على آخرهم ، وهذه الرءوس والسبايا، فوثب مروان وانصرف . وأتاهم أخوه يحيى بن الحـكم فقال : ما صنعتم ؟ فقالوا له مثل ما قالوا لأخيه ، فقال لهم : حُجبتم عن محمد ﷺ يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبدا ، ثم قام فانصرف .

---

(١) الدملج : ما يوضع على العضد من الحلى (٢) من الآية: ٢٦ من سورة آل عمران

(٣) من الآية : ٢٤٧ من سورة البقرة . (٤) الخرص : حلقة القرط

قال : ولما بلغ أهل المدينة مقتل الحسين بكى عليه نساء بنى هاشم ونحن عليه . وروى أن يزيد استشار الناس فى أمرهم ، فقال رجال ممن قبحهم الله : يا أمير المؤمنين لا يتخذن من كلب سوء جروا ، اقتل على بن الحسين حتى لا يبقى من ذرية الحسين أحد ، فسكت يزيد ، فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين اعمل معهم كما كان يعمل معهم رسول الله ﷺ لو رآهم على هذه الحال . فرق عليهم يزيد وبعث بهم إلى الحمام وأجرى عليهم الكساوى والعطايا والأطعمة ، وأنزلهم فى داره][1] .

وهذا يرد قول الرافضة : إنهم حملوا على جنائب الإبل سبايا عرايا ، حتى كذب من زعم منهم أن الإبل البخاتى إنما نبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم؛ لتستر عوراتهم من قبلهن ودبرهن .

ثم كتب ابن زياد إلى عمرو بن سعيد أمير الحرمين يبشره بمقتل الحسين ، فأمر مناديا فنادى بذلك . فلما سمع نساء بنى هاشم ارتفعت أصواتهن بالبكاء والنوح ، فجعل عمرو بن سعيد يقول : هذا ببكاء نساء عثمان بن عفان . وقال عبد الملك بن عمير : دخلت على عبيد الله بن زياد وإذا رأس الحسين بن على بين يديه على ترس ، فوالله ما لبثت إلا قليلا حتى دخلت على المختار بن أبى عبيد ، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدى المختار على ترس ، ووالله ما لبثت إلا قليلا حتى دخلت على عبد الملك بن مروان ، وإذا رأس مصعب بن الزبير على ترس بين يديه.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تاريخه : حدثنى زكريا بن يحيى الضرير ، ثنا أحمد بن جناب المصيصى ، ثنا خالد بن يزيد بن عبد الله القسرى ، ثنا عمار الدهنى قال : قلت لأبى جعفر : حدثنى عن مقتل الحسين كأنى حضرته ، فقال : أقبل الحسين بكتاب مسلم بن عقيل الذى كان قد كتبه إليه يأمره فيه بالقدوم عليه ، حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال ، لقيه الحر ابن يزيد التميمى فقال له : أين تريد ؟ فقال : أريد هذا المصر ، فقال له : ارجع فإنى لم أدع لك خلفى خيرا أرجوه ، فهم الحسين أن يرجع ، وكان معه أخوة مسلم بن عقيل ، فقالوا : والله لا نرجع حتى نأخذ بثأرنا ممن قتل أخانا أو نقتل. فقال : لا خير فى الحياة بعدكم ، فسار فلقيه أوائل خيل ابن زياد ، فلما رأى ذلك عاد إلى كربلاء فأسند ظهره إلى قصبة وحلفا[2] ليقاتل من جهة واحدة . فنزل وضرب أبنيته ، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارسا ومائة راجل ، وكان عمر بن سعد ابن أبى وقاص قد ولاه ابن زياد الرى وعهد إليه عهده ، فقال : اكفنى هذا الرجل واذهب إلى عملك ، فقال : اعفنى . فأبى أن يعفيه ، فقال : أنظرنى الليلة ، فأخره فنظر فى أمره ، فلما أصبح غدا عليه راضيا بما أمره به ، فتوجه إليه عمر بن سعد ، فلما أتاه قال له الحسين : اختر واحدة من ثلاث:

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ (٢) قصبة بلدة بالعراق ، وكذلك حلفا .

إما أن تدعونى فأنصرف من حيث جئت ، وإما أن تدعونى فأذهب إلى يزيد ، وإما أن تدعونى فألحق بالثغور . فقبل ذلك عمر ، فكتب إليه عبيد الله ابن زياد ـ لا ، ولا كرامة حتى يضع يده فى يدى ، فقال الحسين : لا ـ والله لا يكون ذلك أبداً . فقاتله فقتل أصحاب الحسين كلهم وفيهم بضعة عشر شابا من أهل بيته ، وجاءه سهم فأصاب ابناً له فى حجره فجعل يمسح الدم ويقول : اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا ، ثم أمر بحبرة فشقها ثم لبسها وخرج بسيفه فقاتل حتى قتل ؛ قتله رجل من مذحج وحز رأسه فانطلق به إلى ابن زياد، وقال فى ذلك:

أوقر ركابى فضة وذهبا ... فقد قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

قال: فأوفده إلى يزيد بن معاوية فوضع رأسه بين يديه ، وعنده أبو برزة الأسلمى ، فجعل يزيد ينكت بالقضيب على فيه ويقول:

يفلقن هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة : ارفع قضيبك ، فوالله لربما رأيت رسول الله ﷺ واضعاً فيه على فيه يلثمه . قال : وأرسل عمر بن سعد بحرمه وعياله إلى ابن زياد ، ولم يكن بقى من آل الحسين إلا غلام ، وكان مريضاً مع النساء ، فأمر به ابن زياد ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت : والله لا يقتل حتى تقتلونى ، فرق لها وكف عنه . قال : فأرسلهم إلى يزيد فجمع يزيد من كان بحضرته من أهل الشام ثم دخلوا عليه فهنئوه بالفتح ، فقام رجل منهم أحمر أزرق ـ ونظر إلى وصيفة من بناته ـ فقال : يا أمير المؤمنين هب لى هذه ، فقالت زينب : لا ـ ولا كرامة لك ولا له ، إلا أن تخرجا من دين الله ، قال : فأعادها الأزرق ، فقال له يزيد : كف عن هذا . ثم أدخلهم على عياله ، ثم حملهم إلى المدينة ، فلما دخلوها خرجت امرأة[1] من بنى عبد المطلب ناشرة شعرها، واضعة كمها على رأسها تتلقاهم وهى تبكى وتقول:

ماذا تقولونَ إنْ قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم

بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمِ

وقد روى أبو مخنف عن سليمان بن أبى راشد عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود ، أن بنت عقيل هى التى قالت هذا الشعر ، وهكذا حكى الزبير بن بكار، أن زينب الصغرى بنت عقيل ابن أبى طالب هى التى قالت ذلك حين دخل آل الحسين المدينة النبوية . وروى أبو بكر بن

(١) قيل: هى ابنة عقيل بن أبى طالب ،وقيل غيرها كما سيأتى

الأنبارى بإسناده ، أن زينب بنت على بن أبى طالب من فاطمة ـ وهى زوج عبد الله بن جعفر أم بنيه ـ رفعت سُجّف خبائها يوم كربلاء يوم قتل الحسين وقالت هذه الأبيات ، فالله أعلم .

وقال هشام بن الكلبى : حدثنى بعض أصحابنا عن عمرو بن المقدام قال : حدثنى عمر بن عكرمة قال : أصبحنا صبيحة قتل الحسين بالمدينة، فإذا مولاة لنا تحدثنا قالت : سمعت البارحة منادياً ينادى وهو يقول :

أيها القاتلون ُظلماً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل

كلُّ أهلِ السماء يدعو عليكم ... من نبيّ وملك وقبيل

قد لُعنتم على لسان ابن داو ... دَ وموسى وحامل الإنجيل

قال ابن هشام : حدثنى عمرو بن حيزوم الكلبىّ من أمه قالت : سمعت هذا الصوت . وقال الليث وأبو نعيم يوم السبت . ومما أنشده الحاكم أبو عبد الله النيسابورى وغيره لبعض المتقدمين فى مقتل الحسين :

جاؤا برأسك ياابن بنت محمد ... مترملا بدمائه ترميلا

وكأنما بك يا بن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا

قتلوك عطشانا ولم يتدبروا ... فى قتلك القرآن والتنزيلا

ويكبّرون بأن قتلت ، وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

فصل

وكان مقتل الحسين رضى الله عنه يوم الجمعة ، يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين . وقال هشام بن الكلبى : سنة ثنتين وستين ، وبه قال على بن المديني ـ وقال ابن لهيعة : سنة ثنتين أو ثلاث وستين . وقال غيره سنة ستين ، والصحيح الأول . بمكان من الطف يقال له كربلاء من أرض العراق، وله من العمر ثمان وخمسون سنة أو نحوها ، وأخطأ أبو نعيم فى قوله : إنه قتل وله من العمر خمس أو ست وستون سنة .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن حسان ، ثنا عمارة ـ يعنى ابن زاذان ـ عن ثابت عن أنس قال : « استأذن مَلَك القَطْر أن يأتى النبى ﷺ فأذن له ، فقال لأم سلمة : احفظى علينا الباب لا يدخل علينا أحد ، فجاء الحسين بن على فوثب حتى دخل ، فجعل يصعد على منكب النبى ﷺ ، فقال الملك : أتحبه ؟ قال : نعم : فقال : إن أمتك تقتله ، وإن شئت أريتك المكان الذى يقتل فيه ، قال : فضرب بيده فأراه ترابا أحمر ، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته فى طرف

ثوبها » قال : فكنا نسمع أنه يقتل بكربلاء . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثني عبد الله بن سعيد عن أبيه عن عائشة — أو أم سلمة — أن رسول الله ﷺ قال : « لقد دخل على البيت ملك لم يدخل قبلها ، فقال لي : إن ابنك هذا حسين مقتول ، وإن شئت أريتك الأرض التي يقتل بها ، قال : فأخرج تربة حمراء » . وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أم سلمة . ورواه الطبراني عن أبي أمامة وفيه قصة أم سلمة . ورواه محمد بن سعد عن عائشة بنحو رواية أم سلمة فالله أعلم . وروى ذلك من حديث زينب بنت جحش ، ولبابة أم الفضل — امرأة العباس . وأرسله غير واحد من التابعين .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا محمد بن هارون أبو بكر ، ثنا إبراهيم بن محمد الرقي وعلي ابن الحسن الرازي قالا : ثنا سعد بن عبد الملك أبو واقد الحراني ، ثنا عطاء بن مسلم ثنا أشعث ابن سحيم عن أبيه قال : سمعت أنس بن الحارث يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن ابني — يعني الحسين — يقتل بأرض يقال لها كربلاء ، فمن شهد منكم ذلك فلينصره » . قال : فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين ، قال : ولا أعلم رواه غيره . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ثنا شراحيل بن مدرك عن عبد الله بن يحيى عن أبيه ، أنه سار مع علي — وكان صاحب مِطهرته[1] — فلما جاؤا نينوى وهو منطلق إلى صفين ، فنادى علي : اصبر أبا عبد الله — بشط الفرات ، قلت : وماذا تريد ؟ قال : « دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان فقلت : ما أبكاك يا رسول الله ؟ قال : بلى — قام من عندي جبريل قبل ، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات ، قال : فقال : هل لك أن أشمك من تربته ؟ قال : فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا » . تفرد به أحمد .

وروى محمد بن سعد عن علي بن محمد عن يحيى بن زكريا عن رجل ، عن عامر الشعبي عن علي مثله . وقد روى محمد بن سعد وغيره من غير وجه ، عن علي بن أبي طالب ، أنه مر بكربلاء عند أشجار الحنظل وهو ذاهب إلى صفين ، فسأل عن اسمها فقيل كربلاء ، فقال : كربٌ وبلاء فنزل وصلى عند شجرة هناك ، ثم قال : يقتل هاهنا شهداء هم خير الشهداء غير الصحابة ، يدخلون الجنة بغير حساب ، — وأشار إلى مكان هناك — فعلموه بشيء فقتل فيه الحسين . وقد روى عن كعب الأحبار آثار في كربلاء . وقد حكى أبو الجناب الكلبي وغيره ، أن أهل كربلاء لا يزالون يسمعون نوح الجن على الحسين وهن يقلن :

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود

(١) المطهرة — بالكسر والفتح — إناء يتطهر به ، والإداوة ، وبيت يتطهر فيه .

أبواه من عليا قريش جـــــدهُ خير الجدود

وقد أجابهم بعض الناس فقال :

خرجوا به وفداً إليــــه فهم له شر الوفود

قتلوا ابن بنت نبيهم سكنوا به ذات الخدود

وروى ابن عساكر ، أن طائفة من الناس ذهبوا فى غزوة إلى بلاد الروم فوجدوا فى كنيسة مكتوبا :

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب ؟

فسألوهم : من كتب هذا ؟ فقالوا : إن هذا مكتوب ههنا من قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة . وروى أن الذين قتلوه رجعوا فباتوا وهم يشربون الخمر والرأس معهم ، فبرز لهم قلم من حديد ، فرسم لهم فى الحائط بدم هذا البيت :

أترجو أمة قتلت حســـينا شفاعة جده يوم الحساب ؟

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعفان ، ثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال : « رأيت رسول الله ﷺ فى المنام نصف النهار أشعث أغبر ، معه قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى وأمى يا رسول الله ! ما هذا ؟ قال : هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم » قال عمار : فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل فى ذلك اليوم . تفرد به أحمد وإسناده قوى.

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الله بن محمد بن هانىء - أبو عبد الرحمن النحوى ، ثنا مهدى بن سليمان ثنا على بن زيد بن جدعان قال : استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه : لم يا ابن عباس ؟ فقال : « رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال : أتعلم ما صنعت أمتى من بعدى ؟ قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله » . فكتب ذلك اليوم الذى قال فيه ؛ وتلك الساعة ، فما لبثوا إلا أربعة وعشرين يوماً حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل فى ذلك اليوم وتلك الساعة . وروى الترمذى عن أبى سعيد الأشج عن أبى خالد الأحمر، عن رزين عن سلمى قالت : دخلت على أم سلمة وهى تبكى فقلت : ما يبكيك ؟ فقالت : رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : « شهدت قتل الحسين آنفا » .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصارى، أنبأنا قرة بن خالد، أخبرنى عامر بن عبد الواحد عن شهر بن حوشب قال : إنا لعند أم سلمة زوج النبى ﷺ فسمعنا صارخة فأقبلت حتى انتهيت إلى أم سلمة فقالت : قتل الحسين . فقالت : قد فعلوها ، ملأ الله قبورهم - أو بيوتهم -

عليهم ناراً ، ووقعت مغشياً عليها ، ولهنا . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ثنا ابن مسلم عن عمار قال : سمعت أم سلمة قالت: سمعتُ الجن يبكين على الحسين، وسمعت الجن تنوح على الحسين . رواه الحسين بن إدريس عن هاشم بن هاشم ، عن أمه عن أم سلمة قالت : سمعت الجن ينحن على الحسين وهن يقلن :

أيها القاتلون جهلا حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم ... ونبي ومرسـل وقبيل

قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وصاحب الإنجيل

وقد روى من طريق أخرى عن أم سلمة بشعر غير هذا ، فالله أعلم .

وقال الخطيب : أنبأنا أحمد بن عثمان بن ساج السكرى ، ثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعى ، ثنا محمد بن شداد المسمعى ، ثنا أبو نعيم ، ثنا عبيد الله بن حبيب بن أبى ثابت ، عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « أوحى الله تعالى إلى محمد ، إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً ، وأنا قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً » . هذا حديث غريب جداً ، وقد رواه الحاكم فى مستدركه . وقد ذكر الطبرانى هٰهُنا آثاراً غريبة جداً ، ولقد بالغ الشيعة فى يوم عاشوراء ، فوضعوا أحاديث كثيرة كذبا فاحشاً ، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم ، وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم ، وأن أرجاء السماء احمرت ، وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم ، وصارت السماء كأنها علقة ، وأن الكواكب ضرب بعضها بعضاً ، وأمطرت السماء دماً أحمر ، وأن الحمرة لم تكن فى السماء قبل يومئذ ، ونحو ذلك . وروى ابن لهيعة عن أبى قبيل المعافرى ، أن الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم وقت الظهر ، وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دماً ، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام ، ولم يمس زعفران ولا ورس[1] مما كان معه يومئذ إلا احترق من مسه ، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط ، وأن الإبل التى غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم .. إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التى لا يصح منها شىء .

وأما ما روى من الأحاديث والفتن التى أصابت مَن قتله فأكثرها صحيح ، فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة فى الدنيا ، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض ، وأكثرهم أصابهم الجنون . وللشيعة والرافضة فى صفة مصرع الحسين كذب كثير وأخبار باطلة ، وفيما ذكرنا كفاية ، وفى بعض ما أوردناه نظر ، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه ما سقته ، وأكثره من رواية أبى مخنف ــ لوط بن يحيى ــ ، وقد كان شيعياً ، وهو ضعيف

(١) الورس: نبات كالسمسم فى بلاد اليمن ، نافع للكلف طلاء ، وللبهق شربا .

الحديث عند الأئمة ، ولكنه إخبارى حافظ ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره ، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنفين فى هذا الشأن ممن بعده ، والله أعلم .

وقد أسرف الرافضة فى دولة بنى بويه فى حدود الأربعمائة وما حولها ، فكانت الدبادب تضرب ببغداد ونحوها من البلاد فى يوم عاشوراء ، ويُذر الرماد والتبن فى الطرقات والأسواق ، وتعلق المسوح على الدكاكين ، ويظهر الناس الحزن والبكاء ، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتئذ موافقة للحسين لأنه قتل عطشانا . ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، حافيات فى الأسواق ... إلى غير ذلك من البدع الشنيعة ، والأهواء الفظيعة ، والهتائك المخترعة ، وإنما يريدون بهذا وأشباهه ، أن يشنعوا على دولة بنى أمية ، لأنه قتل فى دولتهم .

[وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء ـ النواصب من أهل الشام ، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ويلبسون أفخر ثيابهم ، ويتخذون ذلك اليوم عيداً يصنعون فيه أنواع الأطعمة ، ويظهرون السرور والفرح ، يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم][1] .

وقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها ، وليخلع من بايعه من الناس واجتمعوا عليه ، وقد ورد فى صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك ، والتحذير منه ، والتوعد عليه . وبتقدير أن تكون طائفة من الجهلة قد تأولوا عليه وقتلوه ، ولم يكن لهم قتله . بل كان يجب عليهم إجابته إلى ما سأل من تلك الخصال الثلاثة المتقدم ذكرها ، فإذا ذمت طائفة من الجبارين تذم الأمة كلها بكمالها وتتهم على نبيها صلى الله عليه وسلم ، فليس الأمر كما ذهبوا إليه ، ولا كما سلكوه ، بل أكثر الأئمة قديماً وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه ، سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة ـ قبحهم الله ، وأكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا به إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة .

[فلما علم ذلك ابن زياد منهم ، بلغهم ما يريدون من الدنيا ، وآخذهم على ذلك وحملهم عليه بالرغبة والرهبة ، فانكفوا عن الحسين وخذلوه ثم قتلوه][2] . وليس كل ذلك الجيش كان راضيا بما وقع من قتله ، بل ولا يزيد بن معاوية رضى بذلك ، والله أعلم ، ولا كرهه والذى يكاد يغلب على الظن ، أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه كما أوصاه بذلك أبوه . وكما صرح هو به مخبراً من

(١)و(٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

نفسه بذلك . [وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك وشتمه فيما يظهر ويبدو ، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه ولا أرسل يعيب عليه ذلك ، والله أعلم][1] .

فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه قتله رضي الله عنه ، فإنه من سادات المسلمين ، وعلماء الصحابة وابن بنت رسول الله ﷺ التي هي أفضل بناته ، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخياً ، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء . وقد كان أبوه أفضل منه فقتل ، وهم لا يتخذون مقتله مأتما كيوم مقتل الحسين ؛ فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين . وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة ، وقد قتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين ، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد ، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتما . وكذلك عمر بن الخطاب وهو أفضل من عثمان وعلي ، قتل وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر ويقرأ القرآن ، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتما ، وكذلك الصديق كان أفضل منه ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتما . ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله ، ولم يتخذ أحد يوم موتهم مأتما يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين . [ولا ذكر أحد أنه ظهر يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة ؛ مثل كسوف الشمس والحمرة التي تطلع في السماء ـ وغير ذلك][2] .

وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب وأمثالها ، ما رواه علي بن الحسين عن جده رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وإن تقادم عهدها فيحدث لها استرجاعاً[3] ـ إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب منها » . رواه الإمام أحمد وابن ماجة .

وأما قبر الحسين رضي الله عنه

فقد اشتهر عند كثير من المتأخرين أنه في مشهد علي ـ بمكان من الطف[4] عند نهر كربلاء ، فيقال إن ذلك المشهد مبني على قبره، فالله أعلم . وقد ذكر ابن جرير وغيره ، أن موضع قتله عفي أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه بخبر . وقد كان أبو نعيم ـ الفضل بن دكين ـ ينكر على من يزعم أنه يعرف قبر الحسين . وذكر هشام بن الكلبي ، أن الماء لما أجرى على قبر الحسين ليمحى أثره نضب الماء بعد أربعين يوما ، فجاء أعرابي من بني أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة ويشمها حتى

---

(١) ، (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

(٣) استرجع: قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .   (٤) الطف : موضع قرب الكوفة

وقع على قبر الحسين فبكى وقال : بأبى أنت وأمى ! ما كان أطيبك وأطيب تربتك ! ثم أنشأ يقول :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دلّ على القبر

وأما رأس الحسين ــ رضى الله عنه

فالمشهور عند أهل التاريخ وأهل السير ، أنه بعث به ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ، ومن الناس من أنكر ذلك . وعندى أن الأول أشهر فالله أعلم . ثم اختلفوا بعد ذلك فى المكان الذى دفن فيه الرأس ؛ فروى محمد بن سعد أن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة ، فدفنه عند أمه بالبقيع. وذكر ابن أبى الدنيا من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن عمر بن صالح ــ وهما ضعيفان ــ أن الرأس لم يزل فى خزانة يزيد بن معاوية حتى توفى فأخذ من خزانته فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق . قلت : ويعرف مكانه بمسجد الرأس اليوم، داخل باب الفراديس الثانى . وذكر ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة ريّا حاضنة يزيد بن معاوية ، أن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه ، تمثل بشعر ابن الزبعرى ـ يعنى قوله :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

قال : ثم نصبه بدمشق ثلاثة أيام ، ثم وضع فى خزائن السلاح ، حتى كان زمن سليمان ابن عبد الملك جىء به إليه ، وقد بقى عظماً أبيض ، فكفنه وطيبه وصلى عليه ودفنه فى مقبرة المسلمين ، فلما جاءت المسوّدة ـ يعنى بنى العباس ـ نبشوه وأخذوه معهم . وذكر ابن عساكر أن هذه المرأة بقيت بعد دولة بنى أمية ، وقد جاوزت المائة سنة ، فالله أعلم . وادعت الطائفة المسمون بالفاطميين ـ الذين ملكوا الديار المصرية قبل سنة أربعمائة إلى ما بعد سنة ستين وستمائة ـ أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور به بمصر ، الذى يقال له : تاج الحسين ، بعد سنة خمسمائة . وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم ، على أنه لا أصل لذلك ، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك باطل ما ادعوه من النسب الشريف ، وهم فى ذلك كذبة خونة ، وقد نص على ذلك القاضى الباقلانى وغير واحد من أئمة العلماء فى دولتهم ، فى حدود سنة أربعمائة ، كما سنبين ذلك كله إذا انتهينا إليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى . [قلتُ : والناس أكثرهم يروج عليهم مثل هذا ، فإنهم جاءوا برأس فوضعوه فى مكان هذا المسجد المذكور ، وقالوا : هذا الحسين ، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك، والله أعلم][1].

---

(١) مابين القوسين ساقط من بعض النسخ .

فصل فى ذكر شىء من فضائله

روى البخارى من حديث شعبة ومهدى بن ميمون، عن محمد بن أبى يعقوب، سمعت ابن أبى نعم قال : سمعت عبد الله بن عمر - وسأله رجل من أهل العراق عن المحرم يقتل الذباب - فقال : أهل العراق يسألون عن قتل الذباب ، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال رسول الله ﷺ « هما ريحانتاى من الدنيا » . ورواه الترمذى عن عقبة بن مكرم، عن وهب بن جرير ، عن أبيه عن محمد بن أبى يعقوب به نحوه : أن رجلا من أهل العراق سأل ابن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب . فقال ابن عمر : انظروا إلى أهل العراق يسألون عن دم البعوض ، وقد قتلوا ابن بنت محمد ﷺ ، وذكر تمام الحديث ، ثم قال : حسن صحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، ثنا سفيان عن أبى الجحاف ، عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى » - يعنى حسنا وحسينا - . وقال الإمام أحمد : حدثنا تليد بن سليمان كوفى ، ثنا أبو الجحاف عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : « نظر النبى ﷺ إلى على والحسن والحسين وفاطمة فقال : أنا حرب لمن حاربكم ، سلم لمن سالمكم » . تفرد بهما الإمام أحمد . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ثنا حجاج - يعنى ابن دينار - عن جعفر ابن إياس عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبى هريرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين ، هذا على عاتقه الواحد ، وهذا على عاتقه الآخر ، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة ، حتى انتهى إلينا ، فقال له رجل: يا رسول الله ! والله إنك لتحبهما ، فقال: من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى » تفرد به أحمد .

وقال أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنى عقبة بن خالد ، حدثنى يوسف ابن إبراهيم التميمى، أنه سمع أنس بن مالك يقول: سئل رسول الله ﷺ : أىّ أهل بيتك أحب إليك ؟ قال : « الحسن والحسين » . قال : وكان يقول « ادع لى ابنىّ فيشمهما ويضمهما إليه » . وكذا رواه الترمذى عن أبى سعيد الأشج به ، وقال : حسن غريب من حديث أنس . وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر وعفان، عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أنس ، أن رسول الله ﷺ « كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر فيقول : الصلاة يا أهل البيت (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[1] » ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عفان به ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة .

وقال الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، ثنا أبو أسامة عن فضيل بن مرزوق عن عدى عن ثابت عن البراء ، أن رسول الله ﷺ « أبصر حسنا وحسينا فقال : اللهم إنى أحبهما فأحبهما » .

(١) من الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

ثم قال : حسن صحيح وقد روى الإمام أحمد عن زيد بن الحباب عن الحسين بن واقد وأهل السنن الأربعة ، من حديث الحسين بن واقد عن بريدة عن أبيه قال : « كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، إذ جاء الحسن والحسين وعليهما قيصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)[١] ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » . وهذا لفظ الترمذي ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد . ثم قال : حدثنا الحسين بن عرفة ثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن سعيد بن راشد ، عن يعلى بن مرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط[٢] » ، ثم قال الترمذي ، هذا حديث حسن ورواه أحمد عن عفان عن وهب عن عبد الله بن عثمان بن خيثم به . ورواه الطبراني عن بكر بن سهل ، عن عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح بن راشد بن سعد ، عن يعلى بن مرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « الحسن والحسين سبطان من الأسباط » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن أبي نعيم عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » . ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري وغيره عن يزيد بن أبي زياد ، وقال : حسن صحيح ، وقد رواه أبو القاسم البغوي عن داود بن رشيد عن مروان الفزاري عن الحكم بن عبد الرحمن ابن أبي نعم عن أبيه عن أبي سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب الجنة ، إلا ابني الخالة : يحيى وعيسى ﷺ » . وأخرجه النسائي من حديث [مروان بن معاوية الفزاري به ، ورواه سويد بن سعيد عن محمد بن حازم عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن ربيع بن سعد عن أبي سابط قال : دخل حسين بن علي المسجد فقال جابر بن عبد الله : « من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا » سمعته من رسول الله ﷺ . تفرد به أحمد ، وروى الترمذي والنسائي من حديث][٣] إسرائيل عن ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبيش ، عن حذيفة ، أن أمه بعثته ليستغفر له رسول الله ﷺ ولها ، قال : فأتيته فصليت معه المغرب ، ثم صلى حين صلى العشاء ، ثم انفتل[٤] فتبعته فسمع صوتي فقال : « من هذا ؟ حذيفة ؟ قلت : نعم ! قال : ما حاجتك غفر الله لك ولأمك ؟ إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قبل هذه الليلة ، استأذن ربه بأن يسلم علىّ ويبشرني

---

(١) من الآية : ١٥ من سورة التغابن . (٢) أي أمة من الامم والسبط : ولد الولد

(٣) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ . (٤) أي: انصرف وأدار وجهه

بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، ولا يعرف إلا من حديث إسرائيل . وقد روى مثل هذا من حديث علي بن أبي طالب ومن حديث الحسين نفسه ، وعمر ، وابنه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وغيرهم ، وفي أسانيده كلها ضعف، والله أعلم .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا موسى بن عطية عن أبيه عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في الحسن والحسين : « من أحبني فليحبّ هذين » . وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ثنا إسماعيل ــ يعني ابن جعفر ، أخبرني محمد ــ يعني ابن حرملة ــ عن عطاء ، أن رجلا أخبره أنه رأى النبي ﷺ « يضم إليه حسناً وحسيناً ويقول : اللهم إني أحبهما فأحبهما » . وقد روى عن أسامة بن زيد وسلمان الفارسي شيء يشبه هذا، وفيه ضعف وسقم ، والله أعلم . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ثنا كامل وأبو المنذر ابنا كامل ، قال أسود : أنبأنا المعنى عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : « كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء فإذا سجد وثب الحسين والحسن على ظهره ، فلما رفع رأسه أخذهما أخذا رفيقاً فيضعهما على الأرض ، فإذا عاد عاد ! حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه ، قال: فقمت إليه فقلت : يا رسول الله : أردهما إلى أمهما ؟ قال : فبرقت برقة فقال لهما : الحقا بأمكما ، قال، فمكث ضوءها حتى دخلا على أمهما » . وقد روى موسى بن عثمان الحضرمي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة نحوه ، وقد روى عن أبي سعيد وابن عمر قريب من هذا ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ثنا معاذ بن معاذ، ثنا قيس بن الربيع عن أبي المقدام ــ عبد الرحمن الأزرق عن علي قال : « دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا نائم، فاستسقى الحسن أو الحسين، فقام رسول الله ﷺ إلى شاة لنا كي يحلبها فدرت فجاءه الآخر فنحاه ، فقالت فاطمة : يا رسول الله ! كأنه أحبهما إليك ؟ قال : لا ــ ولكنه استسقى قبله ، ثم قال : إني وإياك وهذين وهذا الراقد في مكان واحد يوم القيامة » . تفرد به أحمد . ورواه أبو داود الطيالسي عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن أبي فاختة عن علي فذكر نحوه . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يكرمهما ويحملهما ويعطيهما كما يعطي أباهما ، وجيء مرة بحلل من اليمن فقسمها بين أبناء الصحابة ولم يعطهما منها شيئا ، وقال: ليس فيها شيء يصلح لهما ، ثم بعث إلى نائب اليمن فاستعمل لهما حلتين تناسبهما

وقال محمد بن سعد : أنبأنا قبيصة بن عقبة ثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن العيزار بن حريث قال : بينما عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، إذ رأى الحسين مقبلا فقال : هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء . وقال الزبير بن بكار : حدثني سليمان بن الدراوردي عن جعفر بن محمد

عن أبيه « أن رسول الله ﷺ بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا ، ولم يبايع صغيراً إلا منا » . وهذا مرسل غريب وقال محمد بن سعد : أخبرنى يعلى بن عبيد ثنا عبد الله بن الوليد الرصافى ، عن عبد الله بن عبيد الله بن عميرة قال : حج الحسين بن على خمساً وعشرين حجة ماشياً ، ونجائبه تقاد بين يديه . وحدثنا أبو نعيم الفضل ابن دكين ثنا حفص بن غياث عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحسين بن على حج ماشياً وإن نجائبه لتقاد وراءه . والصواب أن ذلك إنما هو الحسن أخوه ، كما حكاه البخارى . وقال المدائنى : جرى بين الحسن والحسين كلام فتهاجرا ، فلما كان بعد ذلك أقبل الحسن إلى الحسين فأكب على رأسه يقبله ، فقام الحسين فقبله أيضاً ، وقال : إن الذى منعنى من ابتدائك بهذا أنى رأيت أنك أحق بالفضل منى ، فكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به منى وحكى الأصمعى عن ابن عون ، أن الحسن كتب إلى الحسين يعيب عليه إعطاء الشعراء ، فقال الحسين: إن أحسن المال ما وقى العرض .

[وقد روى الطبرانى : حدثنا أبو حنيفة محمد بن حنيفة الواسطى ، ثنا يزيد بن البراء بن عمرو ابن البراء الغنوى ، ثنا سليمان بن الهيثم قال : كان الحسين بن على يطوف بالبيت ، فأراد أن يستلم فما وسع له الناس ، فقال رجل : يا أبا فراس ! من هذا ؟ فقال الفرزدق :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
فى كفه خيزران ريحها عبق ... بكف أروع فى عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
لا يستطيع جواد بعد غايته ... ولا يدانيه قوم إن هموا كرموا
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله أمم
أى العشائر هم ليست رقابهم ... لأولية هذا أوله نعم

هكذا أوردها الطبرانى فى ترجمة الحسين فى معجمه الكبير وهو غريب ، فإن المشهور أنها من قيل الفرزدق فى على بن الحسين لا فى أبيه ، وهو أشبه فإن الفرزدق لم ير الحسين إلا وهو مقبل إلى الحج والحسين ذاهب إلى العراق ، فسأل الحسين الفرزدق عن الناس فذكر له ما تقدم . ثم

إن الحسين قتل بعد مفارقته له بأيام يسيرة ، فمتى رآه يطوف بالبيت ؟ والله أعلم ، وروى هشام عن عوانة قال : قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد : أين الكتاب الذى كتبته إليك فى قتل الحسين؟ فقال : مضيت لأمرك وضاع الكتاب ، فقال له ابن زياد : لتجيئن به ، قال : ضاع ، قال : والله لتجيئن به ، قال : ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهن بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك فى حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبى وقاص لكنت قد أديت حقه ، فقال عثمان بن زياد أخو عبيد الله : صدق عمر والله ، ولوددت والله أنه ليس من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل ، قال : فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله بن زياد][1] .

فصل

فى ذكر شىء من أشعاره التى رويت عنه

فمن ذلك: ما أنشده أبو بكر بن كامل، عن عبد الله بن إبراهيم ، وذكر أنه للحسين بن على ابن أبى طالب ـ رضى الله عنهما :

إغنَ عن المخلوق بالخالق … تسد على الكاذب والصادق

واسترزق الرحمن من فضله … فليس غير الله من رازق

من ظن أن الناس يغنونهُ … فليس بالرحمن بالواثق

أو ظن أن المال من كسبه … زلت به النعلان من حالق

وعن الأعمش، أن الحسين بن على قال :

كلما زيد صاحب المال مالا … زيد فى همه وفى الاشتغال

قد عرفناك يا منغصة العيـ … ـش ويا دار كل فان وبال

ليس يصفو لزاهد طلب الزهـ … ـد إذا كان مثقـــلا بالعيال

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : بلغنى أن الحسين زار مقابر الشهداء بالبقيع فقال :

ناديت سكان القبور فأسكتوا … وأجابنى عن صمتهم ترب الحصا

قالت : أتدرى مافعلت بساكنى … مزقت لحمهم وخرّقت الكسا

وحشوت أعينهم ترابا بعد ما … كانت تؤذى باليسير من القذا

أما العظام فإننى مزقتهـــا … حتى تباينت المفاصل والشوا

قطعت ذا من ذا من هذا كذا … فتركتها رمما يطوف بها البلا

---

(١) مابين القوسين ساقط من بعض النسخ .

وأنشد بعضهم للحسين رضي الله عنه أيضا :

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة — فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أنشئت — فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل
وإن كانت الأرزاق شيئا مقدرا — فقلة سعي المرء في الرزق أجمل
وإن كانت الأموال للترك جمعها — فما بال متروك به المرء يبخل

ومما أنشد الزبير بن بكار من شعره في امرأته الرباب بنت أنيف، ويقال بنت امرئ القيس ابن عدي بن أوس الكلبي ـ أم ابنته سكينة :

لعمرك إنني لأحب دارا — تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي — وليس للائمي فيها عتاب
ولست لهم ـ وإن عتبوا ـ مطيعا — حياتي أو يغيبني التراب

وقد أسلم أبوها على يدي عمر بن الخطاب وأمره عمر على قومه ، فلما خرج من عنده خطب إليه علي بن أبي طالب أن يزوج ابنه الحسن أو الحسين من بناته ، فزوج الحسن ابنته سلمى ، والحسين ابنته الرباب ، وزوج عليا ابنته الثالثة . وهي الحياة بنت امرئ القيس في ساعة واحدة ، فأحب الحسين زوجته الرباب حبا شديدا ، وكان بها معجبا يقول فيها الشعر ، ولما قتل بكربلاء كانت معه فوجدت عليه وجداً شديداً ، وذكر أنها أقامت على قبره سنة ثم انصرفت وهي تقول:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما — ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقد خطبها بعده خلق كثير من أشراف قريش فقالت : ما كنت لأتخذ حموا بعد رسول الله ﷺ ، ووالله لا يؤويني ورجلا بعد الحسين سقف أبداً . ولم تزل عليه كمدة حتى ماتت . ويقال: إنها إنما عاشت بعده أياماً يسيرة،فالله أعلم،وابنتها سكينة بنت الحسين كانت من أجمل النساء ، حتى إنه لم يكن في زمانها أحسن منها ، فالله أعلم .

وروى أبو مخنف عن عبد الرحمن بن جندب، أن ابن زياد بعد مقتل الحسين تفقد أشراف أهل الكوفة فلم ير عبيد الله بن الحر بن يزيد ، فتطلبه حتى جاءه بعد أيام فقال : أين كنت يا ابن الحر ؟ قال : كنت مريضا ، قال : مريض القلب أم مريض البدن ؟ قال : أما قلبي فلم يمرض، وأما بدني فقد منّ الله عليه بالعافية ، فقال له ابن زياد : كذبت ، ولكنك كنت مع عدونا ، قال : لو كنت مع عدوك لم يخف مكان مثلي ، ولكان الناس شاهدوا ذلك ، قال: وعقل عن ابن زياد عقلة[1]،فخرج ابن الحر فقعد على فرسه. ثم قال: أبلغوه أني لا آتيه والله طائعاً فقال ابن زياد:

(١) في الصحاح : عقل عن فلان ـ غرم عنه جنايته ، وذلك إذا لزمته دية فأداها عنه والعقل في كلام العرب ـ الدية .

أين ابن الحر ؟ قال : خرج ، فقال : على به ، فخرج الشرط فى طلبه فأسمعهم غليظ ما يكرهون ، وترضى عن الحسين وأخيه وأبيه ، ثم أسمعهم فى ابن زياد غليظاً من القول، ثم امتنع منهم وقال فى الحسين وفى أصحابه شعراً :

يقول أمير غادر حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
فيا ندمى أن لا أكون نصرته ... فذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تبارزوا ... على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم وقبورهم ... فكاد الحشا ينقض والعين ساجمه
لعمرى لقد كانوا مصاليت فى الوغى ... سراعاً إلى الهيجا حماة ضراغمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم ... بأسيافهم آساد غيل ضبارمة
فإن يقتلوا تلك النفوس التقية[1] ... على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهم ... لدى الموت سادات وزهر قماقم
أتقتلهم ظلما وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمة
لعمرى لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهمُّ مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فيا ابن زياد استعد لحربنا ... وموقف ضنك تقصم الظهر قاصمه

وقال الزبير بن بكار : قال سليمان بن قتيبة يرثى الحسين رضى الله عنه :

وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاباً من قريش فذلت
فإن تتبعوه عائذ البيت تصبحوا ... كعاد تعمت عن هداها فضلت
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتها أمثالها حيث حلت
وكانوا لنا غنما فعادوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
إذا افتقرت قيس جبرنا فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
وعند يزيد قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يوماً بها حيث حلت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لقتل حسين والبلاد اقشعرت

ومما وقع من الحوادث فى هذه السنة ـ أعنى سنة إحدى وستين ـ بعد مقتل الحسين :

فيها: ولى يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد سجستان وخراسان حين وفد عليه، وله من العمر أربعة وعشرون سنة ، وعزل عنها أخويه: عباداً وعبد الرحمن، وسار سَلْم إلى عمله فجعل ينتخب الوجوه

(١) فى نسخة : فكل نفس تقية

والفرسان ، ويحرض الناس على الجهاد ، ثم خرج في جحفل عظيم ليغزو بلاد الترك ، ومعه امرأته ـ أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص ، فكانت أول امرأة من العرب قطع بها النهر ، وولدت هناك ولداً أسموه «صغدى» ، وبعثت إليها امرأة صاحب صُغْدى بتاجها من ذهب ولآل. وكان المسلمون قبل ذلك لا يشتون في تلك البلاد ، فشتى بها سلم بن زياد . [وبعث المهلب بن أبي صفرة إلى تلك المدينة التي هي للترك ـ وهي خوارزم ، فحاصرهم حتى صالحوه على نيف وعشرين ألف ألف ، وكان يأخذ منهم عروضا عوضا، فيأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف ، فحظى بذلك المهلب عند سلم بن زياد][1]

ثم بعث من ذلك ما اصطفاه ليزيد بن معاوية مع مرزبان ومعه وفدٌ ، وصالح سَلْم أهل سمرقند في هذه الغزوة على مال جزيل . وفيها: عزل يزيد عن إمرة الحرمين ـ عمرو بن سعيد ، وأعاد إليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فولاه المدينة؛ وذلك أن ابن الزبير لما بلغه مقتل الحسين، شرع يخطب الناس ويعظم قتل الحسين وأصحابه جداً ، ويعيب على أهل الكوفة وأهل العراق ما صنعوه من خذلانهم الحسين ، ويترحم على الحسين ويلعن مَن قتله ، ويقول : أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار صيامه ، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغنا والملاهي ، ولا بالبكاء من خشية الله اللغو والحداء ، ولا بالصيام شرب المدام وأكل الحرام ، ولا بالجلوس في حلق الذكر طلب الصيد ؛ يُعرّض في ذلك بيزيد بن معاوية ـ فسوف يلقون غيا . ويؤلب الناس على بني أمية ويحثهم على مخالفته وخلع يزيد . فبايعه خلق كثير في الباطن ، وسألوه أن يظهرها فلم يمكنه ذلك مع وجود عمرو بن سعيد . وكان شديداً عليه ولكن فيه رفق ، وقد كان كاتبه أهل المدينة وغيرهم ، وقال الناس : أما إذا قتل الحسين فليس ينازع أحد ابن الزبير ، فلما بلغ ذلك يزيد شق ذلك عليه وقيل له : إن عمرو بن سعيد لو شاء لبعث إليك برأس ابن الزبير ، أو يحاصره حتى يخرجه من الحرم ، فبعث فعزله وولى الوليد بن عُتبة فيها ، وقيل في مستهل ذي الحجة ، فأقام للناس الحج فيها ، وحلف يزيد ليأتيني ابن الزبير في سلسلة من فضة ، وبعث بها مع البريد ومعه برنس من خز ليبر يمينه، فلما مر البريد على مروان وهو بالمدينة وأخبره بما هو قاصد له وما معه من الغل ـ أنشأ مروان يقول[2] :

خذها فما هي للعزيز بخطة ... وفيها مقالٌ لامرىء متذلّل
أعامر إنّ القوم ساموك خطّة ... وذلك في الجيران غزلٌ بمغزل
أراكَ إذا ما كنتَ في القوم ناصحاً ... يقال له بالدلو أدبر وأقبل

(١) مابين القوسين ـ ساقط من بعض النسخ (٢) هذا الشعر هو للعباس بن مرداس

فلما انتهت الرسل إلى عبد الله بن الزبير ، بعث مروان ابنيه : عبد الملك وعبد العزيز ـ ليحضرا مراجعته فى ذلك ، وقال : أسمعاه قولى فى ذلك ، قال عبد العزيز : فلما جلس الرسل بين يديه جعلت أنشده ذلك وهو يسمع ولا أشعره ، فالتفت إلىّ فقال : أخبر أباك أنى أقول :

إنىّ لمِن نَبْعَة صُمّ مكاسِرُها ... إذا تناوحت القَصْباء والعُشَر

ولا ألين لغير الحقّ أسأله ... حتى يلين لِضرْس الماضِغ الحجرُ

قال عبد العزيز: فما أدرى أيما كان أعجب ! !

قال أبو معشر : لا خلاف بين أهل السير، أن الوليد بن عتبة حج بالناس فى هذه السنة وهو أمير الحرمين وعلى البصرة والكوفة عبيد الله بن زياد ، وعلى خراسان وسجستان سلم بن زياد أخو عبيد الله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الحسين بن على رضى الله عنهما : ومعه بضعة عشر من أهل بيته قتلوا جميعاً بكربلاء ، وقيل بضعة وعشرون كما تقدم . وقتل معهم جماعة من الأبطال والفرسان .

جابر بن عتيك بن قيس : أبو عبد الله الأنصارى السلمى ، شهد بدراً وما معه ، وكان حامل راية الأنصار يوم الفتح، كذا قال ابن الجوزى، قال: وتوفى فى هذه السنة عن إحدى وسبعين سنة.

حمزة بن عمرو الأسلمى : صحابى جليل، ثبت فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت : سأل حمزة ابن عمرو رسول الله ﷺ فقال : إنى كثير الصيام أأصوم فى السفر؟ فقال له : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر » . وقد شهد فتح الشام ، وكان هو البشير للصديق يوم أجنادين ، قال الواقدى : وهو الذى بشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه فأعطاه ثوبيه . وروى البخارى فى التاريخ بإسناد جيد عنه أنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاءت لى أصابعى حتى جمعت عليها كل متاع كان للقوم » . اتفقوا على أنه توفى فى هذه السنة ـ أعنى سنة إحدى وستين .

شيبة بن عثمان بن أبى طلحة العبدرى الحجبى ـ صاحب مفتاح الكعبة . كان أبوه ممن قتله على بن أبى طالب يوم أحد كافراً ، وأظهر شيبة الإسلام يوم الفتح ، وشهد حنيناً وفى قلبه شىء من الشك ، وقد همّ بالفتك برسول الله ﷺ ، فأطلع الله على ذلك رسوله، فأخبره بما همّ به، فأسلم باطناً وجاد إسلامه ، وقاتل يومئذ وصبر فيمن صبر . قال الواقدى عن أشياخه : إن شيبة قال :

كنت أقول: والله لو آمن بمحمد جميع الناس ما آمنت به ، فلما فتح مكة وخرج إلى هوازن خرجت معه رجاء أن أجد فرصة آخذ بثأر قريش كلها منه ، قال : فاختلط الناس ذات يوم ونزل رسول الله ﷺ عن بغلته ، فدنوت منه وانتضيت سيفي لأضربه به ، فرفع لي شواظ من نار كاد يمحشني[1] ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال : « يا شيبة! ادن مني »فدنوت منه فوضع يده على صدري وقال : « اللهم أعذه من الشيطان » . قال : فوالله ما رفع يده حتى لهو يومئذ أحب إلى من سمعي وبصري ، ثم قال : اذهب فقاتل ، قال : فتقدمت إلى العدو ، والله لو لقيت أبي لقتلته لو كان حياً ، فلما تراجع الناس قال لي : يا شيبة الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك ، ثم حدثني بكل ما كان في نفسي مما لم يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، فتشهدت وقلت : أستغفر الله فقال : غفر الله لك . ولي الحجابة بعد عثمان بن طلحة ، واستقرت الحجابة في بنيه وبيته إلى اليوم وإليه ينسب بنو شيبة ـ وهم حجبة الكعبة . قال خليفة بن خياط وغير واحد : توفي سنة تسع وخمسين . وقال محمد بن سعد : بقي إلى أيام يزيد بن معاوية . وقال ابن الجوزي في المنتظم : مات في هذه السنة .

عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم . صحابي انتقل إلى دمشق وله بها دار ، ولما مات أوصى إلى يزيد بن معاوية وهو أمير المؤمنين .

الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبان بن أبي عمرو ـ ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أبو وهب القرشي العبشمي، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه أروى بنت كريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وللوليد من الأخوة: خالد وعمارة وأم كلثوم ، وقد قتل رسول الله ﷺ أباه بعد وقعة بدر من بين الأسرى صبراً بين يديه ، فقال : يا محمداً من للصبية؟ فقال : « لهم النار » ، وكذلك فعل بالنضر بن الحارث. وأسلم الوليد هذا يوم الفتح ، وقد بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، فخرجوا يتلقونه، فظن أنهم إنما خرجوا لقتاله فرجع ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يجهز إليهم جيشاً ، فبلغهم ذلك فجاء من جاء منهم ليعتذروا إليه ويخبرونه بصورة ما وقع ، فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾[2] الآية ذكر ذلك غير واحد من المفسرين والله أعلم بصحة ذلك . وقد حكى أبو عمرو بن عبد البر على ذلك الإجماع .

وقد ولاه عمر صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان نيابة الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص سنة خمس وعشرين ، ثم شرب الخمر وصلى بأصحابه ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ ووقع منه

(١) أي يحرقني والماحش: المحرق كالممحش،وامتحش: احترق. (٢)من الآية: ٦ من سورة الحجرات

تخيط ، ثم إن عثمان جلده وعزله عن الكوفة بعد أربع سنين فأقام بها ، فلما جاء على إلى العراق سار إلى الرقة واشترى له عندها ضيعة وأقام بها معتزلا جميع الحروب التي كانت أيام على ومعاوية وما بعدها، إلى أن توفى بضيعته في هذه السنة ، ودفن بضيعته وهي على خمسة عشر ميلا من الرقة ، ويقال : إنه توفى في أيام معاوية فالله أعلم . روى له الإمام أحمد وأبو داود حديثاً واحداً في فتح مكة ، وقد ذكر ابن الجوزى وفاته في هذه السنة ، وذكر أيضاً وفاة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وقد تقدم ذكر وفاتها في سنة إحدى وخمسين ، وقيل إنها توفيت سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة ست وستين ، والصواب ما ذكرناه .

أم سلمة أم المؤمنين ـ هند بنت أبي أمية حذيفة ، وقيل سهل بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، القرشية المخزومية . كانت أولا تحت ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد فمات عنها ، فتزوجها رسول الله ﷺ ، ودخل بها في شوال سنة ثنتين بعد وقعة بدر ، وقد كانت سمعت من زوجها أبي سلمة : حديثاً عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ما من مسلم يصاب بمصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ـ إلا أبدله الله خيراً منها » قالت : فلما مات أبو سلمة قلت ذلك ، ثم قلت : ومن هو خير من أبي سلمة أول رجل هاجر ؟ ثم عزم الله لي فقلتها ، فأبدلني الله خيراً منه ـ رسول الله ﷺ ، وكانت من حسان النساء وعابداتهن. قال الواقدى : توفيت سنة تسع وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة . وقال ابن أبي خيثمة : توفيت في أيام يزيد بن معاوية . قلت : والأحاديث المتقدمة في مقتل الحسين تدل على أنها عاشت إلى ما بعد مقتله والله أعلم ، ورضى الله عنها والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وستين

يقال : فيها قدم وفد المدينة النبوية على يزيد بن معاوية ، فأكرمهم وأجازهم بجوائز سنية ، ثم عادوا من عنده بالجوائز فخلعوه وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل فبعث إليهم يزيد جنداً في السنة الآتية [إلى المدينة، فكانت وقعة الحرة على ما سنذكره في التي بعدها إن شاء الله تعالى ، وقد كان يزيد عزل عن الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص ، وولى عليهم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فلما دخل المدينة][1] احتاط على الأموال والحواصل والأملاك ، وأخذ العبيد الذين لعمرو بن سعيد فحبسهم ـ وكانوا نحوا من ثلاثمائة عبد ـ فتجهز عمرو بن سعيد إلى يزيد، وبعث إلى عبيده أن يخرجوا من السجن ويلحقوا به، وأعد لهم إبلا يركبونها ، ففعلوا ذلك ، فالحقوه حتى وصل إلى يزيد فأكرمه واحترمه ، ورحب به يزيد وأدنى مجلسه ،

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

ثم إنه عاتبه فى تقصيره فى شأن ابن الزبير ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! الشاهدُ يرى مالا يرى الغائب ، وإنّ جُلّ أهل مكة والحجاز مالأوه علينا وأحبوه ، ولم يكن لى جند أقوى بهم عليه لو ناهضتُه ، وقد كان يحذرنى ويحترس منى ، وكنت أرفق به كثيرا وأداريه لأستمكن منه فأثب عليه ، مع أنى قد ضيّقت عليه ومنعتُه من أشياء كثيرة ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا اسمه واسم أبيه ، ومن أى بلاد هو ؟ وما جاء له ؟ وماذا يريد ؟ فإن كان من أصحابه أو ممن عرف أنه يريده ـ رددته صاغراً ، وإلا خليت سبيله . وقد وليت الوليد وسيأتيك من عمله وأمره ما لعلك تعرف به فضل مسارعتى واجتهادى فى أمرك ومناصحتى لك إن شاء الله ، والله يصنع لك ويكبت عدوك . فقال له يزيد : أنت أصدق ممن رماك وحمله عليك ، وأنت ممّن أثق به وأرجو معونته ، وأدخره لرأب الصدع ، وكفاية المُهمّ وكشف نوازل الأمور العظام .. فى كلام طويل .

وأما الوليد بن عتبة ، فإنه أقام بالحجاز وقد همّ مراراً أن يبطش بعبد الله بن الزبير فيجده متحذراً ممتنعاً قد أعد للأمور أقرانها . وثار باليمامة رجل آخر يقال له : نجدة بن عامر الحنفى حين قتل الحسين ، وخالف يزيد بن معاوية ، ولم يخالف ابن الزبير بل بقى على حدة . له أصحاب يتبعونه ، فإذا كان ليلة عرفة دفع الوليد بن عتبة بالجمهور ، وتخلف عنه ابن الزبير وأصحاب نجدة ، ثم يدفع كل فريق وحده . ثم كتب نجدة إلى يزيد : إنك بعثت إلينا رجلا أخرق ، لا يتجه لأمر رشد ، ولا يرعوى لعظة الحكيم ، فلو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكنف ـ رجوت أن يسهل به من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجمع ما تفرق ، فانظر فى ذلك ، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله تعالى .

قالوا : فعزل يزيد الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، فسار إلى الحجاز وإذا هو فتى غرٌّ حدث غرٌّ لم يمارس الأمور ، فطمعوا فيه . ولما دخل المدينة بعث إلى يزيد منها وفداً ، فيهم : عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى ، وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة الحضرمى ، والمنذر بن الزبير ، ورجالٌ كثير من أشراف أهل المدينة ، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ، إلاّ المنذر بن الزبير فإنه سار إلى صاحبه عبيد الله بن زياد بالبصرة ، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم نظير أصحابه من أولئك الوفد .

ولما رجع وفد المدينة إليها أظهروا شتْمَ يزيد وعيْبَه وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر وتعزف عنده القيان بالمعازف ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه فتابعهم الناس على خلعه ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على الموت ، وأنكر عليهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ورجع المنذر بن الزبير من البصرة إلى المدينة فوافق أولئك على خلع يزيد ، وأخبرهم عنه أنه يشرب الخمر ويسكر حتى ترك الصلاة ، وعابه أكثر مما عابه أولئك .

فلما بلغ ذلك يزيد قال : اللهم إنى آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت ، فأدركه وانتقم منه .

ثم إن يزيد بعث إلى أهل المدينة النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا ، ويحذرهم غِبَّ ذلك ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة ، فسار إليهم ففعل ما أمره يزيد ، وخوفهم الفتنة وقال لهم : إن الفتنة وخيمة ، وقال : لا طاقة لكم بأهل الشام ، فقال له عبد الله بن مُطيع : ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا ؟ فقال له النعمان : أما والله لكأنى بك وقد تركت تلك الأمور التى تدعو إليها ، وقامت الرجال على الرُّكَب تضرب مفارق القوم وجباهم بالسيوف ، ودارت رحا الموت بين الفريقين . وكأنى بك قد ضربت جنب بغلتك إلىّ وخلفت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار - يُقتلون فى سِكَكهم ومساجدهم ، وعلى أبواب دُورهم . فعصاه الناس فلم يسمعوا منه ، فانصرف وكان الأمر - والله - كما قال سواء .

قال ابن جرير : وحج بالناس فى هذه السنة الوليد بن عُتبة كذا قال وفيه نظر ؛ فإنه إن كان فى وفد أهل المدينة وقد رجعوا من عند يزيد فإنما وفد عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وإنما كان قد حج بالناس فيها الوليد ، فما قدم وفد المدينة إلى يزيد إلا فى أول سنة ثلاث وستين وهو أشبه ، والله أعلم .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان

بريدة بن الحُصيب الأسلمى : كان إسلامه حين اجتاز به رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة عند كراع الغميم ، فلما كان هناك تلقاه بريدة فى ثمانين نفساً من أهله فأسلموا ، وصلى بهم صلاة العشاء ، وعلمه ليلتئذ صدراً من سورة مريم ، ثم قدم على رسول الله ﷺ المدينة بعد أحد فشهد معه المشاهد كلها وأقام بالمدينة ، فلما فتحت البصرة نزلها واختط بها داراً ، ثم خرج إلى غزو خراسان فمات بمرو فى خلافة يزيد بن معاوية . ذكر موته غير واحد فى هذه السنة .

الربيع بن خيثم : أبو يزيد الثورى الكوفى ، أحد أصحاب ابن مسعود قال له عبد الله بن مسعود : ما رأيتك قط إلا ذكرتُ المخبتين ، ولو رآك رسول الله ﷺ لأحبك . وكان ابن مسعود يجله كثيرا . وقال الشعبى : كان الربيع من معادن الصدق ، وكان أورع أصحاب ابن مسعود . وقال ابن معين : لا يسأل عن مثله ، وله مناقب كثيرة جداً ، أرخ ابن الجوزى وفاته فى هذه السنة .

علقمة بن قيس أبو شبل النخعى الكوفى : كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم ، وكان يشبه بابن مسعود . وقد روى علقمة عن جماعة من الصحابة وعنه خلق من التابعين

عقبة بن نافع الفهرى : بعثه معاوية إلى إفريقية فى عشرة آلاف فافتتحها ، واختط القيروان وكان موضعها غيضة لا ترام من السباع والحيات والحشرات ، فدعا الله تعالى فجعلن يخرجن منها بأولادهن من الأوكار والجحار ، فبناها ، ولم يزل بها حتى هذه السنة غزا أقواماً من البربر والروم فقتل شهيداً رضى الله عنه .

عمرو بن حزم : صحابى جليل ، استعمله رسول الله ﷺ على نجران وعمره سبع عشرة سنة وأقام بها مدة ، وأدرك أيام يزيد بن معاوية .

مسلم بن مخلد الأنصارى الزرقى : ولد عام الهجرة ، وسمع من رسول الله ﷺ ، وشهد فتح مصر ، وولى الجند بها لمعاوية ويزيد ، ومات فى ذى القعدة من هذه السنة .

نوفل بن معاوية الديلى : صحابى جليل شهد بدراً وأحداً والخندق مع المشركين ، وكانت له فى المسلمين نكاية ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وشهد فتح مكة وحنيناً ، وحج مع أبى بكر سنة تسع وشهد حجة الوداع ، وعمّر ستين سنة فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام ، قاله الواقدى . قال : وأدرك أيام يزيد بن معاوية وقال ابن الجوزى : مات فى هذه السنة .

وفيها توفيت الرباب بنت أنيف امرأة الحسين بن على التى كانت حاضرة أهل العراق إذ هم يعدون فى السبت أو فى الجمعة ، على زوجها الحسين بن على ابن بنت رسول الله ﷺ .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين

ففيها : كانت وقعة الحرّة . وكان سببها : أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية وولّوا على قريش عبد الله بن مُطيع ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر . فلما كان فى أول هذه السنة أظهروا ذلك واجتمعوا عند المنبر ، فجعل الرجل منهم يقول : قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى هذه ، ويلقيها عن رأسه . ويقول الآخر : قد خلعته كما خلعت نعلى هذه ، حتى اجتمع شىء كثير من العمائم والنعال هناك . ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم ، وهو عثمان ابن محمد بن أبى سفيان ابن عم يزيد ، وعلى إجلاء بنى أمية من المدينة ، فاجتمعت بنو أمية فى دار مروان بن الحكم ، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم ، واعتزل الناس علىّ بن الحسين « زين العابدين » ، وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب لم يخلعا يزيد ، ولا أحد من بيت ابن عمر ،

وقد قال ابن عمر لأهله : لا يخلعن أحد منكم يزيد فتكون الفيصل - ويروى الصيلم - بيني وبينه» وسيأتي هذا الحديث بلفظه وإسناده في ترجمة يزيد . وأنكر على أهل المدينة في مبايعتهم لابن مُطيع وابن حَنظلة على الموت ، وقال : إنما كنا نبايع رسول الله ﷺ على أن لا نفرّ . وكذلك لم يخلع يزيد أحد من بني عبد المطلب ، وقد سئل محمد بن الحنفية في ذلك فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وناظرهم وجادلهم في يزيد ، وردّ عليهم ما اتهموا يزيد به من شرب الخمر وتركه بعض الصلوات ، كما سيأتي مبسوطاً في ترجمة يزيد قريباً إن شاء الله .

وكتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر والإهانة ، والجوع والعطش ، وإنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم ، وبعثوا ذلك مع البريد . فلما قدم بذلك على يزيد وجده جالساً على سريره ورجلاه في ماء يتبرّد به من النِّقرس[1] في رجليه ، فلما قرأ الكتاب انزعج لذلك وقال : ويلك ! أما فيهم ألف رجل ؟ قال: بلى ، قال : فهل لا قاتلوا ساعة من نهار ؟ ثم بعث إلى عمرو بن سعيد بن العاص فقرأ عليه الكتاب واستشاره فيمن يبعثه إليهم ، وعَرض عليه أن يبعثه إليهم فأبى عليه ذلك ، وقال : إن أمير المؤمنين عَزلني عنها وهي مضبوطة وأمورها محكمة ، فأما الآن ، فإنما دماء قريش تراق بالصعيد ، فلا أحب أن أتولى ذلك منهم . ليتولّ ذلك من هو أبعد منهم مني ، قال: فبعث البريد إلى مُسلم بن عُقبة المُرّي - وهو شيخ كبير ضعيف - فانتدب لذلك وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارس ، وقيل اثنا عشر ألفا وخمسة عشر ألف رجل ، وأعطى كل واحد منهم مائة دينار ، وقيل أربعة دنانير ، ثم استعرضهم وهو على فرس له .

قال المدائني : وجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري ، وعلى أهل حمص حُصين بن نُمير السكوني ، وعلى أهل الأردن حبيش بن دلجة القيني ، وعلى أهل فلسطين رَوح ابن زنباع الجذامي وشريك الكناني ، وعلى أهل قِنّسرين طريف بن الحسحاس الهلالي ، وعليهم مُسلم بن عقبة المُرّي من غطفان ، وإنما يسميه السلف : مسرف بن عقبة . فقال النعمان ابن بشير : يا أمير المؤمنين ! ولّني عليهم أكفك - وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رَواحة. فقال يزيد: لا ، ليس لهم إلا هذا الشمشم[2] ، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة . فقال النعمان : يا أمير المؤمنين ! أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ . وقال له عبد الله بن جعفر : أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم ؟ قال : إن فعلوا فلا سبيل عليهم ، وقال يزيد لمسلم بن عقبة : ادع القوم ثلاثاً ، فإن رجعوا إلى الطاعة ، فأقبل منهم

(١) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وفي المفاصل .

(٢) الشمشم : الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء عما يريد ويهوى ومثله : الغشم والغشوم : الذي يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه .

وكف عنهم ، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً ثم اكفف عن الناس ، وانظر إلى علىّ بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً ، وأدن مجلسه ، فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه . وأمر مسلم إذا فرغ من المدينة أن يذهب إلى مكة لحصار ابن نمير ، وقال له : إن حدث بك أمر فعلى الناس حُصَين بن نمير السَّكونى . وقد كان يزيد كتب إلى عبد الله ابن زياد أن يسير إلى ابن الزُّبير فيحاصره بمكة ، فأبى عليه وقال :ـ والله لا أجمعهما للفاسق أبداً ، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ ، وأغزو البيت الحرام ؟ وقد كانت أمه مَرْجانة قالت له حين قتل الحسين : وَيْلك ! ماذا صنعت لى وماذا ركبت ؟ وعنفته تعنيفاً شديداً . قالوا : وقد بلغ يزيد أن ابن الزبير يقول فى خطبته : يزيد القرود ، شارب الخمور ، تارك الصلوات ، منعكف على القينات . فلما جهز مسلم بن عقبة واستعرض الجيش بدمشق جعل يقول :

أبلغ أبا بكر إذا الليـــل سَرَى   وأشرف الجيش على وادى القُرَى
أجْمَـع سَـكران من القوم ترى !   يا عجبا من مُلحِـد فى أم القرى
• مخادع للدين يقضى بالفرى •

وفى رواية :

أبلغ أبا بكر إذا الأمـــر انبرى   ونزل الجيش على وادى القُرى
عشرون ألفاً بين كهـــل وفتى   أجْمَع سَكران من القـــوم ترى[1]

قالوا : وسار مسلم بمن معه من الجيوش إلى المدينة ، فلما اقترب منها اجتهد أهل المدينة فى حصار بنى أمية ، وقالوا لهم : والله لنقتلنكم عن آخركم أو تعطونا موثقاً أن لا تدلّوا علينا أحداً من هؤلاء الشاميين، ولا تمالئوهم علينا ،فأعطوهم العهود بذلك. فلما وصل الجيش تلقاهم بنو أمية ، فجعل مُسلم يسألهم عن الأخبار فلا يخبره أحد، فانحصر لذلك، وجاءه عبد الملك بن مروان فقال له : إن كنت تريد النصر فانزل شرقى المدينة فى الحَرّة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس فى أقفيتكم وفى وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن بالله وقاتلهم ، فإن الله ناصرك عليهم إذ خالفوا الإمام وخرجوا عن الطاعة . فشكره مسلم بن عقبة على ذلك ، وامتثل ما أشار به ، فنزل شرقى المدينة فى الحَرّة ، ودعا أهلها ثلاثة أيام ، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة ، فلما مضت الثلاث قال لهم فى اليوم الرابع ـ وهو يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين ـ قال لهم : يا أهل المدينة ! مضت الثلاث وإن أمير المؤمنين قال لى : إنكم أصله وعشيرته ، وإنه يكره إراقة دمائكم وإنه أمرنى أن أؤجلكم ثلاثاً فقد مضت ، فماذا أنتم صانعون ؟ أتسالمون أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نحارب . فقال : لا تفعلوا، بل سالموا ونجعل حدّنا وقوتنا على هذا الملحد ـ يعنى ابن الزُّبير ـ

(١) فى بعض الروايات تغير فى بعض الألفاظ

فقالوا : يا عدو الله ! لو أردت ذلك لما مكناك منه ، أنحن نتركم تذهبون فتلحدون في بيت الله الحرام ؟ ثم تهيأوا للقتال ، وقد كانوا اتخذوا خندقاً بينهم وبين ابن عقبة ، وجعلوا جيشهم أربعة أرباع على كل ربع أمير ، وجعلوا أجل الأرباع الربع الذى فيه عبد الله بن حنظلة الغسيل ، ثم اقتتلوا قتالا شديداً ، ثم انهزم أهل المدينة إليها . وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان منهم : عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل ، وأخوه لأمه محمد ابن ثابت بن شماس ، ومحمد بن عمرو بن حزم ، وقد مر به مروان وهو مجندل فقال : رحمك الله فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود .

ثم أباح مسلم بن عقبة ، الذى يقول فيه السلف : مسرف بن عقبة ـ قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله ـ المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد ـ لا جزاه الله خيراً ، وقتل خلقاً من أشرافها وقرائها وانتهب أموالا كثيرة منها ، ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكره غير واحد . فكان ممن قتل بين يديه صبراً : معقل بن سنان ، وقد كان صديقه قبل ذلك ، ولكن أسمعه في يزيد كلاماً غليظاً فنقم عليه بسببه ، واستدعى بعلى بن الحسين فجاء يمشى بين مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، ليأخذ له بهما عنده أمانا ، ولم يشعر أن يزيد أوصاه به ، فلما جلس بين يديه استدعى مروان بشراب ـ وقد كان مسلم بن عقبة حمل معه من الشام ثلجا إلى المدينة فكان يشاب له بشرابه ـ فلما جيء بالشراب شرب مراون قليلا ثم أعطى الباقى لعلى بن الحسين ليأخذ له بذلك أماناً ، وكان مروان موادا لعلى بن الحسين ، فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قد أخذ الإناء في يده قال له : لا تشرب من شرابنا ، ثم قال له : إنما جئت مع هذين لتأمن بهما . فارتعدت يد على بن الحسين وجعل لا يضع الإناء من يده ولا يشربه ، ثم قال له : لولا أن أمير المؤمنين أوصانى بك لضربت عنقك ، ثم قال له : إن شئت أن تشرب فاشرب ، وإن شئت دعونا لك بغيرها ، فقال : هذه التى في كفى أريد ، فشرب ثم قال له مسلم بن عقبة : قم إلى ههنا فاجلس ، فأجلسه معه على السرير وقال له : إن أمير المؤمنين أوصانى بك ، وإن هؤلاء شغلونى عنك . ثم قال لعلى بن الحسين : لعل أهلك فزعوا ! فقال : إى والله فأمر بدابته فأسرجت ثم حمله عليها حتى رده إلى منزله مكرماً ثم استدعى بعمرو بن عثمان بن عفان ـ ولم يكن خرج مع بنى أمية ـ فقال له : إنك إن ظهر أهل المدينة قلت : أنا معكم ، وإن ظهر أهل الشام قلت : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان . ثم أمر به فنتفت لحيته بين يديه ـ وكان ذا لحية كبيرة .

قال المدائنى : وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام ، يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الأموال فأرسلت سعدى بنت عوف المرية ـ إلى مسلم بن عقبة تقول له : أنا بنت عمك ، فمر أصحابك

أن لا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا ، فقال لأصحابه : لا تبدؤا إلا بأخذ إبلها أولا . وجاءته امرأة فقالت : أنا مولاتك وابنى فى الأسارى ، فقال : عجّلوه لها ، فضربت عنقه ، وقال : اعطوها رأسه ، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمى فى ابنك ؟ ووقعوا على النساء حتى قيل إنه حبلت ألف امرأة فى تلك الأيام من غير زوج، فالله أعلم .

قال المدائنى عن أبى قرة قال :قال هشام بن حسان : ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج . وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة ، منهم : جابر بن عبد الله . وخرج أبو سعيد الخدرى فلجأ إلى غار فى جبل فلحقه رجل من أهل الشام ، قال : فلما رأيته انتضيت سيفى فقصدنى ، فلما رآنى صمم على قتلى فشِمت[1] سيفى ثم قلت : (إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)[2] فلما رأى ذلك قال : من أنت ؟ قلت : أنا أبو سعيد الخدرى، قال: صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت: نعم ! فمضى وتركنى

قال المدائنى : وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب فقال له : بايع ! فقال : أبايع على سيرة أبى بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله . وقال المدائنى عن عبد الله القرشى وأبى إسحاق التميمى قالا : لما انهزم أهل المدينة يوم الحرَّة صاح النساء والصبيان ، فقال ابن عمر : بعثمان ورب الكعبة قال المدائنى عن شيخ من أهل المدينة قال : سألت الزهرى كم كان القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالى، وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف . قال وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين ، وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام قال الواقدى وأبو معشر : كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

قال الواقدى عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون قال : وحج الناس فى هذه السنة ـ عبد الله ابن الزبير ، وكانوا يسمونه العائذ ـ يعنى العائذ بالبيت ـ ويرون الأمر شورى ، وجاء خبر الحرة إلى أهل مكة ليلة مستهل المحرم مع سعيد ـ مولى المسور بن مخرمة ، فحزنوا حزناً شديداً وتأهبوا لقتال أهل الشام قال ابن جرير : وقد رويت قصة الحرة على غير ما رواه أبو مخنف ، فحدثنى أحمد بن زهير ، ثنا أبى سمعت وهب بن جرير ، ثنا جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يحدثون أن معاوية لما حضرته الوفاة دعا ابنه يزيد فقال له : إن لك من أهل المدينة يوماً ، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفت نصيحته لنا ، فلما هلك معاوية وفد إلى يزيد وفد من أهل المدينة ، وكان ممن وفد إليه عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر ـ وكان شريفاً فاضلا

---

(١) شام سيفه : استله وأغمده ـ ضد . (٢) من الآية : ٢٩ من سورة المائدة .

سيداً عابداً ـ ومعه ثمانية بنين له، فأعطاه يزيد مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدمها أتاه الناس فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم . قالوا : قد بلغنا أنه أعطاك وأخدمك وأحذاك وأكرمك . قال : قد فعل وما قبلت منه إلا لأتقوّى به على قتاله وحضض[1] الناس فبايعوه ، فبلغ ذلك يزيد فبعث إليهم مسلم بن عقبة . وقد بعث أهل المدينة إلى كل ماء بينهم وبين الشام فصبوا فيه زقاً من قطران وغوّروه .

فأرسل الله على جيش الشام السماء مدراراً بالمطر ، فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة ، فخرج أهل المدينة بجموع كثيرة وهيئة لم يُرَ مثلها ، فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم ، وكان أميرهم مسلم شديد الوجع ، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة ، قد أقحم عليهم بنو حارثة من أهل الشام وهم على الجَدّ[2] ، فانهزم الناس ، فكان من أصيب في الخندق أعظم ممن قتل ، فدخلوا المدينة وعبدُ الله بنَ حنظلة مستند إلى الجدار يغطّ نوما ، فنبهه ابنه ، فلما فتح عينيه ورأى ما صنع الناس ، أمر أكبر بنيه فتقدم فقاتل حتى قتل ، فدخل مُسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية ؛ يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد الصمد من تاريخه من كتاب المجالسة لأحمد ابن مروان المالكي : ثنا الحسين بن الحسن اليشكري ، ثنا الزيادي عن الأصمعي ح . وحدثني محمد ابن الحارث عن المدائني قال : لما قتل أهل الحرة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة ، وابن الزبير جالس يسمع :

والصائمون القـانتو ن أولوا العبادة والصلاح

المهتـــدون المحسنو ن السابقون إلى الفلاح

ماذا بواقم والبقيـــ ع من الجحاجحة الصباح

وبقـــاع يثرب ويحهنْ ن من النوادب والصياح

قتـــل الخيـــار بنوا الخيا ر ذوي المهابة والسماح

فقال ابن الزبير : يا هؤلاء ! قتل أصحابكم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة : أن يبيح المدينة ثلاثة أيام ، وهذا خطأ كبير فاحش ، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم ، وقد تقدم أنه قتل

---

(١) أي : حثهم وحرضهم (٢) أي على وجه الأرض

الحسين وأصحابه على يدى عبيد الله بن زياد . وقد وقع فى هذه الثلاثة الأيام من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية مالا يحد ولا يوصف ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقد أراد بإرسال مسلم ابن عقبة توطيد سلطانه وملكه ، ودوام أيامه من غير منازع ، فعاقبه الله بنقيض قصده ، وحال بينه وبين ما يشتهيه ، فقصمه الله قاصم الجبابرة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر « وكذلك أخذُ رَبِّكَ إذا أخَذَ القُرى وهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخْذَه أليمٌ شديد »[1] .

قال البخارى فى صحيحه : حدثنا الحسين بن الحارث ثنا الفضل بن موسى ثنا الجعد عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عن أبيها ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع[2] كما ينماع الملح فى الماء » . وقد رواه مسلم من حديث أبى عبد الله القراظ المدينى - واسمه دينار - عن سعد بن أبى وقاص ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذوب الرصاص - أو ذوب الملح فى الماء » . وفى رواية لمسلم من طريق أبى عبد الله القراظ عن سعد وأبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » .

وقال الامام أحمد : حدثنا أنس بن عياض ثنا يزيد بن خصيفة عن عطاء بن يسار عن السائب ابن خلاد ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً[3] ولا عَدْلا » . ورواه النسائى من غير وجه عن على بن حجر عن إسماعيل بن جعفر عن يزيد بن خصيفة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن عطاء بن يسار عن خلاد بن منجوف بن الخزرج أخبره فذكره . وكذلك رواه الحميدى عن عبد العزيز بن أبى حازم عن يزيد بن خصيفة . ورواه النسائى أيضا عن يحيى بن حبيب بن عربى عن حماد عن يحيى بن سعيد عن مسلم بن أبى مريم عن عطاء بن يسار عن ابن خلاد - وكان من أصحاب النبى ﷺ - فذكره . وقال ابن وهب : أخبرنى حيوة ابن شريح عن ابن الهاد عن أبى بكر عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخاف أهل المدينة أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وقال الدارقطنى : ثنا على بن أحمد بن القاسم ثنا أبى ثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر ثنا أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن يزيد بن عبد الله بن أنيس الأنصارى عن محمد وعبد الرحمن ابنى جابر بن عبد الله قالا : خرجنا مع أبينا يوم الحرة وقد كف بصره فقال : تعس من أخاف رسول الله ﷺ . فقلنا : يا أبة وهل أحد يخيف رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود (٢) أى ذاب وجرى (٣) الصرف : التوبة أو الحيلة . والعدل : الفدية

« من أخاف أهل هذا الحى من الأنصار فقد أخاف ما بين هذين - ووضع يده على جبينه - »
قال الدارقطنى : تفرد به سعد بن عبد العزيز لفظا وإسنادا ، وقد استدل بهذا الحديث وأمثاله
من ذهب إلى الترخيص فى لعنة يزيد بن معاوية ، وهو رواية عن أحمد بن حنبل اختارها الخلال
وأبو بكر عبد العزيز ، والقاضى أبو يعلى وابنه القاضى أبو الحسين ، وانتصر لذلك أبو الفرج
ابن الجوزى فى مصنف مفرد ، وجوز لعنته ، ومنع من ذلك آخرون وصنفوا فيه أيضا لئلا يجعل
لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة . وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول
وأخطأ ، وقالوا : إنه كان مع ذلك إماما فاسقا ، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح
قولى العلماء ، بل ولا يجوز الخروج عليه ، لما فى ذلك من إثارة الفتنة ، ووقوع الهرج [وسفك
الدماء الحرام ، ونهب الأموال ، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن ، وغير ذلك مما كل واحدة
فيها من الفساد أضعاف فسقه ، كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا][1] .

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة وما جرى عليهم عند الحرة
من مسلم بن عقبة وجيشه ، فرح بذلك فرحاً شديداً ، فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن
طاعته ، وأمروا عليهم غيره ، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، كما أنذرهم بذلك
على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم . وقد جاء فى الصحيح : « من جاءكم وأمركم
جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان » . وأما ما يروونه عنه من الشعر فى ذلك
واستشهاده بشعر ابن الزبعرى فى وقعة أحد التى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حلت بفنائهم بركها   واستحر القتل فى عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم   وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض الروافض فيها فقال :

لعبت هاشم بالملك فلا   ملك جاءه ولا وحى نزل

فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين ، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من
وضعه عليه ليشنع به عليه ، وسيذكر فى ترجمة يزيد بن معاوية قريبا ، وما ذكر عنه وما قيل فيه
وما كان يعانيه من الأفعال والقبائح والأقوال فى السنة الآتية ، فإنه لم يمهل بعد وقعة الحرة وقتل
الحسين إلا يسيراً حتى قصمه الله الذى قصم الجبابرة قبله وبعده ، إنه كان عليما قديرا . وقد توفى
فى هذه السنة خلق من المشاهير والأعيان من الصحابة وغيرهم فى وقعة الحرة مما يطول ذكرهم .

(١) ما بين القوسين يسقط من بعض النسخ

فمن مشاهيرهم من الصحابة : عبد الله بن حنظلة أمير المدينة فى وقعة الحرة ، ومعقل بن سنان ، وعبيد الله بن زيد بن عاصم ـ رضى الله عنهم . ومسروق بن الأجدع .

ثم دخلت سنة أربع وستين

ففيها ـ فى أول المحرم منها ـ سار مُسلم بن عقبة إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير ومن التفّ عليه من الأعراب ، على مخالفة يزيد بن معاوية ، واستخلف على المدينة رَوح بن زنباع ، فلما بلغ ثَنِيّة هَرْشا بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم ، فقال : إن أمير المؤمنين عهد إلىّ إنْ حَدث بى حَدث الموت أن أستخلف عليكم حُصَين بن نمير السَّكونى ، ووالله لو كان الأمر لى ما فعلت ، ثم دعا به فقال : انظر يا بَرْذَعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به ، ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث ، ثم قال : اللهم إنى لم أعمل عملاً قط ـ بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ أحبّ إلىّ من قتل أهل المدينة ، ولا أرجى عندى فى الآخرة . وإن دخلت النار بعد ذلك إنى لشقى ، ثم مات ـ قبحه الله ـ ودفن بالمشلل فيما قاله الواقدى .

[ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية ، فمات بعده فى ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه ، فما متعهما الله بشىء مما رَجَوْه وأملوه ، بل قهرهم القاهر فوق عباده ، وسلبهم الملكَ ، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء][1]

وسار حصين بن نمير بالجيش نحو مكة فانتهى إليها لأربع بقين من المحرم فيما قاله الواقدى ، وقيل : لسبع مضين منه ، وقد تلاحق بابن الزبير جماعات ممن بقى من أشراف أهل المدينة ، وانضاف إليه أيضا نجدة بن عامر الحنفى ـ من أهل اليمامة ـ فى طائفة من أهلها ، ليمنعوا البيت من أهل الشام ، فنزل حُصين بن نمير ظاهر مكة ، وخرج إليه ابن الزبير فى أهل مكة ومن التفّ معه ، فاقتتلوا عند ذلك قتالا شديدا ، وتبارز المنذر بن الزبير ورجل من أهل الشام فقتل كل واحد منهما صاحبه ، وحمل أهل الشام على أهل مكة حملة صادقة ، فانكشف أهل مكة ، وعثرت بغلة عبد الله بن الزبير به ، فكرّ عليه المِسْوَر بن مَخرمة ومُصعب بن عبد الرحمن بن عوف وطائفة فقاتلوا دونه حتى قتلوا جميعا ، وصابَرهم ابن الزبير حتى الليل فانصرفوا عنه ، ثم اقتتلوا فى بقية شهر المحرم وصفراً بكماله ، فلما كان يوم السبت ـ ثالث ربيع الأول سنة أربع وستين ـ نصبوا المجانيق على الكعبة ورمَوْها حتى بالنار ، فاحترق جدار البيت فى يوم السبت ، هذا قول الواقدى . وهم يقولون :

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

خُطَّارِه مثلُ الفَنِيقِ المُزْبِدِ ترى بها جدران هذا المسجد

وجعل عمرو بن حَوْط السدوسي يقول :

كيف ترى صنيع أم فَرْوَه تأخذهم بين الصفا والمَرْوَه

وأم فروة اسم المنجنيق ، وقيل : إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة ، فعلقت النار في بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت ، وقيل إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام، فرُفعت نار على رُمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فأطارت الريح شررةً من رأس الرمح إلى ما بين الركن اليماني والأسود من الكعبة ، فعلقت في أستارها وأخشابها فاحترقت ، واسودّ الركن وانصدع في ثلاثة أمكنة منه . واستمر الحصار إلى مستهل ربيع الآخر ، وجاء الناس نَعيُ يزيد بن معاوية ، وأنه قد مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين ، وهو ابن خمس أو ثمان أو تسع وثلاثين سنة ، فكانت ولايته ثلاث سنين وستة أو ثمانية أشهر ، فغلب أهل الشام هنالك وانقلبوا صاغرين ، فحينئذ خمدت الحرب وطفئت نار الفتنة . ويقال : إنهم مكثوا يحاصرون ابن الزبير بعد موت يزيد نحو أربعين ليلة ،ويذكر أن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أهل الشام فنادى فيهم : يا أهل الشام قد أهلك الله طاغيتكم ، فمن أحبّ منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، ومن أحب أن يرجع إلى شامه فليرجع . فلم يصدق الشاميون أهل مكة فيما أخبروهم به ، حتى جاء ثابت بن قيس بن المُنْقَع بالخبر اليقين . ويذكر أن حصين بن نمير دعاه ابن الزبير ليحدثه بين الصفّين ، فاجتمعا حتى اختلفت رءوس فرسيهما ، وجعلت فرس حصين تنفر ويكفها ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ فقال : إن الحَمام تحت رجل فرسي تأكل من الروث ، فأكره أن أطأ حَمام الحرم ، فقال له : تفعل هذا وأنت تقتل المسلمين ؟ فقال له حصين : فأذن لنا فلنطف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا ، فأذن لهم فطافوا .

وذكر ابن جرير : أن حُصينا وابن الزبير اتعدا ليلة أن يجتمعا ، فاجتمعا بظاهر مكة ، فقال له حصين : إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر بعده ، فهلمّ فارحل معي إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . فيقال : إن ابن الزبير لم يثق منه بذلك وأغلظ له في القال فنفر منه ابن نمير وقال : أنا أدعوه إلى الخلافة وهو يغلظ لي في المقال ؟ ثم كر بالجيش راجعاً إلى الشام وقال : أعده بالملك ويتواعدني بالقتل ؟ ثم ندم ابن الزبير على ما كان منه إليه من الغلظة ، فبعث إليه يقول له : أما الشام فلست آتيه ، ولكن خذ لي البيعة على من هناك ، فإني أؤمنكم واعدل فيكم . فبعث إليه يقول له : إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثير .

فرجع فاجتاز بالمدينة فطمع فيه أهلها وأهانوه إهانة بالغة ، وأكرمهم علي بن الحسين « زين العابدين » ، وأهدى لحصين بن نمير قتاً[1] وعلفاً ، وارتحلت بنو أمية مع الجيش إلى الشام فوجدوا معاوية بن يزيد بن معاوية قد استخلف مكان أبيه بدمشق عن وصية من أبيه له بذلك ، والله سبحانه أعلم بالصواب .

وهذه ترجمة يزيد بن معاوية

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، أمير المؤمنين أبو خالد الأموي . ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين ، وبويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون ولي العهد من بعده ، ثم أكد ذلك بعد موت أبيه في النصف من رجب سنة ستين ، فاستمر متولياً إلى أن توفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين . وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن نفاثة بن عدي بن زهير بن حارثة الكلبي . روى عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ، وحديثاً آخر في الوضوء . وعنه ابنه خالد وعبد الملك بن مروان ، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة ، وهي العليا ، وقال : له أحاديث ، وكان كثير اللحم عظيم الجسم ، كثير الشعر جميلا طويلا ضخم الهامة محدد الأصابع غليظها مجدراً ، وكان أبوه قد طلق أمه وهي حامل به ، فرأت أمه في المنام أنه خرج منها قمر من قُبلها ، فقصّت رؤياها على أمها فقالت : إن صدقت رؤياك لتلدِنَّ من يبايع له بالخلافة وجلست أمه ميسون يوماً تمشطه وهو صبي صغير ، وأبوه معاوية مع زوجته الحظية عنده في المنظرة ـ وهي فاختة بنت قرظة ـ فلما فرغت من مشطه نظرت أمه إليه فأعجبها فقبلته بين عينيه ، فقال معاوية عند ذلك :

إذا مات لم تفلح مزينة بعده فنوطي عليـــه يا مزين التمائما

وانطلق يزيد يمشي وفاختة تتبعه بصرها ، ثم قالت : لعن الله سواد ساق أمك ، فقال معاوية: أما والله إنه لخير من ابنك عبد الله ـ وهو ولده منها وكان أحمق ـ فقالت فاختة : لا والله لكنك تؤثر هذا عليه ، فقال : سوف أبين لك ذلك حتى تعرفينه قبل أن تقومي من مجلسك هذا ، ثم استدعى بابنها عبد الله فقال له : إنه قد بدالي أن أعطيك كل ما تسألني في مجلسي هذا ، فقال : حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً[2] وحماراً فارهاً ، فقال : يابني أنت حمار وتشتري لك حماراً ؟ قم فاخرج ثم قال لأمه : كيف رأيت ؟ ثم استدعى بيزيد فقال : إني قد بدالي أن أعطيك كل

---

(١) القت . الرطبة من علف الدواب (٢) الفاره من الدواب : الجيد السير . ومن الناس المليح الحسن

ما تسألني في مجلسي هذا ، فسلني ما بدا لك . فخر يزيد ساجداً ، ثم قال حين رفع رأسه : الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة ، وأراه في هذا الرأي . حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك ، وتوليني العام صائفة المسلمين ، وتأذن لي في الحج إذا رجعت ، وتوليني الموسم ، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه ، وتجعل ذلك بشفاعتي ، وتعرض لأيتام بني جمح ، وأيتام بني سهم وأيتام بني عدي . فقال : مالك ولأيتام بني عدي ؟ فقال : لأنهم حالفوني وانتقلوا إلى داري فقال معاوية : قد فعلت ذلك كله ، وقبّل وجهه ، ثم قال لفاختة بنت قرظة : كيف رأيت ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين أوصه بي فأنت أعلم به مني ، ففعل . وفي رواية أن يزيد لما قال له أبوه : سلني حاجتك ، قال له يزيد : اعتقني من النار أعتق الله رقبتك منها ، قال . وكيف ؟ قال : لأني وجدت في الآثار أنه من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرّمه الله على النار ، فاعهد إلي بالأمر من بعدك ، ففعل .

وقال العتبي : رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له فقال له : اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه ، سوأة لك ! ! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك ؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن ، وإن أحسن من عفا لمن قدر .

قلت : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى أبا مسعود يضرب غلاماً له فقال : « اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه » . قال العتبي : وقدم زياد بأموال كثيرة وسفط مملوء جواهر على معاوية فسر بذلك معاوية ، فقام زياد فصعد المنبر ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية ، فقام يزيد فقال : إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش ، ومن القلم إلى المنابر ، ومن زياد بن عبيد إلى حرب بني أمية . فقال له معاوية : اجلس فداك أبي وأمي .

وعن عطاء بن السائب قال : غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره فقال له الأحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين ! أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، إن غضبوا فأرضهم ، وإن طلبوا فأعطهم ، ولا تكن عليهم ثقلا فيملوا حياتك ويتمنوا موتك . فقال معاوية : لله درك يا أبا بحر ، يا غلام ائت يزيد فاقرأه مني السلام وقل له : إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم ، ومائة ثوب . فقال يزيد : من عند أمير المؤمنين ؟ فقال : الأحنف ، فقال يزيد : لا جرم لأقاسمنه ، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفاً وخمسين ثوبا .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا ابن عائشة عن أبيه قال : كان يزيد في حداثته صاحب شراب يأخذ مأخذ الأحداث ، فأحس معاوية بذلك فأحب أن يعظه في رفق ، فقال : يا بني ما أقدرك على أن تصل إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ،

ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك . ثم قال : يا بنى إنى منشدك أبياتا فتأدب بها واحفظها ، فأنشده :

انصب نهارا فى طلاب العلا ... واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجا ... واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهى ... فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكا ... قد باشر الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أستاره ... فبات فى أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يشفى بها كل عدو مريب (١)

قلت : وهذا كما جاء فى الحديث « من ابتلى بشىء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل » .

وروى المدائنى أن عبد الله بن عباس وفد إلى معاوية فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه فى الحسن بن على ، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه ، وجلس عنده بين يديه ، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه فأبى وقال : إنما أجلس مجلس المعزى لا المهنى . ثم ذكر الحسن فقال : رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها ، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاك ، وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثوابا وخير عقبى . فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ، ثم أنشد متمثلا :

مغاض عن العوراء لا ينطقوا بها ... وأهل وراثات الحلوم الأوائل

وقد كان يزيد أول من غزى مدينة قسطنطينية فى سنة تسع وأربعين - فى قول يعقوب ابن سفيان . وقال خليفة بن خياط : سنة خمسين . ثم حج بالناس فى تلك السنة بعد مرجعه من هذه الغزوة من أرض الروم . وقد ثبت فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم » . وهو الجيش الثانى الذى رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه عند أم حرام فقالت : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال : « أنت من الأولين » . يعنى جيش معاوية حين غزا قبرص ، ففتحها فى سنة سبع وعشرين أيام عثمان بن عفان ، وكانت معهم أم حرام فماتت هنالك بقبرص ، ثم كان أمير الجيش الثانى ابنه يزيد بن معاوية ، ولم تدرك أم حرام جيش يزيد هذا . وهذا من أعظم دلائل النبوة .

---

(١) وفى رواية : يسعى بها كل عدو غريب ، ونسبة هذا الشعر إلى معاوية فيه نظر والله أعلم .

وقد أورد الحافظ ابن عساكر هٰهنا الحديث الذى رواه محاضر عن الأعمش عن إبراهيم بن عبيدة عن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » . وكذلك رواه عبد الله بن شقيق عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله .

ثم أورد من طريق حماد بن سلمة عن أبى محمد عن زرارة بن أوفى قال : القرن عشرون ومائة سنة ، فبعث رسول الله ﷺ فى قرن ، وكان آخره موت يزيد بن معاوية . قال أبو بكر عياش : حج بالناس يزيد بن معاوية فى سنة إحدى وخمسين وثنتين وخمسين وثلاث خمسين . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو كريب ثنا رشد بن عمرو بن الحارث عن أبى بكير بن الأشج ، أن معاوية قال ليزيد : كيف تراك فاعلا إن وليت ؟ قال . يمتع الله بك يا أمير المؤمنين ، قال: لتخبرنى ، قال ، كنت والله يا أبة عاملا فيهم عمل عمر بن الخطاب . فقال معاوية : سبحان الله يا بنىّ ، والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها ، فكيف بك وسيرة عمر ؟

وقال الواقدى : حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن مَروان بن أبى سعيد بن المعلى قال قال معاوية ليزيد وهو يوصيه عند الموت : يا يزيد ! اتق الله فقد وطأت لك هذا الأمر ، وَوليت من ذلك ما وليت ، فإن يك خيراً فأنا أسعد به ، وإن كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس وأغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك ، وتصلح لك رعيتك ، وإياك والمناقشة وحمل الغضب ، فإنك تهلك نفسك ورعيتك ، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم ، وان لهم لينا بحيث لا يروا منك ضعفا ولا خوراً ، وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وادنهم منك ، فإنهم يعلموا الك حقك . ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك ، فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم . وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأى ليس فى صدر واحد ، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف ، واخزن ذلك عن نسائك وخدمك . وشمر إزارك ، وتعاهد جندك ، وأصلح نفسك تصلح لك الناس ، لا تدع لهم فيك مقالا ، فإن الناس سراع إلى الشر ، واحضر الصلاة ، فإنك إذا فعلت ما أوصيك به عرف الناس لك حقك ، وعظمت مملكتك ، وعظمت فى أعين الناس . واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك ، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك ، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف ، فإن ذلك يبسط آمالهم ، وإن وفد عليك وافد من الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم فإنهم لمن ورائهم ، ولا تسمعن قول قاذف ولا ماحل فإنى رأيتهم وزراء سوء [الماحل : الماكر المحتال الخادع] .

ومن وجه آخر أن معاوية قال ليزيد : إن لى خليلاً من أهل المدينة فأكرمه ، قال : ومن هو ؟

قال: عبد الله بن جعفر. فلما وفد بعد موت معاوية على يزيد أضعف جائزته التي كان معاوية يعطيه إياها، وكانت جائزته على معاوية ستمائة ألف، فأعطاه يزيد ألف ألف، فقال له: بأبي أنت وأمي، فأعطاه ألف ألف أخرى فقال له ابن جعفر: والله لا أجمع أبوي لأحد بعدك. ولما خرج ابن جعفر من عند يزيد وقد أعطاه ألفي ألف، رأى على باب يزيد بخاتي مبركات قد قدم عليها هدية من خراسان، فرجع عبد الله بن جعفر إلى يزيد فسأله منها ثلاث بخاتي ليركب عليها إلى الحج والعمرة، وإذا وفد إلى الشام على يزيد، فقال يزيد للحاجب: ما هذه البخاتي التي على الباب؟ - ولم يكن شعر بها - فقال: يا أمير المؤمنين هذه أربعمائة بختية جاءتنا من خراسان تحمل أنواع الألطاف - وكان عليها أنواع من الأموال كلها - فقال: اصرفها إلى أبي جعفر بما عليها. فكان عبد الله بن جعفر يقول: أتلوموننى على حسن الرأي في هذا؟ - يعني يزيد -

وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك. وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن ثنا حيوة حدثني بشير بن أبي عمرو الخولاني أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفٌ من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ويقرأ القرآن: ثلاثة مؤمن، ومنافق، وفاجر» فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به. تفرد به أحمد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير بن حرب ثنا الفضل بن دكين ثنا كامل أبو العلاء سمعت أبا صالح سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من سنة سبعين، ومن إمارة الصبيان». وروى الزبير بن بكار عن عبد الرحمن بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه قال في يزيد بن معاوية:

لست منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلوات للشهوات

قال: وزعم بعض الناس أن هذا الشعر لموسى بن يسار، ويعرف بموسى شهوات. وروى عن عبد الله بن الزبير أنه سمع جارية له تغنى بهذا البيت فضربها وقال: قولي:

أنت منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلاة للشهوات

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى ثنا يحيى بن حمزة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي عبيدة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال أمر أمتي قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد» وهذا منقطع بين مكحول وأبي عبيدة، بل معضل. وقد رواه ابن عساكر من طريق صدقة بن عبد الله الدمشقي عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني

من أبي عبيدة ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال أمر هذه الأمة قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد » . ثم قال : وهو منقطع أيضاً بين مكحول وأبي ثعلبة . وقال أبو يعلى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن عوف عن خالد بن أبي المهاجر عن أبي العالية قال : كنا مع أبي ذر بالشام فقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أول من يغير سنتي رجل من بني أمية » . ورواه ابن خزيمة عن بندار عن عبد الوهاب ابن عبد المجيد عن عوف : حدثنا مهاجر بن أبي مخلد حدثني أبو العالية حدثني أبو مسلم عن أبي ذر فذكر نحوه . وفيه قصة وهي : أن أبا ذر كان في غزاة عليهم يزيد بن أبي سفيان فاغتصب يزيد من رجل جارية ، فاستعان الرجل بأبي ذر على يزيد أن يردّها عليه ، فأمره أبو ذر أن يردها عليه ، فتلكأ فذكر أبو ذر له الحديث فردها فقال يزيد لأبي ذر : نشدتك بالله أهو أنا ؟ قال : لا.

وكذا رواه البخاري في التاريخ وأبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب . ثم قال البخاري : والحديث معلول ولا نعرف أن أبا ذر قدم الشام زمن عمر بن الخطاب .

قال : وقد مات يزيد بن أبي سفيان زمن عمر فولى مكانه أخاه معاوية وقال عباس الدوري : سألت ابن معين : أسمع أبو العالية من أبي ذر ؟ قال : لا إنما يروي عن أبي مسلم عنه ، قلت : فمن أبو مسلم هذا ؟ قال : لا أدري .

وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذم يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح شيء منها ، وأجود ما ورد ما ذكرناه على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه والله أعلم . قال الحارث بن مسكين عن سفيان عن شبيب عن عرقدة بن المستظل قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب ، إذا ساسهم من لم يدرك الجاهلية ولم يكن له قدم في الإسلام . قلت : يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش ، فأما قتل الحسين فإنه ـ كما قال جده أبو سفيان يوم أحد ـ لم يأمر بذلك ولم يسؤه . وقد قدمنا أنه قال : لو كنت أنا لم أفعل معه ما فعله ابن مرجانة ـ يعني عبيد الله بن زياد ـ وقال للرسل الذين جاؤا برأسه : قد كان يكفيكم من الطاعة دونَ هذا ، ولم يعطهم شيئاً ، وأكرم آل بيت الحسين وردّ عليهم جميع ما فقد لهم وأضعافه ، وردهم إلى المدينة في محامل وأهبة عظيمة ، وقد ناح أهله في منزله على الحسين حين كان أهل الحسين عندهم ثلاثة أيام ، وقيل إن يزيد فرح بقتل الحسين أول ما بلغه ثم ندم على ذلك ، فقال أبو عبيدة مَعْمر المثنى : إن يونس بن حبيب الجَرْميّ حدثه قال : لما قتل ابنُ زياد الحسينَ ومن معه بعث برءوسهم إلى يزيد ، فسُرَّ بقتلهم أولا وحَسُنت بذلك منزلة ابن زياد عنده ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ندم ! فكان يقول : وما كان عَلَيّ لو

احتملت الأذى وأنزلته فى دارى وحكمته فيما يريده ، وإن كان على فى ذلك وَكَف[1] ووهن فى سلطانى ! حفظاً لرسول الله ﷺ ، ورعاية لحقه وقرابته ، ثم يقول : لعن الله ابن مَرجانة فإنه أحرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ، أو يأتينى ، أو يكون بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله ، فلم يفعل ، بل أبى عليه وقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فبغضنى البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلى حسيناً ! مالى ولابن مرجانة ـ قبحه الله وغضب عليه :

ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة ، لم يذكروا عنه ـ وهم أشد الناس عداوة له ـ إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر وإتيانه بعض القاذورات ، لم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض ، بل قد كان فاسقاً ، والفاسق لا يجوز خلعه ، لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع زمن الحَرّة ، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة وأنظرهم ثلاثة أيام ، فلما رجعوا قاتلهم وغير ذلك ، وقد كان فى قتال أهل الحرة كفاية ، ولكن تجاوز الحد بإباحة المدينة ثلاثة أيام ، فوقع بسبب ذلك شرٌّ عظيم كما قدمنا .

وقد كان عبد الله بن عمر بن الخطاب وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد ، ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد . كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن علية حدثنى صخر بن جويرية عن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته » . فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر ، فيكون الفيصل بينى وبينه . وقد رواه مسلم والترمذى من حديث صخر بن جويرية ، وقال الترمذى : حسن صحيح وقد رواه أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى عن صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر فذكر مثله .

ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد ، مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب . فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحريا للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة ، قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعاً لك ، فقال : وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون

---

(١) الوكف : العيب والإثم والضعف

من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحق ، وإن لم يكن رأيناه . فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة ، فقال : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[1] ولست من أمركم في شيء ، قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا قال : ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً . قالوا : فقد قاتلت مع أبيك ، قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه ، فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال ، قال : سبحان الله ! ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ، إذاً ما نصحت لله في عباده . قالوا : إذاً نكرهك . قال : إذاً آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق ، وخرج إلى مكة .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا مصعب الزبيري ، ثنا ابن أبي حازم عن هشام عن زيد بن أسلم عن أبيه ، أن ابن عمر دخل - وهو معه - على ابن مُطيع ، فلما دخل عليه قال : مرحبا بأبي عبد الرحمن ضعوا له وسادة ، فقال : إنما جئتك لأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول : « من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت موتة جاهلية » وهكذا رواه مسلم من حديث هشام بن سعد عن زيد عن أبيه عن ابن عمر به ، وتابعه إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن زيد بن أسلم عن أبيه . وقد رواه الليث عن محمد بن عجلان عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فذكره . وقال أبو جعفر الباقر : لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب أيام الحرّة ، ولما قدم مسلم بن عقبة المدينة أكرمه وأدنى مجلسه وأعطاه كتاب أمان . وروى المدائني أن مسلم بن عقبة بعث رَوح بن زِنباع إلى يزيد ببشارة الحرّة ، فلما أخبره بما وقع قال : واقوماه ! ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له : ترى مالقي أهل المدينة ؟ فما الذي يجبرهم ؟ قال : الطعام والأعطية ، فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته . وهذا خلاف ما ذكره كذبة الروافض عنه من أنه شمت بهم واشتفى بقتلهم ، وأنه أنشد ذكراً وأثر شعر ابن الزبعرى المتقدم ذكره . وقال أبو بكر محمد بن خلف ابن المرزبان بن بسام : حدثني محمد بن القاسم سمعت الأصمعي يقول : سمعت هارون الرشيد ينشد ليزيد بن معاوية :

إنها بين عامر بن لؤي حين تُنمى وبين عبد مناف
ولها في الطيبين جدود ثم نالت مكارم الأخلاق
بنت عم النبي أكرم من يمشي بِنَعل على التراب وحافي

---

(١) من الآية : ٨٦ من سورة الزخرف .

لن تراها على التبذل والغلـــظة إلا كَـدُرّة الأصـــداف

وقال الزبير بن بكار : أنشدنى عمى مصعب ليزيد بن معاوية بن أبى سفيان :

آب هذا الهم فاكتنفا ثم مر النـــوم فامتنعا

راعيا النجم أرقبـه فإذا ما كوكب طلعـــا

حام حتى أننى لأرى أنه بالنور قـــد وقعا

ولهـــا بالمطارون إذا أكل النمـل الذى جمعا

نزهة حتى إذا بلغت نزلت من حلّق تبعـــا

فى قباب وسط دَسْكرة حولهـا الزيتون قد ينعا

ومن شعره

[وقائلة لى حين شبهت وجهها ببدر الدجى يوما وقد ضاق منهجى

تشبهنى بالبدر هذا تناقص بقدرى ، ولكن لست أول منهجى

ألم تر أن البدر عند كماله إذا بلغ التشـــبيه عاد كدملجى

فلا فخر إن شبهت بالبدر مبسمى وبالسحر أجفانى وبالليل مدعجى][1]

وقد ذكره الزبير بن بكار عن أبى محمد الجزرى قال : كانت بالمدينة جارية مغنية يقال لها سَلاّمة ، من أحسن النساء وجها ، وأحسنهن عقلاً وأحسنهن قدّا . قد قرأت القرآن ، وروت الشعر وقالته ، وكان عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يجلسان إليها ، فعلقت الأحوص فصدت عن عبد الرحمن ، فرحل ابن حسان إلى يزيد بن معاوية إلى الشام فامتدحه ودله على سلامة وجمالها وحسنها وفصاحتها ، وقال : لا تصلح إلا لك يا أمير المؤمنين ، وأن تكون من سُمارك ، فأرسل يزيد فاشتريت له وحملت إليه ، فوقعت منه موقعا عظيما ، وفضلها على جميع من عنده ، ورجع عبد الرحمن إلى المدينة فمر بالأحوص فوجده مهموما ، فأراد أن يزيده إلى ما به من الهم همًّا ، فقال :

يا مبتلى بالحب مقروحا لاقى من الحب تبـــاريحا

أفحمه الحب فما ينثنى إلا بكأس الحب مصبوحا

وصار ما يعجبه مغلقا عنه وما يكره مفتوحا

قد حازها من أصبحت عنده ينـــال منها الشم والريحا

خليفة الله فسل الهوى وعزّ قلبا منك مجروحا

---

[1] ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

قال : فأمسك الأحوص عن جوابه ، ثم غلبه وجده عليها فسار إلى يزيد فامتدحه فأكرمه يزيد وحظى عنده ، فدست إليه سلامة خادماً وأعطته مالاً على أن يدخله إليها ، فأخبر الخادم يزيد بذلك ، فقال : امض لرسالتها ، ففعل وأدخل الأحوص عليها وجلس يزيد فى مكان يراهما ولا يريانه ، فلما بصرت الجارية بالأحوص بكت إليه وبكى إليها ، وأمرت فأتى له كرسى فقعد عليه ، وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه شدة شوقه إليه ، فلم يزالا يتحدثان إلى السحر ، ويزيد يسمع كلامهما من غير أن يكون بينهما ريبة ، حتى إذا هم الأحوص بالخروج قال :

أمسى فؤادى فى هَمٍّ وبلبال ... من حب من لم أزل منه على بال

فقالت : صحا المحبُّون بعد النأى إذ يئسوا ... وقد يئست وما أصحوا على حال

فقال : من كان يسلو بيأس عن أخى ثقةٍ ... فمنك سلّام ما أمسيت بالسالى

فقالت : والله والله لا أنساك ياشجَنى ... حتى تفارق منى الروح أوصالى

فقال : والله ما خاب من أمسى وأنتِ له ... يا قرة العين فى أهـل وفى مال

قال : ثم ودعها وخرج ، فأخذه يزيد ودعا بها فقال : أخبرانى عما كان فى ليلتكما وأصدقانى ، فأخبراه وأنشداه ما قالا ، فلم يحرفا منه حرفا ولا غيّرا شيئاً مما سمعه ، فقال لها يزيد : أتحبينه ؟ قالت : إى والله يا أمير المؤمنين

حُبا شديدا جرى كالروح فى جسدى ... فهل يفرق بين الروح والجسد ؟

فقال : أتحبها ؟ فقال : إى والله يا أمير المؤمنين

حبا شديدا تليداً غير مطرف ... بين الجوانح مثل النار يضطرم

فقال يزيد : إنكما لتصفان حبا شديداً ، خذها يا أحوص فهى لك ، ووصله صلة سنية. فرجع بها الأحوص إلى الحجاز وهو قرير العين . [وقد روى أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود ، وما من يوم إلا يصبح فيه مخموراً ، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به ، ويلبس القرد قلانس الذهب ، وكذلك الغلمان ، وكان يسابق بين الخيل ، وكان إذا مات القرد حزن عليه . وقيل : إن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته . وذكروا عنه غير ذلك ، والله أعلم بصحة ذلك][1] .

وقال عبد الرحمن بن أبى منصور : حدثنى بعض أهل العلم قال : آخر ما تكلم به يزيد بن

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

معاوية : اللهم لا تؤاخذني بمالم أحبه ولم أرده ، واحكم بيني وبين عبيد الله بن زياد . وكان نقش خاتمه : آمنت بالله العظيم

مات يزيد بحوّارين من قرى دمشق في الرابع عشر من ربيع الأول ، وقيل يوم الخميس للنصف منه ـ سنة أربع وستين . وكانت ولايته بعد موت أبيه في منتصف رجب سنة ستين ، وكان مولده في سنة خمس ، وقيل سنة ست ، وقيل سبع وعشرين . ومع هذا فقد اختلف في سنّه ومبلغ أيامه في الإمارة على أقوال كثيرة ، وإذا تأملت ما ذكرته لك من هذه التحديدات انزاح عنك الإشكال من هذا الخلاف ، فإن منهم من قال : جاوز الأربعين حين مات فالله أعلم . ثم حمل بعد موته إلى دمشق وصلّى عليه ابنه معاوية بن يزيد أمير المؤمنين يومئذ ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وفي أيامه وسّع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيُون ، وكان جدولاً صغيراً فوسعه أضعاف ما كان يجري فيه من الماء .

وقال ابن عساكر : حدثنا أبو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي قاضي البحرين ـ من لفظه وكتبه لي بخطه ـ قال : رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له : أنت قتلت الحسين ؟ فقال : لا ! فقلت له : هل غفر الله لك ؟ قال : نعم ، وأدخلني الجنة . قلت : فالحديث الذي يروى أن رسول الله ﷺ رأى معاوية يحمل يزيد فقال : رجل من أهل الجنة يحمل رجلا من أهل النار ؟ فقال : ليس بصحيح قال ابن عساكر : وهو كما قال ، فإن يزيد بن معاوية لم يولد في حياة النبي ﷺ . وإنما ولد بعد العشرين من الهجرة . وقال أبو جعفر بن جرير :

ذكر أولاد يزيد بن معاوية وعددهم

فمنهم : مُعاوية بن يزيد بن معاوية ـ ويكنى أبا ليلى ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

إني أرى فتنة قد حانَ أوّلها والمُلك بعد أبي ليلى لمن غَلبا

وخالد بن يزيد ـ وكان يكنى أبا هاشم ، وكان يقال : إنه أصاب عِلْم الكيمياء . وأبو سفيان ، وأمهما أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وقد تزوجها بعد يزيد مروان ابن الحكم ، وهي التي يقول فيها الشاعر :

انعَمي أمّ خالد ربّ ساعٍ لقاعد

وعبد الله بن يزيد ويقال له الأسوار ، وكان من أرمى العرب ، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله ابن عامر ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

زعم الناس أنّ خير قريش كلهم حين « يذكرون الأساور »[1]

وعبد الله الأصغر ، وأبو بكر ، وعتبة ، وعبد الرحمن ، والربيع ، ومحمد – لأمهات أولاد شتى . ويزيد وحرب وعمر وعثمان . فهؤلاء خمسة عشر ذكراً . وكان له من البنات : عاتكة ورملة ، وأم عبد الرحمن ، وأم يزيد ، وأم محمد . فهؤلاء خمس بنات . وقد انقرضوا كافة فلم يبق ليزيد عقب ، والله سبحانه أعلم .

إمارة معاوية بن يزيد بن معاوية

أبى عبد الرحمن ، ويقال : أبو يزيد ، ويقال : أبو يعلى القرشي الأموى – وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بويع له بعد موت أبيه – وكان ولىّ عهده من بعده – فى رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكان رجلا صالحاً ناسكا ، ولم تطل مدته ، قيل : إنه مكث فى الملك أربعين يوما ، وقيل عشرين يوما ، وقيل شهرين ، وقيل شهراً ونصف شهر ، وقيل ثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وقيل أربعة أشهر ، فالله أعلم .

وكان فى مدة ولايته مريضا لم يخرج إلى الناس ، وكان الضحاك بن قيس هو الذى يصلى بالناس ويسير الأمور ، ثم مات معاوية بن يزيد هذا عن إحدى وعشرين ، وقيل ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يوما ، وقيل تسع عشرة سنة ، وقيل عشرين سنة ، وقيل ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : إنما عاش ثمانى عشرة سنة ، وقيل تسع عشرة سنة وقيل عشرين ، وقيل خمساً وعشرين فالله أعلم . وصلّى عليه أخوه خالد ، وقيل عثمان بن عنبسة ، وقيل الوليد بن عتبة وهو الصحيح ؛ فإنه أوصى إليه بذلك . وشهد دفنه مروان بن الحكم ، وكان الضحاك بن قيس هو الذى يصلى بالناس بعده حتى استقر الأمر لمروان بالشام ، ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق . ولما حضرته الوفاة قيل له : ألا توصى ؟ فقال : لا أتزوّد مرارتها إلى إخوتى وأترك حلاوتها لبنى أمية . وكان – رحمه الله – أبيض شديد البياض كثير الشعر كبير العينين جعد الشعر ، أقنى الأنف ، مدوّر الرأس ، جميل الوجه كثير شعر الوجه دقيقه حسن الجسم . قال أبو زرعة الدمشقى : معاوية وعبد الرحمن وخالد أخوه ، كانوا من صالحى القوم ، وقال فيه بعض الشعراء – وهو عبد الله ابن همام السلولى :

تلقاها يزيد عن أبيـــه فدونكها معاوى عن يزيدا
أديروها بنى حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا

---

(1) فى الطبرى : حين يذكر الأسوار

ويروى أن معاوية بن يزيد هذا ، نادى فى الناس . الصلاة جامعة ذات يوم ، فاجتمع الناس فقال لهم فيما قال : يا أيها الناس ! إنى قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه ، فإن أحببتم تركتها لرجل قوى كما تركها الصديق لعمر ، وإن شئتم تركتها شورى فى ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب ، وليس فيكم من هو صالح لذلك ، وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم . ثم نزل ودخل منزله فلم يخرج منه حتى مات ، رحمه الله تعالى . ويقال إنه سقى ، ويقال إنه طعن .

ولما دفن حضر مروان دفنه ، فلما فرغ منه قال مروان : أتدرون مَنْ دفنتم ؟ قالوا : نعم معاوية بن يزيد ، فقال مروان : أبو ليلى الذى قال فيه أزنم الفزارى :

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

قالوا : فكان الأمر كما قال ؛ وذلك أن أبا ليلى توفى من غير عَهد منه إلى أحد ، فتغلب على الحجاز عبد الله بن الزبير ، وعلى دمشق وأعمالها مروان بن الحكم ، وبايع أهل خراسان سَلم بن زياد حتى يتولى على الناس خليفة ، وأحبوه محبة عظيمة ، وسار فيهم سلم سيرة حسنة أحبوه عليها ، ثم أخرجوه من بين أظهرهم . وخرج القراء والخوارج بالبصرة وعليهم نافع بن الأزرق ، وطردوا عنهم عُبيد الله بن زياد بعد ما كانوا بايعوه عليهم حتى يصير للناس إمام ، فأخرجوه عنهم ، فذهب إلى الشام بعد فصول يطول ذكرها . وقد بايعوا بعده عبد الله بن الحارث بن نَوفل المعروف بـ « بَبَّة »[1] ، وأمه هند بنت أبى سفيان ، وقد جعل على شُرطة البصرة هميان بن عدى السدوسى ، فبايعه الناس فى مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، وقد قال الفرزدق

وبايعت أقواماً وفيت بعهدهم وَبَبَّة قد بايعته غير نادم

فأقام فيها أربعة أشهر ثم لزم بيته ، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يصلى بالناس ، فصلى بهم شهرين ، ثم كان ما سنذكره . وخرج نجدة بن عامر الحنفى باليمامة ، وخرج بنو ماحورا فى الأهواز وفارس وغير ذلك على ما سيأتى تفصيله قريباً إن شاء الله تعالى .

إمارة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما

وعند ابن حزم وطائفة ، أنه أمير المؤمنين فى هذا الحين

قد قدمنا أنه لما مات يزيد أقلع الجيش عن مكة ، وهم الذين كانوا يحاصرون ابن الزبير وهو

---

(١) قيل: سبب إطلاق ذلك عليه : أن أمه هند بنت أبى سفيان كانت ترقصه وتقول :
لأنكحن ببه * جارية خدبه * مكرمة محبه * تجب أهل الكعبه ــ أى تغلبهن حسناً

عائذ بالبيت ، فلما رجع حُصين بن نُمير السكونى بالجيش إلى الشام ، استفحل ابن الزبير بالحجاز وما والاها ، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة هناك ، واستناب على أهل المدينة أخاه عبيد الله بن الزبير ، وأمره بإجلاء بنى أمية من المدينة فأجلاهم فرحلوا إلى الشام ، وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، ثم بعث أهل البصرة إلى ابن الزبير بعد حروب جرت بينهم وفتن كثيرة يطول استقصاؤها ، غير أنهم فى أقل من ستة أشهر ، أقاموا عليهم نحواً من أربعة أمراء من بينهم ، ثم تضطرب أمورهم . ثم بعثوا إلى ابن الزبير وهو بمكة يخطبونه لأنفسهم ، فكتب إلى أنس بن مالك ليصلّى بهم ويقال إن أول من بايع ابن الزبير ـ مُصعب بن عبد الرحمن ، فقال الناس : هذا أمر فيه صعوبة ، وبايعه عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن على بن أبى طالب ، وبعث إلى ابن عمر وابن الحنفية وابن عباس ليبايعوا فأبوا عليه . وبويع فى رجب بعد أن أقام الناس نحو ثلاثة أشهر بلا إمام وبعث ابن الزبير إلى أهل الكوفة عبد الرحمن بن يزيد الأنصارى على الصلاة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج ، واستوثق له المصران جميعاً . وأرسل إلى مصر فبايعوه ، واستناب عليها عبد الرحمن بن جحدر ، وأطاعت له الجزيرة وبعث على البصرة الحارث بن عبد الله بن ربيعة ، وبعث إلى اليمن فبايعوه ، وإلى خراسان فبايعوه ، وإلى الضحاك ابن قيس بالشام فبايع . وقيل إن أهل دمشق وأعمالها من بلاد الأردن لم يبايعوه ؛ لأنهم بايعوا مروان بن الحكم لما رجع الحصين بن نمير من مكة إلى الشام ، وقد كان التف على عبد الله بن الزبير جماعة من الخوارج يدافعون عنه ، منهم : نافع بن الأزرق ، وعبد الله بن أباض ، وجماعة من رءوسهم . فلما استقر أمره فى الخلافة قالوا فيما بينهم : إنكم قد أخطأتم لأنكم قاتلتم مع هذا الرجل ولم تعلموا رأيه فى عثمان بن عفان ـ وكانوا ينتقصون عثمان ـ فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان فأجابهم فيه بما يسوؤهم ، وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق ، والعدل والإحسان والسيرة الحسنة ، والرجوع إلى الحق إذا تبين له ، فعند ذلك نفروا عنه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان ، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة ، التى لا تنضبط ولا تنحصر ، لأنها مفرعة على الجهل وقوة النفوس ، والاعتقاد الفاسد ، ومع هذا استحوذوا على كثير من البلدان والكور ، حتى انتزعت منهم ـ على ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله .

ذكر بيعة مروان بن الحكم

وكان سبب ذلك : أن حُصين بن نُمير لما رجع من أرض الحجاز وارتحل عُبيد الله بن زياد من البَصرة إلى الشام ، وانتقلت بنو أمية من المدينة إلى الشام ، اجتمعوا إلى مَروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد ، وقد كان معاوية بن يزيد قد عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق ،

وقد بايع أهلها الضحّاك بن قيس على أن يصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس على إمام ، والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير وقد بايع لابن الزبير النعمان بن بشير بحمص ، وبايع له زُفَر بن عبد الله الكلابي بقنسرين ، وبايع له ناتل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها رَوح بن زنباع الجذامى ، فلم يزل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بمروان بن الحكم يحسنون له أن يتولى ، حتى ثنوه عن رأيه وحذروه من دخول سلطان ابن الزبير وملكه إلى الشام ، وقالوا له : أنت شيخ قريش وسيدها ، فأنت أحق بهذا الأمر . فرجع عن البيعة لابن الزبير ، وخاف ابن زياد الهلاك إن تولى غير بنى أمية ، فعند ذلك التف هؤلاء كلهم مع قومه بنى أمية ومع أهل اليمن على مروان ، فوافقهم على ما أرادوا ، وجعل يقول : ما فات شيء . وكتب حسّان بن مالك بن بَحْدَل الكلبيّ إلى الضحاك بن قيس ينهيه عن المبايعة لابن الزبير ، ويعرفه أيادى بنى أمية عنده وإحسانهم ، ويذكر فضلهم وشرفهم ، وقد بايع حسان بن مالك أهل الأردنّ لبنى أمية ، وهو يدعو إلى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وبعث إلى الضحاك كتابا بذلك ، وأمره أن يقرأ كتابه على أهل دمشق يوم الجمعة على المنبر ، وبعث بالكتاب مع رجل يقال له : نَاغِضة بن كريب الطابخى ، وقيل هو من بنى كلب ، وقال له : إن لم يقرأه هو على الناس فاقرأه أنت ، فأعطاه الكتاب فسار إلى الضحاك فأمره بقراءة الكتاب فلم يقبل ، فقام ناغضة فقرأه على الناس فصدقه جماعة من أمراء الناس ، وكذبه آخرون ، وثارت فتنة عظيمة بين الناس ، فقام خالد بن يزيد بن معاوية وهو شاب حدث على درجتين من المنبر فسكّن الناس ، ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة ، وأمر الضحاك بن قيس بأولئك الذين صدقوا ناغِضَة أن يُسجنوا ، فثارت قبائلهم فأخرجوهم من السجن ، واضطرب أهل دمشق فى ابن الزبير وبنى أمية ، وكان اجتماع الناس لذلك ووقوفهم بعد صلاة الجمعة بباب الجَيْرون ، « فسمى هذا اليوم يوم جَيْرون » .

قال المدائنى : وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أن يتولى عليهم فأبى ، وهلك فى تلك الليالى . ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع فخطبهم به ، ونال من يزيد ابن معاوية ، فقام إليه شاب من بنى كلب فضربه بعصى كانت معه ، والناس جلوس متقلدى سيوفهم ، فقام بعضهم إلى بعض فاقتتلوا فى المسجد قتالا شديدا ، فقيس ومن لَفّ لفيفها يدعون إلى ابن الزبير وينصرون الضحاك بن قيس ، وبنو كلب يدعون إلى بنى أمية وإلى البيعة لخالد ابن يزيد بن معاوية ، ويتعصبون ليزيد وأهل بيته ، فنهض الضحاك بن قيس فدخل الإمارة وأغلق الباب ولم يخرج إلى الناس إلا يوم السبت لصلاة الفجر ، ثم أرسل إلى بنى أمية فجمعهم إليه ، فدخلوا عليه وفيهم مروان بن الحكم ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية . قال المدائنى : فاعتذر إليهم مما كان منه ، واتفق معهم أن يركب معهم إلى

حسّان بن مالك الكلبي، فيتفقوا على رجل يرتضونه من بني أمية للإمارة ، فركبوا جميعا إليه ، فبينما هم يسيرون إلى الجابية لقصد حسان ، إذ جاء معن بن ثور بن الأخنس في قومه قيس ، فقال له : إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير فأجبناك ، وأنت الآن ذاهب إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له الضحاك : وما الرأي ؟ قال : الرأي أن نظهر ما كنا نُسِرّ ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها من أباها . فمال الضحاك بمن معه فرجع إلى دمشق ، فأقام بها بمن معه من الجيش : من قيس ومن لَفّ لفيفها ، وبعث إلى أمراء الأجناد وبايع الناس لابن الزبير ، وكتب بذلك إلى ابن الزبير يعلمه بذلك ، فذكره ابن الزبير لأهل مكة وشكره على صنيعه ، وكتب إليه بنيابة الشام ، وقيل : بل بايع لنفسه بالخلافة فالله أعلم .

والذي ذكره المدائني ، أنه إنما دعا إلى بيعة ابن الزبير أولا ، ثم حسّن له عبيد الله بن زياد أن يدعو إلى نفسه ، وذلك إنما فعله مكراً منه وكباراً ليفسد عليه ما هو بصدده ، فدعا الضحاك إلى نفسه ثلاثة أيام ، فنقم الناس عليه ذلك وقالوا : دعوتنا إلى بيعة رجل فبايعناه ثم خلعته بلا سبب ، ولا عذر ، ثم دعوتنا إلى نفسك . فرجع إلى البيعة لابن الزبير فسقط بذلك عند الناس ، وذلك الذي أراد ابن زياد . وكان اجتماع عبيد الله بن زياد به بعد اجتماعه بمروان وتحسينه له أن يدعو إلى نفسه ، ثم فارق مروان ليخدع له الضحاك ، فنزل عنده بدمشق وجعل يركب إليه كل يوم . ثم أشار ابن زياد على الضحاك أن يخرج من دمشق إلى الصحراء ويدعو بالجيوش إليه ليكون أمكن له، فركب الضحاك إلى مَرْج راهط فنزل بمن معه من الجنود ، وعند ذلك اجتمع بنو أمية ومن اتبعهم بالأردن واجتمع إليهم من هنالك من قوم حسّان بن مالك من بني كليب .

ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير ، وما استوثق له من الملك ، عزم على الرحيل إليه ليبايعه وليأخذ منه أماناً لبني أمية ، فسار حتى بلغ أذرعات فلقيه ابن زياد مقبلا من العراق فصده عن ذلك وهجّن رأيه ، واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص ، وحُصين بن نُمير ، وابن زياد ، وأهل اليمن وخَلق ، فقالوا لمروان : أنت كبير قريش ، وخالد ابن يزيد غلام ، وعبد الله بن الزبير كهل ، إنما يُقرَع الحديدُ بعضُهُ ببعض ، فلا تناوئه بهذا الغلام ، وارم بنحرك في نحره ، ونحن نبايعك ؛ ابسُط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، بالجابية ، في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين ، قاله الواقدي ، فلما تمهد له الأمر سار بمن معه نحو الضحاك بن قيس فالتقيا بمرج[1] راهط فغلبه مروان بن الحكم وقتله وقتل من قيس مقتلة لم يسمع بمثلها ، على ما سيأتي تفصيله في أول سنة خمس وستين . [قال الواقدي وغيره

(١) المرج : الموضع ترعى فيه الدواب . ومرج راهط ناحية من نواحي دمشق

قالوا : إنما كانت هذه الوقعة فى المحرم من أول سنة خمس وستين وفى رواية محمد بن سعد : وعن الواقدى وغيره قالوا : إنما كانت فى أواخر هذه السنة . وقال الليث بن سعد][1] والواقدى والمدائنى وأبو سليمان بن يزيد وأبو عبيدة وغير واحد : كانت وقعة مرج راهط للنصف من ذى الحجة سنة أربع وستين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقعة مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهرى رضى الله عنه

قد تقدم أن الضحاك كان نائب دمشق لمعاوية بن أبى سفيان ، وكان يصلى عنهم إذا اشتغلوا أو غابوا ، ويقيم الحدود ويسد الأمور ، فلما مات معاوية قام بأعباء بيعة يزيد ابنه ، ثم لما مات يزيد بايع الناس لمعاوية بن يزيد ، فلما مات معاوية بن يزيد بايعه الناس من دمشق حتى تجتمع الناس على إمام ، فلما اتسعت البيعة لابن الزبير عزم على المبايعة له ، فخطب الناس يوما وتكلم فى يزيد بن معاوية وذمّه ، فقامت فتنة فى المسجد الجامع ، حتى اقتتل الناس فيه بالسيوف ، فسكن الناس ثم دخل دار الإمارة من الخضراء وأغلق عليه الباب ، ثم اتفق مع بنى أمية على أن يركبوا إلى حسّان بن مالك بن بحدل وهو بالأردن ، فيجتمعوا عنده على من يراه أهلا للإمارة ، وكان حسان يريد أن يبايع لابن أخته خالد بن يزيد ، ويزيد ابن مَيسون ، وميسون بنت بحدل ، أخت حسان ، فلما ركب الضحاك معهم انخذل بأكثر الجيش فرجع إلى دمشق فامتنع بها ، وبعث إلى أمراء الأجناد فبايعهم لابن الزبير .

وسار بنو أمية ومعهم مروان وعمرو بن سعيد ، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، حتى اجتمعوا بحسّان بن مالك بالجابية . وليس لهم قوة طائلة بالنسبة إلى الضحاك بن قيس ، فعزم مروان على الرحيل إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ أمانا منه لبنى أمية ، فإنه كان قد أمر بإجلائهم عن المدينة ، فسار حتى وصل إلى أذرعات فلقيه عبيد الله بن زياد مقبلاً من العراق ، فاجتمع به ومعه حُصين بن نُمير ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، فحسّنوا إليه أن يدعو إلى نفسه ، فإنه أحق بذلك من ابن الزبير الذى قد فارق الجماعة وخلع ثلاثة من الخلفاء ، فلم يزالوا بمروان حتى أجابهم إلى ذلك ، وقال له عبيد الله بن زياد : وأنا أذهب لك إلى الضحاك إلى دمشق فأخدعه لك وأخذل أمره ، فسار إليه وجعل يركب إليه كلّ يوم ويظهر له الود والنصيحة والمحبة ، ثم حسّن له أن يدعو إلى نفسه ويخلع ابن الزبير فإنك أحق بالأمر منه ؛ لأنك لم تزل فى الطاعة ، مشهوراً بالأمانة ،

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

وان الزبير خارج عن الناس ، فدعا الضحاك الناس إلى نفسه ثلاثة أيام فلم يصمد معه ، فرجع إلى الدعوة لابن الزبير ، ولكن انحط بها عند الناس ، ثم قال له ابن زياد : إن من يطلب ما تطلب لا ينزل المدن والحصون ، وإنما ينزل الصحراء ويدعو إليه بالجنود ، فبرز الضحاك إلى مرْج راهط فنزله ، وأقام ابن زياد بدمشق وبنو أمية بتدمر ، وخالد وعبد الله عند خالهم حسان بالجابية ، فكتب ابن زياد إلى مروان يأمره أن يظهر دعوته ، فدعا إلى نفسه ، وتزوج بأم خالد بن يزيد ـ وهي أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة ـ فعظم أمره وبايعه الناس ، واجتمعوا عليه .

وسار إلى مرج راهط نحو الضحاك بن قيس ، وركب إليه عبيد الله بن زياد وأخوه عباد بن زياد ، حتى اجتمع مع مروان ثلاثة عشر ألفاً ، وبدمشق من جهته يزيد بن أبي النمر ، وقد أخرج عامل الضحاك منها وهو يمد مروان بالسلاح والرجال وغير ذلك . ويقال : كان نائبه على دمشق يومئذ عبد الرحمن بن أم الحكم ، وجعل مروان على ميمنته عبيد الله بن زياد ، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد بن العاص ، وبعث الضحاك إلى النعمان بن بشير فأمده النعمان بأهل حمص عليهم شُرحبيل بن ذي الكلاع وركب إليه زُفر بن الحارث الكلابي في أهل قنسرين . فكان الضحاك في ثلاثين ألفاً ، على ميمنته زياد بن عمرو العقيلي ، وعلى ميسرته زكريا بن شمر الهلالي ، فتصافوا وتقاتلوا بالمرج عشرين يوما ، يلتقون بالمرج في كل يوم فيقتتلون قتالا شديداً ، ثم أشار عبيد الله على مروان أن يدعوهم إلى الموادعة خديعة فإن الحرب خدعة ، وأنت وأصحابك على الحق ، وهم على الباطل ، فنودي في الناس بذلك ، ثم غدر أصحاب مروان فمالوا يقتلونهم قتالا شديداً ، وصبّر الضحاك صبرا بليغا ، فقتل الضحاك بن قيس في المعركة ، قتله رجل يقال له : زُحْنة ابن عبد الله من بني كلب ، طعنه بحربة فأنفذه ولم يعرفه . وصبر مروان وأصحابه صبراً شديداً حتى فر أولئك بين يديه ، فنادى مروان : ألا لاتتبعوا مدبراً ، ثم جيء برأس الضحاك ويقال إن أول من بَشّره بقتله روح بن زنباع الجذامي ، واستقر ملك الشام بيد مروان بن الحكم . وروى أنه بكى على نفسه يوم مرْج راهط ، فقال : أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك ؟ قلت : ولم تطل مدته في الملك إلا تسعة أشهر على ما سنذكره .

وقد كان الضحاك بن قيس بن خالد الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك ، أبو أنيس الفهري ـ أحد الصحابة على الصحيح وقد سمع من النبي ﷺ وروى عنه أحاديث عدة ، وروى عنه جماعة من التابعين ، وهو أخو فاطمة بنت قيس وكانت أكبر منه بعشر سنين ، وكان أبو عبيدة بن الجراح عمه . حكاه ابن أبي حاتم . وزعم بعضهم أنه لا صحبة له ، وقال الواقدي : أدرك النبي ﷺ وسمع منه قبل البلوغ .

وفي رواية عن الواقدي أنه قال : ولد الضحاك قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين . وقد شهد فتح دمشق وسكنها ، وله بها دار عند حجر الذهب مما يلي نهر بردا ، وكان أميراً على أهل دمشق يوم صفين مع معاوية ، ولما أخذ معاوية الكوفة استنابه بها في سنة أربع وخمسين . وقد روى البخاري في التاريخ ، أن الضحاك قرأ سورة «ص» في الصلاة فسجد فيها فلم يتابعه علقمة وأصحاب ابن مسعود في السجود . ثم استنابه معاوية عنده على دمشق ، فلم يزل عنده حتى مات معاوية وتولى ابنه يزيد ، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد ، ثم صار أمره إلى ما ذكرناه .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان بن مسلم ، ثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا علي بن زيد عن الحسن أن الضحاك بن قيس كتب إلى الهيثم حين مات يزيد بن معاوية : السلام عليك ، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، فتناً كقطع الدخان ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا قليل » . وإن يزيد ابن معاوية قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نختال لأنفسنا . وقد روى ابن عساكر من طريق ابن قتيبة عن العباس بن الفرج الرياشي عن يعقوب بن إسحاق بن ثوبة عن حماد بن زيد قال : دخل الضحاك بن قيس على معاوية فقال معاوية منشداً له :

تطاولت للضحاك حتى رددته ... إلى حسب في قومه متقاصر

فقال الضحاك : قد علم قومنا أنا أحلاس[1] الخيل ، فقال : صدقت ، أنتم أحلاسها ونحن فرسانها يريد معاوية: أنتم راضة وساسة ، ونحن الفرسان ـ ورأى أن أصل الكلمة من الحلس ـ وهو كساء يكون تحت البرذعة ، أي أنه ملازم ظهر الفرس كما يلزم الحلس ظهر البعير والدابة . وروى أن مؤذن دمشق قال للضحاك بن قيس : والله أيها الأمير إني لأحبك في الله . فقال له الضحاك : ولكني والله أبغضك في الله . قال : ولم أصلحك الله ؟ قال : لأنك تترائى في أذانك ، وتأخذ على تعليمك أجراً .

قتل الضحاك رحمه الله يوم مرج راهط ، وذلك للنصف من ذي الحجة سنة أربع وستين ، قاله الليث بن سعد وأبو عبيد والواقدي وابن زبر والمدائني .

وفيها قتل النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري : وأمه عمرة بنت رواحة ، كان النعمان أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة للأنصار ، في جمادى الأولى سنة سنتين من الهجرة ، فأتت به أمه تحمله إلى النبي ﷺ فحنكه وبشرها بأنه يعيش حميداً ، ويقتل شهيداً ، ويدخل الجنة . فعاش في خير وسعة ، وولي نيابة الكوفة لمعاوية تسعة أشهر ، ثم سكن الشام ، وولي قضاءها بعد فضالة

(١) أي لا نفارقها .

ابن عبيد ، وفضالة بعد أبى الدرداء . وناب بحمص لمعاوية ، وهو الذى رد آل رسول الله ﷺ إلى المدينة بأمر يزيد له فى ذلك ، وهو الذى أشار على يزيد بالإحسان إليهم فرق لهم يزيد وأحسن إليهم وأكرمهم ، ثم لما كانت وقعة مرج راهط وقتل الضحاك بن قيس ، وكان النعمان قد أمده بأهل حمص ، فقتلوه بقرية يقال لها بيرين ، قتله رجل يقال له خالد بن خلِّى المازنى وقيل خلىّ ابن داود ، وهو جد خالد بن خلى . وقد رثته ابنته فقالت :

ليت ابن مزنة وابنه ... كانوا لقتلك واقية

وبنى أميـــة كلهم ... لم تبق منهم باقيـــة

جاء البريد بقتلــه ... يا للـــكلاب العاوية

يستفتحون برأسه ... دارت عليهم فانيـــة

فلأبكين سريرة ... ولأبكين علانيـــة

ولأبكينك ما حييـ ... ـت مع السباع العادية

[وقيل إن أعشى همدان قدم على النعمان بن بشير وهو على حمص وهو مريض ، فقال له النعمان : ما أقدمك ؟ قال : لتصلنى وتحفظ قرابتى وتقضى دينى ، فقال : والله ما عندى ، ولكنى سائلهم لك شيئاً ، ثم قام فصعد المنبر ثم قال : يا أهل حمص ! إن هذا ابن عمكم من العراق ، وهو مسترفدكم شيئاً فما ترون ؟ فقالوا : احتكم فى أموالنا ، فأبى عليهم ، فقالوا : قد حكمنا من أموالنا كل رجل دينارين ـ وكانوا فى الديوان عشرين ألف رجل ـ فعجلها له النعمان من بيت المال أربعين ألف دينار ، فلما خرجت أعطياتهم أسقط من عطاء كل رجل منهم دينارين][1] .

ومن كلام النعمان بن بشير رضى الله عنه قوله : إن الهلكة كل الهلكة أن تعمل السيئات فى زمان البلاء . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو اليمان ، ثنا إسماعيل بن عياش عن أبى رواحة يزيد بن أيهم ، عن الهيثم بن مالك الطائى ، سمعت النعمان بن بشير على المنبر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان مصالى[2] وفخوخاً ، وإن مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله ، والفخر بعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله » . ومن أحاديثه الحسان ما سمعه من رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

(٢) المصالى : الأشراك تنصب للطير وغيرها . والواحدة مصلاة وفخوخ : جمع فخ وهو للصيدة

لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » . رواه البخاري ومسلم .

وقال أبو مسهر : كان النعمان بن بشير على حمص عاملا لابن الزبير ، فلما تملك مروان خرج النعمان هاربا فاتبعه خالد بن خلي الكلاعي فقتله قال أبو عبيدة وغير واحد : في هذه السنة .

وقد روى محمد بن سعد بأسانيده ، أن معاوية تزوج بامرأة جميلة جداً فبعث إحدى امرأتيه — ميسون أو فاختة — لتنظر إليها ، فلما رأتها أعجبتها جداً ، ثم رجعت إليه فقال : كيف رأيتها ؟ قالت : بديعة الجمال ، غير أني رأيت تحت سُرَّتها خالا أسود ، وإني أحسب أن زوجها يقتل ويلقى رأسه في حجرها ، فطلقها معاوية وتزوجها النعمان بن بشير ، فلما قتل أتى برأسه فألقى في حجرها سنة خمس وستين . وقال سليمان بن زبر قتل بسلمية سنة ست وخمسين ، وقال غيره : سنة خمس وستين ، وقيل : سنة ستين ، والصحيح ما ذكرناه .

وفيها توفى المسوّر بن مخرمة بن نوفل : صحابي صغير ، أصابه حجر المنجنيق مع ابن الزبير بمكة وهو قائم يصلي في الحجر . [وهو من أعيان من قتل في حصار مكة — وهو المسوَر بن مخرمة ابن نوفل — أبو عبد الرحمن الزهري ، أمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف ، له صحبة ورواية ، ووفد على معاوية ، وكان ممن يلزم عمر بن الخطاب ، وقيل إنه كان ممن يصوم الدهر ، وإذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً ، وصلى ركعتين . وقيل : إنه وجد يوم القادسية إبريق ذهب مرصع بالياقوت فلم يدر ما هو ، فلقيه رجل من الفرس فقال له : بعنيه بعشرة آلاف ، فعلم أنه شيء له قيمة ، فبعث به إلى سعد بن أبي وقاص فنفله إياه ، فباعه بمائة ألف .

ولما توفى معاوية قدم مكة فأصابه حجر المنجنيق مع ابن الزبير لما رموا به الكعبة ، فمات من بعد خمسة أيام ، وغسله عبد الله بن الزبير ، وحمله في جملة من حمل إلى الحجون ، وكانوا يطأون به القتلى ، ويمشون به بين أهل الشام ، واحتكر المسوَر بن مخرمة طعاماً في زمن عمر بن الخطاب ، فرأى سحابا فكرهه ، فلما أصبح غدا إلى السوق فقال : من جاءني أعطيته ! فقال عمر : أجننت يا أبا مخرمة ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكني رأيت سحابا فكرهت ما فيه الناس فكرهت أن أربح فيه شيئاً ، فقال له عمر : جزاك الله خيراً ولد المسوَر بمكة بعد الهجرة بسنتين .

المنذر بن الزبير بن العوام : ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وقد غزا المنذر القسطنطينية مع يزيد بن معاوية ، ووفد على معاوية فأجازه بمائة ألف ، وأقطعه أرضا ، فمات معاوية قبل أن يقبض المال . وكان المنذر بن الزبير وعثمان بن عبد الله بن حزام يقاتلون أهل الشام بالنهار ، ويطعمانهم بالليل . قتل المنذر بمكة في حصارها مع أخيه ، ولما مات معاوية أوصى إلى المنذر أن ينزل في قبره

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

مصعب بن عبد الرحمن بن عوف : كان شابا ديناً فاضلا قتل مصعب أيضا فى حصار مكة مع ابن الزبير .

وممن قتل فى وقعة الحرة : محمد بن أبى كعب ، وعبد الرحمن بن أبى قتادة ، وأبو حكيم معاذ بن الحارث الأنصارى ، الذى أقامه عمر يصلى بالناس . وقتل يومئذ ولدان لزينب بنت أم سلمة ، وزيد بن محمد بن سلمة الأنصارى قتل يومئذ ، وقتل معه سبعة من إخوته وغير هؤلاء رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين .

وفيها توفى الأخنس بن شريق ، شهد فتح مكة وكان مع على يوم صفين][1] .

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وستين ـ جرت حروب كثيرة وفتن منتشرة ببلاد المشرق واستحوذ على بلاد خراسان رجل يقال له : عبد الله بن خازم ، وقهر عمالها وأخرجهم منها ، وذلك بعد موت يزيد وابنه معاوية ، قبل أن يستقر ملك ابن الزبير على تلك النواحى ، وجرت بين عبد الله بن خازم هذا وبين عمرو بن مَرْثد ـ حروب يطول ذكرها وتفصيلها ، اكتفينا بذكرها إجمالا إذ لا يتعلق بذكرها كبير فائدة ، وهى حروب فتنة وقتال بغاة بعضهم فى بعض ، والله المستعان

[وقال الواقدى : وفى هذه السنة ـ بعد موت معاوية بن يزيد ـ بايع أهل خراسان سَلْم بن زياد ابن أبيه ، وأحبوه حتى أنهم سموا باسمه فى تلك السنة أكثر من ألف غلام مولود ، ثم نكثوا واختلفوا فخرج عنهم سلم وترك عليهم المهلب بن أبى صُفرة][2] .

وفيها اجتمع ملأ الشيعة على سليمان بن صرد بالكوفة ، وتواعدوا النخيلة ليأخذوا بثأر الحسين بن على بن أبى طالب ، وما زالوا فى ذلك مجدين ، وعليه عازمين ، من مقتل الحسين بكربلاء من يوم عاشوراء عشرة المحرم سنة إحدى وستين ، وقد ندموا على ما كان منهم من بعثهم إليه ، فلما أتاهم خذلوه وتخلوا عنه ولم ينصروه * فجادت بوصل حين لا ينفع الوصل *

فاجتمعوا فى دار سليمان بن صرد وهو صحابى جليل ، وكان رءوس القائمين فى ذلك خمسة ، سليمان بن صُرَد الصحابى ، والمسيَّب بن نَجَبة الفزارى ـ أحد كبار أصحاب على ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى ، وعبد الله بن وال التيمى ، ورفاعة بن شداد البجلى . وكلهم من أصحاب على رضى الله عنه ، فاجتمعوا كلهم بعد خطب ومواعظ على تأمير سليمان بن صُرَد عليهم ، فتعاهدوا وتعاقدوا وتواعدوا النخيلة ، وأن يجتمع من يستجيب لهم إلى ذلك الموضع بها فى سنة خمس وستين

(١) مابين القوسين ساقط من بعض النسخ .

(٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

ثم جمعوا من أموالهم وأسلحتهم شيئاً كثيراً وأعدوه لذلك. [وقام المسيب بن نجبة خطيباً فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد فقد ابتلينا بطول العُمر وكثرة الفتن ، وقد ابتلانا الله فوجدنا كاذبين فى نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ ، بعد أن كتبنا إليه وراسلناه ، فأتانا طمعا فى نصرتنا إياه ، فخذلناه وأخلفناه ، وأتينا به إلى من قتله وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار ، فما نصرناهم بأيدينا ، ولا خذلنا عنهم بألسنتنا ، ولا قويناهم بأموالنا ، فالويل لنا جميعا ويلاً متصلا أبداً لا يفتر ولا يبيد دون أن نقتل قاتله والممالئين عليه ، أو نقتل دون ذلك وتذهب أموالنا وتخرب ديارنا . أيها الناس قوموا فى ذلك قومة رجل واحد ، توبوا إلى بارئكم (فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم)[1] وذكر كلاما طويلا . ثم كتبوا إلى جميع إخوانهم أن يجتمعوا بالنخيلة فى السنة الآتية][2] .

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان - وهو أمير على المدائن - يدعوه إلى ذلك فاستجاب له ودعا إليه سعد من أطاعه من أهل المدائن ، فبادروا إليه بالاستجابة والقبول ، وتمالؤا عليه وتواعدوا النخيلة فى التاريخ المذكور . وكتب سعد بن حذيفة إلى سليمان بن صرد بذلك ففرح أهل الكوفة من موافقة أهل المدائن لهم على ذلك ، وتنشطوا لأمرهم الذى تمالؤا عليه . فلما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بعد قليل ، طمعوا فى الأمر ، واعتقدوا أن أهل الشام قد ضعفوا ، ولم يبق من يقيم لهم أمرا ، فاستشاروا سليمان فى الظهور وأن يخرجوا إلى النخيلة قبل الميقات . فنهاهم عن ذلك وقال : لا ! حتى يأتى الأجل الذى واعدنا إخواننا فيه ، ثم هُم فى الباطن يعدون السلاح والقوة ولا يشعر بهم جمهور الناس .

وحينئذ عمد جمهور أهل الكوفة إلى عمرو بن حُرَيث نائب عبيد الله بن زياد على الكوفة ، فأخرجوه من القصر ، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف - الملقب دُحْرُوجة ، فبايع لعبد الله بن الزبير ، فهو يسد الأمور حتى تأتى نواب ابن الزبير .

فلما كان يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان من هذه السنة - أعنى سنة أربع وستين - قدم أميران إلى الكوفة من جهة ابن الزبير ؛ أحدهما : عبد الله بن يزيد الخَطْمى ، على الحرب والثغر ، والآخر إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التَيمى - على الخراج والأموال . وقد كان قدم قبلهما بجمعة واحدة للنصف من هذا الشهر المختار بن أبى عُبيد - وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذاب - فوجد الشيعة قد التفت على سُليمان بن صُرَد وعظّموه تعظيما زائدا ، وهم معدون للحرب فلما استقر المختار عندهم بالكوفة دعا إلى إمامة المهدى محمد بن على بن أبى طالب - وهو محمد بن الحنفية فى الباطن - ولقبه المهدى ، فاتبعه على ذلك كثير من الشيعة وفارقوا سُليمان بن صُرد ،

---

(١) من الآية : ٥٤ من سورة البقرة (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

وصارت الشيعة فرقتين ؛ الجمهور منهم مع سليمان يريدون الخروج على الناس ليأخذوا بثأر الحسين ، وفرقة أخرى مع المختار يريدون الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية ، وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه ، وإنما يتقوّلون عليه ليروجوا على الناس به ، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة ، وجاءت اليمين الصافية إلى عبد الله بن يزيد الخطمي - نائب ابن الزبير - بما تمالأ عليه فرقتا الشيعة على اختلافهما ، من الخروج على الناس والدعوة إلى ما يريدون ، وأشار من أشار عليه بأن يبادر إليهم ويحتاط عليهم ويبعث الشرط والمقاتلة فيقمعهم عما هم مجمعون عليه من إرادة الشر والفتنة .

فقام خطيباً في الناس وذكر في خطبته ما بلغه عن هؤلاء القوم ، وما أجمعوا عليه من الأمر ، وأن منهم من يريد الأخذ بثأر الحسين ، والله علموا أنني لست ممن قتله ، وإني والله لممن أصيب بقتله وكره قتله ، فرحمه الله ولعن قاتله ، وإني لا أتعرض لأحد قبل أن يبدأني بالشر ، وإن كان هؤلاء يريدون الأخذ بثأر الحسين فليعمدوا إلى ابن زياد فإنه هو الذي قتل الحسين وخيار أهله فليأخذوا منه بالثأر ، ولا يخرجوا بسلاحهم على أهل بلدهم ، فيكون فيه حتفهم واستئصالهم .

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة الأمير الآخر فقال : أيها الناس لا يغرنكم من أنفسكم كلام هذا المداهن ، إنا والله قد استيقنا من أنفسنا أن قوما يريدون الخروج علينا ، ولنأخذن الوالد بالولد والولد بالوالد ، والحميم بالحميم ، والعريف بما في عرافته ، حتى تدينوا بالحق وتذلوا للطاعة .

فوثب إليه المسيب بن نجبة الفزاري فقطع كلامه فقال : يا ابن الناكثين أ أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذل من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك ، وإنا لنرجو أن نلحقك بهما قبل أن تخرج من هذا القصر . وساعد المسيب بن نجبة من أصحاب إبراهيم بن محمد ابن طلحة جماعة من العمال ، وجرت فتنة وشيء كبير في المسجد ، فنزل عبد الله بن يزيد الخطمي عن المنبر وحاولوا أن يوفقوا بين الأميرين فلم تتفق لهم ذلك ، ثم ظهرت الشيعة أصحاب سليمان ابن صُرَد بالسلاح ، وأظهروا ما كان في أنفسهم من الخروج على الناس ، وركبوا مع سليمان بن صُرَد فقصدوا نحو الجزيرة ، وكان من أمرهم ما سنذكره .

وأما المختار بن عبيد الثقفي الكذاب ، فإنه قد كان بغيضا إلى الشيعة من يوم طعن الحسين وهو ذاهب إلى الشام بأهل العراق ، ملجأ إلى المدائن ، فأشار المختار على عمه - وهو نائب المدائن - بأن يقبض على الحسين ويبعثه إلى معاوية فيتخذ بذلك عنده اليد البيضاء ، فامتنع عمّ المختار من ذلك ، فأبغضته الشيعة بسبب ذلك ، فلما كان من أمر مُسلم بن عقيل ما كان وقتله ابن زياد ، كان المختار يومئذ بالكوفة ، فبلغ ابن زياد أنه يقول : لأقومنّ بنصرة مُسلم ولآخذن بثأره ، فأحضره بين يديه وضرب عينه بقضيب كان بيده فشترها[1] ، وأمر بسجنه . فلما بلغ أخته سجنه

---

(١) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى إلى أسفل

بكت وجزعت عليه ، وكانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع عنده فى إخراج المختار من السجن ،فبعث يزيد إلى ابن زياد : أن ساعة وقوفك على هذا الكتاب تخرج المختار بن عبيد من السجن ، فلم يمكن ابن زياد غير ذلك ، فأخرجه وقال له : إن وجدتك بعد ثلاثة أيام بالكوفة ضربت عنقك . فخرج المختار إلى الحجاز وهو يقول : والله لأقطعن أنامل عبيد الله بن زياد ، ولأقتلن بالحسين بن على على عدد من قتل بدم يحيى بن زكريا .

فلما استفحل أمر عبد الله بن الزبير بايعه المختار بن عبيد ، وكان من كبار الأمراء عنده ، ولما حاصره الحصين بن نمير مع أهل الشام، قاتل المختار دون ابن الزبير أشد القتال ، فلما بلغه موت يزيد بن معاوية واضطراب أهل العراق ، نقم على ابن الزبير فى بعض الأمر ، وخرج من الحجاز فقصد الكوفة فدخلها فى يوم الجمعة والناس يتهيئون للصلاة ، فجعل لا يمر بملأ إلا سلم عليه وقال : أبشروا بالنصر ودخل المسجد فصلى إلى سارية هنالك حتى أقيمت الصلاة ، ثم صلى من بعد الصلاة حتى صليت العصر ، ثم انصرف فسلم عليه الناس وأقبلوا إليه وعليه وعظموه ، وجعل يدعو إلى إمامة المهدى – محمد بن الحنفية ، ويظهر الانتصار لأهل البيت ، وأنه ما جاء إلا بصدد أن يقيم شعارهم ، ويظهر منارهم ، ويستوفى ثأرهم ، ويقول للناس الذين اجتمعوا على سليمان بن صرد من الشيعة – وقد خشى أن يبادروا إلى الخروج مع سليمان – فجعل يخذلهم ويستميلهم إليه ويقول لهم : إنى قد جئتكم من قبل ولى الأمر ، ومعدن الفضل ، ووصى الوصى ، والإمام المهدى – بأمر فيه الشفاء ، وكشف الغطاء ، وقتل الأعداء ، وتمام النعماء . وإن سليمان ابن صرد يرحمنا الله وإياه إنما هو غشمة[1] من الغشم ، وشن بال ليس بذى تجربة للأمور ، ولا له علم بالحروب ؛ إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، وإنى إنما أعمل على مثال مثل لى ، وأمر قد بين لى ، فيه عز وليكم ، وقتل عدوكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا منى وأطيعوا أمرى ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنى لكم بكل ما تأملون وتحبون كفيل .

فالتف عليه خلق كثير من الشيعة ، ولكن الجمهور منهم مع سليمان بن صرد ، فلما خرجوا مع سليمان إلى النخيلة قال عمر بن سعد بن أبى وقاص وشبث بن ربعى وغيرهما لعبد الله بن يزيد نائب الكوفة : إن المختار بن أبى عبيد أشد عليكم من سليمان بن صرد ، فبعث إليه الشرط فأحاطوا بداره فأخذ فذهب به إلى السجن مقيداً ، وقيل بغير قيد ، فأقام به مدة ومرض فيه . قال أبو مخنف : فحدثنى يحيى بن أبى عيسى أنه قال : دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزدى نعوده ونتعاهده . فسمعته يقول : أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار[2] جثار ، ومهند بتار ، بجمع من

---

(١) الغشمة من الرجال : اليابس من الهزال والشيخ الفانى أو المقارب الخطو – الذكر والأنثى

(٢) اللدن : اللين من كل شىء والخطار الذى يذهب فى كل ناحية ليثير من حوله

الأخيار ، وجموع من الأنصار ، ليسوا بميل[1] أغمار ، ولا بعزّل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين ، وجبرت صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت ثأر أولاد النبيين ، لم أبك على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا دنا . قال : وكان كلما أتيناه وهو فى السجن ، يردد علينا هذا القول حتى خرج .

ذكر هدم الكعبة وبنائها فى أيام ابن الزبير

قال ابن جرير : وفى هذه السنة هدم ابن الزبير الكعبة ، وذلك لأنه مال جدارها من رمى المنجنيق فهدم الجدار حتى وصل إلى أساس إبراهيم ، وكان الناس يطوفون ويصلون من وراء ذلك ، وجعل الحجر الأسود فى تابوت فى سرق[2] من حرير ، وادخر ما كان فى الكعبة من حُلِيّ وثياب وطيب عند الخزان ، حتى أعاد ابن الزبير بناءها على ما كان رسول الله ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل ، وذلك كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن ، من طرق عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحِجْر ، فإن قومك قصرت بهم النفقة ، ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا ، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر ، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا » . فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ فجزاه الله خيرا . ثم لما غلبه الحجاج بن يوسف فى سنة ثلاث وسبعين كما سيأتى ، هدم الحائط الشمالى وأخرج الحجر كما كان أولا ، وأدخل الحجارة التى هدمها فى جوف الكعبة فرصها فيه ، فارتفع الباب وسد الغربى ، وتلك آثاره إلى الآن ، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان فى ذلك ، ولم يكن بلغه الحديث . فلما بلغه الحديث قال : وددنا أنا تركناه وما تولى من ذلك .

وقد هم ابن المنصور المهدى أن يعيدها على ما بناها ابن الزبير ، واستشار الإمام مالك بن أنس فى ذلك ، فقال : إنى أكره أن يتخذها الملوك لعبة ـ يعنى يتلاعبون فى بنائها بحسب آرائهم ـ فهذا يرى رأى ابن الزبير ، وهذا يرى رأى عبد الملك بن مروان ، وهذا يرى رأيا آخر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال ابن جرير : وحج بالناس فى هذه السنة ـ عبد الله بن الزبير ، وكان عامله على المدينة أخوه عبيد الله ، وعلى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمى ، وعلى قضائها سعيد بن نمران ، وامتنع شريح أن يحكم فى زمان الفتنة . وعلى البصرة عمر بن معمر التيمى ، وعلى قضائها هشام

---

(١) ميل جمع أميل وهو الذى لا رمح معه ، والأغمار جمع غمر بضم فسكون وهو الذى لم يجرب الأمور
(٢) السرق : شقائق الحرير ، والفرد سرقة

ابن هُبَيرة ، وعلى خُراسان عبد الله بن خازم . وكان فى أواخر هذه السنة وقعة مرْج راهط كما قدمنا ، وقد استقر ملك الشام لمروان بن الحكم ، وذلك بعد ظفره بالضحاك بن قيس وقتله له فى الوقعة ، وقيل : إن فيها دخل مروان مصر وأخذها من نائبها الذى من جهة ابن الزبير ، وهو عبد الرحمن بن جحدر . واستقرت يد مروان على الشام ومصر وأعمالها ، والله أعلم .

[وقال الواقدى : لما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس فى هدمها فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك ، وقال ابن عباس : أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها ، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها ، ولكن أرى أن تصلح ما تهدم من بنيانها . ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام ، ثم غدا فى اليوم الرابع فبدأ ينقض الركن إلى الأساس ، فلما وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلا بالحِجْر مشبكا كأصابع اليدين ، فدعا ابن الزبير خمسين رجلا فأمرهم أن يحفروا ، فلما ضربوا بالمعاول فى تلك الأحجار المشبكة ارتجت مكة فتركه على حاله ، ثم أسس عليه البناء ، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض ، باب يدخل منه وباب يخرج منه ، ووضع الحجر الأسود بيده ، وشده بفضة لأنه كان قد تصدع ، وزاد فى وسع الكعبة عشرة أذرع ، ولطخ جدرانها بالمسك وسترها بالديباج ، ثم اعتمر من مساجد عائشة وطاف بالبيت وصلى وسعى ، وأزال ما كان حول الكعبة من الزبالة ، وما كان حولها من الدماء ، وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق ، واسود الركن وانصدع الحجر الأسود من النار التى كانت حول الكعبة ، وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة المتقدم ذكره والله أعلم][1] .

ثم دخلت سنة خمس وستين

فيها: اجتمع إلى سليمان بن صُرَد نحو من سبعة عشر ألفا ، كلهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله ، قال الواقدى : لما خرج الناس إلى النُّخَيلة كانوا قليلا ، فلم تعجب سليمان قلتهم ، فأرسل حكيم ابن مُنقِذ فنادى فى الكوفة بأعلى صوته : يا لثارات الحسين ، فلم يزل ينادى حتى بلغ المسجد الأعظم ، فسمع الناس فخرجوا إلى النُّخَيلة وخرج أشراف الكوفة فكانوا قريبا من عشرين ألفا أو يزيدون ، فى ديوان سليمان بن صُرد ، فلما عزم على المسير بهم لم يصف معه منهم سوى أربعة آلاف ، فقال المسيب بن نجبة لسليمان : إنه لا ينفعك المكاره ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، وباع نفسه لله عز وجل ، فلا تنتظرن أحداً وامض لأمرك فى جهاد عدوك واستعن بالله عليهم . فقام سليمان فى أصحابه [وقال : يا أيها الناس ! من كان إنما خرج لوجه الله وثواب

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

الآخرة فذلك منا ونحن منه ، ومن كان خروجه معنا للدنيا فليس منا ولا يصحبنا . فقال الباقون معه : ما للدنيا خرجنا ، ولا لها طلبنا ، فقيل له : أنسير إلى قتلة الحسين بالشام وقتلته عندنا بالكوفة كلهم مثل عمر بن سعد وغيره ؟ فقال سليمان : إن ابن زياد هو الذى جهز الجيش إليه وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عُدنا إلى أعدائه بالكوفة ، ولو قاتلتموهم أولا ـ وهم أهل مصركم ـ ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلا قد قتل أباه قد قتل أخاه أو حميمه ، فيقع التخاذل ، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد . فقالوا : صدقت فنادى فيهم : سيروا على اسم الله تعالى ، فساروا عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول][1]

وقال فى خطبته : من كان خرج منكم للدنيا ذهبها وزبرجدها فليس معنا مما يطلب شىء ، وإنما معنا سيوف على عواتقنا ، ورماح فى أكفنا ، وزاد يكفينا حتى نلقى عدونا . فأجابوه إلى السمع والطاعة والحالة هذه ، وقال لهم : عليكم بابن زياد الفاسق أولا ، فليس له إلا السيف ، وها هو قد أقبل من الشام قاصداً العراق فصمم الناس معه على هذا الرأى ، فلما أزمعوا على ذلك بعث عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد أمراء الكوفة من جهة ابن الزبير ـ إلى سليمان بن صُرَد يقولان له : إنا نحب أن تكون أيدينا واحدة على ابن زياد ، وإنهم يريدون أن يبعثوا معهم جيشا ليقويهم على ماهم قد قصدوا له ، وبعثوا بريدا بذلك ينتظرهم حتى يقدموا عليه ، فتهيأ سليمان ابن صُرد لقدومهم عليه فى رءوس الأمراء ، وجلس فى أبهته والجيوش محدقة به ، وأقبل عبد الله ابن يزيد وإبراهيم بن طلحة فى أشراف أهل الكوفة من غير قتلة الحسين ، لئلا يطمعوا فيهم ، وكان عمر بن سعد بن أبى وقاص فى هذه الأيام كلها لا يبيت إلا فى قصر الإمارة عند عبد الله ابن يزيد خوفا على نفسه ، فلما اجتمع الأميران عند سليمان بن صُرد قالا له وأشارا عليه أن لا يذهبوا حتى تكون أيديهما واحدة على قتال ابن زياد ، ويجهزوا معهم جيشاً ، فإن أهل الشام جمع كثير وجم غفير ، وهم يحاجفون[2] عن ابن زياد ، فامتنع سليمان من قبول قولهما وقال : إنا خرجنا لأمر لا نرجع عنه ولا نتأخر فيه .

فانصرف الأميران راجعين إلى الكوفة ، وانتظر سليمان بن صُرد وأصحابه ـ أصحابهم الذين كانوا قد واعدوهم من أهل البصرة وأهل المدائن فلم يقدموا عليهم ولا واحد منهم ، فقام سليمان فى أصحابه خطيباً وحرضهم على الذهاب لما خرجوا عليه ، وقال : لو قد سمع إخوانكم بخروجكم للحقوكم سراعا . فخرج سليمان وأصحابه من النُّخَيلة يوم الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول سنة خمس وستين ، فسار بهم مراحل ، ما يتقدمون مرحلة إلى نحو الشام إلا تخلف عنه طائفة من الناس

(١) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ (٢) أى يقاتلون ويعارضون .

الذين معه ، فلما مروا بقبر الحسين صاحوا صيحة واحدة، وتباكوا وباتوا عنده ليلة يصلون ويدعون، وظلوا يوما يترحمون عليه ، ويستغفرون له ويترضّون عنه ، ويتمنون أن لو كانوا ماتوا معه شهداء قلت : لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة ، لكان أنفع له وأنصر من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد أربع سنين . ولما أرادوا الانصراف جعل لا يَرِيم[1] أحد منهم حتى يأتى القبر ، فيترحّم عليه ويستغفر له ، حتى جعلوا يزدحمون أشد من ازدحامهم عند الحجر الأسود .

ثم ساروا قاصدين الشام ، فلما اجتازوا بقَرْقِيسياء تحصّن منهم زُفَر بن الحارث ، فبعث إليه سليمان بن صُرَد : إنا لم نأت لقتالكم ، فأخرج إلينا سَوْقاً[2] فإنا إنما نقيم عندكم يوماً أو بعض يوم ، فأمر زُفَر بن الحارث أن يخرج إليهم سَوْق ، وأمر الرسول إليه وهو المسيّب بن نَجَبَة بفرس وألف درهم . فقال : أما المال فلا . وأما الفرس فنعم . وبعث زُفَر بن الحارث إلى سليمان بن صُرد ورؤُس الأمراء الذين معه - إلى كل واحد عشرين جزوراً وطعاماً وعَلَفاً كثيراً ، ثم خرج زُفَر ابن الحارث فشيعهم ، وسار مع سليمان بن صُرد ، وقال له : إنه قد بلغنى أن أهل الشام قد جهزوا جيشاً كثيفاً ، وعدداً كثيراً ، مع حُصين بن نُمير ، وشرحبيل بن ذى الكَلاع ، وأدهم بن محرز الباهلى ، وربيعة بن مُخارق الغَنَوى ، وجبَلة بن عبد الله الخثعمى . فقال سليمان بن صُرد : على الله توكلنا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ثم عرض عليهم زُفَر أن يدخلوا مدينته ، أو يكونوا عند بابها ، فإن جاءهم أحد كان معهم عليه ، فأبوا أن يقبلوا وقالوا : قد عَرض علينا أهل بلدنا مثل ذلك فامتنعنا . قال : فإذ أبيتم ذلك فبادروهم إلى عَين الوَرْدة ، فيكون الماء والمدينة والأسواق والسباق خلف ظهوركم ، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه ، ثم أشار عليهم بما يعتمدونه فى حال القتال [فقال : ولا تقاتلوهم فى فضاء ، فإنهم أكثر منكم عدداً فيحيطون بكم ، فإنى لا أرى معكم رجالا ، والقوم ذوو رجال وفرسان ، ومعهم كراديس فاحذروهم][3] ، فأثنى عليه سليمان بن صُرد والناس خيراً ، ثم رجع عنهم ، وسار سليمان بن صرد ، فبادر إلى عين الوَرْدة فنزل غربيها ، وأقام هناك قبل وصول أعدائه إليه ، واستراح سليمان وأصحابه واطمأنوا .

وقعة عين وردة

فلما اقترب أهل الشام إليهم خطب سليمان أصحابه فرغبهم فى الآخرة وزهدهم فى الدنيا ، وحثهم على الجهاد ، وقال : إن قُتلت ، فالأمير عليكم المسيّب بن نَجَبَة ، فإن قتل فعبد الله بن سَعد بن نفيل،

---

(١) أى : لا يبرح ولا ينصرف (٢) أى مدداً مما يباع ويشترى كالطعام ونحوه وعلف الدواب .

(٣) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ ، والكردوس : القطعة الكثيفة من الخيل .

فإن قتل فعبد الله بن والٍ ، فإن قتل فرفاعة بن شداد . ثم بعث بين يديه المسيّب بن نجبة فى خمسمائة فارس ، فأغاروا على جيش ابن ذى الكلاع وهم غارون ، فقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين ، واستاقوا نعماً وأتى الخبر إلى عبيد الله بن زياد ، فأرسل بين يديه الحصين بن نمير فى اثنى عشر ألفاً ، فصبّح سليمان بن صرد وجيشه واقفون ، فى يوم الأربعاء لثمان بقين من جمادى الأولى ، وحصين بن نمير قائم فى اثنى عشر ألفاً ، وقد تهيأ كل من الفريقين لصاحبه ؛ فدعا الشاميون أصحاب سليمان إلى الدخول فى طاعة مروان بن الحكم ، ودعا أصحاب سليمان الشاميين إلى أن يسلموا إليهم عبيد الله بن زياد فيقتلونه عن الحسين ، وامتنع كل من الفريقين أن يجيب إلى ما دعا إليه الآخر ، فاقتتلوا قتالا شديداً عامة يومهم إلى الليل ، وكانت الدائرة فيه للعراقيين على الشاميين ، فلما أصبحوا أصبح ابن ذى الكلاع ، وقد وصل إلى الشاميين فى ثمانية عشر ألف فارس ، وقد أنبه وشتمه ابن زياد ، فاقتتل الناس فى هذا اليوم قتالا لم ير الشيب والمرد مثله قطّ ، لا يحجز بينهم إلا أوقات الصلوات إلى الليل .

فلما أصبح الناس من اليوم الثالث وصل إلى الشاميين أدهم بن محرز فى عشرة آلاف ، وذلك فى يوم الجمعة ، فاقتتلوا قتالا شديداً إلى حين ارتفاع الضحى ، ثم استدار أهل الشام بأهل العراق وأحاطوا بهم من كل جانب ، فخطب سليمان بن صرد الناس وحرضهم على الجهاد ، فاقتتل الناس قتالا عظيما جداً ثم ترجّل سليمان بن صرد وكسر جفن سيفه ، ونادى : يا عباد الله ! من أراد الرواح إلى الجنة والتوبة من ذنبه ، والوفاء بعهده — فليأت إلىّ ، فترجّل معه ناس كثيرون وكسروا جفون سيوفهم ، وحملوا حتى صاروا فى وسط القوم . وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة حتى خاضوا فى الدماء ، وقتل سليمان بن صرد أمير العراقيين ، رماه رجل يقال له يزيد بن الحصين بسهم فوقع ، ثم وثب ثم وقع ، ثم وثب ثم وقع ، وهو يقول : فزت ورب الكعبة فأخذ الراية المسيّب بن نجبة فقاتل بها قتالا شديداً وهو يقول :

قد علمت ميالة الذوائب ... واضحة الّلبات والترائب

أنى غداة الروع والتغالب ... أشجع من ذى لبدٍ مواثب

• قطّاع أقران مخوف الجانب •

ثم قاتل قتالا شديداً فقضى ابن نجبة نحبه ، ولحق فى ذلك الموقف صحبه — رحمهم الله •

فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل فقاتل قتالا شديداً أيضاً ، وحمل حينئذ ربيعة بن مخارق على أهل العراق حملة منكرة ، وتبارز هو وعبد الله بن سعد بن نفيل ، ثم اتحدا فحمل ابن أخى ربيعة على عبد الله بن سعد فقتله . ثم احتمل عمّه ، فأخذ الراية عبد الله بن والٍ ، فحرض الناس على الجهاد وجعل يقول : الرواح إلى الجنة — وذلك بعد العصر — وحمل بالناس ففرق من كان حوله

ثم قتل - وكان من الفقهاء المفتيين - قتله أدهم بن محرز الباهلى أمير حرب الشاميين ساعتئذ ، فأخذ الراية رفاعة بن شداد فانحاز بالناس ، وقد دخل الظلام ، ورجع الشاميون إلى رحالهم ، وانشمر[1] رفاعة بمن بقى معه راجعاً إلى بلاده ، فلما أصبح الشاميون إذا العراقيون قد كروا راجعين إلى بلادهم ، فلم يبعثوا وراءهم طلباً ولا أحداً ؛ لما لقوا منهم من القتل والجراح . فلما وصلوا إلى هيت إذا سعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن ، قاصدين إلى نصرتهم ، فلما أخبروه بما كان من أمرهم وما حل بهم ، ونعوا إليه أصحابهم ترحموا عليهم واستغفروا لهم وتباكوا على إخوانهم ، وانصرف أهل المدائن إليها ، ورجع راجعة أهل الكوفة إليها ، وقد قتل منهم خلق كثير وجم غفير ، وإذا المختار بن أبى عبيد كما هو فى السجن لم يخرج منه ، فكتب إلى رفاعة ابن شداد يعزيه فيمن قتل منهم ويترحم عليهم ويغبطهم بما نالوا من الشهادة ، وجزيل الثواب ، [ويقول : مرحباً بالذين أعظم الله أجورهم ورضى عنهم ، والله ما خطا منهم أحد خطوة إلا كان ثواب الله له فيها أعظم من الدنيا وما فيها ، وإن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه فى أرواح النبيين والشهداء والصالحين ، وبعد فأنا الأمير المأمون ، قاتل الجبارين والمفسدين إن شاء الله ، فأعدوا واستعدوا وأبشروا ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، والطلب بدماء أهل البيت . وذكر كلاماً كثيراً فى هذا المعنى][2] .

وقد كان قبل قدومهم أخبر الناس بهلاكهم عن رئِيَّه الذى كان يأتى إليه من الشياطين ، فإنه قد كان يأتى إليه شيطان فيوحى إليه قريباً مما كان يوحى شيطان مُسَيلمة إليه ، وكان جيش سليمان ابن صرد وأصحابه يسمى بجيش التوابين - رحمهم الله - .

وقد كان سليمان بن صُرَد الخزرجى صحابياً جليلا نبيلا عابداً زاهداً ، روى عن النبى ﷺ أحاديث فى الصحيحين وغيرهما ، وشهد مع علىّ صفين ، وكان أحد من كان يجتمع الشيعة فى داره لبيعة الحسين ، وكتب إلى الحسين فيمن كتب بالقدوم إلى العراق ، فلما قدمها تخلوا عنه وقتل بكربلاء بعد ذلك ، ورأى هؤلاء أنهم كانوا سبباً فى قدومه ، وأنهم خذلوه حتى قتل هو وأهل بيته ، فندموا ، على ما فعلوا معه ، ثم اجتمعوا فى هذا الجيش وسَمَّوا جيشهم جيش التوابين ، وسموا أميرهم سليمان بن صرد - أمير التوابين ، فقتل سليمان رضى الله عنه فى هذه الواقعة بعين وَرْدة سنة خمس وستين ، وقيل سنة سبع وستين ، والأول أصح . وكان عمره يوم قتل ثلاثا وتسعين سنة - رحمه الله . وحمل رأسه ورأس المسيّب بن نجَبة إلى مروان بن الحكم بعد

---

(١) انشمر : أى تهيأ (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

الواقعة وكتب أمراء الشاميين إلى مروان بما فتح الله عليهم وأظفرهم من عدوهم ، فخطب الناس وأعلمهم بما كان من أمر الجنود ومن قتل من أهل العراق ، وقد قال : أهلك الله رءوس الضلال: سليمان بن صُرَد وأصحابه ، وعلق الرءوس بدمشق ، وكان مروان بن الحكم قد عهد بالأمر من بعده إلى ولديه: عبد الملك ، ثم من بعده عبد العزيز ، وأخذ بيعة الأمراء على ذلك في هذه السنة ، قاله ابن جرير وغيره .

وفيها دخل مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد الأشدق إلى الديار المصرية فأخذاها من نائبها الذي كان لعبد الله بن الزبير ، وهو عبد الرحمن بن جحْدَم . وكان سبب ذلك أن مروان قصدها فخرج إليه نائبها ابن جحدم فقابله مروان ليقاتله فاشتغل به ، وخلص عمرو بن سعيد بطائفة من الجيش من وراء عبد الرحمن بن جحدم فدخل مصر فملكها ، وهرب عبد الرحمن ودخل مروان إلى مصر فملكها ، وجعل عليها ولده عبد العزيز .

وفيها: بعث ابن الزبير أخاه مصعبا ليفتح له الشام ، فبعث إليه مروان عمرو بن سعيد فتلقاه إلى فلسطين ، فهرب منه مصعب بن الزبير وكر راجعا ولم يظفر بشيء . واستقر ملك الشام ومصر لمروان .

[وقال الواقدي : إن مروان حاصر مصر فخندق عبد الرحمن بن جَحْدَم على البلد خندقا ، وخرج في أهل مصر إلى قتاله ، وكانوا يتناوبون القتال ويستريحون ، ويسمى ذلك يوم التراويح ، واستمر القتل في خواص أهل البلد فقتل منهم خلق كثير ، وقتل يومئذ عبد الله بن يزيد بن معدى كرب الكلاعي أحد الأشراف . ثم صالح عبد الرحمن مروان على أن يخرج إلى مكة بماله وأهله ، فأجابه مروان إلى ذلك ، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان بيده ، وتفرق الناس وأخذوا في دفن موتاهم والبكاء عليهم ، وضرب مروان عنق ثمانين رجلا تخلفوا عن مبايعته ، وضرب عنق الأُكَيدر بن حملة اللخمي ، وكان من قتلة عثمان ، وذلك في نصف جمادى الآخر يوم توفي عبد الله بن عمرو بن العاص ، فما قدروا أن يخرجوا بجنازته فدفنوه في داره . واستولى مروان على مصر وأقام بها شهراً ، ثم استعمل عليها ولده عبد العزيز ، وترك عنده أخاه بشر بن مروان وموسى بن نصير وزيراً له ، وأوصاه بالاحسان إلى الأكابر ورجع إلى الشام][1] .

وفيها : جهز مروان جيشين أحدهما مع حُبيش بن دُلْجة القيني ليأخذ له المدينة ، وكان من أمره ما سنذكره ، والآخر مع عبيد الله بن زياد إلى العراق لينتزعه من نواب ابن الزبير ، فلما كانوا

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ

بعض الطريق ، لقوا جيش التوابين مع سليمان بن صُرد وكان من أمرهم ما تقدم ذكره . واستمر جيش الشاميين ذاهباً إلى العراق ، فلما كانوا بالجزيرة بلغهم موت مروان بن الحكم .

وكانت وفاته في شهر رمضان من هذه السنة . وكان سبب موته : أنه تزوج بأم خالد امرأة يزيد بن معاوية ، وهي أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة ، وإنما أراد مروان بتزويجه إياها ليصغر ابنها خالداً في أعين الناس ، فإنه قد كان في نفوس كثير من الناس أن يملكوه بعد أخيه معاوية ، فتزوج أمه ليصغر أمره ، فبينما هو ذات يوم داخل إلى عند مروان ، إذ جعل مروان يتكلم فيه عند جلسائه ، فلما جلس قال له فيما خاطبه به : يا ابن الرطبة الإست[1] ، فذهب خالد إلى أمه فأخبرها بما قال له ، فقالت : اكتم ذلك ولا تعلمه أنك أعلمتني بذلك ، فلما دخل عليها مروان قال لها : هل ذكرني خالد عندك بسوء ؟ فقالت له : وما عساه يقول لك وهو يحبك ، ويعظمك ؟ ثم إن مروان رقد عندها ، فلما أخذه النوم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه وتحاملت عليها هي وجواريها حتى مات غما ، وكان ذلك في ثالث شهر رمضان سنة خمس وستين بدمشق ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وقيل إحدى وثمانون سنة ، وكانت إمارته تسعة أشهر ، وقيل عشرة أشهر إلا ثلاثة أيام .

وهذه ترجمة مروان بن الحكم

جد خلفاء بني أمية الذين كانوا بعده[2]

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، أبو عبد الملك ، ويقال أبو الحكم ـ ويقال أبو القاسم ، وهو صحابي عند طائفة كثيرة ، لأنه ولد في حياة النبي ﷺ ، وروى عنه في حديث صلح الحديبية ، وفي رواية في صحيح البخاري عن مروان والمسور بن مخرمة عن جماعة من الصحابة الحديث بطوله ، وروى مروان عن عمر وعثمان وكان كاتبه ـ أي كان كاتب عثمان ـ وعلي وزيد بن ثابت وبسرة بنت صفوان الأزدية وكانت حماته . وقال الحاكم أبو أحمد : كانت خالته ، ولا منافاة بين كونها حماته وخالته . وروى عنه ابنه عبد الملك وسهل بن سعد وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلي بن الحسين زين العابدين ومجاهد وغيرهم . قال الواقدي ومحمد بن سعد : أدرك النبي ﷺ ولم يحفظ عنه شيئاً ، وكان عمره ثمان سنين حين توفي النبي ﷺ . وذكره بن سعد في الطبقة الأولى من التابعين . وقد كان لمروان من سادات قريش وفضلائها ، روى ابن عساكر وغيره : أن عمر بن الخطاب خطب امرأة إلى أمها فقالت : قد خطبها جرير بن عبد الله البجلي وهو سيد شباب المشرق ،

(١) قال في الطبري : يقصد به أن يسقطه من أعين أهل الشام (٢) في نسخة أحد خلفاء بني أمية

ومروان بن الحكم وهو سيد شباب قريش ، وعبد الله بن عمر وهو من قد علمتم ، فقالت المرأة : أجادٌ يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قالت : قد زوجناك يا أمير المؤمنين . وقد كان عثمان ابن عفان يكرمه ويعظمه ، وكان كاتب الحكم بين يديه ، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار ، وبسببه حصر عثمان بن عفان فيها . وألح عليه أولئك أن يسلم مروان إليهم فامتنع عثمان أشد الامتناع ، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالا شديداً ، وقتل بعض الخوارج ، وكان على الميسرة يوم الجمل ، ويقال إنه رمى طلحة بسهم فى ركبته فقتله ، فالله أعلم .

وقال أبو الحكم : سمعت الشافعى يقول : كان علىٌّ يوم الجمل حين انهزم الناس - يكثر السؤال من مروان ، فقيل له فى ذلك فقال : إنه يعطفنى عليه رحم ماسّة ، وهو سيد من شباب قريش . وقال ابن المبارك عن جرير بن حازم عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر ، أنه قال لمعاوية : من تركت لهذا الأمر من بعدك ؟ فقال : القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، الشديد فى حدود الله - مروان بن الحكم . وقد استنابه على المدينة غير مرة ، يعزله ثم يعيده إليها ، وأقام للناس الحج فى سنين متعددة . وقال حنبل عن الإمام أحمد قال : يقال كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب . وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول - وذكر مروان يوما - فقال قال مروان : قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة ثم أصبحت فيما أنا فيه ، من إهراق الدماء وهذا الشأن . وقال إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد وغيره قال : كان مروان إذا ذكر الاسلام قال :

بنعمة ربى لا بما قدمت يدى ولا بتراثى إننى كنت خاطئا

وقال الليث عن يزيد بن حبيب عن سالم أبى النضر أنه قال : شهد مروان جنازة ، فلما صلّى عليها انصرف ، فقال أبو هريرة : أصاب قيراطاً وحرم قيراطاً ، فأخبر بذلك مروان فأقبل يجرى حتى بدت ركبتاه ، فقعد حتى أذن له . وروى المدائنى عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد أن مروان كان أسلف علىّ بن الحسين حتى يرجع إلى المدينة - بعد مقتل أبيه الحسين - ستة آلاف دينار ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه عبد الملك أن لا يسترجع من علىّ بن الحسين شيئاً ، فبعث إليه عبد الملك بذلك فامتنع من قبولها . فألح عليه فقبلها . وقال الشافعى : أنبأنا حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان ولا يعيدانها ، ويعتدّان بها . وقد روى عبد الرزاق عن الثورى عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : أول من قدم الخطبة على الصلاة يوم العيد مروان ، فقال له رجل : خالفت السنة ، فقال له مروان : إنه قد ترك ما هنالك ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . قالوا : ولما كان نائبا بالمدينة كان إذا وقعت معضلة جمع من عنده

من الصحابة فاستشارهم فيها . قالوا : وهو الذى جمع الصِّيعان فأخذ بأعدلها فنسب إليه الصاع ، فقيل: صاع مروان . وقال الزبير بن بكار : حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنى ابن أبى على اللهبى عن إسماعيل بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال : خرج أبو هريرة من عند مروان فلقيه قوم قد خرجوا من عنده فقالوا له : يا أبا هريرة ! إنه أشهدنا الآن على مائة رقبة أعتقها الساعة ، قال : فغمز أبو هريرة يدى وقال : يا أبا سعيد ! بك من كسب طيب خير من مائة رقبة . قال الزبير : البك : الواحد.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ . « إذا بلغ بنو أبى فلان ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دُولا ، ودين الله دَخلا ، وعباد الله خولا »[1] . ورواه أبو يعلى عن زكريا بن زحمويه عن صالح بن عمر عن مطرف عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا دين الله دَخلا ، وعباد الله خَولا ، ومال الله دُولا » . وقد رواه الطبرانى عن أحمد بن عبدالوهاب عن أبى المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن راشد بن سعد عن أبى ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلا .. » وذكره ، وهذا منقطع ، ورواه العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة من قوله : «إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا» فذكره . ورواه البيهقى وغيره من حديث ابن لهيعة عن أبى قبيل عن ابن وهب عن معاوية وعبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين اتخذوا مال الله بينهم دولا ، وعباد الله خَولا ، وكتاب الله دَغَلا ، فإذا بلغوا ستة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لَوْك تمرة ، وأن رسول الله ﷺ ذكر عبد الملك بن مروان فقال : أبو الجبابرة الأربعة » . وهذه الطرق كلها ضعيفة .

وروى أبو يعلى وغيره من غير وجه عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة : « أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام أن بنى الحكم يرقون على منبره وينزلون ، فأصبح كالمتغيظ وقال : رأيت بنى الحكم ينزون[2] على منبرى نزو القردة ، فما رؤى رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا بعد ذلك حتى مات » ، ورواه الثورى عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا ، وفيه « فأوحى الله إليه إنما هى دنيا أعطوها » . فقرت عينه » وهى قوله (وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ)[3] يعنى بلاء للناس واختباراً ، وهذا مرسل وسنده إلى سعيد ضعيف . وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة موضوعة ، فلهذا أضربنا صفحا عن إيرادها لعدم صحتها .

---

(١) دولا : أى يتداولونه بينهم مرة لهذا ، ومرة لهذا . ودخلا : أى مكرا وخديعة ، وخولا : أى خدما وأتباعا . (٢) أى يثبون . (٣) من الآية : ٦٠ من سورة الإسراء

[وقد كان أبوه الحكم من أكبر أعداء النبي ﷺ ، وإنما أسلم يوم الفتح ، وقدم الحكم المدينة ثم طرده النبي ﷺ إلى الطائف ، ومات بها . ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان لأنه زوّر على لسانه كتابا إلى مصر بقتل أولئك الوفد ، ولما كان متوليا على المدينة لمعاوية كان يسب عليا كل جمعة على المنبر ، وقال له الحسن بن علي : لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه فقال : لعن الله الحكم وما ولد ، والله أعلم][1] .

وقد تقدم أن حسّان بن مالك لما قدم عليه مروان أرض الجابية ، أعجبه إتيانه إليه ، فبايع له وبايع أهل الأردن على أنه إذا انتظم له الأمر نزل عن الإمرة لخالد بن يزيد ، ويكون لمروان إمرة حمص ، ولعمرو بن سعيد نيابة دمشق . وكانت البيعة لمروان يوم الاثنين النصف من ذي القعدة سنة أربع وستين ، قاله الليث بن سعد وغيره . وقال الليث : وكانت وقعة مرج راهط في ذي الحجة من هذه السنة بعد عيد النحر بيومين ، قالوا : فغلب الضحاك بن قيس واستوثق له ملك الشام ومصر ، فلما استقر ملكه في هذه البلاد بايع من بعده لولده عبد الملك ، ثم من بعده لولده عبد العزيز ـ والد عمر بن عبد العزيز . وترك البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية ؛ لأنه كان لا يراه أهلا للخلافة ، ووافقه على ذلك مالك بن حسان ، وإن كان خالا لخالد بن يزيد ، وهو الذي قام بأعباء بيعة عبد الملك ثم إن أم خالد دبرت أمر مروان فسمته، ويقال: بل وضعت على وجهه وهو نائم وسادة فمات مخنوقا، ثم إنها أعلنت الصراخ هي وجواريها وصحن: مات أمير المؤمنين فجأة. ثم قام من بعده ولده عبد الملك بن مروان كما سنذكره . وقال عبد الله بن أبي مذعور : حدثني بعض أهل العلم قال : كان آخر ما تكلم به مروان : وجبت الجنة لمن خاف النار ، وكان نقش خاتمه : العزة لله . وقال الأصمعي : حدثنا عدى بن أبي عمار عن أبيه عن حرب بن زياد قال : كان نقش خاتم مروان ـ آمنت بالعزيز الرحيم .

وكانت وفاته بدمشق عن إحدى ـ وقيل : ثلاث وستين سنة . وقال أبو معشر: كان عمره يوم توفي إحدى وثمانين سنة ، وقال خليفة : حدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده قال : مات مروان بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين ، وهو ابن ثلاث وستين ، وصلى عليه ابنه عبد الملك ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما ، وقال غيره : عشرة أشهر . وقال ابن أبي الدنيا وغيره : كان قصيراً أحمر الوجه أوقص[2] دقيق العنق كبير الرأس واللحية وكان يلقب: خيط باطل . قال ابن عساكر وذكر سعيد بن كثير بن عفير أن مروان مات حين

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

(٢) أي قصير العنق ، والوقص ـ بالتحريك ـ قصر العنق، يقال : وقص ـ كفرح ـ فهو أوقص .

انصرف من مصر بالصنبرة : ويقال بلد ، وقد قيل : إنه مات بدمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير .

[وكان كاتبه عبيد بن أوس ، وحاجبه المنهال مولاه ، وقاضيه أبو إدريس الخولانى ، وصاحب شرطته يحيى بن قيس الغسانى ، وكان له من الولد عبد الملك ، وعبد العزيز ، ومعاوية . وغير هؤلاء . وكان له عدة بنات من أمهات شتى][1] .

خلافة عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة فى حياة أبيه ، فلما مات أبوه فى ثالث رمضان منها جددت له البيعة بدمشق ومصر وأعمالها ، فاستقرت يده على ما كانت يد أبيه عليه وقد كان أبوه قبل وفاته بعث بعثين أحدهما مع عبيد الله بن زياد إلى العراق لينتزعها من نواب ابن الزبير ، فلقى فى طريقه جيش التوابين مع سليمان بن صُرَد عند عين الوردة ، فكان من أمرهم ما تقدم ، من ظفره بهم ، وقتله أميرهم وأكثرهم . والبعث الآخر مع حبيش بن دُلْجَة إلى المدينة ليأخذها من نائب ابن الزبير . فسار نحوها ، فلما انتهى إليها هرب نائبها جابر بن الأسود بن عوف ، وهو ابن أخى عبد الرحمن بن عوف ، فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير ـ وهو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة جيشا من البصرة إلى ابن دُلجة بالمدينة ، فلما سمع بهم حُبيش بن دُلجة سار إليهم .

وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائبا عن المدينة ، وأمره أن يسير فى طلب حبيش ، فسار فى طلبهم حتى لحقهم بالربذة[2] فرمى يزيد بن سِياه حبيشا بسهم فقتله ، وقتل بعض أصحابه وهزم الباقون ، وتحصن منهم خمسمائة فى المدينة ثم نزلوا على حكم عباس بن سهل فقتلهم صبراً ، ورجع فَلُّهم إلى الشام .

[قال ابن جرير : ولما دخل يزيد بن سِياه الأسوارى قاتل حبيش بن دلجة ـ إلى المدينة مع عباس بن سهل ـ كان عليه ثياب بياض وهو راكب برذونا أشهب ، فما لبث أن اسودت ثيابه ودابته مما يتمسح الناس به ، ومن كثرة ما صبوا عليه من الطيب والمسك .

وقال ابن جرير : وفى هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة ، وفيها قتل نافع بن الأزرق وهو رأس الخوارج ورأس أهل البصرة مسلم بن عبيس فارس أهل البصرة ثم قتله ربيعة السلوطى وقتل بينهما نحو خمسة أمراء . وقتل فى وقعة الخوارج قرة بن إياس المزنى أبو معاوية ، وهو من الصحابة . ولما قتل نافع بن الأزرق رأست الخوارج عليهم عبيد الله بن ماجور ، فسار بهم إلى

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعد النسخ .

(٢) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها وهى قريبة من ذات عرق .

المدائن فقتلوا أهلها، ثم غلبوا على الأهواز وغيرها ، وجبَوْا الأموال وأتتهم الأمداد من اليمامة والبحرين ، ثم ساروا إلى أصفهان وعليها عتاب بن وَرقاء الرياحى ، فالتقاهم فهزمهم ، ولما قتل أمير الخوارج ابن ماحوز - كما سنذكر - أقاموا عليهم قطرى بن الفجاءة أميراً][1] .

ثم أورد ابن جرير قصة قتالهم مع أهل البصرة بمكان يقال له دولاب[2]، وكانت الدولة للخوارج على أهل البصرة . وخاف أهل البصرة من الخوارج أن يدخلوا البصرة ، فبعث ابن الزبير فعزل نائبها عبد الله بن الحارث المعروف ببَبّه ، بالحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقباع ، وأرسل ابنُ الزبير المهلب بن أبى صفرة الأزدى على عمل خراسان ، فلما وصل إلى البصرة قالوا له : إن قتال الخوارج لايصلح إلا لك ، فقال : إن أمير المؤمنين قد بعثنى إلى خراسان ، ولست أعصى أمره . فاتفق أهل البصرة مع أميرهم الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، على أن كتبوا كتابا على لسان ابن الزبير إلى المهلب يأمره فيه بالمسير للخوارج ليكفهم من الدخول إلى البصرة ، فلما قرىء عليه الكتاب اشترط على أهل البصرة أن يقوّى جيشه من بيت مالهم ، وأن يكون له ما غلب عليه من أموال الخوارج ، فأجابوه إلى ذلك . ويقال : إنهم كتُبوا بذلك إلى ابن الزبير فأمضى لهم ذلك وسوغه ، فسار إليهم المهلب ، وكان شجاعا بطلا صنديداً ، فلما أراد قتال الخوارج أقبلوا إليه يزفون فى عدة لم ير مثلها من الدروع والزرود والخيول والسلاح ، وذلك أن لهم مدة يأكلون تلك النواحى ، وقد صار لهم تجمل عظيم مع شجاعة لاتدانى وإقدام لايسامى ، وقوة لاتجارى ، وسبق إلى حومة الوغى فلما تواقف الناس بمكان يقال له :سَلّى وَسَلَّبْرَى[3] ، اقتتلوا قتالا شديداً عظيما ، وصبر كل من الفريقين صبراً باهراً ، وكان فى نحو من ثلاثين ألفا ، ثم إن الخوارج حملوا حملة منكرة ، فانهزم أصحاب المهلب لايلوى والد على ولده ولايلتفت أحد إلى أحد ، ووصل إلى البصرة فَلاّلهم وأما المهلب فإنه سبق المنهزمين فوقف لهم بمكان مرتفع ، وجعل ينادى : إلىّ عباد الله ، فاجتمع إليه من جيشه ثلاثة آلاف من الفرسان الشجعان ، فقام فيهم خطيبا فقال فى خطبته : أما بعد أيها الناس ، فإن الله تعالى ربما يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ، ولعمرى ما بكم الآن من قلة ، وأنتم فرسان الصبر وأهل النصر ، وما أحب أن أحداً ممن انهزموا معكم الآن (وَلَوْ خرجوا فِيكُم مازَادُوكُم إلاّ خَبَالا)[4] ثم قال : عزمت على كلّ رجل منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه ، ثم امشوا بنا إلى عسكرهم فإنهم الآن آمنون ،وقد خرجت خيولهم فى طلب إخوانكم

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

(٢) من قرى الرى من أرض الأهواز .

(٣) فى نسخة : سل وسل أبرى

(٤) من الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

فوالله إنى لأرجو أن لا ترجع خيولهم إلا وقد استبحتم عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم . ففعل الناس ذلك ، فزحف بهم المهلب بن أبى صفرة على معشر الخوارج فقتل منهم خلقا كثيراً نحواً من سبعة آلاف ، وقتل عبيد الله بن الماجور فى جماعة كثيرة من الأزارقة ، واحتاز من أموالهم شيئا كثيراً ، وقد أرصد المهلب خيولا بينه وبين الذين يرجعون من طلب المنهزمين ، فجعلوا يقتطعون دون قومهم ، وانهزم فلهم إلى كَرْمان وأرض أصفهان ، وأقام المهلب بالأهواز حتى قدم مصعب بن الزبير إلى البصرة ، وعزل عنها الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة كما سيأتى قريباً .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة وجه مروان بن الحكم - قبل مهلكه - ابنه محمداً إلى الجزيرة ، وذلك قبل مسيره إلى مصر . قلت : محمد بن مروان هذا هو والد مروان الحمار ، وهو مروان بن محمد بن مروان ، وهو آخر خلفاء بنى أمية ، ومن يده استلبت الخلافة العباسيون ، كما سيأتى .

قال ابن جرير : وفى هـذه السنة عزل ابن الزبير أخاه عبد الله عن إمرة المدينة وولاها أخاه مصعبا ، وذلك أن عبيد الله خطب الناس فقال فى خطبته : وقد رأيتم ما صنع الله بقوم صالح فى ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فلما بلغت أخاه قال : إن هـذا لهو التكلف ، وعزله ، ويسمى عبيد الله مقوم الناقة لذلك . قال ابن جرير : وفى آخرها عزل ابن الزبير عن الكوفة عبدَ الله بن يزيد الخطمى ، وولى عليها عبد الله بن مطيع الذى كان أمير المهاجرين يوم الحرة ، لما خلعوا يزيد .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة كان الطاعون الجارف بالبصرة ، وقال ابن الجوزى فى المنتظم : كان فى سنة أربع وستين ، وقد قيل إنما كان فى سنة تسع وستين ، وهذا هو المشهور الذى ذكره شيخنا الذهبى وغيره ، وكان معظم ذلك بالبصرة ، وكان ذلك فى ثلاثة أيام ، فمات فى أول يوم من الثلاثة من أهل البصرة سبعون ألفا ، وفى اليوم الثانى منها إحدى وسبعون ألفا ، وفى اليوم الثالث منها ثلاثة وسبعون ألفا ، وأصبح الناس فى اليوم الرابع موتى إلا قليل من آحاد الناس ، حتى ذكر أن أم الأمير بها ماتت فلم يوجد لها من يحملها ، حتى استأجروا لها أربعة أنفس . وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى : حدثنا عبيد الله ثنا أحمد بن عصام حدثنى معدى عن رجل يكنى أبا النفيد ، وكان قد أدرك من هذا الطاعون ، قال : كنا نطوف بالقبائل وندفن الموتى ، فلما كثروا لم نقو على الدفن ، فكنا ندخل الدار وقد مات أهلها فنسد بابها عليهم . قال : فدخلنا داراً ففتشناها فلم نجد فيها أحداً حيا فسددنا بابها ، فلما مضت الطواعين كنا نطوف فنفتح تلك السدد عن الأبواب ، ففتحنا سدة الباب الذى كنا فتشناه - أو قال الدار التى كنا سددناها - وفتشناها فإذا نحن بغلام فى وسط الدار طرى دهين ، كأنما أخذ ساعتئذ من حجر أمه ، قال : فبينما نحن وقوف على الغلام نعجب منه إذ دخلت كلبة من شق فى الحائط فجعلت تلوذ بالغلام والغلام

والغلام يحبو إليها حتى مص من لبنها ؛ قال معدى : وأنا رأيت ذلك الغلام فى مسجد البصرة وقد قبض على لحيته .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة بنى عبد الله بن الزبير الكعبة ـ البيت الحرام ، يعنى أكمل بناءها وأدخل فيها الحِجْر ، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر .

[قال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنى عبد العزيز بن خالد بن رستم الصنعانى أبو محمد ، حدثنى زياد بن جبل أنه كان بمكة يوم كان عليها ابن الزبير ، فسمعته يقول : حدثتنى أمى أسماء بنت أبى بكر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : «لولا قرب عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيد فى الكعبة من الحِجْر » قال : فأمر ابن الزبير فحفروا فوجدوا قلاعا أمثال الإبل ، فحركوا منها تلمة ـ أو قال صخرة ـ فبرقت بارقة فقال : أقروها على أساسها ، فبناها ابن الزبير ، وجعل لها بابين يُدْخَل من أحدهما ويُخْرَج من الآخر][1] .

قلت : هذا الحديث له طرق متعددة عن عائشة ، فى الصحاح والحسان والمسانيد ، وموضوع سياق طرق ذلك فى كتاب الأحكام ، إن شاء الله تعالى .

وذكر ابن جرير فى هذه السنة حروبا جرت بين عبد الله بن خازم بخراسان ، وبين الحريش ابن هلال القريعى يطول تفصيلها . قال : وحج بالناس فى هذه السنة عبد الله بن الزبير ، وكان على المدينة مصعب بن الزبير ، وعلى الكوفة عبد الله بن مطيع ، وعلى البصرة الحارث بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى .

[وممن توفى فيها من الأعيان: عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل ـ أبو محمد السهمى، كان من خيار الصحابة وعلمائهم وعبادهم ، وكتب عن النبى ﷺ كثيراً ، أسلم قبل أبيه ، ولم يكن أصغر من أبيه إلا باثنتى عشرة سنة ، وكان واسع العلم مجتهداً فى العبادة ، عاقلا ، وكان يلوم أباه فى القيام مع معاوية ، وكان سميناً ، وكان يقرأ الكتابين القرآن والتوراة ، وقيل إنه بكى حتى عمى ، وكان يقوم الليل ويصوم يوما ويفطر يوما . استنابه معاوية على الكوفة ثم عزله عنها بالمغيرة بن شعبة ، توفى فى هذه السنة بمصر . وفيها بمكة عبد الله بن سعده الفزارى ، له صحبة ، نزل دمشق وقيل إنه من سبى فزارة][2] .

ثم دخلت سنة ست وستين

ففيها : وثب المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذاب بالكوفة ليأخذوا ثأر الحسين بن على فيما يزعم وأخرج عنها عاملها عبد الله بن مطيع . وكان سبب ذلك ، أنه لما رجع أصحاب سليمان بن صرد

---

(١) و (٢) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

مغلوبين إلى الكوفة وجدوا المختار بن أبى عبيد مسجونا ، فكتب إليهم يعزيهم فى سليمان بن صرد ويقول : أنا عوضه وأنا أقتل قتلة الحسين : فكتب إليه رفاعة بن شداد ـ وهو الذى رجع بمن بقى من جيش التوابين ـ نحن على ما تحب ، فشرع المختار يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، وقال لهم فيما كتب به إليهم خفية : أبشروا فإنى لو قد خرجت إليهم جردت فيما بين المشرق والمغرب من أعدائكم ، السيف فجعلتهم بإذن الله ركاما ، وقتلتهم أفراداً وتوأما ، فرحب الله بمن قارب منهم واهتدى ، ولا يبعد الله إلا من أبى وعصى . فلما وصلهم الكتاب قرءوه سرأ وردوا إليه : إنا كما تحب ، فمتى أحببت أخرجناك من محبسك ، فكره أن يخرجوه من مكانه على وجه القهر لنواب الكوفة ، فتلطف فكتب إلى زوج أخته صفية ، وكانت امرأة صالحة ، وزوجها عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فكتب إليه أن يشفع فى خروجه عند نائبى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمى وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، فكتب ابن عمر إليهما يشفع عندهما فيه ، فلم يمكنهما رده ، وكان فيما كتب إليهما ابن عمر : قد علمتما مابينى وبينكما من الود ، وما بينى وبين المختار من القرابة والصهر ، وأنا أقسم عليكما لما خليتما سبيله ، والسلام .

فاستدعيا به فضمنه جماعة من أصحابه ، واستحلفه عبد الله بن يزيد إن هو بغى المسلمين غائلة فعليه ألف بدنة ينحرها تجاه الكعبة ، وكل مملوك له عبد وأمة حر ، فالتزم لهما بذلك ، ولزم منزله ، وجعل يقول : قاتلهما الله ، أما حلفانى بالله ، فإنى لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يمينى ، وأتيت الذى هو خير . وأما إهدائى ألف بدنة فيسير ، وأما عتقى مما ليكى فوددت أنه قد استتم لى هذا الأمر ولا أملك مملوكا واحداً ، واجتمعت الشيعة عليه وكثر أصحابه وبايعوه فى السر . وكان الذى يأخذ البيعة له ويحرض الناس عليه خمسة ، وهم السائب بن مالك الأشعرى ، ويزيد بن أنس ، وأحمد بن شميط ، ورفاعة بن شداد ، وعبد الله بن شداد الجشمى . ولم يزل أمره يقوى ويشتد ويستفحل ويرتفع ، حتى عزل عبد الله بن الزبير عن الكوفة عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد ابن طلحة ، وبعث عبد الله بن مطيع نائبا عليها . وبعث الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة نائبا على البصرة ، فلما دخل عبد الله بن مطيع المخزومى إلى الكوفة فى رمضان سنة خمس وستين ، خطب الناس وقال فى خطبته : إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير أمرنى أن أسير فى فيئكم بسيرة عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان . فقام إليه السائب بن مالك الشيعى فقال : لانرضى إلا بسيرة على بن أبى طالب التى سار بها فى بلادنا ، ولا نريد سيرة عثمان ـ وتكلم فيه ـ ولا سيرة عمر وإن كان لايريد للناس إلا خيراً ، وصدقه على ماقال بعض أمراء الشيعة ، فسكت الأمير وقال : إنى سأسير فيكم بما تحبون من ذلك ، وجاء صاحب الشرطة وهو إياس بن مضارب البجلى إلى ابن مطيع فقال : إن هذا الذى يرد عليك من رؤس أصحاب المختار ، ولست آمن المختار ، فابعث إليه فاردده إلى السجن فإن عيونى قد أخبرونى أن أمره قد استجمع له ، وكأنك به وقد وثب فى المصر . فبعث إليه عبد الله

ابن مُطيع زائدة بن قُدامة وأميراً آخر معه ، فدخلا على المختار فقالا له : أجب الأمير . فدعا بثيابه وأمر بإسراج دابته ، وتهيأ للذهاب معهما ، فقرأ زائدة بن قدامة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾[1] الآية . فألقى المختار نفسه وأمر بقطيفة أن تُلقى عليه ، وأظهر أنه مريض ، وقال : أخبرا الأمير بحالي ، فرجعا إلى ابن مطيع فاعتذرا عنه ، فصدقهما ولها عنه .

فلما كان شهر المحرم من هذه السنة ، عزم المختار على الخروج ليطلب الأخذ بثأر الحسين فيما يزعم ، فلما صمم على ذلك اجتمعت عليه الشيعة وثبّطوه عن الخروج الآن إلى وقت آخر ، ثم أنفذوا طائفة منهم إلى محمد بن الحنفية يسألونه عن أمر المختار وما دعا إليه ، فلما اجتمعوا به كان ملخص ما قال لهم : إنا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه . وقد كان المختار بلغه مخرجهم إلى محمد ابن الحنفية ، فكره ذلك ، وخشي أن يكذّبه فيما أخبر به عنه ، فإنه لم يكن بإذن محمد بن الحنفية ، وهمّ بالخروج قبل رجوع أولئك ، وجعل يسجع لهم سجعاً من سجع الكهان بذلك ، ثم كان الأمر على ما سجع به . فلما رجعوا أخبروه بما قال ابن الحنفية ، فعند ذلك قوى أمر الشيعة على الخروج مع المختار بن أبي عبيد .

وقد روى أبو مخنف أن أمراء الشيعة قالوا للمختار : اعلم أن جميع أمراء الكوفة مع عبد الله ابن مُطيع ، وهم إلب علينا ، وإنه إن بايعك إبراهيم بن الأشتر النخعي وحده أغنانا عن جميع من سواه . فبعث إليه المختار جماعة يدعونه إلى الدخول معهم في الأخذ بثأر الحسين ، وذكروه سابقة أبيه مع علي - رضي الله عنه ، فقال : قد أجبتكم إلى ما سألتم ، على أن أكون أنا وليّ أمركم ، فقالوا : إن هذا لا يمكن ، لأن المهديّ قد بعث لنا المختار وزيراً له وداعياً إليه ، فسكت عنهم إبراهيم بن الأشتر ، فرجعوا إلى المختار فأخبروه . فمكث ثلاثاً ، ثم خرج في جماعة من رءوس أصحابه إليه ، فدخل على ابن الأشتر ، فقام إليه واحترمه وأكرمه وجلس إليه ، فدعاه إلى الدخول معهم ، وأخرج له كتابا على لسان ابن الحنفية ، يدعوه إلى الدخول مع أصحابه من الشيعة فيما قاموا فيه من نصرة آل بيت النبي ﷺ ، والأخذ بثأرهم . فقال ابن الأشتر : إنه قد جاءتني كتب محمد ابن الحنفية بغير هذا النظام ، فقال المختار : إن هذا زمان ، وهذا زمان . فقال ابن الأشتر : فمن يشهد أن هذا كتابه ؟ فتقدم جماعة من أصحاب المختار فشهدوا بذلك ، فقام ابن الأشتر من مجلسه وأجلس المختار فيه وبايعه ، ودعا لهم بفاكهة وشراب من عسل . قال الشعبي : وكنت حاضراً أنا وأبي أمر إبراهيم بن الأشتر ذلك المجلس ، فلما انصرف المختار قال إبراهيم بن الأشتر :

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

يا شعبي ما ترى فيما شهد به هؤلاء ؟ فقلت: إنهم قراء وأمراء ووجوه الناس ، ولا أراهم يشهدون إلا بما يعلمون ، قال : وكتمته ما في نفسي من اتهامهم ، ولكني كنت أحب أن يخرجوا للأخذ بثأر الحسين ، وكنت على رأى القوم . ثم جعل إبراهيم يختلف إلى المختار في منزله هو ومن أطاعه من قومه ، ثم اتفق رأى الشيعة على أن يكون خروجهم ليلة الخميس لأربع عشرة ليلة ، خلت من ربيع الأول من هذه السنة ـ سنة ست وستين .

وقد بلغ ابن مُطيع أمر القوم ، وما اشتوروا عليه ، فبعث الشرط فى كل جانب من جوانب الكوفة ، وألزم كلّ أمير أن يحفظ ناحيته من أن يخرج منها أحد ، فلما كان ليلة الثلاثاء خرج إبراهيم بن الأشتر قاصداً إلى دار المختار في مائة رجل من قومه ، وعليهم الدروع تحت الأقبية ، فلقيه إياس بن مُضارب فقال له : أين تريد يا ابن الأشتر في هذه الساعة ؟ إن أمرك لمريب ! فوالله لا أدعك حتى أحضرك إلى الأمير فيرى فيك رأيه ، فتناول ابن الأشتر رمحاً من يد رجل فطعنه فى ثُغْرة نحره فسقط ، وأمر رجلا فاحتزّ رأسه ، وذهب به إلى المختار ، فألقاه بين يديه ، فقال له المختار : بشرك الله بخير ، فهذا طائر صالح . ثم طلب إبراهيم من المختار أن يخرج فى هذه الليلة ، فأمر المختار بالنار أن ترفع ، وأن ينادى شعار أصحابه : « يا منصور أمتْ » ، يا ثارات الحسين . ثم نهض المختار ، فجعل يلبس درعه وسلاحه وهو يقول :

قد علمت بيضاء حَسناء الطَّلَل   واضحة الخدّين عجزاء الكَفَل

« أنّى غداةَ الروع مقدام بَطَل »

وخرج بين يديه إبراهيم بن الأشتر ، فجعل يتقصد الأمراء الموكّلين بنواحى البلد فيطردهم عن أماكنهم واحداً واحداً ، وينادى بشعار المختار . وبعث المختار أبا عثمان النَّهدى، فنادى بشعار المختار : يا ثارات الحسين ! فاجتمع الناس إليه من ههنا وههنا ، وجاء شَبَث بن رِبْعى فاقتتل هو والمختار عند داره وحصره ، حتى جاء ابن الأشتر فطرده عنه ، فرجع شَبَث إلى ابن مُطيع وأشار عليه بأن يجمع الأمراء إليه ، وأن ينهض بنفسه ، فإن أمر المختار قد قوى واستفحل . وجاءت الشيعة من كل فج عميق إلى المختار ، فاجتمع إليه فى أثناء الليل قريب من أربعة آلاف ، فأصبح وقد عبّى جيشه وصلّى بهم الصبح ، فقرأ فيها (والنّازعات غرْقاً) و (عبَسَ وتَولّى) فى الثانية قال بعض من سمعه . فما سمعت إماماً أفصح لهجة منه ، وقد جهّز ابن مَطيع جيشه ثلاثة آلاف عليهم شَبَث بن ربعى ، وأربعة آلاف أخرى مع راشد بن إياس بن مُضارب فوجّه المختار ابن الأشتر فى ستمائة فارس وستمائة راجل إلى راشد بن إياس ، وبعث نعيم بن هبيرة فى ثلاثمائة فارس وستمائة راجل إلى شبث بن ربعى ، فأما ابن الأشتر فإنه هزم قرنه راشد بن إياس وقتله وأرسل

إلى المختار يبشره . وأما نعيم بن هبيرة فإنه لقي شبث بن ربعيّ فهزمه شبث وقتله وجاء فأحاط بالمختار وحصره وأقبل إبراهيم بن الأشتر نحوه فاعترض له حسان بن فائد بن العبسي في نحو من ألفي فارس من جهة ابن مُطيع ، فاقتتلوا ساعة ، فهزمه إبراهيم ، ثم أقبل نحو المختار فوجد شَبَث ابن رِبعيّ قد حصر المختار وجيشه ، فما زال حتى طردهم فكروا راجعين .

وخلص إبراهيم إلى المختار ، وارتحلوا من مكانهم ذلك إلى غيره في ظاهر الكوفة ، فقال له إبراهيم بن الأشتر : اعمد بنا إلى قصر الإمارة فليس دونه أحد يرد عنه ، فوضعوا ما معهم من الأثقال ، وأجلسوا هنالك ضعفة المشايخ والرجال ، واستخلف على من هنالك أبا عثمان النهدى ، وبعث بين يديه ابن الأشتر ، وعبأ المختار جيشه كما كان ، وسار نحو القصر ، فبعث ابن مُطيع عمرو بن الحجاج في ألفي رجل ، فبعث إليه المختار يَزيد بن أنس ، وسار هو وابن الأشتر أمامه حتى دخل الكوفة من باب الكُناسة ، وأرسل ابن مُطيع شِمْر بن ذى الجَوْشَن ـ الذى قتل الحسين ـ في ألفين آخرين ، فبعث إليه المختار سَعد بن مُنقِذ الهمذانيّ ، وسار المختار حتى انتهى إلى سكة شَبَث ، وإذا نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة في خمسة آلاف ، وخرج ابن مطيع من القصر في الناس ، واستخلف عليه شَبَث بن ربعيّ ، فتقدم ابن الأشتر إلى الجيش الذى مع ابن مُساحق ، فكان بينهم قتال شديد ، قتل فيه رِفاعة بن شدّاد أمير جيش التوّابين الذين قدم بهم ، وعبد الله ابن سعد وجماعة غيرهم . ثم انتصر عليهم ابن الأشتر فهزمهم ، وأخذ بلجام دابة ابن مُساحق فمتّ إليه بالقرابة ، فأطلقه ، وكان لا ينساها بعد لابن الأشتر .

ثم تقدم المختار بجيشه إلى الكُناسة وحصروا ابن مُطيع بقصره ثلاثا ، ومعه أشراف الناس سوى عمرو بن حُرَيث فإنه لزم داره ، فلما ضاق الحال على ابن مطيع وأصحابه استشارهم ، فأشار عليه شَبَث بن رِبعيّ أن يأخذ له ولهم من المختار أمانا ، فقال : ما كنت لأفعل هذا وأمير المؤمنين مُطاع بالحجاز وبالبصرة ، فقال له : فإن رأيت أن تذهب بنفسك مختفيا حتى تلحق بصاحبك فتخبره بما كان منا في نصره وإقامة دولته . فلما كان الليل خرج ابن مطيع مختفياً حتى دخل دار أبي موسى الأشعرى ، فلما أصبح الناس أخذ الأمراء إليهم أمانا من ابن الأشتر فأمنهم ، فخرجوا من القصر وجاءوا إلى المختار فبايعوه . ثم دخل المختار إلى القصر فبات فيه ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، فخرج المختار إلى المسجد فصعد المنبر وخطب الناس خطبة بليغة ، ثم دعا الناس إلى البيعة وقال : فو الذى جعل السماء سقفاً مكفوفا والأرض فجاجا سُبُلا ، ما بايعتم بعد بيعة علىّ وآل على ـ أهدى منها ، ثم نزل فدخل الناس يبايعونه على كتاب الله وسنة رسوله ، والطلب بثأر أهل البيت ، وجاء رجل إلى المختار فأخبره أن ابن مُطيع في دار أبي موسى ، فأراه أنه لا يسمع قوله ، فكرر ذلك ثلاثا فسكت الرجل ، فلما كان الليل بعث المختار

إلى ابن مطيع بمائة ألف درهم ، وقال له : اذهب فقد أخذت بمكانك ـ وكان له صديقاً قبل ذلك ـ فذهب ابن مطيع إلى البصرة وكره أن يرجع إلى ابن الزبير وهو مغلوب ، وشرع المختار يتحبب إلى الناس بحسن السيرة ، ووجد فى بيت المال تسعة آلاف ألف ، فأعطى الجيش الذين حضروا معه القتال نفقات كثيرة ، واستعمل على شرطته عبد الله بن كامل اليشكرى ، وقرّب أشراف الناس فكانوا جلساءه ، فشق ذلك على الموالى الذين قاموا بنصره ، وقالوا : لأبى عَمْرة كيسان مولى عُرَينة ـ وكان على حرسه ـ قدّم والله أبو إسحاق العرب وتركنا ، فأنهى ذلك أبو عمرة إليه ، فقال : بل هم منى وأنا منهم ، ثم قال (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)[1] فقال لهم أبو عمرة : أبشروا فإنه سيدنيكم ويقربكم . فأعجبهم ذلك وسكتوا .

ثم إن المختار بعث الأمراء إلى النواحى والبلدان والرساتيق ، من أرض العراق وخراسان ، وعقد الألوية والرايات ، وقرر الإمارة والولايات ، وجعل يجلس للناس غدوة وعشية يحكم بينهم ، فلما طال ذلك عليه استقضى شريحا فتكلم فى شريح طائفة من الشيعة ، وقالوا : إنه شهد على حُجْر ابن عدىّ ، وإنه لم يبلّغ عن هانىء بن عروة ما أرسله به ـ وقد كان على بن أبى طالب عزله من القضاء ـ فلما بلغ شريحا ذلك تمارض ولزم بيته ، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم عزله وجعل مكانه عبد الله بن مالك الطائى قاضيا .

فصل

ثم شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله ، وكان سبب ذلك أن عبيد الله ابن زياد كان قد جهزه مروان من دمشق ليدخل الكوفة ، فإن ظفر بها فليبحها ثلاثة أيام ، فسار ابن زياد قاصدا الكوفة ، فلقى جيش التوابين فكان من أمرهم ما تقدم . ثم سار من عين الوردة حتى انتهى إلى الجزيرة فوجد بها قيس عَيلان ، وهم من أنصار ابن الزبير ، وقد كان مروان أصاب منهم قتلى كثيرة يوم مَرْج راهط ؛ فهم إلب عليه ، وعلى ابنه عبد الملك من بعده ، فتعوق عن المسير سنة وهو فى حرب قيس عَيلان بالجزيرة ، ثم وصل إلى الموصل فانحاز نائبها عنه إلى تَكريت ، وكتب إلى المختار يعلمه بذلك ، فندب المختار يزيد بن أنس فى ثلاثة آلاف اختارها ، وقال له : إنى سأمدك بالرجال بعد الرجال ، فقال له : لا تمدنى إلا بالدعاء . وخرج معه المختار إلى ظاهر الكوفة فودعه ودعا له وقال له : ليكن خبرك فى كل يوم عندى ، وإذا لقيت عدوك فناجزه[2] فناجزه ، ولا تؤخر فرصة . ولما بلغ مخرجهم ابن زياد جهز بين يديه سريتين : إحداهما مع ربيعة بن مُخارق ثلاثة آلاف ، والأخرى مع عبد الله بن حَمَلة الخثعمى ثلاثة آلاف ، وقال :

(١) من الآية : ٢٢ من سورة السجدة . (٢) أى قاتلك ؛ والمناجزة: المقاتلة

أيكم سبق فهو الأمير ، وإن سبقتما معا فالأمير عليكم أسنكما . فسبق ربيعة بن مخارق إلى يزيد ابن أنس، فالتقيا فى طرف أرض الموصل مما يلى الكوفة ، فتواقفا هنالك ، ويزيد بن أنس مَرِيض مُدْنَف ، وهو مع ذلك يحرض قومه على الجهاد ويدور على الأرباع وهو محمول مضنى وقال للناس : إن هلكت فالأمير على الناس عبد الله بن ضَمْرة الفزارى ـ وهو رأس الميمنة ، وإن هلك فسعر ابن أبى مِسعر رأس الميسرة . وكان وَرقاء بن خالد الاسدى على الخيل ، وهو وهؤلاء الثلاثة أمراء الأرباع ، وكان ذلك فى يوم عرفة من سنة ست وستين عند إضاءة الصبح ، فاقتتلوا هم والشاميون قتالا شديداً . واضطربت كل من الميمنتين والميسرتين . ثم حمل ورقاء على الخيل فهزمها وفر الشاميون وقتل أميرهم ربيعة بن مُخارق ، واحتاز جيش المختار ما فى معسكر الشاميين ، ورجع فرارهم فلقوا الأمير الآخر عبد الله بن حَملة ، فقال : ما خبركم ؟ فأخبروه فرجع بهم وسار بهم نحو يزيد بن أنس فانتهى إليهم عشاء ، فبات الناس متحاجزين ، فلما أصبحوا تواقفوا على تعبئتهم ، وذلك يوم الأضحى من سنة ست وستين ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فهزم جيش المختار جيش الشاميين أيضا ، وقتلوا أميرهم عبد الله بن حَملة واحتووا على ما فى معسكرهم ، وأسروا منهم ثلاثمائة أسير ، فجاؤا بهم إلى يزيد بن أنس وهو على آخر رمق ، فأمر بضرب أعناقهم .

ومات يزيد بن أنس من يومه ذلك وصلى عليه خليفته وَرقاء بن عازب ودفنه ، وسقط فى أيدى أصحابه وجعلوا يتسللون راجعين إلى الكوفة ، فقال لهم ورقاء : يا قوم ! ماذا ترون ؟ إنه قد بلغنى أن ابن زياد قد أقبل فى ثمانين ألفاً من الشام ، ولا أرى لكم بهم طاقة ، وقد هلك أميرنا ، وتفرق عنا طائفة من الجيش من أصحابنا فلو انصرفنا راجعين إلى بلادنا ، ونظهر أنا إنما انصرفنا حزنا منا على أميرنا لكان خيراً لنا من أن نلقاهم فيهزموننا ونرجع مغلوبين ، فاتفق رأى الأمراء على ذلك ، فرجعوا إلى الكوفة . فلما بلغ خبرهم أهل الكوفة ، وأن يزيد بن أنس قد هلك ، أرجف أهل الكوفة بالمختار وقالوا : قتل يزيد بن أنس فى المعركة وانهزم جيشه ، وعما قليل يقدم عليكم ابن زياد فيستأصلكم ويشتف[1] خضراكم ، ثم تمالؤا على الخروج على المختار وقالوا : هو كذاب ، واتفقوا على حربه وقتاله وإخراجه من بين أظهرهم ، واعتقدوا أنه كذاب ، وقالوا : قد قدّم موالينا على أشرافنا ، وزعم أن ابن الحنفية قد أمره بالأخذ بثأر الحسين وهو لم يأمره بشىء ، وإنما هو مقول عليه ، وانتظروا بخروجهم عليه أن يخرج من الكوفة إبراهيم بن الأشتر فإنه قد عينه المختار أن يخرج فى سبعة آلاف لقتال ابن زياد .

فلما خرج ابن الاشتر اجتمع أشراف الناس ممن كان فى جيش قتلة الحسين وغيرهم فى دار شَبَث بن ربعى وأجمعوا أمرهم على قتال المختار ، ثم وثبوا فركبت كل قبيلة مع أميرها فى ناحية

(١) أى : يستأصل والاشتفاف : شرب كل ما فى الإناء .

من نواحى الكوفة ، وقصدوا قصر الإمارة ، وبعث المختار عمرو بن توبة بريداً إلى إبراهيم بن الأشتر ليرجع إليه سريعاً ، وبعث المختار إلى أولئك يقول لهم : ماذا تنقمون ؟ فإنى أجيبكم إلى جميع ما تطلبون ، وإنما يريد أن يثبطهم من مناهضته حتى يقدم إبراهيم بن الأشتر ، وقال : إن كنتم لا تصدقوننى فى أمر محمد بن الحنفية فابعثوا من جهتكم وأبعث من جهتى من يسأله عن ذلك ، ولم يزل يطاولهم حتى قدم ابن الأشتر بعد ثلاث ، فانقسم هو والناس فرقتين ؛ فتكفل المختار بأهل اليمن وتكفل ابن الأشتر بمضر وعليهم شَبَث بن ربعى ، وكان ذلك بإشارة المختار ، حتى لا يتولى ابن الأشتر بقتال قومه من أهل اليمن فيحنو عليهم ، وكان المختار شديداً عليهم.

ثم اقتتل الناس فى نواحى الكوفة قتالا عظيما وكثرت القتلى بينهم من الفريقين ، وجرت فصول وأحوال حربية يطول استقصاؤها ، وقتل جماعة من الأشراف ، منهم عبد الرحمن بن سعيد ابن قيس الكندى ، وسبعمائة وثمانين رجلا من قومه . وقتل من مُضر بضعة عشر رجلا ، ويعرف هذا اليوم بجبّانة السَّبيع[1] ، وكان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة ست وستين ، ثم كانت النصرة للمختار عليهم ، وأُسِر منهم خمسمائة أسير ، فعرضوا عليه فقال : انظروا من كان منهم شهد مقتل الحسين فاقتلوه ، فقتل منهم مائتان وأربعون رجلا ، وقَتل أصحابه منهم من كان يؤذيهم ويسىء إليهم بغير أمر المختار ، ثم أطلق الباقين ، وهرب عمرو بن الحجاج الزبيدى ، وكان ممن شهد قتل الحسين ، فلا يدرى أين ذهب من الأرض .

ذكر مقتل شمر بن ذى الجوشن ـ أمير السرية التى قتلت حسينا

وهرب أشراف الكوفة إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير ، وكان ممن هرب لقصده شِمر بن ذى الجوشَن ـ قبحه الله ، فبعث المختار فى أثره غلاما له يقال له زِرْبىّ ، فلما دنا منه قال شمر لأصحابه : تقدموا وذرونى وراءكم بصفة أنكم قد هربتم وتركتمونى حتى يطمع فىّ هذا العلج ، فساقوا وتأخر شِمر فأدركه زِرْبىّ فعطف عليه شِمر فدق ظهره فقتله ، وسار شِمر وتركه ، وكتب كتابا إلى مصعب بن الزبير وهو بالبصرة ينذره بقدومه عليه ، ووفادته إليه ، وكان كل من فر من هذه الوقعة يهرب إلى مُصعب بالبصرة . وبعث شِمر الكتاب مع عِلج من علوج قرية قد نزل عندها يقال لها : الكلتانية ـ عند نهر إلى جانب تلّ هناك ، فذهب ذلك العلج فلقيه علج آخر فقال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى مصعب ، قال : ممن ؟ قال : من شِمر ، فقال : اذهب معى إلى سيدى ، وإذا سيده أبو عَمرة أمير حرس للمختار ، وهو قد ركب فى طلب شِمر فدله العلج على مكانه

(١) جبانة السبيع : اسم المكان الذى نزل فيه عبد الله بن سبيع مع أهل اليمن

فقصده أبو عمرة ، وقد أشار أصحاب شمر عليه أن يتحوّل من مكانه ذلك ، فقال لهم : هذا كله فَرَقٌ من الكذاب ، والله لا أرتحل من هٰهنا إلى ثلاثة أيام حتى أملأ قلوبهم رعبا . فلما كان الليل كابسهم أبو عمرة فى الخيل ، فأعجلهم أن يركبوا أو يلبسوا أسلحتهم ، وثار إليهم شمر ابن ذى الجوشن فطاعنهم برمحه وهو عريان ، ثم دخل خيمته فاستخرج منها سيفا وهو يقول :

نَبَّهْتُمُ ليثَ عرينٍ باسلا جَهْماً مُحَيّاه يدقّ الكاهلا
لم يُرَ يوما عن عدوٍّ ناكِلا إلا أكرّ مقاتِلاً أو قاتلا
يُزْعجهم ضربا ويُروِى العاملا

ثم ما زال يناضل عن نفسه حتى قتل ، فلما سمع أصحابه وهم منهزمون صوت التكبير ، وقول أصحاب المختار : الله أكبر قتل الخبيث ، عرفوا أنه قد قتل ــ قبحه الله .

قال أبو مخنف عن يونس بن أبى إسحاق قال : ولما خرج المختار من جبانة السّبيع وأقبل إلى القصر ــ يعنى منصرفه من القتال ــ ناداه سُراقة بن مِرْداس بأعلى صوته وكان فى الأسرى :

امنُن علىّ اليوم يا خَير مَعَدّ وخيرَ من حَلّ بشِحْرٍ والجَنَد
وخَيرَ من لَبّى وصامَ وسجد

قال : فبعث إلى السجن فاعتقله ليلة ثم أطلقه من الغد ، فأقبل إلى المختار وهو يقول :

ألا أخبر أبا إسحاق أنّا نَزَوْنا نزوةً كانت علينا
خرَجْنا لا نرى الضّعفاء شيئا وكان خروجُنا بَطَراً وشَيْنا
نَراهُم فى مصافّهم قليلا وهم مثل الدَّبَى[1] حين التقينا
بَرزنا إذ رأيناهم فلما رأينا القوم قد برزُوا إلينا
رأينا منهمُ ضَربا وطعنا وطعناً صائباً حتى انثنينا
نُصرتَ على عدوّك كل يوم بكل كتيبة تَنْعَى حسيناً
كنصر محمد فى يوم بَدْرٍ ويوم الشِّعب إذ لاقى حُنَيْنا
فأسجِحْ إذ ملكت فلو ملكنا لَجُرنا فى الحكومة واعتدينا
تقبّلْ توبةً منّى فإنى سأشكر إذ جعلت العفو دينا

وجعل سراقة بن مرداس يحلف أنه رأى الملائكة على الخيول البُلْق[2] بين السماء والأرض ، وأنه لم يأسره إلا واحد من أولئك الملائكة ، فأمره المختار أن يصعد المنبر فيخبر الناس بذلك .

---

(١) الدبى : أصغر الجراد والنمل (٢) البلق محركة : سواد وبياض : وارتفاع التحجيل إلى الفخذين

قصعد المنبر فأخبر الناس بذلك ، فلما نزل خلا به المختار فقال له : إنى قد عرفت أنك لم تر الملائكة ، وإنما أردت بقولك هذا أنى لا أقتلك ، ولست أقتلك فاذهب حيث شئت لئلا تفسد على أصحابى ، فذهب سراقة إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير وجعل يقول :

ألاَ أخبر أبا إسحاق أنى رأيت البُلق دُهْماً مُصمِتات
كفرت بوحيِكم وجعلت نذراً علىّ قتالَكم حتى المماتِ
رأت عيناى مالم تبصراه كلانا عالم بالتُّرّهات
إذا قالوا : أقول لهم كذبتم وإن خرجوا لبست لهم أداتى

قالوا : ثم خطب المختار أصحابه فحرضهم فى خطبته تلك على مَنْ قتل الحسين من أهل الكوفة المقيمين بها ، فقالوا : ما ذنبنا نترك أقواماً قتلوا حسيناً يمشون فى الدنيا أحياء آمنين ، بئس ناصرُ آل محمد ، أنا إنى إذاً كذّاب كما سميتمونى أنتم ، فإنى بالله أستعين عليهم ، فالحمد لله الذى جعلنى سيفاً أضربهم ، ورمحاً أطعنهم ، وطالب وِتْرهم ، وقائماً بحقهم . وإنه كان حقاً على الله أن يَقْتل من قتلهم ، وأن يذلّ مَن جهل حقهم ، فسموهم لى ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم ، فإنه لا يسوغ لى الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم ، وأنفى من فى المصر منهم . ثم جعل يتتبع من فى الكوفة ـ وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات مما يناسب ما فعلوا ـ ومنهم من حرقه بالنار ، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات ، ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت ، [فأتوه بمالك ابن النسير البدّى[1] فقال له المختار : أنت الذى نزعت برنس الحسين عنه ؟ فقال : خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا ، فقال : اقطعوا يديه ورجليه . ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات ، وقتل عبد الله بن أسد الجهنى وغيره شر قتلة][2] .

مقتل خولى بن يزيد الأصبحى الذى احتز رأس الحسين رضى الله عنه

بعث إليه المختار أبا عَمرة صاحب حرسه ، فكبس بيته فخرجت إليهم امرأته فسألوها عنه فقالت : لا أدرى أين هو ، وأشارت بيدها إلى المكان الذى هو مُختف فيه ـ وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها ، وكانت تلومه على ذلك ـ واسمها : العَيُوف بنت مالك بن نهار بن عقرب الحضرمى ، فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قَوْصَرّة[3] فحملوه إلى المختار فأمر بقتله قريباً من داره ، وأن يحرق بعد ذلك . وبعث المختار إلى حكيم بن فضيل السنبسى ـ وكان قد سلب العباس بن على ابن أبى طالب يوم قتل الحسين ـ فأخذ فذهب أهله إلى عدى بن حاتم ، فركب ليشفع فيه عند المختار ،

---

(١) هكذا فى الطبرى ، وفى غيره : ابن بشر (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .
(٣) القوصرة بالتشديد وقد تخفف : ما يكنز فيه التمر من البوارى

تخشى أولئك الذين أخذوه أن يسبقهم عدى إلى المختار فيشفعه فيه ، فقتلوا حكيما قبل أن يصل إلى المختار ، فدخل عدى فشفع فيه فشفعه فيه ، فلما رجعوا وقد قتلوه شتمهم عدى وقام متغضبا عليهم وقد تقلد مِنّة المختار . وبعث المختار إلى يزيد بن ورقاء - وكان قد قتل عبدالله بن مسلم بن عقيل، فلما أحاط الطلب بداره خرج فقاتلهم فرموه بالنبل والحجارة حتى سقط ، ثم حرقوه وبه رمق الحياة وطلب المختار سنان بن أنس ، الذى كان يدعى أنه قتل الحسين ، فوجدوه قد هرب إلى البصرة أو الجزيرة فهدمت داره ، وكان محمد بن الأشعث بن قيس ممن هرب إلى مصعب فأمر المختار بهدم داره وأن يبنى بها دار حجر بن عدى التى كان زياد هدمها .

مقتل عمر بن سعد بن أبى وقاص

وهو أمير الجيش الذين قتلوا الحسين

[قال الواقدى : كان سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - جالساً ذات يوم إذ جاء غلام له ودمه يسيل على عقبيه ، فقال له سعد: من فعل بك هذا ؟ فقال : ابنك عمر، فقال سعد: اللهم اقتله وأسل دمه . وكان سعد مستجاب الدعوة ، فلما خرج المختار على الكوفة استجار عمر بن سعد بعبدالله بن جعدة بن هبيرة ، وكان صديقاً للمختار لقرابته من على ، فأتى المختار وأخذ منه لعمر بن سعد أمانا مضمونه : أنه آمن على نفسه وأهله وماله ما أطاع ولزم رحله ومصره ، ما لم يحدث حدثا وأراد المختار مالم يأت الخلاء فيبول أو يتغوط . ولما بلغ عمر بن سعد أن المختار يريد قتله خرج من منزله ليلا يريد السفر نحو مصعب أو عبيد الله بن زياد ، فنمى للمختار بعض مواليه ذلك ، فقال المختار : وأى حدث أعظم من هذا ؟ وقيل إن مولاه قال له ذلك ، وقال له : تخرج من منزلك ورحلك؟[1] ارجع فرجع . ولما أصبح بعث إلى المختار يقول له : هل أنت مقيم على أمانك ؟ وقيل إنه أتى المختار يتعرف منه ذلك فقال له المختار : اجلس ، وقيل إنه أرسل عبد الله بن جعدة إلى المختار يقول له : هل أنت مقيم على أمانك له ؟ فقال له المختار : اجلس ، فلما جلس قال المختار لصاحب حرسه :اذهب فأتنى برأسه فذهب إليه فقتله وأتاه برأسه][2] .

وفى رواية أن المختار قال ليلة : لأقتلن غدا رجلا عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يسر بقتله المؤمنون والملائكة المقربون ، وكان الهيثم بن الأسود حاضراً فوقع فى نفسه أنه أراد عمر بن سعد ، فبعث إليه ابنه العريان فأنذره ، فقال : كيف يكون هذا بعد ما أعطانى من العهود والمواثيق ؟ وكان المختار حين قدم الكوفة أحسن السيرة إلى أهلها أولا ، وكتب لعمر بن سعد كتاب أمان إلا أن يحدث حدثا .

---

(١) الرحل : ما يستصحبه المرء من الأثاث (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

قال أبو مخنف : وكان أبو جعفر الباقر يقول: إنما أراد المختار إلا أن يدخل الكنيف فيحدث فيه ، ثم إن عمر بن سعد قلق أيضاً ، ثم جعل يتنقل من محلة إلى محلة، ثم صار أمره أنه رجع إلى داره. وقد بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع فقال : كلا والله إن فى عنقه سلسلة ترده لوجهه، إن يطير لأدركه دم الحسين فأخذ برجله . ثم أرسل إليه أبا عمرة فأراد الفرار منه فعثر فى جُبّته ، فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله ، وجاء برأسه فى أسفل قبائه حتى وضعه بين يدى المختار ،فقال المختار لابنه حفص — وكان جالساً عند المختار — فقال : أتعرف هذا الرأس ؟ فاسترجع وقال : نعم ولاخير فى العيش بعده ، فقال له المختار : صدقت ، ثم أمر فضربت عنقه ووضع رأسه مع رأس أبيه ، ثم قال المختار : هذا بالحسين وهذا بعلى بن الحسين الأكبر ، ولا سواء . والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ماوفوا أنملة من أنامله . ثم بعث المختار برأسيهما إلى محمد بن الحنفية ، وكتب إليه كتابا فى ذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد بن على من المختار بن أبى عبيد ، سلام عليك أيها المهدى فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد: فإن الله بعثنى نقمة على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير، وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ، ونصر مؤازركم ، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه وقد قتلنا ممن اشترك فى دم الحسين وأهل بيته كل من قدرنا عليه ، ولن يعجز الله من بقى، ولست بمحجم عنهم حتى يبلغنى أنه لم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، فاكتب إلى أيها المهدى برأيك أتبعه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته ».

ولم يذكر ابن جرير أن محمد بن الحنفية رد جوابه ، مع أن ابن جرير قد تقصى هذا الفصل وأطال شرحه . ويظهر من غضون كلامه قوة وجده به وغرامه ، ولهذا توسع فى إيراده بروايات أبى مخنف لوط بن يحيى ، وهو متهم فيما يرويه ، ولاسيما فى باب التشيع ، وهذا المقام للشيعة فيه غرام وأى غرام ، إذ فيه الأخذ بثأر الحسين وأهله من قتلتهم ، والانتقام منهم ، ولا شك أن قتل قتلته كان متحتما ، والمبادرة إليه كان مغنما ، ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذى صار بدعواه إتيان الوحى إليه كافراً ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . وقال تعالى فى كتابه الذى هو أفضل ما يكتبه الكاتبون (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[1] ـ وقال بعض الشعراء :

وما من يد إلا يد الله فوقها ٭ ولا ظالم إلا سيبلى بظالم[2]

وسيأتى فى ترجمة المختار ما يدل على كذبه وافترائه ، وادعائه نصرة أهل البيت،وهو فى نفس

(١) من الآية ١٢٩ من سورة الأنعام (٢) فى رواية : بأظلم

الأمر متستر بذلك ؛ ليجمع عليه رعاعا من الشيعة الذين بالكوفة ، ليقيم لهم دولة ويصول بهم ويجول على مخالفيه صولة .

ثم إن الله تعالى سلط عليه من انتقم منه ، وهذا هو الكذاب الذى قال فيه الرسول فى حديث أسماء بنت الصديق : « إنه سيكون فى ثقيف كذّاب ومُبير » . فهذا هو الكذاب وهو يظهر التشيع ، وأما المُبير فهو الحجّاج بن يوسف الثقفى ، وقد ولى الكوفة من جهة عبد الملك بن مروان كما سيأتى . وكان الحجاج عكس هذا ، كان ناصبيًا جلداً ظالماً غاشما ، ولكن لم يكن فى طبقة هذا ، متهم على دين الإسلام ودعوة النبوة ، وأنه يأتيه الوحى من العلى العلام .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة بعث المختار المُثنّى بن مُخَرِّبة العبدى إلى البصرة يدعو إليه من استطاع من أهلها ، فدخلها وابتنى بها مسجداً يجتمع فيه إليه قومه ، فجعل يدعو إلى المختار ، ثم أتى مدينة الرّزق فعسكر عندها ، فبعث إليه الحارث بن عبد الله بن ربيعة القُبَاع ـ وهو أمير البصرة قبل أن يعزل بمصعب ـ جيشا مع عَبّاد بن الحُصين أمير الشرطة ، وقيس بن الهيثم ، فقاتلوه وأخذوا منه المدينة وانهزم أصحابه ، وكان قد قام بنصرتهم بنو عبد القيس ، فبعث إليهم الجيش فبعثوا إليه فأرسل الأحنف بن قيس وعمرو بن عبد الرحمن المخزومى ليصلحا بين الناس ، وساعدهما مالك بن مِسْمَع ، فاحتجز الناس بعضهم من بعض ، ورجع إلى المختار فى نفر يسير مغلولا مغلوبا مسلوبا ، وأخبر المختار بما وقع من الصلح على يدى الأحنف وغيره من أولئك الأمراء ، وطمع المختار فيهم وكاتبهم فى أن يدخلوا معه فيما هو فيه من الأمر ، وكان كتابه إلى الأحنف بن قيس : من المختار إلى الأحنف بن قيس ومَن قِبله من الأمراء ؛ أفسَلِمٌ أنتم ؟ أما بعد فويل لبنى ربيعة من مضر ، وإن الأحنف يورد قومه سقر ، حيث لا يستطيع لهم صَدَر ، وإنى لا أملك لكم ما قد خط فى القدر ، وقد بلغنى أنكم تسمونى الكذاب ، وقد كُذّب الأنبياء من قبلى ولست بخير منهم .

وقال ابن جرير : حدثنى أبو السائب سَلْم بن جنادة ثنا الحسن بن حماد عن حبان بن على عن مجالد عن الشعبى قال : دخلت البصرة فقعدت إلى حلقة فيها الأحنف بن قيس ، فقال بعض القوم : ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل الكوفة ، فقال : أنتم موال لنا ، قلت : وكيف ؟ قال : أنقذناكم من أيدى عبيدكم من أصحاب المختار ، قلت : أتدرى ما قال شيخ من همدان فينا وفيكم ؟ فقال الأحنف : وما قال ؟ قلت : قال : ـ

أَفَخَرْتم إن قتلتم أعبُداً • وهزمتم مَرّة آل عَزَل

فإذا فاخرتمونا فاذكروا • ما فعلنا بكم يوم الجمل

بين شيخ خاضب عُثْنُونه • وفتى أبيض وَضّاح رِفَل[1]

---

(١) الرفل : الطويل الذنب والكثير اللحم والواسع من الثوب

جاء يُهدج في سابغة ● فذبحناه ضحًى ذَبح الحَمَل
وعفونا فنسيتم عفونا ● وكفرتم نعمة الله الأجَل
وقتلتم بحسين منهم ● بدلا من قومكم شرّ بدَل

قال : فغضب الأحنف وقال : يا غلام هات الصحيفة، فأتى بصحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ، أما بعد ، فويل لبني ربيعة من مضر فإن الأحنف يورِد قومه سَقر ، حيث لا يقدرون على الصَّدَر ، وقد بلغني أنكم تكذّبوني ، فإن كُذِّبت فقد كُذِّبتْ رسل من قبلي ، ولست بخير منهم ، ثم قال الأحنف : هذا منا أو منكم ؟

فصل

ولما علم المختار أن ابن الزبير لا ينام عنهم ، وأن جيش الشام من قبل عبد الملك مع ابن زياد يقصدونه في جمع كثير لا يرام ، شرع يصانع ابن الزبير ويعمل على خداعه والمكر به ، فكتب إليه : إني كنت بايعتك على السمع والطاعة والنصح لك ، فلما رأيتك قد أعرضت عني تباعدت منك ، فإن كنت على ما أعهد منك فأنا على السمع والطاعة لك . والمختار يخفي هذا كل الإخفاء عن الشيعة ، فإذا ذكر له أحد شيئاً من ذلك أظهر لهم أنه أبعد الناس من ذلك . فلما وصل كتابه إلى ابن الزبير أراد أن يعلم أصادق أم كاذب ، فدعا عمر بنَ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، فقال له : تجهز إلى الكوفة فقد وليتكها ، فقال : وكيف وبها المختار ؟ فقال : يزعم أنه سامع لنا مطيع ، وأعطاه قريبا من أربعين ألفا يتجهز بها ، فسار فلما كان ببعض الطريق لقيه زائدة ابن قدامة من جهة المختار في خمسمائة فارس ملبّسة[1] ، ومعه سبعون ألفا من المال ، وقد تقدم إليه المختار فقال : أعطه المال فإن هو انصرف وإلا فأره الرجال فقاتله حتى ينصرف . فلما رأى عمر بن عبد الرحمن الجد قبض المال وسار إلى البصرة فاجتمع هو وابن مطيع بها عند أميرها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وذلك قبل وثوب المثنى بن مخرمة كما تقدم ، وقبل وصول مصعب بن الزبير إليها .

وبعث عبد الملك بن مروان ـ ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، في جيش إلى وادي القرى ليأخذوا المدينة من نواب ابن الزبير ، وكتب المختار إلى ابن الزبير إن أحببت أن أمدك بمدد ، وإنما يريد خديعته ومكايدته ، فكتب إليه ابن الزبير : إن كنت على طاعتي فلست أكره ذلك ، فابعث بجند إلى وادي القرى ليكونوا مدداً لنا على قتال الشاميين . فجهز المختار ثلاثة آلاف عليهم شرحبيل بن ورس الهمداني ، ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة ، وقال له :

---

(١) أي مجهزة ولابسة الدروع .

سر حتى تدخل المدينة ، فإذا دخلت فاكتب إلى حتى يأتيك أمرى ، وإنما يريد أخذ المدينة من ابن الزبير ، ثم يركب بعد ذلك إلى مكة ليحاصر ابن الزبير بها . وخشى ابن الزبير أن يكون المختار بعث ذلك الجيش مكرا ، فبعث العباس بن سهل بن سعد الساعدى فى ألفين ، وأمره أن يستعين بالأعراب وقال لهم : إن رأيتموهم فى طاعتى وإلا فكايدوهم حتى يهلكهم الله . فأقبل العباس بن سهل حتى لقى ابن وَرْس بالرقيم ، وقد بقى ابن وَرْس فى جيشه ، فاجتمعا على ماء هنالك ، فقال له العباس : ألستم فى طاعة ابن الزبير ؟ فقال : بلى ، قال : فإنه قد أمرنى أن تذهب إلى وادى القرى فنقاتل من به من الشاميين . فقال له ابن ورس : فإنى لم أومر بطاعتك ، وإنما أمرنى أن أدخل المدينة ، ثم أكتب إلى صاحبى فإنه يأمرنى بأمره . ففهم عباس مغزاه ولم يظهر له أنه فطن لذلك ، فقال له : رأيك أفضل ، فاعمل ما بدالك .

ثم نهض العباس من عنده ، وبعث إليهم الجزر والغنم والدقيق ، وقد كان عندهم حاجة شديدة إلى ذلك ، وجوع كثير ، فجعلوا يذبحون ويطبخون ويختبزون ويأكلون على ذلك الماء . فلما كان الليل بيتهم عباس بن سهل فقتل أميرهم وطائفة منهم نحوا من سبعين ، وأسر منهم خلقا كثيراً فقتل أكثرهم ، ورجع القليل منهم إلى المختار وإلى بلادهم خائبين .

قال أبو مخنف : فحدثنى أبو يوسف ، أن عباس بن سهل انتهى إليهم وهو يقول :

أنا ابن سَهْل فارس غيرُ وَكَلْ ... أَرْوَعُ مِقدامٌ إذا الكبش نَكَلْ

وأعتلى رأس الطِرماح البَطَلْ ... بالسيف يوم الروع حتى ينجدل

فلما بلغ خبرهم المختار قام فى أصحابه خطيباً فقال : إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار ، ألا إنه كان أمراً مأتيا ، وقضاء مقضيا . ثم كتب إلى محمد بن الحنفية مع صالح بن مسعود الخثعمى كتابا يذكر فيه : أنه بعث إلى المدينة جيشاً لنصرته فغدر بهم جيش ابن الزبير ، فإن رأيت أن أبعث جيشا آخر إلى المدينة وتبعث من قبلك رسلا إليهم فافعل ، فكتب إليه ابن الحنفية : أما بعد فإن أحبّ الأمور كلّها إلىّ ما أطيع الله فيه ، فأطع الله فيما أسررت وأعلنت ، واعلم أنى لو أردت القتال لوجدتُ الناس إلىّ سراعا ، والأعوان لى كثيرة ، ولكنى أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . وقال لصالح بن مسعود : قل للمختار فليتق الله وليكفف عن الدماء . فلما انتهى إليه كتاب محمد بن الحنفية قال : إنى قد أمرت بجمع البر واليسر ، وبطرح الكفر والغدر .

وذكر ابن جرير من طريق المدائنى وأبى مخنف ، أن ابن الزبير عمد إلى ابن الحنفية وسبعة عشر رجلا من أشراف أهل الكوفة فحبسهم حتى يبايعوه ، فكرهوا أن يبايعوا إلا من اجتمعت

عليه الأمة ، فتهددهم وتوعدهم واعتقلهم بزمزم ، فكتبوا إلى المختار بن أبي عبيد يستصرخونه ويستنصرونه ، ويقولون له : إن ابن الزبير قد توعدنا بالقتل والحريق ، فلا تخذلونا كما خذلتم الحسين وأهل بيته ، فجمع المختار الشيعة وقرأ عليهم الكتاب وقال : هذا صريخ أهل البيت يستصرخكم ويستنصركم ، فقام في الناس بذلك وقال : لست أنا بأبي إسحاق إن لم أنصركم نصراً مؤزراً ، وإن لم أرسل إليهم الخيل كالسيل يتلوه السيل ، حتى يحل بابن الكاهلية الويل . ثم وجّه أبا عبد الله الجدلي في سبعين راكباً من أهل القوة ، وظبيان بن عمارة التميمي في أربعمائة ، وأبا المعتمر في مائة ، وهانيء بن قيس في مائة ، وعُمَير بن طارق في أربعين ، وكتب إلى محمد بن الحنفية مع الطفيل بن عامر بتوجيه الجنود إليه ، فنزل أبو عبد الله الجدلي بذات عرق حتى تلاحق به نحو من مائة وخمسين فارساً ، ثم سار بهم حتى دخل المسجد الحرام نهاراً جهاراً وهم يقولون : يالثارات الحسين ! وقد أعد ابن الزبير الحطب لابن الحنفية وأصحابه ليحرقهم به إن لم يبايعوه ، وقد بقي من الأجل يومان ، فعمدوا ـ يعني أصحاب المختار ـ إلى محمد بن الحنفية فأطلقوه من سجن ابن الزبير ، وقالوا : إن أذنت لنا قاتلنا ابن الزبير ، فقال : إني لا أرى القتال في المسجد الحرام ، فقال لهم ابن الزبير : ليس نبرح وتبرحون حتى يبايع وتبايعوا معه ، فامتنعوا عليه ، ثم لحقهم بقية أصحابهم فجعلوا يقولون وهم داخلون الحرم : يالثارات الحسين ! فلما رأى ابن الزبير ذلك منهم خافهم وكف عنهم ، ثم أخذوا محمد بن الحنفية ، وأخذوا من الحجيج مالا كثيراً فسار بهم حتى دخل شِعب علي ، واجتمع معه أربعة آلاف رجل ، فقسم بينهم ذلك المال . هكذا أورده ابن جرير وفي صحتها نظر . والله أعلم .

قال ابن جرير : وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير ، وكان نائبه بالمدينة أخاه مصعب ، ونائبه على البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وقد استحوذ المختار على الكوفة ، وعبد الله بن خازم على بلاد خراسان ، وذكر حروباً جرت فيها لعبد الله بن خازم يطول ذكرها .

فصل

قال ابن جرير : وفي هذه السنة سار إبراهيم بن الأشتر إلى عبيد الله بن زياد ، وذلك لثمان بقين من ذي الحجة . وقال أبو مخنف عن مشايخه : ماهو إلا أن فرغ المختار من جبانة السبيع وأهل الكناسة ، فما ترك ابن الأشتر إلا يومين حتى أشخصه إلى الوجه الذي كان وجّهه فيه لقتال أهل الشام ، فخرج يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجة سنة ست وستين ، وخرج معه المختار

يُوَدّعه فى وجوه أصحابه ، وخرج معهم خاصة المختار ، ومعهم كرسىّ المختار على بَغْل أشهب ليستنصروا به على الأعداء ، وهم حافّون به يَدْعون ويصرخون ويستنصرون ويتضرعون ، فرجع المختار بعد أن وصاه بثلاث ، قال : يا ابن الأشتر اتق الله فى سرك وعلانيتك ، وأسرع السير ، وعاجل عدوك بالقتال . واستمر أصحاب الكرسى سائرين مع ابن الأشتر ، فجعل ابن الأشتر يقول : اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ـ سُنَّة بنى إسرائيل ، والذى نفسى بيده إذ عكفوا على عجلهم ـ فلما جاوز القنطرة هو وأصحابه رجع أصحاب الكرسى .

قال ابن جرير : وكان سبب اتخاذ هذا الكرسى ما حدثنى به عبد الله بن أحمد بن شبّويه حدثنى أبى ثنا سليمان ، ثنا عبد الله بن المبارك عن إسحاق بن يحيى بن طلحة ، حدثنى معبد بن خالد حدثنى طُفَيل بن جعدة بن هُبيرة قال : أعدمتُ مرّة من الورق ، فإنى لكذلك إذ مررت بباب رجل زيات هو جار لى ، له كرسى قد ركبه وسخ شديد ، فخطر فى بالى أن لو قلت للمختار فى هذا ، فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إلى بالكرسى ، فأرسل به ، فأتيت المختار فقلت له : إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدالى أن أذكره إليك ، قال : وما هو ؟ قلت : كرسى كان جَعْدة بن هُبيرة يجلس عليه كأنه كان يَرى أن فيه أثرة من علم . قال : سبحان الله ! ! فلم أخرت هذا إلى اليوم ؟ ابعثه إلى ، قال: فجئت به وقد غسل فخرج عودا ناصرا وقد شرب الزيت ، فأمر لى باثنى عشر ألفا ، ثم نودى فى الناس: الصلاة جامعة ، قال : فخطب المختار الناس فقال : إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله ، وإنه قد كان فى بنى إسرائيل تابوت يستنصرون به ، وإن هذا مثله ، ثم أمر فكشف عنه أثوابه وقامت السَّبَئية فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثا ، فقام شَبَث بن ربعىّ فأنكر على الناس وكاد أن يكفّر من يصنع بهذا التابوت هذا التعظيم ، وأشار بأن يكسر ويخرج من المسجد ويرمى فى الحش ، فشكرها الناس لشَبَث بن ربعى ، فلما قيل : هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل ، وبعث المختار ابن الأشتر ـ بعث معه بالكرسى يحمل على بغل أشهب قد غُشى بأثواب الحرير ، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فلما تواجهوا مع الشاميين وقتلوا ابن زياد ، ازداد تعظيمهم لهذا الكرسى حتى بلغوا به الكفر ، قال الطفيل بن جَعدة فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وندمت على ما صنعت ، وتكلم الناس فى هذا الكرسى وكثر عيب الناس له ، فغيب حتى لا يرى بعد ذلك .

وذكر ابن الكلبى أن المختار طلب من آل جعدة بن هبيرة الكرسى الذى كان علىّ يجلس عليه فقالوا ما عندنا شىء مما يقول الأمير ، فألح عليهم حتى علموا أنهم لو جاؤا بأى كرسى كان قبله منهم ، فحملوا إليه كرسيا من بعض الدور فقالوا : هذا هو ، فخرجت شِبام[1] وشاكر وسائر رءوس المختارية وقد عصبوه بالحرير والديباج . وحكى أبو مخنف: أن أول من سدن[2] هذا الكرسى

(١) شبام : حى من الأحياء ، وكذلك شاكر (٢) أى خدم وعظم والسادن: خادم الكعبة وبيت الأصنام

موسى بن أبى موسى الأشعرى . ثم إن الناس عتبوا عليه فى ذلك ، فرفعه إلى حَوْشب البرسمى ، وكان صاحبه حتى هلك المختار قبحه الله . ويروى أن المختار كان يظهر أنه لا يعلم بما يعظم أصحابه هذا الكرسى ، وقد قال فى هذا الكرسى أعشى همدان :

شهدتُ عليكم أنكم سبَئية | وأنى بكم ياشرطة الشرك عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة | وان كان قد لُفّت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت | شبامٌ حواليه ونَهْدٌ وخارف
وإنى امرؤ أحبيب آل محمد | وتابعت وَحْيا ضُمِّنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت | عليه قريش شمطها والغطارف

وقال المتوكل الليثى

أبلغ أبا إسحاق إن جئته | أنى بكرسيكم كافرُ
تنزُو شِبام حول أعواده | وتحملُ الوَحى له شاكر
محمرّة أعينهم حوله | كأنهن الحمص الحادر

قلت : هذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه ، وضعفه وقلة علمه وكثرة جهله ورداءة فهمه ، وترويجه الباطل على أتباعه ، وتشبيه الباطل بالحق ، ليضل به الطغام ، ويجمع عليه جهال العوام .

[قال الواقدى : وفى هذه السنة وقع فى مصر طاعون هلك فيه خلق كثير من أهلها ، وفيها ضرب الدنانير عبد العزيز بن مروان بمصر ، وهو أول من ضربها بها . قال صاحب مرآة الزمان : وفيها ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى ، وكملت عمارته فى سنة ثلاث وسبعين ، وكان السبب فى ذلك : أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة ، وكان يخطب فى أيام منى وعرفة ، ومقام الناس بمكة ، وينال من عبد الملك ويذكر مساوىء بنى مروان ، ويقول : إن النبي ﷺ لعن الحكم وما نسل ، وأنه طريد رسول الله ﷺ ولعينه ، وكان يدعو إلى نفسه ، وكان فصيحا ، فمال معظم أهل الشام إليه ، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا ، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج ويستعطف قلوبهم ، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وينحرون يوم العيد ويحلقون رءوسهم ، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه ، وكان يشنع عليه بمكة ويقول : ضاهى بها فعل الأكاسرة فى إيوان كسرى ، والخضراء ، كما فعل معاوية .

ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال ، ووكل بالعمل رجاء

ابن حيوة ويزيد بن سلام مولاه ، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس ، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة ، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغا ولا يتوقفا فيه ، فبثوا النفقات وأكثروا ، فبنوا القبة فجاءت من أحسن البناء ، وفرشاها بالرخام الملون ، وعملا للقبة جلالين[1] أحدهما من البود الأحمر للشتاء ، وآخر من أدم للصيف ، وحفا القبة بأنواع الستور ، وأقاما لها سدنة وخداما بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران ، ويعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل ، وجعل فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيرا ، وجعل فيها العود القماري[2] المغلف بالمسك وفرشاها والمسجد بأنواع البسط الملونة ، وكانوا إذا أطلقوا البخور شم من مسافة بعيدة ، وكان إذا رجع الرجل من بيت المقدس إلى بلاده توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياما ، ويعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس ، وأنه دخل الصخرة ، وكان فيه من السدنة والقوم القائمين بأمره خلق كثير ، ولم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس ، بحيث إن الناس التهوا بها عن الكعبة والحج ، وبحيث كانوا لا يلتفتون في موسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس ، وافتتن الناس بذلك افتتانا عظيما ، وأتوه من كل مكان ، وقد عملوا فيه من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيرا مما في الآخرة ، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة ، وقدم رسول الله ﷺ ، ووادي جهنم ، وكذلك في أبوابه ومواضع منه ، فاغتر الناس بذلك ، وإلى زماننا ، وبالجملة أن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً ، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء[3] وغير ذلك شيء كثير ، وأنواع باهرة . ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال ، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال ، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك ، فكتب إليهما : قد وهبته منكما ، فكتبا إليه : إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا ، فكتب إليهما : إذ أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب ، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث . فلما كان في خلافة أبي جعفر المنصور قدم بيت المقدس في سنة أربعين ومائة ، فوجد المسجد خراباً ، فأمر أن يقلع ذلك الذهب والصفائح التي على القبة والأبواب ، وأن يعمروا بها ما تشعث في المسجد ، ففعلوا ذلك . وكان المسجد طويلا فأمر أن يؤخذ من طوله ويزاد في عرضه . ولما كمل البناء كتب على القبة مما يلي الباب القبلي : أمر ببنائه بعد تشعثه[4] أمير المؤمنين عبد الملك سنة اثنتين وسبعين من الهجرة النبوية ، وكان طول المسجد من القبلة إلى الشمال سبعمائة وخمسة وستون ذراعاً ، وعرضه أربعمائة وستون ذراعا ، وكان فتوح القدس سنة ستة عشر ، والله سبحانه وتعالى أعلم] .

---

(١) الجلل البسط والأكسية ونحوها وما تلبسه الدابة (٢) نسبة إلى قمر ـ موضع يعرف بالعود الجيد
(٣) الفسيفساء : ألوان من الخرز تركب في حيطان البيوت من الداخل (٤) أي تهدمه وتفرقه

ثم دخلت سنة سبع وستين

فيها : كان مقتل عبيد الله بن زياد على يدى إبراهيم بن الأشتر النخعى ، وذلك أن إبراهيم ابن الأشتر خرج من الكوفة يوم السبت لثمان بقين من ذى الحجة فى السنة الماضية ، ثم استهلت هذه السنة وهو سائر لقصد ابن زياد فى أرض الموصل ، فكان اجتماعهما بمكان يقال له : الخازَرْ ، بينه وبين الموصل خمسة فراسخ ، فبات ابن الأشتر تلك الليلة ساهراً لا يستطيع النوم ، فلما كان قريب الصبح نهض فعبى جيشه وكتّب كتائبه ، وصلى بأصحابه الفجر فى أول وقت ، ثم ركب فناهض جيش ابن زياد ، وزحف بجيشه رويداً وهو ماش فى الرجالة حتى أشرف من فوق تل على جيش ابن زياد ، فإذا هم لم يتحرك منهم أحد ، فلما رأوهم نهضوا إلى خيلهم وسلاحهم مدهوشين، فركب ابن الأشتر فرسه وجعل يقف على رايات القبائل ، فيحرضهم على قتال ابن زياد ويقول : هذا قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ ، قد جاءكم الله به وأمكنكم الله منه اليوم ، فعليكم به فإنه قد فعل فى ابن بنت رسول الله ﷺ مالم يفعله فرعون فى بنى إسرائيل [هذا ابن زياد قاتل الحسين الذى حال بينه وبين ماء الفرات أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه ، ومنعه أن ينصرف إلى بلده أو يأتى يزيد بن معاوية حتى قتله ، ويحكم ! اشفوا صدوركم منه ، وارووا رماحكم وسيوفكم من دمه ، هذا الذى فعل فى آل نبيكم ما فعل ، قد جاءكم الله به، ثم أكثر من هذا القول وأمثاله ثم نزل تحت رايته][1] .

وأقبل ابن زياد فى خيله ورجله فى جيش كثيف قد جعل على ميمنته الحصين بن نمير وعلى الميسرة عمير بن الحباب السلمى ـ وكان قد اجتمع بابن الأشتر ووعده أنه معه ، وأنه سينهزم بالناس غداً ـ وعلى خيل ابن زياد شرحبيل بن ذى الكلاع ، وابن زياد فى الرجالة يمشى معهم . فما كان إلا أن تواقفا الفريقان حتى حمل الحصين بن نمير بالميمنة على ميسرة أهل العراق فهزمها ، وقتل أميرها على بن مالك الجُشَمى فأخذ رايته من بعده ولده محمد بن على فقتل أيضاً ، واستمرت الميسرة ذاهبة فجعل الأشتر يناديهم : إلىّ يا شرطة الله ، أنا ابن الأشتر ، وقد كشف عن رأسه ليعرفوه ، فالتاثوا به وانعطفوا عليه ، واجتمعوا إليه ، ثم حملت ميمنة أهل الكوفة على ميسرة أهل الشام . [وقيل بل انهزمت ميسرة أهل الشام وانحازت إلى ابن الأشتر ، ثم حمل ابن الأشتر بمن معه وجعل يقول لصاحب رايته : ادخل برايتك فيهم ، وقاتل ابن الأشتر يومئذ قتالا عظيما ، وكان لا يضرب بسيفه رجلا إلا صرعه ، وكثرت القتلى بينهم ، وقيل إن ميسرة أهل الشام][2] ثبتوا

(١) ، (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

وقاتلوا قتالا شديداً بالرماح ثم بالسيوف . ثم أردف الحلة ابن الأشتر فانهزم جيش الشام بين يديه فجعل يقتلهم كما يقتل الحلان ، واتبعهم بنفسه ومن معه من الشجعان، وثبت عبيد الله بن زياد في موقفه حتى اجتاز به ابن الأشتر فقتله وهو لا يعرفه ، لكن قال لأصحابه : التمسوا في القتلى رجلا ضربته بالسيف فنفحتني منه ريح المسك ، شَرّقت يداه وغرّبت رجلاه ، وهو واقف عند راية منفردة على شاطىء نهر خازَرَ . فالتمسوه فإذا هو عُبيد الله بن زياد ، وإذاهو قد ضربه ابن الأشتر فقطعه نصفين ، فاحتزوا رأسه وبعثوه إلى المختار إلى الكوفة مع البشارة بالنصر والظفر بأهل الشام وقتل من رءوس أهل الشام أيضاً: الحصين بن نُمير، وشُرَحبيل بن ذى الكلاع ، واتبع الكوفيون أهل الشام فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وغرق منهم أكثر ممن قتل واحتازوا ما في معسكرهم من الأموال والخيول .

وقد كان المختار بشر أصحابه بالنصر قبل أن يجىء الخبر ، فما ندرى أكان ذلك تفاؤلا منه ؟ أو اتفاقا وقع له ؟ أو كهانة ؟ وأما على ما كان يزعم أصحابه أنه أوحى إليه بذلك فلا ، فإن من اعتقد ذلك كفر ومن أقرهم على ذلك كفر ، لكن قال: إن الوقعة كانت بنصيبين فأخطأ مكانها، فإنها إنما كانت بأرض الموصل ، وهذا مما انتقده عامر الشعبى على أصحاب المختار حين جاءه الخبر ، وقد خرج المختار من الكوفة ليتلقى البشارة ، فأتى المدائن فصعد منبرها فبينما هو يخطب إذ جاءته البشارة وهو هنالك قال الشعبى : فقال لى بعض أصحابه : أما سمعته بالأمس يخبرنا بهذا؟ فقلت له : زعم أن الوقعة كانت بنصيبين من أرض الجزيرة ، وإنما قال البشير : إنهم كانوا بالخازر من أرض الموصل ، فقال : والله لاتؤمن ياشعبى حتى ترى العذاب الأليم . ثم رجع المختار إلى الكوفة .

وفى غيبته هذه تمكن جماعة ممن كان قاتله يوم جَبّانة السَّبِيع والكناسة من الخروج إلى مصعب ابن الزبير إلى البصرة ، وكان منهم شَبَث بن ربعى ، وأما ابن الأشتر فإنه بعث بالبشارة وبرأس ابن زياد وبعث رجلا على نيابة نصيبين واستمر مقيما فى تلك البلاد ، وبعث عمالا إلى الموصل وأخذ سِنجَار ودَارَا وما والاها من أرض الجزيرة .

وقال أبو أحمد الحاكم : كان مقتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة ست وستين ، والصواب سنة سبع وستين . وقد قال سراقة بن مرداس البارقي يمدح ابن الأشتر على قتله ابن زياد .

أتاكم غلام من عَرانِينِ مذحج * جرىء على الأعداء غيرُ نكول

فيا ابنَ زياد بُؤْ بأعظم هالك * وذق حد ماضى الشفرتين صقيل

ضربناك بالعَضب الحسام بِحدّة * إذا ما أبأنا قاتلاً بقتيل

جزَى الله خيراً شُرْطة الله إنهم * شفوا من عُبيد الله أمس غَليلِي

وهذه ترجمة ابن زياد

هو عُبيد الله بن زياد بن عبيد ، المعروف بابن زياد بن أبي سفيان ، ويقال له : زياد بن أبيه ، وابن سُمية ، أمير العراق بعد أبيه زياد . وقال ابن معين : ويقال له عبيد الله بن مرجانة وهي أمه . وقال غيره : وكانت مجوسية ، وكنيته أبو حفص ، وقد سكن دمشق بعد يزيد بن معاوية ، وكانت له دار عند الديماس[1] تعرف بعده بدار ابن عجلان ، وكان مولده في سنة تسع وثلاثين فيما حكاه ابن عساكر عن أبي العباس أحمد بن يونس الضبي . قال ابن عساكر : وروى الحديث عن معاوية وسعد بن أبي وقاص ومعقل بن يسار . وحدث عنه الحسن البصري وأبو المليح ابن أسامة . وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : ذكروا أن عبيد الله بن زياد حين قتل الحسين كان عمره ثمانيا وعشرين سنة ، قلت : فعلى هذا يكون مولده سنة ثلاث وثلاثين ، فالله أعلم .

وقد روى ابن عساكر أن معاوية كتب إلى زياد : أن أوفد إليّ ابنك ، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه ، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً ، فقال له : ما منعك من تعلم الشعر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمن كلام الشيطان ، فقال معاوية : اغرب فوالله ما منعني من الفرار يوم صفين إلا قول ابن الإطنابة حيث يقول:

أبت لي عِفتي وأبي بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح
وإعطائي على الإعدام مالي ... وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تُحمَدى أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن أنف صحيح

ثم كتب إلى أبيه : أن روّه من الشعر ، فروّاه حتى كان لا يسقط عنه منه شيء بعد ذلك ، ومن شعره بعد ذلك :

سيعلم مَروان بن نسوة أنني ... إذا التقت الخيلان أطعنها شزراً
وإني إذا حلّ الضيوف ولم أجد ... سوى فَرَسي أو سعته لهم نحراً

وقد سأل معاوية يوماً أهل البصرة عن ابن زياد فقالوا : إنه لظريف ولكنه يلحن ، فقال : أو ليس اللحن أظرف له ؟ قال ابن قتيبة وغيره : إنما أرادوا أنه يلحن في كلامه ، أي يلغز ، وهو ألحن بحجته ، كما قال الشاعر في ذلك :

منطق رائع ويلحن أحيانا ... وخير الحديث ما كان لحنا

وقيل : إنهم أرادوا أنه يلحن في قوله لحنا وهو ضدّ الإعراب ، وقيل: أرادوا اللحن الذي هو

---

(١) الديماس : الحمام ، والجمع دياميس ـ ودماميس

ضد الصوّاب وهو الأشبه ، والله أعلم . فاستحسن معاوية منه السهولة فى الكلام وأنه لم يكن ممن يعمق فى كلامه ويفخمه ، ويتشدق فيه . وقيل: أرادوا أنه كانت فيه لُكْنَة[1] من كلام العجم ، فإن أمه مرجانة كانت سيروية[2] وكانت بنت بعض ملوك الأعاجم يزدجرد أو غيره ، قالوا : وكان فى كلامه شىء من كلام العجم ، قال يوما لبعض الخوارج : أهروري أنت ؟ يعنى: أحروري أنت؟ وقال يوما: من كاتلنا كاتلناه ـ أى من قاتلنا قاتلناه ، وقول معاوية ذاك أظرف له ، أى أجود له حيث نزع إلى أخواله ، وقد كانوا يوصفون بحسن السياسة وجودة الرعاية ومحاسن الشيم .

ثم لما مات زياد سنة ثلاث وخمسين ، ولّى معاوية على البصرة سمرة بن جُندب سنة ونصفا ثم عزله وولى عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان بن سلمة ستة أشهر ، ثم عزله وولى عليها ابن زياد سنة خمس وخمسين فلما تولى يزيد الخلافة جمع له بين البصرة والكوفة ، فبنى فى إمارة يزيد البيضاء ، وجعل باب القصر الأبيض الذى كان لكسرى عليها . وبنى الحمراء وهى على سكة المِرْبد ، فكان يشتّى فى الحمراء ويصيف فى البيضاء ، قالوا : وجاء رجل إلى ابن زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إن امرأتى ماتت ، وإنى أريد أن أتزوج أمها ، فقال له : كم عطاؤك فى الديوان ؟ فقال : سبعمائة ، فقال : يا غلام حط من عطائه أربعمائة ، ثم قال له : يكفيك من فقهك هذا ثلاثمائة ، قالوا : وتخاصمت أم الفجيج وزوجها إليه وقد أحبت المرأة أن تفارق زوجها ، فقال أبو الفجيج : أصلح الله الأمير ، إن خير شطرى الرجل آخره ، وإن شرّ شطرى المرأة آخرها ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إن الرجل إذا أسن اشتد عقله واستحكم رأيه وذهب جهله ، وإن المرأة إذا أسنت ساء خلقها وقلّ عقلها وعقم رحمها واحتدّ لسانها ، فقال : صدقت خذ بيدها وانصرف . وقال يحيى بن معين : أمر ابن زياد لصفوان بن محرز بألفى درهم فسرقت ، فقال : عسى أن يكون خيراً ، فقال أهله : كيف يكون هذا خيراً ؟ فبلغ ذلك ابن زياد فأمر له بألفين آخرين ، ثم وجد الألفين فصارت أربعة آلاف فكان خيراً . وقيل لهند بنت أسماء بن خارجة ـ وكانت قد تزوجت بعده أزواجا من نواب العراق ـ من أعز أزواجك عندك وأكرمهم عليك ؟ فقالت : ما أكرم النساء أحد إكرام بشير بن مروان ، ولا هاب النساء هيبة الحجاج ابن يوسف ، ووددت أن القيامة قد قامت فأرى عبيد الله بن زياد ، وأشتفى من حديثه والنظر إليه ـ وكان أبى عذارتها ـ وقد تزوجت بالآخرين أيضاً .

وقال عثمان بن أبى شيبة ، عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال : أول من جهر بالمعوذتين فى الصلاة المكتوبة ابن زياد ، قلت : يعنى والله أعلم فى الكوفة ، فإن ابن مسعود كان لا يكتبهما فى مصحفه ، وكان فقهاء الكوفة عن كبراء أصحاب ابن مسعود يأخذون ، والله أعلم .

(١) الألكن: الذى لا يقيم العربية لعجمة لسانه (٢) نسبة إلى سيراون وهى كورة ماسبذان أو كورة بجانبها

وقد كانت فى ابن زياد جرأة وإقدام ومبادرة إلى مالا يجوز ، ومالا حاجة له به ، لما ثبت فى الحديث الذى رواه أبو يعلى ومسلم ، كلاهما عن شيبان بن فَرّوخ عن جرير عن الحسن أن عائذ بن عمرو دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أى بنى ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرِّعاء[1] الحُطمة ، فإياك أن تكون منهم » . فقال له اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : وهل كان فيهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم . وقد روى غير واحد عن الحسن أن عبيد الله بن زياد دخل على معقل بن يسار يعوده فقال له : إنى محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من رجل استرعاه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » .

وقد ذكر غير واحد أنه لما مات معقل صلّى عليه عبيد الله بن زياد ولم يشهد دفنه ، واعتذر بما ليس يجدى شيئا وركب إلى قصره . ومن جراءته إقدامه على الأمر بإحضار الحسين إلى بين يديه وإن قتل دون ذلك ، وكان الواجب عليه أن يجيبه إلى سؤاله الذى سأله فيما طلب من ذهابه إلى يزيد أو إلى مكة أو إلى أحد الثغور ، فلما أشار عليه شمر بن ذى الجَوْشَن بأن الحزم أن يحضر عندك وأنت تسيره بعد ذلك إلى حيث شئت من هذه الخصال أو غيرها ، فوافق شمراً على ما أشار به من إحضاره بين يديه ، فأبى الحسين أن يحضر عنده ليقضى فيه بما يراه ابن مرجانة . وقد تعس وخاب وخسر ، فليس لابن بنت رسول الله ﷺ أن يحضر بين يدى ابن مرجانة الخبيث . وقد قال محمد ابن سعد : أنبأنا الفضل بن دكين ومالك بن إسماعيل قالا : حدثنا عبد السلام بن حرب عن عبد الملك بن كردوس عن حاجب عبيد الله بن زياد قال : دخلت معه القصر حين قتل الحسين قال فاضطرم فى وجهه ناراً أو كلمة نحوها ، فقال بكمه هكذا على وجهه وقال : لا تحدثن بها أحدا . وقال شريك عن مغيرة قال : قالت مرجانة لابنها عبيد الله : يا خبيث ! قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ ؟ لا ترى الجنة أبداً . وقد قدمنا أن يزيد بن معاوية لما مات بايع الناس فى المِصْرَين لعبيد الله حتى يجتمع الناس على إمام ، ثم خرجوا عليه فأخرجوه من بين أظهرهم ، فسار إلى الشام فاجتمع بمروان ، وحسّن له أن يتولى الخلافة ويدعو إلى نفسه ففعل ذلك ، وخالف الضحاك بن قيس ، ثم انطلق عبيد الله إلى الضحاك بن قيس ، فما زال به حتى أخرجه من دمشق إلى مَرْج راهِط ، ثم حسّن له أن دعا إلى بيعة نفسه وخلع ابن الزبير ففعل ، فانحل نظامه ووقع ما وقع بمرج راهط ؛ من قتل الضحاك وخلق معه هنالك . فلما تولى مروان أرسل ابنَ زياد إلى العراق فى جيش فالتقى هو وجيش التوابين مع سليمان بن صُرَد فكسرهم ، واستمر قاصدا الكوفة فى ذلك الجيش ، فتعوق فى الطريق بسبب من كان يمانعه من أهل الجزيرة من الأعداء الذى هم من جهة ابن الزبير . ثم اتفق خروج ابن الأشتر إليه فى سبعة آلاف ، وكان مع ابن زياد أضعاف ذلك ، ولكن ظفر به ابن الأشتر فقتله شرّ

(١) الرعاء : جمع راعى وهو كل من ولى أمر قوم . والحطمة الراعى الظلوم الماشية يهشم بعضها ببعض

قتلة على شاطئ، نهر الخازر - قريبا من الموصل بخمس مراحل .

قال أبو أحمد الحاكم : وكان ذلك يوم عاشوراء، قلت : وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ، ومعه رأس حُصين بن نمير وشُرَحبيل بن ذى الكلاع وجماعة من رؤساء أصحابهم ، فسر بذلك المختار ، فقال يعقوب بن سفيان : حدثنى يوسف بن موسى بن جرير، عن يزيد بن أبى زياد قال : لما جىء برأس ابن مرجانة وأصحابه طرحت بين يدى المختار، فجاءت حَيَّة رقيقة ثم تخللت الرءوس حتى دخلت فى فَم ابن مرجانة وخرجت من منخره ، ودخلت فى منخره وخرجت من فمه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرءوس . ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر فقال : حدثنا واصل بن عبد الأعلا بن أبى معاوية عن الأعمش عن عمارة ابن عمير قال : لما جىء برأس عبيد الله وأصحابه فنصبت فى المسجد فى الرحبة ، فانتهيت إليها وهم يقولون : قد جاءت قد جاءت ، فإذا حية قد جاءت تخلل الرءوس حتى دخلت فى منخرى عبيد الله ابن زياد ، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ، ثم قالوا : قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح .

وقال أبو سليمان بن زيد : وفى سنة ست وستين قالوا : فيها قُتل ابن زياد والحُصَين بن نُمير ، ولى قتلهما إبراهيم بن الأشتر ، وبعث برءوسهما إلى المختار فبعث بهما إلى ابن الزبير ، فنصبت بمكة والمدينة . وهكذا حكى ابن عساكر عن أبى أحمد الحاكم وغيره أن ذلك كان فى سنة ست وستين ، زاد أبو أحمد: فى يوم عاشوراء ، وسكت ابن عساكر عن ذلك . والمشهور أن ذلك كان فى سنة سبع وستين كما ذكره ابن جرير وغيره ، ولكن بعث الرءوس إلى ابن الزبير فى هذه السنة متعذر لأن العداوة كانت قد قويت وتحققت بين المختار وابن الزبير فى هذه السنة ، وعما قليل أمر ابن الزبير أخاه مصعباً أن يسير من البصرة إلى الكوفة لحصار للمختار وقتاله ، والله أعلم .

وهذا ذكر مقتل المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذاب

على يدى مصعب بن الزبير وأهل البصرة

كان عبد الله بن الزبير قد عزل فى هذه السنة عن نيابة البصرة الحارثَ بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى المعروف بالقُبَاع ، وولاها لأخيه مصعب بن الزبير ، ليكون رِدْءاً وقِرْناً وكفؤاً للمختار ، فلما قدم مصعب البصرة دخلها مُتَلَثِّما فيمم المنبر ، فلما صعده قال الناس : أمير أمير ، فلما كشف اللِّثَام عرفه الناس فأقبلوا إليه ، وجاء القُبَاع فجلس تحته بدرجة ، فلما اجتمع الناس قام مصعب خطيباً فاستفتح القصص[1] حتى بلغ (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)[2]

---

(١) أى سورة القصص (٢) من الآية ٤ من سورة القصص

وأشار بيده نحو الشام أو الكوفة ، ثم قال (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)[1] وأشار إلى الحجاز ، وقال : يا أهل البصرة، إنكم تلقَّبون أمراءكم ، وقد سميت نفسي الجزّار، فاجتمع عليه الناس وفرحوا به ، ولما انهزم أهل الكوفة حين خرجوا على المختار فقهرهم وقتل منهم من قتل ، كان لا ينهزم أحد من أهلها إلا قصد البصرة ، ثم خرج المختار ليلتقي بالذى جاء بالروس والبشارة ، اغتنم من بقي بالكوفة من أعداء المختار غيبته ، فذهبوا إلى البصرة فراراً من المختار لقلة دينه وكفره ، ودعواه أنه يأتيه الوحي ، وأنه قدم الموالي على الأشراف . واتفق أن ابن الأشتر حين قتل ابن زياد واستقل بتلك النواحي ، فأحرز بلاداً وأقاليم ورَساتيق[2] لنفسه ، واستهان بالمختار ، فطمع مُصعب فيه وبعث محمد بن الأشعث بن قيس على البَريد إلى المهلب بن أبي صُفرة ، وهو نائبهم على خراسان ، فقدم في تجمل عظيم ومال ورجال وعَدد وعُدَد ، وجيش كثيف ، ففرح به أهل البصرة وتقوّى به مصعب ، فركب في أهل البصرة ومن اتبعهم من أهل الكوفة ، فركبوا في البحر والبر قاصدين الكوفة .

[وقدم مصعب بين يديه عَبَّاد بن الحصين ، وجعل على ميمنته عمر بن عبيد الله بن مَعمر ، وعلى الميسرة المهلب بن أبي صُفرة ، ورتب الأمراء على راياتها وقبائلها ، كمالك بن مِسْمع ، والأحنف بن قيس ، وزياد بن عمر ، وقيس بن الهيثم وغيرهم ، وخرج المختار بعسكره فنزل المدار وقد جعل على مقدمته أبا كامل الشاكري ، وعلى ميمنته عبد الله بن كامل ، وعلى ميسرته عَبدَ الله بن وهب الجُشَميّ . وعلى الخيل وزير بن عبد الله السلولي ، وعلى الموالي أبا عَمْرة صاحب شرطته][3] .

ثم خطب الناس وحثهم على الخروج ، وبعث بين يديه الجيوش ، وركب هو وخلق من أصحابه وهو يبشرهم بالنصر ، فلما انتهى مصعب إلى قريب الكوفة لقيتهم الكتائب المختارية فحملت عليهم الفرسان الزبيرية ، فما لبثت المختارية إلا يسيراً حتى هربوا على حمية ، وقد قتل منهم جماعة من الأمراء ، وخلق من القراء ، وطائفة كثيرة من الشيعة الأغنياء ، ثم انتهت الهزيمة إلى المختار .

[وقال الواقدي : لما انتهت مقدمة المختار إليه جاء مصعب فقطع الدجلة إلى الكوفة وقد حصن المختار القصر واستعمل عليه عبد الله بن شداد ، وخرج المختار بمن بقي معه فنزل حروراء ، فلما قرب جيش مصعب منه جهز إلى كل قبيلة كردوساً ، فبعث إلى بكر بن وائل سعيد بن مُنْقِذ ،

(١) الآيتان: ٥، ٦ من سورة القصص (٢) أي قرى (٣) مابين التوسيقين ساقط من بعض النسخ .

وإلى عبد القيس مالك بن منذر ، وإلى العالية عبد الله بن جعدة ، وإلى الأزد مسافر بن سعيد ، وإلى بنى تميم سليم بن يزيد الكندى ، وإلى محمد بن الأشعث السائب بن مالك ، ووقف المختار فى بقية أصحابه فاقتتلوا قتالا شديداً إلى الليل، فقتل أعيان أصحاب المختار ، وقتل تلك الليلة محمد بن الأشعث وعمير بن على بن أبى طالب ، وتفرق عن المختار باقى أصحابه ، فقيل له:القصر القصر ، فقال: والله ما خرجت منه وأنا أريد أن أعود إليه ، ولكن هذا حكم الله ، ثم صاروا إلى القصر فدخل وجاءه مصعب ففرق القبائل فى نواحى الكوفة ، واقتسموا المحال ، وخلصوا إلى القصر ، وقد منعوا المختار المادة والماء ، وكان المختار يخرج فيقاتلهم ثم يعود إلى القصر ، ولما اشتد عليه الحصار قال لأصحابه : إن الحصار لا يزيدنا إلا ضعفا ، فانزلوا بنا حتى نقاتل حتى الليل حتى نموت كراما ، فوهنوا ، فقال : أما فوالله لا أعطى بيدى . ثم اغتسل وتطيب وتحنط وخرج فقاتل هو ومن معه حتى قتلوا][1] .

وقيل بل أشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته ، فدخله وهو ملوم مذموم، ومن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم ، فحاصره مُصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم ، وضيق عليهم المسالك والمقاصد ، وانسدت عليهم أبواب الحيل ، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم ، ثم جعل المختار يجيل فكرته ويكرر رويته فى الأمر الذى قد حلّ به ، واستشار من عنده فى هذا السبب السيء الذى قد اتصل سببه بسببه من الموالى والعبيد ، ولسان القدر والشرع يناديه(قل جاء الحقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيد)[2] ثم قوى عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه ، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه ، ورأى أن يموت على فرسه ، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه ، فنزل حمية وغضباً ، وشجاعة وكلَبا[3] ، وهو مع ذلك لا يجد مناصاً ولا مفراً ولا مهرباً ، وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر ، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر ، ولما خرج من القصر سأل أن يخلى سبيله فيذهب فى أرض الله فقالوا له إلا على حكم الأمير .والمقصود أنه لما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان ، وهما: طَرَفة وطَرَّاف ـ ابنا عبد الله بن دَجَاجة من بنى حنيفة ، فقتلاه بمكان الزَّيَّاتين من الكوفة ، واحتزا رأسه وأتيا به إلى مصعب بن الزبير ، وقد دخل قصر الإمارة ، فوضع بين يديه ، كما وضع رأس ابن زياد بين يدى المختار ، وكما وضع رأس الحسين بين يدى ابن زياد ، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدى عبد الملك بن مروان ، فلما وضع رأس المختار بين يدى مصعب أمر لهما بثلاثين ألفا .

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ (٢) الآية :٤٩ من سورة سبأ .(٣) الكلب بالتحريك القيادة

وقد قتل مُصعب جماعة من المختارية ، وأسر منهم خمسمائة أسير ، فضرب أعناقهم عن آخرهم في يوم واحد ، وقد قتل من أصحاب مصعب في الواقعة محمد بن الأشعث بن قيس ، وأمر مصعب بكف المختار فقُطعت وسُمِّرت إلى جانب المسجد ، فلم يزل هنالك حتى قدم الحجاج ، فسأل عنها فقيل له : هي كَفّ المختار ، فأمر بها فرفعت وانتزعت من هنالك ، لأن المختار كان من قبيلة الحجاج والمختار هو الكذّاب ، والمُبِير ـ الحجّاج ، ولهذا أخذ الحجاج بثأره من ابن الزبير فقتله وصلبه شهوراً ، وقد سأل مصعب أمّ ثابت بنت سَمُرة بن جُنْدُب ـ امرأة المختار عنه فقالت : ما عسى أن أقول فيه إلا ما تقولون أنتم فيه ، فتركها واستدعى بزوجته الأخرى ، وهي عَمْرة بنت النعمان بن بَشير فقال لها : ما تقولين فيه ؟ فقالت : رحمه الله ؛ لقد كان عبداً من عباد الله الصالحين ، فسجنها وكتب إلى أخيه إنها تقول إنه نبيٌّ ، فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها ، فأخرجها إلى ظاهر البلد فضربت ضربات حتى ماتت ، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

إنّ من أعجب العجائب عندي قَتْلَ بيضاء حُرّة عُطْبول
قُتِلت هكذا على غير جُرْم إن لله دَرّها مِنْ قَتيل
كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانيات جَرُّ الذُّيول

وقال أبو مخنف : حدثني محمد بن يوسف ، أن مصعبا لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب فسلّم عليه فقال ابن عمر : من أنت ؟ فقال : أنا ابن أخيك مصعب بن الزبير ، فقال له ابن عمر : نعم ، أنت القاتل سبعةَ آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة ؟ عِش ما استطعت ! فقال له مصعب : إنهم كانوا كفرة سحرة ، فقال ابن عمر : والله لو قتلت عِدّتَهم غنما من تُراثِ أبيك لكان ذلك سَرَفًا .

وهذه ترجمة المختار بن أبي عبيد الكذاب

هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عُقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف الثقفي ، أسلم أبوه في حياة النبي ﷺ ، ولم يره ، فلهذا لم يذكره أكثر الناس في الصحابة ، وإنما ذكره ابن الأثير في الغابة ، وقد كان عُمَرُ بعثه في جيش كثيف في قتال الفرس سنة ثلاث عشرة ، فقتل يومئذ شهيداً ، وقتل معه نحو من أربعة آلاف من المسلمين ، كما قدمنا ، وعرف ذلك الجسر به ـ وهو جسر على دجلة ، فيقال له إلى اليوم : جسر أبي عُبيد ، وكان له من الولد صفية بنت أبي عبيد ، وكانت من الصالحات العابدات ، وهي زوجة عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان عبد الله لها مكرما ومحباً ، وماتت في حياته . وأما أخوها المختار هذا فإنه كان أولا ناصبياً يبغض علياً بغضاً شديداً ، وكان عند عمه في المدائن ، وكان عمه نائبها ، فلما دخلها الحسن بن عليّ خذله أهل العراق وهو سائر إلى الشام لقتال معاوية بعد مقتل أبيه ، فلما أحس الحسن منهم بالغدر فرّ منهم إلى المدائن

فى جيش قليل ، فقال المختار لعمه : لو أخذت الحسن فبعثته إلى معاوية لأخذت عنده اليد البيضاء أبدا ، فقال له عمه : بئس ما تأمرنى به يا ابن أخى ، فما زالت الشيعة تبغضه حتى كان من أمر مسلم بن عقيل بن أبى طالب ما كان .

وكان المختار من الأمراء بالكوفة ، فجعل يقول : أما لأنصرنه ، فبلغ ابن زياد ذلك فحبسه بعد ضربه مائة جلدة ، فأرسل ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يتشفع فيه ، فأرسل يزيد إلى ابن زياد فأطلقه وسيره إلى الحجاز فى عباءة ، فصار إلى ابن الزبير بمكة فقاتل معه حين حصره أهل الشام قتالا شديدا ، ثم بلغ المختار ما قال أهل العراق فيه من التخبيط ، فسار إليهم وترك ابن الزبير ، ويقال: إنه سأل ابن الزبير أن يكتب له كتابا إلى ابن مطيع نائب الكوفة ففعل ، فسار إليها ، وكان يظهر مدح ابن الزبير فى العلانية ، ويسبه فى السر ، ويمدح محمد بن الحنفية ويدعو إليه ، وما زال حتى استحوذ على الكوفة بطريق التشيع وإظهار الأخذ بثأر الحسين ، وبسبب ذلك التفت عليه جماعات كثيرة من الشيعة ، وأخرج عامل ابن الزبير منها ، واستقر ملك المختار بها ، ثم كتب إلى ابن الزبير يعتذر إليه ، ويخبره أن ابن مطيع كان مداهنا لبنى أمية ، وقد خرج من الكوفة ، وأنا ومن بها فى طاعتك ، فصدقه ابن الزبير لأنه كان يدعو إليه على المنبر يوم الجمعة على رءوس الناس ، ويظهر طاعته. ثم شرع فى تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد ، فقتل منهم خلقا كثيراً ، وظفر برءوس كبار منهم ، كعمر بن سعد بن أبى وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين ، وشمر بن ذى الجوشن أمير الألف الذين ولوا قتل الحسين ، وسنان بن أبى أنس ، وخولىّ بن يزيد الأصبحى ، وخلق غير هؤلاء؛ ومازال حتى بعث سيف نقمته إبراهيم ابن الأشتر فى عشرين ألفا إلى ابن زياد ، وكان ابن زياد حين التقاه فى جيش أعظم من جيشه ـ فى أضعاف مضاعفة ـ كانوا ثمانين ألفا ، وقيل ستين ألفا ، فقتل ابن الأشتر ابن زياد وكسر جيشه ، واحتاز ما فى معسكره، ثم بعث برأس ابن زياد ورءوس أصحابه مع البشارة إلى المختار ، ففرح بذلك فرحاً شديدا ، ثم إن المختار بعث برأس ابن زياد ورأس حصين بن نمير ومن معهما ـ إلى ابن الزبير بمكة ، فأمر ابن الزبير بها فنصبت على عقبة الحجون .

وقد كانوا نصبوها بالمدينة ، وطابت نفس المختار بالملك ، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع فلما تبين ابن الزبير خداعه ومكره وسوء مذهبه ، بعث أخاه مصعباً أميرا على العراق ، فسار إلى البصرة فجمع العساكر، فما تم سرور المختار حتى سار إليه مصعب بن الزبير من البصرة فى جيش هائل فقتله واحتز رأسه، وأمر بصلب كفه على باب المسجد ، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشرط على البريد ، إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، فوصل مكة بعد العشاء فوجد عبد الله يتنفل

فما زال يصلي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس ، فلما كان قريب الفجر قال : ما جاء بك ؟ فألقى إليه الكتاب فقرأه ، فقال : يا أمير المؤمنين معي الرأس ، فقال : ألقه على باب المسجد فألقاه ثم جاء فقال : جائزتي يا أمير المؤمنين ، فقال : جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق .

ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن ، وكذلك سائر الدول ، وفرح المسلمون بزوالها ، وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقاً ، بل كان كاذباً يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل . قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا عيسى القارئ، أبو عمير بن السدي عن رفاعة القتباني قال : دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك ، قال: فأردت أن أضرب عنقه ، قال : فذكرت حديثا حدثنيه أخي عمرو بن الحَمِق ، قال قال رسول الله ﷺ : «أيما مؤمن أمن مؤمنا على دمه فقتله فأنا من القاتل برىء» . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن حماد بن سلمة حدثني عبد الملك بن عمير عن رفاعة بن شداد قال : كنت أقوم على رأس المختار فلما عرفت كذبه هممت أن أسل سيفي فأضرب عنقه ، فذكرت حديثا حدثناه عمرو بن الحمق قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أمن رجلا على نفسه فقتله أعطي لواء غدر يوم القيامة» . ورواه النسائي وابن ماجة من غير وجه عن عبد الملك بن عمير وفي لفظ لهما : «من أمن رجلا على دم فقتله فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً» وفي سند هذا الحديث اختلاف. وقد قيل لابن عمر : إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه ، فقال: صدق ، قال تعالى (وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوْليائهم[1]) وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني عنده ، وكان يتعاهد مبيتي بالليل ، قال : فقال لي : اخرج فحدث الناس ، قال : فخرجت فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت: الوحي وحيان ، قال الله تعالى (بما أوْحينا إليكَ هَذَا القرآن)[2] وقال تعالى (وكذلكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شياطِينَ الإنسِ والجنِّ يُوحِي بعضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَولِ غروراً)[3] قال: فهموا أن يأخذوني ، فقلت: مالكم وذاك إني مفتيكم وضيفكم . فتركوني ، وإنما أراد عكرمة أن يعرض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي ينزل عليه .

وروى الطبراني من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباها دخل على المختار بن أبي عبيد فقال له : يا أبا عامر لو شفت[4] رأي جبريل وميكائيل ، فقال له زيد: خسرت وتعست ، أنت أهون

---

(١) من الآية ١٢١ من سورة الأنعام . (٢) من الآية ٣ من سورة يوسف.

(٣) من الآية ١١٢ من سورة الأنعام .

(٤) كذا بالأصول كلها ، وفي القاموس : شاف تطلع وأشرف .

على الله من ذلك ، كذاب مفتر على الله ورسوله . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق بن يوسف ثنا ابن عوف الصديق الناجي، أن الحجاج بن يوسف دخل على أسماء بنت أبي بكر الصديق ، بعد ما قتل ابنها عبد الله بن الزبير فقال : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل به وفعل، فقالت له: كذبت ، كان باراً بالوالدين،صواماً قواماً،والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ «أنه سيخرج من ثقيف كذابان: الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير» وهكذا رواه أحمد بهذا السند واللفظ . وقد أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل عن عقبة بن مكرم العمى البصري عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي عن الأسود بن شيبان عن أبي نوفل عن أبي عقرب واسمه معاوية بن سلم عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « إن في ثقيف كذابا ومبيراً». وفي الحديث قصة طويلة في مقتل الحجاج ولدها عبد الله في سنة ثلاث وسبعين كما سيأتي،وقد ذكر البيهقي هذا الحديث في دلائل النبوة، وقد ذكر العلماء أن الكذاب هو المختار بن أبي عبيد ، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ، وأسر إلى أخصائه أنه يوحى إليه ، ولكن ما أدرى هل كان يدعى النبوة أم لا ؟ وكان قد وضع له كرسي يعظم ويحف به الرجال ، ويستر بالحرير ، ويحمل على البغال وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن ، ولا شك أنه كان ضالا مضلا أراح الله المسلمين منه بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين ، كما قال تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون)[1] وأما المبير فهو القتال، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي نائب العراق لعبد الملك بن مروان ، الذي انتزع العراق من يد مصعب بن الزبير ، كما سيأتي بيانه قريباً .

وذكر الواقدي أن المختار لم يزل مظهرا موافقة ابن الزبير حتى قدم مصعب إلى البصرة في أول سنة سبع وستين ، وأظهر مخالفته فسار إليه مصعب فقاتله ، وكان المختار في نحو من عشرين ألفاً ، وقد حمل عليه المختار مرة فهزمه ، ولكن لم يثبت جيش المختار حتى جعلوا ينصرفون إلى مصعب ويدعون المختار ، وينقمون عليه ما هو فيه من الكهانة والكذب فلما رأى المختار ذلك انصرف إلى قصر الإمارة فحاصره مصعب فيه أربعة أشهر ، ثم قتله في رابع عشر من رمضان سنة سبع وستين، وله من العمر سبع وستون سنة فيما قيل .

فصل

ولما استقر مصعب بن الزبير بالكوفة بعث إلى إبراهيم بن الأشتر ليقدم عليه ، وبعث إليه عبد الملك بن مروان ليقدم عليه ، فحار ابن الأشتر في أمره ، وشاور أصحابه إلى أيهما يذهب ، ثم اتفق رأيهم على الذهاب إلى بلدهم الكوفة ، فقدم ابن الأشتر على مصعب بن الزبير فأكرمه وعظمه

(١) الآية ١٢٩ من سورة الأنعام .

واحترمه كثيراً ، وبعث مصعب المهلب بن أبي صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، وكان قد استخلف على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر ، وأقام هو بالكوفة ، ثم لم تنسلخ هذه السنة حتى عزله أخوه عبد الله بن الزبير عن البصرة وولى عليها ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير ، وكان شجاعا جواداً مخلِّطا ، يعطى أحيانا حتى لا يدع شيئاً ، ويمنع أحياناً مالم يمنع مثله ، وظهرت خفة وطيش في عقله ، وسُرعة في أمره ، فبعث الأحنف إلى عبد الله بن الزبير فعزله وأعاد إلى ولايتها أخاه مصعباً ـ مضافاً إلى ما بيده من ولاية الكوفة ، قالوا : وخرج حمزة ابن عبد الله بن الزبير من البصرة بمال كثير من بيت مالها ، فعرض له مالك بن مِسْمع فقال : لا ندعك تذهب بأعطياتنا ، فضمن له عبيد الله بن مَعْمر العطاء فكف عنه ، فلما انصرف حمزة لم يقدم على أبيه مكة ، بل عدل إلى المدينة ، فأودع ذلك المال رجالا ، فكلهم غَلّ ما أودعه وجحده ، سوى رجل من أهل الكتاب ، فأدى إليه أمانته . فلما بلغ أباه ما صنع قال : أبعده الله ، أردت أن أباهيَ به بني مروان فنكص . وذكر أبو مخنف ، أن حمزة بن عبد الله بن الزبير ولى البصرة سنة كاملة ، فالله أعلم .

قال ابن جرير : وحج بالناس فيها عبد الله بن الزبير ، وكان عامِلَه على الكوفة أخوه مصعب ، وعلى البصرة ابنه حمزة ، وقيل: بل كان رجع إليها أخوه ، وعلى خراسان وتلك البلاد عبد الله ابن خازم السلمي [مِن جهة ابن الزبير والله سبحانه أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان : الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وأبو الجَهم ـ وهو صاحب الانبجانية المذكورة في الحديث الصحيح . وفيها قتل خلق كثير يطول ذكرهم][1]

ثم دخلت سنة ثمان وستين

ففيها : ردّ عبد الله أخاه مصعباً إلى إمرة البصرة ، فأتاها فأقام بها ، واستخلف على الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ـ قباع ، واستعمل على المدينة جابر بن الأسود الزهري ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الأشعث ، لكونه ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطا ، فإنه أراد منه أن يبايع لابن الزبير فامتنع من ذلك فضربه ، فعزله ابن الزبير . وفيها هلك ملك الروم قسطنطين ابن قسطنطين ببلده . وفيها كانت وقعة الأزارقة .

وذلك أن مصعباً كان قد عزل عن ناحية فارس المهلب بن أبي صفرة ، وكان قاهراً لهم وولاه الجزيرة ، وكان المهلب قاهراً للأزارقة ، وولى على فارس عُمر بن عُبيد الله بن مَعْمر ، فثاروا عليه

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

فقاتلهم عُمر بن عبيد الله فقهرهم وكسرهم ، وكانوا مع أميرهم الزبير بن الماحُوز ، ففروا بين يديه إلى اصطَخر ، فاتبعهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقتلوا ابنه . ثم ظفر بهم مرة أخرى ، ثم هربوا إلى بلاد أصبهان ونواحيها ، فتقوّوا هنالك وكثر عددهم وعددهم ، ثم أقبلوا يريدون البصرة ، فمروا ببعض بلاد فارس وتركوا عمر بن عبيد الله بن مَعمر وراء ظهورهم ، فلما سمع مصعب بقدومهم ركب في الناس وجعلَ يلوم عمر بن عبيد الله بتركه هؤلاء يجتازون ببلاده .

وقد ركب عمر بن عبيد الله في آثارهم ، فبلغ الخوارج أن مصعباً أمامهم وعمر بن عبيد الله وراءهم ، فعدلوا إلى المدائن فجعلوا يقتلون النساء والولدان ، ويبقرون بطون الحبالى ، ويفعلون أفعالا لم يفعلها غيرهم ، فقصدهم نائب الكوفة الحارث بن أبي ربيعة ومعه أهلها وجماعات من أشرافها ، منهم : ابن الأشتر وشَبَث بن ربعي ، فلما وصلوا إلى جسر الصَّراة قطعه الخوارج بينه وبينهم ، فأمر الأمير بإعادته ، ففرت الخوارج هاربين بين يديه ، فاتبعهم عبد الرحمن بن مِخنف في ستة آلاف فروا على الكوفة ، ثم صاروا إلى أرض أصبهان ، فانصرف عنهم ولم يقاتلهم . ثم أقبلوا فحاصروا عتّاب بن ورقاء شهراً ، بمدينة جيا ، حتى ضيقوا على الناس فنزلوا إليهم فقاتلوهم فكشفوهم وقتلوا أميرهم الزبير بن الماحُوز وغنموا ما في معسكرهم ، وأمَّرت الخوارج عليهم قَطَرِيّ بن الفُجَاءة ثم ساروا إلى بلاد الأهواز ، فكتب مصعب بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة ـ وهو على الموصل ـ أن يسير إلى قتال الخوارج ، وكان أبصر الناس بقتالهم ، وبعث مكانه إلى الموصل إبراهيم بن الأشتر ، فانصرف المهلب إلى الأهواز فقاتل فيها الخوارج ثمانية أشهر قتالا لم يسمع بمثله .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة كان القحط الشديد ببلاد الشام بحيث لم يتمكنوا معه من الغزو لضعفهم وقلة طعامهم وميرتهم . قال ابن جرير : وفيها قتل عُبيد الله بن الحرّ ، وكان من خبره أنه كان رجلا شجاعا تتقلب به الأحوال والأيام والآراء ، حتى صار من أمره أنه لا يطاع لأحد من بني أمية ولا لآل الزبير ، وكان يمر على عامل الكورة من العراق وغيره ، فيأخذ منه جميع ما في بيت ماله قهراً ويكتب له براءة ويذهب فينفقه على أصحابه . وكان الخلفاء والأمراء يبعثون إليه الجيوش فيطردها ويكسرها قلّت أو كثُرت ، حتى كاع[1] فيه مصعب بن الزبير وعماله ببلاد العراق ، ثم إنه وفد على عبد الملك بن مروان فبعثه في عشرة نفر وقال : ادخل الكوفة وأعلمهم أن الجنود ستصل إليهم سريعاً ، فبعث في السر إلى جماعة من إخوانه فظهر على أمره ، فأعلم أمير الكوفة الحارث بن عبد الله فبعث إليه جيشا فقتلوه في المكان الذي هو فيه ، وحمل رأسه إلى البصرة ، واستراح الناس منه .

---

(١) أي جبن وهاب . والكائع : الجبان

قال ابن جرير : وفيها شهد موقف عرفة أربع رايات متباينة ، وكل واحدة منها لا تأتم بالأخرى ، الواحدة لمحمد بن الحنفية فى أصحابه ، والثانية لنجدة الحرورى وأصحابه ، والثالثة لبنى أمية ، والرابعة لعبد الله بن الزبير ، وكان أول من دفع رايته ابن الحنفية ، ثم نجدة ، ثم بنو أمية ، ثم دفع ابن الزبير فدفع الناس معه . وكان عبد الله بن عمر فيمن انتظر دفع ابن الزبير ، ولكنه تأخر دفعه ، فقال ابن عمر : أشبه بتأخره دفع الجاهلية ، فدفع ابن عمر فدفع ابن الزبير ، وتحاجز الناس فى هذا العام فلم يكن بينهم قتال . وكان على نيابة المدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهرى من جهة ابن الزبير ، وعلى الكوفة والبصرة أخوه مصعب ، وعلى ذلك الشام ومصر عبد الملك ابن مروان ، والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان :

[عبد الله بن يزيد الأوسى ، شهد الحديبية ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث . وعبدالرحمن بن يزيد بن الخطاب العدوى ـ ابن أخى عمر بن الخطاب ، أدرك النبى ﷺ ، وتوفى بالمدينة عن نحو سبعين سنة . عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى . عدى بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن امرىء القيس ، صحابى جليل، سكن الكوفة ثم سكن قرقيسيا . زيد بن أرقم بن زيد صحابى جليل][1] .

وفيها توفى عبد الله بن عباس ترجمان القرآن

وابن عم رسول الملك الديان

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى أبو العباس الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ ، حبر هذه الأمة ، ومفسر كتاب الله وترجمانه ، كان يقال له : الحبر والبحر ، وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً ، وعن جماعة من الصحابة ، وأخذ عنه خلق من الصحابة وأمم من التابعين ، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة ، لاتساع علمه وكثرة فهمه وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله ، رضى الله عنه وأرضاه . وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين . وهو والد الخلفاء العباسيين ، وهو أخو إخوة عشرة ذكور من أم الفضل للعباس ، وهو آخرهم مولداً ، وقد مات كل واحد منهم فى بلد بعيد من الآخر كما سيأتى ذلك . قال مسلم بن خالد الزنجى المكى عن ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما كان رسول الله ﷺ فى الشعب جاء أبى إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا محمد

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

أرى أم الفضل قد اشتملت على حمل ، فقال : « لعل الله أن يقر أعينكم » . قال : فلما ولدتني أتى بي رسول الله ﷺ وأنا في خرقة فحنكني بريقه ، قال مجاهد : فلا نعلم أحداً حنكه رسول الله ﷺ بريقه غيره ، وفي رواية أخرى :فقال رسول الله ﷺ : « لعل الله أن يبيض وجوهنا بغلام » فولدت عبد الله بن عباس .

وعن عمرو بن دينار قال : ولد ابن عباس عام الهجرة ، وروى الواقدي من طريق شعبة عن ابن عباس أنه قال : ولدت قبل الهجرة بثلاث سنين ، ونحن في الشعب ، وتوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، ثم قال الواقدي : وهذا مالا خلاف فيه بين أهل العلم . واحتج الواقدي بأنه كان قد ناهز الحلم عام حجة الوداع . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون ، وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم . وقال شعبة وهشام وابن عوانة ، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين مختون . زاد هشام : وقد جمعت المُحكَم على عهد رسول الله ﷺ. قلت: وما المُحكم ؟ قال : المفصّل . وقال أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قبض رسول الله ﷺ وأنا ابن خمس عشرة سنة مختون ، وهذا هو الأصح ، ويؤيده صحة ما ثبت في الصحيحين . ورواه مالك عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال : أقبلت راكبا على أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام ، ورسول الله ﷺ يصلي بالناس بمنى إلى غير جدار ، فمررت بين يدي بعض الصف ، فنزلت وأرسلت الأتان ترتع ودخلت في الصف ، فلم ينكر على ذلك أحد .

وثبت عنه في الصحيح أنه قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ، كانت أمي من النساء وكنت أنا من الولدان ، وهاجر مع أبيه قبل الفتح ، فاتفق لقياهما النبي ﷺ بالجحفة ، وهو ذاهب لفتح مكة ، فشهد الفتح وحنيناً والطائف عام ثمان ، وقيل كان في سنة تسع وحجة الوداع سنة عشر ، وصحب النبي ﷺ حينئذ ولزمه ، وأخذ عنه وحفظ وضبط الأقوال والأفعال والأحوال ، وأخذ عن الصحابة علماً عظيما مع الفهم الثاقب والبلاغة ، والفصاحة والجمال والملاحة ، والأصالة والبيان ، ودعا له رسول الرحمن ﷺ ، كما وردت به الأحاديث الثابتة الأركان ، أن رسول الله ﷺ « دعا له بأن يعلمه التأويل ، وأن يفقهه في الدين » . وقال الزبير ابن بكار : حدثني ساعدة بن عبيد الله المزني عن داود بن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أنه قال : إن عمر كان يدعو عبد الله بن عباس فيقربه ويقول : إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك يوماً فمسح رأسك وتفل في فيك وقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وبه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم بارك فيه وانشر منه » . وقال حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بت في بيت خالتي ميمونة فوضعت للنبي ﷺ غسلا ، فقال : « من وضع هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عباس ، فقال : اللهم علمه التأويل ، وفقهه في الدين » . وقد رواه غير واحد عن ابن خثيم بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن بكر بن أبي صفرة أبو يونس عن عمرو بن دينار أن كريبا أخبره أن ابن عباس قال : أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرني حتى جعلني حذاءه ، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست[1] فصلى رسول الله ﷺ فلما انصرف من صلاته قال : « ما شأني أجعلك حذائي فتخنس » ؟ فقلت : يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله عز وجل ؟ قال : فأعجبته فدعا الله لي أن يزيدني علما وفهما ، قال : ثم رأيت رسول الله ﷺ نام حتى سمعت نفخه[2] ، ثم أتاه بلال فقال : يا رسول الله الصلاة ، فقام فصلى ما أعاد وضوءاً .

وقال الإمام أحمد وغيره : حدثنا هاشم بن القاسم ثنا ورقاء سمعت عبيد الله بن أبي يزيد يحدث عن ابن عباس قال : « أتى رسول الله ﷺ الخلاء فوضعت له وضوءاً ، فلما خرج قال من وضع ذا ؟ فقيل ابن عباس ، فقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وقال الثوري وغيره عن ليث عن أبي جهضم موسى بن سالم عن ابن عباس أنه رأى جبريل وأن رسول الله ﷺ دعاه بالحكمة ، وفي رواية بالعلم - مرتين . وقال الدارقطني : حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي وآخرون قالوا : حدثنا العباس بن محمد حدثنا محمد بن مصعب بن أبي مالك النخعي عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : « رأيت جبريل مرتين ، ودعا إلي رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين » ، ثم قال : غريب من حديث أبي إسحاق السبيعي عن عكرمة ، تفرد به عنه أبو مالك النخعي عبد الملك بن حسين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ضمني رسول الله ﷺ وقال : «اللهم علمه الحكمة» . ورواه أحمد أيضاً عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال : « ضمني إليه رسول الله ﷺ وقال : اللهم علمه الكتاب » . وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث خالد وهو ابن مهران الحذاء عن عكرمة عنه به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد ثنا سليمان ابن بلال ثنا حسين بن عبد الله بن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : اللهم أعط

---

(١) أي : تأخرت عنه وبعدت (٢) نفخ بفمه : أخرج منه الريح .

ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل » ، تفرد به أحمد . وقد روى هذا الحديث غير واحد عن عكرمة بنحو هذا ، ومنهم من أرسله عن عكرمة ، والمتصل هو الصحيح ؛ فقد رواه غير واحد من التابعين عن ابن عباس ، وروى من طريق أمير المؤمنين المهدى عن أبيه عن أبى جعفر المنصور ـ عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عبّاس ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم علمه الكتاب وفقهه فى الدين » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل وعفان المعنى قالا : ثنا حماد ثنا عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال : « كنتُ مع أبى عند النبى ﷺ وعنده رجل يناجيه ، قال عفان : وهو كالمعرض عن العباس ، فخرجنا من عنده فقال العباس : ألم أر ابن عمك كالمعرض عنى ؟ فقلت : إنه كان عنده رجل يناجيه ، قال عفان : قال عباس : أوكان عنده أحد ؟ قلت : نعم ، فرجع إليه فقال : يا رسول الله هل كان عندك أحد آنفا ؟ فإن عبد الله أخبرنى أنه كان عندك رجل يناجيك ، قال : هل رأيته يا عبد الله ؟ قال : قلت نعم ! قال ذاك جبريل عليه السلام » . وقد روى من حديث المهدى عن آبائه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال له : « أما إنك ستصاب فى بصرك » . وكان كذلك ، وقد روى من وجه آخر أيضاً ، والله أعلم .

ذكر صفة أخرى لرؤيته جبريل

رواها قتيبة عن الدراوردى عن ثور بن يزيد عن موسى بن ميسرة أن العباس بعث ابنه عبد الله فى حاجة إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده رجلا فرجع ولم يكلمه من أجل مكان ذلك الرجل ، فلقى العباس بعد ذلك رسول الله ﷺ ، فقال العباس : يا رسول الله أرسلت إليك ابنى فوجد عندك رجلا فلم يستطع أن يكلمك فرجع وراءه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم تدرى من ذاك الرجل ؟ قال : لا ! قال : ذاك جبريل ، ولن يموت ابنك حتى يذهب بصره ويؤتى علما » . ورواه سليمان بن بلال عن ثور بن يزيد كذلك ، وله طريق أخرى . وقد ورد فى فضائل ابن عباس أحاديث كثيرة منها ماهو منكر جداً أضربنا عن كثير منها صفحا ، وذكرنا ما فيه مقنع وكفاية عما سواه .

وقال البيهقى : أنبأ أبو عبد الله الحافظ ، أنبأ عبد الله بن الحسن القاضى بمرو ، ثنا الحارث ابن محمد أنبأ يزيد بن هارون أنبأ جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال : « لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير ، فقال : يا عجبا لك يا ابن عباس ! أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم ؟ قال : فترك ذلك وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن كان ليبلغنى الحديث

عن الرجل فآتى بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائى على بابه يسفى الريح على من التراب ، فيخرج فيرانى فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ هلا أرسلت إلى فآتيك ؟ فأقول : لا ! أنا أحق أن آتيك ، قال : فأسأله عن الحديث ، قال : فعاش هذا الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع حولى الناس يسألونى ، فيقول : هذا الفتى كان أعقل منى » . وقال محمد بن عبد الله الأنصارى : ثنا محمد بن عمرو بن علقمة ثنا أبو سلمة عن ابن عباس قال : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار ، إن كنت لأقيل بباب أحدهم ، ولو شئت أن يؤذن لى عليه لأذن لى ، ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه .

وقال محمد بن سعد : أنبأ محمد بن عمر حدثنى قدامة بن موسى عن أبى سلمة الحضرمى قال : سمعت ابن عباس يقول : كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازى رسول الله ﷺ ، وما نزل من القرآن فى ذلك ، وكنت لا آتى أحداً منهم إلا سُرَّ بإتيانى إليه ؛ لقربى من رسول الله ﷺ ، فجعلت أسأل أبىّ بن كعب يوماً ـ وكان من الراسخين فى العلم ـ عما نزل من القرآن بالمدينة ، فقال : نزل سبع وعشرون سورة ، وسائرها مكى .

وقال أحمد : عن عبد الرزاق عن معمر قال : عامة علم ابن عباس من ثلاثة ؛ من عمر ، وعلى ، وأبى بن كعب . وقال طاوس عن ابن عباس أنه قال : إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد من ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ . وقال مغيرة عن الشعبى قال : قيل لابن عباس : أنى أصبت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول . وثبت عن عمر الخطاب أنه كان يجلس ابن عباس مع مشايخ الصحابة ويقول : نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وكان إذا أقبل يقول عمر : جاء فتى الكهول ، وذو اللسان السئول ، والقلب العقول . وثبت فى الصحيح أن عمر سأل الصحابة عن تفسير ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[1] فسكت بعض وأجاب بعض بجواب لم يرتضه عمر ، ثم سأل ابن عباس عنها فقال : أجلُ رسول الله ﷺ نُعى إليه ، فقال : لا أعلم منها إلا بما تعلم ، وأراد عمر بذلك أن يقرر عندهم جلالة قدره ، وكبير منزلته فى العلم والفهم . وسأله مرة عن ليلة القدر فاستنبط أنها فى السابعة من العشر الأخير فاستحسنه عمر واستجاده كما ذكرنا فى التفسير .

وقد قال الحسن بن عرفة : حدثنا يحيى بن اليمان عن عبد الملك بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عن عمر أنه قال لابن عباس : لقد علمت علماً ما علمناه . وقال الأوزاعى قال عمر لابن عباس : إنك لأصبح فتياننا وجها ، وأحسنهم عقلا ، وأفقههم فى كتاب الله عز وجل . وقال مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس قال قال لى أبى : إن عمر يدنيك ويجلسك مع أكابر الصحابة فاحفظ عنى

(١) أول سورة النصر

ثلاثاً : لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا يجربن عليك كذباً . قال الشعبي : قلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف ، فقال ابن عباس : بل كل واحدة خير من عشرة آلاف .

وقال الواقدي : حدثنا عبد الله بن الفضل بن أبي عبد الله ، عن أبيه عن عطاء بن يسار ، أن عمر وعثمان كانا يدعوان ابن عباس فيسير مع أهل بدر ، وكان يفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات ؛ قلت : وشهد فتح إفريقية سنة سبع وعشرين مع ابن أبي سرح . وقال الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه قال : نظر أبي إلى ابن عباس يوم الجمل يمشي بين الصفين ، فقال : أقر الله عين من له ابن عم مثل هذا ، وقد شهد مع علي الجمل وصفين وكان أميراً على الميسرة ، وشهد معه قتال الخوارج وكان ممن أشار على علي أن يستنيب معاوية على الشام ، وأن لا يعزله عنها في بادىء الأمر ، حتى قال له فيما قال : إن أحببت عزله ، فوله شهراً واعزله دهراً ، فأبى علي إلا أن يقاتله ، فكان ما كان مما قد سبق بيانه .

ولما تراوض الفريقان على تحكيم الحكمين ، طلب ابن عباس أن يكون من جهة علي ، ليكافىء عمرو بن العاص ، فامتنعت مذحج وأهل اليمن إلا أن يكون من جهة علي أبو موسى الأشعري ، وكان من أمر الحكمين ما سلف . وقد استنابه علي على البصرة ، وأقام للناس الحج في بعض السنين ، فخطبهم في عرفات خطبة وفسر فيها سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، قال من سمعه : فسر ذلك تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا . وهو أول من عرّف بالناس في البصرة ، فكان يصعد المنبر ليلة عرفة ويجتمع أهل البصرة حوله فيفسر شيئاً من القرآن ، ويذكر الناس من بعد العصر إلى الغروب ، ثم ينزل فيصلي بهم المغرب ، وقد اختلف العلماء بعده في ذلك ، فمنهم من كره ذلك وقال : هو بدعة لم يعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه إلا ابن عباس ، ومنهم من استحب ذلك لأجل ذكر الله وموافقة الحجاج .

وقد كان ابن عباس ينتقد على علي في بعض أحكامه فيرجع إليه علي في ذلك ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال : « لا تعذبوا بعذاب الله » بل كنت قاتلهم لقول رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . فبلغ ذلك علياً فقال : ويح ابن عباس ، وفي رواية : ويح ابن عباس إنه لغواص على الهنات ، وقد كافأه علي ، فإن ابن عباس كان يرى إباحة المتعة ، وأنها باقية ، وتحليل الحمر الإنسية ، فقال علي : إنك امرؤ تائه ، إن رسول الله ﷺ : « نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الإنسية يوم خيبر » . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما ، وله ألفاظ هذا من أحسنها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال البيهقى : أنبأ أبو عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا بكر بن المؤمل يقول : سمعت أبا نصر ابن أبى ربيعة يقول : ورد صعصعة بن صوحان على علىّ بن أبى طالب من البصرة ، فسأله عن ابن عباس - وكان علىٌّ خلّفه بها - فقال صعصعة : يا أمير المؤمنين ، إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث ، آخذ بقلوب الرجال إذا حدث ، وبحسن الاستماع إذا حُدث وبأيسر الأمرين إذا خولف . وترك المراء ، ومقارنة اللئيم ، وما يعتذر منه . وقال الواقدى : ثنا أبو بكر بن أبى سبرة عن موسى بن سعيد عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : ما رأيت أحداً أحضر فهما ولا ألبّ لبا ، ولا أكثر علما ، ولا أوسع حلماً - من ابن عباس ، ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات ثم يقول : عندك قد جاءتك معضلة ، ثم لا يجاوز قوله ، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار . وقال الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد . وكان يقول : نعم ترجمان القرآن ابن عباس ، وعن ابن عمر أنه قال : ابن عباس أعلم الناس بما أنزل الله على محمد ﷺ .

وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر حدثنى يحيى بن العلاء عن يعقوب بن زيد عن أبيه قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول حين بلغه موت ابن عباس وصفق بإحدى يديه على الأخرى : مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس ، وقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق . وبه إلى يحيى بن العلاء عن عمر بن عبد الله عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما مات ابن عباس قال رافع بن خديج : مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب فى العلم . قال الواقدى : وحدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة قال : سمعت معاوية يقول : مات والله أفقه من مات ومن عاش . وروى ابن عساكر عن ابن عباس قال: دخلت على معاوية حين كان الصلح وهو أول ما التقيت أنا وهو ، فإذا عنده أناس فقال: مرحباً بابن عباس ، ما تحاكت[1] الفتنة بينى وبين أحد كان أعز على بعداً ولا أحب إلى قرباً ، الحمد لله الذى أمات علياً ، فقلت له : إن الله لا يذم فى قضائه ، وغير هذا الحديث أحسن منه ، ثم قلت له : أحب أن تعفينى من ابن عمى وأعفيك من ابن عمك ، قال : ذلك لك . وقالت عائشة وأم سلمة حين حج ابن عباس بالناس : هو أعلم الناس بالمناسك . وقال ابن المبارك عن داود بن أبى هند عن الشعبى قال : ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ ، قال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد : أرنى يداك ؟ فأخرج يديه فقبلهما فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقال الواقدى : حدثنى داود بن هند عن سعيد بن جبير سمعت ابن المسيب يقول : ابن عباس

(١) أى : ما أثرت ولا رسخت فى قلبى .

أعلم الناس . وحدثنى عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه ، عن عبيد الله بن عتبة قال : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال ، بعلم ما سبق إليه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم ونسب ونائل ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث النبى ﷺ منه ، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه فى رأى منه ، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أعلم فيما مضى ولا أثقب رأيا فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه ، ويوما ما يذكر فيه إلا التأويل ، ويوما ما يذكر فيه إلا المغازى ، ويوما الشعر ، ويوما أيام العرب ، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له ، ولا وجدت سائلا سأله إلا وجد عنده علما. قال : وربما حفظت القصيدة من فيه ينشدها ثلاثين بيتا . وقال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت مثل ابن عباس قط . وقال عطاء : ما رأيت مجلسا أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقها ، ولا أعظم هيبة ، أصحاب القرآن يسألونه ، وأصحاب العربية يسألونه ، وأصحاب الشعر منه يسألونه ، فكلهم يصدر فى واد أوسع .

وقال الواقدى : حدثنى بشر بن أبى سليم عن ابن طاوس عن أبيه قال : كان ابن عباس قد يسبق على الناس فى العلم كما تسبق النخلة السحوق[1] على الودِىّ الصغار . وقال ليث بن أبى سليم قلت لطاوس : لم لزمت هذا الغلام ؟ - يعنى ابن عباس - وتركت الأكابر من الصحابة؟ قال : إنى رأيت سبعين من الصحابة إذا تماروا فى شىء صاروا إلى قوله . وقال طاوس أيضاً : ما رأيت أفقه منه ، قال: وما خالفه أحد قط فتركه حتى يقرره . وقال على بن المدينى ويحيى بن معين وأبو نعيم وغيرهم عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، قال : ما رأيت مثله قط ، ولقد مات يوم مات وإنه لحبر هذه الأمة - يعنى ابن عباس - وقال أبو بكر بن أبى شيبة وغيره عن أبى أسامة عن الأعمش عن مجاهد قال : كان ابن عباس أمدهم قامة ، وأعظمهم جفنة ، وأوسعهم علما . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت مجلسا أجمع لكل خير من مجلسه - يعنى ابن عباس - الحلال والحرام وتفسير القرآن والعربية والشعر والطعام . وقال مجاهد : ما رأيت أعرب لسانا من ابن عباس ، وقال محمد ابن سعد : ثنا عفان بن مسلم ثنا سليم بن أخضر عن سليمان التيمى - وهو ممن أرسله الحكم بن أديب - إلى الحسن سأله عن أول من جمّع بالناس فى هذا المسجد يوم عرفة ؟ قال : ابن عباس ، وكان رجلا مُثَجّا - أحسب فى الحديث - كثير العلم ، وكان يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة ويفسرها آية آية . وقد روى من وجه آخر عن الحسن البصرى نحوه ، وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : روى سفيان عن أبى بكر الهذلى عن الحسن قال : كان ابن عباس أول من عرّف بالبصرة ، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا . مثجى : قال ابن قتيبة

(١) أى الطويلة ، والودى - كغنى - صغار الفسيل .

منجى من الثج وهو السيلان ، قال تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً)[1] وقيل كثيراً بسرعة.

وقال يونس بن بكير : حدثنا أبو حمزة الثمالى عن أبى صالح قال : لقد رأيت من ابن عباس مجلسا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها به الفخر ، لقد رأيت الناس اجتمعوا على بابه حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر أن يجىء ولا أن يذهب ، قال : فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه ، فقال لى : ضع لى وضوءاً قال : فتوضأ وجلس وقال : اخرج فقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أريد منه فليدخل . قال : فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا . ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل ، قال فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم به وزادهم مثله أو أكثر . ثم قال: إخوانكم ، فخرجوا. ثم قال اخرج فقل : من كان يريد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها ، فليدخل ، فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم وزادهم مثله أو أكثر . ثم قال : إخوانكم فخرجوا. ثم قال : اخرج فقل : من كان يريد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل ، فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شىء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال : إخوانكم فخرجوا . قال أبو صالح : فلو أن قريشا كلها فخرت بذلك لكان فخراً ، فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس .

وقال طاوس وميمون بن مهران : ما رأينا أورع من ابن عمر ولا أفقه من ابن عباس . قال ميمون : وكان ابن عباس أفقههما ، وقال شريك القاضى عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس ، فإذا نطق قلت أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت أعلم الناس . وقال يعقوب بن سفيان ثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن الزبير بن الحارث عن عكرمة قال: كان ابن عباس أعلمهما بالقرآن ، وكان على أعلمهما بالمبهمات وقال إسحاق بن راهويه : إنما كان كذلك لأن ابن عباس كان قد أخذ ما عند على من التفسير ، وضم إلى ذلك ما أخذه عن أبى بكر وعمر وعثمان وأبى بن كعب وغيرهم من كبار الصحابة . مع دعاء رسول الله ﷺ له أن يعلمه الله الكتاب . وقال أبو معاوية عن الأعمش عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة فجعل يقرؤها ويفسرها ، فجعلت أقول : ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله ، لو سمعته فارس والروم لأسلمت . وقد روى أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبى النجود عن ابن وائل ، أن ابن عباس حج بالناس عام قتل عثمان فقرأ سورة النور وذكر نحو ما تقدم ، فلعل الأول كان فى زمان على فقرأ فى تلك الحجة

(١) من الآية : ١٤ من سورة النبأ .

سورة البقرة ، وفى فتنة عثمان سورة النور ، والله أعلم .

وقد روينا عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس مرتين أقف عند كل آية فأسأل عنها ، وروى عنه أنه قال : أربع من القرآن لا أدرى ما به جىء: الأواه ، والحنان ، والرقيم ، والغسلين . وكل القرآن أعلمه إلا هذه الأربع . وقال ابن وهب وغيره عن سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد قال : كان ابن عباس إذا سئل عن مسألة ، فإن كانت فى كتاب الله قال بها ، وإن لم تكن ـ وهى فى السنة ـ قال بها ، فإن لم يقلها رسول الله ﷺ ، ووجدها عن أبى بكر وعمر قال بها ، وإلا اجتهد رأيه ، وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أبو عاصم وعبد الرحمن بن الشعبى ، عن كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة قال : شتم رجل ابن عباس فقال له : إنك لتشتمنى ، وفى ثلاث خصال إنى لآتى على الآية من كتاب الله ، فأود أن الناس علموا منها مثل الذى أعلم . وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضى بالعدل ويحكم بالقسط ، فأفرح به وأدعو إليه ، ولعلى لا أقاضى إليه ولا أحاكم أبداً . وإنى لأسمع بالغيث يصيب الأرض من أرض المسلمين ، فأفرح به ومالى بها من سائمة أبداً . ورواه البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن الحسن بن مكرم عن يزيد بن هارون عن كهمس به .

وقال ابن أبى مليكة : صحبت ابن عباس من المدينة إلى مكة ، وكان يصلى ركعتين ، فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القرآن حرفاً حرفاً ، ويكثر فى ذلك من النشيج[1] والنحيب ويقرأ : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)[2] ، وقال الأصمعى عن المعتمر ابن سليمان عن شعيب بن درهم قال : كان فى هذا المكان ـ وأومأ إلى مجرى الدموع من خديه ـ يعنى خدى ابن عباس ـ مثل الشراك البالى من البكاء . وقال غيره : كان يصوم يوم الاثنين والخميس ، وقال : أحب أن يرتفع عملى وأنا صائم . وروى هاشم وغيره عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن أحب الكلام إلى الله عز وجل ، ومن أكرم العباد على الله عز وجل ، ومن أكرم الإماء على الله عز وجل ، وعن أربعة فيهم الروح فلم يركضوا فى رحم ، وعن قبر سار بصاحبه ، وعن مكان فى الأرض لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة ، وعن قوس قزح ما هو ؟ وعن المجرة . فبعث معاوية فسأل ابن عباس عنهن ، فكتب ابن عباس إليه : أما أحب الكلام إلى الله ـ فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ وأكرم العباد على الله آدم ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء . وأكرم الإماء على الله مريم بنت عمران . وأما الأربعة الذين لم يركضوا فى رحم : فآدم وحواء، وعصى موسى ، وكبش إبراهيم الذى فدى به إسماعيل . وفى رواية وناقة صالح ، وأما القبر الذى سار بصاحبه فهو

(١) نشج الباكى ينشج نشيجاً غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب (٢) من الآية : ١٩ من سورة ق .

حوت يونس . وأما المكان الذى لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة - فهو البحر لما انفلق لموسى حتى جاز بنو إسرائيل فيه . وأما قوس قزح فأمان لأهل الأرض من الغرق . والمجرة باب فى السماء ، وفى رواية الذى ينشق منه . فلما قرأ ملك الروم ذلك أعجبه وقال : والله ما هى من عند معاوية ولا من قوله ، وإنما هى من عند أهل النبى صلى الله عليه وسلم . وقد ورد فى هذه الأسئلة روايات كثيرة فيها ، وفى بعضها نظر والله أعلم .

فصل

تولى ابن عباس إمامة الحج سنة خمس وثلاثين بأمر عثمان بن عفان له وهو محصور ، وفى غيبته هذه قتل عثمان ، وحضر ابن عباس مع على الجمل ، وكان على الميسرة يوم صفين ، وشهد قتال الخوارج ، وتأمر على البصرة من جهة على ، وكان إذا خرج منها يستخلف أبا الأسود الدؤلى على الصلاة ، وزياد بن أبى سفيان على الخراج ، وكان أهل البصرة مغبوطين به ، يفقههم ويعلم جاهلهم ، ويعظ مجرمهم ، ويعطى فقيرهم ، فلم يزل عليها حتى مات على ، ويقال : إن عليا عزله عنها قبل موته ، ثم وفد على معاوية فأكرمه وقربه واحترمه وعظمه ، وكان يلقى عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً ، فكان معاوية يقول : ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه . ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن على ، اتفق كون ابن عباس عند معاوية فعزاه فيه بأحسن تعزية ، ورد عليه ابن عباس رداً حسناً كما قدمنا ، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدى ابن عباس وعزاه بعبارة فصيحة وجيزة ، شكره عليها ابن عباس . ولما مات معاوية ورام الحسين الخروج إلى العراق نهاه ابن عباس أشد النهى ، وأراد ابن عباس أن يتعلق بثياب الحسين - لأن ابن عباس كان قد أضر[1] فى آخر عمره - فلم يقبل منه ، فلما بلغه موته حزن عليه حزناً شديداً ولزم بيته ، وكان يقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، فإنك إن لا تفعل تندم .

وجاء إليه رجل يقال له جندب فقال له : أوصنى ، فقال : أوصيك بتوحيد الله والعمل له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فإن كل خير آتيه أنت بعد ذلك منك مقبول ، وإلى الله مرفوع يا جندب إنك لن تزدد من موتك إلا قرباً ، فصل صلاة مودع ، وأصبح فى الدنيا كأنك غريب مسافر ، فإنك من أهل القبور . وابك على ذنبك وتب من خطيئتك ، ولتكن الدنيا عليك أهون من شسع نعلك ، فكأن قد فارقتها وصرت إلى عدل الله ، ولن تنتفع بما خلفت ، ولن ينفعك إلا عملك . وقال بعضهم : أوصى ابن عباس بكلمات خير من الخيل الدهم ، قال : لا تكلمن فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعا ، ولا تمار سفيها ولا حليما ، فإن الحليم يغلبك والسفيه يزدريك ، ولا تذكرن أخاك إذا توارى عنك إلا بمثل الذى تحب أن يتكلم فيك إذا تواريت

(١) أى ذهب بصره ، والضرير الذاهب البصر والجمع أضراء

منه ، واعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالإحسان مأخوذ بالإجرام ، فقال رجل عنده : يا ابن عباس ! هذا خير من عشرة آلاف ، فقال ابن عباس : كلمة منه خير من عشرة آلاف .

وقال ابن عباس : تمام المعروف تعجيله وتصغيره وستره ـ يعنى أن تعجل العطية للمعطى ، وأن تصغر فى عين المعطى ـ وأن تسترها من الناس فلا تظهرها ! فإن فى إظهارها فتح باب الرياء وكسر قلب المعطى ، واستحياءه من الناس . وقال ابن عباس : أعز الناس علىّ جليس لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت ، وقال أيضاً : لا يكافىء من أتانى يطلب حاجة فرآنى لها موضعاً إلا الله عز وجل ، وكذا رجل بدأنى بالسلام أو أوسع لى فى مجلس أو قام لى عن المجلس ، أو رجل سقانى شربة ماء على ظمأ ، ورجل حفظنى بظهر الغيب . والمأثور عنه من هذه المكارم كثير جداً وفيما ذكرنا إشارة إلى مالم نذكره .

وقد عده الهيثم بن عدى فى العميان من الأشراف ، وفى بعض الأحاديث الواردة عنه ما يدل على ذلك ، وقد أصيبت إحدى عينيه فنحل جسمه ، فلما أصيبت الأخرى عاد إليه لحمه ، فقيل له فى ذلك فقال : أصابنى ما رأيتم فى الأولى شفقة على الأخرى ، فلما ذهبتا اطمأن قلبى . وقال أبو القاسم البغوى : ثنا على بن الجعد ثنا شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه وقع فى عينيه الماء فقال له الطبيب : ننزع من عينيك الماء على أن لا تصلى سبعة أيام . فقال : لا ! إنه من ترك الصلاة وهو يقدر عليها لقى الله وهو عليه غضبان ، وفى رواية أنه قيل له : نزيل هذا الماء من عينيك على أن تبقى خمسة أيام ، ولا تصلى إلا على عود ، وفى رواية إلا مستلقيا ، فقال : لا والله ولا ركعة واحدة ، إنه من ترك صلاة واحدة متعمداً لقى الله وهو عليه غضبان . وقد أنشد المدائنى لابن عباس حين عمى :

إن يأخـذ الله من عينىّ نورهما فنى لسـانى وسمعى منهما نور

قلبى ذكىٌّ وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم كالسيف مأثور[١]

ولما وقع الخلف بين ابن الزبير وبين عبد الملك بن مروان اعتزل ابن عباس ومحمد ابن الحنفية الناس ، فدعاهما ابن الزبير ليبايعاه فأبيا عليه ، وقال كل منهما : لا نبايعك ولا نخالفك ، فهمّ بهما فبعثا أبا الطفيل عامر بن واثلة فاستنجد لهما من العراق من شيعتهما ، فقدم أربعة آلاف فكبروا بمكة تكبيرة واحدة ، وهموا بابن الزبير فهرب فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : أنا عائذ بالله ، فكفوهم عنه . ثم مالوا إلى ابن عباس وابن الحنفية ، وقد حمل ابن الزبير حول دورهم الحطب ليحرقهم ، فخرجوا بهما حتى نزلوا الطائف ، وأقام ابن عباس سنتين لم يبايع أحداً كما تقدم .

(١) فى القاموس : سيف مأثور فى متنه أثر ، أو متنه حديد ، أو هو الذى يعمله الجن

فلما كان فى سنة ثمان وستين توفى ابن عباس بالطائف ، وصلى عليه محمد بن الحنفية،فلما وضعوه ليدخلوه فى قبره، جاء طائر أبيض لم ير مثل خلقته ، فدخل فى أكفانه والتف بها حتى دفن معه. قال عفان : وكانوا يرون علمه وعمله ، فلما وضع فى اللحد تلا تال لا يعرف من هو وفى رواية أنهم سمعوا من قبره (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمئنة ﴿ارجعى إلى ربك راضية مَرْضية ﴿فَادْخُلى فى عبادِى وادخلى جنتى[1]) هذا القول فى وفاته هو الذى صححه غير واحد من الأئمة ، ونص عليه أحمد بن حنبل والواقدى وابن عساكر ، وهو المشهور عند الحفاظ ، وقيل إنه توفى سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة ثلاث وسبعين ، وقيل سنة سبع وستين ، وقيل سنة تسع وستين ، وقيل سنة سبعين ، والأول أصح . وهذه الأقوال كلها شاذة غريبة مردودة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وكان عمره يوم مات ثنتين وسبعين سنة ، وقيل إحدى وسبعين ، وقيل أربعاً وسبعين ، والأول أصح والله أعلم .

صفة ابن عباس

كان جسيما إذا جلس يأخذ مكان رجلين ، جميلا له وَفْرَة[2] ، قد شاب مقدم رأسه ، وشابت لمته وكان يخضب بالحناء وقيل بالسواد ، حسن الوجه يلبس حسناً ، ويكثر من الطيب بحيث إنه كان إذا مر فى الطريق يقول النساء: هذا ابن عباس أو رجل معه مسك. وكان وسيما أبيض طويلا جسيما فصيحاً ، ولما عمى اعترى لونه صفرة يسيرة . وقد كان بنو العباس عشرة ، وهم الفضل ، وعبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وقثم ، وعبد الرحمن ، وكثير ، والحارث ، وعون ، وتمام وكان أصغرهم تمام ، ولهذا كان يحمله ويقول :

تموا بتمام فصاروا عشرة ... يارب فاجعلهم كراما بررة
واجعلهم ذكرا ونم الثمرة

فأما الفضل فمات بأجنادين شهيداً ، وعبد الله بالطائف ، وعبيد الله باليمن ،ومعبد وعبدالرحمن بإفريقية ، وقثم وكثير بينبع ، وقيل إن قثامات بسمرقند ، وقد قال مسلم بن حماد المكى مولى بنى مخزوم: ما رأيت مثل بنى أم واحدة أشراف ولدوا فى دار واحدة أبعد قبوراً من بنى أم الفضل،ثم ذكر مواضع قبورهم كما تقدم ، إلا أنه قال الفضل مات بالمدينة ، وعبيد الله بالشام .

وقد كان عبد الله بن عباس يلبس الحلة بألف درهم، وكان له من الولد العباس وعلى،وكان على يدعى السَّجَّاد لكثرة صلاته ، وكان أجمل قرشى على وجه الأرض، وقد قيل إنه كان يصلى كل يوم

---

(١) الآيات من آخر سورة الفجر

(٢) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أو ما جاوز شحمة الأذن .

ألف ركعة ، وقيل فى الليل والنهار مع الجمال التام ، وعلى هذا فهو أبو الخلفاء العباسيين ، فى ولده كانت الخلافة العباسية كما سيأتى . وكان لابن عباس أيضاً : محمد والفضل وعبد الله ، وأمهم زرعة بنت مسرح بن معدى كرب ، وله : أسماء وهى أم ولد ، وكان له من الموالى : عكرمة وكريب وأبو معبد وشعبة وقيق وأبو عمرة وأبو عبيد . وأسند ألفا وستمائة وسبعين حديثا والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفيها : توفى أبو شريح الخزاعى العدوى الكعبى ، اختلف فى اسمه على أقوال : أصحها خويلد بن عمرو ، أسلم عام الفتح ، وكان معه أحد ألوية بنى كعب الثلاثة ، قال محمد بن سعد : مات فى هذه السنة وله أحاديث . وفيها توفى أبو واقد الليثى صحابى جليل مختلف فى اسمه وفى شهوده بدراً ، قال الواقدى : توفى سنة ثمان وستين عن خمس وستين سنة ، وكذا قال غير واحد فى تاريخ وفاته . وزعم بعضهم أنه عاش سبعين سنة ، مات بمكة بعد ما جاوز بها سنة ، ودفن فى مقابر المهاجرين ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وستين

ففيها : كان مقتل عمرو بن سعيد الأشدق الأموى ، قتله عبد الملك بن مروان ، وكان سبب ذلك أن عبد الملك ركب فى أول هذه السنة فى جنوده قاصدا قرقيسيا ، ليحاصر زفر بن الحارث الكلابى الذى أعان سليمان بن صرد على جيش مروان حين قاتلوهم بعين وردة ، ومن عزمه إذا فرغ من ذلك أن يقصد مصعب بن الزبير بعد ذلك ، فلما سار إليها استخلف على دمشق عمرو بن سعيد الأشدق ، فتحصن بها وأخذ أموال بيت المال . وقيل : بل كان مع عبد الملك ولكنه انخذل عنه فى طائفة من الجيش وكر راجعا إلى دمشق فى الليل ، ومعه حميد بن حريث بن بحدل الكلبى ، وزهير بن الأبرد الكلبى ، فانتهوا إلى دمشق وعليها عبد الرحمن بن أم الحكم نائباً من جهة عبد الملك ، فلما أحس بهم هرب وترك البلد فدخلها عمرو بن سعيد الأشدق فاستحوذ على ما فيها من الخزائن ، وخطب الناس فوعدهم العدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل . ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق كر راجعا من فوره فوجد الأشدق قد حصن دمشق وعلق عليها الستائر والمسوح ، وانحاز الأشدق إلى حصن رومى منيع كان بدمشق فنزله ، فحاصره عبد الملك وقاتله الأشدق مدة ستة عشر يوما ، ثم اصطلحا على ترك القتال ، وعلى أن يكون ولى العهد بعد عبد الملك ، وعلى أن يكون لكل عامل لعبد الملك عامل له ، وكتبا بينهما كتاب أمان ، وذلك عشية الخميس ، ودخل عبد الملك إلى دمشق إلى دار الإمارة على عادته ، وبعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق يقول له : رد على الناس أعطياتهم التى أخذتها من بيت المال ، فبعث إليه الأشدق : إن هذا ليس إليك ، وليس هذا البلد لك فاخرج منه

فلما كان يوم الاثنين بعث عبد الملك إلى الأشدق يأمره بالإتيان إلى منزله بدار الإمارة الخضراء ، فلما جاءه الرسول صادف عنده عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو زوج ابنته أم موسى بنت الأشدق ، فاستشاره عمرو الأشدق فى الذهاب إليه فقال له : يا أبا سعيد ! والله لأنت أحب إلى من سمعى وبصرى ، وأرى أن لا تأتيه ، فإن تبيعاً الحميرى ابن امرأة كعب الأحبار قال : إن عظيما من عظماء بنى إسماعيل يغلق أبواب دمشق فلا يلبث أن يقتل . فقال عمرو : والله لو كنت نائما ما تخوفت أن ينبهنى ابن الزرقاء ، وما كان ليجترىء على ذلك منى ، مع أن عثمان ابن عفان أتانى البارحة فى المنام فألبسنى قميصه . وقال عمرو بن سعيد : أبلغه السلام وقل له أنا رائح إليك العشية إن شاء الله . فلما كان العشى ــ يعنى بعد الظهر ــ لبس عمرو درعا بين ثيابه وتقلد سيفه ونهض فعثر بالبساط فقالت امرأته وبعض من حضره : إنا نرى أن لا تأتيه ، فلم يلتفت إلى ذلك ومضى فى مائة من مواليه ، وكان عبد الملك قد أمر بنى مروان فاجتمعوا كلهم عنده ، فلما انتهى عمرو إلى الباب، أمر عبدالملك أن يدخل وأن يحبس من معه عند كل باب طائفة منهم ، فدخل حتى انتهى إلى صرحة المكان الذى فيه عبد الملك ، ولم يبق معه من مواليه سوى وصيف فرى بيصره فإذا بنو مروان عن بكرة أبيهم مجتمعون عند عبد الملك ، فأحس بالشر ، فالتفت إلى ذلك الوصيف فقال له همساً : ويلك انطلق إلى أخى يحيى فقل له فليأتنى ، فلم يفهم عنه وقال له : لبيك ، فأعاد عليه ذلك فلم يفهم أيضاً وقال : لبيك ، فقال : ويلك اعزب عنى فى حرق الله وناره .

وكان عند عبد الملك حسان بن مالك بن بحدل ، وقبيصة بن ذؤيب ، فأذن لهما عبد الملك بالانصراف ، فلما خرجا غلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك فرحب به وأجلسه معه على السرير ، ثم جعل يحدثه طويلا . ثم إن عبد الملك قال : ياغلام خذ السيف عنه ، فقال عمرو : إنا لله يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : أوتطمع أن تتحدث معى متقلدا سيفك ؟ فأخذ الغلام السيف عنه ، ثم تحدثا ساعة ، ثم قال له عبد الملك : يا أبا أمية ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : إنك حيث خلعتنى آليت بيمين إن أنا ملأت عينى منك وأنا مالك لك أن أجمعك فى جامعة فقالت له بنو مروان : ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ثم أطلقه ، وما عسيت أن أفعل بأبى أمية ، فقال بنو مروان : أبر يمين أمير المؤمنين ، فقال عمرو : قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين ، فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه ثم قال : ياغلام قم فاجمعه فيها ، فقام الغلام فجمعه فيها ، فقال عمرو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجنى فيها على رءوس الناس ، فقال عبدالملك : أمكراً يا أبا أمية عند الموت ؟ لا ــ ها الله إذاً ما كنا لنخرجك فى جامعة على رءوس الناس ولما نخرجها منك إلا صُعداً ، ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمى إلى ما هو أعظم من ذلك ، فقال عبد الملك : والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفى لى وتصلح قريش لأطلقتك ، ولكن ما اجتمع

رجلان فى بلد قط على مثل ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه ، وفى رواية أنه قال له : أما علمت يا عمرو أنه لا يجتمع فحلان فى شرك ؟ فلما تحقق عمرو ما يريد من قتله قال له : أغدراً يا ابن الزرقاء ؟ وأسمعه كلاماً رديئاً بشعاً .

وبينما هما كذلك إذ أذن المؤذن للعصر ، فقام عبد الملك ليخرج إلى الصلاة ، وأمر أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله ، وخرج عبد الملك وقام إليه عبد العزيز بالسيف ، فقال له عمرو : أذكرك الله والرحم أن لا تلى ذلك منى ، وليتول ذلك غيرك ، فكف عنه عبد العزيز .

ولما رأى الناس عبد الملك قد خرج وليس معه عمرو أرجف الناس بعمرو ، فأقبل أخوه يحيى بن سعيد فى ألف عبد لعمرو بن سعيد وأناس معهم كثير ، وأسرع عبد الملك الدخول إلى دار الإمارة ، وجاء أولئك فجعلوا يدقون باب الإمارة ويقولون : أسمعنا صوتك يا أبا أمية ؛ وضرب رجل منهم الوليد بن عبد الملك فى رأسه بالسيف فجرحه ، فأدخله إبراهيم بن عدى صاحب الديوان بيتاً ، وأحرزه فيه ، ووقعت خبطة عظيمة فى المسجد ، وضجت الأصوات . ولما رجع عبد الملك وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبه وسب أمه ـ ولم تكن أم عبدالعزيز أم عبدالملك ـ فقال له : ناشدنى الله والرحم ، وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان . ثم إن عبد الملك قال : ياغلام ائتنى بالحربة ، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً ، ثم ثنى فلم تغن شيئاً ، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال : أدارع أيضاً ؟ إن كنت لمعداً ، ياغلام ائتنى بالصمصامة ، فأتاه بسيفه ، ثم أمر بعمرو فصرع ثم جلس على صدره فذبحه وهو يقول :

يا عمرو إلا تدع شتمى وَمنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى .

قالوا : وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً ، بحيث إنهم ما رفعوه من صدره إلا محمولا ، فوضعوه على سريره وهو يقول : ما رأيت مثل هذا قط قتلة صاحب دنيا ولا آخرة ، ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أم الحكم فخرج إلى الناس فألقاه بين أظهرهم ، وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدر من الأموال تحمل ، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها ، ويقال : إنها استرجعت بعد ذلك من الناس إلى بيت المال ، ويقال : إن الذى ولى قتل عمرو بن سعيد مولى عبدالملك ـ أبو الزعيزعة ، بعد ما خرج عبد الملك إلى الصلاة فالله أعلم . وقد دخل يحيى بن سعيد ـ أخو عمرو بن سعيد ـ دار الإمارة بعد مقتل أخيه بمن معه ، فقام إليهم بنو مروان فاقتتلوا ، وجرح جماعات من الطائفتين ، وجاءت يحيى بن سعيد صخرة فى رأسه أشغلته من نفسه وعن القتال ، ثم إن عبد الملك بن مروان خرج إلى المسجد الجامع فصعد المنبر فجعل يقول : ويحكم أين الوليد ! وأبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرهم ، فأتاه إبراهيم بن عدى

الكنانى فقال : هذا الوليد عندى قد أصابته جراحة ، وليس عليه بأس . ثم أمر عبد الملك بيحيى ابن سعيد أن يقتل ، فتشفع فيه أخوه عبد العزيز بن مروان ، وفى جماعات آخرين معه كان عبد الملك قد أمر بقتلهم ، فشفعه فيهم وأمر بحبسه فحبس شهراً ، ثم سيّره وبنى عمرو بن سعيد وأهليهم إلى العراق ، فدخلوا على مصعب بن الزبير فأكرمهم وأحسن إليهم .

ثم لما انعقدت الجماعة لعبد الملك بعد مقتل ابن الزبير ، وفدوا عليه فكاد يقتلهم ، فتلطف بعضهم فى العبارة حتى رق لهم رقة شديدة ، فقال لهم عبد الملك : إن أباكم خيّرنى بين أن يقتلنى أو أقتله ، فاخترت قتله على قتلى ، وأما أنتم فما أرغبنى فيكم وأوصلنى لقرابتكم وأرعانى لحقكم فأحسن جائزتهم وقربهم . وقد كان عبد الملك بعث إلى امرأة عمرو بن سعيد : أن ابعثى إلى بكتاب الأمان الذى كنت كتبته لعمرو ، فقالت : إنى دفنته معه ليحاكمك به يوم القيامة عند الله . وقد كان مروان بن الحكم وعد عمرو بن سعيد هذا أن يكون ولىّ العهد من بعد ولده عبد الملك ، كلاماً مجرداً ، فطمع فى ذلك وقويت نفسه بسبب ذلك ، وكان عبد الملك يبغضه بغضاً شديداً من حال الصغر ، ثم كان هذا صنيعه إليه فى الكبر . قال ابن جرير : وذكر أن خالدَ ابن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك ذات يوم : عجب منك ومن عمرو بن سعيد كيف أصبت غِرّته حتى قتلته ؟ فقال عبد الملك :

وأدنيتُه منى ليَسْكن رَوْعُه ... فأصولَ صولةَ حازم مستمْكِنِ
غضباً وحَمِيةً لدينى إنه ... ليس المُسىء سبيلُه كالمحْسِنِ

قال خليفة بن خياط : وهذا الشعر للضبىّ بن أبى رافع تمثل به عبد الملك . وروى ابن دريد عن أبى حاتم عن الشعبى ، أن عبد الملك قال : لقد كان عمرو بن سعيد أحب إلى من دم النواظر ، ولكن والله لا يجتمع فحلان من الإبل إلا أخرج أحدهما الآخر ، وإنا لكما قال أخو بنى يربوع :

أجازى من جزانى الخير خيراً ... وجازى الخير يجزى بالنوال
وأجزى من جزانى الشر شراً ... كما تحذا النعال على النعال

قال خليفة بن خياط : وأنشد أبو اليقظان لعبد الملك فى قتله عمرو بن سعيد :

صحّت ولا تشلل وضرّت عدوها ... يمين أراقت مهجة ابن سعيد
[وجدت ابن مروان ولا نبل عنده ... شديد ضرير الناس غير بليد
هو ابن أبى العاصى لمروان ينتهى ... إلى أسرة طابت له وجدود[1]]

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

وكان الواقدى يقول : أما حصار عبد الملك لعمر بن سعيد الأشدق فكان فى سنة تسع وستين ، رجع إليه من بطنان حبيب فحاصره بدمشق ، ثم كان قتله فى سنة سبعين والله أعلم .

وهذه ترجمة الأشدق

هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، أبو أمية القرشى الأموى ، المعروف بالأشدق ، يقال إنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه أنه قال : « ما نحل[1] والد ولداً أحسن من أدب حسن » وحديثا آخر فى العتق ، وروى عن عمر وعثمان وعلى وعائشة ، وحدث عنه بنوه : أمية ، وسعيد وموسى وغيرهم ، واستنابه معاوية على المدينة ، وكذلك يزيد بن معاوية بعد أبيه كما تقدم . وكان من سادات المسلمين ، ومن الكرماء المشهورين ، يعطى الكثير ، ويتحمل العظائم ، وكان وصى أبيه من بين بنيه ، وكان أبوه ـ كما قدمنا ـ من المشاهير الكرماء ، والسادة النجباء ، قال عمرو : ما شتمت رجلا منذ كنت رجلا ، ولا كلفت من قصدنى أن يسألنى ، لهو أمن على منى عليه . وقال سعيد بن المسيب : خطباء الناس فى الجاهلية : الأسود بن عبد المطلب ، وسهيل بن عمرو ، وخطباء الناس فى الإسلام: معاوية وابنه ، وسعيد بن العاص وابنه ، وعبد الله ابن الزبير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ثنا حماد ثنا على بن زيد أخبرنى من سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليرعفن[2] على منبرى جبار من جبابرة بنى أمية حتى يسيل رعافه » قال : فأخبرنى من رأى عمرو بن سعيد بن العاص رعف على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سال رعافه . وهو الذى كان يبعث البعوث إلى مكة بعد وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير ، فنهاه أبو شريح الخزاعى وذكر له الحديث الذى سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تحريم مكة ، فقال : نحن أعلم بذلك منك يا شريح ، إن الحرام لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بجزية ... الحديث كما تقدم وهو فى الصحيحين . ثم إن مروان دخل إلى مصر بعد ما دعا إلى نفسه واستقر له الشام ، ودخل معه عمرو بن سعيد ففتح مصر ، وقد كان وعد عمراً أن يكون ولى العهد من بعد عبد الملك ، وأن يكون قبل ذلك نائباً بدمشق ، فلما قويت شوكة مروان رجع عن ذلك ، وجعل الأمر من بعد ذلك لولده عبد العزيز ، وخلع عمراً . فما زال ذلك فى نفسه حتى كان من أمره ما تقدم ، فدخل عمرو

---

(١) أى : ما أعطى

(١) رعف ـ كنصر ومنع وكرم وسمع ـ خرج من أنفه الدم . والرعاف : الدم بعينه .

ودمشق وتحصن بها وأجابه أهلها ، فحاصره عبد الملك ثم استنزله على أمان صورى ، ثم قتله كما قدمنا .

وكان ذلك فى هذه السنة على المشهور عند الأكثرين ، وقال الواقدى وأبو سعيد بن يونس: سنة سبعين فالله أعلم . ومن الغريب ما ذكره هشام بن محمد الكلبي بسند له ، أن رجلا سمع فى المنام قائلا يقول ـ على سور دمشق قبل أن يخرج عمرو بالكلية ، وقبل قتله بمدة ـ هذه الأبيات :

ألا يا قوم للسفاهة والوهن ولفاجر الموهون والرأى الأفن

ولا بن سعيد بينما هو قائم على قدميه خر للوجه والبطن

رأى الحصن منجاة من الموت فالتجا إليه فزارته المنية فى الحصن

قال : فأتى الرجل عبد الملك فأخبره فقال : ويحك ! سمعها منك أحد ؟ قال : لا ! قال : فضعها تحت قدميك ، قال : ثم بعد ذلك خلع عمرو الطاعة وقتله عبد الملك بن مروان . وقد قيل إن عبد الملك لما حاصره راسله وقال : أنشدك الله والرحم أن تدع أمر بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة ، فإن فيما صنعت قوة لابن الزبير علينا ، فارجع إلى بيعتك ولك على عهد الله وميثاقه ، وحلف له بالأيمان المؤكدة أنك ولى عهدى من بعدى ؛ وكتبا بينهما كتابا ، فانخدع له عمرو وفتح له أبواب دمشق فدخلها عبد الملك ، وكان من أمرهما ما تقدم .

ومن توفى فيها من الأعيان أيضاً

أبو الأسود الدؤلى : ويقال له الديلى قاضى الكوفة ، تابعى جليل ، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن جلس بن شباثة بن عدى بن الدؤل بن بكر ، أبو الأسود الذى نسب إليه علم النحو ، ويقال إنه أول من تكلم فيه ، وإنما أخذه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وقد اختلف فى اسمه على أقوال : أشهرها أن اسمه ظالم بن عمرو ، وقيل عكسه ، وقال الواقدى : اسمه عويمر بن ظويلم ، قال: وقد أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يره وشهد الجمل وهلك فى ولاية عبد الله بن زياد ، وقال يحيى بن معين وأحمد بن عبد الله العجلى : كان ثقة وهو أول من تكلم فى النحو ، وقال ابن معين وغيره : مات بالطاعون الجارف سنة تسع وستين . قال ابن خلكان : وقيل إنه توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وقد كان ابتداؤها فى سنة تسع وتسعين . قلت وهذا غريب جداً . قال ابن خلكان وغيره : كان أول من ألقى إليه علم النحو على بن أبى طالب ، وذكر له أن الكلام اسم وفعل وحرف ، ثم إن أبا الأسود نحى نحوه وفرع على قوله ، وسلك طريقه ، فسمى هذا العلم النحو لذلك . وكان الباعث

لأبي الأسود على ذلك تغير لغة الناس ، ودخول اللحن في كلام بعضهم أيام ولاية زياد على العراق ، وكان أبو الأسود مؤدب بنيه ، فإنه جاء رجل يوماً إلى زياد فقال : توفي أبانا وترك بنون ، فأمره زياد أن يضع للناس شيئاً يهتدون به إلى معرفة كلام العرب ، ويقال : إن أول ما وضع منه باب التعجب من أجل أن ابنته قالت له ليلة : يا أبة ما أحسنُ السماء ، قال نجومها ، فقالت إني لم أسأل عن أحسنها إنما تعجبت من حسنها ، فقال قولي : ما أحسنَ السماء قال ابن خلكان : وقد كان أبو الأسود يبخل .

وكان يقول : لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنا مثلهم ، وعشى ليلة مسكيناً ثم قيده وبيته عنده ومنعه ان يخرج ليلته تلك لئلا يؤذي المسلمين بسؤاله ، فقال له المسكين : اطلقني ، فقال هيهات ، إنما عشيتك لأريح منك المسلمين الليلة ، فلما أصبح أطلقه . وله شعر حسن .

قال ابن جرير : وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير ، وقد أظهر خارجي التحكيم بمنى فقتل عند الجمرة . والنواب فيها هم الذين كانوا في السنة التي قبلها .

وممن توفي فيها : جابر بن سمرة بن جنادة ، له صحبة ورواية ولأبيه أيضاً صحبة ورواية ، وقيل : توفي في سنة ست وستين فالله أعلم .

أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، بايعت النبي ﷺ وقتلت بعمود خيمتها يوم اليرموك تسعة من الروم ليلة عرسها ، وسكنت دمشق ودفنت بباب الصغير .

حسان بن مالك أبو سليمان البجدلي قام ببيعة مروان لما تولى الخلافة ، مات في هذه السنة والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة

فيها ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام ، واستضعفوهم لما يرون من الاختلاف الواقع بين بني مروان وابن الزبير ، فصالح عبدُ الملك ملكَ الروم وهادنه على أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على الشام . وفيها وقع الوباء بمصر فهرب منه عبد العزيز ابن مروان إلى الشرقية ، فنزل حلوان وهي على مرحلة من القاهرة ، واتخذها منزلاً واشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار ، وبنى بها داراً للامارة وجامعاً ، وأنزلها الجند . وفيها ركب مصعب ابن الزبير من البصرة إلى مكة ومعه أموال جزيلة . فأعطى وفرق وأطلق لجماعة من رءوس الناس بالحجاز أموالاً كثيرة .

وممن توفي فيها من الأعيان

عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي : وأمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح ، ولد في حياة رسول الله ﷺ ، ولم يرو إلا عن أبيه حديثاً واحداً « إذا أقبل الليل من ههنا »

الحديث ، ومنه ابناه حفص وعبد الله ، وعروة بن الزبير ، وقد طلق أبوه أمه فأخذته جدته الشموس بنت أبي عامر . أتى به الصديق ، وقال : شمها ولطفها أحب إليه منك ، ثم لما زوجه أبوه في أيام إمارته أنفق عليه من بيت المال شهراً ، ثم كف عن الإنفاق عليه وأعطاه ثمن ماله وأمره أن يتجر ويجتنى على عياله . وذكر غير واحد ، أنه كان بين عاصم وبين الحسن والحسين منازعة في أرض ، فلما تبين عاصم من الحسن الغضب قال : هي لك ، فقال له : بل هي لك ، فتركاها ولم يتعرضا لها ، ولا أحد من ذريتهما حتى أخذها الناس من كل جانب . وكان عاصم رئيساً وقوراً كريماً فاضلاً . قال الواقدي : مات سنة سبعين بالمدينة .

قبيصة بن ذؤيب الخزاعي الكلبي ـ أبو العلاء ، من كبار التابعين ، وهو أخو معاوية من الرضاعة ، كان من فقهاء أهل المدينة وصالحيهم ، انتقل إلى الشام ، وكان معلم كتاب .

قيس بن دريح : المشهور أنه من بادية الحجاز ، وقيل إنه أخو الحسين بن علي من الرضاعة ، وكان قد تزوج لبنى بنت الحباب ثم طلقها ، فلما طلقها هام لما به من الغرام ، وسكن البادية ، وجعل يقول فيها الأشعار ونحل جسمه ، فلما زاد ما به أتاه ابن أبي عتيق ، فأخذه ومضى به إلى عبد الله ابن جعفر فقال له : فداك أبي وأمي ! اركب معي في حاجة ، فركب واستنهض معه أربعة نفر من وجوه قريش ، فذهبوا معه وهم لا يدرون ما يريد ، حتى أتى بهم باب زوج لبنى ، فخرج إليهم فإذا وجوه قريش ، فقال : جعلني الله فداكم ! ما جاء بكم ؟ قالوا : حاجة لابن أبي عتيق ، فقال الرجل: اشهدوا أن حاجته مقضية ، وحكمه جائز ، فقالوا : أخبره بحاجتك ، فقال ابن أبي عتيق : اشهدوا على أن زوجته لبنى منه طالق ، فقال عبد الله بن جعفر : قبحك الله ، ألهذا جئت بنا ؟ فقال : جعلت فداكم يطلق هذا زوجته ويتزوج غيرها خير من أن يموت رجل مسلم في هواها صبابة ، والله لا أبرح حتى ينتقل متاعها إلى بيت قيس ، ففعلت ، وأقاموا مدة في أرغد عيش وأطيبه رحمهم الله تعالى .

يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري الشاعر : كان كثير الشعر والهجو ، وقد أراد عبيد الله بن زياد قتله لكونه هجا أباه زياداً ، فمنعه معاوية من قتله ، وقال : أدبه ، فسقاه دواء مسهلا وأركبه على حمار ، وطاف به في الأسواق وهو يسلح على الحمار ، فقال في ذلك :

يغسل الماء ما صنعت وشعرى راسخ منك في العظام البوالى

بشير بن النضر : قاضي مصر ، كان رزقه في العام ألف دينار ، توفى بمصر ، وولى بعده عبد الرحمن بن حجرة الخولاني ، والله سبحانه أعلم .

مالك بن يخامر : السكسكي الألهاني الحمصي ، تابعي جليل ، ويقال : له صحبة ، فالله أعلم . روى

البخاري من طريق معاوية عنه، عن معاذ بن جبل في حديث الطائفة الظاهرة على الحق أنهم بالشام، وهذا من باب رواية الأكابر عن الأصاغر، إلا أن يقال له صحبة. والصحيح أنه تابعي، وليس بصحابي. وكان من أخص أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال غير واحد: مات في هذه السنة، وقيل سنة اثنتين وسبعين، والله سبحانه وتعالى أعلم

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

ففيها: كان مقتل مُصعب بن الزبير، وذلك أن عبد الملك بن مروان سار في جنود هائلة من الشام قاصداً مُصعب بن الزبير، فالتقيا في هذه السنة، وقد كانا قبلها يركب كل واحد ليلتقي بالآخر، فيحول بينهما الشتاء والبرد والوحل، فيرجع كل واحد منهما إلى بلده، فلما كان في هذا العام، سار إليه عبد الملك، وبعث بين يديه السرايا. ودخل بعض من أرسله إلى البصرة، فدعا أهلها إلى عبد الملك في السر، فاستجاب له بعضهم. وقد كان مصعب سار إلى الحجاز، فجاء ودخل البصرة على إثر ذلك، فأنّب الكبراء من الناس وشتمهم ولامهم على دخول أولئك إليهم، وإقرارهم لهم على ذلك، وهدم دور بعضهم، ثم شخص إلى الكوفة. ثم بلغه قصد عبد الملك له بجنود الشام، فخرج إليه ووصل عبد الملك إلى مَسْكِن[1]، وكتب إلى المَرْوانية الذين استجابوا لمن بعثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يوليهم أصبهان، فقال: نعم ـ وهم جماعة كثيرة من الأمراء ـ وقد جعل عبد الملك على مقدمته أخاه محمد بن مروان، وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد ابن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية. وخرج مصعب، وقد اختلف عليه أهل العراق، وخذلوه وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطمّن نفسه على ذلك، وقال: لي بالحسين بن علي أسوة، حين امتنع من إلقائه يده، ومن الذلة لعبيد الله بن زياد، وجعل ينشد ويقول مسلياً نفسه:

إنّ الأُلى بالطّف من آل هاشم ... تأسّوا فسَنّوا للكرام التأسّيا

وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أصحابه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشاً، فأبى وقال لعلّي: إن بعثت رجلا شجاعا كان لا رأي له، ومن له رأي لا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصيراً بالحرب وشجاعة، وإن مصعباً في بيت شجاعة، أبوه أشجع قرشي، وأخوه لا تجهل شجاعته، وهو شجاع ومعه من يخالفه ولا علم له بالحرب، وهو يحب الدّعة والصفح، ومعي من ينصح لي ويوافقني على ما أريد، فسار بنفسه فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلى أمراء مصعب يدعوهم إلى نفسه ويعدهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشتر إلى مصعب فألقى إليه كتاباً مختوماً

(١) مسكن. موضع بالكوفة.

وقال : هذا جاءنى من عبد الملك ، ففتحه، فإذا هو يدعوه إلى الإتيان إليه وله نيابة العراق ، وقال لمصعب : أيها الأمير ! إنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا ، فإن أطعتنى ضربت أعناقهم . فقال له مصعب : إنى لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم ، فقال : فابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه ، فإن كانت لك النصرة ضربت أعناقهم، وإن كانت عليك خرجوا بعد ذلك فقال له : يا أبا النعمان ! إنى لفى شغل عن هذا ، ثم قال مصعب : رحم الله أبا بحر – يعنى الأحنف – إن كان ليحذرنى غدر أهل العراق ، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن .

ثم تواجه الجيشان بدير الجاثليق من مسكن ، فحمل إبراهيم بن الأشتر – وهو أمير المقدمة العراقية لجيش مصعب ، على محمد بن مروان – وهو أمير مقدمة الشام – فأزالهم عن موضعهم ، فأردفه عبد الملك بعبد الله بن يزيد بن معاوية ، فحملوا على ابن الأشتر ومن معه فطحنوهم ، وقتل ابن الأشتر –رحمه الله– وعفا عنه وقتل معه جماعة من الأمراء . وكان عتاب بن ورقاء على خيل مصعب فهرب أيضاً ولجأ إلى عبد الملك بن مروان، وحمل مصعب بن الزبير – وهو واقف فى القلب – ينهض أصحاب الرايات، ويحث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلى أمام القوم ، فلا يتحرك أحد ، فجعل يقول : يا إبراهيم ولا إبراهيم لى اليوم ، وتفاقم الأمر واشتد القتال ، وتخاذلت الرجال ، وضاق الحال ، وكثر النزال قال المدائنى : أرسل عبد الملك أخاه إلى مصعب يعطيه الأمان فأبى وقال : إن مثلى لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً . قالوا : فنادى محمدُ بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخى لا تقتل نفسك ، لك الأمان– فقال له مصعب : قد آمنك عمك فامض إليه ، فقال: لا تتحدث نساء قريش أنى أسلمتك للقتل، فقال له : يا بنى فاركب خيل السبق فالحق بعمك فأخبره بما صنع أهل العراق فإنى مقتول ههنا ، فقال : والله إنى لا أخبر عنك أحداً أبداً ، ولا أخبر نساء قريش بمصرعك ، ولا أقتل إلا معك ، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة . فقال : والله لا تتحدث قريش بأنى فررت من القتال ، فقال لابنه : تقدم بين يدى حتى أحتسبك ، فتقدم ابنه فقاتل حتى قتل ، وأثخن مصعب بالرمى ، فنظر إليه زائدة بن قدامة وهو كذلك، فحمل عليه فطعنه وهو يقول : ياثارات المختار! ونزل إليه رجل يقال له عُبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمى ، فقتله وحز رأسه وأتى به عبد الملك بن مروان ، فسجد عبد الملك وأطلق له ألف دينار ، فأبى أن يقبلها وقال : لم أقتله على طاعتك ، ولكن بثأر كان لى عنده ، وكان قد ولى له عملا قبل ذلك فعزله عنه وأهانه .

قالوا : ولما وضع رأس مصعب بين يدى عبد الملك قال عبد الملك : لقد كان بينى وبين مصعب صحبة قديمة ، وكان من أحب الناس إلى ، ولكن هذا الملك عقيم ، وقال : لما تفرق عن مصعب جموعه قال له ابنه عيسى : لو اعتصمت ببعض القلاع ، وكاتبت من بعد عنك مثل المهلب

ابن أبي صفرة وغيره فقدموا عليك ، فإذا اجتمع لك ما تريد منهم لقيت القوم ، فإنك قد ضعفت جداً ، فلم يرد عليه جوابا . ثم ذكر ما جرى للحسين بن علي ، وكيف قتل كريما ولم يلق بيده ، ولم يجد من أهل العراق وفاء ، وكذلك أبوه وأخوه ، ونحن ما وجدنا لهم وفاء ، ثم انهزم أصحابه وبقي في قليل من خواصه ، ومال الجميع إلى عبد الملك . وقد كان عبد الملك يحب مصعباً حباً شديداً ، وكان خليلا له قبل الخلافة ، فقال لأخيه محمد : اذهب إليه فأمنه ، فجاءه فقال له : يا مصعب، قد أمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد ، ولو أراد بك غير ذلك لكان . فقال مصعب : قضي الأمر ، إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً ، فتقدم ابنه عيسى فقاتل ، فقال محمد بن مروان : يا ابن أخي لا تقتل نفسك . ثم ذكر من قوله ما تقدم ، ثم قاتل حتى قتل - رحمه الله - ثم ذكر من قتل منهم بعده كما تقدم ، قال : ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بكى وقال : والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا ، ولكن الملك عقيم . ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة ، متى تلد النساء مثل مصعب ؟ ثم أمر بمواراته ودفنه هو وابنه وإبراهيم ابن الأشتر ، في قبور بمسكن بالقرب من الكوفة . قال المدائني : وكان مقتل مصعب بن الزبير يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى أو الآخرة ؛ من سنة إحدى وسبعين في قول الجمهور وقال المدائني : سنة ثنتين وسبعين، والله أعلم .

قالوا : ولما قتل عبد الملك مصعباً ارتحل إلى الكوفة فنزل النُّخَيلة فوفدت عليه الوفود من رؤساء القبائل وسادات العرب ، وجعل يخاطبهم بفصاحة وبلاغة واستشهاد بأشعار حسنة ، وبايعه أهل العراق وفرق العمالات في الناس ، وولى الكوفة قَطَن بن عبد الله الحارثي أربعين يوماً ، ثم عزله وولى أخاه بِشْر بن مروان عليها . وخطب عبد الملك يوماً بالكوفة فقال في خطبته : إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة - كما يَزعَم - لخرج فآسى بنفسه ولم يغرز ذَنَبه في الحرم ، ثم قال لهم : إني قد استخلفت عليكم أخي بشر بن مروان وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، وبالشدة على أهل المعصية ، فاسمعوا له وأطيعوا .

وأما أهل البصرة فإنهم لما بلغهم مقتل مصعب تنازع في إمارتها « أبان بن عثمان بن عفان »[1] ، وعُبيد الله بن أبي بكرة ، فغلبه أبان عليها ، فبايعه أهلها فكان أشرف الرجلين . قال أعرابي : والله لقد رأيت رداء أبان مال عن عاتقه يوما ، فابتدره مروان وسعيد بن العاص أيهما يسويه على منكبيه . وقال غيره : مد أبان يوما رجله فابتدرها معاوية وعبد الله بن عامر أيهما يغمزها ، قال :

(١) في الطبري : حمران بن أبان

فبعث عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد واليا عليها - يعني على البصرة - فأخذها من أبان، واستناب فيها عبيد الله بن أبي بكرة، وعزل أبانا عنها. قالوا: وقد أمر عبد الملك بطعام كثير فعمل لأهل الكوفة، فأكلوا من سماطه ومعه يومئذ على السرير - عمرو بن حريث، فقال له عبد الملك: ما ألذ عيشنا لو أن شيئا يدوم! ولكن كما قال الأول:

وكلُّ جديد يا أُمَيم إلى البلى وكلُّ امرىء يوما يصيرُ إلى كان

فلما فرغ الناس من الأكل، نهض فدار في القصر وجعل يسأل عمرو بن حريث عن أحوال القصر، ومن بنى أماكنه وبيوته، ثم عاد إلى مجلسه فاستلقى وهو يقول:

اعمَلْ على مَهَلٍ فإنّكَ ميّتٌ واكدَحْ لنفسك أيُّها الإنسانْ
فكأنَّ ما قد كان لم يكُ إذ مضَى وكأنَّ ما هو كائن قد كانْ

قال ابن جرير: وفيها رجع عبد الملك - كما زعم الواقدي - إلى الشام. وفيها عزل ابن الزبير جابر ابن الأسود عن المدينة وولى عليها طلحة بن عبد الله بن عوف، وكان هو آخر أمرائه عليها، حتى قدم عليها طارق بن عمرو - مولى عثمان من جهة عبد الملك. وفيها حج بالناس عبد الله بن الزبير ولم يبق له ولاية على العراق. قال الواقدي: وفيها عقد عبد العزيز بن مروان نائب مصر لحسان الغاني - على غزو إفريقية، فسار إليها في عدد كثير، فافتتح قرطاجنة وكان أهلها روما عُبّاد أصنام. وفيها قتل نجدة الحروري الذي تغلب على اليمامة. وفيها خرج عبد الله بن ثور في اليمامة.

هذه ترجمة مصعب بن الزبير - رحمه الله

وهو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد، بن أسد بن عبد العزى، بن قصي بن كلاب - أبو عبد الله القرشي، ويقال له أبو عيسى أيضاً الأسدي. وأمه كرمان بنت أنيف الكلبية. كان من أحسن الناس وجها، وأشجعهم قلبا، وأسخاهم كفا. وقد حكى عن عمر بن الخطاب، وروى عن أبيه الزبير وسعد وأبي سعيد الخدري. وروى عنه الحكم بن عيينة، وعمرو بن دينار الجمحي، وإسماعيل بن أبي خالد. ووفد على معاوية، وكان ممن يجالس أبا هريرة، وكان من أحسن الناس وجها. حكى الزبير بن بكار أن جميلا نظر إليه وهو واقف بعرفة فقال: إن ههنا فتى أكره أن تراه بثينة. وقال الشعبي: ما رأيت أميراً على منبر قط أحسن منه، وكذا قال إسماعيل بن خالد. وقال الحسن: هو أجمل أهل البصرة. وقال الخطيب البغدادي: ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الله حتى قتله عبد الملك بمسكن، بموضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق، وقبره إلى الآن معروف هناك. وقد ذكرنا صفة قتله المختار بن أبي عبيد، وأنه قتل

فى غداة واحدة من أصحاب المختار سبعة آلاف . قال الواقدى : لما قتل مصعب المختار طلب أهل القصر من أصحاب المختار — من مصعب الأمان فأمنهم . ثم بعث إليهم عباد بن الحصين فجعل يخرجهم ملتمين ، فقال له رجل : الحمد لله الذى امتحنكم علينا وابتلانا بالأسر ، يا ابن الزبير ! من عفا عفا الله عنه ، ومن عاقب لا يأمن القصاص ، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ، وقد قدرت فاسمح واعف عنا ؛ قال : فرق لهم مصعب وأراد أن يخلى سبيلهم ، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وغيره من كل قبيلة فقالوا : قد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منا خلقا ؛ اخترنا أو اخترهم ، فأمر حينئذ بقتلهم ، فنادوا بأجمعهم : لا تقتلنا واجعلنا مقدمتك فى قتال عبد الملك بن مروان ، فإن ظفرنا فلكم ، وإن قتلنا لا نقتل حتى نقتل منهم طائفة ، وكان الذى تريد ، فأبى ذلك مصعب ، فقال له مسافر : اتق الله يا مصعب ! فإن الله عز وجل أمرك أن لا تقتل نفسا مسلمة بغير نفس ، وأن (من يَقْتُل مُؤمِناً متعمِّداً فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها وغَضِب اللهُ عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيما)[1] فلم يسمع له بل أمر بضرب رقابهم جميعهم وكانوا سبعة آلاف نفس ، ثم كتب مصعب إلى ابن الأشتر ، أن أجبنى فلك الشام وأعنة الخيل ، فسار ابن الأشتر إلى مصعب .

وقيل : إن مصعباً لما قدم مكة أتى عبد الله بن عمر فقال : أى عم ! إنى أسألك عن قوم خلعوا الطاعة وقاتلوا حتى غلبوا ، تحصنوا وسألوا الأمان فأعطوه ، ثم قتلوا بعد ذلك . فقال : وكم هم ؟ فقال : خمسة آلاف . فسبح ابن عمر واسترجع وقال : لو أن رجلا أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف ماشية فى غداة واحدة ، ألست تعده مسرفا ؟ قال : نعم : قال : أفتراه إسرافا فى البهائم ولا تراه إسرافا فى من ترجو توبته ؟ يا ابن أخى ! أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك . ثم إن مصعباً بعث برأس المختار إلى أخيه بمكة ، وتمكن مصعب فى العراق تمكنا زائداً ، فقرر بها الولايات والعمال ، وحظى عنده ابن الأشتر فجعله على الوفادة ، ثم رحل مصعب إلى أخيه بمكة فأعلمه بما فعل فأقره على ما صنع ، إلا ابن الأشتر لم يمض له ما جعله عليه ، وقال له : أترانى أحب الأشتر وهو الذى جرحنى هذه الجراحة ؟ ثم استدعى بمن قدم مع مصعب من أهل العراق فقال لهم : والله لوددت أن لى بكل رجلين منكم رجلا من أهل الشام فقال له أبو حاجر الأسدى — وكان قاضى الجماعة بالبصرة — إن لنا ولكم مثلا قد مضى يا أمير المؤمنين ، وهو ما قال الأعشى :

علقتها عرضاً ، وعلقت رجلا غيرى ، وعلق أخرى غيرها الرجل[2]

قلت : كما قيل أيضاً :

جننا بليلى وهى جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

---

(١) الآية : ٩٣ من سورة النساء .

(٢) فى رواية وعلق أخرى ذلك الرجل .

ماقتناك يا أمير المؤمنين ، وعلقت أهل الشام ، وعلق أهل الشام إلى مروان ، فما عسينا أن نضع ؟ قال الشعبي : ما سمعت جوابا أحسن منه . وقال غيره : وكان مصعب من أشد الناس محبة للنساء، وقد أمضى من ذلك شيئاً كثيراً ، كما روى أنه اجتمع عند الحجر الأسود جماعة منهم ابن عمر ومصعب بن الزبير ، فقالوا : ليتمن كل واحد منكم وليسأل من الله حاجته . فسأل ابن عمر المغفرة ، وسأل مصعب أن يزوجه الله سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ـ وكانتا من أحسن النساء في ذلك الزمان ، وأن يعطيه الله إمرة العراقين ، فأعطاه الله ذلك ، تزوج بعائشة بنت طلحة ، وكان صداقها عليه مائة ألف دينار ، وكانت باهرة الجمال جداً ، وكان مصعب أيضاً جميلا جداً وكذلك بقية زوجاته قال الأصمعي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : اجتمع في الحجر مصعب وعروة ، وابن الزبير ، وابن عمر فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وقال عبد الله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فنالوا كلهم ماتمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر الله له .

وقال عامر الشعبي : بينما أنا جالس إذ دعاني الأمير مصعب بن الزبير ، فأدخلني دار الإمارة ثم كشف فإذا وراءه عائشة بنت طلحة ، فلم أر منظراً أبهى ولا أحسن منها ، فقال : أتدرى من هذه؟ فقلت : لا ـ فقال : هذه عائشة بنت طلحة ، ثم خرجت فقالت : من هذا الذى أظهرتني عليه ؟ قال : هذا عامر الشعبي ، قالت : فأطلق له شيئاً ، فأطلق لى عشرة آلاف درهم . قال الشعبي : فكان أول مال ملكته وحكى الحافظ ابن عساكر ، أن عائشة بنت طلحة تغضبت مرة على مصعب فترضاها بأربعمائة ألف درهم ، فأطلقها هي المرأة التي أصلحت بينهما ، وقيل: إنه أهديت له نخلة من ذهب ثمارها من صنوف الجواهر المثمنة ، فقومت بألفي دينار ، وكانت من متاع الفرس ، فأعطاها لعائشة بنت طلحة .

وقد كان مصعب من أجود الناس وأكثرهم عطاء ، لايستكثر ما يعطى ولو كان ماعساه أن يكون؛ فكانت عطاياه للقوى والضعيف ، والوضيع والشريف متقاربة ، وكان أخوه عبدالله يبخل وروى الخطيب البغدادي في تاريخه ، أن مصعباً غضب مرة على رجل فأمر بضرب عنقه ، فقال له الرجل : أعز الله الأمير ! ما أقبح مثلى أن يقوم يوم القيامة فيتعلق بأطرافك هذه الحسنة ، وبوجهك هذا الذى يستضاء به ، فأقول : يارب ! سل مصعبا فيم قتلني ؟ نعفا عنه . فقال الرجل : أعز الله الأمير . إن رأيت ما وهبتني من حياتي في عيش رضى ، فأطلق له مائة ألف ، فقال الرجل : إني أشهدك أن نصفها لابن قيس الرقيات ، حيث يقول فيك : ـ

« إن مصعباً[1] » شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

وفي رواية أنه قال له : أيها الأمير ! قد وهبتني حياة ، فإن اشتطعت أن تجعل ما قد وهبتني من الحياة في عيش رضي وسعة فافعل ، فأمر له بمائة ألف.

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن سلمة ثنا علي بن يزيد قال: بلغ مصعبا عن عريف الأنصاري شيء فهم به ، فدخل عليه أنس بن مالك فقال له : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « استوصوا بالأنصار خيراً - أو قال معروفا - اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » . فألقى مصعب نفسه عن سريره وألصق خده بالبساط وقال : « أمر رسول الله ﷺ على الرأس والعين » فتركه. ومن كلام مصعب في التواضع أنه قال : العجب من ابن آدم ! كيف يتكبر وقد جرى في مجرى البول مرتين . وقال محمد بن يزيد المبرد . سئل القاسم بن محمد عن مصعب فقال : كان نبيلا رئيسا تقيا أنيسا . وقد تقدم أنه لما ظهر على المختار قتل من أصحابه في غداة واحدة خمسة آلاف ،وقيل سبعة آلاف ، فلما كان بعد ذلك لقي ابن عمر فسلم عليه فلم يعرفه ابن عمر ؛ لأنه كان قد أنضر في عينيه ، فتعرف له فعرفه ، فقال : أنت الذي قتلت في غداة واحدة خمسة آلاف ممن يوحد الله ؟ فاعتذر إليه بأنهم بايعوا المختار ، فقال : أما كان فيهم من هو مستكره أو جاهل فينتظر حتى يتوب ؟ أرأيت لو أن رجلا جاء إلى غنم الزبير فنحر منها خمسة آلاف في غداة واحدة ، أما كان مسرفا ؟ قال : بلى.قال: وهي لا تعبد الله ولا تعرفه كما يعرفه الآدمي، فكيف بمن هو موحد؟ ثم قال له: يا بني! تمتع من الماء البارد ما استطعت ، وفي رواية أنه قال له : عش ما استطعت .

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن عن زفر بن قتيبة عن الكلبي قال: قال عبد الملك ابن مروان يوما لجلسائه : من أشجع العرب والروم؟ قالوا: شبيب ، وقال آخر : قطري بن الفجاءة وفلان وفلان . فقال عبد الملك : إن أشجع الناس لرجل جمع بين سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة؛ وأمة الحميد بنت عبدالله بن عامر بن كريز، وابنة ريان بن أنيف الكلبي ، سيد ضاحية العرب وولي العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف ، وألف ألف، وألف ألف ،مع ما انفقه من الأموال، وملك غير ذلك من الأثاث والدواب والأموال مالا يحصى ، وأعطى مع هذا الأمان ، وأن يسلم هذا له جميعه مع الحياة، فزهد في هذا كله، وأبى واختار القتل على مقام ذل ، ومفارقة هذا كله ومشى

(١) في رواية إنما مصعب

بسيفه فقاتل حتى مات ، وذلك بعد خذلان أصحابه له . فذلك: مصعب بن الزبير رحمه الله ، وليس هو كمن قطع الجسور مرة هٰهنا ومرة هٰهنا . فهذا هو الرجل ، وهذا هو الزهد . قالوا : وكان مقتله يوم الخميس النصف من جمادى الأولى سنة ثنتين وسبعين .

وقال الزبير بن بكار : حدثني فليح بن إسماعيل ، وجعفر بن أبي بشير عن أبيه قال : لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال :

لقد أردى الفوارس يوم عبس ... غـــلام غير مناع المتاع
ولا فرح بخـــير إن أتاه ... ولا هلع من الحـــدثان لاع
ولا رقابة والخيل تعـــدو ... ولا خال كأنبـــوب اليراع

فقال الرجل الذي جاء برأسه : والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمح في يده تارة والسيف تارة ، يفرى بهذا ويطعن بهذا ، لرأيت رجلا يملأ القلب والعين شجاعة ، لكنه لما تفرقت عنه رجاله ، وكثر من قصده ، وبقي وحده ـ ما زال ينشد :

وإني على المكروه عند حضوره ... أكذب نفسي والجفون فلم تغض
وما ذاك من ذل ولكن حفيظة ... أذب بها عند المكارم عن عرضي
وإني لأهل الشر بالشر مرصـــد ... وإني لذي سـلم أذل من الأرض .

فقال عبد الملك : كان والله كما وصف به نفسه وصدق . ولقد كان من أحب الناس إليّ ، وأشدهم لي ألفة ومودة ، ولكن الملك عقيم . وروى يعقوب بن سفيان عن سليمان بن حرب عن غسان بن مضر، عن سعيد بن يزيد، أن عبيد الله بن زياد بن ظبيان قتل مصعباً عند دير الجاثليق ، على شاطئ نهر يقال له دجيل ، من أرض مسكن، واحتز رأسه ، فذهب به إلى عبد الملك ، فسجد شكراً لله . وكان ابن ظبيان فاتكا رديئاً ، وكان يقول : ليتني قتلت عبد الملك حين سجد يومئذ فأكون قد قتلت ملك العرب . قال يعقوب : وكان ذلك سنة ثنتين وسبعين فالله أعلم وحكى الزبير بن بكار في عمره يوم قتل ثلاثة أقوال : أحدها خمس وثلاثون سنة ، والثاني أربعون سنة ، والثالث خمس وأربعون سنة ، فالله أعلم .

وروى الخطيب البغدادي ، أن امرأته سكينة بنت الحسين كانت معه في هذه الوقعة ، فلما قتل طلبته في القتلى حتى عرفته بشامة في خده فقالت : نعم بعل المرأة المسلمة ، كنت أدرك والله ما قال عنترة :

وحليل غانية تركت مجـــدلا ... بالقاع لم يعهـــد ولم يتثلم
فهتكت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القـــنا بمحرم

قال الزبير : وقال عبد الله بن قيس الرقيات يرثى مصعب بن الزبير رحمه الله تعالى :

لقد أورثَ المِصْرَيْن خِزْياً وذلة قتيلٌ بدَيْرِ الجاثليق مُقيمُ[1]

فما نصحت لله بكرُ بن وائل ولا صدَقت يوم اللقاء تميمُ

ولو كان بكرياً تعطف حوله كتائب يبقى حرُّها ويدوم

ولكنه ضاع الذمام ولم يكن بها مُضَرِىٌّ يوم ذاك كريم

جزى الله كوفياً هناك ملامة وبَصْرِيَّهم إنّ المَلُوم ملوم

وإنّ بنى العلاّت أخلوا ظهورنا ونحن صريح بينهم وصميم

فإن نَفْنَ لا يبقى أولئك بعدنا لذى حرمة فى المسلمين حريم

وقد قال أبو حاتم الرازى : ثنا يحيى بن مصعب الكلبى ، ثنا أبو بكر بن عياش عن عبد الملك ابن عمير قال : دخلت القصر بالكوفة ، فإذا رأس الحسين بن علىّ على ترس بين يدى عبيد الله ابن زياد ، وعبيد الله على السرير . ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين، فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدى المختار ، والمختار على السرير ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين ، فرأيت رأس المختار على ترس بين يدى مصعب بن الزبير، ومصعب على السرير ثم دخلت القصر بعد حين فرأيت رأس مصعب ابن الزبير على ترس بين يدى عبد الملك، وعبد الملك على السرير . وقد حكى ذلك الإمام أحمد وغير واحد عن عبد الملك بن عمير [وقال عبد الله بن قيس الرقيات يرثى مصعباً أيضاً :

نعت السحائب والغمام بأسرها جسداً بمسكن عارى الأوصال

تمسى عوائده السباع وداره بمنازل أطلالهن بوالى

رحل الرفاق وغادروه ثاوياً للريح بين صبا وبين شمال

فصل

وكان لمصعب من الولد : عُكاشة وعيسى الذى قتل معه ، وسكينة ـ وأمهم فاطمة بنت عبد الله بن السائب ، وعبد الله، ومحمد ـ وأمهما عائشة بنت طلحة ، وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق . وجعفر ، ومصعب ، وسعيد، وعيسى الأصغر ، والمنذر ـ لأمهات شتى . والرباب وأمها سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وعنهم ـ[2] .

(١) بعد هذا البيت فى الديوان :

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعد وحميم

(٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

قال ابن جرير : وذكر أبو زيد عن أبى غسان محمد بن يحيى، حدثنى مصعب بن عثمان قال : لما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام فى الناس خطيباً فقال : الحمد لله الذى له الخلق والأمر، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه، وإن كان فرداً وحده. ولن يفلح من كان وليه الشيطان وحزبه، ولو كان معه الأنام طراً ألا وإنه أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا ؛ أتانا قتل مصعب فأحزننا، فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة وأما الذى أحزننا فإن الحميم لفراقه لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوى من بعدها، وذو الرأى جميل الصبر كريم العزاء. ولئن أصبت بمصعب فلقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعوانى. ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبى العاص، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا فى الإسلام، وما نموت إلا بأطراف الرماح أو تحت ظل السيوف، فإن بنى أبى العاص يجمعون الناس بالرغبات والرهبات، ثم يقاتلون بهم أعداءهم ممن هو خير منهم وأكرم، ولا يقاتلون تابعيهم زحفاً. ألا وإن الدنيا عارية من الملك الأعلا الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا لآخذها أخذ الأشر[1] البطر، وإن تدبر لا أبكى عليها بكاء الحزين الأسف المهين، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

ومن توفى فيها من الأعيان

إبراهيم بن الأشتر : كان أبوه ممن قام على عثمان وقتله، وكان إبراهيم هذا من المعروفين بالشجاعة وله شرف، وهو الذى قتل عبيد الله بن زياد كما ذكرنا.

عبد الرحمن بن غسيلة : أبو عبد الله المرادى الصنابحى، كان من الصلحاء، وكان عبد الملك يجلسه معه على السرير، وكان عالماً فاضلا، توفى بدمشق.

عمر بن سلمة المخزومى المدنى : ربيب النبى صلى الله عليه وسلم، ولد بأرض الحبشة

سفينة مولى رسول الله ﷺ : أبو عبد الرحمن، كان عبداً لأم سلمة، فأعتقته وشرطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ، فقال : أنا لا أزال أخدم رسول الله ﷺ لو لم تعتقينى ما عشت. وقد كان سفينة بآل رسول الله ﷺ إلفاً، وبهم خليطاً. وروى الطبرانى أن سفينة سئل عن اسمه لم سمى سفينة ؟ قال : سمانى رسول الله ﷺ سفينة، خرج مرة ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فقال لى رسول الله ﷺ : « ابسط كساءك، فبسطته فجعل فيه متاعهم، ثم قال لى : احمل ما أنت

(١) الأشر : شدة المرح وبابه طرب ومثله البطر

إلا سفينة ، قال: فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو خمسة أو ستة ما ثقل على» . وروى محمد ابن المنكدر عن سفينة قال: ركبت مرة سفينة فى البحر ، فانكسرت بنا، فركبت لوحاً منها فطرحنى البحر إلى غيضة فيها الأسد، فجاءنى فقلت : يا أبا الحارث! أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ ، فطأطأ رأسه ، وجعل يدفعنى بجنبه أو بكفه حتى وضعنى على الطريق ،ثم همهم همهمة فظننت أنه يودعنى وقال حماد بن سلمة : ثنا سعيد بن جهمان عن سفينة، أن رسول الله ﷺ « دخل بيت فاطمة فرأى فى ناحية البيت قراما[1] مضروباً ، فرجع ولم يدخل ، فقالت فاطمة لعلى : سل رسول الله ﷺ ما الذى رده ؟ فسأله فقال : ليس لى ولا لنبى أن يدخل بيتاً مزوقاً » .

عمرو بن أخطب : أبو زيد الأنصارى الأعرج ، غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة غزوة .

يزيد بن الأسود الجرشى السكونى : كان عابداً زاهداً صالحا ، سكن الشام بقرية زبدين ، وقيل بقرية جرين ، وكانت له دار داخل باب شرق ، وهو مختلف فى صحبته ، وله روايات عن الصحابة ، وكان أهل الشام يستسقون به إذا قحطوا ، وقد استسقى به معاوية والضحاك بن قيس ، وكان يجلسه معه على المنبر ، قال معاوية : قم يزيد ! اللهم إنا نتوسل إليك بخيارنا وصلحائنا ، فيستسقى الله فيسقون . وكان يصلى الصلوات فى الجامع بدمشق ، وكان إذا خرج من القرية يريد الصلاة بالجامع فى الليلة المظلمة يضىء له إبهام قدمه ، وقيل أصابع رجليه كلها حتى يدخل الجامع ، فإذا رجع أضاءت له حتى يدخل القرية . وذكروا أنه لم يدع شجرة فى قرية زبدين إلا صلى عندها ركعتين ، وكان يمشى فى ضوء إبهامه فى الليلة المظلمة، ذاهباً إلى صلاة العشاء بالجامع بدمشق وآتيا إلى قريته . وكان يشهد الصلوات بالجامع بدمشق لا تفوته به صلاة . مات بقرية زبدين، أو جرين من غوطة دمشق ـ رحمه الله .

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين

فقيها : كانت وقعة عظيمة بين المهلب بن أبى صُفرة وبين الأزارقة من الخوارج، بمكان يقال له سُولَاف[2] ، مكثوا نحواً من ثمانية أشهر متواقفين ، وجرت بينهم حروب يطول بسطها ، وقد استقصاها ابن جرير ، وقتل فى أثناء ذلك من هذه المدة ـ مصعب بن الزبير ، ثم إن عبد الملك أقرّ المهلب بن أبى صُفرة على الأهواز وما معها ، وشكر سَعيه وأثنى عليه ثناء كثيراً ، ثم تواقع الناس فى دولة عبد الملك بالأهواز، فكسر الناس الخوارج كسْرةً فظيعة، وهربوا فى البلاد لا يلوون على أحد ، واتبعهم خالد بن عبد الله أمير الناس، ودَاود بن قَحْذَم فطردوهم ، وأرسل عبد الملك إلى

(١) القرام : ستر فيه رقم ونقوش (٢) فى القاموس : سولاف : بلد بخوز ستان

أخيه بشر بن مروان أن يمدهم بأربعة آلاف ، فبعث إليه أربعة آلاف ، عليهم عتّاب بن ورقاء فطردوا الخوارج كل مطرد ، ولكن لقى الجيش جهداً عظيما ، وماتت خيولهم ولم يرجع أكثرهم إلا مشاة إلى أهليهم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة كان خروج أبي فُدَيك الحارثي وهو من قَيس بن ثعلبة ، وغلب على البحرين ، وقتل نَجْدَة بن عامر الحارثي ، فبعث إليه خالد بن عبد الله أمير البصرة أخاه أمية بن عبد الله في جيش كثيف ، فهزمهم أبو فُدَيك وأخذ جارية لأمية واصطفاها لنفسه ، وكتب خالد أمير البصرة إلى عبد الملك يعلمه بما وقع ، واجتمع على خالد هذا حرب أبي فُدَيك ، وحرب الأزارقة أصحاب قَطَرِيّ بن الفُجاءة بالأهواز .

قال ابن جرير : وفيها بعث عبد الملك بن مروان الحجاجَ بن يوسف الثقفي إلى عبد الله ابن الزبير ليحاصره بمكة ، قال : وكان السبب في بعثه له دون غيره ، أن عبد الملك بن مروان لما أراد الرجوع إلى الشام بعد قتله مُصعبا وأخذه العراق ، ندب الناس إلى قتال عبد الله ابن الزبير بمكة ، فلم يجبه أحد إلى ذلك ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين أنا له ، وقصّ الحجاج على عبد الملك مناماً زعم أنه رآه ، قال : رأيتُ يا أمير المؤمنين كأني أخذتُ عبد الله ابن الزبير فسلخته ، فابعث بي إليه فإني قاتله ، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام ، وكتب معه أمانا لأهل مكة إن هم أطاعوه ، قالوا : فخرج الحجاج في جمادى من هذه السنة ، ومعه ألفا فارس من أهل الشام ، فسلك طريق العراق ، ولم يعرض للمدينة حتى نزل الطائف ، وجعل يبعث البعوث إلى عَرفة ، ويرسل ابن الزبير الخيل فيلتقيان ، فيهزم خيل ابن الزبير ، وتظفر خيل الحجاج ، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم ومحاصرة ابن الزبير ، فإنه قد كلّت شوكته ، وملّت جماعته ، وتفرق عنه عامة أصحابه . وسأله أن يمدّه برجال أيضاً . فكتب عبد الملك إلى طارق بن عَمْرو يأمره أن يلحق بمن معه بالحجاج ، وارتحل الحجاج من الطائف ، فنزل بئر مَيمونة ، وحصر ابن الزبير بالمسجد ، فلما دخل ذو الحجة حج بالناس الحجاج في هذه السنة ، وعليه وعلى أصحابه السّلاح وهم وقوف بعرفات ، وكذا فيما بعدها من المشاعر . وابن الزبير محصور لم يتمكن من الحج هذه السنة ، بل نحر بُدْناً يوم النحر ، وهكذا لم يتمكن كثير ممن معه من الحج ، وكذا لم يتمكن كثير ممن مع الحجاج وطارق بن عمرو أن يطوفوا بالبيت ، فبقوا على إحرامهم لم يحصل لهم التحلّل الثاني ، والحجاج وأصحابه نزول بين الحجون وبئر ميمونة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة كتب عبد الملك إلى عبد الله بن خازم أمير خراسان ـ يدعوه إلى بيعته ويُطعمه خراسان سبع سنين ، فلما وصل إليه الكتاب قال للرسول : بعثك أبو الذبان ؟ والله لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك، ولكن كُلْ كتابه ـ فأكله ، وبعث عبد الملك إلى بكير بن وشاح نائب ابن خازم على مَرْو ، يعده بإمرة خراسان إن هو خلع عبد الله بن خازم ، فخلعه ، فجاء ابن خازم فقاتله فقتل فى المعركة عبد الله بن خازم أمير خراسان ؛ قتله رجل يقال له: وكيع بن عميرة لكن كان قد ساعده غيره ، فجلس وَكيع على صدره وفيه رمق ، فذهب لينوء فلم يتمكن من ذلك، وجعل وَكيع يقول : يالثارات دُوَيلة ـ يعنى أخاه ـ وكان دُوَيلة قد قتله ابن خازم ثم إن ابن خازم تنخم فى وجه وكيع قال وكيع : لم أر أحداً أكثر ريقاً منه فى تلك الحال ، وكان أبو هريرة إذا ذكر هذا يقول : هذه والله هى البسالة ، وقال له ابن خازم : ويحك ! أتقتلنى بأخيك ؟ لعنك الله ، أتقتل كبش مضر بأخيك العلج ؟ وكان لا يساوى كفاً من تراب ـ أو قال من نوى ـ قال : فاحتز رأسه وأقبل بكير بن وشاح فأراد أخذ الرأس فمنعه منه بحير بن وَرْقاء بعمود وقيده ، ثم أخذ الرأس ثم بعثه إلى عبد الملك بن مروان وكتب إليه بالنصر والظفر ، فسر بذلك سروراً كثيراً ، وكتب إلى بكَير بن وشاح بإقراره على نيابة خراسان وفى هذه السنة أخذت المدينة من ابن الزبير واستناب فيها عبد الملك طارق بن عمرو ، الذى كان بعثه مدداً للحجاج .

وهذه ترجمة عبد الله بن خازم

هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمى ، أبو صالح البصرى أمير خراسان ، أحد الشجعان المذكورين ، والفرسان المشكورين قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى فى تهذيبه : ويقال له صحبة، روى عن النبى ﷺ فى العمامة السوداء ، وهو عند أبى داود والترمذى والنسائى ـ لكن لم يسموه ، وروى عنه سعد بن عثمان الرازى وسعيد بنى الأزرق . روى أبو بشير الدولابى أنه قتل فى سنة إحدى وسبعين ، وقيل : فى سنة سبع وثمانين ، وليس هذا القول بشىء . انتهى ما ذكره شيخنا. وقد ذكره أبو الحسن ابن الأثير فى الغابة فى أسماء الصحابة ، فقال : عبد الله بن خازم بن أسماء ابن الصلت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن سماك بن عوف بن امرىء القيس بن نهية بن سليم بن منصور ـ أبو صالح السلمى ، أمير خراسان . شجاع مشهور ، وبطل مذكور ، وروى عنه سعيد ابن الأزرق ، وسعد بن عثمان . قيل إن له صحبة ، وفتح سرخس ، وكان أميراً على خراسان أيام فتنة ابن الزبير ، وأول ما وليها سنة أربع وستين بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية ، وجرى له فيها حروب كثيرة حتى تم أمره بها ، وقد استقصينا أخباره فى كتاب الكامل فى التاريخ ، وقتل سنة إحدى وسبعين وهكذا حكى شيخنا عن الدولابى ، وكذا رأيت فى التاريخ لشيخنا

الذهبي . والذي ذكره ابن جرير في تاريخه، أنه قتل سنة ثنتين وسبعين ، قال : وزعم بعضهم أنه قتل بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، وأن عبد الملك بعث برأس ابن الزبير إلى خازم بخراسان ، وبعث يدعوه إلى طاعته وله خراسان عشر سنين ، وأن ابن خازم لما رأى رأس ابن الزبير، حلف لايعطي عبد الملك طاعة أبداً ، ودعا بطست فغسل رأس ابن الزبير وكفنه وطيبه وبعث به إلى أهله بالمدينة ، ويقال : بل دفنه عنده بخراسان والله أعلم . وأطعم الكتاب البريد الذي جاءه به وقال : لولا أنك رسول لضربت عنقك ، وقال بعضهم : قطع يديه ورجليه وضرب عنقه .

ومن توفى فيها من الأعيان

الأحنف بن قيس ـ أبو معاية بن حصين ، التميمي السعدي ـ أبو بحر البصري ابن أخي صعصعة ابن معاوية ، والأحنف لقب له ، وإنما اسمه الضحاك ، وقيل صخر ، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره ، وجاء في حديث، أن رسول الله ﷺ دعا له، وكان سيدا شريفاً مطاعا مؤمنا ، عليم اللسان، وكان يضرب بحلمه المثل، وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان ، قال عنه عمر بن الخطاب : هو مؤمن عليم اللسان وقال الحسن البصري : ما رأيت شريف قوم أفضل منه . وقال أحمد بن عبد الله العجلي : هو بصري تابعي ثقة ، وكان سيد قومه ، وكان أعور أحيف[1] الرجلين ذميما قصيرا كوسجا[2] له بيضة واحدة ، احتبسه عمر عن قومه سنة يختبره ، ثم قال : هذا والله السيد ـ أو قال السؤدد ـ وقيل إنه خطب عند عمر فأعجبه منطقه . قيل ذهبت عينه بالجدري ، وقيل في فتح سمرقند . وقال يعقوب بن سفيان : كان الأحنف جوادا حليما ، وكان رجلا صالحا ، أدرك الجاهلية ثم أسلم ، وذكر للنبي ﷺ فاستغفر له ، وقال : كان ثقة مأمونا قليل الحديث [وكان كثير الصلاة بالليل ، وكان يسرج المصباح ويصلي ويبكي حتى الصباح ، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول : حس يا أحنف ، ما حملك على كذا ؟ ما حملك على كذا ؟ ويقول لنفسه : إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على النار الكبرى ؟ وقيل له : كيف سودك قومك وأنت أرذلهم خلقة؟ قال : لو عاب قومي الماء ما شربته . كان الأحنف من أمراء علي يوم صفين، وهو الذي صالح أهل بلخ على أربعمائة ألف دينار في كل سنة ، وله وقائع مشهودة مشهورة ، وقتل من أهل خراسان خلقا كثيرا في القتال بينهما ، وانتصر عليهم][3] وقال الحاكم : وهو الذي افتتح مرو الروذ ، وكان الحسن وابن سيرين في جيشه ، وهو الذي افتتح سمرقند وغيرها من البلاد ، وقيل إنه مات سنة سبع وستين ، وقيل غير ذلك ، عن سبعين سنة ، وقيل عن أكثر من ذلك .

---

(١) أي تدق رجليه ميل وبعد (٢) الكوسج: الناقص الأسنان

(٣) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

ومن كلامه ـ وقد سئل عن الحلم ما هو ؟ فقال : الذل مع الصبر ، وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول : والله إنى لأجد ما يجدون ، ولـكنى صبور . وقال : وجدت الحلم أنصر لى من الرجال [وقد انتهى إليه الحلم والسؤدد ، وقال : احيى معروفك بأماتة ذكره ، وقال : عجبت لمن يجرى مجرى البول مرتين كيف يتكبر ؟ وقال : ما أتيت باب أحـد من هؤلاء إلا أن أدعى ، ولا دخلت بين اثنين إلا أن يدخلانى بينهما ، وقيل له : بم سدت قومك ؟ قال : بتركى من الأمر مالا يعنينى ، كما عناك من أمرى مالا يعنيك . وأغلظ له رجل فى الـكلام وقال : والله يا أحنف لئن قلت لى واحدة لتسمعن بدلها عشراً ، فقال له : إنك إن قلت لى عشراً لا تسمع منى واحدة ، وكان يقول فى دعائه : اللهـم إن تعذبنى فأنا أهل لذلك ، وإن تغفر لى فأنت أهل لذلك][1] .

وقد كان زياد بن أبيه يقربه ويدنيه ، فلما مات زياد وولى ابنـه عبيد الله ـ لم يرفع به رأسا ، فتأخرت عنده منزلته ، فلما وفد برؤساء أهل العراق على معاوية أدخلهم عليه على مراتبهم عنده ، فـكان الأحنف آخر من أدخله عليـه ، فلما رآه معاوية أجله وعظمه ، وأدناه وأكرمه ، وأجلسه معه على الفراش ، ثم أقبل عليه يحادثه دونهم . ثم شرع الحاضرون فى الثناء على ابن زياد والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : مالك لا تتكلم ؟ قال : إن تكلمت خالفتهم ، فقال معاوية : أشهدكم أنى قد عزلته عن العراق ، ثم قال لهم : انظروا لـكم نائبا ، وأجلهم ثلاثة أيام ، فاختلفوا بينهم اختلافا كثيراً ، ولم يذكر أحد منهم بعـد ذلك عبيد الله ، ولا طلبه أحد منهم ، ولم يتكلم الأحنف فى ذلك كلمة واحدة مع أحد منهم . فلما اجتمعوا بعـد ثلاث أفاضوا فى ذلك الـكلام ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : تكلم ، فقال له : إن كنت تريد أن تولى فيها أحداً من أهـل بيتك فليس فيهم من هو مثل عبيد الله ؛ فإنه رجل حازم لا يسد أحد منهم مسده ، وإن كنت تريد غيره فأنت أعلم بقرابتك ، فرده معاوية إلى الولاية ، ثم قال له بينه وبينه : كيف جهلت مثل الأحنف ؟ إنه هو الذى عزلك وولاك وهو ساكت ، فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد جداً .

توفى الأحنف بالـكوفة وصلى عليه مصعب بن الزبير ، ومشى فى جنازته . وقد تقدمت له حكاية . ذكر الواقدى أنه قـدم على معاوية فوجده غضبان على ابنه يزيد ، وأنه أصلح بينهما بكلام ، قال : فبعث معاوية إلى يزيد بمال جزيل وقماش كثير ، فأعطى يزيد نصفه للأحنف والله سبحانه أعلم .

البراء بن عازب بن الحارث ، بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو ابن مالك بن أوس الأنصارى الحارثى الأوسى . صحابى جليل ، وأبوه أيضا صحابى . روى عن

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة ، وحدث عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وعنه جماعة من التابعين وبعض الصحابة . وقيل: إنه مات بالكوفة أيام ولاية مصعب بن الزبير على العراق

عبيدة السلمانى القاضى : وهو عبيدة بن عمرو ، ويقال ابن قيس بن عمرو السلمانى المرادى ، أبو عمرو الكوفى ، وسلمان بطن من مراد . أسلم عبيدة فى حياة النبى ﷺ وروى عن ابن مسعود وعلى وابن الزبير وحدث عنه جماعة من التابعين ، وقال الشعبى : كان يوازى شريحا فى القضاء ، قال ابن نمير : كان شريح إذا أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه ، وانتهى إلى قوله ، وقد أثنى عليه غير واحد . وكانت وفاته فى هذه السنة ، وقيل سنة ثلاث وقيل أربع وسبعين ، فالله أعلم . وقد قيل : إن مصعب بن الزبير قتل فيها فالله أعلم .

وممن توفى فيها أيضا: «عبد الله بن السائب» بن صيفى المخزومى ، له صحبة ورواية ، وقرأ على أبى بن كعب ، وقرأ عليه مجاهد وغيره . « عطية بن بشر » المازنى ، له صحبة ورواية. « عبيدة بن نضيلة » أبو معاوية الخزاعى الكوفى، مقرىء أهل الكوفة، مشهور بالخير والصلاح، توفى بالكوفة فى هذه السنة. «عبد الله بن قيس الرقيات» القرشى العامرى، أحد الشعراء ، مدح مصعبا وابن جعفر « عبد الله بن همام» أبو عبد الرحمن الشاعر السلولى، هجا بنى أمية بقوله :

شربنا الغيض حتى لو سقينا دماء بنى أمية ما روينا
ولو جاءوا برملة أو بهند لبايعنا أمـــير المؤمنينا

[وكان عبيدة السلمانى أعور ، وكان أحد أصحاب ابن مسعود الذين يفتنون الناس . توفى بالكوفة][1] .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كان مقتل عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى المبير - قبحه الله وأخزاه . قال الواقدى : حدثنى مصعب بن ثابت عن نافع مولى بنى أسد - وكان عالما بفتنة ابن الزبير - قال : حُصِر ابن الزبير ليلة هلال الحجة سنة ثنتين وسبعين ، وقتل لسبع عشر ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، فكان حصر الحجاج له خمسة أشهر وسبع عشرة ليلة . وقد ذكرنا فيما تقدم أن الحجاج حج بالناس فى هذه السنة الخارجة ، وكان فى الحج ابن عمر ، وقد كتب عبد الملك إلى الحجاج أن يأتم بابن عمر فى المناسك ؛ كما ثبت ذلك فى الصحيحين ، فلما استهلت هذه السنة ، استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة ، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك [وكان مع الحجاج الحبشة ، فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقا كثيراً ، وكان معه خمسة مجانيق فألح عليها بالرمى من كل مكان ،

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ

وحبس عنهم المِيرة والماء ، فكانوا يشربون من ماء زمزم ، وجعلت الحجارة تقع فى الكعبة ، والحجاج يصيح بأصحابه : يا أهل الشام! الله الله فى الطاعة، فكانوا يحملون على ابن الزبير ، حتى يقال إنهم آخذوه فى هذه الشدة ، فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد ، حتى يخرجهم من باب بنى شيبة ، ثم يكرون عليه فيشد عليهم . فعل ذلك مراراً ، وقتل يومئذ جماعة منهم وهو يقول : هذا وأنا ابن الحوارى . وقيل لابن الزبير : ألا تكلمهم فى الصلح ! فقال : والله لو وجدوكم فى جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله لا أسألهم صلحاً أبداً ![1]

وذكر غير واحد، أنهم لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق ، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثنى عشر رجلا، فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة ، فلم يزل الحجاج يشجعهم ويقول : إنى خبير بهذه البلاد ، هذه بروق تِهامة ورعودها وصواعقها ، وإن القوم يصيبهم مثل الذى يصيبكم ، وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً ، فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم ! وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة ، وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق ويقولون :

وحجارة مثل الفنيق المزبد . ترمى بها أعواد هذا المسجد

فنزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته فتوقف أهل الشام عن الرمى والمحاصرة فخطبهم الحجاج فقال : ويحكم ! ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم ؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته ، فعادوا إلى المحاصرة ![2]

وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير ، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف ، فأمنهم وقل أصحاب ابن الزبير جداً ، حتى خرج إلى الحجاج . حمزة وخُبيب ابنا عبد الله بن الزبير ، فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمنهما . ودخل عبد الله بن الزبير على أمه فشكا إليها خذلان الناس له ، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله ، وأنه لم يبق معه إلا اليسير ،ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطوننى ماشئت من الدنيا ، فما رأيك؟ فقالت: يابنىّ أنت أعلم بنفسك ؛ إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حقّ ـ فاصبر عليه ؛ فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تُمَكِّن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسك وأهلكت مَن قُتل معك ، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودك فى الدنيا[3] ؟ القتل أحسن . فدنا منها فقبل رأسها وقال :هذا والله

(١ـ٢) مابين القوسين سقط من بعض النسخ (٣) فى الطبرى وغيره، إن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابى ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا ؟

رأيى ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد حزنك، وسلمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر فى حكم الله، ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندى آثر من رضى ربى عز وجل، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية لنفسى. اللهم أنت أعلم بى منى ومن غيرى، ولكنى أقول ذلك تعزية لأمى لتسلو عنى.

فقالت أمه: إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً، إن تقدمتنى، وإن تقدمتك ففى نفسى، اخرج يابنى حتى أنظر ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعى الدعاء لى قبلُ وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً لمن قتل على باطل، فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة، وبرّه بأبيه وبى، اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلنى فى عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها ـ وكانت قد أضرّت[1] فى آخر عمرها ـ فوجدته لابساً درعا من حديد فقالت: يابنى! ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة!! فقال: يا أماه! إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به، فقالت: لا يا بنى ولكن انزعه، فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويشدد وهى تقول: شمر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبى بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ، وترجيه القدوم عليها إذا هو قتل شهيداً ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها ـ رضى الله عنهما وعن أبيه وأبيها.

قالوا: وكان يخرج من باب المسجد الحرام، وهناك خمسمائة فارس وراجل، فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً، ولا يثبت له أحد وهو يقول:

إنى إذا أعرفُ يومى أصبر[2] إذْ بعضهم يعرفُ ثم ينكر

وكانت أبواب الحرم قد قل من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذى يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل

(١): أى عميت وذهبت بصرها. والضرير: الذاهب البصر، ويقال: امرأة ضريرة.

(٢) يروى بعد هذا الشطر: وإنما يعرف يوميه الحر.

فِلَسطين باب بنى جُمَح ، ولأهل قِنَّسْرِين باب بنى سَهْم ، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد وكان الحجاج وطارق بن عمرو فى ناحية الأبطح ، وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلا فرّقهم وبدّد شملهم ، وهو غير ملبس [حتى يخرجهم إلى الأبطح، ثم يصيح : لو كان قِرنى واحداً كفيته ، فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضا : إى والله وألف رجل ، ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك ، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضارى][1] حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته .

فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة ، بات ابن الزبير يصلّى طول ليلته، ثم جلس فاحتَبَى بحَمِيلة سيفه[2] فأغفى ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال: أذّن يا سعد، فأذّن عند المقام ،وتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتى الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلى الفجر ،ثم قرأ سورة (ن والقلم) حرفا حرفا ، ثم سلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اكشِفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم ، فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر ، فحرّضهم وحثّهم على القتال والصبر ، ثم نهض ثم حمل وحملوا حتى كشفوهم إلى الحَجُون، فجاءته آجُرّة فأصابته فى وجهه فارتعش لها ، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثل بقول بعضهم :

ولَسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومنا ولكن على أقدامنا تَقْطُر الدّما

ثم سقط إلى الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه رضى الله عنه ، وجاءوا إلى الحجاج فأخبروه فخرّ ساجداً قبحه الله . ثم قام هو وطارق بن عَمرو حتى وقفا عليه وهو صريع ، فقال طارق : ما ولدت النساء أذكرَ من هذا ، فقال الحجاج : تمدَحُ من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ! هو أعذَر لنا، لأنا محاصروه وليس هو فى حصن ولا خَندق ولا منَعة ينتصف منا ، بل يفضل علينا فى كل موقف ، فلما بلغ ذلك عبد الملك صَوّب طارقا . وروى ابن عساكر فى ترجمة الحجاج أنه لما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بكاء على عبد الله بن الزبير رحمه الله ، فخطب الحجاج الناس فقال : أيها الناس ! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رَغِب فى الخلافة ونازعها أهلَها وألحد فى الحرم فأذاقه من عذابه الأليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير ، وكان فى الجنة ، وهى أشرف من مكة ، فلما خالَف أمر الله وأكل من الشجرة التى نهى عنها أخرجه الله من الجنة ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ، [وقيل إنه قال : يا أهل مكة ! إكبارُكم واستعظامكم قتل ابن الزبير ، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الدنيا ونازع الخلافة أهلها ، فخلع طاعة الله وألحد فى حرم الله ، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة ؛ وقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلّمه أسماء

---

(١) من القوسين سقط من بعض النسخ (٢) الحميلة . علاقة السيف

كل شيء ، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، وإن ابن الزبير غيّر كتاب الله . فقال له عبد الله بن عمر : لو شئت أن أقول لك كذبت ـ لقلت ، والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله ، بل كان قوّاما به صوّاما ، عاملا بالحق][1]

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك ، بما وقع ، وبعث برأس ابن الزبير مع رأس عبد الله بن صفوان ، وعمارة بن حزم ـ إلى عبد الملك ، ثم أمرهم إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرءوس بها ، ثم يسيروا بها إلى الشام ، ففعلوا ما أمرهم به ، وأرسل بالرءوس مع رجل من الأزد فأعطاه عبد الملك خمسمائة دينار ، ثم دعا بمقراض فأخذ من ناصيته ونواصي أولاده فرحا بمقتل ابن الزبير ، عليهم من الله ما يستحقون . ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصُلبت على ثنية كَدَا عند الحَجون ، يقال ، مُنَكَّسة ، فما زالت مصلوبة حتى مرّ به عبد الله بن عمر فقال : رحمة الله عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت صواما قواما ، ثم قال : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فبعث الحجاج فأنزل عن الجذع ودفن هناك . ودخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها إلى عبد الملك بن مروان ، ولم يزل الحجاج مقيما بمكة حتى أقام للناس الحج عامه هذا أيضا . وهو على مكة واليمامة واليمن .

وهذه ترجمة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه

هو عبد الله بن الزبير بن العوام ، بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، بن قصي بن كلاب ـ أبو بكر ، ويقال له أبو خبيب القرشي الأسدي . أول مولود ولد بعد الهجرة بالمدينة من المهاجرين ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ذات النطاقين ، هاجرت وهي حامل به مُتِمّ[2] فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة ، وقيل إنما ولدته في شوال سنة اثنتين من الهجرة ، قاله الواقدي ومصعب الزبيري وغيرهما ، والأول أصح ، لما رواه أحمد عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن أسماء ، أنها حملت بعبد الله بمكة ، قالت : فخرجت به وأنا مُتِمٌّ فأتيت المدينة فنزلت بقبا فولدته ، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه ، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ ، قالت : ثم حنكه ثم دعا له وتبرك عليه ، فكان أول مولود ولد في الاسلام . وهو صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ أحاديث ، وروى عن أبيه وعمر وعثمان وغيرهم . وعنه جماعة من التابعين . وشهد الجمل[3] مع أبيه وهو صغير ، وحضر خطبة عمر بالجابية ، ورواها عنه بطولها [ثبت ذلك من غير وجه . وقدم دمشق لغزو القسطنطينية ، ثم قدمها مرة أخرى وبويع بالخلافة أيام يزيد بن معاوية لما مات معاوية بن يزيد ، فكان على الحجاز واليمن والعراقين

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ (٢) أي تام الخلق قريب ولادته

(٣) في نسخة : وحضر اليرموك وهو أقرب إلى الصواب

ومصر وخراسان وسائر بلاد الشام إلا دمشق ، وتمت البيعة له سنة أربع وستين ، وكان الناس بخير في زمانه[1]] .

وثبت من غير وجه عن هشام عن أبيه عن أسماء، أنها خرجت بعبد الله من مكة مهاجرة وهي حبلى به، فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة ، فأتت به رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله ودعا له ، وفرح المسلمون به لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة ، فلما ولد ابن الزبير كبر المسلمون ، وقد سمع عبد الله بن عمر جيش الشام حين كبروا عند قتله ، فقال : : أما والله للذين كبروا عند مولده خير من هؤلاء الذين كبروا عند قتله وأذن الصديق في أذنه حين ولد ــ رضي الله عنهما ، ومن قال إن الصديق طاف به حول الكعبة وهو في خرقة ــ فهو واهم، والله أعلم . وإنما طاف الصديق به في المدينة ، ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود . وقال مصعب الزبيري : كان عارضا عبد الله خفيفين ، وما اتصلت لحيته حتى بلغ ستين سنة ، وقال الزبير بن بكار : حدثني علي بن صالح عن عامر بن صالح عن سالم بن عبد الله بن عروة عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ كلم في غلمة ترعرعوا ، منهم :عبد الله بن جعفر ، وعبد الله ابن الزبير ، وعمر بن أبي سلمة ، فقيل: يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ، فأتى بهم إليه فكأنهم تكمكموا[2] واقتحم عبد الله بن الزبير ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « إنه ابن أبيه وبايعه » . وقد روى من غير وجه، أن عبد الله بن الزبير شرب من دم النبي ﷺ ، « كان النبي ﷺ قد احتجم في طست فأعطاه عبد الله بن الزبير ليريقه فشربه، فقال له :لا تمسك النار إلا تحلة القسم ، وويل لك من الناس وويل للناس منك » [وفي رواية أنه قال له : « يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهريقه حيث لا يراك أحد ، فلما بعد عمد إلى ذلك الدم فشربه ، فلما رجع قال : ما صنعت بالدم ؟ قال : إني شربته لأزداد به علما وإيمانا ، وليكون شيء من جسد رسول الله ﷺ في جسدي ، وجسدي أولى به من الأرض ، فقال : ابشر لا تمسك النار أبداً ، وويل لك من الناس وويل للناس منك »][3]

وقال محمد بن سعد : أنبأ مسلم بن إبراهيم، ثنا الحارث بن عبيد ثنا أبو عمران الجوني أن نوفا كان يقول : إني لأجد في كتاب الله المنزل أن ابن الزبير فارس الخلفاء . وقال حماد بن زيد عن ثابت البناني قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك . وقال الأعمش عن يحيى بن وثاب : كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم[4] حائط . وقال غيره : كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح ،

(١) سقط من بعض النسخ . (٢) أي . جبنوا (٣) سقط من بعض النسخ (٤) أي . أصل

ويركع ليلة حتى يصبح ، ويسجد ليلة حتى يصبح . وقال بعضهم : ركع ابن الزبير يوماً فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه . وقال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء : كنت إذا رأيت ابن الزبير يصلي كأنه كعب راسب ، وفي رواية ثابت . وقال أحمد : تعلم عبد الرزاق الصلاة من ابن جريج ، وابن جريج من عطاء ، وعطاء من ابن الزبير ، وابن الزبير من الصديق ، والصديق من رسول الله ﷺ . وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة عن ابن المنكدر قال : لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة يصفقها الريح ، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا . قال سفيان : كأنه لا يبالي به ولا يعده شيئاً . وحكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز، أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد، فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه ، فما زال عن مقامه ولا عرف ذلك في صورته ، فقال عمر بن عبد العزيز : لا إله إلا الله ، جله ماوصفت . وقال عمر بن عبد العزيز يوما لابن أبي مليكة :صف لنا عبد الله بن الزبير ، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ، ولا لحما على عصب ، ولا عصبا على عظم مثله. ولا رأيت نفسا ركبت بين جنبين مثل نفسه ، ولقد مرت آجرة من رمي للمنجنيق بين لحيته وصدره فو الله ماخشع ولا قطع لها قراءته ، ولا ركع دون ما كان يركع ، وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها . ولقد كان يركع فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوب مطروح .

وقال أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة عن منصور بن زاذان قال : أخبرني من رأى ابن الزبير يسرب في صلاته، وكان ابن الزبير من المصلين [وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال : كان قارئا لكتاب الله ، متبعاً لسنة رسول الله ، قانتا لله صائما في الهواجر من مخافة الله ، ابن حواري رسول الله ، وأمه بنت الصديق ، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله ، زوجة رسول الله فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله][1] وروي أن ابن الزبير كان يوما يصلي فسقطت حية من السقف فطوقت على بطن ابنه هاشم ، فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها ، وسلم الولد. فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلم. وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن الضحاك الحزامي وعبد الملك بن عبد العزيز ، ومن لا أحصي كثرة من أصحابنا : أن ابن الزبير كان يواصل الصوم سبعا ، ويصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى ، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة، وكان إذا أفطر أول ما يفطر على لبن لقحة[2] وسمن وصبر، وفي رواية أخرى: فأما اللبن فيعصمه ،

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

(٢) اللقحة : الناقة الحلوب

وأما السمن فينقطع عنه المعاش ، وأما الصبر فيفتق الأمعاء . وقال ابن معين عن روح عن حبيب ابن الشهيد عن أبي مليكة قال : كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح في الثامن وهو أليثنا[1] . وروى مثله من غير وجه . وقال بعضهم : لم يكن يأكل في شهر رمضان سوى مرة واحدة في وسطه . وقال خالد بن أبي عمران : كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام ومكث أربعين سنة لم ينزع ثوبه عن ظهره .

وقال ليث عن مجاهد : لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة رضي الله عنه . ولقد جاء سيل مرة فطبق البيت، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة . وقال بعضهم : كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث : في العبادة، والشجاعة والفصاحة . وقد ثبت أن عثمان جعله في النفر الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وذكره سعيد ابن المسيب في خطباء الإسلام مع معاوية وابنه ، وسعيد بن العاص وابنه .

وقال عبد الواحد بن أيمن : رأيت على ابن الزبير رداء يمانيا عدنيا يصلي فيه ، وكان صيتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان: أبو قبيس وزرورا، [وكان آدم نحيفا ليس بالطويل ، وكان بين عينيه أثر السجود ، كثير العبادة مجتهداً شهماً فصيحاً صواماً قواما شديد البأس ذا أنفة ، له نفس شريفة وهمة عالية ، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلا][2] وكانت له جمة، وكان له لحية صفراء . وقد ذكرنا أنه شهد مع ابن أبي سرح قتال البربر، وكانوا في عشرين ومائة ألف والمسلمون عشرون ألفا ، فأحاطوا بهم من كل جانب ، فما زال عبد الله بن الزبير يحتال حتى ركب في ثلاثين فارسا ، وسار نحو ملك البربر وهو منفرد وراء الجيش ، وجواريه يظللنه بريش النعام ، فساق حتى انتهى إليه والناس يظنون أنه ذاهب برسالة إلى الملك ، فلما فهمه الملك ولى مدبراً فلحقه عبد الله فقتله واحتز رأسه، وجعله في رأس رمح وكبر وكبر المسلمون ، وحملوا على البربر فهزموهم بين أيديهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا أموالا وغنائم كثيرة جداً ، وبعث ابن أبي سرح بالبشارة مع ابن الزبير فقص على عثمان الخبر وكيف جرى ، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر ، قال : نعم ! فصعد ابن الزبير فوق المنبر ، فخطب الناس وذكر لهم كيفية ما جرى ، قال عبد الله : فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد أن يرتج علي في الكلام من هيبته في قلبي ، فرمزني بعينه وأشار إلي ليحضني ، فمضيت في الخطبة كما كنت ، فلما نزلت قال : والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني .

(١) أي : قوانا (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ.

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : خرج ابن الزبير في ليلة مقمرة على راحلة له فنزل في تبوك ، فالتفت فإذا على الراحلة شيخ أبيض الرأس واللحية ، فشد عليه ابن الزبير فتنحى عنها فركب ابن الزبير راحلته ومضى ، قال فناداه : والله يا ابن الزبير لو دخل قلبك الليلة مني شعرة لخبلتك ، قال : ومنك أنت يا لعين يدخل قلبي شيء ؟ وقد روى لهذه الحكاية شواهد من وجوه أخرى جيدة . وروى عبد الله بن المبارك عن إسحق بن يحيى ، عن عامر ابن عبد الله بن الزبير قال : أقبل عبد الله بن الزبير من العمرة في ركب من قريش ، فلما كانوا عند التناضيب[1] أبصروا رجلا عند شجرة ، فتقدمهم ابن الزبير ، فلما انتهى إليه سلم عليه فلم يعبأ به ورد رداً ضعيفاً ، ونزل ابن الزبير فلم يتحرك له الرجل ، فقال له ابن الزبير : تنح عن الظل ، فانحاز متكارها ، قال ابن الزبير : فجلست وأخذت بيده وقلت : من أنت ؟ فقال : رجل من الجن ، فما عدا أن قالها حتى قامت كل شعرة مني فاجتذبته وقلت : أنت رجل من الجن وتبدو لي هكذا ؟ وإذا له سفلة[2] واستكبر ونهرته وقلت : إلي تتبدى وأنت من أهل الأرض ، فذهب هاربا وجاء أصحابي فقالوا : أين الرجل الذي كان عندك ؟ فقلت : إنه كان من الجن فهرب . قال : فما منهم رجل إلا سقط إلى الأرض عن راحلته ، فأخذت كل رجل منهم فشددته على راحلته حتى أتيت بهم الحج وما يعقلون :

وقال سفيان بن عيينة ، قال ابن الزبير : دخلت المسجد ذات ليلة فإذا نسوة يطفن بالبيت فأعجبنني ، فلما قضين طوافهن خرجن فخرجت في أثرهن لأعلم أين منزلهن ، فخرجن من مكة حتى أتين العقبة ، ثم انحدرن حتى أتين فجا فدخلن خربة فدخلت في أثرهن ، فإذا مشيخة جلوس فقالوا : ماجاء بك يا ابن الزبير ؟ فقلت : أشتهي رطبا ، وما بمكة يومئذ من رطبة ، فأتوني برطب فأكلت ثم قالوا : احمل ما بقي معك ، فجئت به المنزل فوضعته في سفط وجعلت السفط في صندوق ، ثم وضعت رأسي لأنام ، فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت جلبة في البيت ، فقال بعضهم لبعض : أين وضعه ؟ قالوا : في الصندوق ، ففتحوه فإذا هو في السفط داخله ، فهموا بفتحه فقال بعضهم : إنه ذكر اسم الله عليه ، فأخذوا السفط بما فيه فذهبوا به ، قال : فلم آسف على شيء أسفي كيف لم أثب عليهم وهم في البيت .

وقد كان عبد الله بن الزبير ممن حاجف عن عثمان يوم الدار ، وجرح يومئذ بضع عشرة جراحة ، وكان على الرجالة يوم الجمل ، وجرح يومئذ تسع عشرة جراحة أيضا ، وقد تبارز يومئذ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر ، فاتحدا فضرع الأشتر ابن الزبير فلم يتمكن من القيام عنه ، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي : « اقتلوني ومالكا ، واقتلوا مالكا معي » فأرسلها مثلا . ثم تفرقا ولم يقدر عليه الأشتر ، وقد قيل : إنه جرح يومئذ بضع وأربعون جراحة ، ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق ، وقد أعطت عائشة لمن بشرها أنه لم يقتل عشرة آلاف درهم ، وسجدت

---

(١) التناضيب الأملاء وموضع (٢) سفلة البعير : قوائمه

لله شكراً ، وكانت تحبه حباً شديداً ، لأنه ابن أختها ، وكان عزيزاً عليها وقد روى عن عروة أن عائشة لم تكن تحب أحداً بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر ـ مثل حبها ابن الزبير ، قال : وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير .

وقال الزبير بن بكار : حدثني أخي هارون بن أبي بكر عن يحيى بن إبراهيم عن سليمان ابن محمد عن يحيى بن عروة عن عمه عن عبد الله بن عروة قال: أقحمت السنة نابغة بني جعدة، فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشد هذه الأبيات :

حكيت لنا الصديق لما وليتها   وعثمان وفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس في الحق فاستووا   فعاد صباحا حالك اللون مظلم

أتاك أبو ليلى يجوب به الدجا   دجى الليل جواب الفلاة غشمشم

لتجبر منه جانباً غدرت به   صروف الليالي والزمان المصمم

فقال له ابن الزبير : هون عليك أبا ليلى ، فإن الشعر أهون رسائلك عندنا ، أما صفوه فما لها فلان[1] الزبير ، وأما عفوه فإن بني أسد يشغلها عنك وتيا ، ولكن لك في مال الله حقان : حق لرؤيتك لرسول الله ﷺ ، وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم ، ثم أخذ بيده فأدخله دار النعم فأعطاه قلائص سبعا وجملا وخيلا ، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثيابا ، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صرفا ، فقال له ابن الزبير : ويح أبي ليلى ، لقد بلغ الجهد . فقال النابغة : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما وليت قريش فعدلت ، واسترحمت فرحمت . وحدثت فصدقت ، ووعدت خيراً فأنجزت ، فأنا والنبيون فرط[2] القاصفين » .

وقال محمد بن مروان صاحب كتاب المجالسة : أخبرني خبيب بن نصير الأزدي ، ثنا محمد بن دينار الضبي ثنا هشام بن سليمان المخزومي عن أبيه قال : أذن معاوية للناس يوما فدخلوا عليه فاحتفل المجلس وهو على سريره ، فأجال بصره فيهم فقال : أنشدوني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها العرب، ثم قال : يا أبا خبيب ، فقال: مهيم [3] ، قال: أنشدناك ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف كل بيت بمائة ألف ، قال : نعم إن ساوت ، قال أنت بالخيار ، وأنت واف كاف ، فأنشده الأفوه الأزدي : ـ

بلوت الناس قرنا بعد قرن   فلم أر غير ختال وقال   فقال معاوية: صدق

ولم أر في الخطوب أشد وقعاً   وكيداً من معادات الرجال   فقال معاوية صدق

وذقت مرارة الأشياء طراً   فما شيء أمر من السؤال   فقال: صدق

ثم قال معاوية : هيه يا خبيب ، قال : إلى ههنا انتهى ، قال : فدعا معاوية بثلاثين عبداً على

(١) أي هزيمته وانكساره (٢) الفرط : الذي يتقدم الواردة فيهيء لهم الحياض والدلاء الخ
(٣) مهيم كلمة استفهام ، أي حالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك

عنق كل واحد منهم بدعة ، وهى عشرة آلاف درهم . فروا بين يدى ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره .
وروى ابن أبى الدنيا عن أبى يزيد النميرى عن أبى عاصم النبيل ، عن جويرية بن أسماء ، أن معاوية لما حج تلقته الناس وتخلف ابن الزبير ، ثم جاءه وقد حلق رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أكبر جمجمة رأسك !! فقال له : اتق أن لا يخرج عليك منها حية فتقتلك ، فلما أفاض معاوية طاف معه ابن الزبير وهو آخذ بيده ثم استدعاه إلى داره ومنازله بقعيقعان ، فذهب معه إليها ، فلما خرجا قال : يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون جاء معه أمير المؤمنين إلى دوره ومنازله فعمل معه ماذا ، لا والله لا أدعك حتى تعطينى مائة ألف ، فأعطاه ، فجاء مروان فقال : والله يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلك ، جاءك رجل قد سمى بيت مال الديوان ، وبيت الخلافة ، وبيت كذا ، وبيت كذا ، فأعطيته مائة ألف ، فقال له : ويلك ! كيف أصنع بابن الزبير ؟ وقال ابن أبى الدنيا : أخبرنى عمر ابن بكير عن على بن مجاهد بن عروة قال : سأل ابن الزبير معاوية شيئاً فمنعه ، فقال : والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية فلا أشتم لك عرضاً ولا أقصم لك حسباً ، ولكنى أسدل عمامتى من بين يدى ذراعاً ، ومن خلفى ذراعاً فى طريق أهل الشام ، وأذكر سيرة أبى بكر الصديق وعمر فيقول الناس : من هذا ؟ فيقولون ابن حوارى رسول الله ﷺ وابن بنت الصديق ، فقال معاوية : حسبك بهذا شرفاً ، ثم قال : هات حوائجك . وقال الأصمعى : ثنا غسان بن نصر عن سعيد بن يزيد قال : دخل ابن الزبير على معاوية فأمر ابناً له صغيراً فلطمه لطمة دوخ منها رأسه ، فلما أفاق ابن الزبير قال للصبى : ادن منى ، فدنا منه ، فقال له : الطم معاوية ، قال : لا أفعل ، قال : ولم ؟ قال : لأنه أبى ، فرفع ابن الزبير يده فلطم الصبى لطمة جعل يدور منها كما تدور الدوامة ، فقال معاوية : تفعل هذا بغلام لم تجز عليه الأحكام ؟ قال : إنه والله قد عرف ما يضره مما ينفعه ، فأحببت أن أحسن أدبه . وقال أبو الحسن على بن محمد المدائنى عن عبد الله بن أبى بكر قال : لحق ابن الزبير معاوية وهو سائر إلى الشام فوجده وهو ينعس على راحلته ، فقال له : أتنعس وأنا معك ؟ أما تخاف منى أن أقتلك ؟ فقال : إنك لست من قتال الملوك ، إنما يصيد كل طائر قدره . قال : لقد سرت تحت لواء أبى إلى على بن أبى طالب ــ وهو من تعلمه ، فقال : لا جرم قتلكم والله بشماله . قال : أما إن ذلك كان فى نصرة عثمان ، ثم لم يجز بها . فقال : إنما كان لبغض على لا لنصرة عثمان . فقال له ابن الزبير : إنا قد أعطيناك عهداً فنحن وافون لك به ما عشت ، فسيعلم من بعدك ، فقال : أما والله ما أخافك إلا على نفسك ، وكأنى بك قد خبطت فى الحبالة واستحكمت عليك الأنشوطة ، فذكرتنى وأنت فيها ، فقلت : ليت أبا عبد الرحمن لها ، ليتنى والله لها . أما والله لأحللتك رويداً ، ولأطلقتك سريعاً ، ولبئس الولى أنت تلك الساعة . وحكى أبو عبد الله نحو هذا . وقد تقدم أن معاوية لما مات وجاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة ، انشمر منها ابن الزبير والحسين بن على ، فقصدا مكة فأقاما بها . ثم خرج الحسين إلى العراق وكان من أمره

ما تقدم ، وتفرد بالرياسة والسؤدد بمكة ابن الزبير ، ولهذا كان ابن عباس ينشد :

يالك من قبرة بمعمر   خلالك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

يعرض بابن الزبير . وقيل إن يزيد بن معاوية كتب إلى ابن الزبير يقول : إنى قد بعثت إليك بسلسلة من فضة، وقيد من ذهب، وجامعة من فضة، وحلفت لتأتينى فى ذلك فأبر قسمى ولا تشق العصا ، فلما قرأ كتابه ألقاه من يده وقال :

ولا ألين لغير الحق أسأله   حتى تلين لضرس الماضغ الحجر

فلما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد من بعده قريبا ، استفحل أمر عبد الله بن الزبير جداً ، وبويع له بالخلافة فى جميع البلاد الإسلامية ، وبايع له الضحاك بن قيس بدمشق وأعمالها ، ولكن عارضه مروان بن الحكم فى ذلك، وأخذ الشام ومصر من نواب ابن الزبير ، ثم جهز السرايا إلى العراق ، ومات وتولى بعده عبد الملك بن مروان فقتل مصعب بن الزبير بالعراق وأخذها ، ثم بعث إلى الحجاج فحاصر ابن الزبير بمكة قريبا من سبعة أشهر حتى ظفر به فى يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين .

وكانت ولاية ابن الزبير فى سنة أربع وستين ، وحج بالناس فيها كلها ، وبنى الكعبة فى أيام ولايته كما تقدم، وكساها الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع[1] والمسوح ، وكان ابن الزبير عالما عابداً وقوراً ، كثير الصيام والصلاة ، شديد الخشوع جيد السياسة ، قال أبو نعيم الأصبهانى : حدثنا أبو حامد بن جبلة ثنا محمد بن إسحاق الثقفى . ثنا أحمد بن سعيد الدارمى ثنا أبو عاصم عن عمر بن قيس . قال : كان لابن الزبير مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة غير لغة الآخر ، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته ، وكنت إذا نظرت إليه فى أمر دنياه قلت ، هذا رجل لم يرد الله والدار الآخرة طرفة عين ، وإذا نظرت إليه فى أمر آخرته قلت هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين . وقال الثورى عن الأعمش عن أبى الضحى قال : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لى كان رأس مال ، وكان يطيب الكعبة حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة . وقال ابن المبارك عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : دخل ابن الزبير على امرأته بنت الحسن فرأى ثلاثة مثل ـ يعنى أفرشة ـ فقال ، هذا لى ، وهذا لابنة الحسن ، وهذا للشيطان فأخرجوه. وقال الثورى عن عبد الله بن أبى بشير عن عبد الله بن مساور قال: سمعت ابن عباس يعاتب ابن الزبير على البخل ويقول : قال رسول الله ﷺ : « ليس بالمؤمن من يبيت شبعان وجاره إلى جنبه جائع » .

(١) الأنطاع . نطع وهو البساط من الأديم . والمسوح . جمع مسح وهو ثوب من الشعر غليظ.

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن أبان الوراق ، ثنا يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبزى عن عثمان بن عفان قال : قال له عبد الله بن الزبير حين حصر : إن عندي نجائب قد أعددتها لك ، فهل لك أن تتحول إلى مكة فيأتيك من أراد أن يأتيك ؟ قال : لا ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يلحد كبش من قريش اسمه عبد الله ، عليه مثل أوزار الناس » . وهذا الحديث منكر جداً ، وفي إسناده ضعف ، ويعقوب هذا هو القمي وفيه تشيع ، ومثل هذا لا يقبل تفرده به . وبتقدير صحته ، فليس هو بعبد الله بن الزبير ، فإنه كان على صفات حميدة ، وقيامه في الإمارة ، إنما كان لله عز وجل ثم هو كان الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة ، وهو أرشد من مروان بن الحكم ، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه ، وقامت البيعة له في الآفاق ، وانتظم له الأمر ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم ثنا إسحاق بن سعيد ثنا سعيد بن عمرو قال : أتى عبد الله بن عمر ـ عبد الله بن الزبير وهو في الحجر جالس فقال : يا ابن الزبير ! إياك والإلحاد في حرم الله ، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحلها ويحل به رجل من قريش ، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها » ، فانظر أن لا تكونه ، فقال له : يا ابن عمر فإنك قد قرأت الكتب وصحبت النبي ﷺ ، قال : فإني أشهد أن هذا وجهي إلى الشام مجاهداً. وهذا قد يكون رفعه غلطاً ، وإنما هو من كلام عبد الله بن عمر ، وما أصابه من الزاملتين يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب ، والله أعلم . وقال وكيع عن الثوري عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن حبشي الكناني عن عليم الكندي عن سلمان الفارسي قال : « ليحرقن هذا البيت على يدي رجل من آل الزبير » . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة ، عن يحيى بن معين عن أبي فضيل : ثنا سالم بن أبي حفصة ، عن منذر الثوري قال : قال ابن الحنفية : اللهم إنك تعلم أني كنت أعلم بما علمتني، أن ابن الزبير لا يخرج منها إلا قتيلا يطاف برأسه في الأسواق . وقد روى الزبير بن بكار عن هشام بن عروة قال : إن أول ما صاح به عبد الله بن الزبير وهو صغير ـ السيف السيف ، فكان لا يضعه من فيه ، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له : أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام . وقد تقدم كيفية مقتله ، وأن الحجاج صلبه على جذع فوق الثنية ، وأن أمه جاءت حتى وقفت عليه ، فدعت له طويلا ولا يقطر من عينها دمعة ثم انصرفت . وكذلك وقف عليه ابن عمر ، فدعا له وأثنى عليه ثناء كثيراً جداً . وقال الواقدي : حدثني نافع بن ثابت عن عبد الله مولى أسماء قال : لما قتل عبد الله خرجت إليه أمه حتى وقفت عليه وهي على دابة ، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها ، فأقبل حتى وقف عليها فقال : كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره ؟ فقالت : ربما أديل[1] الباطل على الحق وأهله ، وإنك بين فرثها والجنة ، فقال: إن ابنك

(١) أي غلب : والإدالة : الغلبة

ألحد فى هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم ، قالت : كذبت ، كان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة ، وسر به رسول الله ﷺ وحنكه بيده ، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به ، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله ، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك . وكان مع ذلك براً بالوالدين صواماً قواماً بكتاب الله ، معظماً لحرم الله ، يبغض من يعصى الله عز وجل ، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » ، وفى رواية : « سيخرج من ثقيف كذابان : الآخر منهما شر من الأول وهو مبير » ، فانكسر الحجاج وانصرف . فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إليه يلومه فى مخاطبته أسماء ، وقال : مالك ولابنة الرجل الصالح ؟ وقال مسلم بن الحجاج فى صحيحه : ثنا عقبة بن مكرم حدثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمى ، أنبأ الأسود بن شيبان عن أبى نوفل قال : رأيت عبد الله بن الزبير على ثنية الحجون مصلوباً ، فجعلت قريش تمر عليه والناس، حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال : السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً وصولا للرحم ، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير ، ثم بعد عبد الله بن عمر . فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه وقوله ما قال ، فأرسل إليه ، فأنزله عن جذعه ، وألقى فى قبور اليهود ، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبى بكر ، فأبت أن تأتيه ، فأعاد عليها الرسول لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك ، فأبت وقالت : والله لا آتيه حتى يبعث إلىّ من يسحبنى بقرونى ، فقال الحجاج : أرونى سبتيتى ، فأخذ نعليه ، ثم انطلق يتوذف[2] حتى دخل عليها فقال : كيف رأيتينى صنعت بعدو الله ؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك ، بلغنى أنك تقول : يا ابن ذات النطاقين ، أنا والله ذات النطاقين ، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبى بكر ، وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه ، أما إن رسول الله حدثنا أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً ، فأما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه . قال : فقام عنها ولم يراجعها » انفرد به مسلم . وروى الواقدى أن الحجاج لما صلب ابن الزبير على ثنية الحجون بعث إليه أسماء تدعو عليه ، وطلبت منه أن يدفن فأبى عليها ، حتى كتب إلى عبد الملك فى ذلك ، فكتب إليه أن يدفن ، فدفن بالحجون ، وذكروا أنه كان يشم من عند قبره ريح المسك .

وكان الحجاج قد قدم من الشام فى ألفى فارس وانضاف إليه طارق بن عمرو فى خمسة آلاف ،

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الحج (٢) أى يقارب الخطو ويحرك منكبيه متبختراً

وروى محمد بن سعد وغيره بسنده، أن الحجاج حاصر ابن الزبير ، وأنه اجتمع معه أربعون ألفا : وأنه نصب المنجنيق على أبي قبيس ليرمى به المسجد الحرام ، وأنه أمن من خرج إليه من أهل مكة ونادى فيهم بذلك ، وقال : إنا لم نأت لقتال أحد سوى ابن الزبير ، وأنه خير ابن الزبير بين ثلاث: إما أن يذهب في الأرض حيث شاء ، أو يبعثه إلى الشام مقيدا بالحديد ، أو يقاتل حتى يقتل ، فشاور أمه فأشارت عليه بالثالث فقط وروى أنها استعدت بكفن له وبخرته وشجعته على القتل ، فخرج بهذه النية فقاتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين قتالا شديداً، فجاءته آجرة ففلقت رأسه فسقط على وجهه إلى الأرض ، ثم أراد أن ينهض فلم يقدر ، فاتكأ على مرفقه الأيسر وجعل يجذم بالسيف من جاءه ، فأقبل إليه رجل من أهل الشام فضربه فقطع رجله ، ثم تكاثروا عليه حتى قتلوه واحتزوا رأسه ، وكان مقتله قريباً من الحجون ، ويقال : بل قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، فالله أعلم . ثم صلبه الحجاج منكسا على ثنية كدا عند الحجون ، ثم لما أنزله دفنه في مقابر اليهود كما رواه مسلم ، وقيل :دفن بالحجون بالمكان الذي صلب فيه ، فالله أعلم . وقال عبد الرزاق، عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال : قال عبد الله ابن الزبير لما جيء برأس المختار: ما كان يحدثنا كعب الأحبار شيئاً إلا وجدناه، إلا قوله: إن فتى ثقيف يقتلني ، وهذا رأسه بين يدي ، قال ابن سيرين : ولم يشعر أنه قد خبئ له الحجاج . وروى هذا من وجه آخر. قلت: والمشهور أن مقتل ابن الزبير كان في سنة ثلاث وسبعين يوم الثلاثاء سابع عشر من جمادى الأولى ، وقيل الآخرة منها . وعن مالك وغيره أن مقتله كان على رأس اثنين وسبعين، والمشهور الصحيح هو الأول . وكانت بيعته في سابع رجب سنة أربع وستين ، وكان مولده في أول سنة إحدى من الهجرة ، وقيل في شوال سنة ثنتين من الهجرة ، فمات وقد جاوز السبعين قطعاً والله أعلم .

وأما أمه، فإنها لم تعش بعده إلا مائة يوم ، وقيل عشرة أيام وقيل خمسة ، والأول هو المشهور. وستأتي ترجمتها قريباً رضي الله عنها وعن أبيها وابنها. وقد رثى ابن الزبير وأخوه مصعب بمراثٍ كثيرة حسنة بليغة ، من ذلك قول معمر بن أبي معمر الذهلي يرثيهما بأبيات :

لعمرك ما أبقيت في الناس حاجة ولا كنت ملبوس الهدى متذبذبا

غداة دعاني مصعب فأجبته وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا

أبوك حواري الرسول وسيفه فأنت بحمد الله من خيرنا أبا

وذاك أخوك المهتدي بضيائه بمكة يدعونا دعاء مثوبا

ولم أك ذا وجهين : وجه لمصعب مريض ، ووجه لابن مروان إذ صبا

وكنت امرأ ناصحته غير مؤثر عليه ابن مروان ولا متقربا

إليه بما تقذى به عين مصعب ولكننى ناصحت فى الله مصعباً
إلى أن رمته الحادثات بسهمها فيالله سهم ما أسـد وأصوبا
فإن يك هذا الدهر أردى بمصعب وأصبح عبـد الله شلوا ملحبا
فـكل امرئ حاس من الموت جرعة وإن حاد عنها جهده وتهيبا

وقيل : إن عبد الله بن الزبير غسلته أمه أسماء ، بعد أن قطعت مفاصيله وحنطته وطيبته وكفنته وصلت عليه ، وحملته إلى المدينة فدفنته بدار صفية بنت حيى ، ثم إن هذه الدار زيدت فى مسجد النبى ﷺ فهو مدفون فى المسجد مع النبى ﷺ وأبى بكر وعمر ، وقد ذكر ذلك غير واحد والله أعلم .

وقد روى الطبرانى عن عامر بن عبـد الله بن الزبير ، أن أباه حدثه أن النبى ﷺ أعطاه دم محاجمه يهريقه فحساه ، فلما رجع إلى النبى ﷺ ، قال : « ما صنعت يا عبد الله بالدم ؟ قلت : جعلته فى مكان ظننت أنه خاف على الناس ! قال : فلعلك شربته ؟ قلت: نعم ! قال ومن أمرك أن تشرب الدم ؟ ويل لك من الناس ، وويل للناس منك » ودخل سلمان الفارسى مرة على النبى ﷺ فإذا عبد الله بن الزبير قائم فى الدهليز ومعه طست يشرب منه ، فدخل سلمان ودخل عبد الله على رسول الله ﷺ ، فقال له : « فرغت ؟ قال: نعم : قال سلمان: وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: أعطيته غسالة محاجمى يهريق ما فيها ، قال سلمان : شربها والذى بعثك بالحق ، قال شربته ؟ قال : نعم ! قال : لم ؟ قال : أحببت أن يكون دم رسول الله ﷺ فى جوفى ، فقال بيده على رأس ابن الزبير ، وقال : ويل لك من الناس ، وويل للناس منك ، لا تمسك النار إلا تحلة القسم » . ولما بعث يزيد ابن معاوية إلى ابن الزبير ذلك القيد من ذهب ، وسلسلة من فضة ، وجامعة من فضة ، وأقسم لتأتينى فيها ، فقالوا له : بر قسم أمير المؤمنين فقال :

ولا ألين لغير الحق أسأله حتى تلين لضرس الماضغ الحجر

ثم قال : والله لضربة بسيف بعز ، أحب إلى من ضربة بسوط فى ذل ، ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية وروى الطبرانى أن ابن الزبير دخل على أمه فقال : إن فى الموت لراحة ، وكانت أمه قد أتت عليها مائة سنة لم تسقط لها سن ، ولم يفسد لها بصر ، فقالت : ما أحب أن أموت حتى آتى على أحد طرفيك ، إما أن تملك فتقر عينى ، وإما أن تقتل فأحتسبك . ثم خرج عنها وهو يقول :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما[1]

---

(١) فى رواية : ولا أبتنى من رهبة الموت سلما

ثم أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول: ليكن أحدكم سيفه كما وجهه، فيدفع عن نفسه بيده كأنه أمراه ، والله ما بقيت زحفا قط إلا في الرعيل الأول ، وما ألمت جرحاً إلا ألم الدواء ، ثم حمل عليهم ومعه سفيان ، فأول من لقيه الأسود فضربه بسيفه حتى أطن رجله ، فقال له الأسود . أخ يا ابن الزانية ، فقال له ابن الزبير : اخسأ يا ابن حام ، أسماء زانية ؟ ثم أخرجهم من المسجد ، وكان على ظهر المسجد جماعة من أعوانه يرمون أعداءه بالآجر ، فأصابته آجرة من أعوانه من غير قصد في مفرق رأسه، ففلقت رأسه فوقف قائماً وهو يقول: لو كان قرني واحداً كفيته،ويقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم وقع فأكب عليه موليان له وهما يقولان : العبد يحمى ربه ويحتمى . ثم أرسلوا إليه فحزوا رأسه . وروى الطبراني أيضاً عن إسحاق بن أبي إسحاق قال : أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام ، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد ، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم ، فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد ، فوقعت على رأسه فصرعته ، وهو يتمثل بهذه الأبيات :

أسماء أسماء لا تبكيني لم يبق إلا حسبي وديني
وصـــــارم لانت به يميني

وقد روى أن أمه قالت للحجاج : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فقال الحجاج : ابنك المنافق ، فقالت : والله ما كان منافقاً ، وإن كان لصواما قواماً وصولا للرحم ، فقال : انصرفي يا عجوز ، فإنك قد خرفت ، فقالت . والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير ، فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت » . وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر فمر على ابن الزبير فوقف فترحم عليه، ثم التفت إلى وقال: أخبرني أبو بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : « من يعمل سوءاً يجز به » . وروى سفيان عن ابن جريج عن أبي مليكة قال : ذكرت ابن الزبير عند ابن عباس فقال : كان عفيفاً في الإسلام ، قارئاً للقرآن ، صواماً قواماً. أبوه الزبير ، وأمه أسماء ، وجده أبو بكر ، وعمته خديجة ، وجدته صفية ، وخالته عائشة . والله لأحاسبن له بنفسي محاسبة لم أحاسبها لأبي بكر ولا لعمر . وقال الطبراني : حدثنا زكريا الناجي ثنا جوثرة بن محمد ، ثنا أبو أسامة ثنا سعيد بن المرزبان ـ أبو سعيد العبسي ، ثنا محمد بن عبد الله الثقفي قال : شهدت خطبة ابن الزبير بالموسم، خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط ، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد، فإنكم جئتم من آفاق شتى وفوداً إلى الله عز وجل ، فحق على الله أن يكرم وفده ، فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب، فصدقوا قولكم بفعل ، فإن ملاك القول الفعل والنية النية ، والقلوب القلوب ، الله الله في

أيامكم هذه، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب . جئتم من آفاق شتى فى غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجونها هاهنا ، ثم لبى ولبى الناس ، فما رأيت باكياً أكثر من يومئذ . وروى الحسن بن سفيان قال : ثنا حيان بن موسى ثنا عبد الله بن المبارك ثنا مالك بن أنس عن وهب بن كيسان قال : كتب إلى عبد الله بن الزبير بموعظة : أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم ، صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وكظم الغيظ ، وصبر على البلاء ، ورضى بالقضاء ، وشكر النعماء ، وذل لحكم القرآن . وإنما الأيام كالسوق مانفق فيها حمل إليها ، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله ، وإن نفق الباطل عنده حمل إليه وجاءه أهله .

وقال أبو معاوية : ثنا هشام بن عروة عن وهب بن كيسان قال : ما رأيت ابن الزبير يعطى سلمه قط لرغبة ولا لرهبة سلطان ولا غيره . وبهذه الاستنادات كان أهل الشام يعيرون ابن الزبير ويقولون له : يا ابن ذات النطاقين . فقالت له أسماء : يابنى إنهم يعيرونك بالنطاقين، وإنما كان لى نطاق واحد شققته نصفين، فجعلت فى سفرة رسول الله ﷺ أحدهما، وأوكيت قربته بالآخر لما خرج هو وأبو بكر يريدان الهجرة إلى المدينة . فكان ابن الزبير بعد ذلك إذا عيروه بالنطاقين يقول : إنها والله تلك شكاة ظاهر عنك عارها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وممن قتل مع ابن الزبير فى سنة ثلاث وسبعين بمكة من الأعيان :

عبد الله بن صفوان : ابن أمية بن خلف الجمحى، أبو صفوان المكى ، وكان أكبر ولد أبيه . أدرك حياة النبى ﷺ وروى عن عمر وجماعة من الصحابة ، وحدث عنه خلق من التابعين ، وكان سيداً شريفاً مطاعاً حليما يحتمل الأذى ، لو سبه عبد أسود ما استنكف عنه . ولم يقصده أحد فى شىء فرده خائبا ، ولا سمع بمفازة إلا حفر بها جبا أو عمل فيها بركة ، ولا عقبة إلا سهلها وقيل: إن المهلب بن أبى صفرة قدم على ابن الزبير من العراق فأطال الخلوة معه ، فجاء ابن صفوان فقال: من هذا الذى شغلك منذ اليوم ؟ قال :هذا سيد العرب من أهل العراق ، فقال : ينبغى أن يكون المهلب . فقال المهلب لابن الزبير : ومن هذا الذى يسأل عنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد قريش بمكة ، فقال : ينبغى أن يكون عبد الله بن صفوان ، وكان ابن صفوان كريما جداً .

وقال الزبير بن بكار بسنده : قدم معاوية حاجاً فتلقاه الناس، فكان ابن صفوان فى جملة من تلقاه ، فجعل يساير معاوية، وجعل أهل الشام يقولون : من هذا الذى يساير أمير المؤمنين ؟ فلما انتهى إلى مكة إذا الجبل أبيض من الغنم ، فقال : يا أمير المؤمنين! هذه غنم أجزتكها ، فإذا هى ألفا شاة ، فقال أهل الشام : ما رأينا أكرم من ابن عم أمير المؤمنين . كان ابن صفوان من جملة من صبر مع ابن الزبير حين حصره الحجاج ، فقال له ابن الزبير : إنى قد أقلتك بيعتى فاذهب

حيث شئت ، فقال: إني إنما قاتلت عن ديني . ثم صبر نفسه حتى قتل وهو متعلق بأستار الكعبة في هذه السنة ، رحمه الله وأكرمه .

عبد الله بن مطيع، بن الأسود بن حارثة القرشي العدوي المدني . ولد في حياة رسول الله ﷺ وحنكه ودعا له بالبركة ، وروى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقتل قرشي بعد اليوم صبراً إلى يوم القيامة » . وعنه ابناه إبراهيم ومحمد والشعبي وعيسى بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن أبو موسى . قال الزبير بن بكار : كان ابن مطيع من كبار رجال قريش جلداً وشجاعة ، وأخبرني عمي مصعب أنه كان على قريش أميراً يوم الحرة، ثم قتل مع ابن الزبير بمكة وهو الذي يقول :

أنا الذي فررت يوم الحره والشيخ لا يفر إلا مره

« لا جبرت فرة بكره » رحمه الله

عوف بن مالك رضي الله عنه : هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني ، صحابي جليل ، شهد مؤتة مع خالد بن الوليد والأمراء قبله ، وشهد الفتح وكانت معه راية قومه يومئذ ، وشهد فتح الشام ، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث ، وروى عنه جماعة من التابعين وأبو هريرة ، وقد مات قبله . وقال الواقدي وخليفة ابن خياط وأبو عبيد وغير واحد : توفي سنة ثلاث وسبعين بالشام .

أسماء بنت أبي بكر الصديق : والدة عبد الله بن الزبير ، يقال لها ذات النطاقين ، وإنما سميت بذلك عام الهجرة ، حين شقت نطاقها فربطت به سفرة النبي ﷺ وأبي بكر حين خرجا عامدين إلى المدينة ، وأمها قيلة، وقيل قتيلة بنت عبد العزى، من بني عامر بن لؤي . أسلمت أسماء قديماً وهم بمكة في أول الإسلام ، وهاجرت هي وزوجها الزبير وهي حامل مُتِمّ بولدها عبد الله فوضعته بقباء أول مقدمهم المدينة ، ثم ولدت للزبير بعد ذلك، عروة والمنذر . وهي آخر المهاجرين والمهاجرات موتاً ، وكانت هي وأختها عائشة ، وأبوها أبو بكر الصديق، وجدها أبو عتيق وابنها عبد الله وزوجها الزبير صحابيين رضي الله عنهم . وقد شهدت اليرموك مع ابنها وزوجها ، وهي أكبر من أختها بعشر سنين . وقيل إن الحجاج دخل عليها بعد أن قتل ابنها فقال : يا أماه ! إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة ؟ فقالت : لست لك بأم ، إنما أنا أم المصلوب على الثنية ، وما لي من حاجة ، ولكن أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فلا أراك إلا إياه . فقال : أنا مبير المنافقين.
وقيل إن ابن عمر دخل معه عليها وابنها مصلوب فقال لها : إن هذا الجسد ليس بشيء وإنما الأرواح

عند الله، فاتقي الله واصبري ، فقالت : وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل ؟ وقيل إنها غسلته وحنطته وكفنته وطيبته وصلت عليه ثم دفنته ، ثم ماتت بعده بأيام في آخر جمادى الآخرة ، ثم إن الزبير لما كبرت طلقها، وقيل بل قال له عبد الله ابنه: إن مثلي لا توطأ أمه ، فطلقها الزبير ، وقيل : اختصمت هي والزبير، فجاء عبد الله ليصلح بينهما فقال الزبير : إن دخلت فهي طالق ، فدخلت فبانت، فالله أعلم .

وقد عمرت أسماء دهراً صالحاً وأضرت في آخر عمرها ، وقيل بل كانت صحيحة البصر لم يسقط لها سن . وأدركت قتل ولدها في هذه السنة كما ذكرنا ، ثم ماتت بعده بخمسة أيام . وقيل بعشرة ، وقيل بعشرين ، وقيل بضع وعشرين يوما ، وقيل عاشت بعده مائة يوم وهو الأشهر . وبلغت من العمر مائة سنة ولم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل - رحمها الله . وقد روت عن النبي ﷺ عدة أحاديث طيبة مباركة - رضي الله عنها ورحمها .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة - يعني سنة ثلاث وسبعين - عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة، وأضافها إلى أخيه بشر بن مروان مع الكوفة ، فارتحل إليها واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث . وفيها غزا محمد بن مروان الصائفة فهزم الروم وقيل إنه كان في هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية ، وهو في أربعة آلاف ، والروم في ستين ألفا فهزمهم وأكثر القتل فيهم . وأقام للناس الحج في هذه السنة - الحجاج وهو على مكة واليمن واليمامة، وعلى الكوفة والبصرة بشر بن مروان ، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة . وعلى إمرة خراسان بكير بن وشاح - يعني الذي كان نائبا لعبد الله بن خازم والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان

غير من تقدم ذكره مع ابن الزبير

عبد الله بن سعد بن جثم الأنصاري، له صحبة،وشهد اليرموك ، وكان كثير العبادة والغزو

عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي - أبو محمد ، له صحبة ورواية، توفي بالمدينة .

مالك بن مسمع بن غسان البصري ، كان شديد الاجتهاد في العبادة والزهادة .

ثابت بن الضحاك الأنصاري : له صحبة ورواية ، توفي بالمدينة ، يقال له أبو زيد الأشهلي وهو من أهل البيعة تحت الشجرة قال يحيى بن كثير أخبرني أبو قلابة ، أن ثابت بن الضحاك أخبره أنه بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وأن رسول الله ﷺ قال . « من قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله » .

زينب بنت أبي سلمة المخزومي ـ ربيبة النبي ﷺ ، ولدتها أمها بالحبشة ، ولها رواية وصحبة.

توبة بن الصمة، وهو الذي يقال له مجنون ليلى . كان توبة يشن الغارات على بني الحارث بن كعب ، فرأى ليلى فهواها وتهتك بها وهام بها محبة وعشقا ، وقال فيها الأشعار الكثيرة القوية الرائقة ، لم يسبق إليها ولم يلحق فيها لكثرة ما فيها من المعاني والحكم . وقد قيل له مرة هل كان بينك وبين ليلى ريبة قط ؟ فقال . برئت من شفاعة محمد ﷺ إن كنت قط حللت سراويلي على محرم . وقد دخلت ليلى على عبد الملك بن مروان تشكو ظلامة، فقال لها : ماذا رأى منك توبة حتى عشقك هذا العشق كله ؟ فقالت : والله يا أمير المؤمنين لم يكن بيني وبينه قط ريبة ولا خنا ، وإنما العرب تعشق وتعف، وتقول الأشعار فيمن تهوى وتحب، مع العفة والصيانة لأنفسها عن الدناءات . فأزال ظلامتها وأجازها توفي توبة في هذه السنة، قيل إن ليلى جاءت إلى قبره فبكت حتى ماتت والله أعلم .

(تم الجزء الثامن من كتاب البداية والنهاية ،
ويليه الجزء التاسع وأوله : سنة أربع وسبعين من الهجرة وما فيها من الحوادث
نسأل الله التوفيق والإعانة على إتمامه)

فهرس المجلد الثامن من البداية والنهاية

﴿ تم الفهرس ﴾